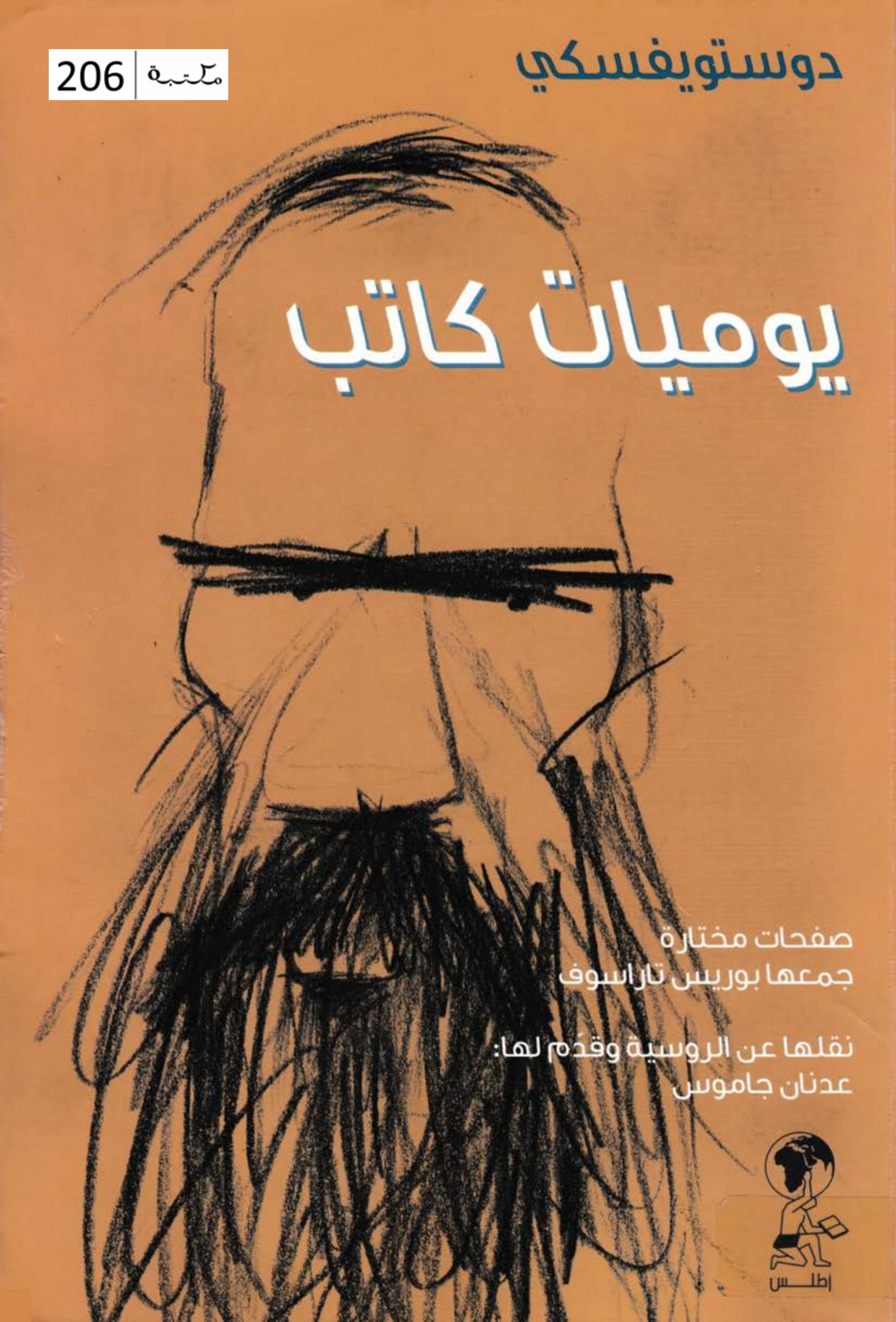


مكتبة 206
دوستويفسكي
يوميات كاتب
صفحات مختارة
جمعها بوريس تاراسوف
نقلها عن الروسية وقدّم لها:
عدنان جاموس
أطلس

يوميات كاتب

صفحات مختارة

فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي

يوميات كاتب

صفحات مختارة

جمعها بوريس تاراسوف

نقلها عن الروسية وقدم لها : عدنان جاموس

Ф. М. ДОСТОЕВСКИЙ
ДНЕВНИК ПИСАТЕЛЯ
ИЗБРАННЫЕ СТРАНИЦЫ
СОВРЕМЕННИК - МОСКВА 1989

يوميات كاتب، صفحات مختارة

فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي

جمعها بوريس تاراسوف

نقلها عن الروسية وقدم لها: عدنان جاموس

الإخراج الفني: فايز علام - نادر عيسى

تصميم الغلاف: يوسف عبدلكي

الطبعة الأولى - 2017

ISBN: 978-9933-9242-1-8

فهرس المحتويات

مقدمة المترجم

عندما دخلت مبنى «دار الكتاب الموسكوفية» الضخم كان أقصى ما آمله هو العثور على عمل إبداعي حديث يعبّر عن روح العصر في روسيا، التي كانت قد غمرتها مؤخراً أعنف موجة تغيير في تاريخ العالم المعاصر، ويكون جديراً بتكريس الوقت مهما طال، وبذل الجهد مهما عظم، من أجل ترجمته إلى اللغة العربية.

وفجأة لفت نظري عنوان كتاب ليس قديماً من حيث تاريخ الصدور، ولكنه قديم من حيث المضمون، بيد أنه أنساني كل ما كنت أُمَنّي النفس به، وأيقنت على الفور بأنني مهما بحثت الآن في أرجاء المكتبة الضخمة، بطابقيها الواسعين، وأقسامها المتعددة، لن أجد ما هو أكثر قيمة من هذا الكتاب، وأجدر منه ببذل الجهد لترجمته إلى العربية. وتتأتى قيمته من أنه يجمع في مجلد واحد «صفحاتٍ مختارةً» من «يوميات كاتب» التي تملأ بنصوصها الأصلية، والتعليقات عليها مع هوامشها وحواشيها أكثر من ستة مجلدات ثخينة في مجموعة أعمال دوستويفسكي الكاملة.

وعادت إلى ذاكرتي في تلك اللحظة إجابة أحد الشعراء الروس المعاصرين المشهورين، عندما سأله كاتب سوري، في ندوة أدبية عقدت في دمشق، عن الأديب الروسي المعاصر الذي يقرأ له الآن، فقال: «إنه دوستويفسكي». ورداً على استغراب السائل وتأكيده أنه يقصد بسؤاله الكتّاب المعاصرين بالذات، أجابه الشاعر بثقة: «وهل هناك من هو أكثر معاصرةً لنا من دوستويفسكي؟».

ومما زادني يقيناً بأنني عثرت على بغيتي حقاً، وبأن محتوى الكتاب، الذي كتبت نصوصه منذ ما يزيد عن قرن وربع القرن، ليس بعيداً عن روح العصر، تلك العبارات التي قدم بها الناشر الكتاب للقراء منوِّهاً بأن الصفحات المختارة من مواد «اليوميات» البالغة التنوع والاتساع هي تلك التي تتناول الموضوعات الأكثر أهمية بالنسبة إلى القارئ المعاصر.

وعند مراجعتي «اليوميات» كما وردت في مجموعة أعمال دوستويفسكي الكاملة وجدت أن المشرف على إعداد «الصفحات المختارة» بوريس تاراسوف، وهو من كبار المختصين بدراسة آثار دوستويفسكي، قد بذل جهداً كبيراً في انتقاء المواد التي تهم القارئ الروسي، ولكنه أغفل فصلاً ربما وجد أن مضمونه لا ينسجم مع التوجهات الإيديولوجية التي تحدد النهج المعتمد في بناء العلاقات بين مختلف مكونات المجتمع الروسي، وهو فصل «المسألة اليهودية» الذي يهم القارئ المعاصر في رأيي، لا في الاتحاد الروسي فحسب، ولا في الوطن العربي فقط، بل في العالم بأسره. ولذا فقد أضفته إلى «الصفحات المختارة» في المكان نفسه الذي ورد فيه في الأصل؛ وحذفت بالمقابل بعض الصفحات التي تتناول موضوعات شديدة الخصوصية، وتحتاج إلى إضافة هوامش وحواشي عديدة لإيضاح محتواها.

كما أغفل الباحث بوريس تاراسوف أيضاً الأقاصيص الإبداعية التي تضمنتها اليوميات مثل: «حبة الفول» و«طفل عند المسيح في عيد الميلاد»، و«العجوز ذات المئة سنة» و«الوديعة»، و«حلم رجل مضحك»، وهي أقاصيص نقلها إلى العربية أكثر من مترجم، وصدرت غير مرة.

ومن الطريف أن بعض المثقفين الروس المعاصرين لدوستويفسكي كانوا يرون أن تجلي عبقريته في «يومياته» يفوق تجليها في «أعماله الإبداعية»؛ ومن هؤلاء، على سبيل المثال، الشخصية الاجتماعية الشهيرة آنذاك، والناشطة في النضال من أجل حقوق المرأة يلينا أندرييفنا شتاكينشنايدر (1836-1897) التي كانت تربطها بدوستويفسكي وأسرته أواصر صداقة متينة، ومشاعر إعجاب واحترام متبادلين. وهي تقول في مذكراتها: «...إن سبب شهرة دوستويفسكي لا يعود إلى سجن الأشغال الشاقة، ولا إلى «مذكرات من بيت الأموات» ولا حتى إلى رواياته، أو على الأقل، لم تكن هي السبب الرئيس في شهرته، بل كان السبب هو «يوميات كاتب»، التي جعلت اسمه معروفاً في روسيا بأسرها، وجعلته نفسه «معلّم» الشبيبة و«معبودها»، وليس الشبيبة فحسب، بل جميع الذين تعذبهم الأسئلة «الرجيمة» حسب تعبير «هايني».

ثم تقول في معرض مقارنتها بين دوستويفسكي وتورغينف: «... قراءة تورغينف - متعة، وقراءة دوستويفسكي جهد، وجهد جاهد ومثير للأعصاب... عندما تقرأ دوستويفسكي تشعر كأنك قد وصلت فجأة، بعد أن اجتزت طريقاً متعباً، إلى غرفة لا تعرفها، وأناس لا تعرفهم، وكل هؤلاء الناس يتزاحمون من حولك، ويتكلمون ويتحركون ويروون أشياء في منتهى الغرابة، ويقومون بأفعال مفاجئة للغاية، ومع أن سمعك وبصرك يبلغان أعلى درجات التوتر، لكنك غير قادر على ألّا تنظر وألّا تصغي: فكل واحد منهم يهمُّك أمره، وليس بمقدورك أن تنفصل عنهم. في حين أنك عندما تقرأ تورغينف (وحتى روايته «دخان» ولكن ليس «الأرض

البكر»، بالطبع) تشعر كأنك تحتسي ماءً زلالاً. بيد أنك، وسط تلك الزحمة في روايات دوستويفسكي، تعثر على دُرر منثورة لم يكن لتورغينف أن يحلم بمثلها. ولكن هذه الدرر يجب ألا ننسبها إلى دوستويفسكي الروائي، بل إلى دوستويفسكي المعلّم. وهي منثورة بكثافة أكبر في «يوميات كاتب»...

إن هذه الآراء تظل، بالطبع، مجرد انطباعات شخصية لا ترقى إلى مصاف الأحكام النقدية المعللة موضوعياً، ولكنها مع ذلك تعطي فكرة واضحة عن الأثر العميق الذي كانت تحدثه «يوميات كاتب» في نفوس القراء الروس آنذاك، فكاتبة المذكرات كانت تربطها بمثقفي تلك الحقبة صلات وثيقة، وكان منزلها في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر أشبه بصالون أدبي يرتاده كبار الأدباء والفنانين بمن فيهم دوستويفسكي، وتجري فيه قراءات ونقاشات ومناظرات أدبية ونقدية وفكرية، مما يجعلنا نعتقد أن آراءها تعبّر عن مزاج شريحة واسعة من المثقفين الروس في تلك الحقبة.

إذاً فهذا الكتاب الذي يتضمن خلاصة خبرة غنية اكتسبها مبدع فذ خلال مسيرته الحياتية بكل ما فيها من محن قاسية وصدامات عنيفة، وزلات مخزية، ومواقف نبيلة، وإنجازات إبداعية مبهرة، يستأهل حقاً تكريس الوقت وبذل الجهد لنقله إلى العربية. وكان لا بد لي في أثناء الترجمة من أن أُعنى بتحديد مضمون المصطلحات التي أستعملها وتوحيدها ما أمكن ذلك، من أجل نقل محتوى الأصل بأقصى قدر ممكن من الأمانة والدقة، لا بمعنى النقل الحرفي الذي يشوّه معنى الأصل ومبنى الترجمة على حد سواء، بل بمعنى توضيح الفحوى بكامل أبعاده وظلاله الدقيقة. وقد وجدت في أثناء ذلك أنه لا مناص من العودة إلى جميع التعليقات والهوامش الموجودة في مجموعة الأعمال الكاملة؛ إذ إن ما ورد منها في كتاب «الصفحات المختارة» موجه إلى القارئ الروسي، الذي يعرف بحكم ثقافته وقراءاته الكثير من خلفيات الموضوعات والأحداث التي يجري الحديث حولها في متن الكتاب. وقد اخترت من تلك التعليقات والهوامش ما هو ضروري لإيضاح المقصود للقارئ العربي وذيلته بحرف (ن) إشارة إلى ناشر مجموعة الأعمال الكاملة؛ وأضفت إلى هذه الهوامش عند الضرورة، بعض المعلومات التي تزيد المقصود وضوحاً مذيلة بحرف (م). وعمدت في أحيان نادرة إلى إضافة بعض الكلمات أو العبارات الموجزة إلى متن النص تجنباً للبس، ووضعت هذه الإضافات بين قوسين معقوفين [ ].

وقد وجدت أن من المناسب تقديم سيرة دوستويفسكي في سطور موجزة توخيت أن تكون المعلومات والتواريخ الواردة فيها دقيقة وموثوقة، واعتمدت في انتقائها على مصادر ومراجع متعددة ذات صبغة أكاديمية ومقصد توثيقي محض.

ولاحظت في أثناء ذلك أن عناوين أعمال دوستويفسكي الإبداعية قد تعددت ترجماتها إلى العربية إلى حدٍّ أن عنوان عمل واحد بعينه يترجم بخمسة أو ستة أشكال أحياناً. فالقصة التي عنوانها «المِثل» عند د. سامي الدروبي، نراها تتخذ في دراسات مترجمة إلى العربية عن أعمال دوستويفسكي عناوين أخرى مختلفة منها: «القرين»، و«الشبيه»، و«البديل» و«الضِّعف» و«المزدوج» إلخ...، ورواية «الشياطين» (لدى د. الدروبي) يصبح عنوانها لدى آخرين: «الجن»، و«الأبالسة»، و«الممسوسون» و«المهووسون» إلخ...، ورواية «الأبله» يصبح عنوانها: «المعتوه» و«الأهبل»، و«الساذج» و«العبيط!» وما شابه ذلك. وبما أن العناوين التي اعتمدها د. الدروبي هي الشائعة والمألوفة لدى القارئ العربي فقد ارتأيت أن أعتمدها في «سطور السيرة» وفي ترجمة «اليوميات»، إلّا في الحالات النادرة التي يبتعد فيها العنوان لدى د. الدروبي عن الأصل الروسي كعنوان: «مذكرات من تحت الأرض» الذي يترجمه د. الدروبي عن الفرنسية بعبارة «في قبوي»، ويترجمه آخرون بـ: «في سردابي»، و«مذكرات كتبت في سرداب» و«في السرداب» إلخ...

والأمر نفسه ينطبق على تسميات الصحف المترجمة عن الروسية، فصحيفة «روسكي ڤيسنك» على سبيل المثال، تترجم إلى العربية بأشكال مختلفة مثل: «البشير الروسي»، و«الرسول الروسي» و«المراسل الروسي» و«الساعي الروسي» إلخ... في حين أن معنى كلمة «ڤيسنك» الدقيق هو «المخبر» أو «ناقل الخبر» عموماً وليس الخبر السّار بالذات، ومع ذلك فقد آثرت استعمال التسمية الأولى أي «البشير الروسي» دفعاً للبس في فهم المعنى المقصود ولشيوع هذه التسمية في أغلبية النصوص المترجمة عن الروسية.

وكذلك فإن المعنى الدقيق لصحيفة «نوڤويه فريميا» هو «الوقت الجديد» ولكنني آثرت أن أسميها «الأزمنة الحديثة» لشيوع هذه التسمية في العديد من الترجمات.

وقد حرصت على أن أتجنب في الترجمة استعمال الكلمات والعبارات التي تعد من الأخطاء الشائعة أو من الألفاظ العامية باستثناء تلك التي أصبح شيوعها طاغياً إلى الحد الذي يجعلها مستساغة ولا تسبب أي لبس في فهم المعنى مثل: «استهتار» و«مستهتر» و«اللهفة» و«التلهُّف» و«بالنسبة إلى» و«ينبغي» بمعنى «يجب»، و«بالمرّة» بمعنى «على الإطلاق» و«يُمَنِّن»، ولم ألجأ إلى استعمالها إلّا إذا كان السياق يستدعيها لتؤدي المعنى المطلوب بالذات، وتسمح بتفادي تكرار ألفاظ بعينها إلخ...

وقد وردت في بعض النصوص عبارات باللغة الفرنسية مشفوعةً بترجمة الكاتب نفسه أو ترجمة الناشر لها إلى الروسية، وترجمت أنا هذه العبارات من اللغة الروسية لا من الأصل

الفرنسي؛ أما الاستشهادات المقتبسة من الكتاب المقدس فقد نقلت نصوصها نقلاً من الترجمات العربية المعتمدة بعد مقارنتها بالنص الروسي واختيار أقربها إليه. وأشير في الختام إلى أن ترجمة «اليوميات» لم يكن بالأمر السهل؛ إذ إن الكاتب كان يلقي الضوء فيها على أحداث وظواهر راهنة يعرف قارئه الكثير من تفاصيلها، ويمكنه أن يفطن بسهولة إلى حقيقة ما يقصد إليه الكاتب حتى إذا كان ظاهر الكلام يوهم بالاحترام والاستحسان وباطنه يتضمن السخرية والاستهجان؛ ويستطيع قارئه أن يخمن الشخصيةَ التي يتحدث عنها الكاتب مغفلاً اسمها، والآراء التي يفندها من دون أن يوردها بنصها. ويتخذ أسلوب الكاتب في أحيان كثيرة طابع الحديث الشفهي الذي يتسم أحياناً بالحماسة والاندفاع فتتكرر فيه بعض الألفاظ على نحو يتطلب من المترجم إعادة صياغة الجملة مرات عديدة إلى أن تستقيم وتصبح متماسكة ومستساغة. فثمة كلمات تتكرر في السطر الواحد ثلاث مرات أحياناً ككلمة «حتى» العاطفة التي ترد عادة في جملٍ حُذِفَ منها المعطوف عليه لأنه مفهوم من السياق. وكلمة «تقريباً» وكلمة «فجأة» إلخ... وهذا التكرار المتواتر المستساغ في سياقه الأصلي، الذي يتخذ طابع الحديث الشفهي يتطلب في الترجمة معالجة خاصة من أجل العثور على صيغ تسمح بتفادي التكرار إذا كان يسبب ركاكة في سبك الجملة، وتنقل في الوقت نفسه كامل الشحنة التعبيرية التي تتضمنها العبارة ضمن سياقها الأصلي. وكان الهدف الرئيس في أثناء ذلك أن تأتي الترجمة مكافئة للأصل لا تنقص عنه ولا تزيد عليه، وفق مبدأ «لا فاقد ولا فائض»، وذلك انطلاقاً من الإيمان بأن الترجمة أمانة مزدوجة؛ ومن لا يُؤدِّها بتمامها عن عجز أو تهاون، يخُن مرسلها ومتلقيها على حد سواء. وعندما يتصدى المترجم لنقل أثرٍ قيّمٍ لكاتب عبقري، أثّر في ثقافة شعبه وفي تكوين شخصية الإنسان في أمته، عليه أن يشعر بوقر المسؤولية وثقل الأمانة التي ينتدب نفسه لأدائها. ويجب إلّا يغرب عن باله وعن ضميره أن القرّاء من أبناء أمته يأتمنونه على نقل ما أبدعه هذا الكاتب العبقري إلى لغتهم ليتعرفوا الجديد الذي أضافه إلى الثقافة الإنسانية، ولينتقوا من محتويات الخزانة الفكرية المعروضة أمامهم ما يمكن أن يغني ثقافتهم وهم واثقون بأن كل ما في هذه الخزانة لم يتغير فيه إلّا شكله، أما محتواه فقد نقل إلى شكله الجديد بكل ما يحوزه من قيمةٍ وما يتسم به من أصالة.

عدنان جاموس

دمشق 2016

سيرة دوستويفسكي في سطور

عام 1821

– 30 تشرين الأول (أكتوبر): وُلد فيودور دوستويفسكي في الجناح الأيمن الملحق بمستشفى الفقراء المارياني* في موسكو، حيث يعمل أبوه طبيباً. وكان أبوه ميخائيل اندرييفتش (المولود في عام 1789) قد غادر بيت أهله في أكرانيا وتوجه إلى موسكو في عام (1809)، وانتسب إلى القسم الموسكوفي في أكاديمية الطب والجراحة الامبراطورية، ثم أوفد من هناك للعمل في مستشفيات مختلفة، وعيّن في عام (1818) طبيباً مقيماً في مستشفى موسكو العسكري، وتزوج في عام (1819) ماريا نيتشايفا المولودة في عام (1800)، وهي ابنة تاجر موسكوفي؛ وقد رزقا بابنهما البكر ميخائيل في عام (1820). وعيّن الأب في عام (1821) طبيباً في مستشفى الفقراء المارياني التابع لـ «دار التربية الموسكوفية».

عام 1822

– وُلدت أخت الكاتب الكبرى فارفارا.

عام 1823

– انتقلت الأسرة إلى الجناح الأيسر الملحق بالمستشفى والذي أُقيم فيه فيما بعد متحفٌ لدوستويفسكي.

عام 1825

– وُلد أخوه أندريه.

(*) نسبة إلى الامبراطورة ماريا فيودورفنا (1759– 1828).زوجة الامبراطور بافل الأول (1754– 1801) التي أنشأت عدداً من المؤسسات الماريانية الخيرية والتربوية.

عام 1829

- وُلدت أختاه التوأم فيرا ولوبوف (وماتت لوبوف بعد أيام).

عام 1831

- وُلد أخوه الأصغر نيكولاي، وكان أبوه قد اشترى في هذا العام ضيعة «داروفويِه» الصغيرة في مقاطعة «تولسك» المجاورة، ثم اشترى في عام (1832) ضيعة «تشيرماشينا» التي تقع بالقرب من الأولى، وتبعد الضيعتان عن موسكو نحو (160) كم، وتزيد مساحتهما عن (700) هكتار، ويعيش ويعمل فيهما نحو مئة فلاح من الأقنان؛ وقد أصبحت الأم تنتقل إلى هناك مع الأبناء في فصل الصيف، وينضم الأب إليهم في أوقات العطل.

عام 1833

- سُجّل ميخائيل وفيودور في مدرسة ف.اي. دراشوسوف الإبتدائية.

عام 1834

- انتقل الأخوان إلى مدرسة ل.اي.تشيرماك الثانوية المسكوفية الخاصة.

عام 1835

- وُلدت الأخت الصغرى الكساندرا.

عام 1837

- 27 شباط (فبراير): توفيت والدته ماريا فيودوروفنا.

- أيار (مايو): انتقل الأخوان ميخائيل وفيودور إلى العاصمة بطرسبورغ من أجل الانتساب إلى كلية الهندسة العسكرية، وتمهيداً لذلك انتسبا إلى مدرسة الكابتن ك. ف. كوستوماروف التأهيلية.

- 1 تموز (يوليو): استقال الأب من الخدمة وانتقل للإقامة في ضيعته الخاصة «داروفويه».

عام 1838

- 16 كانون الثاني (يناير): انتسب فيودور إلى كلية الهندسة العسكرية، ولم يتسنَّ لأخيه الأكبر ميخائيل الانتساب إليها فسافر في حزيران (يونيو) إلى مدينة رِيفِل (تالين حالياً)

للالتحاق بكلية الهندسة هناك. وكتب له أخوه فيودور في التاسع من آب (أغسطس) أنه في حالة نفسية سيئة، وأنه منصرف الآن إلى قراءة أعمال أدباء أوربيين (هوفمان، وبلزاك، وغوته، وهوغو، وآخرين).

عام 1839

– حزيران (يونيو): لقي الأب مصرعه بأيدي ثلة من الفلاحين الأقنان الذين يعملون في أرضه بسبب سوء معاملته لهم.

– 29 تشرين الثاني (نوفمبر): ردّت هيئة شؤون النبلاء على سؤال مديرية التفتيش عن الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها فيودور ميخائيلوفتش دوستويفسكي بأنه «ينتمي إلى فئة النبلاء».

عام 1840

– كانون الثاني (يناير): أرسل إلى أخيه ميخائيل رسالة يذكر له فيها آراءه في أعمال شيلّر، وهوميروس، وكتّاب التراجيديا الفرنسيين.

عام 1843

– 12 آب (أغسطس): أنهى الدراسة في الكلية وفُرز إلى الفيلق الهندسي التابع للقيادة الهندسية البطرسبورغية، وبدأ الخدمة الفعلية في مديرية الرسم الهندسي.

– ترجم في عطلة أعياد الميلاد رواية بلزاك «أوجين غرانديه».

عام 1844

– شباط (فبراير): تخلى عن حقوقه الوراثية في ملكية الأرض والفلاحين الأقنان لقاء مبلغ ليس كبيراً يدفع له بكامله دفعة واحدة.

– النصف الأول من العام: عكف على ترجمة قصة جورج صاند «ألديني الأخيرة».

– أيلول (سبتمبر): قدّم طلب استقالة من الخدمة.

– 30 أيلول (سبتمبر): كتب لأخيه ميخائيل أنه ينهي الآن كتابة رواية بحجم رواية «أوجين غرانديه» (المقصود رواية «الناس الفقراء» أو «المساكين»).

– 19 تشرين الأول (أكتوبر):صدر أمرٌ سامٍ بإعفاء الملازم المهندس الميداني فيودور دوستويفسكي من الخدمة برتبة ملازم أول.

- الخريف: تعرف على الكاتب دميتري غريغوروفتش وسكن وإياه في شقة واحدة.

- كانون الأول (ديسمبر): أعاد كتابة رواية «الناس الفقراء».

عام 1845

- شباط (فبراير): أعاد كتابة رواية «الناس الفقراء» من جديد.

- نيسان (أبريل): أعاد كتابة الرواية للمرة الأخيرة مع إدخال تعديلات جذرية.

- أيار (مايو): قرأ المخطوطة لغريغوروفتش، فأخذها هذا لتوه وذهب ليقرأها ليلاً مع الشاعر نيكولاي نكراسوف، وعاد الاثنان في الساعة الرابعة فجراً لزيارة دوستويفسكي كي يعبّرا له عن إعجابهما الشديد بالرواية. وفي صباح اليوم التالي سلم نكراسوف المخطوطة للناقد الشهير فيسّاريون بيلينسكي؛ فدعا هذا دوستويفسكي لزيارته وأبدى له إعجابه بموهبته.

- الخريف: بدأ بكتابة قصة «المِثْل» وتكررت زياراته لبيلينسكي.

- تشرين الثاني (نوفمبر): عاد إيفان تورغينيف من فرنسا إلى بطرسبورغ وتعرف إلى دوستويفسكي.

- كتب قصة «رواية في تسع رسائل» خلال ليلة واحدة وسلمها إلى نكراسوف لينشرها في مجلة «المذكرات الوطنية».

- 15 تشرين الثاني (نوفمبر): زار للمرة الأولى الكاتب إيفان بَنايِف، وكتب لأخيه ميخائيل في اليوم التالي عن هذه الزيارة وعن أنه ربما يكون قد وقع في حب الزوجة أفدوتيا بَنايِفا.

عام 1846

- 15 كانون الثاني (يناير): صدرت «المجموعة البطرسبورغية» متضمنةً رواية دوستويفسكي «الناس الفقراء».

- 28 كانون الثاني (يناير): أنهى كتابة قصة «المِثْل - مغامرات السيد غوليادْكِن».

- 1 شباط (فبراير) صدرت مجلة «المذكرات الوطنية» متضمنة قصة «المِثْل».

- الربيع: التقى عرضاً ميخائيل بيترشيفسكي أول مرة.

- الصيف: عمل على كتابة قصة «السيد بروخارتشين».

- 5 تشرين الأول (أكتوبر): صدرت مجلة «المذكرات الوطنية» متضمنة قصة «السيد بروخارتشين».

- تشرين الأول - تشرين الثاني (أكتوبر - نوفمبر): بدأ بكتابة قصة «المؤجِّرة» («الجارة»)، وحدد فكرة رواية «نيتوتشكا نيزفانوفا».

- كانون الأول (ديسمبر): انصرف إلى كتابة رواية «نيتوتشكا نيزفانوفا».

عام 1847

- كانون الثاني (يناير): نشرت مجلة «المعاصر» قصة: «رواية في تسع رسائل» في باب «منوعات».

- كانون الثاني (يناير) - نيسان (أبريل): برز خلاف بينه وبين بيلينسكي «بسبب اختلاف الآراء حول مفهوم الأدب والتوجه (الالتزام) الأدبي»، وانتهى الخلاف بينهما إلى القطيعة.

- آذار (مارس): بدأ دوستويفسكي يزور بيترشيفسكي ويحضر الاجتماعات التي تُعقد في منزله في أيام الجُمَع.

- الخريف: انتقل أخوه الأكبر ميخائيل من مدينة ريفِل إلى العاصمة بطرسبورغ للإقامة الدائمة فيها.

- صدرت رواية «الناس الفقراء» في طبعة مستقلة.

- تشرين الأول (أكتوبر) وكانون الأول (ديسمبر): نُشرت قصة «المؤجِّرة» («الجارة») في العددين العاشر والثاني عشر من مجلة «المذكرات الوطنية».

عام 1848

- كانون الثاني (يناير): نُشرت أقصوصة «زوجة آخرَ، مشهد شارعيّ»* في العدد الأول من مجلة «المذكرات الوطنية».

- شباط (فبراير): نُشرت قصة «قلب ضعيف» في العدد 2 من مجلة «المذكرات الوطنية».

- شباط (فبراير): طُبعت أقصوصة «بولزونكوف» (المهرج) في «المجموعة المصورة» التي كان يصدرها بَنايِف ونكراسوف، ولكن المجموعة لم تصدر، وقد ألحقت زوجةُ الكاتب آنا دوستويفسكايا هذه الأقصوصة بالمجلد الأول من «مجموعة الأعمال الكاملة» الذي صدر في عام 1882.

(*) عمد الكاتب عند إعداد مجموعة أعماله للنشر في عام 1860 إلى دمج أقصوصَتي: «زوجةآخرَ...» و«الزوج الغيور...» في قصة واحدة بعنوان: «زوجة آخر والزوج تحت السرير» مع إجراء التعديلات المناسبة.

- نيسان (أبريل): نُشرت «قصص شخص مُحنّك (من مذكرات مجهول) 1. المتقاعد، 2. اللص الشريف» في العدد الرابع من مجلة «المذكرات الوطنية».

- 26 أيار (مايو): الساعة السادسة صباحاً توفي بيلينسكي. وعندما زار دوستويفسكي صديقه الدكتور ستيبان يانوفسكي في صباح ذاك اليوم قال له بأسى: «عزيزي، مصيبة كبيرة وقعت. مات بيلينسكي». (ويذكر هذا الطبيب في مذكراته أن إصابة دوستويفسكي بالصرع بدأت في عام 1846 ولكن النوبات آنذاك كانت خفيفة، وأن أول نوبة قوية أصيب بها كانت في تموز(يوليو) عام1847، والثانية عند سماعه نبأ وفاة بيلينسكي، ثم اشتدت النوبات في سجن الأشغال الشاقة. وثمة من يزعم أنه أصيب بهذا المرض عند سماعه نبأ مقتل أبيه عام 1839؛ في حين أن أخاه الأصغر يقول إن شقيقه فيودور أصيب بهذا المرض وهو في السجن).

- الخريف: جرى تقارب بين دوستويفسكي وبيترشيفسكي وسبيشنيف، واطلع دوستويفسكي عن كثب على أفكار الاشتراكية الطوباوية.

- أيلول (سبتمبر): نُشرت قصة «شجرة عيد الميلاد والعرس» في العدد التاسع من مجلة «المذكرات الوطنية».

- كانون الأول (ديسمبر): نُشرت قصة «الليالي البيضاء» وأقصوصة «الزوج الغيور. حادثة غير عادية»* في العدد الثاني عشر من مجلة «المذكرات الوطنية».

عام 1849

- كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير): نشرت مجلة «المذكرات الوطنية» الجزأين الأول والثاني من قصة «نيتوتشكا نيزفانوفا».

- من أوائل آذار (مارس) حتى أواسط نيسان (أبريل): شارك دوستويفسكي مشاركة فعالة في الاجتماعات التي كانت تُعقد كل سبت عند سيرغي دوروف والكسندر بالم البيترشيفسكيِّين.

- 15 نيسان (أبريل): قرأ دوستويفسكي في اجتماع عند بيترشيفسكي «رسالة بيلينسكي إلى غوغول» التي أرسلها بليشييف من موسكو وتسلمها دوستويفسكي من دوروف.

- 23 نيسان (أبريل): عاد دوستويفسكي من أحد الاجتماعات إلى شقته في الساعة الرابعة فجراً، وما كاد يغفو حتى دهمت الشقة ثلة من رجال الدرك والشرطة الذين اعتقلوه بتهمة مشاركته في نشاطات جمعية ثورية تسعى لتغيير نظام الحكم، وصادروا كل كتبه وأوراقه،

(*) انظر الهامش السابق.

واقتادوه إلى مقر «الشعبة الثالثة»، ومن ثم نُقل مساء إلى قلعة بيتروبافلوفسك (بطرس وبولس)، وسُجن في حصن اليكسييفك.

– 28 نيسان (أبريل): سمحت «الشعبة الثالثة» لناشر مجلة «المذكرات الوطنية» أندريه كرايفسكي بإصدار عدد أيار متضمناً الجزء الثالث من قصة دوستويفسكي «نيتوتشكا نيزفانوفا» ولكن من دون توقيع. مكتبة أحمد

– 6 أيار (مايو): استجوبته لجنة التحقيق كتابياً استجواباً أولياً.

– 14 أيلول (سبتمبر): أرسل من القلعة إلى أخيه أنه تسلّم الكتب (شكسبير، الكتاب المقدس، «المذكرات الوطنية»).

– 30 أيلول (سبتمبر): بدأت محاكمة البيترشيفسكيين.

– 16 تشرين الثاني (نوفمبر): انتهت المحاكمة، وصدر الحكم القضائي على دوستويفسكي وآخرين بالإعدام رمياً بالرصاص.

– 19 تشرين الثاني (نوفمبر): ارتأى رئيس المحكمة العسكرية أن يقتصر الحكم على تجريد الملازم الأول المستقيل فيودور دوستويفسكي من جميع حقوقه الوضعية، وإرساله إلى منفى الأشغال الشاقة لمدة ثماني سنوات؛ ولكن توقيع القيصر نيكولاي الأول قضى بأن تكون مدة النفي «أربع سنوات»، ثم الخدمة جندياً عادياً.

– 22 كانون الأول (ديسمبر): الساعة السابعة صباحاً: نُقل المعتقلون في عربات مغلقة إلى ساحة سيميونوفسكايا المخصصة للتدريبات والعروض العسكرية، وتُلي الحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص، ورُبط أفراد المجموعة الأولى الثلاثة بالأعمدة (دوستويفسكي في المجموعة الثانية)، وأعطي الأمر بإطلاق النار، ثم ألغي الأمر، وتُلي إيعاز القيصر، «الذي وصل للتو»، بإعفاء المعتقلين من حكم الإعدام، والحكم عليهم بالنفي إلى سجون الأشغال الشاقة. وأعيد المعتقلون إلى قلعة بيتروبافلوفسك.

– 23 أو24 كانون الأول (ديسمبر): صودرت من زنزانة دوستويفسكي أوراق كان قد كتب عليها خططاً لروايةٍ ومسرحيةٍ وأقصوصة بعنوان «حكاية طفلية» (سماها فيما بعد «البطل الصغير»).

– 24 كانون الأول (ديسمبر): التقى أخاه ميخائيل وودعه. غادر القلعة ليلاً بعد أن قيدت قدماه بالسلاسل، وجلس في الزحافة المتجهة إلى مدينة توبولسك في جو صقيعي قارس تصل درجة الحرارة فيه في بعض المناطق على الطريق، إلى الأربعين تحت الصفر.

عام 1850

– 9 كانون الثاني (يناير): تم إيصال كل من دوستويفسكي ودوروف وياسترجيمبسكي إلى توبولسك، واحتجزوا في سجن المعتقل الانتقالي. وقابلوا في منزل آمر السجن بعض زوجات «الديسمبريين» اللواتي توسلن إلى الآمر أن يسمح لهن بهذا اللقاء، وأهدى هؤلاء إلى كل من المعتقلين نسخة من الكتاب المقدس خبّأن داخل غلافها نقوداً.

– 16 كانون الثاني (يناير): غادر المعتقلان دوستويفسكي ودوروف توبولسك باتجاه أومسك.

–23 كانون الثاني (يناير): وصل دوستويفسكي إلى سجن الأشغال الشاقة في قلعة أومسك، وبقي فيها حتى أواسط شباط عام 1854.

عام 1854

– آذار (مارس): تم نقل دوستويفسكي تحت الحراسة إلى منفاه في مدينة سيميبَلاتينسك السيبيرية (في كازخستان)، وأُلحق بالسرية الأولى في الكتيبة المحلية ليخدم فيها بصفة جندي عادي مدة ست سنوات.

– الربيع: انكب على مطالعة الأعمال الأدبية الجديدة، وتعرف على الموظف الكسندر ايسايف وزوجته ماريا، وأخذ يدرِّس ابنهما الوحيد بافل ذا السنوات التسع.

– 20 تشرين الثاني (نوفمبر): وصل إلى مدينة سيميبَلاتينسك النائب العام في المقاطعة البارون الشاب الكسندرفرانغيل.

– 21 تشرين الثاني (نوفمبر): وجّه فرانغيل دعوة إلى دوستويفسكي لزيارته وسلمه نقوداً ورسائل من ذويه، وارتبط معه بعد ذلك بأواصر صداقة متينة.

عام 1855

– أوائل العام: توطدت علاقته بأسرة الموظف إيسايف المريض بالسل، ووقع في غرام زوجته ماريا.

– أيار(مايو): نُقل إيسايف من سيميبَلاتينسك إلى مدينة كوزنيتسك.

– 4 آب (أغسطس): توفي الكسندر إيسايف في كوزنيتسك وأخذت أرملته ماريا تراسل دوستويفسكي طلباً للمساعدة.

– 14 و23 آب (أغسطس): وجه دوستويفسكي رسالتين إلى فرانغيل، الذي كان قد نُقل إلى مدينة بارنؤول، يرجوه فيهما مساعدة ماريا إيسايفا مالياً.

– 20 تشرين الثاني (نوفمبر): رُفّع دوستويفسكي إلى رتبة صف ضابط. ويبدأ في هذا العام بكتابة «ذكريات من بيت الأموات».

عام 1856

– 1 تشرين الأول (أكتوبر): صدر أمر بترفيع دوستويفسكي إلى رتبة ملازم ثان لتميزه في الخدمة.

عام 1857

– 1 شباط (فبراير): سُمح للملازم الثاني فيودور دوستويفسكي بالزواج من الأرملة ماريا إيسايفا.

– 6 شباط (فبراير): كُلّل دوستويفسكي وإيسايفا في مدينة كوزنيتسك.

–20 شباط (فبراير): عاد الزوجان إلى سيميبَلاتينسك بعد مرورهما بمدينة بارنؤول، حيث يقيم فرانغيل، وأصيب دوستويفسكي هناك بنوبة صرع شديدة، ومكثا في المدينة أربعة أيام.

– 17 نيسان (أبريل): صدر قرار بإعادة تصنيف دوستويفسكي في فئة النبلاء.

– آب (أغسطس): نشرت مجلة «المذكرات الوطنية» في عددها الثامن بتوقيع «م.أي» أقصوصة «البطل الصغير» (وهي نفسها أقصوصة «حكاية طفلية» التي كتبها دوستويفسكي في صيف 1849في قلعة بيتروبافلوفسك).

– 16 كانون الأول (ديسمبر): وضع الطبيب العامل في الكتيبة السيبيرية تقريراً يذكر فيه أن الملازم الثاني فيودور دوستويفسكي كان قد أصيب في عام 1850 بنوبة صرع، وعاودته النوبة في عام 1853، ثم أصبحت تتكرر في نهاية كل شهر، ولهذا السبب لا يستطيع الاستمرار في الخدمة.

عام 1858

– 16 كانون الثاني (يناير): قدم دوستويفسكي التماساً لتسريحه من الخدمة العسكرية.

– 31 أيار (مايو): كتب لأخيه ميخائيل عن أنه يكتب الآن قصتين هما: «حلم العم» و«قرية ستيبانتشيكوفو».

عام 1859

– آذار(مارس): نشرت مجلة «الكلمة الروسية» في عددها الثالث قصة «حلم العم».

– 18 آذار (مارس): استقال دوستويفسكي من الخدمة العسكرية برتبة ملازم.

– 24 آذار (مارس): صدر أمر بوضعه قيد المراقبة السرية.

– 2 تموز (يوليو): غادر سيميبَلاتينسك متوجهاً إلى مدينة تـڤير، التي سُمح له بالإقامة فيها.

– نحو 19 آب (أغسطس): وصل إلى تـڤير مع زوجته ماريا وربيبه بافل، بعد توقفهم في عدة مدن على الطريق.

– 25 تشرين الثاني (نوفمبر): أبلغه محافظ مدينة تـڤير صدور «سماحٍ سامٍ» من القيصر ألكسندر الثاني بالإقامة في العاصمة بطرسبورغ.

– بعد 16 كانون الأول (ديسمبر): انتقل دوستويفسكي من تـڤير إلى بطرسبورغ.

عام 1860

– كانون الثاني (يناير): صدرت مجموعة أعماله في مجلدين.

– نيسان (أبريل): عرض «صندوق الأدباء» مسرحية غوغول «المفتش العام» لأهداف خيرية، وأدّى فيها دوستويفسكي دور مدير مكتب البريد «شبيكين»، بينما أدى تورغينف دور أحد التجار.

– 8 تموز (يوليو): أبلغت هيئة الرقابة البطرسبورغية دوستويفسكي موافقتها على طلبه المتعلق بإصدار مجلة شهرية باسم «الوقت».

– أيلول (سبتمبر): وزّع دوستويفسكي على الصحف الرئيسة في العاصمة برنامج مجلته القادمة، الذي يتضمن بياناً عن مذهب «التُّرِبيَّة» (بوتشفينّيتشيستفو) (نسبة إلى كلمة «التُّرْبَة» (بوتشفا))، ويدعو هذا المذهب إلى الارتباط بتربة الوطن، والانطلاق منها والعودة إليها عند معالجة القضايا العامة والخاصة، وإلى الإيمان بالمُثُل العليا التي يصبو إليها الشعب الروسي بسواده الأعظم، واستلهام هذه المُثُل عند صياغة المبادئ التي يجب أن يتطور وفقها الوطن. وهو مذهب يتوافق مع مذهب السلافوية، ويتعارض مع مذهب الغربوية(13).

– أيلول (سبتمبر): بدأت صحيفة «العالَم الروسي» لصاحبها فيودور ستيلّوفسكي تنشر «مذكرات من بيت الأموات».

عام 1861

- أوائل العام: جرت لقاءات ومراسلات وانعقدت صداقة بينه وبين الممثلة الكسندرا شوبيرت، زوجة صديقه القديم الدكتور ستيبان يانوفسكي.

- كانون الثاني (يناير): صدر العدد الأول من مجلة «الوقت» متضمناً فصلاً من رواية «مذلون مهانون».

- نيسان (أبريل): تولّت مجلة «الوقت» نشر «مذكرات من بيت الأموات» بدلاً من صحيفة «العالَم الروسي».

- 9 تموز (يوليو): أنهى كتابة رواية «مذلون مهانون» (نُشرت في مجلة «الوقت» من العدد الأول حتى العدد السابع ضمناً).

- أيلول (سبتمبر): نشرت مجلة «الوقت» أقصوصة «إلى حين» للكاتبة الشابّة أبولي‍ناريا سوسلَفا (بولين)، وهي أخت ناديجدا سوسلَفا، التي اشتهرت بأنها أول طبيبة في روسيا، بعد أن حازت درجة الدكتوراه في الطب من جامعة زيوريخ في عام 1867 وكان دوستويفسكي يَزورها في الستينيات.

عام 1862

- كانون الثاني (يناير): بدأت مجلة «الوقت» تنشر الجزء الثاني من «مذكرات من بيت الأموات» (وتابعت نشره في الأعداد 2 و3 و5 و12).

- 7 حزيران (يونيو): سافر إلى الخارج وحده، إذ كانت زوجته المريضة لا تحتمل عناء السفر، وآثرت البقاء إلى جانب ابنها بافل الذي كان يستعد لأداء امتحان القبول بالمدرسة الثانوية.

- 15 – 16 حزيران (يونيو): وصل إلى باريس.

- 27 حزيران (يونيو): سافر إلى لندن.

- 4 تموز (يوليو): زار غيرتسين.

- تعرف في لندن على باكونين.

- 15 تموز (يوليو): سافر إلى كولن في ألمانيا، ثم إلى سويسرا وإيطاليا.

- أيلول (سبتمبر): عاد إلى بطرسبورغ.

- 4 كانون الأول (ديسمبر): صدر عدد تشرين الثاني (نوفمبر) من مجلة «الوقت» متضمناً أقصوصة: «حادثة شنيعة».

- شتاء 1862 –1863: التقارب بينه وبين الكاتبة الشابة أبولِيناريا سوسلَفا.

عام 1863

- 2 شباط (فبراير): انتُخب عضواً في هيئة وأمانة «صندوق الأدباء».

- شباط (فبراير) – آذار (مارس): نشرت «الوقت» في عدديها الثاني والثالث مقالة «ملاحظات شتائية حول انطباعات صيفية» عن جولته في الخارج.

- 24 أيار (مايو): صدر أمر سامٍ بإغلاق مجلة «الوقت» بسبب مقالة «نيكولاي ستراخوف»: «المسألة المشؤومة» التي عالج فيها القضية البولونية.

- آب (أغسطس): غادر دوستويفسكي إلى الخارج قاصداً باريس، وتوقف لبعض الوقت في فيسبادن الألمانية حيث جرّب حظه في المقامرة على آلة الروليت، وربح في البدء مبلغاً كبيراً، ولكنه عاد وخسره.

- 14/ 26 آب (أغسطس)*: وصل إلى باريس وتقابل هناك مع أبولِيناريا سوسلَفا، وعبّر لها عن هيامه بها، ولكنها صارحته بأنها لا تبادله العواطف نفسها، وأنها تفضّل أن تقتصر علاقتهما على الصداقة.

- 3 – 4 أيلول (سبتمبر) (حسب التقويم الجديد): غادر باريس مع أ. سوسلَفا متوجهين إلى إيطاليا.

- 5– 8 أيلول (حسب ت.ج): توقفا في بادن – بادن وخسر دوستويفسكي في القمار مبلغاً كبيراً، واضطر إلى رهن ساعته وخاتم سوسلَفا.

- أيلول (سبتمبر) – تشرين الأول (أكتوبر): زار هو وسوسلفا إيطاليا (روما – ليفورنو – تورينو – نابولي).

- الخريف: نشأت لديه فكرة رواية «المقامر» وقصة «مذكرات من تحت الأرض» (في قبوي).

- أواسط تشرين الأول (أكتوبر): انفصل عن سوسلَفا، إذ سافرت هي إلى باريس، وتوجه هو إلى روسيا، ولكنه توقف في هامبورغ وخسر ما معه من نقود في القمار.

(*) حُدّد زمن حدوث بعض الوقائع بتاريخين يفصل بينهما خط مائل ويدل أولهما على زمن الحدوث وفق التقويم القديم (اليوليوسي) الذي ظل متبعاً في روسيا حتى 14 شباط 1918، ويدل الثاني على زمن الحدوث وفق التقويم الجديد (الغريغوري) الذي اعتمد منذ التاريخ المذكور آنفاً. وكان الفرق بين التقويمين في القرن التاسع عشر هو اثني عشر يوماً.

- بعد الثامن عشر من تشرين الأول (أكتوبر) (حسب ت.ق): وصل إلى روسيا.

- 3 كانون الأول (ديسمبر): وزعت خالته الكساندرا تركةَ زوجها المتوفى الكسندر كومانين وفقاً لوصيته ونال دوستويفسكي جزءاً منها.

عام 1864

- 24 كانون الثاني (يناير): سمحت السلطات لميخائيل دوستويفسكي بإصدار مجلة «العصر».

- 21 آذار (مارس): صدر العدد الأول (المزدوج) من مجلة «العصر» متضمناً الجزء الأول من «مذكرات من تحت الأرض» (ثم صدر الجزء الثاني في العدد الرابع).

- 15 نيسان (أبريل): الساعة السابعة مساءً توفيت زوجة دوستويفسكي ماريا دميترييفنا في موسكو، إلى حيث كانت قد انتقلت في أواخر العام الفائت بناء على تعليمات الأطباء.

- 10 تموز (يوليو): الساعة السابعة صباحاً توفي أخوه الأكبر ميخائيل في مدينة بافلوفسك، وتكفل دوستويفسكي بإعالة أسرة أخيه المتوفى بالإضافة إلى إعاله ربيبه بافل إيسايف ابن زوجته ماريا.

- أواخر آب (أغسطس) - أوائل أيلول (سبتمبر): وصلته رسالة من الكاتبة الشابة آنّا كورفين- كروكوفسكايا بصدد أقصوصتها «الحلم».

عام 1865

- أوائل العام: نشرت مجلة «العصر» في عددها الثاني أقصوصة دوستويفسكي «حادثة غير عادية».

- 28 شباط (فبراير): أرسلت الكاتبة الشابة آنّا كورفين- كروكوفسكايا رسالة إلى دوستويفسكي تخبره فيها بوصولها إلى بطرسبورغ وتدعوه لزيارتها في بيت جدها ف.ف.شوبيرت.

- آذار(مارس) - نيسان (أبريل): أصبح دوستويفسكي يزور بيت آنّا كورفين - كروكوفسكايا 3-4 مرات في الأسبوع، وتصادق مع أختها الصغرى سوفيا ذات الأربعة عشر ربيعاً، التي أغرمت به آنذاك بصفته شخصاً موهوباً ومشهوراً، وقد أصبحت سوفيا فيما بعد شخصية اجتماعية مرموقة، وحازت درجة الدكتوراه في الرياضيات ودرجة الماجستير في الفنون الجميلة.

- نيسان: طلب دوستويفسكي يد آنّا كورفين - كروكوفسكايا ولكنها لم تستجب؛ وقد تزوجت فيما بعد الفرنسي فكتور جاكلار، أحد قادة كومونة باريس.

- حزيران (يونيو): نشرت مجلة «مكتبة للمطالعة» إعلاناً عن توقف مجلة «العصر» عن الصدور، وذلك بسبب العجز المالي. وعانى دوستويفسكي من ضائقة مالية خانقة بسبب الديون المتراكمة التي خلفها أخوه ميخائيل، والتزم هو بأدائها، وأصبح مهدداً بالحجز على ممتلكاته وزجه في السجن. واستغل الناشر فيودور ستيلّوفسكي هذا الظرف، وعقد اتفاقاً رسمياً مع الكاتب على أن يقرضه المبلغ المطلوب لقاء امتلاكه الحق في إصدار مجموعة الأعمال الكاملة للكاتب في ثلاثة مجلدات، والتزام الكاتب بتقديم رواية جديدة للناشر في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1866، وإلّا ترتّب عليه أن يدفع غرامة باهظة، أما إذا لم يقدّم الرواية الجديدة في الأول من كانون الأول (ديسمبر) فإنه يفقد حقوقه إلى الأبد في ملكية أعماله وتنتقل هذه الحقوق إلى الناشر.

- نحو 29 تموز (يوليو): وصل دوستويفسكي إلى مدينة فيسبادن في ألمانيا، وخسر في الأيام الأولى من إقامته هناك كل ما يملكه من نقود على مائدة الروليت، واضطر إلى رهن ساعته، ثم إلى الطلب من تورغينف، على كره منه، إقراضه مبلغاً يكفي لدفع نفقات معيشته فقط.

- أيلول (سبتمبر): وجّه رسالة إلى صديقه أ. ميليوكوف يرجوه فيها أن يقدم عرضاً للمجلات الروسية ببيع قصة سيكتبها لقاء مبلغ يقبض منه سلفة قدرها (300) روبل (وكان آنذاك يفكر في كتابة «الجريمة والعقاب»)؛ ولكن ميليوكوف لم يلق استجابة من الناشرين. وبعث دوستويفسكي برسالة إلى صديقه القديم فرانغيل المقيم في كوبنهاغن، فأرسل له هذا مبلغاً من المال ودعاه لزيارته.

- 1 تشرين الأول (أكتوبر): وصل دوستويفسكي إلى كوبنهاغن وحل ضيفاً على فرانغيل.

- 10 تشرين الأول (أكتوبر): غادر كوبنهاغن.

- 14 تشرين الأول (أكتوبر): وضع وهو على الباخرة (Vice-roy) الخطوط الأولى لرواية «الجريمة والعقاب».

- نحو 15 تشرين الأول (أكتوبر): عاد إلى الوطن.

- 2 تشرين الثاني (نوفمبر): التقى أبولّيناريا سوسلَفا وعرض عليها الزواج فرفضت.

- أواخر تشرين الثاني (نوفمبر): أحرق الصياغة الأولى لرواية «الجريمة والعقاب» وبدأ بكتابتها وفق خطة جديدة وبشكل جديد.

- أواخر العام: تكررت لقاءاته بسوسلَفا.

- بدأ الناشر فيودور ستيلّوفسكي بإصدار مجموعة أعمال دوستويفسكي الكاملة (المجلدين الأول والثاني).

عام 1866

- بدأت مجلة «البشير الروسي» تنشر رواية «الجريمة والعقاب» مما زاد من شهرة دوستويفسكي ورفع مكانته ومكّنه من البدء بوفاء ديونه المتراكمة.

- أمضى دوستويفسكي الصيف في قرية لوبلينو في ضواحي موسكو، حيث دارة أسرة أخته فيرا، وكان يستمتع كثيراً بمشاركة الفتيان والفتيات نزهاتهم وألعابهم، وغالباً ما كان يقترح عليهم ألعاباً جديدة ومبتكرة، ويبادر إلى تنظيم عروض مسرحية مرتجلة تتسم بالمرح، ويشاركهم بأدائها؛ وقد تابع هناك العمل في كتابة الجزء الخامس من رواية «الجريمة والعقاب»، ووضع خطة رواية «المقامر».

- 1 تشرين الأول (أكتوبر): زاره صديقه ميليوكوف بعد عودته إلى بطرسبورغ، وتحادثا حول تعهد دوستويفسكي بتقديم رواية جديدة إلى الناشر ستيلّوفسكي في مطلع شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، واقترح عليه بعض أصدقائه أن يضع هو خطة الرواية ويتولوا هم كتابة أجزائها المختلفة وفق الخطة الموضوعة، ويقوم هو بتنسيقها؛ فرفض دوستويفسكي الاقتراح رفضاً قاطعاً. وعرض عليه ميليوكوف أخيراً الاستعانة بأحد المختصين بالاختزال لإنهاء العمل بالسرعة المطلوبة، فوافق دوستويفسكي على مضض لعدم وجود أي مخرج آخر.

- 3 تشرين الأول (أكتوبر): استشار ميليوكوف أستاذ الاختزال بافل أولخين في الأمر فرشح له تلميذته آنا سنيتكينا، ذات العشرين ربيعاً تقريباً للقيام بالمهمة.

- 4 تشرين الأول (أكتوبر): الساعة الحادية والنصف ظهراً: أتت آنا سنيتكينا إلى شقة دوستويفسكي للمرة الأولى، وشاهدت أمامها، كما كتبت في دفتر يومياتها، إنساناً تَعِساً ومحطماً ومتألماً للغاية، وبدا لها بمظهر شخص فقد اليوم أو البارحة شخصاً عزيزاً على قلبه.

- الساعة الثامنة مساء: بدأ دوستويفسكي يملي على آنا سنيتكينا رواية «المقامر».

- 5- 29 تشرين الأول (أكتوبر): استمر الإملاء يومياً من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الرابعة.

- 29 تشرين الأول (أكتوبر): أنهى دوستويفسكي إملاء رواية «المقامر».

- 30 تشرين الأول (أكتوبر): (عيد ميلاد دوستويفسكي): أحضرت آنا سنيتكينا له الصفحات الأخيرة التي أملاها عليها.

- الأول من تشرين الثاني (نوفمبر): أخذ دوستويفسكي مخطوطة الرواية إلى شقة الناشر ستيلّوفسكي فلم يجده هناك (وكان قد تغيب عمداً)، فذهب دوستويفسكي إلى قسم شرطة الحي، وسلّم رئيس القسم المخطوطة رسمياً.

-3 تشرين الثاني (نوفمبر): زار دوستويفسكي للمرة الأولى منزل آنا سنيتكينا، حيث تعيش مع أمها، وعرض عليها أن تختزل له الجزء الأخير من رواية «الجريمة والعقاب».

- 8 تشرين الثاني (نوفمبر): عرض دوستويفسكي الزواج على آنا سنيتكينا بطريقة طريفة، إذ ادعى أنه يفكر في كتابة رواية جديدة ولكن لا يعرف كيف ينهيها، وهو يطلب مساعدتها في ذلك، فبطل الرواية فنان في سن تقارب سنّه، والبطلة التي أحبها فتاة شابة في عمر آنا أو أكبر بسنة أو سنتين؛ فهل من الممكن يا ترى أن تبادله هذه الفتاة الحب؟ أَوَ لن تكون هذه النهاية مخالفة لطبيعة الأمور من الناحية النفسية؟ ثم قال لها بصوت مرتجف في نهاية القصة الطويلة المرتجلة التي رواها بحرارة: ضعي نفسك في مكانها للحظة، وتصوري أن هذا الفنان هو أنا، وأنني صارحتك بحبي الصادق لك وطلبت يدك للزواج، بم كنت ستجيبينني؟ فقالت له آنا: كنت سأجيبك بأنني أحبك، وسأظل أحبك طوال الحياة.

- نهاية العام: أصدر الناشر ستيلّوفسكي المجلد الثالث من أعمال دوستويفسكي الكاملة.

عام 1867

- 15 شباط (فبراير): الساعة السابعة مساء تم تكليل دوستويفسكي وآنا سنيتكينا في كاتدرائية «الثالوث المقدس».

- 14 نيسان (أبريل): غادرا بطرسبورغ إلى الخارج حيث أمضيا أكثر من أربع سنوات.

- 17 نيسان (أبريل): وصلا إلى برلين.

- 19 نيسان (أبريل): غادرا برلين إلى دريزدن، حيث أخذا يترددان على معرض اللوحات الفنية الشهير هناك، وعلى المتاحف والحدائق البديعة.

- 4 أيار (مايو): سافر دوستويفسكي إلى هامبورغ ليجرب حظه في القمار، وبقي هناك أحد عشر يوماً يخسر تارة ويربح تارة، ثم يخسر ما ربحه ويضطر إلى رهن ساعته، وترسل له آنا نقوداً بالبريد ويخسرها وتسوء حالته النفسية كثيراً.

- 15 أيار (مايو): عاد إلى دريزدن واستقبلته آنا في محطة القطار.

– 22 حزيران (يونيو)/ 4 تموز (يوليو): غادرا إلى فرانكفورت، وزارا معالم المدينة، ثم غادراها في اليوم نفسه إلى بادن – بادن، وأقاما فيها نحو شهر وعشرين يوماً، تردد دوستويفسكي خلالها على نادي القمار، وكان يربح أحياناً مبالغ كبيرة ثم يخسرها، وقد اضطر أكثر من مرة إلى أن يرهن أشياءهما الخاصة، كقرطي زوجته، ووشاحها، وخاتمي زواجهما، وفروته، ثم يستعيدها، ثم لايلبث أن يطلب منها قرطيها ليرهنهما، وركع مرة على ركبتيه وقبل يدها راجياً أن تسامحه، ولكنه لم يكف عن التردد على نادي القمار حتى مغادرتهما المدينة. وقد قابل خلال مدة إقامته في بادن- بادن إيفان تورغينف وجرى بينهما جدال فكري حاد، كما قابل إيفان غونتشاروف واستدان منه نقوداً. وتلقى طلباً بكتابة مقالة عن بيلينسكي، وبدأ بوضع الخطوط العريضة لها.

– 11/ 23 آب (أغسطس): غادرا بادن بادن قاصدين جنيف وتوقفا في بازل (بال).

– 12/ 24 آب (أغسطس): اطلعا على معالم المدينة وزارا متحفها.

– 29 آب (أغسطس) – 10أيلول (سبتمبر): حضر دوستويفسكي وزوجته جلسة المؤتمر الأول لرابطة السلام والحرية المنعقد في جنيف، والذي شارك فيه غاريبالدي وباكونين.

– قبيل 15/ 27 أيلول (سبتمبر): أنهى مقالة «تعارفي مع بيلينسكي»؛ وقد فُقدت هذه المقالة بعد إرسالها إلى الناشرفي روسيا.

– 14/ 26 أيلول (سبتمبر): بدأ بكتابة رواية «الأبله».

– تشرين الأول (اكتوبر) وتشرين الثاني (نوفمبر): سافر غير مرة إلى مدينة ساكسون لي بان القريبة من جنيف وقامر هناك وخسر.

– 22 تشرين الثاني (نوفمبر): أتلف ما كان قد كتبه من رواية «الأبله» ووضع خطة جديدة.

– 6/ 18 كانون الأول (ديسمبر): بدأ بكتابة رواية «الأبله» بصيغتها النهائية.

عام 1868

– كانون الثاني (يناير): بدأت مجلة «البشير الروسي» بنشر رواية «الأبله».

– 22 شباط (فبراير)/ 5 آذار (مارس): وُلدت ابنته سوفيا.

– نيسان (أبريل): ذهب إلى ساكسون لي بان مرة أخرى وخسر نقوده في القمار.

– 12/ 24 نيسان (أبريل): وصلته رسالة من صديقه الدكتور س. يانوفسكي يذكر له فيها الإعجاب الشديد الذي تحظى به في أوساط القراء الفصول المنشورة من رواية «الأبله».

– 12 / 24 أيار (مايو): توفيت ابنته سوفيا في جنيف.

- نهاية أيار (مايو): انتقل الزوجان دوستويفسكي من جنيف إلى مدينة ڤيڤي في سويسرا.

- مطلع أيلول (سبتمبر): انتقلا إلى ميلانو في إيطاليا.

- تشرين الثاني (نوفمبر): وصلا إلى فلورنسا، حيث أمضيا شتاء عام 1868-1969، وأخذا يترددان على متاحفها وكنائسها الشهيرة ويستمتعان برؤية اللوحات والمنحوتات الفنية الرائعة المعروضة فيها.

- 11/ 23 كانون الأول (ديسمبر): أرسل إلى صديقه مايكوف رسالة يخبره فيها أنه أنهى رواية «الأبله».

عام 1869

- في الثلث الأخير من تموز (يوليو) (حسب ت.ق): توجه الزوجان دوستويفسكي إلى براغ عبر «فينيسيا» (البندقية) (حيث أمضيا أربعة أيام)، وبولونيا (من القطار إلى القطار) وترييستا، وفيينا (حيث أمضيا يومين)، ثم وصلا إلى براغ (حيث أمضيا ثلاثة أيام، بعد رحلة استغرقت عشرة أيام) ولم يجدا في المدينة مسكناً مناسباً، فتوجها إلى دريزدن ووصلاها في أوائل آب (أغسطس).

- 14/ 26 أيلول (سبتمبر): وُلدت ابنته لوبوف.

- كانون الأول (ديسمبر): أشار في دفتر ملاحظاته إلى خطة رواية بعنوان «حياة آثم كبير»، ولكنه لم يكتب روايةً تحمل هذا العنوان؛ وقد صور بعض الشخصيات التي تتضمنها الخطة في روايتيه القادمتين: «المراهق» و«الإخوة كارامازوف».

عام 1870

- كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير): نشرت مجلة «الفجر» قصة دوستويفسكي «الزوج الأبدي».

- 25 آذار (مارس) - 6 نيسان (أبريل): كتب إلى مايكوف من دريزدن أنه يعمل على كتابة «عمل كبير متحيز» ضد العدميين.

- 7/ 19 تشرين الأول (أكتوبر): أرسل إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» بداية رواية «الشياطين».

- تشرين الأول (أكتوبر): أصدر الناشر ستيلّوفسكي المجلد الرابع من مجموعة أعمال دوستويفسكي الكاملة متضمناً رواية «الجريمة والعقاب».

عام 1871

- أوائل نيسان (أبريل): ذهب إلى فيسبادن ليقامر من جديد، وربح مبلغاً من المال، وفكر بالانسحاب، ولكنه عاد وراهن ثانية، وخسر كل ما لديه من نقود، فعاد إلى الفندق وهو في حالة نفسية غريبة؛ وكتب لزوجته بتاريخ 28 نيسان (أبريل): «حدث لي أمر عظيم؛ اختفت الفانتازيا الشنيعة التي عذبتني عشر سنوات تقريباً (أو من الأفضل القول منذ وفاة أخي، عندما وجدت نفسي فجأة مثقلاً بالديون)، وكنت طوال الوقت أحلم بالربح، كنت أحلم جدياً وبحماسة؛ أما الآن فكل شيء قد انتهى! لقد كانت هذه هي المرة الأخيرة، أتصدقين يا آنيا أن يديّ الآن طليقتان؛ لقد كنت مقيداً بالقمار، والآن سأفكر في العمل، ولن أحلم ليالي بكاملها بالقمار، كما كان يحدث لي سابقاً». وقد كتبت زوجته في مذكراتها: «... لقد تحققت هذه السعادة، وبالفعل كانت هذه هي المرة الأخيرة... وعاد فيودور ميخايلوفتش من فيسبادن نشيطاً، مطمئناً، وانصرف فوراً إلى متابعة العمل في كتابة رواية «الشياطين»...».

- 8 تموز (يوليو): عاد دوستويفسكي وزوجته الحامل وابنته «لوبوف» إلى بطرسبورغ بعد غياب 4 سنوات وبضعة أشهر.

- 16 تموز (يوليو): وُلد ابنه «فيودور» في بطرسبورغ.

- نشرت مجلة «البشير الروسي» رواية «الشياطين» في أعدادها: الأول والثاني والرابع والسابع والتاسع والعاشر والحادي عشر.

عام 1872

- تعرّف دوستويفسكي في منزل الأمير فلاديمير ميشيرسكي على كونستنتين (قسطنطين) بوبيدونوستسف، العضو في مجلس الشيوخ وفي مجلس الدولة (وقد عينه القيصر في عام 1880 رئيساً للمجلس الديني الأعلى الذي يتولى تصريف الشؤون الدينية في الدولة)، وحاول هذا أن يتقرب من دوستويفسكي ويستغل اسمه ومكانته في صالح الحكم القيصري.

- 15 أيار(مايو): انتقلت أسرة دوستويفسكي إلى مدينة «ستاريا روسّا» في مقاطعة «نوفغورد»، وهي ميناء نهري ومنتجع للتداوي بالوحول والمياه المعدنية.

- أوائل أيلول (سبتمبر): عادت الأسرة إلى بطرسبورغ.

- تشرين الثاني (نوفمبر) - كانون الأول (ديسمبر): اتفق دوستويفسكي والأمير ميشيرسكي، صاحب صحيفة «المواطن» الأسبوعية، على أن يتولى دوستويفسكي رئاسة تحرير الصحيفة المذكورة ذات الطابع المحافظ.

– 15 كانون الأول (ديسمبر): وقّع دوستويفسكي عقد توليه رئاسة تحرير صحيفة «المواطن».

– تشرين الثاني (نوفمبر) – كانون الأول (ديسمبر): نشرت مجلة «البشير الروسي» الجزء الثالث من رواية «الشياطين».

– نهاية كانون الأول (ديسمبر): أحضر دوستويفسكي إلى المطبعة مخطوطة الفصل الأول من «يوميات كاتب» لنشره في العدد الأول من صحيفة «المواطن» للعام القادم (1873).

عام 1873

– كانون الثاني (يناير) – شباط (فبراير): بعث برسالة إلى ولي العهد الكسندر الكسندروفتش مرفقةً برواية «الشياطين» عن طريق بوبيدونوستسِف.

– 6 شباط (فبراير): نشر قصة «بوبوك» (حبة الفول) ضمن «يوميات كاتب» في مجلة «المواطن».

– 11 حزيران (يونيو): صدر حكم قضائي يقضي بدفع دوستويفسكي غرامة مالية قدرها (25) روبلاً، وبسجنه مدة يومين، وذلك لأنه نشر في صحيفة «المواطن» مقالة للأمير ميشيرسكي تتضمن كلمات قالها الامبراطور أمام نواب من قيرغيزيا، بدون الحصول على إذن مسبق من وزير البلاط الامبراطوري بنشر أقوال الامبراطور وفق ما ينص عليه القانون.

عام 1874

– مطلع كانون الثاني (يناير): أبلغ دوستويفسكي الأمير ميشيرسكي قراره بالتخلي عن رئاسة تحرير صحيفة «المواطن»، وذلك بعد أن ساءت العلاقة بينهما بسبب آراء ميشيرسكي المغرقة في الرجعية.

– 21–23 آذار (مارس): أمضى دوستويفسكي يومين في سجن العسكريين في ساحة «سينّيا» أعاد خلالهما قراءة رواية البؤساء لفكتور هوغو.

– نيسان (أبريل): أعفي رسمياً من رئاسة تحرير «المواطن».

– نيسان (أبريل): زاره نكراسوف وعرض عليه نشر روايته القادمة في مجلة «المذكرات الوطنية» بشروط مالية مجزية.

– 7 حزيران (يونيو): غادر بطرسبورغ إلى منتجع «إيمس» في ألمانيا للاستشفاء بمياهه المعدنية.

- حزيران (يونيو) - تموز (يوليو): عمل على وضع خطة رواية «المراهق» (في أثناء إقامته في «إيمس»).

- نحو العاشر من آب (أغسطس): عاد من الخارج إلى «ستاريا روسّا»، حيث تقيم أسرته منذ أيار (مايو).

- قبل الثاني عشر من آب (أغسطس): أرسل إلى نكراسوف من «ستاريا روسّا» رسالة يبلغه فيها أن مجلة «المذكرات الوطنية» يمكنها أن تعوّل على نشر روايته «المراهق» فيها خلال عام 1875.

عام 1875

- كانون الثاني (يناير): بدأت مجلة «المذكرات الوطنية» بنشر رواية «المراهق».

- نهاية أيار (مايو) - مطلع حزيران (يونيو): غادر منتجع «إيمس» الألماني للاستشفاء.

- 18/ 30 حزيران (يونيو): وضع الخطة النهائية لرواية «المراهق».

- 10 آب (أغسطس): وُلد ابنه الكسي في «ستاريا روسّا».

- نحو 15 أيلول (سبتمبر): عاد من «ستاريا روسّا» إلى بطرسبورغ.

- أوائل تشرين الثاني (نوفمبر): باشر بجمع مواد من أجل نشر «يوميات كاتب» في أول إصدار مستقل.

- 22 كانون الأول (ديسمبر): وجّه طلباً إلى المديرية العامة لشؤون النشر يلتمس فيها السماح له بإصدار «يوميات كاتب» في عام 1876شهرياً.

- زار بصحبة رجل القانون الشهير أناتولي كوني سجن الأحداث الجانحين، وأمضى هناك النهار كله.

عام 1876

- واظب دوستويفسكي طوال العام على نشر «يوميات كاتب» في إصدارات مستقلة شهرياً تقريباً. وتضمن عدد كانون الثاني (يناير) أقصوصة «الطفل لدى المسيح عند شجرة الميلاد»، وعددُ آذار (مارس) أقصوصة «عجوز عمرها مئة عام»، وعددُ تشرين الثاني (نوفمبر) قصة «الوديعة» (العذبة).

- تموز (يوليو) - آب (أغسطس): غادرإلى منتجع «إيمس» للاستشفاء.

- 13 تشرين الثاني (نوفمبر): وجه إليه بوبيدونوستسِف رسالة يشير عليه فيها أن يرسل إصدارات «يوميات كاتب» إلى ولي العهد.

- 16 تشرين الثاني (نوفمبر): أرسل دوستويفسكي التماساً إلى ولي العهد يرجو فيه الإذن بإرسال «اليوميات» إليه.

عام 1877

- واصل دوستويفسكي على مدى العام كله إصدار «يوميات كاتب»، وتضمن عددُ نيسان (أبريل) قصة «حلم رجل مضحك».

- شباط (فبراير): أرسل طلباً إلى المديرية العامة لشؤون النشر يلتمس فيه السماح بأن تنشر «اليوميات» من دون رقابة مسبقة.

- 23 آذار (مارس): صدر سماح من الجهات المختصة بإصدار «يوميات كاتب» من دون رقابة مسبقة.

- الربيع: اشترى دوستويفسكي دارة صيفية في «ستاريا روسّا».

- تشرين الثاني (نوفمبر): عاد دوستويفسكي مرات عديدة نكراسوف وهو على فراش المرض، وكان هذا يقرأ له آخر ما كتبه من مقطوعات شعرية.

- 2 كانون الأول (ديسمبر): انتُخب دوستويفسكي عضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم، قسم اللغة الروسية وأدبها.

- كانون الأول (ديسمبر): أعلن عن عزمه على إيقاف إصدار «يومياته» مؤقتاً ليتفرغ لكتابة روايته الكبرى «الإخوة كارامازوف».

- 28 كانون الأول (ديسمبر): بلغه صباحاً نبأ وفاة نكراسوف الليلة الفائتة.

- 30 كانون الأول (ديسمبر): حضر مراسم دفن نكراسوف وألقى كلمة عند القبر.

عام 1878

- مطلع العام: زاره «د.س.أرسينيف» مُربّي «الأميرين العظيمين» ابنَي القيصر الكسندر الثاني وأبلغه رغبة القيصر في أن يعرّفه بابنيه، إذ يمكن أن يكون لحديثه معهما أثر حميد في نفسيهما.

- 16 أيار(مايو): أصيب ابنه الأصغر «ألكسي» ذو الثلاث سنوات بنوبة صرع شديدة دامت أكثر من ثلاث ساعات وتسببت بوفاته.

– أيار (مايو): بعد وفاة طفله «ألكسي» أخذ يتردد على شقته الفيلسوفُ الديني والشاعر الشاب المعروف «فلاديمير سولوفيوف»، وقد رجته آنّا دوستويفسكايا أن يقنع زوجها باصطحابه لزيارة دير «أوبتينا بوستين» الشهير الذي كان دوستويفسكي ينوي زيارته منذ وقت طويل، عسى أن تسرّي هذه الزيارة عنه، وتخفف من حزنه الشديد على طفله المتوفى.

– 23 حزيران (يونيو): سافر مع سولوفيوف إلى دير «أوبتينا بوستينِ»، وحدثه في أثناء ذلك عن الفكرة الرئيسة لرواية «الإخوة كارامازوف» وعن الخطة التي وضعها لكتابتها.

– 26 و27 حزيران (يونيو): أمضى دوستويفسكي يومين في الدير، حيث شاهد الراهبَ الشيخ «أمفروسي» ثلاث مرات وتحدث معه مرتين على انفراد. (وقد استوحى من شخصيته أنموذج الراهب – الشيخ «زوسيما» في رواية «الإخوة كارامازوف»).

– 29 حزيران (يونيو): عاد دوستويفسكي وسولوفيوف من الدير إلى موسكو.

– كانون الأول (ديسمبر): أتم وضع الخطة التفصيلية لرواية «الإخوة كارامازوف». وكان قد أنجز حتى هذا التاريخ كتابة نحو عشر ملازم من الرواية.

عام 1879

– نحو العاشر من آذار(مارس): وجّه دوستويفسكي مذكرة إلى وزير الداخلية يطلب فيها رفع الرقابة البوليسية عنه، التي ظلت مستمرة منذ شهر آذار (مارس) 1859.

– نيسان (أبريل): ذكر في رسالته المرفقة بمخطوطة الكتاب الخامس من رواية «الإخوة كارامازوف» والموجهة إلى رئيس تحرير مجلة «البشير الروسي» التي كانت تنشر الرواية: «هذا الكتاب الخامس هو، من وجهة نظري، نقطة الذروة في الرواية، ويجب أن يُنجز بعناية خاصة».

– 9–14 حزيران (يونيو): انتخبه المؤتمر الأدبي الدولي بالإجماع في أثناء انعقاد دروته في لندن عضواً في الهيئة الفخرية للرابطة الأدبية الدولية. وكان رئيس الرابطة الفخري آنذاك الأديب الفرنسي فكتور هوغو.

– 20 تموز (يوليو) – مطلع أيلول (سبتمبر): أقام في «إيمس» التي قصدها للاستشفاء وتابع العمل في «الإخوة كارامازوف».

عام 1880

– 3 شباط (فبراير): انتُخب في الاجتماع العام للجمعية السلافية الخيرية رفيقاً لرئيس الجمعية.

- نيسان (أبريل) - أيار(مايو): وجَّهت جمعية محبي الأدب الروسي دعوة إلى دوستويفسكي ليشارك بكلمة في الاحتفالات البوشكينية.

- 22 أيار (مايو): غادر «ستاريا روسّا» إلى موسكو لحضور الاحتفال بإزاحة الستار عن تمثال بوشكين.

- 23 أيار (مايو): وصل دوستويفسكي إلى موسكو للمشاركة في الاحتفالات البوشكينية واستُقبِل بحفاوة كبيرة. وقد أُجّلت الاحتفالات من 26 أيار (مايو) (ذكرى ميلاد بوشكين) إلى 6 حزيران (يونيو) بسبب إعلان الحداد الرسمي على الامبراطورة التي توفيت قبل أيام.

- 5 حزيران (يونيو): دُعي إلى حفل الاستقبال الذي أقامه مجلس «دوما» المدينة على شرف الوفود القادمة للمشاركة في الاحتفالات. وتعرّف هناك على ابنة بوشكين ناتاليا الكساندروفنا ميرينبيرغ.

- 6 حزيران (يونيو): حضر حفل إزاحة الستار عن تمثال بوشكين صباحاً، والجلسةَ الاحتفالية في الجامعة نهاراً، والأمسيةَ الأدبيةَ التي أقيمت في مجمع النبلاء وقرأ فيها مَشهدَ «بيمن» من مسرحية بوشكين «بوريس غودونوف».

- 7 حزيران (يونيو): عُقدت الجلسة العامة الأولى لجمعية محبي الأدب الروسي وألقى فيها تورغينف خطابه الذي أعده لهذه المناسبة، فتلقّاه الغربويّون والشبيبة التقدمية بالتهليل والإعجاب الحماسي.

- 8 حزيران (يونيو): عُقدت الجلسة العامة الثانية لجمعية محبي الأدب الروسي، وألقى فيها دوستويفسكي خطابه عن بوشكين فأثار ضجة غير مسبوقة، وموجة عارمة من الترحيب الحار وقدمت له النساء الحاضرات إكليلاً من الغار، واحتفى به الجميع حفاوة بالغة. وقد أخذ إكليل الغار مساءً ووضعه على قاعدة تمثال بوشكين.

- 11 حزيران (يونيو): العودة من موسكو إلى «ستاريا روسّا» حيث أمضى الصيف وأوائل الخريف مع أسرته.

- 1 آب (أغسطس): صدر العدد الوحيد من «يوميات كاتب» لعام 1880، متضمناً خطاب دوستويفسكي عن بوشكين وردّه على منتقديه، وبخاصة «الكسندر غرادوفسكي».

- 7 تشرين الأول (أكتوبر): انتقل من «ستاريا روسّا» إلى بطرسبورغ.

- 8 تشرين الثاني (نوفمبر): أرسل خاتمة رواية «الإخوة كارامازوف» إلى رئيس تحرير «البشير الروسي» مرفقة برسالة كتب له فيها: «ها هي الرواية قد انتهت: عملت عليها ثلاث

سنوات، ونشرتها في سنتين - إنها لحظة مشهودة بالنسبة لي. وقبيل عيد الميلاد أريد أن أصدرها في طبعة مستقلة. اسمح لي بألّا أودعك، فأنا أنوي أن أعيش وأكتب عشرين سنة أخرى».

عام 1881

- ليل الأحد 25 - ليلة الاثنين 26 كانون الثاني (يناير): حصل نزف خفيف من حلقه بسبب انقطاع شريان في رئتيه المنتفختين وذلك عندما سقطت مسكةُ الريشةِ المعدنيةِ التي يكتب بها، وتدحرجت إلى تحت خزانة الكتب الصغيرة، فاضطر إلى بذل جهد زائد لإزاحة الخزانة والتقاط المسكة من تحتها. ولم يول أمر النزف اهتماماً كبيراً.

- الاثنين 26 كانون الثاني (يناير): زارته أخته فيرا وطلبت منهِ باسمها وباسم أختيها فارفارا والكسندرا أن يتخلى لهن عن قطعة أرض من ميراث خالتهم الكساندرا كومانينا، وثار بينهما جدل عنيف، وشرعت فيرا تبكي، ودخل دوستويفسكي غرفة مكتبه غاضباً، وعاوده النزف بغزارة أكبر. استدعت زوجته آنّا طبيبه يا.بريتسيل، وفي أثناء الفحص بالقرع تجدد النزف، وفقد دوستويفسكي الوعي. وعندما استعاد وعيه طلب من زوجته أن تستدعي كاهناً من أجل الاعتراف وتناول القربان المقدس. ثم بارك زوجته وابنته لوبوف وابنه فيودور. وقد استدعى الدكتورُ بريتسيل طبيبين آخرين للتشاور.

- الثلاثاء 27 كانون الثاني (يناير): لم يتكرر النزف. وحضر منضد الحروف من المطبعة لاستلام مخطوطة العدد الأول لعام 1881 من «يوميات كاتب». وشعر دوستويفسكي بالاطمئنان، واستدعى ولديه للتحدث إليهما. وقد شاع نبأ مرضه في المدينة كلها، وتدفق الأقرباء والأصدقاء والعوّاد إلى منزله، ولكن الأطباء منعوا الدخول إلى غرفته، وأشاروا عليه بالراحة والنوم قدر المستطاع.

- الأربعاء 28 كانون الثاني (يناير): قال لزوجته: «هل تعلمين يا آنيا... لقد أيقنت الآن بوضوح أنني اليوم سأموت... تذكّري يا آنيا أنني أحببتك على الدوام، ولم أخنك ولا حتى في أفكاري...». واستدعى ولديه عدة مرات وزودهما بنصائحه وتوصياته الوداعية، وقبلهما وباركهما. تكرر النزف في هذا اليوم أكثر من مرة. وفي الساعة السادسة والنصف مساء فقد دوستويفسكي الوعي، وتحول تنفسه إلى حشرجة وصفير ضعيف يخرج من حلقه. وفي الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين فارق دوستويفسكي الحياة.

- 29 كانون الثاني (يناير): صدر آخر عدد من «يوميات كاتب».

- 31 كانون الثاني (يناير): حُمِل نعش دوستويفسكي من شقته إلى كنيسة «الروح القدس»

في دير الكسندرو - نيفسكي وشيعه موكب شارك فيه اثنان وسبعون وفداً وخمس عشرة جوقة من المنشدين والمرتلين، وضم نحو ثلاثين ألف شخص.

- 1 شباط (فبراير): دُفن جثمان دوستويفسكي في مقبرة «تيخفينسكي» بجانب قبر الشاعر جوكوفسكي.

- أوائل شباط (فبراير): كتب ليف تولستوي في رسالة إلى نيكولاي ستراخوف: «كم كنت أتمنى لو استطعت أن أقول عن دوستويفسكي كل ما أشعر به تجاهه... أنا لم أر هذا الشخص قط، ولم يكن لي أية علاقة مباشرة به، ولكن فجأة، عندما مات، أدركت انه كان أقرب إنسان إلي، وأعز إنسان لدي، وأكثر من كنت بحاجة إليه... لقد ذهلت، ثم اتضح لي كم كان عزيزاً علي، وبكيت، وأنا الآن أبكي».

- في عامي 1882-1883: صدرت مجموعة أعمال دوستويفسكي الكاملة الأولى بعد وفاته في أربعة عشر مجلداً، مع سيرته ورسائله وعبارات مأخوذة من دفتر ملاحظاته، وذلك بفضل الجهد الكبير الذي بذلته زوجته آنّا دوستويفسكايا، التي نذرت حياتها بعد وفاته للحفاظ على تراثه وتخليد ذكراه.

المقدمة
«تقرير عمّا رأيت وسمعت وقرأت»

اقترن نشاط دوستويفسكي الأدبي بـ «الحنين إلى الجاري»، أو بتعبير آخر، بالاهتمام العميق بالأحداث المعاصرة، وبالظواهر الطابعية[1]، وبتفاصيل الواقع المحيط المعبِّرة.

وكان الكاتب يرصد جميع الجوانب الدقيقة في تطور «الحياة الحية»، ويتابع بانتباه شديد انعكاس تجلياتها في الصحافة الروسية والأجنبية. ويذكر شاهدو عيان أن الكاتب كان يستعرض الجرائد والمجلات يومياً «حتى آخر عمود منها»، ويحرص على أن يلتقط من خلال التنوع الكبير في الوقائع الهامة والثانوية، وحدتها الداخلية وأسسها الاجتماعية - النفسية، وجوهرها الروحي - الأخلاقي، ومغزاها الفلسفي - التاريخي.

ولم يكن مردّ الحاجة إلى ذلك خصوصية شعريته الروائية وحدها، التي امتزجت فيها امتزاجاً عضوياً الثيمات الخالدة مع المشكلات اليومية الملحة، والقضايا العالمية مع تفصيلات الحياة المعيشية المتاحة للمعرفة، والفنية العالية مع السرد المقالي اللاذع. إذ إن الكاتب كان يشعر دائماً بالرغبة الجارفة في التحدث إلى القارئ رأساً والتأثير تأثيراً مباشراً في مسار التطور الاجتماعي، والمساهمة على نحو فوري في تحسين العلاقات بين الناس، وقد عمد منذ الثمانينيات إلى نشر بعض وصفياته التصويرية وأساخيره الصحفية - الفنية[2] في مجلتي «الوقت» و«العصر» اللتين كان يصدرهما آنذاك مع أخيه.

بيد أن دوستويفسكي عزم على أن يصدر، بادئ ذي بدء، مجلة خاصة به يسميها «كِتاب المذكرات»، ثم يصدر فيما بعد مطبوعة «شبيهة بالجريدة». وقد تحققت هذه الأفكار جزئياً في عام 1873، عندما بدأ نشر الفصول الأولى من «يوميات كاتب» في مجلة الأمير فلاديمير ب. ميشيرسكي «غراجدنين» (المواطن)، التي كان دوستويفسكي يحررها آنذاك. ولكن الأطر المفروضة على المجلة الأسبوعية وتبعيتّها لإرادة مُصدرِها، كانا يحدّان نوعاً

ما من نطاق الموضوعات التي يتناولها دوستويفسكي في مقالاته، ومن مضمونها الفكري. وكان من الطبيعي تماماً أن يسعى للتمتع بحرية أكبر في إلقاء الضوء على «الكمّ الهائل» من الموضوعات التي تعنيه، وللتحدث بلا قيود إلى القراء مباشرة باسمه شخصياً، من غير اللجوء إلى خدمات الوسطاء من المحررين والناشرين.

وقد استمر دوستويفسكي من عام 1876 حتى عام 1881 (مع انقطاع دام عامين انشغل خلالهما بكتابة رواية «الإخوة كارامازوف») بإصدار «يوميات كاتب» في مطبوعة مستقلة، تصدر مرة في الشهر، كقاعدة عامة، في أعداد مفردة، يتراوح حجم كل منها بين ملزمة ونصف وملزمتين (وتتألف الملزمة من ست عشرة صفحة). وقد بيّن الكاتب في الإعلان الذي نشره مسبقاً في صحف بطرسبورغ أن المطبوعة: «ستكون يوميات بالمعنى الحرفي للكلمة، ستكون تقريراً عن الانطباعات التي تكونت لديّ فعلاً في كل شهر، تقريراً عمّا شاهدته وسمعته، وقرأته».

وكان الكاتب يسوق، بالفعل، على صفحات «يومياته» حديثاً مفعماً بالمشاعر الحارة تتخلله ذكريات شخصية عن شؤون مختلفة، وعن مجالات تبدو في الظاهر غير متقاطعة البتة، إذ يتحدث عن السياسة الداخلية والخارجية، وعن العلاقات الزراعية وملكية الأرض، وعن تطور الصناعة والتجارة، وعن اكتشافات علمية وعمليات عسكرية. وتشد انتباهَ الكاتب كوارثُ القطارات، والمحاكمات القضائية، وشغف المثقفين باستحضار الأرواح، واستفحال ظاهرة الانتحار في أوساط الشباب، كما يقلقه تفكك الأواصر الأسريّة، والقطيعة بين مختلف الشرائح الاجتماعية، وسيادة «الأصفر الرنان» وتفشي الإدمان على الخمرة، وتشويهُ اللغةِ الروسية، والعديد من المشكلات الملحّة الأخرى. وتنبسط أمام القارئ «بانوراما» تاريخية شديدة الاتساع تصوِّر روسيا بعد الإصلاحات (التي جرت مع إلغاء نظام القنانة في بداية الستينيات): كبارَ الوجهاء الذائعي الصيت، وأناسَ الطبقة الوسطى غير المتجذرين، وملّاكَ الأراضي المفلسين، ورجالَ القانون الناجحين، والمحافظين والليبراليين، والبترشيفسكيين السابقين، والفوضويين الشعبويين، والفلّاحين المستكينين، والبرجوازيين المغرورين. كما يتعرف القارئ على الأحكام غير العادية التي يطلقها الكاتب على شخصياتِ وإبداعاتِ كلٍ من بوشكين ونكراسوف وتولستوي...

بيد أن «يوميات كاتب» ليست صورة متعددة الألوان، وليست منظاراً يرينا أشكالاً مختلفة لا تنفك تتوالى باستمرار لتعرض أمامنا وقائع متنوعة وموضوعات غير متقاطعة؛ بل هي عمل له نظائمه[3] التي تحتل الدرجة الأولى من الأهمية. ولنأخذ على سبيل المثال «موضوع الطفولة» الذي يقدم لنا تصوراً جلياً عن الأسلوب والمنهج اللذين يتميز بهما فن كتابة المقالة

الصحفية لدى المؤلف. فعندما يزور دوستويفسكي نادي الفنانين التشكيليين لحضور الاحتفال حول شجرة عيد الميلاد نراه يرنو بانتباه إلى الوجوه، ويتابع التصرفات، ويدرس نفسيات الصِّبية والبنات من مختلف الأعمار، ولكن ملاحظاته المشخّصة للغاية تتنامى على الفور إلى درجة التأملات الثاقبة في موضوعات «علم التربية الميسّر» و«الفتوّة الشَّرهة» و«الحق في انتهاك الشرف». وهو لا يستطيع في الوقت نفسه الامتناع عن المقارنة بين من يُسمَّوْن المراهقين الموفَّقين، ومصاير أترابهم التعسين، الذين يعيشون وسط إدمان السُّكْر، وتفشّي الفسق، ويهلكون من الجوع والحرمان. ويزور الكاتب «دار التربية» و«إصلاحية الأحداث الجانحين»، ويجلس أياماً بكاملها في قاعات المحاكم حيث يجري الدفاع عن مصالح الأطفال. وتساعد كتاباته المفعمة بالحماسة والمعلّلة نفسانياً وأخلاقياً، تساعد أحياناً على إصدار أحكام أكثر إنصافاً، كما جرى في قضية المرأة الشابة الحامل التي دفعت، وهي في حالة هياج ابنةَ زوجها ذات الست سنوات من نافذة الطابق الرابع إلى الشارع؛ كما أن من شأن هذه الكتابات أن تدفع القرّاء إلى التفكير في العلاقات المتبادلة بين «الآباء» و«الأبناء»، وفي مسؤولية المجتمع عن تربية الجيل الناشئ الذي يتوقف عليه مستقبل روسيا.

إن هذا التصادم بين الشخصي والاجتماعي، وبين المحدد والعام، الذي يسم كل صفحة من صفحات «اليوميات» يمكن أن نلاحظه -من حيث التباين الموضوعاتي- في مجال مختلف تماماً من مجالات تفكير الكاتب ومحاكماته، هو مجال السياسة الخارجية: حول عدم إمكانية القبول بتقوية عسكرة ألمانيا البسماركية، والغدر في سلوك حكومتي إنكلترا والنمسا، وضرورة تقديم المساعدة الفعالة للسلاف المضطهدين قبل أي شيء آخر. فمقاطعتا البوسنة والهرسك ثارتا في عامي 1875-1876 ضد النير العثماني، ثم تبعتهما كل من بلغاريا وصربيا، ولم تُقْدِم السلطات الروسية بادئ ذي بدء على الوقوف بصراحة إلى جانب الثائرين وذلك بتأثير الضغط الدبلوماسي الأوربي. أما المجتمع الروسي فقد تعاظمت فيه الحركة التطوعية التي شارك فيها ممثّلو جميع الشرائح الاجتماعية. واضطلعت بدور كبير في هذه الحركة الهيئة الخيرية السلافية التي تأسست لتقديم المساعدة للشعوب الشقيقة. وكان دوستويفسكي عضواً في هذه الهيئة. وقد راح يدعو بلا كلل على صفحات «يوميّاتِه» إلى تقديم دعم فعال للنضال الوطني التحرري الذي يخوضه السلاف، ويلقي الضوء بانتظام على جميع تطورات هذا النضال. ويُبلغ عن سير العمليات القتالية بدقة تضاهي دقة البلاغات العسكرية، ويناقش مناقشة العارف المتضلع نيات ومقاصد الحكومات الأوربية، أو القضايا الجوهرية في التكتيك والتسليح، ويتحدث بألم عميق عن العذابات المضنية التي يكابدها البلغار، ولا سيما النساء والأطفال، ويروي باعتزاز صادق أخبار البطولات والمآثر النبيلة التي يجترحها المتطوعون،

وتضحيات الشعب الروسي في صالح السلاف المضطهَدين. وكان من شأن هذا الاستعداد لتقديم المساعدة النزيهة التي وحّدت الناس، بغضّ النظر عن الحواجز الاجتماعية والحدود الفئوية وقَوَّتْ عزائمهُم عن طريق الوعي بنكران الذات، أنْ دفع دوستويفسكي إلى التفكير بأن روسيا سيكون بإمكانها في المستقبل أن تقول للعالم «كلمة عظيمة» تصلح لأن تكون «وصية لتوحيد الإنسانية ككل، ولكن ليس بروح الأنانية الذاتية التي يتوحد بها الناس والأمم الآن ضمن أطر حضارتهم توحداً اصطناعياً وغير طبيعي، على خلفية الصراع من أجل البقاء، مُعيِّنين في أثناء ذلك على أساس العلم الوضعي حدوداً أخلاقية للروح الحرة، وفي الوقت نفسه يحفر بعضهم حُفراً لبعض، ويكذب بعضهم على بعض ويعيبه ويفتري عليه».

وعندما يتأمل الكاتب الوقائع الملموسة لمشاركة روسيا في الحرب التحررية التي تجري في البلقان يصل إلى نتائج أكثر عمومية وشمولاً: «إذا لم تعش الأمم وفق أفكار سامية ونزيهة وفي سبيل أهداف سامية مسخّرة لخدمة الإنسانية فإنها ستلاقي الفناء بدون شك، ستتجمد وتفقد قوتها وتموت».

وأياً كان الموضوع الذي يتحدث عنه كاتب «اليوميات»، سواء تحدث عن جمعية الرفق بالحيوان، أو عن موضوعات أدبية، أو عن جندي معذب، أو عن حاضنة أطفال طيبة، أو عن الحقيقة الدموية للأفعال الإرهابية، أو عن الأحلام الطوباوية بـ «العصر الذهبي» فإن فكرَه يُغني دائماً الوقائع الجارية بتداعيات وتشبيهات موازية عميقة، ويضع هذه الوقائع ضمن الاتجاهات الرئيسة في مسار تطور الثقافة والحضارة والتاريخ والإيديولوجيا والتناقضات الاجتماعية والخلافات الفكرية. وقد جمع الكاتب في أثناء إلقائه الضوء على موضوعات تتسم بكل هذا التنوع، على مستوى مشخّص للغاية، وإنساني عام في الوقت نفسه، جمع عضوياً بين أساليب وأصناف أدبية مختلفة يمتزج فيها المنطق الصارم بالصور الفنية، و«التجريد الساذج لفكرة ما» بالتراكيب الحوارية المشخَّصة، مما كان يتيح له إمكانية التعبير عن كل التعقيد والتعدد البُعدي اللذين تتسم بهما الإشكالات التي يعالجها. وكان يعمل على تحديد الجوهر الأخلاقي لكل إشكالية يتناولها، وعلى «الكشف، بقدر الإمكان، عن وجهة نظرنا القومية والشعبية والإشارة إليها».

ويرى دوستويفسكي أن دراسة أية ظاهرة في الواقع المعاصر يجب أن تُجرى في ضوء خبرة الماضي الذي لا يكف عن التأثير في الحاضر من خلال هذه التقاليد أو تلك. وكلما أعطينا العنصر القومي والتاريخي والإنساني العام أهمية أكبر في فهمنا للمسائل الجارية الملحّة ازدادت قوة الإقناع التي تتسم بها حلولنا الراهنة لهذه المسائل.

إن هذا العمل الذي يبدو في أيامنا فوق طاقة هيئة تحرير كاملة كان يشغل دوستويفسكي تماماً، ويتطلب بذل جهود جسدية وروحية ضخمة. فقد كان عليه أن يجمع المواد بنفسه، ويُعِدّها بعناية، ويرتبها ويدققها، ويجد الوقت لإصدارها في الموعد المحدد متقيداً بالحجم المعين سلفاً. وكان الشعور الوجداني المرهف للغاية لدى دوستويفسكي يجعله يعيد كتابة المسوّدات غير مرة، ويحصي بنفسه عدد الأسطر والصفحات الطباعية. وانطلاقاً من خوفه على مصير المخطوطات كان يحرص على تسليمها للمطبعة بنفسه، أو عن طريق زوجته التي كانت مساعدتها لا غنى عنها، وكانت تساهم شخصياً بفعالية في إعداد «اليوميات» وتوزيعها. وكان دوستويفسكي يعمد بعد كل إصدار، كما يفيد شاهد عيان، إلى «الخلود للراحة عدة أيام روحياً وجسدياً مستمتعاً بالنجاح...».

وكان النجاح كبيراً بالفعل. فقد كان اهتمام القراء بهذه المطبوعة الشديدة الأصالة يزداد مع كل إصدار. وقد ازداد بالتدريج عدد نسخ «اليوميات» التي توزع على المشتركين وتباع للجمهور حتى بلغ ستة آلاف نسخة. وكان ممثلو مختلف شرائح المجتمع الروسي المهتمة بالشؤون الفكرية يصغون إلى صوت كاتب «الجريمة والعقاب» و«الأبله» و«الشياطين»، الكاتب الثقة الذي كان آنذاك في قمة قوته الروحية وموهبته، متلقّين كلماته، التي توقظ ضمائر أبناء وطنه وتذْكي فيهم مشاعر الشرف والعدالة، بصفتها كلمات إرشادية وتنبُّئيّة.

وأخذت رسائل القراء تتوارد إلى دوستويفسكي؛ ويقول مرتب المواد الطباعية المنضّدة م.أ. الكساندروف في مذكراته بهذا الصدد: «في أواخر العام الأول من إصدار «اليوميات» نشأت بين فيودور ميخايلوفيتش وقرائه صلة لا مثيل لها عندنا في روسيا، وفي العام الثاني اتسعت أبعاد هذه الصلة اتساعاً كبيراً: فقد كان القراء يمطرونه برسائلهم وزياراتهم ليعبروا عن شكرهم على ما يقدمه لهم من غذاء أخلاقي رائع في «يومياته». وكان بعضهم يقول إنه يقرأ «اليوميات» بإجلال كما يقرأ «الكتاب المقدس» وبعضهم كان ينظر إليه على أنه مرشده الروحي، وآخرون على أنه اعتراف متنبئ، ويرجونه أن يبدد شكوكهم إزاء بعض مسائل العصر الملحّة.

وكان كثير من مراسليه يرون فيه لا كاتباً موهوباً فحسب، بل إنساناً حكيماً أيضاً ذا قلب مرهف الحس لا يتوانى عن تلبية من يطلب منه المشورة، وقادراً على تقديم النصيحة الوحيدة الصحيحة، وعلى الوقاية من الإقدام على تصرفات خاطئة لا يمكن إصلاحها، وقادراً على إدخال الطمأنينة إلى النفوس.

كتبت له الثورية الشعبية أ. ب. كوربا: «أقول لك بصراحة إنني أنتظر مساعدتك من غير

أن يكون لي حق في ذلك سوى حق الإنسان الذي يعاني الألم، وأنا عانيت ألم الروح خلال سنوات عديدة، وإذا كنت أتجرأ على إقلاقك بأنيني فذلك لأنني أعرف أنني لم أجد طبيباً أفضل منك». وها هي قارئة أخرى تشكر للكاتب دفاعه عن الأطفال المهانين ظلماً وتعترف قائلة: «لو أمكن أن أجد نفسي الآن، في هذه اللحظة بقربك، يا فيودور ميخايلوفيتش لكنت عانقتك بسعادة بالغة من أجل «يومياتك» عن شهر شباط. لقد بكيت بارتياح وأنا أقرؤها، وعندما أنهيتها شعرت بمزاج بهيج. ولذا فأنا أشكرك. أمّ». وهاكم اعترافاً مؤثراً آخر أرسلته فتاة مراهقة: «إنني لا أعرف لِمَ أكتب إليك، أشعر بقوة لا أدري كنهها تدفعني إلى ذلك، وفي كل مرة أقرأ فيها «يومياتك» أشعر كأنك واحد من أهلي، ولكنني لا أحسن التعبير عن أفكاري».

وكانت أمثال هذه الأصداء تشيع ارتياحاً معنوياً عميقاً في نفس دوستويفسكي وتشد من عزيمته في عمله الشاق، علماً بأنها كانت شديدة التنوع في مضمونها؛ فبعضها، على سبيل المثال، كان يحتوي على رجاء المرسل مساعدته على إيجاد وظيفة له، أو تقديم عون مادي، أو تقويم مخطوطة لكاتب مبتدئ. وفي أحيان كثيرة كان القراء يلفتون انتباه الكاتب إلى وقائع معينة ويعقدون معه حديثاً جدياً يؤثر في تحريك شكل «اليوميات» وأسلوبها الأدبيين. وكان دوستويفسكي يقتبس في بعض الأحيان نبذاً من رسائل القراء ويحللها ويوافق على بعض الآراء أو يناقشها. يقول كاتب «اليوميات» في معرض تقويمه للأهمية الأخلاقية والإبداعية التي يَتسم بها التواصل المباشر مع القراء: «إن سماع الكاتب كلمة طيبة ومشجعة تأتي مباشرة من قارئ يتعاطف معه أحب إليه وأهم لديه من أن يقرأ أية ثناءات توجه إليه في الصحافة. ولا أعرف، في الحقيقة كيف أفسر ذلك: إن ما يأتي من القارئ مباشرة يبدو أكثر صدقاً وأكثر مطابقة للواقع».

أما ما يخص التعليقات المهنية التي تنشر في الصحافة، والتي تمليها تحيزات فكرية، فإنها، بغضّ النظر عن الخلافات في الآراء، كانت تدفع ضريبة نكران الذات المواطني لدى كاتب «اليوميات»، ونبل نيّاته، وعمق محاكماته. فالصحف الليبرالية والمحافظة والديمقراطية-الشعبية كانت تنوّه بـ«الروح الإنسانية السامية» لدى دوستويفسكي وبـ«إيمانه الحار بقوة الشعب اللا محدودة» وبـ«تعاطفه الصادق معه في آلامه»، وبـ«أفكاره الأصيلة العميقة النيّرة». ولكن لم يكن يندر أن ترتفع أصوات تقول له إنه، بالعكس، لا يعرف الشعب، ولا يفهم الشباب، ولا يحترم فئة النبلاء، ويوجه «اتهامات عبثية» إلى المجتمع الروسي. وكانت استقلالية موقفه تحيّر الصحفيين المنتمين إلى مختلف الاتجاهات، مما يجعلهم يغيّرون موقفهم من «اليوميات» من النقيض إلى النقيض. وكان دوستويفسكي يدرس بانتباه التعليقات المتعاطفة والمعارضة ويدقق في الإصدارات التالية بعض الآراء ووجهات النظر،

ويشرح قناعاته التي تكونت لديه عن تجربة ومعاناة، مما جعله يغدو المشارك الأبرز، على الأرجح، في الحياة الفكرية في روسيا خلال النصف الثاني من سبعينيات القرن التاسع عشر.

بيد أن دوستويفسكي اضطر في نهاية عام 1877 إلى إيقاف إصدار «اليوميات» ليوقف كل جهوده على كتابة رواية «الإخوة كارامازوف». ومع أنه كان عازماً على استئناف عمله الصحفي في بداية عام 1881، فإنه أصدر في عام 1880 عدداً واحداً من «اليوميات» نشر فيه خطابه الشهير عن «بوشكين» الذي ألقاه في الاحتفال المكرس لتدشين تمثال «بوشكين» في موسكو. إن أعمال بوشكين كانت بالنسبة لكاتب «الإخوة كارامازوف» موضوع تأملات إبداعية دائمة. فقد كان يرى في أبطال هذه الأعمال لا مجرد شخصيات تنتمي إلى حقبة تاريخية محددة، بل يرى فيهم «أشخاصاً ضخاماً» يجسدون الصدامات الأساسية في الواقع الروسي في القرن التاسع عشر. وكان دوستويفسكي يرى أن ثمة إنجازاً متميزاً للشاعر يتمثل في أنه استطاع أن يرى «الجمال المستكين» في الإنسان الروسي وأن يدرك كامل قيمة المثل العليا والمقدسات التي يؤمن بها الشعب الروسي. كما كشف دوستويفسكي في إبداع بوشكين عن ظاهرة «الترجيع العالمي»[4] التي تشكل ضمان التوحّد الممكن بين الانتلجينسيا والشعب، وبين روسيا وأوربا والبشرية بأسرها.

إن النجاح الباهر الذي حظي به الخطاب في الاحتفالات البوشكينية، والجدل الذي ثار حوله دلّا على شعبية دوستويفسكي التي ما انفكت تتنامى وتغدو مضمونة روحياً، وأقنعاه بالضرورة الملحة لتحقيق ما كان يجول في خاطره وهو الاستمرار في إصدار وليده الفكري الأثير. ولكن لم يتيسر له سوى إعداد «يوميات» كانون الثاني. وكان، حتى وهو على وشك الرحيل، قلقاً على مصير هذا الإصدار ويعمل على إدخال التصحيحات الأخيرة عليه قبل الطباعة. تقول آنا غريغوريفنا دوستويفسكايا في مذكراتها بهذا الصدد: «وسط النهار تملكه القلق على «اليوميات»... جاء مرتّب المواد الطباعية في مطبعة سوفورين حاملاً إليه مجموعة الصفحات الأخيرة. وتبين أن ثمة سبعة أسطر زائدة ينبغي حذفها لترتيب المادة كلها ضمن ملزمتين. أقلق هذا الأمر فيودور ميخايلوفيتش فاقترحتُ اختصار بضعة أسطر من الصفحات السابقة ووافق زوجي على هذا. ومع أنني أخّرت مُرَتِّب المواد الطباعية نصف ساعة لكننا استطعنا تسوية الأمر بعد إجراء تصحيحين قرأتهما لفيودور ميخايلوفيتش؛ وعندما أخبره مرتب المواد فيما بعد أن العدد أرسل في لوحات التنضيد إلى ن. س. أبازي (الرقيب) وأنه أجازه، اطمأنت نفسه إلى حد كبير».

ونحن عندما نقرأ «يوميات كاتب» الآن لا نكف عن الشعور بالدهشة؛ ولعل السبب الأهم هو أن الكثير من استنتاجات الكاتب التي توصل إليها منذ مئة سنة نجدها اليوم ليست

آنية فحسب، بل ضرورية للغاية أيضاً إذا ما تحرينا بصدق وعمق وواقعية حقيقية المضمون الأخلاقي لهذه المهام أو تلك، وللوسائل المناسبة التي نختارها للقيام بها. ولا أظن أن ثمة مجالاً للشك في أنها ستبقى ملحّة مدة طويلة على الرغم من أن الواقع يتغير بشدة وسيتغير في المستقبل تغيّراً غير مألوف.

وأغلب الظن أن سر هذه الأهمية التي لا تزول في هذه الكتابات الصحفية غير المعتادة وغير المألوفة، لا يكمن في الدقة والحدة اللتين تتميز بهما، بقدر ما يكمن في نفاذها بحكمة إلى لب المشكلات المبحوثة، وكذلك في الوحدة الفكرية التي تتجلى في مضمون شديد التنوع. لذا فإن من الهام جداً أن نتبيّن، ونحن نحدد دائرة الموضوعات التي تناولها الكاتب في نصوصه المفعمة بالألم والقلق، الأفكار الرئيسة التي تكشف عن المنطق الداخلي للصلة الخفية أحياناً بين وقائع وأحداث وظواهر غير متشابهة، ولكنها كلها تظهر الجذور المشتركة لهذه أو تلك من المسائل الحيوية «الملحّة» وتشير إلى طرق حلها.

إن كتابات دوستويفسكي الصحفية تقدم لنا درساً نادراً ومعبّراً، ولكن للأسف غير مستوعب بالقدر الكافي، وهو يتضمن فهماً متعدد الجوانب للواقع المعاصر له، ومستشرفاً مستقبل هذا الواقع. ولعل دوستويفسكي هو الكاتب الروسي الذي أنعم النظر في هذا الواقع، أكثر من أي كاتب روسي آخر عندما اختلطت في روسيا بعد الإصلاح «الحياةُ التي تتفسخ» بـ «الحياة التي تولد من جديد»، وعندما انقلب «كل شيء رأساً على عقب لألف سنة» قادمة. ويصف «كاتب اليوميات» في إحدى مقالاته الوضعَ الذي كان قائماً آنذاك كما يلي: «العالم السابق، النظام السابق- سيئ جداً، ولكنه على كل حال نظام، وقد ذهب إلى غير رجعة. والغريب في الأمر أن الجوانب الأخلاقية المظلمة في النظام السابق: الأنانية، والكلبية[5] والعبودية والتفرقة، وبيع الذات، فضلاً عن أنها لم تذهب باندثار نظام القنانة فإنها ازدادت قوة وتطورت واستفحلت؛ في حين أن الجوانب الأخلاقية الجيدة في الحياة السابقة، وهي جوانب كانت موجودة، لم يبق منها شيء تقريباً...».

جاءت الظروف الجديدة مؤاتية لنمو الوعي البرجوازي الفرداني الذي زاحم القيم الروحية - الأخلاقية التقليدية، وساعد على تضخم النزعة العملية الجامحة لدى رجال الأعمال الذين كانوا مدفوعين عن شبه وعي بشعار باطني يقول: «ومن بعدي الطوفان»: «... النزعة المادية، التوق النهم الأعمى إلى اليُسْر المادي الشخصي، التوق إلى جمع المال ذاتياً بجميع الوسائل - هذا كل ما يُعترف به بصفته الهدف الأسمى، والقرار الرشيد، والتصرف الحر...».

ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الفهم الشديد الخصوصية للرشاد والحرية والهدف الأسمى

إلى تفكك الأسرة، وتعدد جرائم القتل، واستفحال الإدمان على الخمر: «... الأمهات يشربن، والأطفال يشربون، والكنائس تخلو من المصلين، والآباء يمارسون النهب والسلب... يكفي أن تسألوا الأطباء: أي جيل يمكن أن يخلّفه هؤلاء السكّيرون؟».

وكان دوستويفسكي يلاحظ بمرارة أن من جملة السمات التي تميز المرحلة الانتقالية غير المستقرة: انسلاخ الفئات الاجتماعية العليا والمثقفين عن الشعب وتزعزع القناعات التي استمرت قروناً، والنزعة الإنسانية المغرقة في العاطفية لدى «الجيل القديم» وإفلاسه فكرياً، والضيق النظري لدى «الجيل الجديد». وحتى في فن العمارة الوليد، بما فيه من أبنية ضخمة وسامقة، ولكن مجردة من الشخصية والروح، نجد «درجة قصوى من الفوضى تتناسب تماماً مع الفوضى السائدة في البرهة الراهنة».

ومما كان يحيّر دوستويفسكي إلى أقصى حد ظهور «كومة من المسائل»، كتلة هائلة من المسائل الجديدة التي لم تكن معروفة قط ولم يسمع بها الشعب قبل الآن، وذلك في عصر «الفوضى» و«حالات الانفراد الكبرى». بيد أن تعقد «البرهة الراهنة» كان يشتد، حسب تصوره بسبب أن «كل جواب كان يولّد ثلاثة أسئلة جديدة، ويسير كل هذا (crescendo)* مما يؤدي إلى الفوضى. وليت الأمر كان يقتصر على الفوضى: فالحلول الفجة المرتجلة أسوأ من الفوضى «وذلك لأن هذه الحلول لا تبرئ من الأمراض الاجتماعية، بل تكتفي بدفعها إلى الأعماق. كما أن الحلول الوحيدة الاتجاه ليست أفضل منها، إذ إنها تشكو من وحدة الجانب المتشنِّجة». ويرى الكاتب أن ثمة «أغبياء متجهمين قد توالدوا سواء وسط جيل «الشيوخ» والمحافظين، أو وسط جيل «الشباب» والليبراليين، «وعبسوا واحتدّوا، وساروا إلى الأمام، إلى الأمام، على خط مستقيم طوال الوقت متجهين نحو نقطة واحدة».

وانطلاقاً من كونه عدواً مبدئياً للحلول الفجة المرتجلة درس دوستويفسكي بعناية وتروٍ الظواهر الجارية في تلك البرهة «التي ربما كانت الأكثر غموضاً والأكثر إرباكاً والأكثر انتقالية والأكثر شؤماً في تاريخ الشعب الروسي»، في ضوء الأفكار الكبرى والقضايا العالمية، والتجربة التاريخية بكاملها التي تتجلى فيها الخصائص الأساسية للطبيعة الإنسانية. يقول الكاتب واصفاً طريقته في الكتابة الصحفية إن من الضروري تقديم «تقرير عن الحدث لا بصفته مجرد نبأ بل بقدر ما يتبقى لنا من هذا الحدث من مغزىً ثابت ومرتبط بفكرة عامة كليّة». وهو يرى أنه لا يجوز «وحدنة الحدث» وتجريده من «الحق في أن ينظر فيه كجزء مرتبط بالكل». كما أن ممارسة أي نشاط ذي أهمية اجتماعية «تفترض تناول القضية من

(*) تصاعدياً (بالإيطالية).

جذورها الأكثر عمقاً» أي: دراسةَ ما يحدث بتتبع أصوله في سرائر النفس البشرية. وكان فكر الكاتب الثاقب يتوجه إلى جذور الطبيعة البشرية التي تغذي على نحو خفي ثمار تاريخ الإنسان، يتوجه إلى العقد العصبية لا إلى النهايات المحيطية للعمليات الاجتماعية والترابطات الحياتية والعلاقات الشخصية - الحميمة. وكانت هذه البصيرة التي تنفذ إلى جوهر الأمور وتتجلى إلى أقصى حد، سواء في أعماله الفنية الإبداعية أو في كتاباته الصحفية، تتيح له أن يفهم على نحو أوضح ما الذي يمكن انتظاره من الإنسان، وبِمَ نأمل منه؛ وما الذي نخشاه مما لديه.

وكان دوستويفسكي يرى بوضوح كيف تغيّر المظهر الخارجي للإنسانية خلال حركة التاريخ عبر القرون بفضل تحسن ظروف وجودها المادية، وكان هذا مشروطاً بالعلاقة المتبادلة بين الإنجازات الفكرية والنجاحات في مجال الإنتاج والعلم والتقنية. ولكن هذا لم يؤد إلى أن يُستأصَل من النواة الروحية - النفسانية للإنسان حب السلطة، والحسد، والغرور، والغرائز الأنانية الأخرى التي تُحدِث تنافراً مخلاً في أية علاقات اجتماعية.

كان دوستويفسكي يحلم بشغف بأن يحقق البشر وحدة متكاملة، متغلبين على أطماعهم الأنانية التي تشكل نقاط الضعف في طبيعتهم، وبأن يعانق بعضهم بعضاً بصدق وعفوية. وقد ذكر في دفتر ملاحظاته أنه «لا يوجد أسمى من فكرة العناق هذه». وكان كاتب «اليوميات» يرى أن الوجود البشري من غير هذا الهدف السامي غير لائق ولا معنى له، ولكنه كان في الوقت نفسه يدرك تمام الإدراك تلك العقبات الكأداء التي تعترض الطريق إلى بلوغه: «إن كل ما أرغب فيه هو أن نصبح جميعاً أفضل بقليل مما نحن عليه. إنها رغبة في غاية التواضع، ولكنها، أواه، في غاية المثالية». ويتبين أنّ مهمة «أنْ نصبح أفضل بقليل» تفوق بما لا يقاس، من حيث مثاليتها وتعقيداتها، كل مصاعب إخضاع الطبيعة لإرادتنا وتكييفها لغرض زيادة رفاهنا المادي. وأكثر من هذا أن الدفع بالبحبوحة المادية إلى مركز الصدارة -وهذا برأي المنظّرين ذوي التفكير الوحيد الاتجاه من شأنه أن ينشئ الأسس اللازمة للسمو بالحياة وجعلها أكثر نبلاً- هو برأي دوستويفسكي أحد أهم الأسباب التي تؤدي إلى خلق حالات عديدة من «الحيرة» والارتباك في حضارتنا المعاصرة، وهو ينعكس بأشكال مختلفة على الحالة الروحية للإنسانية. ويتساءل دوستويفسكي في «اليوميات» مستشرفاً النتائج الهائلة التي سيفضي إليها العلم على صعيد التغييرات في الطبيعة و«تدجين» الأشياء: ما الذي سيحدث للناس عندئذ؟ أوه، طبعاً بادئ ذي بدء سيهللون ابتهاجاً وسيتعانقون بنشوة، وسيندفعون لدراسة الاكتشافات: (وهذا سيستغرق وقتاً)؛ وسيشعرون فجأة بأنهم مغمورون بالسعادة، إذا جاز التعبير، ومطمورون بالخيرات المادية؛ ولربما سيسيرون أو يطيرون في الجو، قاطعين

طيراناً مسافات هائلة بسرعة تفوق سرعة القطارات الحالية بعشرة أمثال، وسَيَجْنون من الأرض محاصيل خرافية، ولربما أنشؤوا كيميائياً كائنات عضوية، فأصبح اللحم كافياً ليكون نصيب كل فرد منه ثلاثة أرطال...* - أي باختصار: كُلْ واشرب وتلذذ. وسيصيح أهل البر والإحسان كافة: الآن بعد أن أصبح الإنسان مكتفياً، الآن فقط سيُظهر قدراته! فقد زال الحرمان المادي، وزال «الوسط» الخانق الذي كان سبباً لجميع العيوب، وسيغدو الإنسان الآن رائعاً وبارّاً!

لم يعد هناك كدح مستمر ليقتات الإنسان كيفما كان، والجميع الآن سيهتمون بالأمور السامية والأفكار العميقة، والظواهر العامة الشاملة. الآن، الآن فقط حلَّت الحياة الأسمى!... ولكن لا أظن أن هذه التهليلات الابتهاجية ستكفي لجيل واحد من الناس! سيرى الناس فجأة أنه لم يعد لديهم حياة، ولا حرية روحية، ولا إرادة ولا شخصية، وأن أحداً ما قد سرق منهم كل هذا دفعة واحدة؛ وأن الصورة الإنسانية قد اختفت وحلَّت محلها صورة العبد البهيمية، صورة البهيمة مع فارق واحد هو أن البهيمة لا تعرف أنها بهيمة، أما الإنسان فسيعرف أنه أصبح بهيمة، وسيدب التفسخ في البشرية وتتغطى أجساد الناس بالقروح وسيعضون على ألسنتهم من الوجع، ويرون أن الحياة قد انتُزعت منهم لقاء الخبز، لقاء «أحجار حوِّلت إلى أرغفة». وسيدرك الناس أن لا سعادة في العيش بدون عمل، وأن الذهن الذي لا يعمل ينطفئ، وأن المرء لا يمكنه أن يحب قريبه إذا لم يُضحِّ له بشيء اكتسبه بكدّه، وأن العيش بالمجان خساسة، وأن السعادة ليست في السعادة، بل هي في بلوغ السعادة.

إن هذه الأفكار تجعلنا نتذكر المقالات المتعددة التي نُشرت مؤخراً في الصحافة حول المسائل المتعلقة بنزعة «الشغف بالأشياء» وبنمط الحياة الاستهلاكي، والمناقشات حول النجاح الحقيقي والنجاح المزعوم في الحياة إلخ...

ونحن نرى أن الأفكار التي عبّر عنها دوستويفسكي منذ أكثر من مئة سنة تفوق بكثير، من حيث الجوهر والعمق، أفكار بعض كتّاب المقالات وبعض المشاركين في هذه المناقشات؛ إذ يرى هؤلاء أن حل المسائل المطروحة يكمن في إشباع احتياجات الناس المادية، إذا جاز التعبير، إشباعاً متسارعاً وأكثر عدالة، ولكن هذا المعيار لتحسين العلاقات الإنسانية يبدو أحياناً شديد الضبابية وغير قابل للتحديد بالمرة. إن «انغمار» الإنسان بالسعادة و«انطماره» بالخيرات المادية، لا يؤديان، حسب منطق دوستويفسكي الواسع الانتشار، إلى تخليص وعيه من الهموم اليومية من أجل التكامل الروحي، ولا يجعلان منه إنساناً رائعاً وصالحاً،

(*) الرطل الروسي= 409.5 غ.

بل بالعكس، يطفئان فيه شعلة الحياة السامية والطموح إلى الظواهر العامة الشاملة، ويحولان وجهه الإنساني إلى «وجه عبد بهيمي».

وكان دوستويفسكي يرى أن إرواء حاجات الإنسان إرواءً كاملاً وسريعاً يخفض من سموه الروحي ويفضي على نحو غير ملحوظ إلى تمتين القيد الذي يربطه بالمجال الضيق لتزايد الأشكال الظاهرية المحضة للحياة، وهي أشكال تزيد بدورها من تعددية جوانب الإحساس بالملذات وما يرتبط بذلك من «رغبات وعادات غبية ولا معنى لها وتخيلات غاية في السخافة». وكل هذا بدوره يساعد بأثر عكسي على تطور «شهوة التملك» وعلى التنامي اللانهائي لاحتياجات مادية صرف لا تنفك تُلبّى بأشياء متجددة، مما يجعل الإنسان أسير أحاسيسه الذاتية. ويرى الكاتب أن الناس، بحكم كونهم أسرى هذه الدورة، يوافقون لا إرادياً على أن يعيشوا كالحيوانات، أي «أن يأكلوا ويشربواويناموا ويبنوا أعشاشاً ويخلفوا أطفالاً. أوه! إن الأكل والنوم، والتغوط، والجلوس على الوثير ستظل طويلاً جداً تستهوي الإنسان على الأرض...».

وأمثال هذه «المثل العليا» بعيدة جداً، في تصور دوستويفسكي، عن كونها غير مؤذية بالنسبة لحالة الفرد الأخلاقية ولوجهة التطور التاريخي، وذلك لأنها تقوي لدى الإنسان «الأنانية المتورمة» وتجعله غير قادر على الحب الذي يتطلب التضحية، وتتغاضى عن تشكل فهم الحياة لدى الإنسان وفق «مذهب المتعة» مما يؤدي إلى إحداث الفرقة بين الناس. وعندئذ يتحول الإحساس بالجميل إلى التوق إلى فوائض وشواذ نزوية. وتستفحل الشهوانية استفحالاً هائلاً. والشهوانية تولّد القسوة والجبن... والقسوة بدورها تولّد الحرصَ القويَّ والجبانَ جداً على تأمين الذات. وهذا الحرص الجبان على تأمين الذات يتحول دائماً، في نهاية الأمر وعلى المدى الطويل، إلى نوع من الخوف الشديد على الذات، وينتقل إلى جميع فئات المجتمع، ويولّد توقاً شديداً إلى امتلاك المال وتكديسه، وهكذا يضيع الإيمان بالتضامن بين الناس وبأُخوّتهم، وبمساعدة المجتمع، ويرتفع عالياً شعار: «كل واحد لِذاتِهِ ومن أجل ذاته...»، «الجميع ينعزلون وينفردون. والأنانية تميت الشهامة».

إن الفهمَ العميق لأمثال هذه الصلات غير المبتذلة التي تربط النتائج بالأسباب، واستيعابَ نظائم التطور الاجتماعي هذه التي لا تتصف بوحدة الاتجاه قد سمحا لدوستويفسكي بأن يكتشف، في المهد، القصور الأخلاقي الذي تعاني منه مختلف المثل العليا الجديدة، بل على الأدق الأوثان الجديدة التي لا تستأصل العيوب الأزلية من نفوس الناس الذين تكيفوا معها، بل تغيّر اتجاه هذه العيوب فقط، مما يزيد من تعقدها. ويمكن أن ندرج ضمن منظومة تأملاته

حول هذه الأوثان أو هذه «المثل العليا التي لم تُسْتَوْضح بعد» ما يدعوه: «المقدسات غير المقدسة» فهو يقول: «إنني أبحث عن المقدسات، فأنا أحبها، وقلبي يهفو إليها، لأنني هكذا خلقت: لا أستطيع أن أعيش بغير مقدسات، ولكنني مع ذلك أريد أن تكون المقدسات أكثر قداسة وإن بقليل، وإلّا فهل تكون جديرة بالتقديس»؟

والمقصود بعبارة «المقدسات غير المقدسة» في الأسطر المقتبسة هو العدالة الشكلية التي لا تتطابق دائماً مع العدالة الحقيقية؛ وهذه العدالة الشكلية هي العدالة التي تتبناها «المدرسة الفتيَّة القائمة على مراوغة العقل وجفاف القلب». كما كان الكاتب يسمي الممارسة القضائية في منظومة العلاقات الحقوقية البرجوازية - الديمقراطية، التي كان يرى أن من الضروري الاعتراف بمزاياها، ولكن لا يجوز الزعم بأنها مزايا مطلقة. وكان يرى أن النظام الحقوقي لا يهتم إلّا بتأمين لياقة العلاقات الخارجية بين الناس بدون أن يلتفت إلى المضمون الداخلي الكامن خلف هذه العلاقات. «إن القانون الماكر يطالب، في أثناء ذلك، بمراعاة اللباقة الوثيقة». «سأكون لبقاً، ولكنني لن أقدم خبزاً»، هكذا كان دوستويفسكي يكشف عن التقديس الوثني للشكلانية القانونية التي يصبح ميلُ الفرد إلى التصرفات القبيحة ضمن غلافها الخارجي اللائق أقلَّ بروزاً للعيان، وأخفَّ وطأة، وألطف مظهراً، ما من شأنه أن يؤصل أكثر فأكثر النقائص الأزلية في الطبائع البشرية.

ونقرأ في دفتر ملاحظات الكاتب الكلمات الآتية: «المبارزة- باعتمادنا حَرفيّة الكلمة، تعني توسيعنا الميل إلى التصرفات القبيحة»، وهو يقصد بذلك أن مجموعة القواعد النبيلة ظاهرياً لا تعالج بل تؤجج حب الذات لدى الناس وتصل بالتفريق بينهم إلى حد القتل. وقد وجد دوستويفسكي أن أمثال هذه «الكلمات» الجميلة التي يحولها تقديسنا العشوائي لها إلى أفكار «ذات مظهر رسمي» منتشرة حوله على نطاق واسع، ومنها على سبيل المثال، الشعارات الزائفة: الحرية والمساواة والإخاء، التي تفضي في الواقع إلى تسيّد الوسطية العادية وكيس المال. إن حسه إزاء أمثال هذه التزييفات التي تعكس الأمور وتجعل الحديث عن الحقيقة يخبئ وراءه الكذب، وإدعاء الحق والتفكير السليم يخفي الغش، والطموح إلى المأثرة يموه الجريمة، كان حساً مزهفاً إلى حد غير عادي. وكان لا ينفك ينزع الغشاوة الذهبية عن الصياغات التي تبدو نبيلة من الخارج، ويعري مقاصدها العميقة التي لا تكون دائماً متاحة للفهم، ولا تدخل ضمن حقل الرؤية المتاح لـ «حكماء الأفكار الحديدية» وأصحاب «وحدة الاتجاه المتشنجة».

لذا فإن مما يرتدي أهمية كبيرة في أدب دوستويفسكي الصحفي نظرته الناقدة إلى ما يتمتع به مختلف رجالات المجتمع من سمعة مستقرة في الوعي الاجتماعي، وهم من أولئك

الذين تتأتى خصوصيتهم لا من المنزلة الروحية - الأخلاقية الرفيعة التي من المفترض أن ترتقي إليها نفوسهم، بل من وضعهم الاجتماعي المتميز، ومن الإنجازات التي تحققها عقولهم ومواهبهم. فأمام أفاضل الناس الشرطيين هؤلاء، كما يسميهم، تنحني الرؤوس بالإكراه بحكم سطوتهم الاجتماعية- الفئوية التي تغير أشكالها وفقاً لتغير الظروف التاريخية المحددة. وقد رصد الكاتب واحدة من هذه التغيرات عندما فقد أشخاص شرطيون سابقون «رعاية السلطة التي كانوا يتمتعون بها وكأن صفتهم الرسمية قد زالت» (كأمراء وأعيان ونبلاء) وحل محلهم سياسيون محترفون ورجالات علم ومتمولون... ويشير الكاتب بقلق إلى أن الناس في روسيا لم ينظروا قط إلى الشرطية الجديدة -«كيس الذهب»- على أنها القيمة الأسمى في الأرض، وأن هذه الشرطية لم «تُرفع قط من قبل إلى هذه المكانة ولم تعط قط هذه القيمة كما يحدث في أيامنا هذه» التي أصبحت فيها عبادة المال والجشع له يشملان كل مجالات الحياة، وأصبحت الفئة التي تمتلك السطوة في ظل هذه الشرطية هي فئة الصناعيين والتجار ورجال القانون إلخ... الذين أصبحوا هم «أفاضل الناس». وكان دوستويفسكي يرى أن لا شيء يمكن أن يكون أكثر فساداً من هذا الجيل، وكان يكتشف بتخوف تأثيره المفسد في كل مكان: «في المدة الأخيرة بدأ ينتاب المرءَ شعور بالرعب الفظيع على الشعب: مَنْ هم الذين يعدهم من أفضل أناسه... المحامي، والمصرفي والانتلجينسيا».

ويلاحظ الكاتب أن الذين أصبحوا يُصنَّفون في عداد «أفضل الناس» هم رجال العلم والفن والتنوير:

«قرروا أخيراً أن هذا الإنسان الجديد والـ «أفضل» هو ببساطة الإنسان المستنير، و«رجل» العلم المتخلي عن المعتقدات الخرافية السابقة. ولكن من الصعب تبني هذا الرأي لاعتبار بسيط جداً هو أن «الإنسان المتعلم ليس دائماً إنساناً شريفاً». إن العلم لا يكفي وحده لضمان اتصاف المرء بكرم الأخلاق».

وكان دوستويفسكي يدرج التناقض بين التعلم والأخلاق في عداد أهم التناقضات في العصر الجديد ويشير إليه باستمرار. وكان يقول للّذين يرون في إعلاء شأن التعليم علاجاً لكل العلل: «أم أنكم تظنون أن المعارف و«العلوم الصغيرة» والمعلومات المدرسية (وحتى الجامعية) بوسعها أن تصوغ نفسَ اليافع صياغةً نهائية، وأنه بحصوله على الدبلوم يمتلك على الفور طلسماً ثابتاً يتيح له معرفة الحقيقة وتجنب الإغواءات والأهواء والرذائل؟». وهو يعتقد أن خصوصية النشاط العلمي الذي يتطلب، كما يبدو ظاهرياً، نكران الذات وسماحة النفس، تُظهر «ضآلة شأن المطلب الأخلاقي، والحس الأخلاقي» مما لا يساعد على الصحو

الروحي والنقاء النفسي لدى الإنسان. ومن هنا يتأتى الظهور الطبيعي لأولئك الأشخاص المهولين ذوي الثقافة العالية والمكر الفائق والتوق المعقد للغاية إلى تدبير المكايد وامتلاك السلطة، ويتأتى كذلك الظهور الطبيعي لمسائل معينة، منها، على سبيل المثال، ما يتساءل عنه الكاتب: «هل هم كثر أولئك العلماء الذين يصمدون أمام الآفة التي يعاني منها العالم؟ إن الشرف الزائف، وحب الذات، والشهوانية تستحوذ عليهم أيضاً. تقصّوا، مثلاً، أمر هوىً من أهواء النفس كالحسد: إنه فظ ودنيء، ولكنه يتسلل إلى نفس العالِم حتى لو كانت من أنبل النفوس. فهو يرغب في أن يكون شريكاً في الأبّهة العامة والتألق... وبالعكس يرغب في الشهرة والمجد، ومن هنا يظهر في العلم الدجل والسعي الحثيث لإحداث أثر مدوٍ، والأسوأ من هذا كله، المنفعيّة، وذلك لبروز الرغبة في الإثراء. ويحدث الشيء نفسه في الفن: السعي لإحداث أثر مدوٍ، ولبلوغ نوع ما من أناقة الصنعة. أما الأفكار البسيطة، الواضحة، النبيلة، المعافاة، فإنها تصبح خارج دائرة الموضة: إذ المطلوب أشياء أكثر مجوناً بكثير، المطلوب تصنّع الأهواء».

وكان دوستويفسكي في عصره، عصر الاختلاطات الشديدة التنوع، والامتزاجات المعقدة، والأوثان الماكرة، وازدواجية السلوك يضفي أهمية خاصة على التيقظ الروحي وعلى إجادة فصل الحنطة عن الزؤان، وهذا ليس بالأمر السهل، وعلى القدرة على تمييز الإرهاصات المبكرة للحركات المرذولة في «الطبيعة البشرية» إذ لا يندر أن تكون هذه الإرهاصات مستكنة في الأعماق تحت ستار من أليق الأشكال المحتشمة التي تخفي تحتها رياءً أنانياً لا واعياً، ستار من أنواع النشاط الذي يكسب صاحبه الهيبة والجاه، أو حتى ستار من الأفكار التي تدعو إلى محبة البشر. «هنا تكمن الفظاعة، إذ يكمن عندنا الإقدام على أقذر الأفعال وأرذلها من دون أن يكون الفاعل شخصاً وغداً على الإطلاق! إن مصيبتنا في هذا العصر هي في إمكانية أن يَعُدَّ امرؤ نفسه غير وغد، بل أن يكون، في بعض الأحيان بالفعل تقريباً غير وغد، ويرتكب في الوقت نفسه رذيلة واضحة لا مراء فيها».

ويلاحظ دوستويفسكي أنهم أصبحوا يعيشون في عصر تبرز فيه بكل حدة وجدية مشكلات الباطل الشريف أو الكذب الصادق، أي الإحلال غير الواعي لقيم مزعومة محل القيم الحقيقية، واتخاذ موقف مبستر ومرتجل على نحو غير مدرَك من مختلف مسائل الحياة. ونتيجة لذلك يفقد الناس القدرة على ملاحظة «أن المَثَل الأعلى للرائع والسامي قد غشّاه الظلام، وأن مفهوم الخير والشر يتعرض للتشويه والتحريف، وأن الوضع الطبيعي السوي يُستعاض عنه، باستمرار، بوضع اصطلاحي شرطي، وأن البساطة والعفوية تَبيدان منسحقتين تحت وطأة الزيف الذي لا ينفك يستفحل!» وهكذا فإن أفضل الناس اصطلاحياً، إذ ينظرون

بسذاجة إلى صفتهم الاصطلاحية على أنها صفة مطلقة غير اصطلاحية، وأنها تتطابق مع الدور الذي يؤدونه في المجتمع، إنما يضفون على سلوكهم لا إرادياً مسحة التمثيل المخادع. وينشأ في نفوسهم نوع من «المسرح الداخلي» الذي يدعم عفوية الشكل الخارجي للدور الذي يؤدونه ويموّه العيوب، مما يقوي إلى حد كبير عدم التفاهم بين ممثلي الفئات والشرائح المختلفة في المجتمع، وكان الكاتب يرى أن الأثر السلبي لتمثيل دور الإنسان النبيل في الوقت الذي يمتزج فيه ألق المظهر الخارجي لسلوك أفراد المجتمع الراقي، والموظفين الحكوميين، والأدباء والفنانين مع «نقص» في تكوينهم النفسي وقد عُلّق فوق قلوبهم وعقولهم «قفل فولاذي» للحفاظ على «لباقة التصرف» إنما يكمن في أن تمثيل الدور المذكور يخلق «جمالَ قواعدَ» زائفاً بدلاً من «الجمال البشري» الحقيقي؛ وفضلاً عن أن هذا الجمال الزائف يموّه العيوب، فإنه يطمس بساطة النفس و«يحتّ» مناقبها الحقيقية على نحو غير ملحوظ؛ إذ إن «حرفية القواعد وشكلها» يعملان، حسب قانون خاص، على كبت «صدق المضمون» وإخفائه، على نحو غير ملحوظ، مما يمنع الإنسان من العمل على إصلاح نفسه ويرسخ فيه ما يشوبه من «نقص».

وكان الكاتب غالباً ما يرى حتى في الموهبة إمكانية حتمية لوجود فائض من «الاستجابة» للآخرين ومن «التمثيل» في التعامل معهم مما يؤدي لا إرادياً إلى تخدير الضمير، والانحراف عن الحقيقة، والابتعاد عن محبة البشر. فالشغف بالكلمة المبهرة أو بالأسلوب الرفيع، على سبيل المثال، يجعل التفكير يدنو شيئاً فشيئاً من الضحالة، ويجعل النفس تدنو من الخشونة لدى بعض الأدباء أو المحامين من ذوي النفوس السامية. فبدلاً من القلب يبدأ يخفق في صدر الواحد من هؤلاء «قطعة من شيء ما رسمي روتيني، وتراه يستأجر إلى أمد لا ينتهي ومن أجل جميع الحالات الطارئة المستعجلة القادمة مخزوناً احتياطياً من العبارات والكلمات والعواطف السطحية والأفكار الضحلة والإيماءات والنظرات الاصطلاحية، وكلها بالطبع، وفق آخر مقتضيات الموضة الليبرالية، ومن ثم تراه ينغمس لمدة طويلة، بل طوال الحياة في الطمأنينة والغبطة».

كما كان دوستويفسكي يرى عدم تمييز الحقيقة القائم على الكذب الصادق في التفاؤل الجامح لدى التقدميين المعاصرين الذين يعلقون الآمال في السير نحو الأخوة الإنسانية الشاملة على النجاحات التي تُحرز في مجال الثقافة والحضارة. ولكن إذا نظرنا إلى الأمر من غير أفكار مسبقة سنجد أن البشر لم يَجْنوا من الحضارة سوى أفكار مبسترة وتطور حَلّاقي[6]... وكلبية الفكرة[5] بسبب الابتسار والأشكال الضحلة التافهة. ولم يتثقفوا إلّا في مجال معتقدات خرافية جديدة، وعادات جديدة، وأزياء جديدة.

أضف إلى ذلك أن الحضارة البرجوازية التي اشتد عودها ولّدت عمليات لم تحفز على اكتساب ثقافة روحية عميقة من شأنها أن تغير بنية العالم الروحي بكاملها لدى الإنسان، وكذلك دوافع سلوكه الأنانية. «فالحرب تحدث كل 25 سنة ولا يوقفها التطور ولا أي شيء آخر... أي أن التقدم والإنسانية شيء، والقوانين التي يتحدثون عنها شيء آخر».

ووفقاً لهذه القوانين غير الواضحة فإن التقدم و«الإنسانية» اللذين لا يمتلكان أساساً روحياً كافياً، ومضموناً أخلاقياً واضحاً، معرضان لخطر التحول والانقلاب إلى تقهقر وهمجية. فبلوغ هدف نبيل كهدف المساواة بين الناس بلوغاً ظاهرياً لا يسمو بهم داخلياً. إذ «ما هي المساواة في العالم المتعلم الحالي؟ إنها مراقبة بعضنا بعضاً بغيرة، إنها الصلف والحسد...» ولا يمكن لأي معاهدات أن تحول دون اندلاع الحروب ما دامت هذه هي حالة النفوس البشرية، التي تولّد المنافسةُ المرئيةُ وغير المرئية بينها مصالحَ ماديةً جديدة وجديدة، وتتطلب تبعاً لذلك تنوعَ مختلف أشكال الاستيلاء والاحتلال تنوعاً متزايداً. وفي النتيجة إذا كان وقت السلم الذي تجري فيه الثورات الصناعية وسواها من الثورات غير الدموية لا يساعد على تغيير أسس التمركز الأناني في النشاط الإنساني، بل بالعكس يخلق وسطاً مغذياً لها، فإن هذا في الوقت نفسه يستدعي الحاجة إلى الحرب «ويخرجها من داخله كعاقبة بائسة». لذا كان دوستويفسكي يرى من الضروري تقويم الاتجاهات المستقبلية لـ «مسار الأمور» تقويماً متبصراً ومسبقاً، إذا جاز التعبير، وسؤال الذات باستمرار «أين يكمن الجيد وما هو الأحسن... إن الأسئلة في زمننا: هل الجيد جيد»؟

وكانت أمثال هذه الأسئلة تبرز أمامه أيضاً عندما كان يحلل النظريات الراديكالية في الاشتراكية الطوباوية، وهي نظريات قائمة على مبادئ نفعية وعقلانوية. فقد كان يرى أن المشاريع السوسيولوجية- الفجّة للبناء الاجتماعي «المعقول»، القائمةَ على المنفعة الاقتصادية المتساوية حجماً، لا تراعي العمق المتناقض للحرية الإنسانية التي تتجه حركاتها غير الراشدة، منذ الأزل، نحو توسيع وإعلاء الحقوق الذاتية، ونحو التملك والتصرف حسب الهوى. وهو يرى أن أي حل «علمي» للمسائل الاجتماعية لا يراعي العمق الاجتماعي بوجوهه المتعددة وأهوائه الخفية هو حل يهدد بحدوث إخفاقات كارثية.

وكان دوستويفسكي يشير محذّراً إلى أن السعي لتحقيق الانسجام العالمي الشامل «من الخارج» بمساعدة نظريات محدودة لم تستوف القدر الكافي من التروي، ومع إغفال عدم الاكتمال الداخلي الذي يلازم الإنسان منذ الأزل، إنما يؤدي إلى فشل هذه النظريات على الصعيد العملي، وهذا ما ستصطدم به الأجيال القادمة. وكان هذا الاحتمال يبدو له حتمياً

لسبب آخر أيضاً هو أن الباحثين عن نظام اجتماعي عادل كان ينزلق من حقل رؤيتهم عدد كامل من خصائص الوجود البشري فوق العقلية التي تستعصي على الحساب المنطقي الصارم. إن تنبّه الكاتب على مثل هذه الخصائص سمح له بأن يحدد ظاهرة هامة كان يسميها، تبعاً للسياق ولدرجة تدني مضمونها الأخلاقي: «خنوع الفكر» أو «جر الفكرة في الشارع».

فنبل الأفكار ونقاؤها لدى جميع أولئك الذين يبحثون عن المساواة والأخوة يمكن أن يتشوها، حسب ملاحظات الكاتب، لسبب واحد فقط يتمثل في مجرد تعجل هؤلاء الأشخاص في استخلاص الاستنتاجات والتعميمات، واعتمادهم الفرضيات على أنها بديهيات غير قابلة للدحض، وتجسيدهم الأفكار الإنسانية تجسيداً عشوائياً لا يسمح بإجراء أي تحليل، ويقترن بنفي اعتباطي شامل للتقاليد والقيم التاريخية والمثل العليا الشعبية التي تكونت خلال ألف سنة. وعندما «تصل» هذه الأفكار «إلى الشارع» يركب موجتها «المحتالون الذين يتاجرون بالليبرالية» أو مدبرو المكايد الذين ينوون السلب والنهب، ولكنهم يضفون على نياتهم «صورة العدل الأسمى». ويصل «صعاليك المذهب» في نهاية المطاف إلى الاعتقاد بأن «المال أفضل من المروءة» و«إذا لم يكن ثمة ما هو مقدس فمن الجائز ارتكاب أية دناءة».

كان دوستويفسكي ينظر في قانون تشوه الأفكار المتضمنة قيم المروءة مقترناً بقانون انعكاسها انعكاساً غامضاً خفياً، أي قانون الاصطدام اللا واعي في أعماق نفس الإنسان بين الشعور بعدم الإحاطة بمغازي هذه الأفكار إحاطة تامة، والإحساس بعدم إمكانية تطبيقها في الواقع بالنسبة لكل فرد محدد، من جهة، وبين مقتضيات العقلانية المطلقة من جهة أخرى. ويرى الكاتب أن الدور الذي تضطلع به المادة المُزَبِّلة بالنسبة للانسجام العام القادم يجبر الإنسان لا إرادياً على التفكير (بدرجات مختلفة من الوضوح والوعي) في «أن حياة البشرية في الحقيقة هي مجرد لحظة كحياته هو نفسه، وفي أنه في اليوم التالي للوصول إلى «الانسجام» (إذا آمنا بأن هذا الحلم ممكن التحقيق) ستتحول البشرية إلى صفر كشأنه هو، وذلك بحكم القوانين المتكلسة التي تتحكم بالطبيعة. وسيأتي هذا بعد صنوف المعاناة الشديدة التي ستتحملها لتحقيق هذا الحلم؛ هذه الفكرة تثير سخطه إلى أقصى حد، وبسبب حبه للإنسانية بالذات تثير شعوره بالسخط والإهانة نيابة عن الإنسانية بأسرها، وبموجب قانون انعكاس الأفكار تقتل في نفسه حتى حبه للإنسانية».

وقد بيّن تحليل أمثال هذه القوانين المتعدد الجوانب لدوستويفسكي أنه لا النظريات الطوباوية، ولا الحضارة، ولا الديمقراطية ولا تكافؤ الفرص أمام الجميع في «أن يأكلوا ويشربوا ويتمتعوا» بقادرة على أن توسع من حيز الخير في نفس الإنسان وتدفعه إلى حب أخيه الإنسان. بل بالعكس، فالشر والأنانية يتنكران بزي آخر في سيرورة التاريخ، ويتكيفان

مع الظروف الجديدة، ويصبحان أكثر تمويهاً للذات، وأكثر تفنناً ومن ثم أكثر استقراراً، وأعظم خطراً وإرعاباً بالقوة*.

وأشار الكاتب في «يومياته» وهو يفكر في هذه المسائل، إلى أنه من «المفهوم والواضح إلى درجة العيان أن الشر يكمن في البشرية على عمق يزيد عما يفترضه المطَبِّبون- الاشتراكيون، وأنه لا نستطيع تجنب الشر في المجتمع أيّاً كانت بنية هذا المجتمع، وأن النفس البشرية ستظل هي نفسها، وأن الشذوذ والإثم ينبعان منها بالذات، وأخيراً أن قوانين الروح البشرية ما زالت مجهولة، وما زالت مُستَغلَقة على العلم، وغيرَ محددةٍ ومحفوفة بالأسرار إلى درجةٍ تنفي حتى الآن إمكانية وجود مُطبِّبين نهائيين، أو حتى وجود قضاة نهائيين...».

لقد وجد دوستويفسكي، وهو يستقصي عالم الإنسان النفسي المعقد، أن حركات إرادته الحرة المتنوعة إلى حد كبير، على الرغم من اختلاف مضمونها، وتنوع مجالات فعاليتها، تتجه كلها عادة نحو حفظ الذات، ونحو السيطرة، واللذة؛ وأن الخواص الفطرية للطبيعة البشرية المتسمة بصفات التكبر - الأناني والنزعة نحو المتعة والعدوانية تقود بالقوة وبالفعل، إذا لم تُقمع «فطريتها» ولم تُخضع لأسمى مثل أعلى متأصل فعلاً في الوجود، إلى سعي أفراد، ذوي طبائع مختلفة، لتمجيد الذات، ولزرع التفرقة والعداوة فيما بينهم؛ ويحدث ذلك في مجال العلاقات المعيشية والوظيفية والغرامية بين الناس، وفي مجال المبادئ والأفكار العامة الشاملة لدى «مؤسسين ومشرّعين على صعيد البشرية» يبدون في الظاهر غير متشابهين.

وقد درس الكاتب بإمعان أموراً شديدة التنوع في الحياة المحيطة به تبدو للوهلة الأولى ضئيلة الشأن (مع أنها في الواقع خلاف ذلك)، وغالباً ما كان يجد فيها ما يبعث الشعور بالأسف في نفسه، وذلك لأنها كانت تعكس ميولاً أنانية منتشرة في كل مكان وتطلعات إلى السيطرة الهادفة إلى إخضاع الآخرين وإذلالهم. «وإنك لترى حشرة في غاية الصغر» تُلاحَظ في تصرفاتها بوضوح الفظاظة والنرفزة و«التَّفَرْعُن التافه» الناتج عن رغبة دفينة في الثأر من كائن ما بسبب شعورها بأنها مخلوق مستحقر ومهمل ولا يلفت انتباه أحد، و«يُصادَف أمثال هؤلاء فيْ أوساط الموظفين المكلَّفين بإعطاء المراجعين وثائق وبيانات، والذين يتسلمون من الناس نقوداً ليسلموهم تذاكر وما شابه ذلك». ويمكنك أن ترى مثل هذا المشهد في محطات السكة الحديدية، مثلاً حيث ينظر إليك حتى أصغر موظف هناك «نظرةَ من له سلطة لا حدود لها عليك وعلى مصيرك وعلى أسرتك وعلى شرفك، وذلك لا لشيء إلّا لأن الظروف ساقتك إليه في محطة السكك الحديدية».

(*) تستعمل كلمة «بالقوة» هنا بمعناها الفلسفي أي «ليس بالفعل» (احتمالياً وليس فعلياً). (م).

وهكذا يبين الكاتب بجلاء بهذا المثال البسيط كيف تتفكك العلاقاتِ الإنسانية، وينقلب أي نظام رأساً على عقب عندما تتضخم «الأنا» إرادياً أو لا إرادياً مع ما تنطوي عليه من توقٍ إلى السلطة، حتى وإن كانت مجرد سلطة ضئيلة. لقد كان يرى بوضوح أن هذا التوق يشتد على نحو خاص في زمنٍ «تزعزع الأركان العائلية» وزمن «الآباء الشكّاكين» اللامبالين بالقيم العليا وهو يولّد زمناً «تجري فيه إصلاحات وأحداث عظيمة، وهذا واقع لا جدال فيه»، ولكنه في الوقت نفسه زمن تكاثر الرسائل المغفلة الشاتمة». ومع أن الكثيرين لا يكتبون مثل هذه الرسائل إلّا أنهم في أعماق نفوسهم شتّامون. وكان دوستويفسكي يرى أن افتقار الأهداف الاجتماعية لأساس وجودي (أنطولوجي) وأخلاقي يخلق، في حالة ضعف المثل العليا الأساسية، ظروفاً مواتية تحول دون احترام الإنسان لنفسه في إطار وضعه الذاتي، وتعمل على تقوية الحسد لديه مما يولد في داخله «اهتماماً مشؤوماً» بأن يجد في كل مكان وزمان أكبر عدد ممكن من الأشخاص الأسوأ منه. ومن هنا ينشأ هذا السباق الذي يجري في كل مكان، وهذا التنافس المستمر بين طموحاتٍ لم تجد تلبية لها، وأناس يشعرون بأن عزة نفسهم لم تُصن، ومن هنا أيضاً ذاك التساؤل الداخلي الذي يعبر عن حيرة ساذجة: «لماذا «هُمْ» في كل مكان وليس أنا، لماذا لا يوجهون اهتمامهم إليّ أنا أيضاً»؟ إن أمثال هذه المطامح والمشاعر لا يندر أن تكون غير مدركة، ويمكن أن تسبب آلاماً كبيرة، بل يمكن في بعض الأحيان أن تدفع إلى ارتكاب أفعال شديدة القسوة، وجرائم لا تعليل لها، ولكنها في الأغلب الأعمّ تتحول إلى رغبة «في الإيذاء الدنيء لا أكثر، كالافتراء، مثلاً أو الاتهام الباطل، أو النميمة، أو توجيه رسالة شتم غُفْل».

ويؤكد دوستويفسكي أن الغرور والحسد اللذين يغذيان الوقاحة المستترة، والظلم الذي ينتظر ساعة ظهوره إلى العلن ينخران الشخصية نخراً ويبثّان التنافر في أبسط العلاقات المعيشية العادية. ويحدث الشيء نفسه، كما يتضح من تأملاته، على مستوى شخصية هذه الأمة أو تلك في مجالات العلاقات بين الدول. ولا يمكن هنا لتغلّب المصالح الأنانية التي تطمس المبادئ الأخلاقية أن يستمر أيضاً بدون عقاب: «... إن الفعل الشائن والرذيل يحمل موته في نفسه ويعدم نفسه بنفسه عاجلاً أو آجلاً. فالحرب، مثلاً، التي تنشب من أجل الاستيلاء على الثروات، وتلبية حاجة البورصة النهمة التي لا تشبع، مع أنها في أساسها تخرج من قانون تطور الشخصية القومية العام بالنسبة لجميع الشعوب، إلا أن ثمة حداً في هذا التطور لا يجوز تجاوزه، وكل استيلاء أو تطور يتجاوزه يعني أنه أصبح فائضاً وغدا يحمل في داخله المرض، ومن ثم الموت».

وكان دوستويفسكي يعتقد أن الحرية بصفتها قيمة عظمى لدى الإنسان، تغدو أكبر حجر عثرة إذا فُهمت على أنها «جموح الرغبات» المؤدية إلى الانقياد العبودي للشهوة والمال والمرجعيات الزائفة، وفي نهاية المطاف إلى تدمير الذات. أما الحرية الحقيقية فإنها تتجلى في «تغلب المرء على ذاته وإرادته بحيث يبلغ في النهاية حالة أخلاقية تتيح له أن يكون دائماً وفي أية لحظة سيد نفسه حقاً». ولذا فإن تأمين حياة كريمة سواء على مستوى فرد بعينه أو شعوب بكاملها يتطلب بالضرورة، في رأي الكاتب، القدرة على حسن التصرف بالحرية المتاحة، وعلى تحويل قوة الحرية الزائفة النافية للحياة إلى قوة حرية حقيقية مثبِّتة للحياة، وجعلها قوة جاذبة متجهة نحو المركز، قوة غيرية، تعمل على الاتحاد مع الكل.

إن هذا التحول من العبودية إلى الحرية، ومن ميل النفس نحو النفعية الأنانية إلى ميلها نحو حب الخير لا يمكن جعله قابلاً للتحقيق إلا عن طريق المجاهدة النفسية العميقة أو الإدراك الواضح لإمكانيات ومفارقات طبيعة الإنسان وتاريخه. ويرى الكاتب أن تنقية جذور الرغبات لا تتحقق إلّا عندما يستحوذ على نفس الإنسان استحواذاً تاماً مَثَلٌ أعلى مطلق معاكس للطبيعة الأنانية وقادر على أن يمحو منها كل «المُثُل» والأوثان الأخرى.

ومن المعروف أن المثل الرائع المطلق الذي يخلق الشعور بجمال لا غالب له، والذي ينأى بالطبيعة البشرية عن الهوى الأناني كان يتمثل في نظر دوستويفسكي بشخصية المسيح التي تتجسد فيها، حسب اعتقاد الكاتب، سمات التطور الإنساني الكامل والأسمى.

فحب المسيح للبشر حباً مطلقاً يتجسد فيه التفاني، ويشكل القوة الرئيسة في المثل الأعلى، ويُعدّ المرادف الأقرب لتطور الشخصية الإنسانية الكامل والأسمى، والتعبير الأبلغ عن حريتها، هو في الوقت نفسه، حسب منطق دوستويفسكي، تَجَلٍّ للتضييق الأعظم على الذات، وللتضحية بها، وللانتصار على الطبيعة «الآدمية». وكان الكاتب يؤكد باستمرار أن الخاصية الأساسية للحب الروحي الحقيقي تتمثل في التضحية المنزهة عن الغرض، وفي بذل النفس كاملة في سبيل المحبوب. وإلا فإننا سنكون إزاء بدائل غير أصيلة تتخذ أشكالاً مموهة تخفي تحتها أنانية شهوانية.

لقد ظهر في زمن دوستويفسكي كثير من التفسيرات لمفهوم الروحانية، وكثيرٍ من «الأخلاقيات» المختلفة التي كانت تتكيف خفيةً أو علناً، على نحو واعٍ أو غير واعٍ، مع العناصر الفاسدة في الطبيعة البشرية، بدلاً من أن تسعى لاستئصالها.

وكان الكاتب يرى أن المناقبية الحقيقية تناقض تعددية المفاهيم، وتنبثق من «الاعتراف بالجمال الأسمى الذي يشكل مثلاً أعلى للجميع» وكان لا يفتأ يكرر بدون كلل في مقالاته:

إن الأسمى وحده، الأسمى من كل سام، الوعي الأسمى، والتطور الأسمى، وأهداف الحياة الأسمى التي تنبثق من «المثل الأعلى الأزلي» هي التي تنتزع الإنسان من براثن ميول طبيعته المولِّدة لمشاعر حب الذات وتقوده «في درب الحياة» نحو الحب الأخوي الحقيقي. إن إعادة هيكلة البنية العميقة للعقلية الأنانية لا يمكن تحقيقيها بالتعليم ولا بالثقافة الظاهرية ولا بلمعة الوسط الراقي ولا بالإنجازات العلمية والتقنية، بل فقط بـ «إثارة الاهتمامات الأسمى». «أجل، إن قوة الفكرة الأخلاقية العظيمة وقدرتها على توحيد الناس في اتحاد شديد المتانة إنما تتأتيان من أنها لا تقاس بالمنفعة الفورية بل من أنها تُوجِّه مستقبلهم نحو الأهداف الأزلية، نحو الغبطة المطلقة».

كان دوستويفسكي يعتقد أن التطور السوي، والتفكير المنسجم، وقدرة الفرد والدولة والبشرية بأسرها على الحياة تستحيل بغير «فكرة أخلاقية عظيمة»، وذلك لأن الإنسان لا يستطيع إلا بوساطتها أن يحقق «هدفه الرشيد بكامله على الأرض» وأن يعي «الوجه الإنساني» في ذاته. إن وجود الإنسان، إذا خلا من الكمال والسمو المعنوي يصبح غير طبيعي وسخيفاً، وتغدو صلات الإنسان بمختلف تجليات الحياة واهية، وتتحول حياته نفسها إلى مجموعة من التشوهات والكوارث. ولذا كان زمنه يقلقه، إذ ينتشر فيه بسرعة متزايدة وفي كل مكان موقف لا مبالٍ، بل حتى عدمي، من الأفكار السامية للوجود الإنساني بصفتها «هراء» ومجرد «أشعار تافهة».

وكان دوستويفسكي يرى أن فقدان المثل العليا العريقة، وضياع المغزى الأسمى والهدف الأسمى للحياة واختفاء «النماذج الأسمى» من بين ظهرانينا هي بالذات السبب الأول في تفشي الأجواء العدمية الخفي، وكأن «شيئاً ما ينتشر في الجو مشبعاً بالمادية والريبية؛ لقد بدأت عبادة الكسب المجاني واللذة من غير عناء؛ أصبح الخداع أياً كان وكل الأعمال الشريرة تمارس بأعصاب باردة؛ يرتكبان بدم بارد؛ إنهم يقتلون المرء من أجل روبل واحد ينتزعونه من جيبه. أعرف أن ثمة دنايا كثيرة كانت ترتكب في الماضي، ولكن لا جدال في أن عددها الآن قد تضاعف عشر مرات. والأهم أن هذه الفكرة، أو فلنقل هذه التعاليم، أو هذه العقيدة تنتشر الآن».

ويتساءل دوستويفسكي وهو ينعم النظر في هذه التعاليم اللاواعية والعقائد التي لم تخضع للتمحيص: «لماذا نحن سيئون هكذا؟» ويجيب: «لعدم وجود أي شيء عظيم». وكان يرى أن جذور علل عصره الروحية المترابطة فيما بينها تكمن في غياب التصورات عن العظمة، وعن أن حياة الإنسان على الأرض ليست من قبيل المصادفة.

وكان يرى أن الشبيبة لا يمكن أن تقصر طموحاتها على تأمين الطعام ونوال الرتب

الوظيفية وإذعان المرؤوسين، فهي تصبو دائماً وفي كل مكان إلى مثل عليا إيجابية، وتبحث عما يمكن أن تؤمن به وتحترمه وتسعى إليه. ولكنها لا تكتسب في الأسرة والمدرسة وعند قادتها الفكريين سوى نظرة ريبية إلى أهداف الحياة السامية، التي تحل محلها المصالح العملية والمهام المعاصرة ذات المضمون الأخلاقي الضئيل. أما ما يُعلَن في أثناء ذلك من دعوات مجردة إلى تحقيق العدالة والأخوة، فإنها بقدر ما تجذب الشباب في البداية تخيب أملهم بشدة فيما بعد، عندما تُبيّن التجربة خطأ الافتراض «أن الأعمال الخيرة والأخلاق الحميدة والنزاهة هي أمور معطاة ومطلقة لا تتعلق بأي شيء ويمكن العثور عليها دائماً في الجيب عند اللزوم من غير أي جهود أو شكوك أو التباسات». وتؤدي خيبة الأمل هذه إلى إضعاف شعور الجيل الشاب بواجباته والتزاماته إزاء الآباء والأمهات وإزاء المبادئ والقناعات، وفي نهاية المطاف إزاء المصالح العملية والمهام المعاصرة ذاتها. ويَفقِد الشبان والفتيات الحرية الحقيقية، أي يتضاءل لديهم «أكثر فأكثر الرادع الخارجي، والوازع الداخلي الكامن في أنفسهم». وتدفع المعاناة من الكآبة اللاواعية، بسبب الحياة الخالية من الأهداف، أكثرَهَم حساسية إلى الانتحار.

وكان دوستويفسكي يرى أن كتابات الصحفيين اللذين يمتدحون الشبيبة ويتملقونها بلا تبصر، ويتجاوبون مع مطالبها الآنية من أجل استرضائها، وتوسيع نطاق شعبيتهم في أوساطها، بدلاً من أن يدلّوها على أهداف الحياة السامية، هي كتابات مستهترة وغير نزيهة. وقد نتج عن ذلك «أن كثيرين من الشباب قد أحبوا فعلاً هذا المديح الفج، وصار التملق مطلباً لهم، وأصبحوا مستعدين لأن يدينوا بلا تمحيص كل من لا يسايرهم في جميع مواقفهم وخطواتهم...» وقد وضع هذا أمامهم عقبات نفسية إضافية تحول بينهم وبين إدراك «كذب وزيف كل الأمور تقريباً التي يعدونها نوراً وحقيقة»، وتحول بينهم وبين وعي الأسس العميقة لما يعانونه من اضطراب روحي.

كما كان دوستويفسكي يرد السبب الرئيس للتنافر في العلاقات بين الآباء والأبناء إلى الاستهانة بالأفكار السامية المتوارثة التي تجمع وتوحّد؛ إذ لم يكن يجد لدى الآباء أية فكرة قوية وعميقة وعظيمة فعلاً يؤمنون بها إيماناً حقيقياً. «النمطيّون عندنا، سواء وسط الأغنياء أو الفقراء، يفضلون عدم التفكير في أي شيء والاستسلام ببساطة وبلا تفكير للخلاعة ما دامت ثمة قوة وليس ثمة ملل. أما الأشخاص الذين هم أفضل من هؤلاء النمطيين فإنهم «ينفردون» مشكلين زمراً، ويتظاهرون بأنهم يؤمنون بشيء ما، ويبدو أنهم بهذا يُعزّون أنفسهم بأنفسهم قسراً». بيد أن هذا الإيمان «الزُمري» المصطنع والموهوم يساعد على تشكيل «أُسَرٍ عرضية»، ليس للتربية فيها دعائم أخلاقية - روحية كافية.

ويشير الكاتب في هذا الصدد، على سبيل المثال إلى المثلبة الخطيرة التي تعتور النظام التربوي المعاصر، الذي يهتم أشد الاهتمام بتحصين الطفل منذ ولادته من مجابهة أية صعوبة أو حرمان، ويسعى ليسهل عليه الحصول بكل الطرق على المعارف، ويسهل له حتى الألعاب الطفلية. ولكن أحياناً «لا يؤدي التسهيل على الإطلاق إلى التطوير، بل حتى بالعكس يؤدي إلى التبلد. إن فكرتين أو ثلاثاً وانطباعين أو ثلاثة تتسم بالعمق يكتسبها الطفل بجهده الخاص (أو إذا شئتم عبر المعاناة) تجعله يتعمق في إدراك الحياة أكثر بكثير مما تفعله أكثر المدارس تسهيلاً، تلك المدارس التي يتخرج فيها، في الغالب الأعم، أشخاص لا من هؤلاء ولا من أولئك، لا خير ولا شر...»

في أجواء هذه اللامبالاة الفاترة التي تسود في المدرسة المسهلة ينمو على نحو غير ملحوظ تقديس «مَثَل الوسطية السرمدي والغبي، والاعتداد بالذات المولِّد للرضا عن كل ما تفعله، والتعقل المبتذل»، ولا يمكن تفادي سطوة هذا التقديس سوى بالتربية التي تغرس في القلب بذور «المسائل العظيمة».

ويعتقد دوستويفسكي أنه «لا يجوز إطلاق الجيل على درب الحياة بدون أن نغرس فيه بذور الإيجابي والرائع»، ولكن ما يحدث فعلاً هو العكس، وذلك بالذات لأنه «ليس ثمة شيء عام يجمع بين الآباء في عصرنا هذا. ليس ثمة ما يربط بينهم. ليس هناك فكرة عظيمة (لقد فقدت هذه الفكرة). ولا يوجد في قلوبهم إيمان عظيم بمثل هذه الفكرة؛ وليس من شيء سوى مثل هذا الإيمان العظيم بقادر على أن يولّد الرائع في ذكريات الأبناء».

وامتلاك «الإيمان العظيم»، كما يؤكد الكاتب، مرهون بالتغلب على الانقطاع بين الأجيال، وبالتواصل مع أفضل التقاليد التاريخية، ومقدسات الشعب الحقيقية التي تعرضت للاستهزاء والإهمال باحتقار «في سياق الأمور» في المجتمع البرجوازي. وقد أشار الكاتب إلى أن «الكثيرين لا يؤمنون بالمُثُل العليا الشعبية، ولا يعرفونها، حتى إنهم يقولون: الأحسن الاستغناء عنها بالمرة». إن بتر الذاكرة التاريخية الشعبية، التي تمتلك، شأنها شأن الوجدان والحب، خواص «التطويل» والإحياء والربط، قد أدّى، مع أسباب أخرى، إلى خلق «أفكار قاصرة» ومآس كبيرة.

وبعد أن يبين دوستويفسكي منطق رجالات نصف التعليم ونصف التنوير الذين خلَقَوا من المعرفة الإيجابية قوة مُفرِّقة جديدة وتبعية قِنِّية للـ «تنوير المتغطرس» يكتب (متكلماً بلسانهم):

«...سنؤسس هذا التعليم (تعليم الشعب - ب. تاراسوف) ونبدؤه كما بدأنا، أي انطلاقاً

من نفي الشعب لكل ماضيه، ومن التزامه بصب لعناته عليه. وما إن نعلّم أي فرد من الشعب القراءة والكتابة حتى نبدأ في الحال بإغرائه... بالذوق المرهف في طريقة المعيشة، وآداب السلوك، والملبس، والمشرب، والرقص، وباختصار نجعله يخجل من خُفِّه الليفي السابق وكفاسه[7]، ويخجل من أغانيه القديمة، مع أن بعض هذه الأغاني رائع وموسيقي، ولكننا مع ذلك سنجعله يغني مونولوجات فودفيلية مقفاة... سيخجل هذا الشعب من ماضيه ويصب عليه لعناته. وكل من سيلعن ماضيه سيكون من جماعتنا: هذه هي معادلتنا! ونحن سنطبقها كلياً عندما سنعكف على رفع الشعب إلى مستوانا. أما إذا تبين لنا أن الشعب غير قابل للتعلم، فإننا سنستبعده».

ويخاطب الكاتب أصحاب مبادرة «التطور الحلّاقي» الذين يحاولون تعليم الشعب عبادة أوثان جديدة وتقديس «خرافات جديدة» تهدد بوقوع انقلابات وتكسّرات دراماتيكية جديدة، وكأنه في الوقت نفسه يخاطب نفسه وفئة الانتلجينسيا بكاملها: «ما هو الأخلاقي والسامي الذي سنقدمه للشعب» وبمَ نحن أسمى منه «أخلاقياً وجوهرياً»؟ ويكرر قائلاً: إن الحضارة لا يمكن أن تنشئ مجتمعاً أخوياً وتوطده. فهذا المجتمع «تنشئه المبادئ الأخلاقية، وفي مجال المبادئ الأخلاقية الشعب هو الأسمى». ويرى الكاتب أن الحياة الشعبية مليئة باللب الجوهري، والقوة، والعفوية، والفكر، «وأنتم، إذ تندفعون نحوها بثقافتكم الغبية، إنما تريدون تدميرها بالذات».

ولم يكن دوستويفسكي ينظر إلى الشعب على أنه كائن مثالي، بل كان يرى نقائصه بوضوح، ولم يكن يخفيها البتة، بل بالعكس كان يحرص على كشفها لإدراكها على نحو أفضل والتذكير بعواقبها المحتملة. وكان يحاذر دائماً، على سبيل المثال، من الرحابة المفرطة في الطبع الروسي، والقدرة على التعايش مع كثير من الظواهر القبيحة وتوسيع نطاق الضمير «إلى حدود لا نهائية مشؤومة تودي إلى... ماذا يمكننا أن نتوقع في رأيكم؟» ويجيب الكاتب: يمكننا أن نتوقع النفي التام الشامل الذي يصل بالمرء إلى التخلي عن «أقدس مقدسات قلبه، وعن أكمل مثل أعلى لديه». وفي غمرة هذا النسيان لكل معيار في كل مجال يمكن لا لـ «مفيستوفيليس»[8] الروسي فقط، بل «لشخص في غاية الطيبة أن يصبح فجأة وعلى نحو ما عربيداً مقززاً ومجرماً؛ يكفي فقط أن يقع في نطاق هذه الزوبعة، هذه الدوامة المشؤومة بالنسبة لنا، دوامة نفي الذات وتدمير الذات التشنجية الفورية التي تسم بعمق الطبع الشعبي الروسي في أكثر لحظات حياته حسماً».

ومع ذلك كان الكاتب يدعو إلى الحكم على القوة الأخلاقية لدى الشعب الروسي انطلاقاً

من مستوى السمو الروحي الذي هو قادر على بلوغه. فعلى الرغم من المحن التاريخية القاسية ظلت الحياة الشعبية تحتفظ في صميم بزرتها بمُثُل الجمال الأسمى والصدق، وهي المُثُل التي «أنقذته في أوقات العذاب والألم، والتحمت مع روحه منذ القدم، وتوجتها إلى الأبد بالبساطة والنزاهة والإخلاص والعقل الرحب المفتوح، وكل ذلك مترابط بمنتهى الروعة والانسجام. وإذا كان هناك، مع ذلك، الكثير من القذارة فإن الإنسان الروسي نفسه هو أول من يشعر بالضيق من وجودها، ويؤمن بأن كل هذا مجرد عَرَض دخيل ومؤقت، ووسواس شيطاني، وأن الظلمة ستنقشع ولا بد من أن يأتي وقت يشع فيه النور الأبدي».

لقد كان دوستويفسكي يرى أن إيمان الشعب بالنور الأبدي هو بالذات الأساس الذي يجب أن يقوم عليه التنوير الحقيقي الذي يستحيل من غيره تحقيق «القضية العظمى: المحبة». ومغزى التنوير الحقيقي مُتضمَّن، حسب رأيه، في جذر هذا المفهوم بالذات، وهو «النور الروحي الذي يضيء النفس وينير القلب، ويوجه العقل، ويدله على درب الحياة». إن مثل هذا التنوير هو الذي يميز، في رأيه، الناس الأفضل الشرطيين من اللاشرطيين الذين يُعرفون لا بانتمائهم الاجتماعي - الفئوي ولا بعقولهم ولا بثقافتهم ولا بثروتهم إلخ... بل بوجود النور الروحاني في نفوسهم والطمأنينة في قلوبهم، والتطور والنفوذ الأخلاقي السامي لديهم. وكان يصنف في عداد هؤلاء الناسِ الأشخاصَ الصالحين البررة المنتشرين في روسيا منذ القديم والذين تبرز لديهم بوضوح الحاجة قبل كل شيء، إلى العدالة والبحث عن الحقيقة ليس إلّا».

وكان الكاتب يشير إلى أن المقدسات الشعبية وليس العلوم والامتيازات هي التي تدل على الناس الأفضل. «فالإنسان الأفضل في نظر الشعب هو ذاك الذي لم ينحن أمام الإغراء المادي... هو الذي يحب الحقيقة وينهض لنصرتها عند اللزوم تاركاً بيته وأسرته، ومضحياً بحياته».

وعندما نستعرض أدب المقالة لدى دوستويفسكي بنظرة عامة شاملة نتبين العلاقة المتبادلة بين الخواص التي تشكل «المادة النبيلة» وتدخل ضمن «جمالية الروح» لدى الناس الأفضل غير الشرطيين الذين تلقّوا تنويراً حقيقياً والقادرين على أن يكونوا أشقاء للآخرين. فالصلاح، وحب الحقيقة، والفكر العميق، والسمو، والنبل، والإنصاف، والنزاهة، والكرامة الشخصية الحقيقية، ونكران الذات، والإحساس بالواجب والمسؤولية، والثقة بالآخر، والانفتاح، والإخلاص، وبسالة النفس، والتواضع، والقدرة على الصفح، وإدراك العالم إدراكاً جوهرياً متكاملاً، والبهاء الداخلي والعفة - كل هذه الخصال الروحية- النفسية التي

تدل على انتصار المرء داخلياً على أسس الأنانية المركزية التي يقوم عليها بناء الحياة الفاسد، هي التي تحدد الأشخاص الذين ينحني الناس أمامهم «طوعاً وبملء الحرية، إجلالاً لكرم أخلاقهم الحقيقي»، ينحنون أمامهم «بصدق وإخلاص».

وقد أكد دوستويفسكي في إطار هذه العلاقة المتبادلة الدورَ الخاص للصفات «الطفولية» غير الملحوظة والصفات «الأنثوية» المحبة للسلام (بدءاً من الثقة بالآخر وحتى القدرة على الصفح) لأنها بحكم استتارها ذي الدلالة العميقة تجعل فعالية بقية الخواص تؤدي إلى تحقيق السمو والتوازن، وهي تتناقض تناقضاً تاماً مع خواص حب الذات التي تفضي إلى التدني والتنافر. وبالمقابل فإن إخماد أية نزعات عدوانية - استيلائية يشكل النواة الصلبة لدى «الأشخاص الإيجابيين»، وهي، في اعتقاد دوستويفسكي تحميهم من تأثير «الشطط والانحراف في ثقافتنا».

إن هؤلاء الأشخاص أقوياء مبدئياً بـ «ضعفهم» بالذات، أي بميلهم العضوي إلى الخير، وجرأتهم الرجولية على رفض انتشار الشر في العالم، أياً كانت الأشكال التي يتخذها، حتى لو اتخذ شكل خيرٍ وإبداعِ حياةٍ زائف. ومن هنا عدم بروزهم تاريخياً وبقاؤهم «في الظل». ويشير الكاتب إلى أن «الناس الأفضل» غير الشرطيين «يتعذر جزئياً في بعض الأحيان العثور عليهم، لكونهم حتى مثاليين، ويصعب أحياناً تحديدهم».

إن صفحات السجل التاريخي تمتلئ عادة بأسماء أبطال وقادة عسكريين ورجال تاريخيين، أو بعبارة أخرى أشخاص بارزين، قد انجرّوا حتماً، حسب منطق دوستويفسكي، إلى دائرة نفوذ الكبرياء المدمرة، مما جعلهم يشخِّصون الشر بدرجات متفاوتة. وبالمقابل نجد أن أبسط المشاعر الأخلاقية الكريمة وأكثرها عمقاً في الوقت نفسه تتمظهر على نحو محدد للغاية، ونظيمي[3] تماماً، وبشكل لا تشوبه شائبة في أناس التاريخ «العاديين» وشخصياته الثانوية. ولولا «التاريخ الخافت» لهؤلاء الصالحين الذين يبطلون فاعلية «ضجيج» العملية الاجتماعية - التاريخية العاصفة و«سورتها» لما كان للشر حواجز توقفه. ويتضمن «التاريخ الخافت»، والصفات الروحية - الإرادية التي تؤكده، مقدمة لإبداع الحياة على نحو مختلف اختلافاً مبدئياً بحيث يُجتث منه تمجيد الذات الذي يدخل فيه حتى الآن دخولاً طبيعياً بأشكال جد مختلفة، وتمجيد الذات هذا لا يُخْمِدُ، بل بالعكس، يؤجج باستمرار الحسد والتوق إلى إحراز قصب السبق.

ولذا فقد كان الكاتب يدعو إلى عدم الاستحياء من «الأشكال الساذجة والبسيطة التي كان الشعب يرى فيها «الإنسان الأفضل» ويدعو إلى فهم الأهمية الكبيرة للـ «بقاء في الظل»

ولل«استكانة» في خلق الجو الروحي السامي في المجتمع». وترتبط هذه الأهمية بالفكرة الأثيرة لدى دوستويفسكي عن كون الفرد مذنباً تجاه الآخرين ليس من الناحية القانونية بل من الناحية الوجودية (الأنطولوجية)، ويقوم ذنبه على أساس الاعتراف بعدم كمال الإنسان الأزلي، ومشاركته في كل ما يجري في العالم. ويقاس ذنب كل فرد بمقدار خلو روحه من النور ومن محبته النزيهة للبشر. ثم إن عواقب الظلام الروحي والأنانية المركزية اللذين يتباينان بالدرجة والمضمون من غير أن يُستأصلا لدى أي إنسان حتى النهاية تنتشر في الوسط المحيط عبر قنوات غير مرئية. ويعتقد دوستويفسكي أن خواطرنا وكلماتنا وتصرفاتنا الشريرة، مهما كانت صغيرة، تنطبع على نحو غير مرئي في نفوس المحيطين بنا، وتنتشر أبعد فأبعد في المكان والزمان دافعة هذا أو ذاك إلى الحسد أو الاستكبار، وإلى العبودية أو الاستبداد. وهكذا يتراكم ويتنامى في العالم المخزون الروحي السلبي الكامن الذي يغذي ما يجري في هذا العالم من أفعال شريرة.

لذا فإن الفهم المتبصر للمحدودية الذاتية نظرياً وعلمياً وتغيير الذات باتجاه بلوغ الكمال الحقيقي، أي زيادة النور والمحبة النزيهة للناس في نفس الإنسان يساعدان على تحقق التطابق بين الغايات والوسائل، ويحولان دون اختلاط الخير بالشر، ويقضيان بالتحرك نحو الانسجام العالمي «من الداخل». ويفسِّر هذا المسار الفكري تفسيراً إضافياً مغزى دعوة دوستويفسكي الشهيرة التي يوجهها إلى «الإنسان المتكبر» في خطابه عن بوشكين، مهيباً به إلى أن يستكين ويعمل على أرض وطنه: «إذا انتصرت على نفسك وذللتها لإرادتك، تغدو حراً إلى حد لم تتخيله قط، وتبدأ القيام بعمل عظيم وتجعل الآخرين أحراراً... الانسجام العالمي لن يكون... في أي مكان إذا كنت أنت أول من لا يستحقه لأنك حاقد ومتكبر...».

ويرى الكاتب أن الإنسان، إذ يبلغ الدرجة العليا من الحرية لخدمة قضية عظيمة يغير وعي الآخرين تغييراً جوهرياً نحو الأحسن بروعة شخصيته الجليلة، وذلك لأن أفضل ما يحث الناس على التحلي بالأخلاق الحميدة هو المثال الحي للتطابق بين القول والفعل. والعكس صحيح. وقد أشار دوستويفسكي في دفتر ملاحظاته إلى أن «الأدب (في زمننا) يجب أن يرفع عالياً راية الشرف. تصور ماذا كان سيحدث لو تبيّن أن ليف تولستوي وغونتشاروف غير شريفين؟ أي إغواء وأي استهتار! وكم من الناس كانوا سيستسلمون للإغواء. سيقولون: «إذا كان هذان هكذا، إذن... وهلم جراً» وكذلك العلم أيضاً».

وكان الكاتب يدعو جميع الذين يتولّون، بحكم نوع عملهم، مسؤولية بذر ما هو «خيّر ورشيد وخالد» إلى أن يجسدوا هذه القيم بأنفسهم، قائلاً لهم: «قبل أن تعظوا الناس وتعلموهم: «كيف ينبغي أن يكونوا» أروهم المثل متجسداً فيكم. نفذوا أنتم نفسكم ما

تأمرونهم به، تروهم يسيرون جميعاً خلفكم، طبقوا ما تأمرون به على أنفسكم قبل أن تجبروا الآخرين على تطبيقه - في هذا بالذات يكمن سر الخطوة الأولى».

وكان دوستويفسكي يرى أن إصلاح النفس لبلوغ الكمال الذاتي ليس «بداية كل شيء» فحسب بل هو تتمة كل شيء ومآله الأخير. فهو وحده، ولا شيء سواه، يتضمن كيان القومية وينشئه ويصونه، وذلك لأن المثل الأعلى للبنية المدنية، إذ يتشكل تاريخياً، ينتج حصراً عن «سعي الأفراد لبلوغهم الكمال الذاتي الأخلاقي، ومنه بالذات يبدأ... هكذا كان الأمر منذ القدم وهكذا سيبقى للأبد». وعلى هذا فإن ازدهار المجتمع ازدهاراً حقيقياً في مختلف المجالات يرتبط ارتباطاً لا ينفصم بسلامة البنية الأخلاقية الداخلية لدى مواطنيه. ويؤكد دوستويفسكي في معرض الحديث عن التغيير الممكن في نشاط الجهاز الوظيفي وإصلاحه، على سبيل المثال، أن «معارضة البيروقراطية لا تصوّب نحو الهدف. إنهم يتوهون عن الخطوة الرئيسة...فالجوهر هو في تربية العاطفة الأخلاقية». أما تقليص الملاكات من غير مراعاة هذا الجوهر، فإنه يؤدي، بالرغم من كل شيء، إلى مفارقة تتجلى في أن هذه الملاكات تبدو كأنها تتضخم. والموظفون، إذ يتظاهرون بفعالية أخلاقية لا يمكن تحديدها بشكل من الأشكال، يحاولون أن يكتفوا بتغييرات تجميلية ظاهرية، من غير أن يبدلوا أي شيء من حيث الجوهر، قائلين لأنفسهم: «... من الأحسن أن نصلح أنفسنا بأنفسنا على نحو ما، وأن نتطهر، وأن ندخل شيئاً ما جديداً، شيئاً أكثر تقدمية، إذا جاز التعبير، بما يتفق مع روح العصر، ونصبح أكثر اتساماً بالفضيلة على نحو ما، أو شيء من هذا القبيل...».

وتكون النتيجة أن الشعب الذي تحرر من التبعية القنّية لم يصبح مستقلاً، ولا يجد من يدعمه روحياً، إذ إن الأجهزة في مجلس الإدارة المحلية والمشاعات ومحاكم المحلّفين وبقية التشكيلات الديمقراطية في المجتمع «تنجذب نحو ما يشبه الرئاسة (الآمرة). وتُعيَّن هيئات تفتيش، وتُشكَّل لجان تُفرز بدورها لجاناً فرعية».

ويلاحظ الكاتب أن إحصائيات المراقبين المدقّقين تفيد أن «لدى الشعب الآن، في هذه البرهة، ما يقارب عشرين رتبة رئاسية، قد عُينت خصيصاً من أجله لتشرف عليه من علٍ وتصونه وتتولى الوصاية عليه. ومع أن وضع الشخص المسكين أصلاً يجعل كل من هب ودب رئيساً له، فقد أضافوا له هذه الرتب العشرين الخاصة! إن حرية الحركة لديه قد غدت كحرية حركة ذبابة وقعت في صحن دبس. وهذا الأمر، أي حرية الحركة على هذه الشاكلة، ضار لا من وجهة النظر الأخلاقية فحسب، بل من وجهة النظر المالية أيضاً».

إن إغفال «الخطوة الرئيسة» يضعف، حسبما يرى دوستويفسكي، الإصلاحات الاقتصادية المختلفة التي تجهد أن تقوم «فجأة وعلى حين غرة تماماً، وبموجب تعليمات

الرئاسة التي تكون في بعض الأحيان غير متوقعة قبل ذلك على الإطلاق» أن تقوم في الحال بتحسين الواقع الراهن، وزيادة موازنة الدولة، وتسديد الديون، والتغلب على العجز. ولكن هذه الإصلاحات لن تؤدي، بسبب هذا الاستعجال، سوى إلى إحراز بعض «التحسين المادي المؤقت»، وستعود إلى إنتاج ما هو قائم ولكن بشكل فيه بعض التجديد الطفيف لا غير. ولن تؤدي هذه التدابير «المواسية المُطَمْئِنَة ميكانيكياً» إلى قيام نظام «مدني فعلاً، مدني-أخلاقي»، بل ستبقي على الجو العام الملائم لأولئك الذين يتحفزون للانقضاض على أموال الدولة والممتلكات الاجتماعية، والذين يتحولون إلى حرفيين صغار بعضهم مُجاز، وبعضهم لا يهتم حتى بتغطية نفسه قانونياً». إن الفوضى المدنية - الأخلاقية التي يموهها ازدهار اقتصادي ظاهري مؤقت تفسد وعي مراقبي الوضع القائم وترسخ خلل البنية الاجتماعية؛ إذ «ينظر شخص ما بسيط فيما حوله ويستنتج فجأة أن مستثمري جهود الآخرين في الريف والمدينة هم الوحيدون الذين تتهيأ لهم أسباب العيش، كما لو أن كل شيء يُفعل من أجلهم، إذاً فلأصبح أنا مستثمراً ريفياً - ويصبح. وآخر أكثر استكانة يصبح ببساطة سكيراً مدمناً لا لأن الفقر قهره، بل لأنه يشمئز من انتهاك حرمة الحق. وماذا بالإمكان فعله هنا؟ إنه قدر محتوم».

وكان دوستويفسكي يعتقد أن تجاوز هذا القَدَر يقتضي بالضرورة توجيه الانتباه «إلى عمقٍ ما لم يَنظُر إليه، في الحقيقة، أحدٌ حتى الآن، لأنهم كانوا يبحثون عن العمق على السطح». ويجب أن ندير رؤوسنا ونظراتنا إلى الجهة المعاكسة تماماً للجهة التي ما زلنا ننظر إليها حتى الآن... كما ينبغي تغيير بعض مبادئنا تغييراً تاماً وانتشال الذباب من صحن الدبس وتحريره». وكان يرى أن علينا أن ننسى، ولو لبرهة قصيرة، حاجاتنا الفورية مهما بدت ماسة، وأن، نركز جهودنا على «معافاة الجذور» أو، بتعبير آخر على خلق الظروف اللازمة لصون التقاليد والمثل العليا الشعبية، وتطوير التنوير الحقيقي، وتكوين الناس الأفضل غير الشرطيين. وعندئذ يبرز أملٌ بحل جماعي للخلافات بين مختلف فئات المجتمع ويخلق «مزاج ديمقراطي عام ووفاق عام بين جميع الروس بدءاً من القمة الأعلى». وعندئذ يمكن للواقع القائم، بما يتضمنه من مهام لا تحتمل التأجيل ومن مشكلات مالية واقتصادية أن يتغير لا تغيراً تجميلياً فحسب، بل تغيراً جذرياً أيضاً، لأنه سيخضع هو نفسه لمبدأ جديد «ويدخل في مغزى هذا المبدأ وروحه، ويتحول حتماً نحو الأحسن» وعندئذ ستخرج الأخلاق أيضاً من نطاق إدارة الاقتصاد المدمِّرة، ويصبح الاقتصاد نفسه (ومعه العلوم، والمهن، والتقنية) بحكم تأثير الأخلاق، أكثر عقلانية وإنسانية. لأن احتياجات الناس ستصبح عقلانية وإنسانية.

ويعتقد دوستويفسكي أن ثمة مبدأ في عداد المبادئ الجديدة ينبغي استيعابه والتمسك به بثبات، وهو ينص على أنه لا يجوز تكييف التاريخ اصطناعياً وتحويله إلى فوديفيل (قاسٍ

ومأساوي أحياناً)، وعلى أن أية تجديدات، وحتى الرشيدة منها، لا تتحقق في لحظة واحدة، بل يتحدد نجاحها على أساس «الثقافة السابقة» والاغتناء بنتائج النشاط الروحي للعديد من الأجيال السابقة.

ويؤكد الكاتب أننا يجب ألا ننسى وأن نتذكر على الدوام أن النتيجة المثمرة الحقيقية لأي عمل لا تتوقف على الحساب المالي السليم، ولا على نشاط «الإنسان الجديد» الخرافي الذي لم يشاهده أحد في أي مكان، والذي تستعصي «أخلاقه الجديدة» على الاستيضاح المعقول، بل تتوقف على الاحتياطي الذهبي من المادة الإنسانية النبيلة التي تتكون باستمرار من التقاليد الروحية المتواصلة التي تضرب بجذورها في أعماق الماضي العريق.

يقول دوستويفسكي بهذا الصدد: «بمقدوركم، على سبيل المثال، بناء مدارس بالمال، ولكنكم لن تستطيعوا صنع معلمين الآن. إن تكوين المعلم شأن دقيق: المعلم الوطني الشعبي يتكون عبر العصور، ويستمر بتوارث التقاليد والخبرة التي لا حصر لها. ولكن لنفترض أنكم صنعتم بالمال لا معلمين فحسب، بل حتى علماء في نهاية المطاف، ما الفائدة؟ فأنتم، على الرغم من كل ذلك، لن تصنعوا إنساناً. وما جدوى أن يكون المرء عالماً إذا كان لا يفقه جوهر القضية؟ إنه سيستوعب، على سبيل المثال، علم التربية، وسيدرّس هذا العلم على نحو ممتاز من فوق المنبر، ولكنه هو نفسه لن يكون مربياً.

الإنسان، الإنسان - هذا هو الأهم. الإنسان أغلى حتى من المال؛ ليس ثمة سوق تشتري منها الإنسان، وليس هناك مال يمكن أن تشتريه به، لأن الإنسان لا يُباع ولا يُشرى، بل هو يتكون عبر العصور كما قلنا. والعصور تحتاج إلى وقت، لنقل إلى خمسة وعشرين أو ثلاثين عاماً، وذلك حتى عندنا، حيث العصور فقدت قيمتها منذ أمد بعيد، ولم تعد تساوي شيئاً. إن إنسان الفكرة المستقلة والعلم المستقل، إنسان الفعالية الاقتصادية المستقلة، لا يتشكل إلاّ في سياق حياة مستقلة طويلة تعيشها الأمة معتمدة على نفسها وكثمرة للعمل الشاق المؤلم الذي تقوم به على مدى عصور؛ إنه باختصار يتشكل كحصيلة لمجمل حياة بلاده التاريخية».

ولم يكن دوستويفسكي يشك في أن المبادئ الأخلاقية هي أساس كل شيء، بما في ذلك سلامة الدولة، على الرغم من أن هذه السلامة تبدو للوهلة الأولى مرهونة بكسب المعارك وبالدهاء السياسي.

وكان الكاتب يعتقد أن تأمين حياة كريمة وطويلة الأمد للشعوب والدول يتطلب بالضرورة حفاظها على مثلها العليا بصفتها مقدسات، وذلك لأنه «ما إن يبدأ المثل الأعلى الروحي لقومية ما يتزعزع ويضعف بعد أزمنة وقرون (إذ للأمور هنا قانونها الخاص الذي لا

نعرفه) حتى تبدأ هذه القومية تسقط وتسقط معها أنظمة البناء المدني وتَبْهَت كل المثل العليا المدنية التي كانت قد تكونت حتى تلك اللحظة في تلك القومية... وعلى هذا فإن المثل العليا المدنية ترتبط دوماً ارتباطا مباشراً وعضوياً بالمثل العليا الأخلاقية، والأهم من ذلك أن الأولى تنبثق بدون شك من الثانية حصراً! فهي لا تظهر البتة من تلقاء نفسها، وذلك لأنها عندما تظهر لا يكون لها من هدف سوى تلبية الطموح الأخلاقي لدى القومية المعنية على النحو وبالقدر اللذين يظهر فيهما هذا الطموح لديها».

وعلى هذا فإن سياسة الشرف والشهامة التي تخضع «للطموح الأخلاقي» والتي لا يجوز أن نفرط بها لقاء أرباح عاجلة «ليست هي السياسة الأسمى فحسب، بل لعلها السياسة الأنفع للأمة العظيمة، وذلك بالضبط لأنها أمة عظيمة. إن سياسة البحث عن الفائدة العملية الآنية والاندفاع المستمر نحو المواقع الأكثر إرباحاً والأكثر إلحاحاً في ضرورتها الآنية تكشف عن صَغار الدولة وعجزها الداخلي ووضعها البائس. إن الذكاء الدبلوماسي، الذكاء الذي يتجه نحو النفع العملي والضروري آنياً كان يتبيّن نهأنه دائماً أنه أبخس قيمةً من الحق والشرف، وكان الحق والشرف يؤولان دائماً إلى النصر، وإذا هما لم يؤولا إليه فإنهما سيؤولان إليه يوماً ما لأن هذا ما كان يريده الناس منذ الأزل وما سيظلون يريدونه إلى الأبد».

إن «قدسية المنفعة الآنية» و«البصق على الشرف والضمير من أجل انتزاع خصلة من شعر الخنزير» بوسعهما، حسب منطق دوستويفسكي، إعطاء نتائج مادية معينة مؤقتاً. ولكنهما يولّدان أيضاً الحروب الاستيلائية، ويفسدان الأمم روحياً ويهلكانها في نهاية المطاف. وبالعكس نجد أن الإيمان بالمثل العليا الخالدة (لا الشرطية - النافعة) يضفي على السياسة مغزىً روحياً، ويدعم عظمة الأمة وصحتها الأخلاقية. وتتسم الحروب في مثل هذه الحالة، إذا كانت اضطرارية، بطابع تحريري حصراً، ولا تهدف إلّا «إلى غاية عظيمة وعادلة، تليق بأمة عظيمة».

وكان دوستويفسكي ينظر في «يومياته» إلى دعم روسيا النزيه لنضال سلاف البلقان ضد النير العثماني بمنظار السياسة ذات الطابع الأخلاقي بالذات. وكان يرى أن ربح الدولة الروسية الحقيقي يكمن في أن تتصرف دائماً بشرف، وأن تُقْدم حتى على تحمل خسارة واضحة حسابياً وعلى التضحية، من أجل أن تتجنب انتهاك مبادئ العدالة.

وقد بيّن التاريخ لدوستويفسكي أن روسيا قوية «بالفكرة التي ائتمنت عليها عبر قرون عدة»، و«بسلامة وحدة» شعبها و«عدم تجزُّئه روحياً» وقدرة هذا الشعب في سنيّ المحن العصيبة على إظهار إرادة جبارة لاجتراح مآثر الشهامة. وعندما يصل الشعب الروسي «إلى

الخط الأخير، أي عندما لا يبقى أي مكان يذهب إليه» يتجاوز الشقاقات المشؤومة والآلام المرهقة بفضل «وحدته الروحية»، التي بدونها تبقى السياسة والعلم والسلاح والتقنية ضعيفة وعاجزة. وكان الكاتب يدعو إلى صون هذه الوحدة لا في أوقات الأزمات التاريخية فحسب، بل في الحياة اليومية كذلك، ويدعو إلى عدم التفريط «بالأفكار العظيمة» وتفتيتها إلى تصورات من الدرجة الثالثة. وعندئذ فقط يستيقظ في قلوب الناس ويترسخ الإيمان برسالة روسيا السامية، «الإيمان بقدسية مُثُلهم العليا، وبقوة حبهم وتوقهم إلى خدمة الإنسانية - أجل إن مثل هذا الإيمان هو عربون الحياة الأسمى للأمم...».

كما كان دوستويفسكي يجد عرابين لمثل هذه الحياة في قمم إنجازات الأدب الروسي الذي كان قد انحنى في أعمال «أفضل ممثليه، وقبل فئة الانتلجينسيا كلها عندنا -لاحظوا هذا- قد انحنى أمام الحقيقة الشعبية، واعترف بالمثل العليا الشعبية بصفتها مُثُلاً رائعة فعلاً»، وهذا ما حدد أهميته التاريخية التي تجلت، قبل كل شيء، حسب رأيه، في إبداع بوشكين؛ وقد تميز هذا الإبداع إلى جانب كماله الفني، بـ «الترجيع العالمي»[4]، والأصالة القومية الحقيقية، والعمق الفلسفي- النفسي. ويقوّم دوستويفسكي رواية ليف تولستوي «آنا كارينينا» على نحو مشابه قائلاً: «إذا كانت عندنا أعمال أدبية بمثل هذه القوة في الفكرة والتنفيذ فَلِمَ لا يمكن أن يوجد عندنا فيما بعد عِلمُنا الخاص وحلولنا الاقتصادية والاجتماعية! ولماذا تنكر علينا أوربا استقلاليتنا وامتلاكنا كلمتنا الخاصة؟! هذا هو السؤال الذي يتولد من تلقاء ذاته. ولا يجوز هنا طرح تلك الفكرة المضحكة التي تفترض أن الطبيعة لم تمنحنا سوى القدرات الأدبية، وأن كل ما تبقى هو مسائل متروكة للتاريخ وللظروف وشروط الزمن».

وينبغي التأكيد، على العموم، أن الكاتب كان في مقالاته ينظر إلى مسائل الأدب، كما بقية المسائل، من الزاوية الأخلاقية وفي إطار ارتباطها ارتباطاً لا ينفصم بمشكلات الحياة الاجتماعية والملحة حياتياً. وكان الفن في نظره تكثيفاً من نوع خاص لجوهر النشاط الإنساني، وهو لا يقتصر على أن يعكس بؤرياً العمليات النموذجية في المجتمع، بل يتعدى ذلك إلى إضاءتها بنور روحي سام.

«الفن، أي الفن الحقيقي يتطور في زمن السلام الطويل لأنه، بالضبط، يتعارض تعارضاً صارخاً مع غرق الروح في نوم ثقيل معيب، وهو، بالعكس، يدعو دائماً بإبداعاته في هذه الفترات إلى المثل العليا، ويولّد الاحتجاج والغضب، ويثير قلق المجتمع، ولا يندر أن يدفع إلى المعاناة الناسَ التواقين إلى الاستيقاظ والخروج من الحفرة النتنة».

وربما بدا من طرح المسألة على هذا النحو أن الصدارة تُخصّص للأدب «المُوجَّهِ» الذي يلتزم بفضح العيوب وتبيان سبل الخلاص منها. ولكن دوستويفسكي كان يعتقد أن الفنان لا

ينبغي له أن «يعتصر من داخله بتشنجات مؤلمة موضوعاً يرضي الرأي العام الرسمي والليبرالي والاجتماعي»، بل من الضروري أن يفسح في المجال للصور التي تندفع من داخل نفسه تلقائياً كي تفيض وتتطور. إذ إن «أي عمل فني بدون اتجاه مسبق، ومُنفَّذٍ انطلاقاً من الحاجة الفنية فقط، حتى وإن كان يتناول موضوعاً جانبياً خالياً من الإشارة إلى أي شيء «يفرضه اتجاه معين» سيكون أكثر نفعاً بكثير من أجل بلوغ الهدف الذي يتوخاه هو نفسه... فالعمل الفني الحقيقي، حتى وإن كان يتحدث عن عوالم أخرى، لا يمكن أن يخلو من اتجاه حقيقي وفكرة صادقة». إن أمثال هذه الأعمال التي تتميز بصدق عفوي وأخلاقية ليس فيها أدنى قسر، والتي يعطي كاتبها الحرية لمشاعره ولـ «فكرته (مثله الأعلى)» ويقوي بهذا امتلاء واقعها الجمالي كان دوستويفسكي يسميها أدب الجَمال، ويعارض به أدب القضية وأدب النفي الشامل، اللذين تقيدهما مهمات وأهداف محددة مسبقاً ولا يتضمنان «مثلاً أعلى إيجابياً في خلفيتهما». «فأدب «القضية» مليء بتلمُّسات غير واضحة ومشوشة وذلك لأن القضية نفسها لم تتضح بعد، وما زالت حلماً». أما الأدب المكرس خصوصاً للفضح والتعرية فإنه مجرد تماماً من الطابع البنّاء ومن شأنه أن يحرض على الكراهية والانتقام «وهو لازم لمن لا يعرف بم يتمسّك، وكيف يتصرف، ومن يصدّق...إن المثل الإيجابي يتعارض مع فساد مذهبهم (المقصود كتّاب الأعمال العدمية - ملاحظة بوريس تاراسوف) والنفي لا يُلْزِم بأي شيء».

ومع أن «أدب الجمال» لا يعكس «مباشرة» و«على نحو مُوَّجه» أحداث الواقع الراهن وحقائقه فإنه ينشئ صوراً تتضمن في داخلها السمات الأكثر جوهرية للحياة الجارية. وهكذا نرى أن تاتيانا لارينا ويفغيني أونيغن عند بوشكين، وبيروغوف وخليستاكوف عند غوغول، وبوتوغين عند تورغينف، وفلاس عند نكراسوف، وليفين عند تولستوي يصبحون في مقالات دوستويفسكي رموزاً من نوعية خاصة تساعده على تحليل حالة المجتمع الروحية ونزعات السيرورة التاريخية ببصيرة أكثر نفاذاً. وكان الكاتب يثمّن عالياً أمثال هذه النماذج المعبّرة ويأسف لأن الأدب الضحل يفقد القدرة على إبداع أمثالها. ويقول بهذا الصدد: «ثمة الكثير مما في واقعنا المعاصر الراهن لم يتناوله أدبنا الفني بعد، لقد أغفل الكثير إغفالاً تاماً، وتأخر تأخراً مريعاً... وربما كان سبب انصرافه إلى الرواية التاريخية هو فقدانه مغزى ما يجري الآن».

وكان دوستويفسكي يعتقد أن من الضروري وجود موهبة تضاهي على الأقل، موهبة غوغول لاستكشاف شخصية كشخصية كاتب الرسائل المغْفلة المليئة بالشتائم، على سبيل المثال، وتكثيف سماتها في نموذج فني بكل ما تتصف به من إعجاب مفرط بالذات مقترن بعدم احترام ذاتي مستتر في آن، أو لتصوير نموذج الجاهل المغرور وعديم الموهبة الذي يتصور نفسه شخصية عظيمة وعبقرية لا تفوقها عبقرية. «رُبّ سيد تقدمي وواعظ يجلس

أمامك ويشرع يتكلم كلاماً لا تعرف أوله من آخره، كلاماً متداخلاً ومكوراً في كبّة متشابكة. يتكلم ساعة ونصفاً، والمهم أنه يتحدث بكثير من الطلاوة والملاسة وكأنه طائر يغرد. تسأل نفسك، ما حقيقته: هل هو ذكي، أم أن ثمة شيئاً آخر؟ ولا تستطيع أن تقرر. يُخيل إليك أن كل كلمة مفهومة وواضحة، ولكنك بالإجمال لا تدرك شيئاً. هل البيض هو الذي سيعلّم الدجاجة في المستقبل، أم أن الدجاجة هي التي ستحتضن البيض كما في السابق- إنك لن تفهم شيئاً من كل هذا، وكل ما تراه أمامك هو أن الدجاجة البليغة تبيض سخافات بدلاً من البيض. وفي النهاية تحملق مذهولاً وتشعر بالخدر في رأسك. إنه نموذج جديد ظهر منذ مدة قصيرة ولم يتناوله الأدب بعد...».

إن التكثيف الفني التصويري للأسباب الاجتماعية- النفسية التي أدت إلى ظهور هؤلاء المتفيهقين، الذين يشوشون وعي جماهير واسعة من الناس، ويعكرون مسار الحياة، مهمٌ بحد ذاته، ويزداد أهمية لأنه في الوقت نفسه يغدو إحدى وسائل التغلب على تأثير هؤلاء، ووسائل الكشف عن القيم الحقيقية. وكان دوستويفسكي يسعى لأن يفرز في الأدب، كما في كل نوع من أنواع النشاط الأخرى ما هو رئيس ومهم لفهم طبيعة الإنسان، والتاريخ الذي يصنعه. ونراه يتقصى في أدبه الصحفي الفريد العلاقة الوثيقة النابضة بين قوانين الروح الإنسانية وقوانين الجسم الاجتماعي الحي، مما كان يسمح له باستباق منطق تطور الحياة الموضوعي المستقل عن التعسف الفردي، وعن التصورات الذاتية لدى مختلف أصناف الوضعيين، ويسمح له بأن يتنبأ قبل عقود كثيرة بالنتائج النهائية لسيرورات اجتماعية معينة، وبأن يحذّر من مآزق التاريخ العالمي الآتي. «من الواضح أن ثمة حداً لنشاط المجتمع؛ ثمة سياج يصطدم المجتمع به ويتوقف عنده. وهذا السياج هو حالة المجتمع الأخلاقية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً ببنيته الاجتماعية...».

ولذلك كان دوستويفسكي يقيس نيات الناس، وحقيقةَ منجزاتهم وكلَّ أنواع نشاطهم الموجَّه نحو التغلب على عدم الكمال الحياتي، بالوعي الأخلاقي الأسمى لدى الإنسان، وبنوعية مقدساته وحيوية ضميره وقدرته على أن يتآخى بإخلاص مع الآخرين، ويضحي لا بما يزيد عن حاجته فحسب، بل بخبزه، كفافه اليومي، بيد أن مثل هذا التغلب لا يمكن أن يصيب أي قدر من النجاح، حسب قناعته؛ إلا إذا تعرّت كل تجليات الشر، ولاسيما المموهة بلبوس الفضيلة، تعرياً سافراً في نفس الإنسان ولم تبق كامنة في أعماقه تحت طبقة من مظاهر الاحتشام واللياقة.

إن الإنسان لا يستطيع، من غير استجلائه بوضوح معالم بوادر الشر في نواة عالمه الداخلي، أن يوجه اهتمامه وقواه نحو استئصال هذه البوادر، وأن يحول دون نموها العضوي وانتشارها،

ولا يستطيع أيضاً تلمّس وهدم الجسور بين الخواص الأنانية في «طبيعته» والأفكار الباطلة، ولا يستطيع تجنب الانتقاص من قيمة مفاهيم سامية: كالمثل الأعلى والحرية والإخاء.

ويرى دوستويفسكي أن اختيار طريق البشرية بأسرها لا ينفصل عن تقرير الفرد لمصيره؛ وذلك لأن الخط الفاصل بين الخير والشر لا يمر «وراء البحر في مكان ما» أو «عبر الأشياء» أو «خارج الإنسان»، بل يمر عبر القلوب البشرية كافة، عبر كل قلب بشري. وها هو الكاتب الروسي العظيم يدعو القارئ في مقالاته الصحفية إلى تعميق نظرته إلى داخل نفسه، وإلى النظر بلا تحيز في أفعاله كي يحدد الهدف الذي سيبذل قواه لبلوغه: فهل ستُهدر هذه القوى على «تقزيم الذات» وتحويل الإنسان إلى «صورة العبد البهيمية»، أم ستُنْفق على «تعظيم الذات» وتمكين «الصورة الإنسانية» في الإنسان.

إن أي امرئ يقتلع الطفيليات من نفسه، ويظهر قوة الحب «المكنونة عميقاً» في داخله و«الموجودة في نفس كل منا» يساعد بهذا على قهر العنصر «الخيواني السابق» وتنشئة «أناس جدد حقاً» وعلى طرد الشر الكوني من الكون، والمساهمة في تقرير مصاير البشرية المستقبلية.

ولم يكن دوستويفسكي يرى في هذا أي شيء خيالي. ولكنه كان يؤكد أننا يجب أن نتذكر جيداً «أن الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون قوياً»، وأن في أفكاره وتصرفاته «عدداً لا يحصى من التفرعات الخفية علينا»، وأن «كل شيء كالمحيط، كل شيء يجري ويتلامس مع غيره، وإذا أنت لمست شيئاً في مكان ما تردَّدَ صداه في الطرف الآخر من العالم».

بوريس تاراسوف

موسكو - 1988

يوميات كاتب عام 1873

مدخل

في العشرين من كانون الأول (ديسمبر) علمت أن كل شيء قد قُرّر، وأنني الآن رئيس تحرير «المواطن». وهذه الحادثة الاستثنائية، أقصد الاستثنائية بالنسبة لي (لا أريد أن أسيء إلى أحد) قد حدثت ببساطة. في العشرين من كانون الأول (ديسمبر) بالذات كنت أقرأ مقالة نشرتها «الوقائع الموسكوفية» عن عقد قران الامبراطور الصيني؛ وقد خلّفت هذه المقالة في نفسي انطباعاً عميقاً؛ فهذه الواقعة الرائعة والمعقدة جداً، على ما يبدو، وقد حدثت هي الأخرى ببساطة مدهشة: فكل شيء كان قد أُخذ بالحسبان وحُدّد بكل تفاصيله منذ ألف سنة في كتاب المراسم الذي يتألف من نحو مئتي مجلد. وعندما قارنت بين ضخامة الواقعة الصينية وإجراءات تعييني رئيس تحرير شعرت فجأة بأن الأنظمة عندنا غير جديرة بالشكر، على الرغم من أنهم ثبّتوني بسهولة بالغة، وخطر لي أن إصدار «المواطن» في الصين سيكون أجدى لنا، أنا والأمير ميشيرسكي، بما لا يقاس من إصدارها هنا. فهناك كل شيء في غاية الوضوح... ليس علينا سوى أن نحضر في اليوم المحدد إلى المديرية العامة لشؤون الصحافة. وبعد أن نلامس الأرض بجبهتينا ونلحسها بلسانينا، ننهض ونرفع سبابتينا أمام وجهينا ونحني رأسينا بإجلال. وطبعاً سيتظاهر المدير الأعلى لشؤون الصحافة بأنه لا يعيرنا أي انتباه كما لو كنا ذبابتين دخلتا الغرفة. ولكن المساعد الثالث لسكرتيره الثالث سينهض من مجلسه ممسكاً بيده دبلوم تعييني رئيساً للتحرير، وسيلقي علينا بصوت مهيب ولكنْ ودود الإرشادات التي تنص عليها المراسم. وستكون هذه الإرشادات واضحة جداً ومفهومة تماماً. بحيث أننا كلينا سنكون في منتهى الحبور ونحن نصغي إليها. وإذا افترضنا أنني في الصين كنت غبياً وصافي النية إلى درجة أنني شعرت بالخوف وتأنيب الضمير، وأنا أتصدى لتولي رئاسة التحرير، مع إدراكي ضعف إمكانياتي، فإنهم سيبرهنون لي في الحال أنني مضاعف الغباء لأن مثل هذه المشاعر تساورني، وأنني منذ هذه اللحظة بالذات لست بحاجة إلى الذكاء البتة حتى ولو كنت أمتلكه؛ بل بالعكس، فالأكثر أماناً لي بما لا يقاس ألّا يكون لديّ منه أي قدر على الإطلاق.

ومما لا شك فيه بالطبع أنه كان سيطيب لي جداً سماع هذا. وبعد أن يختتم المساعد الثالث للسكرتير الثالث حديثه لي بقوله: «اذهب، يا رئيس التحرير، فأنت منذ الآن بإمكانك أن تأكل الرز وتشرب الشاي مجَدِّداً اطمئنانَ ضميرك» يسلمني الدبلوم الجميل المطبوع بأحرف مذهّبة على قماش من الأطلس الأحمر، ويدفع الأمير ميشيرسكي رشوة ضافية، ونعود كلانا إلى البيت لنصدر على الفور عدداً رائعاً من «المواطن» لا يمكن لنا أبداً أن نصدر مثله هنا. لو كنا في الصين لكانت إصداراتنا ممتازة.

ولكنني أظن أننا لو كنا هناك لكانت دعوة الأمير ميشيرسكي لي لتولي رئاسة التحرير هي حتماً نوعاً من المكر بي، وذلك لأن كل ما كان سيهدف إليه من ذلك بالدرجة الأولى هو أن أنوب عنه في الذهاب إلى المديرية العامة لشؤون الصحافة في كل مرة يستدعونه فيها ليضربوه على عقبيه بقضبان الخيزران. ولكن أنا أيضاً كنت سأفوقه في المكر: إذ سأكف على الفور عن نشر «بسمارك»*. وبالعكس: سأعمد إلى كتابة مقالات ممتازة بحيث أنهم لن يستدعونني إلى الخيزران إلّا مرة واحدة عن كل عددين، وبالمقابل فإنني سأتعلم إجادة الكتابة.

في الصين كنت سأكتب على نحو ممتاز. أما هنا فهذا أصعب بكثير. هناك كل شيء سبق أن نُظر فيه وحُسب حسابه لألف سنة قادمة، أما هنا فكل شيء مقلوب رأساً على عقب لألف سنة قادمة. هناك كنت سأكتب على نحو مفهوم حتى وإن كنت لا أريد هذا؛ وعلى ذلك فأنا لا أدري من الذي يمكن أن يقرأني. أما هنا فلكي أجعل الآخرين يقرؤونني أجد من الأجدى لي أن أكتب على نحو غير مفهوم. صحيفة «الوقائع الموسكوفية» وحدها هي التي تكتب افتتاحياتها في عمود ونصف - ويا للعجب - على نحو مفهوم؛ وهذا إذا كانت مكتوبة بقلم كاتب معروف**. أما في صحيفة «الصوت» فالافتتاحيات تكتب في ثمانية أعمدة، أو عشرة، أو اثني عشر، وحتى في ثلاثة عشر. وهكذا نرى كم من الأعمدة علينا أن نستهلك هنا كي نجبر الآخرين على احترامنا.

عندنا التكلم مع الآخرين علم، أي هو، للوهلة الأولى، كما في الصين على الأرجح. فهنا كهناك ثمة بضع طرائق علمية بحتة ومبسطة جداً. فعبارة «أنا لا أفهم شيئاً» على سبيل المثال، كانت في السابق لا تعني سوى غباء من ينطق بها، أما الآن فهي تكسبه شرفاً عظيماً. الآن ما

(*) المقصود: رواية ف.ب.ميشيرسكي «أحد بسماركاتنا» التي بدأ نشرها منجمةً في مجلة «المواطن» عام (1872). (ن).

(**) المقصود: رئيس تحرير صحيفة «الوقائع الموسكوفية» ومُصدرها م.ن. كاتلوف، الذي كان دوستويفسكي يساجله باستمرار في مجلتي «الوقت» و«العصر». (ن).

عليك إلا أن تقول بصراحة ظاهرة وفخر «أنا لا أفهم أي شيء على الإطلاق في الفن»* حتى ترتقي بنفسك على الفور إلى مرتبة عالية. وستكون الفائدة التي تجنيها من هذا أكبر بكثير إذا كنت حقاً لا تفهم أي شيء.

بيد أن هذه الطريقة المبسطة لا تبرهن على أي شيء. ففي حقيقة الأمر كل شخص عندنا يفترض الغباء في الآخرين بدون أي تروٍ وبدون أن يخطر له توجيه سؤال معاكس إلى نفسه: «ولكن ألست أنا هو الغبي في الواقع؟» هذا الوضع من المفروض أن يرضي الجميع، ولكنه لا يرضي أحداً، والجميع غاضبون. ثم إن التفكير المتروي في أيامنا هذه يكاد يكون متعذراً: فهو يكلف غالياً.

ولكنهم يشترون أفكاراً جاهزة؛ فهي تباع في كل مكان، وحتى بدون مقابل؛ ولكنها بدون مقابل بالذات تكلف أكثر، وقد بدؤوا يستشعرون هذا. وفي الحصيلة ليس ثمة أية فائدة، وتظل الفوضى كالسابق.

وأغلب الظن أننا كالصّين، ولكن بدون نظامها. إننا نكاد نبدأ بما بدأت الصين تنتهي منه، ولا شك في أننا سنبلغ تلك النهاية، ولكن متى؟ فَلِكي نعتمد مراسم في ألف مجلد بهدف حيازتنا نهائياً الحق في عدم التفكير بأي شيء علينا أن نعيش على الأقل ألف سنة أخرى من التفكير المتروي، ولكن لا أحد يريد أن يختصر الوقت ويقرب الموعد إذ لا أحد يريد أن يفكر بتروٍ.

ولكن، والحق يقال، إذا كان لا أحد يريد التفكير بتروٍ، فإن هذا، على ما يبدو، يسهل الأمور على الأديب الروسي. أجل، ستكون الأمور أسهل بالفعل؛ والويل لذاك الأديب والناشر الذي يفكر بتروٍ في زماننا. والويل أكثر لمن تراوده الرغبة في الدراسة والفهم؛ ولكن الويل الأعظم لذاك الذي يعلن عن هذا بإخلاص. وإذا هو صرح بأنه فهم قليلاً ويرغب في أن يعبر عن أفكاره هجره الجميع على الفور. ولا يتبقى له سوى البحث عن شُخَيْص واحد مناسب، أو حتى استئجار مثل هذا الشُخيص، والتحدث معه وحده فحسب، وربما إصدار المجلة من أجله وحده. وضعٌ شنيع، إذ لا فرق بينه وبين أن يكلم المرء نفسه، ويصدر مجلة لمتعته الشخصية. وأنا ميال جداً إلى الظن بأن مجلة «المواطن» ستظل طويلاً تكلم نفسها من أجل متعتها الخاصة. ولكن لا بد من أن نتذكر أنّ تكلُّم المرء مع نفسه يعني، كما يقول الطب، استعداده للجنون. ومجلة «المواطن» يتحتم عليها أن تُكلم المواطنين. وهنا بالذات تكمن كل مصيبتها!

(*) تلميح تهكمي إلى عبارات الندم التي وردت في كتاب غوغول «مقاطع مختارة من المراسلات مع الأصدقاء». (ن).

أجل، هذه هي الصحيفة التي ربطتُ نفسي بها. ووضعي الآن في منتهى الالتباس. ولكن أنا أيضاً سأكلم نفسي من أجل متعتي الخاصة، وسيتخذ حديثي شكل هذه اليوميات، وليكن في النتيجة ما يكون. عمَّ سيدور الحديث؟ عن كل ما سيدهشني أو يجعلني أستغرق في التفكير. وإذا ما وجدت قارئاً و- اللهم نجّنا - مُناظراً فسأدرك أن عليّ أن أحسن الكلام، وأن أعرف من أكلّم وكيف. سأحاول أن أتعلم كل هذا، لأن هذا هو الأصعب عندنا، أقصد في مجال الأدب. وإلى هذا فإن المناظرين أنواع: وليس أي واحد منهم يمكن أن تبدأ معه الحديث. وسأروي هنا حكاية سمعتها منذ أيام. والحكاية، كما يقولون، قديمة وربما كانت ذات أصل هندي مما يعزينا أحر العزاء.

ذات مرة تنازع الخنزير مع الأسد ودعاه إلى المبارزة؛ وفيما هو عائد إلى البيت ثاب إلى رشده وجبُن. اجتمع كل أفراد القطيع وفكروا ثم قرروا ما يلي:

- اسمع أيها الخنزير، بالقرب من هنا توجد حفرة قاذورات، اذهب إليها وتمرغ فيها جيداً واذهب بعد ذلك كما أنت إلى مكان المبارزة وسترى.

فعل الخنزير ذلك وعندما جاء الأسد وشمّ الرائحة تغضّن وجهه وابتعد عن المكان. وظل الخنزير طويلاً بعد ذلك يتبجح بأن الأسد قد جبن وهرب من ساحة المعركة.

هذه هي الحكاية ونحن بالطبع ليس عندنا أسود: فالمناخ غير ملائم، والأوضاع ليست بتلك العظمة. ولكن ضعوا مكان الأسد إنساناً شريفاً، كما ينبغي على كل منا أن يكون، وستجدون أن العبرة تظل هي نفسها.

وبالمناسبة سأروي لكم قصة أخرى:

ذات مرة بينما كنت أتحادث مع المرحوم غيرتسين[9] امتدحت جداً مؤلفه «من الشاطئ الآخر». ومما سرني بالغ السرور أن هذا الكتاب قد امتدحه أيضاً بتروفتش بوغودين* في مقالته الرائعة والمثيرة للاهتمام عن لقائه بغيرتسين في الخارج. وقد كُتب المؤلَّف المذكور بشكل محادثة بين شخصين هما غيرتسين ومناظره. قلت له في سياق الحديث:

- ما يعجبني بشكل خاص هو أن مناظرك أيضاً شديد الذكاء. ألا تتفق معي على أنه يفحمك في كثير من الأحيان؟

فأجابني غيرتسين ضاحكاً: - وهنا بالذات سر اللعبة كلها. سأروي لك طرفة. مرة، عندما كنت في بطرسبورغ، جرني بيلينسكي[10] إلى شقته وأجلسني ليُسمعني مقالته: «حديث بين

(*) ميخائيل بوغودين (1800-1875) مؤرخ وأستاذ في جامعة موسكو. والمقصود هنا مقالته: «أ.غيرتسين» (1870). (ن).

السيد أ. والسيد ب.» التي كتبها بحماسة: (أُدرجت هذه المقالة في مجموعة مؤلفاته). ويبدو السيد أ. - أي بيلينسكي نفسه طبعاً - في هذه المقالة ذكياً جداً، فيما السيد ب.، مناظره يبدو سطحياً. وعندما انتهى سألني بتلهف محموم: - قل لي ما رأيك؟

- جيدة بالطبع، جيدة، ومن الواضح أنك ذكي جداً، ولكن ما الذي دعاك إلى أن تضيع وقتك مع مثل هذا الغبي.

ارتمى بيلينسكي على الأريكة وطمر وجهه في الوسادة وصاح بأعلى صوته وهو يقهقه:

- ذبحتني! ذبحتني!

الناس القدامى

هذه الطرفة عن بيلينسكي ذكرتني الآن بأول خطوة لي على درب الأدب، والله أعلم كم سنة مرت عليها. لقد كانت أياماً حزينة مشؤومة في حياتي. تذكرت بيلينسكي بالذات، كما قابلته حينئذ، وكيف استقبلني هو آنذاك. في هذه الآونة غالباً ما أتذكر الناس القدامى لأنني، بالطبع، أقابل أناساً جدداً. كان بيلينسكي أشد الأشخاص الذين قابلتهم في حياتي اندفاعاً وحماسة. غيرتسين كان شخصية مختلفة تماماً: كان نتاج فئة الأسياد عندنا: gentilhomme* russe et citoyen du monde.

وهو، قبل كل شيء، نموذج لم يظهر إلا في روسيا، ولم يكن له أن يظهر في أي مكان آخر غير روسيا. إن غيرتسين لم يهاجر، وليس هو أول من شق طريق الهجرة؛ لا... فهو قد ولد مهاجراً. وكل أمثاله إنما وُلدوا عندنا مهاجرين، مع أن أغلبيتهم لم تغادر روسيا. في غضون المئة والخمسين سنة السابقة من حياة فئة الأسياد الروسية انتخرت جذور هذه الفئة، مع بعض الاستثناءات القليلة، وتفككت آخر الوشائج التي كانت تربطها بالتربة الروسية والحقيقة الروسية. لكأن التاريخ نفسه قد قدّر على غيرتسين أن يكون النموذج الذي يجسد أوضح تجسيد هذه القطيعة بين الشعب والأغلبية العظمى من الفئة المثقفة عندنا. وهذا النموذج هو، بهذا المعنى، نموذج تاريخي. وهم بانفصالهم عن الشعب فقدوا الإله كذلك بالطبع. والقلقون منهم أصبحوا ملحدين؛ أما الفاترون والهادئون فقد غدوا لا مبالين.

لم يكونوا يشعرون تجاه الشعب الروسي سوى بالاحتقار مع أنهم كانوا في الوقت نفسه يتخيلون أنهم يحبونه ويتمنون له كل خير ويؤمنون بهذا. كانوا يحبونه سلبياً. متخيلين بدلاً منه شعباً مثالياً كما ينبغي أن يكون الشعب الروسي حسب مفاهيمهم. وهذا الشعب المثالي قد تمثل آنذاك بعفوية لدى بعض ممثلي الأكثرية التقدميين في العامة من الباريسيين في العام الثالث والتسعين.

(*) نبيل روسي ومواطن عالمي (بالفرنسية). (ن).

كان هذا آنذاك هو المثل الأعلى الأكثر فتنة الذي يتجسد فيه الشعب. ومن البدهي أن غيرتسين كان يجب أن يصبح اشتراكياً وبصفته نبيلاً روسياً بالذات، أي من غير أي هدف أو حاجة، بل بحكم «السيرورة المنطقية للأفكار»، وبسبب فراغ القلب في الوطن، لقد تخلى عن أسس المجتمع السابق، وأنكر الأسريّة، وكان على ما يبدو، أباً وزوجاً جيداً. كما أنكر الملكية الخاصة واستطاع، ريثما يثين الأوان، أن يدبر أموره، وكان يسرّه أن يشعر باليُسر وهو في الخارج. وكان يصنع الثورات ويحرض الآخرين عليها، وفي الوقت نفسه كان يحب الأجواء المريحة والطمأنينة الأسرية. كان غيرتسين فناناً ومفكراً وكاتباً متألقاً، وإنساناً واسع الثقافة إلى حد استثنائي، ولوذعياً، ومحدّثاً مدهشاً (حتى أن حديثه كان أجود من كتاباته) ومتأملاً ذاتياً رائعاً. فالتأمل الذاتي، والقدرة على أن يجعل من أعمق مشاعره الذاتية موضوعاً، وأن يضعها أمامه ويحني هامته إجلالاً لها، وربما في الوقت ذاته، يضحك منها، هذه القدرة كانت متطورة لديه إلى أبعد الحدود. ولا شك في أن غيرتسين كان إنساناً غير عادي، ولكنه كان في أي عمل يقوم به: سواء في كتابة مذكراته أو في إصِدار مجلة مع برودون*، أو في خروجه إلى المتاريس في باريس (المشهد الذي وصفه على نحو مضحك جداً في مذكراته) أو في معاناته، أو في مسرّته، أو في تشككه، أو في إرساله نداء إلى روسيا في العام الثالث والستين، موجَّهاً إلى الثوريين الروس إرضاء للبولونيين، بدون أن يكون لديه في الوقت نفسه ثقة في هؤلاء ومع معرفته بأنهم خدعوه، وبأنه بندائه هذا يدفع مئات من أولئك الشبان التعساء إلى الهلاك؛ أو في اعترافه هو نفسه بهذا بسذاجة لا سابق لها وذلك في أواخر مقالاته، حتى بدون أن يخطر بباله كيف سيبدو في نظر الآخرين باعترافه هذا؛ كان في كل هذا دائماً وفي كل مكان وطوال حياته وقبل أي شيء آخر gentilhomme russe et citoyen du monde.

لقد كان ببساطة نتاج نظام القنانة السابق الذي كان يكرهه، والذي انحدر منه، لا بالنسب فحسب، بل عبر القطيعة مع الأرض الأم بالذات، مع ما تحمله هذه الأرض من مُثل عليا.

أما بيلينسكي فبالعكس. بيلينسكي لم يكن gentilhomme. البتة، لا...على الإطلاق. (الله يعلم إلى من يعود نسبه، ولكن يبدو أن أباه كان مطبِّباً عسكرياً).

لم يكن بيلينسكي، بحكم السمة الغالبة في طبيعته ميّالاً إلى التأمل الذاتي، بل كان دائماً وطوال حياته ذا طبيعة اندفاعية متحمسة إلى أبعد الحدود. قصتي الأولى «الناس الفقراء» أعجبته جداً (بعد ذلك، بعد مضي عام واحد تقريباً، افترقنا، وكان ذلك لأسباب مختلفة، وهي بالمناسبة، أسباب لا أهمية لها من جميع النواحي) ولكن آنذاك، أي في الأيام الأولى لتعارفنا،

(*) بيير جوزيف برودون (1809-1865) اشتراكي فرنسي مُنظِّر «الفوضوية» طرح مشروع التعاون الاقتصادي بين الطبقات ونظريات «إلغاء الدولة». (ن).

عندما كان يميل إليّ بكل قلبه، اندفع على الفور بتعجل بريء كل البراءة لإقناعي باعتناق عقيدته. وأنا لا أبالغ البتة في تقدير انجذابه القوي نحوي، على الأقل في أشهر تعارفنا الأولى. لقد كان آنذاك اشتراكياً متحمساً. وبدأ معي من الإلحاد مباشرة. وكان في هذا كله كثيرٌ من الأمور اللافتة بالنسبة لي، وبالذات رهافة حسه المدهشة، وقدرته غير العادية على التشبع بالفكرة والغوص إلى أعماقها. منذ نحو عامين أصدرت «الأممية»[11] نداء استهلته مباشرة بتصريح لافت: «نحن قبل كل شيء جمعية إلحادية» أي بدأت بجوهر القضية.

وبهذا نفسه بدأ بيلينسكي. ومع أنه كان يضع العقل والعلم والواقعية في أعلى مراتب القيم، كان في الوقت ذاته يدرك أكثر من الجميع أن العقل والعلم والواقعية وحدها لا يمكنها أن تنشئ أكثر من قرية نمل، وليس بمقدورها أن توجد «هارمونية» اجتماعية يمكن للإنسان أن يعيش ضمنها بانسجام. كان يعلم أن أساس كل شيء هو المبادئ الأخلاقية. وكان يؤمن بالأسس الأخلاقية الجديدة للاشتراكية (التي لم تبيّن لنا حتى الآن أياً من هذه الأسس ما عدا التشويهات الشنيعة للطبيعة والتفكير السليم) وكان إيمانه بها يبلغ حد الهوس بدون أي تأمل ذاتي؛ والحماسة وحدها هي المهيمنة هنا. وكان عليه بصفته اشتراكياً إسقاط المسيحية قبل كل شيء. فقد كان يعرف أن الثورة يتحتم عليها أن تبدأ من الإلحاد. وكان عليه أن يسقط تلك العقيدة التي انبثقت منها الأسس الأخلاقية للمجتمع الذي يرفضه. كان ينفي الأسريّة والملكيّة، ومسؤولية الفرد الأخلاقية نفياً جذرياً. (علماً بأنه كان هو أيضاً زوجاً وأباً جيداً مثل غيرتسين). وكان يدرك بدون شك أنه عندما ينفي مسؤولية الفرد الأخلاقية إنما ينفي بهذا حريته أيضاً؛ ولكنه كان يؤمن بكل كيانه (وإيمانه كان أكثر عمىً من إيمان غيرتسين الذي ساوره الشك في النهاية على ما يبدو) بأن الاشتراكية لا تهدم حرية الفرد، بل بالعكس، تشيد لها صرحاً لم يسبق لعظمته مثيل، ولكن على أسس جديدة، نقية وصلبة كالألماس.

ولكن بقيت هنا شخصية المسيح البهية التي كان الصراع معها هو الأصعب. فبيلينسكي كاشتراكي كان ينبغي عليه بالضرورة أن يهدم تعاليم المسيح، ويصف محبة الإنسان التي تتجسد فيها بأنها زائفة، وتتسم بالجهل، ويشجبها العلم المعاصر والمبادئ الاقتصادية. ولكن مع ذلك بقي وجه الإنسان - الإله الوضاء، وإعجازه الأخلاقي، وجماله الرائع العجائبي. إلّا أن بيلينسكي، بحماسته الدائمة التي لا يخبو لها أُوار، لم يكن يتوقف حتى أمام هذه العقبة الكأداء، كما توقف رينان الذي أعلن في كتابه «Vie de Jésus»* المليء بالكفر أن المسيح، مع ذلك، مثال للجمال الإنساني ونموذج معجز لا يمكن أن يتكرر ولا حتى في المستقبل.

(*) «حياة يسوع» بالفرنسية كما وردت في الأصل.(م).

ذات أمسية زعق وهو يخاطبني (كان في بعض الأحيان يزعق على نحو ما عندما يحتد جداً):

- هل تعرف أنه لا يجوز إحصاء ذنوب الإنسان وإثقال كاهله بالواجبات وبتعريض خدّيه للّطم عندما يكون المجتمع منظماً بسفالة تجعل الإنسان غير قادر على تفادي عمل الشر، وتسوقه اقتصادياً إلى ارتكاب أعمال شريرة، وأن من السخف والقسوة مطالبة الإنسان بما هو ليس بقادر على تنفيذه، بحكم قوانين الطبيعة، حتى لو أراد...

في تلك الأمسية لم نكن وحدنا بل كان معنا أحد أصدقاء بيلينسكي* وكان هذا الأخير يحترمه جداً ويتمثل بكثير مما يقوله، كما كان حاضراً أيضاً أديب شاب مبتدئ اكتسب شهرة فيما بعد في عالم الأدب**.

قطع بيلينسكي خطابه الحماسي فجأة وتوجه إلى صديقه قائلاً وهو يشير إلي:

- إنني أشعر بتأثر وأنا أنظر إليه، ففي كل مرة أتعرض فيها لذكر المسيح تتغير كل ملامح وجهه ويبدو وكأنه يهم بالبكاء... ثم اندفع نحوي قائلاً:

- صدقني، أيها الساذج، صدقني أن مسيحك لو وُلد في وقتنا هذا لكان إنساناً عادياً جداً، ولما لفت نظر أحد؛ سيتضاءل في ظروف العلم الحالي ووجود محركي الإنسانية الحاليين.

- أوه، لا!

استدرك صديق بيلينسكي - (أذكر أننا كنا جالسين وكان هو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً...) لا؛ لو ظهرِ المسيح الآن لانضم إلى الحركة وترأسها...

فقال بيلينسكي موافقاً بتعجل مدهش: نعم، نعم، كان سينضم حتماً إلى الاشتراكيين ويسير خلفهم.

أما محركو البشرية الذين كان من المقدر على المسيح أن ينضم إليهم فكلهم كانوا آنذاك من الفرنسيين: وفي مقدمتهم جورج صاند[12] وكابيت[12] الذي طواه النسيان تماماً الآن، وبيير ليرو[12] وبرودون الذي كان آنذاك في بداية نشاطه.

هؤلاء الأربعة حسبما أذكر، هم الذين كان بيلينسكي يكنّ لهم أكبر قدر من الاحترام آنذاك. أما فورييه[12] فقد كان آنذاك يحظى باحترام أقل بكثير. وكان الحديث يدور عند بيلينسكي عن هؤلاء الأشخاص أمسيات بطولها، كما أن ثمة شخصاً ألمانياً كان بيلينسكي يقيم له وزناً كبيراً آنذاك هو فويرباخ[12] (كان بيلينسكي الذي لم يستطع طوال حياته أن يتقن أية لغة أجنبية ينطق اسمه «فيرباخ»). وكانوا يتحدثون عن شتراوس[12] بإجلال.

(*) المرجح أنه الكاتب والناقد ف.ب.بوتكين. (ن).
(**) المقصود الكاتب الروسي الشهير إيفان تورغينف (1818-1883). (ن).

وهذا الإيمان الحار بالفكرة التي يعتنقها جعل منه بالطبع واحداً من أسعد الناس في العالم. أوه، عبثاً أخذوا يكتبون فيما بعد أن بيلينسكي لو امتد به العمر لانحاز إلى السلافوية[13] لا! لم يكن أبداً لينتهي إلى السلافوية. لو امتد به العمر وسنحت له الفرصة ربما كان سينتهي به الأمر إلى الهجرة والتنقل من مؤتمر إلى آخر في ألمانيا وسويسرا: شيخاً ضئيلاً متحمساً ومفعماً بإيمانه الحار السابق الذي لا يسمح بتسلل أية شكوك إليه أو ربما كان سيلتحق بسيدة ما ألمانية بصفته مساعداً لها يلبي طلباتها في مسألة نسوية ما.

هذا الإنسان الكلّي الغبطة، والذي يتمتع براحة ضمير مدهشة، كان في بعض الأحيان يكتئب بعمق. بيد أن كآبته كانت من نوع خاص؛ لم يكن سببها الشكوك أو خيبات الأمل. لا... أبداً. بل كان سببها هو: لِمَ ليس اليومَ، لِمَ ليس غداً؟! لقد كان بيلينسكي أكثر الناس استعجالاً في روسيا كلها. قابلته مرة في الساعة الثالثة بعد الظهر عند كنيسة «زنامينسكايا» قال إنه خرج يتمشى، وهو الآن في طريقه إلى البيت.

– غالباً ما آتي إلى هنا لأرى كيف يجري البناء (في محطة قطار نيكولايفسك التي كانت تُبنى آنذاك) على الأقل أروّح عن نفسي بالوقوف هنا والنظر إلى العمل: وأخيراً سيكون عندنا ولو خط حديدي واحد. أنت لا تصدق إلى أي حد تُدخل هذه الفكرة الراحة إلى نفسي أحياناً.

وقد قال هذا بحرارة وإخلاص. فبيلينسكي لم يكن يتصنع البتة. سرنا معاً، وأذكر أنه قال لي في الطريق:

– عندما سيدفنونني في قبري (كان يعرف أنه مصاب بالسل)، عندئذ فقط سينتبهون ويدركون أي إنسان فقدوا.

في السنة الأخيرة من حياته لم أعد أزوره. كان قد كرهني؛ ولكنني تقبلت كل تعاليمه بحماسة. وبعد عام، عندما كنا موقوفين في باحة الانتقال في سجن توبولسك ننتظر مصيرنا التالي، توسلت زوجات الديسمبريين[14] إلى ناظر السجن لتدبير لقاء سري معنا في شقته. وقد شاهدنا هناك أولاء المعذبات العظيمات اللواتي تبعن أزواجهن طوعاً إلى سيبيريا. لقد تركن كل شيء: الجاه، والثروة، والعلاقات، والأقارب، ضحّين بكل شيء في سبيل واجب أخلاقي لا يمكن أن يفوقه واجب آخر في السمو وحرية الاختيار. فهن البريئات من كل ذنب قد تحملن طوال خمس وعشرين سنة كل ما تَحمَّله أزواجهن المحكومون. دام اللقاء ساعة، وقد دَعَون لنا وباركننا بإشارة الصليب قبل الرحيل، وزَوّدْن كلاًّ منا بإنجيل، وهو الكتاب الوحيد المسموح به في المعتقل. وظل هذا الإنجيل أربع سنوات يرقد تحت وسادتي في سجن الأشغال الشاقة. كنت أقرأ فيه أحياناً وأقرأ منه للآخرين. وقد علّمتُ أحد المساجين

القراءة بالاستعانة به. حولي كان أولئك بالذات الذين لم يكن بإمكانهم إلا أن يرتكبوا جرائمهم حسب اعتقاد بيلينسكي. وعلى هذا فإنهم كانوا على حق غير أنهم أسوأ حظاً من الآخرين.

وكنت أعرف أن الشعب الروسي كله يصفنا أيضاً بـ «التعسين»[15]. وقد سمعت هذا مرات عديدة ومن شفاه كثيرة، ولكن هنا كان ثمة شيء آخر يختلف تماماً عما كان بيلينسكي يتحدث عنه، وعما يُسمع الآن، على سبيل المثال، في بعض الأحكام التي تصدر عن المُحلَّفين عندنا. ففي كلمة «تعسون» هذه، وفي حكم الشعب هذا كان يكمن معنىً آخر. لقد كانت السنوات الأربع في سجن الأشغال الشاقة مدرسة طويلة الأمد. وكان لدي ما يكفي من الوقت لأقتنع بهذا... وأنا الآن أرغب في الحديث عن هذا الأمر بالذات.

الوسط

يبدو أن الشعور العام الذي يجمع بين المُحلَّفين في العالم كله، وعندنا على وجه الخصوص (بالإضافة إلى المشاعر الأخرى طبعاً) لا بد أن يكون الشعور بالسلطة، أو من الأفضل القول: السلطة الفردية المطلقة. وهو شعور دنيء أحياناً، أي في حالة هيمنته على المشاعر الأخرى. ولكن لا بد لهذا الشعور من أن يترسخ في نفس كل محلّف ولو بصورة غير ملحوظة، حتى ولو كان مكبوتاً بكثرةٍ من أنبل المشاعر، وحتى إذا كان وعي الواجب المواطني لدى المحلّف في أعلى درجاته. ويخيل لي أن هذا ينبع على نحو ما من قوانين الطبيعة نفسها. ولذا فإن إحداث النظام القضائي الجديد عندنا أثار لدي على الفور اهتماماً طاغياً من وجهة معينة كما أذكر. فقد كنت أتخيل في أحلامي محاكمات تتألف هيئة المحكمين فيها بكاملها تقريباً من الفلّاحين الذين كانوا بالأمس أقناناً، على سبيل المثال. وأتخيل كيف سيتوجه إليهم المدعي العام والمحامون بتملق وترقب، بينما فلاحونا يجلسون صامتين ويقول الواحد منهم في سره: «إذاً هكذا الأمر الآن، إن شئتُ برّأتُ، وإن لم أشأ أرسلت إلى سيبيريا».

ولكن ما يلفت النظر الآن أنهم لا يعاقِبون، بلَ دائماً يبرئون. وطبعاً هذا أيضاً استخدام للسلطة، واستخدام متطرف تقريباً، ولكن باتجاه واحد، ولا ندري أهو اتجاه عاطفي أم ماذا، ولكنه اتجاه عام، ويكاد يكون محدداً مسبقاً عندنا في كل مكان، وكأن الجميع قد تواطؤوا

عليه. إن عمومية «الاتجاه» أمر لا يرتقي إليه الشك، وما يثير الحيرة هو أن هوس التبرئة، أياً كان الأمر، لا يقتصر فقط على الفلّاحين الذين كانوا بالأمس مُذَلّين ومهانين، بل يشمل جميع المحلّفين الروس، وحتى النخبة العليا من النبلاء وأساتذة الجامعة. وهذه العمومية وحدها تشكل موضوعاً للتأمل جد مثير، وتدفع إلى تخمينات شتى ربما اتسمت أحياناً بالغرابة.

وقد نشرت مؤخراً إحدى صحفنا الأكثر نفوذاً مقالة صغيرة متواضعة جداً وحسنة النية جداً ورد فيها عَرَضاً التخمين الآتي: ألا يمكن القول أن مُحَلَّفينا الذين شعروا فجأة ودون سابق تمهيد بأنهم يمتلكون كل هذه المقدرة (وكأنها هبطت عليهم من السماء)، وبعد الذل والاضطهاد اللذين تعرضوا لهما قروناً، ألا يمكن القول إنهم ميالون إلى أن يزيدوا «المِلْحَ» بعض الشيء للـ «سُلْطات» عموماً، كلما سنحت لهم الفرصة، على سبيل المداعبة، أو لإظهار التناقض بين الحاضر والماضي، ولو للنائب العام على سبيل المثال؟ التخمين ليس تافهاً ويتسم أيضاً ببعض المداعبة، ولكنه، بالطبع، لا يفسر كل شيء.

ونسمع أحياناً بعضهم يقول تفسيراً لهذه الظاهرة: «الشفقة هي التي تمنع من القضاء على مصير الآخرين؛ فهم بشر أيضاً، والشعب الروسي شفوق».

ولكن أنا كنت أعتقد دائماً أن الشعب في إنكلترا شفوق أيضاً، وحتى إذا لم يكن لديه رقة قلب، إذا جاز التعبير، كما لدى شعبنا الروسي، فإنه يتسم بالشعور الإنساني على الأقل؛ ولديه وعي وإحساس حي بالواجب المسيحي تجاه القريب، وربما كان هذا الوعي والإحساس لديه قد بلغا مستوىً عالياً، واكتسبا صفة القناعة الراسخة القائمة بذاتها؛ بل ربما كانت هذه القناعة لديهم أكثر رسوخاً مما هي عندنا نظراً لمستوى التعليم هناك، وتمتعهم بالاستقلال منذ قرون عديدة. فهناك لم تهبط عليهم كل هذه السُّلطة «فجأة من السماء». ثم إن قضاء المحلّفين هم الذين ابتكروه لأنفسهم، ولم يستعيروه من أحد، وقد استنبطوه من الحياة وثبّتوه طوال قرون، ولم يأتهم منحة.

وما إن يتخذ المحلّف هناك مجلسه في قاعة المحكمة، حتى يدرك أنه ليس مجرد إنسان حساس ذي قلب حنون، بل هو قبل كل شيء مواطن. وهو إلى هذا يعتقد (عن صواب أو عن خطأ) أن تنفيذ الواجب المواطني هو، على الأرجح، أسمى حتى من اجتراح مأثرة شخصية يمليها عليه قلبه. وقد ثار عندهم مؤخراً لغط عام شمل المملكة كلها عندما برأ المحلفون أحد اللصوص المكشوفين. ودلت الحركة العامة في البلاد على أن صدور أمثال هذه الأحكام إذا كان ممكناً عندهم كما هو ممكن عندنا، فإنه يحدث نادراً وفي حالات استثنائية، ويثير استنكار الرأي العام على الفور. هناك يدرك المحلّف، قبل كل شيء، أنه يمسك براية إنكلترا

كلها، وأنه لم يعد شخصاً فرداً، بل هو ملزم بتمثيل رأي البلاد. إن قدرة المرء على أن يكون مواطناً هي قدرته على أن يسمو بنفسه إلى مستوى التعبير عن رأي البلاد ككل. أوه، هناك أيضاً لديهم «شفقة» عند إصدار الحكم، ويأخذون بالحسبان «الوسط الطاغي» (يبدو أنها النظرية الأثيرة الآن لدينا) ولكن إلى حد معلوم، وبالقدر الذي يسمح به رأي البلاد السليم ودرجة استنارتها بالأخلاق المسيحية (ويبدو أن هذه الدرجة عالية بما فيه الكفاية). ولكن بالمقابل يصدر المحلّف هناك في حالات كثيرة جداً، وعلى كره منه، أحكام إدانة، إدراكاً منه قبل كل شيء أن واجبه يتجسد بصورة رئيسة في أن يُثْبِتَ بالحكم الذي يصدره أمام جميع المواطنين أن الرذيلة في إنكلترا العريقة، التي يفديها كل واحد منهم بدمه، لا تزال تُدعى كالسابق رذيلة، ولا يزال الشر يدعى شراً، وأن الأسس الأخلاقية في البلاد ما زالت متينة ولم تتغير، وما زالت صامدة كما كانت في السابق. وأكاد هنا أسمع صوتاً يقول لي:

- فلنفترض حتى أن أسسكم (أي الأسس المسيحية) ما زالت كسابق عهدها متينة، وأن من المفروض فعلاً أن يكون المرء مواطناً قبل كل شيء، وأنّ عليه الإمساك بالراية و... و...

إلى آخر ما هنالك كما قلتم، لنفترض هذا مؤقتاً من غير جدل، ولكن ألم تفكروا من أين لنا أمثال هؤلاء المواطنين؟ يكفي فقط أن تتصوروا ماذا كان لدينا بالأمس! من المعروف أن الحقوق المدنية (ويالها من حقوق!) قد انهالت على الشعب فجأة كما لو أنها انهارت من جبل؛ ومن المعروف أنها قد أبهظته، وأنها ما زالت حتى الآن عبئاً عليه، عبئاً لا أكثر!

وأرد على هذا الصوت مكتئباً بعض الشيء: - طبعاً ثمة حقيقة في ملاحظتك، ولكن مع ذلك فإن الشعب الروسي...

- الشعب الروسي؟ اسمح لي - يقول صوت آخر - إنهم يقولون إن المنح انهالت عليه من الجبل وأبهظته. ولكن ربما هو لا يشعر فقط بأنه حصل على كل هذه السُّلطة كمنحة، بل يشعر، فضلاً عن ذلك، بأن حصوله عليها كان سُدىً، أي أنه لا يزال غير جدير بمثل هذه المنح، أو أنه لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك أو أن المَنْحَ جاء مبكراً؛ بل الأمر على العكس تماماً: فالشعب هو الذي يعي بضميره المستكين، أنه غير جدير بمثل هذه المِنَح؛ وهذا الوعي الشعبي المستكين ولكنْ السامي في الوقت نفسه، هذا الوعي بعدم الجدارة هو بالذات دليل جدارة الشعب بها. ولكنه ما زال حتى الآن مرتبكاً بسبب استكانته. ومن ذا الذي اطّلع على سرائر قلبه الدفينة؟ هل عندنا من يستطيع القول إنه يعرف الشعب الروسي معرفة تامة؟ لا... الأمر هنا لا يقتصر على الاتسام بالشفقة ورقة القلب كما تفضلتم ساخرين. الأمر هنا هو أن هذه السلطة بحد ذاتها مخيفة! لقد أفزعتنا هذه السلطة المخيفة التي تتيح لصاحبها التحكم بمصير الإنسان، بمصير الأخ الشقيق؛ وإلى أن نبلغ درجة مواطنيتك سنظل نعفو. إننا نعفو من

الخوف. ونحن عندما نجلس مجلس المحلّفين ربما نقول في سرنا: «وهل نحن أنفسنا أفضل من هذا الذي نحاكمه؟ نحن الآن أغنياء ميسورون، ولكن لو حدث لنا أن وجدنا أنفسنا في الوضع الذي هو فيه لكنا، ربما، فعلنا أسوأ مما فعله؛ وهكذا فإننا نعفو». ولعل هذا بحد ذاته أمر حسن، أعني هذا التأثر ورقّة القلب؛ ولعله يكون عربوناً لأمر ما مسيحي سامٍ في المستقبل لم يعرف العالم له مثيلاً من قبل!

أقول في نفسي: «هذا صوت فيه شيء من السلافوية[13]» الفكرة تُواسي فعلاً، والتخمين الذاهب إلى استكانة الشعب إزاء السلطة التي مُنحت بلا مقابل وقبل أن يصبح «جديراً بها» أوجَهُ طبعاً من التخمين الذي يفترض الرغبة في «مشاكسة النائب العام»، مع أن هذا التخمين الأخير ما زال يعجبني بواقعيته (طبعاً إذا أخذنا به على أنه حالة خاصة، كما قدمه صاحبه بنفسه على كل حال). ولكن... ولكن ما يثير حيرتي أكثر من أي شيء آخر هو: ما الذي جعل شعبنا فجأة يخاف شفقته هذه؟ يقولون «من المؤلم جداً أن تصدر حكماً على إنسان». ما هذا الكلام، اذهبوا أنتم وألمكم. الحقيقة أسمى من ألمكم هذا.

وبالفعل إذا كنا نرى أننا نحن أنفسنا نكون في بعض الأحيان أسوأ من المجرم، فإننا بهذا نعترف بأننا نشاركه مناصفة في جريمته. وإذا كان هو قد خرق القانون الذي وضعته له الأرض، فإننا نحن أنفسنا مذنبون في أنه الآن يقف أمامنا. فلو كنا أفضل مما نحن عليه، لكان هو أيضاً أفضل مما هو عليه، ولما وقف الآن أمامنا.

- ولهذا بالذات تنبغي تبرئته؟

لا... بالعكس: لهذا بالذات يجب قول الحقيقة وتسمية الشر شراً؛ وبالمقابل علينا أن نحمل أنفسنا نصف عبء الحكم. يجب أن ندخل قاعة المحكمة ونحن نعي أننا نحن أيضاً مذنبون. وليكن ذاك الألم النفسي الذي يخافه الجميع الآن أيما خوف، والذي سنعانيه ونحن خارجون من قاعة المحكمة عقاباً لنا. وإذا كان هذا الألم حقيقياً وشديداً فإنه سيطهرنا ويجعلنا أفضل مما كنا. وعندما نصبح أفضل مما كنا سنصلح الوسط الذي نعيش فيه ونحسنه؛ وهو لن ينصلح إلّا بهذا. أما أن نتهرب بطريقة ما من إبداء الشفقة ونعمد إلى التبرئة دائماً كي نجنب أنفسنا المعاناة، فهذا أمر سهل.

ولكننا عندئذ سنتوصل شيئاً فشيئاً إلى استنتاج ينفي وجود الجريمة نفياً تاماً ويزعم أن «الوسط هو المذنب» في كل شيء. بل إننا سنصل في تفكيرنا عبر سلسلة معقدة من المحاكمات أن الجريمة واجب واحتجاج نبيل على «الوسط»؛ فـ «بما أن المجتمع قائم على الدناءة لا يجوز لنا أنَ نعيش بدون احتجاج وبدون جرائم». «وبما أن المجتمع قائم على

الدناءة لا يمكن أن نشق طريق الخلاص منه إلّا والسكين في يدنا». هذا ما تقوله النظرية التي تتحدث عن «الوسط»، على خلاف ما تقوله المسيحية التي تعترف من غير تحفظ بضغط الوسط، وتدعو إلى رحمة مرتكب الإثم، ولكنها تكلف الإنسان بالصراع مع الوسط كواجب أخلاقي، وتضع حداً يبين أين ينتهي الوسط وأين يبدأ الواجب.

والمسيحية إذ تجعل الإنسان مسؤولاً، إنما تعترف بحريته. أما نظرية «الوسط» فإنها عندما تجعل الإنسان تابعاً لكل خطأ في بنية المجتمع إنما توصله بهذا إلى إمحاء شخصيته تماماً، وإلى تحريره تحريراً كاملاً من أي واجب أخلاقي شخصي، ومن أية استقلالية؛ إنها توصله إلى أبشع شكل يمكن تصوره من أشكال العبودية. فإذا ما اشتدت حاجة امرئ إلى التبغ وليس معه نقود، فما عليه سوى أن يقتل امرءاً آخر كي يحصل على التبغ. ولمَ لا: فالإنسان المتطور الذي يشعر أكثر من غير المتطور بالمعاناة إذا لم تلب حاجاته، يجب أن تتوافر لديه النقود لتلبيتها، فما المانع من إقدامه على قتل إنسان غير متطور، إذا كان من المتعذر حصوله على النقود بغير هذه الوسيلة؟ أَوَ لم تسمعوا المحامين وهم يقولون في دفاعهم: «طبعاً هذا خرق للقانون، طبعاً إن إقدامه على قتل امرئ غير متطور جريمة، ولكن أيها السادة المحلفون، خذوا أيضاً بالاعتبار أن...» وهلم جراً. إن أمثال هذه الأصوات قد ارتفعت تقريباً، أو بالأحرى ليس تقريباً...

وهنا أسمع صوتاً يقول لي بخبث: ولكن أنت، كما يبدو، تفرض فلسفة «الوسط» الحديثة جداً فرضاً قسرياً على الشعب؛ أفلا قلت لنا من أين هبطت عليه هذه الفلسفة؟ إن هؤلاء المحلفين الاثني عشر يكونون أحياناً كلهم من الفلّاحين، وكل واحد منهم يَعُدّ الإفطار في وقت الصيام ذنباً لا يغتفر، وأنت لم يبق إلّا أن تتهمهم مباشرة بالانحياز إلى نزعات اجتماعية.

فأقول وأنا مستغرق في التفكير: «طبعاً، طبعاً، ومن أين لهم أن يتوصلوا إلى نظرية «الوسط»، أقصد من أين لهم كلهم، ولكن الأفكار تنتشر في الجو، وفي الفكرة ثمّة شيء ما نفّاذ...»

يقهقه الصوت الخبيث ساخراً: - ما هذا الكلام!

وأتابع: - وماذا إذا كان لدى شعبنا ميل خاص إلى نظرية «الوسط»، وإذا كان هذا الميل نابعاً من طبيعته ذاتها، أو لنفترض على الأقل أنه نابع من ميوله السلافية؟ وماذا إذا كان شعبنا بالذات هو أفضل مادة في أوربا في نظر بعض الدعاة؟

ترتفع قهقهة الصوت الخبيث أكثر من ذي قبل، ولكنها تأتي هذه المرة مصطنعة على نحو غريب.

لا... هنا لا يتعدى الأمر أن يكون حتى الآن حيلة على الشعب، وليس «فلسفة الوسط». ثمة غلطة هنا، ثمة خدعة، وفي هذه الخدعة كثير من الإغراء.

ويمكن إيضاح هذه الخدعة في شكلها هذا بمثال على الأقل:

لنفترض أن الشعب يصف المحكومين بـ«التعسين»، ويقدم لهم بعض القروش والأرغفة. فما الذي يريد أن يقوله بهذا التصرف الذي ما انفك يقوم به ربما منذ قرون؟ هل هو الحقيقة المسيحية أم حقيقة «الوسط»؟ هنا بالذات يكمن حجر العثرة، هنا بالذات تتوارى تلك العتلة التي يمكن لدعاة «الوسط» التشبث بها واستخدامها بنجاح.

ثمة أفكار لا يعبّر عنها وتكمن في الوعي الباطن، ولكنها تُحسّ بقوة. وكثير من هذه الأفكار تكون كأنها ممتزجة بنفس الإنسان. ومثل هذه الأفكار يمكن أن تكمن في شعب بكامله، وفي الإنسانية ككل. وما دامت هذه الأفكار كامنة في الوعي الباطن للشعب ولا تتجلى في حياته إلّا على شكل إحساس قوي وصادق فقط، يظل بإمكان الشعب أن يعيش حياة مفعمة بالقوة والحيوية. وفي هذه الحالة تقوم كل طاقة حياته في مساعيه لاستبانة هذه الأفكار المستترة وتفهمها. وكلما كان الشعب أكثر حرصاً على صون هذه الأفكار، وأقل قدرة على التخلي عن أحاسيسه الأولى، وأقل ميلاً إلى الانسياق وراء تأويل هذه الأفكار تأويلات مختلفة وكاذبة كان أقوى وأصلب وأسعد. ومن جملة هذه الأفكار المستترة في الشعب الروسي - الأفكار الخاصة بالشعب الروسي - تسمية الجريمة تعاسةً والمجرمين تعسين[15].

إن هذه الفكرة روسية محض. وهي لم تُلاحظ لدى أي شعب أوربي، ولا يجهر بها الآن في الغرب سوى الفلاسفة والمفسرين. أما شعبنا فقد أعلنها قبل فلاسفته ومفسريه بوقت طويل. ولكن هذا لا يعني أنه لم يعد قابلاً للوقوع في الحيرة المضللة بسبب تطوير مفسِّر ما هذه الفكرة تطويراً باطلاً... ولكن هذا سيكون مؤقتاً وجزئياً في أقصى الحالات. فالمعنى النهائي والكلمة الأخيرة يظلان، بدون شك، له دائماً؛ ولكن الأمور يمكن، مؤقتاً، أن تتخذ مساراً مخالفاً.

وباختصار: إن الشعب بكلمة «تعسون» هذه كأنما يقول «للتعسين»: «لقد أذنبتم، والآن أنتم تعانون ولكن نحن أيضاً مذنبون، ولو كنا مكانكم ربما كنا فعلنا أسوأ مما فعلتم. ولو كنا نحن أنفسنا أحسن مما نحن عليه، ربما لم تكونوا أنتم الآن تقبعون في السجون؛ وإضافة إلى تحملكم عبء القصاص عن جرائمكم تحملتم أيضاً عبء خرق الشرعية العام الشامل. صلوا من أجلنا. ونحن نصلي من أجلكم. أما الآن فخذوا «أيها التعسون» قروشنا هذه، ونحن نعطيكم إياها لكي تعرفوا أننا نتذكركم ولم نقطع صلاتنا الأخوية بكم».

ألا توافقون معي على أن من أسهل الأمور تطبيق نظرية «الوسط» على مثل هذه النظرة: «المجتمع سيئ، ولذا فنحن سيئون، إلا أننا أغنياء، ميسورون، وقد تجاوزتنا بمحض المصادفة، المصيبة التي ألمّت بكم. ولو أنها ألمت بنا لفعلنا ما فعلتموه. فمن المذنب؟ الوسط هو المذنب. وهكذا ليس ثمة سوى بنية الوسط الفاسدة أما الجرائم فلا وجود لها البتة».

في هذا الاستنتاج السفسطائي بالذات تكمن الحيلة التي تحدثتُ عنها.

لا، إن الشعب لا ينفي الجريمة، وهو يعرف أن المجرم مذنب ولكنه يعرف أيضاً أنه هو نفسه مذنب مع كل مجرم. بيد أنه إذ يتهم نفسه يبرهن بهذا على أنه لا يؤمن بالـ«الوسط» بل هو، بالعكس، بأن «الوسط» يتعلق كلياً به وباعترافه الدائم بأخطائه، وعمله المستمر على تحقيق الكمال الذاتي. بالهمة والعمل والنضال تتحقق إعادة صياغة الوسط. ولا يحوز المرء الأصالةَ والشعورَ بالكرامة الذاتية إلا بالعمل والنضال. «لِنَحُزْ ذلك فنصبح أفضل، والوسط أيضاً يصبح أفضل». هذا ما يشعر به الشعب الروسي بدون أن يفصح عنه، وهذا ما يحس به إحساساً قوياً في فكرته المستترة عن تعاسة المجرم. ولنتصور الآن أن المجرم نفسه إذ يسمع من الشعب أنه «تعس» يعد نفسه تعساً فقط وأنه ليس مجرماً. عندئذ سيتراجع الشعب على الفور عن مثل هذا التفسير الباطل ويسميه خيانة للحقيقة والإيمان الشعبيين.

وبمقدوري تقديم أمثلة على هذا، ولكن لنرجىء ذلك إلى حين، ولننقل الآتي:

إن المجرم، والذي ينوي ارتكاب جريمة شخصان مختلفان ولكنهما من فئة واحدة. وإذا قال المجرم لنفسه وهو يستعد لارتكاب جريمته عن وعي «ليس ثمة جريمة!» فهل سيسميه الشعب «تعساً»؟

ربما سيسميه هكذا؛ بلا شك سيسميه؛ فالشعب رؤوف؛ وليس هناك أتعس من المجرم الذي يصل به الأمر إلى الكف عن اعتبار نفسه مجرماً: إنه حيوان، إنه وحش. وماذا في الأمر إذا كان المجرم لا يدرك أنه حيوان، وإذا خنق الضمير في داخله؟ عندئذ تكون تعاسته مضاعفة، وهذا كل مافي الأمر. تعاسته تكون مضاعفة، ولكن جريمته تكون مضاعفة أيضاً. سيشفق الشعب عليه ولكنه لن يتنازل عن الحقيقة التي يؤمن بها. فالشعب الذي يسمي المجرم «تعساً» لم يكف قط عن اعتباره مجرماً! ولو أن الشعب وافق المجرم وردّ عليه قائلاً: «لا، أنت لست مذنباً، لأنه لا وجود «للجريمة» لكان هذا أفظع مصيبة نبتلي بها».

هذا هو معتقدنا، وأود أن أقول إنه معتقدنا العام، معتقد جميع المتوكلين المنتظرين. وسأضيف هنا بضع كلمات.

لقد كنت في سجن الأشغال الشاقة، وشاهدت هناك مجرمين، ومنهم مجرمون «عتاة».

وأكرر أن هذا كان مدرسة طويلة الأمد. لم يكن أحد من هؤلاء يكف عن اعتبار نفسه مجرماً. كان منظرهم الخارجي يوحي بأنهم أشخاص مرعبون وقساة. ولم يكن أحد هناك «يتبجح» سوى الأغرار، الجدد، وكان الآخرون يضحكون منهم. بينما أغلبية السجناء كانوا متجهمين مستغرقين في التفكير. ولم يكن أحد منهم يتحدث عن جريمته. ولم أسمع قط أي تذمر من أحد. وكان من غير الجائز حتى أن يتحدث أحد عن جريمته بصوت مسموع. أحياناً كان يحدث أن يرتفع صوت أحدهم بكلمةِ تحدٍّ أو بعبارة شاذة، وعندها كان «السجن بأكمله» يهب هبة رجل واحد لإسكات الناشز. لم يكن من المقبول التحدث عن هذا. ولكن، لنقل الحق، ربما لم يكن أي منهم ينجو من معاناة عذابٍ نفسي طويل في داخله يطهره ويشد من عزيمته أكثر من أي شيء آخر. لقد شاهدتهم وهم منزوون ومستغرقون في التفكير، وشاهدتهم في الكنيسة يصلون قبل الاعتراف، واستمعت إلى بعض كلماتهم المفاجئة وبعض صيحاتهم المعبّرة؛ وأتذكر وجوههم؛ أوه، صدقوني لم يكن أحد منهم في أعماقه يعتبر نفسه على حق!

إنني لا أريد أن تؤخذ كلماتي على أنها دليل قسوة. ولكنني مع ذلك أتجرأ على أن أفصح عما أفكر فيه؛ وأقول بصراحة: ربما أنتم بالعقوبة الصارمة وسجن الأشغال الشاقة تنقذون نصف هؤلاء الناس، ولعلكم بهذا تخففون عنهم ولا تثقلون عليهم. فالتطهر بالمعاناة أخف على النفس، نعم، كما أقول لكم، أخف على النفس من ذاك المصير الذي تحكمون به على كثيرين منهم بتبرئتهم تبرئة تامة في المحكمة. إنكم بتبرئتكم إياهم لا تفعلون أكثر من أن تزرعوا في أنفسهم الاستهتار الوقح، وتخلِّفوا لديهم سؤالاً مغرياً، وشعوراً بالسخرية منكم. ألا تصدقون؟ نعم، منكم، ومن محكمتكم، ومن قضاء البلاد بأسرها! إنكم تبثون في أنفسهم عدم الإيمان بالحقيقة الشعبية، وبالحق الإلهي، وتتركونهم حيارى... فترى أحدهم يمضي قائلاً لنفسه: «إيه! هكذا أصبحت الأوضاع الآن، لم يعد هناك صرامة. ربما أصبحوا أذكى، أو ربما هم يخافون. معنى ذلك أن الأمور يمكن أن تكون هكذا في المرة القادمة أيضاً، مفهوم طبعاً، بما أنني كنت في عوز إلى هذه الدرجة، فكيف كان يمكنني ألّا أسرق».

وهل تظنون، حقاً، أنكم بإخلائكم سبيل الجميع على أنهم غير مذنبين، أو أنهم «يستحقون التساهل معهم إلى أبعد الحدود» تمنحونهم فرصة لإصلاح أنفسهم؟ هيهات أن يصدق ظنكم! فما الذي يدعوه إلى أن يصلح نفسه؟ إنه سيقول في نهاية المطاف: «إذاً فأنا لم أكن مذنباً البتة».

وأنتم بأنفسكم ستدفعونه إلى مثل هذا الاستنتاج. والمهم هنا هو أن الإيمان بالقانون وبالحقيقة الشعبية قد تزعزع.

منذ مدة قصيرة كنت قد قضيت بضع سنوات متوالية في الخارج. وعندما غادرت روسيا

كان النظام القضائي الجديد قد بدأ لتوه. وكنت أطالع بنهم شديد كل ما تنشره صحفنا عن المحاكم الروسية. كما كنت أنظر بمرارة إلى أوضاع «غائبينا»*.

أنظر إلى أبنائهم الذين لا يعرفون لغتهم الأم أو ينسونها. وكان من الواضح لي أن نصفهم سيتحولون في النهاية إلى مهاجرين بحكم منطق الأمور، ويشق عليّ دائماً التفكير في هذا: كل هذه القوى، وكل هؤلاء الأشخاص، الذين هم ربما أفضل الناس، يعيشون هنا، بينما نحن هناك بأشد الحاجة إلى أمثالهم! ولكن، أقسم لكم أيها السادة، كنت في بعض الأحيان وأنا خارج من قاعة المطالعة، أجد نفسي، بدون إرادة مني، أقبل بظاهرة الغياب والغائبين. قلبي كان يجيش حتى الألم. تقرأ: هناك برّؤوا امرأة قتلت زوجها. الجريمة واضحة ومؤكدة بالبراهين؛ وهي نفسها تقر بذنبها؛ ومع ذلك: «لا ليست مذنبة». وهناك شاب يكسر خزانة ويسرق ما فيها من نقود. والمبرِّر أنه «كان مغرماً بامرأة، وكان لا بد له من الحصول على المال ليرضي عشيقته».

- لا ليس مذنباً.

وحتى ولو بُرِّرت كل هذه الحالات بدافع الرأفة والشفقة فإنني، في الحقيقة، لم أكن أفهم أسباب التبرئة، وكنت أقع في حيرة، ويتكون لدي انطباع غامض مقلق يكاد يكون مهيناً. كنت في تلك الدقائق المشؤومة أتصور روسيا مستنقعاً أو سبخة ينوي شخص ما أن يبني فوقها قصراً، التربة تبدو في الظاهر صلبة ملساء، في حين أن هذا المظهر يشبه سطح عصيدة الحمّص: فما إن تدوس على هذه التربة حتى تغوص إلى الأعماق. وطالما لمت نفسي على تخاذلي، وكان ما يستنهض همتي هو تفكيري في أنني عن بعد يمكن أن أخطئ، وأنني الآن بمنزلة «الغائب» الذي لا يرى عن كثب ولا يسمع بوضوح...

وها أنا منذ مدة أعيش في الوطن من جديد...

«كفى هذراً! أحقاً هُمْ يشعرون بالشفقة» - هذه هي المسألة بالضبط! ولا تضحكوا لأنني أوليها كل هذه الأهمية.

فـ «الشفقة» توضّح، على الأقل، شيئاً ما وعلى نحو ما، وحسبها أن تخرجنا من عتمة الإبهام، وإلّا فإن الالتباس سيظل مسيطراً سيطرة تامة، كالظلام الذي يعيش فيه مجنون ما.

فلاح يضرب زوجته ويلحق بها الأذى أعواماً طويلة ويهينها ببذاءة يضن بها على كلبة. وعندما يصل بها اليأس إلى حد العزم على الانتحار تذهب وهي تكاد تفقد عقلها إلى محكمة القرية. وهناك يصرفونها وهم يغمغمون بغير اكتراث: «عيشا في وفاق أكثر».

(*) كان دوستويفسكي يسمي الروس المقيمين في الخارج «الغائبين». (ن).

فهل هذه شفقة؟ إنها كلمات بليدة تصدر عن مخمور أفاق لتوه من سكرته، ويكاد لا يعي أنكم تقفون أمامه، ويشيح بيده بغباء وخُرْق باتجاهكم كي لا تزعجوه، ولسانه لا يزال عاجزاً عن الحركة ورأسه مثقل بالخمار والخبل.

قصة هذه المرأة، بالمناسبة، معروفة وحديثة العهد. وقد نشرتها جميع الصحف، وربما ما زال القرّاء يتذكرونها. وكانت النتيجة بكل بساطة أن شنقت الزوجة نفسها لتتخلص من ضرب زوجها لها، وحاكموا الزوج، ووجدوا أنه يستحق التسامح. وقد ظلت الحالة بكاملها تتراءى في مخيلتي مدة طويلة، وهي تتراءى لي الآن أيضاً.

كنت دائماً أتخيل هيئته: إنه، كما قيل، طويل القامة، شديد الاكتناز، قوي، أشقر. وأود أن أضيف من عندي أنه قليل الشعر. جسمه أبيض، سمين، وحركاته بطيئة، متباهية، ونظرته مركزة؛ وهو قليل الكلام، وعندما يتكلم، ونادراً ما يفعل، يلقي بكلماته وكأنها درر ثمينة هو أول من يقدِّر قيمتها؛ وقد أفاد الشهود أنه ذو طبع قاس: يمسك بدجاجة ويعلقها من قدميها ورأسها إلى الأسفل، من أجل المتعة فقط: فهذا يسليه؛ إنها سمة مُمَيِّزة بتفوّق!

ظل عدة سنوات يضرب زوجته بأي شيء يقع تحت يده، حبلاً كان أم عصا. يقلع لوحاً خشبياً من أرضية الغرفة، ويدس قدميها في الثغرة، ثم يحشر اللوح في مكانه حشراً وينهال عليها بضرب مبرح. وأعتقد أنه هو نفسه لا يعرف لِمَ كان يضربها؛ وأغلب الظن أنه كان يفعل ذلك بالدوافع نفسها التي كان يعلق بها الدجاجة من قدميها. وكان يعذبها بالتجويع، ويمنع عنها الخبز ثلاثة أيام بكاملها. يضع الخبز على الرف، ثم يناديها ويقول لها: «إياك أن تمسيه، هذا خبزي أنا». إنها سمة شديدة الطابعية[1] أيضاً! وكانت هي تشحذ مع طفلها ذي العشر سنوات من الجيران، فإن أعطوها خبزاً أكلا، وإذا لم يعطوهما بقيا جائعين. وكان يطالبها بالعمل، فكانت تقوم بجميع الأعمال بدون تقاعس وبلا كلام، والفزع يملأ قلبها، إلى أن أصبحت في نهاية المطاف كالمخبولة. إنني أتخيل مظهرها هي أيضاً: لا بد أنها امرأة جد ضئيلة وهزيلة كعود نحيل. يحدث أحياناً أن يتزوج رجال ضخام الجثة ومكتنزون ذوو أجسام بيض وسمينة نساء جد ضئيلات ونحيلات (بل إنني لاحظت رجالاً ميالين إلى مثل هذه الاختيار)؛ ويبدو منظر الزوجين مثيراً للاستغراب وهما يقفان أو يسيران معاً. ويبدو لي أنها لو حملت منه في آخر لحظة لكان هذا أيضاً سمة جد طابعية وضرورية لاكتمال الحالة؛ وإلّا فإن الأمر سيبدو وكأن ثمة نقصاً ما. هل اتّفق لكم أن رأيتم كيف يضرب فلاح زوجته؟ أنا رأيت. إنه يشرع يضربها بحبل أو حزام؛ وبما أن حياة الفلّاحين خالية من المتع الجمالية: الموسيقا والمسارح، والمجلات، فطبعاً لا بد من إملائها بشيء ما. وبعد أن يقيد صاحبنا زوجته أو يدس قدميها في ثغرة لوح الأرضية يشرع يجلدها بانتظام، وأعصاب هادئة، بل

حتى ناعسة، وبضربات رتيبة، من غير أن يصغي إلى صراخها وتوسلاتها، أو على الأصح وهو يصغي إليها ويلتذ بسماعها، وإلّا فأية متعة هذه التي يجنيها من ضربه لها. تعرفون، أيها السادة، أن الناس يولدون ضمن ظروف مختلفة: أيمكن ألا تصدقوا أن هذه المرأة كان يمكن أن تكون في ظروف أخرى جولييت أو بياتريس عند شكسبير أو مرغريت في «فاوست»*؟ أنا لا أقول أنها كان يمكن أن تكون مثلهن - وإلّا لكان هذا الزعم مضحكاً جداً - ولكن ربما كان لديها أيضاً وهي في الطور الجنيني شيء ما نبيل جداً في أعماق النفس لا يقل أصالة عما لدى أبناء الفئة النبيلة. قلب محب أو حتى مفعم بالمشاعر السامية، طبع طافح بجمالٍ جدّ أصيل. ويكفي تريثها الطويل وحده قبل أن تقتل نفسها ليكون شاهداً على طبعها الهادئ الوديع، الصابر، المحب. ولكن ها هم يضربون هذه «البياتريس» أو «المرغريت» ضرباً مبرحاً وكأنها حيوان مؤذ! ولا تنفك الضربات المنهالة عليها تزداد تواتراً وشدة وعدداً. ويزداد الضارب هياجاً، ويعيش حالة من التلذذ. ثم لا يلبث أن يصاب بوحشية تامة ويستمتع بإدراكه هذه الحقيقة. وتراه ينتشي بالصرخات البهيمية التي تصدر عن المعذَّبة وكأنه يحتسي الخمرة. وتصرخ بياتريس بصوت ليس كصوت البشر: «سأغسل قدميك بيدي وأشرب ماء الغسيل»، ولكن صوتها يخبو في النهاية، وتكف عن الصراخ، ولا يعود يصدر عنها سوى صوت غريب كالزحير، وينقطع نفسها بين فينة وأخرى، فيما الضربات تنهال عليها أسرع فأسرع وأقوى فأقوى... وفجأة يلقي بالحزام الجلدي، ويختطف كالمخبول عصاً أو غصناً حسبما يقع تحت يده، ويكسره على ظهرها بضربات ثلاث أخيرة فظيعة، ويتوقف! يهدأ، يجلس إلى الطاولة، يزفر بعمق، ويبدأ باحتساء الكفاس[7]. البنيّة الصغيرة، ابنتهما (كان لهما ابنة أيضاً!) تختبئ على سطح الموقد في الزاوية وهي ترتجف: كانت تسمع كيف كانت أمها تصرخ. يغادر الزوج الدار. وقبيل الفجر تصحو الأم، تنهض وهي تتأوه وتصيح عند كل حركة، ثم تذهب لحلب البقرة، وتجر قدميها لجلب الماء، ومتابعة العمل.

بينما يقول لها هو عند مغادرته بنبرة رتيبة، بطيئة، متعالية: «إياك أن تأكلي هذا الخبز، إنه خبزي».

وأخيراً يحلو له أن يعلقها هي أيضاً من قدميها كما يعلق الدجاجة. وبعد أن يعلقها ربما يذهب ليأكل عصيدة. وما إن ينتهي من الأكل حتى يعود فجأة فيتناول الحزام ويبدأ بضربها وهي معلقة... وتظل الإبنة ترتجف طوال الوقت وهي مكوّمة على نفسها فوق سطح الموقد،

(*) جولييت: بطلة مأساة «روميو وجولييت» (1595) وبياتريس بطلة ملهاة «جعجعة ولا أرى طحناً» (1598) لشكسبير. ومرغريت بطلة مأساة «فاوست» لغوته (1808-1832).(ن).

وفي بعض الأحيان تختلس نظرات طافحة بالرعب إلى أمها المعلقة ثم تعود لتختبئ من جديد.

لقد شنقت نفسها في أيار عند الصباح وأغلب الظن أنه كان يوماً ربيعياً صاحياً. شاهدوها عشية ذاك اليوم منهكة من الضرب، مختلة العقل. وقد ذهبت قبل الموت أيضاً إلى محكمة المنطقة، وهناك قالوا لها مغمغمين: «عيشا في وفاق أكثر».

عندما علقت نفسها وبدأت تنخر، صاحت ابنتها الصغيرة من الزاوية: «ماما لماذا تخنقين نفسك؟» ثم اقتربت منها بوجل وراحت تناديها وتتأملها برعب، وفي الصباح غادرت زاويتها عدة مرات لتدنو منها وتنظر إليها، وظلت تفعل ذلك إلى أن عاد أبوها.

وها هو يقف أمام قوس المحكمة - رزيناً سميناً مركز الانتباه؛ إنه ينكر كل شيء، ويقول ملقياً بكلماته النادرة كدرر ثمينة «كنا نعيش في وفاق تام» يغادر المحلفون للمداولة، وبعد «تشاور قصير» يصدرون حكمهم: «مذنب، ولكنه يستحق التسامح».

لاحظوا أن البنت الصغيرة شهدت ضد أبيها. روت كل شيء وأبكت الحضور، كما قالوا. ولولا «تسامح» المحلفين، لكانوا نفوه إلى سيبيريا للإقامة هناك. ولكن بفضل «التسامح» حكموا عليه بالسجن ثمانية أشهر، وبعد ذلك سيعود إلى بيته، ويطالب باستعادة ابنته، التي شهدت ضده، من أجل أمها وهكذا سيكون لديه من يعلقه من قدميه.

«يستحق التسامح!» علماً بأن هذا الحكم قد صدر عن معرفة. لقد كانوا يعرفون ما الذي ينتظر الطفلة؛ فلمن ولماذا هذا التسامح؟ إنك لتشعر وكأنك في دوامة قد أطبقت عليك، وراحت تدور وتدور.

مهلاً، سأروي لكم نادرة أخرى:

ذات مرة قبل تطبيق النظام القضائي الجديد (قبله بمدة قصيرة فقط) قرأت في صحفنا عن واقعة صغيرة: أمّ كانت تحمل على يديها طفلها الذي أتم عامه الأول أو تجاوزه بشهرين. في هذا العمر تبزغ الأسنان، ويمرض الأطفال ويبكون، ويعانون كثيراً. أبرم الطفلُ الأمَّ، وربما كان عليها أن تقوم بأعمال كثيرة، ولكنها مضطرة إلى حمله وسماع بكائه الذي يمضّ القلب. تملكها الغيظ، ولكن هل من المعقول أن يُضرب طفل صغير بسبب ذلك؟ ومن يطاوعه قلبه على ضربه؟ وهل هو يدرك شيئاً من كل هذا؟ إنه عاجز تماماً ويتأثر بأصغر ذرة غبار؛ ثم إنك إذا ضربته لن تجعله يكف عن البكاء: ستنهمر دموعه بغزارة، وسيضمك بيديه الصغيرتين، وربما راح يقبّلك، وهو يبكي ويبكي. وهي لم تضربه. كان في الغرفة سماور يغلي فيه الماء. اقتربت منه ومدت يد الطفل إلى تحت صنبوره بالضبط، وفتحت الصنبور، وظلت ممسكة باليد الصغيرة نحو عشر ثوانٍ.

هذه واقعة حقيقية وقد قرأت عنها. ولكن تصوروا أنها قد حدثت الآن، وأنهم استدعوا هذه المرأة إلى المحكمة. وها هم المحلفون قد غادروا القاعة للمداولة، وبعد «تشاور قصير» أصدروا حكمهم: «تستحق كل التسامح».

تصوروا هذا الموقف؛ إنني أدعو الأمهات، على الأقل، لِتصوُّره. وهنا كان لابد من أن ينبري المحامي للف والدوران:

- أيها السادة المحلفون، لايمكننا، طبعاً، أن نصف هذه الحادثة بأنها إنسانية تماماً، ولكن علينا أن نأخذ القضية بكليتها، تصوروا الوسطَ، الظروفَ. هذه المرأة فقيرة، وهي وحدها العاملة في المنزل، وتعاني المنغصات. وليس لديها حتى ما تستخدم به حاضنة. ومن البدهي أنها في تلك اللحظة التي تغلغل فيها الغيظ من الوسط الخانق إلى أعماقها، إذا جاز القول، من البدهي، أيها السادة، أنها عمدت إلى مد اليد الصغيرة إلى تحت صنبور السماور... أجل... و... و...

أوه طبعاً أنا أدرك كل فوائد المحاماة، أدرك مدى رفعة لقب «المحامي» الذي يحترمه الجميع. ولكن مع ذلك لا يجوز ألّا ننظر إلى الأمر أحياناً، من زاوية معينة؛ صحيح أنها نظرة تتسم بالخفة، ولكنها تفرض نفسها فرضاً؛ تفكر بينك وبين نفسك: أية مهمة صعبة هذه، إنها أحياناً كالأشغال الشاقة، فالمحامي يداور ويراوغ كالثعبان، ويكذب مخالفاً ضميره، ومخالفاً قناعته الذاتية، ومخالفاً كل المبادئ الأخلاقية، والبشريةَ بأسرها!

أجل إنهم، بالفعل، لا يتقاضون أجور أتعابهم عبثاً.

- كفاك ثرثرة! - يصيح فجأة الصوت اللاذع المعهود - إن كل هذا هراء وتخيلات تختلقها أنت ليس إلّا. لم يسبق قط للمحلفين إصدار مثل هذا الحكم، ولم يسبق قط للمحامي اللجوء إلى المراوغة. كل هذا صوره له خيالك.

والزوجة المعلقة من قدميها كالدجاجة، و«هذا خبزي أنا وإياك أن تأكليه»، والبنية الصغيرة التي ترتجف على سطح الموقد وصرخات أمها تصك مسامعها طوال نصف ساعة، و«ماما لماذا تختنقين نفسك؟» أليس كل هذا مثل وضع يد الصغير تحت صنبور الماء الغالي؟ إنه الشيء نفسه تقريباً!

«إنه التخلف والغباء، ارأفوا به، إنه الوسط» يرد محامي الفلاح بإصرار. ولكن هناك الملايين من الفلّاحين، وليس كلهم يعلقون زوجاتهم من أقدامهن! ولا بد هنا من وضع حد فاصل... ثم، من جهة أخرى، هاكم الرجل المتعلم، إنه مهيأ للإقدام في أية لحظة على التعليق من القدمين. كفاكم مراوغة وتذرعاً بـ «وسطكم» هذا أيها السادة المحامون.

ڤلاس[16]

هل تذكرون ڤلاس؟ إنه يراود ذاكرتي هذه الأيام.

في جلبابه المفتوح الياقة
حاسر الرأس
يسير الشيخ الأشيب - العم ڤلاس
في المدينة بخطىً بطيئة
وعلى صدره إيقونة نحاسية
يستعطي الصدقات لبناء كنيسة...

وڤلاس هذا، كما هو معروف، لم يكن سابقاً يؤمن بالإله؛

... وظل يضرب زوجته
حتى أوصلها إلى القبر،
وكان يتستر على قطاع الطرق،
سارقي الخيول.

حتى سارقي الخيول، - يحاول الشاعر إخافتنا بهذا، وكأنه يتحدث بلسان عجوز ورعة. يا لها من ذنوب! وأخيراً وقعت الواقعة. مرض ڤلاس ورأى رؤيا، وأقسم بعدها على أن يضرب في الأرض ويجمع تبرعات لبناء كنيسة. لقد رأى جهنم ذاتها بكل ما فيها:

رأى نهاية الكون
رأى الآثمين في جهنم
يعذبهم الزبانية النشطون
وتنهشهم الأفاعي الشيطانية
تراهم سوداً كلهم
وعيونهم كقطع الفحم

وأولئك نُظموا في سَفّود طويل
وأولئك يلحسون الأرض الحامية...

وباختصار أهوال تفوق التصور، حتى أنك ترتعب وأنت تقرأ.

ويتابع الشاعر: «يتعذر وصف كل شيء»!

والنساء التقيات الذكيات
يُجِدن وصف هذا أكثر.

أوه، أيها الشاعر (ولسوء الحظ أنك من شعرائنا الحقيقيين) ليتك لم تتعرض للشعب في أثناء حديثك عن تلك المشاعر المبهرة التي تقول عنها إن:

النساء التقيات الذكيات
يُجدن «وصفها» أكثر

كي لا تهيننا نحن أيضاً باستنتاجك أن هذه الترهات النسوية هي التي تؤدي في نهاية المطاف إلى أن:

تُبنى بيوت الرب
على أرض الوطن.

ولكن حتى إذا كان «الغباء» هو الذي جعل ڤلاس يضرب في الأرض متنكباً كيسه، فإنك مع ذلك قد أدركتَ جدية معاناته؛ وقد بهرتك هيئته المهيبة (طبعاً فأنت شاعر، ولذا لا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك).

قوة روحه العظيمةُ كلُّها
تجندت في سبيل الرب.

يا لروعة قولك هذا. وأود، على العموم، أن أصدق أنك قد أوردت سخريتك بغير إرادة منك، بدافع الخوف الليبرالي، إذ إن قوة خشوع ڤلاس المهولة، بل المرعبة، وهذه الحاجة إلى إنقاذ الذات، وهذا الظمأ الشديد إلى المعاناة قد بهرك، أنت الإنسان العام والـ «getilhomme» الروسي[17]. وقد اغتصَبَتْ الشخصيةُ الشعبيةُ المهيبة الإعجابَ والاحترام اغتصاباً من نفسك المغرقة في الليبرالية.

وزّع ڤلاس ممتلكاته
وغدا حافياً عارياً
وذهب يجمع الهبات
لبناء معبد الرب
ومنذئذ وهو يطوف في الأرض
ثلاثون عاماً توشك أن تنقضي

وهو يستعطي قوت يومه
متمسكاً بوفاء نذره
مفعماً بحزن لا عزاء له
أسمر الوجه، طويل منتصب القامة،
(ما أبدع هذا!)
يسير بخطىً وئيدة
عبر القرى والمدن.

يسير حاملاً إيقونة وكتاباً
متحدثاً إلى نفسه
وسلاسل تعذيب الذات
تصل صليلاً خافتاً.

ما أبدع هذا! وما أروعه! إنه بديع إلى حد يوحي بأن من كتبه ليس أنت، لكأنه ليس إيّاك، بل شخص ما آخر، ذاك الذي تحدث بدلاً منك فيما بعد حديثاً متصنعاً «على الفولغا» عن أغاني جارّي المراكب في قصيدة رائعة أيضاً[18]. وعلى كلٍّ، أنت لم تتصنع أيضاً في «على الفولغا» اللهم إلا قليلاً: فأنت على الفولغا أيضاً أحببت الإنسان العام في عامل جر المراكب بالذات، وعانيت فعلاً من أجله، أي ليس من أجل جارّ المراكب بالذات، بل من أجل جارّ المراكب العام، إذا جاز التعبير؛ ولِنُشر هنا إلى أن حبَّك الإنسان العام إنما يعني بالضبط احتقارك، وأحياناً كرهك، الإنسان الحقيقي الذي يقف قربك، وأنا أوردت عن عمد الأبيات التي لا حد لروعتها في قصيدتك التهريجية هذه (ككل، ولتعذرني في ذلك).

وما جعلني أتذكر ڤلاس الشعري هذا هو أنني سمعت منذ أيام قصة خيالية مدهشة عن ڤلاس آخر، بل عن اثنين، لكنهما يتميزان بصفات خاصة تماماً، حتى إنه يمكن القول إنهما «ڤلاسان» لم يُسمع بمثلهما من قبل. وهذه الحادثة حقيقية، وهي مثيرة للاهتمام لمجرد كونها غير مألوفة.

يقولون إنه يوجد حتى الآن في أديرة روسيا بعض الرهبان النُسّاك الذين يتقبلون الاعتراف ويسدون النصائح. هل هذا جيد أم سيئ؟ وهل ثمة حاجة إلى وجود رهبان أم لا؟ أنا الآن لا أرغب في مناقشة هذه المسألة، وليس من أجل هذا أمسكتُ القلم. ولكن بما أننا نعيش في هذا الواقع القائم فإنه لا يجوز لنا أن نطرح من القصة أي شيء حتى ولو كان هذا الشيء هو

مجرد راهب، إذا كانت القصة كلها تقوم عليه. يصدف أحياناً أن يكون هؤلاء الرهبان الذين يسدون النصائح ذوي ثقافة عظيمة وفكر ثاقب. هذا على الأقل ما يروونه عنهم. أما أنا فلا علم لي بشيء. يقولون إن بعض هؤلاء يتمتع بموهبة مدهشة تمكّنه كما يدّعون، من النفاذ إلى النفس البشرية والاستحواذ عليها. ويقولون إن بضعة أشخاص من هؤلاء تعرفهم روسيا كلها، أي في الحقيقة يعرفهم من ينبغي له ذلك. ولنفترض أن أحد هؤلاء النُّسّاك يعيش في مقاطعة خيرسون*، فإنك ترى الناس يقصدونه راكبين وراجلين من بطرسبورغ ومن أرخانغيلسك، ومن القفقاس، ومن سيبيريا. يأتون طبعاً بنفوس سحقها اليأس ولم تعد تنتظر لها شفاء، أو بقلوب أثقلتها أعباء مرعبة إلى درجة أن الآثم لم يعد يتحدث عنها إلى كاهنه الذي يتلقى اعترافه - لا خوفاً أو عن قلة ثقة، بل لأنه ببساطة، قانط تماماً من الخلاص. ولكنه فجأة يسمع بمثل هذا الراهب الناصح فيتوجه إليه.

أحد هؤلاء الرهبان قال ذات مرة لواحد من مستمعيه في أثناء حديث ودي جرى بينهما على انفراد: «ها أنا أستمع إلى الناس منذ عشرين سنة، ولك أن تتخيل كم وكم من أمراض النفس البشرية المكنونة بعمق، والشديدة التعقيد، قد اطلعت عليها خلال هذه السنوات العشرين، ومع ذلك فإنك بعد كل هذه السنين تنتابك القشعريرة أحياناً ويستولي عليك الغضب وأنت تستمع إلى بعض الأسرار. تفقد هدوء الروح الذي يجب أن تتحلى به لتقدمة المواساة، وتجد نفسك مضطراً إلى مغالبة الذات للاحتفاظ باستكانتك وهدوئك...».

وهنا بالذات روى لي تلك القصة العجيبة التي كنت ألمحت إليها آنفاً، وهي مستقاة من الحياة الشعبية. قال: «ذات مرة شاهدت فلاحاً يتجه صوبي زاحفاً على ركبتيه. وكنت قد رأيته من النافذة وهو يزحف على الأرض. كانت أولى كلماته إليّ: - لا خلاص لي؛ ملعون أنا! ومهما قلتَ لي فإنني لن أنجو من اللعنة!

هدّأته بصعوبة بالغة؛ كان واضحاً أن الرغبة في المعاناة هي التي دفعته إلى المجيء زحفاً من مكان بعيد. وبدأ يحكي لي قصته: «اجتمعنا بضعة فتيان في القرية وأخذنا نتجادل من يبزّ من في التجاسر على فعل وقح؟ وقد دفعتني كبريائي إلى تحدي الجميع. فانتحى بي أحد الفتيان جانباً وقال لي على انفراد: - إنك غير قادر البتة على أن تفعل ما تدّعيه. أنت تتبجح.

فاندفعت أقسم له على أنني سأفعل. فقال لي:

- مهلاً، أقسمْ بخلاصك في العالم الآخر على أنك ستفعل ما أوعز لك به.

(*) مقاطعة خيرسون: تقع جنوبي شبه جزيرة القرم، ومركزها مدينة خيرسون وهي ميناء على البحر الأسود.(م).

أقسمتُ. فقال لي: - قريباً سيحل موعد الصوم، وعليك أن تصوم وعندما ستذهب للمناولة تَناول القربان ولكن لا تبتلعه. وعندما تبتعد أخرجه من فمك واحتفظ به. وبعد ذلك أقول لك ماذا تفعل.

فعلت كما قال. وقادني من الكنيسة مباشرة إلى الحديقة. تناول قضيباً وغرزه في الأرض وقال لي: ضع القربان! فوضعته على القضيب. قال: والآن أحضر بندقية. أحضرت.

- اشحنها.

شحنتها.

- ارفعها وأطلق النار.

رفعت يدي وسددت، ولم يبق إلا أن أطلق النار. وفجأة ظهر أمامي صليب وعليه «المصلوب». فوقعت مغشياً علي والبندقية بيدي».

لقد حدث هذا قبل بضع سنوات من مجيئه إلى الناسك. من كان هذا «الفلاس»، ومن أين أتى، وما اسمه؛ لم يبح الناسك بشيء من هذا، طبعاً، كما لم يبح بما فرضه عليه لتقبّل توبته. لا بد أنه أثقل عليه بعبء باهظ يفوق حتى قدرة البشر، لاعتقاده بأن الكفّارة هنا كلما كانت أشق، كانت أجدى. «جاء بنفسه زاحفاً طلباً للمعاناة» أليست هذه الحادثة طابعية جداً من ناحية معينة، وتدل على أشياء كثيرة بحيث تستحق منا، كما أظن، أن نخصص لها دقيقتين أو ثلاثاً للنظر فيها بالتفصيل. فأنا ما زلت أعتقد أن الكلمة الأخيرة سيقولها هؤلاء بالذات؛ هؤلاء «الفلاسات» أنفسهم باختلاف أنواعهم ونماذجهم، التائبون منهم وغير التائبين، هم الذين سيقولون لنا ويدلوننا على طريق جديدة ومخرج جديد من جميع أزماتنا التي تبدو لنا الآن مستعصية. لا... ليست بطرسبورغ من سيقرر مصير روسيا النهائي. ولذا فإن أية إشارة جديدة، مهما كانت ضئيلة، عن هؤلاء الأشخاص الذين هم الآن «أناس جدد» يمكن أن تكون جديرة باهتمامنا.

أولاً - إن ما يدهشني بالذات - ويدهشني أكثر من أي شيء آخر - البداية الأولى للقضية، أي إمكانية نشوب مثل هذا الجدال والتنافس في القرية الروسية: «من يبزّ من في التجاسر على فعل وقح»! إنها واقعة تدل على أشياء كثيرة جداً. وهي بالنسبة لي، تكاد تكون مفاجئة تماماً تقريباً؛ مع أنني قد شاهدت في حياتي ما يكفي من النماذج الشعبية، ومنها نماذج جد طابعية. ولأشر هنا إلى أن الاستثنائية الظاهرية للواقعة تشهد بحد ذاتها على صدقها: فالناس عندما يكذبون يختلقون أشياء مألوفة أكثر بكثير وتشبه ما يحدث عادةً كي يصدقهم الجميع.

ثم إن ما يلفت الانتباه هنا الجانب الطبي البحت للواقعة. فالهلوسة هي في المقام الأول

ظاهرة مَرَضيّة، وهذا المرض نادر جداً. وإمكانية ظهور هلوسة مفاجئة، حتى لدى شخص متهيج إلى أبعد الحدود ولكنه مع ذلك معافىً تماماً، يمكن أن تكون حادثة لم يُسمَعْ بمثلها من قبل. ولكن هذه القضية طبية، وأنا قليل المعرفة في هذا المجال.

أما الجانب النفسي من الواقعة فأمر آخر. هنا يبرز أمامنا نموذجان شعبيان يصوران لنا بأقصى درجة من الوضوح الشعب الروسي بأجمعه وفي كلّيته. إننا نرى هنا قبل كل شيء نسيان المعيار تماماً في كل شيء (ولاحظوا أن هذا النسيان هو دائماً تقريباً مؤقت وعابر، وكأنه نوع من الوسوسة). إنه حاجة إلى الإفراط في التطرف، حاجة إلى إحساس يكتم الأنفاس؛ إنه الوصول إلى الهاوية والتدلي فوقها بنصف الجسد والنظر إلى أعماقها التي لا يُرى لها قعر، و- في حالات خاصة ولكنها غير نادرة البتة - الارتماء فيها نَكْساً كالمخبول. إنه الحاجة إلى النفي لدى

الإنسان - الذي يكون أحياناً أبعد ما يكون عن النفي وأقرب ما يكون إلى الرضا والتبجيل؛ حاجته إلى نفي كل شيء، إلى نفي أهم مقدسات قلبه، وأغلى مُثُله العليا، وجميع الأقداس الشعبية بكامل قدسيتها التي كان لتوه يبجّلها، ثم أصبحت فجأة بالنسبة إليه عبئاً لا يحتمل. ومما يذهل أشد الإذهال ذاك التعجل والاندفاع اللذان يبديهما الإنسان الروسي وهو يسرع أحياناً إلى إشهار ذاته في بعض لحظات حياته الخاصة أو الحياة الشعبية، سواء أكان هذا الإشهار في فعل حميد أو فعل ذميم. يحدث هذا أحياناً بلا أي كابح؛ سواء في الحب أو الخمر، أو العربدة، أو حب الذات، أو الحسد - هنا ترى بعض الروس يلقون بأنفسهم باستسلام تام تقريباً، مستعدين لقطع كل الأواصر والتنكر لكل شيء: للأسرة، والأعراف، والإله. ورُبّ شخص طيب إلى أبعد حدود الطيبة يمكن أن يصبح شريراً ومجرماً شنيعاً بمجرد أن تلفه هذه الزوبعة، هذه الدوامة المشؤومة بالنسبة لنا، دوامة نفي الذات وتهديمها تهديماً فورياً وتشنجياً. وهي سمة مميزة للطبع الروسي الشعبي في بعض اللحظات المصيرية المشؤومة من حياته. ولكن بالمقابل، بتلك القوة نفسها، وبذاك الاندفاع والتوق إلى صون الذات والتوبة ينقذ الإنسان الروسي، وكذلك الشعب بأسره، نَفْسَه، ويحدث هذا عادة عند الوصول إلى الخط الأخير، أي عندما لا يبقى أي مكان يمكن الذهاب إليه. ولكن السمة الطابعية بصورة خاصة هنا هي أن الدفعة المعاكسة، دفعة الإصلاح وإنقاذ الذات تكون دائماً أكثر جدية من الجموح السابق - جموح النفي وتهديم الذات. أي أن هذا الجموح يُصنَّف دائماً في خانة صَغار النفس المسف؛ في حين أن الإنسان الروسي، عندما ينصرف إلى إصلاح ذاته يفعل ذلك باذلاً أكبر قدر من الجهد الجدي، وناظراً إلى مسيرته النافية السابقة نظرة احتقار إلى شخصه ذاته.

أعتقد أن الحاجة الروحية الرئيسة والأكثر جذرية لدى الإنسان الروسي هي الحاجة إلى المعاناة الدائمة التي لا ارتواء لها، المعاناة في كل مكان وكل شيء. ويبدو أنه مصاب بعدوى التوق إلى المعاناة منذ القدم. فتيار المعاناة يمر عبر تاريخه كله، وهو لا ينبع من المصائب والرزايا الخارجية وحدها فحسب، بل ينبجس انبجاساً من سويداء قلب الشعب بالذات. وحتى السعادة لا بد أن تنطوي عند الشعب الروسي على جزء من المعاناة، وإلّا فإن سعادته لن تكون تامة في نظره. والشعب الروسي لم يظهر البتة، حتى في أبهى برهات تاريخه، بمظهر الظافر الفخور بظفره، بل كان يظهر بمظهر المتأثر حتى المعاناة؛ إنه يزفر بارتياح ويعزو مجده إلى فضل الرب عليه. لكأن الشعب الروسي يلتذ بالمعاناة.

وشأن الشعب كله هو شأن النماذج المفردة، علماً بأن الحديث هنا يجري على وجه العموم فحسب. تأملوا، على سبيل المثال، نماذج العربيد الروسي المتعددة. لن تروا هنا العربدة المفرطة فحسب، وهي عربدة تدهش أحياناً بمدى وقاحتها وببشاعة انحطاط النفس البشرية.

فهذا العربيد هو، قبل كل شيء شخص يعاني. وأنتم لن تجدوا لدى الإنسان الروسي، وحتى لدى الغبي، أي أثر للتباهي الساذج بالرضا عن الذات. خذوا سكيراً روسياً وسكيراً آخر، وليكن ألمانياً، على سبيل المثال: السكير الروسي أشنع في تصرفاته من الألماني، ولكن السكير الألماني أغبى بغير شك، من الروسي وأكثر إثارة للسخرية.

الألمان، في أغلبيتهم، مغرورون ومتكبرون. وتتضخم هاتان السمتان الشعبيتان الأساسيتان لدى الألماني السكران بقدر كمية البيرة التي يشربها. الألماني السكران شخص سعيد من غير شك ولا يبكي البتة، إنه ينشد أغاني يمتدح فيها ذاته، ويفخر بنفسه. يأتي إلى بيته وهو في أشد حالات السكر، ولكنك تراه فخوراً بنفسه. أما السكير الروسي فيرغب في الشرب من الحزن، وفي البكاء. وإذا ما تنمّر فإنه لا يتباهى ويتفاخر، بل يعربد فحسب. إنه دائماً يتذكر إساءة ما ويلوم المسيء إليه سواء أكان موجوداً أم لا. إنه يندفع بجسارة وقحة إلى البرهنة على أنه بمرتبة تكاد لا تقل عن مرتبة جنرال، ويطلق أقذع الشتائم إذا لم يصدقوه. ولكي يؤكد ذلك يعمد دائماً في نهاية المطاف إلى مناداة «الحرس»*.

ولكنه في الحقيقة، لا يتصرف على هذا النحو البشع، ولا ينادي «الحرس» إلّا لأنه في قرارة نفسه السكرى مقتنع بأنه ليس «جنرالاً» البتة، بل مجرد سكير مقرف، وأنه تصرّف بشناعة تجعله أحط من أية بهيمة. إن ما ينطوي عليه المثال المصغّر يتبدى كذلك في الظاهرة الأكبر.

(*) أي يصل إلى ذروة الحنق اليائس. (م).

فالشخص الذي يرتكب أكبر القبائح، ويتفوق في جمال جسارته الوقحة ورذائله الأنيقة، مما يجعل الأغبياء يقلدونه، يحس مع ذلك على نحو ما في خبايا نفسه الشنيعة، أنه في نهاية المطاف ليس سوى وغد. إنه غير راضٍ عن نفسه، وفي داخله يتنامى تقريع ذاتي، وهو لهذا يثأر ممن يحيطون به، فتراه يهتاج وينقض على الجميع مرغياً مزبداً، وهنا بالذات يصل إلى خط النهاية، مغالباً معاناته التي تتراكم في قلبه متزايدة ساعة بعد ساعة، وشاعراً في الوقت ذاته بما يشبه لذة الانتشاء بمعاناته هذه. وإذا ما كان قادراً على أن ينتشل نفسه من وهدة انحطاطه، فإنه ينتقم من نفسه عن سقوطه الماضي انتقاماً رهيباً، يفوق في إيلامه انتقامه من الآخرين عن عذاباته السرّية، التي كان يعانيها بسبب عدم رضاه عن نفسه عندما كان غارقاً في حمأة القباحة.

من الذي دفع كلا الشابين إلى الجدال حول موضوع: «من يبزّ من في التجاسر على فعل وقح؟» وما هي الأسباب التي أوجدت إمكانية بروز مثل هذا التنافس؛ الجواب ظل مجهولاً، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن كليهما قد عانيا: الأول عندما قبل التحدي، والآخر عندما طرحه. طبعاً، هنا كان ثمة شيء سابق: إما كراهية مكتومة بينهما، أو ضغينة منذ الطفولة، حتى هما لم يكونا يدريان بها، قد برزت فجأة في لحظة الجدال والتحدي. وهذا هو الأرجح؛ ومن المرجح أنهما كانا حتى تلك الساعة صديقين يعيشان في وفاق كانت وطأته لا تنفك تزداد ثقلاً على النفس مع مرور الزمن؛ ولكن في لحظة التحدي كانت حدة الكراهية المتبادلة، وحسد الضحية لشيطانها المغوي، قد تجاوزت حدودها العادية.

– لن أخشى شيئاً، سأفعل أي شيء تطلبه، لِتَهلِك نفسي على أن أخزيك أنت.

– أنت تتبجح ستهرب كما يهرب الفأر إلى جحره، وسأضحك عليك، ولتهلك نفسي!

كان يمكن اختيار فعل من نوع آخر موضوعاً للمنافسة، يتطلب جسارة وقحة جداً– كالسلب أو القتل، أو العربدة والتهجم المباشر على شخص شديد البأس. فالفتى قد أقسم على أنه سيُقدم على أي فعل، ومغويه كان يعرف أن الحديث في هذه المرة جدي وأنه سيُقْدِم حقاً. ولكن لا. فأرهب «الوقاحات» تبدو للمغوي عادية جداً. وها هو يبتكر «جسارة وقحة» لم يُسمع بمثلها، ولم يسبق لها نظير، ولا يمكن تصورها، ويُعبّر اختيارها عن العقيدة الشعبية بكاملها.

لا يمكن تصورها؟ ومع ذلك فإن مجرد اختياره لها بالذات يدل على أنه ربما يكون قد فكر فيها من قبل، وربما يكون هذا الحلم قد تسلل إلى نفسه منذ زمن بعيد، منذ الطفولة، وصعقها بفظاعته، وفي الوقت نفسه بلذته المؤلمة؛ ولعله فكر في كل شيء منذ زمن بعيد بما في ذلك البندقية والحديقة، ولكنه أبقى كل هذا طيّ الكتمان الشديد، وليس في هذا أي شك

تقريباً. وقد فكر بهذا لا لينفذه طبعاً، ولعله لم يكن ليجرؤ وحده على فعل ذلك البتة. كل ما في الأمر أن هذه الرؤيا أعجبته، وكانت تتغلغل إلى أعماق نفسه أحياناً، وتغريه، ولكنه كان يرتد ويتراجع متهيباً، ويقشعر بدنه من الهول.

أمور كثيرة يمكن ألّا نعيها، بل نحسها فقط. ويمكن معرفة أمور كثيرة معرفة لا واعية، ولكن أليس صحيحاً أنها نفس تواقة إلى المعرفة، والمهم في الأمر أنها من هذا الواقع المعيش. وفي هذا بالذات يكمن جوهر الأمر. وحبذا أيضاً أن نعرف كيف كان هو ينظر إلى نفسه: هل إثمه أكبر من إثم ضحيته أم لا؟ إذا انطلقنا من درجة تطوره الظاهري ترتَّبَ علينا أن نفترض أنه كان يعد نفسه أكثر إثماً، أو على الأقل متساوياً في الإثم مع ضحيته؛ وعلى هذا فإنه عندما تحدى ضحيته في الإقدام على «جسارة وقحة» كان في الوقت نفسه يتحدى نفسه.

يقولون إن معرفة الشعب الروسي بالإنجيل ضعيفة، وهو يجهل أركان الإيمان الأساسية. الأمر هكذا طبعاً، ولكن الشعب الروسي يعرف المسيح ويحمله في قلبه منذ القدم. وليس في هذا أي شك. أما كيف يمكن حيازة تصور حقيقي عن المسيح بدون الإحاطة بتعاليم الإيمان؟ فهذه مسألة اخرى. بيد أن المعرفة القلبية للمسيح والتصور الحقيقي عنه موجودان بتمامهما. وهما ينتقلان من جيل إلى جيل ممتزجين بقلوب الناس. وربما كان الحب الوحيد لدى الشعب الروسي هو المسيح، وهو يحب شخصه على طريقته الخاصة، أي حتى المعاناة. أما صفة «الأرثوذكسي» أي المؤمن بالمسيح إيماناً حقيقياً أكثر من الجميع فإنه يفخر بها أكثر من أي شيء آخر. وأكرر: «إن أموراً كثيرة جداً يمكن أن نعرفها معرفة لا واعية».

وهكذا فإن مفيستوفيليس[8] الروسي لم يستطع أن يبتكر شيئاً أكثر وقاحة من انتهاك قداسة مثل هذا المقدَّس الشعبي، والقطيعة، من ثَمَّ، مع الأرض كلها، وتخريب الذات إلى أبد الآبدين من أجل دقيقة واحدة فقط من زهو الانتصار بالنفي والخيلاء! إن إمكانية اشتداد الهوى الجامح إلى هذا الحد، وإمكانية بروز مثل هذه الأحاسيس السوداء المعقدة في نفس الإنسان الشعبي البسيط أمر مذهل! ولاحظوا أن كل هذا قد تعاظم حتى درجة الفكرة الواعية تقريباً.

بيد أن الضحية لا تستسلم، ولا تستكين، ولا تخاف. أو هي على الأقل تتظاهر بأنها لا تخاف. فالشاب يقبل التحدي، وتمر الأيام وهو مصر على موقفه؛ وها هي الساعة تحين، لا ساعة الحلم، بل ساعة الفعل الحقيقي. وها هو يذهب إلى الكنيسة، ويسمع كل يوم كلمات المسيح، ولا يتراجع. ثمة قتلة فظيعون لا يرتبكون حتى عند رؤيتهم الضحية التي قتلوها. أحد هؤلاء القتلة لم يعترف بجريمته حتى النهاية وظل يصر على الكذب أمام المحقق على

الرغم من وضوح ارتكابه لها والقبض عليه متلبساً. وعندما نهض المحقق وأمر بإرساله إلى السجن اندفع يرجوه بتأثر أن يتكرم عليه ويسمح له بوداع المقتولة الممدة على الأرض (وهي عشيقته السابقة التي قتلها بسبب الغيرة). انحنى فوقها وقبلها بحنان وشرع يبكي وهو راكع على ركبتيه، ثم مد يده وكرر مرة أخرى أنه غير مذنب؛ أنا هنا أريد أن أشير فقط إلى درجة الوحشية التي يمكن أن يصل إليها فقدان الشعور لدى الإنسان.

ولكن الذي كان هنا ليس فقدان الشعور البتة. وفوق ذلك كان هناك شيء ما خاص تماماً: إنه الهول الغيبي المبهم، وهو أعظم قوةٍ تسيطر على النفس البشرية. وهذا الهول كان موجوداً بلا شك، والدليل على ذلك هو، على الأقل نهاية القصة. بيد أن روح الفتى القوية كانت ما تزال قادرة على مغالبته. وقد أثبت الفتى ذلك، ولكن هل هي قوةٌ يا ترى؟ أم أنها ليست، في التحليل الأخير، سوى خور وصغار نفس؟ إنها على الأرجح، هذا وتلك معاً في تماسٍّ بين الأضداد. ومع ذلك فإن هذا الهول الغيبي لم يوقف الصراع. بل بالعكس، أطال أمده، ولعله هو الذي ساعد على إيصاله إلى نهايته، وذلك بإبعاد أي شعور بالرقة والتأثر عن قلب الآثم، وكلما كان كبته لهذا الشعور يشتد كانت استحالة بروز هذا الأخير تتعاظم. إن الإحساس بالهول شعور قاسٍ يجفف القلب ويحجِّره، ويغلقه أمام أي رقة أو شعور سامٍ.

ولذا صمد المجرم حتى في لحظة تناول الكأس، على الرغم من أنه ربما كان قد تجمد من الرعب حتى الإعياء. كما إنني أعتقد أن الكره المتبادل بين الضحية ومعذِّبها قد زال تماماً في تلك الأيام. فالمستسلم للإغواء كان معرضاً لنوبات من الكراهية المصحوبة بغضب سقيم، كراهية لنفسه وللمحيطين به وللمصلين في الكنيسة، ولكنها لا تصيب مفيستوفيليس إلّا بأضأل نصيب. فكلاهما كان يشعر بحاجته إلى الآخر كي ينهيا القضية متضامِنَيْن، إذ إن كلاً منهما كان، على ما يبدو، يعتقد أنه عاجز عن إنهائها وحده؛ وإلّا فما الذي دعاهما إلى الاستمرار في سلوك هذه الطريق، وما الذي جعلهما يقبلان بكل هذه الآلام؟ كما أنه لم يكن بمقدورهما نقض التحالف القائم بينهما. فلو أن العقد الذي بينهما أُخِلّ به لنشبت بينهما على الفور كراهية متبادلة أقوى بعشر مرات من السابقة، ولربما وقعت جريمة قتل.

ولنفترض أن هذا وقع، فحتى هو لم يكن ليعني شيئاً إزاء الهول الذي عانته الضحية.

والأمر في الحقيقة هو أن كلاً منهما كان يشعر حتماً في أعماق نفسه بشيء من التلذذ الجهنمي بهلاكه الذاتي، وبحاجة تحبس الأنفاس إلى أن ينحني فوق الهاوية، وينظر فيها، منبهراً انبهاراً صاعقاً بجسارته؛ إذ يكاد يكون من المستحيل أن تصل القضية إلى نهايتها من غير هذه المشاعر الملتهبة المحرِّضة. فهذان الشابان لم يكونا من أولئك المشاكسين البسطاء.

لم يكونا مجرد صبيين بليدين غبيين، بدءاً من التنافس في «الجسارة الوقحة» وانتهاء بالقنوط أمام الناسك.

لاحظوا أيضاً أن المُغوي لم يبح لضحيته بالسر كله: فالضحية لم تكن تعرف ماذا سيكون عليها أن تفعل بالقربان المقدس حتى بعد خروجها من الكنيسة، وظلت كذلك إلى اللحظة التي أمرها فيها المغوي بإحضار البندقية؛ وقضاء كل هذه الأيام في ظلام الجهل الغيبي يدل مرة أخرى على العناد الفظيع الذي تملّك الآثم. ومن جهة أخرى فإن مفيستوفيليس القروي يثبت بتصرفه أنه خبير نفسي كبير.

ولكن ألا يمكن أن يكونا قد نسيا نفسيهما عندما وصلا إلى الحديقة؟ بيد أن الفتى كان يذكر كيف شحن البندقية وسدد. ربما كان يتصرف بآلية تلقائية على الرغم من كونه بكامل وعيه، كما يحدث أحياناً في الواقع في حالة الهول؟ لا أظن: فلو أنه تحول إلى مجرد آلة تعمل بقوة العطالة فحسب، لما كان، على الأرجح قد شهد الرؤيا فيما بعد، بل كان وقع فاقداً الوعي بعد نفاد كل احتياطي قوة العطالة لديه، وليس قبل إطلاق النار، بل بعده. لا، الأرجح أن وعيه ظل طوال الوقت متيقظاً إلى أبعد الحدود، بغض النظر عن الهول القاتل، الذي كان يتعاظم في كل هنيهة أضعافاً مضاعفة، وبما أن الضحية قد تحملت كل وطأة هذا الهول المتعاظم أضعافاً فإنها، وأكرر ثانية، كانت من دون شك، تتمتع بقوة نفسية هائلة.

وألفت الانتباه إلى أن شحن البندقية عملية تحتاج، في كل الأحوال، إلى بعض الانتباه. وأصعب الأمور وأثقلها وطأة في مثل تلك الساعة، هي، حسب رأيي، امتلاك القدرة على التفلت من الشعور بالهول، من الفكرة التي تسحق الذهن. والمصابون بالهول في أقصى درجاته، لا يستطيعون عادة أن يتفلتوا من تأمله، من الموضوع أو الفكرة اللذين صعقاهم. إنهم يقفون أمامهما كالمُسَمَّرين وينظرون في عينيّ هولهم مباشرة كالمسحورين. إلّا أن الفتى شحن البندقية بانتباه وظل يذكر هذا، إنه يذكر كيف سدّد فيما بعد، ويذكر كل شيء حتى اللحظة الأخيرة. وربما جاءت عملية شحن البندقية تخفيفاً عنه ومتنفساً لروحه المعذبة، وكان مسروراً بتركيز انتباهه ولو لحظة واحدة على موضوع خارجي ما سابق للنهاية. وهذا ما يحدث على المقصلة للذين ستقطع رؤوسهم؛ فقد صاحت ديو بارّي*:

"Encore un moment monsieur le bourreau, encore un moment**"،

وكانت ستعاني في هذه الدقيقة الإضافية، لو منحوها إياها، أكثر بعشرين مرة مما عانته

(*) ماري- جان ديو بارّي (1743-1793) عشيقة ملك فرنسا لويس الخامس عشر. (ن).

(**) «دقيقة أخرى أيها السيد الجلاد، دقيقة أخرى» (بالفرنسية).

سابقاً، ومع ذلك فقد صاحت وتوسلت أن يمنحوها إياها. ولكن لو افترضنا أن شحن البندقية كان بالنسبة لآثمنا كما «Encore un moment» بالنسبة لديو بارّي، لما كان بمقدوره طبعاً بعد تلك الدقيقة أن يعود ثانية إلى هوله الذي سبق أن تفلّت منه، وأن يستمر في فعلته، ويسدد، ويطلق. فقد كانت يداه ستصابان بالنَمَل، وتكفان عن مطاوعته، وستسقط البندقية تلقائياً، بصرف النظر حتى عن احتفاظه بوعيه وإرادته.

وها قد حلت اللحظة الأخيرة، وإذا بكل الكذب، وكل سفالة الفعل المعني، وكل خَوَر النفس المتخِّذ مظهر القوة، وكل خزي السقوط - كل هذا اندفع فجأة من قلبه في لحظة واحدة ومَثُل أمامه مرعباً في عريه الفاضح. ولاحت له تلك الرؤيا الخارقة... وانتهى كل شيء.

إن الحُكْمَ قد دوّى منطلقاً من قلبه طبعاً؛ فلماذا انطلق مدوياً على نحوٍ غير واع، لماذا لم يصدر عن طريق يقظةٍ مفاجئةٍ للعقل والضمير، ولماذا تجلى بشكل صورة وكأنه واقعة خارجية تماماً مستقلة عن روحه؟ في هذا تكمن مسألة نفسية كبرى وشأن إلهي. فبالنسبة إليه، إلى المجرم، كان الشأن إلهياً بدون شك. وقد ضرب ڤلاس في الأرض طالباً المعاناة.

ولكن ماذا عن ڤلاس الآخر، ڤلاس المغوي؟ القصة لا تتحدث عن أنه راح يزحف على الأرض في طلب التوبة، ولا تأتي على ذكره البتة. ربما زحف هو الآخر، وربما بقي في القرية ولا يزال يعيش هناك إلى الآن، يسكر ويروح يتهكم ويسخر في الأعياد: فليس هو الذي شاهد الرؤيا. هل الأمر هكذا يا ترى؟ ثمة رغبة شديدة في معرفة ما جرى له، لأخذ العلم، لدراسة الشخصية.

وثمة سبب آخر لهذه الرغبة: فماذا إذا كان هذا الشخص بالفعل عدمي قروي حقيقي، مُنكِرٌ ومفكر محلي، غير مؤمن، وقد اختار موضوع المنافسة باستهزاء متغطرس، وهو لم يعان ولم يرتجف رعباً مع ضحيته كما افترضنا في دراستنا، بل كان يرصد بفضول بارد ارتجافها وتلوّيها المتشنج، لا لشيء سوى لتلبية حاجته إلى التسبب في معاناة الآخرين وإذلال الناس ومن يدري، فربما فعل هذا من باب القيام بملاحظة علمية؟

وإذا كانت مثل هذه السمات موجودة حتى في الطبع الشعبي (ففي الوقت الراهن كل شيء يمكن افتراضه) بل وفي قرانا بالذات، فإن هذا اكتشاف جديد، وهو، إلى حد ما، غير متوقع؛ إذ لم نسمع قبلاً بمثل هذه السمات. فالمغوي لدى السيد أوستروفسكي[19] في ملهاته الرائعة «لا تعش كما يحلو لك» جاء رديئاً جداً؛ ومن المؤسف أننا لسنا قادرين على معرفة أي شيء يقيني في هذا الصدد.

ومن البدهي أن ما يثير الاهتمام في هذه القصة - إذا كان فيها شيء يستحق الاهتمام

بالفعل - هو أنها قصة حقيقية. وليس من النافل النظر أحياناً في نفس ڤلاس المعاصر. فڤلاس هذا يتغير بسرعة. إذ إن الجَيَشان الذي يجري لديه في «الأسفل» كالجيشان الذي يجري لدينا في «الأعلى» بدءاً من 19 شباط*.

فالعملاق قد استيقظ، وهو الآن ينتصب متمطياً؛ ولعله سيرغب في الاستسلام للعبث واللهو متجاوزاً كل الحدود. ويقولون إنه بدأ في اللهو. وهم يروون وينشرون فظائع عن السكر، والسلب، والأطفال المخمورين، والأمهات المخمورات، وعن الكلبية[5]، والإملاق، والاستهانة بالشرف، والإلحاد. ويتصوّر بعض الأشخاص الجدّيين، ولكنْ المتسرعين بعض الشيء، مستندين في تصورهم إلى الوقائع، أن هذا «اللهو» إذا استمر ولو عشر سنوات فحسب، فإنه سيسفر عن عواقب لا يمكن تصورها، على الأقل من وجهة النظر الاقتصادية وحدها. ولكن لنتذكر «ڤلاس» ونطمئن: ففي اللحظة الأخيرة سيندفع من قلب الشعب كل الكذب، إذا كان هناك كذب، ويمثُل أمامه بقدرةٍ هائلة على التعرية الفاضحة. سيستفيق «ڤلاس» ويسلك سبيل العمل على تنفيذ المشيئة الإلهية. وهو في كل الأحوال سينقذ نفسه بنفسه حتى إذا أوصلته الظروف إلى شفير الهاوية. سينقذ نفسه وينقذنا معه، وذلك لأن النوز والخلاص، هما أيضاً، سينبلجان من الأسفل (بصورة ربما لم يتوقعها ليبراليونا البتة. وما أكثر المضحكات التي ستبرز آنذاك). وثمة إشارات الآن تدل على هذه المفاجأة غير المتوقعة؛ بل هناك وقائع توشك أن تفصح عن نفسها... وعلى كل يمكن الحديث عن ذلك فيما بعد.

وأياً كان الأمر فإن مما لا شك فيه في البرهة الراهنة ثبوت تهافتنا، نحن «أفراخ عش بطرس»[20]. فمن المعروف أن التاسع عشر من شباط قد اختتم في الواقع المرحلة البطرسية في التاريخ الروسي، وعلى هذا فنحن قد دخلنا منذ مدة بعيدة في طور «المجهول» تماماً.

بصدد المعرض

زرت المعرض. لوحات كثيرة لرسامينا الروس سترسل منه إلى معرض ڤيينا العالمي. وليست هذه هي المرة الأولى؛ لقد بدؤوا في أوربا يعرفون الرسامين الروس المعاصرين.

(*) إشارة إلى «أحكام 19 شباط عام 1861» التي ألغي بموجبها نظام القنانة. (م).

ولكن مع ذلك يخطر في البال سؤال: هل من الممكن أن يفهموا فنانينا هناك؟ ومن أية وجهة نظر سيقوّمونهم؟ لنفترض أننا ترجمنا ملهاة للسيد أوستروفسكي[19]، ولتكن «الأهل يتحاسبون فيما بينهم» أو حتى أية ملهاة أخرى، ولتُتَرجم على أفضل وجه ممكن إلى اللغة الألمانية أو الفرنسية، ولتُعرض على خشبة مسرحٍ ما في أوربة؛ إنني لا أعرف، في الحقيقة، كيف ستكون النتيجة. المشاهدون سيفهمون شيئاً ما بالطبع، ومن يدري، فهم ربما سيجدون بعض المتعة، ولكن ثلاثة أرباع الملهاة على الأقل ستظل غير متاحة البتة للفهم الأوربي. إنني أذْكر كَمْ أثار اهتمامي في شبابي نبأُ أن السيد فياردو (زوج المغنية الشهيرة التي كانت آنذاك تغني عندنا في فرقة الأوبرا الإيطالية)، وهو فرنسي لا يعرف الروسية على الإطلاق، يترجم كاتبنا غوغول بإشراف السيد تورغينف. وفياردو كان يتمتع، طبعاً، بملكة فنية - نقدية، وإلى ذلك كان لديه حس مرهف في فهم شاعرية الأمم الأخرى، وقد أثبت هذا في ترجمته الباهرة لرواية «دون كيشوت» إلى اللغة الفرنسية. أما السيد تورغينف فقد كان يفهم غوغول طبعاً حتى أدق الدقائق؛ وأعتقد أنه كان كالجميع آنذاك يحبه حتى الانبهار، وإلى ذلك فهو نفسه شاعر مع أنه آنذاك لم يكن قد بدأ تقريباً يوطد مكانته الشعرية (ملاحظة: لم يكن قد كتب سوى بضع قصائد نسيت عناوينها وبالإضافة إليها قصة «ثلاث صور» التي امتازت بالأهمية).

وعلى هذا فقد كان من الممكن فعل شيء ما. وأشير هنا إلى أن السيد تورغينف، كما أعتقد، يعرف اللغة الفرنسية معرفة ممتازة. وماذا كانت النتيجة؟ لقد اتسمت الترجمة بغرابة فاقت كل ما كنت أتوقعه من نتائج، مع أنني كنت أشعر مسبقاً بأن من المتعذر نقل أعمال غوغول إلى الفرنسية. ومع ذلك لم أتوقع مثل هذه المآل. إن هذه الترجمة يمكن الحصول عليها الآن، فانظروا بأنفسكم أي شيء هذا. لقد اختفى غوغول تماماً. كل الفكاهة، وكل الكوميديَّة، وكل التفاصيل المفردة واللحظات الرئيسة في حلول العقد، التي لا تزال حتى الآن، إذا ما تذكرتها أحياناً في سرك على نحو عفوي (وغالباً في أكثر لحظات الحياة بُعداً عن الأدب) تجعلك تستغرق فجأة، بينك وبين نفسك، في ضحك لا يمكنك كبته. كل هذا قد فقد وكأنه لم يكن أصلاً. إنني لا أتصور ما هي الفكرة التي كان يمكن أن يكوّنَها الفرنسيون عن غوغول آنذاك انطلاقاً من هذه الترجمة. على العموم يبدو لي أنهم لم يُكوّنوا أية فكرة. كما أن «البنت البستوني» و«ابنة الضابط»* اللتين ترجمتا آنذاك إلى الفرنسية فقدتا نصفيهما أيضاً بدون شك، مع أن ما يمكن فهمه منهما أكثر بكثير مما يمكن فهمه من أعمال غوغول. وباختصار فإن كل ما هو طابعي[1]، وكل ما تَغلِب عليه خصوصيتنا القومية (ومن ثم كل ما هو

(*) قصتان للشاعر الروسي العظيم «الكسندر بوشكين» ترجمتا إلى الفرنسية في عامي 1843 و1853 على التوالي. (ن).

غني حقاً) لا يمكن لأوربا، حسب رأيي، أن تعرفه. ترجِموا قصة «رودين» لتورغينف (وأنا أتحدث عن السيد تورغينف لأنه مترجَمٌ أكثر من أي كاتب روسي آخر، وأتحدث عن قصة «رودين» لأنها أكثر أعمال تورغينف شبهاً بالأعمال الألمانية) إلى أية لغة أوربية تريدون، وسوف تجدون أنهم حتى هذه لن يفهموها. إذ إن الجوهر الرئيس في القضية سيظل بعيداً عن دائرة تخميناتهم. أما «مذكرات صياد»* فإنها ستستغلق عليهم شأنها شأن أعمال بوشكين وغوغول بالضبط. وهكذا فإن جميع موهوبينا الكبار مُقدَّر عليهم، كما يخيل إلي، أن يظلوا مدة ربما ستطول، غير مفهومين البتة لدى الأوربيين، بل يمكنني القول إنه كلما كانت الموهبة أكبر وأكثر فرادة كانت أكثر استعصاء على الفهم هناك؛ في حين أننا نفهم ديكنز باللغة الروسية، وأنا واثق من هذا، كما يفهمه الإنكليز تقريباً، وربما نفهمه بكل دقائقه، ولعل حبنا له لا يقل عن حب أبناء وطنه له، وانظروا، في الوقت نفسه، كم هو أنموذجي وذو فرادة وخصوصية قومية! ماذا نستنتج من هذا؟ هل هذا الفهم للقوميات الأخرى هو موهبة خُصَّ بها الروس دون الأوربيين؟ ربما كانت هذه الموهبة الخاصة موجودة فعلاً، وإذا كانت موجودة (شأنها شأن موهبة الكلام بلغات أجنبية، وهي لدينا أقوى، بالفعل، مما لدى سائر الأوربيين) فإن هذه الموهبة ذات أهمية فائقة، وهي تَعِد بالكثير في المستقبل، وتُقِّدر على الروس فعل الكثير؛ مع أنني لا أعرف: هل امتلاك هذه الموهبة خير كله، أم أن في ذلك شيئاً ما سيئاً أيضاً...

سيقول كثيرون: إن الأصح هو أن الأوربيين قليلو المعرفة بروسيا والحياة الروسية لأنهم حتى الآن ليسوا محتاجين إلى معرفتها معرفة جد دقيقة. صحيح أن أوربا ليست لها حتى الآن أية حاجة خاصة إلى معرفتنا معرفة جد دقيقة، ولكن مع ذلك ليس ثمة شك، كما يبدو، في أن الأوربي، أياً كانت قوميته، من الأسهل عليه دائماً أن يتقن أية لغة أوربية أخرى وينفذ إلى نفسية أية قومية أوربية أخرى من أن يتعلم اللغة الروسية ويفهم حقيقتنا الروسية؛ وحتى الأوربيون الذين درسونا عن قصد لغايات ما (وقد وُجد أمثال هؤلاء) وبذلوا في سبيل ذلك جهداً كبيراً، فمع أنهم عرفوا أشياء كثيرة، إلا أنهم، من غير شك، غادرونا من دون أن يفهموا تمام الفهم بعض الحقائق، بل يمكن القول إنهم سيظلون وقتاً طويلاً لا يفهمونها؛ على الأقل في حياة الأجيال المعاصرة والقادمة القريبة. وكل هذا يشير إلى إنزوائنا المؤسف الذي ربما سيستمر طويلاً في نطاق أسرة الشعوب الأوربية؛ كما يشير إلى أخطاء الأوربيين التي ستستمر طويلاً في أحكامهم على روسيا، وإلى ميلهم الظاهر نحو الحكم علينا بالأسوأ، وربما يفسر أيضاً تلك الكراهية الدائمة الشاملة القائمة على شعور ما قويٍ ومباشرٍ ودنيء بالعداء تكنه أوربا لنا، وذاك الاشمئزاز منا كما من ظاهرة ما كريهة، ويفسر جزئياً ذاك الخوف الخرافي الغامض

(*) أقاصيص ووصفيات لتورغينف مغرقة في خصوصيتها المحلية. (م).

الذي تحسه تجاهنا، وحكمها القديم الأبدي المعروف الذي أصدرته علينا بأننا لسنا أوربيين على الإطلاق... ونحن بالطبع نستاء من هذا ونندفع بكل قوانا لنبرهن بعناد أننا أوربيون...

أنا طبعاً، لا أقول إنهم في أوربا لا يفهمون رسامي المناظر الطبيعية عندنا، على سبيل المثال: فمناظر القرم والقفقاس، بل حتى مناظر سهوبنا ستثير فضولهم هناك من دون شك، ولكن بالمقابل أظن أن المنظر الطبيعي الروسي الذي تغلب عليه السمة القومية، أي المنظر الذي يصور المنطقة الشمالية والوسطى من روسيا الأوربية لن يُحدِث هو الآخر أثراً كبيراً في فيينا. بيد أن «هذه الطبيعة الشحيحة»[21] التي تتجلى كل طابعيتها في غياب الطابعية، إذا جاز القول، نشعر نحن أنها محببة إلينا وعزيزة عندنا. ولكن ماذا يهم الألمان من مشاعرنا؟ هاكم، على سبيل المثال تَيْنِ البتولَتَيْن في لوحة السيد كوئيندجي[22] «إطلالة على بلعام»*.

في مقدمة اللوحة مستنقع ونباتات مستنقعية، وفي العمق غابة، ومن هناك تطل سحابة ليست بسحابة، بل عتمة ورطوبة، وكأن تلك الرطوبة تتغلغل في كل شيء وتنفذ إليكم حتى تكادوا تحسون بها؛ وفي الوسط، بين الغابة وبينكم، بتولتان بيضاوان زاهيتان، صلبتان، تشكلان أقوى نقطة في اللوحة. فما الشيء المتميز هنا؟ ما الشيء الطابعي؟ ومع ذلك ما أروع هذا!...

ربما أكون على خطأ، ولكنني أعتقد أن هذا لن يعجب الألماني كثيراً.

أما الجنس التاريخي فليس هناك ما يقال عنه؛ فنحن منذ زمن بعيد لا نتألق في الجنس التاريخي الصرف، وعلى هذا فإننا لن ندهش أوربا؛ وحتى في تصوير المعارك لن نثير الدهشة كثيراً، وحتى لوحة نزوح الشركس (اللوحة الضخمة المبرقشة التي ربما كانت تتسم بمزايا كبيرة - لا أستطيع أن أحكم) لن تُحدث حسب رأيي، انطباعاً قوياً جداً في الخارج. لكن خذوا الصنف الذي يصور مشاهد من حياتنا المعيشية، ما الذي سيفهمون منه؟ مع أنه لا يزال يسيطر عندنا من دون منازع تقريباً منذ سنوات عديدة. وإذا كان لدينا ما يمكن أن نفخر به وأن نريه للآخرين، فهو بالطبع سيكون من هذا الصنف. لنأخذ على سبيل المثال لوحة ماكوفسكي[23] الصغيرة: «محبو شدو البلابل» كما أظن. لا أدري ما هو اسمها. انظروا إليها: غرفة صغيرة لشخص برجوازي صغير أو لعسكري متقاعد يتاجر بالطيور المغردة، ويقتنصها أيضاً كما يبدو. يظهر في اللوحة بضعة أقفاص، ومقاعد صغيرة، وطاولة عليها سماور، وخلف السماور يجلس ضيفان، وهما من التجار أو من أصحاب الدكاكين من

(*) بلعام: اسم جزيرة في بحيرة «لادوجسكويه» التي ينبع منها نهر «نيفا» وتقع في الشمال الغربي من روسيا. (م).

محبي تغريد البلابل. وثمة بلبل في قفص معلق عند النافذة، وهو يغرد، كما يبدو، بصوت متصل حيناً ومتقطع حيناً، والزائران يصغيان. كلاهما، كما هو ظاهر، شخصان جدّيان من أصحاب الحوانيت المتمرّسين بصفقات البيع والشراء وجني الأرباح. وهما كهلان وربما سيئا السلوك في حياتهما المنزلية (لقد أصبح من المتعارف عليه أن تكون «مملكة الظلام»[24] هذه كلها مؤلفة من أشخاص سيئي السلوك حتماً، ولا بد من أن يتصرف هؤلاء تصرفاً سيئاً في حياتهم المنزلية) في حين أنهما مسترخيان، كما يظهر، بتلذذ جد بريء، يكاد يكون مؤثراً. يجري هنا شيء ما مؤثّر حتى الغباء. فالجالس قرب النافذة أحنى رأسه قليلاً ورفع يده بعض الشيء، وأبقاها هكذا، وراح يصغي وهو يذوب تأثّراً، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تنم عن الغبطة؛ إنه يصغي إلى نهاية تغريدة متموجة... ويهفو إلى التقاط شيء ما، ويخشى أن يفلت منه أي شيء. أما الآخر فيجلس إلى الطاولة ليحتسي الشاي مولياً إيانا ظهره تقريباً، ولكننا نعرف أنه «يعاني» بقدر لا يقل عن «معاناة» زميله. وأمامهما يقف المالك، داعياً إياهما إلى السماع، وبالطبع إلى شراء البلبل. إنه رجل نحيل طويل القامة، يربو عمره على الأربعين، يرتدي بزة منزلية ليس لها طابع رسمي (وأي لزوم للرسميات هنا الآن)؛ إنه يقول للتاجرَين شيئاً ما، ونشعر بأنه يتكلم بلهجة مسيطرة. إنه أمام هذين التاجرَين شخصية تافهة طبعاً من حيث وضعه الاجتماعي، أي من حيث محفظة نقوده، ولكنه الآن يملك بلبلاً، وبلبلاً جيداً ولذا فهو ينظر بافتخار (وكأنه هو الذي يغرد) ويخاطب التاجرين على نحو ينم على الوقاحة والصرامة (وكأنه يقول: هذا لا يجوز). ومن الطريف أن التاجرين يفكران حتماً وهما جالسان هنا في أن هذا هو ما يجب أن يكون، أي في أنه لابد من أن يخاطبهما ببعض الغلظة، لأن «البلبل الذي لديه ممتاز جداً!» سينتهي شرب الشاي وتبدأ المساومة... وأتساءل هنا: ما الذي سيفهمه الألماني من هذه اللوحة (...). ربما سيوجد من يشرح له حقيقة الأمر، فيعرف أن التاجر الروسي المتوسط الحال يستهويه شيئان: الخيل والبلابل، ولذا فإن ما تصوره اللوحة مضحك جداً؛ ولكن ما الجدوى من ذلك؟ فهذه المعرفة ذات طابع مجرد، وسيصعب جداً على الألماني أن يتصور لِمَ الأمر مضحك إلى هذا الحد. أما نحن فإننا ننظر إلى اللوحة ونبتسم؛ ونتذكرها فيما بعد ونشعر لسبب ما بارتياح ورغبة في الضحك. وفي الحقيقة، وليضحك الآخرون مني، إنني أرى في أمثال هذه اللوحات الصغيرة ما يمكن أن أعده حباً للإنسانية، لا للإنسانية الروسية على وجه الخصوص، بل حتى للإنسانية بأسرها على وجه العموم. وأنا قد تحدثت عن هذه اللوحة من باب ضرب المثل لا أكثر، ولكن ما يدعو للأسف أكثر من أي شيء آخر هو أننا إذا شاهدنا نحن لدى الألمان لوحة كهذه تصور مشهداً مأخوذاً من حياتهم المعيشية سنفهمه تماماً كما يفهمونه هم، بل سنعجب به مثلهم

وبمشاعرهم الألمانية نفسها تقريباً، أما هم فإنهم لن يفهموا البتة أي شيء مما يوجد عندنا. وعلى كل ربما كان في هذا أفضلية لنا بمعنىً ما.

وهاكم لوحة تصور أشخاصاً يلعبون بالورق في حجرة سفينة استونية أو ليفلاندية*. هذه مفهومة، طبعاً، وبخاصة شخص الصبي الذي يشارك في اللعب؛ فالجميع يلعبون بالورق ويقرؤون به الطالع، وعلى هذا فإن «العشرة البستوني» (كما تسمى إحدى اللوحات) ستكون مفهومة تماماً؛ لكن لا أظن أنهم سيفهمون لوحة «بيروف»[25] «الصيادون» على سبيل المثال. وقد اخترت عن قصد إحدى اللوحات الأكثر قابلية للفهم في هذا الصنف الفني الذي يصور حياتنا القومية. وهي لوحة يعرفها الجميع منذ مدة طويلة وعنوانها: «صيادون في استراحة»؛ أحدهم يكذب بحماسة وعلى نحو مكشوف، وآخر يصغي إليه بكل حواسه مصدقاً ما يقول، والثالث لا يصدق مما يقوله شيئاً وقد اضطجع نصف اضطجاعة وراح يضحك... ما أظرف كل هذا! وطبعاً بالشرح سيفهم الألمان كل هذا، ولكنهم لن يفهموا مثلنا أن هذا كذّاب روسي، وأنه يكذب على الطريقة الروسية. فنحن نكاد نسمع ونعرف عمّ هو يتحدث. نعرف كل الأساليب التي يستخدمها في الكذب، والعبارات التي يستعملها، والمشاعر التي تعتريه. وأنا واثق بأن السيد بيروف لو رسم صيادين فرنسيين أو ألماناً (على نحو آخر طبعاً وبوجوه أخرى، وهو على الأرجح يستطيع ذلك) لكنا نحن الروس سنفهم الكذب الألماني والفرنسي بكل دقائقه، وبكل مميزاته القومية، وبأسلوبه والموضوع الذي يدور حوله، ولكُنّا خَمَّنا كل ذلك بالنظر إلى اللوحة فقط. أما الألماني فإنه مهما بذل من جهد لن يفهم كذبنا الروسي، وليس في هذا خسارة كبيرة له بالطبع؛ وربما كان فيه أفضلية لنا كما قلت؛ ولكن الآخر بالمقابل لن يفهم اللوحة فهماً تاماً، ومن ثم فهو لن يقوّمها كما يجب؛ وهذا أمر مؤسف، فنحن نذهب إلى هناك من أجل أن يمتدحونا.

لا أدري كيف سينظرون في ڤيينا إلى لوحة ماكوفسكي «المرتِّلون». إنها حسب رأيي، ليست لوحة تصور مشهداً من الحياة المعيشية، بل لوحة تاريخية. أنا أمزح طبعاً، ولكن تأملوا جيداً: ليس ثمة سوى المنشدين؛ جوقة رسمية من نوع خاص ترتل الأناشيد في القدّاس. الجوقة كلها تتألف من سادة يرتدون الزي الرسمي وقد بالغوا في حلق أذقانهم حتى غدت شديدة الملاسة. أنعموا النظر، على سبيل المثال، إلى هذا السيد ذي الفَوْدَيْن الضخمين؛ من الواضح أنه قد أُلبس بدلاً من بزته، هذه البزةَ التي لا تليق به البتة، وأنه لا يرتديها إلّا لأن المهمة تقتضي ذلك. وفي الحقيقة فإن جميع المنشدين لا يرتدون هذه البزات إلّا لأداء هذه المهمة،

(*) ليفلانديا: التسمية الرسمية لشمالي لاتفيا وجنوبي استونيا في الحقبة الممتدة من القرن السابع عشر حتى بداية القرن العشرين. (م).

وقد جرت العادة بهذا منذ القديم، منذ عهد الأسلاف التقليدي، ولكن التزيّي بهذا الزي هنا يلفت إليه الأنظار على نحو خاص. لقد اعتدتم ألّا تروا مثل هذا الموظف الحسن الهيئة إلّا وهو مرتدٍ الحلة الرسمية وجالس في المديرية؛ إنه شخص من الطبقة الوسطى، متواضع ورزين، وقد قص شعره وصففه على نحو لائق وجلس هنا ينشد ما يشبه النشيد المعروف «مُهان!» ولكن حتى «مُهان» يتحول وأنت تنظر إليه إلى شيء ما رسمي. ولا شيء أدعى إلى الضحك من الافتراض أن هذا الشخص الحسن الطوية والذي اطمأنت نفسه بالصلاة يمكن أن يشعر بأنه «مُهان»! وإذا أنتم حولتم نظركم عنهم وأصغيتم إليهم فقط ستجدون أنه سينتج عن ذلك أمر ما بديع! كما أنكم إذا نظرتم إلى هؤلاء الشخوص سيخيّل إليكم أن إنشاد المزمور هنا مجرد أمر شكلي... وأن هنا شيئاً ما آخر تماماً...

إنني أخاف جداً من «الاتجاه»* إذا ما استحوذ على الفنان الشاب، وخصوصاً في بداية نشاطه الإبداعي. وما الذي تظنونني أخافه بالذات في هذا: ما أخافه بالذات هو التقصير عن بلوغ الغاية التي يسعى إليها «الاتجاه» نفسه. لقد قرأت مؤخراً ما كتبه ناقد عزيز لا أرغب الآن في ذكر اسمه. تُرى هل يصدّق هذا الناقد أن أي عمل فني يبدعه صاحبه من دون «اتجاه» مسبق، بل انطلاقاً من حاجة فنية حصراً، حتى إذا كان يدور حول موضوع آخر تماماً، وخالٍ من أي شيء «اتجاهيّ»، هل يصدق أن عملاً كهذا سيكون أكثر فائدة بكثير لغاياته هو بالذات من جميع الأغنيات عن القميص على سبيل المثال (لا أقصد هنا هود[26] بل كتّابنا نحن)، على الرغم من كون العمل يشبه من الخارج ما يسمونه «إشباع الفضول الفارغ»؟ وإذا كان هذا الأمر لم يستوعبه بعد، كما يبدو، حتى الأشخاص المتفقهون، فما الذي يمكن أن يحدث أحياناً إذاً في قلوب وعقول كتابنا وفنانينا الشباب؟ أية غُسالة من المفاهيم والمشاعر المسبقة ستملؤها؟ إن الشاعر الشاب، لكي يساير ويرضي الضغط الاجتماعي، يكبت في داخله الحاجة الطبيعية إلى أن يسكب نفسه في صور من إبداعه الذاتي، يخاف أن يدينوه «لفضوله الفارغ»، يكبت ويمحو الصور التي تندفع تلقائياً من روحه، يتركها بدون تطوير وعناية، ويعتصر من نفسه بتشنج سقيم موضوعاً يرضي به الرأي العام الاجتماعي الليبرالي الرسمي. يالها من خطيئة شديدة البساطة والسذاجة، ويالها من خطيئة فادحة! إن من أفدح الأخطاء وأكثرها فظاظة أن ننظر إلى فضح الرذيلة (أو ما تواضع الليبراليون على اعتباره رذيلة)، وإلى التحريض على البغضاء والانتقام على أنهما الطريقة الوحيدة والمتاحة لبلوغ الهدف! وعلى كل فإن الموهبة القوية يمكنها أن تتفتح حتى وهي على هذه الطريق الضيقة، ويمكنها أن تتجنب الذبول في

(*) «الاتجاه» هنا ترد بمعنى «الالتزام باتجاه إيديولوجي معين» ويقصد به دوستويفسكي «الاتجاه الليبرالي». (م).

بداية دربِ الإبداع، ويجدر بنا أن نتذكر دائماً تلك القاعدة الذهبية التي تقول: إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب. ثمة مواهب ذات شأن كبير جداً، كانت تعد بالكثير، ولكن «الاتجاه» أطّرها وضيق عليها بشدة إلى أن ألبسها زياً رسمياً ذا «تفصيلة مسبقة». لقد قرأت قَصيدتَيْ نكراسوف الأخيرتين[27]، وأرى أن شاعرنا المحترم يرتدي الآن زياً رسمياً لا تخطئه العين، مع أن هذا لا يمنع من أن تحتوي هاتان القصيدتان على بعض المحاسن، وتشفّان عن موهبة السيد نكراسوف السابقة، ولكن ما الفائدة: الموضوع رسمي، والتناول رسمي، والرسمية المسبقة تسم الفكرةَ، وأسلوبَ التعبير، ووصفَ الواقع... نعم، حتى وصف الواقع نفسه يتسم بالرسمية المسبقة. فهل يعرف شاعرنا الموقّر أنه لا يوجد، على سبيل المثال، مثل تلك المرأة التي تجشمتْ كل ذاك العناء وقطعتْ ستة آلاف فرسخ* في عربة و«خبرتْ مفاتن العربات» و«طارتْ» كما تؤكد أنت من «ذروة ألطاي العالية» (وهذا بالمناسبة، غير ممكن البتة) كي تقابل زوجها التعس العاثر الحظ، ثم بادرت أولاً إلى تقبيل السلاسل التي قُيِّد بها، هل تعلم أيها الشاعر أنه ليس هناك امرأة مهما كانت مفعمة بالمشاعر المواطنية السامية، يمكن أن تفعل ذلك، بل ستبادر حتماً إلى تقبيله هو نفسه أولاً، وبعد ذلك يمكن أن تقبل قيوده إذا ثارت في نفسها فجأة وبقوة حميةُ الشعور المواطني النبيل. وهذا ما ستفعله قطعاً أية امرأة. إن ملاحظتي هذه تافهة، طبعاً، ولم يكن يجدر إيرادها، لأن القصيدة نفسها كتبت أصلاً لمناسبة، فلنقل، على سبيل المثال للتخلص من التزام الأول من كانون الثاني... وعلى كل فإن السيد نكراسوف، رغم كل شيء، اسم أدبي رنان، يكاد يكون مكتملاً، وفي رصيده الإبداعي الكثير من الأشعار الرائعة. إنه شاعر المعاناة، وهو جدير تقريباً بهذا اللقب. أما الشعراء الجدد فإنهم يستحقون الشفقة: فليس كل واحد يمتلك موهبة قوية إلى الحد الذي يجنبه الخضوع للفكرة الرسمية المسبقة في بداية دربه الإبداعي، ويحميه، من ثم من الإصابة بالسل الأدبي والموت. ولكن ما العمل؟ الزي الرسمي المسبق جميل جداً، وبديع التطريز، وبراق... كما أن فوائده كثيرة! أي أنه الآن بالذات مفيد جداً!

ما إن قرأت في الصحف عن لوحة «جارّي المراكب» للسيد ريبين[28] حتى استولى عليّ الشعور بالخوف. فالموضوع بحد ذاته رهيب: إذ غدا بحكم المتعارف عليه عندنا أن يكون «جارّو المراكب» هم الأقدر على تجسيد الفكرة الاجتماعية المعروفة عن الدَّين العصي على الإيفاء الذي للشعب في ذمة الطبقات العليا. وقد أعددت نفسي لرؤيتهم جميعاً في الزي الرسمي المسبق وعلى جبهة كل منهم البطاقة النمطية المعروفة. فما الذي حصل؟ لقد سررت عندما تبين لي أن خوفي لم يكن له داع: فجارّو المركب هم جارّو مراكب حقيقيون، ولا شيء

(*) الفرسخ الروسي يعادل 1.06كم.

أكثر. لا أحد منهم يصرخ من اللوحة في وجه المشاهد: «انظر كم أنا بائس، وإلى أي حد أنت مدين للشعب!» وهذا وحده يمكن أن نعده مأثرة عظيمة للفنان. أمامنا أشخاص رائعون بهيئاتهم المعهودة: العاملان اللذان في المقدمة يضحكان تقريباً، أو على الأقل هما أبعد ما يكونان عن البكاء، ولا يفكران البتة بوضعهما الاجتماعي. والجندي الضئيل يراوغ ويتحايل، يريد أن يحشو غليونه. والصبي يتكلف الجد، ويصيح، إنه مرسوم على نحو مدهش، ولعله أفضل الشخوص في اللوحة، ويعادل بفكرته الفنية آخر العمال الذين يجرون المركب، ذلك الرجل الضئيل المنكس الرأس، الذي يجر قدميه على نحو خاص، والذي لا نرى ملامح وجهه. ومن المستحيل أن نتخيل أن فكرة الديون السياسية - الاقتصادية والاجتماعية التي للشعب في ذمة الطبقات العليا يمكن أن تتسلل في أي وقت من الأوقات إلى هذا الرأس المسكين المنكس لهذا الرجل الضئيل الرازح تحت وطأة هموم سرمدية... والآن... هل تعلم أيها الناقد العزيز أن البساطة الوديعة التي تنطوي عليها فكرة هذا الرجل الضئيل تبلغ الهدف أكثر مما تظن بكثير، وأقصد هنا هدفك «الاتجاهي» الليبرالي بالذات! وثمة مشاهدون ستخلف اللوحة في أنفسهم جرحاً وحباً (وأي حب!) لهذا الرجل الضئيل، أو لذلك الصبي الصغير أو لذلك الجندي المحتال - الدنيء! إذ لا يمكنك ألّا تحب هؤلاء الأشخاص الذين لا يجدون من يحميهم، لا يمكنك أن تغادر اللوحة من دون أن تحبهم. ولا يمكنك ألّا تفكر بأنك مدين، حقاً مدين للشعب... فهذه «الفرقة» من جارّي المراكب ستتراءى لك في أحلامك، وستعاودك ذكراها بعد خمس عشرة سنة! ولو لم يكونوا قد رُسموا بكل هذه الواقعية، وبهذه البراءة والبساطة، لما أحدثوا في النفس مثل هذا الانطباع، ولما كوّنوا مثل هذه اللوحة. الآن هذه تقريباً لوحة! أما ياقات «الأزياء الرسمية»* فإنها تظل تثير الاشمئزاز مهما طرزوها بخيوط الذهب! وعلى كل فإن الإكثار من الكلام هنا لا داعي له، وماذا يمكن أن يُقال عن لوحة فنية؛ إن التعبير عن لوحة ما بالكلمات أمر في غاية الصعوبة. ولأقل ببساطة: الشخوص هنا غوغوليون. إنها كلمة كبيرة، ولكنني لا أقصد أن السيد ريبين هو غوغول في مجال فنه. فهذا الصنف الفني الذي يصور الحياة المعيشية لم يرتق عندنا بعد إلى مستوى غوغول وديكنز.

وعلى كل فإننا يمكن أن نلحظ بعض المبالغة لدى السيد ريبين أيضاً: وهي في الملابس بالذات، ولكنها تقتصر على شخصين فقط. فمثل هذه الأسمال لا يمكن أن يكون لها وجود في الواقع. هذا القميص، مثلاً كأنه قد وقع عن غير قصد في الطست الذي يهرمون فيه لحم

(*) يقصد: اللوحات التي ترسم وفق قوالب مسبقة يفرضها «اتجاه» عقائدي جامد. (م).

الكفتة. لا شك في أن جاريّ المراكب لا يشتهرون بحسن هندامهم. والجميع يعرف من أين يأتي هؤلاء الناس: ففي أواخر الشتاء يقتاتون في بيوتهم بلحاء الشجر. هذا على الأقل ما قيل أكثر من مرة؛ ثم يذهبون في الربيع إلى رب العمل لجر المراكب، وبعضهم، على الأقل، يذهب ليحظى بأكل عصيدة السميد فقط، بلا اتفاق على أية شروط أخرى تقريباً. وثمة أمثلة تروى عن موت بعض هؤلاء من الأيام الأولى بسبب انقضاضهم بنهم شديد على العصيدة من شدة الجوع، واختناقهم من «التخمة».

يقولون إن الأطباء عند تشريحهم جثث هؤلاء الأشخاص كانوا لا يجدون في بطونهم سوى عصيدة السميد وقد بلغت حلاقيمهم. من أمثال هؤلاء يكون جارّو المراكب أحياناً، ولكن مع ذلك يظل السكوت من ذهب، ولا سيما أن من يخلع هذا القميص لن يتمكن من ارتدائه ثانية، إذ سيتوه في خروقه وعلى كل فإن هذه المبالغة الطفيفة في الملابس تظل هنا تافهة بالقياس إلى مزايا اللوحة واستقلالية فكرتها القصدية.

من المؤسف أنني لا أعرف أي شيء عن السيد ريبين. وبي فضول لأن أعرف هل هو شاب أم لا؟ وكم أتمنى أن يكون شاباً في مقتبل العمر، وأنه لا زال فناناً مبتدئاً. قبل بضعة أسطر سارعت إلى القول متحفظاً: إنه، مع ذلك ليس غوغول. أجل يا سيد ريبين! الوصول إلى غوغول مازال يتطلب الارتقاء إلى علو شاهق جداً. فلا تتباهَ بالنجاح الذي أحرزته عن جدارة. إن هذا الصنف الفني الذي يصوّر مشاهد من حياتنا المعيشية يسير في طريق تبشر بالخير، ولدينا مواهب، ولكن ثمة شيئاً ما ينقص هذا الصنف كي تتباعد أطره وتترامى أطرافه. فديكنز أيضاً يصور الحياة المعيشية الواقعية لا أكثر. ولكن ديكنز أبدع «بكويك»، و«أوليفر تويست»، و«الجد والحفيدة» في رواية «متجر العاديات»، إن هذا الصنف الفني عندنا ما زال بعيداً عن هذه الإنجازات؛ إنه لم يزل واقفاً عند «الصيادين» و«البلابل»، وديكنز عنده الكثير من الصيادين والبلابل ولكنهم لديه في الدرجة الثانية. بل إنني أعتقد، حسبما يمكنني أن أحكم انطلاقاً من بعض القرائن، أن «بكويك» و«الحفيدة» يبدوان، من وجهة نظر صنفنا هذا في الآونة الراهنة التي يعيشها فننّا كيانين مثاليين*، وقد لفت نظري في أثناء أحاديثي مع عدد من أكبر فنانينا أنهم يخافون «المثالي» كما لو أنه شيء ما شيطاني. إنه خوف نبيل بلا شك، ولكنه صادر عن اعتقاد باطل وغير محق. فنانونا بحاجة إلى مزيد من الجرأة، ومزيد من الاستقلالية في التفكير وربما مزيد من الثقافة. ولذلك، كما أعتقد، يتعثر عندنا الجنس التاريخي الذي أصابه نوع من الخمود، حتى ليبدو أن رسامينا المعاصرين يخافون الجنس التاريخي في الفن

(*) أي غير واقعيين، بل مُتخيَّلان، مُوَمْثلان. (م).

التشكيلي، وانكبوا على الصنف المعيشي وكأنه المجال المشروع والحقيقي الوحيد لتجلي أية موهبة. ويخيل لي أن الفنان يكاد يحس مسبقاً بأنه (حسب مفهومه) سيضطر حتماً إلى «الأَمْثَلَة» في الجنس التاريخي، أي إلى الكذب. إنهم يقولون «يجب تصوير الواقع كما هو، في حين أن مثل هذا الواقع لا وجود له البتة، ولم يكن له وجود علىِ الأرض في أي وقت من الأوقات، لأن ماهية الأشياء غير متاحة للإنسان، وهو يدرك الطبيعة كما تنعكس في فكره مارة عبر حواسه؛ وعلى هذا ينبغي إفساح مجال أرحب للفكرة، وعدم الخوف من المثالي. رسام الوجوه، على سبيل المثال، يُجلِس «موضوعه» ليرسمه، ويشرع يدرسه ويتفرس فيه. لِمَ هو يفعل ذلك؟ لأنه يعرف بالممارسة أن الإنسان لا يشبه ذاته في كل الأوقات ولذا فهو يبحث عن «الفكرة الرئيسة لسحنته»، عن تلك اللحظة التي يكون فيها الشخص أشبه ما يكون بذاته. وموهبة رسام الوجوه إنما تقوم في القدرة على العثور على هذه اللحظة والإمساك بها. وعلى هذا فما الذي يفعله الفنان هنا سوى أنه وثق بفكرته (بِمَثَله) أكثر مما يثق بالواقع القائم أمامه؟ فالمَثَل واقع أيضاً، وله مشروعية الواقع القائم ذاتها. ولكن كثيرين عندنا كأنهم لا يعرفون هذا. لنأخذ على سبيل المثال لوحة برونّيكوف[29] «نشيد الفيثاغورثيين». بعض الفنانين الذين رسموا مشاهد معيشية من الواقع (وحتى أعظمهم موهبة) ربما تملكهم العجب من إقدام فنان معاصر على تناول مثل هذه الموضوعات؛ في حين أن مثل هذه الموضوعات (الفانتازية تقريباً) هي موضوعات واقعية وضرورية للفن والإنسان كما هو الواقع القائم.

ما هو صنف المشاهد المعيشية في جوهره؟ إنه فن تصوير الواقع القائم المعاصر الذي عاشه الفنان بإحساسه شخصياً ورآه بعينيه، خلافاً للواقع التاريخي، على سبيل المثال، الذي لا يمكن للفنان أن يراه بعينيه، والذي لا يمكن رسمه بشكله الجاري بل بشكله الناجز. (ألفت النظر هنا* إلى أننا نقول: «رآه بعينيه»، ولكن ديكنز لم ير «بكويك» بعينيه قط، بل لمحه في تنويعات الواقع الذي يرصده، ثم ابتدع شخصاً وقدمه كنتيجة لملاحظاته. وعلى هذا فإن الشخص المذكور واقعي تماماً، كما لو كان موجوداً بالفعل، مع أن ديكنز لم يأخذ سوى مَثَل الواقع)؛ في حين أنهم عندنا بالذات يخلطون بين مفاهيم مختلفة عن الواقع.

فالواقع التاريخي في الفن، مثلاً، يختلف طبعاً عن الواقع القائم (صنف الحياة المعيشية) بأنه واقع تام ناجز، وليس واقعاً جارياً. أسألوا أيَّ عالم نفسٍ وهو سيشرح لكم أنكم إذا تخيلتم أية واقعة ماضية، وخصوصاً إذا كانت من الماضي البعيد، أي واقعة تاريخية ناجزة (علماً بأن المرء ما دام يعيش لا يمكنه ألّا يتخيل الماضي) فإن هذه الواقعة ستمثل في مخيلتكم بشكلها

(*) باللاتينية في الأصل: «nota bene» = (لاحظ جيداً) (ملاحظة هامة). (ن).

التام الناجز حتماً أي مع إضافة كل التطور الذي تبعها والذي لم يكن قد حصل في تلك اللحظة التاريخية التي يحاول الفنان أن يتخيل فيها الوجه أو الواقعة. ولذا فإن جوهر الواقعة التاريخية يقدمه الفنان بحيث تَمْثُل الواقعة مطابقة بكل حذافيرها لما يمكن أن يكون قد حدث فعلاً في الواقع. وهكذا يستولي على الفنان خوف خرافي غامض من أنه ربما سيضطر من غير إرادة منه إلى «الأمْثَلَة»، مما يعني، حسب مفاهيمه، الكذب. ولكي يتفادى ارتكاب هذا الخطأ المزعوم يفتعل (وقد حدث هذا فعلاً) خلطَ الواقعين: التاريخي والجاري، فينشأ عن هذا الخليط غير الطبيعي كذب ولا أفحش. إن هذه الخطيئة القاتلة، كما أرى، تُلحظ في بعض لوحات السيد غي[30]. فلوحته «العشاء السري»* على سبيل المثال، التي أثارت يوماً ما ضجة كبرى، تبدو لوحة من الصنف الواقعي المعيشي البحت. تأملوها بمزيد من الانتباه: إنها مشادة عادية بين أشخاص جد عاديين. هاهو المسيح جالس؛ ولكن هل هذا هو المسيح؟ ربما كان هذا شاباً في غاية الطيبة، وفي غاية التكدر لنزاعه مع يهوذا الذي يرتدي في تلك اللحظة ملابسه ليذهب ويشي، ولكنه ليس ذاك المسيح الذي نعرفه. لقد اندفع الأصدقاء نحو المعلم ليواسوه؛ وهنا لا بد من التساؤل: أين القرون الثمانية عشر من المسيحية التي تلت ذلك، وما شأنها بهذا الذي نراه؟ وكيف يمكن أن تنشأ من هذه المشادة العادية بين هؤلاء الأشخاص العاديين، كما يبدون لدى السيد غي، الذين اجتمعوا لتناول العشاء، مثلُ تلك الأحداث العظمى؟

هنا لانجد تفسيراً لأي شيء، لا نجد الصدق التاريخي، بل لا نجد حتى صدق المشهد المعيشي، فكل شيء هنا زائف.

وأياً كانت وجهة النظر التي ستحكمون منها فإنكم ستجدون أن هذه الواقعة لا يمكن أنت تكون قد حدثت كما تبدو هنا: فكل شيء هنا يجري على نحو لا يتفق مع المستقبل ولا يتناسب معه. تيتيان[31] كان، على الأقل، سيضفي على هذا المُعلِّم ملامح الوجه التي أضفاها عليه في لوحته الشهيرة «ما لقيصر لقيصر»؛ وعندئذ كانت أمور كثيرة ستغدو مفهومة على الفور. أما في لوحة السيد «غي» فإننا لا نرى أكثر من أشخاص طيبين يتشاحنون؛ والنتيجة زيف وفكرة مسبقة، وكل زيف هو كذب وليس واقعية على الإطلاق. وقد كان السيد «غي» ينشد الواقعية.

ولكنني نسيت المعرض. وعلى كل... أي كاتب ريبورتاجات أنا! كل ما كنت أريده هو إبداء بعض ملاحظات «بصدده». ومع ذلك فإن رئاسة التحرير تعد بنشر تقرير مفصل عن لوحات فنانينا التي سيرسلونها إلى معرض ڤيينا.

(*) «العشاء السري»: (العشاء الأخير) الذي تناوله السيدالمسيح مع تلاميذه عشية الجمعة العظيمة. (م).

أو ربما ستفعل أفضل من ذلك، وهو أن تسعى للحديث عنها من المعرض ذاته، مع تقرير عن الانطباع الذي ستحدثه بدورها في نفوس الأجانب المجتمعين هناك.

أحلام وأوهام

في العدد الماضي من صحيفة «المواطن» عدنا مرة أخرى إلى الحديث عن السُّكْر، أو، بالأحرى عن إمكانية الشفاء من آفة الإدمان الشعبي العام على معاقرة الخمر، وعن آمالنا وإيماننا بحلول مستقبل أفضل قريباً. ولكن الحزن والشك ينتابان القلب بدون إرادة منا منذ وقت طويل. ومن البدهي أن الأعمال الحالية المهمة (وعندنا كل الناس يظهرون بمظهر الأشخاص العمليين المهمين) لا تدع لنا وقتاً للتفكير، بل تجعل من الغباء أن نفكر فيما سيحدث بعد عشر سنوات أو في أواخر القرن، أي عندما نكون قد غادرنا هذا العالم. إن شعار الإنسان العملي الحالي في زمننا هو:

après moi le déluge* ولكن الناس الفارغين من الأشغال، غير العمليين، والذين ليسوا من أصحاب المشاريع لهم العذر حقاً، في أن يحلموا أحياناً بما سيأتي، هذا إذا كانت لديهم الرغبة في الحلم. لقد كان بوبريشين («مذكرات مجنون» (غوغول)) يحلم بالشؤون الإسبانية، وقد كتب منذ أربعين عاماً: «... كل هذه الأحداث قتلتني وروعتني، بحيث أنني...» إلخ... وأعترف أن أموراً كثيرة تروعني أحياناً، حتى أنني، في الحقيقة، قد أصبت بالكآبة من أحلامي. لقد حلمت منذ أيام، على سبيل المثال، بوضع روسيا كدولة أوربية عظمى، ولم يبق شيء لم يخطر في بالي حول هذا الموضوع المحزن!

فلننظر في مسألة حاجتنا إلى أن نصبح، بأي ثمن وبأسرع وقت ممكن، دولة أوربية عظمى. ولنفترض أننا دولة عظمى بالفعل؛ كل ما أريد أن أقوله بهذا الصدد إن هذا يكلفنا غالياً جداً، يكلفنا أكثر بكثير من الدول العظمى الأخرى، وهذا بحد ذاته مؤشر سيئ جداً؛ مما يجعل الأمر يبدو حتى غير طبيعي. ولكن لا بد لي من أن أسارع إلى القول مستدركاً: إنني لا أحاكم الأمر هنا سوى من وجهة النظر الغربوية[13] حصراً، ومن هذه الوجهة بالذات يبدو

(*) ومن بعدي الطوفان (بالفرنسية). (ن).

لي الأمر هكذا فعلاً. أما وجهة النظر القومية، السلافوية[13] بعض الشيء إذا جاز القول، فهي شيء آخر؛ إنها، كما هو معروف، تتضمن الإيمان بامتلاك الشعب قوىً ما داخلية نابعة من هويته وبوجود مبادئ شعبية ذاتية تماماً وأصيلة، تخص شعبنا بالذات، وتنقذه وتشد أزره. وقد تيقظت عند قراءتي لمقالات السيد بيبين[32]. من البدهي أنني أتمنى وما زلت أرجو كالسابق بكل ما لدي من قوة أن تكون المبادئ القيمة الراسخة المستقلة الخاصة بشعبنا الروسي موجودة بالفعل، ولكن هلاّ وافقتموني أيضاً على التساؤل: أية مبادئ هذه تلك المبادئ التي حتى السيد بيبين لا يراها ولا يسمعها ولا يلاحظها، تلك المبادئ المتوارية، التي اختبأت ولا تريد أن يعثر عليها أحد أبداً؟ ولذا لا يبقى لي أنا أيضاً سوى أن أستغني رغم إرادتي، عن هذه المبادئ التي تبعث العزاء في النفس. وعلى هذا ينتج لدي أننا حتى الآن لا نعدو كوننا مجرد متشبثين على نحو ما بحافة القمة العالية لوضعنا كقوة عظمى، وساعين بكل ما لدينا من قوة إلى جعل جيراننا لا يلاحظون هذا الأمر سريعاً. ويمكن أن يساعدنا على هذا مساعدة جلّى جهل أوربا العام بكل ما يتعلق بروسيا. وهذا الجهل لم يكن موضع شك، حتى الآن على الأقل، وهو أمر لا يستدعي أي شعور بالأسف من جانبنا، بل بالعكس. إذ إننا سنخسر إذا تفرس فينا جيراننا بإمعان وعن قرب. لقد كانت قوتنا العظمى تكمن في أنهم لم يكونوا حتى هذه الآونة يفهمون أي شيء مما نحن عليه. ولكن القضية في أنهم الآن، ويا للأسف، بدؤوا، على ما يبدو، يفهموننا أفضل من ذي قبل؛ وهذا أمر خطر جداً.

إن جارنا الكبير يدرسنا الآن بتيقظ، ويبدو أنه أصبح يرى الكثير بوضوح. دعونا من الدخول في دقائق الأمور، ولنأخذ أكثر الأشياء وضوحاً، الأشياء التي تلفت إليها الأنظار عندنا. لنأخذ أراضينا وحدودنا (التي يقيم فيها غرباء من أقوام أخرى، وأجانب من بلدان أخرى، لا تنفك تشتد وتترسخ أكثر فأكثر وعاماً بعد عام سماتهم الخاصة المميزة لهم كغرباء، وجزئياً سماتهم كأجانب مجاورين)، انظروا إليها وتصوروا: كم من النقاط يتجلى فيها ضعفنا الاستراتيجي؟ وهذا يعني أن الجيوش التي نحتاج إليها (حسب رأيي، وهو رأي مدني على كل حال) كي نحمي كل هذه النقاط يجب أن تكون أكبر بكثير من جيوش جيراننا. وتصوروا مرة أخرى أنهم الآن لا يتحاربون بالسلاح بقدر ما يتحاربون بالعقل، ووافقوا معي على أن هذه الحقيقة ليست في صالحنا البتة.

الآن أصبحت الأسلحة تتغير كل عشر سنوات تقريباً، أو حتى أقل. وربما سيطلقون النار بعد خمس عشر سنة لا بواسطة البنادق بل بما يشبه البرق، أو بتيار كهربائي ما ينطلق من آلة ويحرق كل شيء. قولوا لي ما الذي يمكننا أن نخترعه من هذا القبيل، ونبقيه لدينا لنفاجئ به جيراننا في اللحظة المناسبة؟ وماذا سيحصل إذا ما تبين بعد خمس عشرة سنة أن لدى كل

دولة عظمى مفاجأة من هذا النوع تحتفظ بها في السر كاحتياط لتظهرها في حالة الضرورة؟ ومن المؤسف أننا لسنا قادرين سوى على تقليد الأسلحة وشرائها من الآخرين. وأقصى ما يمكننا عمله هو إصلاحها بأنفسنا. فاختراع هذه الآلات يحتاج إلى علم مستقل قائم بذاته، وليس مشترىً من الآخرين. علم من ابتداعنا وليس مستجلباً؛ علم متأصل وحر. ومثل هذا العلم لا وجود له عندنا بعد؛ بل لا وجود عندنا حتى لعلم مشترىً. انظروا أيضاً إلى خطوطنا الحديدية. تصوروا مساحات أراضينا ومدى فقرنا؛ وازنوا بين رؤوس الأموال عندنا ورؤوس أموال الدول العظمى الأخرى وقدّروا: كم تكلفنا شبكة الخطوط الحديدية الضرورية لنا كدولة عظمى؟ ولاحظوا: إن أمثال هذه الشبكات قد أنشئت عندهم منذ مدة طويلة، ونفذّت بالتدريج، ونحن علينا أن نلحق بهم، وأن نسرع في أثناء ذلك؛ فالمساحات هناك صغيرة، أما عندنا فكلها تستعير أبعادها من المحيط الهادئ. وها نحن منذ الآن نحس إحساساً مؤلماً بمقدار الكلفة التي ترتبت على مجرد البدء بإنشاء شبكتنا، ونشعر بمدى العسر الناجم عمّا تَطلَّبه ذلك من توجيه لرؤوس الأموال باتجاه واحد على حساب زراعتنا البائسة على الأقل، فضلاً عن فروع صناعتنا كافة. والأمر هنا ليس في مقدار المبلغ المالي بقدر ما هو في درجة جهد الأمة. وعلى العموم إذا نحن أردنا أن نحصي حاجاتنا ونعدد نواحي بؤسنا واحدةً واحدةً فلن يكون لذلك نهاية. وخذوا، أخيراً، الثقافة أي العلم، وانظروا كم نحتاج للحاق بالآخرين في هذا المضمار. إن علينا، حسب رأيي البائس، أن ننفق على الثقافة سنوياً في أقل تقدير، بمقدار ما ننفق على الجيش، إذا كنا نريد أن نلحق ولو بإحدى الدول العظمى أياً كانت، علماً بأننا أضعنا الكثير من الوقت، ولا نملك الأموال اللازمة، وأن كل هذا، في نهاية المطاف لن يكون سوى دفعة، وليس عملاً طبيعياً سوياً، سيكون، إذا جاز القول، تحريكاً، وليس تطويراً للثقافة.

كل هذا من عالم أحلامي بالطبع؛ ولكن... أكرر، لا مناص من أن تراودك أحياناً أحلام من هذا القبيل رغماً عنك، ولذا فإنني سأتابع الحلم. ولاحظوا أنني أثمّن كل شيء بالمال؛ فهل هذا حساب صائب يا ترى؟ لا يمكنك بحال من الأحوال أن تشتري كل شيء بالمال، ولا يمكن أن يحاكم الأمور على هذا النحو سوى تاجر ما غير مثقف في إحدى كوميديات السيد أوسترفسكي[19]. بمقدوركم، على سبيل المثال، بناء مدارس بالمال، ولكنكم لن تستطيعوا صنع معلمين الآن. إن تكوين المعلم شأن دقيق: المعلم الوطني الشعبي يتكون عبر العصور، ويستمر بتوارث التقاليد والخبرة التي لا حصر لها. ولكن لنفترض أنكم صنعتم بالمال لا معلمين فحسب، بل حتى علماء في نهاية المطاف؛ ما الفائدة؟ فأنتم على الرغم من كل ذلك، لن تصنعوا إنساناً. وما جدوى أن يكون المرء عالماً إذا كان لا يفقه جوهر القضية؟ إنه سيستوعب، على سبيل المثال، علم التربية، وسيُدَرِّس هذا العلم على نحو ممتاز من فوق

المنبر، ولكنه هو نفسه، مع ذلك، لن يكون مربّياً. الإنسان، الإنسان - هذا هو الأهم. الإنسان أغلى حتى من المال.، ليس ثمة سوق تشتري منها الإنسان، وليس هناك مال يمكن أن تشتريه به، لأن الإنسان لا يباع ولا يُشترى، بل هو يتكوّن عبر العصور كما قلنا. والعصور تحتاج إلى وقت، لنقل إلى خمس وعشرين أو ثلاثين سنة، وذلك حتى عندنا حيث العصور فقدت قيمتها منذ أمد بعيد ولم تعد تساوي شيئاً. إن إنسان الفكرة المستقلة والعلم المستقل، إنسان الفعالية الاقتصادية المستقلة لا يتشكل إلا في سياق حياة مستقلة طويلة تعيشها الأمة معتمدة على نفسها، وكثمرة للعمل الشاق المؤلم الذي تقوم به على مدى عصور؛ إنه باختصار يتشكل كحصيلة لمجمل حياة بلاده التاريخية. والحياة التاريخية عندنا في القرنين الأخيرين لم تكن مستقلة تماماً. ويستحيل تماماً تسريع البرهات التاريخية الضرورية والثابتة في الحياة الشعبية تسريعاً اصطناعياً. وقد عانينا مثل هذا بأنفسنا، ولا تزال آثاره مستمرة عندنا إلى الآن: فمنذ قرنين أردنا أن نسرع ونلحق بالجميع، ولكننا بدلاً من ذلك تسمرنا في مكاننا، وبالرغم من جميع هتافات غَربَويّينا[13] فإننا من غير شك تسمرنا. إن غربَويّنا هم من الأناس الذين يعلنون عبر جميع الأبواق، وبتشفٍ مفرط وحماسة بالغة، أنه لا يوجد لدينا علم، ولا تفكير سليم، ولا جَلَد، ولا مهارة؛ وليس لنا إلا أن نزحف خلف أوربا ونقلدها في كل شيء بخنوع، وأن من الإجرام أن نفكر ولو مجرد تفكير في اعتمادنا على الذات، آملين في الحصول على الوصاية الأوربية. وتراهم غداً إذا لمّحت مجرد تلميح إلى أنك تشك في القوة الشافية المطلقة للانقلاب الذي حدث عندنا منذ قرنين يصيحون على الفور كجوقة واحدة: إن أحلامك عن اعتماد الشعب على ذاته ليست سوى أوهام وأضغاث أحلام، وإننا قد انفصلنا منذ قرنين عن مجموعة البرابرة، وأصبحنا أوربيين نمتلك ثقافة عالية، ونعيش في سعادة غامرة، وعلينا أن نتذكر هذا طوال حياتنا معترفين بالجميل.

ولكن لندع الغربويين ونفترض أن من الممكن تحقيق كل شيء بالمال، وحتى الوقت يمكن شراؤه، وحتى أصالة الحياة يمكن إحياؤها على نحو ما بسرعة فائقة. هنا يبرز سؤال: من أين نأتي بالمال؟ إن ما يقارب نصف ميزانيتنا الحالية نحصل عليه من الفودكا، أي حسب الوضع الحالي، من السُّكر والفسق المتفشيين في أوساط الشعب - أي من مستقبل الشعب برمته. وهذا يعني أننا، إذا جاز التعبير، ندفع مستقبلنا من أجل تشكيل ميزانيتنا الضخمة كدولة أوربية عظمى. إننا نقطع الشجرة من جذرها كي نحصل بأسرع ما يمكن على ثمرها. ومن الذي كان يريد هذا؟ لقد حدث هذا بدون إرادة من أحد، حدث تلقائياً، بحكم سياق الأحداث التاريخي الصارم. فشعبنا الذي تحرر بكلمة عظمى من العاهل، شعبنا الذي لا يملك خبرة العيش في ظروف الحياة الجديدة، والذي لم يعش معتمداً على ذاته من قبل يبدأ أولى خطواته

في طريق جديدة*: انعطاف هائل وغير عادي، ومفاجئ تقريباً، ويكاد يكون منقطع النظير في التاريخ من حيث وحدته الشاملة ومن حيث طابعه. هذه الخطوات الأولى التي خطاها العملاق المتحرر بذاته في الطريق الجديدة كانت تتطلب حذراً شديداً وحيطة فائقة. فما الذي لقيه شعبنا في أثناء قيامه بهذه الخطوات؟ تقلقل فئات المجتمع العليا، واغتراب مثقفينا عنه اغتراباً تأصلت جذوره على مدى عصور (وهذا بالذات هو الأهم)، وفوق هذا وذاك: التفاهة واليهود. أخذ الشعب في البدء يلهو ويسكر من الشعور بالبهجة، وبعد ذلك بحكم العادة. فهل أرَوْه أي شيء أفضل من التوافه؟ هل رفّهوا عنه وعلّموه شيئاً ما؟ في بعض النواحي انتشرت الخمارات الآن لا لمئات السكان، بل للعشرات منهم فقط، ولبضع عشرات لا أكثر. وثمة نواحٍ فيها خمارة لكل خمسين شخصاً من الأهالي، بل حتى لأقلّ من خمسين شخصاً. وقد نشرت مجلة «المواطن» مرة مقالةً خاصةً تتحدث بالتفصيل عن موازنة الخمارة عندنا في الوقت الحاضر. وتَبيّنَ أن من المتعذر الافتراض أن الخمارات يمكن أن تعيش من الاتجار بالخمرة وحدها. فمن أين إذاً تعوض ما ينقصها؟ من الفِسق الشعبي واللصوصية والتستّر على المجرمين، والربا، والسلب، وهدم العائلات، والخزي الشعبي؛ من هذا تعوض النقص!

الأمهات تسكر، والأولاد يسكرون، والكنائس تقفر، والآباء يَسلبون وينهبون. قطعوا يد إيفان سوسانين[33] البرونزية بالمنشار، وأخذوها إلى الخمارة، وفي الخمارة قَبِلوها! يكفي أن تسألوا الخبراء في الطب: أي جيل يمكن أن ينتج من هؤلاء السكيرين؟ فليكن، فليكن، ونرجو الرب أن يكون هذا مجرد حلم في مُخيِّلة متشائم، يضخم المصيبة بمقدار عشرة أضعاف! نصدق ونريد أن نؤمن بهذا، ولكن... إذا كان مَيلُ الشعب إلى السُّكر (هو ميل لا شك فيه بالرغم من كل شيء) لن يتناقص خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة القادمة، بل سيظل متمكناً، وسيشتد أكثر فأكثر، أفلن يكون معنى هذا هو تحقق الحلم بتمامه؟ وها نحن بحاجة إلى ميزانية دولة عظمى، ولذا فإننا بأمس الحاجة إلى المال؛ ونتساءل: من الذي سيدفع هذا المال بعد انقضاء تلك السنوات الخمس عشرة إذا استمر الوضع الحالي كما هو؟ العمل، الصناعة؟ لأن الميزانية السليمة لا تأتي إلا من العمل والصناعة. ولكن أي عمل هذا الذي سينشأ عندنا في حال وجود مثل هذه الخمارات؟ إن رؤوس الأموال الحقيقية السليمة لا تتكون في البلاد إلا إذا كانت قائمة في أساسها على الرفاهية العامة المتأتية عن العمل والسائدة في البلاد ككل (...). لقد أنقذ شعبنا نفسه أكثر من مرة! وهو سيجد في نفسه القوة الواقية التي كان يجدها دائماً، سيجد في نفسه المبادئ التي تصونه وتنقذه، تلك المبادئ التي

(*) إشارة إلى تحرير الفلاحين الأقنان بإلغاء نظام القنانة في شباط 1861. (م).

لا يجدها فيه مثقفونا بحال من الأحوال. هو نفسه لن يريد الخمارة، بل سيريد العمل والنظام، سيريد الشرف، لا الخمارة!...

وكل هذا، كما يبدو، يجد، والحمد لله، ما يؤكده، أو على الأقل ثمة قرائن تدل عليه؛ وكنا قد أتينا سابقاً على ذكر جمعيات «الصحو»؛ إلا أنها، في الحقيقة، لا تزال في بدء نشاطها؛ ومحاولاتها ضعيفة ولا تكاد تُرى. ولكن، ولكن، كل ما نرجوه ألا يعرقلوا توسيع نشاطها مبررين ذلك بذرائع خاصة ما! بل بالعكس ليتهم يدعمون هذا النشاط! وماذا لو تتلقى هذه الجمعيات الدعم من جميع مفكرينا المتقدمين وأدبائنا، واشتراكيينا، ورجال الدين عندنا، ومن جميع أولئك الذين يعلنون في الصحف شهرياً أنهم يرزحون تحت عبء الدَيْن الذي يدينون به للشعب! وماذا لو يدعمها أيضاً معلمو المدارس الناشئون! أعرف أنني إنسان غير عملي (الآن، وبعد المرافعة الشهيرة التي ألقاها مؤخراً السيد سباسوفتش[34] أصبح الاعتراف بهذا يرضي الغرور)، ولكن يتراءى لي

– تصوروا هذا – أن أي معلم مدرسة، مهما كان فقيراً، يمكنه أن يفعل الكثير جداً وبمبادرة منه لا أكثر، شريطة أن تكون لديه إرادة الفعل. فالمهم بالذات هنا هو الشخصية، هو الطبع؛ المهم أن يكون الشخص صاحب قضية وقادراً فعلاً على أن يريد. إن معظم الذين يأتون لتولي مهمة التعليم عندنا من الشبان الذين ربما يرغبون في فعل الخير، ولكنهم لا يعرفون الشعب، وتغلب في طبعهم الريبة وعدم الثقة. وبعد الجهود الأولى التي يبذلها الواحد منهم، وأحياناً بمنتهى العزم والنبل، لا يلبث أن يتعب، ويبدو عليه التجهم، ويبدأ بالنظر إلى وظيفته على أنها مجرد معبر إلى ما هو أفضل، وبعد ذلك إما أن يدمن الشراب أو يتخلى عن كل شيء، ويهرول إلى أي مكان من أجل عشرة روبلات إضافية، يهرول حتى هرولة مجانية، حتى إلى أمريكا «لكي يجرب العمل الحرّ في دولة حرّة».

لقد حدث هذا سابقاً، وهو يحدث الآن كما يقولون. وهناك في أمريكا ينهكه أيُّ متعهد عروضٍ خسيس بعمل يدوي خشن، ويبخسه حقه، بل ويلكمه بقبضتيه، وهو بعد كل لكمة يتلقاها، يهتف بينه وبين نفسه بتأثر: «يا إلهي، كم هي هذه اللكمات نفسها رجعية ولئيمة في وطني، وكم هي هنا، بالعكس نبيلة ولذيذة وليبرالية!». وستظل الأمور تبدو له هكذا مدة طويلة! إذ كيف يمكن أن يغير قناعاته بسبب سفاسف كهذه! ولكن لندعه في أمريكا، ولنتابع الفكرة التي كنت قد بدأتها، ولأذكّر بأن فكرتي هي أن أي معلم مدرسة ريفي، مهما كان صغير الشأن، بوسعه أن يتولى كامل المبادرة، ويكون هو السبّاق إلى تحرير الشعب من الإدمان البربري على السُّكر، شريطة أن يريد هذا فعلاً. ولدي بهذا الصدد موضوع قصة، وربما سأجازف بإطلاع القارئ على هذا الموضوع قبل القصة نفسها...

شيء ما عن الكذب

لِمَ يكذب الجميع عندنا، الجميع بلا استثناء؟ أنا متيقّن بأنهم سيوقفونني على الفور ويصيحون بي: «إيه! هذا هراء؛ ليس الجميع البتة! ليس لديك موضوع للحديث، لذا فأنت تختلق، لكي تكون البداية أكثر إثارة». سبق أن لاموني على غياب الموضوع؛ ولكن القضية في أنني مقتنع فعلاً بشمولية الكذب عندنا. تعيش خمسين سنة مع فكرة ما، تراها وتحسها، وفجأة تمثل أمامك على نحو يجعلك تتخيل أنك لم تعرفها قط قبل الآن. منذ مدة قصيرة لمعت في ذهني فجأة فكرة مؤداها أنه لا يمكن على الإطلاق أن نجد في روسيا في أوساط الفئات المثقفة ولو شخصاً واحداً لا يكذب. والسبب في ذلك أن الناس عندنا، حتى الشرفاء تماماً، يمكن أن يكذبوا. وأنا على يقين بأن الأغلبية العظمى من الأمم الأخرى لا يكذب فيها سوى السفلة؛ وهم يكذبون لتحصيل منفعة عملية، أي لأهداف إجرامية مباشرة. أما عندنا فيمكن أن يكذب، بالمجان تماماً، أكثرُ الناس تمتعاً بالاحترام، ولأهداف محترمة إلى أبعد الحدود. عندنا يكذبون في معظم الحالات من قبيل حسن الضيافة. يرغبون في خلق انطباع جمالي لدى السامع، وفي إشاعة الارتياح في نفسه، ولذا فهم يكذبون؛ حتى إنهم بمعنىً ما، يضحون بأنفسهم من أجل السامع. وليتذكر كل منا: أَلَمْ يتفق له أن زَوَّد نحو عشرين مرة، على سبيل المثال، عدد الفراسخ* التي قطعتها خلال ساعة الخيول التي كانت تجر عربته في وقت ما، إذا كان هذا يقوّي الانطباع المبهج في نفس سامعه؟ أَوَ لَمْ يبتهج سامعه فعلاً إلى درجة أنه أخذ على الفور يؤكد له أن عربة ثلاثية** لأحد معارفه سبقت القطار في رهان... وهلم جراً وهلم جراً...

وهناك الأحاديث عن كلاب الصيد، أو كيف ركبوا لك أسناناً في باريس، أو كيف عالجك هنا بوتكين[35] وشفاك. أو لم ترو مرة عن مرضك الأعاجيب، وعلى الرغم من أنك صدّقت نفسَك، طبعاً في منتصف الحديث (فالمرء يبدأ دائماً بتصديق نفسه في منتصف الحديث)، فإنك عندما تمددت في فراشك ليلاً لتنام، وأخذت تتذكر بسرور كيف استولت على المستمع إليك دهشة مبهجة، توقفت فجأة عن التذكر وتمتمت بدون إرادة منك: «إيه كيف كنت أكذب!». على أية حال، هذا المثال ضعيف، لأنه لا شيء أطيب للمريض من

(*) الفرسخ الروسي = 1.06 كم.

(**) عربة تجرها ثلاثة أحصنة.

أن يتحدث عن مرضه، إذا كان ثمة مستمع؛ وما إن يبدأ الحديث حتى يجد أنه لا بد من أن يكذب؛ فهذا من شأنه حتى أن يداوي المريض. أوَ لَمْ تتحدث بعد عودتك من الخارج عن ألف شيء وشيء مما رأيته «بأم عينك» هناك... ولكن دعني أسحب هذا المثال أيضاً: فالروسي العائد من السفر لا يمكنه إلا أن يتزيد في حديثه «عن الخارج»؛ وإلا لكان سفره إلى هناك لا لزوم له أصلاً. ولكن لنأخذ على سبيل المثال، العلوم الطبيعية! أو لم تتحدث يوماً عن العلوم الطبيعية، أو عن إفلاس يهود مختلفين من بطرسبورغ أو من غيرها، وهربهم إلى الخارج، من غير أن تكون على علم البتة بحقيقة هؤلاء اليهود، ومن غير أن تفقه شيئاً في العلوم الطبيعية؟ واسمح لي أن أسألك: ألم يصدف لك أن رويت نادرة على أنها حدثت معك للشخص نفسه الذي كان قد رواها لك على أنها حدثت معه؟ أيمكن حقاً أن تكون قد نسيتَ كيف تذكرتَ فجأة في منتصف الحديث هذا الأمر، وخمّنت حقيقته، وتأكد لك هذا بوضوح من نظرة المعاناة التي كانت تطل من عيني المستمع إليك، وتتركز عليك بإصرار (ففي مثل هذه الحالات ينظر، لسبب ما، كلٌ من المتحادِثَين في عيني الآخر بإصرار مضاعف عشر مرات)؟ هل تتذكر كيف تابعت برجولة تليق بالهدف العظيم رواية قصتك متلعثماً، على الرغم من كل شيء، وبعد أن فقدت كل روح الفكاهة لديك، وأنهيت قصتك بسرعة، تبادلتما مجاملات عصبية متعجلة وأنتما تتصافحان وتبتسمان، وافترقتما، وذهب كل منكما في اتجاه على عجل، بحيث إنك عندما خطر لك فجأة أن تصيح من غير أي داع وفي غمرة التشنجات الأخيرة سائلاً محادثك الراكض على الدرج عن صحة خالته، لم يلتفت نحوك ولم يرد على سؤالك عن خالته، وقد ظل هذا في ذاكرتك هو اللحظة الأشد إيلاماً في مجمل سياق هذه الحادثة؟ باختصار أقول لك إذا رد عليّ أحد عن كل هذا بـ: لا، أي أنه لم يروِ نوادر لأشخاص كانوا قد رووها له، ولم يتطرق إلى الحديث عن بوتكين، ولم يكذب في حديثه عن اليهود، ولم يصرخ من على الدرج سائلاً عن صحة الخالة، وإن شيئاً من هذا لم يحدث له قط، فإنني ببساطة، لن أصدقه. أنا أعرف أن الكذاب الروسي يكذب في أكثر الأحيان من غير أن يلحظ هذا بالمرة، بحيث إنه ببساطة، يمكن ألا يشعر على الإطلاق بأنه يكذب. فما يحدث فعلاً هو أن الشخص لا يكاد يكذب قليلاً ويوفّق في ذلك، حتى يروق له الأمر فيُدْرِج نادرة مُختلَقَة في عداد وقائع حياته التي لا يرقى إليها الشك، ويفعل ذلك بضمير مستريح تماماً، لأنه هو نفسه يصدق هذا كلياً. ومن غير الطبيعي فعلاً ألا تكون هناك حالات يصدق فيها نفسه.

سيقولون لي ثانية: «إيه، هذا هراء! الكذب مجرد شيء بريء، شيء تافه، ليس له أهمية كبيرة». فليكن. أنا نفسي موافق على أن كل هذا بريء جداً، ولا يدل إلا على سمات الطبع

النبيلة، على الشعور بالعرفان مثلاً. لأنهم إذا كانوا قد استمعوا إليك وأنت تكذب، فلابد من أن تدعهم يكذبون، ولو من باب رد الجميل على الأقل.

إن المجاملة المتبادلة في الكذب هي تقريباً الشرط الأول المتواضَع عليه في المجتمع الروسي: في كل اجتماعاتنا، وأمسياتنا ومنتدياتنا وجمعياتنا العلمية إلخ... وبالفعل، لا أحد، سوى أحمق صادق، ينبري في مثل هذه الحالات للدفاع عن الحقيقة، ويبدأ فجأة بإبداء الشك في عدد الفراسخ التي قطعتَها، أو في الأعاجيب التي صنعها لك بوتكين. وأمثال هذا الشخص هم من الناس القساة القلوب، المصابين بالباسور، الذين يعاقَبون على ذلك من دون إبطاء، ثم يتساءلون فيما بعد باستغراب عن سبب ما أصابهم. أناس عديمو الموهبة؛ ومع ذلك فإن كل هذا الكذب، على الرغم من كل براءته، يشير إلى سمات أساسية فائقة الأهمية في شخصيتنا، حتى لتكاد تبدأ بالبروز الأهمية الكبيرة التي يرتديها. فهو يشير، على سبيل المثال، أولاً إلى أننا نحن الروس نخاف الحقيقة قبل أي شيء آخر. ودعنا لا نقل نخافها إذا شئت، بل نقول، إننا نعُدُّ الحقيقة شيئاً ما مملاً ورمادياً جداً في نظرنا، شيئاً ليس فيه ما يكفي من الشاعرية، وعادياً جداً، وقد دأبنا على تجنبها باستمرار، مما أدى بنا إلى أن نجعل منها في النهاية أحد الأشياء الأكثر شذوذاً وندرة في عالمنا الروسي (أنا لا أتحدث عن الجريدة[36]). وهكذا ضاعت عندنا البديهية التي تقول: إن الحقيقة هي أكثر الأشياء شاعرية في العالم كله، ولا سيما عندما تكون في أنقى حالاتها؛ بل أكثر من ذلك هي الشيء الأكثر خيالية، الذي استطاع العقل البشري الحاذق أن يختلقه ويتصوره. والحقيقة في روسيا تتسم دائماً تقريباً بطابع خيالي [فانتازي] تماماً. وبالفعل، لقد جعل الناسُ في النهاية كُلَّ ما يكذِبُه العقلُ البشري ويكرر الكذب به على نفسه مفهوماً لهم أكثر من الحقيقة بكثير، وهذا تجده في العالم كله. تَمثُل الحقيقةُ أمام الناس على المنضدة، ولا يأخذونها، وتراهم يركضون وراء ما هو مُختلق، لا لشيء إلا لأنهم يعدونها هي بالذاتِ خيالية وطوباوية.

والشيء الثاني الذي يشير إليه كذبنا الروسي العام هو أننا جميعاً نخجل بأنفسنا، وبالفعل، يحمل كل منا في داخله خجلاً، يكاد يكون فطرياً، بنفسه وبشخصيته الحقيقية، وما إن يوجد الروسي في مجتمع حتى يجهد على الفور للظهور بأسرع ما يمكن، ومهما كلف الأمر، بمظهر آخر يختلف حتماً عما هو عليه في حقيقة الأمر، وتراه يسارع لاتخاذ شخصية أخرى غير شخصيته.

وكان غيرتسين[9] قد قال في حينه عن الروس في الخارج إنهم لا يحسنون بحال من الأحوال التصرف في المجتمع: فهم يتكلمون بصوت عال عندما يكون الجميع صامتين، ولا يحسنون قول كلمة واحدة على نحو لائق وطبيعي عندما ينبغي الكلام. وهذه حقيقة: فرأساً

تسمع منهم غرائب شاذة، وكذباً وتشنجات مؤلمة؛ ورأساً تبرز لديهم الحاجة إلى الخجل بكل ما هو حقيقي، وإلى إخفاء وستر شخصيتهم التي فطر الرب الإنسان الروسي عليها، وإلى انتحال شخصية أخرى مختلفة كل الاختلاف، وبعيدة بقدر الإمكان عن الشخصية الروسية. وكل هذا نابع من قناعة داخلية تامة بأن الشخصية الحقيقية لكل إنسان روسي هي شخصية تافهة وكوميدية حتى الخجل؛ أما إذا انتحل الروسي لنفسه شخصية فرنسية أو إنكليزية، أي باختصار شخصية أخرى غير شخصيته فإنه سيبدو بمظهر محترم أكثر بكثير، ولن يستطيع الآخرون البتة معرفةَ حقيقتِهِ وهو متستر بهذا المظهر، ولأشر هنا إلى أمر طابعي جداً وهو أن هذا الخجل الكريه بالذات، وكل هذا النفي الوضيع للذات يَحْدُثان في معظم الحالات بدون وعي؛ إنهما ظاهرة تشنجية لا تمكن مقاومتها، ولكن مع ذلك فإن الروس، على مستوى التفكير الواعي، - وحتى أشدهم نفياً للذات - لا يوافقون بسرعة على تفاهتهم في مثل هذه الحالة، ويطالبون حتماً باحترامهم، يقول الروسي في سره: «أنا الآن كالإنكليزي تماماً، وعليهم أن يحترموني أنا أيضاً كما يحترمون جميعاً الإنكليز». إن هذا الأنموذج الرئيس في مجتمعنا قد تكوّن خلال مئتي سنة انطلاقاً من مبدأ لا محيد عنه وُضِعَ منذ مئتي سنة: لا تظهرْ أبداً، ومهما كلف الأمر، بشخصيتك الحقيقية، بل تقمصْ شخصية أخرى، أما شخصيتك فاحتقرها على الدوام، واخجل من إظهارها، ولا تكن على سجيتك في أي وقت من الأوقات؛ وقد جاءت النتائج في الواقع مطابقة تماماً لهذا المبدأ. ليس ثمة ألماني أو فرنسي، وليس في العالم كله إنكليزي واحد يخجل بشخصيته عندما يقابل الآخرين، إذا كان واثقاً كل الثقة بأنه لم يفعل شيئاً سيئاً. والروسي يعرف حق المعرفة أنه لا يوجد مثل هذا الإنكليزي؛ أما الروسي الحسن التربية فيعرف أن عدم خجل المرء بشخصيته حيثما وجد، هو بالذات الركن الرئيس والجوهري لكرامته ولهذا تراه يريد أن يظهر، بأسرع ما يمكن، بمظهر الفرنسي أو الإنكليزي، كيما يعاملوه رأساً على أنه أحد هؤلاء الذين لا يخجلون بشخصيتهم أبداً حيثما وجدوا.

سيقولون لي من جديد: «هذه تصرفات بريئة، يا رجل، وقد قيل لك ذلك ألف مرة». فليكن، وهاكم أمراً أكثر طابعية. هناك شيء تجد أي روسي من الفئة المثقفة متشدداً فيه أيما تشدد عندما يكون في مجتمع أو وسط الجمهور، ولا يمكن أن يتساهل فيه مهما كلف الأمر (ويختلف الوضع عندما يكون في بيته أو مختلياً بنفسه). وهذا الشيء هو الذكاء، ورغبة المرء في أن يظهر أذكى مما هو عليه في الواقع؛ واللافت هنا هو أن هذا لا يعني البتة رغبته في أن يبدو أذكى من الجميع أو حتى من شخص ما أياً كان هذا الشخص، بل كل ما في الأمر هو ألّا يظهر أنه أغبى من أي شخص آخر. «اِشهد لي بأنني لست أغبى من أي شخص، أشهد لك بأنك أنت أيضاً لست أغبى من أي شخص». مرة أخرى نجد أنفسنا أمام ما يشبه العرفان

المتبادل. إن الروسي، كما هو معروف، ينحني بسعادة وتعجُّل أمام أي اسم أوربي له سمعته، على سبيل المثال، حتى من غير أن يسمح لنفسه بالتمحيص، بل إنه في مثل هذه الحالات لا يحبذ التمحيص، ولكن ما إن تهبط الشخصية العبقرية عن عرش سمعتها، بل ما إن تخرج من نطاق الموضة حتى يتغير الوضع: عندئذ يغدو موقف الانتلجينسيا الروسية من هذه الشخصية أكثر المواقف صرامة، ولا يعود ثمة حد لاستعلائها واحتقارها وسخريتها. وترانا ندهش بمنتهى السذاجة فيما بعد إذا عرفنا فجأة بطريقة ما أنهم في أوربا لا يزالون ينظرون باحترام إلى الشخصية التي نزلت عندنا عن عرش الشهرة، ولا يزالون يقدرونها حق قدرها. ولكن بالمقابل نجد أن الشخص الروسي نفسه، مع أنه ينحني، حتى من غير تمحيص، أمام العبقري ما دام هذا في نطاق الموضة، لا يمكن أبداً بحال من الأحوال أن يعترف بأنه أغبى من هذا العبقري الذي كان للتو ينحني أمامه، حتى وإن كان هذا العبقري أوربياً قحاً: «وإن كان ليبيخ[37] وإن كان بسمارك[37] لنفترض هذا... ومع ذلك هنا أنا أيضاً» - هذا ما يتصوره كل روسي حتماً، حتى وإن كان من أكثر الناس قماءة، إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد. لا... ليس ما «يتصوره»، لأن الوعي لا دور له هنا تقريباً، بل لنقل هذا ما «يحس به» على نحو ما تجاه هذا الموضوع، إنه ذاك الشعور الدائم بالكبرياء الذاتية الفارغة والهائمة في العالم بدون أن يكون لها ما يسوغها؛ وباختصار أقول إن الشخص الروسي المنتمي إلى الطبقات العليا لن يكون بمقدوره أبداً وفي أي حال من الأحوال أن يرتقي إلى تلك الدرجة من تجلي الكرامة الإنسانية التي ربما تكون هي الدرجة الأعلى، أعني بها الاعتراف بأنه أغبى من الآخر، عندما يكون هذا الآخر أذكى منه فعلاً؛ ولا أدري هل يمكن أن تكون هناك استثناءات أم لا. وعساهم لا يضحكون كثيراً من «مفارقتي» هذه. إن منافس ليبيخ، الذي ربما لم ينه المدرسة الثانوية، لن يدخل، طبعاً في جدال معه حول الأولوية، عندما يقولون له: إن هذا هو ليبيخ شخصياً، سيصمت، ولكنه مع ذلك سيمتلئ بذاك الإحساس حتى بحضرة ليبيخ... بيد أن الوضع سيكون مختلفاً إذا ما التقى صاحبنا هذا ليبيخ من دون أن يعرف أنه ليبيخ، وليكن ذلك في عربة قطار، على سبيل المثال. فإذا ما دار الحديث في العربة حول الكيمياء، وتسنى لصاحبنا أن يساهم فيه، لن يكون ثمة شك في أنه سينخرط في جدل علمي على أعلى المستويات، وهو لا يعرف من الكيمياء سوى اسمها. وسيُدهِش بهذا ليبيخَ طبعاً، ولكن - من يدري- ربما سيبدو في نظر المستمعين هو المنتصر. لأن تجرؤ الإنسان الروسي على التكلم بلغة العلم لا حدود له. وهنا بالذات تتجلى تلك الظاهرة التي لا توجد إلّا في نفس الروسي المنتمي إلى الفئات المثقفة: فهذه النفس ما إن تشعر بأنها موجودة وسط جمهرة من الناس، حتى يزايلها الشك لا في ذكائها فحسب بل حتى في كونها على أعلى درجة من المعرفة العلمية، وذلك إذا ما وصلت الأمور إلى موضوع

المعرفة العلمية. وإذا كان بالإمكان فهم هذا الأمر، على نحو ما، فيما يتعلق بالذكاء، فإن كل شخص، كما يبدو لنا، يجب أن يعرف بدقة تامة حدود معرفته العلمية.

إن كل هذا، بالطبع، لا يحدث إلا وسط الناس، عندما يكون الشخص محاطاً بأشخاص غرباء. أما في البيت، عندما يخلو الشخص إلى نفسه... ليس ثمة روسي يهتم في بيته، بينه وبين نفسه بدرجة ثقافته وعلمه، بل إنه لا يطرح هذا السؤال على نفسه البتة؛ وإذا ما حدث وطرحه فإنه، على الأرجح، يجيب عنه في البيت أيضاً إجابة تكون في صالحه، على الرغم من كونه يعرف تماماً مدى معارفه العلمية.

وقد صدف لي شخصياً منذ مدة قصيرة أن استمعت وأنا في عربة قطار إلى «أطروحة» كاملة عن اللغات الكلاسيكية استمرت طوال ساعتين. أحد المسافرين كان يتكلم والآخرون يستمعون. ولم يكن أحد من المسافرين يعرف هذا السيد الجسيم الناضج، ذا الهيئة الرَّضِيَّة المهيبة، الذي كان ينطق الكلمات برزانة وتمهل. لقد أثار اهتمام الجميع، واتضح منذ أن نطق بأولى الكلمات أن هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها عن هذا الموضوع... بل ربما هي المرة الأولى التي يفكر فيها به، أي أن حديثه لم يكن سوى ارتجال رائع جاء على البديهة. وقد استنكر استنكاراً قاطعاً التعليم الكلاسيكي وسمّى إدراجه في مناهج التدريس عندنا «حماقة تاريخية قاتلة»، وكانت هذه هي الكلمة الجارحة الوحيدة التي سمح لنفسه بالتلفظ بها. كان أسلوبه في الحديث رفيعاً جداً، مما لم يكن يسمح بأن يحتد لمجرد أنه يحتقر الظاهرة التي يتحدث عنها؛ أما الأسس التي استند إليها فقد كانت بدائية تماماً ولا تليق إلا بتلميذ في الثالثة عشرة من عمره، وتكاد تتطابق مع الأسس التي ما زالت بعض صحفنا المعادية للغات الكلاسيكية تنطلق منها حتى الآن، كالقول، على سبيل المثال، بأنه «لا لزوم للغة اللاتينية لأن جميع المؤلفات اللاتينية قد تُرجمت» وهلم جراً وهلم جراً. وقد أحدث المتكلم في مقطورتنا انطباعاً فائق العمق؛ كثيرون، وخاصة السيدات عبروا له عند الوداع عن شكرهم لما أمتعهم به. وأنا واثق بأنه غادر وهو يُكنُّ لنفسه أشد الاحترام.

إن الأحاديث التي تجري عندنا وسط جمع من الأشخاص (سواء في القطارات أو في الأماكن الأخرى التي يجتمع فيها الناس) قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه في السنوات السابقة القديمة. فالناس الآن يتوقون للاستماع، يتوقون للإصغاء إلى معلمين يتحدثون في مختلف الموضوعات الاجتماعية والمجتمعية. صحيح أن الأحاديث عندنا بين جمع من الناس لا تبدأ إلا بصعوبة كبيرة، ولكنها ما إن تبدأ حتى تتملك المتحادثين حماسةٌ تصل أحياناً إلى درجة من الشدة تكاد تتطلب الإمساك بهم من أيديهم لتهدئتهم. أما الأحاديث التي تتسم بقدر أكبر من التحفظ والرصانة، الأحاديث الأعلى مستوى والأضيق نطاقاً، كما

يقال، فإنها تدور في معظمها حول مسائل البورصة أو الشؤون الحكومية، ولكن من الوجهة السرية، الباطنية، التي تتطلب معرفة الأسرار العليا والأسباب الفعلية التي يجهلها الجمهور العادي. وترى الجمهور العادي هنا يصغي بهدوء واحترام، بينما يتخذ محبو الكلام وضعية المتفوق الظافر. وبالطبع، قلة من هؤلاء من يصدّق ما يقوله الآخرون، ولكنهم يفترقون وهم دائماً تقريباً راضون تماماً بعضهم عن بعض، بل حتى شاكرون إلى حد ما بعضهم بعضاً. إن مسألة السفر بمتعة ومرح في قطاراتنا تقوم في قدرتك على أن تتيح للآخرين فرصة الكذب، وأن تصدق أكبر قدر مما يقال؛ عندئذ يتيحون لك أيضاً أن تكذب على نحو مؤثر إذا ما أغراك الموقف بذلك. إذاً فالقضية هي تبادل منافع. ولكن، كما سبق أن قلتُ، ثمة موضوعات للحديث عامة، ضرورية، ذات أهمية حيوية، يتدخل فيها الجمهور كله، وذلك لا لقضاء الوقت بمتعة فحسب: وأكرر القول بأنهم تواقون للتعلم، لاستيضاح حقيقة الصعوبات العصرية، إنهم يبحثون بتَوْق عن معلمين، ولا سيما النساء، وبخاصة ربات الأسر. ومن اللافت إنه مع كل هذا الظمأ إلى المستشارين والمرشدين الاجتماعيين، هذا الظمأ المثير للاهتمام إلى درجة غير عادية، والمنطوي على دلالات بعيدة المرمى، ومع كل هذا التطلع النبيل نجدهم يرتوون بسهولة فائقة وعلى نحو مفاجئ تماماً أحياناً، إذ إنهم يعانون من ضعف شديد في الإعداد والتسليح، وضعفهم أشد بكثير مما كان يمكن أن يصوره لك خيالك، وهو في أشد درجات سطوعه منذ بضع سنوات، عندما كانت مهمة تكوين رأي دقيق عن مجتمعنا الروسي أصعب منها في وقتنا الحالي الذي تتوافر فيه حقائق ومعلومات أكثر، ويمكننا القول بثقة إن أي متكلم يحسن التصرف بعض الشيء (لا يزال جمهورنا حتى الآن، وأسفاه، يشعر بضعف قائم على أساس خرافي إزاء حسن التصرف، على الرغم من الدروس التنويرية التي ما تنفك تفيض بغزارة متزايدة من الأساخير[2] الصحفية) يمكنه أن يسيطر على مستمعيه ويقنعهم بما يريد، ويحظى بشكرهم، ويغادر وهو يكنّ لنفسه احتراماً عميقاً. ولكنْ ثمة شرط أكيد هنا وهو أن يكون المتكلم ليبرالياً. وهذا أمر بدهي لا يستوجب الذكر. وقد صدف لي في مرة أخرى، منذ مدة قصيرة أيضاً، وفي عربة قطار أيضاً، ان استمعت طوال ساعتين إلى «أطروحة» عن الإلحاد. كان الخطيب ذا سمت يوحي بأنه مهندس ينتمي إلى المجتمع الراقي، ويدل مظهره المتجهم عموماً على أنه مصاب بظمأ مضنٍ إلى مستمعين، وقد بدأ خطبته بالحديث عن الأديرة، بدون أن يكون مطلعاً على أبسط الأمور الأولية المتعلقة بالقضية «الديرية»: كان يعتقد أن وجود الأديرة هو ظاهرة ترتبط ارتباطاً لا ينفصم بأركان الأيمان الأساسية، ويتصور أن الأديرة تعيش على حساب الدولة، وتكلف الخزينة غالياً، ويطالب، باسم الليبرالية، بالقضاء على الرهبان،

بصفتهم قوة استبدادية، ناسياً أنهم جماعة من الأشخاص يشكلون رابطة حرة كأي رابطة أخرى. وأنهى حديثه بالدعوة إلى إلحاد تام لا ضفاف له، قائم على أساس العلوم الطبيعية والرياضيات. وكان يكرر ذكر العلوم الطبيعية والرياضيات بين كل جملة وأخرى من دون أن يورد ولو حقيقة واحدة من هذه العلوم على مدى أطروحته كلها. وكان هو الوحيد الذي يتكلم بينما اكتفى الآخرون بالإصغاء: «سأعَلِّم ابني أن يكون إنسانا شريفاً ولا شيء أكثر من ذلك» قرر في الختام، معبراً عن ثقة تامة وواضحة بأن الأعمال الخيرة، والأخلاق، والشرف هي شيء ما جاهز ومطلق، لا يتعلق بأي شيء آخر، ويمكن أن تجده دائماً في جيبك عند اللزوم، من غير عناء، وشكوك، وحيرة. وقد أحرز هذا السيد نجاحاً غير عادي. وكان بين المستمعين ضباط، وشيوخ، وسيدات، وصِبية بالغون. وقد شكروا له بحرارة عند الافتراق المتعة التي منحهم إياها، بل إن إحدى السيدات، وهي ربة منزل متأنقة في ملبسها وعليها مسحة من الجمال، أعلنت بصوت عال وهي تضحك ضحكة لطيفة متقطعة أنها الآن مقتنعة تماماً بأنه لم يعد في داخلها «سوى بخار لا أكثر». ولا بد أن يكون هذا السيد قد غادر وهو أيضاً مفعم بشعور غامر بالاحترام لذاته.

وهذا الاحترام للذات هو بالذات ما يحيرني. طبعاً ليس ثمة ما يدهش في أنْ يوجد بين الناس أغبياء وثرثارون. إلّا أن هذا السيد، كما هو واضح، ليس غبياً. وهو على الأرجح ليس وغداً ولا محتالاً. بل من الممكن جداً أن يكون إنساناً شريفاً وأباً جيداً. بيد أنه لا يفقه البتة أي شيء في المسائل التي تصدى لحلها. أحقاً أنه لن يخطر في باله بعد ساعة، أو بعد يوم، أو بعد شهر أن يقول لنفسه: «يا صديقي إيفان فاسيلفتش (أو أي اسم آخر) أنت قد جادلت في موضوع لا تفقه فيه أي شيء. وأنت أدرى بهذه الحقيقة من أي شخص آخر. وقد استشهدت بالعلوم الطبيعية والرياضيات، مع أنك أدرى من الجميع بأنك قد نسيت منذ زمن بعيد معلوماتك الضحلة في الرياضيات، التي تلقيتها في مدرستك الخاصة، وكانت معرفتك بها حتى وأنت هناك مهزوزة، أما العلوم الطبيعية فإنك لم تكن في أي وقت من الأوقات تفقه فيها أي شيء. فكيف إذاً كنت تتكلم؟! وكيف كنت تعلِّم؟! أنت تدرك طبعاً أنك كنت تكذب، ومع ذلك فإنك حتى الآن تفخر بنفسك؛ أفلا تشعر بالخجل؟».

أنا موقن بأن من الممكن أن يوجه لنفسه كل هذه الأسئلة حتى وإن كان منشغلاً بـ«قضية ما»، وليس لديه وقت لطرح أسئلة لا جدوى منها. بل إنني على يقين لا يخالطه شك بأن هذه الأسئلة قد دارت في خلده، ولو عرضاً على الأقل. إلا إنه لم يشعر بالخجل، ولم يؤنبه ضميره!

وهذا النوع بالذات من انعدام الضمير لدى المثقف الروسي يشكل ظاهرة حاسمة في

نظري. وكون هذه الظاهرة تبدو عندنا، في أغلب الأحيان، مألوفة، وقد اعتادها الجميع وألفوها، لا يعني في حقيقة الأمر شيئاً، إذ إنها تظل مع ذلك ظاهرة مدهشة وعجيبة. وهي تدل على نوع من اللامبالاة بمحاكمة ضمير الإنسان لذاته، أو، وهو الشيء ذاته، على نوع من عدم احترام المرء لنفسه إلى درجة غير عادية يجعلك تشعر باليأس، وتفقد كل أمل في أن تجد لدى هؤلاء الناس وهذا المجتمع، حتى في المستقبل، أي شيء أصيل يمكن الاعتماد عليه ذاتياً لإنقاذ الأمة. إن الجمهور، أي المظهر، الهيئة الخارجية الأوربية، القانون المجلوب جاهزاً من أوربا مرة وإلى الأبد ـ الجمهور يُحدث في نفس أي روسي أثراً طاغياً: فالروسي وسط الجمهور أوربي، مواطن، فارس، جمهوري، ذو ضمير وصاحب رأي ذاتي ثابت. أما في البيت وبينه وبين نفسه فإنه «إيه. فلتذهب الآراء إلى الشيطان، حتى ولو ضربوني!». إن الملازم «بيروغوف»* الذي ضربه الحداد «شيلير» في شارع «بولشاياميشانسكايا» منذ أربعين عاماً كان نبوءةً مخيفة، نبوءةَ عبقري استشف المستقبل بدقة هائلة، إذ تبين أن أمثال «بيروغوف» هذا لا يحصى لهم عدد؛ إنهم من الكثرة بحيث يتعذر ضربهم جميعاً. تذكّروا أن الملازم، بعد المغامرة التي حدثت معه مباشرة التهم فطيرة مُطَبَّقة، وتألق في تلك الأمسية وهو يرقص «المازوركا» في احتفال أحد الموظفين البارزين بعيد شفيعه. وماذا تظنون: هل كان يفكر وهو يرقص «المازوركا» ببراعة، وينعطف بأعضائه التي أهينت لتوها انعطافات إيقاعية رشيقة، في أنه قد ضُرب بالقضبان منذ نحو ساعتين لا أكثر؟ نعم... كان بلا شك يفكر بهذا؛ ولكن هل كان يشعر بالخجل؟ لا... بلا شك! وقد قال لنفسه على الأرجح، عندما استيقظ في صباح اليوم التالي: «ايه إلى الشيطان، أيستأهل الأمر أن تبدأ... إذا لم يكن أحد سيعرف»! وعبارة «أيستأهل الأمر أن تبدأ» تشير بالطبع، من جهة، إلى القدرة الكبيرة على التعايش والانسجام مع أي وضع مهما كان، ومن جهة أخرى إلى رحابة طبيعتنا الروسية إلى الحد الذي يجعل كل ما لا حدود له يشحب ويخبو أمام وهج هاتين السمتين. إن البقاء طوال مئتي سنة بمعزل عن الشعور بأي ذرة من استقلالية الشخصية، واستهانة الروس طوال مئتي سنة بشخصيتهم الروسية وسّعا الضمير الروسي إلى أمداء «لاضفافية» مدمرة تؤدي إلى... ما الذي يمكن للمرء أن يتوقعه في رأيكم؟

إنني على يقين بأن الملازم كان بمقدوره في تلك الأمسية ذاتها أن يصل إلى تلك الأعمدة[38] أو إلى ذلك المدى «اللاضفافي» بحيث يبوح لرفيقته في رقصة «المازوركا»، الابنة الكبرى لرب المنزل، بحبه لها ويتقدم لخطبتها رسمياً. ما أشد مأساوية شخصية تلك

(*) بيروغوف: إحدى الشخصيات الرئيسة في قصة نيكولاي غوغول الشهيرة «شارع نيفسكي» (1835). (ن).

الفتاة التي ترفرف مع هذا الشاب الهمام في هذه الرقصة الساحرة من دون أن تعرف أن فارسها قد ضُرب بالقضبان منذ ساعة لا أكثر، وأنه لا يعير هذا الأمر أي اهتمام. وماذا تظنونها ستفعل إذا عرفت هذا، وكان عرض الخطبة قد قُدّم لها، هل ستتزوجه (ولكن طبعاً، بشرط ألا يعرف القصة بعد هذا أحد) أواه، إنها حتماً ستتزوجه!

ومع ذلك يمكننا، كما يبدو لي، أن نستثني من أوساط «البيروغوفيين» وجميع «اللاضفافيين» عموماً كثرةً كاثرة من نسائنا؛ إذ تبرز لدى المرأة عندنا أكثر فأكثر سمات الإخلاص، والمثابرة، والجدية، والنزاهة، والبحث عن الحقيقة، والتضحية؛ وعلى العموم فإن كل هذه السمات كانت دائماً تتجلى لدى المرأة الروسية بدرجة أعلى مما هي لدى الرجل.

وهذا أمر لا شك فيه، على الرغم من جميع الاستثناءات الحالية. المرأة أقل كذباً، بل إن كثيراً من النساء لا يكذبن؛ أما الرجال فليس بينهم تقريباً من لا يكذب. والمرأة أكثر مثابرة وصبراً في العمل؛ إنها أكثر جدية من الرجل، وتريد العمل من أجل العمل لا من أجل المظاهر. أليس من هذه الجهة علينا، فعلاً، أن نتوقع المساعدة الكبرى؟

إحدى الأكاذيب المعاصرة

أشار بعض نقادنا إلى أنني استخدمت في روايتي المعاصرة «الشياطين» أحداث قضية نيتشايف[39] المعروفة؛ ولكنهم صرحوا على الفور أنهم لا يجدون لدي صور أشخاص القضية بالذات، ولا وصفاً حرفياً لأحداثها كما جرت في الواقع. ويذهبون إلى أن الذي أخذته هو الظاهرة، وأنني حاولت أن أبيّن فقط إمكانية وجودها في مجتمعنا من حيث هي ظاهرة اجتماعية، ولم أظهرها بشكل نادرة، كما أنني لم أقتصر على وصفها كحادثة موسكوفية فريدة. وأنا أقول إن كل هذا صحيح تماماً. فأنا لا أتعرض في روايتي لنيتشايف المعروف بالذات، ولا لضحيته ايفانوف شخصياً. وشخصية نيتشايف في روايتي لا تشبه، طبعاً، شخصية نيتشايف الحقيقي. وما أردته هو أن أطرح السؤال وأجيب عنه بأكبر قدر ممكن من الوضوح في صيغة رواية: بأي شكل يمكن أن يظهر في مجتمعنا المعاصر الانتقالي المدهش

ليس نيتشايف بالذات بل «النيتشايفات»* عموماً وبأي شكل يمكن لهؤلاء «النيتشايفات» أن يجمعوا حولهم في نهاية المطاف نيتشايفيين**؟

وقد قرأت منذ مدة قصيرة - منذ نحو شهر- في صحيفة «العالَم الروسي»[36] الأسطر التالية المثيرة للاهتمام:

«... يبدو لنا أن قضية نيتشايف يمكن أن تخلق قناعة بأن الشبيبة الطلابية عندنا لا يمكن أن تتورط في مثل هذه الأعمال الجنونية. وليس لمتعصب أحمق مثل نيتشايف أن يجد مريدين له سوى في أوساط الشبيبة المتبطّلة والمتخلّفة وغير المتعلمة على الإطلاق». ثم تكتب الصحيفة: «... ولا سيما أن وزير التعليم الشعبي قد صرح (في كييف) منذ أيام أن بإمكانه القول بعد تفقده المؤسسات التعليمية في سبع مناطق: إن موقف الشبيبة من قضية العلم خلال الأعوام الأخيرة غدا أكثر جدية بما لا يقاس، وأنها تعمل باجتهاد وإتقان أكبر بما لا يقاس».

إن هذه العبارات بحد ذاتها، أي إذا ما أُخذت بشكل مطلق، من دون أن يكون لها علاقة بسواها، هي عبارات تافهة إلى حد ما، (آمل أن يعذرني كاتبها)، وتنطوي على شطحة شاذة وكذب قديم سئمته النفس. والفكرة الأساسية الكاملة هنا هي أن أمثال نيتشايف، حتى وإن ظهروا عندنا أحياناً، ليسوا جميعاً سوى حمقى ومتعصبين؛ وإذا ما تسنى لهم أن يجدوا مريدين فإنهم لن يجدوهم «سوى في أوساط الشبيبة المتبطلة والمتخلفة وغير المتعلمة على الإطلاق». لا أدري ما الذي أراد أن يبرهن عليه كاتب مقالة «العالَم الروسي» بشحطته الشاذة هذه: هل أراد أن يتملق الشبيبة المتعلمة؟ أم بالعكس، فكر في أن يحتال عليها بعض الشيء بمناورة ماكرة تتخذ شكل الملاطفة، ولكن لأهداف نزيهة تماماً - أي لما فيه فائدتها بالذات - وابتغاء بلوغ غايته لجأ إلى ذاك الأسلوب المعروف جداً الذي تستخدمه المعلمات والمربيات مع الأطفال الصغار: أترون يا أطفالي الأعزاء، أولئك المشاغبين السيئين كيف يصرخون ويتشاجرون، إنهم سيعاقبون بالضرب حتماً لأنهم «متخلفون» هكذا؛ أما أنتم فإنكم مطيعون لطيفون تستحقون الثناء، تجلسون في مقاعدكم مستقيمين، ولا تؤرجحون أرجلكم تحت المقاعد، ومكافأة لكم على هذا سيعطونكم هدايا حتماً؛ أم أن الكاتب أراد بكل بساطة أن «يدافع» عن شبيبتنا المتعلمة أمام الحكومة، وقد استخدم لهذا الغرض الأسلوب الذي ربما كان هو نفسه يعده أسلوباً ماكراً ودقيقاً إلى درجة غير عادية؟

ولأقل بصراحة: مع أنني طرحت كل هذه الأسئلة فإن الأهداف الشخصية لدى كاتب

(*) أمثال نيتشايف. (م).

(**) أتباعاً ومريدين لهم. (م).

مقالة «العالم الروسي» لا تثير لديّ أي فضول. بل أضيف إلى ذلك استكمالاً للإيضاح أنني أميل في الحالة التي نحن بصددها إلى اعتبار الشطح والكذب القديم الممل في الفكرة التي عبّرتْ عنها صحيفة «العالَم الروسي» شيئاً ما عفوياً وغير متعمد، أي أن كاتب المقالة نفسه صدّق كلماته تماماً وتبناها على أنها الحقيقة، منطلقاً في أثناء ذلك من قمة البراءة الساذجة التي تستحق الإطراء، بل التي كان يمكن، في أي حالة أخرى، أن تستدعي حتى مشاعر التأثر، لأنها مجردة من أية وسيلة للدفاع. ولكن بالإضافة إلى أن الكذب المُتبنّى على أنه الحقيقة ينطوي دائماً على أعلى درجات الخطر (حتى على الرغم من كونه موجوداً على صفحات «العالَم الروسي») فإن ما يلفت النظر هنا هو أن الكذب لم يظهر من قبل قط بمثل هذا الشكل العاري والدقيق، وغير المصطنع الذي ظهر به في هذه المقالة. فعلاً كما يقولون، رب امرئ إذا دَفَعْتَه إلى الصلاة شجّ جبينه عند السجود. ويجدر بنا أن نتتبع هذا الكذب بشكله هذا بالذات، ونسلط عليه الضوء لكشفه بقدر الإمكان، إذ ربما احتاج الأمر في بعض الأوقات إلى الانتظار طويلاً حتى نقع مرة أخرى على مثل هذه الصراحة اللا مصطنعة.

لقد تبنّتْ جرائدنا منذ الأزمان القديمة التي اتسمت بالليبرالية الزائفة عندنا قاعدةُ «الدفاع عن الشبيبة» وحمايتها، ولكن مِمَّن؟ ومِمَّ؟ يبقى هذا أحياناً في غياهب المجهول، ولذا فهو غالباً ما يتخذ شكلاً شديد البلادة، بل حتى شديد الكوميدية، وخصوصاً في حالة التهجم على الصحف الأخرى، وكأن لسان حال تلك الجرائد يقول: «نحن، كما ترون، ليبراليون، أما أنتم فإنكم تهاجمون الشبيبة، وعلى هذا فأنتم سلفيون».

«ولألاحظ بين قوسين أن مقالة «العالَم الروسي» تلك تتضمن اتهاماً موجهاً إلى مجلة «المواطن» مباشرة لأنها كما يزعم كاتب المقالة، لا تكف عن توجيه الاتهامات إلى شبيبتنا المتعلمة في بطرسبورغ وموسكو وخاركوف».

لأدع جانباً حقيقةَ أن كاتب المقالة ذاته يعرف حق المعرفة أن مثل هذه الاتهامات العامة الشاملة الموجهة إلى شبيبتنا لا وجود لها عندنا، ولم يكن لها وجود في الماضي؛ فكل ما أريده منه ببساطة أن يشرح لنا: ماذا يعني توجيه اتهامات شاملة إلى الشبيبة بأسرها؟ إنني لا أفهم هذا البتة! هذا يعني، بالطبع، أن مُوَجِّهَ هذه الاتهامات لا يحب الشبيبة بأسرها لسبب ما. بل إنه لا يكره شبيبتنا عموماً بقدر ما يكره فئة عمرية معينة منها! ما هذا الخلط؟ ومن بوسعه أن يصدق مثل هذه التهمة؟ من الواضح أن الاتهام والدفاع كليهما مرتجلان وأن صاحبهما لم يفكر كثيراً. وكأنه قال لنفسه: يجدر أن نتأمل في هذا: لقد بيّنت أنني ليبرالي، وأنني أمتدح الشبيبة، وأشتم الذين لا يمدحونها، وهذا يكفي لوضع التوقيع والخلاص من هذا العبء! بالضبط «للخلاص من هذا العبء» إذ لا أحد بمقدوره الإقدام على الدفاع عن شبيبتنا على

هذا النحو بالذات، وإيراد مثل هذه الشطحة العجيبة التي أوردها (عن غير قصد - وأنا مقتنع بهذا الآن أكثر من أي وقت آخر) كاتبُ مقالة «العالم الروسي» ذو الطوية البريئة الساذجة، سوى ألد أعداء شبيبتنا.

وكل أهمية هذا الأمر تكمن في أن هذا الأسلوب ليس من اختلاق صحيفة «العالم الروسي» وحدها، بل هو أسلوب متبع في كثيرمن صحفنا التي تدعي الليبرالية، والتي ربما تُجرِّد هذا الأسلوب من كثير من براءته الساذجة، ويكمن جوهر الأسلوب المذكور أولاً: في إسباغ المدح على الشبيبة بأسرها في جميع الحالات والمناسبات، وفي الهجوم الفظ على جميع الذين يسمحون لأنفسهم عند اللزوم باتخاذ مواقف ناقدة حتى من الشبيبة نفسها، ويقوم هذا الأسلوب على افتراض مضحك مؤداه أن درجة التطور المتدنية التي بلغتها الشبيبة حتى الآن، وحبَّها القوي للتملق يجعلانها لا تفرق بين الأشياء، وتتلقى كل ما يقال على أنه حقيقي. وقد توصل أصحاب هذا الأسلوب حقاً إلى جعل الكثيرين جداً من شبابنا (وليس كلهم قطعاً حسب اعتقادنا الجازم) يحبون فعلاً المديح الفظ، ويطلبون التملق، وهم مستعدون لتوجيه الاتهام من دون ترو لجميع الذين لا يسايرونهم في كل شيء، وعند كل خطوة، ولا سيما في بعض الحالات، وعلى كل فإن الضرر حتى الآن لا يزال مؤقتاً؛ إذ إن نظرات الشبيبة ستتغير مع الخبرة والعمر. ولكن ثمة جانباً آخر للكذب يمكن أن يسبب ضرراً مباشراً وملموساً.

ويقوم هذا الجانب الآخر لأسلوب «الدفاع عن شبيبتنا أمام المجتمع وأمام الحكومة» في إنكار الوقائع أصلاً وبأشد الأشكال فظاظة ووقاحة أحياناً. يدّعون أن الواقعة المعنية لم تقع، ولم يكن بالإمكان أن تقع؛ وكل من يقول إنها وقعت إنما يفتري على شبيبتنا، ومن ثم فهو عدو لها!

هذا هو الأسلوب الذي يتبعونه. وأكرر قولي: إن ألد أعداء شبيبتنا لن يكون بمقدوره أن يخترع ما هو أكثر منه إضراراً بمصالحها المباشرة. ولدي رغبة لا تقاوم في البرهنة على هذا.

إن إنكار الوقائع مهما كلف الأمر، يمكن أن يؤدي إلى نتائج مدهشة. ولكن ما الذي تثبتونه بهذا، وبم تسهّلون القضية، إذ بدأتم تؤكدون (والمهم هو أن الرب وحده يعلم لماذا) أن الشبيبة «المُفْتَتَنَة»، أي أولئك الذين يمكن أن «يُفْتَتَنوا» بأمر ما (حتى وإن كان هذا الافتتان بأمثال نيتشايف) يجب أن يكونوا قطعاً من «المتخلفين المتبطلين» حصراً، من أولئك الذين ليس لهم أية علاقة بالتعلم أو الدراسة، أي باختصار من أولئك المتسكعين الطائشين ذوي الميول الفاسدة إلى أبعد الحدود؟ وعلى هذا فإنكم بإفرادكم هذه القضية، وإخراجها من حيز المتعلمين، وحصرها حتماً في حيز «المتخلفين المتبطلين» إنما تتهمون سلفاً هؤلاء

التعسين، وتتخلون عنهم نهائياً، قائلين لهم: «أنتم المذنبون، أنتم مشاغبون وكسالى، ولم يكن بإمكانكم أن تجلسوا في مقاعدكم هادئين». إنكم بإفرادكم الحالة وتجريدكم إياها من حق النظر إليها مرتبطةً مع العام الكليّ (وفي هذا بالذات تكمن الإمكانية الوحيدة للدفاع عن «الضالين» التعسين) إنما تُوقِّعون على الحكم النهائي الصادر عليهم، بل إنكم تُقصون عنهم الرحمة ذاتها، لأنكم تؤكدون بصراحة أن مصدر ضلالهم هو خصالهم القبيحة حصراً، وأن هؤلاء الشبان، حتى وإن لم يقترفوا أية جريمة، لابد من أن يثيروا في النفس مشاعر الاحتقار والاشمئزاز.

ومن جهة أخرى يحدث فجأة أن تكشف الوقائع عن أن بعض المتورطين في قضية ما ليسوا من المتخلّفين على الإطلاق، وليسوا البتة من المشاغبين الذين يهّزون أرجلهم تحت المقاعد، وليسوا على الإطلاق من الكسالى فقط، بل بالعكس، هم من الشبان المجتهدين المتحمسين، ومن المتعلمين بالذات، وحتى من طيبي القلوب، ولكنهم من المُوَجَّهين في اتجاه سيئ لا أكثر؟ (افهموا هذه الكلمة: **المُوَجَّهون**. أين، في أية أوربا تجدون الآن تأرجحاً بين الاتجاهات من كل صنف ولون أشد من التأرجح الذي تجدونه عندنا في أيامنا هذه)! وعلى هذا فإن ذنب هؤلاء «التعسين» الجدد، حسب نظرية «الكسالى والمتخلّفين» التي تتبنوها، أكبر بثلاث مرات: «لقد مُنحوا الوسائل، وتلقوا قسطهم من التعليم، وعملوا باجتهاد، وليس لديهم مبررات! إنهم أقل استحقاقاً للرحمة بثلاث مرات من المتخلفين المتبطّلين!» هذه هي النتيجة التي تنبثق مباشرة من نظريتكم.

اسمحوا لي أيها السادة (إنني أتكلم بشكل عام ولا أتوجه إلى مراسل جريدة «العالَم الروسي» وحده)، إنكم تؤكدون، انطلاقاً من «إنكار الوقائع» أن «النيتشايفات» لا بد من أن يكونوا من الحمقى، أو من «المتعصبين المتحامقين». وأنا أسأل من جديد: هل الأمر هكذا؟ هل هذا حق؟ في حالتنا هذه لا أقول نيتشايف، بل «النيتشايفات»، بصيغة الجمع، نعم، يمكننا أن نصادف بين النيتشايفات أشخاصاً شديدي التجهم، وشديدي الكآبة، ومشوهين ولديهم توق بالغ التعقيد، من حيث المنشأ، إلى السلطة، وتدبير المكائد، وتبرز لديهم في وقت مبكر إلى حد الشذوذ، حاجة حارقة إلى إظهار الشخصية؛ ولكن، لماذا هم «حمقى»؟! بالعكس، فحتى الغيلان الحقيقيون من بينهم يمكن أن يكونوا جد متطورين وماكرين وحتى مثقفين. أم أنكم تظنون أن المعارف و«العلوم الصغيرة»، والمعلومات المدرسية (وحتى الجامعية) تشكل نفس الشاب تشكيلاً نهائياً، بحيث أنه عندما يتسلم الشهادة يحوز على الفور طلسماً ثابتاً يمنحه القدرة على معرفة الحقيقة دوماً، وعلى تجنب الإغواءات والأهواء والنقائص؟

وعلى هذا فإن جميع الشبان الذين ينهون دراستهم يتحولون على الفور، حسب رأيكم، إلى ما يشبه كثرةً من البابوات الصغار المعصومين عن الزلل.

وما الذي يجعلكم تفترضون أن أمثال نيتشايف لا بد من أن يكونوا حتماً متعصبين؟ إنهم غالباً جداً ما يكونون مجرد محتالين. «أنا لست اشتراكياً، بل محتال» فلنفترض أن هذا ما يقوله أحد «النيتشايفات» في روايتي «الشياطين»، ولكنني أؤكد لكم أنه كان يمكن أن يقول ذلك في الواقع أيضاً. إنهم محتالون شديدو المكر، وقد درسوا الجانب النبيل بالذات من النفس الإنسانية، ولدى اليافعين في الأغلب، كي يستطيعوا أن يلعبوا عليه كما على آلة موسيقية. أحقاً أنكم تعتقدون بجدٍّ أن المريدين الذين يمكن لشخص عندنا من أمثال نيتشايف أن يجندهم لا بُدَّ من أن يكونوا حتماً من المتسكعين الطائشين؟ أنا لا أعتقد هذا، ليسوا جميعاً من هؤلاء؛ فأنا نفسي «نيتشايفيّ» قديم، وأنا أيضاً وقفت على منصة الإعدام، وقد حكم عليّ به، وأؤكد لكم أن الجماعة التي كنت أنتمي إليها كانت تتألف من أشخاص مثقفين. وكل أعضاء هذه الجماعة تقريباً كانوا من خريجي أعلى المعاهد التعليمية؛ وقد اشتهر بعضهم فيما بعد، عندما انتهى كل شيء، بمعارفه المتخصصة ومؤلفاته المرموقة. لا... إن النتشايفات ليسوا دائماً من الكسالى فقط، الذين لم يدرسوا أي شيء.

أعرف أنكم من دون شك، ستعترضون عليّ قائلين: إنني لا أمتّ بصلة للنيتشايفات، وما أنا إلا واحد من البيترَشيفسكيين[40]. ولأكن من البيترشيفسكيين، (على الرغم من أن هذه التسمية، في رأيي، غير صحيحة لأن ثمة أناساً أكثر بكثير من الذين وقفوا على منصة الإعدام كانوا أيضاً من البيترشيفسكيين، مثلنا تماماً، لكن أحداً لم يمسهم، ولم يقلق طمأنينتهم على الإطلاق. صحيح أنهم لم يعرفوا قط بيترشيفسكي، ولكن القضية في كل هذه القصة التي انقضت منذ زمن طويل، لم تكن البتة في بيترشيفسكي شخصياً؛ هذا ما أردت الإشارة إليه فقط في هذا الصدد).

لأكن من البيترَشيفسكيين، فما أدراكم أن البيترَشيفسكيين لم يكن من المحتمل أن يصبحوا نيتشايفيين، أي أن يسلكوا الطريق النيتشايفية، لو أن الأمور اتخذت مثل هذه الوجهة؟ بالطبع، لم يكن بالإمكان تصور هذا آنذاك: إذ كيف كان للأمور أن تتخذ مثل هذه الوجهة؟ فالزمان كان غير هذا الزمان بالمرة. ولكن اسمحوا لي أن أقول كلمة عن نفسي حصراً: من المؤكد أنه لم يكن من الممكن البتة أن أصير «نيتشايف» في يوم من الأيام، ولكنني لا أضمن أنه لم يكن بالإمكان أن أصير «نيتشايفياً»... في أيام صباي.

لقد تحدثت للتو عن نفسي كي أمتلك الحق في أن أتحدث عن الآخرين. ومع ذلك فإنني

سأستمر في الحديث عن نفسي فقط، وإذا ما تطرقت إلى ذكر الآخرين فإنني سأتحدث عنهم بصورة عامة، من دون تحديد شخصيات، وبشكل مجرد تماماً. إن قضية البيترَشيفسكيين قد طويت منذ مدة طويلة وأصبحت تنتسب إلى تاريخ قديم جداً، مما يجعل تذكري لها الآن، وخصوصاً على نحو عارض ومجرد، لا يسبب أي ضرر على ما أعتقد.

لم يكن أحد منا نحن البيترَشيفسكيين، (سواء الذين وقفوا على منصة الإعدام، أو الذين لم يمسسهم أحد)، من فئة «الغيلان» أو «المحتالين». ولا أظن أن أحداً يمكن أن ينبري لدحض قولي هذا. كما أعتقد أن أحداً لن يجادل أيضاً في حقيقة وجود أشخاص مثقفين بيننا كما سبق أن ذكرت. ولكن لا شك في أن قلة منا فقط كان يمكنها أن تكافح منظومة معينة من الأفكار والمفاهيم التي كانت متأصلة بقوة آنذاك في أوساط المجتمع الشاب. لقد كنا آنذاك مصابين بعدوى أفكار الاشتراكية النظرية. أما الاشتراكية السياسية فلم تكن قد وجدت بعد في أوربا، بل إن زعماء الاشتراكية الأوربيين كانوا آنذاك يرفضونها.

وقد تجنّى نواب الجانب اليميني في الجمعية الوطنية الفرنسية على زميلهم في عضوية الجمعية لوي بلان* عندما قاموا بلطمه على خديه وشده من شعره الأسود (الذي كان، كما لو عمداً، شديد الكثافة وطويلاً) إلى أن خلصه أراغو** (الفلكي وعضو الحكومة الذي انتقل إلى العالم الآخر) من بين أيديهم، في ذلك الصباح المشؤوم من شهر أيار عام 1848، عندما اقتحم مبنى الجمعية جمهور من العاملين الجائعين الذين فرغ صبرهم. المسكين لوي بلان، الذي كان لبعض الوقت عضواً في الحكومة المؤقتة، لم يعمد البتة إلى إثارتهم: بل كل ما فعله هو أنه ألقى في قصر لوكسمبورغ أمام هؤلاء الجوعى البائسين، الذين فقدوا فجأة عملهم بعد الثورة وقيام الجمهورية، محاضرةً حول «حقهم في العمل». وبما أنه كان عضواً في الحكومة فإن محاضراته حول هذه الموضوعات كانت غير سياسية بالمرة، ومضحكة طبعاً. أما مجلة كونسيديران***، شأنها شأن مقالات برودون وكراساته، فقد كانت تسعى لغرس مشاعر معينة، بما في ذلك الشعور بالاشمئزاز العميق من حق الوراثة، في نفوس هؤلاء العاملين الجائعين الذين لا يملكون شيئاً. ولا شك في أنه من هذا كله (أي من نفاد صبر الجوعى الذين هيجتهم نظريات النعيم القادم) انبثقت فيما بعد الاشتراكية السياسية، التي يكمن جوهرها حتى الآن، على الرغم من كل الأهداف التي يبشرون بها؛ في الرغبة في إقدام الطبقات التي لا تملك على

(*) جان جوزيف لوي (لويس) بلان (1811-1882) سياسي وكاتب ومؤرخ فرنسي. من دعاة الاشتراكية وإنصاف العمال. (ن).

(**) دومينيك فرنسوا أراغو (1786-1853) فلكي وفيزيائي وسياسي فرنسي. (ن).

(***) فكتور كونسيديريان (1808-1893) اشتراكي طوباوي فرنسي، تلميذ فورييه. (ن).

نهب ما بحوزة كل المالكين في كل مكان، و«ليكن بعد ذلك ما يكون». (لأنه لم يُقرَّر بعد، على وجه التحقيق، ما الذي سيحل محل المجتمع القادم، بل كل ما قُرّر هو إسقاط المجتمع الحاضر وهذه هي حتى الآن المقولة التي تنادي بها الاشتراكية السياسية).

ولكن آنذاك كانت القضية ما زالت تمثل في الأذهان بأزهى لون وردي، وأسطع نور أخلاقي فردوسي. وفي الحقيقة فإن الاشتراكية الوليدة كانت تقارن آنذاك، وحتى من جانب قادتها، بالمسيحية، وينظر إليها على أنها ليست سوى تصحيح وتحسين لهذه الأخيرة، بما يتناسب مع العصر والمدنيّة. وقد أثارت كل تلك الأفكار الجديدة إعجابنا الشديد آنذاك في بطرسبورغ، وبدا لنا أنها في قمة القداسة والمناقبية، وأنها، وهو الأهم، إنسانية عامة، وأنها الشرعة المقبلة للإنسانية بأسرها بلا استثناء. وكنا، حتى قبل ثورة باريس عام 1848 بوقت طويل، مأخوذين بسحر الأفكار. وكان بيلينسكي[10] قد أطلعني منذ عام 1846 على كل حقيقة هذا «العالم المُجَدَّد» القادم، وعلى كل قدسية المجتمع الشيوعي الآتي. وكانت كل تلك الاعتقادات حول لا أخلاقية أسس المجتمع المعاصر (المسيحية)؛ ولا أخلاقية مؤسستَيْ الدين والأسرة؛ ولا أخلاقية حق الملكية؛ وكل تلك الأفكار عن إلغاء القوميات في سبيل أخوة البشر العامة، وعن احتقار فكرة الوطن باعتبارها عقبة على طريق التطور العام الشامل وهلم جراً وهلم جراً، كان كل هذا يتمتع بسطوة لم يكن بمقدورنا التغلب عليها، بل بالعكس، كانت قلوبنا وعقولنا تستسلم لها في سبيل سمو روحي ما. وعلى كل حال كان الموضوع يبدو جليلاً وأرفع بكثير من مستوى المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك، وهذا بالذات ما كان يغرينا. وقد رفض بعضُنا، ولا أقصد بعض البيترَشيفسكيين فقط، بل بصورة عامة بعض من كانوا مصابين بالعدوى آنذاك، رفضوا جذرياً فيما بعد كل هذا الهذيان الحالم، وهذا الظلام والهول اللذين أُعدّا للبشرية على أنهما تجديد وبعث لها، إلّا أن هذا البعض لم يكن قبل ذلك يعرف سبب مرضه، ولذا لم يكن بمقدوره مكافحته. فكيف لكم إذاً أنْ تعتقدوا أن جريمة قتل «على طريقة نيتشايف» كان يمكن أن توقفنا عن متابعة مسيرتنا، إن لم يكن كلنا، بالطبع، فبعضنا على الأقل، في تلك الحقبة الساخنة، ووسط تلك التعاليم التي تستولي على النفس، وتلك الأحداث الأوربية المذهلة، التي جعلتنا آنذاك ننسى الوطن تماماً ونتابعها بتوتر محموم؟

ليس ثمة أدنى شك في أن جريمة قتل ايفانوف الشنيعة المقززة التي حدثت في موسكو قد صورها القاتل نيتشايف لضحاياه «النيتشايفيين» على أنها عمل سياسي ومفيد «للقضية العامة والعظمى» القادمة. ولو أن الأمر على خلاف ذلك لاستحال علينا أن نفهم كيف أمكن لبضعة شبان (أياً كانوا) أن يوافقوا على ارتكاب مثل هذه الجريمة النكراء. ومرة أخرى أعود إلى روايتي «الشياطين» التي حاولتُ أن أصور فيها الدوافع المختلفة والمتنوعة التي تجعل

من الممكن أن يتورط حتى أنقى الناس قلباً وأسلمهم طوية في ارتكاب مثل هذه الجريمة الشنعاء. وفي هذا تكمن فظاعة الواقع عندنا، الذي يجعل في بعض الأحيان شخصاً غير سافل على الإطلاق يرتكب عملاً في منتهى القباحة والسفالة! وهذا لا يحدث عندنا فقط، بل يحدث في العالم أجمع، ودائماً، منذ بدء العصور، في الحقب الانتقالية، وفي أزمنة الهزات في حياة الناس، وفي أوقات الشك والنكران والارتياب وتزعزع القناعات الاجتماعية الأساسية ولكن احتمال حدوثه عندنا أكبر مما في أي مكان آخر، ولا سيما في وقتنا هذا؛ وهذه السمة هي الأكثر إيلاماً ومدعاة للأسى بين سمات زمننا الحالي. إن مصيبتنا في هذا العصر تكمن بالذات في إمكانية اعتبار المرء نفسه غير سافل، بل ربما كان في حقيقة الأمر غير سافل، وقيامه في الوقت نفسه بسفالة واضحة لاشك فيها!

ما الذي يحمي الشبيبة حماية خاصة، بالمقارنة مع الفئات العمرية الأخرى، مما يجعلكم، أيها السادة المدافعون عنها، تندفعون على الفور، ما إن تبدأ هذه الشبيبة في التعلم والدراسة باجتهاد، إلى مطالبتها بإبداء قدر من ثبات القناعات ونضجها لم يعهده حتى آباؤها، وهو الآن أقل منه في أي وقت آخر! إن الشباب اليافعين في فئات مجتمعنا المثقفة قد تربوا في كنف عائلاتهم التي يتنامى فيها أكثر فأكثر الاستياء ونفاد الصبر، وفظاظة الجهل (على الرغم من انتمائها إلى الفئات المثقفة)؛ وحيث يحل محل الثقافة الحقيقية في كل مكان تقريباً النفيُ الوقحُ المستعارُ من أفكار الآخرين، وحيث تسيطر الدوافع المادية على أية فكرة سامية؛ وحيث يتربى الأطفال من دون تربة، وخارج حدود الحقيقة الطبيعية، ومن دون احترام للوطن أو اكتراث به؛ يتربون على احتقار ساخر للشعب، وقد انتشر هذا الاحتقار انتشاراً واسعاً إلى حد كبير في الآونة الأخيرة. أفَمِنْ هذا النبع سينهل شبابنا الحقيقة؟ أهنا سيجدون ما يسدد خطاهم الأولى على درب الحياة؟ إن المصدر الأول للشر: يكمن في توارث الأفكار وتعاقبها في الأجيال، وفي تلك العادة القومية القديمة عندنا وهي الكبت الذاتي لاستقلالية التفكير لدينا، وفي مفهومنا عن رفعة مقام الأوربي، ومع اقتران ذلك حتماً بعدم احترامنا ذواتنا لأننا روس!

ولكنكم، كما يبدو، لن تصدقوا هذه الطروحات المفرطة في العمومية. إنكم تصرون بشدة على «التعليم - الاجتهاد»، ولا تنفكون تكررون عبارة: «المتخلفون المتبطلون».

لاحظوا، أيها السادة، أن كل أساتذتنا الأوربيين الكبار هؤلاء، الذين هم النور والأمل لنا من أمثال: ميل*، وداروين** وشتراوس[12] ينظرون بدهشة بالغة أحياناً إلى واجبات الإنسان

(*) جون ستيوارت ميل (1805-1873) فيلسوف ومنطقي واقتصادي إنكليزي. (ن).

(**) شارلز روبرت داروين (1809-1882) عالم طبيعة إنكليزي مؤسس النظرة العلمية عن تطور العالم العضوي. (ن).

المعاصر الأخلاقية؛ علماً بأن هؤلاء ليسوا من الكسالى الذين لم يتعلموا شيئاً، ولا من المشاغبين الذين يهزون أرجلهم تحت المقاعد. ستضحكون وتسألون: لِمَ خطر لي أن أذكر هذه الأسماء بالذات؟ ذلك لأنه من الصعب أن نتصور عند الحديث عن شبيبتنا المثقفة، المتحمسة، المتعلمة أنها لم تمر بهذه الأسماء وهي تخطو خطواتها الأولى في الحياة. وهل يمكن لأي شاب روسي أن يظل لا مبالياً إزاء النفوذ الذي يمارسه عمداء الفكر التقدمي الأوربي هؤلاء وأمثالهم، ولا سيما إزاء الجانب الروسي من تعاليمهم؟ ليغفروا لي عبارتي المضحكة هذه: «الجانب الروسي من تعاليمهم» وذلك لسبب واحد فقط هو أن هذا الجانب الروسي من هذه التعاليم موجود فعلاً. وهو يتجلى في تلك الاستنتاجات التي لا تُستنبط من التعاليم المذكورة إلّا في روسيا وحدها، وتُصاغ بشكل بديهيات غير قابلة للدحض على الإطلاق. أما في أوربا فإن إمكانية استخلاص هذه الاستنتاجات، كما يقولون، لا يمكن حتى مجرد افتراضها. وأظنهم سيقولون لي إن هؤلاء السادة لا يدعون البتة إلى أية أعمال شريرة؛ وإذا كان شتراوس، على سبيل المثال، لا يحب المسيح، مما جعله يضع الهزء بالمسيحية والتشهير بها هدفاً لحياته، فإنه مع ذلك يقدس الإنسانية في كليتها؛ وتعاليمه سامية ونبيلة إلى حدٍّ لا يمكن تجاوزه. من الممكن جداً أن يكون كل هذا صحيحاً، وأن أهداف جميع عمداء الفكر التقدمي الأوربي المعاصرين جليلة ومفعمة بحب الإنسان، ولكن بالمقابل ثمة أمر يبدو لي أكيداً لا يقبل الشك: امنحْ كل هؤلاء المعلمين المعاصرين الإمكانية الكاملة لهدم المجتمع القديم وبناء مجتمع جديد وستجد أن النتيجة ظلام شديد وفوضى بالغة، وشيء فظ وأعمى ولا إنساني إلى حد يجعل البناء كله ينهار وسط لعنات البشرية قبل أن يكتمل إنشاؤه. إن العقل البشري برفضه المسيح يمكن أن يصل إلى نتائج مدهشة. هذه بديهية. وأوربا، أو على الأقل ممثلو فكرها الأعلون، يرفضون المسيح، ونحن، كما هو معروف ملزمون بتقليد أوربا.

ثمة برهات تاريخية في حياة الناس يُنظر فيها إلى أعمال شريرة واضحة وتتصف بالوقاحة والفظاظة الشديدة على أنها ليست سوى تجلٍ لعظمة النفس والشجاعة النبيلة اللتين تتحلى بهما الإنسانية المتخلصة من قيودها. وهل يحتاج الأمر إلى أمثلة؛ أو ليست الأمثلة موجودة بالآلاف لا بل بعشرات وبمئات الآلاف؟ إنه موضوع معقد بالطبع، وشديد الاتساع، ومن الصعب جداً الإحاطة به في مقالة صحفية، ولكن مع ذلك، يمكن في النتيجة، كما أظن، القبول بفرضيتي التي تقول: حتى الصبي الشريف والسليم الطوية، وحتى المتعلم جيداً يمكن أن يتحول أحياناً إلى نيتشايفي... طبعاً إذا أوقعته الظروف على نيتشايف؛ وهذا...sine qua non*.

(*) شرط لا بد منه (حرفياً الذي من دونه لا) باللاتينية. (ن).

لقد وقفنا نحن البيترَشيفسكيين، على منصة الإعدام، واستمعنا إلى نص الحكم الذي تلي علينا بلا أي شعور بالندم. لا شك في أنني لا أستطيع أن أشهد باسم الجميع، ولكنني أعتقد أنني لن أخطئ إذا قلت إننا، إن لم نكن كلنا فأغلبيتنا الساحقة على الأقل، كنا نرى آنذاك، في تلك اللحظة، أن التراجع عن قناعاتنا تصرف شائن. لقد مضى على هذه القضية وقت طويل، وربما غدا من الممكن طرح السؤال الآتي: أحقاً أن هذا العناد وعدم الندم كان سببهما الوحيد هو الطبيعة السيئة، هو كوننا متخلفين ومشاغبين؟ لا، نحن لم نكن مشاغبين، بل ربما لم نكن شباباً سيئين. إن حكم الإعدام بإطلاق الرصاص الذي تلي علينا جميعاً قبل التنفيذ لن يُتْلَ من قبيل المزاح البتة. وكان جميع المحكومين تقريباً واثقين بأنه سينفذ، واحتملوا على الأقل عشر دقائق فظيعة ومرعبة إلى أقصى حد في انتظار الموت. وفي هذه الدقائق الأخيرة بعضنا (أعرف هذا عن يقين) غاص غريزياً في أعماق نفسه وتفحص في لمحة واحدة كل حياته التي ما زالت في ريعانها، ولعله شعر في أثناء ذلك بالندم على بعض أفعاله الثقيلة الوطأة على النفس (من تلك التي تثقل ضمير كل منا بالسر طوال حياته)؛ أما تلك القضية التي حوكمنا من أجلها، وتلك الأفكار والمفاهيم التي تملكت أرواحنا، ففضلاً عن أننا كنا نرى أنها لا تستوجب منا الندم، كانت تبدو لنا شيئاً مطهِّراً، استشهادياً، مُكفِّراً عن كثير من زلاتنا!

واستمرت هذه الحالة زمناً طويلاً، ولم تستطع سنوات النفي ولا المعاناة الطويلة أن تحطم إرادتنا؛ بل بالعكس، ليس من شيء استطاع أن يحطم إرادتنا؛ وكانت قناعاتنا تقوّي عزيمتنا لشعورنا بالقيام بالواجب، لا... إن شيئاً آخر هو الذي غيّر نظرتنا وقناعاتنا وقلوبنا (من البدهي أنني لا أسمح لنفسي هنا بالكلام سوى على أولئك الذين أصبح تغيير قناعاتهم أمراً معروفاً، وقد شهدوا هم أنفسهم بذلك بشكل أو بآخر). وكان هذا الشيء الآخر هو تماسّ كل منا تماساً مباشراً مع الشعب، وارتباطه الأخوي معه في الشقاء المشترك، وإدراكه أنه أصبح الآن مثله، وأنه قد تساوى معه، بل إنه تساوى مع أدنى درجة من درجاته.

وأكرر: إن هذا لم يحدث بسرعة، بل بالتدريج، وبعد وقت طويل جداً جداً. ولم تكن الكبرياء ولا عزة النفس هما المانع من الإقرار. وعلى كل ربما كنت أنا (مرة أخرى أتحدث عن نفسي فقط) من الذين تسهَّلتْ لهم أكثر من غيرهم العودة إلى الجذر الشعبي، وإلى معرفة النفس الروسية، وإلى الاعتراف بالروح الشعبي. فأنا ابن أسرة روسية ورعة؛ وما زلت أذكر حب والديّ لي منذ أن وعيت ذاتي. وكنا في الأسرة نعرف الإنجيل منذ سني الطفولة المبكرة. وقد اطّلعت، قبل أن أتجاوز العاشرة، على كل الوقائع الرئيسة تقريباً في التاريخ الروسي من مؤلفات كارامزين[41] التي كان والدي يقرؤها لنا في الأمسيات. وكانت كل زيارة للكريملِن والكاتدرائيات الروسية حدثاً احتفالياً بالنسبة لي. ربما ليس لدى الآخرين ذكريات كذكرياتي

هذه. وأنا غالباً ما أستغرق الآن في التفكير وأسأل نفسي: تُرى ما هي الانطباعات الغالبة التي تحملها الشبيبة الحالية المعاصرة عن طفولتها؟ ولكن إذا كنت حتى أنا، الذي لم يستطع، طبعاً، أن يتجاهل بصلف ذلك الوسط المشؤوم الذي ساقتنا إليه «التعاسة»، ولم يستطع أن ينظر نظرة عابرة ومتعالية إلى تجلي الروح الشعبي أمام ناظريه، أقول حتى أنا كان من الصعب علي جداً أن أقتنع أخيراً بكذب وزيف كلٍّ أو جُلِّ ما كنا نَعُدّه في بلادنا النور والحقيقة، فما بالك إذاً بالآخرين الذين كانوا على قطيعة أعمق عن الشعب، وكانوا قد توارثوا هذه القطيعة عن الآباء والأجداد جيلاً بعد جيل؟

من الصعب عليّ جداً أن أروي قصة تغيّر قناعاتي، وربما قوّى من إحجامي عن ذلك أنها غير مثيرة للاهتمام، وهي إلى ذلك، لا تتناسب، كما يبدو لي، مع مقالة صحفية ناقدة...

أيها السادة المدافعون عن شبيبتنا، انظروا، أخيراً إلى ذاك الوسط، ذاك المجتمع الذي تنشأ فيه هذه الشبيبة واسألوا أنفسكم: أيمكن أن يوجد في زمننا هذا ما هو أقل منها حماية من تأثيرات معينة معروفة؟

اطرحوا قبل كل شيء السؤال الآتي: إذا كانت قناعات آباء هؤلاء الفتية أنفسهم ليست أفضل ولا أصلب ولا أصح من قناعاتهم، وإذا كان هؤلاء الفتية لم يلقوا في أسرهم منذ طفولتهم المبكرة سوى «الكلبية»[5] والإنكار المتكبر واللامبالي (في معظم الأحيان)، وإذا كانت كلمة «الوطن» لم تنطق أمامهم إلا بلهجة ساخرة، وإذا كان كل مربيهم يقفون من قضية روسيا موقف الاحتقار واللامبالاة، وكان أسمى الآباء والمربين نَفْساً لا يؤكدون لهم سوى الأفكار «الإنسانية العامة»، وكان آباؤهم يطردون مربياتهم في طفولتهم إذا سمعوهن يرتلن ابتهال «السيدة العذراء» عند مهودهم - فما الذي يمكن أن نطلبه من هؤلاء الصبية، وهل من الإنسانية أن نكتفي عند الدفاع عنهم، إذا كان هذا الدفاع مطلوباً، بإنكار الوقائع فقط؟

وقعتُ مؤخراً في الجرائد على entrefilet* الآتية:

«ورد في جريدة «كامسكو- فولجسكايا» أن ثلاثة من تلاميذ الصف الثالث في ثانوية «قازان» أحيلوا منذ أيام إلى المساءلة بتهمة ارتكابهم جريمة لها علاقة بهروبهم المفترض إلى أميركا». (الوقائع السانت- بطرسبورغية، 13 تشرين الثاني).

مثل هذا الخبر عن تلاميذ الصف الثالث في مدرسة ثانوية يهربون إلى أميركا كان يمكن

(*) الـ «ملاحظة» (بالفرنسية). (ن).

أن يبدو لي منذ عشرين عاماً خلطاً غير مفهوم. أما الآن فإنني أرى في مجرد كون هذا الأمر قد كف عن أن يبدو لي خلطاً، بل بالعكس، أصبح أمراً أفهمه، أرى فيه تبريراً له!

تبرير! يا إلهي، هل يمكن قول هذا!

أعرف أن هؤلاء ليسوا أول التلامذة الهاربين، وأن آخرين قد هربوا قبلهم، وهربوا لأن إخوتهم الكبار وآباءهم قد هربوا من قبل. أتذكرون القصة التي كتبها كيلسييف[42] عن الضابط الصغير الفقير الذي هرب سيراً على الأقدام عبر تورنيو وستوكهولم إلى غيرتسن[9] في لندن، وشغّله هذا مُنضِّداً في مطبعته؟ أتذكرون قصة غيرتسين نفسه عن «طالب المدرسة العسكرية» الذي توجه كما أظن، إلى جزر الفيلبين لإنشاء «كومونة» وترك له عشرين ألف فرنك لإنفاقها على المهاجرين الذين سيأتون في المستقبل؟ وعلى كل فإن هذه القصص كلها قديمة! وقد هرب إلى أميركا منذ ذاك الوقت، ابتغاء تذوق طعم «العمل الحر في دولة حرة»، شيوخ وآباء، وإخوة، وفتيات، وضباطُ حرسٍ... ولم يبق أحد لم يهرب سوى طلاب المدارس الدينية. فهل ندين أمثال هؤلاء الصبية الصغار، هؤلاء التلاميذ الثلاثة، إذا كانت الأفكار العظيمة عن «العمل الحر في دولة حرة» وعن الكومونة وعن الإنسان الأوربي العام قد استولت على عقولهم الضعيفة! هل ندينهم لأن كل هذا الهراء يبدو لهم ديناً، ولأن الغَيْبة* وخيانة الوطن تبدوان لهم فضيلة؟ وإذا أردنا إدانتهم، فما هي درجة هذه الإدانة؟ هنا المسألة.

ولكي يدعم كاتب مقالة «العالَم الروسي» فكرته التي يذهب فيها إلى أن المتورطين في «أمثال هذه الأعمال الجنونية» عندنا هم الكسالى والمتخلفون المتسكعون فقط، يورد تلك الكلمات المعروفة والسّارّة التي قالها وزير التعليم الشعبي مؤخراً في «كييف»، حيث صرّح بأنه بعد تفقده المؤسسات التعليمية في سبع مناطق تعليمية قد اقتنع بأن «موقف الشبيبة من قضية العلم غدا خلال الأعوام الأخيرة أكثر جدية بما لا يقاس، وأنها تعمل باجتهاد وإتقان أكبر بما لا يقاس».

نعم، إن هذه الكلمات سارّة بالطبع، وربما كان أملنا الوحيد معلقاً عليها بالذات. فمستقبلنا كله تقريباً يتوقف على الإصلاح التعليمي الذي يجري في عهد الحكم الحالي. إننا نعرف هذا. ولكنني أذكر أن وزير التعليم نفسه قد صرح في خطبته تلك بالذات بأن علينا الانتظار طويلاً لنلمس نتائج الإصلاح النهائية. لقد كنا نؤمن دائماً بأن شبيبتنا أكثر من قادرة على اتخاذ موقف من العلم أكثر جدية. ولكن حتى الآن لا يزال ضباب الأفكار الزائفة الكثيف وكثرة بقاع السراب والعقائد الخرافية البالية، تطوقنا وتطوق شبيبتنا من جميع الجهات، فيما

(*) كان دوستويفسكي يعني بكلمة «الغيبة» الإقامة خارج روسيا. (ن).

تتخذ حياتنا الاجتماعية برمتها، حياة آباء هؤلاء الشبان وأمهاتهم مظهراً غريباً، ما تنفك غرابته تزداد أكثر فأكثر إلى الحد الذي يجعلك رغماً عنك تبحث أحياناً عن كل الوسائل الممكنة للخروج من حالة الحيرة. ومن هذه الوسائل أن تقلل أنت نفسك من قسوة قلبك، وأن لا تخجل، ولو أحياناً، إذا ما وصفك أحدهم بلقب مواطن و... أن تقول الحقيقة، ولو أحياناً، حتى ولو كانت ليست ليبرالية بقدر كاف من وجهة نظرك.

يوميات كاتب عام 1876

كانون الثاني (يناير)

بدلاً من المقدمة
عن الدب الأكبر والدب الأصغر
وصلاة غوتة العظيم
وعن العادات السيئة عموماً

... خليستاكوف* كان يكذب ويكذب عند حاكم المدينة، ولكنه، على الأقل، كان يخاف بعض الشيء أن يمسكوا به ويطردوه من صالة الاستقبال. أما أمثال خليستاكوف المعاصرون فلا يخافون شيئاً، ويكذبون بمنتهى الطمأنينة.

الجميع الآن في حالة طمأنينة تامة. مطمئنون، بل ربما حتى سعيدون. لا أظن أن أحداً يحسب حساباً لشيء، وكل واحد يتصرف «ببساطة»، وهذا بحد ذاته منتهى السعادة. الآن، كما في السابق، كلهم مسكونون بالاعتزاز بالنفس، ولكن هذا الاعتزاز كان في السابق يدخل بتهيب، وينظر بتعجل واضطراب، ويتفرس في الوجوه: «هل دخلت بالشكل المناسب؟ وهل تكلمت بالشكل المناسب؟» أما الآن فإن كل واحد تراه، قبل كل شيء، واثقاً، وهو يدخل إلى مكان ما، بأن كل شيء هنا له وحده. وإذا لم يكن له، فإنه لن يشعر حتى بالغضب، بل سيحسم الأمر بلحظة؛ ألم تسمعوا بتلك الرسائل المختصرة التي يكتبها بعضهم:

«بابا العزيز، صار عمري ثلاثاً وعشرين سنة، ولم أحقق شيئاً حتى الآن؛ وأنا واثق بأنه لا مستقبل لي، لذا فقد قررت إنهاء حياتي...» ويطلق النار على نفسه. ولكنْ هنا ثمة شيء ما على الأقل، مفهوم: «لماذا أعيش، إذا لم يكن من أجل الكبرياء؟» بينما تجد شخصاً آخر ينظر حواليه، ويمشي قليلاً ثم يطلق النار على نفسه بصمت لسبب واحد فقط، هو أنه لا يملك نقوداً يستأجر بها عشيقة. وهذا طبعاً منتهى الخنزرة:

(*) من أبطال مسرحية غوغول الشهيرة: «المفتش العام». (م).

إنهم يؤكدون في وسائل النشر المطبوعة أنهم يفعلون هذا لأنهم يفكرون كثيراً[43] «يفكر يفكر بينه وبين نفسه، ثم يطفو فجأة في مكان ما، وبالذات في المكان الذي حدده هو». وأنا على يقين بأنه، بالعكس، لم يفكر في أي شيء على الإطلاق، وأنه غير قادر البتة على تشكيل مفهوم، ومتخلف حتى درجة الوحشية، وإذا ما رغب في شيء ما فإن رغبته تكون غريزية، لا واعية؛ إنها ببساطة حالة خنزرة كاملة، وليس ثمة شيء ليبرالي على الإطلاق.

كما ليس ثمة أي سؤال هاملتي لكن الخوف مما سنلقاه هناك*...

وفي هذا كثير جداً من الغرابة. أيمكن أن يعني هذا انعدام التفكير في الطبيعة الروسية؟ أقول انعدام التفكير وليس انعدام المعنى[44]. طيب، لا تؤمنْ ولكن فكِّرْ على الأقل. الشخص المنتحر عندنا لا يوجد لديه حتى ظل ارتياب فيما يخص مفهوم: أنا كائن خالد. بل كأنه لم يسمع قط أي شيء على الإطلاق عن هذا. وهو، مع ذلك، ليس ملحداً البتة. تذكروا الملحدين السابقين: ما إن كانوا يفقدون إيمانهم بشيء حتى يؤمنوا على الفور إيماناً قوياً بشيء آخر. تذكروا الإيمان القوي لدى ديدرو وفولتير... أما لدى جماعتنا فـ tabula rasa** تماماً. وأي فولتير هنا: الأمر بكل بساطة، عدم وجود نقود لاستئجار عشيقة، ولا شيء أكثر.

فارتر المنتحر يعرب في الأسطر الأخيرة التي كتبها قبل أن ينهي حياته عن أسفه لأنه لم يشاهد بعد «كوكبة الدب الأكبر الرائعة» ويودعها. أوه، كيف تجلى في هذه الإشارة غوته الذي كان آنذاك قد بدأ الإبداع لتوّه! ما الذي جعل مجموعات النجوم هذه عزيزة عند فارتر الشاب إلى هذه الحد؟ إنه إدراكه، في كل مرة كان يتأملها فيها، بأنه ليس ذرة البتة، وليس لا شيء بالقياس إليها، وأن كل هذا الفضاء اللامتناهي من العجائب الإلهية الغامضة ليس أعلى من تفكيره على الإطلاق، وليس أعلى من وعيه، ليس أعلى من المَثَل الجمالي الكامن في نفسه، ومن ثم فهو مساوٍ له، ويربطه برباط القربى مع لا نهائية الوجود... وأنه مدين بكل هذه السعادة المتأتية عن شعوره بهذه الفكرة العظيمة التي تكشف له عن حقيقة من يكون؟ لطبيعته الإنسانية وحدها. «أيها الروح العظيم، إنني أشكر لك هذه الطبيعة الإنسانية التي أعطيتنيها».

هذه هي الصلاة التي كان على غوته العظيم أن يلتزمها طوال حياته. وهُمْ عندنا يحطمون بكل بساطة، وبدون كل هذه «الألاعيب» الألمانية، هذه الطبيعة التي أُعطيها الإنسان، أما فيما يخص الدب، وليس الأكبر فحسب بل الأصغر أيضاً، فلا أحد يخطر بباله أن يودعه،

(*) انظر مناجاة هاملت في الفصل الثالث – المشهد الأول (هناك: أي بعد الموت). (م).

(**) فراغ (صفحة بيضاء) «باللاتينية». (ن).

وإذا ما خطر بباله فإنه لا يُقدم على ذلك: إذ إن هذا أمر مخجل بالنسبة له. سيسألني القارئ مدهوشاً:

- عم أنت تتحدث؟

- كنت أريد أن أكتب مقدمة، فليس من الجائز الكتابة بلا مقدمة بالمرة.

- في هذه الحالة ليتك تبين لنا اتجاهك، قناعاتك؛ اشرح لنا: من أنت وكيف تجرأت على إعلان «يوميات كاتب»؟

ولكن هذا صعب جداً، وأرى أنني لا أحسن كتابة المقدمات ولربما كانت كتابة المقدمة تضاهي في صعوبتها كتابة الرسالة: أما فيما يخص الليبرالية (بدلاً من كلمة «الاتجاه» سأستعمل مباشرة كلمة «الليبرالية») فإن «المجهول» الذي يعرفه الجميع يذكر في إحدى أساخيره[45] الأخيرة، التي يصف فيها بأسلوب لا يخلو من التهكم القارص، كيف استقبلت صحافتنا العام الجديد 1876، يذكر أن كل شيء قد جرى بقدر كاف من الليبرالية. وأنا مسرور بتهكمه القارص هنا. فعلاً لقد تحولت الليبرالية عندنا في المدة الأخيرة في كل مكان إما إلى مِهْنة، أو إلى عادة سيئة. أقصد أن هذه العادة بحد ذاتها كان يمكن ألّا تكون سيئة على الإطلاق، ولكن كل هذه الأمور قد اتخذت عندنا، على نحو ما، هذا الطابع.

ومما يثير الاستغراب أن ليبراليتنا تنتمي، كما يبدو، إلى فئة الليبراليات المُطَمْأنَة والمُطْمَئنة، وهو أمر، حسب رأيي، جد سيئ، لأن مذهب الطمأنينة التواكلية[46] (الكويتزم)، كما يبدو لي أقل انسجاماً مع الليبرالية من أي شيء آخر. ومع ذلك، وبغض النظر عن مثل هذه الطمأنينة، تظهر في كل مكان دلائل أكيدة على أنه يختفي من مجتمعنا شيئاً فشيئاً اختفاءً تاماً الفهمُ الذي يفرّق بين ما هو ليبرالي وما هو ليس ليبرالياً بالمرة، وعلى هذا الصعيد يبدؤون بالوقوع في حيرة مربكة؛ بل إن ثمة أمثلة على حالات حيرة مفرطة. وباختصار فإن ليبراليينا، بدلاً من أن يصبحوا أكثر حرية، ربطوا أنفسهم بالليبرالية كما بالحبال، ولذا فإنني أستغل هذه الحادثة الطريفة، وأغفل الحديث عن تفاصيل ليبراليتي. ولكنني على العموم أقول إنني أعد نفسي ليبرالياً أكثر من الجميع، وذلك لسبب واحد على الأقل هو أنني لا أرغب البتة في الاطمئنان. والآن كفاني كلاماً عن هذا. أما فيما يخص السؤال: أي إنسان أنا؟ فإن بإمكاني الإجابة عنه كالآتي: "je suis un homme heureux qui n'a pas l'air content" أي بالروسية «أنا إنسان سعيد ولكنني مستاء من أمر ما»*.

بهذا أختتم المقدمة. وأنا لم أكتبها أصلاً إلا لاستكمال الشكليات.

(*) الترجمة عن الروسية.

الرواية القادمة
مرة أخرى «الأسرة العرضية»

زيّنوا في نادي الفنانين التشكيليين شجرة عيد الميلاد، وأقاموا حفلاً راقصاً للصغار، وقد ذهبت إلى هناك لأنظر إلى الأطفال. كنت في السابق دائماً أراقب الأطفال، ولكنني الآن أتأملهم بإمعان. وقد سبق أن وضعت نصب عينيّ منذ مدة بعيدة هدفاً سامياً هو كتابة رواية عن الأطفال الروس الحاليين، وطبعاً عن آبائهم الحاليين، أيضاً في إطار العلاقات القائمة بينهم حالياً. «القصة» جاهزة وقد أُنشئتْ قبل أي شيء آخر، كما يجب أن تكون الأمور دائماً لدى الروائي. إنني آخذ الآباء والبنين من جميع فئات المجتمع ما أمكنني ذلك، وأتتبع شؤون الأبناء منذ طفولتهم المبكرة.

عندما دعاني نيكولاي الكسييفتش نِكراسوف منذ عام ونصف إلى كتابة رواية لنشرها في مجلة «المذكرات الوطنية» كدت أن أبدأ آنذاك بكتابة روايتي عن «الآباء والبنين» ولكنني أمسكت، والحمد للرب على هذا: إذ لم أكن مستعداً بعد. ولم أكتب حتى الآن سوى رواية «المراهق»، وهي التجربة الأولى لتجسيد فكرتي. ولكن الطفل هنا قد جاوز مرحلة الطفولة وغدا رجلاً ولكنه لم يبلغ أشده بعد، وهو يرغب بتهيب وتجاسر في أن يخطو خطوته الأولى في الحياة بأسرع ما يمكن. اخترت نَفْساً غير آثمة ولكنها قد تلوثت بإمكانية الفسق المرعبة، وبالكراهية المبكرة بسبب تفاهتها و«عَرَضيّتها»، وأفسدتها شدة إقبال النفس، التي ما زالت بعد عفيفة، على ممارسة الرذيلة عن وعي في أفكارها، واحتضانها لهذه الرذيلة في قلبها، والتمتع بتأملها في أحلامها التي ما زالت خجولة، ولكنها مع ذلك متجاسرة وجامحة. هذه النفوس كلها متروكة لتعتمد فقط على قواها الذاتية، وعلى قدراتها الإدراكية الشخصية، وأيضاً، والحق يقال، على الرب. إنها كلها أجنّة مُجهَضة أسقطها المجتمع، وأفراد «عَرَضيّون» في أُسر «عَرَضيّة».

قرأ الجميع في الصحف مؤخراً نبأ قتل المواطنة بيروفا التي تنتمي إلى الفئة الوسطى وانتحار قاتلها. كانت تعيش معه، وكان يعمل في مطبعة، ولكنه فقد عمله، أما هي فقد استأجرت شقة وأسكنت فيها مستأجرين. ونشب بينهما خلاف. فطلبت منه أن يتركها. وكان القاتل من ذوي الطبع الجديد: «إن لم يكن لي فلن يكون لأحد». وعدها بأنه «سيتركها»، وقتلها ليلاً بطريقة بربرية، قتلها عمداً وعن سابق تصميم، ثم قتل نفسه. بيروفا تركت طفلين:

أحدهما في الثانية عشرة، والثاني في التاسعة؛ وهما ولدا سفاح، ولكن ليس من القاتل، بل وضعتهما قبل أن تعرفه. كانت تحبهما. وقد شهد كلاهما كيف بدأ القاتل منذ المساء يعذب أمّهما بعبارات التقريع في مشهد رهيب حتى أوصلها إلى حد الإغماء؛ وكانا يتوسلان إليها ألا تذهب إلى غرفته، ولكنها ذهبت.

جريدة «الصوت» تدعو الجمهور إلى مساعدة «اليتيمين التعسين» اللذين يدرس أحدهما، وهو الأكبر، في المدرسة الخامسة، بينما لا يزال الثاني يعيش في البيت. مرة أخرى أسرة «بالمصادفة»، [أسرة عَرَضيّة] مرة أخرى أطفال أُفعمت نفوسهم الفتية بانطباعات كئيبة. المشهد الكئيب سيبقى ماثلاً في نَفْسَيْ هذين الطفلين طوال العمر، ويمكن أن يجرح كبرياءهما الفتية جرحاً مؤلماً منذ تلك الأيام التي

«تكون فيها كل انطباعات الوجود جديدة علينا*».

ومن هنا تلك المهام التي تفوق الاستطاعة، وتلك المعاناة المبكرة لعزة النفس المجروحة، وحمرة الخجل غير المسوَّغ من الماضي، والكره المكتوم، المنغلق على نفسه، للناس، وربما دام هذا طوال العمر. فليبارك الرب مستقبل هذين الطفلين البريئين، وعسى أنهما لن يكفا عن حب أمهما المسكينة طوال حياتهما، من غير أن يلوماها، ومن غير أن يشعرا بالخجل بسبب هذا الحب. أما مساعدتهما فواجبة حتماً. ومجتمعنا في مثل هذه الحالات متجاوب ونبيل. وهل من المعقول أن يتوجب عليهما ترك المدرسة، إذا كانا قد بدأا منها؟ الكبير، كما يقولون، لن يتركها، ومصيره أصبح شبه محدد، فماذا عن الصغير؟ وهل من المعقول أن يجمعوا لهما نحو سبعين أو مئة روبل ثم ينسوهما؟ شكراً لمجلة «الصوت» لأنها تذكرنا بالتعساء.

(*) اقتباس بتصرف من قصيدة بوشكين «الشيطان». (ن).

شجرة عيد الميلاد في نادي الفنانين التشكيليين، الأطفال المفكرون، والأطفال المُسَهَّل لهم، «الفتيان النهمون» و«الفويْكات»، النقيب الموسكوفي المتعجل.

لن أصف بالتفصيل، طبعاً، شجرة عيد الميلاد والرقص في نادي الفنانين: فكل ذلك قد وُصف في حينه منذ وقت طويل، وأنا نفسي قرأت هذا الوصف بمتعة كبيرة في مقالات أخرى. وأقول فقط إنني لم أزر قبل ذلك أي مكان منذ مدة بعيدة، ولم أحضر أي حفل، وعشت في وحدة مدة طويلة.

بادئ ذي بدء رقص الأطفال، وكلهم كانوا يرتدون حللاً بديعة. من الطريف أن تراقب كيف تنغرس أعقد المفاهيم في وعي الطفل على نحو غير ملحوظ البتة. إن هذا الطفل الذي لا يحسن بعدُ الربط بين فكرتين تراه أحياناً يدرك على نحو رائع أعمق الأمور الحياتية. يقول أحد العلماء الألمان إن أي طفل يكتسب في السنوات الثلاث الأولى من عمره ثلث الأفكار والمعارف التي ستصحبه حتى مماته شيخاً. وكان هنا أطفال في السادسة من عمرهم، وأنا متأكد أنهم كانوا يدركون تماماً لماذا جاؤوا إلى هنا، وما الهدف من مجيئهم مرتدين هذه الملابس الغالية، بينما يرتدون في بيوتهم ثياباً رثة قذرة (إمكانيات الفئة المتوسطة في الوقت الحالي تجعل الأمر هكذا حتماً). وأكثر من ذلك أنهم، على الأرجح، يدركون أن الأمور هكذا يجب أن تكون، وأن هذا ليس شذوذاً على الإطلاق، بل هو قانون الطبيعة السوي. وهم، طبعاً، لا يعبرون عن هذا بالكلمات، لكنهم يعرفونه داخلياً، مع أنه في الحقيقة فكرة شديدة التعقيد.

الأطفال الذين أعجبوني أكثر من سواهم هم الأصغر سناً. فقد كانوا محببين جداً ومنطلقين. أما الأطفال الأكبر فهم منطلقون ولكن مع بعض التجرؤ المفرط. ومن البديهي أن أكثرهم انطلاقاً ومرحاً كانوا أولئك الذين سيكشف المستقبل عن أنهم أشخاص عاديون وغير موهوبين. وهذا قانون عام: فالعاديون (المتوسطون) دائماً منطلقوَن سواء الأطفال أو الآباء. أما الطفل الأكثر موهبة وفرادة فيكون دائماً أكثر تحفظاً، وإذا ما كان مرحاً فإنه يمتاز بعادة لازبة وهي جر الآخرين وراءه وقيادتهم. ومما يدعو للأسف أيضا أنهم الآن يُسَهَّلون للأطفال

كل شيء: لا الدراسة فقط أياً كانت، ولا مختلف طرائق اكتساب المعارف فحسب، بل حتى اللَّعِب واللُّعَب. فما إن يبدأ الطفل يثغثغ أولى الكلمات حتى يشرعوا على الفور بالتسهيل له. وقد اتجه علم التربية برمته الآن نحو الاعتناء بالتسهيل، مع أن التسهيل، في بعض الأحيان لا يؤدي على الإطلاق إلى التطوير، بل حتى بالعكس، يؤدي إلى التبلّد. إن فكرتين أو ثلاثاً، وانطباعين أو ثلاثة تتسم بالعمق، يكتسبها الطفل بجهده الخاص (أو إذا شئتم: عبر المعاناة) تجعله يتعمق في إدراك الحياة أكثر بكثير مما تفعله أكثر المدارس تسهيلاً، تلك المدارس التي يتخرج منها في الغالب أشخاص لا من هؤلاء ولا من أولئك، لا خير ولا شر، وحتى في الرذيلة ليسوا رذلاء، ولا هم في الفضيلة فضلاء.

وماذا عن القواقع، وصلت؟ يا للفرحة!
يطير الفتيان النهمون
لالتهامها...*

وهؤلاء «الفتيان النهمون» (إنه الشطر الرديء الوحيد لدى بوشكين، لأنه لا ينطوي على أي تهكم، بل يكاد يكون مديحاً) أقول: هؤلاء الفتيان النهمون لا بد أن يكون شيء ما قد جعلهم كذلك؟ فتية فاسدون وممجوجون، وأنا واثق بأن التربية التي بولغ في تسهيلها تساعد كثيراً على تكوينهم هكذا؛ وهذا «الخير» لدينا منه الكثير!

البنات، على العموم، أقرب إلى الفهم من الصبيان. ما السبب يا تُرى في أن البنات يكنّ دائماً حتى سن الرشد تقريباً (ولكن ليس إلى ما بعد ذلك) أكثر تطوراً، أو يبدون أكثر تطوراً من أترابهن الصبيان؟ وهن مفهومات بصورة خاصة في أثناء الرقص: إذ بوسعك أن تتكهن أن هذه أو تلك منهن ستصبح في المستقبل «فويْكا» ولن تستطيع في حال من الأحوال أن تتزوج مهما رغبت في ذلك وأنا أسمّي «فويكات» أولئك الفتيات اللواتي يبقين حتى سن الثلاثين تقريباً يُجِبْنك: «فوي ونُنْ**». وبالمقابل ثمة فتيات يتضح لك منذ ذاك الوقت أنهن سيتزوجن بسرعة حالما يرغبن في ذلك.

ولكن ما هو أكثر استهتاراً في رأيي إلباس فتاة، تكاد تكون بالغة، ملابس الأطفال لترقص بها. هذا فعلاً أمر سيئ. وبعض هؤلاء الفتيات بقين يرقصن مع الكبار وهن يرتدين فساتين قصيرة تكشف عن سيقانهن، حتى بعد أن انتهت حفلة رقص الأطفال في منتصف الليل، واندفع الآباء إلى حلبة الرقص. لقد أعجبت بكل شيء إعجاباً فائقاً، ولولا تزاحم المراهقين

(*) من رواية «بوشكين» الشعرية: «يفغيني أونيغن». (ن).
(**) تحريف مُتصنَّع لكلمتي وي oui ونو non («نعم»و«لا» الفرنسيتين). (م).

وتدافعهم لكان الاستمتاع بكل ما جرى كاملاً. وبالفعل، فكل الكبار كانوا لبقين، وأنيقين بابتهاجهم. أما المراهقون (وليس الأطفال بل المراهقون، شبان المستقبل، الذين كانوا يرتدون سترات رسمية مختلفة وكان عددهم كبيراً جداً) فقد كانوا يتزاحمون على نحو لا يُحتمل، ويدفعون الآخرين بدون اعتذار، ويتجاوزونهم وكأن لهم كامل الحق في ذلك. دفعوني نحو خمسين مرة؛ ربما كانوا يُعلِّمونهم ذلك ليطوروا لديهم القدرة على التصرف بلا كلفة. ومع ذلك فقد أعجبت بكل شيء لأنني لم أشهد مثل هذا الحفل منذ مدة طويلة، وذلك على الرغم من الجو الخانق جداً، ومن الأضواء الكهربائية الساطعة، ومن الصرخات الآمرة المدويّة التي كان يطلقها المشرف على رقص الباليه.

منذ أيام قرأت في أحد أعداد «الجريدة البطرسبورغية» استطلاعاً كتبه مراسلها في موسكو حول الفضائح التي جرت خلال الأعياد في جمعية النبلاء، وفي حلقة الفنانين، وفي المسرح، وفي الحفلة التنكرية إلخ... وإذا صدقنا ما نقله المراسل (فربما كان المراسل الذي تحدث عن الرذيلة، قد أغفل عن عمد الحديث عن الفضيلة)، فإننا سنستنتج أن مجتمعنا لم يكن قط أقرب إلى الفضيحة مما هو الآن. وثمة أمر غريب: ما سبب أنني منذ طفولتي المبكرة، وطوال حياتي، ما إن أحضر اجتماعاً حاشداً يحتفل فيه الروس بِعيدٍ ما حتى يبدو لي مباشرة أن احتفالهم هذا مجرد مظهر مؤقت، وأنهم لن يلبثوا أن يبدؤوا العربدة فجأة، كما يفعلون في بيوتهم بالضبط؟ إنها فكرة سخيفة وخيالية؛ ولشدّ ما كنت أشعر بالخجل منذ طفولتي وألوم نفسي على مراودتها لي. وهي فكرة لا تصمد أمام أي نقد. أوه، طبعاً، إن التجار والضباط الذين يتحدث عنهم المراسل الصادق (إنني أصدقه تماماً) كانوا سابقاً موجودين، وهم دائماً موجودون، فهذا أنموذج لا يموت؛ ولكنهم مع ذلك كانوا في السابق يخافون أكثر، ويخفون مشاعرهم، أما الآن فإنك تفاجأ من حين لآخر بسيد ينرفع إلى الوسط بالضبط معتبراً نفسه صاحب حق جديد تماماً. ولا جدال في أن كثيرين جداً من الروس تخيلوا فجأة لسبب ما خلال الأعوام العشرين الأخيرة أنهم امتلكوا حقاً كاملاً في تدنيس شرف الآخرين، وأن هذا الأمر محمود الآن، وأن الناس سيمتدحونهم عليه، ولن يخرجوهم من مجالسهم. ومن ناحية أخرى أنا أدرك أن كثيرين (أوه، ما أكثرهم!) يطيب لهم جداً أن يقفوا وسط مجلس وحولهم سيدات وسادة وحتى مسؤولون يتحدثون بعذوبة بالغة، ويتصرفون بلباقة فائقة، على نحو يتساوون فيه مع الجميع، حتى لكأنهم فعلاً في أوربا، يطيب لأولئك أن يقفوا وسط هؤلاء الأوربيين، ويصرخوا فجأة متفوهين بعبارات ما باللهجة الوطنية القحة، ويلطموا شخصاً ما على وجهه، ويلطخوا سمعة فتاة ما بكلمات بذيئة، وعلى العموم يلوثوا وسط القاعة بقذرهم وكأنهم يقولون: «تلقّوا جزاء التأورب طوال مئتي سنة، أما نحن فإننا لا نزال كما كنا، إننا

باقون ولم نختف!» يطيب لهم هذا. ولكن مع ذلك فإن الهمجي مخطئ: فهم لن يقبلوا به، وسيخرجوه من المجلس. من سيخرجه؟ الشرطة؟ لا... ليس الشرطة البتة، بل أمثاله من الهمجيين. هذه هي القوة التي ستخرجه. ولأشرح فكرتي.

أتعرفون من هم الذين يُسرّون، ربما أكثر من الجميع، بهذا المظهر الأوربي للمجتمع الروسي المحتشد ليحتفل بالعيد على الطريقة الأوربية، والذين يبزون الجميع في إعلاء قيمة هذا المظهر؟ إنهم بالذات أولئك الذين ينتمون إلى فصيلة سكفوزنيك - دموخانوفسكي* وتشيتشيكوف** وربما حتى ديرجيموردا*** أي أولئك الأشخاص بالذات، الذين هم في منازلهم، وفي حياتهم الخاصة قوميون إلى أقصى الحدود. أوه، إن لهم مجالسهم ورقصاتهم هناك، في منازلهم، ولكنهم لا يقيمون لها وزناً ولا يحترمونها؛ بل تراهم يعلون من قيمة الحفلات الراقصة التي تقيمها المحافَظَة، والحفلات الراقصة في المجتمعات الراقية، والتي سمعوا عنها من خليستاكوف، ولماذا؟ لا لشيئ إلا لأنهم هم أنفسهم لا يشبهون المجتمع الراقي. ولذلك فإن الواحد منهم تراه يُعِزُّ الأشكال الأوربية، على الرغم من أنه يعرف معرفة أكيدة أنه هو شخصياً لن يتوب، وسيعود من الحفلة الأوربية إلى البيت كما هو يجادل بقبضتيه؛ ولكن ما يواسيه هو أنه أبدى احترامه للفضيلة ولو في الخيال. إنه يعرف تماماً أن كل هذا سراب، ولكن مع ذلك فإنه بحضوره الحفل الراقص، قد تأكد أن هذا السراب لا يزال مستمراً، وأنه ما زال موجوداً بفضل شيء ما، بفضل قوة غير مرئية، لكنها خارقة، وأنه حتى هو نفسه لم يتجرأ على الخروج إلى الوسط، والتفوه بكلمات ما باللهجة القومية، وتروق له كثيراً فكرة أنهم لم يسمحوا ولن يسمحوا له بذلك في المستقبل. إنكم لن تصدقوا إلى أي حد يمكن للهمجي أن يحب أوربا متصوراً أنه بهذا إنما يشارك هو أيضاً في الطقس المقدس. ولكن لا شك في أنه غالباً ما يكون عاجزاً عن أن يحدد: فيم يقوم هذا الطقس؟ خليستاكوف، مثلاً كان يفترض أنه يتجسد في تلك البطيخة التي يبلغ ثمنها مئة روبل، والتي يقدمونها في حفلات المجتمع الراقي****. وربما ظل سفوزنيك - دموخانوفسكي حتى الآن مقتنعاً بما قيل عن البطيخة، على الرغم من أنه اكتشف حقيقة خليستاكوف وأصبح يحتقره، ولكنه يُسرّ بإبداء احترامه للفضيلة حتى ولو تمثلت في بطيخة. وليس في هذا أي رياء، بل تتجلى هنا أكمل آيات الإخلاص، بل حتى الحاجة. ثم إن للرياء هنا أثراً حسناً، إذ ما هو الرياء؟ إنه تلك الضريبة التي

(*) حاكم المدينة في مسرحية غوغول: «المفتش العام».(ن).

(**) بطل رواية غوغول «النفوس الميتة». (ن).

(***) شرطي في مسرحية «المفتش العام». (ن).

(****) انظر المشهد السادس من الفصل الثالث من مسرحية غوغول «المفتش العام».

يتوجب على الرذيلة أن تدفعها للفضيلة، وهذه الفكرة تواسي إلى أقصى حد الشخص الراغب في أن يظل فاسداً على الصعيد العملي من دون أن يقطع صلته بالفضيلة، ولو على الصعيد النفسي الداخلي. أوه، إن الرذيلة تحب جداً أن تدفع ضريبةً للفضيلة، وهذا أمر جيد جداً. إنه كاف مؤقتاً بالنسبة إلينا، أليس كذلك؟ ولذلك فإن الضابط الذي وقف في وسط الصالة في موسكو ورفع عقيرته بالصراخ يظل استثناء شاذاً وشخصاً متسرعاً، على الأقل حتى الآن، ولكن حتى هذه الـ «حتى الآن» تنطوي على عزاء لنا في زمننا المترجرج هذا.

وعلى هذا فإن الحفلة الراقصة هي شيء محافِظ قطعاً، بأفضل معاني هذه الكلمة، وأنا لا أمزح على الإطلاق عندما أقول هذا.

العصر الذهبي في الجيب

وعلى كل فقد انتابني شعور بالملل، لا، ليس بالملل، بل ببعض الأسى. انتهت حفلة الأطفال وبدأت حفلة الآباء، ويا إلهي كيف تجلى انعدام الموهبة عندئذ! الجميع يرتدون بدلات جديدة، ولا أحد يحسن ارتداء البدلة. الجميع يمرحون، ولا أحد تجده مرحاً. الجميع يعتزون بذواتهم، ولا أحد يحسن إظهار ذاته. جميعهم يشعرون بالحسد، وجميعهم يلوذون بالصمت ويتنحّون جانباً. وحتى الرقص لا يجيدونه. انظروا إلى هذا الضابط القصير القامة جداً وهو يدور في الحلبة (مثل هذا الضابط القصير جداً والذي يدور بوحشية لا بد لكم أن تصادفوه في جميع الحفلات الراقصة التي تقيمها الفئة الاجتماعية الوسطى). إن رقصه كله، وأسلوبه كله في الرقص لا يتعدى تدوير مرافقته على نحو شبه وحشي، وبدفعات قوية توحي بأنه قادر على تدوير ثلاثين أو أربعين مرافقة أخرى مجتمعاتٍ؛ وهو يفخر بهذا. ولكن أي جمال في هذا! إن الرقص يكاد يكون بوحاً بالحب (تذكروا الـ«مينويت»*)، أما هو فكأنه في عراك. وقد خطرت لي فكرة خيالية وغريبة للغاية. قلت لنفسي: «ماذا لو أن كل هؤلاء المدعوين الظرفاء والمحترمين رغبوا ولو للحظةٍ واحدة في أن يصبحوا صادقي المشاعر وسليمي الطوية - إلامَ ستتحول فجأة هذه الصالة ذات الجو الخانق؟ ماذا لو أن كل

(*) رقصة فرنسية قديمة ثلاثية الأبعاد ذات إيقاع معتدل وحركات انسيابية. (ن).

واحد منهم أحاط بالسر فجأة؟ ماذا لو أن كل واحد منهم أدرك فجأة كم يكمن في داخله من استقامة، ونزاهة، ومرح قلبي صادق إلى أقصى الحدود، ونقاء، ومشاعر سمحة، ورغبات طيبة، وذكاء - أي ذكاء!- بل ألمعية رهيفة وحصيفة للغاية. وهذا في كل منهم، في كل واحد منهم على الإطلاق! نعم أيها السادة، في كل واحد منكم يكمن كل هذا، وليس من أحد منكم، ليس من أحد يعرف عن هذا أي شيء! أوه، أيها المدعوون الأعزاء أقسم لكم إن كل واحد وكل واحدة منكم أذكى من فولتير وأرهف إحساساً من روسو، وأشد إغراء بما لا يقاس من ألقيبيادس[47]، ودون جوان، ولوكريتسيا[48] وجولييت وبياتريس* أنتم لا تصدقون أنكم رائعون إلى هذا الحد؟ وها أنا أعلن لكم، وبكلمة شرف، أنكم لن تجدوا لدى شكسبير وشيللر وهوميروس مجتمعين ما هو أبدع مما يمكن أن نجده الآن، في هذه اللحظة، بينكم هنا، في هذه الحفلة الراقصة. وأي شكسبير! هنا سيظهر لنا ما لم يحلم به حكماؤنا. ولكن مصيبتكم في أنكم لا تعرفون كم أنتم رائعون! هل تعرفون أن أي واحد منكم يقدر، إذا أراد، على أن يسعد الآن جميع من في هذه الصالة ويجعلهم يتبعونه؟ وهذه القدرة موجودة في كل واحد منكم، ولكنها متوارية في مخبأ عميق إلى الحد الذي جعلها تبدو منذ زمن بعيد غير محتملة الوجود. أوَ يمكن حقاً ألّا يكون ثمة وجود للعصر الذهبي إلّا على الفناجين الخزفية؟

لا تعبس يا صاحب المعالي، عند سماعك عبارة «العصر الذهبي»: أعدك وعد شرف بأنهم لن يرغموك على ارتداء حلة العصر الذهبي مع ورقة الحياء، بل سيبقون لك زيَّك الجنرالي كاملاً. وأؤكد لك أن العصر الذهبي يمكن أن تصادف فيه أناساً برتبة جنرال. جرّب فقط، يا صاحب المعالي، ولو الآن على الأقل، فأنت الأعلى رتبة هنا، والمبادرة لك، وسترى بنفسك أية لوذعية بيرونية[49]، إذا صح التعبير، يمكنك أن تُظهر فجأة، على نحو لم تكن أنت نفسك تتوقعه البتة. هل تضحك؟ لا تصدق؟ أنا سعيد لأنني أضحكتك، ولكن مع ذلك، فإن كل ما أعلنتُه الآن ليس مفارقة، بل حقيقة محض... إلّا أن مصيبتك كلها في أنك لا تصدق.

(*) جولييت: بطلة مأساة شكسبير «روميو وجولييت» (نحو 1595)، بياتريس: بطلة ملهاة «جعجعة ولا أرى طِحناً» لشكسبير (1598-1599). (ن).

الصبي ويده

الأطفال مخلوقات غريبة، أطيافهم لا تنفك تتراءى في الحلم والمخيلة. قبل الاحتفال بشجرة عيد الميلاد، وفي غضون الاحتفال بها، وقبيل موعد الميلاد، كنت أصادف في الشارع، عند زاوية محددة، صبياً لا يزيد عمره على سبع سنوات. كان يرتدي في الجو الصقيعي القارص ثياباً تكاد تكون صيفية؛ إلا أن عنقه كان دائماً ملفوفاً بقطعة قماش بالية مما يدل على أن شخصاً ما كان يجهزه ويرسله. كان يمشي «مع يده»، وهذا مصطلح فني يعني أنه كان يتسول؛ وقد اخترعه الأطفال أنفسهم. وأمثال هذا الصبي كثيرون، وتراهم يلوبون أمامك في الطريق، ويزعقون بصوت كالعويل مرددين عبارات عن ظهر قلب. ولكن هذا لم يكن يزعق، بل كان يتكلم بنوع من البراءة وعلى نحو غير مألوف، وينظر في عينيّ نظرة تقول إنه يصدقني، معنى ذلك أنه بدأ يمارس المهنة لتوّه. وقد أبلغني في رده عن أسئلتي أن له أختاً أقعدها المرض عن العمل. وربما كان هذا صحيحاً، ولكنني عرفت فيما بعد أن أمثال هذا الصبي كثيرون جداً، وأن ثمة من يرسلهم «مع أيديهم» حتى وإن كان الصقيع قارصاً جداً، وإذا عادوا خالي الوفاض كان العقاب بالضرب في انتظارهم حتماً. وعندما يجمع الصبي من هؤلاء بضعة كوبيكات يعود بيدين حمراوين متيبستين إلى قبو ما حيث تسكر عصابة من المتشردين البطّالين، من أولئك الذين «يُضرِبون في المصنع يوم السبت قبيل الأحد ولا يعودون إلى العمل قبل مساء الأربعاء». وتسكر معهم في هذه الأقبية زوجاتهم الجائعات اللواتي يتعرضن للضرب، بينما يتعالى زعيق أطفالهن الرّضع الجائعين. فودكا، وقذارة، وفسق، والأهم الفودكا. وما إن يعود الطفل من جولته حتى يرسلوه على الفور مع ما جمعه من كوبيات إلى الخمارة ليجلب مزيداً من الخمر. وأحياناً يصبّون في فمه نصف زجاجة من الفودكا كي يتسلوا ويشرعون يقهقهون عندما يقع على الأرض وقد تقطعت أنفاسه وكاد يفقد الوعي.

... وكان يصب الفودكا الكريهة

في فمي بلا شفقة... *

وعندما يكبر قليلاً يسارع هؤلاء المشردونِ البطّالون إلى تدبير عمل له في مصنع ما، ولكنه يظل ملزماً كالعادة، بإعطائهم كل ما يكسبه هناك، كي يصرفوه على السُكر. ولكن

(*) اقتباس غير دقيق من قصيدة ن.أ. نِكراسوف «الطفولة» (ن).

حتى قبل العمل في المصنع يصبح هؤلاء الصبية مجرمين كاملين. إنهم يتسكعون في أنحاء المدينة، ويعرفون أمكنة في أقبية شتى يمكنهم التسلل إليها والمبيت فيها بدون أن يلحظهم أحد. أحدهم بات عدة ليال على التوالي في قفّة كبيرة لأحد بوابي الأفنية بدون أن يلحظه البواب. ومن الطبيعي أن يصبح هؤلاء لصوصاً صغاراً. وتتحول اللصوصية لديهم إلى عادة مستحكمة حتى عندما يكونون أطفالاً في الثامنة؛ ويحدث هذا أحياناً بدون أي وعي لجرمية الفعل. وفي النهاية يتحملون كل شيء: الجوع والبرد والضرب، لقاء شيء واحد فقط هو الحرية، ويهربون من أوصيائهم المتشردين، ليتشردوا لحسابهم الخاص. إن هذا المخلوق الوحشي لا يدرك أحياناً أي شيء: لا أين يعيش، ولا من أية أمة هو، ولا يعرف شيئاً عن وجود الرب أو عن وجود القيصر؛ بل يروون عنهم أموراً لا تصدقها الأذن، ولكنها مع ذلك كلها حقائق.

إصلاحية الأحداث الجانحين.
كائنات بشرية كالحة.
تحويل النفوس الفاسدة إلى نفوس غير فاسدة.
الوسائل التي تُعَدُّ الأفضل لتحقيق ذلك.
أصدقاء الإنسانية الصغار والوقحون.

في ثالث أيام العيد شاهدت جميع هؤلاء الملائكة «الساقطين»، خمسين شخصاً بالتمام والكمال مجتمعين. ولا تظنوا أنني أضحك عندما أسميهم هكذا، ولكن الأمر الذي لا يرقى إليه الشك هو أن هؤلاء الأطفال «مهانون».ومن الذي أهانهم؟ من المذنب؟، وكيف أذنب، وفيمَ؟ كل هذه الأسئلة تبقى حتى الآن غير مجدية، ولا أجوبة لها، ومن الأفضل تناول جوهر المسألة.

زرت إصلاحية الأحداث الجانحين الكائنة خلف مصانع بوروخوف. وكنت أسعى منذ مدة طويلة للقيام بهذه الزيارة، ولكن لم يكن يتسنى لي ذلك، وفجأة تيسرت لي فسحة من

الوقت وتطوّع أشخاص طيبون لإطلاعي على كل شيء. توجهنا إلى هناك في يوم دافئ مكفهر بعض الشيء، وما إن تجاوزنا مصانع بوروخوف حتى دخلنا في غابة؛ وهنا بالذات أقيمت الإصلاحية. ما أبدع الغابة شتاءً وهي مغمورة بالثلج! أية طزاجة هنا، وأي هواء نقي، وأي شعور بالتوحدّ. لقد ضحوا بنحو خمسمئة ديسيتينا* من الغابة لإقامة الإصلاحية التي تتألف من عدة أبنية خشبية جميلة تفصل بين كل منها والآخر مسافة معينة. وقد بُنيت كلها بأموال المتبرعين، وكلّف كل منها ثلاثة آلاف، وتعيش في كل بناء «أسرة»، والأسرة هي مجموعة من الصبية يراوح عددهم بين اثني عشر وسبعة عشر صبياً ويشرف عليهم مُربٍّ. وكان من المفترض أن يصل عدد النزلاء حتى الآن إلى سبعين شخصاً تبعاً لحجم الإصلاحية، ولكن العدد قد وصل في الوقت الحالي لسبب ما إلى خمسين لا أكثر. ويجب الاعتراف بأن المبالغ التي صُرفت كبيرة، وكلفة معيشة كل حدث جانح في السنة ليست بالقليلة. ومما يدعو للاستغراب أن الوضع الصحي في الإصلاحية كما نشرت الصحف مؤخراً، ليس مُرضياً تماماً: فعدد المرضى في المدة الأخيرة كان كبيراً، مع أن الهواء هنا وظروف معيشة الأولاد، كما يبدو، جيدان! قضينا في الإصلاحية عدة ساعات، من الحادية عشرة صباحاً حتى عتمة الغسق. وقد تكونت لدي قناعة بأنك في زيارة واحدة لن تتمكن من التعمق في معرفة كل شيء وفهم كل شيء. ودعاني مدير الإصلاحية للإقامة معهم يومين أو أكثر؛ وهذا عرض مغر جداً.

المدير ب.أ. روفنسكي[50] معروف في مجال الأدب، ومقالاته تُنشر أحياناً في صحيفة «بشير أوربا»**. وقد استقبلني بترحاب حار مفعم بروح المجاملة. وقرأت في السجل الذي وُضع في مكتب إدارة الإصلاحية ليكتب فيه الزوار أسماءهم إذا أرادوا، كثيراً من أسماء المشاهير، ما يعني أن الإصلاحية معروفة وتحظى بالاهتمام.

ولكن بصرف النظر عن المجاملة البالغة التي أبداها المدير المحترم فإنه على ما يبدو، شخص متحفظ جداً، ومع ذلك فقد أطلعنا بما يشبه الانبهار على الجوانب السارة في الإصلاحية، إلّا أنه، في الوقت نفسه، خفف بعض الشيء من حدة كل الأمور المزعجة التي لم تتم تسويتها بعد. وأسارع إلى القول إن هذا التحفظ، كما تهيأ لي ينبع من شدة الغيرة على الإصلاحية، وعلى القضية التي ما زالت في مبتداها.

المربّون الأربعة جميعهم (يبدو أنهم أربعة بعدد الأسَر) ليسوا من الكهول، بل يمكن القول

(*) الديسيتينا: وحدة قياس روسية قديمة للأراضي تساوي (1.09) هكتار. (م).

(**) اسم الصحيفة حرفياً هو «مُخبِر أوربا» أي «ناقل أخبار أوربا» ويترجم أحياناً بعبارة «رسول أوربا» و«مراسل أوربا» و«ساعي أوربا» ولكن الاسم الشائع في الترجمات العربية هو «بشير أوربا». (م).

إنهم في سن الشباب؛ ويتقاضى كل منهم مرتباً يبلغ ثلاثمئة روبل، وكلهم تقريباً من خريجي المدرسة الدينية. وهم يعيشون مع الأولاد في اختلاط تام إلى درجة أنهم يرتدون الزي نفسه تقريباً: رداء يشبه القميص مشدود عند الخصر بحزام. وعندما طفنا بالإصلاحية كانت الغرف فارغة، فالوقت عيد والأطفال يلعبون في مكان ما، مما سهّل لنا تفحص الحجرات. ليس ثمة كماليات لا لزوم لها، وليس ثمة زيادات فائضة توحي باتسام المتبرعين والمؤسسين بقدر زائد من الطيبة والإنسانية، وكان هذا ممكناً جداً ولو حدث لكان خطأً بالغاً. فالأسرّة، مثلاً، من أبسط ما يكون وهي حديدية، ويمكن أن تُطوى. والبياضات التي عليها مصنوعة من خام خشن إلى حد ما، واللحف أيضاً لا تتميز بأية أناقة، ولكنها دافئة. يستيقظ الأولاد هنا باكراً، ويقومون معاً بترتيب الأسرّة، وتنظيف الغرف، ويشطفون الأرضية عند اللزوم. وكانت تفوح قرب بعض الأسرّة رائحة ما، وقد عرفت بهذا الصدد شيئاً يكاد لا يصدّق، وهو أن بعض الأولاد (عددهم قليل ولكنه يصل إلى الثمانية أو التسعة) وليسوا من الصغار جداً، بل تصل أعمار بعضهم إلى اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة، يقضون حاجتهم نياماً، بدون أن ينهضوا من السرير. وعندما سألت: أليس هذا مرضاً من نوع خاص؟ أجابوني: لا على الإطلاق، بل كل ما في الأمر أنهم متوحشون، إنهم يأتون إلى هنا متوحشين إلى درجة أنهم لا يستطيعون أن يدركوا أن من الممكن، ومن الواجب، أن يتصرفوا بشكل آخر. فأين إذاً كانوا قبل أن يأتوا إلى هنا، في أية أكواخ قميئة نشؤوا، ومن كانوا يشاهدون هناك! ليس ثمة أية أسرة فلاحية تقريباً، مهما كانت فقيرة، لا تعلّم الطفل كيف يجب أن يتصرف في هذه الحالة، وليس هناك صبي، مهما كان صغيراً، لا يعرف هذا. مع أي أناس إذاً كان هؤلاء الصبية يتعاملون، وبأية لا مبالاة فظيعة كان أولئك الأناس ينظرون إلى وجود هؤلاء الصبية! هذه الواقعة، على كل حال، أكيدة، وأنا أعدّها ذات أهمية كبيرة، ولا داعي، لأن يضحكوا لأنني «أضخّم» هذه الواقعة الصغيرة «القذرة» إلى هذا الحد: فهي أكثر خطورة بكثير مما يمكن أن يبدو ظاهرياً. إنها تدل على أن ثمة كائنات من بني البشر قد بلغت درجة من الكلوح والفظاعة من شأنها أن تمحو من نفوسها كل أثر للإنسانية والمواطنية. ومن المفهوم بعد ذلك إلامَ ستتحول في النهاية هذه النفوس الصغيرة المتوحشة، وهي مهملة هكذا ومنبوذة من الناس. أجل، إن هذه النفوس الطفلية قد رأت مشاهد كالحة متجهمة، واعتادت الانطباعات القوية التي ستبقى معها، طبعاً، طوال الوقت، وستتراءى لها على مدى الحياة في أحلام مرعبة. وهكذا يتوجب على مصلحي هؤلاء الأطفال ومربيهم أن يدخلوا في صراع مع هذه الانطباعات الفظيعة لاستئصالها، وغرس انطباعات جديدة بدلاً منها. وهي مهمة جسيمة. قال لي ب. أ- تش: إنك لن تصدق من يصف لك حالة الوحشية التي يكون عليها بعضهم عندما يأتوننا إلى هنا. بعضهم لا يعرف

شيئاً عن نفسه ولا عن وضعه الاجتماعي. كان يتجول متشرداً بلا وعي تقريباً، والشيء الوحيد الذي كان يعرفه في هذا العالم والذي يستطيع فهمه هو حريته، حريته في التشرد، والموت برداً وجوعاً، المهم فقط أن يجول متشرداً. لدينا هنا صبي صغير لم يتجاوز العاشرة، وهو إلى الآن لا يستطيع بحال من الأحوال أن يقلع عن السرقة. إنه يسرق حتى من غير أي هدف أو مكسب، بل بغرض السرقة فحسب، ويفعل ذلك آلياً.

- وكيف تأملون في إعادة تربية أمثال هؤلاء الأطفال؟

- بالعمل، وبتغيير أسلوب حياتهم تغييراً تاماً، وبالعدل في المعاملة، وأخيراً بالأمل في أن ينسوا خلال ثلاث سنوات تلقائياً، وبفعل الزمن، أهواءهم وعاداتهم القديمة.

واستفسرتُ: هل تنتشر بين الصبية عادات طفلية فاسدة أخرى معروفة؟ وأذكّر بالمناسبة، بأن أعمار الصبية هنا تبدأ من العاشرة وتصل إلى السابعة عشرة، على الرغم من أن المقبولين للإصلاح يجب ألا تزيد أعمارهم قطعاً على الرابعة عشرة، فسارع ب. أ- تش إلى الرد قائلاً:

- أوه، لا، هذه العادات القبيحة لا يمكن أن توجد هنا، فالمربّون يلازمونهم باستمرار ويراقبون هذه الأمور باستمرار.

ولكنْ بدا لي أن هذا غير صحيح؛ إذ يوجد في هذه الإصلاحية بعض الأحداث الجانحين الذين كانوا مسجونين في قسم الأحداث، الذي ألغي الآن، في القلعة الليتوانية* وكنت قد زرت السجن المذكور منذ سنوات ثلاث وشاهدت هؤلاء الصبية. وقد عرفت فيما بعد معرفة أكيدة تماماً أن الفسق كان منتشراً بين المسجونين في القلعة انتشاراً غير عادي، إلى حد أن أولئك المتشردين الذي أرسلوا إلى القلعة ولم تكن عدوى هذا الفسق قد أصابتهم بعد مما جعلهم يشمئزون منه، كانوا يرضخون له فيما بعد غصباً عنهم تقريباً بسبب سخرية زملائهم من عفافهم.

وسألتُ: هل أصحاب السوابق كثيرون هنا؟

- ليسوا كثيرين جداً؛ فمن بين جميع الذين أُخلي سبيلهم من الإصلاحية لم يزد عدد أصحاب السوابق عن ثمانية (العدد، مع ذلك، ليس بالقليل).

وأشير هنا إلى أن معظم الأشخاص الذين يُخلى سبيلهم يتخرجون حِرفيين، ويُبحث لهم «سلفاً» عن مكان يعملون فيه. في السابق كانت بطاقات الهوية التي تعطيهم إياها الإصلاحية تضرهم كثيراً. أما الآن فقد أوجدوا وسيلة لإعطائهم بطاقات لا يمكن للناظر إليها أن يعرف، من النظرة الأولى، على الأقل، أن حاملها من خريجي إصلاحية الجانحين. وأضاف ب.أ- تش

(*) اسم سجن في بطرسبورغ.

قائلاً بسرعة: وبالمقابل هناك بعض المتخرجين الذين لا يستطيعون حتى الآن أن ينسوا حياتهم في الإصلاحية، وما إن يحل عيد ما حتى تراهم يجيئون حتماً ليزورونا ويحلوا علينا ضيوفاً.

وهكذا فإن أنجع وسيلة لإعادة تربية النفس المهانة والمُفسَدة وتحويلها إلى نفس نقية وشريفة هي العمل. وبالعمل يبدأ النهار في الحجرة، ومن ثم يذهب الأولاد إلى الورشات. وقد أروني في ورشات الحدادة والنجارة المنتجات المصنوعة، وهي جيدة ضمن الإمكانيات المتاحة، ولكنها، بالطبع، ستغدو أحسن بكثير عندما تنتظم الأمور. وتباع هذه المنتجات في صالح الصبية، وهكذا فإن كلاً منهم سيجد مبلغاً ما بانتظاره عند خروجه من الإصلاحية. ويمارس الأولاد العمل صباحاً وبعد الغداء، ولكن بدون إرهاق، ويبدو أن العمل يؤثر، بالفعل، تأثيراً قوياً إلى حد كاف في الجانب الأخلاقي لديهم: فكل منهم يجهد في أن يكون عمله أفضل من عمل الآخرين، وتراهم يفخرون بنجاحاتهم.

والوسيلة الثانية لتطويرهم روحياً هي، طبعاً، المحاكمة الذاتية المطبقة بينهم. فكل من يرتكب منهم ذنباً يمثل أمام محكمة تتشكل من جميع أفراد «الأسرة» التي ينتمي إليها، ويصدر الصبية حكمهم إما بالبراءة، أو بالعقاب. والعقاب الوحيد هنا هو الحرمان من اللعب؛ أما الذين لا يرضخون لحكَم زملائهم فيعاقَبون بإبعادهم التام عن الإصلاحية، وإرسالهم إلى «بيتروبافلوفكا»*، كما يسمي الصبية المبنى المنفرد النائي الذي يحتوي على غرف صغيرة للمُبعدين مؤقتاً. ويبدو أن تنفيذ حكم الإبعاد إلى «بيتروبافلوفكا» يتوقف على المدير حصراً. وقد زرنا المبنى المذكور، وكان فيه آنئذ سجينان فقط. وتنبغي الإشارة إلى أن المسؤولين يبدون الحذر والحيطة، ولا يسجنون هنا إلا لأمر هام جداً وبسبب ظاهرة متأصلة. وقد وضعوا كلاً من السجينين المذكورين في غرفة خاصة صغيرة موصدة، ولم يرونا إياهما.

إن هذه المحاكمة الذاتية هي، في جوهرها، تدبير جيد طبعاً، ولكنه يتسم، على نحو ما، بجانب غير عملي. هناك كثير من الصبية ذوي الكبرياء، بالمعنى الجيد للكلمة، وهؤلاء يمكن أن يشعروا بالإهانة عند إخضاعهمُ لمثل هذه السلطة الشعبية التي يتمتع بها صبية جانحون مثلهم، ومن ثم يمكن ألّا يفهموا هذه السلطة كما يجب. ويمكن أن تضم «الأُسرة» أشخاصاً أكثر موهبة وأشد ذكاء بكثير من سائر الباقين، ومن المحتمل أن تنهشهم الغيرة على الذات وكراهيتهم للقرار الذي يتخذه الوسط المحيط بهم، والوسط يتألف دائماً تقريباً من أشخاص عاديين غير متميزين. ثم هل يفهم الصبية الذين يحاكِمون المتهم المهمةَ الموكلة إليهم فهماً جيداً؟ ألا يمكن أن تظهر بينهم أحزاب طفولية لصبية متنافسين أقوى وأكثر إقداماً من

(*) هكذا يسمى السجن المذكور، تشبيهاً له بسجن قلعة «بيترو- بافلوفسك» (قلعة بطرس وبولس) الشهير في بطرسبورغ. (ن).

الآخرين، صبية يبرزون دائماً وحتماً من بين زملائهم في جميع المدارس، ويوجهون الأمور الوجهة التي يريدونها، ويقودون الآخرين خلفهم، كما لو كانوا يجرونهم بحبل. وهؤلاء أطفال، على كل حال، وليسوا رجالاً راشدين. وأخيراً، هل سيظل المحكومون والمعاقَبون ينظرون فيما بعد ببساطة وأخوية إلى قضاتهم السابقين؟ ألن تُفسد هذه المحاكمة الذاتية روح الرفاقية التي تجمع بينهم؟ من المفهوم أن الفكرة التي ولّدت هذه الوسيلة التربوية التطويرية وسوغتها تتلخص في أن هؤلاء الأطفال، الذين أجرموا سابقاً، عندما نمنحهم حق المحاكمة الذاتية يألفون القانون وضبط النفس، والبحث عن الحقيقة، وهذه أمور لم يكونوا يعرفونها في السابق على الإطلاق، وأخيراً يُنمّون في نفوسهم الشعور بالواجب. وكل هذه الأفكار رائعة ودقيقة، ولكنها في الوقت نفسه تبدو ذات حدين نوعاً ما. أما العقوبة فقد اختيرت لتكون الأكثر واقعية، طبعاً، من بين العقوبات الأكثر ردعاً، ألا وهي الحرمان من الحرية.

وبالمناسبة أشير هنا إلى ملاحظة[51] غريبة. منذ أيام اتفق لي أن سمعت عن غير قصد تعليقاً غير متوقع البتة على العقاب الجسدي الذي حُظّر عندنا في جميع المدارس: «حظّروا العقاب الجسدي في جميع المدارس، وحسناً فعلوا؛ ولكن ما الذي حققوه بهذا؟ ليس أكثر من ظهور عدد كبير جداً من الجبناء بين يافعينا بالقياس إلى ما كان سابقاً. لقد أصبحوا يخافون أقل ألم جسدي، وأية معاناة أو حرمان، وحتى أية إساءة معنوية أو جرح للاعتزاز بالذات، وقد بلغ الأمر ببعضهم، كما تدل الشواهد، إلى أنهم عندما يتعرضون لأي تهديد، مهما كان تافهاً، وحتى إذا كان يتمثل بصعوبة الدروس أو الامتحانات، يعمدون إلى الانتحار شنقاً أو بطلق ناري». حقاً أن أصح تفسير لبضعة الحوادث المشابهة التي وقعت بالفعل هو في أن نعيد سببها حصراً إلى جبن الفتيان أمام شيء يتهددهم أو ينغص حياتهم؛ بيد أن وجهة النظر هذه إلى الموضوع تتسم بالغرابة، وهذه الملاحظة بحد ذاتها تمتاز على الأقل بالطرافة الأصيلة. وسأحتفظ بها في ذاكرتي.

لقد شاهدتهم جميعاً على الغداء؛ الطعام كأن في منتهى البساطة، ولكنه صحي، ومشبع، ومعدّ بشكل رائع. وكنا قد ذقناه بتلذذ فائق قبل مجيء الصبية، علماً بأن طعام كل صبي لا يكلف أكثر من خمسة عشر كوبيكاً يومياً. يقدمون لهم شوربة أو حساء الملفوف المطبوخ مع قطعة من لحم البقر، ثم طبقاً من العصيدة أو البطاطا. وفي الصباح بعد الاستيقاظ يتناولون الخبز والشاي، وبين الغداء والعشاء، يتناولون الخبز والكفاس[7]. الأولاد شَباعى تماماً، وهم يتناوبون خدمة المائدة. وعندما جلسوا للطعام رتلوا كلهم بشكل رائع دعاء: «ميلادك، يا مسيح يا ربنا». ويتولى أحد المربين تعليمهم ترتيل الصلوات.

وعندما اجتمعنا كلنا على مائدة الغداء كان ما يروقني أكثر من أي شيء آخر هو التفرس

في وجوههم. لا يمكن القول إنها وجوه جريئة للغاية أو وقحة، ولكنها لا تخجل من شيء. وليس بينها تقريباً أي وجه غبي (مع أن المسؤولين أخبروني أن بينهم أغبياء، وأن أكثر هؤلاء من الأطفال الذين نشؤوا سابقاً في دار تربية اللقطاء والأطفال المتشردين)، بل بالعكس، ثمة وجوه تنم عن ذكاء شديد، وهناك عدد لا يستهان به من الوجوه البشعة، ولكن ليس في الخِلقة، فقسمات الوجوه كلها غير بشعة تقريباً؛ إلّا أن شيئاً ما في بعض الوجوه يوحي إليك بأن أصحابها شديدو الانغلاق على أنفسهم. كما أن الوجوه الضحوكة قليلة، في حين أن الأولاد يتصرفون بانطلاق شديد في حضرة المسؤولين أو في حضرة سواهم أياً كانوا؛ علماً بأن طبيعة انطلاقهم هذا تختلف بعض الشيء عن طبيعة انطلاق سواهم من الصبية ذوي القلوب الأكثر انفتاحاً. ولابد أن كثيرين جداً منهم كانوا يتمنون الآن الانسلال من الإصلاحية. كما أن كثيرين منهم، كما هو واضح، كانوا لا يرغبون في البوح بما في نفوسهم، وكان هذا بادياً على وجوههم.

ويتراءى لي أن المعاملة الإنسانية واللطيفة إلى درجة الرهافة، التي يلتزم بها المربون إزاء الأولاد (مع قدرتهم عموماً على أن يكونوا صارمين عند اللزوم)، لا تصل تماماً، في بعض الحالات، إلى قلوب هؤلاء الصبية، ومن ثم فهي لا تصل، بالطبع إلى أفهامهم. إنهم يخاطبونهم جميعاً، حتى أصغر من فيهم، بصيغة الجمع (أنتم). وقد بدت لي (أنتم) هذه متصنعة بعض الشيء، أو زائدة عن اللزوم قليلاً. وربما عدّ الأولاد الذين يُجلبون إلى هنا أن هذا الأسلوب مجرد تسلية يمارسها الأسياد. وباختصار: إن هذه الـ «أنتم» ربما كانت خطأ، وخطأ فادحاً إلى حد ما. ويبدو لي أنها تباعد على نحو ما بين الأولاد والمربّي. فـ «أنتم» هذه تنطوي على شيء ما شكلي ورسمي وستكون النتيجة سيئة إذا رأى أحد الصبية أنها تتضمن احتقاراً له. فهو لن يصدق، فعلاً، أنه هو، الذي شهد أحداثاً تفوق التصور وسمع أقذع الشتائم الشاذة، واشتط أخيراً في السرقة حتى فقدان الزمام، قد استحق، فجأة معاملة الأسياد هذه. وباختصار أقول إن صيغة المفرد «أنت» حسب رأيي، تبدو أقرب إلى الصدق الواقعي في الحالة الراهنة؛ في حين أن الجميع يبدون هنا كما لو كانوا يتصنعون بعض الشيء. وبالفعل، من الأحسن كثيراً أن يفهم الأولاد، في نهاية المطاف، أن المربّين هنا ليسوا كأولئك المربين الخصوصيين الذين يجالسون الأطفال ويعلمونهم في المنازل، بل هم آباء لهم، وأنهم هم أنفسهم ليسوا سوى أبناء فاسدين يجب إصلاحهم. وعلى كل ربما كانت هذه الـ «أنتم» لا تفسد الصبي؛ وإذا ما شعر بالامتعاض فيما بعد من مخاطبته بـ «أنت» أو حتى من الشتائم التي سيسمعها من جديد حتماً في اليوم نفسه الذي سيتخرج فيه من الإصلاحية فإنه سيحن إلى حياته في الإصلاحية بتأثر أكبر.

ومن المسائل التي لم تنتظم بعد تبرز للعيان بوضوح مسألة القراءة. قالوا لي إن الأولاد يحبون القراءة كثيراً، أي الاستماع إلى ما يقرؤونه لهم في الأعياد أو عند توافر الوقت، وإن بينهم قراء جيدين. وقد استمعت إلى واحد من القراء فقط، وكانت قراءته جيدة. ويقولون إنه يحب جداً أن يقرأ للجميع بصوت مسموع وأن يصغي الجميع إليه؛ ولكن يوجد بينهم صبية ضعيفون جداً في القراءة والكتابة، كما يوجد بينهم أميون. ولكن ما الذي يقرؤونه هنا؟! شاهدت على منضدة في غرفة إحدى الأُسَر بعد الغداء كتاباً لمؤلف ما؛ وكانوا يقرؤون كيف كان يتحدث «فلاديمير» مع فتاة تدعى «أولغا» عن أمور شتى عميقة وغريبة وكيف «حطم» الوسط الذي لا مهرب منه «وجودهما». وقد شاهدت «مكتبتهم» وهي خزانة تحتوي على مؤلفات لتورغينف وأوستروفسكي وليرمَنتوف وبوشكين إلخ... وهناك بعض كتب الرحلات المفيدة وما إلى ذلك... وكل هذا جُمِع جمعاً عرضياً، وهو أيضاً من التبرعات. إن القراءة إذا ما سمح بها، هي، بالطبع، وسيلة تطويرية فائقة الفعالية، ولكنني أعرف أيضاً أن جميع القوى التنويرية عندنا في روسيا وعلى رأسها جميع المجالس التربوية، إذا ما أرادت أن تحدد أو تشير إلى ما يجب اعتماده ليكون مادة للقراءة لمثل هؤلاء الصبية، وفي مثل هذه الظروف ستختلف فيما بينها، طبعاً، ولن تتوصل إلى أي شيء، وذلك لأن هذه المسألة صعبة جداً، ولا يمكن إيجاد حل نهائي لها في الاجتماعات وحدها. ومن جهة أخرى لا يوجد في أدبنا على الإطلاق أية كتب يفهمها الشعب. فالشعب لا يفهم البتة بوشكين، ولا «قصص من سيفاستوبل»*، ولا «أمسيات في القرية..»** ولا حكاية «كالاشنيكوف»*** ولا كولتسوف (وخصوصاً كولتسوف)[52] وليس هؤلاء الصبية، طبعاً، هم الشعب، ولا يعلم إلّا الرب من هم، إنهم نوع خاص من الكائنات البشرية يصعب تحديد الفئة أو الأنموذج الذي إليه ينتمون. ولكن حتى إذا فهموا شيئاً ما، فإنهم، طبعاً، لن يستطيعوا البتة تقويمه، لأن كل هذه الثروة ستبدو وكأنها سقطت عليهم من السماء؛ فهم، بحكم تطورهم السابق، غير مستعدين البتة لتلقّيها. أما فيما يخص الكتّاب الفضّاحين والساخرين فأتساءل: هل هذه هي الانطباعات الروحية اللازمة لهؤلاء الصبية المساكين الذين شاهدوا أصلاً فيوضاً من القذارة؟ فربما كان هؤلاء الفتية الصغار لا يرغبون البتة في الضحك على الناس. ولعل هذه النفوس المغشاة بالظلمة ستنفتح بسرور وتأثر لأشد الانطباعات سذاجة وبراءة نفسية بدائية، انطباعات طفلية تماماً وبسيطة لو عرضت لتلميذ

(*) لليف تولستوي.
(**) لنيكولاي غوغول.
(***) لميخائيل ليرمَنتوف.

مدرسة ثانوية أو ليسيه معاصر يساوي هؤلاء الأحداث الجانحين في العمر لسخر منها بتعالٍ وتصنع.

المدرسة أيضاً لا تزال في طور الطفولة المبكرة، ولكنهم عازمون على تنظيم شؤونها هي الأخرى في أقرب وقت. إنهم لا يعلّمون فيها الرسم الهندسي ولا الرسم التشكيلي بالمرة تقريباً. ولا وجود فيها على الإطلاق للدروس الدينية: كما لا يوجد هنا كاهن. ولكن سيكون لديهم كاهنهم عندما سيكتمل بناء الكنيسة. والكنيسة هذه خشبية، ويجري بناؤها الآن. وهي مثار فخر للمشرفين والبناة. إن شكلها المعماري ليس سيئاً بالفعل، ولكنه يتسم عموماً بالطابع الرسمي بعض الشيء، وقد صمم حسب الأسلوب الروسي المغرق في روسيته، والذي أصبحت رتابته مملة جداً. وأشير بالمناسبة، إلى أن تدريس مادة الديانة، سواء في مدارس المجرمين أو في مدارسنا الابتدائية الأخرى، يجب أن لا يكلف به سوى الكاهن؛ هذا أمر لا شك فيه. ولكن لم لا تتاح حتى لمعلمي المدارس العاديين رواية قصص بسيطة من التاريخ الديني؟ لا جدال في أنه يمكن أن نصادف في خضم الكثرة الهائلة من المعلمين الشعبيين أشخاصاً سيئين فعلاً؛ ولكن إذا أراد أحد هؤلاء أن يلقن الصبي الإلحاد فإن بإمكانه أن يفعل ذلك بدون أن يدرسه التاريخ الديني، وذلك بأن يحدثه فقط عن البطة و«عما يكسوها»[53]. ومن جهة أخرى، ما الذي نسمعه عن رجال الدين عندنا؟ كلّا! أنا لا أريد بتاتاً أن أسيء إلى أحد، وإنني على ثقة بأن الكاهن الذي سيعلّم في مدرسة الجانحين سيكون أميز «آبائنا» المتفوقين. ولكن ما الذي أخبرتنا به مؤخراً جميع جرائدنا تقريباً بشعور من الغيرة الشديدة؟ لقد نشرت أنباء مزعجة جداً عن أن عشرات من معلمي التربية الدينية قد تركوا المدارس كلياً وعزفوا عن التدريس فيها قبل أن يُزاد لهم في رواتبهم. لا جدال في أن «من يعمل يستحق أجراً»* بيد أن هذا «النق» الأبدي حول زيادة الراتب يخدش السمع، في نهاية المطاف، ويضني القلب. إن جرائدنا تقف إلى جانب «النقّاقين»، وأنا أيضا بالطبع. ولكن لا أدري لِمَ تتراءى لي دائماً أطياف أولئك النسّاك المتفانين القدماء، والكارزين ببشارة الإنجيل، الذين كانوا يسيرون عراة حفاة، ويتحملون الضرب والعذاب ويدعون إلى المسيح بدون زيادة في الراتب. لا، أنا لست مثالياً، وأدرك تمام الإدراك أن زماننا هذا غير ذاك الزمان؛ ولكن أليس من المبهج أن نسمع أن المنوِّرين الروحيين عندنا قد ازدادت روحهم طيبة ولو قليلاً قبل أن تزيد رواتبهم؟ وأكرر رجائي لهم ألا يستاؤوا! الجميع يعرفون جيداً أن الروح الطيبة في أوساط رجال الدين عندنا لا تنضب، وأن ثمة رجالات متحمسين. وأنا متيقن سلفاً

(*) مقبوس مستوحى بمعناه من الإنجيل: انظر «متّى10/ 10» و «لوقا10/ 7». (ن).

بأن الذي سيعمل في الإصلاحية سيكون من هؤلاء بالذات. ولكن أفضل ما يمكن فعله الآن هو، ببساطة، أن نروي للأحداث قصصاً دينية بدون مواعظ ذات طابع رسمي خاص، وأن نقصر التربية الدينية مؤقتاً على هذا. إن عدداً من المشاهد المقدسة النقية الرائعة سيحدث أثراً بالغاً في نفوسهم الظمأى إلى انطباعات رائعة.

وعلى أية حال فقد ودعت الإصلاحية بانطباع يثلج الصدر. وإذا كان هناك بعض الأمور التي لم «تنتظم» بعد، فإن ثمة وقائع تثبت أن الهدف قد تحقق بمنتهى الجدية. وأذكر هنا اثنتين من هذه الوقائع مختتماً حديثي بهما. في أثناء زيارتنا كان هناك صبي من نزلاء الإصلاحية في الخامسة عشرة من عمره مسجوناً في «بيتروبافلوفكا»، وكان قبل ذلك قد قضى بعض الوقت في سجن القلعة الليتوانية، عندما كان فيه قسم للأحداث الجانحين. ثم صدر حكم بإدخاله إلى الإصلاحية، ولكنه هرب منها مرتين، على ما يبدو، وأمسكوا به في المرتين، وفي إحداهما ألقوا القبض عليه خارج الإصلاحية؛ وفي نهاية الأمر أعلن بصراحة أنه لن ينوي الإذعان، مما جعلهم يبعدونه إلى زنزانة مفردة. وقد جاء أهله لزيارته قبيل عيد الميلاد وجلبوا له معهم بعض الهدايا، ولكن لم يُسمح له بتسلمها لأنه سجين، وصادرها المربيّ. وقد حزّ هذا جداً في نفس الصبي وأذهله؛ وفي أثناء زيارة المدير اندفع يشكو إليه بحرقة، ويتهم المربي بعنف مدعياً أنه صادر الطرد والهدايا ليستولي عليها، ويأخذها لنفسه؛ وراح يتلفظ بعبارات غاضبة يسخر بها من الإصلاحية ومن زملائه، ويتهم الجميع. وقد قال لي «ب. أ- تش»: «جلست معه وتحدثت إليه بجدية، بينما كان هو صامتاً ومتجهماً طوال الوقت. وبعد ساعتين من ذلك أرسل فجأة في طلبي ثانية، متوسلاً أن آتي إليه؛ وماذا تظن قد حصل: اندفع نحوي وهو يذرف الدموع، وقد تملكه اضطراب شديد، وتغير مظهره كله، وشرع يبدي الندم، ويلوم نفسه، وراح يروي لي أشياء كان قد أخفاها عن الجميع، مما حدث له سابقاً، وأسرّ لي أنه قد أدمن منذ مدة طويلة عادة جد مخجلة، وهو عاجز الآن عن التخلص من إسارها، وأن هذا يعذبه؛ وباختصار كان حديثه اعترافاً كاملاً. وقد قضيت معه نحو ساعتين، وتبادلنا الحديث، ونصحته بالاستعانة ببعض الوسائل للتغلب على عادته، وهلم جراً... وهلم جراً...».

روى لي «ب. أ- تش» كل هذا ساكتاً تماماً عن الأمور التي تحادثا فيها. ولكن ألا توافقون معي على أن هناك قدرة على النفاذ إلى نفس مجرم يافع أصابها المرض، وقسّاها العنف الضاري ولم تهتدِ البتة إلى الحقيقة حتى الآن. وأعترف أنني كنت أرغب جداً في معرفة تفاصيل حديثهما. وهاكم الآن الواقعة الأخرى: إن كل مرب في كل أسرة لا يتابع فحسب تنفيذ الأولاد مهمة شطف الغرفة وتنظيفها وترتيبها، بل يساهم معهم في العمل. وهم هناك يشطفون الأرضيات في أيام السبت؛ ولا يكتفي المربي بأن يُري الصبية كيف ينبغي أن

يشطفوا، بل يشطف معهم الأرضية وينظفها. وهذا يدل على أنه يعي تماماً رسالته في الحياة وكرامته الإنسانية. أين يمكنكم أن تصادفوا، بين الموظفين، على سبيل المثال، مثل هذا الموقف من العمل؟ وإذا كان هؤلاء الناس قد صمموا حقاً وفعلاً على أن يربطوا بين مهامهم في الإصلاحية وهدفهم الشخصي في الحياة فإن الأمور «ستنتظم» طبعاً، بغض النظر حتى عن أية أخطاء نظرية، إذا كانت أمثال هذه الأخطاء قد ارتكبت في البداية.

«الأبطال!- قال لي منذ أيام شخص عركته السنون - إنكم أيها السادة الروائيون، لا تنفكون تفتشون عن أبطال، وعندما لا تجدون عندنا أبطالاً تغضبون وتتذمرون على روسيا كلها؛ وبهذا الصدد دعني أروِ لك هذه النادرة: كان ياما كان منذ حقبة من الزمان في عهد القيصر الراحل موظف من الموظفين، وقد خدم هذا الموظف بادئ ذي بدء في بطرسبورغ، ومن ثم في كييف على ما أظن، وهناك مات، وهذه، على ما يبدو سيرته كلها. ومع هذا، ماذا تظن كان يجري في أثناء ذلك: هذا الإنسان الصغير المتواضع الصموت ظل طوال حياته يعاني نفسياً من الوضع القِناني الذي يعيشه الناس عندنا، ومن أن الإنسان، الذي خلقه الرب على صورته ومثاله، يتبع كالعبد إنساناً آخر مثله، وبلغت به المعاناة حداً دفعه إلى ادخار جزء من راتبه المتواضع جداً، حارماً نفسه وزوجته وأولاده الأشياء الضرورية تقريباً، وكلما كان يتجمع لديه المبلغ الكافي كان يفتدي قناً ويحرره من ربقة القِنانة لدى سيده الإقطاعي. وبالطبع لم يكن يستطيع أن يفتدي سوى قنٍ واحد كل عشر سنوات. وهكذا افتدى على مدى حياته كلها ثلاثة أو أربعة أشخاص، ولم يخلف لأسرته أي شيء عند مماته. كل هذا قد حدث من غير إعلان، بهدوء وصمت. ولكن أي بطل هذا! إنه «واحد من مثاليي الأربعينيات» ليس إلّا، بل ربما كان مضحكاً حتى، ولا يحسن التصرف، لأنه كان يعتقد أنه بهذا الفعل الجزئي الصغير يمكنه أن يتغلب على العلة برمتها. ولكن مع ذلك يبدو لي أن أمثال بوتوغين[54] عندنا بمقدورهم أن يتخذوا من روسيا موقفاً أكثر طيبة، وأن يمتنعوا عن رشقها بالقذارة في كل مناسبة ولأي سبب».

لقد أوردت هنا هذه النادرة (التي لا تناسب السياق بالمرة كما يبدو) لا لشيء إلّا لأنني لا أملك أي سبب يجعلني أشك في صحتها.

ومع ذلك ما أحوجنا إلى أمثال هذا الإنسان! إنني أحب جداً هذا النموذج الكوميدي من الأشخاص الصغار الذين يتصورون بجدية أنهم بأفعالهم الصغيرة وإصرارهم العنيد قادرون على دعم القضية العامة من غير أن ينتظروا النهوض والمبادرة العامَّيْن. ولعل شخصاً من هذا النموذج كان سيصلح للعمل في إصلاحية الأحداث الجانحين... ولكن، طبعاً، بإشراف من هم أكثر ثقافة، وبقيادة كبار المديرين...

وعلى أية حال أنا لم أقض في الإصلاحية أكثر من بضع ساعات، ومن المحتمل أن أكون قد تخيلت أشياء لا وجود لها، وغفلت عن أشياء موجودة، وارتكبت أخطاء ما... ولكنني أرى بصورة عامة، أن وسائل تحويل النفوس الفاسدة إلى نفوس صالحة ما زالت حتى الآن غير كافية.

جمعية الرفق بالحيوان الروسية.
ساعي البريد الرسمي.
الخمرة الخضراء.
الولع بالفساد وفوروبيوف.
مِن النهاية أم من البداية؟

اتفق لي أن قرأت ما نشرته صحيفة «الصوت» في عددها 359 عن الاحتفال بعيد مرور العقد الأول على تأسيس جمعية الرفق بالحيوان الروسية. ويالها من جمعية مبهجة وإنسانية! وحسبما فهمته تكمن غايتها الرئيسة بمجملها تقريباً في العبارات التالية التي تضمنها خطاب رئيسها الأمير أ. أ. سوفورف:

«في الحقيقة إن ما كان يجعل مهمة مؤسستنا الخيرية الجديدة تبدو أكثر صعوبة هو أن غالبية الناس لم تكن ترغب في أن ترى في الرفق بالحيوان تلك المكاسب المعنوية والمادية التي يجنيها الإنسان من معاملته الحيوانات المدجنة - الأليفة بتسامح وعقلانية».

وبالفعل، ليست الكلاب والخيول وحدها هي الغالية إلى هذا الحد على «الجمعية»، بل الإنسان أيضاً، الإنسان الروسي الذي يجب إصلاحه وأنسنته؛ وجمعية الرفق بالحيوان تستطيع، بدون شك، المساعدة على هذا. فعندما يتعلم الفلاح الإشفاق على البهائم يصير يشفق على زوجته أيضاً. ولذا، ومع أنني أحب الحيوانات جداً، فأنا مسرور للغاية لأن «الجمعية» الموقرة لا تحرص على البهائم بقدر ما تحرص على أولئك الناس الذين غلظت نفوسهم، وخلت من المشاعر الإنسانية، وغدوا أشباه برابرة ينتظرون النور! إن أية وسيلة تنويرية هي وسيلة قيّمة،

ولشد ما نرغب في أن يغدو مغزى وجود الجمعية إحدى الوسائل التنويرية حقاً. إن أطفالنا يتربون وينشؤون في وسط يصادفون فيه مشاهد بشعة. إنهم يشاهدون الفلاح الذي حمّل فرسه، وهي وسيلة رزقه، حملاً تنوء به، ولا يتورع عن ضربها بالكرباج على عينيها إذا انغرزت قوائمها في الوحل، أو يشاهدون، كما شاهدت أنا نفسي، على سبيل المثال، ومن مدة قصيرة، فلاحاً ينقل عجولاً إلى المسلخ في عربة كبيرة حشر فيها عشرة عجول، وجلس هو باطمئنان بالغ على أحدها. كان هو يشعر بطراوة مقعده، وكأنه جالس على أريكة ذات نوابض، بينما اندلع لسان العجل وجحظت عيناه، وربما يكون قد نفق قبل أن يصل إلى المسلخ. أنا واثق بأن المشهد لم يثر سخط أحد في الشارع: «وما الفرق إذا كانوا ينقلونها للذبح»؛ ولكن لا شك في أن مثل هذه المشاهد من شأنها أن تزرع الوحشية في نفس الإنسان وتعيث فيها فساداً، ولا سيما الأطفال. في الحقيقة لم تنج «الجمعية» المحترمة من الهجوم عليها، كما أنني سمعت أكثر من مرة من يسخر منها. ومما يُذكر في هذا الصدد، على سبيل المثال، أن الجمعية عمدت منذ خمس سنوات إلى تعريض أحد الحوذيين للمساءلة بسبب سوء معاملته لفرسه؛ وقد حُكم عليه بدفع خمسة عشر روبلاً، على ما أذكر. وكان هذا بالطبع، تصرفاً في غير محله، لأن الكثيرين، في الواقع، لم يعرفوا، بعد صدور الحكم، على من يشفقون: على الحوذي، أم على الفرس. ولكن الغرامة الآن، في الحقيقة، لم تعد تزيد على عشرة روبلات بموجب القانون الجديد. وقد سمعت فيما بعد أن الجمعية بذلت جهوداً كبيرة جداً لإصدار قرار يقضي باستخدام الكلوروفورم في إماتة الكلاب الشاردة، ومن ثم المؤذية التي أضاعها أصحابها. وعلّق البعض على هذا بأن الحديث عن إحاطة الكلاب بمثل هذه العناية الحنون يخدش السمع بعض الشيء، ما دام لدينا أناس يموتون جوعاً في المقاطعات التي تعاني المجاعة. إلّا أن جميع الاعتراضات المماثلة لا تصمد أمام أي نقد. فهدف الجمعية أَدْوَم وأبقى من المصادفات المؤقتة. وفكرة الجمعية نيرة وصحيحة، ولا بد من أن تتأصل وتنتصر. ومع ذلك فإننا إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى رأينا أن من المرغوب فيه جداً أن تتوازن أفعال الجمعية، إذا صح القول، مع «المصادفات المؤقتة» التي سلف ذكرها؛ وعندئذ ستحدد بشكل أوضح الطريق الإنقاذية والخيرية التي يمكن للجمعية أن تسلكها للوصول إلى نتائج وافرة، والأهم، إلى نتائج عملية، نتائج تجسد بلوغ الهدف واقعياً...

ربما كان تعبيري عما أريد قوله غير واضح، ولذا سأروي لكم نادرة، أو لأقل حادثة واقعية علّني بهذا العرض التشخيصي أنقل لكم بوضوح أكبر ما أردت التعبير عنه.

وقد حدثت هذه النادرة لي منذ وقت طويل جداً. في زمني السابق للتاريخ، إذا جاز القول، وبالذات في السنة السابعة والثلاثين عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري تقريباً.

كنا، أنا وأخي الأكبر قد غادرنا موسكو بصحبة والدنا، قاصدين بطرسبورغ للانتساب هناك إلى كلية الهندسة الرئيسة، كان ذلك في شهر أيار، وكان الجو حاراً. وبما أننا لم نكن نبدل خيول العربة، فقد كان سيرها أقرب إلى المشي، وكنا نتوقف في كل محطة ساعتين أو ثلاث ساعات. وما زلت أذكر كم أضجرتنا في النهاية هذه السفرة التي استغرقت أسبوعاً تقريباً. كنت وأخي آنذاك نتوق إلى حياة جديدة، وتتناهبنا الأحلام حول أمور ما، كنا نحلم بكل ما هو «رائع وسام»: آنئذ كانت هذه العبارة لا تزال طازجة، وتقال من دون تهكم. وكم من أمثال هذه الكلمات الرائعة كانت تقال آنذاك وتتناقلها الألسن! كنا نؤمن بشيء ما إيماناً حاراً، ومع أننا كلينا كنا نعرف تماماً كل ما يتطلبه تقديم امتحان الرياضيات، إلّا أن أحلامنا لم تكن تخرج عن نطاق الشعر والشعراء. كان أخي يكتب الشعر، وينظم كل يوم ثلاث مقطوعات. كان يكتب حتى في الطريق. أما أنا فكنت لا أنفك أؤلف في ذهني رواية مستوحاة من الحياة في مدينة «البندقية». آنئذ لم يكن قد مضى سوى شهرين على رحيل بوشكين، وقد اتفقت مع أخي في الطريق على أن نذهب إلى مكان المبارزة، ونسعى لزيارة الشقة التي كان بوشكين يعيش فيها لنرى الغرفة التي أسلم الروح فيها. وذات مرة توقفنا قبل المساء في نُزُل في إحدى المحطات، ولم أعد أذكر الآن اسم القرية، ويتهيأ لي أنها إحدى قرى مقاطعة تفير. وهي قرية كبيرة وغنية. وبعد نصف ساعة أخذنا نعد العدة لمتابعة السفر. في هذه الأثناء، وفيما كنت أنظر عبر النافذة، رأيت المشهد الآتي: قبالة النزل مباشرة، على الجانب الآخر من الشارع، كان يقوم مبنى إدارة المحطة. فجأة اقتربت من مدخله بسرعة عربة بريد تجرها ثلاثة أحصنة، وقفز منها حامل البريد في زيه الرسمي الكامل: بسترته ذات الحاشيتين الخلفيتين الضيقتين، والقبعة الضخمة المثلثة الزوايا والمزينة بريش أبيض وأصفر وأيضاً أخضر على ما أظن (نسيت هذا التفصيل، وكان بمقدوري الاستعلام، ولكنني أذكر أنني لمحت آنذاك أرياشاً خضراً). كان حامل البريد الرسمي هذا شاباً ضخم الجثة، طويل القامة مكتنزاً جداً وقوياً، وذا وجه أرجواني. ركض إلى داخل المبنى، ومن المؤكد أنه «عبّ» هناك كأس فودكا. أذكر أن سائق عربتنا قال لي آنذاك إن مثل هذا الرسول الرسمي يشرب دائماً كأساً في كل محطة، وإلّا لما استطاع أن يتحمل كل «هذا العذاب». وفي هذه الأثناء اقتربت العربة البديلة من محطة البريد، وهي عربة ثلاثية جديدة فارهة، ووثب الحوذي، وهو فتى في العشرين من عمره، إلى مقعد السياقة ممسكاً بيده دثاره الجوخي ومرتدياً قميصاً أحمر. وفي اللحظة نفسها اندفع الرسول الرسمي من داخل المبنى، وهبط درجات الرواق وثباً وجلس في العربة. ولم يكد الحوذي يسوق الخيل حتى نهض الرسول بعض الشيء، وبدون أن يتفوه بأية كلمة، رفع قبضته اليمنى الضخمة إلى الأعلى، وأهوى بها على قفا الحوذي بضربة مؤلمة، فارتج هذا مائلاً إلى الأمام، ورفع

الكرباج وأهوى به بكل قوته على الحصان الأوسط، واندفعت الأحصنة بشدة؛ بيد أن الرسول لم يقنع بهذا البتة، فالقضية هنا ليست مجرد حنق، بل هي قضية منهج. إنها شيء ما محدد سلفاً ومجرَّب خلال سنين طويلة.

وقد ارتفعت القبضة المخيفة من جديد، وهوت بضربة جديدة على القفا. ثم ارتفعت وهوت مرات ومرات، واستمرت في هذا إلى أن توارت العربة عن الأنظار. ومن البديهي أن الحوذي الذي كان لا يتماسك إلا بصعوبة تحت وطأة الضربات، كان يسوط الأحصنة في كل لحظة، وبدون انقطاع، وكأنه قد فقد عقله، وظل يسوطها إلى أن اندفعت في النهاية كالملتاثة. وأخبرني سائق عربتنا أن جميع رسل البريد الرسمي يتصرفون على هذه الشاكلة تقريباً، وبصورة خاصة هذا الرسول؛ وقد أصبح الجميع يعرفونه. فهو ما إن يشرب فودكا ويثب إلى العربة حتى يبدأ الضرب، وهو يضرب «دائماً على هذا المنوال بالذات»، ومن غير أي ذنب؛ يضرب بانتظام، يرفع قبضته ويهوي بها، «ويظل يلكم الحوذي في قفاه مسافة فرسخ، وبعد ذلك يكف. ولكن إذا انتابه الملل يمكن أن يعود ثانية إلى الضرب في منتصف الطريق، إلّا إذا شاء الرب أن يلطف بالحوذي؛ بيد أنه يعود دائماً إلى الضرب من جديد عندما تقترب العربة من محطة ما، ويبدأ على بُعد فرسخ تقريباً برفع قبضته وإنزالها بالطريقة نفسها إلى أن يصل إلى مشارف المحطة مثيراً عجب جميع من في القرية؛ وتظل رقبة الحوذي تؤلمه شهراً». وعندما يعود الفتى يسخرون منه قائلين: «إيه أشبعك حامل البريد ضرباً على قفاك». وربما عمد الفتى في اليوم نفسه إلى ضرب زوجته الشابة: «لأفش غضبي فيك على الأقل»؛ أو ربما «لأنها كانت تنظر وترى»...

لا شك في أن لسع الخيل بالسوط وجلدها إلى هذا الحد تصرف غير إنساني من جانب الحوذي: ومن البديهي أنها ستصل إلى المحطة التالية منهوكة القوى، متقطعة الأنفاس. ولكن مَنْ مِنْ أعضاء جمعية الرفق بالحيوان أقدم على إخضاع هذا الفتى للمساءلة لأنه يعامل خيوله معاملة غير إنسانية. أليس هذا حقاً؟

لقد بقي هذا المشهد المقيت في ذاكرتي مدى الحياة. لم أستطع بحال من الأحوال أن أنسى حامل البريد الرسمي هذا، وظللت فيما بعد مدة طويلة، وعلى غير إرادة مني، أميل إلى تفسير الكثير من التصرفات المعيبة والقاسية التي يقوم بها الشعب الروسي تفسيراً مغرقاً في وحدة الجانب طبعاً. أنتم تدركون أن الحديث هنا يدور حول أمور قد حدثت منذ زمن بعيد. وقد كانت هذا اللوحة شعاراً دالّاً إذا صح القول، كانت ظاهرة عيانية وواضحة جداً تجسّد العلاقة بين السبب ونتيجته. فكل ضربة موجهة إلى الحيوان هنا كانت تنبثق تلقائياً، إذا جاز القول، من الضربة الموجهة إلى الإنسان. في أواخر الأربعينيات، في حقبة أحلامي الطموحة

الجامحة، خطر في بالي مرة، أنه إذا تسنى لي في وقت من الأوقات أن أنشئ جمعية خيرية، فإنني سأوعز حتماً بحفر عربة البريد الرسمي الثلاثية الأحصنة هذه على خاتم الجمعية كشعار وإشارة.

أوه، لا شك في أن الأمور الآن ليست كما كانت في الأربعينيات، وسعاة البريد الرسمي لا يضربون الشعب، بل أصبح الشعب يضرب نفسه، محتفظاً بحزمة قضبان في محكمته. والقضية، على كل، ليست في هذا، بل في الأسباب التي تؤدي إلى النتائج. ليس ثمة ساعي بريد رسمي، ولكن في المقابل هناك «الخمرة الخضراء»*. وكيف يمكن للخمرة الخضراء أن تشبه ساعي البريد الرسمي؟! يمكنها جداً، وذلك بأنها هي أيضاً تحول الإنسان إلى بهيمة ووحش، وتجعله قاسياً، وتصرِفه عن الأفكار النيّرة، وتبلّد مداركه إزاء أية دعوة خيّرة. المخمور ليس في وارد التعاطف مع الحيوان؛ والمخمور يتخلى عن زوجته وأولاده. جاء زوج مخمور إلى زوجته التي كان قد هجرها ولم يحضر لها ولأولاده طعاماً منذ عدة أشهر، وطلب منها أن تحضر له فودكا، وأخذ يضربها ليحصل على مزيد من الفودكا، فما كان من الزوجة التعسة التي تزاول عملاً يشبه الأشغال الشاقة (تذكّروا عمل المرأة وبكَمْ يثمنونه عندنا حتى الآن) ولا تعرف كيف تطعم أولادها، إلّا أن اختطفت سكيناً وبقرت بها بطنه. حدث هذا منذ مدة قصيرة، وستُقدّم الزوجة للمحاكمة، ولم يكن ثمة داع للحديث عنها، فهناك المئات والآلاف من أمثال هذه الحادثة، وما عليكم إلّا تصفح الجرائد. ولكن وجه الشبه الرئيس بين الفودكا وساعي البريد الرسمي هو، بدون جدال، أنها تهيمن مثله بحتمية وقوة قاهرة على الإرادة الإنسانية.

إن جمعية الرفق بالحيوان الموقرة تتألف من سبعمئة وخمسين عضواً، وهم أشخاص بمقدورهم أن يكونوا ذوي تأثير. فماذا إذا رغبت هذه الجمعية في المساعدة على الإنقاص ولو قليلاً، من حجم ظاهرة السُّكْر بين أفراد الشعب، وتسمُّم جيل كامل بالخمرة! فقوة الشعب تخور، ومنبع ثروات المستقبل ينضب، والعقل والنمو يضعفان؛ وما الذي سيحمله أطفال الشعب الحاليون في عقولهم وقلوبهم وهم ينشؤون في بؤرة آبائهم الفاسدة؟ شبّ حريق في قرية فيها كنيسة، واندفع صاحب الخمارة في القرية يصيح بالناس معلناً عن أنهم إذا تخلوا عن إنقاذ الكنيسة وانصرفوا إلى إنقاذ الخمارة فسيقدم لهم برميل خمرة. وقد احترقت الكنيسة وأُنقذت الخمارة. أمثال هذه الحادثة لا تزال حتى الآن قليلة جداً بالقياس إلى الأهوال الكثير القادمة. وإذا ما رغبتْ الجمعية الموقرة في المساعدَة ولو قليلاً على إزالة الأسباب الأصلية،

(*) الفودكا المصنوعة من الحبوب والكحول. (م).

فإنها ستخفف بالتأكيد من عبء مهمتها وتسهل أمر دعوتها الرائعة. وإلّا فكيف سنغرّس الشعور بالتعاطف إذا كانت الأمور قد ترتبت على نحو يبدو كأنه يهدف بالذات إلى استئصال كل شعور إنساني من نفس الإنسان؟ ولكن هل الخمرة وحدها هي التي تطغى بشراسة وتفسد الشعب في زمننا العجيب هذا؟ لكأن مُخَدِّراً ما يجتاح كل مكان، لكأن ثمة ولعاً ما بالفجور. لقد بدأ ينتشر بين الناس نوع ما من تحريف الأفكار على نحو لم يسمع بمثله من قبل؛ وهو مصحوب بتقديس المادية في كل مكان. وأقصد بالمادية في هذا السياق إجلال الشعب للمال وخضوعه لسلطة الأصفر الرنان. لكأن عقول الناس قد غزتها فكرة تقول لها إن المال الآن هو كل شيء، وفيه تكمن القوة كلها، وإن كل ما كان الآباء قد قالوه لهم وعلموهم إياه هو هراء. ويا للمصيبة إذا ترسخت أمثال هذه الفكرة في أذهان الشعب.

ولكن كيف له ألّا يفكر هكذا؟ لنأخذ على سبيل المثال، كارثة القطار التي وقعت مؤخراً على الخط الحديدي الأوديسي، وأودت بحياة أكثر من مئة من المجندين القيصريين الجدد؛ أيمكن أن تعتقدوا أن امتلاك مثل هذه السلطة لن يكون له أثر مفسد في نفوس الشعب؟! إن الشعب يرى هذه القوة الجبارة فيصاب بالدهشة: «إنهم يفعلون ما يريدونه»؛ ويبدأ الشك يساوره بغير إرادة منه: «إنها هنا إذاً، هنا بالذات كانت القوة الحقيقية تكمن دائماً؛ كُن غنياً يصبح كل شيء لك، وتصبح قادراً على فعل أي شيء».

لا يمكن لأي فكرة أخرى أن تكون أكثر إفساداً للمرء من هذه الفكرة. وها هي تنتشر وتتغلغل شيئاً فشيئاً. وليس للشعب ما يحميه من أمثال هذه الأفكار؛ فلا تنوير هناك، وليس ثمة دعوة، مهما كانت محدودة، إلى أفكار أخرى معاكسة. لقد مُدّد في جميع أرجاء روسيا الآن نحو عشرين ألف فرسخ من الخطوط الحديدية، وجميع موظفيها أينما وجدوا، وحتى أدناهم رتبة، يتولون نشر هذه الفكرة. وما إن تسوقك الظروف إلى التعامل مع أحد الموظفين هناك حتى ترى هذا الموظف ينظر إليك نظرةَ من له سلطة لا حدود لها عليك، وعلى مصيرك، وعلى أسرتك، وعلى شرفك، لا لشيء إلا لأن الظروف ساقتك إليه في محطة السكك الحديدية. منذ فترة قصيرة أخرج مدير إحدى المحطات بسلطته الشخصية إحدى السيدات المسافرات من عربة القطار، جاراً إياها بيده ليسلمها إلى شخص ما، كان قد اشتكى إليه مدعياً أن هذه السيدة زوجته، وأنها هاربة منه؛ وقد جرى هذا من غير محاكمة، ومن غير أية شبهة في أنه لا يملك الحق في فعل ذلك: ومن الواضح أن شعور هذا المدير بالقوة الجبارة التي يحوزها قد أطاش صوابه، إن لم يكن قد أوصله إلى درجة الهذيان. إن كل الحوادث والأمثلة لا تنفك تشق طريقها إلى وعي الشعب كتيار متواصل من الغواية، فهو يراها كل

يوم، ويستخلص منها استنتاجات لا تُنْقض. لقد سبق لي أن أدنت السيد سوفورين في حادثة خلافه مع السيد غولوبيف[55] وكان يبدو لي أنه لا يجوز التشهير بإنسان لم يقترف أي ذنب، وإشفاع ذلك أيضاً بوصف جميع المشاعر التي تعتمل في نفسه. ولكنني الآن غيرت نظرتي بعض الشيء، حتى إلى الحادثة. فما شأني في أن السيد غولوبيف ليس مذنباً! ربما كان السيد غولوبيف نقياً كالدمعة، ولكن السيد فوروبيوف* مذنب. ومن هو السيد فوروبيوف؟ لا أعرف البتة. بل أنا على يقين بأنه لا وجود له على الإطلاق، ولكن فوروبيوف هذا هو بالذات من يطغى ويبغي على جميع الخطوط، وهو الذي يفرض تعرفات تعسفية، والذي يجر المسافرين من عربة القطار، والذي يسبب كوارث القطارات، والذي يدع البضائع تتعفن بإبقائها أشهراً كاملة في المحطات، والذي يلحق الأذى بلا حياء بمدن ومحافظات كاملة، وبالدولة كلها، وهو يصيح بصوت وحشي «ابتعدوا عن الطريق فأنا آت!». بيد أن الذنب الرئيس الذي يرتكبه هذا الدخيل المدمِّر هو أنه هيمن على الشعب كإغواء وفكرة مُفسِدة. لِمَ أهاجم أنا فوروبيوف على هذا النحو؟ أهو الوحيد الذي غدا فكرة مفسدة؟ أكرر: إن شيئاً ما ينتشر في الجو مُشبَعاً بالمادية والريبية؛ لقد بدأت عبادة الكسب المجاني، واللذة من غير الكسب المجاني، واللذة بدون عناء؛ أصبح الخداع أياًكان، وكل الأعمال الشريرة تُمارس بأعصاب باردة. إنهم يقتلون المرء حتى من أجل روبل واحد ينتزعونه من جيبه. أعرف أن ثمة دنايا كثيرة كانت ترتكب في الماضي، ولكن لا جدال في أن عددها الآن قد تضاعف عشر مرات. والأهم هو أن الفكرة، أو فلنقل هذه التعاليم أو هذه العقيدة تنتشر الآن. منذ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع اكترى رجل وامرأة عجوزان في بطرسبورغ ليلاً عربة يقودها حوذي يافع، يكاد يكون دون سن الرشد، وقد لاحظ الفتى أن الشيخ مخمور حتى فقدان الوعي، فأخرج موسى صغيرة وهمّ بذبح العجوز. أمسكوا بهم، وأقر الصبي الأحمق بذنبه رأساً: «لا أدري كيف حدث هذا، وكيف وجدت الموسى في يدي» وهو حقاً وفعلاً لم يكن يدري. وهنا بالذات يظهر تأثير الوسط. لقد شعر الفتى بأن قوة ما تمسك به وتجره مثيرة فيه شعور الولع المعاصر بالفجور، فانجذب كما لو أن آلة ما تشده إليها؛ انجرف في التيار الشعبي المعاصر: الكسب المجاني؛ فكيف له ألّا يجرب ولو بموسى صغيرة.

«لا، ليس هذا وقت الدعوة إلى الرفق بالحيوان: إن هذا من بِدَع السادة». أجل، لقد سمعت هذه العبارة بالذات، وأنا أرفضها بشدة. ومع أنني لست عضواً في الجمعية، إلّا إنني على استعداد لتقديم الخدمات لها. ويبدو أنني أخدمها فعلاً. ولا أدري: هل عبّرتُ ولو

(*) اللقب «غولوبيف» بالروسية مشتق من كلمة «حمامة» واللقب «فوروبيوف» مشتق من كلمة عصفور. (م).

ببعض الوضوح عن رغبتي في قيام «توازن بين أعمال الجمعية والمصادفات المؤقتة» التي كتبتُ عنها آنفاً؛ ولكنني إذ أدرك الدور الإنساني والمُؤَنْسِنَ الذي تضطلع به الجمعية، أُعلن إخلاصي العميق لها. إنني لم أستطع قط أن أفهم الفكرة القائلة بأن عُشر الناس فقط يجب أن يصلوا إلى درجة عالية من التطور، أما الأعشار التسعة المتبقية فيجب أن يكونوا مجرد مادة ووسيلة لتحقيق ذلك، وأن يبقوا هم أنفسهم في الظلام. إنني أرفض أن أفكر وأعيش إلّا وأنا مؤمن بأن شعبنا الروسي بملايينه التسعين جميعاً (أو بالعدد الذي سيصل إليه آنئذ) سيغدو كله في وقت ما متعلّماً ومؤنساً وسعيداً. إنني أعرف وأؤمن أن سيادة الفكر والنور قابلة للاستيطان عندنا، في وطننا روسيا، ربما بأسرع مما في أي مكان آخر، إذ ليس من أحد عندنا الآن يميل إلى اعتناق الفكرة التي تزعم أن من الضروري تَوَحُّش جزء من الناس في سبيل رفاهية الجزء الآخر الذي يُجسِّد الحضارة، كما هو الحال في جميع أرجاء أوربا. لقد تحقق عندنا طوعاً على يدي الطبقة العليا نفسها، وعلى رأسها الإرادة القيصرية، إلغاء حق القنانة! ولذا فإنني مرة أخرى أحيي جمعية الرفق بالحيوان من أعماق قلبي؛ وكل ما كنت أريده هو التعبير عن فكرة واحدة ألخصها بالقول: ليتنا لا نباشر العمل في كل شيء من النهاية، بل نسعى للعمل، ولو جزئياً، من البداية.

استحضار الأرواح.
شيء ما عن الشياطين.
دهاء الشياطين الخارق، إذا كان هؤلاء هم من الشياطين.

ها أنا قد ملأت الورقة كلها بالكتابة، ولم يبق فيها فراغ، في حين أنني كنت أريد أن أتكلم على الحرب، وأطراف بلادنا القصية، كما كنت أريد التحدث عن الأدب والديسمبريين[14] وعن خمسة عشر موضوعاً آخر على الأقل. وأرى أن من الضروري تكثيف ما أكتبه وضغطه، وهذه ملاحظة للمستقبل. وبالمناسبة، أريد أن أقول كلمتين عن الديسمبريين

حتى لا أنسى: عندما نشرت صحفنا نبأ موت أحدهم* منذ مدة قصيرة، علّقت على ذلك بأن الراحل أحد أواخر الديسمبريين؛ وهذا ليس دقيقاً تماماً؛ فما زال منهم على قيد الحياة إيفان الكساندروفتش آنيكوف، وهو الذي شوه المرحوم الكسندر دوما الأب قصته الأصلية تشويهاً شديداً في روايته المعروفة: **«les Memoires d'un maitre d'armes»، وأذكر أيضاً ماتفي ايفانوفتش مورافيوف - أبوستول، وهو شقيق الذي أُعدم. ثم هناك سفيستونُف ونزيموف، وربما كان ثمة أحياء آخرون.

وباختصار أجد نفسي مضطراً إلى تأجيل موضوعات كثيرة إلى عدد شباط، ولكن لدي رغبة في أن أختم يوميات كانون الثاني (يناير) الحالي بنهاية مرحة. ثمة موضوع مضحك، والأهم أنه الآن دارج، وهو موضوع الشياطين، موضوع استحضار الأرواح. وفي الحقيقة ثمة أشياء مدهشة تحدث: يكتبون لي على سبيل المثال، أن هناك شاباً يجلس على كنبة ضاماً رجليه، وتبدأ الكنبة بالتواثب على أرض الغرفة؛ وهذا في بطرسبورغ، في العاصمة! لماذا لم يكن أحد في السابق يثب وهو جالس على كنبة ضاماً رجليه، بل كان الجميع يخدمون كموظفين ويحوزون رُتَبَهُم بتواضع؟ يؤكدون أنه يوجد في بيت إحدى السيدات المقيمات في مكان ما من المقاطعة عدد من الشياطين لا يصل عدد الشياطين، حتى في كوخ العم إيدّي، إلى نصفه[56]. ألدينا نحن لا يوجد شياطين! يكتب غوغول إلى موسكو من العالم الآخر[57]. مؤكداً أن هؤلاء شياطين فعلاً. وقد قرأت أنا الرسالة، الأسلوب أسلوبُه. وهو يحاول الإقناع بالامتناع عن استدعاء الشياطين، وعن تدوير الطاولات، وعن الاتصال عموماً: «لا تتحرشوا بالشياطين ولا تعاشروهم، التحرش بالشياطين إثم... وإذا بدأ الأرق العصبي يعذبكم ليلاً فلا تغضبوا، بل صلّوا، فهو من الشيطان؛ صلّب على ثوبك، وأقم الصلاة». وترتفع أصوات القساوسة الذين ينصحون حتى العلم نفسه بألّا يقيم صلات بينه وبين السحر، وألا يدرس «هذا السحر». وإذا كان حتى القساوسة بدؤوا يتكلمون فمعنى ذلك أن الأمر قد استفحل بصورة جدية. ولكن المصيبة كلها في التيقّن: هل هذا من فعل الشياطين؟ ليت لجنة التفتيش التي شُكّلت في بطرسبورغ بصدد استحضار الأرواح تحل لنا هذه المسألة! لأنهم إذا قرروا نهائياً أن هذا ليس من فعل الشياطين، بل هو ظاهرة كهربائية ما، أو شكل جديد من أشكال القوة العالمية، فستحصل على الفور خيبة أمل كاملة؛ سيقولون: «وأية غرابة في هذا! شيء ممل جداً»، وسينبذ الجميع استحضار الأرواح على الفور، وسينسونه، وينصرفون، كالسابق، إلى العمل. ولكن إجراء البحوث اللازمة للتيقن: هل هذا من فعل الشياطين أم لا؟ يتطلب أن

(*) المقصود وفاة الديسمبري ي.ي. لاتشينوف. (ن).

(**) «مذكرات مدرّب على المسايفة» (بالفرنسية).

يكون لدى واحد على الأقل، من العلماء أعضاء اللجنة، القدرة والإمكانية للاعتقاد بوجود الشياطين، حتى ولو من باب الافتراض. ولكن من المستبعد أن نجد بينهم أحداً يؤمن بوجود الشيطان، على الرغم من أن ثمة أناساً كثيرين جداً لا يؤمنون بوجود الإله، لكنهم يؤمنون برضا وعن سابق استعداد بوجود الشيطان. لذا فإن اللجنة المذكورة ليست مؤهلة لحل هذه المسألة. ومصيبتي كلها تتمثل في أنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن أؤمن بوجود الشياطين، وهذا يجعلني أشعر بالأسف، لأنني ابتكرت أوضح وأعجب نظرية في استحضار الأرواح، ولكنها تقوم حصراً على وجود الشياطين، وبدونهم تنهار نظريتي كلها من تلقاء ذاتها، وهذه النظرية بالذات هي ما أنوي أن أتحدث عنه إلى القارئ في الختام. والقضية هنا في أنني أدافع عن الشياطين، فهم في هذه المرة يتعرضون للهجوم من غير ذنب اقترفوه، ويعدّهم الناس حمقى. لا تقلقوا، إنهم يعرفون ما يجب عليهم فعله؛ وهذا بالذات ما أريد البرهنة عليه، أولاً- يكتبون أن الأرواح غبية (ويقصدون الشياطين، أو القوة الخبيثة: فأية أرواح أخرى يمكن أن توجد غير الشياطين؟) وأنها عندما يستدعونها ويسألونها (بتدوير الطاولات) ترد بأجوبة تافهة، ولا تعرف القواعد النحوية، ولا تأتي بأية فكرة جديدة، ولا بأي اكتشاف. إن إطلاق مثل هذه الأحكام خطأ فاحش. وما الذي كان يمكن أن يحدث، على سبيل المثال، لو أن الشياطين أظهروا قدراتهم الجبارة رأساً، وأغرقوا الإنسان باكتشافاتهم؟ كأنْ يكتشفوا على سبيل المثال، التلغراف الكهربائي (طبعاً في حال كونه لم يكتشف بعد)، ويكشفوا للإنسان عن أسرار شتى: «احفر هنا تجد كنزاً أو تجد مكامن فحم حجري» (وبالمناسبة، الحطب غال جداً). إلّا أن هذا ليس سوى أمور تافهة! أنتم طبعاً تدركون أن العلم الإنساني ما زال في طور الطفولة، وهو تقريباً لم يَخطُ خطواته الأولى إلّا للتو، وإذا كان قد سجل في رصيده نقطة ما مضمونة، فهي حتى الآن لا تتعدى أن تكون وقوفه على قدميه بثبات؛ فماذا إذا انهمر فجأة عدد من الاكتشافات الشبيهة باكتشاف أن الشمس ثابتة والأرض تدور حولها (لأن ثمة، بالتأكيد، كثيراً من أمثال هذه الاكتشافات تماماً من حيث أبعادُها، ولكن لم يتم التوصل إليها حتى الآن، ولا تخطر ببال حكمائنا الآن حتى في الأحلام). ثم ماذا إذا انهالت المعارف الإنسانية انهيالاً مفاجئاً، والأهم: بلا أي مقابل، بل على شكل هدية؟ إنني أسأل: ما الذي سيحدث للناس عندئذ؟ أوه، طبعاً، بادئ ذي بدء سيهللون ابتهاجاً، وسيتعانقون بنشوة، وسيندفعون لدراسة الاكتشافات (وهذا سيستغرق وقتاً) وسيشعرون فجأة بأنهم مغمورون بالسعادة، إذا جاز التعبير، ومطمورون بالخيرات المادية؛ ولربما سيسيرون أو يطيرون في الجو، قاطعين طيراناً مسافات هائلة بسرعة تفوق سرعة القطارات الحالية بعشرة أمثال؛ وسَيَجْنون من الأرض محاصيل خرافية؛ ولربما أنشؤوا كيميائياً كائنات عضوية، فأصبح اللحم كافياً ليكون نصيب

كل فرد منه ثلاثة أرطال* كما يحلم اشتراكيونا الروس؛ أي باختصار: كل، واشرب وتلذذ. وسيصيح أهل البر والإحسان كافة: «الآن، بعد أن أصبح الإنسان مكتفياً، الآن فقط سيُظهر قدراته! فقد زال الحرمان المادي، وزال «الوسط» الخانق الذي كان سبباً لكل العيوب، وسيغدو الإنسان الآن رائعاً وباراً! لم يعد هناك كدح مستمر ليقتات الإنسان كيفما كان، والجميع الآن سيهتمون بالأمور السامية والأفكار العميقة والظواهر العامة الشاملة. الآن، الآن فقط حلّت الحياة الأسمى!» ولربما صاح بهذا، بصوت واحد، أناس أذكياء وجيدون، وقد يجعلون الجميع يتبعونهم متعجبين من هذا الجديد، ويرفع الجميع أصواتهم أخيراً في نشيد عام: «من يشبه هذا الوحش؟ سبحانه إنه ينزل لنا النار من السماء!»[58].

ولكن لا أظن أن هذه التهليلات الابتهاجية ستكفي لجيل واحد من الناس! سيرى الناس فجأة أنه لم تعد لديهم حياة، ولا حرية روحية، ولا إرادة، ولا شخصية، وأن أحداً ما قد سرق منهم كل هذا دفعة واحدة؛ وأن الصورة الإنسانية قد اختفت، وحلت محلها صورة العبد البهيمية، صورة البهيمة، مع فارق واحد هو أن البهيمة لا تعرف أنها بهيمة، أما الإنسان فسيعرف أنه أصبح بهيمة. وسيدب التفسخ في البشرية، وتتغطى أجساد الناس بالقروح، وسيعضون على ألسنتهم من الوجع**، ويرون أن الحياة قد انتُزعت منهم لقاء الخبز، لقاء «أحجار حُوِّلت إلى أرغفة»*** وسيدرك الناس أنْ لا سعادة في العيش بدون عمل، وأنّ الذهن الذي لا يعمل ينطفئ، وأن المرء لا يمكنه أن يحب قريبه إذا لم يُضَحِّ له بشيء اكتسبه بكدِّه، وأن العيش بالمجّان خساسة، وأن السعادة ليست في السعادة، بل هي في التوصل إلى السعادة. إذ سيحل الملل والحنين: فقد أُنجز كل شيء، ولم يعد ما يمكن فعله، وعُرف كل شيء، ولم يعد ما تمكن معرفته. وسيظهر المنتحرون أفواجاً، وليس خلسة كما الآن. الناس سيتجمهرون في حشود غفيرة، بعضهم ممسك بأيدي بعض، ويبيدون أنفسهم فجأة بالآلاف، بطريقة ما جديدة، اكتشفوها هم أنفسهم فيما اكتشفوه، وربما عندئذ يتوجه الباقون إلى الخالق صائحين: «أنت على حق يا ربنا، ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!» وعندئذ يتمردون على الشياطين، وينبذون العِرافة... أوه، إن الرب لم يكن ليبتلي الإنسانية بمثل هذا العذاب أبداً! ستسقط مملكة الشياطين! لا، إن الشياطين لن يرتكبوا مثل هذا الخطأ السياسي الفاحش. إنهم ساسة عميقو التفكير ويسيرون نحو الهدف بأكثر الأساليب رهافة وسلامة (مرة ثانية أقول: إذا كان هذا من فعل الشياطين حقاً!)

(*) الرطل الروسي = 409.5غ.

(**) «وسيدب التفسخ... من الوجع» عبارات مستوحاة من رؤيا القديس يوحنا (انظر 1-2، 10/ 16). (ن).

(***) صورة مستوحاة من المثل الإنجيلي عن تجريب ابليس يسوع في البرية (انظر متى3-4/ 4 ولوقا 3-4/ 4). (ن).

إن فكرة مملكتهم هي الشقاق؛ أي أنهم يريدون أن يؤسسوا مملكتهم على الشقاق. ولِمَ هم بحاجة هنا إلى الشقاق بالذات؟ ولِمَ لا؟ يكفي أن الشقاق هو بحد ذاته قوة هائلة؛ والشقاق بعد فتنة طويلة يوصل الناس إلى الخُرق، إلى إظلام العقل وتشوه الإحساس. إن الظالم المدرك أنه ظالم تراه في غمرة الشقاق، لا يذهب لمصالحة المظلوم، بل يقول لنفسه: «لقد ظلمته، ومن ثم علي أن أثأر منه». ولكن المهم هنا هو أن الشياطين متضلعون من معرفة التاريخ العالمي، ويذكرون بشكل خاص كل ما أقيم على الشقاق. وهم يعرفون، مثلاً، أن السبب الوحيد الذي يجعل الطوائف الأوربية المنشقة عن الكاثوليكية ما زالت حتى الآن متماسكة، بصفتها مذاهب دينية، يعود إلى أن الدماء قد أريقت بسببها في وقت ما. وإذا انتهت الكاثوليكية، على سبيل المثال، ستتهدم حتماً بعد ذلك الطوائف البروتستانتية: إذ ما الذي يبقى لها عندئذ لتحتج عليه*؟ بل إنها تنزع منذ الآن، بأكملها تقريباً، نحو التحول إلى «مذهب إنساني ما»، أو حتى إلى الإلحاد، وهذا أمر يلاحظ فيها منذ وقت طويل، وإذا كانت لا تزال حتى الآن تجهد للبقاء متماسكة بصفتها مذاهب دينية، فذلك لأنها ما زالت حتى الآن تحتج. وقد احتجت في العام الماضي بالذات، ويا له من احتجاج: لقد تطاول حتى تناول البابا نفسه.

أوه، من البديهي أن الشياطين سيبلغون غايتهم في نهاية المطاف ويسحقون الإنسان «بالحجارة المتحولة إلى خبز» كما تُسحق الذبابة: فهذا هدفهم الأهم؛ ولكنهم لن يُقْدموا على هذا إلّا بعد أن يضمنوا سلفاً عدم تعرض مملكتهم لتمرد البشر، مما يؤمّن لها طول البقاء. ولكن كيف لهم أن يُخضعوا الإنسان؟ طبعاً بأسلوب: «divide et impera» (فرّق تسد). وهذا يتطلب الشقاق. ومن جهة أخرى سيملّ الناس الأحجار المحوّلة إلى خبز، ولذا لا بد من التفتيش عما يشغلهم كيلا يمّلوا. وما الذي يصلح أن يكون أُشغولة لهم أكثر من الشقاق! ولننظر الآن كيف يزرع الشياطين الشقاق عندنا. وكيف يبدؤون الخطوة الأولى في استحضار الأرواح من الشقاق. ويعينهم على ذلك زماننا المضطرب هذا بالذات. لَكَم أهانوا عندنا أناساً من الذين يؤمنون باستحضار الأرواح! إنهم يصرخون في وجوههم ويسخرون منهم لأنهم يصدقون الطاولات التي تدور، وكأنهم بهذا قد قاموا أو أضمروا القيام بفعل معيب. ويواصل أولئك بإصرار بحث مسألتهم، بغض النظر عن الشقاق. وكيف لهم أن يكفوا عن البحث: فالشياطين يبدؤون من الطَّرَف، ويثيرون الفضول، ولكنهم لا يُوضِّحون، بل يضلِّلون، ويبلبلون ويسخرون علناً ووِجاهاً. الشخص الذكي والجدير بكل احترام يقف مقطباً عابساً ويجهد ملياً في التفكير: «ما هذا يا ترى؟» ثم ينفض يده أخيراً ويهم بالابتعاد،

(*) مصطلح «البروتستانتية»: مشتق من فعل «احتج على – اعترض». (ن).

ولكن الجمهور يقهقه بصوت أعلى، ويتسع نطاق القضية بحيث إن المشايع الجديد يبقى رغم إرادته بدافع الشعور بعزة النفس.

أمامنا لجنة التفتيش المختصة بمراقبة استحضار الأرواح مدججة بأسلحة العلم. والجمهور يترقب... ثم ماذا؟ الشياطين لا يفكرون البتة بالمقاومة، بل بالعكس، يتراجعون على نحو مخزٍ جداً: تفشل جلسات الاستحضار، ويظهر الخداع والإيهام واضحين للعيان. وتدوي قهقهات حاقدة من جميع الجهات، وتغادر اللجنة والاحتقار يطل من عيون أعضائها، ويتسربل المشايعون بالخزي والخجل، وتتسلل الرغبة بالانتقام إلى نفوس الجانبين. ويبدو بعد هذا كله أن الشياطين سيهلكون. ولكن هيهات. فما إن يدير العلماء والأشخاص الصارمون وجوههم حتى يعود الشياطين على الفور إلى عرض خارِقةٍ أشد إعجازاً أمام مشايعيهم السابقين، فيعود هؤلاء إلى الإيمان بقوة أشد. ويظهر الإغواء من جديد، ومن جديد يستعر الشقاق! في الصيف الماضي أدانوا أحد المصورين الضوئيين في باريس بتهمة الاحتيال الروحاني؛ فقد كان المذكور يستدعي الأموات ويصورهم، والناس يمطرونه بالطلبات. ولكن السلطات اعتقلته، وأقرّ في المحكمة بكل شيء، بل إنه قدّم السيدة التي كانت تساعده وتشخّص الأطياف المستحضرة. وماذا تظنون قد حصل؟ هل صَدَّق أولئك الذين خدعهم المصوّر كلَّ هذا؟ لا، مطلقاً؛ يقولون إن أحدهم قال: «مات لي ثلاثة أبناء، ولم يكن لدي صور لهم، وقد صوّرهم لي المصوِّر، فجاءت الصور مشابهة لهم، وعرفتهم جميعاً فيها. فماذا يهمني من أنه اعترف لكم بأنه محتال؟ إن له حساباته بهذا الخصوص. أما أنا فبين يدي شيء حقيقي، فاتركوني وشأني». لقد نُشر كل هذا في الصحف، ولا أدري إن كنت قد نقلت التفاصيل كما هي، لكن الجوهر صحيح. ولنتساءل الآن: ماذا لو حدثت عندنا الحادثة التالية على سبيل المثال: ما إن تنهي اللجنة العلمية مهمتها وتدير ظهرها، بعد أن تفضح الشعوذات التافهة، حتى يختطف الشياطين أحد أعضائها الأكثر تعنتاً، ولنفترض أنه السيد مندلييف[59] نفسه، الذي فضح استحضار الأرواح في محاضرات عامة؛ يوقعونه فجأة في شباكهم كما أوقعوا في وقت ما كروكس وأولكوت[60]، وينتحون به جانباً، ويرفعونه في الهواء مدة خمس دقائق، ويجسدون له أمواتاً يعرفهم، ويفعلون كل ذلك على نحو لا يقبل أي شك؛ فما الذي يمكن أن يحدث عندئذ؟ سيكون عليه، بصفته عالماً حقيقياً، أن يعترف بالحقيقة الواقعة؛ مع أنه كان، هو نفسه، يلقي محاضرات داحضة! فأي مشهد هذا، وأي خزي، وأية فضيحة، أي صراخ وزعيق غاضب! كل هذا مزاح طبعاً، وأنا واثق بأن السيد مندلييف لن يتعرض لأية حادثة من هذا القبيل، على الرغم من أن الشياطين قد تصرفوا حسب هذه الخطة تماماً، على ما أظن، في كل من إنكلترا وأميركا. ولكن ماذا سيحدث إذا ما رغب الشياطين فجأة،

بعد إعدادهم التربة وزرعهم ما يكفي من الشقاق، في أن يوسعوا نطاق نشاطهم توسيعاً لا حدود له، وينتقلوا إلى العمل الحقيقي الجاد؟ فهم شعب ميّال إلى السخرية وإتيان المفاجآت، ويمكن أن تتوقع منهم أي شيء. فماذا إذا قاموا على سبيل المثال، باقتحام صفوف الشعب فجأة ولديهم ومعهم، لِنَقُلْ، المعارف المناسبة؟ وشعبنا مجرد تماماً من وسائل الحماية ومستسلم للظلام والانحلال، وليس لديه في هذا المجال، كما يبدو، سوى قلة قليلة جداً من القادة! إنه يمكن أن يصدق الظواهر الجديدة بحماسة (فهو يصدق أمثال إيفان فيليبوفتش)[61]، وعندئذ: أي توقف سيحدث في تطوره الروحي! وأي فساد سيدب فيه! وما أطولَ المدة التي سيدوم خلالها هذا! وأية عبادة وثنية للمادة! وأي شقاق سيقع! إنه شقاق أشد بمئة مرة، بألف مرة، من السابق؛ وهذا بالذات ما يحتاج إليه الشياطين. ولا شك في أن الشقاق سيقع، ولا سيما إذا تمكن استحضار الأرواح من بلوغ حالة المضايقة والاضطهاد (وبلوغ هذه الحالة يمكن أن يكون حتمياً بسبب الموقف الذي تتخذه بقية الشعب من استحضار الأرواح الذي لا تؤمن به)، وعندئذ سينداح هذا الشقاق على الفور كما الكيروسين المشتعل، ويلتهب كل شيء. إن الأفكار الغيبية تحب التعرض للاضطهاد، إذ إنها تتكون بفضله؛ وكل فكرة مضطهَدة تشبه ذاك البترول الذي سفحه حارقو قصر تويليري[62] على أرضيات القصر وجدرانه قبل حرقه، والذي كان من شأنه في حينه تأجيج نار الحريق في المبنى المحروس. أوه، إن الشياطين يعرفون مدى قوة العقيدة الممنوعة، ولعلهم انتظروا قروناً طويلة إلى أن تتعثر البشرية بالطاولات الدوارة! ولا شك في أن ثمة روحاً خبيثة كبرى ذات قوة مهولة تديرهم، وهي أكثر ذكاء من مفيستوفيليس[8] الذي أورث غوته المجد، حسبما يؤكد ياكوف بيتروفتش بولونسكي[63].

لا شك البتة في أنني كنت أمزح وأضحك من أول كلمة إلى آخر كلمة قلتها في هذا الصدد، ولكن هاكم ما أريد أن أعرب عنه في الختام: إذا نظرنا إلى استحضار الأرواح على أنه ظاهرة تنطوي على عقيدة جديدة (علماً بأن جميع المستحضرين تقريباً، وحتى أكثرهم تبصراً، ميالون قليلاً إلى مثل هذه النظرة) فإن بعض ما قلته آنفاً يمكن أن نخرجه من دائرة المزاح. ولذا أرجو من الرب أن يحالف النجاح السريع البحوث الحرة من كلا الطرفين، فهذا وحده هو الذي سيساعد على استئصال الروح الخبيثة المنتشرة الآن بأسرع ما يمكن. وربما سيكون من شأن ذلك إغناء العلم باكتشاف جديد. أما صراخ كل طرف في وجه الطرف الآخر، والتشهير به، وطرده من المجتمع بسبب استحضار الأرواح فلن يؤدي، في رأيي، إلّا إلى توطيد فكرة الاستحضار وانتشارها بأبشع معانيها. وسيكون هذا بداية للتعصب والاضطهاد. وهذا بالذات ما يسعى إليه الشياطين!

حديث عن أننا كلنا أناس أخيار. الشبه بين المجتمع الروسي والمارشال ماكماهون[64]

استقبل القراء العدد الأول من «يوميات كاتب» بالترحاب. لم يذمّه أحد تقريباً؛ أقصد في وسائل النشر، أما فيما عدا ذلك فلا أدري. وإذا كان ثمة ذم منشور فإنه لم يكن ملحوظاً. لقد سارعت «الجريدة البطرسبورغية» إلى تذكير الجمهور في افتتاحيتها بأنني لا أحب الأطفال واليافعين والجيل الشاب، وأعادت في زاويتها الساخرة في أسفل الصفحة، في العدد ذاته نشر أقصوصة كاملة من يومياتي هي: «طفل عند يسوع في عيد الميلاد»* أقل ما يقال فيها إنها تشهد على أنني لا أكره الأطفال كل هذا الكره. وعلى كل فإن كل هذا سفاسف، وما يهمني هو سؤال واحد: هل هو جيد أم غير جيد أنني أرضيت الجميع؟ وهل هذا فأل خير أم فأل شر؟ ربما كان فأل شر؟ ولكن لا، لِمَ يكون هكذا! من الأحسن أن يكون فأل خير لا فأل شر، وعلى هذا سيستقر رأيي.

وبالفعل، نحن كلنا أناس أخيار، ما عدا الأشرار طبعاً. وبالمناسبة أريد أن أشير إلى الآتي: ربما ليس عندنا أناس أشرار البتة، بل عندنا أناس سيئون فقط. نحن لم نبلغ مستوى الأشرار. لا تضحكوا مني، بل فكروا: إننا بسبب، عدم وجود أشرار عندنا (وأكرر: مع وجود وفرة من السيئين من مختلف الأصناف) وصلنا، في وقت ما، إلى حالة أصبحنا فيها مستعدين، مثلاً، إلى إبداء تقديرنا الفائق لمختلف الأشخاص الأشرار الصغار، الذين كانوا يظهرون في نماذجنا الأدبية، والمستعارين بمعظمهم من أصل أجنبي. ولم نكتف بإبداء تقديرنا بل بذلنا جهدنا بخنوع لمحاكاتهم في الحياة الواقعية، وتقليدهم بدقة إلى درجة الخروج من جلودنا.

(*) انظر دوستويفسكي، الأعمال الأدبية الكاملة. المجلد 15 - ترجمة د. سامي الدروبي - ط2 بيروت - دار ابن رشد 1985. (م).

تذكّروا: ألم يكن لدينا الكثيرون من أمثال «بيتشورين»[65]، الذين ارتكبوا فعلاً وفي الواقع، كثيراً من القبائح بعد قراءة «بطل زماننا». وكان السلف الأول لهؤلاء الأشخاص الأشرار الصغار في الأدب هو «سيلفيو» في قصة «الطلقة» الذي أخذه «بوشكين» الصافي النية من «بايرون». ثم إن «بيتشورين» لم يقتل غروشنيتسكي إلّا لأنه هو نفسه لم يكن يبدو وسيماً إلى حد كاف في زيه العسكري، ولم تكن السيدات ترى فيه في الحفلات الراقصة التي يقيمها المجتمع الراقي في بطرسبورغ أنموذج الفتى المقدام. وإذا كنا قد أبدينا التقدير والاحترام، في حينه، لهؤلاء الأشخاص الصغار الأشرار الذين تثبت الكراهية في نفوسهم وتتمكن منها، بعكسنا نحن الروس، فمن المعروف أن الكراهية في نفوسنا هشة جداً، وقد كنّا دوماً نحتقر هذه الصفة فينا احتقاراً شديداً. الروس قوم ليس بمقدورهم الكره طويلاً وجدّياً ولا أقصد كره البشر فقط، بل حتى كره الرذائل ودياجير الجهل، والطغيان، والظلامية، وكل الأمور السلفية الرجعية الأخرى. إنهم عندنا الآن مستعدون للمصالحة عندما تسنح أول فرصة؛ أليس هذا صحيحاً؟ وبالفعل، تعالوا نفكر: علامَ يكره بعضُنا بعضاً؟ أبسبب التصرفات السيئة؟ ولكن هذا الموضوع زلق جداً ودقيق للغاية، ولا إنصاف فيه البتة، وهو بكلمة واحدة: ذو حدّين ومن الأفضل عدم تناوله على الأقل في الوقت الحاضر. يتبقّى الكره بسبب القناعات. وهنا بالذات أنا بعيد جداً عن الإيمان بجدية كراهيتنا. كان لدينا في وقت ما، على سبيل المثال، سلافويّون وغربويّون[13]، وكانت بينهم حرب ضروس. ولكن الآن، وبعد إلغاء حق القنانة، انتهت إصلاحات بطرس وجاء الـ: *sauve qui peut العام.

وهاهم السلافويّين والغربويين يتفقون في فكرة واحدة مشتركة هي أن من الضروري الآن انتظار كل شيء من الشعب؛ فالشعب قد نهض، وهو الآن يسير في طريقه، وهو وحده، ولا أحد سواه سيقول الكلمة الأخيرة عندنا. وكان يبدو أن السلافويّون والغربويّون يمكن أن يتصالحوا على هذا. ولكن ما حدث شيء آخر. فالسلافويون يؤمنون بالشعب لأنهم يفترضون أنه يتسم بمبادئ نابعة منه وخاصة به؛ أما الغربويون فهم يوافقون على الإيمان بالشعب ولكن بشرط لا بد منه، هو ألّا يكون لديه مبادئ خاصة به. ولذا فإن الشجار ما زال مستمراً؛ وماذا تظنون؟ أنا لا أؤمن حتى بالشجار ذاته: فالشجار له مجاله والحب له مجاله** وما الذي يمنع المتشاجرين من أن يحب بعضهم بعضاً في الوقت نفسه؟ بالعكس، إن هذا غالباً ما يحدث عندنا في الحالات التي يتشاجر فيها أناس جيدون جداً. ولِمَ لا نكون أناساً جيدين (ما عدا السيئين منا كما قلت سابقاً؟) ونحن لا نتشاجر إلّا لسبب رئيس

(*) الطوفان (حرفياً – إشارة الخطر): «فلينج بنفسه من يستطيع» (بالفرنسية). (ن).
(**) بتعبير آخر: الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية. (م).

وحيد هو أن الزمن الذي حل الآن فجأة لم يعد زمن النظريات ولا زمن الأخطاء الصحفية، بل زمن الفعل والحلول العملية. لقد تطلبت الظروف فجأة قول كلمة إيجابية حول التربية والتعليم، والخطوط الحديدية، وحول الإدارة المحلية، والمجال الطبي إلخ... إلخ. مما يتضمن مئات الموضوعات، والمهم في الأمر أن كل هذا مطلوب الآن وبأسرع ما يمكن كيلا نعوّق القضية؛ وبما أننا وجدنا أنفسنا جميعاً غير قادرين على أي فعل لابتعادنا خلال مئتي سنة عن أي فعل؛ فقد كان من الطبيعي أن يمسك كل منا بشعر الآخر، وكانت قوة اندفاع كل طرف إلى الانخراط في الشجار تزداد بازدياد شعوره بالعجز عن الفعل. وإني لأسألكم: ما الضير في هذا؟ إن هذ مُؤثِّر في المشاعر فحسب، ولا شيء أكثر. انظروا إلى الأطفال: إنهم يتشاجرون عندما لا يكونون قد تعلموا بعد كيف يعبّرون عن أفكارهم، ونحن مثلهم تماماً. وهذا غير مستنكر، وليس فيه ما يكدّر البتة، بل بالعكس، إنه يدل، إلى حد ما، على طزاجتنا وفطريتنا، إذا جاز التعبير. لنفترض أنهم عندنا في مضمار الأدب، على سبيل المثال، يتسابّون مستخدمين كل كلمات الذم دفعة واحدة، بسبب غياب الأفكار لديهم: إنه أسلوب غير معقول، وساذج، ولا نصادفه سوى لدى الشعوب البدائية، ولكنني أقسم على أنني أرى حتى في هذا شيئاً ما يكاد يكون مؤثِّراً: وهو بالذات هذه الغَرارة وهذا الخُرْق الطفولي، اللذان يجعلاننا عاجزين عن الشتم كما ينبغي. إنني لا أسخر ولا أتهكم مطلقاً: يوجد عندنا ترقب نزيه ونيّر للخير في كل مكان (صدقوا أو لا، ولكن هذا موجود) وتوجد رغبة في أن تكون لدينا قضية عامة نعمل جميعاً من أجلها لتعود بالخير على الجميع، وهذه الرغبة سابقة لكل أنانية، وهي تتسم بمنتهى البراءة ومفعمة بالإيمان، وليس فيها أي نزعة خصوصية، أو طائفية، وإذا ما صودفت مثل هذه النزعة في ظواهر صغيرة ونادرة فإنها تتبدى بقدر طفيف، ويحتقرها الجميع؛ وهذا أمر هام جداً. أتدرون لماذا؟ لأنه ليس غير صغير فحسب، بل لأنه كبير جداً. نعم، يكفينا ما نحن فيه: لِمَ علينا أن نضيف إليه هذا الذي يسمى «الكراهية الثابتة»! إن نزاهة مجتمعنا وإخلاصه لا يرقى إلى وجودهما الشك، لا بل إنهما يبهران البصر. وإذا أنعمتم النظر رأيتم أن لدينا، قبل كل شيء، الإيمان بالفكرة، بالمثل الأعلى، أما الخيرات الشخصية الدنيوية ففيما بعد. أوه! إن الناس الصغار الأشرار ينجحون عندنا أيضاً في تدبير أمورهم، بل حتى إنهم يتصرفون على نحو معاكس تماماً لما قلناه؛ ويبدو أن هذا يحدث في زمننا أكثر بما لا يقاس من أي زمن مضى؛ إلّا أن هؤلاء الناس الصغار السيئين لم يسيطروا قط بأفكارهم على الرأي العام ولم يقودوه، بل بالعكس، كانوا في أحيان كثيرة يجدون أنفسهم مرغمين، حتى وهم في أعلى المناصب، على أن يسايروا

بإذعان أناس المثل العليا الشبان، ذوي التفكير المجرد، الذين هم مدعاة للضحك، في رأيهم، والفقراء مادياً. إن مجتمعنا*، بهذا المعنى يشبه الشعب الذي يضع أيضاً إيمانه ومَثَلَه الأعلى فوق مصالحه الدنيوية والآنية، وفي هذا بالذات تكمن نقطة الارتباط الرئيسة بينه وبين الشعب. إن هذه المثالية تحوز رضا هؤلاء وأولئك، وإذا فقدناها لن نستطيع شراءها فيما بعد، مهما دفعنا لقاء ذلك من مال. ومع أن شعبنا منغمس في الفساد، وفي أيامنا هذه أكثر من أي وقت آخر، لكنه لم يكن قط مجرداً من فكرة القيادة المُرشِدة، ولم يقل قط حتى أنذل نذل فيه: «ما أفعله أنا هو الذي يجب فعله»، بل بالعكس كان موقناً دائماً، والحسرة تملأ نفسه، بأن ما يفعله سيئ، وأن ثمة ما هو أفضل بكثير منه ومن أفعاله. إن المثل العليا موجودة في وجدان الشعب، وبقوة، وهذا هو المهم: فإذا ما تغيرت الظروف، وتحسن الوضع، قد يزول الفساد من حياة الشعب، وتغدو المبادئ السامية الكامنة في أعماقه أكثر ثباتاً، وأكثر قدسية من أي وقت مضى. إن ناشئتنا تبحث عن المآثر والتضحيات، والشاب المعاصر الذي يتحدثون عنه كثيراً بمختلف المعاني، غالباً ما يُجِلّ أبسط «المفارَقات»، ويضحي من أجلها بكل ما لديه، بمصيره وحياته. ولكنه لا يفعل هذا إلّا لأنه ينظر إلى «مفارَقته» على أنها الحقيقة. القضية هنا في الجهل وحده: وما إن يسطع نور المعرفة حتى تظهر لديه وجهات نظر أخرى من تلقاء نفسها، وتختفي «المفارقات»، ولكن لن يختفي معها نقاء قلب هذا الشاب، ولا التوق إلى التضحيات والمآثر، الذي يشع الآن بقوة بين حناياه، وهما أفضل ما في الأمر. ولكن فيمَ نرى، نحن الباحثين عن الخير العام، والمتفقين، أينما وُجدنا، على الرغبة في نجاح القضية العامة، فيم نرى الوسائل التي تبلغنا ما نصبو إليه؟ طبعاً هذا شأن آخر ومسألة أخرى. ولا بد هنا من الاعتراف بأن الآراء لم تتفق عندنا البتة في هذا الصدد، حتى إن مجتمعنا المعاصر أصبح، بهذا المعنى، شديد الشبه بالمارشال ماكماهون. فقد قال هذا المارشال الموقر في إحدى خطبه الجماهيرية التي ألقاها خلال جولة قام بها منذ مدة جدّ قصيرة في المدن الفرنسية، وكان يرد فيها على عمدة إحدى المدن (فالفرنسيون مغرمون بإلقاء الخطب الاستقبالية والجوابية) قال إن السياسة كلها بالنسبة إليه تتلخص، حسب رأيه، في كلمتين: «حب الوطن». وقد عبّر عن رأيه هذا في الوقت الذي كانت فيه فرنسا كلها تترقب، بأعصاب متوترة، ما سيقوله الجنرال، رأي غريب، بلا جدال، وجدير بالثناء، ولكنه مشوب بالتباس عجيب، إذ إن العمدة المذكور كان باستطاعته أن يعارض

(*) تجدر الإشارة إلى أن دوستويفسكي يقصد بكلمة «المجتمع» في أمثال هذا السياق «الفئة الراقية وفئة المثقفين» اللتين يميز بينهما وبين عامة الناس أو من يطلق عليهم اسم «الشعب». (م).

فخامته بقوله: رب حب من شأنه أن يؤدي إلى إغراق الوطن. بيد أن العمدة لم يعارض، لأنه طبعاً كان يخشى أن يجيبه الجنرال بعبارة: «J'y suis et j'y reste»* وهي عبارة لا أظن أن الجنرال الموقّر سيتعداها.

ولكن حتى إذا كان الأمر هكذا فإن مثل هذا يماثل تماماً ما يحدث في مجتمعنا: فكلنا نُجمع على حب المصلحة العامة إن لم نقل حب الوطن (الكلمات لا أهمية لها) ولكن فيمَ نرى الوسائل التي تجسد ذلك، وليس الوسائل فحسب، بل المصلحة العامة نفسها؟ هنا بالذات يسود لدينا غموض كالذي يسود عند المارشال ماكماهون؛ ولذا فإنني، بالرغم من إرضائي البعض، وتقديري لمد أيديهم لي، تقديري العالي حقاً، أشعر مع ذلك سلفاً بأن ثمة خلافات كبيرة في الرأي ستبرز حول التفاصيل التي ستتلو، وذلك لأنني لا أستطيع أن أتفق على كل شيء مع الجميع، مهما كنت مسايراً.

عن حب الشعب.
العقد ضروري مع الشعب

كتبت في عدد كانون الثاني من «اليوميات»، على سبيل المثال، أن شعبنا فظ وجاهل، وأنه مستسلم للظلامية والفساد، وأنه «همجي ينتظر النور». قرأت لتوّي في مجموعة «المساعدة الأخوية» (وهي مجموعة تصدرها الهيئة السلافية دعماً للسلاف الذين يقاتلون من أجل حريتهم)، في مقالة للمرحوم الخالد الذكر والغالي على قلب كل روسي قنسطنطين أكساكوف[66] أن الشعب الروسي متنور و«متعلم» منذ وقت طويل. وماذا تظنون؟ هل أحرجني هذا الخلاف الظاهري في الرأي بيني وبين قنسطنطين أكساكوف؟ لا، على الإطلاق، فأنا أشاطره تماماً رأيه هذا، وأتعاطف معه بحرارة ومنذ وقت طويل. فكيف إذاً أوفّق بين هذين الرأيين المتناقضين؟ القضية هنا هي في أنني أرى التوفيق بينهما سهلاً جداً، ويدهشني أن ثمة آخرين يرون أن هذين الموضوعين ليسا قابلين للتوافق حتى الآن. يجب أن نكون قادرين

(*) أنا قلت هذا، وانتهى! (حرفياً: أنا هنا وسأبقى هنا) (بالفرنسية). (ن).

على أن نفرز في الإنسان الروسي المنتمي إلى الشعب البسيط جماله، ونميزه من الهمجية الدخيلة عليه. إن ظروف التاريخ الروسي بمجمله تقريباً قد دفعت شعبنا دفعاً إلى الاستسلام للفساد، وعملت على انحلاله وإغوائه وتعذيبه باستمرار إلى درجة تجعلنا ندهش لأنه ما زال يعيش حتى الآن، محتفظاً بصورته الإنسانية، فضلاً عن احتفاظه بجماله. أجل، لقد صان أيضاً جمال صورته. إن صديق الإنسانية الحقيقي، ومن خفق قلبه، ولو مرة واحدة، مُتحسساً آلام الشعب، يفهم ويغفر كل القذارة الطامية الدخيلة التي انغمس فيها شعبنا، وبمقدوره العثور على الألماس وسط هذه القذارة. وأكرر القول: لا تحكموا على الشعب الروسي انطلاقاً من تلك السفالات التي غالباً ما يرتكبها، بل احكموا عليه انطلاقاً من تلك الأشياء المقدسة والعظيمة التي لا ينفك يتوق إليها، حتى وهو يمارس الأفعال السافلة. ثم إن الشعب ليس كله من السفلة، بل فيه قديسون حقيقيون، ويالهم من قديسين: هم أنفسهم يشعون نوراً وينيرون الطريق لنا جميعاً! إنني أؤمن إيماناً أعمى، على نحو ما، بأنه لا يوجد سافل ووغد في الشعب الروسي لا يعرف أنه سافل ووغد، أما عند الآخرين فإنك تجد من يمارس السفالة، ويمدح نفسه مفتخراً بسفالته ورافعاً إياها إلى درجة المبدأ، وزاعماً بأن فيها يكمن الـ «l'Ordre»* ونور الحضارة، وينتهي الأمر بهذا التعس إلى الإيمان بذلك إيماناً صادقاً، وأعمى وحتى نزيهاً. أجل، احكموا على شعبنا لا على أساس ما هو عليه الآن، بل على أساس ما يرغب في أن يكون عليه. إن مُثُلَه العليا متينة ومقدسة، وهي التي أنقذته في عصور العذاب: لقد امتزجت بروحه منذ القدم، وكافأتها بإسباغها عليها البساطة البريئة، والنزاهة، والإخلاص، والعقل الرحب المنفتح أمام كل شيء، وكل هذا مترابط ترابطاً يتسم بأعلى درجات الانسجام والجاذبية. وإذا كانت القذارة، مع كل هذا، موجودة بكثرة، فإن الإنسان الروسي هو أول من يشعر بالغم والضيق من وجودها، وهو يؤمن بأن كل ذلك ليس سوى غواية شيطانية دخيلة ومؤقتة، وبأن الظلمة ستنقشع، ولا بد من أن يأتي وقت يتلألأ فيه النور الأبدي. لن أستدعي إلى ساحة الذاكرة الآن مُثُلَه العليا التاريخية، وقدّيسيه من أمثال سيرغي[67]، وفيودوسي بيتشيرسكي[68]، أو حتى تيخون زادونسكي[69]، وبالمناسبة أتساءل أكُثُرٌ هم الذين يعرفون شيئاً عن تيخون زادونسكي؟ وما سبب عدم المعرفة المطلق هذا ومعاهدة الذات على الامتناع التام عن القراءة؟ أهو في قلة الوقت يا ترى؟ صدقوني، أيها السادة، إنكم لو قرأتم لكنتم ستدهشون عندما تجدون أنفسكم تعرفون أشياء رائعة. ومن الأفضل أن أتوجه في هذا الصدد إلى أدبنا بالذات: فكل ما هو رائع حقاً فيه مأخوذ أصلاً من الشعب، بدءاً من نموذج بيلكين

(*) النظام (بالفرنسية). (ن).

المستكين، البسيط النفس، الذي أبدعه بوشكين. ومن المعروف أن كل شيء لدينا هومن بوشكين. فانعطافه نحو الشعب في فجر نشاطه الإبداعي كان أمراً مدهشاً للغاية ولا سابق له، وكان في ذاك الوقت كلمة جديدة غير متوقعة البتة، إلى درجة أننا لن نستطيع تفسير هذه الظاهرة، إذا لم تكن معجزة، إلا بعظمة عبقريته الخارقة؛ ودعوني أضف، بالمناسبة، إننا لا نزال حتى الآن غير قادرين على تقدير هذه العبقرية حق قدرها. لن أتطرق الآن إلى ذكر النماذج الشعبية الخالصة التي ظهرت في أيامنا، ولكن تذكروا «أوبلوموف»[70] وتذكروا «عش النبلاء» لتورغينف. ليس هذا هو الشعب طبعاً؛ ولكن كل ما هو خالد ورائع في هذه النماذج التي أبدعها غونتشاروف وتورغينف إنما تأتّى من أنهما كانا في تصويرهما إياها في حالة تماس مع الشعب، وهذا التّماس مع الشعب منحهما قوة غير عادية. لقد اقتبسا منه بساطة نفسه، ونقاءه، ووداعته، ورحابة عقله، وتنزهه عن الحقد، خلافاً لكل ما هو مشوَّه وزائف، ودخيل، ومستعار بانقياد عبودي. لا تعجبوا من أنني بدأت فجأة أتحدث عن الأدب الروسي؛ فأدبنا بالذات قد حقق بمجمله تقريباً في أعمال أفضل ممثليه، وقبل جميع المنتمين إلى فئة الانتلجينسيا عندنا (لاحظوا هذا جيداً) مأثرة الانحناء أمام الحقيقة الشعبية، والاعتراف بأن مُثُل شعبنا العليا هي مُثُل رائعة فعلاً. وعلى كل فقد كان هذا الأدب مرغماً على أخذها كنموذج أمثل حتى وإن كان هذا على غير إرادة منه أحياناً. ويبدو أن هذا يعود في حقيقته إلى الحس الفني أكثر مما يعود إلى الإرادة الطيبة. ولكن لنكتفِ بهذا القدر من الحديث عن الأدب الآن؛ وأنا لم أتحدث عنه هنا أصلاً إلّا بصدد حديثي عن الشعب.

إن مسألة الشعب والنظرة إليه وفهمه هي أهم مسألة عندنا الآن، وفيها يكمن مستقبلنا كله، بل يمكن القول إنها المسألة العملية الأولى في وقتنا الراهن. ومع ذلك فالشعب بالنسبة لنا جميعاً لا يزال «نظريّة» وما زال يبدو لنا لغزاً. كلنا، نحن محبي الشعب، ننظر إليه بصفته «نظرية»، ويبدو لي أنه لا أحد منا على الإطلاق يحبه كما هو في الواقع، بل كل منا يحبه كما يتصوره هو، بل حتى يبدو لي أننا إذا تبيّنا فيما بعد أن الشعب الروسي ليس كما نتصوره، سنتبرأ منه على الفور من غير أي أسف على الرغم من كل حبنا له. إنني أتحدث عن الجميع ولا أستثني منهم السلافَوِيين، بل ربما كان هؤلاء أول المتبرئين. أما أنا فإنني لا أخفي قناعاتي، وذلك بالذات كي أحدد بمزيد من الوضوح الوجهة التي ستتخذها «يومياتي» تالياً، تجنباً لوقوع أي سوء فهم، وبذا يمكن لأي واحد أن يعرف سلفاً: هل يستأهل الأمر أن يمد لي يده الأدبية أم لا؟ إنني أفكر على النحو التالي: لا أظن أننا من الجودة والروعة بحيث يمكننا أن نضع أنفسنا في منزلة المثل الأعلى للشعب، وأن نطالبه بأن يصبح مثلنا حتماً. لا تعجبوا من طرح المسألة على هذا الوجه السخيف؛ فهذه المسألة

لم تطرح عندنا قط إلّا على هذا الوجه: «من هو الأفضل: نحن أم الشعب؟ أعليه هو أن يسير خلفنا، أم علينا نحن أن نسير خلفه؟» هذا ما يقوله الجميع الآن، ممن لديهم ولو ذرة من فكر في رؤوسهم، وذرة من اهتمام بالقضية العامة في قلوبهم. ولذلك فإنني أجيب بصدق: بالعكس، نحن الذين علينا أن ننحني أمام الشعب وننتظر منه كل شيء: الفكرة والصورة. علينا أن ننحني أمام الحقيقة الشعبية، ونقر بأنها هي الحقيقة حتى في تلك الحالة المريعة، التي يمكن أن تكون فيها هذه الحقيقة صادرةً جزئياً عن «القراءات الشهرية»[71]. وباختصار علينا أن نذعن كأبناء ضالين ظللنا مئتي سنة خارج البيت، ولكننا مع ذلك، عدنا إليه روساً، وهذا، على أية حال، مأثرة عظيمة لنا. ولكن من جهة أخرى، علينا أن ننحني بشرط واحد، وهذا *sin qua non: وهو أن يتقبل الشعب بدوره منا كثيراً مما أحضرناه معنا فنحن لا يمكن أن نمّحي تماماً أمامه، ولا حتى أمام حقيقته أياً كانت. فما هو لنا يجب أن يبقى معنا، ونحن لن نفرط به مهما كان الثمن، حتى ولو وصل الأمر إلى حده الأقصى، وكان الثمن هو سعادة اتحادنا بالشعب؛ وإلّا فإن من الأفضل أن نهلك كلانا مُنْفَصِلَيْن. ولكن هذه الـ «إلّا» لن تكون أبداً. فأنا على يقين بأن «هذا الذي» سنحضره معنا موجود فعلاً، وليس سراباً، وله صورته وشكله ووزنه. ومع ذلك فإنني أكرر القول: إن الكثير مما سيأتي به المستقبل لا يزال مبهماً، بل إن مجرد توقعه يبعث على الرعب. يتنبؤون مثلاً، بأن الحضارة ستفسد الشعب: ويزعمون أن الأمور ستسير على نحو يتجاور فيه مجيء الخلاص والنور مع تدفق قدر كبير من الأشياء الكاذبة الزائفة ومن القلق والعادات الشديدة السوء، مما سيجعل نمو بذور طيبة يتأخر إلى حين ظهور أجيال قادمة ربما ستأتي بعد مئتي سنة كما قلنا، أما نحن وأولادنا فقد يكون بانتظارنا شيء ما فظيع. هل هذا هو رأيكم أيها السادة؟ هل كُتب على شعبنا أن يمر حتماً عبر مرحلة جديدة من الفساد والكذب، كالتي مررنا نحن عبرها مع انتشار الحضارة؟ (أعتقد أن لا أحد سيجادل في أننا بدأنا تحضُّرَنا بالفساد مباشرة؟) وأتمنى أن أسمع آراء مواسية بهذا الصدد. أنا ميّال جداً إلى الاعتقاد بأن شعبنا من الضخامة بحيث إن أية تيارات عكرة جديدة، إذا ما انبثقت من مكان ما وتدفقت نحوه، ستتلاشى في خضمه من تلقاء ذاتها. تعالوا نتصافح على هذا؛ تعالوا نُساعِد متكاتفين: كُلٌّ بعمله «المجهري»، على أن تتخذ القضية مساراً أكثر استقامة، وأبعد عن الزلل. ولكن في الحقيقة، نحن في هذا المجال لا نقدر على فعل أي شيء، سوى أن «نحب الوطن». بيد أننا غير متفقين على الوسائل، وسيثور بيننا الشجار مرات عديدة، ولكن إذا كان من المفروغ منه أننا أناس جيدون، فإن الأمور، مهما جرى، ستستقيم في نهاية المطاف. هذا ما أؤمن به. وأكرر القول: كل ما في

(*) لا بد منه (باللاتينية). (ن).

الأمر هنا هو ابتعادنا طوال مئتي سنة عن ممارسة أي فعل، ولا شيء أكثر من هذا. وعبر هذا الابتعاد عن الفعل أنهينا «حقبتنا الثقافية» بالكف جميعاً عن فهم كل منا للآخر. طبعاً أنا أتحدث هنا عن الناس الجديين والمخلصين فقط؛ فهؤلاء هم الذين لا يفهم بعضهم بعضاً؛ أما الانتهازيون المضاربون فلهم شأن آخر: فهم دائماً كانوا متفاهمين...

الفلاح ماريْ

بيد أن قراءة جميع هذه الـ professions de foi* مملة جداً كما أظن، ولذا فإنني سأروي هنا حادثة، بل هي ليست حادثة، إنما مجرد ذكرى قديمة، ولا أدري لمَ أشعر برغبة شديدة في أن أرويها هنا بالذات والآن، في ختام حديثنا عن الشعب. كنت آنذاك لم أتجاوز التاسعة من العمر... ولكن لا، من الأفضل أن أبدأ من الوقت الذي كنت فيه في التاسعة والعشرين.

كان ذلك في اليوم الثاني من عيد الفصح. الجو كان دافئاً، والسماء زرقاء، والشمس ترسل من الأعالي نوراً ساطعاً مُدفِئاً، ولكن نفسي كانت غارقة في ظلمة الكآبة. كنت أتجول خلف الثكنات وأنا أنظر إلى أوتاد السياج المتين الذي يحيط بالسجن وأعدّها من دون رغبة، مع أن عدّها كان عادة ملازمة لي. كان السجن يعيش اليوم الثاني «من العيد»؛ ولذا لم يسوقوا السجناء إلى الأعمال الشاقة، وكان ثمة كثرة من السكارى، وفي كل لحظة كانت تعلو الشتائم، وتنشب المشادات في جميع الزوايا، وتسمع أغنيات بذيئة فاحشة؛ وكان بعض السجناء يلعبون الورق تحت المضاجع الخشبية، وبعضهم حَكَمَ عليهم زملاؤهم بالضرب حتى الإغماء، بسبب تماديهم في الشغب، ومددوهم على المضاجع الخشبية وغطّوهم بفرواتهم إلى أن يفيقوا ويستعيدوا وعيهم. وقد أُشهرت السكاكين عدة مرات؛ كل هذا قد أوجعني حتى المرض خلال يومي العيد. فأنا لم أحتمل قط، من غير شعور بالاشمئزاز، عربدة الشعب المخمور، ولاسيما هنا، في هذا المكان بالذات. ولم يكن حتى المشرفون على السجن يراقبون ما يجري داخل الثكنات خلال هذين اليومين، ولم يكونوا يقومون بالتفتيش وبالبحث عن الخمر، لإدراكهم أن من الضروري السماح، حتى لهؤلاء المنبوذين، باللهو مرة

(*) المجاهرات بالعقيدة (بالفرنسية). (ن).

في السنة، وإلّا فإن الوضع سيزداد سوءاً. وشعرت في نهاية المطاف بأن قلبي يطفح حقداً. وقد صادفت هناك سجيناً سياسياً بولندياً اسمه و...تسكي. نظر إلي متجهماً، والتمعت عيناه، وارتجفت شفتاه، وقال لي بصوت خافت وهو يصرف بأسنانه: «J 'hais ces brigands»* ثم تابع سيره. عدت إلى الثكنة على الرغم من أنني كنت، منذ ربع ساعة، قد اندفعت خارجاً منها كالممسوس، عندما انقضّ ستة رجال ضخام معاً على تتري سكران اسمه غازين ليكبحوا جماحه، وانهالوا عليه بضرب مبرّح، من شأنه أن يقتل جملاً، بيد أنهم كانوا يعرفون أن هذا الـ«هرقل» من الصعب أن يُقتل، ولذا كانوا يضربونه من غير خشية. والآن عندما عدت رأيت غازين هذا ممدداً على مضجع خشبي في الزاوية القصوى من الثكنة وهو في غيبوبة، وقد فقد تقريباً كل أمارات الحياة؛ كان مغطى بفروة، وكان الجميع يمرون بقربه صامتين: ومع أنهم كانوا يأملون بثبات أنه سيفيق في صباح الغد، «ولكن من يدري، فمثل هذا الضرب المبرح يمكن أن يقصف عمر الإنسان». عدت إلى مكاني مقابل النافذة المغطاة بشبك حديدي، واستلقيت على ظهري واضعاً يدي خلف رأسي، وأغمضت عيني. كنت أحب أن أستلقي هكذا: فالنائم لا يتحرشون به، وبوسعي، في الوقت نفسه، أن أحلم وأفكر. بيد أنني لم أستطع أن أحلم بشيء: فقلبي كان يخفق بقلق، وكلمات و...تسكي: «J 'hais ces brigands» كانت ترن في أذني. وعلى أية حال لا داعي لأن أصف تلك الانطباعات؛ فأنا ما زلت حتى الآن أرى ذاك الوقت أحياناً في أحلامي الليلية، وليس ثمة أحلام أشد منها إيلاماً. ولعل القراء سيلاحظون أيضاً أنني حتى اليوم لم أتحدث في الصحافة قط تقريباً عن حياتي في السجن. أما كتابي «ذكريات من بيت الأموات» فقد كتبته منذ خمسة عشر عاماً بلسان شخص متخيل، صوّرته مجرماً قتل زوجته. وأضيف هنا بالمناسبة تفصيلاً هامشياً هو أن كثيرين جداً اعتقدوا منذ ذاك الوقت، وما زالوا يؤكدون حتى الآن، أنني نُفيت إلى سيبيريا لأنني قتلت زوجتي.

نأيت شيئاً فشيئاً عما حولي إلى أن انفصلت عنه تماماً، وغرقت في الذكريات على نحو غير ملحوظ. إنني طوال السنين الأربع التي قضيتها في سجن الأشغال الشاقة، كنت على الدوام أتذكر أيامي الماضية؛ حتى لكأنني كنت في ذكرياتي أعيش حياتي السابقة مرة ثانية. وكانت هذه الذكريات تتوارد من تلقاء ذاتها، وقلما كنت أستدعيها إرادياً. وكانت الذكرى تبدأ من نقطة ما، من خط غير ملحوظ أحياناً، ثم تتسع دائرتها شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح لوحة كاملة، وتغدو انطباعاً ما كاملاً وقوياً. وكنت أحلل هذه الانطباعات، وأُسبغ سمات جديدة على ما كنت قد عشته سابقاً، والأهم أنني كنت أصححه، وأستمر في تصحيحه بلا انقطاع،

(*) «إنني أكره قطاع الطرق هؤلاء» (بالفرنسية). (ن).

وكان هذا الأمر هو تسليتي الوحيدة. وفي هذه المرة تذكرت فجأة، ولا أدري لماذا، برهةً لا تسترعي الانتباه من طفولتي المبكرة، عندما لم أكن قد تجاوزت التاسعة من عمري. كان يبدو لي أنني نسيت هذه البرهة تماماً؛ ولكنني كنت أُكنُّ حباً خاصاً آنذاك لذكرياتي المستحضرة من طفولتي الأولى هذه. تذكرت أحد أيام شهر آب (أغسطس) في قريتنا: كان يوماً جافاً وصاحياً، ولكنه بارد بعض الشيء بسبب الريح؛ كان الصيف يشارف على نهايته، وعليّ أن أسافر قريباً إلى موسكو لأعود إلى الملل طوال الشتاء في تعلم اللغة الفرنسية، وكان يعِزُّ عليّ جداً أن أترك القرية. تجاوزت البيدر، ثم هبطت إلى وهدة، وصعدت منها إلى حَرَجَةِ شجيرات كثيفة يسمونها عندنا «لوسك»، تمتد من حافة الوهدة حتى الدَّغَل. وفيما كنت أتوغل في الحرجة سمعت أصواتاً تأتي من مسافة قريبة لا تتجاوز ثلاثين خطوة، صادرةً عن فلاح يحرث بمفرده في بقعة أرض جرداء. كنت أعرف أنه يحرث في بقعة شديدة الانحدار، ولذا كانت الفرس تجد مشقة في الصعود. وكان يتناهى إلى سمعي أحياناً صوت الفلاح وهو يصرخ حاثّاً إياها: «إيه - إيه». كنت أعرف جميع فلاحينا تقريباً، ولكنني لم أكن أميز من هو الذي يحرث الآن، ولم يكن هذا الأمر يهمني؛ فقد كنت غارقاً في شأن خاص بي؛ أي أنني أنا الآخر كنت مشغولاً: كنت أقطع قضيباً من شجيرة بندق حرجية لأسوط به الضفادع. إن قضبان شجيرات البندق جميلة جداً وغير متينة، بعكس قضبان أشجار البتولا. وكانت تستأثر بانتباهي أيضاً صغار الحشرات والزيزان، وكنت أجمعها وأجد بينها ما هو مرقّش بألوان زاهية جداً؛ وكنت أحب العظايا الصغيرة الرشيقة الحركة، ذات اللون الأحمر الضارب إلى الصفرة والبقع السوداء الصغيرة. ولكنني كنت أخاف الأفاعي، وهي على كل حال أقل عدداً بكثير مما كنت أصادفه من عظايا. أما الفطر فقد كان قليلاً هنا، ولجمعه كان يجب الذهاب إلى غابة البتولا، وكنت عازماً على الذهاب إلى هناك؛ فلا شيء في الحياة أحب إلي من الغابة بفطورها، وثمارها البرية، وحشراتها وعصافيرها، وقنافذها، وسناجيبها، وكم أحب تلك الرائحة الرطبة التي تفوح من أوراق شجرها الساقطة المتعفنة. وها أنا الآن، وأنا أكتب هذه السطور، تفغمني رائحة غابة البتولا في قريتنا: إن هذه الانطباعات ستلازمني مدى الحياة.

وفجأة، في وسط ذاك السكون الشامل طرق سمعي بوضوح وجلاء صوت يصرخ: «ذئب، ذئب!» فزعقت وشرعت أصرخ بملء صوتي وقد جننت رعباً، وركضت إلى بقعة الأرض التي كان يحرثها الفلاح، واتجهت نحوه مباشرة. كان هذا فلاحنا مارِيْ. إنه رجل يناهز الخمسين من عمره، مكتنز الجسم، طويل بعض الشيء، له لحية صهباء عريضة وخطها الشيب بشدة. كنت أعرفه، ولكن لم يتفق لي قط تقريباً أن كلمته قبل الآن. كان قد أوقف فرسه عندما سمع

صراخي، ولمّا هرعت إليه راكضاً، وتشبثت بإحدى يديّ بالمحراث، وتمسكت بيدي الأخرى بكمه، تبيَّن مدى الفزع الذي استولى عليّ. صرخت وأنا ألهث: - الذئب، الذئب!

رفع رأسه ونظر حوله لا إرادياً، وكاد خلال لحظة أن يصدقني؛ ثم سأل: - أين الذئب؟

فأجبته متمتماً: شخص ما صرخ... أحدهم صاح الآن: «ذئب، ذئب»...

فدمدم قائلاً ليشجعني:

- ما هذا القول، ماذا تقول! أي ذئب هذا، لقد خيّل إليك لا بد! أي ذئب سيأتي إلى هنا!

بيد أنني ظللت أرتجف بشدة، وتشبثت بسترته بقوة أكبر، ولا بد أنني كنت شديد الشحوب. نظر إليّ مبتسماً بقلق، وبدا أنه يشعر بالخوف والجزع علي.

قال وهو يهزرأسه: - أوه، كم أنت خائف! لا... لا كفى يا عزيزي! هيا يا صغيري، كفى. ومسح خدي بكفه وتابع:

- أيه، كفى! فليكن المسيح معك، صلِّبْ.

لكنني لم أُصلّب. كانت زاويتا شفتيّ ترتعشان، ويبدو أن هذا قد أذهله أكثر من أي شيء آخر. فقرّب بهدوء أصبعه الضخمة السوداء الظفر، والملوثة بالتراب، ولامس بها برقة شفتيّ المرتعشتين. وقال لي وهو يبتسم ابتسامة طويلة وحنوناً كابتسامة الأم:

- ما لك! ماذا بك؟ أوه يا إلهي، ما هذا؟ لا... لا... لا شيء هناك!...

أدركت أخيراً أنه لا يوجد ذئب، وأن الصرخة التي سمعتُها: «ذئب، ذئب». كانت مجرد وهم، مع أن الصرخة كانت واضحة وجليّة تماماً؛ ولكن أمثال هذه الصرخات (وليس عن الذئاب فقط) كنت قد توهمتها مرة أو مرتين من قبل، وكنت أعرف هذا. (وقد زايلتني هلوسات السمع هذه مع انقضاء الطفولة).

قلت وأنا أنظر إليه نظرة استفهام متهيبة:

- إيه، أنا ذاهب.

فأجابني وهو لا يزال يبتسم لي تلك الابتسامة الأمومية:

- هيا، اذهب، وأنا سأتابعك بنظري، لن أدع الذئب يصل إليك فليكن المسيح معك، هيا اذهب.

ورسم إشارة الصليب عليّ، ثم صلّب على نفسه.

ومضيت متلفتاً إلى الخلف كل عشر خطوات تقريباً؛ وفيما كنت أبتعد، كان ماريي يقف مع فرسه موجهاً بصره نحوي، وكان يهزلي رأسه كلما التفتُّ؛ واعترف بأنني كنت أشعر

ببعض الخجل منه لأنني أُبدي كل هذا الخوف، ولكنني كنت أسير وأنا ما زلت خائفاً جداً من الذئب، ولم يزايلني الخوف تماماً إلّا بعد أن صعدت إلى أعلى المنحدر الآخر من الوهدة ووصلت إلى أول بيدر. وفجأة اندفع نحوي من مكان ما كلب حراسة فنائنا فولتشوك؛ وعندئذ أحسست بطمأنينة كاملة، والتفتُّ نحو ماريي مرة أخيرة، ولم أستطع في هذه المرة تمييز وجهه بوضوح، ولكنني أحسست أنه ما يزال يبتسم لي بذاك الحنان نفسه، ويهز لي رأسه. لوحت له بيدي، فلوّح لي بدوره، وساق فرسه مستأنفاً الحراثة. وسمعت من جديد صيحته البعيدة:

- إيه، إيه.

ومن جديد شرعت الفرس تجر المحراث.

تذكرت هذا كله دفعة واحدة لا أدري لماذا؛ وقد تذكرته بدقة مدهشة وبكل التفاصيل. وفجأة عدت إلى الواقع، واستويت على مضجعي الخشبي، وأذكر أنني تنبهت آنذاك إلى أن ابتسامةَ الذكرى الهادئة ما زالت مرتسمة على شفتي. وظللت نحو دقيقة مستمراً في استحضار تلك الذكريات.

عندما عدت إلى المنزل بعد أن غادرت ماريي لم أتحدث إلى أحد عن «مغامرتي». وأية مغامرة هذه أصلاً؟ ثم سرعان ما نسيت ماريي نفسه. وعندما كنت أصادفه أحياناً فيما بعد، لم أكن أكلمه البتة، لا بشأن الذئب ولا بشأن أي أمر آخر؛ ولكن ها أنا الآن، وبعد مضي عشرين عاماً، أتذكر فجأة هنا في سيبيريا، كل تفاصيل هذا اللقاء بمنتهى الوضوح، وحتى آخر لمحة فيه. أي أن هذا اللقاء قد استقر في نفسي من تلقاء ذاته، ومن غير أن ألحظ ذلك أو أقصده إرادياً، وها هو الآن يعود إلى ساحة الذاكرة عندما استدعته الحاجة؛ لقد تذكرت تلك الابتسامة الأمومية الحنون التي ارتسمت على وجه الفلاح القن المسكين، وتذكرت كيف كان يرسم إشارة الصليب، وكيف كان يهز رأسه وهو يقول لي: «أوه، كم أنت خائف يا صغيري!» وتذكرت، خصوصاً، أصبعه الضخمة الملوثة بالتراب التي لامس بها برقة وحنان متهيب، شفتيّ المرتعشتين. طبعاً إن أي إنسان كان سيعمد إلى تشجيع الطفل؛ ولكن هنا، في هذا اللقاء الانفرادي، حدث أمر مختلف تماماً؛ فلو أنني كنت ابنه من لحمه ودمه، لما كانت نظرته إليّ تشع بحب أكثر صفاء ونقاء من هذا الحب؛ ومن الذي أجبره على ذلك؟ لقد كان الرجل أحد أقناننا، وأنا كنت ابن سيده؛ ولم يكن أحد ليعرف كيف لاطفني فيكافئه على هذا. فهل كان هو بفطرته يحب الأطفال الصغار كل هذا الحب؟ ثمة أناس لهم مثل هذه الطبيعة. لقد حدث اللقاء على انفراد، في حقل مقفر، وليس سوى الرب وحده كان يرى من علياء سمائه ما يطفح به قلب قنٍّ من حنان رقيق يكاد يكون أنوثياً. ولم يكن يتوقع أو يخمن مجرد

تخمين آنذاك أنه سيتحرر*. قولوا لي: أليس هذا ما كان يقصده قنسطنطين أكساكوف[66] عندما تحدث عن التعليم والتربية الرفيعة لدى شعبنا؟

وأذكر أنني عندما نزلت عن المضجع الخشبي ونظرت فيما حولي، أحسست فجأة بأن في وسعي الآن أن أرى هؤلاء التعساء رؤية مختلفة تماماً، وأن الكره والحقد قد زالا من قلبي كلّياً بفعل معجزة ما. سرت متفرساً في وجوه السجناء الذين يصادفونني. وقلت لنفسي: إن هذا الفلاح الحليق الرأس، الذي يُعَدّ من سقط المتاع، والموسوم على وجهه بالحديد المحمّى عقاباً له، والسكران الذي كان يجأر بالغناء بصوت مخمور مبحوح، ربما يكون مثيلاً لماريئ: فأنا لا أستطيع أن أطلع على ما في قلبه. وقد صادفت في ذاك المساء نفسه و...تسكي مرة ثانية. ما أتعسه! ليس من الممكن أن يكون لديه ذكريات عن أي شخص مثل ماريي، وأن تكون لديه نظرة أخرى إلى هؤلاء الناس، ما عدا: «J 'hais ces brigands». أجل، إن هؤلاء البولنديين قد قاسوا آنذاك أكثر مما نحن قاسينا.

حول قضية كرونيبيرغ

أظن أن الجميع على علم بمحاكمة كرونيبيرغ التي جرت منذ شهر في محكمة منطقة بطرسبورغ، والجميع كانوا يقرؤون التقارير والآراء في الصحف. القضية مثيرة جداً للاهتمام، والتقارير عنها كانت شديدة السخونة. وأنا لن أعود إلى سردها الآن بتفاصيلها بعد مضي شهر كامل، ولكنني أحس بالحاجة إلى قول كلمتي بشأنها. أنا لست رجل قانون البتة، ولكن الزّيف الذي أحاط بالقضية من جميع الجوانب، كان من الوفرة بحيث أصبح مرئياً حتى لغير رجال القانون. أمثال هذه القضية تقفز على نحو مفاجئ، فتربكِ المجتمع، وتربك، على ما يبدو، القضاةَ أنفسهم؛ وبما أنها تمس أعلى المصالح العامة قيمةً، فمن المفهوم أن تكون ذات تأثير محسوس ولا يجوز، في بعض الأحيان، السكوت عنها، على الرغم من مرور شهر عليها، أي مدة بطول الدهر كله.

دعوني أذكّر بالقضية: أب ضرب ابنته التي لم تتجاوز السابعة من عمرها ضرباً مُبرِّحاً.

(*) إشارة إلى إلغاء قانون القنانة في روسيا عام 1861. (م).

ويذكُر قرار الاتهام أنه كان في السابق أيضاً يعاملها بقسوة. لم تستطع إحدى النساء - وهي من فئة الشعب البسيط - احتمال صراخ الطفلة التي ظلت (حسبما يقول قرار الاتهام) طوال ربع ساعة تصرخ وهي تُضْرَب بالقضبان: «بابا! بابا»؛ وقد تبين حسب شهادة أحد الخبراء أن القضبان لم تكن قضباناً عادية بل من نوع المقارع الصفصافية[72]. أي من نوع لا يمكن أن يحتمل الضربَ به طفل في السابعة من عمره. وقد أُحضرت هذه العصي إلى المحكمة في جملة البيّنات المادية، وكان بمقدور الجميع أن يشاهدها بمن فيهم السيد سباسوفتش[34] نفسه. وورد في قرار الاتهام، من جملة ما ورد، أن الأب عندما لفتوا نظره قبل الضرب إلى أن ثمة قضيباً ينبغي قصف جزء منه أجاب: «لا، هكذا يكون الضرب به أقوى». ومن المعروف أيضاً أن الأب، بعد أن عاقب ابنته كاد أن يغمى عليه.

ما زلت أذكر الانطباع الأول الذي أحدثه في نفسي اطّلاعي على القضية في صحيفة «الصوت»، التي قرأت فيها مجريات بداية المحاكمة، أو أول عرض لها. كان ذلك بين التاسعة والعاشرة مساءً، وعلى نحو عَرَضي تماماً. جلست طوال النهار في المطبعة بدون أن أستطيع تصفح «الصوت» قبل تلك اللحظة، ولم أكن أعرف شيئاً عن هذه القضية. وما إن قرأت عنها حتى قررت أن أعرف في تلك الليلة نفسها، مهما كلف الأمر، وبالرغم من أن الوقت متأخر، مسار القضية التالي، مفترضاً أنها ربما تكون قد انتهت في المحكمة في ذاك اليوم نفسه، أي يوم السبت؛ إذ كنت أعرف أن التقارير ترد إلى الصحف متأخرة دائماً. وخطر لي أن أذهب في الحال إلى شخص معروف لي جداً عن بعد، مع أن معرفتي الشخصية به جد ضعيفة، لاعتقادي، انطلاقاً من بعض الاعتبارات، أنه قد يكون في هذه الساعة قد اطلع قبل سائر معارفي على مآل القضية، بل ربما يكون، كما أُرجّح، قد شهد المحاكمة شخصياً. ولم أخطئ في تقديري، فقد كان الرجل حاضراً في المحكمة، وعاد منها لتوه؛ وجدته في منزله قبل الحادية عشرة، وأخبرني أن المحكمة قد برأت المتهم. ثار غضبي على المحكمة، وعلى المحلفين وعلى المحامي. لقد مر على ذلك ثلاثة أسابيع، وقد غيّرت خلال ذلك رأيي في جوانب كثيرة بعد أن قرأت بنفسي تقارير الصحف، وسمعت عدة آراء وجيهة من أشخاص محايدين. وأنا مسرور جداً لأنني أستطيع الآن أن أنظر إلى الأب الذي حوكم ليس على أنه شرير مغرم بتعذيب الأطفال (ثمة نماذج من هذا النوع)؛ فالأمر هنا لا يتعدى أن يكون أمر «أعصاب»، والأب ليس سوى «مربٍّ سيئ» حسب تعبير محاميه. والمهم هو أنني أرغب الآن في الإشارة ببعض التفصيل إلى مرافعة محامي الدفاع في المحكمة، لكي أبيّن بصورة أوضح كيف يمكن أن يوضع شخص معروف وموهوب وشريف في وضع زائف وسخيف، لا لشيء سوى لأن الطرح الأولي للقضية نفسها كان زائفاً.

فيمَ الزيف هنا؟ أولاً: ثمة بنية صغيرة، طفلة، وقد «أوذيت وعذبت»، والقضاة يريدون الدفاع عنها. إنها مهمة مقدسة بالطبع، كما يبدو، ولكن ما الذي يحصل فعلاً: لقد كادوا أن يجعلوا منها إنسانة تعسة إلى آخر العمر؛ بل ربما يكونون قد جعلوا! وبالفعل، ماذا كان سيحدث لو أنهم دانوا الأب، فالقضية كانت مطروحة في قرار الاتهام على نحو يعرّض الأب، في حالة إصدار المحلفين حكماً يجرِّمُه، للنفي إلى سيبيريا. وهنا يبرز سؤال:ما الذي كان سيبقى لهذه الابنة، وهي الآن طفلة لا تفقه شيئاً، ما الذي كان سيبقى في نفسها فيما بعد، ويظل يلازمها طوال حياتها، حتى إذا أصبحت فيما بعد غنيّة و«سعيدة» مدى الحياة؟ ألن تتهدم الأسرة بسبب قرار المحكمة نفسها التي تصون، كما هو معروف، قدسية العائلة؟ ولنأخذ الآن جانباً آخر من القضية: البنت عمرها سبع سنوات: ما هي الانطباعات التي تحدث في نفس الطفل في مثل هذه السن؟ أبوها لم ينفوه وبرؤوه وحسناً فعلوا، (مع أنه لم يكن ينبغي أن يصفق الجمهور لقرار المحلفين، حسب رأيي؛ يقولون إن بعضهم قد صفّق) ولكن مع ذلك فقد جلبوا البنت إلى المحكمة، وكانت حاضرة هناك؛ لقد رأت كل شيء، وسمعت كل شيء، وأجابت بنفسها عن السؤال الموجه إليها بقولها: «Je suis voleuse, menteuse»*.

وهكذا كشف أشخاص بالغون ورصينون، بل أشخاص إنسانيون أيضاً، علناً وأمام الجمهور كله، العيوب السرية التي تكتمها هذه الطفلة الصغيرة (ذات السنوات السبع!) يا للفظاعة! «mais il en reste toujours quelque chose»** طوال الحياة. افهموا هذا! ولن يبقى في نفسها فحسب، بل قد ينعكس على مصيرها أيضاً. أجل، لقد مسها هنا، في هذه المحكمة، شيء مقيت وسيئ ستبقى آثاره في نفسها طوال حياتها، ومن يدري، فقد يقول لها شخص ما بعد عشرين سنة: «أنت عندما كنت طفلة دخلت محكمة الجنايات». وعلى كل فإنني مرة ثانية أرى أنني لست رجل قانون ولن أستطيع التعبير عن كل هذا، ولذا أجد من الأفضل أن أتوجه مباشرة إلى مرافعة المحامي: فقد ظهرت فيها كل هذه الملابسات بوضوح استثنائي وعلى نحو تلقائي. لقد تولى الدفاع عن المتهم السيد سباسوفتش، وهو محام موهوب، وحيثما يتحدثوا عنه يقولوا جميعاً «إنه موهبة». وأنا مسرور للغاية بهذا. وأشير هنا إلى أن المحكمة هي التي عينت السيد سباسوفتش محامي دفاع، مما يعني أنه كان يقوم بمهمة الدفاع مرغماً بعض الشيء... وعلى كل فأنا لست مختصاً في هذا الأمر أيضاً، وألتزم الصمت بشأنه. وقبل أن أتناول المرافعة الرائعة المذكورة آنفاً أود أن أقول بضع كلمات عن المحامين عموماً، وعن الموهوبين منهم خصوصاً، وأن أطلع القارئ على بعض انطباعاتي

(*) «أنا لصة وكذابة» (بالفرنسية). (ن).
(**) ولكن أثراً ما سيبقى حتماً (بالفرنسية). (ن).

وتساؤلاتي الحائرة، التي قد تبدو، طبعاً غير جدية على الإطلاق في نظر المختصين؛ بيد أنني كما تعرفون، أكتب «يومياتي» لنفسي، وقد استولت هذه الأفكار على ذهني وترسخت فيه. وعلى كل فأنا أعترف بأن هذه ليست أفكاراً بل مجرد أحاسيس وهواجس تراودني...

خواطر عن المحامين عموماً.
افتراضاتي الساذجة وغير المثقفة.
خواطر عن المواهب عموماً وعلى وجه الخصوص.

لن أقول عن المحامين بالذات أكثر من كلمتين. ما إن أمسكت القلم حتى أحسست بالخوف. وها أنا أتضرج بحمرة الخجل سلفاً من سذاجة أسئلتي وافتراضاتي؛ إذ لا شك في أن من السذاجة والبراءة بمكان أن أستفيض في الحديث، مثلاً، عما تتسم به المحاماة كمؤسسة اجتماعية من فوائد ومباهج. فلنفترض أن شخصاً ما ارتكب جريمة، وهو لا يعرف القوانين؛ وفيما هو يستعد للاعتراف يظهر المحامي ويبرهن له على أنه ليس محقاً فحسب، بل هو قديس أيضاً. ويقدم له القوانين المناسبة، ويفتش له عن قرار توجيهي صادر عن هيئة النقض في المحكمة العليا يعطي القضية فجأة شكلاً آخر تماماً، وفي النهاية ينتشل التّعس من الحفرة. إنه شيء يملأ القلب بالبهجة! ولنفترض أن بالإمكان هنا الجدال والاعتراض، بحجة أن هذا عمل لا أخلاقي إلى حدٍّ ما. ولكن ها أنتم أمام شخص بسيط بريء، بل في منتهى البراءة، في حين أن الأدلة المتوافرة، وتصنيف المدعي العام لها يسوّغان، على ما يبدو، هلاك هذا الشخص لذنبٍ ارتكبه غيره. وهذا الشخص جاهل، ولا يفقه في القانون شيئاً، وكل ما يعرفه هو أن يتمتم: «لا أعرف شيئاً ولا أعلم أي شيء»، مما يثير في النهاية غيظ المحلفين والقضاة. وهنا يظهر المحامي الذي قتل القوانين علماً، فيورد المادة المناسبة، ويورد القرار التوجيهي المناسب الصادر عن هيئة النقض في المحكمة العليا، فيربك المدعي العام؛ وإذا بالبريء قد بُرِّئ. نعم، هذا مفيد. فماذا بوسع البريء أن يفعل عندنا من غير محامٍ؟

وأكرر القول: إن كل هذه الأفكار ساذجة ويعرفها الجميع. ولكن مع ذلك فإن من المُسِرِّ

للغاية أن يكون لديك محام. وقد خبرت هذا بنفسي، عندما ارتكبت مرة خطأ غير مقصود بسبب السهو (وهذا يحدث للجميع) فمرّرت، وأنا أحرر إحدى الجرائد، خبراً لم يكن لي أن أنشره إلا بإذن من السيد وزير البلاط؛ وإذا بهم يعلنون لي فجأة أنني مطلوب للمحاكمة. ولم أرد أن أدافع عن نفسي؛ فـ«ذنبي» واضح حتى لي شخصياً: فأنا قد خالفت قانوناً محدداً بوضوح. وليس ثمة إمكانية لأي جدل قانوني. ولكن المحكمة عينت لي محامياً (وهو شخص أعرفه بعض المعرفة، وكنا فيما مضى نحضر معاً جلسات إحدى «الجمعيات») وقد فاجأني بإبلاغي أنني لست غير مذنب فحسب، بل أنا محق تماماً، وهو عازم كل العزم على أن يدافع عني بكل قواه. أصغيت إلى ما قاله بارتياح طبعاً. وعندما جرت المحاكمة أعترف أنني أحسست بانطباع غير متوقع مطلقاً: كنت أرى وأسمع كيف يتكلم محاميّ، فيما كانت فكرةُ أنني، أنا المذنب بلا شك، سأخرج مُحقّاً تماماً، تبدو لي مضحكة جداً، وفي الوقت نفسه جذابة جداً لسبب ما، مما جعلني، في الحقيقة، أعد نصف الساعة هذا الذي قضيته في المحكمة من أكثر الأوقات طرافة في حياتي. ولكن أنا لست حقوقياً، ولذا لم أكن أدرك أنني محق تماماً. لقد أدانتني المحكمة بالطبع: فالأدباء يحاكمون بصرامة؛ دفعت خمسة وعشرين روبلاً، وبالإضافة، إلى ذلك قبعت يومين في سجن ساحة سينّيا، حيث قضيت الوقت بمتعة كبيرة، وحتى مع بعض الفائدة وتعرَّفتُ على بعض الأشخاص والأشياء. ولكنني أشعر الآن أنني انحرفت بشدة عن مسار حديثي، فلأعد إلى الجد ثانية.

إن تسخير المحامي جهده وموهبته للدفاع عن التعساء سلوك يتسم بدرجة عليا من الأخلاقية ويؤثر في النفس، ويجعل من صاحبه صديقاً للإنسانية. ولكن ثمة فكرة لا تلبث أن تراودك قائلة لك: إنه منتدب سلفاً للدفاع عن المذنب وتبرئته، لا بل إنه لا يستطيع أن يفعل خلاف ذلك حتى لو أراد. سيردون عليّ قائلين: «إن المحكمة لا تستطيع أن تحرم أي مجرم من مساعدة المحامين له، وإن المحامي النزيه يظل في هذه الحالة نزيهاً على الدوام، لأنه دائماً يَجِدُ ويحدِّدُ الدرجة الحقيقية لمسؤولية موكله عن الذنب الذي يُتهم بارتكابه، كل ما عليه فعله هو أن يحول دون معاقبة موكله بأكثر مما يستحق إلخ... إلخ...». وهذا صحيح، مع أن الافتراض المذكور أشبه ما يكون بافتراض مستمد من أكثر المثاليات شططاً، ويبدو لي أن الصعوبة التي يلاقيها المحامي على وجه العموم، في تحاشي الكذب والتزام النزاهة ونقاوة الضمير، كالصعوبة التي يلاقيها أي إنسان في بلوغ حالة الغبطة الفردوسية. فقد اتفق لنا أن سمعنا كيف يعمد المحامون في المحكمة إلى القَسَم تقريباً وهم يؤكدون للمحلفين بصوت مسموع أنهم لم يتولوا الدفاع عن موكّليهم إلّا لأنهم مقتنعون تماماً ببراءتهم. وعندما تسمعون هذه الأَيمان تقتحم نفوسَكم على الفور بقوةٍ لا ترد ريبةٌ في منتهى الخبث: «وماذا

إذا كان يكذب، وليس ثمة سوى أنه قبض نقوداً؟» وبالفعل غالباً جداً ما كان يتبين، على نحو ثابت، لا جدال فيه، أن هؤلاء الموكِّلين، الذين يدافع عنهم محاموهم بكل هذه الحماسة مذنبون. ولا أدري هل حدثت عندنا حالات حرص فيها المحامون على أن يظلوا حتى النهاية يتصرفون تصرف المقتنعين ببراءة موكّليهم، ثم أُغمي عليهم عندما صدر حكم المحلفين بالإدانة؟ ولكني أظن أن محاكمنا التي لا تزال في طور فتوتها الأولى قد شهدت حالات ذرف فيها المحامون الدموع. وأياً كان رأيكم، فإنني أرى أن في هذا الوضع ككل، وعلاوة على جميع جوانبه الرائعة التي لا جدال فيها، ثمة شيئاً يبعث على الأسى. في الحقيقة: تجول في مخليتنا «دبابيس واخزة وملاحظات قارصة» ويرنّ في مسامعنا القول الشعبي: «المحامي ضميرٌ مستأجر»؛ ولكن المهم، فوق ذلك كله، أنه تتخايل لنا مفارقة شديدة السخف هي أن المحامي لا يمكنه البتة أن يتصرف وفق ما يمليه عليه الضمير، وليس بمقدوره ألّا يتلاعب بضميره، حتى وإن لم يرد التلاعب، وأن المحامي محكوم عليه بالتجرد من الضمير؛ وأخيراً فإن الأهم والأخطر في كل هذا هو أن هذا الوضع الذي يبعث على الأسى يبدو وكأنه أمر قد شرَّعته جهة ما ونصَّ عليه مرجع ما، ولذا فهو لا يُعَدُّ انحرافاً على الإطلاق، بل بالعكس، يُنظر إليه على أنه الوضع الأكثرطبيعيَّةً من كل ما سواه.

وعلى كلٍّ لندع هذا الأمر؛ فأنا أشعر بكل أحاسيسي أنني شرعت أتحدث في موضوع غير الموضوع الذي أقصده؛ بل إنني واثق بأن علم الحقوق قد أزال كل هذه الالتباسات منذ زمن طويل، وأدخل الطمأنينة التامة إلى قلوب الجميع، ولم يبق أحد سواي يجهل كل شيء عن هذه المسألة. من الأفضل لي أن أتحدث عن الموهبة؛ فعلى الأقل أنا في هذا المجال أكثر خبرة ولو بقدر ضئيل.

ما هي الموهبة؟ إنها، أولاً، شيء جدّ مفيد. الموهبة الأدبية، على سبيل المثال، هي القدرة على إجادة القول والتعبير حيث قلة الموهبة تسيء القول أو التعبير. ستقولون إن المهم، قبل كل شيء، هو «الاتجاه»* وبعد ذلك تأتي الموهبة. فليكن، أنا موافق؛ إنني لم أكن عازماً على الحديث عن الملكة الفنية، بل عن بعض خواص الموهبة على وجه العموم؛ وهذه الخواص شديدة التنوع، عموماً، وهي أحياناً، ببساطة لا تطاق. أولاً: Talent oblige «الموهبة تُلزِم» - بماذا، مثلاً؟ أحياناً بأمور سيئة للغاية. أتصور الآن مسألة لا حل لها: هل الموهبة هي التي تمتلك صاحبها، أم أن صاحب الموهبة هو الذي يمتلك موهبته؟ يبدو لي، بعد تتبعي ورصدي مواهب كثيرة، لدى أشخاص أحياء وأموات، أنه يندر جداً أن يكون الشخص قادراً

(*) كلمة «الاتجاه» هنا ترد بمعنى الالتزام باتجاه ايديولوجي معين. (م).

على التحكم بموهبته، بل العكس هو الصحيح، فدائماً تقريباً تستعبد الموهبة صاحبها. إنها تأخذ بتلابيبه، إذا جاز القول (نعم... لا يندر أن يتخذ الوضع هذه الصورة المذلة) وتجره مسافات طويلة جداً، مبعدةً إياه عن الطريق الحقيقي.

عند غوغول في مكان ما (نسيت أين) يبدأ أحد الكذابين* بالحديث عن أمر ما، وربما كان يمكن أن يقول الحقيقة، «ولكن ثمة تفاصيل ترتبت من تلقاء ذاتها» في حديثه جعلت قول الحقيقة متعذراً. إنني بالطبع، أقول هذا لمجرد المقارنة، مع أن هناك، بالفعل، مواهب خاصة بالكذابين أو بالكذب. يقول الروائي ثاكِري في معرض تصويره لشخصية كذّاب ومزّاح[73]، لا يني ينتقل من مجلس لورد إلى مجلس لورد آخر مسلياً بنوادره أوساط المجتمع الراقي الذي ينتمي إليه، وهو بالمناسبة مجتمع محترم، إن هذا الشخص كان يحب أن يترك في المجلس الذي يغادره انفجاراً من الضحك، أي أنه كان يحتفظ بأطرف نوادره أو عباراته اللوذعية حتى نهاية الجلسة. أتعرفون؟ يخيل إلي أنه من الصعب جداً أن تبقى إنساناً صادقاً، أو أن تصون نفسك، إذا جاز القول، كإنسان صادق شريف، وأنت تحرص على الاحتفاظ بالكلمة الأشد رهافة وتأثيراً حتى نهاية الجلسة، كي تخلّف وراءك انفجاراً من الضحك. إن هذا الحرص بحد ذاته تافه إلى الحد الذي من شأنه أن يجرد صاحبه في نهاية الأمر من كل ما هو جدّي. أضِف إلى ذلك أنك إذا لم تدخر الكلمة اللاذعة المناسبة إلى النهاية سيكون عليك أن تخترعها، وأنك في سبيل الكلمة المؤثرة لن تشفق على أمك وأبيك**. سيقولون لي:

إذا كانت هذه هي المتطلبات فإن الحياة تغدو غير ممكنة.

وهذا صحيح. ولكن وافقوا معي على أنه في كل موهبة توجد دائماً «استجابة» مفرطة وذميمة تقريباً، لا تني تشد حتى أكثر الناس تيقظاً، لتحرفه عن جادة الصواب، إن زَأَر وحش في غابة مقفرة.***

أو حدثت حادثة أياً كانت تَرَ الرجل [ذا الموهبة – (م)] ينطلق من غير أن يلوي على شيء، ويصول ويجول متدفقاً منجرفاً. لقد وصف بيلينسكي[10] في أحد أحاديثه معي هذه «الاستجابة» المفرطة بـ «فجور الموهبة» إذا جاز القول، وكان يحتقرها أشد الاحتقار، متصوراً، بالطبع، نقيضاً لها يتمثل في تماسك النفس على نحو ما، بحيث يمكن دائماً التحكم بهذه «الاستجابة» وضبطها حتى في حالة أشد الأمزجة الشعرية قوة. كان بيلينسكي

(*) المقصود: نوزدريف في «النفوس الميتة». (ن).

(**) مثل روسي معروف.

(***) مطلع مقطوعة شعرية لبوشكين بعنوان «الصدى». (ن).

يقول هذا عن الشعراء، ولكن من المعلوم أن كل أصحاب المواهب تقريباً شعراء ولو قليلاً جداً، حتى النجارون إذا كانوا موهوبين. فالشاعرية هي، إذا جاز القول، النار الداخلية لأية موهبة. وإذا كان النجار يمكن أن يكون شاعراً، فمن المؤكد أن هذا أيضاً هو شأن المحامي إذا كان موهوباً. وأنا لا أجادل على الإطلاق في أنه حتى المحامي يمكنه أن يتحكم في ملكة «الاستجابة» لديه في حالة نزاهة القواعد نزاهةً صارمة، وثبات الروح لديه. ولكنّ ثمة حالات وظروفاً تجعل الإنسان عاجزاً عن الصمود: «إذ إن ثمة تفاصيل تترتب من تلقاء ذاتها» فإذا به ينجرف ناسياً نفسه.

أيها السادة، إن كل ما أقوله هنا عن «الاستجابة» ليس كلاماً فارغاً البتة تقريباً. ومهما بدا الأمر بسيطاً في الظاهر، فإنه في الحقيقة فائق الأهمية، وهو كذلك في حياة كل إنسان، وحتى في حياتي وحياتكم. فإذا أنعمتم النظر وراجعتم أنفسكم سترون أن من الصعب للغاية على المرء أن يبقى نزيهاً، والسبب يعود أحياناً إلى هذه «الاستجابة المفرطة المُدلَّلة التي تجبرنا على أن نكذب باستمرار. وعلى كل فإنني أفهم كلمة «نزيه» هنا بـ«معناها الأسمى» فقط، ولذا يمكنكم أن تظلوا مطمئنين تماماً وألّا تقلقوا؛ مع أنني واثق بأن كلماتي لن تقلق أحداً. لنتابع؛ هل يذكر أحد منكم، أيها السادة، الفونس لامارتين[74]، الذي كان، كما يقال، عميد الحكومة المؤقتة، التي تشكلت في فرنسا بعد ثورة العام الثامن والأربعين؟ يقولون إن أكثر ما كان يطيب له ويبهجه إلقاء خطب لا تنتهي موجهة إلى الشعب ومختلف وفود المندوبين القادمين من جميع أرجاء فرنسا، ومدنها وبلداتها، ليقدموا أنفسهم للحكومة المؤقتة خلال الشهرين الأوّلين بعد إعلان الجمهورية. وربما يكون قد ألقى آنذاك بضعة آلاف من هذه الخطب. لقد كان الرجل شاعراً وموهوباً. وكانت حياته كلها بريئة وملأى بالبراءة؛ وعلاوة على كل هذا كان الرجل ذا مظهر رائع ومهيب جداً، وكأنه قد خلق لتزيين الإصدارات المصورة المخصصة للإهداء. إنني لا أساوي البتة بين هذه الشخصية التاريخية ونماذج الشعراء - الاستجابيين الذين يولدون ومخاطهم على أنوفهم، إذا جاز القول؛ وعلى كل فهو قد كَتَبَ «Harmonies poétiques et religieuse»*

هذا الديوان غير العادي، الذي يحتوي على أشعار طويلة طولاً لا نهائياً، غاصت فيها ثلاثة أجيال من الفتيات خريجات المعاهد. ولكنه بالمقابل ألّف فيما بعد كتاباً يتسم بموهبة استثنائية، هو «تاريخ الجيرونديين»، الذي أكسبه الشعبية، وجعله في نهاية المطاف يشغل منصب عميد الحكومة الثورية المؤقتة، وكان ذلك بالضبط في تلك الآونة التي ألقى فيها ذاك

(*) «هارمونيات شعرية ودينية» (بالفرنسية) وهي مجموعة شعرية ذات طابع فلسفي- ديني. (ن).

العدد الذي لا ينتهي من الخطب التي كان هو أول من ينتشي بها، سابحاً في بحر من الطرب الأبدي. أحد اللوذعيين الموهوبين أشار إليه آنذاك صائحاً:

«Ce n’est l’ homme, c’est une Lyre» (هذا ليس إنساناً، هذا قيثارة!).

لقد كان هذا مدحاً، ولكنه قيل بمكر شديد، فما الذي يمكن أن يكون أكثر إضحاكاً من مساواة الإنسان بالقيثارة؟ فما إن تلمسها حتى تشرع ترنّ! ومن البديهي أنه لا يجوز مساواة لامارتين، هذا الإنسان الذي كان يحكي طوال حياته شعراً، هذا الخطيب - القيثارة، بأي من محامينا البارعين، المخاتلين حتى في براءتهم، الذين يتمالكون أنفسهم دائماً، ودائماً يراوغون، ودائماً يملؤون جيوبهم ويغتنون. أهؤلاء يمكن ألّا يتحكموا بقيثاراتهم؟! هل الأمر هكذا؟ هل الأمر على هذا النحو حقاً أيها السادة؟ إن الإنسان ضعيف أمام المديح، وإنه «لمستجيب»، بل إنه حتى مخاتل! وبعض محامينا الموهوبين، بدلاً من «القيثارة»، يمكن أن يحدث معهم، بمعنىً مجازي، الشيء نفسه الذي حدث مع أحد التجار الموسكوفيين. مات أبوه وترك له رأس مال (...)؛ وكانت أمه أيضاً تدير أعمالاً تجارية باسمها، ووقعت في ورطة. وكان يجب إنقاذ الأم، أي دفع مبلغ كبير من المال. وكان التاجر الشاب يحب أمه كثيراً، ولكنه تريّث وفكّر: «على كل حال لا يجوز أن نبقى بدون رأس مال. لا يجوز أن نخسر رأس مالنا، لا... هذا من المستحيلات بالنسبة لنا، لأن من المستحيل تماماً أن نبقى بدون رأس مال». وهكذا لم يدفع الشاب شيئاً، وزجّوا بأمه في السجن. انظروا إلى هذه الحادثة على أنها من باب «التمثيل الكنائي»، وساووا بين الموهبة ورأس المال، وهو أمر شبيه بالواقع، وعندئذ ستطرق مسامعكم العبارات الآتية: «أنبقى بدون ألق، وبدون أن نُحدث انطباعاً مؤثراً، لا... هذا لا يجوز بحال من الأحوال، لأن من المستحيل تماماً بالنسبة لنا أن نبقى بدون ألق، وبدون إحداث انطباع مؤثر» إن هذا يمكن أن يحدث حتى لأكثر المحامين الموهوبين جدية ونزاهة، وحتى في تلك اللحظة التي يُقبل فيها المحامي على الدفاع عن قضية تثير اشمئزاز ضميره. قرأت مرة عن حادثة جرت في فرنسا منذ مدة طويلة؛ فقد اقتنع أحد المحامين خلال المحاكمة بأن موكله مذنب، وعندما حان وقت مرافعته الدفاعية، نهض وانحنى أمام هيئة المحكمة، وعاد إلى الجلوس في مكانه بدون أن يتفوه بكلمة. أعتقد أن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يحدث عندنا: «كيف يمكن ألّا أربح القضية وأنا موهوب؛ وهل من المعقول أن أقضي على سمعتي بنفسي؟» وعلى هذا فإن الإغواء الذي يهدد المحامي على نحو مخيف بارتكاب إثم الانحراف لا يتمثل في النقود وحدها (لا سيما أنه لا يخاف منها في أي ظرف من الظروف) بل يتمثل أيضاً في قوة موهبته الذاتية.

إنني نادم على كتابة كل هذا فمن المعروف أن السيد سباسوفِتش محامٍ موهوب جداً أيضاً، ومرافعاته في هذه القضية كانت في رأيي، قمة من قمم الفن. ومع ذلك فقد خلفت في نفسي انطباعاً مقززاً تقريباً. كما ترون إنني أبدأ حديثي بكلمات صادقة جداً. ولكن الكذب في كل هذا يقع على «كاهل» زيف تلك الظروف التي تجمعت حول السيد سباسوفِتش في هذه القضية، وهو لم يستطع بحال من الأحوال أن يتخلص من هذا الزيف بحكم منطق الأشياء. هذا هو رأيي، ولذا فإن كل ما هو متكلف ومفروض قسراً في وضعه كمحام قد انعكس في مرافعته. وقد اتخذت القضية مساراً يجعل المتهم يتعرض، في حالة ثبوت الجرم، لعقوبة بالغة الشدة لا تتناسب مع ما يستحقه. ولو حدث هذا لوقعت مصيبة: فثمة أسرة ستنهار، ولن يحظى أحد بالحماية، وسيصيب الشقاء الجميع. كان الموُكّل متهماً بـ «التعذيب». وهذا بحد ذاته كان مرعباً. وقد بدأ السيد سباسوفتش دفاعه مباشرة بنفي أي فكرة عن التعذيب. «لم تكن هناك أية إساءة للطفلة!» إنه ينكر كل شيء: المقرعة الصفصافية، والكدمات، والضرب، والدم، ونزاهة شهود الطرف الآخر، وكل شيء، كل شيء؛ إنه أسلوب في غاية الجرأة، انقضاض على ضمير المحلفين. ولكن السيد سباسوفتش يعرف مدى قوته. لقد نفى حتى الطفل، نفى طفولته، وأزال حتى الشعور بالشفقة عليه مستأصلاً إياه من قلوب مستمعيه. أما الصرخات «التي استمرت ربع ساعة تحت الضرب» (حتى ولو خمس دقائق): «بابا! بابا!» فقد اختفت تماماً، وتصدرت الصورة «بنت قوية نشطة، متوردة الوجه، ضاحكة الثغر، ماكرة، فاسدة ذات عيوب مستترة». لقد كاد المستمعون أن ينسوا أنها في السابعة من عمرها. فالسيد سباسوفتش صادر السنين ببراعة واعتقلها، بصفتها أمراً بالغ الخطر بالنسبة إليه. وبعد أن هدم كل هذا كان من الطبيعي أن يظفر باستصدار حكم التبرئة. وما الذي كان عليه أن يفعله: «وماذا لو أن المحلفين دانوا موكّله؟» لقد كان من البديهي أن يرى أنه من غير الجائز له التوقف أمام الوسائل والحرص على أن يبقي يديه نظيفتين. «فكل الوسائل جيدة، إذا كانت توصلك إلى غايتك الرائعة». ولكن لننظر في هذه المرافعة الممتازة بالتفصيل، إنها أكثر من جديرة بذلك وسترون.

مرافعة السيد سباسوفتش.
أساليب بارعة.

تحسّون من الكلمات الأولى في المرافعة، أنكم أمام موهبة مميزة، تتسم بالقوة. يكشف السيد سباسوفتش عن نفسه على الفور كشفاً تاماً؛ وهو أول من يدل المحلفين على الجانب الضعيف من دفاعه. ويُظهر أضعف النقاط لديه، النقاط التي تثير مخاوفه أكثر من سواها. (بالمناسبة، أنا أنقل المرافعة من صحيفة «الصوت» وهي صحيفة غنية إلى حد كبير، مما يجعلها، على الأرجح، قادرة على استخدام مراسل ماهر في الاختزال).

يقول السيد سباسوفتش في مرافعته: «إن ما أخشاه، أيها السادة المحلفون، ليس قرار الهيئة القضائية، ولا اتهام المدعي العام... ما أخشاه هو الفكرة المجردة، هو الشبح، ما أخشاه هو أن موضوع الجريمة، كما سُميّت، مخلوق ضعيف، عاجز عن حماية نفسه. إن عبارة «تعذيب طفل» بحد ذاتها تثير أولاً: الشعور بشفقة قوية على الطفل، وثانياً: الشعور بغضب شديد جداً على من عذّبه».

براعة فائقة. صراحة غير عادية. المستمع العابس، المكتئب الذي أعد نفسه سلفاً للاستماع إلى آراء ستكون، بالتأكيد، ماكرة، مراوغة، خدّاعة، والذي قال في سره للتو: «هيا يا أخ. لنر كيف ستخدعني الآن»، يُصاب فجأة بالدهشة، إذ يبدو الرجل أمامه عاجزاً تقريباً عن حماية نفسه. فالماكر المفترض هو نفسه يبحث عن الحماية، وعند من؟ عند أولئك الذين كان عازماً على خداعهم! وبهذا الأسلوب يحطم السيد سباسوفتش على الفور جليد عدم الثقة، ويتسرب ولو بمقدار قطرة واحدة إلى قلوب مستمعيه. إنه كما نرى، يتحدث عن الشبح، يقول إنه لا يخشى سوى «الشبح»، أي تقريباً المعتقدات الخرافية البالية؛ وقبل أن تسمع أي شيء آخر من أقواله، تشعر بالخجل من أن ينظر الآخرون إليك فجأة على أنك إنسان تؤمن بمعتقدات بالية، أليس كذلك؟ براعة فائقة. يتابع السيد سباسوفتش:

«أنا، أيها السادة المحلفون، لست نصير الضرب بالقضيب، وأدرك كل الإدراك أن بالإمكان تطبيق نظام تربوي (لا تقلقوا، إن كل هذا عبارات جديدة مقتبسة بأجمعها من أطروحات تربوية مختلفة) ينتفي فيه الضرب. ولكنني مع ذلك أرى أن احتمال استئصال العقاب الجسدي استئصالاً تاماً ومطلقاً هو احتمال ضعيف، كاحتمال توقفكم في المحاكم

عن العمل، بسبب الكف عن ارتكاب الجرائم الجنائية، وعن انتهاك الحق، الذي يجب أن يسود في الأسرة وفي الدولة على حد سواء».

وهكذا فإن القضية كلها تنحصر ضمن نطاق الحديث عن «قضيب» لا عن حزمة من القضبان، وليس عن «مقرعة صفصافية». إنكم تنعمون النظر، وتصغون، فتجدون أن الرجل يتحدث بجد، لا يمزح. إذاً فقد أثاروا كل هذه الضجة والجلبة بسبب ضرب طفل بقضيب صغير، ومناقشة جواز ذلك أو عدم جوازه. فهل يستأهل هذا الأمر الاجتماع من أجله. وفي الحقيقة فهو نفسه ليس من أنصار الضرب، وقد صرح بهذا؛ ولكن: «في الأحوال العادية تُتخذ إجراءات عادية. وفي حالتنا هذه اتُّخذ إجراء غير عادي من دون شك. ولكنكم إذا أنعمتم النظر في الظروف التي استدعت هذا الإجراء، وإذا وضعتم في حسبانكم طبيعة الطفل، ومزاج الأب، والأهداف التي كانت توجه تصرفاته في أثناء العقاب، فإنكم ستفهمون الكثير في هذه الحالة، وبما أنكم ستفهمون فأنتم ستبررون، لأن الفهم العميق للقضية سيفضي حتماً إلى إيضاح أمور كثيرة ستبدو عندئذ أموراً طبيعية لا تتطلب رد فعل على عمل جنائي، ومهمتي هي أن أوضح الحالة».

إذاً كما ترون، الحديث يدور حول «العقاب» لا حول «التعذيب»، كما يقول هو نفسه، أي أن القضية كلها ليست أكثر من محاكمة أب لأنه تشدّد بعض الشيء في ضرب طفلته. فيا لهذا الزمن الذي نعيش فيه! ولكن الأمر يتطلب التعمق وإنعام النظر... والقضية كل القضية في أن الهيئة القضائية والنائب العام كليهما لم يستطيعا التعمق؛ وبما أننا نحن المحلفين، سنتعمق وننعم النظر فإننا سنبرر، لأن «الفهم العميق للقضية سيفضي إلى التبرير» كما يقول هو، والفهم العميق هذا لا وجود له إلّا عندنا، على مقعدنا هذا! «لا بد أنه انتظرنا طويلاً، عزيزنا هذا، وأضناه التردد على المحاكم ووكلاء النيابة». وباختصار: «تملّق، تملّق!» - أسلوب روتيني قديم، ولكنه جد مضمون.

وبعد ذلك ينتقل السيد سباسوفتش مباشرة إلى عرض تاريخ القضية ويبدأ *ab ovo. لن ننقل طبعاً، ما قاله حرفياً. إنه يروي كل تاريخ موكله، ويقول إن السيد كرونيبيرغ أنهى دورة علمية، وقد درس بادئ ذي بدء في الجامعة في وارسو، ثم في بروكسل، حيث أحب الفرنسيين، ثم عاد للدراسة في وارسو، حيث أنهى الدورة الدراسية في المدرسة الرئيسية عام 1872 وحاز درجة الماجستير في الحقوق. وتعرف في وارسو على سيدة تكبره بأعوام، ونشأت بينهما علاقة، ثم تركها لعدم إمكانية الزواج، ولكنه لم يكن يعرف آنذاك أنها حملت منه، وكان

(*) من الأصول الأولى، من البداية (حرفياً: من البيضة) (باللاتينية). (ن).

السيد كرونيبيرغ متكدراً ويبحث عما يفرّج عنه. وفي أثناء الحرب الفرنسية - البروسية انضم إلى صفوف الجيش الفرنسي، وشارك في ثلاث وعشرين معركة، ونال وسام جوقة الشرف، ثم تقاعد برتبة ملازم. وكنا، نحن الروس جميعاً، نتمنى بالطبع، آنذاك فوز الفرنسيين؛ فنحن لا نكنُّ في قلوبنا الحب للألمان، مع أننا مستعدون لاحترامهم بعقولنا. وعندما عاد صاحبنا إلى وارسو، التقى ثانية السيدة التي كان يحبها، وكانت عندئذ متزوجة، وقد أخبرته للمرة الأولى في حياته أن له طفلة، وهي الآن في جنيف، إذ إن الأم سافرت عمداً إلى جنيف لتلد هناك، وتركت طفلتها عند أسرة ريفية لقاء تعويض نقدي. وما إن عرف السيد كرونيبيرغ بقصة الطفلة حتى شعر على الفور بالرغبة في تولي أمر تنشئتها. وهنا يورد السيد سباسوفتش بضع كلمات صارمة وليبرالية عن تشريعاتنا لموقفها الصارم من مواليدنا غير الشرعيين، ولكنه سرعان ما يعزينا بأنه «يوجد ضمن حدود امبراطوريتنا بلد، هو المملكة البولندية، لديه قوانينه الخاصة». وباختصار يمكن في هذا البلد تبني الطفل غير الشرعي على نحو أيسر وأسهل. وقد رغب السيد كرونيبيرغ «في أن يحقق للطفل أقصى ما يمكن تحقيقه بموجب القانون، على الرغم من أنه لم يكن يملك آنذاك ثروة خاصة به، ولكنه كان واثقاً بأن أقاربه، في حال موته، سيعتنون بالطفلة التي تحمل اسم كرونيبيرغ، وأنها، في أقصى الحالات، يمكن أن تُقبل في إحدى المؤسسات التربوية الحكومية في فرنسا، بصفتها ابنة شخص حائز على وسام جوقة الشرف». أخذ السيد كرونيبيرغ الطفلة من عند الفلّاحين الجنيفيين وأوكل أمر تربيتها إلى القسّيس دي كومبا المقيم في جنيف أيضاً، وكانت زوجة القسيس هي عرّابة الطفلة. وهكذا مرّت السنوات 72 و73 و74 وفي بداية عام 1875 أتى السيد كرونيبيرغ إلى جنيف ثانية، بعد أن تغيرت ظروفه، وأخذ ابنته لتعيش معه في بطرسبورغ.

ويطلعنا السيد سباسوفتش، في أثناء الحديث، على أن موكله إنسان شغوف بالحياة العائلية. وقد أراد ذات مرة أن يتزوج، ولكن الزواج تعرقل، وكان من أقوى الأسباب التي حالت دون تحققه عدم إخفائه أن لديه «ابنَة من صلبه»، كانت هذه هي القطرة الأولى، لم يضف السيد سباسوفتش أي شيء، ولكنكم تدركون أن السيد كرونيبيرغ قد عانى بعض الشيء بسبب العمل الخيّر الذي قام به، أي بسبب اعترافه بابنته التي كان بإمكانه عدم الاعتراف بها، وتركها لدى الفلّاحين طوال الحياة. وعلى هذا فقد كان يمكن أن يستاء من وجود هذا المخلوق البريء، أو على الأقل هذا ما يخيل لكم. إن السيد سباسوفتش أستاذ كبير لا يشق له غبار في إيراد أمثال هذه التلميحات الصغيرة الدقيقة، التي تبدو عرضية خاطفة، ولكنها تظل تتوالى بدون انقطاع، وستتيقنون بهذا تالياً.

بعد ذلك يبدأ السيد سباسوفتش فجأة يتحدث عن امرأة تدعى جيزينغ؛ وقد تعرف السيد كرونيبيرغ على هذه المرأة في باريس، وجلبها معه عام 1874 إلى بطرسبورغ.

وفجأة يخاطبنا السيد سباسوفتش قائلاً: «بإمكانكم أن تحكموا إلى أي حد تشبه السيدة جيزينغ أو لا تشبه أولئك النساء الخليعات اللواتي يطمحن إلى تقليد أسلوب المعيشة السائد في المجتمع الراقي، واللواتي تتخذ العلاقات معهن طابعاً مؤقتاً عابراً. إنها بالطبع، ليست زوجة كرونيبيرغ، ولكن علاقتهما لا تخلو من مشاعر الحب والاحترام».

وهذا، كما ترون، شأن شخصي، يخصهما وحدهما، ومن المفروض ألّا يهمنا في شيء؛ ولكن السيد سباسوفتش بحاجة إلى أن ينتزع شعورنا بالاحترام حتماً:

«لقد رأيتم، هل تقسو هذه المرأة على الطفلة، وهل تحبها الطفلة أم لا؟ لقد كانت ترغب في أن تفعل من أجل الطفلة كل خير...».

كل القضية في أن الطفلة كانت تنادي هذه السيدة maman، ومن صندوقها بالذات أخذت الخوخ* المجفف، الذي من أجله عاقبوها بالضرب المبرح. فلا تظنوا أن جيزينغ عدو الطفلة، وأنها وشت بها تجنّياً وأوغرت صدر كرونيبيرغ عليها. ومن قال إننا نظن! بل يبدو لنا أنه ليس من سبب يجعل هذه السيدة تكره الطفلة: فالطفلة قد اعتادت تقبيل يدها ومناداتها maman. ويتبين من ملف القضية أن هذه السيدة قد خافت من «المقرعة الصفصافية»، ورجت الأب (ولكن بلا جدوى) قبل الضرب مباشرة أن يكسر قطعة من قضيب خطر. وهي التي أوحت لكرونيبيرغ، حسب شهادته، بأخذ البنت من منزل القسيس دي كومبا في جنيف:

«لم يكن لدى كرونيبيرغ آنذاك نية محددة لأخذ الطفلة، ولكنه قرر الذهاب إلى جنيف ليرى...»

هذا الخبر له دلالة متميزة وينبغي أن نحتفظ به في الذاكرة. إذاً فالسيد كرونيبيرغ لم يكن في ذاك الوقت يفكر كثيراً بالطفلة، ولم تكن لديه أية حاجة عاطفية إلى أن يأخذها لتعيش في كنفه.

«وقد صُعق في جنيف عندما زار الطفلة على حين غرة، في وقت لا تسمح فيه القواعد بالزيارة، فوجدها مخلوقاً مستوحشاً ولم تعرف أباها».

لاحظوا على وجه الخصوص عبارة «لم تعرف أباها». سبق أن قلت إن السيد سباسوفتش أستاذ كبير في إلقاء مثل هذه العبارات؛ يبدو في الظاهر أن العبارة قد أفلتت منه عفواً، ولكنها

(*) ما يسمى البرقوق في مصر، فكلمة خوخ تطلق في مصر على ما يسمى في بلاد الشام «الدراقن» أو «الدراق». (م).

في نهاية المرافعة تفضي إلى نتيجة وتؤتي أكلها. فإذا «لم تعرف أباها» فإن معنى ذلك أن الطفلة لم تصب بالتوحش فحسب، بل تعرضت للإفساد أيضاً. وكل هذا سيكون ضرورياً فيما بعد، وسنرى فيما بعد أن السيد سباسوفتش، بإلقائه كلمة هنا وكلمة هناك، يتوصل في نهاية المطاف إلى أن يُخَيِّبَ أملكم نهائياً فيما يخص الطفلة. فبدلاً من طفلة عمرها سبع سنوات، بدلاً من ملاك - ستظهر أمامكم بنت «قوية» مكارة، بكّاءة، سيئة الطباع، تأخذ في الصراخ لمجرد إيقافها في الزاوية، «صرّاخة بارعة» (يا له من تعبير!)، وكذّابة، ولصّة، وسيئة الهندام، وفيها عيب مقزز مستتر.

كل القصة هنا في أنه يسعى إلى القضاء على تعاطفكم معها بأي شكل كان. فهكذا فُطرت الطبيعة البشرية: من لا تحبه، ومن تشعر حياله بالاشمئزاز لا تشفق عليه؛ وأخشى ما يخشاه السيد سباسوفتش هو تعاطفك بالذات. فأنت إذا أشفقت عليها قد تدين أباها. وهنا بالذات يكمن زيف الوضع! طبعاً، كل هذه الكتلة المُجمَّعة، وكل هذه الوقائع التي ركمها المحامي ليصبها فوق رأس الطفلة لا تساوي، منفردة، قشرة بصلة، وفيما بعد ستلاحظون ذلك بأنفسكم حتماً. ليس ثمة شخص، على سبيل المثال، لا يعرف أن الطفل إذا كان عمره ثلاث سنوات أو حتى أربع سنوات، وتركه شخص ما، أياً كان، مدة ثلاث سنوات، فإن الطفل سينسى حتماً وجه ذاك الشخص، وسينسى حتى كل الظروف المرتبطة به وبذاك الزمن، وأن ذاكرة الأطفال في ذاك العمر لا يمكن أن تمتد إلى أكثر من عام، أو حتى تسعة أشهر. وهذا يمكن أن يؤكده لكم أي أب وأي طبيب. والذنب في هذه الحالة بالدرجة الأولى، ذنب الذين تركوا الطفل طوال هذه السنوات، ولا شأن في هذا لطبيعة الطفل الفاسدة؛ ولا شك في أن عضو هيئة المحلفين سيدرك هذا الأمر إذا وجد الوقت اللازم للتفكير والمحاكمة العقلية وكانت لديه الرغبة في ذلك. ولكن لا وقت لديه للمحاكمة العقلية، فهو واقع تحت وطأة الانطباع المتأتي عن ضغط الموهبة الذي لا يُقاوم: إنه يرزح تحت كتلة مُجمَّعة: فالشأن ليس في كل واقعة على حدة، بل في مجموع، أو إذا صح التعبير، في رزمة هذه الوقائع، وأياً كان رأيكم فإن هذه الوقائع التافهة، إذا أُخذت بمجموعها، في رزمة واحدة، ستخلق بالفعل، في نهاية المطاف، شعوراً يتسم بنوع من العداء تجاه الطفلة، Il en reste toujours quelque chose وهذا أمر قديم، ومعروف، وخاصة عندما تكون الكتلة مجمعة ببراعة وبعد دراسة متأنية.

سأمضي قدماً إلى الأمام لأعرض مثالاً آخر على فن السيد سباسوفتش. فهو، مثلاً، يعمد في نهاية مرافعته إلى القضاء قضاءً مبرماً بطريقة مشابهة وبضربة واحدة على أخطر شاهدة ضد موكله، وهي أغرافينا تيتوفا. وهنا لا يلجأ إلى تجميع كتلة من الوقائع، بل يلتقط كلمة واحدة

فقط، ويستغلها في صالحه. إن أغرافينا تيتوفا هي خادمة غرف سابقة عند السيد كرونيبيرغ. وهي أول من بادر بالاشتراك مع أوليانا بيبينا، زوجة البواب في الدارة الريفية الكائنة في محلة «ليسنوي»، حيث كان يقيم السيد كرونيبيرغ، إلى إثارة القضية المتعلقة بتعذيب الطفلة. وبالمناسبة أود أن أشير هنا إلى أنني أرى شخصياً أن تيتوفا وبيبينا، والأخيرة على الأخص، ربما كانتا أكثر من تستريح لهما النفس في كل هذه القضية. كلتاهما تحبان الطفلة، والطفلة كانت تشعر بالضجر؛ فقد أحضروها للتو من سويسرا، وهي لم تكن ترى أباها تقريباً. فهو مشغول بشؤون إحدى شركات الخطوط الحديدية، وكان يغادر المنزل في الصباح ولا يعود إلاّ في ساعة متأخرة في المساء. وإذا علم عند وصوله مساءً أن الطفلة قد قامت بأي فعل طفولي عابث كان يضربها ويلطمها على وجهها (وثمة وقائع مؤكدة، والسيد سباسوفتش لم ينفها). وكان من شأن هذه الحياة الكئيبة أن تزيد من استيحاش الطفلة ومن تأجيج شعورها بالحنين الممض. وقد ورد في شهادة تيتوفا عندما تقدمت بشكواها «إن الطفلة تجلس الآن وحدها ولا تتكلم مع أحد». هذه الكلمات لا توحي بالتعاطف العميق فحسب، بل تشف أيضاً عن نظرة مدقِّقة ثاقبة لدى هذه المرأة. إنها نظرة مفعمة بألم داخلي إلى معاناة هذا المخلوق الصغير المهان. وقد أحبت الطفلة الخدم لأنها لم تكن تجد الحب والحنان إلّا لديهم، وكان من الطبيعي أن تنزل أحياناً إلى زوجة البواب. والسيد سباسوفتش يدين الطفلة بسبب ذلك، ويعزو عيوبها إلى «تأثير الخدم المفسد». لاحظوا أن البنت الصغيرة لم تكن تتكلم سوى الفرنسية، وأن أوليانا بيبينا لم يكن بمقدورها أن تفهمها جيداً، أي أنها أحبتها بدافع الشفقة فقط، بدافع التعاطف مع الطفلة، وهو شعور متأصل في نفوس الناس البسطاء عندنا.

ورد في لائحة الاتهام: «ذات مرة في إحدى أمسيات شهر تموز(يوليو)، عاد كروبنبيرغ إلى ضرب البنت الصغيرة، واستمر الضرب في هذه المرة طويلاً؛ وكانت الطفلة في أثناء ذلك تصرخ صراخاً مرعباً، مما أدخل الفزع في قلب بيبينا، وخشيت أن يودي الضرب بحياة الطفلة، فهبّت من فراشها، وركضت بثوب النوم حتى نافذة كرونيبيرغ وراحت تصرخ مطالبة بالكف عن ضرب الطفلة، وإلّا فإنها ستستدعي الشرطة. وعندئذ توقف الضرب والصراخ...»

هل ترون هذه الدجاجة التي تحتضن فراخها، وقد وقفت دونهم فاردة جناحيها لتذود عنهم؟ إن هؤلاء الدجاجات المسكينات اللواتي يدافعن عن فراخهن يكدن يصبحن مخيفات أحياناً. كنت في طفولتي في القرية أعرف صبياً من الأقنان يعمل خادماً في بيت الأسياد. وكان هذا الصبي مولعاً بتعذيب الحيوانات؛ وكان يحب على وجه الخصوص أن يتولى بنفسه ذبح الدجاج الذي سيعدّونه لغداء الأسياد. وأذكر أنه كان يحب جداً التسلق إلى السطح القشّي في الجَرين الذي يجففون فيه السنابل، ليبحث هناك عن أعشاش العصافير. وما إن

يعثر على عشّ منها حتى يبدأ على الفور بفصل رؤوس العصافير عن أجسادها. تصوروا أن معذب الحيوانات هذا كان يخاف أشد الخوف من الدجاجة الأم عندما تفرد جناحيها وقد استشاطت غضباً، وتقف أمامه مدافعة عن أفراخها. عندئذ كان دائماً يختبئ خلفي. وهكذا فإن تلك «الدجاجة» المسكينة لم تستطع تمالك نفسها، وعادت بعد ثلاثة أيام لتشتكي من جديد إلى المسؤولين وأحضرت معها المقرعة الصفصافية التي يضربون بها البنت الصغيرة، وملابسها الداخلية الملوثة بالدم. وأذّكركم هنا بأن أبناء الشعب البسيط عندنا ينفرون من المحاكم ويخشون التعامل معها، ولا يذهبون إليها إلّا إذا جرّوهم إلى هناك جراً. ولكنها ذهبت؛ ذهبت لترفع دعوى، لتشتكي من أجل طفلة غريبة، طفلة ليست طفلتها، ذهبت وهي تعرف أنها في جميع الأحوال لن تلقى سوى المنغّصات، ولن تجني أية فائدة، وليس ثمة سوى المتاعب. وهاهو السيد سباسوفتش يتحدث عن «التأثير المفسد الذي تتعرض له الطفلة من جانب الخدم، قاصداً بحديثه هاتين المرأتين بالذات. وأكثر من ذلك أنه يستشهد، في هذا الصدد، بواقعة صغيرة: لقد اتُّهمت الطفلة، كما سيرون فيما يلي، بالسرقة (وسترون فيما بعد كيف سيحوّل السيد سباسوفتش ببراعة أخذ الطفلة ثمرةَ الخوخ المجففة بدون إذن إلى سرقة أوراق بنكنوت) ولكن البنت الصغيرة لم تعترف بادئ ذي بدء بالسرقة، بل إنها كانت تقول «إنها لم تأخذ من عندهم أي شيء».

يقول السيد سباسوفتش: «لقد كان رد البنت هو الإصرار على الصمت. ولكن فيما بعد، وبعد عدة أشهر قالت إنها تريد أن تأخذ نقوداً من أجل أغرافينا. ولو أنه (أقصد والد الطفلة) تقصّى ظروف السرقة بمزيد من الدقة، لربما استنتج أن الفساد الذي تسلل إلى ابنته الصغيرة يجب أن تعزى أسبابه إلى الأشخاص القريبين منها. لقد كان صمت البنت بحد ذاته يشهد على أنها لم تكن تريد أن تشي بمن كانت تربطها بهم علاقات جيدة».

«كانت تريد أن تأخذ نقوداً من أجل أغرافينا». يا لها من عبارة!

«بعد عدة أشهر» اختلقت البنت الصغيرة هذا القول اختلاقاً بالطبع، وتصورت أنها كانت تريد أن تأخذ نقوداً من أجل أغرافينا. وقد اختلقت ذلك إما من خيالها أو من إيحاءات الآخرين. ألم تكن قد قالت في المحكمة MENTEUSE JE SUIS VOLEUSE (أنا لصة وكذابة)، مع أنها لم تسرق أي شيء قط، سوى الخوخة المجففة، ولكنهم ببساطة جعلوا الطفلة التي لا تعي المسؤولية تصدّق، خلال هذه الأشهر، أنها سرقت، لقد جعلوها تصدّق هذا، حتى بدون أن يعملوا على إقناعها به بالمرة، كل ما في الأمر هو أنها كانت تسمع باستمرار كيف يتحدث عنها جميع من حولها كل يوم ويقولون عنها إنها لصة. ولكن حتى لو كانت الطفلة قد أرادت

أن تأخذ نقوداً من أجل أغرافينا تيتوفا، فإن هذا لا يعني بعد البتة أن تيتوفا قد علمتها ودفعتها إلى سرقة نقود من أجلها. إن السيد سباسوفتش بارع، ولا يمكن أبداً أن يقول هذا بصراحة؛ إنه لا يستطيع أن يوجه مثل هذه الإهانة لتيتوفا بدون أن يكون لديه براهين مباشرة وثابتة، ولكن بالمقابل يعمد إلى الفور، بعد إيراد قول الطفلة إنها «كانت تريد أن تأخذ نقوداً من أجل أغرافينا»، إلى إطلاق عبارته التي يقول فيها: «إن الفساد الذي تسلل إلى البنت الصغيرة يجب أن تُعزى أسبابه إلى الأشخاص القريبين منها». وهذا يكفي طبعاً. إذ تتسرب إلى نفس المحلَّف، على نحو طبيعي، فكرة تقول: «هذه إذاً هي حقيقة هاتين الشاهدتين الرئيستين؛ من أجلهما إذاً سرقت الطفلة، هما إذاً علمتاها أن تسرق، فما قيمة شهادتهما بعد هذا؟».

وهذه الفكرة لا يمكن أن تتجاوز ذهنكم وتمر بلا أثر عندما تسمعونها في مثل هذه الظروف. وهكذا تتحطم الشهادة الخطرة، وتُسحق في اللحظة المناسبة تماماً للسيد سباسوفتش؛ وبالضبط في نهاية المرافعة، من أجل إحداث الأثر الأخير والمفعول الناجع. حقاً إنها لبراعة. ويالها من مهمة شاقة مهمة المحامي الذي يجد نفسه بين فكي كماشة كهذه! ماذا كان بوسعه أن يفعل خلاف ذلك: لقد كان من الضروري إنقاذ الزبون، ولكن كل هذا لم يكن سوى الأزهار، أما الثمار فستظهر فيما بعد.

الثمار

قلت آنفاً إن السيد سباسوفتش ينفي وقوع أي نوع من أنواع التعذيب، وينفي إلحاق أي أذى بالطفلة، بل إنه يضحك من هذا الافتراض. وما إن ينتقل إلى «كارثة الخامس والعشرين من تموز (يوليو)» حتى يبدأ على الفور بإحصاء الندوب والكدمات وكل أثر صغير لأي جرح، وكل سحجة، وجميع تقشرات الجلد الصغيرة، ثم يضع كل هذا في الميزان: «كذا قيراطاً، إذاً لم يكن هناك تعذيب!» هذه هي نظرته، وهذا هو أسلوبه، وقد نبّهوا السيد سباسوفتش في الصحافة على أن هذه الإحصاءات للندوب وآثار الجروح لا تتناسب مع القضية، وهي إلى هذا مضحكة. ولكن كل هذه الحسابات لا بدّ لها، حسب رأيي، من أن تكون قد أثرت حتماً في الجمهور والمحلّفين تأثيراً موحياً:

«أية دقة هذه، وأية أمانة في التقدير!» وأنا على قناعة بأنه لا بد من أن يكون ثمة مستمعون قد شعروا بارتياح كبير عندما علموا أن المعنيين وجهوا رسالة إلى جنيف خصيصاً ليتسلموا بياناً من دي - كومبا بشأن ندب ما، ويذكر السيد سباسوفتش بلهجة الظافر أنه لم يكن هناك أي تشققات في البشرة:

«على الرغم من كل السوء الذي ينطوي عليه رأي السيد لانسبيرغ بالنسبة لكرونيبيرغ (ملاحظة: السيد لانسبيرغ هو الدكتور الذي فحص الطفلة في التاسع والعشرين من تموز، والذي يسخر السيد سباسوفتش من رأيه أشد السخرية) فإنني أقتبس في دفاعي كثيراً من المعطيات الواردة في تقريره المؤرخ في 29 تموز. لقد أكد السيد لانسبيرغ تأكيداً قاطعاً أن الأجزاء الخلفية من جسم الطفلة خالية من أية تشققات، ثمة فقط بقع قرمزية غامقة تحت الجلد وكذلك خطوط حمراء...».

فقط! لاحظوا هذه الكلمة. والأهم أن هذا بعد خمسة أيام من التعذيب! وأنا بإمكاني أن أؤكد للسيد سباسوفتش أن هذه البقع القرمزية الغامقة تحت الجلد تزول بسرعة كبيرة، وليس لها أي خطر على الحياة، ولكن مع ذلك ألا يدل وجودها على حدوث تعذيب وإيذاء ومعاناة؟

يقول السيد سباسوفتش: «أغلبية هذه البقع كانت موجودة في المنطقة الوركية الوسطى مع امتداد إلى الفخذ الأيسر. وقد قرر السيد لانسبيرغ الذي لم يجد أية أذيّات، أو أية خدوش، أن الخطوط والبقع لا تشكل أي خطر على الحياة. وبعد ستة أيام، أي في الخامس من آب (أغسطس)، لم يلاحظ البرفيسور فلورينسكي بقعاً عند فحص الطفلة، بل لاحظ خطوطاً فقط، بعضها كبير وبعضها صغير، ولكنه لم يقرر البتة أن هذه الخطوط يمكن أن تدل على وجود أي أذى ذي شأن، مع أنه قرر أن العقاب كان شديداً، وخاصة بسبب الأداة التي استخدمت في عقاب الطفلة».

وأنا أقول للسيد سباسوفتش إنني عندما كنت في سيبيريا صدف لي أن رأيت في عنابر مستشفى المعتقلين أظْهُرَ سجناء كانوا قد عوقبوا للتو بتمريرهم بين صفين من الأشخاص الذين يجلدونهم على ظهورهم بالمقارع الصفصافية خمسمئة جلدة أو ألف أو ألفي جلدة متتابعة. لقد رأيت هذا عشرات المرات. وهل تصدق يا سيد سباسوفتش أن ثخانة الورم على أظهُر بعضهم كانت تبلغ مقدار فيرشوك* (حرفياً). ولا أظن أن على الظهر كثيراً من اللحم! وكانت ظهور هؤلاء تصطبغ بهذا اللون القرمزي ذاته، وتحتوي على بعض التشققات القليلة التي تنز دماً. ثق بأن لا أحد من الخبراء الطبيين الحاليين قد شاهد شيئاً من هذا القبيل

(*) الفيرشوك: وحدة قياس روسية قديمة تساوي 4.4 سم. (م).

(وأنّى لنا في زمننا هذا أن نشاهد ذلك؟) كان هؤلاء المعاقَبون، إذا لم يزد عدد الضربات التي تلقوها على الألف، يأتون وقد بدا النشاط جلياً على مظهرهم الخارجي، مع أنهم كانوا، على الأرجح، يعانون من حالة تهيج عصبي شديد، ولكن هذا لم يكن يستمر سوى خلال الساعتين الأوليين. ولم يكن أحد منهم، على ما أذكر، يستلقي أو يجلس خلال هاتين الساعتين؛ بل كان الواحد منهم لا يكف عن المشي في العنبر وجسده كله ينتفض أحياناً، وقد وضع ملاءة مبللة على كتفيه. وكان علاجه لا يتعدى أن يقدموا له دلواً فيه ماء ليبلل الملاءة بين فينة وفينة عندما تجف على ظهره. وكان جميع هؤلاء المعاقَبين، على ما أذكر، يتحرقون رغبة في الخروج من العنبر (لأنهم كانوا تمهيدياً قد مكثوا طويلاً في زنزانة مغلقة وهم قيد المحاكمة، وبعضهم كان، ببساطة، يرغب في أن يقوم بالهرب ثانية في أسرع وقت). وهاكم هذه الحقيقة: لقد كان هؤلاء المعاقبون يخرجون من المستشفى دائماً تقريباً في اليوم السادس أو، على أبعد تقدير، في اليوم السابع بعد العقاب، لأن هذه المدة كانت تكفي دائماً تقريباً ليبرأ الظهر بكامله، ولا يبقى فيه سوى بعض الآثار الخفيفة جداً نسبياً؛ ولكن بعد نحوعشرة أيام كانت تنمحي دائماً جميع الآثار. إن العقاب بالمقارع الصفصافية (أي، عملياً، بالأغصان دائماً)، إذا لم يكن عدد الجلدات كبيراً جداً، أي ليس أكثر من ألفي جلدة، لم يشكل قط أي خطر على الحياة. بالعكس، فقد كان جميع المعتقلين العسكريين والمحكومين بالأشغال الشاقة (الذين تعرضوا لهذه الصنوف من العقاب) يؤكدون باستمرار أن الضرب بالقضبان أوجع و«أقوى» وأخطر بكثير، وقد أكدوا أمامي هذا مرات عديدة، فالشخص المعاقب يمكن أن يتحمل حتى أكثر من ألفي ضربة بالأغصان من غير أن يشكل هذا خطراً على حياته، في حين أن أربعمئة ضربة بحزمة من القضبان قد تودي بحياته، أما إذا بلغ العدد الخمسمئة أو الستمئة فإن الموت يصبح مؤكداً تقريباً. ولا أحد يحتمل ذلك. وأنا أسألك بعد هذا أيها السيد المحامي: مع أن تلك الأغصان الصفصافية لم تكن تشكل خطراً على الحياة، ولم تسبب أية أذية، ألم يكن ذاك العقاب مضنياً؟ ألم يكن ثمة تعذيب؟ أحقاً أن الطفلة لم تتعذب ربع ساعة في أثناء ضربها بالقضبان الرهيبة الموضوعة على طاولة في قاعة المحكمة، وهي تصرخ: «بابا! بابا!» فلماذا تنكر أنت معاناتها وتعذيبها؟

ولكنني بينت آنفاً سبب هذا الالتباس؛ وأكرر مرة أخرى: إن الإشكال حسب إفادة السيد سباسوفتش يتأتى من أن «قانون العقوبات» عندنا فيما يخص مفهوم التعذيب وتعريفه، والمقصود بالضبط من هذا المصطلح، يشكو من «عدم الوضوح، وعدم الاكتمال، ووجود ثغرات».

«...لذا فإن المحكمة العليا الحكومية قد حددت، بناء على ذلك، من جهة أخرى، في

قراراتها التي تستند إليها سلطات الاتهام، أن ما ينبغي فهمه من مصطلح التعذيب والإيلام هو الاعتداء على الشخصية، أو على حصانة الإنسان الشخصية، المقترن بالإيلام والقسوة. وترى المحكمة العليا أن المعاناة الجسدية في حالة التعذيب يجب أن تُمثِّل حتماً درجة أعلى، وتدوم مدة أطول من المعاناة التي يسببها الضرب العادي، حتى وإن كان مبرحاً. وإذا كان الضرب لا يمكن وصفه بالمبرح، علماً بأن التعذيب يجب أن يكون أقسى من الضرب المبرح، وحيث أن أحداً من الخبراء لم يصفه بالمبرح ما عدا السيد لانسبيرغ، الذي تراجع هو نفسه عن استنتاجه، فإننا نتساءل: كيف يمكن أن نصنف هذاالفعل في خانة مفهوم التعذيب والإيلام؟ أعتقد أن هذا غير معقول»...

إذاً هنا تكمن القضية: «قانون العقوبات» يشكو من عدم الوضوح، وموكّل السيد سباسوفتش كان يمكن، إذا ما اتّهم بالتعذيب أن يقع تحت طائلة مادة من أشد مواد القانون صرامة، وهي، على كل حال، لا تتطابق مع أبعاد جريمته، ثم إنها تقضي بعقاب شديد جداً لا يتناسب البتة مع «الفعل الذي اقترفه». وعلى هذا فقد كان من المفروض، كما يبدو، أن يعمد المحامي إلى إزالة الالتباس من أذهاننا بشكل مباشر قائلاً: «لقد كان هناك تعذيب، ولكنه ليس كذاك الذي يحدده القانون، أي أنه ليس أقسى من أي ضرب مبرح، ولهذا لا يجوز اتهام موكلي بالتعذيب». ولكن لا؛ إن السيد سباسوفتش لا يريد أن يتنازل عن أي شيء، بل يريد أن يبرهن على أنه لم يكن هناك أي تعذيب، لا من النوع المشروع، ولا من النوع غير المشروع، ولم تكن هناك أية معاناة على الإطلاق! ولكن قل لنا ما الذي يهمنا نحن من انطباق أو عدم انطباق تعريف القانون للتعذيب انطباقاً حرفياً على الألم والعذاب الذي عانته هذه الطفلة؟ فمن المعروف أن في القانون ثغرات كما قلت أنت نفسك. وأيّاً كان الحال فإن الطفلة قد عانت: أيمكن القول إنها لم تعانِ؟ أيمكن القول إنهم لم يعذبوها بالفعل، في حقيقة الأمر؟ أيمكن لنا حقاً أن نحول أنظارنا عن هذا؟ نعم، هذا بالذات ما عمد إليه السيد سباسوفتش. إنه حريص كل الحرص على أن يحول أنظارنا عن هذا: فهو يقول لنا إن الطفلة «كانت تلعب» في اليوم التالي مباشرة، وأنها قد «تجاوزت الدرس». لا أظن أنها كانت تلعب. وهاهي بيبينا تشهد بعكس ذلك، وتقول إنها عندما تفحصت الطفلة قبل أن تذهب لتقديم الشكوى «كانت الصغيرة تبكي بحرقة وتردد: «بابا! بابا!». أوه، يا إلهي، ما أسرع تأثر هؤلاء الأطفال الصغار، وما أشد حساسيتهم! ولنفترض أنها ربما تكون قد لعبت في اليوم التالي وجسدها لا يزال ملطخاً بالبقع القرمزية - الزرقاء، فماذا يعني هذا في نهاية المطاف؟ لقد سبق لي أن شاهدت صبياً في الخامسة من عمره يكاد يشرف على الموت من الحمى القرمزية، ومع أنه كان خائر القوى ومجهداً كل الإجهاد، كان يتمتم قائلاً: إنهم سيشترون له

الكلب الصغير الذي وعدوه به، ويطلب أن يحضروا له كل لُعَبِه ويضعوها بجانب سريره: «دعوني أنظر إليها فقط». ولكن قمة الفن تجلّت في أن السيد سباسوفتش قد صادر تماماً سن الطفلة وغيّبه! إنه لا ينفك يحدثنا عن بنت صغيرة فاسدة ورذيلة، أمسكوا بها وهي تسرق أكثر من مرة، وأعماق نفسها تنطوي على فجور مستتر، وكأنه قد نسي تماماً (ونحن نسينا معه) أن الحديث يدور حول طفلة لم تتجاوز السابعة من عمرها؛ وأن هذا الضرب طوال ربع ساعة بتسعة من أغصان الغبيراء* لو تعرّض له شخص بالغ أو حتى صبي في الرابعة عشرة من عمره لكان وقعه أخف بعشر مرات من وقعه على هذه المخلوقة الصغيرة المسكينة! وهنا تجد نفسك تتساءل عفوياً: ما الذي يبغيه السيد سباسوفتش من كل هذا؟ لِمَ يصر كل هذا الإصرار على نفي معاناة الطفلة، ويسخّر لهذا الغرض كل براعته، ولا يني يراوغ لكي يصرف نظرنا عن الحقيقة؟ أيُعقل أن يكون السبب هو إشباع غروره ليس إلا؛ وكأنه يقول: «إنني لن أكتفي بإنقاذ موكلي، بل سأبرهن على أن القضية كلها مجرد هراء ومسخرة، وأنهم يحاكمون الأب لا لشيء إلّا لأنه ضرب ابنته الخبيثة بالقضيب؟» ولكن سبق أن قلت لكم إنه بحاجة إلى أن يجتث من نفوسكم أي تعاطف معها. ومع أنه يدّخر لهذا الغرض جملة من الوسائل الثمينة التي سيستخدمها فيما بعد، فإنه يخشى أن تثير معاناة الطفلة في نفوسكم، لا سمح الله، مشاعر إنسانية. ومشاعركم الإنسانية بالذات خطرة عليه: فأنتم على الأرجح ستغضبون على موكله؛ ولهذا فهو بحاجة إلى كبتها في نفوسكم سلفاً، وإلى تشويهها، والهزء منها؛ وباختصار، إلى القيام بعمل يبدو مستحيلاً؛ والسبب الوحيد الذي يجعله مستحيلاً هو أن أمامنا إفادة الأب الواضحة تمام الوضوح، والدقيقة غاية الدقة، والصريحة كل الصراحة، والتي يؤكد فيها تأكيداً قاطعاً وصادقاً تعذيب الطفلة:

«في الخامس والعشرين من تموز (يوليو) أثارت ابنته حنقه - (كما يفيد الأب) - فضربها بهذه الحزمة، ضربها بشدة، وفي هذه المرة استمر ضربه لها طويلاً، وكان في أثناء ذلك فاقداً صوابه، ويضرب بغير وعي، أينما اتفق؛ وهو لا يدري هل تكسرت القضبان في أُثناء ضربه لها في هذه المرة الأخيرة؛ ولكنه يذكر أنها كانت أطول عندما بدأ يضربها بها».

ولكن على الرغم من هذه الإفادة فإن الأب، في الحقيقة، لم يقر، في أثناء التحقيق بأنه مذنب بتعذيب ابنته. وقد صرح بأنه قبل الخامس والعشرين من تموز كان دائماً يعاقبها عقاباً خفيفاً. أشير، عرضاً إلى أن تقويم الخفة والشدة أمر شخصي هنا أيضاً: فلطم طفلة في السابعة من عمرها وانبثاق الدم من أنفها - وهذه حقيقة لا ينفيها كرونيبيرغ ولا محاميه - ينظر إليهما

(*) بدلًا من أغصان الصفصاف التي تستخدم عادة لتشكيل المقرعة. (م).

كل منهما، كما هو واضح، على أنها عقاب خفيف. ولدى السيد سباسوفتش في هذا الصدد تخريجات ثمينة أخرى، وهي كثيرة، ومنها على سبيل المثال: «ولقد سمعتم أن الآثار على المرفقين قد تشكلت، بدون شك تقريباً، فقط من أنهم أمسكوا بيدي الطفلة في أثناء العقاب».

هل تسمعون: فقط من هذا! إذاً فقد كانوا يمسكون بها جيداً، ما دام الإمساك بها قد استمر حتى ظهور كدمات زرق! أوه إن السيد سباسوفتش هو الآخر لا يؤكد كل التأكيد أن كل هذا رائع وعطر؛ وهاكم هذه الفكرة الصغيرة على سبيل المثال:

«يقولون إن هذا العقاب يخرج عن حدود العقاب المألوف. وبما أن هذا التحديد كان يمكن أن يكون رائعاً لو أننا كنا قد حددنا ما هو العقاب المألوف؛ وبما أن هذا التحديد لا وجود له، فإن أي واحد منا يتعذر عليه أن يقول هل خرج العقاب عن حدود المألوف (وهذا بعد إفادة الأب بأنه ضرب ابنته طويلاً وبلا وعي وكان فاقداً صوابه!!!) ولنفرض أن الأمر هكذا؛ فما معنى هذا؟ معناه أن هذا العقاب، في معظم الحالات، لا يجوز تطبيقه على الأطفال. ولكن قد تصدف حالات غير عادية مع الأطفال أيضاً. فهل من المعقول أنكم لا تجيزون، في حالات استثنائية أن تجد السلطة الأبوية نفسها في وضع توجب فيه على الأب اللجوء إلى إجراء أشد صرامة من المألوف ولا يشبه إجراءات العقاب العادية التي تُطَّبق يومياً».

هذا هو كل ما يوافق عليه السيد سباسوفتش من تنازلات. وعلى هذا فهو يحوّل التعذيب كله في هذه القضية إلى «مجرد إجراء أشد صرامة من المألوف»، ولكنه يندم حتى على تقديمه هذا التنازل: ففي نهاية مرافعته الدفاعية يتراجع عن كل هذا ويقول: «إنهم يحاكمون الأب؛ ولكن لِمَ؟ لأنه أساء استعمال سلطته، ولنتساءل: أين هو الحد الذي تنتهي عنده هذه السلطة؟ من سيحدد عدد الضربات التي يمكن للأب أن يعاقب بها الطفل في كل حالة من غير أن يلحق الأذى بجسمه؟».

أي من غير أن يكسر رجله، أم ماذا؟ وإذا لم يكسر له رجله، هل يكون كل شيء مباحاً له؟ أتقول هذا جادّاً يا سيد سباسوفتش؟ هل أنت جاد في قولك أنك لا تعرف أين يقع حد هذا السلطة؟ «وما هو عدد الضربات التي يمكن للأب أن يعاقب بها الطفل في كل حالة؟» إذا كنتَ لا تعرف فإنني سأقول لك أين هو هذا الحد! إن حد هذه السلطة هو في أنه لا يجوز ضرب هذه الطفلة الصغيرة التي لم تتجاوز السابعة من عمرها، والتي لا تعي المسؤولية على الإطلاق، ومع كل «عيوبها» (التي ينبغي إصلاحها بطريقة أخرى تماماً) أقول: لا يجوز ضرب هذه المخلوقة ذات الوجه الملائكي، والتي هي أطهر وأبعد عن الإثم بما لا يقاس مني ومنك يا سيد سباسوفتش، مني ومنك ومن جميع الذين كانوا في قاعة المحكمة، الذين حاكموا

ودانوا هذه الطفلة، أقول: لا يجوز ضربها بتسعة «قضبان من أغصان الغبيراء»، واستمرار هذا الضرب طوال ربع ساعة، وعدم سماع صراخها وهي تنادي: «بابا، بابا!» مما كاد أن يفقد زوجة البواب القروية البسيطة صوابها، ويجعلها تستشيط غضباً، وأخيراً لا يجوز القول إن الأب أقر بنفسه أنه «ضربها طويلاً وبلا وعي، وأينما اتفق، وكان فاقداً صوابه!» لا يجوز أن يكون فاقداً صوابه، لأن ثمة حدوداً للغضب، أياً كان هذا الغضب، حتى ولو كان على طفلة في السابعة من عمرها لا تعي المسؤولية، وبسبب خوخة مجففة وإبرة حياكة مكسورة! أجل أيها المحامي البارع، ثمة حد لكل شيء، ولو كنت لا أعرف أنك تقول كل هذا عن قصد وأنك تتكلفه تكلفاً لا أكثر، باذلاً كل ما بوسعك لإنقاذ موكلك لكنت أضفت إلى قولي هذا، وفيما يخصك أنت بالذات، إن هناك حداً حتى للـ «قيثارات» والـ «الاستجابات» المحاميّة، من أي نوع كانت، ويتمثل هذا الحد في عدم الإيغال في الكلام حتى الوصول إلى مثل ذين العمودين الأقصيين[38] اللذين وصلت إليهما يا سيادة المحامي! ولكن والهفاه، أنت لم تفعل سوى أنك ضحيت بنفسك في سبيل موكلك، ولذا فأنا لا يحق لي أن أتحدث إليك عن الحدود، وليس لي إلّا أن أتعجب فحسب من عظمة تضحيتك.

عمودا هرقل[38]

بيد أن عمودي هرقل الحقيقيين يبدأان بالضبط عندما يصل السيد سباسوفتش في مرافعته إلى الكلام على «الغضب العادل الذي تملك الأب»:

«عندما ظهرت لدى البنت هذه العادة السيئة (أي عادة الكذب)، بالإضافة إلى سائر عيوبها الأخرى، وعندما عرف أبوها أنها تسرق، تملكه بالفعل غضب شديد. وأعتقد أن كلّاً منكم كان سيتملكه مثل هذا الغضب، وأعتقد أن مقاضاة الأب لأنه عاقب ابنته عقاباً مؤلماً، ولكن منصفاً، هي عمل يسيء إلى الأسرة، ويسيء إلى الدولة، لأن الدولة لا تكون متينة إلّا عندما تستند إلى أسرة متينة... وإذا كان الأب قد استشاط غضباً فإنه كان محقاً كل الحق في هذا...».

مهلاً، يا سيادة المحامي؛ إنني لن أوقفك الآن، عند كلمة «تسرق» التي استعملتَها، بل

أريد أن نتحدث قليلاً عن هذا «الغضب العادل الذي تملك الأب». ولكن ماذا عن تربية الطفلة مذ كانت في ربيعها الثالث في سويسرا لدى أسرة دي كومبا، حيث فسدت، كما تقرر أنت نفسك، واكتسبت ميولاً سيئة؟ وما هو ذنبها وهي في هذه السن إذا كانت قد اكتسبت آنذاك هذه العادات السيئة، ومن أين أتى «عدل» غضب الأب في هذه الحالة؟ إنني أؤيد إعفاء الطفلة من المسؤولية إعفاءً تاماً في هذه القضية؛ وحتى لو افترضنا وجود عادات سيئة لديها، ومهما قلتَ فإنك لن تستطيع أن تطعن في إعفاء هذه الطفلة ذات السنوات السبع من المسؤولية؛ إذ ليس لديها بعد ولا يمكن أن يكون لديها من العقل ما يجعلها تلاحظ السوء في نفسها. ونحن جميعاً، وربما أنت أيضاً يا سيد سباسوفتش، لسنا قديسين، على الرغم من أن لدينا من العقل أكثر من طفلة في السابعة من عمرها. فكيف تلقي على عاتق هذه الصغيرة مثل هذه المسؤولية، التي ربما لا تقوى أنت نفسك على حمل عبئها؟ «إنهم يحمِّلون [الناس] أحمالاً ثقيلة شاقة الحَمْل»[75]، تذكّر هذه الكلمات. ستقول علينا أن نصلح الأطفال. ولكن اسمع: علينا ألّا نتعالى على الأطفال: فنحن أسوأ منهم. وإذا كنا نعلمهم بعض الأشياء لنجعلهم أفضل، فهم أيضاً يعلموننا أشياء كثيرة ويجعلوننا أفضل بمجرد احتكاكنا بهم لا أكثر. إنهم يؤنسنون نفوسنا بمجرد ظهورهم بيننا. ولذا فإن علينا أن نحترمهم، ونقف موقف الاحترام من معشرهم الملائكي (وإن كنا قد علمناهم شيئاً ما) ومن براءتهم، حتى وإن كانت لديهم عادة سيئة، ومن عدم شعورهم بالمسؤولية، ومن عدم قدرتهم على حماية أنفسهم، مما يستدعي عطفنا عليهم، أما أنت فإنك بالعكس، تؤكد أن الضرب على الوجه، وإسالة الدم بيد الأب: تصرف عادل ولا إساءة فيه. لقد كان لدى الطفلة سحجة على أنفها، وأنت تقول:

«ربما كانت اللطمات عجلت بإسالة هذا الدم من سحجة غُدَبيّة* في فتحة الأنف، ولكن هذه ليست إصابة مؤذية بالمرة: لو كان هذا الدم من جرح أو رض لانبثق متأخراً بعض الشيء. وعلى هذا فإن الدم لا ينطوي على أية دلالة يمكن أن تجعلنا نقف ضد كرونيبيرغ. ففي تلك اللحظة التي وجّه فيها ضربته كان يمكن أن لا يتذكر، ويمكن حتى أن لا يعرف أن الطفلة ترعف عادة».

«كان يمكن أن لا يتذكر، أن لا يعرف!» وهل حقاً بإمكانك أن تفترض أن السيد كرونيبيرغ قد وجّه ضربته إلى مكان يعرف سلفاً أنه عليل؟ طبعاً لم يكن يعرف. وهكذا فقد قررت بنفسك أن الأب لم يكن على علم بمرض ابنته، ومع ذلك فإنك تؤيد حقه في ضرب الطفلة. أنت تؤكد أن اللطم على الوجه بيد الأب لا إساءة فيه. نعم ربما كان هذا الضرب لا ينطوي على إساءة

(*) الغُدَب: تدرن العقد اللمفاوية ذات المنشأ السلّي الجلدي. (م).

بالنسبة إلى طفل في السابعة من عمره، ولكن ماذا عن الإهانة؟ إنك، أيها السيد المحامي، لم تذكر أي شيء عن الإهانة المعنوية، الإهانة القلبية، بل كنت طوال الوقت تتحدث عن الألم الجسدي فقط. ولنتساءل: بسبب ماذا ضُربت الطفلة على وجهها؟ وماهي دواعي مثل هذا الغضب الفظيع؟ وهل نحن هنا أمام مجرم خطير؟ إن هذه الطفلة، هذه المجرمة، لن تلبث أن تركض لتلعب مع الصِبية لعبة «العسكر والحرامية». فهي ما زالت في السابعة من عمرها، في السابعة فقط، وهذا يجب أن نتذكره دوماً خلال هذه القضية، وكل ما تقوله أنت هنا ليس سوى سراب! ثم هل تعرف ما معنى أن تهين طفلاً؟ إن قلوب الأطفال ملأى بحبٍ بريء، حب غير واعٍ تقريباً، ومثل هذه اللطمات تثير لديهم دهشة مُرّة، وتسيل من مآقيهم دموعاً يراها الرب ويحصيها. فعقلهم ليس قادراً بحال من الأحوال على إدراك الذنب الذي اقترفوه بكامل أبعاده. هل رأيت أو سمعت عن أطفال صغار معذبين، ولنقل أطفال يتامى يعيشون في أسر أخرى شريرة؟ هل رأيت كيف ينحشر الطفل في إحدى الزوايا كيلا يروه، ويبكي هناك وهو يعتصر كفيه (نعم يعتصر كفيه، لقد رأيت هذا رأي العين) **ويضرب صدره بقبضته الصغيرة**، بدون أن يعرف، هو نفسه، ماذا يفعل، وبدون أن يدرك بوضوح ما هو الذنب الذي اقترفه، وما سبب تعذيبهم إياه، ولكنه يشعر شعوراً طاغياً بأنهم لا يحبونه. أنا شخصياً لا أعرف أي شيء عن السيد كرونيبيرغ، كما أنني لا أريد ولا أستطيع أن أقتحم نفسه وقلبه، هو أو أسرته، لأنني قد أتجنى عليهما تجنياً فاحشاً، وبما أنني لا أعرفه البتة، لذا فأنا لا أحكم عليه إلّا بناء على كلامك وملاحظاتك أنت، يا سيادة المحامي. لقد قلت أنت في مرافعتك إنه «مربٍّ سيء» وهذا يعني، حسب رأيي أنه أب لم يَعْتَد الأبوة. وسأوضح هذا: إن هؤلاء المخلوقات لا يلجون نفوسنا ويلتحمون بقلوبنا إلّا إذا واظبنا بعد ولادتهم على العناية بهم منذ فجر طفولتهم، من غير افتراق، منذ أول ابتسامة يبتسمونها، ثم تابعنا الترابط معهم روحياً كل يوم وكل ساعة على مدى حياتنا كلها. هذه هي الأسرة، هذه هي الرابطة المقدسة! فالأسرة تُنشأ إنشاء، ولا تُعطى جاهزة، وليس ثمة أية حقوق أو واجبات تعطى هنا جاهزةً، بل هي جميعاً تنبعث تلقائياً بعضها من بعض. وعندئذ فقط تكون الرابطة متينة، وعندئذ فقط تكون مقدسة. إن الأسرة تُنشأ بجهد المحبة الذي لا يفتر؛ وأنت تقر، يا سيادة المحامي، بأن موكلك قد ارتكب خطأين منطقيين (أهما منطقيان فقط؟)، وأن أحدهما، كما تقول تجلى في أنه:

«...تصرَّفَ باندفاع مفرط، إذ كان يَفْتَرِض أن من الممكن أن يستأصل في مرة واحدة ودفعةً واحدةً، كل الشر، الذي غرس على مدى سنوات في نفس الطفلة، وظل ينمو وينمو سنة بعد سنة. ولكن هذا غير ممكن، فالأمر بحاجة إلى العمل ببطء وإلى التحلي بالصبر».

وأقسم إن الأمر لم يكن بحاجة سوى إلى قليل من هذا الصبر الذي تتحدث عنه، لأن هذه الطفلة لم تتجاوز السابعة من عمرها! ومرة أخرى أشددّ على هذه السنوات السبع التي تختفي تماماً في مرافعتك كلها، وفي اعتباراتك أيها السيد المحامي! إنك تهتف بصوت عالٍ: «لقد كانت تسرق، إنها لصة!»

«في الخامس والعشرين من تموز(يوليو) يأتي الأب إلى الدارة الصيفية ويعرف للمرة الأولى وفجأة أن الطفلة قد عبثت بمحتويات صندوق جيزينغ، وكسرت الكلّاب (وهو مجرد صِنّارة وليس قفلاً كالأقفال العادية) وفتّشت حتى وصلت إلى النقود. أنا لا أعرف أيها السادة، هل يمكن أن نقف موقف اللا مبالاة من أمثال هذه التصرفات التي تقوم بها الابنة؟ يقولون: «ولكن بسبب ماذا؟ وهل يجوز العقاب بمثل هذه الصرامة بسبب بضع حبات من الخوخ المجفف، أو قليل من السكر؟ إنني أعتقد أن ثمة طريقاً مستقيمة ودرباً مفتوحاً من الخوخ المجفف إلى السكر، ومن السكر إلى النقود ومن النقود إلى البنكنوت!»».

سأروي لك، أيها السيد المحامي، نادرة قصيرة. يجلس إلى الطاولة أب يكسب رزقه بالعمل الشاق. إنه مؤلف مثلي، يمارس الكتابة. وها هو قد وضع قلمه جانباً، واقتربت منه ابنته، وهي طفلة في السادسة من عمرها، وأخذت تطلب منه أن يشتري لها دمية جديدة، وبعد ذلك عربة، عربة حقيقية تجرها الخيول، كي تجلس في العربة مع لعبتها ومربيتها وتذهب لزيارة داشا، حفيدة المربية. «وبعد ذلك أريد منك يا بابا أن تشتري لي أيضاً...» وهلم جراً وهلم جراً؛ مشتريات لا تعد ولا تحصى. وكل هذا كانت قد اخترعته وتخيلته وهي تلعب في زاويتها مع دميتها. إن المخيلة لدى هؤلاء الصغيرات ذوات السنوات الست لا مثيل لها. وهذا أمر رائع، إذ في هذا يكمن تطورهن. كان الأب يصغي مبتسماً، وفجأة قال بلهجة يختلط فيها المزاح بالأسى:

– آه يا سونيا، يا سونيا، كنت أتمنى أن أشتري لك كل ما تطلبين، ولكن من أين لي أن أحصل على النقود؟ أنت لا تعرفين كم يصعب الحصول عليها! وردّت عليها سونيا بمنتهى الجد والسرّيّة:

– خذ قِدراً، وخذ رفشاً، واذهب إلى الغابة، وانبش الأرض تحت الشجيرة، وستجد هناك نقوداً، ضعها في القدر وأحضرها إلى البيت.

أؤكد لك أن هذه البنت ليست غبية البتة، ولكن هذا هو المفهوم الذي كونته لنفسها عن الطريقة التي يحصلون بها على النقود. أفيمكن أن تعتقد أن البنت ذات السنوات السبع قد ابتعدت كثيراً عن الطفلة ذات السنوات الست هذه في مفهومها عن النقود؟ طبعاً قد تعرف أن

النقود لا يستخرجونها بالنبش تحت الشجيرة ولكن من المستبعد أن تعرف من أين يحصلون على النقود في حقيقة الأمر، وما هي القوانين التي تنظم ذلك، وماذا تعني أوراق البنكنوت، والأسهم، والامتيازات. حنانيك يا سيد سباسوفتش، كيف يمكنك أن تقول عن طفلة كهذه إنها فتشت حتى وصلت إلى النقود؟ إن هذا التعبير والمفهوم المرتبط به لا ينطبقان إلّا على لص بالغ يدرك ماذا تعني النقود وما يعنيه استعمالها. أما مثل هذه الطفلة، حتى لو أخذت النقود، لا يُعَدُّ ما فعلته سرقة بالمرة، بل هو مجرد عبث طفولي، كما لو كان ما أخذته ثمرة خوخ مجففة، لأنها لا تعرف على الإطلاق ماذا تعني النقود. أما أنت فإنك ترشدنا إلى أنها لم تعد بعيدة عن الوصول إلى أوراق البنكنوت، وتصيح قائلاً: «إن هذا يهدد الدولة!» فهل من الممكن أو من المسموح به بعد هذا القبولُ بفكرة أن هذا العقاب الذي تعرضت له الطفلة بسبب عبثها الطفولي هو عقاب عادل ومسوغ. ثم إن الطفلة لم تكن تفتش عن النقود ولم تأخذها أصلاً. إنها لم تزد على أنها عَيَّثَت قليلاً في الصندوق الذي توجد فيه النقود، وكسرت الصنّارة، ولم تأخذ أي شيء. ثم إن هذه الطفلة لا حاجة بها إلى النقود؛ أم أنك تظن حقاً أنها تنوي الهرب بها إلى أميركا، أو الحصول على امتياز لاستثمار سكة حديدية؟! فأنت تتحدث عن أوراق البنكنوت: «... من السُّكَّرِ لم تعد بعيدة عن الوصول إلى البنكنوت» فَلِمَ التورع إذاً عن الكلام على الامتيازات؟

ماذا، ألا يعني هذا الوصول إلى العمودين[38] يا سيادة المحامي؟

– إنها بنت معيوبة، فيها عيب مستتر مقزز...

«مهلاً، مهلاً أيها المُتَّهِمونَ! أيعقل أن لا أحد منكم قد شعر باستحالةِ واقعيةِ هذا المشهد استحالةً مطلقة، وبفظاعته فظاعة بالغة! طفلة صغيرة يعرضونها أمام الناس، وأشخاص جديون إنسانيون يصمون الطفلة بالعار، ويتحدثون بصوت مسموع عن «عيوبها المستترة»!...وماذا في أنها لا تدرك بعد العار الذي يصمونها به وتقول هي نفسها: «أنا لصة وكذّابة»؟* أنتم كما تشاؤون؛ أما أنا فأقول: إن هذا غير ممكن ولا يُحتمل، إنه زيف لا يطاق. من يستطيع، من يتجرأ على أن يقول عنها إنها «سرقت» وإنها فتشت «حتى وصلت» إلى النقود. هل من الممكن أن نتفوه بمثل هذه الألفاظ عن طفلة كهذه! ولماذا يدنسونها بصوت عالٍ يدوي في القاعة كلها، متَّهِمين إياها «بعيوب مستترة»؟ وما الهدف من تلطيخها بكل هذه القذارة وإبقاء أثرها طوال الحياة؟ أوه، هيا برّئ موكلك بأسرع ما يمكن، يا سيادة المحامي، على الأقل لكي يسرعوا في إسدال الستارة، وتخليصنا من هذا المشهد؛ ولكن أبْقِ لنا على الأقل، شفقتنا على هذه

(*) في الأصل بالفرنسية: «je suis voleuse، MENTEUSE».

الطفلة؛ لا تُدِنْها بهذه الهيئة الجادة، وكأنك أنت نفسك مقتنع أنها مذنبة. هذه الشفقة قيمة غالية لدينا، واستئصالها من المجتمع أمر مرعب. فعندما يكف المجتمع عن الإشفاق على الضعفاء والمظلومين يسوء حاله هو نفسه: إذ إنه يصاب باليباس والقسوة، ويغدو فاسداً عقيماً...

- أجل، ولكن إذا أبقيت لكم الشفقة، أخشى أنكم، انطلاقاً من شعوركم القوي بها، ستدينون موكِّلي.

هذه هي حقيقة الوضع!

الأسرة ومقدساتنا
الكلمة الختامية عن إحدى المدارس الفتية

يقول السيد سباسوفتش في ختام مرافعته كلمةً محكمة التسديد:

«أسمح لنفسي أن أقول في الختام إن تهمة كرونيبيرغ بمجملها مطروحة بشكل خاطئ كلياً، حسب رأيي، أي أن المسائل التي ستطرح أمامكم يتعذر حلها تماماً».

يا له من قول ذكي؛ هنا يكمن جوهر القضية كلّه ومن ثم زيفها كلّه؛ وها هو السيد سباسوفتش يضيف بنبرة خطابية بضع كلمات أخرى حول موضوع: «أعتقد أنكم تقرّون بأن هناك أسرة وهناك سلطة أبوية...» وكان آنفاً قد صاح قائلاً إن «الدولة لا تكون متينة إلّا عندما تستند إلى أسرة متينة».

وهنا سأسمح لنفسي بالتعليق على هذا بكلمة صغيرة فقط، وبشكل عابر ليس إلّا.

نحن الروس شعب فتي؛ لقد بدأنا نعيش لتوّنا، مع أننا قد عشنا ألف سنة؛ ولكن النفوس الكبيرة طموحاتها كبيرة. نحن شعب طازج، وليس لدينا مقدسات *quand même*. إننا نحب مقدساتنا، ولكن لسبب واحد فقط هو أنها مقدسة حقاً. ولا ندافع عنها لكي نحمي بها l'Ordre فحسب؛ إن مقدساتنا لا تستند في وجودها إلى منفعتها، بل إلى إيماننا. ونحن

(*) (عن تحيز باطل) بالفرنسية. (ن). (هكذا وردت الترجمة من الفرنسية إلى الروسية لدى الناشر ومن الواضح أنها ليست ترجمة حرفية، بل هي تعبر عن المقصود من العبارة ككل). (م).

لن نبري للذود عن مقدسات سنكف عن الإيمان بها كالكهنة القدماء الذين أخذوا في نهاية الحقبة الوثنية يدافعون عن أوثانهم بعد أن كانوا قد كفوا هم أنفسهم منذ مدة طويلة عن اعتبارها آلهة. وليس ثمة أي مقدس من مقدساتنا يخشى بحث حقيقته بحثاً حراً، وذلك لأنه متين فعلاً، ونحن نحب قدسية الأسرة عندما تكون مقدسة فعلاً، وليس لأن الدولة ترتكز عليها بثبات فحسب. ونحن إذ نؤمن بمتانة أسرتنا، لا نخشى أن تقذف من جوفها من حين لآخر زؤاناً، ولا نخاف حتى من أن يُكشف، أحياناً، عن سوء استعمال السلطة الأبوية ويُحاكَم من يمارسه. ونحن لن نبري للدفاع عن هذه السلطة quand même. إن قدسية الأسرة المقدسة حقاً متينة إلى حد يجعلها لا تتزعزع أبداً بفعل هذه الظواهر، بل تزداد قدسية أكثر وأكثر. ولكنْ يوجد في كل قضية حد وعيار، ونحن مستعدون لفهم هذا أيضاً. أنا لست رجل قانون، ولكنني لا أستطيع إلّا أن أقر بأن ثمة زيفاً عميقاً في قضية كرونيبيرغ. هنا يوجد شيء ما غير طبيعي، شيء لم يظهر على حقيقته، على الرغم من ارتكاب ذنب حقيقي. إن السيد سباسوفتش محق تماماً في حديثه عن طرح المسألة، ولكن هذا لا يحل شيئاً. وربما كان من الضروري القيام بإعادة نظر عميقة ومستقلة في قوانينا المتعلقة بهذا البند، من أجل سد الثغرات، وتحقيق التوافق مع طبيعة مجتمعنا. وأنا لا أستطيع أن أقرر ما ينبغي فعله هنا، فأنا لست رجل قانون...

ولكنني مع ذلك أهتف بعفوية لا إرادية: أجل، إن مؤسسة «المحاماة» رائعة، ولكنها، لسبب ما، محزنة. لقد قلت هذا في البداية، وأكرره هنا ثانية. هذا ما يبدو لي، وربما كان السبب هو أنني لست رجل قانون؛ وفي هذا كل مصيبتي. إنني لا أنفك أتصور مدرسةً ما فتية لمراوغة العقل وجفاف القلب، مدرسة لتشويه أية عاطفة معافاة، بالقدر اللازم من التشويه، مدرسة لممارسة اعتداءات من كل صنف ولون تُمارس بلا خوف وبلا عقاب، مدرسة دائمة ومستمرة في عملها بحسب الرواج والطلب، ومرفوعة إلى درجة تجعلها تبدو لنا بصورةِ مبدأ ما؛ بل إننا بسبب عدم اعتيادنا إياها نرى فيها وجهاً من أوجه الأخلاق الكريمة يصفق لها الجميع. ماذا؟ أتراني أتطاول على مؤسسة «المحاماة» وعلى النظام القضائي الجديد؟ أعوذ بالله؛ بل كل ما أريده هو أن نصبح جميعاً أفضل بقليل مما نحن عليه. إن رغبتي في منتهى التواضع، ولكنها، ويا للأسف، في منتهى المثالية. وأنا بطبعي مثالي «لا يُرجى إصلاحه». إنني أبحث عن المقدسات، فأنا أحبها، وقلبي يهفو إليها، لإنني هكذا خلقت، لا أستطيع أن أعيش بغير مقدسات؛ ولكنني مع ذلك أريد ان تكون المقدسات أكثرقداسة وإن بقليل؛ وإلّا فهل تكون جديرة بالتقديس؟ وعلى كل فأنا قد أفسدت «يومياتي» لشهر شباط

(فبراير) بإسهابي إسهاباً مفرطاً في الحديث عن موضوع محزن، لمجرد أنه أثّر فيّ تأثيراً صاعقاً، ولكن يجب أن يكون لدى المرء شجاعةُ امتلاكِهِ رأيَه الخاص* ويبدو أن هذا المَثَل الفرنسي الذكي يصلح أن يكون مرشداً للكثيرين الذين يبحثون عن أجوبة عن اسئلتهم في زمننا المبلبل هذا.

(*) بالفرنسية في الأصل «il faut avoir le courage de son opinion» (ترجمة الناشر إلى الروسية والترجمة إلى العربية من الروسية). (م).

أصحيحة الفكرة القائلة: «الأفضل أن تكون المُثل هي السيئة، والواقع هو الجيد»؟

قرأت في «وريقة» السيد غاما[76] (صحيفة «الصوت» العدد 67) التعليق التالي على ما كتبته في «يوميات» شباط (فبراير) عن الشعب:

«أياً كان الأمر فإننا نصادف عند كاتب بعينه في غضون شهر واحد رأيين عن الشعب متناقضين تناقضاً صارخاً. وهذا ليس «ڤودفيلاً»، بل لوحة في معرض متنقل: إنه حكم على كائن حي؛ إنه أشبه بتدوير سكين في جسم إنسان. ولحماية نفسه من مساءلته عن تناقضه الحقيقي أو المزعوم يدعونا السيد دوستويفسكي إلى أن نحكم على الشعب «لا على أساس ما هو عليه، بل على أساس ما يرغب في أن يكون عليه». فالشعب، لو تعلمون، هو في واقعه حثالة في غاية الفظاعة، ولكن بالمقابل لديه مُثُل جيدة. وهذه المثل «متينة ومقدسة»؛ وهي التي أنقذته في عصور الشقاء». يا لَتعس هذه الحماية! من المعروف أن جهنم نفسها مرصوفة بالنيّات الطيبة، والسيد دوستويفسكي يعرف أن «الإيمان من غير عمل جثة هامدة». ولكن كيف أصبحت هذه المُثُل معروفة؟ أي نبي، أو أي عالم بالقلوب قادر على أن ينفذ إليها أو يخمّنها إذا كان الواقع كله يناقضها أو لا يستأهلها؟ إن السيد دوستويفسكي يبرئ شعبنا بطريقة تشبه قول من يقول:

«إنهم ينشزون قليلاً، ولكنهم بالمقابل لا يذوقون المسكر بتاتاً*». بيد أن هذا غير بعيد عن الموعظة التي تقول: «الأفضل أن تكون المُثُل هي السيئة، والواقع هو الجيد».

أهم ما في هذا المقطع المنقول سؤال السيد غامّا: «ولكن كيف أصبحت هذه المثل معروفة؟» (ويقصد: المثل الشعبية). أرفض رفضاً قاطعاً الإجابة عن هذا السؤال، لأننا

(*) عبارة مقتبسة من أمثولة «الموسيقيون» للكاتب الروسي إيفان أندرييفتش كريلوف (1769-1844)، الذي اشتهر بأماثيله المنظومة الشائعة. (م).

مهما تحادثنا في هذا الموضوع مع السيد غامّا لن نصل أبداً إلى شيء. هذا جدل طويل جداً، وهو بالنسبة لنا هام جداً. هل لدى الشعب مُثُل أم ليس لديه أية مُثُل على الإطلاق؟ إن هذه مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا. وهذا الجدل يدور منذ زمن بعيد، وقد انتهى إلى أن البعض أصبح يرى هذه المُثُل واضحة وضوح الشمس، بينما ظل آخرون لا يلاحظونها ويرفضون ملاحظتها رفضاً نهائياً. مَنْ المُحِقّ؟ لسنا نحن من يقرر هذا، ولكن هذا سيتقرر وربما عمّا قريب.

لقد ارتفعت في الآونة الأخيرة بضعة أصوات تقول ما معناه: إن من المتعذر وجود أي شيء محافَظ عليه عندنا، لأنه «ليس لدينا ما نحافظ عليه». وبالفعل إذا لم يكن لدينا مُثُل خاصة بنا، فهل يستأهل الأمر أن نهتم بالحفاظ على شيء ما؟ لا بأس؛ إذا كانت هذه الفكرة تجلب مثل هذه الطمأنينة، فهنيئاً لأصحابها بها.

«الشعب، لو تعلمون، حثالة في غاية الفظاعة، ولكن المُثُل لديه جيدة» هذه العبارة لم تصدر عني قط. وأنا لا أرد على السيد غامّا إلّا لأستدرك هذا. بالعكس فأنا قد لاحظت بالضبط أنه يوجد في أوساط الشعب «قدّيسون حقيقيون؛ ويالهم من قدّيسين: هم أنفسهم يشعون نوراً، وينيرون الطريق لنا جميعاً». إنهم موجودون، أيها الكاتب الصحفي المحترم، موجودون بالفعل، وطوبى لمن يستطيع أن يبصرهم. وأعتقد أنه ليس لديّ هنا، أي في هذه الكلمات بالذات، أي غموض. وأضيف إلى هذا أن الغموض لا يتأتى دائماً عن أن الكاتب غامض؛ بل يتأتى أحياناً عن أسباب معاكسة تماماً...

أما فيما يخص الموعظة التي تختتم بها ملاحظتك: «الأفضل أن تكون المُثُل هي السيئة، والواقع هو الجيد»، فإنني أنبهك إلى أن هذه الرغبة مستحيلة تماماً: فبدون مُثُل، أي من غير رغبات معينة في الوصول إلى الأفضل، أياً كان قَدْر هذه الرغبات، لا يمكن أبداً أن نصل إلى أي واقع جيد؛ بل يمكن الجزم بأننا لن نصل إلّا إلى ما هو أشدّ قذارة. تبقّى لدينا، على الأقل، فرصة ما: فإذا كان الحاضر سيئاً، فإننا في حالة بروز رغبة مدرَكَة بوضوح عندنا في أن نصبح أفضل (أي في حالة وجود مثُل الأفضل) يمكن بالفعل أن نشد العزم يوماً ما ونصبح أفضل. على الأقل هذا ليس البتة بالأمر المستحيل، كافتراضك بأن نصبح أفضل في حالة كون مُثُلنا «سيئة»، أي في حالة وجود رغبات سيئة لدينا. آمل ألّا تغضبك كلماتي القليلة هذه يا سيد غامّا. فليحتفظ كل منا برأيه ولننتظر النهاية. وأؤكد لك أن النهاية ربما لن تكون بعيدة البتة.

الانفراد

أشير هنا إلى أنني أكتب «عما رأيت وسمعت وقرأت»؛ وحسناً فعلت أنني لم أضيّق على نفسي بإعطاء وعد بالكتابة عن كلٍّ «ما رأيت وسمعت وقرأت»، فأنت لا تنفك تسمع وتسمع أشياء غريبة، لا تدري كيف ترويها، لأنها تأتيك متباعدة بطبيعتها، وتأبى تماماً أن تنتظم في رزمة واحدة! وفي الحقيقة يبدو لي أننا دخلنا في عصر يمكن تسميته عصر «الانفراد» العام. الكل ينفردون، يستوحدون، كل واحد يريد أن يأتي بأفكار خاصة به، أفكار جديدة لم يُسمع بها من قبل. كل واحد يُنحّي جانباً كل ما كان من قبل عامّاً في الأفكار والمشاعر، ويبدأ بالانطلاق من أفكاره ومشاعره هو بالذات. كل واحد يرغب في البدء من البداية. يقطعون الصلات القديمة غير آسفين، وكل واحد منهم يتصرف حسب ما يخطر في باله هو بالذات، وفي هذا وحده يجد عزاءه. وإذا لم يكن يتصرف على هذا النحو فإنه يرغب في أن يتصرف هكذا. لنفترض أن كثيرين جداً لم يبدؤوا بشيء ولن يبدؤوا أبداً؛ ولكنهم مع ذلك انقطعوا ويقفون الآن جانباً. ينظرون إلى مكان الانقطاع ولا يفعلون شيئاً، بانتظار أمر ما. الجميع عندنا ينتظرون شيئاً ما. وفي أثناء ذلك ليس ثمة أي اتفاق أخلاقي على أي شيء تقريباً. كل شيء قد تفرّق ويتفرّق، وليس إلى زمر بل إلى آحاد مُفردة، والمهم أن هذا يجري أحياناً بمنتهى اليسر والرضا. انظروا إلى أديبنا الإبداعي المعاصر، وأقصد هنا أولئك الذين ينتمون إلى الناس الجدد. إنه يدخل المضمار من دون أن تكون لديه رغبة في معرفة أي شيء سابق. ينطلق من نفسه ويسير منفرداً بنفسه. يدعو إلى الجديد، ويطرح مباشرة المَثَل الأعلى للكلمة الجديدة والإنسان الجديد. إنه لا يعرف الأدب الأوربي، ولا يعرف أدب أمته؛ ولم يقرأ شيئاً ولن يقرأ. إنه لم يكتفِ بإهمال قراءة بوشكين وتورغينف؛ بل هو في الحقيقة لم يقرأ حتى ما كتبته جماعته، أي بيلينسكي ودوبرولوبوف*. وهو يستنبط أبطالاً جدداً ونساء جديدات، وتقوم كل جدّتهم في أنهم يخطون رأساً خطوتهم العاشرة، ناسين الخطوات التسع الأولى، ولذا تراهم يقعون فجأة في أوضاع لا يمكنك أن تتصور ما يفوقها زيفاً، ويهلكهم قيامهم بوعظ القارئ وإغوائه. وزيف الوضع هذا يشكل موعظتهم برمتها. إن الجديد في هذا كله قليل جداً، بل بالعكس، إن الكثير هنا كثرة مفرطة هو القديم البالي. ولكن القضية هنا ليست في هذا البتة، بل في أن أديبنا الإبداعي هذا على قناعة تامة بأنه قال كلمة جديدة، وأنه كيان قائم بذاته، وأنه

(*) يقصد المفكرين والنقاد التقدميين (الثوريين الديمقراطيين). انظر الهامشين 10 و24.

قد انفرد عن سواه، وهذا، بالطبع، يرضيه إلى حد بعيد. إن هذا المثال المختصر قديم وصغير، ولكنني سمعت منذ أيام قصة عن إحدى الكلمات الجديدة. أحدهم كان عدمياً (نهلستياً)، وكان ينكر وينفي، وقد تعذب وعانى، وبعد وقوعه في شدائد دامت طويلاً، وتعرضه حتى للاعتقال والسجن امتلأ قلبه فجأة بالمشاعر الدينية. فماذا تظنونه فعل على الفور؟ «توحد وانفرد» رأساً. وتجاوز عقيدتنا المسيحية في الحال وبحرص، واستبعد كل السابق، وابتكر من دون إبطاء عقيدة له، وهي أيضاً مسيحية، إلّا أنها عقيدة «خاصة به». وهذا الشخص عنده زوجة وأولاد. ولكنه لا يعيش مع زوجته، أما أولاده فيعيشون في كنف آخرين. ومنذ أيام غادر إلى أميركا، وأغلب الظن أنه ذهب إلى هناك ليدعو إلى عقيدته الجديدة. وباختصار، كل واحد ينفرد بذاته ويتصرف على هواه، وهل تظنون أنهم يفعلون ذلك تصنعاً وتكلفاً للأصالة؟ لا، على الإطلاق. فزمننا أقرب إلى الفعل الصادق منه إلى الفعل الارتكاسي. وثمة كثيرون، وربما كثيرون جداً يعانون كآبة الحنين إلى شيء ما ويتألمون حقاً. وقد قطع هؤلاء بالفعل، وبمنتهى الجدية، كل الصلات السابقة. وباتوا مرغمين على أن يبدؤوا من البداية، إذ ليس من أحد يهبهم النور. أما الحكماء والقادة فإنهم يوافقونهم على ما يفعلونه، بعضهم انطلاقاً من مشاعر الخوف اليهودي (فكيف لا يسمحون لهم بالذهاب إلى أميركا: إن الهرب إلى أميركا هو، في نهاية الأمر، تصرف ليبرالي)، وبعضهم للإغتناء، ببساطة، على حسابهم. وهكذا تهلك القوى الفتية الطازجة. سيقولون لي إن أمثال هذه الوقائع لا تزيد على اثنتين أو ثلاث، وهي لا تعني شيئاً، وما يجري في الواقع هو العكس، فليس من شك في أن كل شيء يتجمع ويتحد على نحو أوثق من السابق، وتظهر مصارف، وجمعيات، ورابطات...

وعلى كل فإنني دسست المصارف هنا مازحاً: فهذا ليس من شأني الآن؛ وحديثي هنا مقتصر على الانفراد. كيف لي أن أشرح هذه الفكرة على نحو أفضل؟ سأورد، بالمناسبة، بضع أفكار عن شركاتنا ورابطاتنا منقولة من مخطوطة ليست لي، بل أُرسلت إلي، ولم تُنشر بعد في أي مكان، ويتوجه كاتبها بحديثه إلى مُناظريه في الأقاليم:

«أنتم تقولون إن فرق العمل، والرابطات، والشركات، والتعاونيات، والجمعيات التجارية وسواها من التكتلات المختلفة، إنما تقوم على أساس الميل الفطري لدى الإنسان إلى التآلف؟ وإذا نحن استثنينا «فرقة العمل» الروسية التي لم تُدرس بعد بالقدر الكافي لقول شيء ما إيجابي عنها، فإننا نعتقد أن كل هذه الرابطات والشركات وسواها ليست سوى اتحادات لأطراف ضد أطراف، اتحادات تقوم على أساس غريزة حفظ الذات، ويستدعيها الصراع من أجل البقاء؛ ومما يؤكد رأينا هذا تاريخ نشوء هذه الاتحادات التي كانت في البدء تتشكل من الفقراء والضعفاء ضد الأغنياء والأقوياء، ثم أخذ هؤلاء الأخيرون بعد ذلك يستخدمون سلاح

خصومهم، أجل، إن التاريخ ليشهد، من دون شك، على أن كل هذه الاتحادات قد نشأت على أساس العداوة الأخوية، وهي لا ترتكز على الحاجة إلى الاجتماع، كما تفترضون، بل على أساس الشعور بالخوف على الوجود، أو على أساس الرغبة في الحصول على ربح أو مكسب أو منفعة ولو على حساب الأقربين. وإذا ما أنعمنا النظر في بنية هذه الكيانات التي تولدها العقيدة النفعية، نرى أن همها الأول هو قيام كل واحد بمراقبة الجميع، وقيام الجميع بمراقبة كل واحد مراقبة موثوقة، أي ببساطة القيام بعملية تجسس عام شامل، خشية قيام أحد بغبن آخر. إن كل هذه الرابطات، وما تتسم به من رقابة داخلية، وحسدٍ لكل من لا ينتمي إليها، إنما توازي بنشاطها الخارجي توازياً مدهشاً ما يجري على الصعيد السياسي العالمي، حيث تتسم العلاقات المتبادلة بين الشعوب بالسلام المسلح، الذي تتخلله اشتباكات دموية؛ في حين أن حياة هذه الشعوب الداخلية تتسم بصراع مستمر بين الأحزاب. فعن أي تآلف وعن أي حب، يمكن أن يتحدث المرء هنا! أفلا يعود السبب في أن كل هذه المؤسسات تتعثر في تثبيت جذورها عندنا إلى أننا لا نزال نعيش حياة شديدة الرحابة، وأنه لا داعي بعد عندنا إلى أن نفرط في التدجج بالسلاح ليجابه بعضنا بعضاً، وأننا ما زلنا مفعمين بفيض من مشاعر التعاطف والثقة المتبادلة؛ وهذه المشاعر تمنعنا من مراقبة بعضنا بعضاً، وتجسس بعضنا على بعض، كما تقتضي الضرورة عندما نقيم عندنا هذه الرابطات والتعاونيات والجمعيات التجارية وسواها التي ستعجز عن أداء وظيفتها في حالة نقص المراقبة، وستنهار حتماً.

ألن نشعر يا ترى بالحسرة لأن عندنا مثل هذه النواقص بالقياس إلى جيراننا الغربيين الذين يفوقوننا ثقافة؟! لا، فإننا، على الأقل، نرى في نواقصنا هذه ثروة لنا، ونرى أنه في نفوسنا لا تزال تجيش، بشيء من القوة مشاعرُ الوحدة التي يتعذر من دونها وجود المجتمعات الإنسانية، مع أن هذه المشاعر، إذ تؤثر في الناس من دون وعي منهم لها، تقودهم لا إلى اجتراح المآثر العظيمة فقط، بل تقودهم أيضاً، في أحيان كثيرة جداً إلى ارتكاب الكبائر. ولكن الذي لم تَمُتْ هذه المشاعر في نفسه بعد، يمكنه أن يفعل أي شيء، على أن تتحول هذه المشاعر لديه من قوة لا واعية، من غريزة، إلى قوة مدركة، كيلا تقذف بنا إلى هذه الجهة أو تلك، حسب نزوات المصادفة العمياء، بل تذعن لإرادتنا فنوجهها نحو بلوغ أهداف رشيدة. من دون مشاعر الوحدة هذه، ومن دون الحب المتبادل والتآلف بين الناس، لايُعقل تحقيق أي شيء عظيم، لأنه لا يُعقل تشكل المجتمع نفسه».

وكما ترون، فإن الكاتب لا يعمد، ربما إلى التشدد في صب سيل اللعنات على الرابطات والشركات، بل يكتفي بالقول إن مبدأها الرئيس الحالي يقوم حصراً في العقيدة النفعية وفي التجسس، وإن هذا لا يمتُّ إلى وحدة الناس وتآلفهم بأية صلة. إن كل هذه الأفكار فتية،

غضة، نظرية، غير عملية، ولكنها، من حيث المبدأ، صحيحة تماماً ومكتوبة لا بصدق فحسب، بل بمعاناة وألم أيضاً. ولاحظوا هذه السمة العامة الشاملة: القضية عندنا الآن تتوقف على الخطوة الأولى، على الممارسة العملية، فيما الجميع، الجميع بلا استثناء، يصيحون ويهتمون بالمبادئ فقط... وهاكم فيما يلي قصة المخطوطة التي أخذت منها المقطع المقتبس آنفاً. إن كاتبها المحترم (ولا أدري أهو شاب أم من الشيوخ الشبان) نشر ملاحظة غير طويلة في إحدى صحف المحافظات، وقد نشرت هيئة تحرير الصحيفة إلى جانب هذه الملاحظة تعقيباً تعرب فيه عن عدم موافقتها جزئياً على ما ورد فيها. وعندما كتب صاحب الملاحظة مقالة كاملة (وهي ليست كبيرة جداً) يفنّد فيها ما ورد في التعقيب المعارض لرأيه، رفضت هيئة تحرير الصحيفة نشرها، بحجة أنها «أقرب إلى الموعظة منها إلى المقالة». عندئذ توجه إليّ الكاتب برسالة مشفوعة بالمقالة المرفوضة، ورجاني أن أقرأها وأنعم فيها النظر وأعبر عن رأيي فيها في «اليوميات». أولاً: أشكر له ثقته برأيي، وثانياً: أشكره على المقالة لأنها سرّتني أيما سرور: فنادراً ما قرأت شيئاً أكثر منطقية منها، ومع أنني لا أستطيع أن أنشرها بكاملها، فقد تعمدت أن أنشر منها المقطع الذي أوردته آنفاً لنية في نفسي لا أخفيها: إذ إن كاتب المقالة الحريص على أن يجتمع الناس في وحدة حقيقية، رأيت لديه هو أيضاً زخماً «انفرادياً» شديداً من نوع خاص، ولا سيما في أجزاء معينة من المخطوطة لا أجسر على نشرها؛ وتصل انفراديته إلى حد يندر أن نصادفه؛ وعلى هذا فليست المقالة وحدها، بل كاتبها أيضاً، يؤكدان، كما يبدو، فكرتي عن «انفراد» الآحاد، وعما يمكن أن نسميه التحلل الكيميائي لمجتمعنا إلى عناصره المكوِّنة الأولى، هذا التحلل الذي دهمنا بغتة في أيامنا هذه.

ولكنني أضيف مستدركاً أنه إذا كان الجميع الآن ينطلقون «من ذواتهم» ويسيرون «منفردين بذواتهم» فإن هذا لا يجري من دون أية صلة بما سبق؛ بل بالعكس، فهذه الصلة لا بدّ من وجودها، على الرغم من أن الجميع يَبدون كأنهم متفرقون ولا يفهم أحدهم الآخر؛ وتَتَبُّع هذه الصلة من أكثر الأمور طرافة. وباختصار، وإن كان التشبيه قديماً، فإن مجتمع مثقفينا الروس أشبه ما يكون بتلك الحزمة القديمة من العيدان التي لا تكون قوية إلّا عندما تكون مجتمعة، ولكن ما إن تنتكث الصلة التي تجمعها حتى تتفرق الحزمة إلى كثرة من العيدان الضعيفة التي تذروها أول هبة ريح*. وهذه الحزمة بالذات قد تناثرت الآن عندنا. أفليس صحيحاً أن حكومتنا لم تجد عندنا خلال الأعوام العشرين من عهد الإصلاح كل دعم قوانا المثقفة؟ بل بالعكس، ألم ينحرف قسم كبير من قوانا الفتية الطازجة الثمينة إلى جانب ما مُستغرَب، وانفرد هازئاً مهدداً، ومرة أخرى كان دافعه إلى ذلك هو القيام رأساً بالخطوة العاشرة بدل القيام

(*) من أماثيل (حكايات) إيزوب اليوناني (القرن السادس ق.م). (ن).

قبل ذلك بالخطوات التسع الأولى، ناسياً في أثناء ذلك أن الخطوة العاشرة هذه ستتحول في جميع الأحوال، بدون الخطوات التسع التي تسبقها، إلى خيال (فانتازيا)، حتى وإن كان لها، بحد ذاتها معنىً ما. وأكثر ما يبعث على الأسى في هذا الصدد أن نسبة من يفهمون شيئاً ما في هذه الخطوة العاشرة ربما لا تتجاوز الواحد في الألف من هؤلاء المنشقين، أما الباقون فكانوا يسمعون الأصداء التي تملأ الأجواء. والنتيجة قبض الريح: دجاجة باضت بيضة عقيماً. هل شاهدتم حريقاً في الغابة في يوم قائظ؟ ما أشد شعور الرائي بالأسف والحسرة! كم من المواد الثمينة تهلك سدىً، وكم من القوى والنار والدفء تذهب هدراً، من دون أثر وبلا جدوى.

دون كارلوس والسير واتكين[77]. دلائل «بداية النهاية» مرة أخرى.

قرأت باهتمام بالغ عن دخول دون كارلوس إلى إنكلترا. يقولون دائماً إن الواقع ممل ورتيب؛ ويلجؤون من أجل الترفيه عن أنفسهم إلى الفن والخيال، ويطالعون الروايات. أما أنا فعلى العكس: إذ ما الذي يمكن أن يكون أكثر خيالية وقدرة على المفاجأة من الواقع؟ بل ما الذي يمكن أن يكون أحياناً أبعد عن احتمال الحدوث من الواقع؟ لا تخطر في بال الروائي البتة مستحيلات كتلك التي يقدمها لنا الواقع بالآلاف كل يوم على شكل أشياء مألوفة للغاية، بل إن بعضها يعجز أي خيال عن اختراعه. وهو يتفوق على الرواية أيما تفوق! جربوا أن تصوروا في رواية مشهداً ما قد حدث، لِنَقُلْ، مع الوكيل المحلّف* كوبيرنيك[78]. اخترعوا هذا المشهد بخيالكم، وسترون أن الناقد سيبرهن لكم في زاويته الساخرة في الأحد التالي، بوضوح وبمنطق لا يُقهر، على أنكم تهذون، وأن هذا لا يحدث في الواقع البتة، والأهم من ذلك أنه لا يمكن أن يحدث بحال من الأحوال لكذا وكذا من الأسباب، وسينتهي بكم الأمر إلى أنكم ستوافقونه على رأيه وأنتم تشعرون بالخجل. ولكن هاهم يحضرون لكم صحيفة «الصوت»، وفجأة تقرؤون فيها المشهد كله الذي يصور صاحبنا مُطلِقَ النار و...ماذا تظنون

(*) الوكيل المحلف في روسيا (من عام 1864 إلى عام 1917) محام رسمي يخدم لدى الدولة. (م).

سيحدث: في البدء ستقرؤون باندهاش، ودهشتكم ستكون صاعقة إلى الحد الذي يجعلكم لا تصدقون أي شيء وأنتم تقرؤون؛ ولكن ما إن تكملوا القراءة حتى النقطة الأخيرة وتضعوا الصحيفة جانباً حتى تقولوا فجأة ومن دون أن تعرفوا لماذا: «نعم، كل هذا يجب أن يكون قد حدث حتماً على هذا النحو بالذات»؛ بل قد يضيف آخر: «حَدَسْتُ بهذا مسبقاً». ما سبب هذا الفرق في الانطباعات المتأتية عن قراءة الرواية والصحيفة - لا أدري. ولكن هذا هو الامتياز الذي يتمتع به الواقع.

ها هو دون كارلوس يدخل إنكلترا ضيفاً بطمأنينة وأبهة، بعد المذبحة وسفك الدماء «في سبيل المِلك، والعقيدة، ووالدة الرب»؛ ها نحن أمام شخصية أخرى، ها نحن إزاء «انفراد» آخر! فهل يمكن لأحد يخترع مثل هذا بخياله؟ وبالمناسبة، هل تذكرون تلك الحادثة التي وقعت للكونت شامبور (هنري الخامس)[79] منذ سنتين. إنه أيضاً ملك ومن أنصار الشرعيين وهو أيضاً كان يسعى لاعتلاء العرش في فرنسا، في الوقت نفسه الذي كان دون كارلوس فيه يفعل مثل ذلك في إسبانيا. ويمكن حتى أن نَعُدَّهما قريبين، فاللقب واحد، والجذر واحد، ولكن شتّان ما بينهما. أحدهما منغلق بشدة على قناعاته، وشخصية سوداوية، أنيقة، إنسانية. لم يُغرَ الكونت شامبور في اللحظة المصيرية الحاسمة التي غدا بمقدوره فيها أن يصبح ملكاً (للحظة طبعاً)، ولم يسلّم «رايته البيضاء»*، وقد برهن بهذا على أنه فارس شهم حقيقي، يكاد يكون «دون كيشوت»، ذاك الفارس القديم الذي عاهد نفسه على العفاف والفقر. لقد كان جديراً بأن يمثّل بجلالٍ خاتمة سلالته الملكية العريقة (بجلال، ولكن مع قليل جداً من الإضحاك، وهل من حياة بغير ما يُضحك!) لقد رفض السلطة والعرش لسبب واحد فقط، هو أنه كان يريد أن يصبح ملك فرنسا لا من أجل نفسه فحسب، بل من أجل خلاصها هي أيضاً، وبما أن الخلاص، حسب رأيه، لم يكن ينسجم مع التنازلات التي طلبت منه (وهي تنازلات ممكنة جداً) فإنه أعرضَ عن المُلك. وشتان ما بينه وبين نابليون[80] القريب العهد، ذاك الصعلوك الداهية، الذي وعد بكل شيء، وسلّم كل شيء، وخدع الجميع في سبيل وصوله إلى السلطة. لقد ساويت لتوّي بين الكونت شامبور ودون كيشوت، وأنا في الحقيقة لا أعرف مدحاً أسمى من هذا المدح. لا أدري أهو هايني[81] أم غيره الذي قال إنه في طفولته غرق بدموعه عندما وصل، وهو يقرأ «دون كيشوت» إلى المكان الذي ينتصر فيه الحلّاق الحقير ذو التفكير السليم شمشون كاراسكو على بطل الرواية. لا يوجد في العالم مُؤلَّف أعمق وأقوى من هذا المؤلَّف. إنه لايزال حتى الآن آخر وأعظم كلمة أبدعها الفكر الإنساني؛ إنه أمرٌ تهكم

(*) كانت راية آل بوربون الفرنسيين بيضاء اللون، بينما كانت راية الجمهوريين ثلاثية الألوان. (ن).

استطاع الإنسان أن يعبر عنه؛ ولو أن الأرض قد انتهت، وسألوا الناس في أي مكان: «ماذا، هل فهمتم حياتكم على الأرض، وما هو الاستنتاج الذي انتهيتم إليه عنها؟» لكان بمقدور الإنسان أن يقدّم بصمت «دون كيشوت»: «ها هو استنتاجي عن الحياة؛ فهل بمقدوركم أن تدينوني بسببه؟». إنني لا أزعم أن الإنسان سيكون محقاً في قوله هذا، ولكن...

دون كارلوس، قريب الكونت شامبور، فارس هو الآخر، ولكنك ترى في هذا الفارس أحد رؤساء محاكم التفتيش. لقد أجرى أنهاراً من الدماء *ad majorem gloriam Die وفي سبيل والدة الرب، الوديعة المصلية من أجل الناس، و«الشفيعة والمغيثة السريعة»، كما يسميها شعبنا. وقد عُرضت عليه مقترحات مغينة، كما جرى مع الكونت شامبور، ورفضها أيضاً. وأظن أن هذا قد جرى بعد أحداث بلباو بوقت قصير، وبعد انتصاره الكبير مباشرة، عندما قُتِل في المعركة القائد الأعلى لجيش مدريد. لقد أرسلوا إليه عندئذ يستوضحون: «ماذا سيكون رده إذا سمحوا له بدخول مدريد، وهلّا قدّم برنامجاً أياً كان ليصبح بالمستطاع البدء بالمفاوضات؟» ولكنه رفض بصلف أية فكرة عن المفاوضات؛ ولم يكن سبب الرفض هو الصلف وحده، بالطبع، بل كان هناك المبدأ الذي يترسخ عميقاً في نفسه: إذ لم يكن بمقدوره أن يعترف بأن المرسِلين هم طرف محارب، ولم يكن بمقدوره «هو الملك» أن يعقد أية اتفاقات مع «الثورة»! وقد عبّر بإيجاز، واختصار شديد، ولكن بوضوح، عن أن «الملك يعرف بنفسه ما الذي عليه أن يفعله عندما يصل إلى عاصمته». ولم يضف إلى هذا شيئاً. وبدهي أنهم أعرضوا عنه فوراً، وما لبثوا أن استدعوا الملك ألفونس، وضاعت اللحظة المواتية، ولكنه استمر في الحرب؛ وراح يدبّج بيانات بأسلوب رفيع مفخّم، وكان هو أول من يصدّق كل ما جاء فيها. كان يطلق النار على جنرالاته بغطرسة وتشامخ «بسبب الخيانة»، ويخمد تمردات جنوده المنهكين، وينبغي أن نوفيه حقه كمحارب، فقد كان يقاتل حتى آخر شبر من الأرض. وقد أعلن الآن لأصدقائه الفرنسيين في الرسالة المتسمة بالتجهم والكبرياء، التي وجهها إليهم وهو يغادر فرنسا إلى إنكلترا أنه «راض عن خدمتهم ودعمهم، وأنهم بخدمتهم له إنما كانوا يخدمون أنفسهم، وأنه مستعد دائماً لامتشاق حسامه ثانية عندما تدعوه بلاده البائسة إلى ذلك». لا تقلقوا. إنه سيظهر من جديد. وبالمناسبة أقول: إن هذه الرسالة الموجهة إلى «الأصدقاء» تجلو، ولو بقدر ضئيل، لغز مصدر الوسائل والأموال التي مكّنت هذا الشخص الفظيع (الشاب والجميل كما يقولون) من خوض الحرب كل تلك المدة الطويلة، وبكل هذا العناد؟ فالأصدقاء، إذاً، كانوا كثيرين وأقوياء. ولكن من هم هؤلاء؟ أغلب الظن أنه كان يتلقى

(*) لزيادة مجد الرب (باللاتينية) وهذه العبارة هي شعار رهبانية اليسوعيين (الجزويت). (ن).

أكبر قدر من الدعم من الكنيسة الكاثوليكية باعتباره أملها الأخير من سلالة الملوك. ولولا ذلك لما كان بمقدور أي أصدقاء أن يجمعوا له كل هذه الملايين.

لاحِظوا أن هذا الشخص الذي رفض بإباء وحزم أي اتفاق مع «الثورة»، ذهب إلى إنكلترا وهو يعرف حق المعرفة أنه ذاهب ينشد حسن الضيافة في هذا البلد المستقل، الحر التفكير، والثوري بمفهومه هو؛ فأي جمع بين المفاهيم هذا! وقد حدث له عند دخوله إلى إنكلترا حادث صغير ولكنه ذو دلالة. فقد ركب في مرفأ بولون الباخرة التي ستوصله إلى فوكستون. وكان يسافر في هذه الباخرة إلى إنكلترا ضيوف آخرون، هم أعضاء مجلس بلدية بولون، ملبّين دعوة الإنكليز إلى حضور احتفال سلمي بتدشين محطة قطار جديدة في فوكستون. وكان بين هؤلاء الضيوف نائب من مديرية با- دي- كاليه، وكان ينتظرهم على الشاطئ الإنكليزي للترحيب بهم جمهور من الإنكليز، وممثلون عن السلطة وسيدات متأنقات، ووفود من شركات وجمعيات مختلفة يحملون الرايات ويعزفون الموسيقا. وصدف أن كان بين المستقبلين أحد نواب البرلمان، وهو السير ادوارد واتكين بصحبة نائبين آخرين. وعندما علم أن دون كارلوس موجود بين القادمين، خفّ على الفور إلى تقديم نفسه، والتعبير عن احترامه، واصطحبه بكل لطف إلى المحطة، وأجلسه في إحدى عربات القطار في قمرة منفردة مغلقة. بيد أن بقية الجمهور لم تكن بمثل هذا التهذيب؛ فما إن ظهر دون كارلوس في أثناء مروره وصعوده إلى العربة حتى تعالى الصفير وضجيج الاستهجان. وقد انتاب السير واتكين شعور عميق بالإهانة من تصرف مواطنيه هذا. وعمد بنفسه إلى وصف هذا المشهد في الصحافة مخففاً، قدر المستطاع، من الانطباع الذي خلّفه استقبال «الضيف» على هذا النحو غير المهذب. وهو يقول إن ثمة حادثاً عفوياً هو الذي أدّى إلى ما وقع، ولولاه لكان كل شيء قد جرى على نحو آخر:

«... في اللحظة التي بلغنا فيها رصيف المحطة، ورفع دون كارلوس قبعته رداً على هتافات بعض الأشخاص الذين كانوا يرحبون به نشرت الريح راية رابطة odd fellows*، وظهرت على هذه الراية صورة «الرحمة»، راعية الأطفال، وشعارها «لا تنسوا الأرامل والأيتام»، وكان رد الفعل سريعاً ومذهلاً؛ فقد سرت دمدمة وسط الجمهور، ولكنها لم تكن تعبر عن الغضب، بقدر ما كانت تعبر عن الأسى؛ ومع أنني أشعر بالأسف لما جرى، ولكن عليّ أن أقول إنه ليس من شعب يكون قد احتشد ليحتفل بمناسبة سارة، فإذا به يفاجأ بمواجهة شخص قام بالدور الرئيس في حرب أهلية دموية، يمكن أن يُظهِر من التهذيب ما أظهرته الأكثرية الساحقة من الجمهور الفوكستوني».

(*) «الإخوان السريون» (بالإنكليزية). وهو اسم جمعية خيرية (ن). (الترجمة عن الروسية). (م).

أية خصوصية في النظرة يتميز بها هذا الشخص،، أي ثبات في الرأي لديه، وأي اعتزاز غيور بشعبه يملأ نفسه! قد يَعُدّ كثيرون من ليبراليينا سلوك السير واتكين أشبه بالدناءة، وبمشاعر التزلف الوضيع أمام شخص مشهور، وبالزحف الحقير إلى الأمام، بيد أن السير واتكين لا يفكر كما نفكر نحن: إنه يعرف طبعاً، أن الضيف القادم قام بالدور الرئيس في حرب أهلية دموية؛ ولكنه باستقباله إياه يُرضي شعوره الذاتي بكبريائه الوطنية، ويخدم إنكلترا بكل قواه. وهو عندما يمد يده إلى الطاغية الملطخ بالدماء يكون كأنه يقول له باسم إنكلترا ومن موقعه كنائب في البرلمان: «أنت مستبد وطاغية، ومع ذلك فقد أتيت إلى بلد الحرية تنشد ملجأ لك؛ وهذا ما كان يجب توقعه، فإنكلترا تستقبل الجميع ولا تخشى تقديم الملجأ لأي شخص: *Entrée et sortie libre أهلاً بكم». وليست الجلافة وحدها التي أظهرها «قسم صغير من الجمهور المحتشد» هي التي أغاظته، بل أغاظه أيضاً أنه رأى في انفلات المشاعر، وفي الصفير وضجيج الاستهجان نيلاً من الكرامة الذاتية التي ينبغي أن يتحلّى بها حتماً كل إنكليزي حقيقي. فليكُن أنهم هناك في القارة وفي العالم كله يرون أن من الأمور الرائعة عدمَ كبح الشعب مشاعره المهانة، وإقدامه على إعلان استهجانه بالصفير، وجهره علناً باحتقاره للشرير حتى وإن كان يحل ضيفاً عليه؛ فهذا كله يليق بأناس كالباريسيين أو الألمان؛ أما الإنكليزي فملزم بأن يتصرف على نحو آخر، وبأن يكون في مثل هذه اللحظات رابط الجأش بصفته إنساناً محترماً، وبأن يمسك عن التعبير عن رأيه. ومن الأفضل بكثير أن لا يعرف الضيف شيئاً عن آراء مستقبليه فيه؛ وأفضل وضع في هذه الحالة هو أن يقف كل منا ساكناً وقد عقد يديه خلف ظهره كما يليق بالإنكليزي، وأن يحدق إلى القادم بنظرة باردة مفعمة بعزة النفس. ولا مانع أيضاً من إطلاق بعض هتافات مجاملة، ولكن بصوت منخفض وباعتدال، وسيدرك الضيف على الفور أن هذا ليس أكثر من تقليد، وإجراء تقتضيه المراسم، وأنه لم يستطع أن يثير لدينا أي شعور بالاضطراب، حتى وإن كان خارق الذكاء... ولكن إذا ما شرع الجمهور يصرخ ويصفر سيعتقد الضيف أن هؤلاء ليسوا سوى رعاع سوقيين سخفاء، كالجمهور في القارة. وقد تذكرت، بهذه المناسبة، نادرة طريفة جداً، قرأتها مؤخراً، لا أذكر أين ومن الذي كتبها، تتحدث عما جرى بين المارشال سيباستياني[82] وأحد الإنكليز في بداية القرن في عهد نابليون الأول. فقد رغب المارشال سيباستياني، الذي كان شخصية هامة آنذاك، في مجاملة أحد الإنكليز الذين كانوا جميعاً آنذاك يعانون من التجاهل والإهمال بسبب حربهم المستمرة والعنيدة مع نابليون، فقال له بتودد بعد أن أطنب في الثناء على أمته:

- لو لم أكن فرنسياً لرغبت في أن أكون إنكليزياً.

(*) الدخول والخروج حر (مسموح) (بالفرنسية). (ن).

استمع الإنكليزي إلى ما قاله، ورد عليه في الحال من غير أن يتأثر البتة بتودده:

- وأنا لو لم أكن إنكليزياً لرغبت في أن أصبح بالذات إنكليزياً.

وهكذا فإنهم في إنكلترا جميعهم إنكليز، وجميعهم يحترمون أنفسهم بالقدر نفسه، وربما لسبب واحد فقط هو أنهم إنكليز. ويبدو أن هذا وحده كاف ليربط بين الناس في هذه البلاد برباط متين، ويوحدهم في «حزمة قوية». ومع ذلك فإن حقيقة الوضع هناك كما هي في كل مكان في أوربا: ظمأ شديد إلى العيش، وإضاعةُ أسمى معاني الحياة. وسأورد هنا كمثال على الفرادة الأصيلة أيضاً، نظرة أحد الإنكليز إلى عقيدته، أي المذهب البروتستانتي. لنتذكر أن الإنكليز، في أغلبيتهم الساحقة، شعب شديد التمسك بالدين: نفوسهم تهفو إلى الإيمان، ولا تنفك تبحث عنه، ولكن بدلاً من الدين، وبالرغم من المذهب «الأنغليكاني» الذي تتبناه الدولة، تراهم متفرقين إلى مئات الطوائف. يقول سيدني دوبّيل* في مقالة نشرها مؤخراً بعنوان «أفكار حول الفن والفلسفة والدين»: «الكاثوليكية عظيمة، ورائعة، وحكيمة، وقادرة؛ إنها البناء الأكثر استقراراً وتناسقاً بين الأبنية التي شيدها الإنسان، غير أنها ليست تَرْبَوِيّة، لذا فإنها محكوم عليها بالموت؛ بل يجب أن تموت، لأنها ضارة وضررها يزداد بقدر ما تزداد بنيتها اكتمالاً. أما البروتستانتية فهي ضيقة، ومشوهة الشكل، ووقحة، وغير حكيمة، وغير متماسكة، وغير منسجمة مع نفسها؛ إنها بابل الجدل اللفظي، والحَرْفيّة الجامدة، وندوة يتبارى فيها المتحذلقون أشباه المفكرين، والعباقرة أشباه المتعلمين، والأنانيون الأميون من كل صنف ولون، إنها مهد المراءاة والتعصب؛ إنها مجمع احتفالي لكل الخُبْل الذين يقصدونه طوعاً؛ بيد أنها تربوية، ولذا فمن المقدر لها أن تعيش. والأحرى بنا أن نغذيها، ونحسّن بنيتها، ونكلأها بالرعاية، ونذود عنها في خضم الصراع، باعتبارها حاجة روحية sine qua non (لا غنى عنها) لحياة الإنسان الروحية».

أي حكم غير معقول هذا! ومع ذلك فإن آلاف الأوربيين يبحثون عن خلاصهم في أمثال هذه الآراء. وبالفعل، هل يمكن القول إن المجتمع الذي تُطرح فيه بجد وبكل الحماسة أمثال هذه الاستنتاجات عن حاجات الإنسان الروحية هو مجتمع معافى؟ «والبروتستانتية، كما يقول، حوشِيَّة، ومشوهة، ووقحة، وضيقة، وغبية، ولكنها تربوية ولذا ينبغي الحفاظ عليها والذود عنها»! أولاً: أية نفعية هذه في مثل هذه القضية، في مثل هذه المسألة؟ الأمر هنا نجده معكوساً: فالقضية التي يجب أن نُخضع لها كل شيء (إذا كان سيدني دوبّيل مهتماً بالفعل بالعقيدة) لا يُنظر إليها هنا سوى من وجهة نظر واحدة فحسب، هي وجهة نظر المنفعة

(*) سيدني تومبسون دوبّيل (1824-1874) شاعر إنكليزي. (ن).

التي تعود بها على الإنكليزي. ومن البديهي أن مثل هذه النفعية تساوي تلك الانغلاقية وتلك الاكتمالية اللا تربويتين، اللتين تتصف بهما الكاثوليكية، واللتين من أجلهما ينهال هذا البروتستانتي على المذهب الكاثوليكي باللعنات. أفلا تشبه هذه الكلمات تلك الآراء التي يعبر عنها «مفكرون سياسيون ودَوْلَويوّن[83] عميقون» في جميع البلدان ولدى جميع الشعوب، إذ يطلقون أحياناً تعابير حكيمة للغاية تقول مثلاً: «لا وجود للإله، طبعاً، والإيمان هراء، ولكن الدين ضروري لسواد الشعب، إذ لا يمكن ضبطه بدونه»*. ولعل الفرق الوحيد بينهما هو أن هذا الرأي الذي يعبر عنه الحكيم الدولوي ليس، في أساسه، أكثر من فجور بارد قاس، في حين أن سيدني دوبّيل هو صديق الإنسانية ولا همّ له سوى منفعتها. لكن بالمقابل نجد أن نظرته إلى «المنفعة» قيّمة: فكل المنفعة، كما يزعم، هي في أن البوابة مشرعة لدخول أي رأي وأي استنتاج إلى العقل وإلى القلب entrée et sortie libres (الدخول والخروج حر) لا شيء مغلق، ولا شيء مسيّج، ولا شيء مكتمل:

اسبح في بحر بلا شواطئ، وانقذ نفسك بالطريقة التي تشاء. إنه حكم واسع؛ واسع كالبحر الذي لا شواطئ له، وطبعاً «لا يمكن رؤية شيء في الأمواج»؛ ولكنه بالمقابل حكم قومي. أوه، نحن هنا إزاء إخلاص عميق، ولكن ألا ترون معي أن هذا الإخلاص يتاخم اليأس. ومن الطابعي[1] هنا أيضاً أسلوب التفكير؛ إن ما يفكر فيه هؤلاء الناس، وما يكتبونه، وما يهتمون به هناك في بلادهم أمر طابعي واسِمٌ: أفيمكن مثَلاً أن يُقْدِم كتابنا على الكتابة عن أمثال هذه الموضوعات الخيالية، وعلى الاهتمام بها، ورفعها إلى هذا المستوى السامي؟ يمكننا حتى أن نقول: إن نظرتنا نحن الروس أكثر واقعية، وعمقاً، وعقلانية بكثير من هؤلاء الإنكليز. ولكن الإنكليز لا يخجلون من قناعاتهم، ولا من رأينا فيها. ويصادفك أحياناً في إخلاصهم المفرط شيء ما يؤثر في النفس بعمق. وهاكم ما قاله لي، على سبيل المثال، أحد المراقبين المتبعين بانتباه لمثل هذه الظواهر في أوربا عن طابع تعاليم ومذاهب أخرى في إنكلترا تنتمي إلى النوع الإلحادي الخالص: «تَدْخُلُ الكنيسةَ فترى الصلاة الرائعة الجمال والجلال، والحلل النفيسة، والمباخر، والجو المهيب، والهدوء، وخشوع المصلين. إنهم يتلون الكتاب المقدس، والجميع يقتربون منه، ويقبلونه بحب وعيونهم مغشاة بالدموع. وأين تظن يجري كل هذا؟ إنه يجري في كنيسة للملحدين. كل المصلين هنا لا يؤمنون بالرب؛ فالعقيدة الإلزامية، والشرط الذي لابد منه للانتساب إلى هذه الكنيسة: هو الإلحاد. إذاً لماذا يقبلون الكتاب المقدس، ولماذا يصغون بخشوع عند تلاوته والدموع تترقرق في مآقيهم؟

(*) إشارة إلى أقوال فولتير المشابهة. (ن).

لأنهم عندما أنكروا الإله، عبدوا «الإنسانية». إنهم يؤمنون الآن بالإنسانية، وقد ألّهوا الإنسانية وعبدوها. وما الذي كان لدى الإنسانية أغلى من هذا الكتاب المقدس على مدى القرون الماضية؟ إنهم الآن ينحنون أمامه خُشّعاً بسبب حبه للإنسانية وبسبب حب الإنسانية له. لقد أحسن إليها طوال هذه القرون، وأسبغ عليها نوره كالشمس، وأنعم عليها بفيض من القوة والحياة، و«مع أن معناه الآن قد فقد»، إلّا أنهم إذ يحبون الإنسانية، ويَبَرّونها، لا يمكنهم أن يجحدوا فضله وينسوا إحسانه إليها...».

إن في هذا الكثيرَ مما يؤثر في النفس والكثير من الحماسة. وإنك لتجد هنا تأليهاً واقعياً للإنسانية، وحاجة مشبوبة إلى إظهار الحب لها؛ ولكن أي ظمأ هذا إلى الصلاة والعبادة،، أي توق إلى الإله والإيمان لدى هؤلاء الملحدين! وكم نجد هنا من اليأس؛ وأي حزن هذا، وأية جنازات! بدلاً من الحياة الفوّارة، النيّرة، التي تضج بفيض الشباب الغض ونبع القوة والأمل! ولكن هل هي جنازات حقاً أم قوة جديدة قادمة؟ هذا ما زال بالنسبة لكثيرين سؤالاً ينتظر جوابه. وسأبيح لنفسي هنا اقتباس مقطع من روايتي «المراهق» التي صدرت مؤخراً. لقد علمت بوجود كنيسة «الملحدين» هذه منذ أيام فقط، أي بعد مدة طويلة من انتهائي من كتابة روايتي ونشرها. وكنت قد كتبت فيها عن الإلحاد، ولكن هذا كان مجرد حلم يداعب خيال أحد الروس من زماننا؛ وهو إنسان ينتمي إلى جيل الأربعينيات، ومن ملّاكي الأراضي التقدميين السابقين، الذين كانوا يجمعون بين الأحلام النبيلة المشبوبة وعيش الحياة بأقصى درجات الرحابة الروسية. إن مَلّاك الأراضي هذا لا يؤمن أيضاً بأي إله، ولكنه يقدس الإنسانية «كما يجب أن يفعل كل إنسان روسي تقدمي». وهو يعبّر عن حلمه بمستقبل الإنسانية، عندما ستختفي لديها أية فكرة عن الإله؛ وهذا حسب مفهومه، سيحدث من دون شك وسيعم الأرض بأسرها.

«أتخيل يا عزيزي - شرع يتكلم وهو يبتسم ابتسامة حالمة - أن المعركة قد انتهت والصراع قد هدأ. فبعد التلاعن والتقاذف بكتل الوحل وتبادل الصفير حل الهدوء، وبقي الناس وحدهم كما كانوا يتمنون: فقد تركتهم الفكرة العظيمة السابقة؛ وغاب ينبوع القوة العظيم الذي كان حتى ذاك الحين يغذيهم، كما تغيب الشمس العظيمة الهادية، وكان هذا كأنه آخر أيام الإنسانية. وأدرك البشر فجأة أنهم بقوا وحيدين تماماً، ودهمهم شعور باليتم الشامل.

يا صغيري العزيز، أنا لم أستطع يوماً أن أتصور الناس جاحدين وأغبياء. وهم، إذ يتيتمون، سيسارعون إلى التلاصق بعضهم ببعض بمزيد من القوة والمحبة، وسيمسك بعضهم بأيدي بعض مدركين أنهم الآن لم يبق لهم أحد سوى ذواتهم. ستختفي فكرة الخلود العظمى،

وسيكون عليهم الاستعاضة عنها بغيرها. وكل الفيض العظيم من الحب الذي كان في السابق موجهاً نحو من كان هو الخلود، سيحوله الجميع نحو الطبيعة، نحو العالم، نحو البشر، نحو كل عشبة. سيحبون الأرض والحياة، حباً جامحاً، وبالقدر الذي سيعون فيه بالتدريج أنهم زائلون ومنتهون، وسيكون ذاك حباً خاصاً يختلف عن الحب السابق. وسيلاحظون ويكتشفون في الطبيعة ظواهر وأسراراً لم تكن في السابق تخطر لهم على بال، لأنهم سينظرون إلى الطبيعة بأبصار جديدة، وبنظرة العاشق إلى معشوقته، وعندما سيستيقظون سيسارعون إلى تبادل القبل ومشاعر المحبة، مدركين أن أيامهم قصيرة، وأنه لم يبق لهم إلّا هذا. سيعمل كل منهم في صالح الآخرين، وسيعطي كل منهم الجميع كل ما لديه، ولن يكون سعيداً إلّا بهذا. وسيعلم كل طفل ويشعر أن كل إنسان على الأرض هو بمثابة أبيه وأمه. وسيقول كل إنسان لنفسه وهو ينظر إلى الشمس الغاربة: «ليكن الغد آخر أيامي، ولكن إذ أموت أنا سيبقون كلهم، ومن بعدهم أبناؤهم». وهذه الفكرة، فكرة أنهم سيبقون وسيظلون متحابين، يخاف بعضهم على بعض، ستعوضهم عن فكرة اللقاء بعد الموت. أوه، إنهم سيسارعون إلى التّحاب لكي يطفئوا جذوة الحزن الكبير في قلوبهم. سيكون كل منهم معتزاً بنفسه وجريئاً عليها، ولكنه يخاف على الآخرين؛ كل واحد سيرتعش خوفاً على حياة وسعادة كل شخص آخر. سيحنو بعضهم على بعض، ولن يخجلوا من هذا كما الآن، وسيداعب أحدهم الآخر كالأطفال. وعندما يتقابلون سيتبادلون نظرات عميقة زاخرة بالمعاني، وستفيض نظراتهم بالحب والأسى...».

أليس في هذه الصورة المتخيلة بعض الشبه بـ«كنيسة الملحدين»، تلك الموجودة فعلاً.

اللورد ريدستوك

لنتحدث، بالمناسبة، عن هذه الطوائف. يقولون إن اللورد ريدستوك* موجود الآن عندنا في بطرسبورغ، وكان هذا اللورد قد قضى الشتاء بطوله عندنا منذ ثلاث سنوات داعيةً وواعظاً، وأنشأ ما يشبه طائفة جديدة. واتفق لي آنذاك أن استمعت إليه وهو يعظ في إحدى «الصالات»، ولم أجد لديه، كما أذكر، أي شيء متميز: لم يكن في كلامه ذكاء متميز أو إملال

(*) غرينويل والديغريف ريدستوك (1831-1913) داعية إنجيلي إنكليزي. (ن).

متميز. ومع ذلك فقد كان يفعل العجائب في قلوب الناس. كانوا يهفون إلى التقرب إليه، وينبهر به كثيرون أيما انبهار، ويروحون يفتشون عن الفقراء ليسارعوا إلى الإحسان إليهم، وتكاد تراودهم الرغبة في توزيع ممتلكاتهم. وعلى كل ربما كان هذا لا يحدث إلا عندنا في روسيا؛ أما في الخارج فإنه يكاد لا يُلحظ. ومن الصعب القول إن قوة جاذبيته تكمن كلها في أنه لورد وإنسان مستقل، وأنه يدعو إلى الإيمان «الخالص»، إيمان السادة. وفي الحقيقة فإن كل هؤلاء الدعاة - الطائفيين يهشمون دائماً، حتى وإن كانوا لا يريدون هذا، أنموذج الإيمان الذي تقدمه الكنيسة، ويقدمون أنموذجهم الخاص بهم. إن النجاح الحالي الذي يحرزه اللورد ريدستوك إنما يقوم على أساس واحد حصراً هو «انفرادنا»، هو انفصالنا عن تربتنا، عن أمتنا. وحقيقة الأمر أننا نحن، شرائحَ المثقفين في مجتمعنا، نشكل الآن «شُعَيْباً» غريباً تماماً، وصغيراً جداً، وتافهاً جداً، ولكن له عاداته الخاصة ومعتقداته البالية الخاصة به، التي يُنظر إليها على أنها من خصوصياته النوعية، ويتضح الآن أن لدى هذا «الشُّعَيْب» الصغير رغبة في أن يكون له حتى إيمانه الخاص به. يصعب الحديث عن خصوصية تعاليم اللورد وتحديد جوهرها. إنه إنكليزي، ولكنهم يقولون إنه لا ينتمي إلى الكنيسة الأنغليكانية، وأنه قطع صلته بها، وهو يدعو إلى تعاليم خاصة به. وهذا الأمر سهل في إنكلترا: فهناك، وفي أميركا أيضاً ربما كان عدد الطوائف أكبر مما هو في أوساط «سواد الشعب» عندنا. فثمة طوائف العدّائين، والارتعاشيين، والتشنجيين، والاهتزازيين (الكويكرز)، والذين ينتظرون «الألفية» وأخيراً هناك «أناس الرب» (الخليستيّون)[61]، (الطائفة العالمية الأقدم[84])، ولن نستطيع أن نعدد جميع الطوائف. وأنا، طبعاً، لا أتحدث عن هذه الطوائف من قبيل التهكم، واضعاً إياها جنباً إلى جنب مع اللورد ريد ستوك، ولكن من يتخلف عن الكنيسة الحقيقية، ويخترع كنيسة لنفسه، حتى وإن كانت تزهو بأبهى مظهر، لا بد من أن ينتهي إلى ما انتهت إليه هذه الطوائف. ولا داعي لأن يقطّب مُجِلّو اللورد: ففي الأساس الفلسفي لهذه الطوائف، لهولاء الارتعاشيين وأناس الرب (الخليستيين) تكمن أحياناً أفكار جدّ عميقة وقوية. يروون أن الخدم الأقنان لدى تتارينوفا[85] في قصر «ميخايلوفسكي» كانوا في العشرينيات تقريباً يشاركونها وضيوفها، الذين كان بينهم على سبيل المثال، أحد الوزراء آنذاك، استحضارَ الأرواح والتنبؤ بالمستقبل: أي أن الفكرة آنذاك كانت قوية، والاندفاع كان شديداً، والدليل على ذلك وجود مثل هذه الوحدة «غير الطبيعية» بين المؤمنين، علماً بأن طائفة تتارينوفا كانت، على ما يبدو، تعتنق مذهب «أناس الرب»، أو أنها كانت أحد تفرعاته التي لا تُحصى. وأنا لم أسمع ضمن الأحاديث التي تُروى عن اللورد ريد ستوك أنهم كانوا في مجلسه

يمارسون استحضار الأرواح والتنبؤ بالمستقبل (علماً بأن هذين الطقسين من أقدم الخواص الملازمة بالضرورة لجميع هذه الطوائف تقريباً أو، على الأقل، لأكثريتها الساحقة سواء في الغرب أو عندنا؛ فالهيكليّون[86] كانوا أيضاً يستحضرون الأرواح ويتنبؤون بالمستقبل، وهم أيضاً كانوا من أناس الرب (الخليستيين)، ولذا أُحرقوا، ثم عمد المفكرون والشعراء الفرنسيون فيما بعد إلى امتداحهم والتغني بمآثرهم قبل الثورة الأولى). إلّا أنني سمعت أن اللورد ريدستوك يشدد في تعاليمه على «نزول النعمة» الربانية، وأنه، حسب تعبير أحد الذين ينقلون عنه، يعتبر أن «المسيح في جيبه»*، أي أنه يتعامل مع المسيح والنعمة الربانية بخفة مفرطة. أمّا بصدد الحديث عن أنهم يرتمون على الوسائد** وينتظرون هبوط وحي ما من الأعلى، فإنني أعترف بعجزي عن فهم ما يتحدثون عنه. وهل صحيح أن اللورد ريدستوك ينوي الذهاب إلى موسكو؟ حبذا ألّا يعمد أحد من رجال الكهنوت عندنا في هذه المرة إلى موافقته على ما يدعو إليه. ولكن مع ذلك نراه يُدخل أعداداً كبيرة جداً في شيعته، ويثيرفي قلوب أتباعه مشاعر السماحة والسمو الأخلاقي. وهذا ما ينبغي أن يكون، على كل حال: فإذا كان الرجل مخلصاً حقاً ويدعو إلى عقيدة جديدة، فإنه لابد من أن يكون مأخوذاً بكل روح وحماسة مؤسس الطائفة. وأكرر أن القضية هنا هي في «انفرادنا» المحزن، وفي جهلنا حقيقةَ شعبنا، وفي قطيعتنا مع أصالتنا القومية، وفي مقدمة هذا كله فهمنا الضعيف التافه للأرثوذكسية. ومن اللافت أن صحافتنا لا تتحدث البتة تقريباً عن اللورد ريدستوك، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة.

كلمة عن تقرير اللجنة العلمية بخصوص الظواهر الروحانية

هل يشكل مستحضرو الأرواح «انفراداً»؟ أظن نعم. إن استحضار الأرواح الذي نشأ عندنا يهدد في المستقبل، حسبما أرى، بـ «انفراد» شديد الخطر والسوء. فالـ «انفراد» هو

(*) عبارة ساخرة مبنية على التلاعب بمغزى كون اللورد ريد ستوك يحمل دائماًالإنجيل في جيبه. (ن).
(**) المقصود: وسائد الأرائك، والعبارة مأخوذة مما نشرته بعض الصحف آنذاك. (ن).

تفرقة؛ وبهذا المعنى أقول: يلاحظ في استحضار الأرواح، الذي ما زال فتياً عندنا، عناصر قوية تنزع نحو تفاقم ظاهرة التفرقة بين الناس الروس، التي ما تنفك أصلاً تزداد شدة وتقدماً إلى الأمام. وإني لأشعر بحيرة وأسف شديدين عندما أقرأ أحياناً ما يكتبه بعض مفكرينا عن أن مجتمعنا نائم، غافل، كسول، لا مبالٍ؛ بالعكس، لم يلاحظ عندنا قبلاً في أي وقت مثل هذا القدر من القلق، والاندفاع المضطرب في اتجاهات مختلفة، والبحث عن شيء يمكن الركون إليه أخلاقياً، كما نلاحظ اليوم. فأية فكرة صغيرة، حتى وإن كانت في منتهى الرعونة، يمكنها أن تأمل بإحراز نجاح مؤكد إذا كانت توحي ولو ببصيص أمل بأنها تحل مشكلة ما. والنجاح يقتصر دائماً على «انفراد» زمرة ما جديدة من الناس. وهذه هي حالة نزعة استحضار الأرواح. وما أشد خيبة الأمل التي أصبت بها عندما قرأت أخيراً في صحيفة «الصوت» تقرير اللجنة الشهيرة، التي تحدث عنها الجميع بصوت عال وأعلنوا عنها بملء الصوت، حول الظواهر الروحانية التي كانت تُشاهد طوال الشتاء في منزل السيد أكساكوف*. وشدّ ما كنت أنتظر وآمل أن يهشم هذا التقرير ويسحق تلك النظرة الجديدة التي لا لزوم لها (بمعناها الغيبي). صحيح أنه لم تُلاحظ لدينا بعد، كما يبدو، أية نظريات في هذا المجال؛ بل كل ما يجري حتى الآن لا يتعدى «المشاهدات». ولكن هل الأمر هكذا في الحقيقة؟ يؤسفني أنني لا أملك الآن الوقت والمكان اللازمين لبسط فكرتي بمزيد من التفصيل. ولكن قد أُقدِم على الحديث من جديد عن مستحضري الأرواح في «يومياتي» التالية التي سأكتبها في نيسان. وعلى كل ربما أكون متجنياً في إداناتي لتقرير اللجنة: فليست هي المذنبة، طبعاً، في أنني غاليت في تعليق أملي عليها، وانتظرت منها الكثير الذي قد يكون مستحيلاً تماماً، وليس بمقدورها تقديمه أبداً. ولكن «التقرير»، على أيّ حال، يشكو من سوء الإنشاء، أو سوء الصياغة. فإنشاؤه يتصف بخاصية تجعل المعترضين عليه يجدون فيه موقفاً «مسبقاً» من القضية (ومن ثم بعيداً جداً عن النظرة العلمية)، مع أن اللجنة قد لا يكون لديها من هذا «الرأي المسبق» القدر الذي يسمح باتهامها به. (ولكن لا بد من أنه ثمة قدر قليل منه، إذ بغير ذلك لا تجوز الأمور عندنا على الإطلاق). بيد أن الصياغة متعثرة من دون شكي: فاللجنة تسمح لنفسها، على سبيل المثال، بأن تقدم استنتاجات عن ظواهر في هذا المجال (تَجسُّد الأرواح مادياً، على سبيل المثال) هي نفسها تعترف بأنها لم تشاهدها البتة. ولنفترض أنها فعلت هذا من باب تقديم الموعظة، أي بالمعنى الإرشادي التحذيري، مستبقة بذلك الظواهر، من أجل فائدة المجتمع، وإنقاذ الناس ذوي التفكير الطائش من الإغواء. إنها فكرة نبيلة، ولكن لا أظن أنها مناسبة في حالتنا هذه؛

(*) الكسندر أكساسوف: (1832-1903) داعية استحضار الأرواح في روسيا، ومؤلف كتاب «استحضار الأرواح والعلم». (ن).

وعلى كل لا بد من التساؤل هنا: أيمكن حقاً أن تكون اللجنة المؤلفة من كل هؤلاء العلماء قد راودها الأمل جدياً في خنق هذه الفكرة السخيفة في مهدها؟ هيهات! فحتّى لو كانت اللجنة قد قدمت أسطع البراهين الدامغة على «التزوير»، حتى ولو قبضت على «المحتالين» وفضحتهم فعلاً، وأمسكت بهم من أيديهم متلبسين، إذا جاز القول، (الأمر الذي لم يحدث البتة) فإن أحداً من المولعين باستحضار الأرواح، أو حتى الراغبين في الولوع به، لم يكن ليصدقها، وذلك بحكم القانون الأزلي الذي يحكم الطبيعة البشرية، والذي يجعل حتى أدق البراهين الرياضيّاتية لا تعني أي شيء في مجال الأفكار الغيبية. وهنا، في مجال استحضار الأرواح الناشئ عندنا هذا، أقسم على أن الفكرة الرئيسة المتصدرة هي فكرة غيبية لا غير، فما الذي يمكنكم أن تفعلوه إزاءها؟ الإيمان والبراهين الرياضيّاتية أمران لا يجتمعان، من يرد الإيمان لا يمكن صدّه؛ أضف إلى ذلك أن البراهين هنا بعيدة عن كونها رياضيّاتية.

ومع ذلك فإن التقرير كان يمكن أن يكون نافعاً. لقد كان يمكن أن يكون، من دون شك، نافعاً لجميع أولئك الذين لم يستجيبوا بعد للإغواء، ولا يزالون حتى الآن غير مبالين باستحضار الأرواح. أما الآن، وفي حالة وجود «إرادة الإيمان»، فإن هذه الإرادة ربما تكون قد زُوّدت بسلاح جديد. ثم إن لهجة التقرير المغالية في التعالي والازدراء كان بالإمكان تخفيفها؛ وفي الحقيقة يمكن أن يظن قارئ التقرير أن خصاماً شخصياً قد نشب لسبب ما، بين الجانبين الموقرين في أثناء المشاهدات. وتأثير هذا الأمر لن يكون في صالح «التقرير».

ظواهر مُفردة

ولكنّ ثمة نوعاً آخر من الظواهر يثير الفضول، ولا سيما في أوساط الشباب. وهذه الظواهر في الحقيقة، لا تزال حتى الآن مفردة؛ فإلى جانب القصص التي يروونها عن بعض الشبان التعساء الذين «يذهبون إلى الشعب»، نراهم يبدؤون برواية قصص عن شبان مختلفين تماماً. وهؤلاء الشبان الجدد قلقون أيضاً ويكتبون إلينا الرسائل، أو يأتون إلينا بأنفسهم مع أسئلتهم الحائرة، ومقالاتهم، وأفكارهم غير المتوقعة، التي لا تشبه على

الإطلاق تلك التي اعتدنا الوقوع عليها لدى الشباب. وعلى هذا فإننا نجد ما يدعونا إلى الافتراض أن حركة ما تبدأ في أوساط شبابنا معاكسة تماماً لما سبق. وهذا ليس مستغرباً، بل ربما كان هذا بالذات ما يجب أن نتوقعه. ولنتساءل بالفعل: أبناء من هم؟ إنهم أبناء أولئك الآباء «الليبراليين» بالذات، الذين عمدوا في بداية انبعاث روسيا، في العهد الحالي، إلى ان ينسلخوا بجملتهم عن القضية العامة، متصورين أن التقدم والليبرالية إنما يتجليان في هذا التصرف بالذات. ولكن – وبما أن كل هذا أصبح الآن، جزئياً، في عداد الماضي – تُرى أكان يوجد آنذاك الكثير من الليبراليين الحقيقيين؟ أكان يوجد آنذاك الكثير من الأشخاص النزيهين، المخلصين الذين يعانون معاناة حقيقية من أمثال الراحل بيلينسكي، على سبيل المثال، الذي لم يكن قد مضى على وفاته مدة طويلة حينئذ (هذا من دون أن نتحدث عن مدى ذكائه)؛ بالعكس، كان أولئك في أكثريتهم مجرد حشد فظ من الملحدين الضحلين، والوقحين الكبار، كانوا في جوهرهم، ليسوا أكثر من لصوص و«طغاة صغار»، ولكنهم كانوا يتبجحون بالليبرالية، التي كانوا يتحايلون ليصوروها لأنفسهم على أنها ليست سوى امتلاك الحق في تدنيس شرف الآخرين. وما أكثر ما كان يقال آنذاك وما كان يُزعم؛ ولم يكن يندر أن تُصوّر أخس الدنايا على أنها هي الشرف والمروءة. وفي الحقيقة كان هذا هو سوقية الشارع الفظة؛ لقد وقعت الفكرة الشريفة آنذاك في «الشوارعية». وعندئذ بالذات جاء تحرير الفلّاحين في الوقت المناسب، وجاء معه تفسخ و«انفرادية» مجتمعنا المثقف بجميع المعاني الممكنة. الناس لم يعودوا يعرفون بعضهم بعضاً، والليبراليون لم يعودوا يعرفون زملاءهم الليبراليين. وكم جرى بعد ذلك من حوادث سوء فهم محزنة، وخيبات أمل قاسية! الرجعيون الأكثر وقاحة كانوا في بعض الأحيان يقفزون فجأة إلى الأمام، بصفتهم تقدميين وقادة، وينجحون. فما الذي كان يمكن لكثير من الأبناء آنذاك أن يروا في آبائهم، وأية ذكريات يمكن أن تبقى لديهم عن طفولتهم وفتوتهم؟ الاستهتار الماجن والاستهزاء الوقح، والتطاول بغير رحمة على المعتقدات المقدسة الرقيقة الأولى لدى الأبناء؛ وبعد ذلك لا يندر أن تحتفظ ذاكرتهم بالفسق السافر الذي يمارسه الآباء والأمهات مع العمل على الإقناع بأن هذا هو ما ينبغي أن يكون، والتوجيه إليه وأن هذه العلاقات بالذات هي العلاقات الحقيقية «المعقولة». أضف إلى ذلك كثرةً من حالات الاضطراب، ومن ثم التبرم النزق، والكلمات الرنانة، التي لا تهدف سوى إلى إخفاء الغضب الضحل الأناني، الذي تثيره الإخفاقات المادية. وقد استطاع الفتيان أخيراً أن ينعموا النظر في كل هذا ويدركوا معناه! وبما ان الشباب نقي، ونيّر، وسمح النفس، فقد كان بالإمكان طبعاً، أن يحدث ما حدث، وهو أن يرفض بعض الفتيان السير وراء هؤلاء الآباء، وينبذوا إرشاداتهم

«المعقولة». وهكذا تمخضت مثل هذه التربية «الليبرالية» عن نتائج معاكسة تماماً، على الأقل في بعض الحالات؛ وربما كان هؤلاء الفتيان واليافعون بالذات يبحثون الآن عن سبل جديدة، بادئين مباشرة بمقاومة تلك المجموعة من الأفكار المقيتة التي تلقوها إبان طفولتهم في منازل آبائهم البائسة.

مُثُل الحياة النباتية الراكدة.
المستثمرون والمستغلون الريفيون.
كبار السادة الذين يسوقون روسيا.

نشرت صحيفة «البشير الروسي» في عدد آذار هذا العام «نقداً» مُوجّهاً إليّ، كتبه السيد أ. أَيْ. أفسيينكو[87] وليس ثمة جدوى من الرد على السيد المذكور: فمن الصعب أن نتصور كاتباً أقل تبصراً منه فيما يكتبه. وعلى كلّ فإنه لو تبصّر لما كانت النتيجة ستتغير. إن كل ما يمسّني في مقالته ينحصر ضمن موضوع واحد، هو أن من يجب أن ينحني أمام الآخر لسنا نحن، رجالَ الثقافة، أمام الشعب - وذلك لأن «المُثُل الشعبية هي، في أغلبيتها، مُثُل الحياة النباتية الراكدة»- بل بالعكس، فالشعب هو الذي يجب أن يتنور منا، نحن رجال الثقافة، ويستوعب فكرنا وصورتنا. وباختصار، فإن السيد أفسيينكو لم تعجبه كلماتي عن الشعب، التي نشرتها في يوميات شباط (فبراير). وأظن أن ثمة شيئاً واحداً غامضاً هنا أنا المسؤول عنه. والغموض يجب أن يُزال طبعاً، أما الرد على السيد أفسيينكو فأمر غير وارد قطعاً. فما الذي يمكن أن يجمع بينكم، على سبيل المثال، وبين شخص يفاجئكم بالحديث عن الشعب على النحو الآتي:

«على كتفيه (يقصد كتفي الشعب) وعلى صبره وتضحيته بنفسه، وعلى قوّته الحيّة، وإيمانه المتحمس، واستهانته السمحة بمصالحه الخاصة قام استقلال روسيا، وتكونت قوتها وقدرتها على أداء رسالتها التاريخية. لقد صان لنا نقاء المثل الأعلى المسيحي، والبطولة السامية والمستكينة بعظمتها، والسمات الرائعة للطبيعة السلافية، تلك السمات التي انعكست في نغمات شعر بوشكين المتوثبة، ثم ظلت على الدوام تغذي التيار الحي في أدبنا...».

وما إن كتب السيد أفسيينكو هذه الكلمات (أقصد نَقَلَها مما يكتبه السلافويون) حتى بادر في الصفحة التالية إلى الحديث عن الشعب الروسي بكلمات معاكسة تماماً:

«حقيقة الأمر هي أن شعبنا لم يعطنا المَثَل الأعلى للشخصية الفعالة. إن كل الرائع الذي نلاحظه فيه والذي عوّدنا أدبنا وفي هذا شرف عظيم له، أن نحبه فيه، لا يتعدى درجة الوجود العفوي والمعيشة المنغلقة الرعوية (؟)* أو الحياة السلبية. وما إن تتميز من الشعب شخصية فعالة نشطة حتى تفقد معظم سحرها، وغالباً ما تتخذ الفردانية هنا شكلاً غير جذاب هو شكل المستغل، والمستثمر الريفي الغني (الكولاك)، والمستبد برأيه. ولا يوجد في أوساط الشعب حتى الآن مُثُل عليا فعالة، أما الأمل بوجودها فإنما يعني الانطلاق من قيمة مجهولة، وربما وهمية».

إن كل هذا قد قيل رأساً بعد أن ورد في الصفحة السابقة أنه «على كتفي الشعب، وعلى صبره وتضحيته بنفسه، وعلى قوته الحيّة دائماً، وإيمانه المتحمس، واستهانته السمحة بمصالحه الخاصة، قام استقلال روسيا!» ولكن لا يمكن إظهار القوة الحيّة إذا كان الشعب سلبياً فقط! كما لا يمكن إقامة روسيا من دون إظهار القوة! ولإظهار الاستهانة السمحة بالمصالح الخاصة، لا بد حتماً من إظهار فعالية سمحة ونشيطة في صالح الآخرين، أي في الصالح العام، الأخوي. ولكي «يحمل الشعب على كتفيه» استقلال روسيا، لم يكن يجوز له، بحال من الأحوال، أن يجلس سلبياً في مكانه؛ بل كان لا بد له حتماً من أن ينهض ولو قليلاً من مجلسه، ويخطو ولو خطوة واحدة، لا بد له من أن يفعل شيئاً ما على الأقل؛ وها هو الكاتب لا يلبث أن يضيف أن الشعب ما إن يبدأ بفعل شيء ما حتى يبدو لنا على الفور «بأشكال غير جذابة تتجسد في المستغل أو المستثمر الريفي (الكولاك) أو المستبد برأيه». وهذا يعني أن المستثمرين الريفيين والمستغلين والمستبدين برأيهم هم الذين حملوا روسيا على أكتافهم. أي أن كل مطارنتنا المقدسين (الذائدين عن الشعب الروسي وبناة الأرض الروسية)، وكل أمرائنا الورعين، وكل أعياننا وأعضاء مجالس الدولة عندنا، أولئك الذين عملوا وخدموا روسيا حتى التضحية بالذات، والذين حفظ التاريخ لنا أسماءهم محاطة بهالة من الإجلال، إن كل أولئك لم يكونوا سوى مستغلين، ومستثمرين ريفيين، ومستبدين برأيهم. قد يقولون إن السيد أفسيينكو لا يتحدث عن أولئك، بل عن هؤلاء الحاليين، أما التاريخ فله شأن آخر خاص به، وكل هذا الذي تذكره هو من شؤون الماضي السحيق، ولكن في هذه الحالة ينتج لدينا أن شعبنا قد تغير وتقهقر؟ ثم عن أي شعب حالي يتحدث السيد أفسيينكو؟ ومن أين تبدأ هذه الحقبة الحالية؟ أمِن إصلاحات بطرس؟ من الحقبة الثقافية؟ من الاستعباد النهائي؟ ولكن في هذه الحالة يفضح السيد المثقف أفسيينكو نفسَه؛ فأي واحد سيقول له عندئذ: إن صيرورتك

(*) المقصود بالمعيشة الرعوية (idyllic) العيش المفعم بالرضا والطمأنينة. وإشارة الاستفهام من وضع دوستويفسكي. (م).

مثقفاً قد أدت بالمقابل إلى إفساد الشعب وتحويله إلى مستثمرين ريفيين ومحتالين ليس غير.
أَوَ حقاً أنك إلى هذا الحد «تملك موهبة رؤية السيئ فقط»* يا سيد أفسيينكو؟ اَمِنَ المعقول أن شعبنا المستعبد من أجل اكتسابك الثقافة (على الأقل حسب نظرية الجنرال فاديف)** لم يستحق منك، أنت الإنسان المثقف، بعد مئتي سنة من العبودية، سوى هذه البصقة المتعجرفة المتمثلة في الحديث عن المستثمرين الريفيين والمحتالين بدلاً من الشكر، أو حتى الشفقة (أما مدحك إياه آنفاً فإنني أسقطه من الحساب كلياً لأنك دمرته في الصفحة التالية بالضبط).
إنه من أجلك ظل مئتي سنة مقيد اليدين والقدمين كي يأتيك العقل من أوربا، وها أنت الآن بعد أن أتاك من أوربا العقل (؟)، تقف أمام المُقيَّد واضعاً يديك على خصرك، وناظراً إليه من عليائك الثقافية؛ وفجأة تعرب عن رأيك فيه قائلاً: «إنه سيئ وسلبي وقليل الفعالية (علماً بأنه مقيَّد)، ولم يُظهر سوى بضع فضائل سلبية، ومع أن هذه الفضائل قد غذّت الأدب بأنساغ حية، إلّا أنها في جوهرها لا تساوي قرشاً صَدِئاً، لأن الشعب ما إن يبدأ الفعلَ حتى يتخذ على الفور صورة المستثمر الريفي والمحتال». لا... لم يكن ينبغي لي أن أرد على السيد أفسيينكو، وإذا كنت أرد فإنني لا أفعل ذلك سوى لأعترف بهفوة ارتكبتها شخصياً وسأتحدث عنها تالياً.
ومع ذلك، وبما أن الحديث قد وصل بنا إلى هذا الحد، لا أرى من نافل القول إعطاء القارئ فكرة أولية عن السيد أفسيينكو. إنه ككاتب يجسد نموذجاً ثقافياً صغيراً من نوع خاص يتسم بكثير من الطرافة كموضوع للمراقبة، كما أن له بعض الأهمية العامة؛ وهو أمر سيئ جداً.

النماذج الثقافية الصغيرة.
المعطوبون

السيد أفسيينكو يكتب النقد منذ مدة طويلة، وأنا أعترف آسفاً بأنني ظللت عدة سنوات أعلق عليه بعض الآمال: كنت أقول لنفسي: «سيستنزف كل قدراته الكتابية، وسيقول شيئاً ما»؛ ولكن معرفتي إياه كانت قليلة. وظللت على جهلي هذا حتى صدور عدد تشرين الأول

(*) «...تملك موهبة رؤية السيئ فقط...» اقتباس من أمثولة إي. أ. كريلوف: «الخنزير». (ن).
(**) روستيسلاف فاديف (1842-1883) جنرال متقاعد، كاتب مقالات محافظ. (ن).

(اكتوبر) من صحيفة «البشير الروسي» لعام 1874، حيث قال السيد أفسيينكو فجأة في مقالته عن مسرحيات بيسيمسكي الكوميدية والدرامية: «...غوغول جعل كتابنا يتهاونون كثيراً بمضمون الأعمال الداخلي، ويعتمدون اعتماداً مبالغاً فيه على فنيّة العمل وحدها. وقد تبنّى مثل هذه النظرة إلى مهمة الفن الحكائي كتّاب كثيرون جداً في الأربعينيات عندنا، وإلى هذه يعود جزئياً سبب افتقار أدب تلك السنوات إلى المضمون الداخلي!».

إذاً فأدب الأربعينيات كان يفتقر إلى المضمون الداخلي! لم أكن أتوقع أن أسمع طوال حياتي مثل هذا الخبر الغريب. ذاك الأدب نفسه الذي أعطانا مؤلفات غوغول بكاملها، وملهاته «الزواج» (الفقيرة بالمضمون الداخلي، أوّاه!)، وأعطانا بعد ذلك روايته «النفوس الميتة» (الفقيرة بالمضمون الداخلي؛ لو أن الرجل قال أي شيء آخر، لو أنه قال أول كلمة خطرت بباله، لكان أفضل من قوله هذا). ثم أنتج ذاك الأدب تورغينف، ومجموعة أقاصيصه «مذكرات صياد» (وهذه أيضاً فقيرة بالمضمون الداخلي؟) ثم غونتشاروف، الذي كتب في الأربعينيات «أبلوموف» ونشر آنذاك أفضل مشهد فيها «حلم أبلوموف»، الذي قَرأته روسيا كلها بإعجاب! إنه ذاك الأدب الذي أعطانا في النهاية أوستروفسكي[19]؛ وعلى نماذج أوستروفسكي بالذات ينهال السيد أفسيينكو في مقالته المذكورة ببصاق الاحتقار:

«تبيّن أن عالم الموظفين ليس ميسور التناول تماماً لكتّاب المسرح الساخر، وذلك بحكم أسباب خارجية؛ لذا فقد اندفع كتّاب الكوميديا عندنا باجتهاد وحماسة نحو عالم تجّار زاموسكفوريتسكويه وأبراكسين*، نحو عالم الحاجّات الجوالات، والخاطبات، وكتبة الدواوين السكيرين، والوكلاء الأقنان عند ملّاك الأراضي، والمرتّلين في الكنائس، والفلّاحين الذين يقصدون بطرسبورغ للتكسب مؤقتاً. لقد ضاقت مهمة الكوميديا إلى حد غير معقول حتى وصلت، إلى نسخ لغة الجهلة المخمورين، وتصوير التصرفات الوحشية المستغربة، والنماذج والطباع الفظة التي تهين المشاعر الإنسانية. لقد سادت على خشبة المسرح بلا منازع الدراما الاجتماعية المعيشية، ولكنها ليست تلك الدراما الاجتماعية المعيشية البرجوازية(؟) الدافئة، المرحة، والآسرة أحياناً كما نراها في المسرح الفرنسي (إنها فوديفيل لا أكثر: أحدهم يتسلل إلى تحت الطاولة، وآخر يشده من رجله)** بل هي دراما معيشية جلفة، قذرة، مثيرة للاشمئزاز. بعض الكتّاب كالسيد أوستروفسكي على سبيل المثال، أضفوا على هذا الأدب الكثير من الموهبة والعاطفة القلبية، وروح الفكاهة، ولكن

(*) أبراكسين: مركز تجاري سابقاً في شارع سادوفايا في بطرسبورغ. (ن). وزاموسكفوريتسكويه (ما وراء نهر موسكو) حي في موسكو. (م).

(**) اقتباس غير دقيق من ملهاة غوغول «جولات المسرح». (ن).

مسرحنا على العموم هبط بالمستوى الداخلي إلى أدنى درجة، وسرعان ما تبين أنه لا يملك أي شيء يقوله للشريحة المتعلمة في المجتمع وأنه لا علاقة له بهذه الشريحة».

وهكذا فإن أستروفسكي هبط بمستوى المسرح. وأوستروفسكي لم يقل شيئاً للشريحة «المتعلمة» في المجتمع! وعلى هذا فإن الفئات غير المتعلمة في المجتمع هي التي أُعجبت بأستروفسكي في المسرح، وانكبّت على قراءة مؤلفاته. أوه، أجل إن الشريحة المتعلمة، لو تعلمون كانت تذهب آنذاك إلى مسرح ميخايلوفسكي، حيث كانت تعرض تلك «الدراما الاجتماعية البرجوازية، الدافئة، المرحة الآسرة جداً أحياناً، كما نراها في المسرح الفرنسي»؛ أما لوبيم تورتسوف* فهو «جلف، قذر». تُرى عن أية شريحة متعلمة يتحدث السيد أفسيينكو، ليتنا نعرف؟ إن القذارة ليست في لوبيم تورتسوف: فهو «نقي روحياً»، وربما كانت هذه القذارة توجد هناك بالذات، حيث تسود تلك «الدراما المعيشية البرجوازية الدافئة، الآسرة جداً أحياناً، كما نراها في المسرح الفرنسي». ثم ما هذه الفكرة التي تدّعي أن الفنيّة تنفي المضمون الداخلي؟ بالعكس، إنها تقدمه بأعلى درجاته: إن غوغول في «مراسلاته»** ضعيف، على الرغم من أنه طابعي[1]. وغوغول في تلك الأماكن من «النفوس الميتة» التي يكف فيها عن كونه فناناً، ويشرع في بسط محاكماته الذاتية، ليس ضعيفاً فحسب، بل غير طابعي أيضاً، في حين أن مؤلفاته الإبداعية ومسرحيته «الزواج»، وروايته «النفوس الميتة» من أكثر الأعمال عمقاً، ومن أغناها بالمضمون الداخلي، وذلك بالذات من حيث النماذج الفنية المصورة فيها. إن هذه الصور الفنية تكاد تسحق العقل بمسائل شديدة العمق تفوق طاقته، وتثير في العقل الروسي أفكاراً مقلقة إلى أقصى حد، يشعر المرء أن تَدَبُّرها يتعذر الآن، وأن أوانه ما يزال بعيداً؛ هذا إذا كان أمر تدَبُّرها ممكناً في وقت من الأوقات. أما السيد أفسيينكو فإنه لا يفتأ يصرخ أن «النفوس الميتة» خالية من المضمون الداخلي! وهاكم مسرحية «الويل من العقل»[88]، من المعروف أن قوتها تنحصر في تصوير النماذج والطباع الفنية الساطعة الملامح، وليس ثمة ما يعطيها كل مضمونها الداخلي سوى الجهد الفني؛ وما إن يتخلى «غريبوييدوف» عن دور الفنان، ويبدأ يبسط آراءه الشخصية ومحاكماته الفكرية الذاتية (على لسان «تشاتسكي»***، أضعف أنموذج في الملهاة) حتى ينحدر إلى مستوى لا يحسد عليه البتة، أخفض بما لا يقاس حتى من ممثلي مثقفينا في تلك الأيام. إن مواعظ تشاتسكي أخفض بما لا يقاس من الملهاة نفسها، وبعضها ليس أكثر من هراء محض. وعلى هذا فإن كل عمق

(*) لوبيم تورتسوف: إحدى الشخصيات الرئيسة في ملهاة أ. ن. أوستروفسكي «الفقر ليس عيباً». (ن).

(**) المقصود مُؤلَّف غوغول: «مقاطع مختارة من المراسلات مع الأصدقاء». (م).

(***) الشخصية الرئيسة في ملهاة «الويل من العقل». (م).

العمل الفني المذكور، وكل مضمونه، إنما ينحصران في النماذج والطباع فحسب؛ وعلى العموم هذا ما تكون عليه الأمور دائماً تقريباً.

وهكذا فإن القارئ يرى مع أي ناقد يتعامل، وها أنا من هنا أسمع أسئلة تُوَجّه إليّ: إذاً لماذا تتعامل معه أنت؟ وأكرر ثانية: إنني أريد أن أبيّن الخطأ الذي ارتكبته، وأنا الآن أتحدث عن أفسيينكو- كما سبق وقلت، ليس بصفته ناقداً؛ بل بصفته ظاهرة أدبية مفردة، ومثيرة للفضول. إنه نموذج من طراز خاص، وهو مفيد لي. لقد ظللت وقتاً طويلاً لا أفهم السيد أفسيينكو- ولا أقصد هنا مقالاته، فمقالاته كانت دائماً غير مفهومة لدي، ثم إنها أصلاً لا تحتوي على شيء يمكن للمرء أن يفهمه أو لا يفهمه -، ومنذ أن ظهرت مقالته في عدد تشرين الأول (أكتوبر) عام 1874 من مجلة «البشير الروسي» نفضت يدي منه نهائياً؛ وكنت دائماً على العموم أتساءل بحيرة عميقة: كيف يمكن أن تنشر - مجلة رصينة مثل «البشير الروسي» مقالات مثل هذا الكاتب المتناقض؟ وفجأة حدثت حادثة كوميدية؛ وإذا بي أفهم فجأة السيد أفسيينكو: فقد بدأ فجأة في بداية الشتاء ينشر روايته «درب التبانة» (لماذا توقف نشر هذه الرواية!) وبيّنت لي هذه الرواية فجأة نموذج الكاتب أفسيينكو كاملاً.، أنا، على العموم لا يليق بي أن أتحدث عن الرواية: فأنا نفسي روائي، ولا يصح أن أنتقد زميلاً لي. ولذا فإنني لن أنتقد الرواية على الإطلاق، وخصوصاً لأنها أبهجتني حقاً بضع دقائق. فهناك، مثلاً البطل الشاب، الأمير، في دار الأوبرا، في الشرفة، وهو ينشج على مسمع من الملأ من شدة تأثره بالموسيقا، وسيدة من المجتمع الراقي تقترب منه وتسأله بحنان: «أتبكي؟ أتبكي؟». ولكن القضية ليست في هذا البتة، بل في أنني فهمت حقيقة الكاتب: إن السيد أفسيينكو، كاتباً، يمثل شخصية أضاعت نفسها في تأليه المجتمع الراقي. إنه باختصار ركع بخشوع أمام القفازات والعربات، والعطور، وأدهان التجميل، والفساتين الحريرية (وخصوصاً لحظة يحفّ الفستان عند قدمي السيدة وجذعها وهي تقعد على الكنبة)، وأخيراً أمام الخدم الذين يستقبلون السيدة عندما تعود إلى المنزل بعد مشاهدة أوبرا إيطالية. إنه يكتب عن كل هذا باستمرار، وبإجلال وورع وخشوع كخشوع المصلي، أو بكلمة واحدة، كما لو أنه يؤدي شعيرة دينية. لقد سمعت من يقول (ولا أدري، ربما من باب التهكم) إن هذه الرواية قد كُتِبَتْ لتصحيح ما فعله ليف تولستوي، الذي اتخذ موقفاً مغالياً في الموضوعية من المجتمع الراقي في روايته «آنا كارينا»، بينما كان عليه أن يتخذ موقفاً أكثر خشوعاً وتبجيلاً، ومن البدهي أن كل هذا لم يكن يستحق أن نتحدث عنه على الإطلاق، لو لم يَتَجَلَّ لنا هنا، كما سبق أن قلت، نموذج ثقافي جديد. فقد تبين لنا هنا أن الناقد أفسيينكو يرى في العربات الفارهة، وفي أدهان التجميل، وخاصة في استقبال الخدم للسيدة، كل مهمة الثقافة، وتمام بلوغ الغاية، واكتمال حقبة مئتي سنة من فسادنا ومعاناتنا، ويرى هذا

لا ضاحكاً مازحاً، بل متملياً مستمتعاً. إن جدية هذا التملّي وكونه صادقاً يشكلان إحدى هذه الظواهر التي تثير الفضول إلى أبعد حد. والمهم هنا هو أن السيد أفسيينكو، ككاتب، ليس وحيداً في موقفه هذا. وقد سبقه «يوفينالات الصُّدْرات الخاميّة القساة»[89]، ولكنهم لم يصلوا قط إلى هذه الدرجة من الخشوع. ولنفترض أنهم ليسوا جميعاً على شاكلته، ولكن مصيبتي في أنني أخذت أخيراً أقتنع شيئاً فشيئاً بأن ثمة كثرة فائقة من أمثال ممثلي الثقافة هؤلاء في الأدب وفي الحياة، وإن لم يكونوا نموذجيين إلى درجة النقاء الذي لا تشوبه شائبة. وأعترف بأنني شعرت كأن غشاوة أزيحت عن بصري: فبعد هذا أصبح مفهوماً، بالطبع، ذاك الهجاء الموجه إلى أستروفسكي، وتلك «الدراما المعيشية البرجوازية الدافئة المرحة، والآسرة أحياناً، كما نراها في المسرح الفرنسي». إيه، الأمر هنا لا علاقة له البتة بأستروفسكي ولا بغوغول، ولا بالأربعينيات عموماً (وما لزومها هنا أصلاً!)، الأمر هنا ببساطة هو في مسرح ميخايلوفسكي البطرسبورغي، الذي يرتاده أبناء المجتمع الراقي، وفي عرباتهم الفارهة؛ وهذا هو كل شيء، هذا هو الذي اجتذب الكاتب واستحوذ عليه بقوة لا ترحم، وأغواه وأدار رأسه، وأَسَر لُبَّه إلى الأبد.، أكرر ثانية أنه لا يجوز أن ننظر إلى هذا الأمر من الوجهة الكوميدية فقط، فهو جدير بأن نوليه اهتماماً أكبر بكثير. الأمر بإيجاز أن الكثير مما يحدث هنا سببه هوس من نوع خاص، ويكاد يكون ضعفاً مَرَضيّاً يستوجب الرأفة. ها هي عربة فارهة من الوسط الراقي، على سبيل المثال، تسير باتجاه المسرح: انظروا إليها كيف تتهادى، وكيف ينفذ النور من المصابيح عبر نوافذها فيبهج السيدة التي تجلس في داخلها: هذا ليس ريشة تكتب، بل هو صلاة، والتعاطف معه واجب! وبالطبع، يتباهى كثيرون منهم أمام الشعب بما هو أسمى من القفازات، ويتسم كثيرون منهم بليبرالية مفرطة، ويكادون يكونون جمهوريين، ولكن بين فينة وأخرى يظهر فجأة شخص يُجلّ القفازات. هذا الضعف، وهذا الهوس بمفاتن المجتمع الراقي، وما يُقدَّم في حفلاته الراقصة من قواقع فاخرة، وبطيخ سعر الواحدة منه مئة روبل*، هذا الهوس، أياً كانت درجة براءته فقد خلق، عندنا مثلاً، أنصاراً لنظام القنانة من نوع خاص بين شخصيات لم يكن لديهم أقنان قط؛ ولكن بما أنهم ذهبوا إلى أن العربات الفارهة ومسرح ميخايلوفسكي هما خاتمة الحقبة الثقافية في التاريخ الروسي فقد استحالوا فجأة إلى أنصار لنظام القنانة عن قناعة تامة. ومع أنهم لا يفكرون إطلاقاً في استعباد أحد من جديد، فإنهم، على الأقل، يبصقون على الشعب بكل صراحة، متخذين في أثناء ذلك سَمْتَ من يحوز حقاً ثقافياً كاملاً في ذلك. وهاهم ينهالون عليه بأعجب التُهم: يلقبون المقيَّد طوال مئتي سنة بالسلبي، ويتهمون الفقير

(*) إشارة إلى تفصيلات معيشية وردت في رواية بوشكين الشعرية «يفغيني أونيغن»، ومسرحية غوغول «المفتش العام». (ن).

الذي كانوا يغتصبون منه جِزْيّة بالقذارة؛ ويتهمون من لم يعلموه شيئاً بالجهل؛ ويتهمون المضروب بالعصيّ بجلافة الطباع ونراهم أحياناً مستعدين لاتهام هؤلاء بأنهم لا يستعملون أدهان التجميل، ولا يصففون شعورهم في صالونات الحلاقة في شارع «بولشايا مورسكايا»*.
وليس في هذا أية مبالغة، بل هو الواقع حرفياً. وفي هذا بالذات، أي في أنه ليس هناك أية مبالغة، تكمن القضية كلها. إن نفوسهم تطفح بالاشمئزاز من الشعب، وإذا ما امتدحوه مرة، من باب السياسة، فإن هذا لا يتعدى صَفَّ عبارات رنانة لا أكثر، من قبيل الحرص على اللياقة، وهي عبارات لا يفهمون منها هم أنفسهم أية كلمة، لأنهم لا يلبثون أن يناقضوا أنفسهم بعد بضعة أسطر. وبالمناسبة أتذكر الآن حادثة وقعت لي منذ سنتين ونصف. كنت مسافراً في القطار إلى موسكو، وفي الليل جرى حديث بيني وبين جاري في العربة، وهو من ملّاكي الأراضي. شخص ضئيل هزيل حسبما كان يبدو لي من خلال العتمة، في الخمسين من عمره، ذو أنف أحمر ومنتفخ بعض الشيء، ويبدو أنه يشكو من مرض في ساقيه. كان الرجل جدَّ مهذب، سواء في تصرفاته، أو حديثه أو أحكامه، وكان ما يقوله ينم على ذكاء بالغ. تحدث عن الوضع الصعب وغير الواضح الذي تعيشه فئة النبلاء، وعن الفوضى العجيبة في اقتصاد روسيا بأسرها، وكان يتكلم من دون سخط تقريباً، ولكن بنظرة صارمة إلى المسألة؛ وقد أثار حديثه اهتمامي أيما إثارة. وماذا تظنون حدث بعد ذلك: فجأة وفي سياق الحديث، ومن دون أن يلاحظ ذلك على الإطلاق، قال إنه يَعُدّ نفسه، حتى من الناحية الفيزيائية، أسمى من الفلاح بما لا يقاس، وإن هذا الأمر، طبعاً، غير قابل للنقاش.

سألته مستوضحاً:

– أي إنك تريد أن تقول إنك هكذا بصفتك أنموذجاً للإنسان المتعلم والمتطور أخلاقياً؟

– لا، على الإطلاق، أنا لا أقصد البتة الطبيعة الأخلاقية وحدها، بل أنا أسمى منه بطبيعتي الفيزيائية، إنني جسدياً أسمى وأفضل من الفلاح، وقد تأتّى هذا من أننا أعدنا تربية أنفسنا خلال أجيال عديدة إلى أن تحولنا إلى أنموذج أسمى.

ولم يكن ثمة لزوم للجدال. فهذا الرجل الضئيل الضعيف ذو الأنف الأحمر المصاب بداء الخنزير، والساقين العليلتين (ربما كان مصاباً بالنقرس، وهو من أمراض فئة النبلاء)، كان يَعُدّ نفسه بكل صدق وإخلاص أسمى وأروع فيزيائياً، جسدياً، من الفلاح! وأكرر أنه كان يتحدث من دون أي شعور بالسخط، ولكن ألا توافقونني على أن هذا الإنسان اللاساخط، قد

(*) شارع «بولشايا مورسكايا» (الذي سمي فيما بعد شارع غيرتسين) يقع في أحد الأحياء الارستقراطية في بطرسبورغ. (ن).

يُقْدِم فجأة، في بعض الأحيان، وحتى في حالة انعدام السخط لديه، على ارتكاب ظلم شنيع بحق الشعب، بكل براءة وهدوء وصدق مع النفس، وما ذلك إلا لأنه ينظر إلى الشعب نظرة احتقار، نظرة لا واعية تقريباً، تكاد تكون مستقلة عن إرادته.

ومع ذلك فإن عليّ أن أصحح الخطأ الذي ارتكبته. كنت قد كتبت آنذاك عن مُثُل الشعب العليا، وعن أننا نحن «الأبناء الضالين، عندما نعود إلى البيت، يجب علينا أن ننحني أمام الحقيقة الشعبية، وألا ننتظر إلّا منها وحدها الفكرة والصورة. ولكن من جهة أخرى يجب على الشعب بدوره أن يأخذ منّا شيئاً مما أحضرناه معنا، وإن هذا «الشيء» موجود فعلاً، وليس سراباً، وله صورته، وشكله ووزنه، أما إذا لم نتفق، فمن الأفضل أن نفترق ونهلك كلانا مُنْفَصِلَيْن». وها أنا الآن أرى أن كل هذا قد بدا للجميع غير واضح. فأولاً، أخذوا يسألون: ما هي هذه المثل الشعبية العليا التي علينا أن ننحني أمامها؟ وثانياً، ما الذي أقصده بذاك الشيء الثمين الذي أحضرناه معنا، والذي يجب على الشعب أن يتقبله منا؟ sine non qua؟* وأخيراً، أليس من الأنسب أن يكون من ينحني أمام الآخر ليس نحن أمام الشعب، بل الشعب أمامنا، لسبب واحد فحسب هو أننا نحن: أوربا، وأناس حضاريون؛ أما هو فليس سوى روسيا، وكيان سلبي؟ من المؤكد أن السيد أفسيينكو يحل المسألة على هذا النحو، ولكنني لا أريد الآن أن أرد على السيد أفسيينكو وحده، بل على جميع الأشخاص «الحضاريين» الذين لم يفهموني، بدئاً بـ «يوڤينالات الصُّدْرات الخاميّة القساة»[89] ووصولاً إلى أولئك الذين أصبحوا سادة مؤخراً، واعلموا أنه ليس لدينا على الإطلاق ما نحافظ عليه. والآن هيّا بنا إلى لب القضية؛ لو أنني لم أسعَ آنذاك إلى الإيجاز، وشرحت الأمر على نحو أكثر تفصيلاً، لكان من الممكن، بالطبع، عدم الاتفاق معي، ولكن بالمقابل كان لايمكن تحريف ما قلته، وكان سيتعذر اتهامي بالغموض:

تضارب النقاط الجدلية وعدم دقتها

يعلنون لنا مباشرة أن الشعب ليست لديه أية حقيقة، وأن الحقيقة هي في الثقافة فقط،

(*) ولا بد من هذا (باللاتينية). (ن).

وتحافظ عليها الشريحة العليا من الناس المثقفين؛ ولكي أكون أميناً تماماً سآخذ ثقافتنا الأوربية الغالية هذه بأسمى معانيها، لا بمعنى العربات الفارهة والخدم الوصفاء فقط، سآخذها بمعنى أننا قد تطورنا روحياً وخُلُقياً، بالقياس إلى الشعب، وغدونا بشراً، واكتسبنا الصفات الإنسانية السامية، وحُزنا بهذا شرف الامتياز التام عن الشعب. وإنني، إذ أُدلي بهذا التصريح المنزه عن المحاباة، أسأل نفسي مباشرة: «أَمِنَ الأكيد أننا جيدون إلى هذا الحد، وأننا مُتَثَقِّفون على نحو لا يشوبه خطأ، وأن الثقافة الشعبية ينبغي نبذها، وثقافتنا ينبغي الانحناء أمامها؟ وأخيراً، ما الذي أحضرناه معنا بالضبط من أوربا للشعب؟».

ولكن قبل أن أجيب عن هذه الأسئلة، وتوخياً لضبط الأمور، دعونا نستبعد أي حديث عن العلم، مثلاً، وعن الصناعة وما شابه ذلك، مما يمكن لأوربا أن تفخر به، عن حق، على وطننا. وهذا الاستبعاد سيكون صائباً تماماً، لأن القضية الآن ليست في ذلك البتة، لا سيما أن العلم موجود هناك، في أوربا، بينما نحن، أي الشرائح العليا من المتثقفين في روسيا، لم نتألق بعد كثيراً في مضمار العلم، بصرف النظر عن خبرة المئتي عام، ومن المبكر، على كل حال، الانحناء أمامنا، نحن الشريحة المتثقفة، لما أنجزناه في مضمار العلم. وعلى هذا فإن العلم لا يشكل البتة أي فارق جوهري وثابت بين طبقتي الناس الروس، أي بين الشعب البسيط، والشريحة المتثقفة العليا؛ وأكرر مرة أخرى أن الذهاب إلى أن العلم فارق جوهري رئيس بيننا وبين الشعب غير صحيح على الإطلاق، وهو طرح خاطئ، إذ ينبغي البحث عن الفارق في أمر آخر تماماً. أضف إلى ذلك أن العلم قضية عامة شاملة، ولم يخترعه شعب واحد في أوربا، بل جميع الشعوب، بدءاً من العالم القديم، وهو قضية متواصلة متوارثة. والشعب الروسي لم يكن قط عدواً للعلم؛ وفضلاً عن ذلك فإن العلم قد وصل إلينا قبل عهد بطرس. وقد بذل القيصر إيفان فاسيليفتش* كل ما بوسعه للاستيلاء على ساحل البلطيق قبل بطرس بمئة وثلاثين عاماً. ولو أنه استولى عليه، واستحوذ على موانئه ومرافئه لكان بنى سفناً له حتماً، كما فعل بطرس فيما بعد؛ وبما أن بناءها متعذر بغير علم، فقد كان من المحتم أن يأتي العلم من أوربا، كما حدث في عهد بطرس. إن أمثال بوتوغين[54] عندنا يشوهون سمعة شعبنا، ويسخرون منه، وذلك بزعمهم أن الروس لم يخترعوا سوى السماور؛ ولكن من المستبعد أن ينضم الأوربيون إلى جوقة أمثال بوتوغين هؤلاء. ومن الواضح جداً والمفهوم جداً أن كل هذا إنما يجري وفق قوانين معروفة تحكم الطبيعة والتاريخ، وأن السبب في قلة ما حققناه في مجالي العلم والصناعة لا يعود إلى الشح في الذكاء لدى الشعب الروسي، ولا إلى تدني قدراته، ولا إلى الكسل الشائن. ثمة شجرة تنمو خلال عدد معين من السنين، وشجرة أخرى تنمو خلال

(*) هو إيفان الرابع (الرهيب) (1530-1584) أول قيصر روسي. (ن).

ضعف هذا العدد؛ وكل شيء هنا رهن بالكيفية التي وَضَعَت الطبيعةُ والظروفُ الشعبَ فيها، وبما كان عليه أن يفعله قبل كل شيء. إن الأسباب هنا جغرافية، وإثنوغرافية، وسياسية، ثمة آلاف الأسباب،، وكلها واضحة ودقيقة. لا أحد من ذوي العقل السليم يمكن أن يلوم أو يعيب شخصاً في الثالثة عشرة من عمره لأنه ليس في الخامسة والعشرين. يدّعون أن «أوربا أكثر نشاطاً وذكاء من الروس السلبيين، ولذا فإنها قد اخترعت العلم، أما هم فلم يفعلوا»؛ ولكن في الوقت الذي كانوا فيه هناك يخترعون العلم، كان الروس السلبيون يبدون نشاطاً لا يقل إدهاشاً: كانوا ينشؤون قيصريةً*، وقد حققوا وحدتها عن وعي. وكانوا طوال الألف سنة يصدّون هجوم أعداء شرسين، ولولاهم لانقضّ هؤلاء على أوربا أيضاً. وقد استعمر الروس مناطق نائية جديدة من وطنهم الممتد إلى ما لا نهاية، وحموا أطراف بلادهم وحصنوها على نحو لم نكن نحن المثقفين، لنجيده الآن بل بالعكس، كنا على الأرجح، سنضعف تحصينها. وهكذا ظهرت عندنا في نهاية المطاف، وبعد ألف سنة، قيصريةٌ، ووحدة سياسية لا مثيل لها في العالم حتى الآن، إلى حد أن إنكلترا والولايات المتحدة، وهما الدولتان الوحيدتان اللتان بقيتا تتمتعان بوحدة سياسية متينة وذات نوعية خاصة، ربما تكونان متخلفتين عنا جداً في هذا. ولكن بالمقابل تطَوّر العلم في أوربا ضمن ظروف سياسية وجغرافية أخرى. وبالمقابل أيضاً تزعزعت مع نمو العلم وتوطده هناك أركان الحالة الأخلاقية والسياسية في كل مكان تقريباً في أوربا. وعلى هذا فإن لكل طرف مزاياه، ولا أحد يعرف بعد من ينبغي أن يحسد من. ونحن، على كل حال، سنحصل على العلم، ولكن ليس من المعروف بعد ما الذي ستؤول إليه الوحدة السياسية في أوربا؟ ربما كان الألمان سيوافقون، منذ خمس عشرة سنة لا أكثر، على أن يبادلوا بنصف مجدهم العلمي مثلَ قوة تلك الوحدة السياسية التي كانت لدينا منذ مدة جد بعيدة. لقد حصل الألمان الآن على وحدة سياسية متينة، على الأقل حسب مفاهيمهم، ولكن آنذاك لم تكن لديهم بعد الامبراطورية الجرمانية، وكانوا، بالطبع، يحسدوننا بينهم وبين أنفسهم، على الرغم من كل مشاعر الاحتقار التي يكنونها لنا. وعلى هذا فإن السؤال ينبغي أن يُطرح لا عن العلم والصناعة، بل عمّا جَعَلنا نحن المثقفين العائدين من أوربا، أسمى من الشعب أخلاقياً وجوهرياً، وعن ذاك الشيء الثمين الذي يتعذر الحصول عليه، والذي جلبناه له بصيغة ثقافتنا الأوربية؟ لماذا نحن نظيفون، والشعب لا يزال ملوثاً، لماذا نحن كل شيء والشعب لا شيء إنني أؤكد أن بيننا، نحن المثقفين، غموضاً بالغاً بهذا الصدد، وأن قلة من «المثقفين» بمقدورها أن تجيب عن هذا السؤال إجابة صحيحة؛ بل بالعكس، الآراء هنا تتفرق أيدي سبأ، والتساؤلات الساخرة عن السبب الذي حال دون نمو الصنِوبرة في سبع

(*) أي: دولة قيصرية موحدة، مشكلة من إمارات كانت متفرقة، ومتنازعة أحياناً. (م).

سنوات، وعمّا جعل نموَّها يتطلب عدداً من السنوات أكبر بسبع مرات، تغدو عادية ومألوفة إلى درجة أنها لا يندر أن تصدر لا عن أمثال بوتوغين فحسب، بل أيضاً عن أناس أكثر تطوراً منهم بكثير. وأنا هنا لا آتي على ذكر السيد أفسيينكو، بل أتوجه مباشرة إلى السؤال الذي طرحته في بداية هذا الفصل: أمِنَ الأكيد أننا جيدون إلى هذا الحد، وأننا متثقفون على نحو لا يشوبه خطأ، وأن الثقافة الشعبية ينبغي نبذها، وثقافتُنا ينبغي الانحناء أمامها؟ وإذا كنا قد أحضرنا معنا شيئاً ما، فما هو بالضبط؟ وأجيب مباشرة عن هذا بأننا أسوأ من الشعب بكثير، ومن جميع النواحي تقريباً.

يقولون لنا: ما من شخص فعّال في أوساط الشعب إلّا ويكون من مستثمري الريف (الكولاك) ومحتالاً. (وهذا لا يزعمه السيد أفسيينكو وحده؛ وعلى العموم فإن السيد أفسيينكو لن يأتي أبداً بأي جديد). أولاً: إن هذا ليس صحيحاً، وثانياً: ألا نرى دائماً بين الروس المتثقفين مستثمرين ريفيين (كولاك) ومحتالين كأولئك؟ بلى، وربما هم هنا أكثر عدداً، وهذا أدعى إلى الخزي، لأن هؤلاء متثقفون أما الشعب فلا. ولكن المهم في هذا الصدد أنه لا يجوز البتة الزعم أنه ما إن يظهر شخص فعال في أوساط الشعب حتى يكون على الأكثر (كولاكاً) ومحتالاً. ولا أدري أين نشأ الذين يتبنون هذا الزعم، فأنا منذ الطفولة، وطوال حياتي كنت أشاهد شيئاً آخر تماماً. أذكر أنني مرة، عندما كنت في التاسعة من عمري كنت أجلس مع أسرتي كلها: أبي وأمي وإخوتي وأخواتي حول مائدة مستديرة، في مساء اليوم الثالث من عيد الفصح، نحو الساعة السادسة. كنا نتناول الشاي العائلي ونتحادث عن القرية بالذات، وكيف سنذهب كلنا إلى هناك، في الصيف. وفجأة فُتح الباب، وشاهدنا على العتبة خادم البيت غريغوري فاسيلييف، العائد لتوه من القرية. كان هذا الشخص مكلفاً حتى بإدارة القرية في غياب السادة، وها هو الآن، بدلاً من أن يتخذ سمت «المدير» الذي يرتدي دائماً سترة ألمانية، ويظهر بمظهر لائق، يقف أمامنا بقفطانه الفلّاحي القديم ونعليه الليفيين؛ وقد جاء من القرية ماشياً على قدميه. دخل الغرفة من دون أن ينبس بكلمة. صاح والدي بفزع: - ما هذا؟ انظروا، ما هذا؟

فقال غريغوري فاسيلييف، بصوت أجش:

- المزرعة احترقت!

لن أصف ما جرى بعد ذلك. أبي وأمي لم يكونا من الأثرياء، بل كانا كادحين. وقد جاءتهما هذه الهدية في عيد الفصح! احترق كل شيء، تحول كل شيء إلى رماد: الدّور، وعنبر الحبوب، وزريبة المواشي، وحتى بذار الموسم الربيعي، وقسم من الماشية، والفلاح أرخيب. وقد خُيّل لنا من صدمة الخوف الأولى أن الخراب قد أحاق بكل شيء. ركعنا على

ركبنا وشرعنا نصلي، وانخرطت أمي في البكاء. وفجأة اقتربت منها مربيتنا ألينا فرولوفنا، التي تخدم عندنا بالأجرة، إذ إنها امرأة حرة من أهالي موسكو. لقد ربّتنا نحن الأبناء، جميعاً ورعتنا منذ الصغر. كانت آنذاك في الخامسة والأربعين، وهي امرأة ذات طبع هادئ مرح وكانت تحكي لنا دائماً حكايات شائقة رائعة! وكانت قد كفت منذ سنوات عديدة عن تقاضي أجرها منّا، كانت تقول «لست بحاجة»، وقد تجمّع لها من أجرها نحو خمسمئة روبل مودعة في مرهن: «تنفع في الشيخوخة». وها هي الآن تهمس لوالدتي:

- إذا احتجتم إلى نقود، خذوا نقودي، فأنا لست بحاجة إليها...

لم نأخذ نقودها. تدبرنا أمورنا من دونها. ولكن السؤال هنا: إلى أي نموذج كانت تنتمي هذه المرأة المتواضعة، التي ماتت منذ مدة طويلة، وماتت في تكية خيرية، حيث كانت بحاجة ماسة إلى نقودها. أظن أن أمثالها لا يجوز أن ننسبهم إلى الكولاك والمحتالين؛ وإذا كان هذا غير جائز، فكيف ينبغي إذاً أن نُعرِّف تصرفها: هل ظهرت هذه المرأة مع تصرفها هذا «عند درجة الوجود العفوي، والمعيشة الرعوية المنغلقة، والحياة السلبية»، أم أنها أظهرت شيئاً ما ينطوي على همة تفوق السلبية؟ يستبد بي فضول شديد لمعرفة رأي السيد أفسيينكو في هذا. سيجيبونني بازدراء: إنها حادثة فردية؛ ولكن أنا وحدي قد تسنّى لي أن ألاحظ في حياتي مئات كثيرة من أمثال هذه الحوادث في أوساط الشعب البسيط عندنا؛ وإنني على يقين بأن هناك مراقبين آخرين قادرين على النظر إلى الشعب من دون بصقة احتقار. ألا تذكرون ذاك المشهد الذي صوّره أكساكوف* في سيرته الذاتية «تاريخ عائلة» حيث الأم تتوسل إلى الفلّاحين وهي تبكي ليعبروا بها نهر الفولغا العريض إلى «قازان»، كي تعود طفلها المريض، والنهر مغطى بطبقة رقيقة من الجليد، والوقت ربيع، ولم يكن أحد يتجاسر منذ عدة أيام أن يدوس على الجليد، الذي تكسر وانهار بعد العبور ببضع ساعات فقط. ألا تذكرون ذاك الوصف البديع للعبور، وكيف امتنع الفلاحون بعد اجتياز النهر عن أخذ نقود لقاء ذلك، لأنهم كانوا يدركون أنهم لم يفعلوا ما فعلوه إلّا بسبب دموع الأم وفي سبيل ربنا المسيح. وقد حدث هذا في أحلك أوقات نظام القنانة! فهل كل هذا وقائع فردية؟ وهل إذا كانت تستحق الثناء فإنها لا تتعدى «درجة الوجود العفوي، والمعيشة الرعوية المنغلقة، والحياة السلبية»؟ هل الأمر هكذا حقاً؟ هل هذه الوقائع فردية وعرضية فقط؟ أيمكن أن نعدّ هذه المخاطرة الفعلية بالحياة بدافع التعاطف مع مصيبة الأم مجرد تصرف سلبي لا أكثر؟ يصدر هذا، بالعكس عن الحقيقة الشعبية، عن الرحمة، والصفح الشامل، ورحابة النظرة الشعبية؟

(*) سيرغي أكساكوف: كاتب روسي معروف (1791-1859). (ن).

وكل ذلك في أكثر حقب النظام القِناني بربرية؟ ستقولون إن الشعب لا يعرف الإيمان، ولا يحسن أداء الصلاة، وينحني أمام اللوح* وهو يتمتم بهراء ما حول الجمعة المقدسة، وفلور ولافر** وأرد عليكم بأن هذه الأفكار قد ظهرت عندنا من احتقاركم المستمر للشعب الروسي، هذا الاحتقار الذي ترسخ بعناد في نفس النموذج المثقف الروسي. إننا لا نعرف عن إيمان الشعب، وعن أرثوذكسيته سوى ما تتضمنه عشرون نكتة ليبرالية وضلالية، ونحن نستمتع برواية نوادر ساخرة عن كيفية تلقي الكاهن اعتراف امرأة عجوز، وكيفية صلاة الفلاح للجمعة العظيمة. ولو أن السيد أفسيينكو كان يفهم حقاً ما كتبه عن الإيمان الشعبي الذي أنقذ روسيا، ولم يعمد إلى نقل ما يقوله السلافويون، لما أهان الشعب بمجرد وصفه له بأنه كله تقريباً من المستثمرين الريفيين (الكولاك) والمستغلين (الطفيليين). ولكن القضية كلها في أن هؤلاء الناس لا يفقهون أي شيء في الأرثوذكسية، ولذا فهم لن يفهموا أبداً أي شيء من حقيقة شعبنا. إن الشعب يعرف المسيح ربه، ربما أفضل من معرفتنا إياه، مع أنه لم يتعلم في المدرسة. يعرفه لأنه عانى خلال قرون عديدة آلاماً كثيرة، وكان وهو يرزح تحت وطأة المصائب يسمع دائماً منذ القدم وحتى أيامنا هذه، عن هذا المسيح - الرب من قدّيسيه الذين كانوا يعملون في صالح الشعب، ويذودون عن الأرض الروسية حتى التضحية بالنفس، من أولئك القدّيسين الذين ما زال الشعب يجلّهم حتى الآن، ويذكر أسماءهم، ويصلي أمام أضرحتهم. صدقوني إن قلت لكم ضمن هذا المعنى: إن شعبنا، وحتى أكثر فئاته جهلاً مثقف أكثر بكثير مما تفترضون في جهلكم الثقافي، وربما كان أكثر ثقافة منكم أنفسكم، على الرغم من أنكم درستم «أصول الدين».

المُفارَقاتي***

بالمناسبة، عن الحرب والشائعات الحربية. أحد معارفي شخص من أصحاب المفارقات؛ وأنا أعرفه منذ مدة طويلة. إنه شخص غير مشهور بالمرة، ويتصف بطبع غريب؛

(*) المقصود «الإيقونة». (ن).
(**) فلور ولافر: قديسان في عرف الكنيسة الأرثوذكسية، عاشا في القرن الثاني. (ن).
(***) صاحب المُفارقات؛ الذي يأتي بالمفارقات (جمع مفارقة). (م).

وهو من الأشخاص الحالمين. وسأتحدث عنه بالتفصيل حتماً فيما بعد؛ أما الآن فقد تذكرت كيف جادلني مرة، منذ بضع سنوات، في مسألة الحرب. وقد اتخذ آنذاك موقف المدافع عن الحرب عموماً؛ وربما كان السبب الوحيد في ذلك هو رغبته في التلاعب بالمفارقات. وأشير هنا إلى أنه شخص «مدني» ومن أكثر الأشخاص مسالمة، وأبعدهم عن الضغينة في العالم كله وعندنا في بطرسبورغ. قال في سياق حديثه: – يا لها من فكرة مستهجنة: كيف يقولون إن الحرب آفة إنسانية! بالعكس، إنها أكثر الظواهر نفعاً. ثمة نوع واحد من أنواع الحروب مقيت ووبيل حقاً: هو الحرب الأهلية، الحرب بين الإخوة. إنها تتسبب في موت الدولة وتفسخها، وهي دائماً تستمر مدة طويلة جداً وتجعل الشعب متوحشاً طوال قرون. أما الحرب السياسية، الحرب الدُوَليّة، فليس منها سوى الفائدة من جميع النواحي، ولذا فهي جد ضرورية.

– على رسلك، شعب يهاجم شعباً، بشر يُقْدِم بعضهم على قتل بعض، ما وجه الضرورة هنا؟

– هنا الضرورة في أعلى درجاتها. ولكن، أولاً: القول إن البشر يقدمون على قتل بعضهم بعضاً هو قول كاذب: فهذا لا يحدث البتة بصفته هدفاً يحتل المقام الأول، بل بالعكس، إنهم يقدمون على التضحية بأنفسهم، وهذا ما ينبغي أن يحتل المقام الأول. وهذا أمر آخر تماماً. فليس ثمة ما هو أسمى من فكرة تضحية الإنسان بذاته دفاعاً عن إخوته ووطنه، أو حتى عن مصالح وطنه وحدها. إن البشرية لا تستطيع أن تعيش من غير أفكار نبيلة؛ بل إنني أظن إن البشرية لا تحب الحرب إلّا لكي تشارك في فكرة نبيلة...إنها حاجة ضرورية.

– وهل تحب البشرية الحرب؟

– بلا شك! ومن الذي يكتئب في زمن الحرب؟! بالعكس؛ الجميع يتنشطون على الفور، وترتفع روحهم المعنوية، ولا يعود المرء يسمع عن اللا مبالاة أو الملل المألوفين عادة في زمن السلم. ثم عندما تنتهي الحرب كم يحبون أن يتذكروها حتى في حالة الهزيمة!ن أن ولا تصدقهم عندما يتلاقون في زمن الحرب، فيقول بعضهم لبعض وهم يهزون رؤوسهم: «يا للتعاسة، أي زمن هذا!» فهذا من قبيل اللياقة لا أكثر. بالعكس، إن لدى كل منهم عيداً في قرارة نفسه. ولكن من الصعب جداً الإقرار بأفكار مخالفة. سيقولون: وحش، رجعي، وسيدينون المخالف. فهم يخافون هذا. ولا أحد يجرؤ على امتداح الحرب.

– ولكنك تتحدث عن الأفكار النبيلة، وعن التَّأَنْسُن. أفلا توجد أفكار نبيلة من غير حرب؟ بالعكس، إن هذه الأفكار تتطور على نحو أسهل في زمن السلم.

– بل بالعكس تماماً، النقيض هو الصحيح. النبل يموت في فترات السلم الطويل، وتحل محله الكلبية[5]، واللا مبالاة، والملل، وفي أفضل الحالات السخرية الحاقدة، ويكون ذلك

من أجل التسلية الفارغة تقريباً، لا من أجل قضية ما. ويمكن الجزم بأن السِّلم الطويل الأمد يقسّي قلوب الناس، وخلاله تنتقل الأرجحية الاجتماعية دائماً إلى كفّة كل ما هو سيئ وفظ في الوسط الإنساني، ولا سيما الميل إلى الإثراء وتكديس المال. إن الشرف، وحب الناس، والتضحية بالذات تظل تُحترم وتحظى بتقويم عالٍ ومكانة سامية بعد الحرب مباشرة، ولكن كلما طال أمد السلم فقدت هذه القيم النبيلة الرائعة بريقها، وازدادت ذبولاً ومَواتاً، في حين أن شهوة الإثراء والجشع يزدادان استشراء، ولا يبقى في النهاية سوى الرياء - رياء الشرف-، رياء التضحية بالذات، رياء الواجب، مما يدل على أنهم، كما يبدو، يظلون يحترمون هذه القيم، ولكن بالأقوال الرنّانة فقط، شكلياً لا أكثر. لن يكون هناك شرف حقيقي، بل مجرد تظاهر كلامي به. والتظاهر الكلامي بالشرف، هو موت الشرف. إن السِّلم الطويل يُنتج اللا مبالاة، وهبوط الفكر، والفساد، ويبلِّد المشاعر. المُتَع لا ترق وترهف؛ بل تزداد فظاظة وجلافة. والثراء الفظ لا يمكن أن يحصل على المتعة بالنبل، بل يتطلب مُتَعاً أكثر تبذلاً، وأدنى إلى الأغراض العملية، أي إلى إرواء الجسد بأشد الأشكال مباشرة. المُتَع تصبح حسية، والشهوانية تثير الشبقية، والشبقية هي القسوة دائماً. وأنت لا تستطيع، بحال من الأحوال، أن تنفي كل هذا، لأنه لا يمكن نفي الحقيقة الرئيسة، وهي أن الأرجحية الاجتماعية في زمن السِّلم المديد تتحول دوماً إلى كفة الإثراء الفظ.

- ولكن هل يمكن أن تتطور العلوم والفنون في زمن الحرب؛ وهي أفكار عظيمة ونبيلة!

- هنا بالذات أُمسِكُ بك...العلوم والفنون تتطور على الدوام في الفترة الأولى التي تعقب الحرب. فالحرب تجددهما وتنعشهما، وتستدعيهما، وتقوّي الفكر، وتعطيه دفعة إلى الأمام. وبالعكس، فإن العلم يذوي في فترة السِّلم الطويل. وليس هناك من شك في أن الاشتغال بالعلم يتطلب النبل، وحتى نكران الذات. ولكن هل يصمد الكثير من العلماء أمام آفة السلم؟ ألا تستولي عليهم هم أيضاً مشاعر الشرف الكاذب، وحب الذات، والشهوانية؟ وما السبيل مثلاً، إلى التغلب على شعور طاغ كالحسد: إنه شعور فظ ودنيء، ولكنه يمكن أن ينفذ إلى نفس العالِم حتى لو كانت على أعلى درجة من درجات النبل. فهو أيضاً يرغب في أن ينال قسطاً من الأبهة العامة، والألق. فما الذي تعنيه مهابة اكتشاف علمي ما أمام امتلاك الثروة، إلّا إذا كان الأول قميناً بأن يحدث أثراً فعالاً، كذاك الذي أحدثه، على سبيل المثال، اكتشاف كوكب نبتون. هل تعتقد أن عدد العاملين المخلصين الحقيقيين سيكون كبيراً؟ بالعكس، ستطغى الرغبة في حيازة المجد، ومن ثم سيظهر الدجل والركض وراء الإثارة في مجال العلم، بل الأكثر من ذلك ستظهر النفعية، التي تتولد من اشتهاء الثروة؛ كما سيجري الشيء نفسه في مجال الفن: الركض وراء الإثارة، ووراء وجه من وجوه الأناقة والرهافة. في حين أن

الأفكار البسيطة، الواضحة، النبيلة المعافاة، ستخرج من نطاق الموضة: وسيكون المطلوب شيئاً ما أكثر تبذلاً بكثير، سيكون المطلوب: اصطناعية الأهواء. وشيئاً فشيئاً سيتلاشى الإحساس بالقياس الملائم والانسجام، وستظهر تشوهات العواطف والأهواء، وما يسمى برهافة المشاعر التي هي في جوهرها الحقيقي غلاظتها. هذا الذي يتعرض له الفن دوماً في نهاية السّلم الطويل. ولولا وجود الحرب في العالم لذوى الفن نهائياً. إن أفضل الأفكار في الفن أتت من الحرب، من الصراع. خذ التراجيديا، وانظر إلى التماثيل: هاهو هوراس كورناي وهاهو أبولون بيلفيدير، قاتل التنين[90].

- وما قولك بتماثيل السيدة العذراء، وبالمسيحية؟

- المسيحية نفسها تعترف بحقيقة الحرب وتتنبأ بأن السيف لن يختفي حتى نهاية العالم*: وهذا أمر لافت جداً ومذهل. أوه، لا شك في أنها، بأسمى معانيها الأخلاقية، ترفض الحرب وتدعو إلى المحبة الأخوية. وأنا نفسي سأكون أول المبتهجين عندما يحولون السيوف إلى سكك حراثة**.

ولكن السؤال هنا: متى يمكن أن يحدث هذا؟ وهل من المناسب الآن تحويل السيوف إلى سكك؟ إن السلام الحالي أسوأ من الحرب دائماً وأينما كان، وهو أسوأ إلى درجة تجعل الحفاظ عليه في النهاية فعلاً لا أخلاقياً: لا شيء له قيمة، ولا شيء على الإطلاق جدير بالحفاظ عليه؛ بل إن الحفاظ على أي شيء في هذه الحالة أمر مخجل ودنيء. الثروة وفظاظة الملذّات تولدان الكسل، والكسل ينتج عبيداً. ولإبقاء العبيد في حالة العبودية يجب سلبهم الإرادة الحرة وإمكانية الاستنارة. وأنت لا يمكنك أن تتفادى حاجتك إلى العبد، أياً كنت، حتى ولو كنت من أكثر الناس إنسانية؟ وأشير أيضاً إلى أنه في زمن السلم يتأصل الجبن واللؤم الخسيس. إن الإنسان بطبيعته يميل ميلاً شديداً إلى الجبن وقلة الحياء، ويعرف هذا حق المعرفة بينه وبين نفسه، ولعله لهذا يتوق إلى الحرب، ويحبها كل هذا الحب: فهو يجد فيها الدواء. فالحرب تنمّي مشاعر الحب بين الإخوة وتؤلف بين الشعوب.

- كيف تؤلف بين الشعوب؟

- تجعلها تحترم بعضها بعضاً. الحرب تنعش الناس. وحب الإنسان للإنسان ينمو أكثر ما ينمو في ساحات المعارك. ومن الحقائق الغريبة أن الحرب تثير من السخط أقل مما يثيره السلم. وبالفعل فإن إهانة سياسية ما في زمن السلم، أو معاهدة وقحة، أو ضغطاً سياسياً،

(*) من الواضح أن دوستويفسكي يشير هنا إلى ما ورد في إنجيل متى (10/ 34). (ن).

(**) انظر سفر اشعيا (2/ 4). (ن).

أو طلباً متغطرساً، كما فعلت معنا أوربا في عام 63*، تثير من السخط أكثر بكثير مما تثيره معركة حقيقية. تذكّر: هل أَبغَضْنا الفرنسيين والإنكليز في أثناء حملة القرم[91]؟ بالعكس كنا كما لو أننا تقاربنا، بل حتى كما لو أن صلة قربى نشأت بيننا. صار يهمنا أن نعرف رأيهم في شجاعتنا، وعاملنا أسراهم بلطف؛ وكان جنودنا وضباطنا يخرجون إلى المواقع الأمامية في فترات الهدنة ويكادون يتعانقون مع الأعداء، وحتى إنهم كانوا يشربون الفودكا معهم. وكانت روسيا تقرأ عن هذه الأمور بمتعة في الجرائد، من دون أن يمنعنا كل هذا من القتال على نحو رائع. نمت لدينا روح الفروسية؛ أما مصائب الحرب المادية فلا أجد داعياً للحديث عنها: فمن منا لا يعرف القانون الذي بموجبه ينبعث كل شيء بعد الحرب، كما لو أن ثمة قوة تدفعه دفعاً. فالقوى الاقتصادية في البلاد تتضاعف عشر مرات، كما لو أن سحابة أنزلت وابلاً على تربة جافة. والجميع يسارعون على الفور إلى مساعدة المتضررين من الحرب، في حين أن مناطق بكاملها قد تهلك من الجوع في زمن السلم قبل أن نتحرك أو نتبرع بثلاثة روبلات.

- ولكن ألا يعاني الشعب في زمن الحرب أكثر من الجميع، ألا يحيق به الخراب، ويتحمل أعباء لا مناص منها، وأكبر بما لا يقاس من التي تتحملها فئات المجتمع العليا؟

- ربما، ولكن مؤقتاً؛ وبالمقابل فإن ما يربحه أكثر بكثير مما يخسره؛ إذ إن الحرب تُخلِّف للشعب بالذات أفضل العواقب وأسماها. إنك كيفما نظرت إلى نفسك، ومهما اعتقدت أنك من أكثر البشر إنسانية، ستظل مع ذلك تَعُدّ نفسك أعلى من الإنسان البسيط. مَنْ في زمننا هذا يقيس نفساً مع نفسٍ بالمقياس المسيحي؟

إنهم يقيسون بمقاييس الجَيْب، والسلطة، والقوة، والشعب البسيط بمجمله يعرف هذا حق المعرفة. والمسألة هنا ليست مسألة حسد، بل ينشأ إحساس لا يطاق باللامساواة المعنوية التي تحز بقوة في نفس الإنسان البسيط. وأياً كانت الحرية الممنوحة والقوانين المكتوبة فإن اللامساواة بين الناس لن تنتفي في المجتمع الحالي. والدواء الوحيد هو الحرب. صحيح أنه دواء مسكّن فقط، ومفعوله يزول بسرعة، ولكنه يبهج الشعب. الحرب ترفع الروح المعنوية لدى الشعب وتقوي شعوره بكرامته. وهي تساوي بين الجميع إبان المعركة، وتصلح بين السيد والعبد في أسمى ما تتجلى فيه الكرامة الإنسانية: في التضحية بالنفس من أجل المصلحة العامة، من أجل الجميع، من أجل الوطن. وهل تظن أن جمهور العامة، وحتى أكثر الفلّاحين والفقراء جهلاً لا يحتاجون إلى إظهار ما لديهم من مشاعر نبيلة إظهاراً فعّالاً؟ فكيف يستطيع الجمهور إظهار نبل نفسه وكرامته الإنسانية في زمن السلم؟ إننا ننظر إلى التجليات الفردية

(*) وجهت إنكلترا وفرنسا إلى روسيا خلال عام 1863 ثلاث مذكرات دبلوماسية صارمة بشأن القضية البولندية. (ن).

للنبل في أوساط الشعب من دون اكتراث حتى إننا لا نكاد نلحظها، وأحياناً ننظر إليها بابتسامة تنم عن عدم التصديق، وأحياناً لا نصدق ما نرى، وأحياناً ننظر إليها بارتياب. وعندما نصدق بطولة فرد ما فإننا نثير على الفور ضجة، كما لو كنا أمام ظاهرة غير مألوفة؛ وتكون النتيجة أن دهشتنا وثناءنا يبدوان شبيهين بالاحتقار. أما في زمن الحرب فإن كل هذا يختفي تلقائياً ويحل محله المساواة التامة في البطولة. الدم المُراق شيء مهم؛ ومأثرة النبل المتبادلة تخلق أمتن الصلات بين الفئات الاجتماعية اللامتساوية. الإقطاعي والفلاح اللذان قاتلا معاً في العام الثاني عشر* كانا متقاربين أكثر مما كانا وهما في القرية، في العزبة الآمنة. إن الجمهور يجد في الحرب مناسَبَة لاحترام نفسه، ولذا فإن الشعب يحب الحرب: إنه يؤلف أغاني عنها، ويستمع طويلاً فيما بعد للأساطير والقصص التي تدور حولها... فالدم المراق شيء مهم! أجل إن الحرب في زمننا ضرورية؛ من دون الحرب سينهار العالم، أو على الأقل سيتحول إلى هلام ما، إلى حمأ مسنون، موبوء بجروح متقيحة...

أنا طبعاً، كففت عن الجدال. فالجدال مع الحالمين غير ممكن ولكن مع ذلك، ثمة حقيقة شديدة الغرابة: لقد شرع الناس الآن يتجادلون ويتحاجّون حول مسائل كان يبدو أنها حُلَّت ووضعت في الأرشيف منذ مدة طويلة. وهم الآن ينبشونها ثانية. والمهم في الأمر أن هذا يحدث في كل مكان.

مرة ثانية كلمة واحدة فقط عن استحضار الأرواح

مرة ثانية لا يبقى لديّ مكان لـ «مقالة» عن استحضار الأرواح. ومرة ثانية أؤجل الأمر إلى عدد آخر. ولكنني كنت قد حَضَرْت في شباط (فبراير) بالذات جلسة استحضار أرواح حَضَرها وسيط «حقيقي»**، وخلفت في نفسي انطباعاً قوياً إلى حد ما. وقد تحدث الآخرون

(*) عام 1812 الحرب بين الروس وجيوش نابليون الغازِية. (م).

(**) جلسة استحضار جرت عند أ. ن. أكساكوف وعرضت فيها الوسيطة الإنكليزية «كلاير» قدراتها في استحضار الأرواح. (ن).

الذين حضروا هذه الجلسة عنها في الصحف، ولم يبق لدي، بالطبع، ما أقوله عنها سوى وصف الانطباع الذي خلفته في نفسي. ولكنني حتى الآن، وطوال هذين الشهرين، لم أكن أريد كتابة أي شيء عن هذا الأمر، وأخفيت انطباعي عن القراء. وأقول لكم سلفاً إن هذا الانطباع من نوع خاص تماماً، وليس له علاقة تقريباً باستحضار الأرواح. لقد كان انطباعاً عن شيء آخر، ولم يكن الاستحضار سوى دافع ملائم لظهوره. وأنا جد آسف لأنني مضطر إلى التأجيل من جديد، لا سيما أنني الآن ممتلئ رغبة في أن أتحدث عن هذا، في حين أنني ما زلت أشعر حتى الآن ببعض التقزز من ذاك. وقد جاء هذا التقزز من الارتياب. وكنت قد أخبرت بعض أصدقائي فوراً آنذاك عن هذه الجلسة. وسألني أحد الأشخاص* الذين أقدّر آراءهم عميق التقدير، بعد ان استمع إلى حديثي: هل تنوي أن تصف هذا في «يومياتك»؟ وأجبته بأنني لا أعرف بعد. وإذا به يفاجئني بقوله «لا تكتبْ» ولم يضف شيئاً، وأنا لم أصرّ، ولكنني فهمت قصده: إنه سينزعج، كما يبدو، إذا ساعدتُ أنا أيضاً بأي شكل من الأشكال، على انتشار هذه الظاهرة. وقد أدهشني هذا آنذاك بصورة خاصة لأنني، على العكس، عندما تحدثت عن جلسة شباط هذه أنكرتُ عن قناعة صادقة استحضار الأرواح. معنى ذلك أن هذا الشخص الذي يمقت استحضار الأرواح قد لاحظ في حديثي شيئاً ما في صالح استحضار الأرواح على الرغم من إنكاري له. ولذا فقد أحجمت حتى الآن عن الكتابة في الصحف عن هذا، والسبب بالذات هو ارتيابي وعدم ثقتي بنفسي. ولكن الآن أصبحت، كما يبدو لي، أثق ثقة تامة، واتضحت لي أسباب كل ذاك الوسواس؛ كما أنني، إلى ذلك، اقتنعت بأنني لن أستطيع بمقالاتي، أياً كانت، أن أساعد على دعم ظاهرة استحضار الأرواح أو على استئصالها، ومن المرجح أن السيد منداليف[59] الذي يلقي محاضراته في بلدة سولينوي** في هذه الدقيقة نفسها التي أكتب فيها مقالتي ينظر إلى الأمر على نحو آخر، ويهدف من إلقاء محاضرته إلى بلوغ غاية نبيلة هي «محق ظاهرة استحضار الأرواح». ويطيب للمرء دائماً أن يستمع إلى محاضرات تتسم بنزعات رائعة كهذه. ولكنني أعتقد أن من يريد أن يؤمن باستحضار الأرواح لن يستطيع أحد أن يثنيه عن ذلك بأي شيء، لا بالمحاضرات، ولا حتى بلجان كاملة؛ أما غير المؤمن بالاستحضار فإنه، إذا كان لا يرغب على الإطلاق في الإيمان به، لن يستطيع أحد أن يغريه بذلك مهما فعل. وهذه القناعة بالذات هي التي تكونت لدي، وعلى الأقل، في صورة انطباع أول قوي، بعد حضوري جلسة شباط (فبراير) عند أ. ن. أكساكوف. قبل ذلك كنت

(*) المقصود: رجل الدولة الروسي ك. ب. بوبيدونوستسيف. (ن).

(**) بلدة سولينوي (بلدة الملح): مبنى المعرض الصناعي الروسي العام في بطرسبورغ. وقد أنشئ في مكان كانت توجد فيه عنابر حفظ الملح والخمور في المدينة. (ن).

ببساطة، أنفي استحضار الأرواح لا أكثر؛ أي إنني كنت، في الحقيقة، أستنكر المعنى الغيبي فحسب لهذه العقيدة، (أما الظواهر الروحانية التي كنت مطلعاً عليها بعض الشيء قبل الجلسة التي شارك فيها الوسيط فإنني لم أكن قط قادراً على نفيها تماماً، بل إنني غير قادر على ذلك الآن أيضاً، وخصوصاً الآن، بعد أن قرأت تقرير اللجنة العلمية التي شُكّلت للنظر في هذه الظاهرة). ولكن بعد تلك الجلسة المتميزة حَدَسْتُ فجأة، أو من الأفضل القول: عرفت فجأة أنه لا يكفي أن أقول إنني لا أؤمن باستحضار الأرواح؛ بل ينبغي أن أضيف: إنني لا أرغب في ذلك على الإطلاق، وعلى هذا فإن أية براهين، مهما كانت، لن تستطيع أبداً أن تزعزع قناعتي هذه بعد الآن. هذا ما خرجت به من تلك الجلسة وما اتضح لي بعد ذلك. وأعترف أن هذه الانطباع قد سرّني تقريباً، لأن بعض الخوف كان يساورني وأنا قادم لحضور الجلسة. وأضيف أيضاً: إن القضية هنا ليست شخصية فحسب، إذ يُخيّل لي أن ملاحظتي هذه تشتمل على شيء ما عام. ويتراءى لي أيضاً هنا قانون خاص من قوانين الطبيعة البشرية، قانون يشمل الجميع ويتصل بمسألة الإيمان وعدم الإيمان هذه. لقد اتضح لي على نحو ما آنذاك عن طريق التجربة بالذات، وعن طريق هذه الجلسة بالذات، مدى القوة التي بمقدور عدم الإيمان أن يجدها ويطورها في نفسه تحديداً، في اللحظة المعنية، بمعزل تام عن الإرادة، ولكن وفقاً لرغبة خفية مكنونة... وعلى الأرجح هذا هو شأن الإيمان أيضاً، هذا بالذات ما أردت أن أقوله هنا.

وهكذا إلى العدد القادم، ولكنني أود أن أضيف الآن بضع كلمات إلى ما قلته في عدد آذار (مارس) عن ذاك التقرير نفسه، الذي وضعته «اللجنة» التي أصبحت الآن ذات شهرة واسعة.

قلت حينذاك بضع كلمات عن قصور ذاك التقرير، وعن أنه قد يلحق الضرر بالقضية التي يتبناها. ولكنني لم أقل الشيء الأهم. وسأحاول الآن أن أستكمل ما قلته بعبارات موجزة، لا سيما أن الأمر هنا جد بسيط. إن اللجنة لم تشأ الهبوط إلى مستوى الاحتياج الرئيس الناشئ عن هذه القضية، أي إلى ما يحتاج إليه المجتمع الذي ينتظر قرارها. إنها، على ما يبدو، كانت قليلة الاهتمام بالاحتياج الاجتماعي (ونحن نقول هذا كيلا نضطر إلى افتراض أنها ببساطة، لم تستطع إدراك هذا الاحتياج)، وهي لم تتصور أن حديثها عن «نوابض تنّوريّة* تومض في الظلام» لن يغيّر من قناعة أحد عندنا، ولن يبرهن على أي شيء، إذا كان الناس قد أُفسدوا. إنك وأنت تقرأ التقرير يخيل إليك بقوة أن علماءنا هؤلاء قد افترضوا أن استحضار الأرواح في بطرسبورغ غير موجود سوى في شقة أ.ن. أكساكوف، وأنهم لم يعرفوا أي شيء عن الظمأ الذي يتجلى في مجتمعنا إلى هذه الظاهرة، وعن الأسس التي بدأ استحضار الأرواح ينتشر

(*) تنّوريّة: نسبة إلى تنّورة. ويشير دوستويفسكي بهذه العبارة إلى ما نُقل عن لسان مندلييف أنه شاهد «شيئاً ما أبيض يشبه طرف نابض ينزلق من تحت تنورة السيدة كلاير». (ن).

بالاستناد إليها عندنا، نحن الروس. بيد أنهم كانوا يعرفون كل هذا، ولكنهم لم يلقوا إليه بالاً. إن كل شيء يدل على أن الموقف الذي اتخذوه من كل هذا هو بالضبط كموقف الأفراد غير الرسميين، الذين لا يزيدون، عندما يستمعون إلى شغف مجتمعنا باستحضار الأرواح، على أن يتهكموا ويضحكوا ساخرين من هذا الشغف الوبيل، وهم يفعلون ذلك بشكل عابر، من دون أن يتفضلوا بإنعام النظر في الأمر. ولكن هؤلاء العلماء قد أصبحوا، بعد انتظامهم في «لجنة»، شخصيات اجتماعية، ولم يعودوا أفراداً غير رسميين. لقد كُلّفوا مهمةً، ولكنهم، على ما يبدو، لم يرغبوا في أخذ هذا بالحسبان، بل جلسوا إلى طاولة الاستحضار وهم لا يزالون يتخذون صفة الأفراد غير الرسميين، أي وهم يضحكون ويتهكمون ويسخرون، ولكن ربما مع فارق واحد هو أنهم كانوا إلى ذلك غاضبين قليلاً لأنهم اضطروا إلى الاهتمام جدياً بمثل هذه السخافات.

ولنفترض مع ذلك أن كل هذا المنزل، كل شقة أ. ن. أكساكوف مملوءة بالنوابض والأسلاك، وأن لدى الوسيط، فضلاً عن كل هذا، آلة تطقطق بين الأقدام (فيما بعد تحدث ن. ب. ڤاغنر* في الصحافة عن هذا الحَدْس الماكر الذي راود اللجنة). ولكن أي مستحضر روحاني** «جادّ» (لا تضحكوا من هذه الكلمة: فهذا الأمر، في الحقيقة، جديّ للغاية) سيسأل بعد قراءة التقرير: «وكيف إذاً عندي في البيت، حيث أعرف الجميع كما أعرف أصابع يدي: أولادي، وزوجتي، وأقاربي، ومعارفي؛ كيف تحدث عندي هذه الظواهر نفسها: الطاولة تتأرجح وترتفع، ونسمع أصواتاً، ونتلقى أجوبة من أناس مثقفين؟ وأنا طبعاً، أعرف حق المعرفة، ومتيقن تماماً، أنْ لا وجود في بيتي لآلات وأسلاك، وأن زوجتي وأولادي لن يعمدوا إلى خداعي؟» والمهم في الأمر أن الذين يقولون هذا، أو يفكرون على هذا النحو، في بطرسبورغ، وموسكو، وفي روسيا بأسرها قد أصبحوا كثرة لا يستهان بها، بل كثرة كاثرة، وهذا بالذات ينبغي التفكير فيه، حتى لو احتاج الأمر إلى النزول من علياء العلم. فهذه الظاهرة وباء مُعدٍ، وهؤلاء الناس بحاجة إلى مساعدة. ولكن تعاليَ اللجنةِ يحول دون تأملها هذه الظاهرة بعمق: «الأمر ببساطة أنهم أناس يتصفون بخفة التفكير وقلة الثقافة، ولذا فهم يؤمنون بهذا». ولكن المستحضر الروحاني الجاد والممتلئ بقناعة قلقة (لأنهم جميعاً لا يزالون حتى الآن يعيشون برهة الدهشة الأولى والقلق الأولي؛ فالقضية ما زالت جديدة وغير عادية) يتابع بإصرار: «فليكن، فلنفترض أنني أتصف بخفة التفكير وقلة الثقافة، ولكن مع ذلك لا وجود في بيتي لتلك الآلة التي تطقطق، وأنا أعرف هذا عن يقين، ثم إنني لا أملك ما يكفي من النقود

(*) نيكولاي بيتروفتش ڤاغنر (1829 – 1907) عالم حيوان وكاتب. (ن).

(**) بمعنى طالب الاستحضار عن طريق الوسيط. (م).

لاستجلاب مثل هذه الأجهزة الطريفة، وأقسم أنني لا أعرف من أين يحصلون عليها، ومن الذي يبيعها. فكيف إذاً نسمع عندنا هذه الطقطقة، ومن أين تصدر هذه الدقّات؟ أنتم تقولون إننا نحن نضغط على الطاولة بأنفسنا بلا وعي منا. وأنا أؤكد لكم أننا لسنا أطفالاً صغاراً إلى هذه الدرجة، وأننا نراقب أنفسنا؛ نعم نراقب أنفسنا: ولِنتيقَّن بأننا لا نضغط، نقوم بتجارب، مدفوعين بحب الإطلاع، ومنزهين عن التحيز...».

وتختتم اللجنة رأيها قائلة بإمتعاض: - لا ردّ عندنا على ما تقولونه؛ إنهم يخدعونكم أنتم أيضاً، كما يخدعون الجميع. إنهم يخدعون الجميع، الجميع مغفلون؛ هكذا يجب أن تكون الأمور، هكذا يقول العلم، نحن العلم.

ولكن هذا ليس توضيحاً. ويقول الروحاني المتشبث جدياً «بقناعاته» مختتماً حديثه: «من الواضح أن ثمة أمراً آخر هنا، ولا يمكن أن يكون كل شيء هنا مجرد ألاعيب لا أكثر. فلتفعل هناك مدام كلاير ما تشاء، أما أنا فإنني أعرف أسرتي: ولا أحد لديّ بإمكانه القيام بألاعيب». ويظل استحضار الأرواح صامداً.

قرأت للتو في مجلة «نوفوييه فريميا» (الأزمنة الحديثة) تقريراً عن المحاضرة الأولى التي ألقاها السيد مندلييف في بلدة «سولينوي»، وهو يطرح في محاضرته هذه موضوعةً يعمد إلى التشديد عليها، بصفتها حقيقة ثابتة. يقول:

«في جلسات استحضار الأرواح تتحرك الطاولات وتصدر عنها دقّات، سواء وُضعت الأيدي عليها أم لم توضع، وتتشكل من هذه الدقات، وفق أبجدية اصطلاحية، كلمات وعبارات وأقوال كاملة تتصف دائماً بِسمة التطور العقلي لدى الوسيط الذي تجري الجلسة بمساعدته. هذه حقيقة. والآن ينبغي أن نستوضح من الذي يدق، وعلى ماذا يدق؟ ولتوضيح هذا هناك الفرضيات الست التالية».

إذاً هذا هو المهم: «من الذي يدقّ، وعلى ماذا يدقّ؟» ثم تُطرح الفرضيات الست الموجودة في أوربا بصدد هذه الظاهرة؛ ويبدو أن ست فرضيات كاملة قادرةٌ على تغيير قناعات أكثر الروحانيين «جدية». إلّا أن أكثر ما يثير اهتمام الروحاني* المخلص ذي الضمير الحي، والذي يرغب حقاً في استيضاح القضية، ليس وجود الفرضيات الست، بل معرفة الفرضية التي أخذ بها السيد مندلييف شخصياً، ومعرفة ما تقوله لجنتنا بالذات وما توصلت إليه واعتمدته؟ فما يصدر عنا نحن أقرب إلينا وأدعى إلى إيلائه ثقتنا، أما ما يوجد في أوربا أو في الولايات

(*) أي المؤمن بأن «استحضار الأرواح» حقيقة ثابتة. (م).

الأميركية فهو أمر يكتنفه غموض مثير للريبَة! ويتبين من تتمة المحاضرة أن اللجنة مع ذلك، قد اعتمدت مرة أخرى فرضية الألاعيب الإيهامية، والتي ليست من النوع البسيط، بل من النوع الذي يعتمد على الحيل المسبقة، والآلات التي تطقطق بين الأقدام (وأكرر: حسب شهادة ن. ب. ڤاغنر)، ولكن كل هذا قليل، هذا «التعالي» العلمي قليل بالنسبة إلى روحانيينا، قليل حتى إذا كانت اللجنة على حق، وفي هذا بالذات تكمن المصيبة. ثم من يدري... فقد يكون الروحاني المقتنع «جدياً» على حق عندما يقول: حتى إذا كان استحضار الأرواح مجرد ترهات، فإن الأمر هنا لا يقتصر على مجرد وجود حيل فظة، بل لا بد من أن يكون هنا أمر آخر ينبغي التعامل معه على نحو أكثر لطفاً ولباقة، إذا صح التعبير، وذلك لأن «زوجته، وأولاده، ومعارفه لن يعمدوا إلى خداعه» وهلم جراً وهلم جراً. صدقوني: إنه سيظل متشبثاً برأيه ولن تستطيعوا ثنيه عنه. إنه يعتقد اعتقاداً جازماً أن القضية هنا ليست مجرد حيل لا أكثر... وقد اقتنع بهذا نهائياً.

وفي الواقع فإن كل الموضوعات الأخرى التي تطرحها اللجنة تتسم تماماً تقريباً بمثل هذا الطابع المتعالي: «إن هؤلاء الذين ينظرون إلى الأمر بخفة، هم أنفسهم الذين يضغطون بلا وعي على الطاولة، فيجعلونها تتأرجح؛ وهم يرغبون في خداع أنفسهم، ولذا تصدر عن الطاولة تلك الدقات؛ الأعصاب مختلة، وهم يجلسون في العتمة، والهارمونيكا تعزف، والخُطّافات الصغيرة مهيأة في أكمام القمصان (وهذه، بالمناسبة، هي فرضية السيد راتشينسكي*) والطاولة تُرفع بطرف القدم» وهلم جراً، وهلم جراً. ولكن مع ذلك فإن كل هذه الأقوال لا تقنع أحداً من الذين يرغبون في الاستسلام للإغواء. «على رسلكم، الطاولة عندي تزِنُ بودَيْن** ولا أستطيع، مهما فعلت، زحزحتها من مكانها بطرف قدمي؛ فما بالكم برفعها في الهواء! إن هذا غير ممكن على الإطلاق، ولا يقدر عليه سوى حاوٍ أو مشعوذ، أو صاحبتكم السيدة كلاير بآلتها المخبأة تحت تنورتها المنتفخة، أما أنا فليس في أسرتي مشعوذون وبهلوانات». ومختصر الكلام أن استحضار الأرواح، هو من دون شك، ضلال كبير، وفاحش، وشديد الغباء، ومذهب فاسد، وجهل مطبق، ولكن المصيبة في أن كل هذا ربما لا يجري وراء الطاولة ببساطة بالغة، كما تريد لنا اللجنة أن نصدق، ولا يجوز أيضاً أن نصف الروحانيين كافة وبلا استثناء بالبلداء والأغبياء؛ لأننا بهذا لا نفعل سوى إهانة الجميع شخصياً، مما يرجح عدم وصولنا إلى أي شيء. ويبدو أنه كان علينا أن نتخذ من هذه الضلالة موقفاً آخر، يرتبط على نحو ما بظروفنا الاجتماعية الحالية، مما كان يستدعي تبديل اللهجة

(*) سيرغي راتشينسكي (1833-1902) عالم نبات، ومن الشخصيات الفاعلة في مجال التعليم الشعبي. (ن).
(**) البود: وحدة وزن روسية قديمة تعادل (16.38) كغ. (م).

وأسلوب التناول. وكان ينبغي أن نأخذ بالحسبان، على الأخص، المغزى الغيبي الذي تنطوي عليه الروحانية وهو شيء ضرره فوق كل ضرر. بيد أن هذا المغزى بالذات لم تفكر فيه اللجنة بتروٍ. لم يكن بمقدورها، طبعاً، أن تسحق هذا الشر بحال من الأحوال، ولكن كان بوسعها، على الأقل، لو لجأت إلى أساليب أخرى، ليست على هذا القدر من السذاجة والاستكبار، أن توحي حتى إلى الروحانيين باحترام استنتاجاتها؛ أما تابعوهم الذين ما يزالون مترددين، فقد كان بإمكانها أن تؤثر فيهم تأثيراً قوياً جداً. ولكن اللجنة رأت، كما يبدو، أن أي مقاربة أخرى لهذه الظاهرة، لا تنطلق من أنها شعوذة، وليست شعوذة بسيطة، بل قائمة على الخداع والاحتيال، هي مقاربة تهين كرامتها العلمية. إن أي افتراض يذهب إلى أن استحضار الأرواح هو ظاهرة ما، وليس مجرد خداع فظ وشعوذة، هو، في نظر اللجنة، افتراض غير معقول؛ وإلّا فماذا سيقولون في أوربا عن علمائنا؟ وعلى هذا فإن العلماء، بما أنهم مقتنعون سلفاً بأن المطلوب منهم لا يتعدى الكشف عن الاحتيال فحسب، قد أسبغوا على قرارهم بأنفسهم صفة الحكم المسبق. صدِّقوا أنه إذا صدف لمؤمن باستحضار الأرواح يتسم بالذكاء (أؤكد لكم أن ثمة أناساً أذكياء يفكرون بعمق في ظاهرة استحضار الأرواح فليسوا كلهم أغبياء) أن قرأ في الصحف تقريراً عن المحاضرة العامة التي ألقاها السيد مندلييف، وقرأ في هذه التقرير العبارة الآتية:

«تتشكل من هذه الدقات، وفق أبجدية اصطلاحية، كلمات وعبارات وأقوال كاملة تتصف دائماً بِسمة التطور العقلي لدى الوسيط الذي تجري الجلسة بمساعدته. هذه حقيقة».

فإنه، على ما أظن، سيقول لنفسه فجأة: إن هذه «السمة الدائمة للتطور العقلي لدى الوسيط الذي...إلخ» إن هذه المسألة، هي بالذات، القضية الجوهرية في دراسة استحضار الأرواح، والاستنتاج يجب أن يُبنى على أساس أكثر التجارب دقة وإحكاماً، وها هي لجنتنا ما إن تناولت القضية (هل اشتغلت طويلاً يا ترى بدراسة هذه المسألة!) حتى حددت على الفور أن هذه حقيقة. ويا للحقيقة! ربما استرشدت اللجنة في حالتنا هذه برأيٍ ألماني أو فرنسي، ولكن في هذه الحالة أين هي تجربتنا الذاتية؟ إن ما لدينا هو رأي فقط، وليس استنتاجاً منبثقاً من تجربة ذاتية، وأعضاء اللجنة ليس بمقدورهم أن يقرروا، استناداً إلى ما فعلته السيدة كلاير وحده، أن التطابق بين الأجوبة الصادرة عن الطاولات من جهة «ومستوى تطور الوسطاء العقلي» من جهة أخرى هو حقيقة عامة. ثم إنه من المستبعد أن يكونوا قد درسوا السيدة كلاير من جزئها الرأسي، الأعلى، أي من جانبها العقلي؛ فهم لم يجدوا سوى الآلة التي تطقطق، ولكنهم وجدوها في مكان آخر تماماً. والسيد مندلييف كان عضواً في اللجنة، وعندما ألقى محاضرته فإنه ألقاها، كما هو مفترض، باسم اللجنة ككل. أجل، إن هذا الاستنتاج السريع

المتعجل، الذي اعتمدته اللجنة بصدد هذا البند المهم من بنود البحث، ومع كون التجارب العملية على هذه الدرجة من التفاهة، هو استنتاج موغل في التعالي، ومن المستبعد أن يكون علمياً تماماً...

حقاً أنهم قد يفكرون على هذا النحو. ومثل هذه الخفة المتعالية في بعض الاستنتاجات تعطي المجتمع، ولا سيما أولئك الروحانيين المتشبثين بقناعاتهم، ذريعة للإيغال في ضلالاتهم أكثر فأكثر. سيقولون: «تعالٍ، واستكبار، وتحامل، وقصد مسبق، وتذمرهم يفوق الحد!...» ويظل استحضار الأرواح صامداً.

P.S.*: قرأت للتو تقريراً عن المحاضرة الثانية التي ألقاها السيد مندلييف عن استحضار الأرواح. وهو يعزو فيها إلى تقرير اللجنة فعاليةً علاجية أثّرت في الكُتّاب: «سوفورين لم يعد يؤمن إيماناً قوياً باستحضار الأرواح، وبوبوريكين كذلك، شُفي على ما يبدو، أو هو، على الأقل، يتعافى. وأخيراً فإن دوستويفسكي في «يومياته» قد تعافى أيضاً: فهو في كانون الثاني (ديسمبر) كان ميالاً إلى الروحانية، بينما نجده في آذار (مارس) يذمها: ما يعني أن «التقرير» فعل فعله». وعلى هذا فإن السيد مندلييف الموقر قد ظن أنني في كانون الثاني (ديسمبر) كنت أمتدح استحضار الأرواح؟ وهل هذا بسبب الشياطين يا ترى؟

لا بد أن يكون السيد مندلييف طيب النفس إلى حد غير عادي. فهو بعد أن سحق الروحانية سحقاً في محاضرتيه، تصوروا أنه عاد ليمتدحها في خاتمة محاضرته الثانية. واحزروا علامَ: «الشرف والمجد للروحانيين» (أوه لقد وصل الأمر إلى الشرف والمجد، فلماذا فجأة كل هذا؟). إنه يقول: «الشرف والمجد للروحانيين، لأنهم ناضلوا بشرف وشجاعة، عما بدا لهم أنه الحقيقة، من دون أن يخافوا المعتقدات البالية!». يظهر أن هذا القول جاء من قبيل الشفقة، أو، إذا جاز القول، من قبيل اللباقة المتأتية من فرط الشعور الذاتي بالنجاح، ولكن لا أدري: هل جاء هذا القول لبقاً! إنه تماماً كشهادة أصحاب المعاهد التعليمية الداخلية الذين يزكّون أحياناً تلاميذهم قائلين: «أما هذا، فمع أنه غير مؤهل لأنه يتباهى بقدراته الذهنية كأخيه الأكبر، وليس أمامه مستقبل واسع، ولكنه بالمقابل صافي النية وحسن السلوك». ما الذي سيحدثه هذا في نفس الأخ الأصغر! كما أنه امتدح الروحانيين (ومرة ثانية بأن لهم «الشرف والمجد») لأنهم في عصرنا المادي هذا يهتمون بالروح. وهم راسخو القدم، إن لم يكن في العلم، ففي الإيمان، إنهم يؤمنون بالرب. لا بد أن الأستاذ الموقر ساخر كبير، أما إذا كان يقول هذا ببراءة، وليس من باب السخرية، فهو، إذاً، بالعكس «لا ساخر» كبير.

(*) باللاتينية: حاشية، استدراك. (م).

من رسالة خاصة

يسألونني هل ستكتب عن قضية كاييروفا؟ وقد وصلتني حتى الآن عدة رسائل تتضمن هذا السؤال. وإحدى هذه الرسائل ذات طابع خاص، ومن الواضح أنها لم تكتب للنشر، ولكنني أسمح لنفسي بأن أورد منها بضعة أسطر، ومع الحرص، بالطبع، على الإغفال التام لاسم كاتبها. وآمل إلّا يعتب علي المرسل الموقر؛ فأنا لا أقتبس منها إلا لأنني على قناعة بأنها كتبت عن صدق وإخلاص، بوسعي أن أقدرهما حق قدرهما.

«... قرأنا قضية كاييروفا ونحن نشعر باشمئزاز شديد. إن هذه القضية تجسد تجسيداً مركزاً كما في بؤرة العدسة لوحةَ الغرائز الباطنية، التي تشكَّلَتْ الشخصيةُ الرئيسية فيها (كاييروفا) عن طريق الإعداد الثقافي: فأمها كانت مواظبة على الشرب في وقت الحمل، وأبوها كان سكيراً، وأخوها أضاعت الخمر عقله وأطلق النار على نفسه، وابن عمها ذبح زوجته، وجدتها لأبيها مجنونة، ومن تربة هذه الثقافة نشأت هذه الشخصية المستبدة الجامحة في شهواتها الباطنية؛ وحتى سلطة الاتهام تحيّرت إزاءها وراحت تتساءل: أهي مجنونة؟ أما الخبراء فإن بعضهم نفى ذلك نفياً قاطعاً، وبعضهم أجاز احتمال الجنون، ولكن ليس بالنسبة إليها نفسها، بل بالنسبة إلى تصرفاتها، ولكن خلال هذه العملية كلها تلوح أمامنا امرأة ليست مجنونة، بل امرأة بلغت الحدود القصوى لإنكار كل ما هو مقدس؛ فبالنسبة إليها لا وجود للأسرة، ولا لحقوق امرأة أخرى: ليس في زوجها فحسب، بل في الحياة نفسها: فكل شيء موجود من أجلها وحدها فقط، ومن أجل نزواتها الجسدية.

قد يكونون قد برّؤوها بصفتها مجنونة، وإذ اكان الأمر هكذا فإننا نحمد الرب! إذ إنهم، على الأقل، يعزون الفساد الأخلاقي لا إلى التقدم العقلي، بل إلى دائرة الأمراض النفسية.

ولكن في «صالة الجمهور السفلى المخصصة للسيدات حصراً دوى التصفيق» («وقائع البورصة»)*.

(*) صحيفة بطرسبورغية (1880 - 1917). (م).

لِمَ التصفيق؟ هل هو بسبب تبرئة المجنونة، أم لانتصار الطبيعة الشهوانية الجامحة، وللكلبية[5] التي تجلت في شخصية المرأة؟

إن من يصفق هن السيدات! الزوجات والأمهات هن اللواتي يصفقن! وقد كان الأحرى بهن أن يبكين بسبب تدنيس المثل الأعلى للمرأة على هذا النحو... (ملاحظة: إنني أُسقط هنا بضعة أسطر جارحة) أيُعقل أن تسكتوا عن هذا؟».

كلمة جديدة من الأقاليم

تأخر الوقت كثيراً على إثارة قصة كاييروفا (المعروفة لدى الجميع كما يبدو لي)، ثم إن كلمتي حول مثل هذه الظواهر الطابعية في حياتنا الجارية، ووسط مثل هذه الأمزجة الطابعية السائدة لدى جمهورنا، لا أعيرها أية أهمية؛ ولكن مع ذلك أرى أن الأمر يستحق أن نقول بصدد هذه «القضية» ولو كلمة صغيرة، مع أن الوقت قد تأخر؛ ولكن بما أنه لا شيء يتوقف، ولذا فلا شيء يأتي متأخراً؛ فكل شيء، على العكس، يستمر ويتجدد، على الرغم من فواته في مرجعيته الأولى. والمهم، ومرة ثانية أقول: ليعذرني مراسلي في اقتباسي تلك الفقرة من رسالته. إن الرسائل التي تصلني لي وحدي كافية لإعطائنا الحق بأن نستنتج أن ثمة ظاهرة بارزة جداً في حياتنا الروسية، كنت قد أشرت إليها مؤخراً على نحو غير مباشر، وهي أن: الجميع يساورهم القلق، والجميع يشاركون في كل شيء، والجميع يرغبون في التعبير عن آرائهم وإظهار ذواتهم، ولكن الأمر الوحيد الذي لا أستطيع أن أجزمه هو: فيم يرغبون أكثر يا ترى: أفي أن يتفرد كل منهم برأيه، أم في أن يتوحدوا في جوقة واحدة منسجمة. إن هذه الرسالة التي وصلتني من أحد الأقاليم هي رسالة خاصة، ولكنني أشير هنا، بالمناسبة، إلى أن الأقاليم عندنا عاقدة العزم على أن تعيش حياتها بأسلوبها الخاص، وكأنها ترغب في التحرر من العاصمتين معاً*. ولست وحدي من لاحظ هذا، فقد سبق أن تحدَّثتْ عنه الصحافةُ قبلي بكثير. وهاهي مجموعة أدبية كاملة صادرة في قازان، وموسومة بعنوان «الخطوة الأولى»، تستقر على طاولتي

(*) المقصود: بطرسبورغ (العاصمة الأولى) وموسكو (العاصمة الثانية) وذلك من سنة 1712 وحتى سنة 1918. (م).

منذ شهرين، وكان يجب أن أقول عنها كلمة منذ وقت طويل، لا لشيء إلّا لأنها تطمح بإصرار إلى أن تقول كلمة جديدة، ليست «عاصمية» بل «أقاليمية»، و«ضرورية ضرورة ملحة». وماذا في ذلك؟! إن كل هذا ليس سوى أصوات جديدة في الجوقة الروسية القديمة؛ ولذا فهي مفيدة، وهي في جميع الأحوال تستحق الاهتمام. فهذا الاتجاه الجديد يصدر، طبعاً، عن مصدر ما. صحيح أنه لم يُنْطَق بعد، في الحقيقة، بأية كلمة من جميع هذه الكلمات الجديدة المزمع قولها، ولكن قد نسمع بالفعل من أقاليمنا والأطراف عندنا شيئاً لم يُسمع حتى الآن. وإذا حاكمنا الأمور نظرياً على نحو تجريدي، وجدنا أنها يجب أن تتخذ هذا المسار بالذات: فمنذ عهد بطرس وحتى أيامنا ما زالت بطرسبورغ وموسكو هما اللتين تقودان روسيا؛ أما الآن إذ انتهى دور بطرسَبورغ والمرحلة الثقافية للنافذة المفتوحة على أوربا*؛ الآن... نعم، بالذات، يبرز أمامنا سؤال: أصحيح أن دور بطرسبورغ وموسكو قد انتهى؟ إذا كان هذا الدور قد تغيّر فإنه حسب رأيي، لم يتغير إلا قليلاً جداً؛ ولنتساءل: أكانت بطرسبورغ وموسكو فيما قبل، وطوال السنين المئة والخمسين التي مضت هما اللتين تقودان روسيا حقاً؟ هل كان الأمر هكذا فعلاً؟ أوَلم تكن روسيا كلها، بالعكس، هي التي تأتي إلى بطرسبورغ وموسكو، وتتجمع فيهما خلال كل هذه السنين المئة والخمسين، وكانت هي التي تقود نفسها، في حقيقة الأمر، وتتجدد بلا انقطاع، بفضل التدفق المستمر للقوى الجديدة القادمة من أقاليمها وأطرافها، حيث كانت المهام، وأقول هذا بشكل عابر، هي نفسها المهام المطروحة أمام جميع الروس، سواء في موسكو، أو في بطرسبورغ، أو في ريغا، أو في القفقاس، أو في أي مكان آخر. وإذا نحن حاكمنا الأمور نظرياً، من حيث المبدأ، فإننا سنجد أنه ليس ثمة تناقض يفوق، كما يبدو، التناقض بين بطرسبورغ وموسكو: فبطرسبورغ قد أنشئت كنقيض لموسكو ولمجمل الفكرة التي تنطوي عليها، كما يبدو، في حين أن هذين المركزين للحياة الروسية شكّلا، من حيث الجوهر، مركزاً واحداً، وقد حدث هذا على الفور منذ البداية، ومنذ أن تم التغيير، وبغض النظر عن بعض السمات المميزة التي كانت تفرق بينهما. فما كان ينشأ ويتطور في بطرسبورغ كان ينشأ على الفور هو نفسه من غير زيادة أو نقصان نشأة مستقلة، ويصلب عوده، ويتطور في موسكو؛ والعكس صحيح. كانت الروح واحدة، وليس في هاتين المدينتين فحسب، بل فيهما وفي روسيا كلها معاً، بحيث أن روسيا كلها كانت توجد في كل مكان في روسيا بأسرها. أوه، نحن ندرك أن كل ناحية في روسيا يمكن ويجب أن تكون لها خصائصها المحلية، وأن يكون لها الحق الكامل في تطوير هذه الخصائص؛ ولكن هل تنطوي طبيعة هذه الخصائص على

(*) «... المرحلة الثقافية للنافذة المفتوحة على أوربا»: يستخدم دوستويفسكي هنا متهكماً كلمات «فاتحة» قصيدة بوشكين «الفارس النحاسي». (ن).

خطر إيقاع التفرقة الروحية، أو حتى التسبب بأي نوع من أنواع سوء التفاهم؟ إن المستقبل عندنا، على العموم، «مياه مظلمة»*، ولكنه هنا، كما يبدو لي، أوضح منه في أي مكان آخر. وعلى كل حال نسأل الرب أن ييسر تطور كل ما بإمكانه أن يتطور، طبعاً من الأمور الجيدة، وهذا أولاً، وثانياً وهذا هو المهم: نسأل الرب أن لا نفقد الوحدة أياً كان العِوَض، وأياً كانت الخيرات، والوعود والثروات التي سننالها لقاء ذلك، فمن الأفضل أن نكون معاً من أن نكون متفرقين في جميع الأحوال، وهذا هو المهم. ستقال كلمة جديدة كل الجدة، وخصوصاً من قبل الأقاليم والأطراف عندنا، وعلى الأقل في هذه الأيام، الآن؛ إن ما سيُقال لن يكون شيئاً لم يسمع بمثله قط، ومما يصعب حمله. إن الروس لا يزالون في بداية حياتهم، وقد شرعوا ينهضون للتو، ومن المبكر أن يقولوا كلمتهم، ولعل كلمتهم هذه ستكون موجهة إلى العالم كله؛ ولذا فإن أمام موسكو، وهي مركز الروس، ما زالت الحياة طويلة، حسب رأيي، وأرجو من الرب ذلك. وموسكو لم تصبح بعد روما الثالثة[92]، ولكن لا بد للنبوءة من أن تتحقق، لأنه «لن تكون ثمة روما رابعة»، ولا يمكن للعالم أن يستغني عن «روما». أما بطرسبورغ فإنها على وفاق مع موسكو أكثر من أي وقت آخر. نعم، عليّ أن أعترف بأنني لا أقصد بـ «موسكو» هنا المدينة ذاتها بقدر ما أقصد التعبير عن مفهوم مجازي كنائي؛ ولذا لا داعي البتة تقريباً لدى قازان واسترخان وغيرهما أن تشعر بالاستياء. أما مجموعاتهم [الأدبية] فنحن نُسرُّ بها، حتى وإن صدرت «الخطوة الثانية» فهذا سيكون أفضل، سيكون أفضل.

القضاء والسيدة كاييروفا

ابتعدنا كثيراً عن قضية كاييروفا. كنت أريد فقط أن أقول لمراسلي إنني، وإن كنت متفقاً معه في الرأي حول «انفلات الغرائز وجموح الشهوات الاستبدادي»، فأنا مع ذلك أرى في نظرة مراسلي الموقر صرامة مفرطة، بل حتى غير هادفة، (لأنه هو نفسه أيضاً يكاد يقر أن المجرمة

(*) المستقبل عندنا «مياه مظلمة» تعبير مقتبس من القول المأثور المأخوذ أصلًا من سفر المزامير في العهد القديم: (المزمور 17/ 12): «جعل الظلمة ستراً له، مظلة حوله، ظلام المياه ودَجْنَ السحب»، وذلك للتعبير عن شيء ما غامض. (ن).

مجنونة)، كما أرى في نظرته كذلك إفراطاً في المبالغة، وخصوصاً لأنه يختتم رسالته باعترافه بتأثير الوسط إلى الحد الذي يجعل النضال ضده مستحيلاً. وأنا من جهتي أقول إنني ببساطة، سررت لأنهم أخلوا سبيل كاييروفا. ولكن الشيء الوحيد الذي لم أُسرّ له هو أنهم برؤوها. سررت لأنهم أخلوا سبيلها مع أنني لا أصدق حرفاً واحداً من قصة جنونها، على الرغم من آراء فريق من الخبراء: وليكن هذا رأيي الخاص، وأنا أحتفظ به لنفسي؛ وإلى هذا فإن الشفقة على هذه التعسة تزداد عندما ننفي جنونها، لأنها إذا كانت مجنونة فإنها «لم تكن تعي ما تفعله»؛ أما إذا كانت غير مجنونة: فيا لفظاعة الآلام التي ستعانيها! إن القتل - إذا لم يكن القاتل واحداً من عصابة «الشبان الكبّة»[93]، شيء ثقيل الوطأة ومعقد. إن بضعة الأيام هذه التي كانت تشعر فيها كاييروفا بالتردد عندما تأتي إلى عشيقها زوجتُه الشرعيةُ، وهذا الشعور بالإهانة الذي كان يزداد احتداماً أكثر فأكثر في داخلها، وهذا الإحساس بالاستياء الذي كان يتنامى في نفسها كل ساعة (أوه، إنها هي المسيئة، هي كاييروفا، وأنا لم أفقد عقلي بعد، ولكن الشفقة عليها تزداد عندما نرى أنها في سقوطها لم تستطع أن تدرك أنها هي المسيئة، بل كانت ترى العكس، وتحس بالنقيض تماماً!) ثم، في النهاية، هذه الساعة الأخيرة قبل «المأثرة»، ليلاً، على الدرج، وهي تمسك بالشفرة، التي اشترتها أمس؛ لا... إن كل هذا مرهق، وخاصة لنفس مضطربة ومزعزعة الأركان كنفس كاييروفا! فالعبء هنا يفوق الطاقة، حتى لكأنك تسمع أنين المرأة وقد ناءت بحملها الساحق؛ ثم بعد ذلك تأتي عشرة أشهر من المتاعب المضنية، ومشافي الأمراض العقلية، والخبراء والجرجرة المستمرة من مكان إلى مكان، وفي أثناء ذلك كانت هذه المجرمة الخطيرة المسكينة، هذه المذنبة من الرأس حتى القدم، ليست في حقيقة الأمر سوى كائن وصل إلى درجة الطيش، والفوضى، وعدم الإدراك، وعدم الاكتمال، والخواء، والشطط، وعدم السيطرة على الذات، والتردد، وظل كذلك إلى آخر دقيقة من صدور الحكم، بحيث إننا عند إخلاء سبيلها شعرنا، على نحو ما، بشيء من الراحة. والشيء الوحيد الذي يدعو إلى الأسف أن هذا لم يكن ممكناً من دون تبرئتها، وإلّا لحدثت فضيحة على نحو ما تشتهون. ويبدو لي أن المحامي المكلّف السيد أوتين* كان بمقدوره، على الأرجح، أن يحدس بالتبرئة مسبقاً، وأن يكتفي، من ثم، بعرض الواقعة فحسب، من دون أن يعمد إلى امتداح الجريمة، لأنه، كما نرى، امتدح الجريمة تقريباً... وهذا ما يؤكد أنه لا يوجد عندنا معيار لأي شيء. إن نظرية داروين في الغرب فرضية عبقرية، أما عندنا فقد أصبحت بديهية منذ مدة طويلة. وفكرة أن الجريمة غالباً جداً ما تكون مجرد مرض لها في الغرب مغزىً عميق، لأنها هناك

(*) يفغيني أوتين (1843-1894) محام وصحفي [ليبرالي]. (ن). والمحامي المكلف هو محام موظف لدى الدولة وتابع لمحكمةِ دائرةٍ إدارية ما (في روسيا منذ عام 1864 حتى عام 1917). (م).

تتميز تميزاً شديد الوضوح، أما عندنا فإن هذه الفكرة لا تنطوي على أي مغزى لأنها لا تتميز على الإطلاق؛ فأي شيء، أو أية فعلة شنيعة يقوم بها حتى أحد «الشبان الكُبّة»، تراهم يكادون يصفونها بأنها مرض، بل إنهم، ويا للأسف! يرون في هذا شيئاً ما ليبرالياً! من البديهي أنني هنا لا أتحدث عن الأشخاص الجديين (ولكن هل هم كثيرون عندنا هؤلاء الأشخاص الجديون بهذا المعنى؟)، إنما أتحدث عن رجل الشارع، عن الناس الوسط اللاموهوبين من جهة، وعن المحتالين الذين يتّجرون بالليبرالية من جهة ثانية، والذين لا يهمهم على الإطلاق سوى أن يكون أو يبدو ما يفعلونه ليبرالياً؛ أما فيما يخص السيد أوتين فإنه عندما «امتدح الجريمة» كان، على الأرجح، يتصور أنه، بصفته محامياً مكلفاً، لا يستطيع أن يتصرف على نحو آخر؛ وهكذا يستسلم أشخاص، أذكياء بالتأكيد، لتصوراتهم إلى درجة تجعل نتائج تصرفاتهم تأتي بعيدة تماماً عن الذكاء. وأعتقد أن المحلفين لو كانوا في وضع آخر، أي لو كان بمقدورهم أن ينطقوا بحكم آخر، لكانوا، على الأرجح، سيصبون جام غضبهم على السيد أوتين لمبالغته إلى حدٍ كان من شأنه أن يلحق الضرر بموكلته. ولكن القضية كلها هنا كانت تقوم في أن المحلفين لم يكن بمقدورهم على الإطلاق إصدار حكم آخر مختلف. وقد امتدحهم البعض في الصحافة على هذا، بينما ذمهم آخرون علناً. وأعتقد أن لا مكان هنا للمديح أو الذم؛ الأمر ببساطة أنهم نطقوا بهذا الحكم لعدم قدرتهم البتة على النطق بأي حكم آخر. واحكموا بأنفسكم بعد أن تقرؤوا ما ورد في التقرير الذي نشرته الصحافة:

«لقد أجاب المحلفون عن السؤال الآتي الذي وجهته إليهم المحكمة استجابة لطلب جهة الاتهام: «هل أصابت كايروفا، عن سابق عزم وتصميم، الكسندرا فيليكانوفا، بعدة جروح في عنقها ورأسها وصدرها، بواسطة الشفرة، بقصد قتلها، ولكن فيليكانوفا وزوجها أوقفاها وحالا دون مضيها في تنفيذ نيتها الهادفة إلى القتل؟»، أجابوا بالنفي».

لنتوقف هنا. فهذا الجواب عن السؤال الأول. ولكن هل بالإمكان الإجابة عن سؤال مطروح بهذا الشكل؟ من يطاوعه ضميره على الإجابة عن مثل هذا السؤال بـ «نعم»؟ (في الحقيقة، إن الإجابة بـ «لا» غير ممكنة أيضاً هنا، ولكننا نتكلم الآن على قرار المحلفين الإيجابي فقط). ليس بوسع أحد أن يرد بالإيجاب على سؤال مطروح بهذا الشكل إلا الذين يمتلكون قدرة ربانية خارقة على رؤية كل شيء. وحتى كايروفا نفسها يمكن أنها كانت تجهل تماماً: «هل كانت ستكمل الذبح حتى النهاية أم لا»، ولكن المحكمة توجه إلى المحلفين سؤالاً قاطعاً: «هل كانت ستكمل الذبح لو لم يوقفاها؟» ومع أنها كانت تعرف عندما اشترت الشفرة في اليوم السابق لِمَ اشترتها، إلّا أنها مع ذلك كان يمكن ألّا تعرف: «هل ستقدم أصلاً على الذبح أم لا، وليس فقط هل ستكمل الذبح حتى النهاية أم لا؟» والأرجح، الأرجح أنها

لم تكن تعرف عن هذا أي شيء حتى عندما كانت تجلس على الدرج والشفرة في يدها، وخلفها يضطجع في سريرها عشيقُها ومنافستُها. لا أحد، لا أحد في العالم كان بمقدوره أن يعرف عن هذا أي شيء. بل إنني أؤكد، فضلاً عن هذا، وحتى لو بدا ما أؤكده هذراً لا معنى له، أنها عندما شرعت في الذبح ربما لم تكن تعرف بعد: هل تريد أن تقتل غريمتها أم لا، وهل هي تذبحها لهذه الغاية؟ لاحظوا أنني إذ أقول هذا لا أقصد البتة أنها لم تكن في وعيها؛ بل إنني حتى لا أفترض أنها كانت مصابة بلوثة ما مهما كانت ضئيلة. بالعكس، فهي، بالتأكيد، كانت في لحظة الذبح تعرف أنها تذبح، ولكن هل كانت تضمر عن وعي غايةً تريد أن تحققها وهي إزهاق روح منافستها؟ هذا هو الذي كان يمكن إلّا تعرفه البتة، وأرجوكم، كرمى للرب، لا تعدوا هذا هذراً لا معنى له: فقد كان بالإمكان أن تذبح وهي في سورة الغضب والكراهية، من غير أن تفكرعلى الإطلاق في العواقب. وإذا ما حكمنا عليها انطلاقاً من طبيعتها كامرأة مشوشة ومعذبة، وجدنا أن الواقعة، على الأرجح، سارت على هذا النحو بالذات. ولاحظوا أن مصير هذه المرأة التعسة بمجمله كان يتوقف على إجابة المحلفين بـ «نعم»، على سبيل المثال، عن السؤال الآتي: هل كانت ستكمل الذبح، والأهم: هل كانت تذبح بقصد القتل حتماً؟ وعندئذ يكون المصير إما القتل، أو النفي والأشغال الشاقة. فكيف يمكن للمحلفين أن يحمّلوا ضمائرهم هذا العبء الثقيل؟ لقد أجابوا بالنفي لأنه لم يكن باستطاعتهم أن يصوغوا جوابهم على نحومغاير. ستقولون إن جريمة كاييروفا ليست مختلقة ولا من بنات الأفكار، وليست مستمدة من الكتب؛ إنما هي ببساطة، «قضية نسوانية»، غير معقدة وجدُّ بسيطة، أضف إلى هذا أن منافستها كانت مضطجعة على سريرها. ولكن هل الأمر هكذا؟ هل هو بهذه البساطة؟ وما قولكم لو أنها بعد أن ضربت عنق فيليكانوفا بالشفرة صرخت، وارتعدت، وولت هاربة؟ وما أدراكم أن هذا لم يكن ليحدث؟ ولو حدث هذا لكان من الممكن جداً أن لا يصل أي شيء إلى القضاء. أما الآن فإنهم حصروكم في الزاوية، ووجهوا إليكم سؤالاً قاطعاً: «هل كانت ستكمل الذبح أم لا»، والهدف، طبعاً هو إصدار الحكم عليها تبعاً لجوابكم: فإما النفي والأشغال الشاقة، أو لا. وأي تعديل، مهما كان بسيطاً، في صيغة جوابكم، يقابله عدد محدد من سنوات السجن أو النفي! ولكن ماذا لو أنها بعد أن ضربت ضربتها الأولى فزعت وشرعت تذبح نفسها؟ ألم يكن من الممكن في هذه الحالة أن تقتل نفسها؟ وأخيراً، ماذا لو لم يقتصر الأمر على أنها لم تفزع، بل بالعكس، عندما أحست برذاذ الشخبة الأولى من الدم الحار قفزت بسعار، ولم تكتف بالإجهاز على فيليكانوفا، بل انهالت بالسباب فوق الجثة، وقطعت العنق حتى «فصل» الرأس عن الجسد، وجدعت الأنف، وبترت الشفاه، ولم تع فجأة أنها هي التي فعلت كل ذلك، إلّا بعد أن انتزعوا الرأس من بين يديها؟ إنني أطرح هذا السؤال

لأن كل هذا كان يمكن أن يحدث، ويصدر عن امرأة واحدة بعينها، عن نفس واحدة بذاتها، وعن شخص يتملكه المزاج نفسه، ويوجد في الظروف ذاتها في كلتا الحالتين؛ وأنا أقول هذا لأنني أشعر، على نحو ما، بأنني لست على خطأ. وهكذا فكيف كان يمكن أن نجيب بعد ذلك، عن مثل هذا السؤال الصعب، الذي تطرحه المحكمة؟ فنحن هنا لسنا بصدد محادثة منزلية حول مائدة الشاي، بل بصدد تقرير مصير. وهكذا ترون أنه يمكننا طرح أسئلة ونحن نجازف أشد المجازفة بأن لا نتلقى عنها أي جواب.

ولكنهم سيقولون تعليقاً على ذلك: في هذه الحالة لن يكون بالإمكان أبداً إتهام أحد بالقتل، أو مقاضاته بسبب القتل، أو الشروع فيه، إذا لم تكتمل الجريمة حتى النهاية، أو إذا شفيت الضحية؟ لا، ويبدو لي أنه لا داعي للقلق بهذا الصدد، لأن ثمة حوادث قتل بمنتهى الوضوح، حتى وإن لم تكتمل فيها الجريمة (وحتى إذا كان هذا بإرادة المجرم ذاته)، ومع ذلك يتجلى بوضوح لا مزيد عليه أن الفعل قد شُرع فيه بقصد القتل حصراً، ولا يمكن أن يكون ثمة أي قصد آخر. وأكرر أن المهم هنا هو ضمير المحلفين، وهذا شأن هام وعظيم؛ وفي هذا تتجلى حسنة القضاء الجديد، وهذا الضمير هو الذي يملي على المحلفين في الواقع القرار الجديد. فإذا أحس الإنسان في هذه اللحظة الفائقة الأهمية، بأنه يمتلك في داخله إمكانية الإجابة على نحو قاطع: «نعم، مذنب» فإنه، على الأرجح، لن يخطئ في إدانة المجرم؛ أو على الأقل، ستكون حالات الخطأ شديدة الندرة جداً. والأمر الوحيد المطلوب هنا أن يكون ضمير المحلفين هذا مستنيراً حقاً، وحازماً حقاً، ومعززاً بالإحساس المواطني بالواجب، وأن يكون منزهاً عن الانسياق مع الهوى بهذا الاتجاه أو ذاك، أي الانسياق باتجاه القسوة، أو باتجاه الرقة العاطفانية* الوبيلة. ولا ننكر أن تحقيق رغبتنا الثانية، أي تجنب الرقة العاطفانية، هو أمر صعب إلى حد ما؛ فالعاطفانية في متناول الجميع، والعاطفانية من السهولة بمكان، والعاطفانية لا تتطلب أي جهد، والعاطفانية مُربِحة جداً، والعاطفانية إذا اقترنت بـ «الاتجاه»** تسبغ، في أيامنا، حتى على الحمار مظهر الإنسان الحسن التهذيب...

وحدث مثل هذا أيضاً عندما طرحت المحكمة أمام المحلفين السؤال الثاني: «هل أصابت [المعتدية ضحيتَّها] بهذه الجروح، ولبلوغ الهدف نفسه، في سورة الغضب والحنق؟»، إذ لم يكن بمقدور المحلفين إلّا أن يجيبوا بالنفي، أي أن يقولوا «لا، لم تصبها»، لأن العبارة التي تلي ذلك، وهي: «ولبلوغ الهدف نفسه» تعني «بِنِيَّةٍ مُبيّتة مسبقاً تهدف إلى إزهاق روح فيليكانوفا»؛ ومما زاد في صعوبة الإجابة عن هذا السؤال أن «سورة الغضب والحنق» تنفي،

(*) الستمنتالية. (م).

(**) كلمة «الاتجاه» هنا ترد بمعنى «الالتزام باتجاه إيديولوجي معين» (وخاصة بالنهج الليبرالي). (م).

في الأغلبية الساحقة من الحالات، «النية المبيتة مسبقاً». وعلى هذا يمكن القول إن سؤال المحكمة الثاني هذا يبدو كما لو أنه يتضمن شيئاً من الهذر الذي لا معنى له.

ولكن سؤال المحكمة الثالث: «هل كانت كاييروفا تتصرف وهي مصابة بنوبة هياج ذهني تمت البرهنة عليه بدقة؟» ينطوي على هذر أكيد، لأن وجود السؤالين الأولّين بجانب السؤال الثالث يجعلهما يتنافيان معه تنافياً قاطعاً؛ إذ في حالة إجابة المحلفين عن السؤالين الأولّين بـ «لا»، أو حتى في حالة تركهما من دون جواب يبقى غير مفهوم: عمَّ تسأل المحكمة؛ بل يبقى غير مفهوم معنى عبارة «كانت تتصرف» هنا، فعن أي تصرف تحديداً يسألون، وكيف يحددون هذا التصرف؟ إن المحلفين لم يكن بمقدورهم البتة صياغة جوابهم على نحو ملائم، بسبب إلزامهم إلزاماً حتمياً بالإجابة إما بـ «نعم» أو «لا» حصراً، من دون بدائل.

وأخيراً، هناك السؤال الرابع: «إذا كانت [كاييروفا] قد تصرفت وهي غير مصابة بنوبة هياج ذهني، فهل تكون مذنبة في ارتكاب الجريمة حسب نص السؤال الأول، أم حسب نص السؤال الثاني؟» وقد ترك المحلفون هذا السؤال أيضاً من دون إجابة، وذلك طبعاً، لأنه ليس سوى تكرار للسؤالين الأوّلين.

وعلى هذا أخلت المحكمة سبيل كاييروفا. ولا شك في أن إجابة المحلفين «لا، لم تصبها» تنطوي على هذر لا معنى له، لأنها تنكر حقيقة الإصابة بجروح أصلاً، وهي حقيقة لا يجادل في وجودها أحد، ويراها الجميع رؤيا العين؛ ولكن كان من العسير عليهم قول أي شيء آخر وهم يتصدون للإجابة عن أسئلة مصوغة على هذا النحو بالذات؛ وعلى كل لا يجوز القول، على الأقل، إن المحكمة، بإخلائها سبيل كاييروفا، أو حتى بالعفو عنها، قد برأتها؛ هذا في حين أن السيد أوتين كان يطالب بتبرئتها بالذات، مبرراً تصرفها، ومعتبراً إياه تصرفاً سليماً وجيداً تقريباً. وطبعاً هذا أمر لا يصدق، مع ذلك فهذا الذي حصل.

السيد المحامي وكاييروفا

لن أحلل مرافعة السيد أوتين؛ وهي أصلاً لا تتسم بالموهبة؛ ففيها كثير جداً من العبارات ذات الأسلوب الرفيع، ومن «العواطف» المختلفة، ومن الإنسانوية الليبرالية - الاصطلاحية،

التي يلجأ إليها الآن الجميع تقريباً في «الخطابات»، وفي الأدب، بل يلجأ إليها حتى أشخاص لا يملكون ذرة من الموهبة أحياناً (ما يجعل هذا على لسان السيد أوتين في غير محله البتة)، وذلك من أجل أن يضفوا على أعمالهم مظهراً لائقاً، يُمْكِنهم بفضله «تمريرها». وهذه الإنسانوية الليبرالية - الاصطلاحية تفضح نفسها عندنا أكثر فأكثر مع مرور الزمن. والجميع يعرفون الآن أن كل هذا ليس أكثر من وسيلة مساعدة سهلة المنال؛ بل يراودني الظن بأن هذا لم يعد يعجب الآن - وليس قبل عشر سنوات - سوى قلة من الناس؛ ومع ذلك انظروا إلى أي حد لا تزال بساطة النفس شائعة بين الناس، ولا سيما عندنا في بطرسبورغ! وبساطة النفس هذا تعجب «الشخصيات الاجتماعية» عندنا. فالشخصية الاجتماعية ليس لديها وقت، على سبيل المثال، للانشغال بـ «قضية» والنفاذ إلى جوهرها، وإلى هذا فكلهم تقريباً قد قست قلوبهم إلى حد ما مع تقدم العمر، وإحراز النجاحات، فضلاً عن أنهم قد خدموا المبدأ الإنساني بالقدر الكافي، واجتازوا في خدمته شوطاً طويلاً، مما يؤهلهم لإعفاء أنفسهم من أن يتحملوا عبء الانشغال بتعاسات نفس صغيرة معذبة وفوضوية، لزبون ملتاث مفروض عليهم فرضاً؛ ومنذ وقت طويل أصبح يدق في صدور الكثيرين منهم، بدلاً من القلب، قطعة من شيء ما رسمي روتيني، وترى الواحد منهم يستأجر إلى أمد لا ينتهي، ومن أجل جميع الحالات الطارئة المستعجلة القادمة، مخزوناً احتياطياً من العبارات، والكلمات، والعواطف السطحية، والأفكار الضحلة، والإيماءات، والنظرات الاصطلاحية وكلها بالطبع وفق آخر مقتضيات الموضة الليبرالية، ومن ثم تراه ينغمس لمدة طويلة، بل طوال الحياة، في الطمأنينة والغبطة، ودائماً تقريباً تسير الأمور على ما يرام. وأكرر أن هذا التعريف للشخصية الاجتماعية الجديدة لا ينطبق البتة، حسب رأيي، على السيد أوتين: فهو موهوب، وعاطفته، على الأرجح فطرية، ولكنه مع ذلك أفرط في حشو مرافعته بكثير من العبارات الرنانة، إلى حد يكاد يدفعك إلى اتهامه لا أقول بضعف الذوق البلاغي، بل بأن موقفه من القضية في حالتنا هذه فيه بعض التهاون بل ربما كان يفتقر إلى الاتسام بالإنسانية. وينبغي الاعتراف بأن المحامين عندنا كلما كانوا أكثر موهبة ازداد انشغالهم، ومن ثم ضاق الوقت لديهم. ولو كان لدى السيد أوتين وقت أطول، لكان موقفه من القضية، حسب رأيي أكثر حميمية؛ ولو كان أكثر حميمية، لكان أكثر تروياً، ولما أنشد «قصيدة مدح» أشاد فيها بقصة غرامية مبتذلة، في حقيقتها، إلى أقصى حدود الابتذال، ولما أكثر من العبارات ذات الأسلوب الرفيع عن «اللبؤات المنتفضات اللواتي ينتزعون منهن أشبالهن»، ولما هاجم بمثل هذا الغضب الساذج ضحية الجريمة، السيدة فيليكانوفا، ولما «منَّنها» بأن المعتدية لم تجهز عليها (هذا ما فعله تقريباً!)، ولما عمد، في النهاية، إلى النطق بتلك العبارة المفاجئة للغاية، المبنيّة على تلاعب لفظي جناسي

بكلمات المسيح عن المرأة الخاطئة في الانجيل. وربما يكون كل هذا قد حدث في الواقع على نحو آخر، وربما يكون السيد أوتين قد بدا بمظهر جاد تماماً وهو يلقي مرافعته؛ فأنا لم أحضر المحاكمة. ولكننا نستنتج من الاستطلاعات الصحفية أن الموقف كان يتسم بنوع من الاستهتار المتعالي... باختصار كان ثمة ما يدل على قلة تروٍّ فظيعة، وعلى وجود كثير من اللحظات الكوميدية.

فأنا منذ بداية المرافعة تقريباً وجدت نفسي أقع في مأزق محير، ولا أستطيع أن أفهم: هل يتهكم السيد أوتين وهو يشكر للمدّعي العام أن مرافعته التي يتّهم فيها كاييروفا، فضلاً عن أنها «باهرة، وبليغة ومفعمة بالموهبة والإنسانية» كانت أقرب إلى الدفاع منها إلى الاتهام. أجل لقد كانت مرافعة المدعي العام بليغة وإنسانية، وهذا أمر لا يمكن أن يُشك فيه؛ كما لا يمكن الشك في أنها كانت ليبرالية إلى أقصى حد. وعلى العموم فإن كلاً من هذين السيدين يفرط في مديح الآخر، فيما المحلفون يصغون إليهما. ولكن بعد أن مدح السيد أوتين المدعي العام - المتِّهِم على مرافعته الدفاعية، لم يشأ أن يظل متسماً بالـ «أصالة» حتى النهاية، وأن يشرع في اتهام موكلته السيدة كاييروفا، بدلاً من أن يدافع عنها. وهذا يدعو للأسف، لأنه لو فعل لكان الموقف مسلياً جداً، ولربما كان لائقاً بالقضية؛ بل إنني أظن أن هذا لم يكن سيُدهش المحلفين كثيراً، لأن محلفينا يصعب إدهاشهم. إن ملاحظتي البريئة هذه، ليست أكثر من دعابة، طبعاً من جانبي: فالسيد أوتين لم يكن يتهم، بل كان يدافع؛ وإذا كان ثمة عيوب في مرافعته فإنها، بالعكس، تتمثل في اتصاف دفاعه بالحماسة المفرطة، حتى ليمكن القول إنه بالغ في الشطط، وأنا أفسر هذا، كما أسلفت، ببعض التهاون المسبق الذي اتسم به موقفه من «القضية». «سأتخلص، عندما يحين الوقت، باللجوء إلى الأسلوب الرفيع، وننتهي من هذا... المعرض»: هكذا، على ما يبدو، يفكر في أغلب الأحيان بعض أكثر محامينا انشغالاً في هذه الأيام. ويبذل السيد أوتين أقصى ما لديه من جهد، على سبيل المثال، كي يظهر موكلته بمظهر يتسم بأكبر قدر من المثالية والرومانسية، والروعة الخيالية، من دون أن يكون لهذا أي لزوم على الإطلاق: فالسيدة كاييروفا، من غير مُجَمِّلات، تبدو مفهومة أكثر، بيد أن السيد المحامي كان يتوجه، طبعاً، إلى ذوق المحلفين الفاسد. إن كل شيء فيها مثالي، وكل خطوة من خطواتها غير عادية، ونبيلة، ورشيقة؛ أما حُبّها فهو عاطفة فوّارة، إنه قصيدة! وعلى سبيل المثال، تُوقِّع كاييروفا، التي لم تقف على خشبة المسرح قط، عقداً بصفتها فنانة، وتسافر إلى أقصى روسيا، إلى أورينبورغ. إن السيد أوتين لا يؤكد ولا يُصر على أن هذا التصرف «يعكس طيبة نفسها المعهودة واستعدادها للتضحية بذاتها» ولكنه يتابع قائلاً: «هنا نلمس مثاليةً ما، ونوعاً من الهوس، وإنكاراً للذات بصورة رئيسة. لقد كانت بحاجة إلى العثور على

عمل كي تساعد أمها، وإذ بها تقبل بعمل لا يناسبها البتة، وتترك بطرسبورغ، وتتوجه إلى أورينبورغ. إلخ... إلخ... وماذا في ذلك؟ لم يحدث هنا البتة، كما يبدو، أي شيء متميز ومدهش؛ فكثير من الناس يمكن أن يسافروا من مكان إلى آخر، وكثير من الفتيات الفقيرات، الرائعات، التعسات، الموهوبات، يوافقن على السفر بشروط أسوأ بكثير من الشروط التي حصلت عليها السيدة كاييروفا. ولكن هذه المرأة، كما ترون، تبدو عند السيد أوتين ضحية لنكران الذات، ويتحول عقد التمثيل إلى ما يشبه المأثرة. ويجري، كل شيء بعد ذلك على هذا المنوال. فهي سرعان ما «أَلِفَتْ «فيليكانوف» منظم حفلات الفرقة». وكانت أموره آنذاك سيئة: «فأخذت تسعى من أجله، وتبذل كل ما بوسعها للحصول على مساعدة مالية له، وتعمل على تخليصه»... ولكن ماذا في كل ذلك؟ مرة أخرى نقول ما من شيء مميز هنا، وثمة كثير من النساء وخاصة من ذوات الطبيعة الحية النشطة، كما هي كاييروفا، كن سيسعين، في مثل هذه الحالة، من أجل من يحببن، إذا كن قد ارتبطن معهم بعلاقة غرامية. وبدأت المشادات مع زوجة فيليكانوف، ويشير السيد أوتين في معرض وصفه لإحدى المشادات إلى أن موكلته أصبحت منذ تلك اللحظة تنظر إلى فيليكانوف على أنه «لها» وأنه كائن مِن صُنعها هي، وترى فيه «طفلها المحبب». ونشير هنا بالمناسبة إلى أن هذا «الطفل المحبب»، هو، كما يقولون، رجل طويل القامة، مكتنز الجسم، ذو بنية «مغاويرية»*، تغطي قذاله خصلات شعر جَعْد، ويزعم السيد أوتين في مرافعته أنها كانت تنظر إليه على أنه «طفلها» وأنه «صنيعها» وأنها كانت تريد أن تعلي قَدْرَه وتسمو بأخلاقه». ويبدو أن السيد أوتين ينفي إمكانية تعلق السيدة كاييروفا بفيليكانوف من دون هذا الهدف الخاص بالذات، في حين أن هذا «الطفل المحبب»، هذا «الصنيع» لا تسمو أخلاقه البتة، بل بالعكس، لا تنفك تنحط أكثر فأكثر.

وباختصار إن السيد أوتين ينفخ في كل أقواله روحاً سامية لا تليق البتة بهذين الشخصين وهذا الموقف، مما يثير العجب في بعض الأحيان. وتبدأ «المغامرات»؛ «الطفل المحبب» وكاييروفا يأتيان إلى بطرسبورغ، ثم يسافر هو إلى موسكو بحثاً عن عمل. وتكتب له كاييروفا رسائل عاطفية، فهي مفعمة بالهوى والشوق، وهو لا يحسن البتة كتابة الرسائل، ولذا فإنه من هذه الوجهة «بعيد عن الشهامة» كل البعد. ويشير السيد أوتين إلى أنه «بدأت تظهر في هذه الرسائل تلك السحابة التي غطت فيما بعد صفحة السماء كلها، وأحدثت العاصفة الرعدية». والسيد أوتين لا يحسن التعبير بصورة أكثر بساطة، ولذا فإن كل تعابيره مصوغة بمثل هذا الأسلوب. وأخيراً يعود فيليكانوف ثانية، ويعيشان من جديد في بطرسبورغ

(*) نسبة إلى فرقة «المغاوير» العسكرية التي يتميز أفرادها بطول القامة ومتانة البنية. (م).

(maritalement*، طبعاً)... وفجأة يأتي المشهد الأهم في القصة؛ إذ تصل زوجة فيليكانوف، و«تنتفض كاييروفا كاللبؤة التي ينتزعون منها شبلها». وهنا يبدأ فعلاً فيض من البلاغة. ولولا هذه البلاغة لازداد الإشفاق، طبعاً، على هذه المرأة المسكينة، المهووسة، المتخبطة بحيرة بين الزوج والزوجة، لا تعرف كيف تتصرف. ويتبين أن فيليكانوف «غدار»، وهو ببساطة، شخص ضعيف، فتارة يخدع زوجته مؤكداً لها أنه يحبها، وتارة يغادر الدارة الريفية، ويذهب إلى كاييروفا في بطرسبورغ، ويطمئنها بأن زوجته ستسافر قريباً إلى الخارج. إن السيد أوتين يصور حب موكلته لا بصورة مغرية فحسب، بل حتى بصورة وعظية وأخلاقية سامية إذا صح التعبير. تصوروا أنها كانت تريد أن تعرض على فيليكانوفا التنازل لها عن زوجها تماماً (أي أنها كانت تعتقد جازمة بأن لها، لسبب لا ندريه، كامل الحق فيه)؛ «إذا كنت تريدينه خذيه، وإذا كنت تريدين العيش معه عيشي معه، على أن تسافرا من هنا، أو أسافر أنا، اختاري ما تشائين» هذا ما كانت تريد قوله، ولكننا لا نعرف هل قالته أم لا. إلّا أن أحداً لم يقدم على فعل أي شيء، وكاييروفا، بدلاً من أن تسافر هي نفسها (لو أنها كانت ترغب في أن تنهي الأمر على وجه ما) راحت تتخبط وتغلي، من دون أن توجه أية أسئلة، ومن دون أن تنتظر أية قرارات مستحيلة. وفجأة يقول السيد أوتين «التخلّي عنه من دون صراع، معناه أنها ليست امرأة...».

إذاً فَلِمَ كل هذا الحديث عمّا كانت تريد أن تفعله، وعن مختلف الأسئلة و«العروض»؟ يقول السيد أوتين للمحكمة مفسِّراً: «الهوى عصف بها، والغيرة دمرتها، وافترست عقلها، ودفعتها إلى أن تلعب لعبتها المرعبة». ثم يقول بعد ذلك: «الغيرة فتَّت عقلها ولم تبقِ لها منه شيئاً؛ فكيف كان بمقدورها أن تتحكم بنفسها». وهكذا استمرت الحال عشرة أيام.»كانت تتلوع؛ وترتفع حرارتها وتصاب بالحمى، ولا تأكل ولا تنام، وتهرع تارة إلى بطرسبورغ، وتارة إلى أورانيِنْباوم، وظلت هكذا إلى أن أصيبت بالإعياء، وعندئذ حل اليوم المشؤوم، يوم الاثنين السابع من تموز (يوليو)». وفي ذاك الاثنين المشؤوم جاءت المرأة المنهكة إلى دارتها الريفية، وأخبروها أن زوجة فيليكانوف هنا؛ فاقتربت من غرفة النوم و...«أيمكن أيها السادة المحلفون، أن تبقى هذه المرأة هادئة؟ لقد كان عليها أن تكون حجراً لكي تبقى هادئة؛ كان عليها أن تكون بلا قلب. فالرجل الذي تهيم به حباً: في غرفة نومها وعلى سريرها مع امرأة أخرى! لقد كان هذا يفوق ما تحتمله قواها. عواطفها جاشت كسيل جارف يكتسح كل ما يعترض طريقه؛ هاجت وماجت. وكان يمكن أن تدمر كل ما حولها(!!!) وإذا ما سألنا هذا السيل عَمَّ يفعله، ولماذا يسبب الشر، فهل سيستطيع أن يجيبنا؟ لا، إنه يلتزم الصمت».

(*) كزوجين (بالفرنسية). (ن).

يا لها من عبارات، ويا لها من «عواطف»! «ولو كان ثمة سخونة، لكنّا بالتأكيد، أحسسنا بطعم ما». ولكن لنتوقف عند هذه العبارات؛ فهي بالغة السوء؛ وما هو أسوأ أنها تشكل الجزء الرئيس في دفاع السيد أوتين.

إنني أتفق معك تماماً، أيها السيد المحامي، في أن كايبروفا لم يكن بمقدورها أن تبقى هادئة في ذاك الموقف الذي وصفتَه، ولكن لسبب واحد فقط هو أن كايبروفا، تلك المرأة الضعيفة، التي قد تكون طيبة جداً، إذا شئت، ولعلها أيضاً ظريفة، وشديدة الكلف بمن تحب (وأنا حتى الآن لا أعرف عن صفاتها هذه شيئاً إلّا ما ذكرته في مرافعتك) هي، في الوقت ذاته، امرأة ضالة حقاً، أليس كذلك؟ وأنا لا أقصد هنا ضلال الفسق في طبيعتها: فهي امرأة تعسة، وأنا لا أُقصد إهانتها، بل أكثر من ذلك: إنني لست مستعداً البتة لإصدار حكم بهذا الصدد. إن ما أقصده هنا هو ضلال عقلها وقلبها، الذي يبدو لي حقيقة لا تقبل الجدل. وبحكم هذا الضلال بالذات لم تستطع في تلك اللحظة المصيرية أن تعالج القضية على نحو آخر غير النحو الذي اتبعته، لا كما قررت أنت، أيها السيد المحامي، عندما قلت إنها، كي تعالج القضية على نحو آخر، «كان عليها أن تكون حجراً، أن تكون بلا قلب». فكِّرْ، أيها السيد المحامي، فأنت بقولك هذا كأنك تنفي نفياً قاطعاً إمكانية أي حل آخر أكثر صفاء، وأكثر نبلاً وشهامة. ومعنى هذا أنه لو وُجدتْ امرأة قادرة في تلك اللحظة أن تلقي بالشفرة جانباً، وتوجه القضية نحو نهاية أخرى، لوصفتها أنت بأنها حجر وليست امرأة، أو امرأة بلا قلب. وعلى هذا فأنت «قد امتدحت تقريباً الجريمة»، كما قلتُ عنك آنفاً. وكان هذا، بالطبع، انجرافاً بالعاطفة من جانبك، وهو انجراف نبيل بلا جدال، ولكن من المؤسف أن أمثال هذه الكلمات التي قيلت من دون تَروٍ، تتردد الآن على المنابر الاجتماعية الشبابية عندنا.

اعذرني أيها السيد المحامي، لأنني أتخذ هذا الموقف البالغ الجدية من كلماتك. ثم فكِّر بعد ذلك: ثمة نماذج سامية ومُثُل عليا سامية للمرأة. وهذه المثل العليا قد وُجدت وظهرت في عالمنا، لا مراء في ذلك. وماذا لو أن السيدة كايبروفا نفسها نظرت فجأة في الدقيقة الأخيرة، وهي تمسك بالشفرة، إلى مصيرها نظرة صافية (لا تقلق، هذا محتمل جداً أحياناً، وفي اللحظة الأخيرة بالذات) ووعت شقاءها (لأن حب مثل هذا الرجل شقاء)، ووعت كل خزيها وعارها ومدى سقوطها (لأن هؤلاء «الخاطئات» يتصفن في الحقيقة، لا بـ«الشهامة ونكران الذات» فحسب، أيها السيد المحامي، بل أيضاً بكثير من الكذب والخزي والرذيلة والسقوط)، وشعرت فجأة في داخلها بأنها امرأة قد بُعثت من أجل حياة جديدة، وأدركت في أثناء ذلك أنها أيضاً «ظالمة» وأن بإمكانها، علاوة على ذلك، أن تحقق بقدر أكبر وعلى نحو أوثق السموّ بأخلاق هذا الإنسان إذا هي تركته؛ فنهضت بعد شعورها بكل هذا، وغادرت

المكان وهي غارقة بدموعها، وكأنها تقول لنفسها: «إلى أي درك قد سقطت!» ماذا لو أن هذا قد حدث حتى للسيدة كاييروفا نفسها، ألم تكن ستشفق عليها؟ ألم تكن ستجد في قلبك الطيب، وهذا لا جدال فيه، عاطفة متجاوبة معها، وهل كنت ستقول عن هذه المرأة التي بُعثت فجأة من جديد بروحها وقلبها: إنها حجر، وكائن بلا قلب، وهل كنت ستَصِمُها باحتقارك لها على رؤوس الملأ من على منبرنا الفتي، الذي لا يزال الجميع يصغون إليه بكثير من الاهتمام؟

وها أنا اسمع أصواتاً تقول: «لا تطلبوا هذا من كل امرأة، فهذا غير إنساني». أعرف هذا، ولا أطالب. لقد ارتعدتُ وأنا أقرأ الفقرة التي تصف كيف كانت تتنصت قرب السرير، إنني قادر تماماً على أن أفهم وأتصور بوضوح لا مزيد عليه ما عانته في هذه الساعة الأخيرة، وهي تمسك بالشفرة، وقد سررت جداً جداً عندما أخلوا سبيل السيدة كاييروفا، وإنني أهمس لنفسي بالكلمة العظمى:

«يُحمِّلون أحمالاً ثقيلة وعسيرة الحمل»*. ولكن ذاك الذي قال هذه الكلمة أضاف فيما بعد عندما صفح عن المجرمة «اذهبي ولا تخطئي»**. إذاً فهو قد سمّى الخطيئة خطيئة، وغفرها، ولكنه لم يبررها. أما السيد أوتين فهو يقول: «... لما كانت امرأة بل حجراً، وكائناً بلا قلب» إنه حتى لا يفهم كيف يمكنها أن تتصرف على نحو آخر. وأنا أتجرأ على أن أشير بتهيّب إلى أنه كان من الضروري، على أية حال، أن نسمي الشرَّ شرّاً بصرف النظر عن أية نزعة إنسانية، لا أن نشيد به ونرفعه إلى مرتبة المأثرة تقريباً.

السيد المحامي وفيليكانوفا

وإذا نحن التزمنا النزعة الإنسانية، يغدو من الممكن أن نشفق على السيدة فيليكانوفا؛ أما من يُغال في الإشفاق على الظالم، فإنه على الأرجح، لن يشفق على المظلوم. وها نحن نرى أن السيد أوتين ينفي عن السيدة فيليكانوفا صفة «ضحية الجريمة»، ويبدو لي أنني لن

(*) اقتباس غير دقيق لكلمات السيد المسيح عن الكتبة والفريسيين الذين يتمسكون بـ «حرفية» القواعد الدينية.(ن). متّى (23/ 4، لوقا 11/ 46). (م).

(**) يوحنا 8/ 11 (اذهبي ولا تخطئي بعد الآن). (م).

أكون مخطئاً على الإطلاق إذا ما قررتُ أن السيد أوتين كان يشعر في كل لحظة وعلى مدى مرافعته كلها بأن الرغبة تراوده على أن يقول شيئاً ما سيئاً عن السيدة فيليكانوفا. وأعترف أن هذا الأسلوب ساذج جداً، ويبدو أنه أقل الأساليب براعة؛ إنه بدائي ومتسرع؛ فالناس، أيها السيد المحامي، سيقولون، كما أرجح، إنك إنساني في موقفك من موكِّليك فقط، أي إنك إنساني بالوظيفة، فهل هذا صحيح؟ ها أنت قد التقطَّ ورويت، على سبيل المثال، ما جرى في ذاك المشهد «القاسي الفظيع»، الذي قالت فيه فيليكانوفا بصوت عالٍ وهي مغتاظة إنها «ستقبّل يديّ ورجليّ من سيخلصها من مثل هذا الزوج»؛ وإذا بكاييروفا التي كانت موجودة آنذاك تقول على الفور: «أنا آخذه»، فترد عليها فيليكانوفا قائلة: «هيا خذيه»؛ ثم إنك أشرت، بعد أن رويت هذه الواقعة إلى أن كاييروفا أصبحت، منذ تلك اللحظة، تعُدّ أن هذا السيد لها، وأصبحت ترى فيه صنيعها و«طفلها المحبب». إن كل هذا بالغ السذاجة، فأولاً: ما هو «القاسي والفظيع» هنا؟ المشهد والكلمات شنيعان من دون شك؛ ولكن إذا كنت تجيز إمكانية وجود عذر حتى لإمساك كاييروفا بالشفرة، وتجيز إمكانية الاعتراف بأن كاييروفا لم يكن بمقدورها أن تظل هادئة، وهذا أمر أصدقك فيه كل التصديق، فكيف إذاً لا تجد عذراً لإطلاق الزوجة التعسة تلك الصيحة، التي، وإن كانت سخيفة، لم تصدر عنها إلّا بعد نفاد صبرها! وها أنت نفسك تعترف أن فيليكانوف شخص لا يطاق، حتى إن حقيقة حب كاييروفا له يمكن أن تكون كافية للدلالة على جنونها. فكيف إذاً تتعجب بعد هذا من قول فيليكانوفا «أقبّل يديّ ورجليّ إلخ...». إن العلاقات مع شخص لا يطاق تتخذ هي نفسها أحياناً طابعاً لا يطاق، وتنطلق في بعض الأحيان عبارات لا تطاق. ولكن هذا لا يحدث إلّا في بعض الأحيان، وليس سوى مجرد عبارة. وأعترف بأنه إذا كانت السيدة كاييروفا قد فهمت بجد أن الزوجة تتخلى لها فعلاً عن زوجها، وأنها - أي كاييروفا- أصبحت منذ تلك اللحظة تملك الحق في اعتباره لها، فإنها في هذه الحالة ستكون مهرجة كبيرة. والأرجح أن كل هذا قد حدث على نحو آخر. ولا ينبغي النظر بمثل هذا الاستعلاء إلى عبارة تصدر عن شخص مسكين مكروب؛ ففي هذه العائلات (وليس فيها فحسب، بل في عائلات أخرى أيضاً لعلكم تعرفونها؟) يتلفظون بعبارات تهون هذه إزاءها. إن العلاقات العائلية تجفو أحياناً على نحو لا إرادي، تحت وطأة العوز ومشقّات الحياة، مما يجيز إمكانية صدور بعض الكلمات التي لم يَقُل مثلها، على سبيل المثال، اللورد بايرون لليدي بايرون حتى في تلك اللحظة التي وقعت فيها القطيعة النهائية بينهما، ولم يقل مثلها «أربينين» لـ«نينا» في مسرحية ليرمنتوف «حفلة تنكرية». لا يجوز، طبعاً، إيجاد عذر لهذا الطيش الأرعن، حتى وإن كان هذا مجرد طيش، مجرد نزوة سيئة يسببها نفاد الصبر، في حين أن القلب ربما يبقى أنقى من قلوبنا؛ ولذا فمن المؤكد أننا إذا نظرنا إلى الأمر على نحو أبسط،

سيكون حكمنا أكثر إنسانية. بل يمكن القول، إذا شئتم، إن العبارة المستهجنة التي تلفظت بها السيدة كاييروفا «أنا آخذه» هي، في رأيي، أقبح بكثير: فهي تنطوي على إهانة فظيعة، وعلى إيلام وسخرية تصفع بها العشيقة وجه الزوجة، التي انتزعت منها زوجها. إن لديك، أيها السيد المحامي عبارات تقطر سماً عن هذه الزوجة. فأنت مثلاً، إذا عبرت عن أسفك لأنها لم تحضر إلى المحكمة، بل أرسلتْ تقريراً طبياً يشهد على مرضها، نبّهت المحلفين إلى أنها لو حضرتْ لفقد هذا التقرير أي معنىً له، لأنهم كانوا سيشاهدون أمامهم امرأة معافاة، قوية، جميلة. ولكن أي شأن لك، في حالتنا هذا، بجمالها وقوتها وعافيتها؟ ثم إنك تقول بعد ذلك: «أيها السادة المحلفون! أية امرأة هذه التي تسافر إلى زوجها الذي يعيش مع امرأة أخرى، وتأتي إلى بيت عشيقته وهي تعرف أن كاييروفا تقيم هناك؛ وتقرر أن تبقى للمبيت وتضطجع في غرفة نوم العشيقة، وعلى سريرها... إن هذا يتجاوز قدرتي على الفهم». فليكن أنه يتجاوز، ولكن مع ذلك فأنت تتسم بأرستقراطية مفرطة وبعدم الإنصاف. وهل تعرف، أيها السيد المحامي، أن موكلتك ربما تكون قد ربحت كثيراً لأن السيدة فيليكانوفا لم تحضر إلى المحكمة. فقد قيل كثير من الأشياء السيئة في المحكمة عن فيليكانوفا، وعن طبعها، على سبيل المثال. أنا لا أعرف طبعها، ولكن تخلفها عن الحضور إلى المحكمة قد أعجبني، ولا أدري لماذا. ربما يكون سبب تخلفها هو كبرياء المرأة المهانة، وربما يكون إشفاقها على زوجها. وفي الحق لا أحد بمقدوره أن يقول أي شيء عن سبب تخلفها عن الحضور... ولكن أياً كان الأمر، فإن من الواضح أنها ليست من أولئك النساء اللواتي يحببن أن يتحدثن عن أهوائهن على الملأ، وأن يصفن أمام الناس عواطفهن الأنثوية. ومن يدري، ربما لو حضرت لكان من السهل جداً عليها أن تبيّن: لِمَ نزلت في شقة عشيقة زوجها، وهو الأمر الذي تستغربه أنت جداً، وترى فيه خزياً جديداً لها. ويبدو لي أنها لم تنزل عند كاييروفا، بل عند زوجها النادم الذي دعاها إليه. وليس ثمة ما يجعلنا نستنتج أن السيدة فيليكانوفا كانت تعوّل على أن السيدة كاييروفا ستستمر في دفع أجرة هذه الشقة؛ بل ربما كان من الصعب عليها أن تعرف عند وصولها: من الذي يدفع الأجر هنا، ومن هو رب البيت. إن زوجها قد دعاها إليه، وهذا يعني أن الزوج قد أبقى الشقة على نفقته؛ ومن المرجح جداً أن يكون هذا ما قاله لها؛ فهو آنذاك كان يخدع كلتيهما. كما أن هذا ينطبق تماماً على ملاحظتك الدقيقة عن غرفة النوم، وعن السرير. إن وجود شُعَيْرةٍ ما هنا، وجود تفصيلٍ ما تافهٍ جداً، ربما كان يمكن أن يفسر كل شيء دفعة واحدة؛ وعلى العموم يبدو لي أن الجميع كانوا غير منصفين في موقفهم من هذه المرأة المسكينة. كما يتهيأ لي أنه لو اتفق لفيليكانوفا أن وجدت كاييروفا في غرفة النوم مع زوجها فذبحتها بالشفرة، لما كانت ستنال، في وضعها المروّع كزوجة شرعية، سوى التمريغ بالوحل والحكم عليها بالأشغال الشاقة، ثم

هل من الممكن القول، على سبيل المثال، كما قلت أنت، أيها السيد المحامي، إن فيليكانوفا لم تعانِ في خضم هذه «القضية»، لأنها بعد الحادثة ببضعة أيام ظهرت من جديد على خشبة المسرح، وظلت تمثل طوال الشتاء، في حين أن كاييروفا مكثت عشرة أشهر في السجن. إن شفقتنا جميعاً على موكلتك المسكينة لا تقل عن شفقتك عليها، ولكن هلّا وافقت معي على أن ما كابدته السيدة فيليكانوفا لم يكن قليلاً. فلنتجاوز الحديث عن مقدار معاناتها بصفتها زوجة وامرأة تحترم نفسها (وهذه الصفة الأخيرة ليس لي قطعاً أي حق بإنكارها عليها)، ولتتذكر، أيها السيد المحامي، - وأنت حقوقي أريب وشخص مفعم بالمشاعر الإنسانية كما يُستدلّ من أقوالك في مرافعتك - لتتذكر مقدار المعاناة التي كان عليها أن تتحملها في تلك الليلة الفظيعة. لقد تحملت لعدة دقائق (دقائق مفرطة في الكثرة) وطأة الخوف من الموت. هل تعرف ما هو الخوف من الموت؟

من لم يحدث له أن كان قريباً من الموت يصعب عليه أن يفهم هذا. لقد استيقظت ليلاً وشفرة قاتلتها تحز عنقها، وشاهدت فوقها وجهاً يتلظّى غضباً؛ أخذت تدافع عن نفسها، واستمرت تلك بذبحها، وكانت هي، بالطبع، مقتنعة في تلك الدقائق الأولى الرهيبة اللامعقولة بأنها قد ذُبحت، وأن موتها محتم، وهذا شعور يفوق القدرة على التحمل، إنه كابوس شديد الفظاعة ولكن في اليقظة، أي أنه أكثر تعذيباً بمئة مرة؛ إن هذا يماثل تقريباً الحكم بالإعدام على شخص مربوط إلى عمود الموت ينتظر إطلاق الرصاص عليه، وقد غُطِّيَ رأسه بكيس[94] ولكن ماذا نقول، أيها السيد المحامي، إذا كان هذا العذاب أيضاً هو في نظرك سفاسف لا أكثر! وهل حقاً لم يبتسم أحد من المحلفين وهو يسمع هذا؟! ثم ماذا في أن فيليكانوفا عادت إلى التمثيل على الخشبة بعد أسبوعين: هل يقلل هذا من الهول الذي عانته قبل أسبوعين، ومن الذنب الذي اقترفته موكلتك؟ لننظر في تلك الواقعة التي حدثت مؤخراً عندما ألقت امرأة بابنة زوجها ذات السنوات الست من الطابق الرابع، وإذا بالطفلة تقف على قدميها من دون أن تُصاب بأي أذىً؛ هل يمكن أن يغير هذا، بأي قدر كان، من قساوة الجريمة؟ وهل من المعقول أن هذه الطفلة لم تشعر بأي معاناة؟ وبالمناسبة، إنني أتصور عفوياً كيف سيدافع المحامون عن امرأة الأب هذه: سيذكرون قنوطها من إيجاد مخرج من حالتها، وكونها زوجة شابة لزوج أرمل أُرغمت على الزواج منه بالإكراه، أو أخطأت في قبولها به. وهنا تتوالى اللوحات التي تصور ظروف المعيشة البائسة التي يعاني منها الفقراء، والكدح الأبدي المقدَّر عليهم. فهي، بحكم بساطة نفسها، وسذاجتها، ظنت كفتاة لا خبرة لديها (وخصوصاً في ظروف التربية السائدة عندنا) أن الزواج ليس فيه سوى المسرّات، ولكن بدلاً من المسرّات وجدت غسيل الملابس والملاءات المتسخة، والطبخ، وتغسيل الطفلة: «أيها السادة المحلفون، كان لا بد

لها، بدهياً، من أن تكره هذه الطفلة (ومن يدري ربما سيصدف أن نجد «محامياً» لا يتورع عن التشهير بالطفلة، والعثور لدى هذه البُنيّة ذات السنوات الست على صفات ما قبيحة بغيضة!) وفي لحظة يأس، ونوبة انفعال جنوني يجعل الإنسان لا يدري تقريباً ماذا يفعل، أمسكت بهذه الطفلة و... ومن منكم أيها السادة المحلفون لم يكن ليفعل الشيء نفسه. من منكم لم يكن ليلقي الطفلة من النافذة؟».

إن كلماتي هذه، بالطبع، كاريكاتورية، ولكن لو عكف أحدهم على تدبيج هذه المرافعة لقال في الواقع شيئاً ما شبيهاً إلى حد كبير بهذا، ومن هذا النوع بالضبط، أي بالضبط من نوع هذا الكاريكاتور. وما يثير السخط هو، تحديداً، أن المرافعة ستكون من نوع هذا الكاريكاتور، في حين أن تصرف امرأة الأب المتوحشة هذه في منتهى الغرابة فعلاً، وربما كان يتطلب، في الحقيقة، تحليلاً دقيقاً وعميقاً حتى ولو كان من شأن ذلك أن يؤدي إلى التخفيف عن المجرمة. ولذا فإننا نأسف أحياناً لاتصاف الأساليب التي راج اتباعها، لأسباب مختلفة، لدى أكثر محامينا موهبة، بالسذاجة والنمطية الرتيبة. ومن ناحية أخرى يفكر المرء على النحو الآتي: من المسلم به أن منابر محاكمنا الجديدة هي مدرسة أخلاقية، من دون شك، لمجتمعنا وشعبنا. ويتعلم شعبنا في هذه المدرسة الحقيقة والأخلاق السامية؛ فكيف يمكننا أن نتخذ موقف اللامبالي مما يُقال أحياناً على هذه المنابر؟ وأشير هنا إلى أن بعضهم يطلق أحياناً من على هذه المنابر دعابات في منتهى البراءة والمرح. وقد طبّق السيد المحامي على موكلته في نهاية مرافعته مضمون آية مقتبسة من الإنجيل: «إنها أحبت كثيراً، ولذا يُغفر لها الكثير»*. وهذا بالطبع، لطيف جداً وخصوصاً لأن السيد المحامي يعرف تمام المعرفة أن المسيح لم يغفر للـ «خاطئة» لقاء مثل هذا الحب. وأرى أن الاستشهاد بهذا المقطع العظيم والمؤثر من الانجيل هو ضرب من التجديف. واستطراداً أجد أنه ليس بوسعي أن أمنع نفسي من إيراد ملاحظة قديمة لي صغيرة جداً، ولكنها تتسم بدلالة طابعية إلى حد لا يستهان به. وهذه الملاحظة لا تمس، بالطبع، السيد أوتين البتة. لقد لاحظت منذ نعومة أظفاري، منذ دراستي في الكلية العسكرية، أن لدى كثيرين من المراهقين، لدى طلاب المدارس المدنية (البعض منهم)، ولدى طلاب الكلية العسكرية (بعدد أكبر) ولدى الذين كانوا في السابق طلاباً في المدارس العسكرية (بعدد أكبر من الجميع) يتأصل بالفعل، لسبب ما، منذ سني المدرسة، مفهوم مؤداه أن المسيح قد غفر للخاطئة لقاء هذا الحب بالذات، أي لقاء المجون الفاسق، أو من الأفضل القول لقاء الإغراق في هذا المجون، لقد أشفق، إذا جاز القول، على هذا الضعف الجذّاب. وهذا الاعتقاد نصادفه الآن أيضاً لدى عدد كبير جداً من الناس، وأذكر

(*) انظر انجيل لوقا 7/ 47 (... إن خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنها أحبت كثيراً...). (ن).

أنني كنت أحياناً أسأل نفسي بجد: ما الذي يجعل هؤلاء الصبية ينحون هذا المنحى في تفسير هذا المقطع من الإنجيل؟ أبمثل هذا التهاون يعلمونهم أصول العقيدة؟ إلّا أنهم، كما نعرف، يفهمون الفصول الأخرى من الإنجيل فهماً صحيحاً إلى حد مقبول. وقد قرّ رأيي في النهاية على أن ما يفعل فعله هنا هو، على الأرجح، أسباب تغلب عليها الطبيعة الفيزيولوجية: فمع طيبة النفس الأكيدة لدى الصبي الروسي يؤثر فيه، على الأرجح، ذاك الفيض من القوى التي تكمن في أعماقه عندما يكون طالباً في الكلية العسكرية، وتجيش عند مرأى أية امرأة. وعلى كل أشعر أن هذا هراء، ولم يكن ينبغي لي أن أورده أصلاً. وأكرر قولي إن السيد أوتين يعرف حق المعرفة، بالطبع، كيف ينبغي تفسير هذا النص، ولا يساورني أي شك في أنه ببساطة، عمد إلى المداعبة في ختام مرافعته، ولكن لماذا؟ - لا أدري.

شيء ما عن أحد المباني. أفكار ذات صلة

الكذب والزيف: هذا ما يحيط بنا من جميع الجهات، وهو يفوق أحياناً القدرة على الاحتمال.

لقد صادف أنني زرت «دار التربية» في الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه محاكمة السيدة كاييروفا، ولم أكن قد زرت هذه الدار من قبل، مع أنني كنت متشوقاً لرؤيتها منذ مدة بعيدة. وقد شاهدت كل شيء فيها بفضل أحد معارفي من الأطباء. ولم أكتب أية معطيات، بما في ذلك السنون والأرقام. واتضح لي منذ الخطوة الأولى أن من المتعذر رؤية كل شيء خلال زيارة واحدة، وأن الأمر جدّ جدير بالعودة إلى هنا أكثر من مرة. وهذا ما قررنا أن نفعله أنا ومرشدي الطبيب المحترم. لا، بل إنني أنوي أن أسافر إلى القرى وأزور التشوخونيين* الذين يُرسَل إليهم الأطفال لتربيتهم. وعلى هذا فإن وصف ما سأشاهده سأورده في المستقبل، أما الآن فليس لدي سوى ذكريات: تمثال بيتسكوي[95]، وعدد من الصالات الضخمة التي يعيش بها الأطفال، والنظافة المدهشة (التي لا تحول دون القيام بأي شيء) والمطابخ، والمشتل، حيث «يُعدّون»

(*) التشوخونيّون: الإستونيون والفنلنديون الذين كانوا يسكنون في ضواحي بطرسبورغ. (م).

عجولاً من أجل التلقيح ضد الجدري، والمطاعم، ومجموعات الأطفال الصغار الجالسين إلى الموائد، ومجموعات البنات ذوات الخمس والست سنوات اللواتي يلعبن لعبة الخيول، ومجموعة الفتيات المراهقات ذوات الستة عشر والسبعة عشر ربيعاً، على ما يبدو، اللواتي تربين سابقاً في الدار، ويجري إعدادهن الآن ليصبحن مربيات، ويسعين لاستكمال تعليمهن: إنهن الآن يعرفن بعض الأشياء، وقد قرأن تورغينف، ولديهن وجهة نظر واضحة، ويتحدثن معك حديثاً في غاية اللطف. ولكن السيدات المشرفات أعجبنني أكثر: فمظهرهن يتسم بكثير من المودة (ولا أظن أنهن تصنعن هذا بمناسبة زيارتنا) ووجوههن تفيض بالطمأنينة والطيبة والحصافة. وبعضهن كما يبدو، مثقفات، ولشد ما أثار اهتمامي أيضاً إنبائي أن نسبة وفيات الأطفال الذين يتربون بالذات في هذه الدار (أقصد في هذا المبنى) أقل بما لا يقاس من نسبة وفيات الأطفال في الحياة العامة، الذين يتربون في كنف أسرهم، ولكن هذا لا يمكن أن نعممه على الأطفال الذين يُرسَلون إلى القرى. وقد شاهدت، أخيراً، الغرفة السفلية التي تحضر إليها الأمهات أطفالهن ويتركنهن هناك إلى الأبد... ولكن لندع الحديث عن كل هذا إلى ما بعد. أتذكر فقط أنني تأملت هؤلاء الأطفال الرضّع بنظرة خاصة، لا بد أنها كانت نظرة غريبة على نحو ما. ومهما بدا قولي غير معقول فإنني أذكر أن هؤلاء الأطفال بدوا لي شديدي «الوقاحة»، مما جعلني أبتسم في سري، بيني وبين نفسي، من فكرتي هذه. وبالفعل، فقد ولد هذا الطفل في مكان ما، ثم أحضروه إلى هنا؛ انظروا إليه كيف يصيح ويزعق، يعلن أن صدره الصغير معافى، وأنه يريد أن يعيش، ولا ينفك يحرك باهتياج يديه ورجليه الصغيرة الحمراء، ويصرخ ويصرخ، وكأنه يمتلك الحق في أن يزعجكم على هذا النحو، يبحث عن الثدي، وكأنه يمتلك الحق في تقديمه له، وفي عناية الآخرين به؛ إنه يطالب بالعناية، وكأنه يمتلك الحق نفسه بالضبط الذي يمتلكه أولئك الأطفال الذين يعيشون في كنف أسرهم: وترى الجميع يندفعون نحوه راكضين. وقاحة، وقاحة! وحقاً، بلا أي تهكم أقول هذا، حقاً ترى نفسك أحياناً تنظر حولك، وتلمع في ذهنك من غير إرادة منك فكرة تقول لك: وماذا، وكيف، إذا هو بالفعل أثار غضب شخص ما؟ وماذا إذا أقدم شخص ما على الإمساك به وردعه: «هاك، خذ أيها الفقّاعة، هل تظن نفسك ابن أمير أم ماذا»؟ ألا يردعونهم في الواقع؟ إن هذا ليس تخيلاً؛ بل إنهم يلقون بهم من النوافذ. مرةً منذ عشر سنوات، ضجرت رابّة*، على ما يبدو، (لقد نسيت، ولكنني أفضّل أن تكون رابّة) من الإزعاج الذي يسببه لها ابن زوجها من زوجته السابقة، إذ كان الطفل لا يكف عن البكاء بسبب ألم يعاني منه، فاقتربت من السماور الممتلئ بماء يغلي ويبقبق، ووضعت يد الطفل المزعج تحت صنبور السماور بالضبط، و... فتحت الصنبور.

(*) زوجة الأب تربي أبناء زوجها من غيرها. (الخالة امرأة الأب). (م).

جميع الصحف آنذاك نشرت هذا الخبر. وهكذا ردعت هذه السيدة اللطيفة الطفل! لا أدري، في الحقيقة، كيف دانوها، وهل دانوها أصلاً؟ ولكن أليس صحيحاً أنها «تستحق أقصى درجات التسامح»: فهؤلاء الأطفال يصرخون أحياناً صراخاً فظيعاً، ويسببون انهيار الأعصاب؛ ثم إن هناك الفقر، والغسيل؛ أليس هذا صحيحاً؟ وعلى كل فإن بعض الأمهات «الوالدات»، مع أنهن يعمدن أيضاً إلى «ردع» الطفل الذي يصرخ لإسكاته، إلّا أنهن يفعلن هذا على نحو أكثر «إنسانية» بكثير: تندسّ فتاة جذابة ظريفة في زاوية منعزلة، وفجأة يغمى عليها، ولا تعود تذكر شيئاً مما جرى لها بعد ذلك، وفجأة يظهر طفل لا أحد يدري من أين، طفل وقح، بكّاء، ويسقط بلا قصد، في وسط السائل، وإذا به يختنق؛ والاختناق على كل حال أهون من الصنبور، أليس كذلك؟ مثل هذه الفتاة لا تجوز إدانتها: فتاة مسكينة، مخدوعة جذابة، لم تتجاوز بعد مرحلة إعطائها سكاكر لتأكلها، وفجأة يغمى عليها، وهنا يمكن أن نتذكر أيضاً مارغريت «فاوست» (أحياناً تجد بين المحلفين أشخاصاً مغرمين جداً بالأدب)، فكيف لهم بعد ذلك أن يدينوها، هذا مستحيل[96]؛ بل ينبغي حتى إصدار تعهد خطي بهذا. وعلى هذا فإن المرء يُسَرّ لأن هؤلاء الأطفال قد قُدِّر لهم أن يصلوا إلى هذا المبنى. وأعترف بأنه قد خطر في بالي حينذاك كثير من الأفكار التطفلية والأسئلة المضحكة. فقد سألت نفسي، على سبيل المثال، مدفوعاً برغبة جارفة في أن أعرف: متى بالضبط يبدأ هؤلاء الأطفال يدركون أنهم أسوأ من الجميع، أي أنهم ليسوا مثل «أولئك الآخرين» بل أسوأ منهم بكثير، وهم يعيشون من دون أي حق لهم في ذلك، بل من قبيل الشعور الإنساني فقط، إذا جاز القول؟ تتعذر معرفة ذلك من دون تجربة وخبرة كبيرة، ومن دون مراقبة الأطفال مدة طويلة، ولكنني مع ذلك قررت apriori* وعن قناعة، أنهم يعرفون بأمر هذا «الشعور الإنساني» في وقت مبكر جداً، أي في وقت مبكر إلى حد يصعب تصديقه. وبالفعل، لو كان الطفل قد تربّى بوساطة وسائل الإيضاح العلمية والألعاب العلمية فقط، ودرس علم الأشياء في العالم عن طريق «البطة»، لما كان توصل، كما أظن، إلى تلك الدرجة المذهلة الخارقة من التعمق في الفهم، التي تسمح له بأن يحيط فجأة، ولا ندري البتة كيف، بأفكار كان يبدو أنها عصية على فهمه تماماً. طفل في الخامسة أو السادسة من العمر يعرف أحياناً عن الإله، وعن الخير والشر، أموراً مدهشة وبعمق غير متوقع إلى حد يجعلنا نقرر على نحو غير إرادي أن الطبيعة قد وهبت هذا الطفل وسائل أخرى ما لاكتساب المعرفة، لا نعرفها نحن، بل ربما لو عرضت علينا لكان من واجبنا أن نرفضها تقريباً على أساس ما يقضي به علم التربية. أوه، إنه بلا شك، لا يعرف حقائق عن الإله، وإذا بدأ حقوقيّ متضلع ما يختبر

(*) من غير تجربة، (قبل التجربة) (باللاتينية). (ن).

طفلاً في السادسة من عمره في موضوع الخير والشر، فإنه سيقهقه ليس إلا. ولكن عليكم أن تكونوا أكثر صبراً وأناة وأكثر انتباهاً بقليل (لأن الأمر يستحق هذا)، وأن تكونوا متسامحين في موضوع الحقائق، على سبيل المثال، وأن تجيزوا ورود بعض الأقوال التي لا معنى لها، وأن تسعوا للوصول إلى جوهر الفهم فقط، وعندئذ سترون فجأة أن هذا الطفل ربما يعرف عن الإله بقدر ما تعرفون، أما عن الخير والشر، وعمّا يورث الخزيَ أو يستحق الثناء فربما كان هذا الطفل يعرف أكثر بكثير مما يعرفه أمهر محام، إذا كان هذا المحامي من الذين يميلون في بعض الأحيان إلى التَّسرّع. وأنا أَعُدّ من جملَة تلك الأفكار الصعبة جداً، والتي يستوعبها الأطفال هنا على نحو غير متوقع ومن دون أن ندري كيف يحدث هذا، تلك الفكرة التي ذكرتها آنفاً، والتي تنطوي على أول مفهوم يرسخ في أذهانهم ولا يمّحي منها طوال حياتهم وهي أنهم «أسوأ من الجميع». وأنا واثق من أن الطفل لا يعرف هذا من المربيات والمشرفات؛ بل الأكثر من ذلك أنه يعيش في ظل ظروف لا يرى فيها «أولئك» الأطفال «الآخرين»، وليس بإمكانه أن يُجري مقارنة بينه وبينهم، ومع ذلك عندما تنعمون النظر ترون أنه يعرف أموراً جِدَّ كثيرة، وأنه اكتشف الكثير الكثير بسرعة لا لزوم لها. أنا طبعاً تماديت في التفلسف، ولكني لم أستطع آنذاك أن أوقف تيار أفكاري. وقد خطر لي فجأة، على سبيل المثال، تصور آخر: إذا كان القدر قد حرم هؤلاء الأطفال الأسرة وسعادة النشوء في أحضان آبائهم (إذ ليس كل الآباء يلقون بأطفالهم من النوافذ أو يسلقونهم بالماء المغلي)، أفلا ينبغي تعويضهم عن هذا بطريقة أخرى: كأن نعطيهم أسماء، على سبيل المثال، بعد أن نربيهم في هذا المبنى الرائع؛ ومن ثم نعلمهم، بل نوصلهم جميعاً إلى أعلى درجات التعليم، وبعد أن يتخرجوا من الجامعات نجد لهم أماكن عمل مناسبة، ونضعهم على طريق الحياة، وباختصار، لا نتخلى عنهم، ونرعاهم إلى أبعد شوط ممكن. وهذا ينبغي أن تتولاه الدولة ككل، ناظرة إليهم على أنهم أولاد عامون، أو أولاد الدولة إذا جاز التعبير. وفي الحقيقة، إذا غفرتَ فليكن غفرانك كاملاً. وعندئذ قلت في سري: أغلب الظن أن بعض الناس سيقول إن هذا يعني تشجيع الفسق، وسيعتريه الغضب، ولكن أية فكرة مضحكة هذه: فلنتصور فقط أن جميع هؤلاء الفتيات الجذابات سيندفعن بحماسة، ويشرعن يلدن الأطفال عن قصد حالما يسمعن بأن هؤلاء الأطفال سيُرسلون إلى الجامعات، وقلت في نفسي: «نعم، تجب مسامحتهم مسامحة كاملة، فإذا سامحتَ، فلتكن المسامحة تامة!». وفي الحقيقة فإن الكثيرين والكثيرين جداً سيتملكهم الشعور بالحسد. أشرف الناس وأكثرهم جداً في العمل سيشعرون بالحسد؛ إذ سيفكر بعضهم على النحو الآتي: «كيف هذا؟ فأنا طوال حياتي أعمل كالثور، ولم أرتكب أي عمل شائن، وأحب أولادي، وظللت على مدى حياتي كلها أجد

وأكدح من أجل تعليمهم، وجعلهم مواطنين صالحين، ولم أستطع، لم أستطع؛ حتى التعليم المدرسي لم أستطع أن أكفله لهم حتى النهاية. وها أنا الآن أسعل، وأعاني من ضيق النَفَس، وربما وافتني المنية في الأسبوع القادم، فوداعاً يا أولادي الأعزاء، وداعاً يا أحبائي الثمانية! إنهم سيتوقفون جميعاً عن الدراسة على الفور، وجميعهم سيتفرقون في الشوارع ويذهبون للعمل في مصانع السكائر، وحتى هذا ليته يتحقق لهم... أما أولئك الأطفال الذين ألقي بهم في الشوارع فإنهم سينهون دراستهم الجامعية، وسيجدون أماكن يعملون فيها، ثم إنني كنت أدفع جزءاً من نقودي سنوياً بشكل مباشر أو غير مباشر للإنفاق عليهم!» إن هذا المونولوج سيقال حتماً، وبالفعل: أية تناقضات هذه؟ وبالفعل ما السبب في أن كل هذه الأمور قد ترتبت على هذا النحو الذي يجعل من المتعذر تحقيق أي توافق بينها؟ فكروا: ما الذي يمكن أن يكون أكثر مشروعية وإنصافاً من هذا المونولوج، كما يبدو؟ ولكن هذا المونولوج في الوقت نفسه ليس مشروعاً ولا منصفاً على الإطلاق؛ معنى هذا أنه مشروع، وفي الوقت نفسه غير مشروع، فأي تشويش هذا!

لا أستطيع إلّا أن أكمل الحديث وأقول شيئاً آخر راود خيالي آنذاك. مثلاً: «إذا نحن سامحناهم، فهل سيسامحون؟» وهذا أيضاً سؤال. ربما كان بينهم مخلوقات من أسمى النماذج، وهؤلاء سيسامحون؛ أما الآخرون فربما سيعمدون إلى الثأر لأنفسهم، ولكن ممن سيثأرون، ولأي سبب؟ إنهم لن يستطيعوا أبداً الإجابة عن ذلك، ولن يفهموا جوهر القضية، ولكنهم سيثأرون. أما عن رأيي في «ثأر» هؤلاء اللقطاء «من المجتمع» إذا ما حدث هذا، فإنه كالآتي: أنا على قناعة بأن هذا الثأر سيكون على الدوام، ثأراً سلبياً أكثر من كونه ثأراً إيجابياً مباشراً. لن يعمد أحد إلى الثأر على نحو مباشر وعن وعي، وحتى لن يخطر ببال أحد منهم أنه يريد الثأر بل بالعكس، إذا ربيتموهم سيخرج الكثيرون جداً من هذا «المبنى» متشوقين إلى أن يكونوا محترمين، وأن يخلِّفوا ذرية، وتواقين إلى تكوين عائلة، وسيكون مثلهم الأعلى هو بناء عش لهم، والبدء بتكوين مكانة، واكتساب أهمية، وإنجاب أطفال، وإحاطتهم بمشاعر الحب، وتربيتهم من دون اللجوء بتاتاً، بتاتاً إلى ذاك «المبنى» أو إلى أخذ مساعدة من خزينة الدولة؛ وعلى العموم ستكون القاعدة الأولى هي نسيان الطريق المؤدية إلى ذاك المبنى، ونسيان اسمه؛ بل بالعكس، فإن رب العائلة الجديد هذا سيكون سعيداً إذا ما أوصل أولاده إلى الجامعة على حسابه الخاص. فماذا نسمّي هذا التوق إلى النظام البرجوازي القائم؛ هذا التوق الذي سيلازمه طوال حياته، ما هي حقيقته: هل هو تبعية خانعة، أم أعلى درجة من درجات الاستقلالية؟ إنه، في رأيي، أقرب إلى أن يكون الأمر الثاني؛ ولكن النفس مع ذلك تظل طوال الحياة غير مستقلة تماماً، غير سيادية تماماً، ولذا فإن أشياء كثيرة لن تكتسب مظهراً

جميلاً تماماً، مع اتسامها بالنزاهة في أعلى درجاتها. إن ما يكسب الروح استقلاليتها الكاملة هو أمر آخر تماماً... ولكن الحديث عن هذا سيأتي فيما بعد، وهذه قصة طويلة أيضاً.

فكرة خارج السياق

قلت الآن كلمة «استقلالية»؛ فهل يحبون عندنا الاستقلالية؟ هذا هو السؤال. ثم ما هي الاستقلالية عندنا؟ هل ثمة شخصان يفهمانها الفهم نفسه؛ بل إنني لا أعرف: هل لدينا أية فكرة يؤمن بها أي منا إيماناً جدياً؟ الناس الذين يعيشون عيشة روتينية عندنا، سواء كانوا من الوسط الغني أو الفقير، لا يحبون التفكير في أي شيء، بل تراهم ببساطة، يستسلمون من دون تفكير للّهو الماجن ما دامت لديهم القوة ولم ينتَبْهُم السأم. أما الذين هم أفضل من هؤلاء الروتينيين فإنهم «ينفردون» عنهم، ويتجمعون في زمر، ويتظاهرون بأنهم يؤمنون بشيء ما، ولكن يبدو أنهم يُعزّون أنفسهم قسراً بهذا. وثمة فئة خاصة من الناس تتمسك بمقولة: «كلما ازداد الوضع سوءاً، كان هذا أحسن»، وتتوسع في تفسير هذه المقولة. وهناك، أخيراً، المُفارَقاتيون [أصحاب المفارقات]، الذين يكونون أحياناً شرفاء، ولكن أكثرهم غير موهوبين؛ هؤلاء، وخصوصاً إذا كانوا شرفاء، ينهون حياتهم بالانتحار، واحداً إثر آخر من دون انقطاع. وبالفعل ازدادت حوادث الانتحار عندنا في المدة الأخيرة ازدياداً كبيراً بحيث أنه لم يعد أحد يتحدث عنها، وكأن الأرض الروسية قد فقدت القدرة على حمل الناس فوق ظهرها. وما أكثر ما عليها من أشخاص شرفاء حقاً، وخصوصاً من النساء! إن النساء عندنا في حالة نهوض، ولعلهن سينقذن الكثير، وسيأتي الحديث عن هذا فيما بعد. النساء أملنا الكبير، وربما سيقدمن لروسيا كلها خدمة كبرى في أشد اللحظات المصيرية حسماً. ولكن المصيبة في الآتي: إن الشرفاء عندنا كثيرون بل كثيرون جداً، ولنقل إنهم أقرب إلى أن يكونوا طيبين من كونهم شرفاء، ولكن لا أحد منهم يعرف فيم يتجسد الشرف، ولا يؤمن على الإطلاق بأية صيغة من صيغ التعبير عن مفهوم الشرف، بل تراهم ينفون أوضح صيغه السابقة، وتجد كل هذا في كل مكان تقريباً ولدى الجميع، فأية أعجوبة هذه؟ أما ما يسمى بـ «القوة الحية»، أو الإحساس الحي بالوجود، هذا الإحساس الذي من دونه لا يستطيع أي مجتمع أن يعيش، ولا يمكن للأرض أن تقوم، فإن الرب وحده يعرف أين يذهب. ولكن لماذا انصرف ذهني إلى

التفكير في حوادث الانتحار، في هذا المبنى وأنا أنظر إلى هذا «المَرْبى» وهؤلاء الأطفال؟ حقاً إنها لفكرة خارج السياق.

والأفكار التي خارج السياق لدينا كثيرة، وهي التي تضغط علينا. تسقط الفكرة فجأة على الإنسان عندنا كصخرة ضخمة، وتضغط عليه فتثنيه إلى النصف، ويروح يتلوى تحتها، ولكنه لا يستطيع الخلاص.

بعض الناس يوافق على العيش مضغوطاً، وبعضهم يرفض ذلك وينتحر. ومما له دلالة شديدة الطابعية في هذا الصدد رسالة تركتها إحدى المنتحرات، ونشرتها صحيفة «الأزمنة الحديثة». وهي رسالة طويلة. المنتحرة في الخامسة والعشرين من العمر، وكنيتها بيساريفا. وهي ابنة أسرة من ملّاكي الأراضي كانت في وقت ما ميسورة، ولكن الفتاة جاءت إلى بطرسبورغ ودفعت ضريبة التقدم. انتسبت إلى معهد القابلات، وأفلحت في الدراسة، واجتازت الامتحان وعُيِنت قابلة تابعة لمجلس الإدارة المحلية؛ وهي نفسها تشهد بأنها لم تكن تشكو العوز البتة، وكان بوسعها أن تكسب ما يزيد كثيراً عن حاجتها، ولكنها تعبتْ، «تعبت» كثيراً، تعبت إلى حد الرغبة في الراحة. «وهل هناك مكان للراحة أفضل من القبر». وهي بالفعل، تعبت تعباً فظيعاً! ورسالة هذه المسكينة بكاملها تفيض بالتعب، بل إنها رسالة مشاكسة، ونزقة: دعوني وشأني، أنا تعبت، تعبت. «لا تنسوا أن تأمروا بتشليحي القميص والجوربين الجديدين. عندي على الطاولة قميص وجوربان قديمان، فليبسوني إياهما». إنها لا تكتب «نزع» بل «تشليح» وهلم جراً... أي أننا نلمس في كل كلماتها نزقاً رهيباً. وجميع هذه الكلمات الحادة تتأتى من نفاد الصبر، ونفاد الصبر يتأتى من التعب، بل يبلغ بها الأمر إلى الشتم: «هل حقاً صدقتم أنني سأذهب إلى البيت؟ من أجل أي شيطان سأذهب إلى هناك؟» أو: «الآن اصفحي عنا يا ليباريفا، ولتصفح عني بيتروفا (وهي صاحبة الشقة التي تناولت فيها المنتحرة السُّم) وخصوصاً بيتروفا، فأنا أقدم على فعلة قذرة، قبيحة...».

من الواضح أنها تحب أهلها، ولكنها تكتب «لا تدعوا ليزانكا تعرف، وإلّا فإنها ستخبر أختي وستأتي هذه إلى هنا لتُعْوِل. لا أريد أن يُعوِل علي أحد، والأقارب كلهم، بلا استثناء، يعولون على أهاليهم». يعولون، وليس يبكون؛ ومن الواضح أن كل هذا يتأتى من التعب المتذمر، النزق: لنسرع، لنسرع وننتهِ، دعوني فقط أهدأ وأسترح! إن عدم الثقة المتصف بالكلبية[5] والتقزز بلغ لديها حداً مرعباً ومضنياً. إنها لا تثق بليباريفا ولا ببيتروفا على شدة حبها لهما. وهاكم العبارات التي تبدأ بها رسالتها: «لا تفقدوا رشدكم، ولا تشهقوا، تمالكوا أنفسكم وأكملوا القراءة؛ ثم فكروا في أفضل ما يمكن فعله. لا تُفزِعوا بيتروفا. ربما لن يكون هناك سوى الضحك. بطاقة إقامتي في غطاء الحقيبة».

سوى الضحك! إن هذه الفكرة: فكرة أنهم سيضحكون منها، مِنْ جثتها المسكينة؛ ومَنْ سيضحك: ليباريفا وبيتروفا، هذه الفكرة خطرت لها في مثل تلك اللحظة! يا للفظاعة!

ثم إنها تنشغل إلى حد مثير للاستغراب بكيفية التصرف بذاك المبلغ الزهيد الذي تركته بعد رحيلها. «تلك النقود يجب ألا يأخذها الأهل، وتلك تأخذها بيتروفا، والروبلات الخمسة والعشرون التي أعطتني إياها أسرة تشيتشوتكين من أجل السفر أعيدوها لها». إن هذه الأهمية المضفاة على النقود ربما تكون هي آخر صدىً للعقيدة الباطلة الرئيسة التي تشمل الحياة ككل «عن الحجارة المحولة إلى خبز». وباختصار، تطل هنا القناعة المهيمنة على الحياة بأسرها، أي «لو كان الجميع ميسورين، لكانوا جميعاً سعداء، ولو لم يكن ثمة فقراء، لما كانت هناك جرائم. الجرائم لا وجود لها البتة. إن الجريمة حالة مَرَضيّة تنجم عن الفقر وعن البيئة البائسة» إلخ... إلخ... وفي هذا بالذات يكمن مجمل ذاك المُرشد العقائدي الصغير الدارج، والشديد الطابعية[1] والتمامية، الذي يشتمل على العقائد التي يعتنقونها في الحياة بإيمان قوي (وبغض النظر عن ذلك سرعان ما يسأمون جميعهم إيمانهم وحياتهم)، ويستعيضون بها عن كل شيء: عن الحياة الحية، وعن الصلة مع الأرض، وعن الإيمان بالحقيقة؛ عن كل شيء، كل شيء. لقد تَعِبَتْ، كما يبدو، من سأم العيش، وفقدت كل إيمان بالحقيقة، وكل إيمان بالواجب أياً كان؛ وباختصار: فقدت تماماً المثل الأعلى للوجود.

وماتت الفتاة المسكينة. إنني لا أُعْوِلُ عليك أيتها المسكينة، ولكن دعيني آسف عليك على الأقل، اسمحي لي بهذا؛ دعيني أتمنَّ لروحك أن تبعث لحياة لا تشعرين فيها بالسأم. أيها الأحباء الطيبون الشرفاء (وكل هذه الصفات موجودة لديكم) إلى أين تذهبون، ولِمَ بات يحلو لكم هذا القبر المعتم الأصم؟ انظروا: في السماء شمسٌ ربيعية ساطعة، والأشجار قد أورقت، وأنتم تعبتم قبل أن تعيشوا. فكيف لا تُعْوِل عليكم أمهاتكم اللواتي ربينكم، وطالما مَتَّعْنَ أبصارهن بالنظر إليكم عندما كنتم لا تزالون أطفالاً؟ والطفولة زاخرة بالآمال! وها أنا أنظر إلى هؤلاء «اللقطاء» هنا وأرى كم هم راغبون في الحياة، وكيف يعبرون عن حقهم في العيش! وأنتِ أيضاً كنت طفلة، وكنت ترغبين في الحياة. وأمك تتذكر هذا، وهي عندما تقارن بين وجهك الميت، وذاك الضحك والمرح اللذين كانت تراهما على محياك الطفولي، ولا تزال تذكرهما، كيف تريدين منها ألّا «تُعْوِل»، وكيف تلومينهم لأنهم يعولون؟ لقد أروني للتو الطفلة دونيا: ولدت هذه الطفلة بساق مشوهة، أي بلا ساق بالمرة. وبدلاً من الساق لديها شيء ما يشبه الشريط، وهي الآن لم تتجاوز السنة والنصف من عمرها، صحتها جيدة، ووجهها جميل جداً، والجميع هنا يداعبونها، وهي تومئ برأسها للجميع، وتبتسم للجميع، وتطقطق بلسانها للجميع. إنها لا تعرف بعد أي شيء عن ساقها، لا تعرف أنها شوهاء ومقعدة؛ ولكن

هل يا تُرى حُكِمَ على هذه أيضاً بأن تكره الحياة؟ لقد قال الدكتور وهو يداعبها: «سنركّب لها ساقاً، ونعطيها عكازاً. ونعلمها المشي، ولن تلاحظ» أسأل الرب ألّا تلاحظ.

لا؛ أن نتعب، أن نكره الحياة، ومن ثم أن نكره الجميع، أوه، لا، لا، سينقضي أمر هذه العشيرة البائسة، الخديج، المشوهة نفسياً، عشيرة الذين يتلوّون تحت الصخور المنهارة فوقهم، وستسطع كالشمس فكرة جديدة عظيمة، وسيتماسك العقل المترنّح، وسيقول الجميع: «الحياة رائعة، ونحن الذين كنا سيئين». وأنا لا أدين أحداً، بالطبع، عندما أقول «سيئين» وها أنا أرى هذه المرأة، هذه المرضغة الجلفة، وهذا «الحليب المُستأجَر»، تُقبِّل فجأة الطفل الذي ترضعه؛ نعم... هذا الطفل «اللقيط»! ولم أكن من قبل أظن أن المرضعات هنا يقبّلن هؤلاء الأطفال؛ إن رؤية هذا المنظر وحدها تستحق القدوم إلى هنا. كانت تقبلّه من دون أن ترى أو تلاحظ أني أنظر إليها. أَمِنْ أجل النقود هم يحببنهم؟ إنهم يستأجرونهن لإرضاع الأطفال، ولا يطالبونهن بتقبيلهم. يقولون إن أوضاع الأطفال عند التشوخونيّات في القرى أسوأ ولكن بعضهن يألفن الأطفال الذين يُرضعنهم إلى درجة أنهن يُعِدْنَهم إلى «الدار» وهن يبكين، كما قيل لي، ثم يأتين فيما بعد خصيصاً لرؤيتهم من بعيد، ويجلبن لهم هدايا من القرى، و«يُعْوِلن عليهم». لا، القضية هنا ليست في النقود: «فالأهل كلهم يُعولون» كما قررت بيساريفا في الرسالة التي كتبتها قبل الموت، وها هنّ أولاء النسوة أيضاً يأتين ليعولن ويقبّلن، حاملات هداياهن القروية البسيطة. لا، إن هذا ليس مجرد استئجار أثداء يستعاض بها عن أثداء الأمهات، بل هي \الأمومة ذاتها؛ إنه تلك «الحياة الحية» التي تعبت منها بيساريفا أشد التعب. فهل صحيح أن الأرض الروسية ستكف عن حملِ الناس الروس على ظهرها؟ لماذا إذاً نرى الحياة هنا، بقربنا، تمور وتفور بكل هذه القوة؟

يوجد هنا أيضاً، بالطبع، كثير من الأطفال الذين ولدتهم أمهات مثيرات للاهتمام من أولئك اللواتي يجلسن على درجات الدارات الصيفية، ويشحذن الشفرات لمهاجمة منافساتهن. وأقول في الختام: إن هذه الشفرات يمكن أن تكون، من وجهة نظر معينة، جذابة جداً، ولكنني أسفت كثيراً لزيارتي هذا المبنى في هذا الوقت الذي كنت أتابع فيه قضية السيدة كاييروفا. إنني لا أعرف أي شيء على الإطلاق عن سيرة السيدة كاييروفا، ولا أستطيع البتة، ولا يحق لي أصلاً، أن أطبّق عليها أي شيء له علاقة بهذا المبنى؛ ولكن كل قصة غرامها تلك، وكل ذاك العرض البليغ لعواطفها في المحكمة لم يعد لهما أي تأثير في نفسي، وقتلا لدي كل تعاطف معهما فور خروجي من هذا المبنى، وإنني أعترف بهذا بصراحة، إذ ربما كان هذا هو السبب الذي جعلني أكتب عن «قضية» السيدة كاييروفا من دون تعاطف.

الديمقراطية التي لا ريب فيها.
عن المرأة

أشعر أن من الضروري أن أرد على رسالة أخرى بعثها أحد مراسليّ. كنت قد أوردت عَرَضاً في سياق حديثي عن المسائل السياسية، في عدد نيسان (أبريل) الماضي من «اليوميات»، فكرة يمكن أن نفترض أنها من باب الفانتازيا:

«... سيتبيّن أن روسيا أقوى من الجميع في أوربا. وذلك لأن جميع الدول العظمى في أوربا ستبيد لسبب في غاية البساطة: فهي ستضعف وتتقوض بسبب الطموحات الديمقراطية التي لن تتحقق لجزء كبير من الفئات الدنيا من الرعية، من البروليتاريين والمعوزين. أما في روسيا فهذا لا يمكن أن يحدث أبداً: إذ إن عامة الشعب عندنا راضية، وهي تزداد رضاً مع تقدم الزمن؛ لأن كل شيء يسير في هذا الاتجاه بحكم المزاج العام، أو من الأحسن القول: بحكم الوفاق العام؛ ولذا لن يظل في قارة أوربا سوى عملاق واحد هو روسيا».

وقد أورد مراسلي في رده على هذا الرأي واقعة في غاية الطرافة وتنطوي على عبرة بليغة، وقدمها كسبب للشك في أن «عامة الشعب عندنا راضية مرضية». والمراسل المحترم يفهم تمام الفهم (إذا ما اتفق له أن قرأ هذه الأسطر) لِمَ لا أستطيع الآن أن أعرض تلك الواقعة التي أَوْرَدها، وأرد عليها، مع أنني لا أفقد الأمل بإمكانية الحديث عنها بالذات في أقرب وقت؛ أما الآن فإنني أرغب في قول كلمة واحدة لتفسير مفهوم عامة الشعب (ديموس)، ولا سيما بعد أن بلغتني معلومات عن بعض الآراء الأخرى المخالفة لقناعتي برضا «عامة الشعب» عندنا. أود فقط أن ألفت انتباه مُناظريَّ إلى سطر واحد من الفقرة التي اقتطفتها آنفاً من عدد نيسان (أبريل): «... لأن كل شيء يسير في هذا الاتجاه بحكم المزاج العام، أو من الأحسن القول: بحكم الوفاق العام». وبالفعل، لو لم يكن هذا المزاج العام، أو من الأحسن: الوفاق العام موجوداً حتى لدى مناظريّ أنفسهم، لكانوا أغفلوا كلماتي من دون اعتراض. ولذا فإن هذا المزاج موجود بلا شك، وهو، بلا شك، ديمقراطي، وبلا شك، منزه عن الغرض، والأكثر من هذا أنه مزاج عام يشمل الجميع. صحيح أن في التصريحات الديمقراطية الحالية كثيراً من الزيف، وكثيراً من التدليس الصحفي، وكثيراً من الشغف، على سبيل المثال، بالمبالغة في الحملات التي تُشنُّ على خصوم الديمقراطية، وبالمناسبة أقول: إنهم الآن قلة قليلة عندنا. ومع ذلك فإن اتسام الديمقراطية بالشرف، والتنزه عن الغرض، والاستقامة، والصراحة في

أغلبية المجتمع الروسي أمر لا يرقى إليه أي شك. ومن هذه الجهة ربما نكون نحن الروس، قد شخّصنا، أو بدأنا نشخّص ظاهرة لم تتجسد بعد في أوربا، حيث الديمقراطية لم تعلن عن نفسها حتى الآن، وفي كل مكان، إلّا من الأسفل، إنها ما زالت تُحارِب، أما الأوساط العليا المغلوبة (كما يُدَّعى) فهي حتى الآن تبدي مقاومة شرسة. أما عندنا فإن الأوساط العليا لم تُغلب، وهي نفسها أصبحت ديمقراطية، أو، على الأصح، شعبية. مَنْ يستطيع أن ينكر هذا؟ وما دام الأمر هكذا هلاّ وافقتم معي على أن مستقبلاً سعيداً ينتظر عامة الشعب عندنا. وإذا كان ثمة أمور كثيرة في أيامنا تبعث على الاستهجان، فإن من الجائز لنا على الأقل أن نهدهد في نفوسنا أملاً كبيراً يجعلنا نؤمن بأن الشدائد المؤقتة، التي تعاني منها العامة، ستخف حتماً في المستقبل، بقوة التأثير الثابت المستمر لمبادئ عظيمة (إذ لا يمكننا أن نطلق عليها سوى هذه التسمية) مثل: المزاج الديمقراطي العام، والوفاق العام بين جميع الروس إزاء هذا الأمر، بدئاً من أعلى الأوساط. بهذا المعنى بالذات قلت إن عامة الشعب عندنا راضية، «وهي تزداد رضاً مع تقدم الزمن». وأعتقد أن من الصعب عدم الإيمان بهذا.

في الختام أود أن أضيف كلمة عن المرأة الروسية. لقد قلت آنفاً إننا نعلق عليها آمالاً كبيرة، ونَعُدُّها أحد ضمانات تجدُّدِنا. وقد تبيّن أن انبعاث المرأة الروسية خلال العقدين الأخيرين أمر لا ريب فيه. إن ارتقاء متطلباتها كان عالياً وصريحاً وغير هيّاب. وقد أوحى منذ اللحظة الأولى بمشاعر الاحترام، أو على الأقل، جعلنا نفكر بعمق، على الرغم من بعض الشذوذات الطفيلية التي ظهرت في هذه الحركة. ولكنْ الآن يمكن تصفية الحسابات والوصول إلى استنتاج جريء. استهانت المرأة الروسية بالعقبات والتهكمات متحلية بالعفاف والمناقبية. وأعلنت بثبات رغبتها في المشاركة في القضية العامة، وأقدمت على ذلك لا بنزاهة فحسب، بل بإنكار للذات أيضاً. إن الرجل الروسي قد استسلم استسلاماً مخيفاً خلال هذين العقدين الأخيرين لمفاسد الجشع، والاستهتار الوقح، والمادية؛ أما المرأة فقد ظلت وفية أكثر منه بكثير لاعتناق الفكرة، وخدمتها بإخلاص ونقاء. وأظهرت في توقها للتعليم العالي جديّة وجَلَداً، وضربت مثلاً في الشجاعة بأعلى درجاتها. إن «يوميات كاتب» قد أتاحت لي رؤية المرأة الروسية عن كثب؛ فقد تسلمت عدة رسائل رائعة تسألني فيها مرسلاتُها، أنا القليل الحيلة، «ما العمل؟» إنني أقدر هذه الأسئلة، وأحاول أن أكفّر عن قلة حيلتي بإخلاصي في الرد عليها. وأبدي أسفي الآن لأن هناك الكثير من الأمور التي ليس بإمكاني، ولا يحق لي، أن أفصح عنها هنا. وأذكر، بالمناسبة، أنني أرى أيضاً بعض النقائص في المرأة المعاصرة، وأهمها تبعيتها الزائدة لبعض الأفكار الرجالية المحض، واستعدادها لتبني هذه الأفكار كما تُقال لها، وللإيمان بها من دون تمحيص. ولا أقصد بكلامي هذا جميع النساء طبعاً. بيد أن

هذه النقيصة تشهد على اتسام القلب بسمات رائعة: فهنّ يُقدِّرن في المقام الأول الإحساس الطازج الأصيل، والكلمة الحية. ولكن الأمر الأهم والأسمى هو الإخلاص؛ وعندما يُصدِّقن الإخلاص، وحتى الزائف أحياناً، يندفعن إلى تبني الآراء. وهنا بالذات يقع الشطط أحياناً. ولكن التعليم العالي الذي سيأتي في المستقبل يمكن أن يساعد كثيراً في هذا الصدد. وإذا ما أُفسح في المجال بإخلاص وبلا حدود أمام المرأة لحيازة التعليم العالي، ولتمتعها بجميع الحقوق التي يتيحها لها، فإن روسيا ستسبق أوربا مرة أخرى بخطوة كبرى وذات نوعية خاصة على طريق القضية العظمى: قضية تجدد الإنسانية. كما نسأل الرب أيضاً أن يخفِّفَ «تعبُ» المرأة الروسية، وشعورُها بخيبة الأمل. وأن يكون «تعبها» أقل من «تعب» بيساريفا، على سبيل المثال. وليتها عندئذ تخفف من أساها قبل كل شيء، بالتضحية الذاتية والحب كزوجة شابوف[97]. وأرى أن هذه وتلك كلتيهما ظاهرة مؤلمة وحية في الذاكرة على حد سواء: هذه بِطاقتها الأنثوية العالية التي لم تكافأ إلّا بالقليل، وتلك بصفتها فتاة مسكينة، مُتْعَبة، متوحدة، مستسلمة، مهزومة...

حزيران (يونيو)

مُفارَقتي

مشادة من جديد مع أوربا (أوه، لا... ليست حرباً بعد: فنحن، أي روسيا، لا نزال بعيدين عن الحرب كما يقولون) فمن جديد تظهر على مسرح الأحداث المسألة الشرقية التي لا تنتهي، ومن جديد ينظرون في أوربا إلى الروس نظرة خالية من الثقة... ولكن، على كل حال، ما الذي يدعونا إلى السعي لنيل ثقة أوربا بنا؟ فهل سبق لأوربا أن نظرت إلينا بثقة وبلا عداوة في وقت من الأوقات؟ أوه، من البديهي أن هذه النظرة ستغيير يوماً ما، فأوربا ستبصرنا وتعرفنا على نحو أفضل يوماً ما، وهذا يستحق جداً جداً أن نتحدث عنه يوماً ما، ولكن الآن خطرت ببالي مسألة تبدو كأنها مسألة جانبية، هامشية، وكنت مؤخراً قد انشغلت جداً بحلها؛ وحتى إذا لم يوافقني أحد في الرأي حولها فإنني أرى نفسي على حق، ولو جزئياً.

قلتُ إنهم في أوربا لا يحبون الروس. ولا أعتقد أن أحداً سيجادل في أنهم لا يحبوننا، كما أنهم يتهمون الروس جميعاً من دون استثناء تقريباً، بأنهم مغالون في الليبرالية، لا بل إنهم ثوريون ويميلون دائماً، وحتى بنوع من الحب، إلى الانضمام إلى العناصر المخرِّبة، لا إلى العناصر المحافظة في أوربا. ولهذا السبب ينظر إلينا كثير من الأوربيين باستهزاء واستعلاء، وبكراهية: فهم لا يفهمون ما الذي يدعونا لأن نتخذ موقف النفي والرفض من قضية غريبة عنا، وهم بهذا يسلبوننا تماماً حق النفي الأوربي، وذلك على أساس عدم اعترافهم بأننا ننتمي إلى «الحضارة». إنهم ينظرون إلينا على أننا أقرب إلى البرابرة المتجولين في أوربا، والفرحين بأن ثمة شيئاً ما في مكان ما يمكن تخريبه من أجل التخريب فحسب، من أجل التمتع برؤية انهيار هذا الشيء، وكأننا قطيع من المتوحشين، أو جحافل من قبائل «الهون» المتأهبين للهجوم على روما القديمة، وتخريب المقدسات حتى من دون أن يكون لديهم أي مفهوم عن النفائس التي يدمرونها. إن كون الروس بأغلبيتهم، قد أعلنوا عن أنفسهم في أوربا أنهم ليبراليون، هو في الواقع أمر صحيح، بل حتى غريب. فهل سأل أحدنا نفسه في وقت من الأوقات: ما السبب في هذا؟ ولماذا كان ما يقارب تسعة أعشار الروس، الذين تثقفوا في أوربا خلال هذا

القرن، يلتحقون دائماً بفئة الأوربيين الليبراليين، بـ«الطرف اليساري»، أي أنهم كانوا ينضمون دائماً إلى ذاك الطرف الذي ينفي بذاته ثقافته، وحضارته بقدر يقل أو يزيد طبعاً (إذ إن ثمة فرقاً شاسعاً بين ما نفاه «تيير» وما نفته «كومونة باريس»[98] في العام الحادي والسبعين في هذه الحضارة). والروس في أوربا ليبراليون بقدر أيضاً «يقل أو يزيد»، وأيضاً باختلاف كبير. ولكن مع ذلك، أكرر هذا، هم أَمْيَل من الأوربيين إلى الانضمام مباشرة إلى الفئة اليسارية المتطرفة منذ البداية، من دون أن يتسكعوا قبل ذلك على الدرجات السفلى من الليبرالية، وباختصار أقول: إن أمثال «تيير» بين الروس أقل بكثير من أمثال رجال الكومونة. ولاحظوا أن هؤلاء ليسوا أناساً طائشين لا قيمة لهم، على الأقل ليسوا جميعاً هكذا، بل تجدون بينهم أشخاصاً ذوي مهابة ومظهر حضاري، ويقاربون الوصول أحياناً إلى مرتبة الوزراء. ولكن الأوربيين لا يصدقون هذه المظاهر، فهم يقولون: «Grattez le russe et vous verrez le tartare» (اكشطوا الروسي يتبينِ أنه تتري).

ربما كان هذا كله صحيحاً، ولكن يخطر ببالي سؤال: هل سبب انضمام الروس، بأغلبيتهم، عند احتكاكهم بأوربا، إلى الفئة اليسارية المتطرفة هو أنهم تتر ويحبون التخريب كالمتوحشين، أم ربما ثمة أسباب أخرى تدفعهم إلى ذلك؟ هنا تكمن المسألة! ووافقوني على أنها مسألة مثيرة للاهتمام. إن مشادّاتنا مع أوربا تقترب من نهايتها. وقد انتهى دور النافذة المفتوحة على أوربا*، ويتقدم الآن، أو على الأقل، يجب أن يتقدم، شيء آخر، وهذا أمر يعرفه الآن كل من هو قادر ولو قليلاً على التفكير. وباختصار أقول: إننا بدأنا نشعر أكثر فأكثر أن علينا أن نكون مستعدين لشيء ما، للقاء ما جديد ومبتكر تماماً مع أوربا يختلف عما هو قائم حتى الآن - أيكون هذا في نطاق المسألة الشرقية، أم في نطاق شيء آخر؟ لا أحد يعلم! ولذا فإن أية مسائل مشابهة، أو دراسات، أو حتى تخمينات أو مفارقات، حتى هذه يمكن أن تكون مثيرة للاهتمام، على الأقل لأنها يمكن أن تدعو إلى التفكير. وكيف لا تكون مثيرة للاهتمام تلك الظاهرة المتمثلة في أن أولئك الروس بالذات، الذين يَعُدّون أنفسهم أوربيين أكثر من الجميع، ويُدْعَوْن عندنا «الغربويين»[13] وهم يتباهون ويفاخرون بهذا اللقب، ولا يزالون حتى الآن يغايظون النصف الآخر من الروس بتلقيبهم «الكفاسيين» و«الزيبونيين»[99] أقول كيف لا يكون مثيراً للاهتمام كون أولئك هم الأسرع من الجميع إلى الالتحاق بالذين ينفون الحضارة، وبالذين يخرّبونها، وإلى الانضمام إلى «الفئة اليسارية المتطرفة»، وكونُ هذا الأمر

(*) إشارة إلى مدينة سانت بطرسبورغ التي شبهها القيصر بطرس الأكبر عند تأسيسها بنافذة مفتوحة تفتحها روسيا للإطلال منها على أوربا، ومن المعروف أن دوستويفسكي كان يتخذ موقفاً سلبياً من «أَوْرَبَة» روسيا، أو تشبُّهِها بأوربا. (م).

لا يثير دهشة أحد في روسيا بالمرة، بل إنه لم يكن موضع تساؤل قط؟ كيف لا يكون كل هذا مثيراً للاهتمام؟

ولأقل بصراحة: لقد تكوّن لدي جواب عن هذا السؤال؛ ولكنني لن أعمد إلى البرهنة على فكرتي، بل سأكتفي بعرضها، وسأحاول أن أطوّر الواقعة فحسب. وعلى كل فإن البرهنة ليست ممكنة لسبب واحد فقط هو أنك لن تستطيع البرهنة على كل شيء.

وإليكم ما يتراءى لي: ألم تنعكس في هذه الواقعة (أي انضمام حتى أشد الغربيين لدينا حماسة إلى الفئة اليسارية المتطرفة، أي جوهرياً، إلى الذين ينفون أوربا ويرفضونها)، ألم تنعكس فيها النَفْسُ الروسية المُحْتَجَّة، التي ما انفكت، منذ عهد بطرس، تكره الثقافة الأوربية، التي انطوت على الكثير، والكثير جداً مما هو غريب عن النفس الروسية؟ هذا ما أعتقده أنا بالذات؛ ولكن من البديهي أن هذا الاحتجاج كان يجري طوال الوقت تقريباً، على نحو لا شعوري، والقيمة الثمينة هنا هو أن الحسّ الروسي لم يمت، فالنفس الروسية كان تحتج، وإنْ لا شعورياً، في سبيل روسيتها بالذات، في سبيل جوهرها الروسي المكبوت؟ سيقولون طبعاً: لا شيء يبعث على السرور، حتى إذا كان الأمر هكذا: «إذ إن ذاك النافي الرافض - سواء أكان من الهون أو من البرابرة أو من التتر - لم يكن ينفي باسم حقيقة ما عليا، بل كان ينفي لأنه ذاته كان من الوضاعة بحيث لم يستطع حتى في غضون قرنين أن يبصر السمو الأوربي». هذا بالتأكيد ما سيقولونه. وأنا موافق على أن السؤال ما زال قائماً، ولكنني لن أعمد إلى الإجابة عنه، بل سأكتفي بالتصريح من غير تعليل بأنني أنفي بكل قوة الافتراض المتعلق بالتتري. أوه، طبعاً مَنْ مِنْ الروس الآن، وخاصة بعد أن أصبح كل شيء في عداد الماضي (لأن تلك المرحلة قد ولّت فعلاً) مَنْ مِنْ جميع الروس سيجادل معترضاً على قضية بطرس، وعلى «النافذة المفتوحة»، ويقف ضدها ويحلم بالقيصرية الموسكوفية؟ القضية ليست في هذا على الإطلاق، وأنا لم أقصد التحدث عن هذا الموضوع، بل أردت أن أقول: مهما كان كل هذا جيداً ومفيداً، أقصد كل ما رأيناه عبر «النافذة»، فإن ما فيه من السوء والضرر جعل الحس الروسي لا يكف عن استنكاره والاحتجاج عليه (على الرغم من أنه تاه وضلّ إلى الحد الذي جعله بأغلبيته العظمى، لا يعي ما كان يفعله) ولم يكن سبب احتجاجه يعود إلى تتريّته، بل ربما كان هذا السبب يكمن فعلاً، في أن هذا الحس يحتفظ في داخله بشيء أسمى وأفضل مما كان يشاهده عبر «النافذة»... (من البديهي أن هذا الاحتجاج لم يشمل كل شيء: إذ إننا أخذنا الكثير من الأشياء الرائعة، ولا نريد أن نكون من الجاحدين ولكن من الممكن أن يكون الاحتجاج قد شمل النصف على الأقل).

وأكرر قولي إن كل هذا قد حدث على نحو أصيل للغاية: إذ إن أكثر الغربيين حماسة

عندنا، والمناضلين من أجل الإصلاح، هم بالذات الذين اتخذوا في الوقت نفسه موقف النفي من أوربا وانحازوا إلى صفوف الفئة اليسارية المتطرفة... وماذا كانت النتيجة؟ انتهى بهم الأمر إلى أنهم بموقفهم هذا، أسبغوا على أنفسهم صفة الروس الأشد غيرة على روسيتهم، والمناضلين من أجل روسيا الأصيلة، ومن أجل الروح الروسية، وبالطبع لو كان هذا الرأي قد عُرض عليهم في حينه لكانوا إما أغربوا في الضحك، أو استفظعوا الأمر. وليس من شك في أنهم لم يكونوا يعون سمو الاحتجاج الذي في داخلهم بالمرة، بل بالعكس، فقد كانوا طوال الوقت على مدى قرنين كاملين ينفون هذا السمو، وليس السمو فقط، بل إنهم كانوا ينفون حتى احترامهم لأنفسهم (نعم، كان هناك من يستهويه ذلك!) ويغالون في ذلك إلى الحد الذي كان يدهش أوربا ذاتها؛ ولكن ها نحن نتبيّن أن هؤلاء بالذات روس حقيقيون. وحَزْري هذا هو ما أسميه مُفارَقَتي.

إن بيلينسكي[10] على سبيل المثال، وهو شخص متحمس ومندفع بطبيعته، يكاد يكون من أوائل الروس الذين انحازوا مباشرة إلى الإشتراكيين الأوربيين، الذين اتخذوا موقف النفي من مجمل نظام الحضارة الأوربية، وكان، في الوقت نفسه، يشنّ عندنا، في حقل الأدب الروسي، حرباً لا هوادة فيها على السلافويين[13] مدافعاً، كما يبدو في الظاهر، عن النقيض تماماً. وكم كان سيندهش لو قال له هؤلاء السلافويون أنفسهم آنذاك إنه اشد المناضلين تطرفاً في سبيل الحقيقة الروسية، وفي سبيل الشخصية الروسية الأصيلة، والمبدأ الروسي وتحديداً في سبيل كل ما كان ينفيه في روسيا من أجل أوربا، وما كان يعده خرافة، بل أكثر من ذلك: ماذا لو أنهم برهنوا له على أنه، بمعنىً من المعاني، هو المحافظ الحقيقي، وذلك بالذات لأنه اشتراكي ثوري في أوربا؟ وفي الحقيقة هكذا كان الأمر تقريباً. لقد وقع خطأ فاحش آنذاك من كِلا الجانبين، وتمثل هذا الخطأ قبل كل شيء في أن كل أولئك الغربويين كانوا يخلطون بين روسيا وأوربا، وينظرون إلى روسيا على أنها أوربا بجدّ؛ وإذ كانوا ينفون أوربا ونظامها، كانوا يظنون أن هذا النفي ذاته يمكن تطبيقه على روسيا، في حين أن روسيا لم تكن أوربا البتة، بل كانت ترتدي الرداء الأوربي لا أكثر، ولكن تحت هذا الرداء كان ثمة كائن آخر تماماً. وكان السلافويون يدعون إلى استبصار الأمر للتيقن من أن هذا الكائن ليس أوربا، بل هو كائن آخر، ويشيرون في أثناء ذلك مباشرة إلى أن الغربويين يساوون بين شيئين غير متشابهين، وغير قابلين للمقايسة، وأن الاستنتاج الذي يصلح لأوربا لا ينطبق البتة على روسيا، ويعود سبب هذا جزئياً إلى أن كل ما يرغبون به في أوربا موجود منذ مدة طويلة في روسيا، على الأقل في حالة جنينية وبالقوة، بل إنه يشكل جوهرها، ولكن ليس بشكل ثوري، بل بالشكل الذي ينبغي أن تظهر به أفكار التجدد الإنساني العالمي هذه: بشكل الحقيقة الإلهية، الحقيقة

المسيحية التي ستتجسد يوماً على الأرض، وهي مصونة بتمامها في الأرثوذكسية. كانوا يدعون إلى دراسة روسيا والتعلم منها بادئ ذي بدء، ثم استخلاص النتائج بعد ذلك، ولكن التعلّم آنذاك لم يكن ممكناً، وفي الحقيقة، لم تكن هناك الوسائل اللازمة لذلك. ومن كان بمقدوره معرفة شيء ما عن روسيا آنذاك؟ السلافَوِيوّن كانوا يعرفون أكثر بمئة مرة مما يعرفه الغربويون (وهذا minimum)*، ولكن حتى هم يتصرفون متلمسين طريقهم تلمساً تقريباً، على أساس المحاكمات العقلية المجردة، معتمدين أساساً، على حسهم الفائق الرهافة. ولم تتح الإمكانية لتعلم شيء ما إلّا في السنوات العشرين الأخيرة: ولكن مع ذلك من يعرف الآن شيئاً ما عن روسيا؟ كل ما يمكن قوله بهذا الصدد هو أن الدراسة قد بدأت للتو، ولكن ما إن تظهر فجأة مسألة هامة حتى يدب الخلاف على الفور بين الجميع. وها هي المسألة الشرقية تبرز لدينا الآن من جديد، دعونا نعترف: هل هم كثيرون عندنا أولئك القادرون على أن يتفقوا على قرار عام واحد حول هذه المسألة؟ ومن هم بالذات هؤلاء؟ وهذا بصدد قضية عظمى لها كل هذه الأهمية، فهي قضيتنا القومية المصيرية! ولندع المسألة الشرقية جانباً! إلى اين سنأخذ مسائل كبرى كهذه! انظروا إلى مئات بل آلاف المسائل الداخلية العادية القائمة الآن عندنا، ودعونا نتساءل: ما هذا التقلقل الذي يشمل الجميع، وما هذه النظرة التي لا تستقر على شيء، وما هذا التقاعس الناجم عن عدم اعتيادنا الفعل الحقيقي! هاهم يجردون روسيا من غاباتها، مُلّاك الأراضي والفلاحون يقطعون أشجار الغابات بضراوة؛ ويمكنني القول جازماً إن الخشب يباع بِعُشر قيمته؛ فالعرض، كما أظن، لن يدوم طويلاً! وما إن يكبر أطفالنا قليلاً حتى تكون كمية الأخشاب في السوق قد أصبحت أقل بعشر مرات. وإلامَ سيفضي هذا؟ ربما إلى الهلاك. ومع ذلك فإنكم إذا حاولتم أن تقولوا شيئاً ما عن تقليص الحق في إبادة الغابة، فما الذي ستسمعونه؟ المصلحة العامة والضرورة القومية من جهة، وانتهاك حق الملكية الخاصة من جهة أخرى. فكرتان على طرفي نقيض. سيظهر لدينا على الفور معسكران، ولا ندري بعد إلى أي جهة سينحاز الرأي الليبرالي الذي يحسم كل شيء. ولكن هل هما معسكران فقط؟ ثم إن القضية ستظل قائمة مدة طويلة. وقد قال أحدهم مازحاً على الطريقة الليبرالية الحالية: رب ضارة نافعة، فإذا قطعوا كل أشجار الغابة الروسية لن نعدم أن نجني من جراء هذا ولو فائدة واحدة هي القضاء نهائياً على عقوبة الجلد بالقضبان، إذ إن محاكم النواحي لن تجد ما تجلد به الفلّاحين والفلاحات المذنبين. وهذه عبارةُ تعزية طبعاً، ولكن حتى هذا يظل غير قابل للتصديق: فحتى إذا لم يبق غابات بالمرة، مع ذلك

(*) الحد الأدنى.

سيظل هناك ما يكفي للجلد، وسيعمدون إلى الاستيراد من الخارج. وهاهم اليهود يصبحون من ملّاك الأراضي، وقد أخذت الأصوات ترتفع، والأقلام تكتب في كل مكان عن أنهم يتسببون في موت التربة في روسيا، وأن اليهودي عندما ينفق أموالاً لشراء ضيعة تراه يسارع على الفور لاستنزاف كل قوى الأرض وإمكاناتها من أجل استرداد رأس المال الذي أنفقه مع فوائده. ولكن جرّبوا أن تقولوا شيئاً ضد هذه الحال: إنهم لن يلبثوا أن يصيحوا في وجوهكم محذرين من انتهاك مبدأ الحرية الاقتصادية، والتساوي بين المواطنين في الحقوق. ولكن أي تساوٍ في الحقوق هذا إذا كنا هنا إزاء حالة تلمودية واضحة تعني أول ما تعني، وقبل أي شيء آخر، إقامة: «status in statu»*، وإذا كان ما يجري ليس استنزافاً للتربة فحسب، بل هو أيضاً استنزاف قادم لفلاحنا الذي تحرر من ربقة ملّاك الأراضي ليقع في القريب العاجل، وبلا أدنى شك، مع كل الجماعة الفلّاحية التي ينتمي إليها، تحت نير عبودية أسوأ بكثير، وتحت سلطة مُلّاك أراضٍ أسوأ بكثير، هم أولئك الملّاك الجدد الذي امتصوا نسغ الحياة من عروق الفلاح الروسي الغربي، والذين لن يكتفوا بشراء الضياع وفلاحيها فحسب، بل سيشترون الرأي الليبرالي أيضاً، وقد بدؤوا عملية الشراء هذه، وما زالوا مستمرين فيها بنجاح باهر. لماذا يحدث هذا كله عندنا؟ ولِمَ هذا الخَوَر في العزيمة وعدم الاتفاق على أي قرار، مهما كانت طبيعة هذا القرار (لاحظوا أن هذه هي الحقيقة)؟ السبب في رأيي ليس البتة في انعدام الموهبة، وليس في عدم قدرتنا على الفعل الحقيقي، بل في استمرارنا في عدم معرفتنا روسيا، وجوهرها، وفرديتها، ومغزاها، وروحها، على الرغم من مضي عشرين سنة من الدراسة تقريباً منذ أيام بيلينسكي والسلافويين. ولا بد من الإشارة إلى أنه خلال هذه السنوات العشرين حصل تقدم كبير فعلاً في مضمار دراسة روسيا، ولكن الحس الروسي تقلص، على ما يبدو، بالمقارنة مع ما كان عليه سابقاً. فما هو السبب؟ وإذا كان الحس الروسي لدى السلافويين هو الذي كان ينقذهم آنذاك، فإن هذا الحس كان لدى بيلينسكي كذلك، وبقدرٍ يجعل السلافويين يَعُدّونه أفضل أصدقائهم. وأكرر أن العلاقة بين الجانبين كانت تعاني من سوء تفاهم بالغ من كليهما. ولم يكن عبثاً قول أبولون غريغورِيف** الذي كان يعبر أحياناً عن أفكار دقيقة إلى حد كبير: «لو امتد العمر ببيلينسكي لكان انحاز، على الأرجح، إلى جانب السلافويين». لقد انطوت هذه العبارة على فكرة حصيفة.

(*) دولة داخل دولة (باللاتينية). (ن).

(**) أبولون غريغوريف (1822-1864) ناقد أدبي وشاعر روسي، له مقالات عن أ. ن. اوستروفسكي واي. تورغينف، ون. نكراسوف. وهو قريب فكرياً من السلافويين. (ن).

استنتاج من المفارقة

على هذا سيقولون لي: إنك تزعم «أن كل روسي، عندما يتحول إلى كوموني* أوربي يصبح بهذا على الفور محافظاً روسياً»؟ ولكن لا، فمثل هذا الاستنتاج ينطوي على مجازفة تتجاوز الحد. فأنا أردت أن أشير فقط إلى أن هذه الفكرة، حتى إذا أخذت بحرفيتها ـ تظل تنطوي على ذرة من الحقيقة. والمهم أنه يوجد هنا كثير من اللا شعور، وربما يوجد من جانبي إيمان جد قوي بالحس الروسي الذي لا ينقطع، وبحيوية الروح الروسية. ولكن لنفترض، لنفترض أنني أنا نفسي أعرف أن ثمة مفارقة في الأمر، إلّا أنني أود أن أبرز في الصدارة الرأي الآتي: إن هذا أيضاً واقعة حقيقية، واستنتاج مستخلص من هذه الواقعة. لقد قلت آنفاً إن الروس يتميزون في أوربا بليبراليتهم، وبأنهم بمجرد احتكاكهم بأوربا ينضم تسعة من كل عشرة منهم على الأقل إلى الفئة اليسارية، وإلى اليسارية المتطرفة... وأنا لا أصر على الرقم، فربما كانت نسبتهم لا تعادل تسعة من عشرة، ولكنني أصر على أن الروس الليبراليين أكثر بما لا يقاس من غير الليبراليين. أي أن ثمة روساً غير ليبراليين أيضاً. نعم، في الواقع يوجد الآن، ودائماً كان يوجد روس (أسماء كثيرة منهم معروفة) لم يكتفوا بالإحجام عن نفي الحضارة الأوربية، بل بالعكس، انحنوا أمامها وأجلّوها إلى الحد الذي جعلهم يفقدون آخر حس روسي لديهم، ويفقدون شخصيتهم الروسية، ولغتهم، ويغيّرون وطنهم، وإذا كانوا لم يستبدلوا جنسية أخرى بجنسيتهم، فإنهم على الأقل، كانوا يبقون في أوربا أجيالاً كاملة. وثمة حقيقة هنا هي أن جميع هؤلاء، بعكس الروس الليبراليين، وبعكس إلحادهم و«كومونيتهم»، كانوا ينحازون على الفور إلى الفئة اليمينية، واليمينية المتطرفة، ويصبحون محافظين مخيفين وإلى هذا أوربيين.

وقد غيّر كثيرون منهم عقيدتهم واعتنقوا الكاثوليكية. أوَ ليس هؤلاء محافظين بعد كل هذا، أوَليسوا من الفئة اليمينية المتطرفة؟ ولكن عفواً هم محافظون في أوربا، وهم، بالعكس، ينفون روسيا وينكرونها نكراناً تاماً، وقد أصبحوا من مخرّبي روسيا، ومن أعداء روسيا! هذا هو معنى أن تتحول من روسي إلى أوربي حقيقيّ، وأن تصبح ابناً حقيقياً للحضارة؛ حقاً إنها لحقيقة رائعة تَوصَّلْنا إليها بعد مئتي سنة من التجربة. وهكذا فإن الاستنتاج المستخلص هو أن الروسي الذي يصبح أوربياً حقيقياً لا يمكن إلّا أن يتحول في الوقت نفسه إلى عدو طبيعي

(*) نسبة إلى كومونة باريس. انظر الهامش (98).

لروسيا. فهل هذا ما كان يرغب فيه أولئك الذين فتحوا نافذة على أوربا؟ هل هذا ما كانوا يضعونه نصب أعينهم؟ وهكذا ظهر لدينا أنموذجان من الروس المتحضرين: فالأوربي بيلينسكي، الذي ينفي في الوقت نفسه أوربا، تبيّن أنه روسي من الدرجة الأولى، على الرغم من كل الضلالات التي أعلنها عن روسيا، في حين أن الأمير الروسي الأصيل والعريق غاغارين[100]، عندما أصبح أوربياً، رأى من الضروري لا أن يتحول إلى الكاثوليكية فحسب، بل أن يقفز مباشرة إلى الجزويتية (اليسوعية). والآن قولوا لي: مَن منهما صديق روسيا أكثر من الآخر؟ مَنْ منهما بقي روسياً أكثر؟ ثم ألا يؤكد هذا المثال الثاني (عن الفئة اليمينية المتطرفة) مفارقتي الأولى، التي تتمثل في أن الاشتراكين والكومونيين الروس الأوربيين هم، قبل كل شيء، ليسوا أوربيين، وسينتهي بهم الأمر إلى أن يصبحوا مرة أخرى روساً أصلاء رائعين، وذلك عندما يتبدد سوء التفاهم ويستوعبون روسيا جيداً، وثانياً: إن الروسي لا يمكن بحال من الأحوال أن يتحول إلى أوربي جديّ، ويبقى مع ذلك روسيّاً ولو بقدر ضئيل، وبما أن الأمر كذلك، فإن روسيا، على هذا، هي ظاهرة قائمة بذاتها تماماً، وذات خصوصية، وهي لا تشبه أوربا البتة، وتتسم بحد ذاتها بالجدية. ثم إن أوربا ذاتها ربما كانت غير منصفة بالمرة في إدانتها للروس والهزء بهم بسبب ثوريتهم: فنحن ثوريون لا من أجل الهدم فقط في الأماكن التي لم نبنِ فيها، نحن الروس، نحن لسنا كالهون والتتر، بل نحن ثوريون من أجل شيء ما آخر، شيء نحن أنفسنا ما نزال حتى الآن لا نعرفه (أما الذين يعرفونه فإنهم يتكتّمون عليه بينهم وبين أنفسهم). وباختصار: نحن ثوريون، لَنقُلْ، بحكم ضرورة ما ذاتية، بل لِنَقُلْ، بحكم كوننا محافظين... ولكنْ كل هذا ذو طابع انتقالي، كل هذا كما سبق أن قلت جانبي وهامشي، وما يتصدر خشبة المسرح الآن هو المسألة الشرقية العصية أبداً على الحل.

المسألة الشرقية

المسألة الشرقية! مِنْ منّا لم يعان في هذا الشهر من المشاعر غير العادية التي انتابتنا؟ وكم من الأقاويل تداولتها جرائدنا! وأية ارتباكات لعبت ببعض الرؤوس، وأية كلبية[5] تبدت في بعض الأحكام، وأي اختلاج طيب وشريف تردد في بعض القلوب، وأي لغط ضج في بعض

أوساط اليهود! شيء واحد صحيح هو أنه ليس ثمة ما يُخيف، على الرغم من أن هناك كثيرين كانوا يخوفوننا. وحقاً من الصعب أن نتصور أن في روسيا هذا العدد الكبير من الجبناء. يوجد في روسيا أشخاص جبناء عن قصد، هذا صحيح، ولكن يبدو أنهم أخطؤوا في التوقيت، والآن قد تأخروا هم أنفسهم عن إظهار الجبن، ولم يعد من ذلك فائدة: لن يحرزوا الآن أي نجاح. والجبناء عن قصد يعرفون حدودهم طبعاً، ولن يطلبوا من روسيا وصم نفسها بالعار، كما جرى في الماضي، عندما أرسل القيصر إيفان الرهيب رسله إلى الملك ستيفان باتوري*. وطلب منهم أن يتحملوا حتى الجَلد، إذا لزم الأمر، من أجل أن يحصلوا على السلام ونقول باختصار: يبدو أن رأي المجتمع قد تحدد، وهو غير موافق على الجلد، أياً كان السلام الذي يمكن الحصول عليه لقاء ذلك.

إن الأميرين: ميلان الصربي ونيكولاي التشيرنوغوري** قد توكّلا على الرب، واستندا إلى حقهما، وثارا على السلطان، وربما عندما سيقرأأن هذه الأسطر ستكون قد انتشرت أخبار عن حدوث لقاء مهم أو حتى عن موقعة فاصلة. فالأمور الآن ستجري بسرعة. إن تردد وتباطؤ الدول العظمى، والنزوة الدبلوماسية من جانب إنكلترا التي رفضت الانضمام إلى موقّعي وثيقة مؤتمرات برلين، ثم الثورة التي تلت ذلك في القسطنطينية، وبروز التعصب الإسلامي، وأخيراً البطش الفظيع الذي تعرض له ستون ألفاً من البلغار المسالمين من شيوخ ونساء وأطفال على أيدي قوات الـ (باش بزق)*** والشركس، كل هذا قد أشعل نار الحرب وأججها. إن السلاف لديهم آمال كثيرة، فإذا أحصينا مجمل قواتهم وجدنا أن لديهم حتى المئة وخمسين ألف مقاتل، وأكثر من ثلاثة أرباعهم من العسكريين النظاميين المنضبطين. ولكن المهم هو الروح المعنوية؛ فهم يذهبون إلى القتال مؤمنين بحقهم، ومؤمنين بانتصارهم، في حين أن الأتراك، على الرغم من التعصب، يعانون كثيراً من غياب القيادة، ومن الارتباك الشديد، وليس عجيباً أن يتحول هذا الارتباك بعد الالتحامات الأولى إلى ذعر شديد. ويبدو أن بالإمكان التنبؤ بأرجحية انتصار السلاف إذا لم تتدخل أوربا. وعدم تدخل أوربا، كما يظهر، أمر مقرر؛ ولكن من الصعب الحكم على أي شيء في السياسة الأوربية في هذا الوقت بأنه ثابت ونهائي. ونظراً لضخامة المسألة وبروزها المفاجئ قرر الجميع، كما يبدو، الانتظار والتريث في اتخاذ القرار الأخير. ولكن غدا من المعروف أن حلف الدول الشرقية العظمى الثلاث مستمر، كما

(*) ستيفان باتوري (1586) ملك بولندا. (ن).

(**) نسبة إلى إقليم «تشيرنوغوريا» أي - (الجبل الأسود - مونتينيغرو). (م).

(***) الباش بزق: جنود في الجيش التركي غير النظامي كان يجري تجنيدهم من أبناء القبائل المحاربة الأكثر وحشية وتخلفاً في أراضي الامبراطورية التركية. (ن).

أن اللقاءات الشخصية بين العواهل الثلاثة ما زالت مستمرة، أي إن عدم تدخل السلاف في الصراع من هذه الناحية أمر ما زال حتى الآن صحيحاً؛ أما إنكلترا التي ظلت وحيدة فإنها تبحث عن حلفاء، فهل ستجدهم؟ هذا السؤال ما زال قائماً. وإذا وجدتهم فإنهم، كما يبدو، لن يكونوا الفرنسيين. وباختصار فإن أوربا كلها ستنظر إلى الصراع بين المسيحيين والسلطان من دون أن تتدخل فيه، ولكن فقط إلى حين... إلى أن يئين أوان اقتسام التركة. ولكن هل هذا الإرث ممكن؟ وهل سيبقى ثمة تركة؟ وإذا أنعم الرب على السلاف بالنجاح فإلى أي حد ستسمح لهم أوربا بقطف ثمار هذا النجاح؟ هل ستسمح لهم بإنزال الرجل المريض عن سريره نهائياً؟*. من الصعب جداً تبني هذا الافتراض. ألن يقرروا، بالعكس، علاجه مرة ثانية بعد أن يعقدوا مؤتمراً طبياً استشارياً مهيباً؟ بحيث يُكافأ السلاف على جهودهم، حتى في حالة إحرازهم نجاحاً باهراً، بمساعدة هزيلة ذات مفعول مُسكِّن. لقد خرجت صربيا إلى الساحة معتمدة على قوتها، ولكنها تعرف، بالطبع، أن مصيرها النهائي يتوقف كلياً على روسيا. إنها تعرف أنْ لا أحد سوى روسيا سيصونها من الهلاك إذا ما واجهت كارثة كبرى، وأن روسيا، بنفوذها الجبار، ستساعدها على أن تحتفظ لنفسها، في حالة النجاح، بأكبر قدر ممكن من الفائدة. إنها تعرف هذا، وتعلق آمالها على روسيا، ولكنها تعرف أيضاً أن أوربا تنظر الآن إلى روسيا بارتياب مُضْمَر، وأن روسيا في وضع قلق، وباختصار فإن كل شيء ما زال في رحم المستقبل، ولكن كيف على روسيا أن تتصرف؟

هل هذا سؤال؟ لا يمكن أن يكون هذا سؤالاً، بل يجب ألا يكون كذلك لدى أي روسي. فروسيا ستتصرف بشرف: هذا هو الجواب الكلي عن السؤال. فليُشَوِّه رئيس وزراء إنكلترا** الحقيقة أمام البرلمان لأغراض سياسية، وليبلغ النوابَ رسمياً أن إبادة ستين ألف بلغاري لم تكن بأيدي الترك، ولا بأيدي قوات الـ «باش بزق»، بل بأيدي أناس ذوي أصول سلافية؛ وليصدِّق البرلمانُ بأكمله كذبَه هذا ويستحسنه بصمت لأغراض سياسية؛ لكنْ في روسيا لا يمكن أن يحدث شيء مثل هذا، ويجب ألّا يحدث. سيقول بعضهم: بيد أن روسيا، على كل حال، لا يمكنها أن تتصرف على نحو فيه خسارة واضحة لها؟ ولكن فيمَ يقوم ربح روسيا؟ إن روسيا ستكون رابحة حتى إذا هي أقدمت عند اللزوم، على سلوك سبيل يؤدي إلى خسارة واضحة، وإلى تقديم تضحية واضحة، إذا كان هذا يجنبها انتهاك مبادئ العدالة. ليس بإمكان

(*) لقب «الرجل المريض» أطلقه القيصر نيكولاي الأول على تركيا في حديث له مع السفير البريطاني جورج هاملتون سيمور في عام (1853). (ن).

(**) المقصود بنيامين دزرائيلي (الكونت بيكونسفيلد) (1804-1881) رئيس حزب المحافظين. رئيس الوزارة في بريطانيا (1868، 1874-1880). (ن).

روسيا أن تخون الفكرة العظيمة التي ائتمنت عليها وتوارثتها عبر قرون عدة، وظلت متمسكة بها بثبات حتى الآن. وهذه الفكرة، هي بالمناسبة، وحدة جميع السلاف، ولكن هذه الوحدة الشاملة لا تعني الاستيلاء، ولا العنف، بل خدمة الإنسانية عامة. ثم لنتساءل: متى تصرفت روسيا في المجال السياسي من أجل الربح المباشر لنفسها، وهل حدث هذا كثيراً؟ ألم تخدم، بالعكس، خلال تاريخها البطرسبورغي كله، وفي أغلب الأحيان، مصالح الآخرين بنزاهة كان من شأنها أن تدهش أوربا، لو كان بمقدور هذه الأخيرة أن تنظر إلى الأمور بوضوح، لا أن تنظر إلينا بعدم ثقة، وبارتياب وكراهية. ولكن لا أحد في أوربا على العموم يؤمن بالتنزه عن المصلحة الذاتية في أي مجال، وهم لا يقتصرون على عدم الإيمان بنزاهة روسيا، بل بالأحرى هم أميَلُ إلى الإيمان باحتيالها أو غبائها. ولكن لا داعي لدينا للخوف من أحكامهم: ففي هذه النزاهة التي تنطوي على نكران الذات تكمن كل قوة روسيا، وكل شخصيتها، إذا جاز التعبير، وكل رسالة روسيا المستقبلية. غير أن الأمر الوحيد المؤسف، هو اتخاذ هذه القوة أحياناً وجهة خاطئة إلى حد ما.

مرة أخرى عن المرأة

انتقلت كل الصحف تقريباً إلى التعبير عن التعاطف مع الصرب والتشيرنوغوريين* المنتفضين للنضال في سبيل تحرير أشقائهم؛ وتتتبّع الأوساط الاجتماعية، بل حتى الأوساط الشعبية بحماسة أنباء النجاح الذي تحرزه أسلحتهم. بيد أن السلاف يحتاجون إلى مساعدة. وقد وردت أخبار، يبدو أنها دقيقة جداً، عن أن النمساويين والإنكليز يساعدون الأتراك بنشاط بالغ، من غير أن يعلنوا عن ذلك، ولكن هذه المساعدة، على العموم، تكاد تكون علنية. وهم يساعدونهم بالمال والسلاح، والذخيرة و... البشر. إن الجيش التركي يضم الكثيرين من الضباط الأجانب. والأسطول الإنكليزي الضخم يرابط قرب القسطنطينية... لاعتبارات سياسية. بل، على الأصح، تحسباً للطوارئ. وأصبح لدى النمسا الآن جيش ضخم متأهب، تحسباً للطوارئ أيضاً. والصحافة النمساوية تعبر عن الغيظ من الصرب الثائرين، ومن روسيا.

(*) التشيرنوغورسين: (سكان الجبل الأسود). (م).

وينبغي هنا أن نلاحظ أنه إذا كانت أوربا تنظر إلى السلاف في الآونة الراهنة هذه النظرة الخالية من التعاطف إلى هذا الحد، فإن السبب في ذلك يعود بالطبع إلى أن الروس أيضاً سلاف؛ وإلّا لما كانت الجرائد النمساوية تعبّر عن كل هذا الخوف من الصرب، الذين لا يمتلكون سوى قدر ضئيل جداً من القوة العسكرية، بالمقارنة مع الجبروت النمساوي، ولما شبَّهتهْم بـ «بييمونت»[101].

ولذا فإن على المجتمع الروسي أن يساعد السلاف من جديد؛ ومن البديهي أن تكون المساعدة بالمال وببعض الوسائل الأخرى. وكان الجنرال تشيرنيايف* قد صرح في بطرسبورغ أن قسم الخدمات الطبية في الجيش الصربي بأكمله ضعيف جداً: إذ ليس فيه أطباء ولا أدوية، والعناية بالمرضى ضئيلة. وقد أصدرت الهيئة السلافية[102] في موسكو نداءً حاراً موجهاً إلى روسيا بأسرها تدعو فيه إلى مساعدة إخوتنا الثائرين، وحضرت الهيئة بكامل مِلاكها الصلاة المهيبة التي أقيمت في كنيسة المجمع الديني الصربي، حيث احتشدت جماهير شعبية غفيرة للدعاء للقوات المسلحة الصربية والتشيرنوغية بالنصر. وبدأت الصحف في بطرسبورغ تنشر تصريحات الجمهور الذي يرسل تبرعات. ومن الواضح أن هذه الحركة تتعاظم، على الرغم مما يسمى بـ «الموسم الصيفي الميت». فهو ليس ميتاً إلّا في بطرسبورغ.

كنت أريد أن أختم «يومياتي» هنا، وكنت قد راجعت نسخة التصحيح عندما رنت جرس شقتي فجأة فتاة** كانت قد تعرفت علي في الشتاء بعد أن بدأتُ إصدار «اليوميات». كانت تتهيأ لتقديم امتحان صعب، وتعد العدة له بهمة وعزم، ولا شك في أنها ستجتازه بنجاح. وهي من أسرة غنية، وليست بحاجة للمال، ولكنها شديدة الاهتمام بتثقيف نفسها، وقد أتت إلي تطلب النصيحة: ماذا عليها أن تقرأ وإلامَ توجه انتباهها. وكانت لا تزورني أكثر من مرة في الشهر، ولا تبقى عندي في كل زيارة أكثر من عشر دقائق، ولا تتحدث إلّا في صلب الموضوع، ولم تكن تكثر من الكلام، وتتحدث بتواضع، وباستحياء تقريباً، وتبدي ثقة مفرطة بما أقوله لها. ولكن لا يمكن للعين ألّا ترى امتلاكها طبعاً حازماً جداً. وقد تبين أنني لست مخطئاً في حكمي هذا؛ إذ ما إن دخلت الشقة في هذه المرة حتى قالت لي مباشرة: - في صربيا يحتاجون إلى من يعتني بالمرضى، وقد عزمت على أن أؤجل تقديم الامتحان، وأذهب إلى هناك لأعتني بالجرحى. ما قولك في هذا؟

(*) ميخائيل تشيرنيايف (1829-1898) جنرال روسي متقاعد، ذهب إلى البلقان متطوعاً وترأس الجيش الصربي. وقد أعلنت صربيا وتشيرنوغوريا (الجبل الأسود) الحرب على تركيا في حزيران عام 1876. (ن).

(**) هي صوفيا يفيموفنا لوريه، ابنة مصرفي، قدمت إلى بطرسبورغ من مينسك، وجرت بينها وبين دوستويفسكي مُراسلات. (ن).

ونظرت إليّ بوجل تقريباً؛ وفي هذه الأثناء كنت قد قرأت في نظراتها بوضوح أنها قد اتخذت قرارها، وأنها لن تغيّر هذا القرار. ولكنها بحاجة أيضاً إلى أن تتزود بوصيتي لها قبل السفر. ليس باستطاعتي أن أنقل حديثنا بكل تفاصيله كيلا أكشف بإشارة ما مهما كانت بسيطة عن شخصية محدثتي، ولذا فإني أكتفي بنقل ما جرى بعموميته.

شعرت فجأة بشفقة شديدة عليها، فهي ما زالت في مقتبل العمر، وكانت إخافتها بالصعوبات، والحرب، والتيفوس في المستشفيات العسكرية أمراً نافلاً تماماً: إذ كان هذا من شأنه ان يصب الزيت على النار. كان الشيء الوحيد الماثل أمامي هو التوق إلى التضحية، إلى اجتراح المأثرة، إلى فعل الخير، وكان المهم الأغلى من كل هذا، هو أنه لا وجود هنا لأي غرور، ولا لأي زهو بالنفس، بل كل ما هنالك ببساطة هو الرغبة في «العناية بالجرحى»، والقيام بعمل مفيد.

- ولكنك لا تعرفين كيف تعتنين بالجرحى؟

- نعم، ولكنني أستعلم عن هذا، وقد زرت الهيئة. إنهم يعطون المنتسبين مهلة أسبوعين، وأنا طبعاً سأكون مستعدة.

وهي طبعاً ستكون مستعدة؛ فالقول هنا لا يتضارب مع الفعل.

قلت لها: - اسمعي، أنا لا أريد أن أخيفك، ولا أن أقنعك بالعدول عن رأيك، ولكن تدبّري كلماتي، واعملي على تقديرها حسب ما يمليه عليك ضميرك. أنت نشأت في ظروف مختلفة تماماً، أنت لم تري سوى المجتمع الجيد، ولم تشاهدي الناس في يوم من الأيام إلّا وهم في حالة هدوء لا تسمح لهم بأن يتجاوزوا حدود اللياقة. ولكن هؤلاء الناس أنفسهم ستجدينهم في الحرب، في الضيق، في المشقة، في المصاعب يصبحون، في بعض الأحيان، أناساً آخرين تماماً. ربما يصدف أحياناً أن تكوني قد قضيت الليل بطوله وأنت تعتنين بالمرضى، وتخدمينهم، وقد أُرهقت، ولا تكادين تقفين على قدميك، وإذا بدكتور، ربما يكون إنساناً جيداً جداً بذاته، ولكنه منهك، مُضنىً، وقد بتر لتوه عدة أيدٍ وأرجل، يتوجه إليك فجأة بعصبية، ويقول لك: «أنت لا تفعلين أي شيء سوى أنك تفسدين! بما أنك التزمت، يجب أن تخدمي» وهلم جراً وهلم جراً... ألن يكون من الصعب عليك احتمال ذلك؟ وتأكدي أن هذا يجب افتراضه حتماً، وأنا لا أصور لك الآن سوى أهون المواقف. الواقع يكون، أحياناً، بعيداً جداً عن المتوقع. وأخيراً هل ستتحملين، هل أنت متيقنة من أنك ستتحملين، بصرف النظر عن كل ثبات تصميمك، هذه العناية نفسها؟ ألن تقعي مغمياً عليك عند رؤيتك حالة موت، أو جرح أو عملية ما؟ علماً بأن هذا يحدث على نحو لا إرادي، لا واعٍ...

- إذا قالوا لي إنني لا أخدم بل أُفسد، فإنني سأدرك تماماً أن هذا الدكتور نفسه متوتر الأعصاب ومنهك، ويكفيني أن أعرف بيني وبين نفسي أنني لست مذنبة، وأنني أنفذ كل شيء كما ينبغي.

- ولكنك ما زلت صغيرة، فكيف يمكنك أن تضمني نفسك؟

- لماذا تظن أنني ما زلت صغيرة؟ أنا الآن في الثامنة عشرة، ولست صغيرة على الإطلاق...

وباختصار، كان إقناعها مستحيلاً: فهي، على كل حال، ستغادر غداً، ولكن مع شعورها بالأسى لأنني لم أستحسن خطوتها. قلت لها: فليكن الرب معك، اذهبي، ولكن عندما ينتهي الأمر عودي بسرعة.

- أوه، طبعاً، عليّ أن أقدم الامتحان. إنك لن تصدق إذا قلت لك كم أفرحتني.

غادرتني بوجه متهلل، وهي، طبعاً، ستكون هناك بعد أسبوع.

في مقالتي عن جورج صاند التي استهللت بها «يومياتي» هذه المرة، كتبت بضع كلمات عن طباع الفتيات التي أعجبتني أكثر من غيرها في قصصها الأولى المبكرة جداً. وها أنا الآن أمام شخصية فتاة من هذا النوع بالذات، أمام الطبع الأنثوي الفتي ذاته، الذي يتسم بالصراحة والشرف، ولكنه يفتقر إلى الخبرة، ويتسم بالعفة الأبيّة التي لا تخشى التلوث، ولا يمكن أن تتلوث حتى وإن كانت على تماس مع الرذيلة. إننا هنا نرى الحاجة إلى التضحية، إلى الفعل، وكأن هذه الفعل يُنتظر منها هي بالذات؛ نرى القناعة بأنها مُطالبة، ويتوجب عليها أن تكون هي الأولى، هي المبادِرة، ومن دون أية أعذار، إلى فعل الخير، الذي تنتظر من الآخرين أن يفعلوه، وتطالبهم بفعله؛ وهي قناعة صادقة وأخلاقية إلى أبعد الحدود، ولكنها، يا للأسف، لا توجد في الغالب إلّا لدى النفوس الفتية المتسمة بالنقاوة والبراءة. وأكرر قولي: إن الأهم هنا هو الفعل، ومن أجل الفعل وحده، بلا أية ذرة من الغرور، أو الاعتداد بالذات، أو الزهو الداخلي بالمأثرة الذاتية؛ بعكس ما نلاحظه في أحيان كثيرة لدى الشبان المعاصرين، حتى وهم في سن المراهقة.

عند ذهابها راودتني ثانية على نحو لا إرادي فكرة الحاجة عندنا إلى التعليم العالي للإناث. وهي حاجة جد ماسة وفي هذه الآونة بالذات، نظراً للرغبة الجدية في النشاط لدى المرأة المعاصرة؛ رغبتها في التحصيل العلمي، وفي المشاركة في القضية العامة. وأعتقد أن آباء هؤلاء الفتيات وأمهاتهن كان عليهم أن يصروا هم أنفسهم على هذا، من أجل أنفسهم بالذات، إذا كانوا يحبون أبناءهم. وفي الحقيقة لا شيء سوى العلم العالي يتضمن في ذاته القدر اللازم

من الجدية والجاذبية، والقوة من أجل تسكين ذاك الاضطراب، أو ما يشبه الاضطراب الذي بدأ ينتشر في أوساط النساء عندنا. العلم وحده يمكنه أن يقدم الأجوبة عن الأسئلة التي يطرحنها، وأن يمد العقل بالقوة، ويبسط وصايته إذا جاز التعبير، على الأفكار الهائجة. أما فيما يخص هذه الفتاة، فمع أنني أشفق على شبابها، ولم يكن بمقدوري أن أوقفها، لكنني شبه متيقن بأن هذه السفرة، ستكون، من جهة ما، مفيدة لها: فما ينتظرها لا ينتمي إلى عالم الكتب، ولا إلى دائرة القناعات المجردة، بل هو تجربة كبرى قادمة، ربما يكون الرب نفسه هو الذي قدّرها لها، مسبغاً عليها نعمته اللانهائية لكي ينقذها. إنها ستتلقى درساً من الحياة الواقعية، وستتسع دائرة أفكارها ونظرتها، وستختزن ذكريات لن تنساها طوال حياتها عن أمر ما غالٍ ورائع، شاركت هي فيه، فجعلها تُعِزُّ الحياة، ولا تتعب منها من دون أن تعيشها، كما تعبت المنتحرة التعسة «بيساريفا»، التي تحدثتُ عنها في «يومياتي» السالفة عن شهر أيار (مايو).

السفر إلى الخارج.
شيء ما عن الروس في عربات القطار

(.........)

الطريق بين بطرسبورغ وبرلين طويل، يستغرق يومين تقريباً، ولذلك فقد أخذت معي، من باب الاحتياط، كرّاستين، وبضع جرائد. وأخذتها «من باب الاحتياط» بالذات لأنني أخشى دائماً أن أقع وسط جمهور من فئة الروس المثقفين الذين لا أعرفهم؛ وأنا أفعل هذا في كل مكان، سواء في عربة قطار، أو في باخرة، أو في أي مجلس آخر فيه جمع من الناس. وأنا أعترف بهذا بصفته من نقاط ضعفي، وأُعْزوه، قبل كل شيء، إلى الوسواس الذي ينتابني. أما في الخارج فإنني، وسط الأجانب، أشعر دائماً براحة أكبر: فهنا كل شخص يسير مباشرة إلى حيث يقصد؛ في حين أن مواطننا يسير وهو يتلفت حواليه: «ماذا سيقولون عني يا ترى؟» وتراه صلباً وثابتاً في الظاهر، بينما هو شخص في غاية التقلقل وعدم الثقة بالنفس. وإذا بدأ شخص روسي لا تعرفه يتحدث إليك فإنه يتحدث دائماً بمنتهى المُسارَّة والود، ولكن ما إن ينطق الحرف الأول حتى تلمس عدم الثقة الشديد، بل حتى توتر الأعصاب المستور الناشئ عن الوسواس، وما إن يحصل شيء ما لا يروقه حتى تجده يطلق العنان لهذا التوتر فيظهر على شكل كلمة جارحة، أو حتى فظاظة صريحة، بصرف النظر عن كل «تهذيبه»، والأهم هو أن هذا يحصل فجأة بلا أية مقدمات. وكأن كل واحد من هؤلاء يريد أن يثأر لتفاهته من شخص ما، علماً بأنه ربما كان إنساناً غير تافه على الإطلاق، بل ربما كان بعكس ذلك تماماً. ليس ثمة من يفوق الروسي في استعداده لترداد عبارة: «وما همني مما سيقولونه عني»، أو: «أنا لا أبالي مطلقاً بالرأي العام»، وليس ثمة من يفوق الروسي (وأكرر من جديد: المتحضّر) في خوفه وهلعه من الرأي العام، ومما سيقولونه عنه، أو يفكرون فيه بخصوصه. وسبب هذا يعود بالذات إلى اللااِحترام العميق لنفسه، وذلك، طبعاً، إلى جانب غروره واعتداده بذاته إلى حد لا يمكن تصوره. إن هذين الضدين يقبعان دائماً في داخل كل مثقف روسي تقريباً، وهو

أول من ينوء بحملهما، وعلى هذا فإن كلاً منهم كأنه يحمل «جهنماً في نفسه». ومن المزعج جداً أن تلتقي مصادفة في الخارج مع روس لا تعرفهم في مكان يفرض عليك أن تجلس قبالتهم وجهاً لوجه، ولا يسمح لك بالهرب في حالة وقوع مصيبة ما، وذلك بأن يجلسوكم معاً في عربة قطار، على سبيل المثال. هذا في حين أنه من المفترض، كما يبدو، أن يكون «من المبهج جداً التقاء المرء ابنَ وطنه في الغربة». والحديث يبدأ دائماً بهذه العبارة بالذات؛ فما إن يعرف ابن وطنك أنك روسي حتى يبادر حتماً إلى القول: «أنت روسي؟ من المبهج جداً أن تلتقي ابن وطنك في الغربة: وها أنا هنا أيضاً»... وتبدأ في الحال مصارحات ما على نحو ودي للغاية وبلهجة أخوية، إذا جاز التعبير، تليق بابنَيْ وطن واحد تعانقا في الغربة. ولكنْ لا تصدق هذه اللهجة: فابن وطنك، مع أنه يبتسم لك، ينظر إليك بارتياب، ويمكنك أن ترى ذلك في عينيه، وتلاحظه في ترقيق صوته المصطنع، وفي نطقه الرخيم لمقاطع الكلمات؛ إنه يقيسك، وقد أصبح يخاف منك بكل تأكيد، ويريد أن يكذب؛ وهو لا يستطيع ألّا ينظر إليك بارتياب، وألّا يكذب، وذلك بالذات لأنك أنت أيضاً روسي، وهو يوازن لا إرادياً بينك وبينه، وربما لأنك تستأهل هذا فعلاً. ومن اللافت أيضاً أن الروسي الذي لا تعرفه يسارع دوماً، أو على الأقل في أحيان كثيرة، عندما يكون في الخارج (في أغلب الأحيان: في الخارج، أو دائماً تقريباً: في الخارج) بعد العبارة الثالثة تقريباً، يسارع إلى تمرير معلومة مفادها أنه قابَلَ لتوه فلاناً، أو سمع شيئاً ما من فلان، أي من شخص ما مشهور أو وجيه من مواطنينا الروس، ويتحدث عنه بتباسط محبب للغاية، وكأنه زميل، وليس زميله هو فقط، بل زميلك أنت أيضاً: «طبعاً أنت تعرف أن المسكين يطوف على جميع الأطباء المشهورين هنا، وهؤلاء يرسلونه إلى مصحات التداوي بالمياه المعدنية، لقد قضى عليه الغم تماماً، هل تعرفه؟» وإذا أنت أجبت بأنك لا تعرفه البتة فإن محدثك سيجد على الفور أن في هذا ما يسيء إليه: «ألم تقل لنفسك يا ترى إنني أردت أن أتباهى أمامك بمعرفتي لشخص وجيه؟» إنك تقرأ هذا السؤال في عينيه، وربما يكون هذا هو ما حدث فعلاً. أما إذا أجبت بأنك تعرف هذا الشخص فإن محدثك سيستاءِ أكثر؛ لماذا؟ في الحقيقة لا أدري. وباختصار فإن اللاصدق والعداوة يزدادان من الجانبين، وفجأة ينقطع الحديث ويخمد. وترى ابن وطنك ينصرف عنك فجأة، وهو مستعد لأن يتحدث طوال الوقت مع خباز ألماني ما يجلس قبالته، ولا يتحدث معك، ويتقصد أن تلاحظ أنت ذلك. وهكذا بعد أن يبدأ بمثل هذه الصداقة، يقطع كل الصلات والعلاقات معك، ويتجاهلك تماماً بكل فظاظة. وعندما يقبل الليل ويكون ثمة مكان، يتمدد على المفارش حتى يكاد يلامسك بقدميه، أو ربما يمد نفسه عمداً كي يصل بقدميه إليك؛ وعندما ينتهي الطريق يخرج من المقطورة من غير حتى أن يومئ إليك برأسه. «ما الذي جعله يستاء

إلى هذا الحد؟» تتساءل في سرك بمرارة وحيرة عميقة. إن أفضل شيء هو التقاء الجنرالات الروس. فالجنرال الروسي في الخارج يهتم أكثر ما يهتم بألا يجرؤ أحد من الروس الذين يلتقيهم على أن يتحدث معه من غير مراعاة لرتبته، مستغلاً الظرف وقائلاً لنفسه: « نحن الآن خارج الوطن، ولذا فإننا متساويان». وعلى هذا فإن الجنرال عندما يكون في الطريق، على سبيل المثال، يغرق في صمت صارم ورخامي منذ اللحظة الأولى، وحسناً يفعل، فهو بهذا لن يزعج أحداً. وأذكر بالمناسبة أن الجنرال الروسي المتوجه إلى الخارج يحب جداً أن يرتدي ملابس مدنية في بعض الأحيان، ويوصي عليها عند أحسن خياط في بطرسبورغ، وعندما يصل إلى موقع المياه المعدنية، حيث يوجد دائماً عدد كبير من السيدات الجميلات القادمات من كل أنحاء أوربا تراه راغباً جداً في التباهي بأناقته. وفي نهاية الموسم يجد متعة كبيرة في التقاط صورة له وهو في ثيابه المدنية، كي يهدي صوره إلى معارفه في بطرسبورغ، أو يسعد مرؤوسه المخلص بهذه الهدية. وعلى كل حال فإن التزوُّد بكتاب أو صحيفة يساعد جداً في الطريق للتخلص من الروس بالذات: «ها أنت ترى أنني أقرأ، دعني بسلام».

مثاليون- كلبيون[5]

هل من أحد ما زال يذكر مقالة البروفيسور الخالد الذكر، والإنسان الروسي الخالد الذكر تيموفي نيكولايفتش غرانوفسكي عن المسألة الشرقية*، التي كتبها، إذا صح الخبر، في عام 1855، أي في معمعان الحرب بيننا وبين أوربا، وعندما كان حصار سيباستوبل** قد بدأ؟ لقد أخذتها معي وأعدت قراءتها في القطار بمناسبة بروز المسألة الشرقية من جديد في أيامنا هذه؛ وقد بدا لي فجأة أن هذه المقالة القديمة المحترمة مثيرة للاهتمام إلى حد غير عادي، وأنها

(*) المقصود: المقالة المغفلة الموسومة بعنوان «المسألة الشرقية من وجهة النظر الروسية عام 1855» التي نُسبت خطأً إلى ت. ن. غرانوفسكي. (ن)، (1813-1855) وهو مؤرخ وشخصية اجتماعية ورئيس الغربويين الموسكوفيين، وكان يعالج المسائل التاريخية بعمق وشمولية ضد الطغيان ونظام القنانة. (ن).

(**) مدينة سيباستوبول: (سيفاستوبول) مرفأ على البحر الأسود في شبه جزيرة القرم، احتلها الفرنسيون والإنكليز في حرب القرم بعد حصار طويل عام (1855). (م).

أكثر إثارة للاهتمام بما لا يقاس مما كانت عليه في المرة الأولى التي قرأتها فيها، ووافقت على الآراء الواردة فيها إلى أبعد حد. ففي هذه المرة أدهشني تصور ذو طابع خاص: أولاً - نظرة الغربوي[13] إلى الشعب في تلك الحقبة؛ وثانياً- وهو المهم، ما يمكن أن نسميَّه المغزى النفساني للمقالة. ولا يسعني إلّا أن أشاطر القارئ انطباعي.

كان غرانوفسكي واحداً من أكثر الناس نزاهة آنذاك؛ كان شخصاً رائعاً ليس فيه ما يُلام عليه؛ شخصاً من مثاليي الأربعينيات بأسمى معاني الكلمة. ولا شك في أنه كان يتسم بطابع خصوصي وأصيل للغاية وسط تقدميي تلك الأيام عندنا، ذوي الإرادة الصلبة المعهودة. لقد كان الرجل واحداً من أشرف رجالنا الذين هم من طراز ستيبان تروفيموفتش (أنموذج مثاليٍّ الأربعينيات الذي صوّرتُه في روايتي «الشياطين»[39] ورأى فيه النقاد شخصيةً مجسّدةً بشكل صحيح. فأنا أحب ستيبان تروفيموفتش وأُكنُّ له احتراماً عميقاً)، وربما من غير أية سمة كوميدية تُلازم هذا الأنموذج عادة إلى حدٍّ ما. وقد قلت إن ما أدهشني هو المغزى النفساني للمقالة، وبدت لي هذه الفكرة طريفة جداً. لا أدري هل تتفقون معي في الرأي أم لا، ولكنني أرى أن المثالي الروسي، المثالي المعروف بهذه الصفة، والعارف أن الجميع يعدونه مثالياً، وينظرون إليه على أنه داعية «مُجازاً»، إذا صح التعبير، لـ «الرائع والسامي»، عندما يجد فجأة، بحكم ظرف ما، أن ثمة ضرورة لأن يبدي رأيه في قضية ما (وأعني قضية «حقيقية»، عملية، راهنة، وليست قضية ما حول شأن من شؤون الشعر، بل قضية هامة وجدية، قضية مواطنية تقريباً، إذا جاز التعبير)، وأن يبدي رأيه لا كيفما اتفق، وليس على نحو عرضي، بل بعبارة حاسمة تتضمن حكماً، وتؤثر حتماً، تراه قد تحوّل فجأة، وبأعجوبة ما، لا إلى واقعي متحمس فقط، ولا إلى شخص يهتم «بنثريات» الحياة فحسب، بل إلى شخص كلبي[5]. والأكثر من ذلك أنه يفخر بهذه الكلبية، وبهذه «النثرية». وتراه، بعد أن يبدي رأيه، يكاد أن يطقطق بلسانه. تُنحّى المثل العليا جانباً، المثل العليا تصبح هذراً، شعراً، قريضاً منظوماً؛ وتحل محلها «الحقيقة الواقعية» فحسب، ولكنه يبالغ في هذا دائماً إلى الحد الذي يجعل الحقيقة الواقعية تتحول دائماً إلى نوع من الكلبية. وفي هذه الكلبية بالذات يبحث عن الحقيقة الواقعية، وهنا يفترض وجودها، فكلما ازدادت الفظاظة، والقسوة، والجفاف ازدادت صفة الواقعية حسب رأيه. فما سبب ذلك؟ سببه أن صاحبنا المثالي، في مثل هذه الحالة، يخجل حتماً بمثاليته. يخجل ويخشى أن يقولوا له: «ايه، أنت مثالي، فمن أين لك أن تفهم في «القضايا العملية». اذهب وادعُ إلى الرائع أما «القضايا العملية» فاترك البت فيها لنا». حتى بوشكين كانت لديه هذه السمة: فقد خجل الشاعر العظيم غير مرة من كونه شاعراً فقط. وربما كانت هذه السمة موجودة لدى الشعوب الأخرى أيضاً، ولكني أستبعد ذلك. أستبعد، على الأقل أن تتجلى هذه

السمة هناك بالقدر نفسه الذي تتجلى به عندنا. فهناك، بحكم اعتياد الجميع منذ زمن طويل مزاولة العمل الفعلي، فإن أعمال الناس ودرجات أهميتهم حظيت بالوقت الكافي لتصنيفها، فأصبح كل شخص تقريباً يعرف ذاته، ويفهمها، ويحترمها، سواء من حيث نوع العمل الذي يزاوله، أو من حيث درجة الأهمية التي يتمتع بها. أما عندنا فبحكم عدم اعتيادنا القيام بأي فعل حقيقي خلال مئتي سنة أصبح الوضع مختلفاً بعض الشيء. فعدم احترام الذات الكامن عميقاً في سرائرنا لا ينجو منه أحد حتى أمثال بوشكين وغرانوفسكي. وبالفعل فإن هذا الإنسان، الذي يتسم بأعلى درجات البراءة والصدق، عندما وجد فجأة أن الضرورة تقتضي منه التحول من أستاذ في التاريخ إلى دبلوماسي، وصل بأحكامه إلى أمور تثير الدهشة. فهو، على سبيل المثال، ينفي تماماً حتى إمكانية تقديم شكر لنا من جانب النمسا على مساعدتنا إياها في نزاعها مع المجريّين*، وإنقاذها، حرفياً، من التفتت. وهو لا ينفي ذلك بسبب أن النمسا «غدّارة»، وأنه كان علينا أن نخمن ذلك سلفاً. لا، إنه لا يرى هنا أي أثر للغدر؛ بل يرى أن النمسا لم يكن بمقدورها أن تتصرف على نحو آخر. وهو لا يكتفي بذلك، بل يقول بصراحة إن النمسا لم يتوجب عليها أن تتصرف على نحو آخر، بل بالعكس، كان يجب عليها إلّا تتصرف إلّا هكذا؛ وعلى هذا فإن أملنا بتقديمها الشكر لنا هو خطأ لا يغتفر، وهو مدعاة للسخرية في سياستنا. وهو يزعم أن الفرد شيء والدولة شيء آخر؛ فالدولة لديها أهدافها العليا الآنية، ومنافعها الذاتية؛ ولذا فإن مطالبتها بتقديم الشكر الذي يصل إلى حد التضحية بمصالحها الخاصة هي ببساطة... تصرف مضحك. يقول غرانوفسكي: «لقد بات غدر النمسا وجحودها حكماً عاماً رائجاً عندنا. ولكن الكلام على الجحود أو عرفان الجميل في الشؤون السياسية يدل على عدم فهمها. فالدولة ليست شخصاً مفرداً؛ ولا يجوز لها أن تضحي بمصالحها بدافع عرفان الجميل، خصوصاً إذا عرفنا أن الشهامة ذاتها لا يمكن على الإطلاق أن تكون منزهة عن الغرض» (أي لا ينبغي لها أن تكون؟ هذا هو المغزى بالضبط). وباختصار فإن هذا المثالي المبجل قد نطق بأحكام في غاية الذكاء، ولكن المهم هو أنها واقعية: وكأنه بهذا يريد أن يقول: ليس كل ما نجيده، هو قرض الشعر فحسب!... نعم صحيح أن هذا، من حيث الذكاء، ذكي، فضلاً عن أنه ليس بجديد، بل هو موجود منذ أن وُجد الدبلوماسيون في هذا العالم؛ ولكن مع ذلك فإن تبرير تصرف النمسا بمثل هذه الحماسة، وليس مجرد التبرير فحسب، بل الذهاب إلى البرهنة الصريحة على أن النمسا لم يكن عليها أن تتصرف على نحو آخر: إن هذا، أياً كان رأيكم فيه، أمر يشطر العقل إلى نصفين. ثمة شيء هنا تستحيل الموافقة

(*) يقصد دوستويفسكي بالنزاع بين النمسا والمجريين: الثورة المجرية التي نشبت في عامي 1848-1849. (ن).

عليه، شيء تثير فكرةُ الموافقة عليه شعوراً بالتقزز، على الرغم مما يتسم به من ذكاء سياسي وعملي غير عادي؛ وقد صدر فجأة وعلى غير توقع بالمرة عن صاحبنا المؤرخ - الشاعر، كاهن «الرائع». إن هذا الاعتراف بقدسية المنفعة الآنية التي يعود بها الربح المباشر العاجل، هذا الاعتراف بعدالة البصق على الشرف والضمير من أجل انتزاع خصلة من «شعر الخنزير» كمكسب، يمكن أن يدفع المرء إلى التوغل بعيداً جداً في «طريق الانحراف»؛ وعلى أساسه يمكن أيضاً، على الأرجح، تبرير سياسة مترنيخ[103]، وذلك انطلاقاً من أهداف الدولة العليا والواقعية. ولنتساءل هنا: هل المنافع العليا وحدها، والأرباح الآنية فحسب هي التي تشكل الفائدة الحقيقية للأمة، وتحدد تالياً سياستها «العليا»، بما يتناقض مع كل العواطف والمثل العليا و...و... «الشيلرية»؟* إنه سؤال جوهري. أليست السياسة الأفضل للأمة العظيمة هي، بالعكس، سياسة الشرف، والشهامة، والإنصاف، حتى وإن كانت في الظاهر تمس بمصالحها (وهي في الحقيقة لا تمس البتة)؟ وهل من المعقول أن مؤرخنا لم يكن يعرف أن هذه الأفكار العظيمة والشريفة (وليس الربح وحده وخصلة «شعر الخنزير») هي التي ستنتصر في النهاية لدى الشعوب والأمم، على الرغم من كل ما يبدو في الظاهر من لا عمليتها المضحكة، ومثاليتها المُذِلة جداً في نظر الدبلوماسيين والمترنيخات، وأن سياسة الشرف والتنزه عن الغرض الأناني ليست هي السياسة الأسمى فحسب بل لعلها السياسة الأنفع للأمة العظيمة، وذلك بالضبط لأنها أمة عظيمة. إن سياسة البحث عن الفائدة العملية الآنية، والاندفاع المستمر نحو المواقف الأكثر إرباحاً، والأكثر إلحاحاً في ضرورتها الآنية، تكشف عن صَغار الدولة وعجزها الداخلي، ووضعها البائس. إن الذكاء الدبلوماسي، الذكاء الذي يتجه نحو النفع العملي والضروري آنياً كان يتبيّن دائماً أنه أبخس قيمة من الحق والشرف، ودائماً كان الحق والشرف يؤولان إلى النصر. وإذا هما لم يؤولا إليه، فإنهما سيؤولان إليه يوماً ما، لأن هذا ما كان يريده الناس منذ الأزل، وما سيظلون يريدونه إلى الأبد. أوَ لم تبرز اعتراضات عميقة وعلى مستوى رفيع من الذكاء على إلغاء الاتّجار بالزنوج عندما أُلغيت هذه التجارة، وذلك بحجة أن هذا «الإلغاء» غير عملي، وأنه يضر بمصالح الشعوب والدول، الضرورية جداً واللازمة للغاية؟ ووصل الأمر بالمعترضين إلى الزعم بأن المتاجرة بالزنوج أمر ضروري حتى من الناحية الأخلاقية وسوّغوها بوجود فوارق طبيعية بين الأقوام، وانتهوا إلى استنتاج يقول: إن الزنجي يكاد أن لا يكون إنساناً... وعندما ثارت مستعمرات إنكلترا في الشمال الأميركي ضد النخاسة، أَلَمْ يظلوا يصرخون بضع سنوات على التوالي في إنكلترا مدّعين أن تحرير المستعمرات من الحكم الإنكليزي سيوجه ضربة قاصمة للمصالح الإنكليزية،

(*) نسبة إلى الشاعر الألماني الشهير فريدريك شيلر (1759-1805). (م).

وسيكون بمنزلة صدمة مدمرة ونكبة. وعندما حرروا الفلّاحين عندنا ألَمْ تعلُ صرخات محلية مماثلة، ألم تزعم «العقول العميقة والعلمية» أن الدولة تسلك طريقاً سيئة، ومجهولة، ومرعبة، وتقدم على خطوة ستهز الدولة برمتها، وأنه ليس هكذا ينبغي أن تكون السياسة العليا التي ترعى المصالح الواقعية، لا المصالح التي تقوم على أساس «الحساسية» العاطفية. ولِمَ نذهبُ بعيداً! فها هي المسألة السلافية ماثلة أمامنا: ليتنا ننبذ السلاف الآن بالمرة! ومع أن غرانوفسكي يصر على أن كل ما نريده من السلاف هو أن نتقوّى بهم لا غير، وأننا نعمل من أجل منفعتنا العملية فحسب، فإنني أعتقد أن لسانه قد زلّ هنا أيضاً. فأية منفعة عملية نجنيها معهم، حتى في المستقبل، وبِمَ يمكن أن نتقوّى؟ هل سنصل إلى البحر الأبيض المتوسط يوماً ما، أم سنستولي على القسطنطينية «التي لن يعطونا إياها أبداً»؟ إن هذا ليس سوى «لقلق في السماء»، وحتى إذا أمسكنا به فإن هذا سيزيد من متاعبنا. وسنخلق لأنفسنا متاعب ستدوم طوال ألف سنة. فهل هذه هي النعمة التي سنفوز بها وهل هذه هي نظرة الإنسان الحكيم، وهل لنا في هذا مصلحة عملية حقيقية؟ ليس لنا من السلاف سوى الهموم والمتاعب؛ ولا سيما في الآونة الراهنة، التي لم يصبحوا فيها بعد جزءاً منا، فبسببهم تنظر إلينا أوربا شَزْراً منذ مئة سنة، والآن لم تعد تكتفي بشزرنا فحسب، بل باتت مستعدة، عندما تبدر منا أية حركة، أن تمتشق السيف وتصوّب نحونا مدافعها. ليس لنا، ببساطة سوى أن ننبذهم، وإلى الأبد، كي نُطَمْئِن أوربا نهائياً؛ ولكن لا يكفي أن نقتصر على نبذهم فقط: فأوربا، على الأرجح، لن تصدق الآن أننا نبذناهم، وهذا يعني أن نبذنا إياهم يجب أن يقترن ببراهين: فلا بد لنا من أن ننقضّ على هؤلاء السلاف ونسحقهم أخوياً، كي ندعم تركيا، وكأننا نقول لهم: «أجل يا أشقاءنا السلاف الأعزاء، الدولة ليست شخصاً مفرداً، ولا يجوز لها أن تضحي بمصالحها بدافع الشهامة، أَوَ لَمْ تكونوا تعرفون هذا من قبل؟» وكم من المنافع العملية الحقيقية والفورية، لا الخيالية المستقبلية، ستحصل عليها روسيا في الحال! ستنتهي المسألة الشرقية على الفور، وسنستعيد ثقة أوربا ولو إلى حين، وبهذا ستتقلص ميزانيتنا العسكرية، وينصلح حال رصيدنا، وتعود لروبلنا قيمته الحقيقية. ولن يقتصر الأمر على هذا: فاللقلق لن يطير بعيداً، بل سيظل يدوّم في السماء! أما الآن فستتخابث ونتربص: «الدولة ليست شخصا مفرداً، ولا يجوز لها أن تضحي بمصالحها». ثم مع مرور الوقت... وأياً كان الأمر فإن السلاف، إذا كان مقدّراً لهم إلّا يستغنوا عنا، سينضمون إلينا من تلقاء أنفسهم عندما يثين الأوان، وعندئذ سننخرط في صفوفهم من جديد بودّ وأخوّة. وبالمناسبة أقول: إن هذا بالضبط ما يراه غرانوفسكي في سياستنا. فهو يؤكد أن سياستنا لم تخرج خلال القرن الأخير عن نهج الضغط على السلاف، «لقد كانت تشي بهم وتفشي أسرارهم للأتراك»، وأن سياستنا السلافية كانت دائماً سياسة استيلاء وعنف، ولم

يكن بوسعها أن تكون غير ذلك. (أي أنها هكذا كان يجب أن تكون؟ وهو إذ يبرر انتهاج الآخرين مثل هذه السياسة، لِمَ لا يبرر لنا هذا أيضاً؟) ولكن هل الأمر هكذا حقاً، وهل كانت سياستنا دائماً على هذا النحو بالفعل إزاء المسألة السلافية، وهل حقاً ما تزال هذه السياسة غير واضحة حتى الآن؟ هذا هو السؤال!

هل من المخجل أن تكون مثالياً؟

كان غرانوفسكي يعتز بنفسه، بالطبع، ولكن الاعتزاز بالنفس، وحتى الذي يقترن أحياناً بسرعة التهيج، كان يسم، بالضرورة، كما يبدو لي، جميع الأشخاص النجباء في مجتمعنا آنذاك، وذلك بالضبط لأنهم لا يمارسون فعلاً حقيقياً، ولاستحالة عثورهم على عمل مناسب يمارسونه، أو، إذا جاز القول، بسبب حنينهم إلى الفعل الحقيقي. وكانت الأمور تصل إلى حد أن الذين كان لديهم عمل يمارسونه، كما يبدو ظاهرياً، (كأن يكون المرء بروفيسوراً، على سبيل المثال، أو أديباً، أو شاعراً، أو حتى شاعراً عظيماً) كانوا يبخسون المهنة التي يزاولونها قيمتها، ولم يكن السبب في ذلك يقتصر على أنهم كانوا يرون أنفسهم والمهن التي يزاولونها تنحصر ضمن أطر ضيقة، بل كان يتعدى ذلك إلى أن كل واحد منهم تقريباً كان يميل إلى الاعتقاد بأن لديه بذور قدرات تؤهله لممارسة عمل آخر هو، حسب رأيه، أسمى وأكثر فائدة، وأعظم أهميةً اجتماعيةً من العمل الذي يمارسه. إن سرعة تهيج الاعتزاز بالنفس لدى أفضل الأشخاص التقدميين والنجباء في مجتمعنا (لدى بعضهم، طبعاً) ما زالت تثير الدهشة حتى في أيامنا هذه، والسبب هو نفسه لم يتغير. (وأنا هنا أتحدث عن الأشخاص النجباء والموهوبين؛ فقط أما الاعتداد بالنفس والغرور البشع الذي يثور على نحو مستهجن لدى عدد كبير جداً من «رجالاتنا» المعاصرين المجردين من الموهبة، والجوف الذين يتصورون أنفسهم عباقرة، فإنني أؤجل الحديث عنهما مؤقتاً، علماً بأن هذه الظاهرة أصبحت في هذه الآونة بالذات تلفت الانتباه بشدة). هذا الحنين إلى الفعل الحقيقي، وهذا البحث الدائم عن قضية، اللذان لا سبب لهما سوى تقاعسنا عن ممارسة أي فعل طوال قرنين، مما أوصلنا الآن إلى وضع أصبحنا عاجزين فيه عن مقاربة أية قضية

فعلية، بل أكثر من ذلك، أصبحنا لا نعرف أين نجد هذه القضية، وفيمَ هي تقوم، أقول إن هذا الحنين، وهذا البحث باتا يثيران أعصاب الناس عندنا إلى حد مخيف. يَظهر الاعتداد بالنفس، حتى غير اللائق أحياناً، لدى شخص يتسم بالسمو الأخلاقي، فيكاد يجعله شخصاً مضحكاً. ويحدث كل هذا لأن الشخص المذكور ذا الأخلاق السامية لا يقدر أحياناً على تحديد ذاته، وتقدير قواه وأهميته، ومعرفة ما يمكن أن نسميه وزنه النوعي، وقيمته الحقيقية، في الممارسة العملية على أرض الواقع. ولو عرف ذلك لما اعتبر طبعاً، بحكم كونه ذا روح سامية، أن اعترافه بما يحس أنه غير مؤهل له تصرف يحط من قيمته. إنه في الآونة الراهنة سريع التأثر والإحساس بالإهانة، وغالباً ما يدفعه حنقه إلى ممارسة عمل غير مناسب له. وأكرر هنا أن مقالة غرانوفسكي مصوغة على نحو يدل على ذكاء شديد، على الرغم من أنها تتضمن أخطاء سياسية أكدت وجودَها الوقائع التي جرت في أوربا لاحقاً، ويمكن لنا أن نذكرها بالطبع، ولكن ليس عن هذه الأخطاء أريد هنا أن أتحدث، ولن أقدم على إدانة غرانوفسكي بسببها؛ إذ إن ما أدهشني في هذه المرة هو ما تنم عنه هذه المقالة من إحساس مفرط بالحنق. لا، إنني لا أعزو هذا إلى الاعتزاز بالنفس، ولا أهاجم هنا التحيز الذي يتجلى بقدر ما في المقالة؛ فأنا أدرك تماماً الهم الذي كان راهناً في تلك الأيام، والذي انعكس في المقالة، وأدرك الإحساس بالمواطنية والأسى الذي كان ينتاب الكاتب بصفته مواطناً. وأقر بأن ثمة لحظات لا يستطيع فيها أكثر الناس إنصافاً أن يتحاشى الانحياز... (يا للأسف، إن غرانوفسكي لم يمتد به العمر حتى يشهد تحرير الفلّاحين، وهو لم يكن آنذاك يتصور هذا حتى في أحلامه!) لا، إنني لا أهاجم هذا، بل أنا أتساءل لِمَ كانت نظرته إلى الشعب في المسألة الشرقية هذه نظرة ملأى بالاحتقار، ولماذا لم يوفِهِ حقه؟ إنه لا يرغب البتة في أن يلحظ مشاركة الشعب والرأي الشعبي في هذه القضية؛ بل نراه يجزم بأن الشعب لم يكن له أي رأي في قضية السلاف، وفي تلك الحرب، وأنه كان يشعر فقط بعبء الالتزامات المفروضة عليه وتجنيد أبنائه. والظاهر أنه لا يجب أن يكون له رأي. وها هو غرانوفسكي يقول: «ينبغي قبل كل شيء أن نستبعد فكرة كون هذه الحرب (أي حرب الأعوام 53 -54-55) حرباً مقدسة؛ لقد سعت الحكومة إلى إقناع الشعب بأنها تعمل على الذود عن حقوق الأخوة في العقيدة، وعن الكنيسة المسيحية. وقد رفع حماة الأرثوذكسية والشعبية السلافية بسرور هذه الراية، ودعوا إلى القيام بحملة صليبية ضد المسلمين. بيد أن عصر الحملات الصليبية قد ولّى. ولا أحد في وقتنا هذا سيتقدم لحماية تابوت الرب (ولحماية السلاف أيضاً؟)* ولا أحد ينظر إلى أتباع محمد على أنهم خصوم المسيحيين الأبديين، إن مفاتيح

(*) العبارة التي بين هلالين بقلم دوستويفسكي. (ن).

كنيسة بيت لحم[104] ليست سوى ذريعة لبلوغ أهداف سياسية (وهذا الحديث يجري مباشرة في مكان آخر عن السلاف أيضاً)»*.

نحن مستعدون، طبعاً، للموافقة على أن السياسة الروسية في القضية السلافية ربما كانت خلال القرن الأخير تعاني أحياناً من بعض العيوب؛ ففي بعض الأحيان كانت تفرط في التحفظ وإبداء الحذر، ولهذا السبب كانت تبدو في نظر بعض الذين لا يتحلون بفضيلة الصبر سياسة لا تتسم بالصدق والإخلاص. وربما حدث إفراطٌ في الخوف على المصالح الآنية، ومراوغاتٌ غامضة المغزى تستدعيها بعض الإيحاءات الدبلوماسية الخارجية، وإجراءاتٌ غير حاسمة، وتوقُّفات، ولكن من المستبعد أن تكون سياسة روسيا قد اقتصرت، بكليتها ومن حيث جوهرها، على أمر واحد فقط هو العمل على إخضاع السلاف لسلطتها كي تضاعف من قوة روسيا وأهميتها السياسية. لا، بالطبع، الأمر لم يكن هكذا، وسياستنا في جوهرها، وطوال حقبة تاريخنا البطرسبورغي، لم تكن حسبما أعتقد، تختلف عن أقدم الوصايا والتقاليد التاريخية المتوارثة عندنا إزاء المسألة السلافية، أي الشرقية، ولم تكن تختلف عن النظرة الشعبية إلى هذه المسألة. وكانت حكومتنا تعرف دائماً حق المعرفة أن شعبنا ما إن يسمع نداءً يدعوه إلى التدخل في هذه المسألة حتى يلبي النداء بكل إمكاناته، ولذا فإن المسألة الشرقية، من حيث جوهرها الأسمى، كانت دائماً عندنا مسألة شعبية. ولكن غرانوفسكي لا يعترف بهذا على الإطلاق. أوه، إن غرانوفسكي كان يحب الشعب بعمق! وهو في مقالته يعبر عن حزنه والتياعه بسبب الآلام التي يكابدها الشعب في الحرب، والشدائد التي يعانيها. وهل من المعقول أن يستطيع أمثال غرانوفسكي إلّا يحبوا الشعب؟ وقد تجلى في هذا التعاطف وهذا الحب كل ما تتحلى به نفسه من خصال رائعة، ولكن تجلت فيهما أيضاً على نحو لا إرادي نظرته إلى الشعب، بصفته غربوياً متأصلاً، مستعداً للاعتراف بما لدى الشعب من بِذار رائعة، ولكن بـ «شكلها السلبي» فقط، و«على مستوى الحياة المعيشية المطمَئِنّة المغلقة»، أما عن قدرة الشعب على الفعل الحقيقي والممكن فـ «من الأفضل ألا نتحدث». فالشعب عنده، وحتى في جميع أحواله، ليس سوى كتلة متكلسة لا صوت لها؛ ولكن أَلَمْ نصدقه كلنا تقريباً آنذاك! ولهذا بالذات ترونني لا أجرؤ على «مهاجمة» غرانوفسكي، بل أعمد إلى فضح الزمن فحسب، لا إلى فضحه هو. كانت هذه المقالة آنذاك تنتقل من يد إلى يد، وتفعل فعلها... والأمر الذي أذهلني أكثر من أي شيء آخر في الحقيقة، هو التوازي بين هذه المقالة الممتازة، والنظرة الممتازة التي تتضمنها من جهة، والساعة الراهنة التي نعيشها الآن من جهة أخرى. فحتى الغربوي غرانوفسكي كان سيصاب الآن بالذهول، بل لعله كان سيصدق ويؤمن. فهذه التضحيات والأعطيات الطوعية التي يقدمها الشعب من أجل السلاف الأرثوذكس؛ تضحيات

أنصار «الطقوس القديمة»* الذين يرسلون من جمعياتهم فرقاً طبية؛ وتضحيات المجموعات العمالية التعاونية التي تتبرع بآخر ما لديها من نقود، وتضحيات قرى بكاملها أجمعت على قرار البذل والعطاء؛ ثم تضحيات الجنود والبحارة الذين تبرعوا بجزء من رواتبهم، وأخيراً: تضحيات الناس الروس من جميع فئات الشعب، الذين يذهبون ليقاتلوا دفاعاً عن إخوتهم الأرثوذكس المضطهدين، ويَفْدوهم بدمائهم؛ أجل... إن هذا الأمر قد أصبح واقعاً مرئياً، ولا يمكن وصفه بأنه «سلبي»، كما لا يجوز لنا ألّا نأخذه بالحسبان. الحركة قد اتضحت معالمها، ولم يعد بالإمكان المماراة فيها. ثمة نساء وسيدات وجيهات يطفن في الشوارع حاملات أوعية لجمع التبرعات من أجل إخوتنا السلاف، وهاهو ينظر بوقار وتأثر إلى هذه الظاهرة الَجديدة تماماً عليه: «هذا يعني أن الجميع يجتمعون معاً من جديد، يعني أن الخلاف لم يكن دائماً، يعني أننا جميعاً مسيحيون»، نعم... هذا بالضبط ما يشعر به الشعب، وربما ما أصبح يفكر فيه أيضاً. ولا شك في أن المعلومات أيضاً أصبحت تصل إليه: فهو يسمع ما تنشره الصحف، وقد بدأ يقرؤها بنفسه. وهو بالطبع قد سمع بمقتل نيكولاي ألكسييفتش كيريييف[105] الذي ضحى بروحه في سبيل قضية الشعب، وقد صلّى في الكنيسة من أجل راحة نفسه، ومن يدري، لعله سينظم أغنيته الشعبية عن هذا الموت وهذه التضحية:

وهو وإن قُتل فسيبقى حياً
في قلب الشعب وذاكرته
وستبقى متوهجة
صَبْوَةُ روحه الحرة الرائعة؛
المجد لمن يقتل في سبيل الشعب.**

أجل، لقد كان «مقتله في سبيل الشعب»، وليس في سبيل الشعب السلافي وحده، بل في سبيل القضية العامة أيضاً، القضية الأرثوذكسية والروسية، والشعب سيدرك هذا دائماً بوضوح. لا، إن شعبنا ليس مادياً، ولم يفسد بعد روحياً إلى الدرجة التي تجعله يفكر بالمرابح الضرورية آنياً والمصلحة الإيجابية فحسب. إنه سيكون مغتبطاً روحياً إذا وجد أمامه هدفاً عظيماً، وسيتبنى هذا الهدف بصفته خبزه الروحي. وهل يظن أحد أن الشعب لا يعرف ولا يدرك الآن أن استمرار تطور هذه «القضية عن السلاف» يمكن أن يهددنا بخطر الحرب، وأن يشعل نارها؟ ومن المعروف أنه هو الذي سيقع تحت وطأة الالتزامات والأعباء مرة ثانية كما

(*) أتباع الاتجاهات الدينية الرافضة التي نجمت عن الانشقاق في المذهب الأرثوذكسي في روسيا إثر الإصلاحات التي أدخلها البطريرك نيكون في النصف الثاني من القرن السابع عشر. (ن).
(**) الأبيات من قصيدة «فولينسكي» للشاعر ك. ف. ريلييف (1822). (ن).

حدث له إبّان الحرب الشرقية منذ عشرين عاماً. ولكن انظروا إليه الآن: هل ترونه يخشى شيئاً؟ لا، من الواضح أن لدى شعبنا من القوى الروحية والفعّالة أكثر مما يفترض بعض «المتضلعين من معرفته». كان من الخير لغرانوفسكي أن يقدم وجهة النظر هذه لآخرين، وبالتحديد لتلك الكثرة من «المتضلعين من معرفة الشعب»، وحتى لبعض كتّابنا الذين يكتبون عن الشعب، والذين بقوا طوال حياتهم مجرد أجانب يدرسون الفلاح الروسي.

وأكرر في الختام: غالباً ما ينسى المثالي عندنا أن المثالية ليست ظاهرة مخجلة البتة. فالمثالي والواقعي كلاهما، إذا كانا شريفين ومن ذوي النفوس الكبيرة، جوهرهما واحد، وهو حب الإنسانية، وموضوعهما واحد وهو الإنسان، والاختلاف الوحيد بينهما ينحصر في شكل تصوّر الموضوع. وليس من داعٍ لدى المثالي ليخجل من مثاليته: فالطريق هي نفسها، والهدف هو نفسه. وعلى هذا فإن المذهب المثالي يتسم، من حيث الجوهر بالواقعية، تماماً كما يتسم بها المذهب الواقعي، ولا يمكن أبداً أن يختفي من الوجود. وليس لغرانوفسكي وأمثاله أن يخجلوا من أنهم موجودون بالذات ليدعوا إلى «الرائع والسامي»*. أما إذا كان حتى هؤلاء سيخجلون ويكادون يلتحقون بـ «مترنيخ» خوفاً من حكماء أريوباغس الهازئين المتكبرين، فمن هم الذين سيكونون أنبياءنا عندئذ؟ وليس لمؤرخ مثل غرانوفسكي ألّا يعرف أن أغلى ما لدى الشعوب هو أن يكون لها مُثُل عليا، وأن تصون هذه المثل، ورُبّ فكرة مقدسة، مهما بدت في البدء ضعيفة، وغير عملية، ومثالية، ومضحكة في نظر الحكماء، ستجد دائماً عضواً من أعضاء الأريوباغُس و«امرأة اسمها فامار»[106] يؤمنان منذ البداية بما يقوله الداعية، وينحازان إلى جانب القضية النيّرة، من غير أن يخافا من القطيعة بينهما وبين حكمائهما. وهكذا نجد أن «فكرة صغيرة مضحكة» غير معاصرة وغير عملية، تنمو وتتكاثر وتسود العالم في نهاية المطاف، أما حكماء الأريوباغوس فيلوذون بالصمت.

الألمان والعمل. ألاعيب عصية على الفهم. عن حدة الذهن.

إيمس: مكان رائع ودارج الآن، يؤمه المرضى من جميع أنحاء العالم، ولا سيما

(*) بعضهم يستعمل مصطلح «الجميل والجليل». (م).

المصدورين المصابين بـ «نزلات المسالك التنفسية»، ويستشفون بنجاح باهر عند ينابيعه. ويصل عدد زوار المنطقة في موسم الصيف إلى (14) ألفاً أو (15) ألفاً، وكلهم بالطبع من الأغنياء، أو، على الأقل من القادرين على ألّا يضنّوا بما يلزم من أجل العناية بصحتهم. ولكن ثمة فقراء أيضاً يأتون سيراً على الأقدام للعلاج، وهؤلاء يزيد عددهم عن المئة، وربما جاء بعضهم راكباً لا راجلاً. وقد أثارت اهتمامي مقطورات «الدرجة الرابعة» في القطارات الألمانية، غير أنني لا أدري هل هي موجودة على جميع الخطوط الحديدية أم لا؟ سألت المرافق في أثناء توقفنا في إحدى المحطات (وجميع المرافقين تقريباً في القطارات الألمانية يتسمون بالنظامية البالغة، وكذلك بالعناية واللطف في تعاملهم مع الركاب) سألته أن يحدثني عن المقصود بالدرجة الرابعة، فأراني مقطورة فارغة، أي خالية من المقاعد، وليس فيها سوى جدران وأرضية، وتبيّن أن على ركاب هذه المقطورة أن يظلوا واقفين طوال الطريق.

- ربما هم يجلسون على الأرضية؟

- أوه طبعاً، كل واحد يتصرف كما يشاء.

- وكم من المفترض أن يكون عدد الأماكن في المقطورة؟

- خمسة وعشرون مكاناً.

حسبت في ذهني مساحة المكان المتاح لكل شخص من المسافرين في هذه المقطورة الفارغة، فوجدت أن عليهم جميعاً أن يظلوا واقفين حتماً، وكتفاً إلى كتف؛ وفي حالة امتلاء المقطورة بالعدد الكامل من المسافرين، لن يكون بوسع أي منهم الجلوس مهما حاول، بصرف النظر عن قاعدة: «كل واحد يتصرف كما يشاء». وسيكون على كل منهم، بالطبع، حمل متاعه بيده؛ فلا بد من أن يكون معهم صُرَرٌ ما.

- نعم، ولكن بالمقابل الأسعار هنا أقل بمقدار النصف تماماً من أسعار الدرجة الثالثة، وهذا إحسان عظيم القيمة يقدم للفقير.

بالفعل إن لهذا قيمة ما. فهؤلاء «الفقراء» القادمون إلى إيمس لا يستشفون فقط، بل يعيشون على حساب... في الحقيقة لا أعرف على حساب من. فما إن تصل إلى إيمس وتستأجر شقة في فندق (في إيمس كل المنازل فنادق) حتى يأتي إليك حتماً في اليوم الثاني أو الثالث اثنان من جامعي التبرعات، واحداً إثر الآخر، ومعهما دفاتر، وينم مظهرهما عن أنهما من الأشخاص الوديعين الصبورين، ولكنهما يتسمان بنوع من عزة النفس. أحدهما يجمع التبرعات لإعاشة هؤلاء الفقراء المرضى. وقد ألحقت بالدفتر دعوة مطبوعة موجهة من أطباء إيمس إلى المرضى الإيمسيين ليتذكروا الفقراء. وبعد أن تتبرع بالمبلغ الذي

يتناسب مع إمكاناتك تكتب اسمك في الدفتر. وعندما تصفحت هذا الدفتر أدهشتني ضآلة مبالغ التبرعات: مارك واحد، نصف مارك، ونادراً ثلاثة ماركات، ونادراً جداً خمسة ماركات، ويبدو لي أنهم هنا لا يُضجرون الجمهور كثيراً بطلب التبرعات: فما عدا هذين الشخصين لا يأتيك أحد لهذا الغرض. وفيما أنت تتبرع وتسجل اسمك في الدفتر يقف الموظف (سأسمي هذا الشخص موظفاً) باستكانة وسط الغرفة. سألته:

- هل تجمعون كثيراً خلال الموسم؟

- حتى ألف تالر*، يا سيدي، وهذا مبلغ ضئيل جداً بالقياس إلى المطلوب: فعددهم كبير، يصل حتى مئة شخص، ونحن نتكفل بكامل نفقاتهم: المعيشة والعلاج، والأكل، والشرب، والإقامة.

المبلغ قليل بالفعل: ألف تالر يساوي ثلاثة آلاف مارك، وإذا وصل عدد الزوار حتى (14) ألفاً، فكم يكون المبلغ الذي يتبرع به كل منهم؟ ومعنى ذلك أن ثمة أشخاصاً يمتنعون عن التبرع، ويطردون جامع التبرعات (وهذا يحدث أحياناً، فهم يطردونه فعلاً، وقد عرفت هذا فيما بعد) علماً بأن جمهور الزوار جمهور متألق، بل شديد الألق؛ أُخرجْ عندما يذهبون لشرب الماء أو لسماع الموسيقا وتفرجْ على هذا الحشد!

وأذكر بالمناسبة أنني، في الربيع، قرأت في صحفنا أننا، نحن الروس، تبرعنا بمبالغ قليلة جداً للسلاف الثائرين (قبل هذا، طبعاً، قبل التبرعات الحالية)، وأنهم في أوربا تبرعوا جميعاً بأكثر بكثير مما تبرعنا به نحن؛ ولن أتحدث هنا عن النمسا التي تبرعت وحدها بملايين عديدة (؟) من الغولدنات لإعاشة أسر الثائرين التعسة التي لجأت إليها بأعداد بلغت عشرات الآلاف؛ أما التبرعات في إنكلترا، على سبيل المثال، فقد فاقت تبرعاتنا بما لا يقاس، وقد حدث مثل هذا حتى في فرنسا وإيطاليا. أنتم كما تشاؤون، أما أنا فإنني لا أصدق أن تبرعات الدول الأوربية لمصلحة السلاف هي بمثل هذه الضخامة. لقد تحدثوا كثيراً عن إنكلترا، ولكن من المهم أن نعرف المبلغ الحقيقي الذي تبرعت به، ويبدو أن لا أحد يعرف هذا الرقم بدقة. أما النمسا، التي كانت منذ بداية التمرد تضمر الاستيلاء على جزء من البوسنة (والآن يجري الحديث حول هذا الأمر في الأوساط الدبلوماسية)، فإن تبرعها، كما هو واضح، لم يكن منزهاً عن الغرض، بل كان الدافع إليه تحقيق مصلحة خاصة في المستقبل، ولم يكن له طابع اجتماعي البتة بل كان مجرد تبرع رسمي. ولكن حتى هنا يمكننا أن نضع ضخامة المبلغ الذي يقدر بملايين «عديدة» من الغولدنات موضع شك. نعم، لقد كان ثمة تبرعات، أو من

(*) التالر = 3 ماركات ذهبية.

الأصح القول، كان ثمة توظيف لمبالغ مالية، ولكن هل أدى هذا إلى تقديم عون كبير فعلاً؟ ربما المستقبل وحده، هو الذي سيرينا الحقيقة.

الموظف الآخر، أي جامع التبرعات الإيمسي الثاني، الذي يأتي حتماً بعد الأول، يجمع تبرعات لمصلحة «blödige Kinder»* أي الصبية الصغار المصابين بالبلاهة، ولهؤلاء دار خاصة هنا، ولكن ليس جميع الأطفال المعوقين هنا من إيمس وحدها، بالطبع، وليس من اللائق بهذه المدينة الصغيرة أن تنتج مثل هذا العدد من البُلْه.

وقد خصصت الدولة لهذه الدار مبلغاً معيناً، ولكن الأمور، كما هو واضح، تَدْفع إلى اللجوء للتبرعات. أفلا يجدر بهؤلاء الرجال المتألقين والسيدات البديعات، الذين يستشفون هنا ويكتسبون الصحة بفضل الينابيع المحلية بالذات، أن يتخلوا عن ماركين أو ثلاثة ماركات، إن لم يكن عرفاناً بالجميل للمكان، فليكن للذكرى، من أجل مساعدة هذه المخلوقات الصغيرة الفقيرة، الشقية، المهملة. والمبالغ المسجلة في هذا الدفتر أيضاً ضئيلة: مارك أو ماركان، وأحياناً، ولكنْ نادراً جداً، يقع نظرك حتى على عشرة ماركات. ويجمع هذا الموظف الثاني خلال الموسم حتى 1500 تالر. وقد قال لي بحسرة: «ولكن في السابق كانت الأمور أفضل، كانوا يدفعون أكثر». ولفت نظري رقم في هذا الدفتر يدل على أن المتبرع كان يقصد التعبير عن نظرة معينة على ما يبدو: (5) بفنِّغات** (1.5 كوبيك فضي). وقد ذكرني هذا بتبرع أحد المستشارين المدنيين*** الروس المسجل في دفتر تبرعاتٍ من أجل إقامة تمثال لليرمنتوف**** في بياتيغورسك: لقد تبرع بكوبيك فضي واحد ووقع باسمه إلى جانب المبلغ. ومنذ عام نشرت الصحف هذا النبأ ولكنها لن تذكر اسم المتبرع، وأعتقد أنها عبثاً أغفلت الاسم، لأن الشخص نفسه وقّع باسمه علناً، وربما فعل هذا من أجل الشهرة. بيد أن المستشار المدني المذكور كان يقصد، على ما يظهر، التعبير عن قدرته العقلية، عن نظرته، عن اتجاهه، إذ كان يعترض على الفن، وعلى تفاهة الشعر في عصرنا، «عصر الواقعية»، والسفن البخارية، والخطوط الحديدية، أي على كل ما تقف ضده عادةً الشريحة المهترئة الليبرالية من الصنف الثالث، (أو على الأصح: «المتلبرلة» تقليداً لآخرين). ولكن هذا بالذات، هذا الآخر، هذا المتخلف العقلي المحلي، عمَّ كان يريد أن يعبر ببفنِّغاته الخمسة؟ إنني لا أفهم: ما دخل

(*) الأطفال المعوقون عقلياً. (ن).

(**) البفنِّغ: جزء من مئة من المارك.

(***) موظف من المرتبة الخامسة في سلم المراتب المؤلف من أربع عشرة مرتبة في روسيا القيصرية. (م).

(****) الشاعر الروسي الشهير ميخائيل ليرمنتوف (1814-1841) الذي قتل في مبارزة في بياتيغورسك، حيث كان منفياً. (م).

«الاتجاه العقائدي» هنا. فالـ«blödige Kinder» هم مخلوقات صغيرة وشقية، تخلت عنهم أسرهم التي تعاني فقراً مدقعاً، فما معنى أن يظهر المرء لوذعيته بهذا الصدد؟ «وإذا سقيت فقيراً ولو كأس ماء واحدة، فإن هذا سيحسب لك في ملكوت السماوات»* إذاً لِمَ لا أفعل؟ إن كأس الماء في إيمس لا تساوي أكثر من خمسة بفنّغات بأي حال من الأحوال، وهذا يعني أنني يمكن أن أدخل الجنة لقاء خمسة بفنّغات. إنه يحسب أدنى قدر من النفقة لدخول الجنة: «ولماذا أدفع زيادة؟» إنه ببساطة ابن عصره؛ فالآن، حسب زعمه، لا يمكنك أن تخدع أحداً.

منذ قدومي إلى إيمس أول مرة أي منذ ثلاث سنوات، أثار اهتمامي منذ اليوم الأول أمر معين، وهو ما زال يثير اهتمامي في كل مرة آتي فيها إلى هنا. إن الينبوعين الأكثر استعمالاً في إيمس، على الرغم من وجود عدة ينابيع أخرى، هما نبعا كرينخين وكيسّيلبرونين، وقد شيّدوا فوقهما بناءً، وأحاطوهما بدرابزين يفصلهما عن الجمهور. وتقف خلف هذا الدرابزين عدة فتيات: عند كل نبع تقف ثلاث شابات بشوشات يرتدين ملابس نظيفة. تعطونهن كؤوسكم فيسكبن لكم فيها الماء على الفور. ويتردد على هذا المكان خلال الساعتين المحددتين للشرب الصباحي آلاف المرضى: ويشرب كل مريض في غضون هاتين الساعتين العدد المحدد له في الوصفة الطبية: كأسين أو ثلاثاً، أو أربعاً، ويتكرر الأمر نفسه في موعد الشرب المسائي. أي أن كلاً من الفتيات الثلاث تملأ وتوزع خلال هاتين الساعتين عدداً هائلاً من الكؤوس. ولا يكفي القول إن هذا يجري بنظام تام، وهدوء بالغ، وإيقاع لا يشوبه أي ارتباك، ومن دون أن يؤخرنك في أية مرة تأتي فيها، بل تنبغي الإشارة إلى أن الأعجب من هذا كله هو أن كل واحدة من هؤلاء الفتيات تمتلك، حسب رأيي، فطنة تكاد تكون خارقة للطبيعة؛ إذ يكفي أن تقول لها مرة واحدة عند أول زيارة لك: «هاكِ كأسي، أريد كذا أوقية من ماء كرينخين وكذا أوقية من الحليب»، ولن تجدها تخطئ ولو مرة واحدة طوال شهر العلاج؛ وعلاوة على ذلك تجدها قد حفظت شكلك في ذاكرتها، وأصبحت تميزك وأنت في وسط الحشد. ويتجمع جمهور المستشفين هنا بكثافة في عدة صفوف متراصة، وكل واحد يمد يده الممسكة بكأسه، فتأخذ الفتاة ست أو سبع كؤوس دفعة واحدة، وتملؤها كلها خلال ربع دقيقة تقريباً، وتوزعها على أصحابها من دون أي خطأ، ومن دون أن تريق قطرة واحدة، أو تكسر أي كأس. وهي عندما تمد لك يدها بالكأس تعرف أن هذه بالذات هي كأسك من بين ألف كأس، وأن هذه كأس شخص آخر، وتحفظ غيباً كم أوقية لك من الماء وكم من الحليب، وكم كأساً ينبغي أن تشرب. ولا يقع في أثناء ذلك أي خطأ البتة؛ وقد راقبت ذلك وتقصيته

(*) انظر الآية 10/ 42 في إنجيل متى. (م).

عن قصد. والمهم في الأمر أن عدد المرضى يصل إلى عدة آلاف. لربما كان كل هذا أمراً عادياً تماماً، وليس فيه البتة ما يدعو إلى العجب، ولكنه ما زال بالنسبة لي وللسنة الثالثة على التوالي أمراً يكاد يكون عصياً على الفهم؛ وأنا ما زلت أنظر إليه كما لو أنه ألعوبة من ألاعيب المشعوذين التي يعجز العقل عن إدراك كنهها. ومع أن من المضحك أن يعجب المرء من كل شيء، إلّا أنني عجزت فعلاً عن إيجاد حل لهذه المسألة. يبدو أنه ينبغي إعادة سبب ذلك إلى الذاكرة الخارقة وسرعة البديهة اللتين تتحلى بهما هؤلاء الشابات الألمانيات؛ ولكن ربما كان الأمر هنا لا يتعدى اعتياد العمل والتمكن منه وإتقانه منذ الطفولة المبكرة، ومن ثم قهرَه، إذا جاز التعبير. أما ما يخص العمل بحد ذاته فإن الشخص الروسي المراقب سيصاب بحيرة شديدة كذلك؛ فخلال الشهر الذي قضيته في الفندق (أي، على الأدق، ليس في الفندق، فهنا كل منزل فندق، وأكثرية هذه الفنادق، ما عدا بضعة فنادق كبرى، هي شقق سكنية لا أكثر، فيها أشخاص للخدمة، وتُقدّم للنزيل فيها خدمات معيشية حسب الاتفاق) تملكني العجب، وأنا أراقب عمل الخادمة. فالنُزُل الذي أقمت فيه يحتوي على اثنتي عشرة شقة، وكلها مسكونة، وتقيم في بعضها أسر بكاملها. وكل واحد من هؤلاء النزلاء يرن الجرس ويطلب، وتجب خدمة الجميع، وتلبية طلبات الجميع، والركض على الدرج صعوداً وهبوطاً مرات كثيرة في اليوم؛ وكل هذا كانت تقوم به فتاة عمرها تسعة عشر عاماً، يجب عليها أن تلبي وحدها كل طلبات النزلاء في النُزل كله؛ وعلاوة على ذلك كان على هذه الفتاة أن تلبي كل طلبات صاحبة النزل: فتشتري لهذا نبيذاً من المتجر، ولذاك دواء من الصيدلية، وتأخذ ملابس ثالث إلى المغسلة، وتشتري لصاحبة الفندق بالذات ما تحتاج إليه من البقالية. وكان لصاحبة الفندق الأرملة هذه ثلاثة أطفال صغار، وعلى الخادمة الشابة أن ترعاهم، وتخدمهم، وتلبسهم كل صباح قبل إرسالهم إلى المدرسة. وعليها كل يوم سبت أن تشطف الأرضيات في المنزل كله، وأن ترتّب جميع الغرف يومياً، وتبدل ملاءات الأسرّة، وأغطية ومناديل الموائد وكلما غادر نزيل المبنى نهائياً عليها أن تسارع على الفور إلى شطف الشقة الفارغة وتنظيفها من دون أن تنتظر السبت. وكانت هذه الفتاة تأوي إلى فراشها في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، وتوقظها صاحبة النُزُل بالجرس في الساعة الخامسة بالضبط. وكل هذا يجري كما أقول حرفياً، وليس في كل ما أقوله أية مبالغة. أضف إلى ذلك أنها تقوم بكل هذا لقاء أجر ضئيل يستحيل تصور وجوده عندنا في بطرسبورغ، وإلى ذلك يُطلب إليها أن تكون حسنة الهندام. ولاحظوا أنكم لن تشاهدوا في سيمائها أي أثر للشعور بالمذلة أو الظلم: فهي مرحة، جريئة، معافاة، ومظهرها ينم عن الرضا العميق، والطمأنينة التي لا تشوبها شائبة. لا، عندنا لا يعملون هكذا. عندنا لن تجد أية خادمة يمكن أن تقبل العمل في سجن أشغال شاقة كهذا لقاء أي

أجر مهما بلغ قدره، ثم إنها لن تقوم بالعمل على هذا النحو، بل ستنسى مئة مرة وتريق ما تحمله، ولا تحضر المطلوب، وتكسر الأواني، وتخطئ، وتغضب، و«تغلظ في القول». أما هنا فإنني لم أجد طوال شهر كامل أية مدعاة للشكوى، وهذا في، رأيي، أمر مدهش، وأنا كروسي، لا أدري: هل أمدح هذا أم أذمه؟ وعلى كل فإنني سأجازف وأمدحه، ولو أن ثمة ما يجدر أن نفكر فيه. فكل شخص هنا قَبِل وضعه كما هو، واطمأن إلى ذلك من دون حسد، ومن غير أن يشتبه بأي شيء، كما يبدو. وهذا، على الأقل، هو حال الأكثرية الساحقة. ولكن العمل مع ذلك يفتن المرء ويجذبه إليه، أقصد العمل الذي استقر وتعيّن عبر القرون، وتحدّد منهجه وأسلوبه، اللذان يصلان إلى كل واحد منذ يوم ولادته تقريباً؛ ولذا فإن كل واحد يُحْسِنُ مباشرة عملَه وإتقانه إتقاناً تاماً. هنا يعرف كل واحد عمله، وهو بالمناسبة، لا يعرف سواه. وأنا أقول هذا لأن الجميع هنا يعملون هكذا، لا الخادمات فقط، بل ربات العمل أيضاً.

انظروا إلى الموظف الألماني، وليكن، على سبيل المثال، موظفاً في البريد. إن كلاً منا يعرف ما هو الموظف الروسي، وخصوصاً إذا كان من الذين يتعاملون مع الجمهور يومياً: إنه كائن غاضب، منزعج. وإذا كان انزعاجه لا يتبدى للعيان أحياناً، فإنك تحس به مكتوماً، وتستشفه من مرأى سحنته. إنه كائن متعالٍ ومتكبر، وكأنه جوبيتر*. وتلاحظ هذا خاصة لدى أصغر «الحشرات»، لدى أولئك الموظفين المكلفين بإعطاء المراجعين وثائق وبيانات والذين يتسلمون من الناس نقوداً ليسلموهم تذاكر وما شابه ذلك... انظروا إليه: إنه مشغول بأداء مهمته، إنه «على رأس عمله»: الجمهور يحتشد ويقف في طابور، وكل واحد يتلهف للحصول على المعلومات التي تهمه، أو لتلقي إجابة، أو لتسلُّم إيصال أو تذكرة، وهو لا يعيركم أي انتباه، وأخيراً يحين دورك، وتقف أمامه وتتكلم، وهو لا يصغي، ولا ينظر إليك، بل يلتفت إلى الموظف الجالس خلفه، ويتناول ورقة، ويستفسر عن أمر ما؛ ومع أنك مستعد تماماً للاشتباه بأنه يفعل هذا عبثاً، وأنه ليس بحاجة البتة إلى الاستفسار عن شيء، فإنك، مع ذلك، مستعد للانتظار، وها هو ينهض ويغادر. وفجأة تدق الساعة، وينتهي الدوام: هيا انصرف أيها الجمهور! إن الوقت الذي يقضيه موظفنا في ممارسة العمل خلال الدوام أقصر بما لا يقاس من الوقت الذي يقضيه الموظف الألماني. أضف إلى ذلك الفظاظة، وعدم الاهتمام، والاستهانة، والعداء تجاه الجمهور، لا لشيء إلّا لأنه «جمهور». والأهم من هذا: الاستعلاء الجوبيتري التافه. إنه بحاجة ملحة إلى أن يريك أنك هنا تابع له؛ إن لسان حاله يقول: «انظر أي شخص أنا! إنك هنا خلف الحاجز غير قادر على أن تفعل معي أي شيء، أما أنا فأستطيع

(*) جوبيتر: كبير الآلهة عند الرومان، يقابله زفس (زيوس) عند اليونان القدماء.

أن أفعل بك ما أريد، وإذا أنت غضبتَ، أستدعي الحرس فيخرجونك من هنا». إنه بحاجة إلى أن يثأر من شخص ما لإهانة ما لحقت به، ويثأر منك للتفاهة التي يشعر بها. هنا في إيمس يعمل عادة في دائرة البريد شخصان أو ثلاثة على الأكثر. وثمة أشهر إبان الموسم (حزيران وتموز (يونيو ويوليو) على سبيل المثال) يصلِ فيها عدد زوار المدينة إلى عدة آلاف. ولك أن تتصور عدد المراسلات وحجم العمل عندئذ في دائرة البريد. والعاملون هنا يظلون مشغولين تماماً طوال اليوم ما عدا نحو ساعتين من أجل الغداء وسوى ذلك. وعليهم أن يتسلموا البريد، ويرسلوه؛ ألف شخص يأتي إلى هنا ليسأل عن poste restante* أو ليستفسر عن أمر ما. وتلبية كل مراجع تتطلب من الموظف أن ينظر في كومة من الرسائل، وعليه أن يستمع لكل سائل، ويقدم المعلومات المطلوبة والشرح اللازم، وهو يفعل هذا بصبر، ولطف، واحترام، محتفظاً في الوقت نفسه بكرامته. وهكذا يتحول من حشرة صغيرة إلى إنسان، وليس من إنسان إلى حشرة... بعد قدومي إلى إيمس مر وقت طويل لم تصلني فيه الرسالة التي كنت أنتظرها بفارغ الصبر، وكنت أراجع كل يوم قسم poste restante. وذات صباح، عند عودتي من مشرب الماء، وجدت هذه الرسالة على الطاولة في غرفتي. كانت قد وصلت لتوها فبادر الموظف الذي حفظ اسمي من دون أن يعرف أين أقيم إلى تقصّي عنواني في لائحة الزوار، حيث تسجل أسماء جميع القادمين وعناوينهم، وأرسل لي الرسالة على جناح السرعة مع أنها كانت معنونة إلى قسم poste restante [لحين الطلب]، وذلك لسبب واحد فقط هو أنه لاحظ قبل ذلك مقدار قلقي الشديد عندما كنت أراجعه. فَمَنْ مِنْ موظفينا يتصرف هكذا؟

أما ما يخص حدة ذهن الألمان ومدى فطنتهم، وهو الأمر الذي فكرت فيه وأنا أتحدث عن العمل عندهم، وعما يتعلق به مما ذكرته آنفاً، فإن ثمة آراء مختلفة بين الناس حول ذلك. فالفرنسيون الذين لم يكونوا يوماً من محبي الألمان، كانوا وما زالوا يرون أن الذهن الألماني بطيء الفهم بعض الشيء، ولكنه، بالطبع، ليس بليداً. وهم يذهبون إلى أن الذهن الألماني ينزع دائماً وفي كل الأمور إلى تجنب التناول المباشر والمستقيم، وهو بالعكس، يتسم برغبة دائمة في اللجوء إلى وساطة ما، ويعمد إلى أن يجعل من الموضوع الواحد شيئاً ما ثنائياً، ذا وجهين. أما نحن الروس فإننا ما ننفك نتداول عدداً كبيراً من النكات عن بطء الفهم لدى الألمان وعن بلادة ذهنهم، بغضّ النظر عن إجلالنا الصادق لِسعة علمهم. ولكن الألمان يتسمون، كما يبدو لي، بخصوصية شديدة إلى حد الإفراط، وبطابعية قومية مفرطة في العناد، ربما وصلت، أحياناً إلى حد الغطرسة، ولذا فإنها تفضي في بعض الأحيان، إلى تكوين رأي غير صائب

(*) البريد المُسْتَبَقى: رسائل يطلب مرسلها أن تُستبقى في مكتب البريد إلى أن يأتي الشخص الذي أرسلت إليه ويطلبها شخصياً. (ن).

عنهم. وعلى كل حال فإن الألماني يخلق لدى الأجانب عند البدء بمعايشته انطباعاً غريباً بالفعل أحياناً، ولا سيما لدى القادم حديثاً إلى ألمانيا.

ذات مرة، وأنا في الطريق من برلين إلى إيمس، توقف القطار في إحدى المحطات لمدة أربع دقائق. كان الوقت ليلاً، وكنت قد تعبت من الجلوس في العربة، وشعرت بالرغبة في التمشّي قليلاً، وتدخين لفافة في الهواء الطلق. جميع المسافرين كانوا نائمين، ولم يخرج من القطار الطويل كله سواي. وعندما رن الجرس أدركت فجأة أنني بحكم شرود ذهني الدائم نسيت رقم عربتي، وكنت عندما خرجت أغلقت بابها بنفسي. وربما لم يكن قد تبقّى سوى بضع ثوانٍ عندما هممت بالتوجه إلى المرافق الذي كان يقف قرب الطرف الآخر من القطار. وفجأة سمعت أحدهم يناديني من شباك عربته: بِسْت! بِسْت! فظننت طبعاً، أن هذه عربتي! وبالفعل فإن الألمان يحرصون، وهم في قمرات عرباتهم الصغيرة التي لا تتسع لأكثر من ثمانية أشخاص، على أن يهتم بعضهم ببعض طوال الطريق. وإذا كان التوقف في محطة كبيرة، حيث يتناول المسافرون طعام الغداء أو العشاء، فإن الواحد منهم يحرص أشد الحرص على أن يوقظ جاره النائم قبل خروجه من العربة كيلا يتحسر الجار فيما بعد أن العشاء قد فاته و...و... وأنا ظننت أن هذا أحد رفاقي في العربة وأنه استيقظ الآن، ولا حظ أنني أضعت محلي فأخذ يناديني. اقتربت فشاهدت وجهاً ألمانياً يطل من النافذة وقد بدا عليه الاهتمام:

- was suchen sie? (عمّ تبحث؟)

- عن عربتي. هل أنا أجلس معكم في هذه العربة؟ هل هذه هي عربتي؟

- لا، هذه ليست عربتك، وأنت لا تجلس هنا. أين هي عربتك؟

- هذه هي المشكلة، فأنا لم أعد أعرف أين هي؟

- وأنا أيضاً لا أعرف أين هي عربتك.

وفي الثانية الأخيرة فقط رأيت المرافق أمامي يدلني على عربتي. ربما ستتساءلون: لِمَ ناداني ذاك الألماني وأخذ يستفسر ويتقصّى؟ ولكن عندما تعيشون في ألمانيا سرعان ما تتأكدون أن أي ألماني هو هكذا تماماً، ولن يتصرف إلّا كما تصرف هذا بالضبط. منذ نحو عشر سنوات سافرت إلى دريزدن (درسدن)، وفي اليوم التالي لوصولي خرجت من الفندق قاصداً زيارة معرض اللوحات الفنية من دون أن أسأل أحداً عن الطريق: فالشهرة التي يتمتع بها هذا المعرض في العالم كله تجعلك تعتقد أن أي دريزدني ستصادفه من الفئة المتعلمة يمكن أن يرشدك إلى مكانه. اجتزت الشارع وأوقفت ألمانياً يدل مظهره على أنه متعلم ورصين جداً.

- اسمح لي أن أسأل: أين معرض اللوحات الفنية هنا؟

وقف الرجل وسألني وهو يفكر:

- معرض اللوحات الفنية؟

- نعم

وعاد يسأل:

- معرض اللوحات الفنية الم..لـ.. كي (وشدّد تشديداً خاصاً على كلمة الملكي)

- نعم.

- لا أعرف أين يوجد هذا المعرض.

- وهل يوجد هنا أي معرض آخر غير هذا؟

- أوه لا، لا يوجد أي معرض آخر.

اللغة الروسية أم اللغة الفرنسية؟

ما أكثر الروس الذين يستشفون في منتجعات المياه المعدنية الألمانية. وخصوصاً تلك التي درجت شهرتها كمنتجع إيمس! وعلى العموم فإن الروس يحبون الاستشفاء كثيراً؛ ويقولون إنه حتى عند ڤوندرفراو*، في المشفى الواقع قرب ميونيخ، حيث لا توجد ينابيع معدنية، تجد أن العدد الأكبر من المرضى هو من الروس. وأكثرية من يأتون إلى هذه «الفراو» أشخاص من ذوي الشأن، أو كما يقال من الفئة الجنرالية، وذلك بعد أن يكونوا قد أرسلوا سلفاً من بطرسبورغ عينات من البول، وحجزوا منذ الشتاء أماكن لهم في المشفى. والمرأة المذكورة رهيبة وشرسة. إن الروس في إيمس يتميزون بلكنتهم، طبعاً، قبل أي شيء آخر، أي بلكنتهم الروسية - الفرنسية الخاصة بروسيا وحدها، والتي بدأت تدهش حتى الأجانب. وأقول «بدأت»، ونحن حتى الآن لم نسمع بصددها سوى عبارات الإطراء. أعرف أنهم سيقولون إن انتقاد الروس بسبب لغتهم الفرنسية قد فات أوانه منذ زمن بعيد، وأن الموضوع

(*) ڤوندرفراو (بالألمانية Wunderfrau العرّافة «المعالجة») المقصود هنا العرافة الألمانية غوغينيستر التي وصلت شهرتها إلى روسيا. (ن).

والدرس الوعظي قد أصبحا مهترئين بالبين. ولكن ما أعجبُ منه ليس كون الروس يتحادثون بغير الروسية (بل سيكون حتى من المستغرب إذا تحادثوا بالروسية) بل أعجبُ من تصورهم أنهم يتكلمون الفرنسية جيداً. من الذي غرس في أذهاننا هذه الخرافة السخيفة؟ ليس من شك في أنها ثبتت في ذهننا بسبب جهلنا. فالروس الذين يتكلمون الفرنسية (أي العدد الكبير من المثقفين الروس) ينقسمون إلى قسمين رئيسين: قسم يتكلم الفرنسية بشكل سيئ قطعاً، وقسم آخر يتصور أنه يتكلم الفرنسية كما يتكلم بها الباريسيون الأقحاح (مجتمعنا الراقي بأسره)، فيما هو يتكلمها بشكل سيئ قطعاً كالقسم الأول. والروس الذين ينتمون إلى القسم الأول يصلون إلى حد السخافة. ذات مرة صادفتُ أنا نفسي، على سبيل المثال، في أثناء نزهتي المسائية التي أتمشى فيها وحيداً على ضفة نهر «لان» رجلاً وامرأة روسيين كهلين يتحادثان باهتمام ظاهر عن شأن عائلي يبدو أنه مهم جداً لهما ويشغل بالهما إلى حد الإقلاق. كانا يتكلمان بحرارة، ولكن بالفرنسية. وكانت فرنسيتهما سيئة جداً ومعجمية، وعباراتهما ميتة مفككة، وعندما كان أحدهما يجد صعوبة شديدة أحياناً في التعبير عن فكرة ما، أو معنى دقيق، كان الآخر يبادر إلى تلقينه؛ ولكنهما لم يفطنا على الإطلاق إلى البدء بالتفاهم باللغة الروسية؛ بل بالعكس، كانا يفضلان التفاهم على نحو سيئ، وحتى المجازفة بأن لا يفهم أحدهما الآخر، شريطة أن يكون هذا بالفرنسية. لقد أذهلني هذا فجأة، وبدا لي شيئاً سخيفاً إلى حد لا يصدق، على الرغم من أنني صادفت مثل هذه الظاهرة مئة مرة في حياتي قبل الآن. والمهم في الأمر أنه لا يوجد هنا على الأرجح تفضيل لغة على أخرى - مع أنني قلت للتو إنهما «كانا يفضلان»-، كما لا يوجد اختيار للغة الحديث: بل هما ببساطة يتكلمان بفرنسية رديئة بحكم العادة والعرف، ومن غير أن يتساءلا بأية لغة من الأنسب لهما أن يتكلما. والمقزز أيضاً في هذه اللغة العاجزة الميتة ذاك النطق الفظ العاجز الميت أيضاً. فاللغة الفرنسية الروسية التي تتحدث بها جماعة القسم الثاني، أي لغة المجتمع الراقي تتميز كذلك، قبل كل شيء، بطريقة النطق، أي التكلم فعلاً كما يتكلم الباريسيون، ولكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك البتة، وينفضح الزيف من أول صوت، ويفضحه، قبل كل شيء، ذاك التصنع القسري المشدد في النطق، والفظاظة في التزييف، والمبالغة في اللثغ والخنخنة، والتبذّل في لفظ حرف الراء، وأخيراً من الناحية الأخلاقية، تلك الخيلاء الوقحة التي يظهرونها وهم يلفظون الحروف بِلُثغة مصطنعة، وذاك التباهي الصبياني الذي لا يخفونه حتى فيما بينهم، عندما يتأنق أحدهم أمام الآخر بتقليد كلام صبيٍ أجير عند حلاق بطرسبورغي. إن الاختيال بكل هذه التبعية الذليلة شيء مقزز. قولوا ما تشاؤون، فمع أن كل هذا قديم، ولكنه ما زال يدعو إلى العجب، وذلك لأن ثمة أناساً أحياء في عز صحتهم وقوتهم، يُقْدِمون على التكلم بلغة ركيكة،

مهلهلة، سقيمة. ومن البديهي أنهم، هم أنفسهم، لا يدركون كل رداءة وبؤس هذه اللغة (لا أقصد اللغة الفرنسية، بل تلك التي يتحدثون بها)، وبحكم تخلف أفكارهم، وقصر مداها، وضحالتها تراهم راضين جداً بتلك الأداة التي آثروها للتعبير عن أفكارهم القصيرة المدى. إنهم ليسوا قادرين على أن يدركوا أنه مهما حاولوا يستحيل عليهم التحول التام إلى فرنسيين، إذا كانوا قد ولدوا ونشؤوا في روسيا، على الرغم من أن الكلمات الأولى التي ثغثغوا بها كانت بالفرنسية، وقد تعلموها من حاضناتهم، ثم تمرسوا بالحديث بها مع مربيهم وفي المجتمع. إنهم ليسوا قادرين على أن يدركوا أن ما يجعل هذه اللغة التي يتكلمون بها ميتة حتماً وليست حية، ومتكلفة وليست طبيعية، وتخيلية ومجنونة، هو أنهم يصرون بعناد على اعتبارها لغة فرنسية حقيقية، وهي باختصار، ليست فرنسية على الإطلاق، لأن الروس، وسائر الآخرين، لن يستطيعوا أبداً أن يحوزوا ويتمثلوا كل الخصائص الجنسية الفطرية الأساسية التي تتسم بها اللغة الفرنسية الحية، إذا هم لم يولدوا فرنسيين أصلاً، وهم لا يحوزون سوى اللهجة الغريبة الجاهزة سابقاً، والكثير من وقاحة التعبير الحلّاقية، ومن ثم، على الأرجح، وقاحة الفكرة. إن هذه اللغة أشبه ما تكون بالمسروقة، ولذا ليس بوسع أحد من هؤلاء الباريسيين الروس أن يستحدث في هذه اللغة المسروقة على مدى حياته كلها تعبيراً واحداً من عنده، أو كلمة جديدة مبتكرة واحدة يمكن أن يتلقفها الآخرون وتدرج بين الناس، وهو أمر يقدر على فعله أي صبي أجير عند حلاق. يروي تورغينف في إحدى رواياته طرفة حدثت في باريس، يصف فيها كيف دخل روسي من هؤلاء إلى: Café de Paris وصاح: «biftеck aux pommes de terre, Garçon»*. ثم دخل روسي آخر** كان قد تعلم كيف يطلبون البفتيك بأسلوب جديد، وصاح: «bifteck - pomme, Garçon» فأصيب الروسي الذي طلب على الطريقة القديمة «aux pommes de terre» بالإحباط لأنه لم يكن يعرف هذا التعبير الجديد: «bifteck - pomme» وفاته استخدامُه، وانتابه الخوف من احتمال أن ينظر إليه النُدُل باحتقار. وأظن أن الكاتب قد استمد طرفته هذه من واقعة حقيقية. ومن البديهي أن الباريسيين الروس، إذ يزحفون بخنوع أمام الصيغ اللغوية، وأمام رأي النُدُل، يركعون أيضاً كالعبيد أمام الفكر الفرنسي. وهكذا فإنهم يحكمون بأنفسهم على عقولهم البائسة بمصير محزن يقضي بألّا تستنبط طوال حياتهم أية فكرة ذاتية.

أجل، إن الغوص في محاكمات عقلية حول ضرر اكتساب لغة غريبة بدلاً من اللغة الأم

(*) أيها النادل، بفتيك مع بطاطا (بالفرنسية).

(**) من الواضح أن دوستويفسكي أعاد صياغة الحادثة نقلّاً عن الذاكرة، ولم يكن دقيقاً تماماً في نقلها كما وردت لدى تورغينف في روايته «دخان» إذ إن الزبون الثاني كان فرنسياً أصيلاً. (ن).

منذ الطفولة المبكرة قد غدا بلا جدال أمراً مضحكاً وعتيقاً وساذجاً إلى حد التبذّل، ولكن يبدو لي أن الموضوع لم يهترئ بعد إلى الحد الذي يجعل من المتعذر على أي أحد أن يقول فيه كلمته. بل إنني أعتقد أنه ليس ثمة موضوع يتعذر على المرء أن يقول فيه جديداً. أنا طبعاً لا أدّعي قول شيء جديد (أنّى لي هذا!) ولكنني أجازف، على الأقل من أجل تنقية ضميري، وأقول كلمتي. ولشدّ ما أرغب في أن أعرض حججي بأسلوب مبسّط، على أمل أن تقرأني إحدى الأمهات من المجتمع الراقي.

بأية لغة يجب على «أبي الوطن» أن يتكلم؟

كان بودي أن أسأل هذه الأم: هل تعرفين ما هي اللغة؟ ولِمَ أُعطينا الكلمة، حسب تصورك؟ لا جدال في أن اللغة هي شكل الفكرة، وجسدها وغلافها (من غير أن نشرح ما هي الفكرة)، أو لنقل إنها الكلمة الأخيرة والختامية في التطور العضوي. ومن هنا يتضح أنه كلما كانت المادة التي أفكر بواسطتها أغنى، وكانت أشكال التفكير التي أكتسبها للتعبير عن أفكاري أكثر ثراء كنت أكثر سعادة في حياتي وأوضح بياناً، سواء لنفسي أو للآخرين، وأكثر إفهاماً لنفسي وللآخرين، وأعظم سلطاناً، وأبْيَن انتصاراً، وكنت أَسرعَ في أن أقول ما أريد قوله لنفسي وللآخرين، وكان قولي أعمق، وفهمي لما أردت قوله أعمق أيضاً، وكنت بهذا أقوى، وأهدأ نفساً، وكنت طبعاً، أكثر ذكاء. ومرة ثانية أتساءل هل تعرف الأم أن الإنسان، مع أنه يستطيع أن يفكر بسرعة الكهرباء، إلّا انه لا يفكر البتة بمثل هذه السرعة، بل بأبطأ منها بما لا يقاس، ومع أنه يفكر بسرعة تفوق بما لا يقاس السرعة التي يتكلم بها، على سبيل المثال. فما السبب في هذا؟ السبب هو أنه لا يستطيع أن يفكر إلّا بوساطة لغة ما. وبالفعل ربما نحن لا نلاحظ أننا نفكر بلغة ما، ولكن الأمر هكذا؛ وإذا كنا لا نفكر بالكلام، أي أننا لا ننطق كلمات وإن ذهنياً، ونحن نفكر، فإننا مع ذلك نفكر «بالقوة الأساسية العفوية لتلك اللغة» التي اخترنا التفكير بها، إذا جاز التعبير. ومن الجلي أنه كلما كان استيعابنا لتلك اللغة التي آثرنا التفكير بوساطتها أكثر مرونة وغنىً وتنوعاً كان التعبير بها عن فكرتنا أكثر غنىً وتنوعاً، وفي الحقيقة: لِمَ نحن نتعلم اللغات الأوربية، الفرنسية، على سبيل المثال؟ أولاً،

بساطة، من أجل أن نقرأ بالفرنسية، وثانياً: من أجل أن نتكلم مع الفرنسيين عندما نتقابل؛ ولكن، قطعاً، ليس من أجل أن نتحدث بها فيما بيننا، أو إلى أنفسنا. إن لغة مستعارة غريبة غير كافية للوصول إلى آفاق الحياة العليا وأعماق الفكر، وذلك، بالذات، لأنها تبقى غريبة عنا؛ ونحن، في هذه الحالة، بحاجة إلى اللغة الأم التي تلازمنا منذ ولادتنا، إذا صح التعبير. ولكن هنا بالذات تعترضنا مشكلة. فالروس، أو على الأقل، روس الطبقات العليا لم يعودوا، في أغلبيتهم، منذ زمن بعيد، يولدون مع لغة حية، بل هم يكتسبون فيما بعد لغة ما اصطناعية، ولغة روسية لا يتعرفونها تقريباً إلّا في المدرسة من خلال دروس القواعد النحوية. أوه، طبعاً، إذا كان لدى المرء رغبة شديدة، وكان ذا جد واجتهاد يغدو بوسعه، في نهاية المطاف، أن يعيد تربية نفسه، وأن يتعلم إلى درجة ما اللغة الروسية الحية بعد أن يكون قد ولد بلغة ميتة. وأنا أعرف كاتباً روسياً* كوّن لنفسه اسماً، لم يتعلم اللغة الروسية فحسب، بعد أن كان يجهلها تماماً، بل تعلم أيضاً واقع الفلاح الروسي. وكتب فيما بعد روايات مستلهمة من الحياة الفلّاحية. وقد تكررت هذه الواقعة عندنا أكثر من مرة، وكانت أحياناً تتخذ أبعاداً جدية جداً: فبوشكين العظيم كان مضطراً، كما يعترف شخصياً، إلى أن يعيد تربية نفسه، ويتعلم لغة الشعب والروح الشعبية من مربيته أرينا روديونوفنا. إن تعبير «تعلم اللغة» ينطبق علينا، نحن الروس، بصورة خاصة، لأننا نحن الطبقة الراقية منقطعون عن الشعب إلى حد كبير، أي عن اللغة الحية. (اللغة والشعب في لغتنا كلمتان مترادفتان؛ وما أعمق وأغنى الفكرة التي تنطوي عليها هذه الحقيقة!). ولكنهم سيقولون: إذا كانت معرفة اللغة الحية لا تتيسر إلّا «بالتَّعلُّم» فإن الروسية والفرنسية في هذا سيّان؛ بيد أن الأمر ليس كذلك، فاللغة الروسية أسهل على الروسي أياً كان الأمر، وبصرف النظر عن الحاضنات الأجنبيات، وعن الظروف، وعلينا أن نستغل هذه السهولة من كل بد ما دام لدينا وقت لذلك. ولكي نمتلك ناصية هذه اللغة الروسية على نحو أكثر طبيعية، ومن غير إجهاد مفرط وليس عن طريق العلم فقط (ولا أقصد بالعلم هنا طبعاً، دروس القواعد المدرسية وحدها) يتوجب علينا حتماً أن نتشربها في الطفولة من أفواه الحاضنات الروسيات من أمثال «أرينا روديونوفنا»، من دون أن نخشى أن تلقن الحاضنة الطفل معتقدات خرافية، كقصة الحيتان الثلاثة**، على سبيل المثال. (يا إلهي! كيف يمكن أن تظل قصة الحيتان الثلاثة هذه ملازمة له طوال الحياة!) كما يجب ألا نخاف من الناس الشعبيين البسطاء، بل حتى من الخدم الذين يحذّر بعض المربين

(*) المقصود: د.ف. غريغوروفتش (1822–1900) الذي تربى في مدرسة داخلية فرنسية وكانت أمه وجدته فرنسيتين، وقد تعلم اللغة الروسية من الخدم والفلّاحين. (ن).

(**) المقصود: معتقد قديم كان معتنقوه يزعمون أن الأرض محمولة على ظهور حيتان ثلاثة ضخمة. (ن).

الآباءَ منهم. وعلينا فيما بعد أن نحفظ في المدرسة عن ظهر قلب نصوصاً مكتوبة بلغتنا منذ العصور القديمة: من الحوليات التاريخية، والملاحم الشعبية القديمة، بل حتى المكتوبة باللغة السلافية - الكنسية؛ ومن الضروري استظهار هذه النصوص، على الرغم مما يقال عن تخلف طريقة «البصم» [الصمّ] في الدراسة، وعندما نستوعب على هذا النحو لغتنا الأم، أي اللغة التي نفكر بها، ونمتلك ناصيتها قدر المستطاع، أي إجادتها بالقدر الذي يجعلها تبدو حية أو شبيهة بالحية، ونعوّد أنفسنا التفكير بوساطتها تحديداً، عندئذ يصبح بوسعنا أن نستفيد من قدرتنا الروسية الأصيلة على استيعاب علم اللغة الأوربي، ومعرفة عدة لغات. وبالفعل، نحن، لن نكون قادرين على التمكن من لغة أجنبية بالقدر الممكن من الكمال إلّا بعد أن نكون قد استوعبنا بالقدر الممكن من الكمال المادة الأولية، أي اللغة الأم، وليس قبل ذلك. وعندئذ نستمد من اللغة الأجنبية، من غير أن نلاحظ ذلك، عدداً من الصياغات الغريبة عن لغتنا، ونلائم بينها وبين تفكيرنا، على نحو غير ملحوظ ولا إرادي أيضاً، ونوسّع بهذا من أفق التفكر لدينا. وثمة حقيقة ذات أهمية متميزة، وهي أننا، بلغتنا الفتية التي لم تستكمل بنيتها بعد، نستطيع أن نعبر عن أعمق ما تتضمنه اللغات الأوربية من أشكال الروح والفكر: فالشعراء والمفكرون الأوربيون كافة بالإمكان ترجمة أعمالهم إلى اللغة الروسية. وتقديمهم بها، وقد تُرجم بعض منهم ترجمة بلغت حد الكمال. في حين أن الكثير جداً مما تحتويه اللغة الروسية الشعبية، والكثير جداً من أعمالنا الأدبية الإبداعية ما زال حتى الآن عصياً تماماً على الترجمة والتقديم باللغات الأوربية، ولا سيما الفرنسية. ولا يمكنني أن أتذكر من غير أن أضحك ترجمةً (أصبحت الآن نادرة جداً) لبعض أعمال غوغول إلى اللغة الفرنسية، قام بها في أواسط الأربعينيات في بطرسبورغ السيد فياردو، زوج المغنية المعروفة، بالاشتراك مع أديب روسي كان آنذاك مجرد كاتب شاب مبتدئ، وقد أصبح الآن مشهوراً عن جدارة*؛ إذ إن ما قدماه كان ببساطة مجرد هراء، بدلاً من غوغول. وبوشكين أيضاً تتعذر ترجمته من نواحٍ كثيرة. وأعتقد أنه لو ترجم أحدهم عملاً مثل سيرة الكاهن السامي «أفّكوم**» لجاءت الترجمة هراء أيضاً، أو من الأفضل القول: لما كان قد جاء أي شيء على الإطلاق. ما السبب في هذا؟ من المخيف القول إن الروح الأوربية ربما ليست بالغة التنوع، وهي أكثر انغلاقاً على خصوصيتها من الروح الروسية، بصرف النظر عن أنها بلا شك عبرت عن نفسها على نحو أكثر كمالاً ووضوحاً من تعبير روحنا عن نفسها. ولكن إذا كان من المخيف قول هذا

(*) المقصود: ايفان تورغينف. (انظر بداية فصل «بصدد المعرض» في هذه اليوميات). (ن).

(**) المقصود: السيرة الذاتية للكاهن السامي «أفّكوم بتروفتش» (ولد عام 1620 أو 1621 وأُعدم حرقاً عام 1682). مؤسس مذهب «الطقوسية القديمة» وزعيم حركة الانشقاق الكنسي في روسيا. (ن).

فلا بد من الإقرار على الأقل، والأمل والسرور يغمران روحنا، أن روح لغتنا هي بلا جدال، بالغة التنوع، وغنية، ومتعددة الجوانب، وتحيط بكل شيء، وذلك لأنها استطاعت، بأشكالها التي لم تستكمل بنيتها بعد، أن تنقل نفائس الفكر الأوربي وكنوزه، ونحن نشعر أن هذا النقل دقيق وصادق. وها نحن أنفسنا نحرم أطفالنا من مثل هذه «المادة»؛ ومن أجل ماذا؟ من أجل أن نجعلهم بائسين، لا ريب. إننا نحتقر هذه «المادة» ونَعدُّها لغة جلفة، وضيعة، لا يليق أن نعبّر بها عن عواطف المجتمع الراقي أو أفكاره.

أذكر بهذه المناسبة أنه جرى عندنا منذ خمس سنوات بالضبط ما سُمّي بالإصلاح الكلاسيكي للتعليم. ومن الأمور المعترف بها أن الرياضيات واللغتين القديمتين اللاتينية واليونانية هي الوسيلة العقلية، وحتى الروحية، الأكثر قدرة على التطوير. ولسنا نحن من ابتدع ذلك أو قرره: فهو حقيقة لا مراء فيها، وقد أثبتتها التجربة في أوربا كلها على مدى قرون، وتبنيناها نحن. ولكن الذي حدث أن التشديد البالغ على تدريس هاتين اللغتين العظيمتين والرياضيات اقترن عندنا بالكبح التام تقريباً لتدريس اللغة الروسية. وهنا نتساءل: كيف، وبأية وسيلة وبوساطة أية مادة سيستوعب أطفالنا صيغ هاتين اللغتين القديمتين إذا كانت اللغة الروسية في حالة انحطاط. أيمكن أن تكون آلية تدريس هاتين اللغتين وحدها (علماً أن المدرِّسين تشيكيون) هي التي تشكل كل القوة التطويرية التي تمتلكانها! ثم إن هذه الآلية لا يمكن إتقانها إذا لم يجر على التوازي تعليم اللغة الحية تعليماً مشدداً ومعمّقاً إلى أقصى حد. وعلى هذا فإن كل القوة المعنوية - التطويرية لهاتين اللغتين القديمتين، لهذين الشكلين اللذين يتجلى فيهما الفكر البشري بأكثر صيغه اقتراباً من الكمال، والذين رفعا الغرب، الذي كان همجياً بأسره، إلى أعلى درجات الرقي والحضارة على مدى قرون، إن كل هذه القوة لا يستفيد منها، طبعاً، نظام التعليم المدرسي عندنا، والسبب في ذلك هو، بالذات، انحطاط اللغة الروسية في مدارسنا؛ ولعل الإصلاحيين عندنا قد ارتؤوا أنه لا لزوم لتعليم اللغة الروسية بالمرة، اللهم ما عدا معرفة المواضع التي ينبغي كتابة «حروف التقسية»* فيها، لأن هذه اللغة تولد مع الطفل. ولكن حقيقة الأمر هي أننا، في طبقات المجتمع العليا لم نعد نولد مع اللغة الروسية الحية، وقد بدأ هذا منذ وقت طويل. ولم تعد اللغة الحية تظهر لدينا إلّا عند اندماجنا في الشعب اندماجاً كاملاً. ولكن يبدو أنني استطردت في الحديث، إذ كنت قد بدأته بالتكلم مع الأم، ثم انتقلت إلى الحديث عن الإصلاح الكلاسيكي والاندماج في الشعب.

(*) إحدى علامتين في عداد حروف الهجاء الروسية، تؤثر في الحرف الذي يسبقها فتجعله يلفظ قاسياً، أياً كان موقعه في الكلمة. (م).

من المضجر للأم، طبعاً، أن تصغي إلى كل هذا؛ إنها تلوح بيدها بغضب وتشيح بوجهها هازئة، إذ لا فرق عندها أياً كانت اللغة التي يفكر بها ابنها، وحبذا أن تكون هذه اللغة هي الباريسية: «فهي أجمل وأذكى وأرفع ذوقاً». ولكنها لا تدري أن هذا يتطلب أن يتحول ابنها تحولاً تاماً إلى شخص فرنسي، وهذه السعادة لا يمكن بلوغها بحال من الأحوال، مع الحاضنات والمربّين، بل كل ما يمكن تحقيقه هو بلوغ المحطة الأولى على هذه الطريق، أي الكفّ عن أن يكون الطفل روسياً. أوه، إن الأم لا تدري أي سمّ تدسه لابنها عندما تدعو حاضنة لتربيته وهو في السنة الثانية من عمره. إن كل أم وكل أب يعرفان، على سبيل المثال، تلك العادة الطفلية الجسدية البشعة التي يبدأ بعض الأطفال التعساء يمارسونها وهم في العاشرة تقريباً، وهي يمكن أن تحولهم أحياناً، في حالة الغفلان عنهم، إلى بُلهٍ وأشياخ ذاوين واهنين، وهم بعد في سن الفتوة. وإني لأجرؤ على القول من دون تردد إن الحاضنة الأجنبية، أي اللغة الفرنسية في سن الطفولة المبكرة، ومنذ الثغثغة الأولى، هي، على الصعيد المعنوي، مثيلة لتلك العادة البشعة على الصعيد الجسدي. ويهون الأمر إذا كان الطفل غبياً بطبيعته، أو محدود الفهم بالفطرة؛ إذ إنه في هذه الحالة يعيش حياته مع اللغة الفرنسية وهو لاهٍ، ضحل التفكير، محدود التطور، ويموت من غير أن يلاحظ البتة أنه عاش حياته كلها غبياً. ولكن ماذا إذا كان هذا الإنسان ذا قدرات، ويمتلك في رأسه فكراً وفي قلبه نفحات شهامة، هل يمكن أن يكون سعيداً؟ بما أنه لا يمتلك المادة التي ينظم بها كل عمق أفكاره ومتطلبات روحه، بل يظل طوال حياته يستعمل لغة ميتة، سقيمة، مسروقة، ذات صيغ متهيبة، مُستَظْهَرة، غليظة، لا تفتح أمامه آفاقاً رحبة، فإنه سيظل أبداً يعاني جهداً مستمراً وتوتراً مفرطاً، ذهنياً وأخلاقياً عند التعبير عن نفسه، وعما يعتمل في وجدانه، (يا إلهي! أمن الصعب حقاً أن نفهم أن هذه اللغة غير حية وغير طبيعية!) إن الشخص نفسه سيلاحظ وهو يتعذب أن تفكيره قاصر، سطحي، صفيق، وأن صفاقته تتأتى بالذات من قصوره وسطحيته، ومن جراء الصياغات الضحلة التافهة التي ظل طوال الحياة يتجسد بها. وسيلاحظ أخيراً أن قلبه نفسه فاسد، والفساد يأتي من الشعور بالوحشة أيضاً. أوه طبعاً، إن مركزه لن يتأثر بهذا: فكل هؤلاء الذين يولدون مع الحاضنات تَنْذُرهُم أمهاتهم ليكونوا حتماً آباء الوطن في المستقبل، وليكون لهم حق الإدعاء بأن الوطن لا غنى له عنهم. إن الواحد من هؤلاء سيتألق، ويأمر، و«يستحثّ»، وسيفرض الأنظمة، ويكون قادراً على التصرف في الأمور؛ وبكلمة واحدة: غالباً ما سيكون راضياً عن نفسه، وخصوصاً عندما سيدلي بأحاديث مستعملاً أفكاراً مستعارة وعبارات مستعارة سيكون فيها: * plus de noblesse que de

---

(*) النبل أكثر من الصدق (بالفرنسية). (ن). الترجمة عن الروسية. (م).

sincerité، ولكن إذا كان لديه قدر ولو ضئيل من الإنسانية، فإنه سيكون بالإجمال تعيساً. سيظل على الدوام يشعر بالحسرة بسبب مكابدته نوعاً من الخور، كأولئك الفتيان - الشيوخ الذين يعانون من الشعور بنضوب قواهم قبل الأوان من تلك العادة الشنيعة. ولكن واأسفاه! أية أم ستصدقني إذا قلت إن كل هذه المصائب يمكن أن تتأتى من اللغة الفرنسية ومن الحاضنة الأجنبية. لدي إحساس مسبق بأن أكثر من أم سيقلن إنني أبالغ؛ في حين أنني، من حيث المغزى الدقيق للتعبير، قد قلت الحقيقة بلا مبالغة. سيعترضن قائلات: إن العكس هو الصحيح، فالأحسن أن يعيش المرء بلغة غير لغته، إذ إن العيش هكذا يصبح أسهل، وأخف، وأمتع، وإن قضايا الحياة ومتطلباتها هذه بالذات يجب تجنبها، واللغة الفرنسية تساعد على تحقيق كل هذا، لا بصفتها اللغة الفرنسية، بل بصفتها لغة أجنبية يتم استيعابها وإحلالها محل اللغة الأم. «كيف؟ هذا الشاب المتألق، هذا الصالوني الفاتن، هذا اللوذعي، سيكون تعيساً؟ بكل هذه الأناقة، وهذه التسريحة، وهذه العافية، وهذا اللون الأرستقراطي الذي يكسو محياه، وهذه الوردة البديعة في عروته؟» تتهانف الأم بتعالٍ. في حين أن المثقف الروسي، من دون ذلك (أي من دون التربية الفرنسية) وحتى في أيامنا هذه، وفي الأكثرية الساحقة من نُسَخِه، ليس سوى صعلوك في الفكر؛ إنه كائن ما بلا أرض تحت قدميه، بلا تربة أو مبدأ، هجين دولي تتلاعب به جميع الرياح الأوربية. أما هذا الشخص الذي خرج من تحت أيدي الحاضنات والمربين الأجانب فإنه لن يكون، في الجوهر، وحتى في أحسن الحالات، وحتى إذا كانت لديه أفكار ما ومشاعر ما، أكثر من شاب بقفازين* رائعين، ازدرد، ربما بضعة مؤلفات أدبية*. دارجة، لكن عقله ما انفك يهيم في غياهب جهل* أبدي، وقلبه لا يهفو إلّا إلى المال*.

وأكرر ثانية: إنه سيكون طبعاً، من آباء الوطن؛ وهل يعقل ألّا يصل إلى أعلى المراتب الوظيفية؟! ومن غيره إذاً يمكن أن يصل؟! (إن آباء الوطن يبدؤون خدمتهم عندنا من مرتبة مستشار السر)** وهذا كاف حتى الآن بالنسبة إلى الأم؛ ولكنه كاف بالنسبة إليها فقط!

(*) الكلمات المؤشرة هي كلمات فرنسية أوردها دوستويفسكي مُرَوَّسةً (مكتوبة بحروف روسية) انسجاماً مع السياق. وقد شرح الناشر معانيها في حاشية خاصة وأورد أصولها الفرنسية كما يأتي: ganter-ouvrage-ténèbres-argent (م).

(**) موظف من المرتبة الثالثة في سلم المراتب المؤلف من 14 مرتبة في روسيا القيصرية. (م).

ما الذي يساعد في مصحات المياه المعدنية: المياه أم التصرف اللبق؟

لن أصف لكم إيمس؛ فثمة وصف مفصل جداً لها باللغة الروسية في كتاب الدكتور «غيرشغورن»، على سبيل المثال: «إيمس وينابيعها الشافية»، والصادر في بطرسبورغ. وهناك يمكنكم الإطلاع على كل شيء، بدءاً من المعلومات الطبية عن الينابيع وحتى أدق التفاصيل عن الحياة في الفنادق، وأصول الحفاظ على الصحة، والتنزه مشياً، والموقع وحتى عن الجمهور في إيمس. أما أنا فإنني لا أستطيع وصف ذلك، وإذا ما أجبروني على ذلك الآن، بعد أن عدت إلى الوطن، فإنني سأتذكر قبل كل شيء الشمس الساطعة، ووادي تاونوس الرائع الجمال حقاً، حيث تقع إيمس، والجمهور الغفير الأنيق القادم من مختلف بلدان العالم، والوحدة العميقة، بل الشديدة العمق التي كنت أعيش فيها وسط هذا الجمهور. غير أنني، بصرف النظر عن هذه الوحدة، أحب مثل هذا الجمهور، ولكن على نحو خاص طبعاً. لقد صادفت وسط هذا الجمهور أحد معارفي من الروس، وهو ذاك المفارقاتي الذي كان في جداله معي يدافع عن الحرب، ويجد فيها كل وجوه الحق والحقيقة، التي لا يمكن أن نجدها في المجتمع المعاصر (انظر «يوميات نيسان» أبريل). وكنت قد ذكرت أنه شخص «مدني» ومن أكثر الناس استكانة في مظهره. ويعرف الجميع أننا، نحن الروس، أو الأفضل أن أقول نحن البطرسبورغيين، رتبنا حياتنا على نحو يجعلنا نتراءى ونتعامل أحياناً مع أناس الله أعلم من هم، أما أصدقاؤنا، فمع أننا لن ننساهم (وهل يمكن للبطرسبورغي أن ينسى أي شيء أو أي شخص) لكن يسهل علينا جداً أن نظل سنين كاملة أحياناً لا نراهم. كان صاحبي هذا يستشفي أيضاً بمياه إيمس. وهو يناهز الخامسة والأربعين من العمر، أو ربما أصغر. قال لي: - أنت على حق، فالجمهور هنا تحبه على نحو ما حتى من دون أن تعرف علامَ. وعلى العموم فإن المرء في كل مكان يحب على نحو ما، الجمهور الراقي طبعاً، الصفوة. يمكن ألّا تخالط أي واحد من هذا المجتمع كله، ولكن على وجه الإجمال ليس في العالم حتى الآن ما هو أحسن منه.

قلت: - إيه، كفاك... فسارع إلى القول مسايراً: - أنا لا أجادلك، لا أجادلك. عندما يحين الوقت ويظهر على الأرض مجتمع أفضل، ويوافق الإنسان على أن يعيش على نحو أكثر عقلانية، إذا جاز التعبير، فإننا لن نرغب حتى في النظر إلى المجتمع الحالي، ولن نرغب حتى

في ذكره، اللهم إلّا في كتاب تاريخ العالم العام، وبكلمتين فقط. ولكن الآن ماذا بوسعك أن تتخيل أحسن منه؟

– أحقاً أننا لا نستطيع أن نتخيل الآن مجتمعاً أحسن من هذا الجمهور المتبطل المؤلف من أناس ميسورين، أناس لولا أن الظروف قد دفعتهم إلى التجوال هنا في منتجعات المياه المعدنية لكانوا، على الأرجح، لا يعرفون ماذا يفعلون وكيف يُزجون فراغ يومهم. ثمة أشخاص مفردون جيدون، هذا صحيح، ويمكنك أن تجد أمثال هؤلاء وسط هذا الجمهور؛ ولكن هذا الجمهور ككل، بمجمله، لا أكتفي بالقول إنه لا يستحق الثناء عليه، بل أقول إنه لا يستحق حتى الاكتراث به!

– أنت تقول هذا كما لو أنك شديد الكره للإنسان، أو لمجرد أنك تساير الدارج. إنك تقول: «... لكانوا لا يعرفون ماذا يفعلون وكيف يزجون فراغ يومهم»!... لكن صدقني: إن لدى كل واحد من هؤلاء قضية تشغله، وتملأ لا فراغ يومه فحسب، بل حياته كلها. والذنب ليس ذنبه إذا كان لا يستطيع أن يجعل من الحياة جنة، ويتألمون بسبب هذا.

وأنا يروق لي أن أنظر إلى هؤلاء المتألمين وهم يضحكون هنا.

– وهل يضحكون من قبيل اللباقة؟

– بل يضحكون بحكم العرف، الذي يسيطر عليهم جميعاً، ويجبرهم على أن يشاركوا في لعبة «الجنة» إذا كنت تريد أن تستعمل هذه التسمية. إن الواحد منهم لا يؤمن بالجنة، وهو يلعب هذه اللعبة على مضض، ولكنه مع ذلك يلعب، ويتلهى بهذا. هذا العرف مستحكم بشدة. وهنا يوجد بعض الناس الذين ينظرون إليه على أنه أمر جدي تماماً، وهذا أفضل لهم طبعاً: فهم هكذا يعيشون في جنة حقيقية. وإذا أنت أحببتهم جميعاً (ويجب عليك أن تحبهم) فلا بد لك من أن تفرح لأن لديهم إمكانية الاستراحة والسلوان حتى وإن كان هذا سراباً.

– لا بد أنك تمزح؟ ولماذا يجب علي أن أحبهم؟

– لأنك هنا إزاء الإنسانية، وليس ثمة إنسانية سوى هذه، فكيف لك ألّا تحب الإنسانية. في السنوات العشر الأخيرة لا يجوز للمرء ألا يحب الإنسانية. توجد هنا سيدة روسية تحب الإنسانية جداً. وأنا لا أمزح البتة. ولكي ننهي الحديث في هذا الموضوع أريد أن أقول لك في الختام: إن كل مجتمع لبق التصرف كهذا الجمهور الراقي يتسم من الداخل ببعض الخصال الإيجابية. مثلاً: كل مجتمع راقٍ يتسم بمزية حسنة هي أن صلته بالطبيعة، حتى وإن كانت كاريكاتورية، تفوق صلة أي مجتمع آخر بها، حتى المجتمع الزراعي، على سبيل المثال، الذي نراه بمعظمه يعيش حتى الآن، في كل أمكنة وجوده، على نحو غير طبيعي بالمرة.

وأنا هنا لا أتحدث عن المصانع، والجيوش، والمدارس، والجامعات: فكل أولئك أكثر من اللاطبيعي. أما هؤلاء فهم أكثر حرية من الجميع، لأنهم أغنى من الجميع، ولذا فإن بوسعهم، على الأقل، أن يعيشوا كما يشاؤون. أوه، طبعا إنهم لا يتصلون بالطبيعة إلّا بقدر ما تسمح بذلك حدود اللياقة ولباقة التصرف. أما أن يبسطوا أذرعهم، ويفتحوا صدورهم وقلوبهم لاستقبال الطبيعة بشوق صادق، لاستقبال شعاع الشمس الذهبي هذا، الذي يشع فوقنا، نحن الخطاة، من السماء الزرقاء، من غير أن يميّز: هل نستحق هذا أم لا؛ أقول: أما هذا فإنه، من دون شك، تصرف غير لائق إذا كان بالقدر الذي نريده أنا وأنت الآن، أو يريده أي شاعر؛ ثمة قُفل فولاذي صغير من لباقة التصرف، معلق كالسابق، على كل قلب، وعلى كل عقل. ومع ذلك لا يجوز ألّا نقرّ بأن لباقة التصرف قد خطت خطوة، وإن كانت صغيرة، على طريق الاتصال بالطبيعة ليس في قرننا هذا فحسب، بل حتى في جيلنا الحالي. ويمكنني الآن أن أستنتج بلا تردد، بعد أن رصدت الواقع، أن الناس في قرننا الحالي يدركون ويقرّون أكثر فأكثر مع تقدم الزمن أن الاتصال بالطبيعة هو الكلمة الأخيرة لكل مجال من مجالات التقدم، والعلم، والتفكير الصحيح، والعقل السليم، والذوق، والأسلوب الرفيع في التصرف. أُدخلْ في غمار هذا الجمهور وانغمس فيه، تر الوجوه تفيض فرحاً ومرحاً؛ وكل واحد يتحدث مع الآخر بدماثة، أي باحترام غير عادي، الجميع لطفاء ومرحون إلى درجة غير عادية. تقول لنفسك إن كل سعادة هذا الفتى المقدام الذي يضع وردة في عروة سترته تنحصر في إبهاج هذه السيدة الخمسينية السمينة. وبالفعل، ما الذي يجبره على أن يحوم حولها باذلاً جهده؟ أحقاً أنه يرغب صادقاً في أن يسعدها ويبهجها؟ طبعاً لا، ومن المؤكد أن ما يجبره على بذل الجهد يعود إلى أسباب ما خاصة وشخصية جداً ليست بذات أهمية لنا؛ ولكن المهم هنا هو أن ثمة شيئاً واحداً فحسب بوسعه أن يجبره على ذلك، وهو الالتزام بلباقة التصرف من دون أية أسباب خاصة وشخصية، وهذا بحد ذاته نتيجة بالغة الأهمية. إنه يبين لنا إلى أي حد يمكن للباقة التصرف في قرننا أن تتغلب حتى على الطبيعة المتوحشة التي يتصف بها بعض الفتيان الجسورين. الشاعرية تنتج «بايرونات*»، وهؤلاء ينتجون «قراصنة» و«هارولدات» و«لارات»، وانظر الآن كيف أصبحت جميع هذه الشخصيات بعد مدة قصيرة جداً من ظهورها تُعدّ معيوبة على ضوء مفهوم التصرف اللبق، وأصبحت تُصنَّف على أنها أسوأ فئات المجتمع؛ وينطبق هذا بقدر أكبر على «بيتشورين» ** و«الأسير القفقاسي»*** عندنا. لقد تبين

(*) جمع اصطلاحي لأسم الشاعر الإنكليزي الشهير «بايرون»؛ و«القرصان» و«هارولد» و«لارا» أسماء أبطال بعض قصائده.

(**) «بيتشورين»: بطل قصة الشاعر الروسي ليرمنتوف «بطل زماننا». انظر الهامش (65). (م).

(***) «الأسير القفقاسي»: بطل قصيدة الشاعر الروسي بوشكين التي تحمل الاسم نفسه. (م).

أن هذين شخصان ذوا سلوك سيئ تماماً؛ إنهما موظفان بطرسبورغيان أصابا نجاحاً لدقيقة واحدة. ولماذا عُدّا معيوبين؟ لأن هذين الشخصين شريران حقاً، وقليلا الصبر، ولا يهتمان سوى بذاتيهما وعلى نحو سافر؛ وهما بذلك يخلّان بهارمونية لباقة التصرف التي يجب أن تعمل بكل قوتها من أجل أن تبدو الأمور في الظاهر وكأن كل واحد يعيش من أجل الجميع، والجميع يعيشون من أجل كل واحد. انظر، ها هم هؤلاء يحملون الأزهار: أضموماتٍ من أجل تقديمها للسيدات، ووروداً مفردة لوضعها في عرى سترات الرجال؛ انظر كيف شُذّبت هذه الورود، وكيف انتقيت ونسقت، وكيف رُشّت بالماء! إن فتاة الحقول لا يمكنها البتة أن تنتقي وتشذب وتنسق شيئاً أكثر جمالاً وأناقة من أجل الفتى الذي تحبه؛ علماً بأن هذه الورود قد جلبت إلى السوق لتباع الواحدة منها بخمسة وبعشرة قروش ألمانية، من دون أن تكون فتاة الحقول قد لمست أياً منها. إن العصر الذهبي لا يزال بكامله في عهدة المستقبل[107]، أما الآن فنحن في عصر الصناعة. ولكن ما لكم ولهذا، أو ليست الأمور لديكم سواء: إنهم يتأنقون، ويبدون رائعين، وتصبح الحياة بالفعل وكأنها الجنة. وما هو الفرق بين «هي الجنة» و«كأنها الجنة»؟ أنعم النظر: أي ذوق رفيع هذا وأية فكرة صائبة حقاً! إذ ما الذي يمكن أن يلائم الذهاب لاحتساء المياه المعدنية، أيْ الأمل بالشفاء، واستعادة العافية أكثر من الأزهار؟ الأزهار آمال. كم من الذوق في هذه الفكرة! تذكّر النص القائل:

«لا تهتموا بما تلبسون، بل انظروا إلى أزهار الحقل، فحتى سليمان في أيام مجده لم يلبس مثلها، فكم أنتم أولى بأن يلبسكم الرب»*. لا أذكر النص بدقة، ولكن يا لروعة هذه الكلمات! تنطوي فيها كل شاعرية الحياة، وكل حقيقة الطبيعة. ولكن إلى أن تحل حقيقة الطبيعة، ويأخذ الناس يكلل بعضهم بعضاً ببساطة وببهجة في القلب بأزهار الحب الإنساني الصادق، ستظل هذه الأشياء تُباع وتُشترى لقاء خمسة قروش من غير حب: بيد أنني أعود لأسأل: أوَ ليست الأمور لديكم سواء؟ بل إنني أرى أن الوضع الحالي أكثر ملائمةً؛ لأن ثمة حباً، في الحقيقة، يدفعك إلى الهرب منه، وذلك لأنه يتطلب قدراً من الشكر يتجاوز الحد، أما هنا فليس عليك سوى أن تخرج قرشاً من جيبك، وكفى! وبالفعل، يبدو الواقع هنا مشابهاً للعصر الذهبي؛ وإذا كنت شخصاً تمتلك القدرة على التخيل، فهذا يكفيك. أياً كان الأمر فإن الثروة المعاصرة جديرة بأن نشجعها وإنْ على حساب الآخرين. إنها تسم حياتنا بالترف ولباقة التصرف، وهذا لا يمكن أن يعطينا إياه ذاك الجزء الآخر من البشرية. هنا أنا أمتلك لوحة فنية بديعة تبعث البهجة في نفسي، والناس مستعدون دائماً لدفع المال من أجل البهجة. البهجة والسرور كانا دائماً هما الأغلى، علماً بأنني أنا الإنسان الفقير أستطيع أيضاً أن أشارك في

(*) اقتباس غير دقيق من الانجيل (انظر متى 6/ 28-30 ولوقا 12/ 22، 27-28). (ن).

الفرح العام من دون أن أدفع شيئاً، وذلك بأن أفرقع بلساني قليلاً، على الأقل. انظر: الموسيقا تصدح، والناس يضحكون، والنساء يرتدين ثياباً لم يرتدِ مثلها أحد، طبعاً، في عهد سليمان؛ ومع أن كل هذا سراب، ولكن ها نحن، أنت وأنا، مبتهجان؛ ثم أخيراً لنحكم بضميرنا: هل أنا إنسان مستقيم؟ (إنني أتحدث عن نفسي فقط)، ولكن بفضل المياه المعدنية ها أنا اشترك مع من يُسَمَّوْن خيرة الناس وصفوتهم. ثم انظر بأية قابلية ستذهب أنت لتحتسي القهوة الألمانية المقيتة جداً! هذا هو ما أسميه الجانب الإيجابي من المجتمع الراقي.

- إيه، إنك تقول كل هذا من باب المزاح، وهو ليس بجديد البتة.

- أمزح، ولكن قل لي: هل تحسنت قابليتك منذ أن أتيت إلى هنا لشرب المياه المعدنية؟

- أوه، طبعاً تحسنت كثيراً.

- هذا يعني أن الجانب الإيجابي للباقة التصرف قوي جداً إلى درجة أنه يؤثر حتى في المعدة.

- عفواً، ولكن هذا من تأثير المياه المعدنية لا التصرف اللبق.

- والتصرف اللبق بلا شك. بل إننا لا نعرف حتى الآن ما هو العامل الأهم الذي يساعد أكثر من سواه في منتجعات المياه المعدنية: هل هو المياه أم التصرف اللبق. وحتى الأطباء المحليون يحتارون: ما الذي له الأفضلية هنا؛ وعلى العموم من الصعب أن نحدد أبعاد الخطوة التقدمية الكبرى التي خطاها الطب في قرننا هذا: فقد تولدت لديه الآن أفكار، في حين أنه في السابق لم يكن يملك سوى الأدوية.

أحد الذين نَعِموا بإحسان المرأة المعاصرة إليهم

لكنني لن أسرد، بالطبع، جميع الأحاديث التي جرت بيني وبين هذا الإنسان الذي ينتمي إلى النمط القديم. لقد كنت أعرف أن أكثر الموضوعات حساسية بالنسبة إليه هو موضوع المرأة. وذات مرة تطرقت في حديثي معه إلى هذا الموضوع. ولقد لفت نظري إلى أنني أتفرس كثيراً في النساء.

– بل أنا أتفرس في الإنكليزيات بالذات، ولغاية محددة. فقد اصطحبت معي وأنا في طريقي إلى هنا كرّاستين: إحداهما عن المسألة الشرقية لغرانوفسكي، والأخرى: عن النساء* وتحتوي الكراسة الأخيرة بعض الأفكار البالغة الروعة والنضج. ولكن تصوَّرْ أن لديه عبارة أوقعتني في حيرة شديدة. فهو يفاجئ القارئ بقوله:

«ولكن العالم كله يعرف ماذا تمثّل المرأة الإنكليزية. إنها مثال سام جداً للجمال الأنثوي والخصال النفسية الأنثوية، وليس بوسع نسائنا الروسيات مضاهاة هذا المثال...».

كيف؟! أنا لا أتفق معه في هذا. أحقاً أن المرأة الإنكليزية تجسد مثالاً سامياً إلى هذا الحد بالقياس إلى نسائنا الروسيات؟ أنا لا أوافق البتة على مثل هذا الرأي.

– من هو مؤلِّف الكراسة؟

– بما أنني لم أمتدح ما يستحق المديح في الكراسة، وعمدت إلى أن أنتزع منها هذه العبارة الوحيدة، التي لا أستطيع الموافقة عليها، لذا لن أذكر اسم المؤلف.

– المؤلِّف، على الأرجح، عازب، ولم يتسنّ له بعد أن يعرف كل خصال المرأة الروسية.

– مع أنك قلت هذا ساخراً، ولكنك أصبت في ذكرك «خِصال» المرأة الروسية. أجل، لا يجوز للروسي أن يتنكّر للنساء الروسيات. بِمَ يمكن أن تكون المرأة الروسية أقل شأناً من أية امرأة أخرى؟ لن أعمد الآن إلى استعراض المثل العليا التي صورها شعراؤنا بدءاً من تاتيانا**، ولا إلى استعراض أسماء بطلات تورغينف، وليف تولستوي، مع أن هذا يعد من البراهين الواضحة. فبما أن ثمة نماذج بكل هذا الجمال قد تجسدت في الفن، فلا بد من أن تكون قد أخذت من مكان ما، إذ لا يمكن أن تكون قد اخترعت من العدم، وعلى هذا فإن مثيلات هؤلاء النساء موجودات في الواقع. ولن أتحدث هنا عن الديسمبريّات[14]، على سبيل المثال، ولا عن آلاف الأمثلة الأخرى التي أصبحت معروفة. وهل من المعقول أن نجهل، نحن الذين نعرف الواقع الروسي، حقيقة وجود آلاف النساء، اللواتي يجترحن آلاف المآثر المحجوبة عن الأنظار والتي لا يراها أحد، ويحدث هذا أحياناً في ظروف مرهقة جداً، وفي أماكن وأكواخ مظلمة رهيبة، غارقة في بحر من الرذائل والفظائع! وباختصار، لن أعمد إلى الدفاع عن حق المرأة الروسية في أن تتبوأ مكانة عالية وسط نساء أوربا كلها، بل أكتفي بالتساؤل: أليس من الحق، كما يبدو لي، أن يكون هناك قانون طبيعي لدى جميع الشعوب والأقوام يُلْزِم كل رجل بأن يكون جل بحثه عن امرأة يحبها مُركّزاً في المقام الأول

(*) المقصود: كراسة ن.ن. ستراخوف: «المسألة النسوية»، تحليل مؤلّف جون ستيوارت ميل «عن إخضاع المرأة». (ن).

(**) بطلة رواية بوشكين الشعرية «يفغيني أونيغن». (م).

على نساء شعبه وقومه؟ أما إذا بدأ الرجل يضع نساء الأمم الأخرى في مكانة أسمى من المكانة التي يضع فيها نساء أمته، ويميل في أغلب الأحيان إلى الافتتان بهن، عندئذ تحل مرحلة تفسخ هذا الشعب، وتزعزع أركان هذه الأمة. وأقسم إن شيئاً من هذا القبيل قد بدأ عندنا في السنوات المئة الأخيرة، وعلى نحو يتناسب طرداً مع انقطاعنا عن الشعب. لقد افتتنا بالبولونيات والفرنسيات، وحتى بالألمانيات؛ وها نحن الآن نجد بيننا من يميل إلى وضع الإنكليزيات في مرتبة أعلى من مرتبة نسائنا. وفي رأيي أن هذه الظاهرة لا تبعث على الطمأنينة البتة. فنحن هنا أمام نقطتين: إما الانقطاع الروحي عن الأمة، أو ببساطة الميل إلى نظام «الحريم». ينبغي العودة إلى نساء وطننا، وينبغي علينا دراسة المرأة عندنا إذا كنّا قد كففنا عن فهم حقيقتها...

- إنني مستعد لأن أوافق بسرور على كل ما قلته، مع إنني لا أعرف هل يوجد مثل هذا القانون في الطبيعة أو لدى أمة ما. ولكن اسمح لي أن أسأل لِمَ ظننت أنني أشرتُ من باب السخرية إلى أن كاتب الكراسة، بصفته شخصاً عازباً، لا بد أنه لم تتح له الفرصة لمعرفة جميع الخصال السامية التي تتمتع بها المرأة الروسية؟ ولكي أثبت لك انتفاء أية ذرة من السخرية في ملاحظتي يكفي أن أقول إنني أنا نفسي قد نعمت بإحسان المرأة الروسية. أجل، فأنا، أياً كانت حقيقتي، ومهما كانت الكيفية التي أبدو لك بها، كنت خلال برهة من حياتي خطيب امرأة روسية. وكانت هذه المرأة، دعني أقل، أعلى مني مقاماً في المجتمع، وكانت محاطة بالراغبين، وكان بإمكانها أن تختار أياً منهم، وقد...

- فضّلتك أنت؟ اعذرني، لم أكن أعرف...

- لا، لم تفضلني، بل ادّعت أن فيّ عيباً، وفي هذا بالذات كان يكمن جوهر القضية! سأقول لك بصراحة إن الأمور ظلت طبيعية طوال مدة الخطبة، وكان يسعدني آنذاك أنني أستطيع أن أرى هذه المرأة يومياً تقريباً. وأجرؤ حتى على القول، على نحو عرضي تماماً، إنني ربما لم أكن أُحدث انطباعاً سيئاً تماماً لديها. وأضيف أيضاً أن هذه المرأة كانت تتمتع بقدر كبير من الحرية في منزلها. وذات مرة فاجأتني في لحظة شديدة الغرابة، وليس لها شبيه بالمرة (أستطيع أن أقول هذا) بإعطائي كلمة منها. وليس بوسعك أن تصدق ما جرى لي عندئذ. وكل هذا بالطبع، كان سراً بيني وبينها؛ وعندما عدت، وأنا مذهول إلى شقتي، أخذتْ فكرةُ أنني سأصبح مالكاً ولو نصف هذا المخلوق الرائع تضغط عليّ كحمل ثقيل. ألقيت نظرة على أثاث الشقة، وعلى كل أشيائي الكبيرة والصغيرة، الرديئة بحد ذاتها، ولكن الضرورية لي كشخص عازب، وشعرت بخجل شديد من نفسي، ومن وضعي في المجتمع، ومن قامتي، ومن شعري، ومن أشيائي، ومن ضيق عقلي وقلبي، بحيث أنني كنت ألف مرة مستعداً للإقدام

حتى على لعن قسمتي وأنا أفكر في أن هذا الشخص الشديد التفاهة، الذي هو أنا، سيمتلك مثل هذه النفائس التي لا يليق به امتلاكها. وأنا أذكر لك كل هذا لكي أشرح جانباً من حقيقة الزواج ليس معروفاً بالقدر الكافي، أو من الأحسن القول، شعوراً يندر جداً، للأسف، من يحس به من العرسان، وهو أنه لكي تتزوج يجب أن يكون لديك ذُخر ضخم جداً من الصلافة الشديدة الغباء، أو لنقل من الكبرياء البالغة الغباء والابتذال، وأن يقترن ذلك بأسلوب في التصرف مضحك جداً لا يمكن البتة للشخص اللبق أن يتبعه. قل لي كيف يمكن أن أقارن نفسي، ولو للحظة واحدة، بمثل هذه المخلوقة، بسيدة المجتمع هذه، بهذا الكمال الرهيف، بدءاً من التربية، وخصلات الشعر، وثوب الحرير الشفاف، والرقص، والبراءة، وبساطة النفس، وحتى تلك الفتنة الراقية التي تتسم بها آراؤها ومشاعرها؟ وكيف يمكن لي أن أتصور أن كل هذا سوف يدخل شقتي، وأنا يمكن أن أكون حتى في جلبابي المنزلي. أتضحك؟ في حين أن الفكرة مرعبة! وثمة معضلة أخرى: سيقولون لك: إذا كنت تخاف من هذا الكمال، وتشعر أنك لا تصلح له، خذ إذاً امرأة قذرة (ليس بالمعنى الأخلاقي على كل حال). ولكن لا، ولا بحال من الأحوال: لا يمكن أن توافق على هذا، بل ستغضب، ولن يكون لديك أي استعداد للتساهل. وباختصار، لن أصف لك التفاصيل، وهي جميعها من هذا النوع. مثلاً، عندما استلقيت يائساً وخائر القوى على مقعدي (وينبغي أن أقول لك إنه أسوأ مقعد في العالم كله؛ لقد اشتريته من سوق الأشياء المستعملة، وهو مكسّر النوابض)، راودتني فكرة شديدة التفاهة: «ها أنا سأتزوج، وأخيراً سيكون لدي دائماً خِرَق، ولنقل من القصاصات الزائدة عند تفصيل الملابس، من أجل مسح ريش الكتابة». ايه، أية فكرة يمكن أن تكون أكثر عادية من مثل هذه الفكرة، وما هو وجه الفظاعة فيها؟ لقد لمع هذا الخاطر في ذهني عفوياً، بلا شك، على نحو خاطف. وأنت، طبعاً، يجب أن تفهم هذا، ويعلم الرب أية أفكار يمكن أن تخطر أحياناً في نفس المرء، حتى في تلك الدقيقة التي تساق فيها هذه النفس إلى المقصلة. ولا بد أنني فكرت في هذا لأنني لا أحب ترك الأرياش الفولاذية غير ممسوحة كما يفعل الجميع في العالم، إذ إن هذا يمكن أن يصل بي إلى الإصابة بانهيار عصبي. ولكنني في اللحظة نفسها وبّخت نفسي أشد التوبيخ على ورود هذا الخاطر في ذهني: فَبِمُناسبة حدثٍ وموضوع بهذه الجسامة أحلم بامتلاك خِرَق من أجل مسح أرياش الكتابة، وأجد الزمان والمكان لمثل هذه الفكرة العادية التافهة، «ما هي قيمتك بعد هذا؟» ولأقل بكلمة واحدة إنني شعرت آنذاك بأنني سأقضي حياتي كلها وأنا أوبخ نفسي على كل فكرة تخطر لي، وعلى كل تصرف أقدم عليه. ولكن مع ذلك، عندما أخبرتني فجأة بعد بضعة أيام، والضحكة ترتسم على وجهها أنها كانت تمزح، وأنها ستتزوج أحد كبار الموظفين شعرت أنني... أنني... على كلٍّ بدلاً من أن أبدي

الشعور بالفرحة، ظهرت عليّ أمارات الهلع والانهيار إلى درجة جعلتها هي نفسها تشعر بالهلع، وتركض لإحضار كأس من الماء. سكن روعي بعد ذلك، وقد عاد عليّ هلعي ذاك بالفائدة: فقد أدركتُ مدى حبي لها، وأي قدر لها لدي، وأي منزلة رفيعة لها في نفسي... وقد قالت لي فيما بعد وهي متزوجة: «كنت أظن أنك شديد الكبرياء ومعتز كثيراً بعلمك، وأنك ستحتقرني إلى درجة مخيفة». ومنذ ذاك الوقت أصبحت صديقة لي؛ وأكرر قولي: إذا كان هناك من أحسنت إليه امرأة يوماً ما، أو من الأفضل القول: امرأة روسية، فإن هذا الشخص هو، بالطبع، أنا، وأنا لن أنسى هذا ما حييت.

– هذا يعني أنك أصبحت صديقاً لهذه المرأة؟

– أجل وبأسمى معاني الصداقة، ولكننا نادراً ما نتقابل، ربما مرة في السنة، أو حتى أقل. الروسي لا يقابل صديقه عادة إلّا مرة كل خمس سنوات، وكثيرون لا يحتملون أكثر من مرة. في البداية لم أكن أزورهما لأن مكانة زوجها في المجتمع كانت أعلى من مكانتي، أما الآن، الآن هي تعسة إلى حد يجعلني أتألم وأنا أنظر إليها، أولاً: زوجها عجوز في الثانية والستين من عمره، وبعد عام واحد من الزواج قدّم للمحاكمة. وكان عليه أن يُقدّم ثروته كلها تقريباً من أجل تعويض النقص الحاصل في المال العام، وفي أثناء المحاكمة أصيبت قدماه بالشلل، وهو الآن ينقل محمولاً على كرسي في كريتسناخ*، وقد شاهدتهما هناك معاً منذ نحو عشرة أيام. وهي تسير دائماً إلى يمين الكرسي المحمول، وتؤدي بذلك الواجب السامي الملقى على عاتق المرأة العصرية، علماً بأنها تستمع طوال الوقت وباستمرار إلى تأنيبه اللاذع الموجه لها. لقد تألمتُ كثيراً وأنا أنظر إليها، أو على الأصح، وأنا أنظر إليهما معاً، فأنا لا أعرف حتى الآن على من أشفق أكثر؛ ولذا فقد تركتهما هناك وغادرت على الفور إلى هنا. إنني سعيد جداً لأنني لم أبح لك باسمها؛ وبالإضافة إلى كل ذلك كان من دواعي تعاستي أنني، حتى في تلك المدة القصيرة، قد أغضبتها نهائياً، على ما يبدو، وذلك عندما بينت لها بصراحة نظرتي إلى السعادة، وإلى واجب المرأة الروسية.

– أوه، طبعاً، لم تستطع أن تجد فرصة أنسب من تلك.

– أنت تنتقدني؟ ولكن مَنْ غيري كان يمكن أن يصارحها بذلك؟ أما أنا، فبالعكس، كان يبدو لي دائماً أن من أعظم دواعي السعادة أن يعرف المرء، على الأقل، لم هو غير سعيد. واسمح لي، بما أننا نتحدث حول هذا الموضوع، أن أفضي لك برأيي في السعادة وفي واجب المرأة الروسية، فأنا لم أقل في كريتسناخ كل ما لديّ.

(*) مدينة في مقاطعة الرين في بروسيا ومنتجع للاستشفاء في حمامات المياه المعدنية. (ن).

ولكنني سأتوقف هنا بعض الوقت، كي أصف فقط أحد الأشخاص، وأعرّف القارئ به سلفاً. وأريد أن أقدّم هذا الشخص بصفتي راوياً فحسب، فأنا لا أتفق معه بالرأي في كل ما يقوله. وقد سبق لي أن أوضحت أن هذا الشخص «مفارقاتي»، كما أن نظرته إلى «سعادة وواجبات المرأة العصرية» لا تتميز بالأصالة، مع أنه يعرضها بأسلوب يكاد يتسم بنوع من الغضب، حتى ليخيّل إليك أن هذا الموضوع هو الأكثر إقلاقاً له. فهو، بكل بساطة، يرى أن المرأة، كي تكون سعيدة وتقوم بكل واجباتها، لا بد لها من أن تتزوج وتنجب أكبر عدد ممكن من الأولاد: «لا اثنين، ولا ثلاثة، بل ستة أو عشرة، حتى تصل إلى حالة الإعياء والخَوَر». «عندئذ فقط ستلامس الحياة الحقيقية وستعرفها بكل تجلياتها الممكنة».

- عفواً، من دون أن تخرج من غرفة النوم!

- بالعكس، بالعكس! إنني أَحْدُس جميع الاعتراضات وأعرفها سلفاً. لقد قدّرت كل الأمور: «الجامعة، التعليم العالي إلخ... إلخ...» ولكن من دون أن نُذكّر بأن رجلاً واحداً فقط من كل عشرة آلاف رجل يصبح عالماً، أريد أن أسألك بجدّ: كيف يمكن أن تكون الجامعة عقبة في وجه الزواج وإنجاب الأطفال؟ بالعكس، إن الجامعة يجب أن تفتح أبوابها لجميع النساء، ولعلماء المستقبل، وللمتعلمين العاديين، ولكن فيما بعد، أي بعد الجامعة: «الزواج وإنجاب الأطفال». لم يعرف الفكر الإنساني حتى الآن ما هو أكثر عقلانية من إنجاب الأطفال «ولذا فإننا كلما زدنا عقولنا غنىً من أجل ذلك كانت النتائج أفضل». أظن أن تشاتسكي هو الذي أعلن:

من ذا الذي لم ينجب أطفالاً
بسبب نقص العقل لديه؟*

وقد أعلن هذا لأنه نفسه كان شاباً موسكوفياً مستواه الثقافي مُتَدَنٍّ إلى أقصى حد، وكان طوال حياته يدعو إلى التعلم على الطريقة الأوربية، مردداً آراء غيره، حتى أنه لم يكن قادراً على كتابة وصيته كما تبيّن فيما بعد، وقد ترك ممتلكاته لشخص غير معروف: «صديقتي سونيتشكا». وقد ظلت هذه العبارة اللاذعة عن «ذوي العقول الناقصة» متداولة طوال خمسين

(*) من الملهاة الشعرية «الويل من العقل» للأديب الروسي أ. غريبوييديف (انظر الهامش 88) وتشاتسكي: أحد أبطال المسرحية. (ن).

سنة، لأنه لم يظهر لدينا خلال هذه الأعوام الخمسين أناسٌ مثقفون. أما الآن فقد بدأ المثقفون يظهرون عندنا أيضاً ولله الحمد. وصدقني إذا قلت لك إن أول ما سيدركونه هو أن إنجاب الأطفال هو الفعل الأكثر أهمية وجديّة في العالم؛ وقد كان كذلك وما زال. من هم «ذوو العقول الناقصة؟ قل لي من فضلك» هاك أين هذا النقص: إن المرأة المعاصرة في أوربا تكف عن الإنجاب. أما فيما يخص نساءنا أفضل الصمت مؤقتاً.

- كيف تكف عن الإنجاب، ما هذا الذي تقوله؟

هنا عليّ أن أشير عرضاً إلى أن هذا الشخص يتسم بِسمةٍ غريبة غير متوقعة بالمرة: فهو يحب الأطفال* والصغار منهم بالذات «الذين ما زالوا في مرتبة الملائكة». إنه يحبهم إلى درجة أنه يركض وراءهم، حتى أنه اشتهر بذلك في إيمس. وكان أكثر ما يحبه هو التنزه في الممرات المشجرة التي يحملون أو يجلبون إليها الأطفال للنزهة. وكان يتعرف عليهم، ويخص بهذا الأطفال الذين في السنة الأولى من العمر. وقد توصل إلى أن يجعل الكثيرين من هؤلاء الأطفال يميزونه، وينتظرونه، ويضحكون له، ويمدون نحوه أيديهم الصغيرة. وإذا ما صادف مربية ألمانية فإنه كان يسألها حتماً عن سن الطفل، في أية سنة أو في أي شهر من العمر هو، ويمتدحه، ويمدح المربية أيضاً بطريقة غير مباشرة فيدغدغ بذلك غرورها. وباختصار: كان هذا الأمر هوىً يتملكه، وكان دائماً يبتهج أيما ابتهاج عندما يرى فجأة زرافات الأطفال في كل صباح وسط الجمهور عند مناهل المياه، أو في الممرات المشجرة وهم في طريقهم إلى مدارسهم، وقد ارتدوا ملا بسهم، وأصلحوا هندامهم، وأمسكوا سندويشاتهم بأيديهم، وحملوا محافظهم على ظهورهم. وينبغي الاعتراف بأن جموع الأطفال هؤلاء كانت جميلة فعلاً، ولا سيما الأطفال الذين هم في الرابعة أو الخامسة، أو السادسة من العمر أي الأصغر سناً. قال لي ذات صباح وقد طغت على مظهره أمارات الارتياح الشديد: Tel que vous me voyez**، أنا اشتريت اليوم مزمارين؛ ليس لهؤلاء، ليس للتلاميذ، فهؤلاء كبار، وأمس بالذات سررت بالتعرف على معلمهم في المدرسة: إنسان فاضل ومحترم إلى أقصى درجة يمكن تصورها. لا، ليس من أجلهم، بل من أجل طفلين سمينين أخوين، أحدهما في الثالثة والآخر في الثانية من العمر؛ وابن الثالثة يقود ابن الثانية، وكلاهما شديدا الذكاء. توقفا أمام دكان تبيع لعب أطفال وفغرا فميهما بذاك الانبهار الطفولي الغبي والبديع الذي لا يمكنك أن تتصور ما هو أبدع منه في العالم. البائعة، وهي امرأة ألمانية ماكرة، أدركت رأساً مغزى نظرتي

(*) يضفي دوستويفسكي على هذا الشخص سمة من سماته الذاتية فقد كان هو نفسه كما تقول زوجته آنا شديد الشغف بالأطفال. (ن).

(**) أتعرف (بالفرنسية). (ن).

إليهما ودسّت على الفور مزماراً في يد كل منهما: وكان علي أن أدفع لها ماركين. بهجة لا توصف، يمشيان ويزمران. حدث هذا منذ ساعة، وقد عدت إلى هناك قبل قليل فوجدت أنهما ما زالا يزمران. كنت قد قلت لك مرة، وأنا أشير إلى هذا المجتمع هنا: إن العالم ليس بوسعه حتى الآن أن يعطي ما هو أحسن منه. لقد كذبتُ بقولي هذا، وأنت صَدَّقتني، لا تنكر، لقد صدقتني. بالعكس، ها هنا الأحسن، ها هنا الكمال: هذه المجموعات من الأطفال الإيمسيين، الذين يمسكون بسندويشاتهم، ويحملون محافظهم على ظهورهم وهم ذاهبون إلى مدارسهم... أي منظر هو: الشمس وتاونوس*، والأطفال وضحكاتهم وسندويشاتهم، وهذا الجمهور الأنيق من ذوي الألقاب الرفيعة، بين لورد ومركيز، القادمين من جميع أنحاء العالم، يتفرجون على هؤلاء الأطفال باستمتاع؛ كل هذا معاً مشهد بديع. لا بد أنك لاحظت أن الجمهور يتفرج عليهم في كل مرة: وهذا دليل على وجود ذوق لديه، واندفاع مفاجئ نحو الجدية. ولكن، إيمس غبية، وليس بوسعها ألّا تكون غبية، ولذا فهي مستمرة في إنجاب الأطفال، في حين أن باريس قد توقفت.

- كيف توقفت؟

- توجد في باريس مؤسسة صناعية ضخمة تسمى Article de Paris**، وهي علاوة على إنتاجها الحرير والنبيذ الفرنسي والفواكه، ساعدت في دفع خمسة مليارات فرنك غرامات حربية. وباريس تُكنّ احتراماً عميقاً لهذه الصناعة وتهتم بها إلى حد يجعلها تنسى إنتاج الأطفال. وتقتدي فرنسا كلها بباريس. ويُبلغ الوزيرُ مجلسي البرلمان كل سنة بلهجة احتفالية: «La population rest stationnaire»*** وهكذا ليس ثمة أطفال يولدون، وإذا وُلدوا فإنهم لا يبقون؛ وبالمقابل، يضيف الوزير متبجحاً - «المسنّون عندنا يبقون، المسنّون في فرنسا يعمّرون طويلاً». وفي رأيي ليتهم يفطسون، أولئك. <...> المسنّون، الذين تحشو بهم فرنسا مجلسيها التشريعيين. وكأنّ ثمة ما يُفرِح، وهو طول عمرهم! فهل الرمل الذي ينثال منهم قليل؟****

- إنني مع ذلك، لا أفهمك. ما دخل: «Article de Paris» بهذا الأمر؟

- المسألة بسيطة. وعلى كل أنت نفسك روائي، ولعلك تعرف الكاتب الفرنسي الموهوب جداً والمشوش الذهن جداً، المثالي الذي ينتمي إلى المدرسة القديمة الكسندر

(*) سلسلة جبال في منطقة الرين فيها ينابيع مياه معدنية ومنتجعات (م).

(**) مصنوعات باريسية. (ن).

(***) عدد السكان يبقى ثابتاً. (ن).

(****) أو كما يقال بالعربية: «هل الريق الذي تمجه أفواههم قليل؟» كناية عن بلوغهم أرذل العمر. (م).

دوما - الابن؟ إن الكسندر دوما هذا قام بعدة حملات، إذا جاز التعبير، جيدة. إنه يطالب المرأة الفرنسية بالإنجاب. أضف إلى ذلك أنه باح للجميع بسر معروف، هو أن جميع النساء الفرنسيات اللواتي ينتمين إلى الطبقة الفرنسية الميسورة يلدن طفلين فقط. يتحايلن بطريقة ما على أزواجهن بحيث لا يلدن سوى طفلين، لا أكثر ولا أقل. يلدن طفلين ويُضرِبن. جميعهن يفعلن هكذا، ويمتنعن عن إنجاب عدد أكبر، وقد شاع السر بسرعة مدهشة. وهكذا فإن الذرية تستمر في الوجود مع الاثنين، ثم إن نصيب كل منهما من الممتلكات يكون أكبر مما لو كان العدد ستة، هذا أولاً. أما الأمر الثاني فهو أن المرأة تتمتع بحياتها مدة أطول: جمالها يبقى زمناً أطول، وصحتها كذلك، ويبقى لديها وقت أطول للرحلات والتبرج والرقص. أما فيما يخص حب الآباء للأبناء، أي الجانب الأخلاقي من المسألة، فإن حبَّك لاثنين، كما يزعم، أكبر من حبك لستة؛ ثم إن الستة «يُعَفْرتون» ويُضجرون، ويكسِرون، ويتعبونك! وإذا ما أردت أن تحسب كلفة أحذيتهم فقط ركبك الهم والغم إلخ... إلخ... ولكن القضية ليست في أن «دوما» ينتابه الغضب، بل في أنه قرر الإعلان رأساً عن وجود سر: اثنان، كما يزعم، لا أكثر ولا أقل، والاستمرار في العيش مع الأزواج بالمتعة الزوجية ذاتها، أي باختصار: كل شيء يكون قد أُنقذ. إن مالتوس[108] الذي كان أخشى ما يخشاه هو زيادة عدد السكان في العالم، لم يخطر له حتى في الخيال مثل هذه الوسائل. وعلى كل فإن هذا كله شديد الإغراء. من المعروف أن هناك عدداً هائلاً من أصحاب الملكية الخاصة في فرنسا، بعضهم من برجوازيي المدن، وبعضهم من برجوازيي الأراضي: وهذا عندهم بمنزلة «اللَّقِيَّة» النفيسة. إنه من اختراعهم. بيد أن هذه اللقية تتجاوز حدود فرنسا. وبعد ما يقارب ربع قرن ستجد أن إيمس الغبية نفسها قد أصبحت ذكية. ويقولون إن برلين قد أزدادت ذكاء بقدر هائل من هذه الناحية. ولكن مع أن عدد الأطفال يتناقص إلّا أن الوزير الفرنسي لم يكن ليلاحظ هذا الفرق لو أن الأمر اقتصر على البرجوازية وحدها، أي على الطبقة الميسورة فقط، ولو لم يكن في هذه القضية طرف آخر، وأعني به البروليتاريا؛ فهناك ثمانية أو عشرة ملايين، أو على ما أظن جميع ملايين البروليتاريا الإثني عشر لم يُعَمَّدوا، ولم يُكلّلوا في الكنيسة، بل هم يعيشون في إطار «روابط عقلانية» بديلة من روابط الزواج من أجل «تفادي الاستبداد». وهؤلاء يلقون بأطفالهم في الشوارع. هكذا يولد «الغافروشات»* ويموتون، لا يصمدون للظروف؛ وإذا صمدوا امتلأت بهم دور التربية وسجون الأحداث. تجد عند Zola الذي يسمونه عندنا

(*) غافروشات: جمع اصطلاحي لاسم «غافروش»، وهو إحدى الشخصيات في رواية فكتور هوغو «البؤساء» (1862): صبي باريسي متشرد، مقبل على الحياة، سليط اللسان، مكار وفي الوقت نفسه شجاع ومستعد لمساعدة الآخرين. (ن).

بالواقعي، وصفاً دقيقاً جداً لزواج عمّالي فرنسي معاصر، أي ما يسمى المساكنة الزوجية، في روايته «Le ventre de Paris»*.

ولاحِظْ: إن الغافروشات لم يعودوا فرنسيين، إلّا أن الأمر الأهم هو أن هؤلاء الذين يأتون من الأعلى، الذين يولدون مُلاّكاً، واثنين اثنين، وفي السر، هم أيضاً ليسوا فرنسيين. وأنا أجرؤ، على الأقل، أن أزعم هذا، وهكذا فإن الطرفين والنقيضين يتلاقيان، وأولى النتائج التي تنبثق عن هذا هي أن فرنسا تبدأ بالكفّ عن أن تكون فرنسا (وهل من الممكن القول إن هذه الملايين العشرة يعدون فرنسا وطنهم!) أعرف أن هناك من سيقول: إن هذا أفضل، سينقرض الفرنسيون ويبقى البشر، ولكن هل هم بشر؟ فلنفترض أنهم بشر، ولكنهم سيكونون متوحشي المستقبل، الذين سيبتلعون أوربا. وستتكون منهم بالتدريج، ولكن بثبات واطراد، الحثالة المقبلة المجردة من المشاعر. وليس ثمة أدنى شك، حسب رأيي، في أن الجيل ينحط، ويعجز جسدياً، ويفسد، والعيوب الجسدية ستجر وراءها عيوباً أخلاقية. هذه هي ثمار مملكة البرجوازية. والسبب حسب رأيي، يكمن برمَّتِه في الأرض، أي التربة، وفي تقسيم التربة المعاصر إلى ملكيات خاصة. وسأوضح لك هذا الأمر.

الأرض والأطفال

تابع «المفارقاتي» حديثه قائلاً:

– الأرض هي كل شيء؛ إنني لا أفرق بين الأرض والأطفال، وهذه النظرة لدي تلقائية. على كل لا أريد أن أتوسع أمامك في هذا الموضوع، لأنك ستدرك ذلك بنفسك إذا ما فكرت فيه تفكيراً عميقاً. القضية هي في أن كل شيء قد نتج عن الخطأ المقترف بحق الأرض؛ بل حتى كل شيء آخر، وكل المصائب الأخرى التي أصابت البشرية ربما تكون كلها قد نتجت عن هذا الخطأ. فملايين الفقراء ليس لديهم أرض، وخصوصاً في فرنسا، حيث الأرض غير كافية أصلاً، وليس لدى هؤلاء أرض يلدون فيها الأطفال، وهم مرغمون على أن ينجبوا

(*) «بطن باريس» (بالفرنسية). (ن). للروائي الفرنسي إميل زولا (1840–1902) زعيم المدرسة الطبيعية الواقعية. (م).

أطفالهم في الأقبية، وهؤلاء ليسوا أطفالاً، بل غافروشات، نصفهم لا يعرفون من هم آباؤهم، ونصفهم الآخر ربما لا يعرفون أيضاً من هنّ أمهاتهم. هذا من الطرف الأول، أما من الطرف الآخر، أي الأعلى، فإنني أعتقد أيضاً أن ثمة خطأً «أرضياً»، ولكنه من نوع آخر، مناقض للأول، ولعله يكون قد بدأ من عهد كلوفيس الأول*، الذي غزا غاليا وأخضعها لحكمه: فقد كان نصيب الفرد من الأرض كبيراً جداً، وكانت الأراضي المستولى عليها عظيمة الاتساع إلى حد لا يُقاس، كما أن تشبث الغزاة بها كان مفرطاً في الشدة، ولم يكونوا يتنازلون عن شيء منها، وهكذا فقد كان الوضع شاذاً هنا وهناك على حد سواء. وينبغي أن يحدث هنا شيء ما، أن يجري تغيير ما يؤدي بالضرورة إلى أن توجد أرض لدى الجميع، وينبغي أن يولد الأطفال على أرض، وليس في الشوارع. لا أعرف، لا أعرف كيف يمكن إصلاح الوضع، ولكن ما أعرفه هو أنه ليس هناك حتى الآن مكان لولادة الأطفال؛ وفي رأيي لا بأس من العمل في مصنع: فالمصنع أيضاً كيان مشروع، وهو يولد دائماً قرب أرض مزروعة: ومن هنا مشروعيته. ولكن كل عامل في مصنع يجب أن يعرف أن له في مكان ما هناك «بستاناً» تغمره أشعة الشمس الذهبية، وتظلله الكروم؛ «بستان» خاص، أو على الأصح مشاعي، وفي هذا البستان تعيش زوجته، وهي امرأة فاضلة، ليست من الشارع ـ تحبه وتنتظره، ومعها أطفاله الذين يلعبون بالأفراس - الدمى، وكلهم يعرفون أباهم.

Que diable **، إن أي صبي سوي ومعافى يولد ومعه فرسه الدمية، وهذا الأمر يجب أن يعرفه كل أب فاضل ومحترم إذا أراد أن يكون سعيداً. وهذا هو المضمار التي ينبغي أن ينفق فيه ما يجنيه من نقود، لا أن ينفقها في خمارة على المسكرات برفقة أنثى يلتقطها من الشارع. وإذا كان هذا «البستان» لا يمكن، في أقصى الحالات (في فرنسا مثلاً حيث الأراضي قليلة)، أن يكفيه مؤونة عيشه هو وأسرته، ولا بد له من العمل في مصنع، يجب أن يعرف، على الأقل، أن أطفاله يعيشون ويكبرون على قطعة أرض، مع الأشجار، وطيور السّماني التي يصطادونها، وأنهم يتعلمون في المدرسة، وأن هذه المدرسة في الحقل، وأنه هو نفسه، بعد أن يكون قد عمل بما فيه الكفاية في حياته، سيذهب إلى هناك ليستريح، ومن ثم ليموت. ومن يعلم، ربما سيتمكن من إعاشة أسرته هناك، وربما لن يكون ثمة أي خوف من العمل في المصانع، وربما سيُبنى المصنع نفسه في وسط «البستان». وباختصار، أنا لا أعرف كيف سيجري كل هذا، ولكنه سيتحقق، و«البستان» سيوجد. أؤكد لك أن هذا ما سيكون ولو بعد

(*) كلوفيس الأول: (نحو 465/ 466-511) أول ملوك فرنسا الفرنج (481) جرماني الأصل، غزا غاليا وسيطر عليها بأسرها تقريباً، مما مهد لقيام الدولة الفرنكويّة. (ن).

(**) يا للشيطان. (ن).

مئة عام، وتذكّرْ أنني حدثتك عن هذا في إيمس، في بستان اصطناعي ووسط بشر اصطناعيين. إن البشرية ستتجدد في «البستان»، و«البستان» سيصلحها، هذه هي المعادلة. أنت ترى كيف جرى هذا: في البدء كانت القصور المحصنة وبالقرب منها الأكواخ الأرضية؛ في القصور كان يعيش البارونات، وفي الأكواخ يعيش الأتباع. ثم بعد ذلك أخذت البرجوازية تنهض ببطء، وعلى نحو لا تلحظه العين في مدن مسورة؛ ثم انتهى عهد القصور المحصنة، وحل عهد عواصم الملوك، وهي مدن كبيرة، فيها قصور ملكية، وأجنحة تابعة للبلاط، واستمر الوضع هكذا إلى عصرنا هذا. وقد حدثت في عصرنا ثورة مرعبة، وانتصرت البرجوازية. وظهرت معها مدن هائلة لم يحلم بمثلها أحد من قبل. وهذه المدن التي ظهرت في القرن التاسع عشر لم تشهد البشرية نظيراً لها قط في السابق. مدن ذات قصور كريستالية ومعارض عالمية* وفنادق عالمية، وبنوك وميزانيات، وأنهار موبوءة، وأرصفة عائمة لرسوّ السفن، وجمعيات من جميع الأصناف والأنواع؛ وحول هذا كله مصانع ومعامل. والآن ينتظرون المرحلة الثالثة: انتهاء البرجوازية وقدوم «البشرية المتجددة»، وهذه ستوزع الأرض على مشاعات جماعية، وتبدأ العيش في «البستان». «وفي البستان تتجدد والبستان يصلحها». وهكذا: القصور المحصنة، والمدن، و«البستان». وإذا أردت معرفة فكرتي بأكملها أقول: إن الأطفال، حسب رأيي، وأقصد الأطفال الحقيقيين، أي أطفال البشر، يجب أن يولدوا في أرض، وليس في الشارع. ويمكن العيش فيما بعد في الشارع، ولكن الأمة يجب أن تولد وتترعرع، بأكثريتها العظمى، في أرض، على تربة، حيث تنمو الحبوب والأشجار؛ في حين أن البروليتاريا الأوربية الآن تولد كلها في الشارع. إن الأطفال في «البستان» سينبثقون من الأرض مباشرة، مثل آدم، ولن يضطروا إلى العمل في المصانع وهم في سن التاسعة، وما زالوا يشتهون اللعب؛ وهناك يكسرون عظام ظهورهم من العمل على الآلات، ويَفُلّون من حِدة ذكائهم أمام الآلة اللعينة التي يصلّي لها البرجوازي. ويُنهكون مُخيِّلاتهم ويتلفونها أمام صفوف مصابيح الغاز التي لا تُعدّ ولا تحصى، ويفسدون أخلاقهم بالفسق المصنعي الذي لم تعرف سدوم** نظيراً له. وهذا يشمل الصبيان والبنات الذين لم يتجاوزوا العاشرة، وأين؟ لو كان هذا هنا لهان الأمر، ولكنه عندنا في روسيا، حيث الأرض واسعة، وعدد المصانع ما زال يدعو إلى الضحك، والمدن عندنا: واحدة لكل ثلاثة موظفين. وعلى كل فإنني إذا

(*) المقصود بالقصر الكريستالي: بناء من الزجاج والحديد في لندن، أقيم فيه معرضان عالميان عامي 1851 و1862. وهو، لدى دوستويفسكي، يرمز إلى الازدهار البرجوازي المُعجب بنفسه والمجرّد من الالتزام بتوجهات أخلاقية. (ن).

(**) ورد في التوراة أن سكان مدينتي سدوم وعمورة في فلسطين القديمة أمعنوا في الفسق والفواحش فجازاهم الرب بالزلازل والحرائق. (ن).

كنت أرى بذرة أو فكرةً لبناء المستقبل، فأنا أراهما عندنا، في روسيا. لماذا؟ لأن لدى شعبنا مبدأً ما زال حياً في النفوس حتى الآن، وهو أن الأرض هي «كل شيء»، وهو يستخرج منها كل شيء، ومنها يأخذ كل شيء، وهذا ما زال لدى الأغلبية العظمى من الشعب. والمهم هنا هو أن هذا بالذات هو القانون البشري الطبيعي؛ ففي الأرض، في التربة، شيء مقدس تقليدياً. وإذا أردت أن تحول الإنسانية إلى الأحسن، وأن تجعل من أشباه الوحوش بشراً أَعطهم أرضاً، تبلغ الهدف. إن الأرض والمشاعة، عندنا على الأقل، في أسوأ حال، نعم، موافق، ولكن مع ذلك عندنا بذرة ضخمة لفكرة المستقبل، وفي هذا جوهر الأمر. وأنا أرى أن النظامَ في كل بلد: السياسيَّ والمدنيَّ وأياً كان، مرتبط دائماً بالتربة، وبطابع ملكية الأرض في هذا البلد. فالطابع الذي تتخذه ملكية الأرض، هو الطابع الذي يتخذه كل شيء آخر. وإذا كان لدينا الآن في روسيا مجال تتجلى فيه أعلى درجات الفوضى، فهذا المجال ينحصر في ملكية الأرض، وفي العلاقات بين الملّاكين والعاملين، وفيما بين الملّاكين أنفسهم، وكذلك في طابع استخدام الأرض بحد ذاته. وما لم تنتظم هذه الأمور كلها، لا تتوقع انتظاماً ثابتاً في أي شيء آخر. إنني طبعاً لا أتهم أحداً أو شيئاً ما بهذا الصدد: فالأمر هنا في التاريخ العالمي، ونحن ندرك هذا. ولكن، بِحَسَب رأيي، نحن افتدينا أنفسنا من نظام القنانة بثمن بخس حتى الآن، بفضل وفاق الأرض. وأنا أحرص على وجود هذا الوفاق في سائر الأمور الأخرى. فهذا الوفاق هو أيضاً أحد المبادئ الشعبية التي ما زال بوتوغين[54] وأمثاله ينكرون وجودها حتى الآن. أما كل هذه الخطوط الحديدية التي لدينا، وكل هذه البنوك الجديدة والجمعيات والائتمانات، فما هي إلا هباء حتى الآن، ومن كل هذه الخطوط الحديدية أنا لا أعترف سوى بالخطوط الاستراتيجية. إن كل هذه الأمور كان يجب أن تظهر بعد تنظيم شؤون الأرض، وعندئذ كان ظهورها سيُعَدّ طبيعياً، أما الآن فإنها مجرد لعبة في البورصة؛ اليهودي انتعش وتحرك. أنت تضحك. إنك لست موافقاً، فليكن؛ لقد قرأت مؤخراً مذكرات أحد مُلّاك الأراضي الروس(109) المكتوبة في أواسط القرن، وكان هذا الشخص يرغب منذ العشرينيات في تحرير فلاحيه الأقنان. وكان هذا النبأ آنذاك من الأمور النادرة. وقد ذهب صاحبنا إلى القرية، وأنشأ هناك مدرسة، وبدأ يعلم أبناء الفلّاحين الإنشاد الكنسي الجماعي. وذات مرة زاره أحد جيرانه من ملّاكي الأراضي، وقال له بعد أن سمع الجوقة: «إنها فكرة جيدة؛ فأنت الآن تعلمهم، ولا بد من أن تجد فيما بعد من يشتري منك الجوقة بأكملها. فثمة من يحب هذا، وسيدفعون لك مبلغاً جيداً ثمناً لها». وهذا يعني أنه عندما كان يمكن بيع جوقات الصِّبية الصغار و«نقلهم»، أي فصلهم عن آبائهم وأمهاتهم، فإن منح الفلّاحين الأقنان حريتهم كان بدعة غريبة صعبة التحقيق في الأرض الروسية. وقد حدّث صاحبنا فلاحيه عن هذه البدعة

فاستمعوا له، وتعجبوا، وتخوّفوا، وتشاوروا طويلاً فيما بينهم، ثم أتوا إليه بعد ذلك وسألوه: «طيب، والأرض؟» أجاب: «الأرض لي، أنتم تأخذون الدّور والعِزَب، أما الأرض فإنكم تزرعونها لي في كل عام، والمحصول نقسمه مناصفةً» حكّ هؤلاء رؤوسهم وقالوا: «لا، الأحسن أن يبقى القديم على قِدَمه: نحن لك، والأرض لنا». أدهش هذا الرد الملّاك طبعاً: شعب متوحش؛ حتى الحرية لا يريدونها من شدة انحطاطهم الأخلاقي، الحرية: هذه النعمة الأولى للبشر... إلخ... إلخ... ولكن هذه المقولة، أو بالأحرى هذه المعادلة: «نحن لك والأرض لنا» أصبحت فيما بعد معروفة لدى الجميع، ولم تعد تدهش أحداً. إلّا أن الأهم من كل ذلك أن نعرف: من أين ظهر هذا الفهم، «غير الطبيعي والشاذ تماماً»، للتاريخ العالمي، إذا ما قارنا الوضع بأوربا؟ ولتلاحظ أنه في هذا الوقت بالذات حمي وطِيس الحرب وبلغ ذروته بين أذكيائنا حول المسألة الآتية: «هل لدينا فعلاً أية مبادئ شعبية، جديرة بأن تلفت إليها انتباه المثقفين، أم لا؟» هنا اسمحوا لي أن أقول إن كل هذا يعني أن الإنسان الروسي لم يكن في وقت من الأوقات يتصور نفسه من دون أرض. ولكن أعجب ما في الأمر هنا هو أن الشعب ظل حتى بعد إلغاء نظام القنانة يؤمن بجوهر هذه المعادلة، وهو ما زال بأغلبيته العظمى غير قادر على أن يتصور نفسه من دون أرض. وبما أنه لم يقبل بالحرية من غير أرض فإن هذا يعني أن الأرض عنده تأتي قبل أي شيء آخر، وفي أساس كل شيء، الأرض هي كل شيء، ومن هذه الأرض يأتي، عندَه، كلُّ شيء آخر، أي الحرية، والحياة، والشرف، والأسرة، والأطفال، والنظام، والكنيسة، وباختصار: كل ما هو غالٍ وقيّم. ومن أجل هذه المعادلة بالذات حافظ على المشاعة الجماعية. وما هي هذه المشاعة في الواقع؟ إنها في بعض الأحيان أشد وطأة عليه من القنانة! لقد تحدث الجميع عن ملكية الأرض المشاعية، والجميع يعرفون ما تنطوي عليه هذه الملكية من عقبات تعرقل التطور الاقتصادي على الأقل. ولكن بالمقابل ألا تحتوي، في الوقت نفسه، على بذرة شيء ما جديد أفضل، شيء مستقبلي، مثالي، هو الذي ينتظره الجميع، ولا أحد يعرف كيف سيحدث، ولكنه موجود لدينا فقط في وضعه الجنيني، وعندنا وحدنا يمكن أن يتحقق لأنه لن يظهر عن طريق الحرب أو التمرد، بل، مرة أخرى، عن طريق الوفاق العظيم والشامل، وذلك لأن أضحيات كبرى قدمت في سبيل هذا الوفاق حتى الآن. وهكذا سيولد الأطفال في «البستان» وسيستقيمون، ولن تعود بنات العاشرة يشربن الفودكا الرديئة مع عمال المصانع في الخمارات. من الصعب على الأطفال أن يتربّوا ويكبروا في عصرنا هذا، أيها السيد! إنني أردت أن أحدثك عن الأطفال فقط، ولهذا وجدتني أقلق راحتك. فالأطفال هم المستقبل، ونحن لا نحب سوى المستقبل، أما الحاضر فمن الذي يقلق من أجله. طبعاً لست أنا، ولا أنت كما أعتقد. ولذا فإننا نحب الأطفال أكثر من أي شيء آخر.

تشرين الأول (أكتوبر)

قضية بسيطة ولكن صعبة

في الخامس عشر من تشرين الأول (أكتوبر) نظرت المحكمة في قضية الخالة زوجة الأب التي كانت، كما تذكرون، قد ألقت في شهر أيار (مايو) الفائت بابنة زوجها الطفلة، التي لم تتجاوز السادسة من عمرها من نافذة شقتها في الطابق الرابع. وقد نجت الطفلة بأعجوبة، وبقيت سليمة معافاة. وهذه المرأة، واسمها يكاترينا كورنيلوفا، فلاحة في العشرين من عمرها. وكانت قد تزوجت شخصاً مترملاً لا يكف عن الشجار معها حسب إفادتها، ولا يسمح لها بزيارة أهلها، كما أنه لا يستقبل أهلها في بيته، ويغيظها بتفضيل زوجته المتوفاة عليها، وبأن أحواله المعيشية كانت أحسن في حياة تلك إلخ... إلخ... وباختصار «أوصلها إلى حالة جعلتها تكف عن حبها له»، ولكي تنتقم منه فكرت في أن تلقي بابنته من زوجته تلك التي كان يغيظها بها من النافذة، وقد نفذت ما فكرت فيه. وباختصار فإن القصة - باستثناء نجاة الطفلة بأعجوبة - تبدو في الظاهر حادثة بسيطة إلى حد ما وواضحة، ومن هذه الوجهة، أي من وجهة «البساطة»، نظرت المحكمة في القضية، وأصدرت، بأبسط صورة أيضاً، حكمها على يكاترينا كورنيلوفا، «التي كانت عند ارتكابها الجريمة قد تجاوزت السابعة عشرة ولم تبلغ العشرين، بالنفي إلى سجن الأشغال الشاقة لمدة سنتين وثمانية أشهر، ونفيها بعد ذلك إلى سيبيريا نفياً مؤبداً».

ولكن على الرغم من كل هذه البساطة وهذا الوضوح يظل هنا شيء لم يتضح تماماً. فقد صدر الحكم على المتهمة (وهي امرأة على جانب من الملاحة) عندما كانت في الأيام الأخيرة من حملها، وقد دُعيت قابلة إلى المحكمة تحسباً لأي طارئ. وكنتُ قد دونتُ في أيار (مايو) عندما حدثت الجريمة (أي عندما كانت المتهمة في الشهر الرابع من الحمل) في «يوميات» ذاك الشهر (على نحو سريع وعرضي، ناظراً إلى روتينية وبيروقراطية أساليب «المحاماة» عندنا) الكلمات الآتية:

«... وما يثير السخط هو تحديداً... في حين أن تصرف امرأة الأب المتوحشة هذه في

منتهى الغرابة فعلاً، وربما كان يتطلب في الحقيقة، تحليلاً دقيقاً وعميقاً، حتى ولو كان من شأن ذلك أن يؤدي إلى التخفيف عن المجرمة». هذا كل ما كتبته آنذاك. والآن تعالوا نتتبع الوقائع. أولاً: اعترفت المتهمة نفسها بأنها مذنبة، وجاءت بنفسها لتبلغ عن جريمتها بعد أن ارتكبَتها. وقالت آنذاك في قسم الشرطة إنها كانت تفكر منذ عشية ارتكابها الجريمة في القضاء على ابنة زوجها التي أصبحت تكرهها بسبب حقدها على زوجها؛ ولكن وجود الزوج في مساء ذاك اليوم منعها من ذلك. وعندما ذهب زوجها إلى العمل في اليوم التالي فتحتْ النافذة، ووضعت على أحد جانبي عتبتها أُصُصَ أزهار، وأمرت الطفلة بأن ترتقي العتبة وتنظر من النافذة إلى الأسفل. وقد صعدت الطفلة طبعاً، وربما برغبة، لتعرف ما هذا الذي ستراه في الأسفل، ولكن ما إن صعدت وجثت على ركبتيها، وتطلعت إلى الأسفل، مستندة بيديها إلى حافة النافذة، حتى بادرت زوجة أبيها إلى رفع قدميها من الخلف، فسقطت الطفلة إلى أسفل. وبعد أن ألقت المجرمة نظرة على الطفلة وهي تسقط (كما قالت هي نفسها فيما بعد) أغلقت النافذة وارتدت ملابسها، وأوصدت الغرفة واتجهت إلى قسم الشرطة لتبلغ عن الحادثة. هذه هي الوقائع؛ وهي تبدو أبسط ما يكون، ومع ذلك كم فيها من الأمور التي تفوق التخيل، أليس كذلك؟ إن المحلفين عندنا ما زالوا حتى الآن يتعرضون في أحيان كثيرة للّوم بسبب تبرئتهم المتهمين، عندما تكون هذه التبرئة غريبة فعلاً إلى حد يفوق التصور. وأحياناً كانت التبرئة تمس حتى المشاعر الأخلاقية لدى أناس محايدين تماماً. إننا ندرك أن من الممكن الإشفاق على المجرم، ولكن لا يجوز أن نسمي الشر خيراً في شأن مهم وعظيم كالمحاكمة؛ بينما قد شهدنا تبرئات تكاد تكون من هذا النوع، أي أن الشر فيها سُمِّيَ خيراً تقريباً، أو على الأقل لم يكن ينقص إلّا القليل جداً لحدوث هذا. وكان من الظاهر للعيان في هذه الحالات إما إبداء مشاعر عاطفية مبتذلة كاذبة، أو عدم فهم لمبدأ المحاكمة بحد ذاته، أي الجهل بأن الأمر الذي يأتي في المقام الأول في المحاكمة، والمبدأ الأول فيها، هو تحديد الشر قدر المستطاع، والدلالة عليه، وتسميته شراً قدر الإمكان أمام الجميع. أما تخفيف الحكم عن المجرم، والاهتمام بإصلاحه إلخ... إلخ... فهذه أمور أخرى، شديدة العمق والضخامة، ولكنها تختلف تمام الاختلاف عن الشأن القضائي، وتنتمي إلى صُعُدٍ أخرى في حياة المجتمع، وينبغي الاعتراف بأن، هذه الصعد لم تتحدد بعد، بل هي لم تتشكل عندنا بعد، بمعنى أننا لم نشهد بعد حتى ظهور إرهاصاتها الأولى عندنا. ولكننا ما زلنا حتى الآن نخلط بين هاتين الفكرتين المختلفتين، وينتج عن ذلك أحياناً ما لا يعرفه إلّا الرب. ينتج عنه أن الجريمة لا يُعْتَرَف بأنها جريمة على الإطلاق؛ بل بالعكس نجد كأن المقصود هو إبلاغ المجتمع، وعلى لسان المحكمة بالذات، أن الجريمة لا وجود

لها البتة، وأنها، إذا كنتم لا تعرفون، مجرد مرض يتأتى عن حالة المجتمع غير السويّة؛ وهذه الفكرة صحيحة إلى حد العبقرية في بعض التطبيقات الخاصة، وفي أنواع معينة من الظواهر، ولكنها خاطئة تماماً إذا طبقناها على الكلي والإجمالي العام، إذ يوجد هنا حد لا يمكن تجاوزه، وإلّا وجدنا أنفسنا نجرد الإنسان من هويته، وننتزع منه ذاتيته وحياته، ونساوي بينه وبين زُغابة تعصف بها أولُ هبة ريح، أي أننا باختصار نعزو إلى الإنسان طبيعة ما جديدة، اكتشفها للتو علم ما جديد؛ في حين أن هذا العلم لا وجود له حتى الآن، بل إنه لم يبدأ بعد بالظهور. وعلى هذا فإن جميع هذه الأحكام الرحيمة التي يصدرها المحلفون في المحاكم، وينفون فيها نفياً مباشراً وقوع الجريمة: «غير مذنب، لم يفعل، لم يقتل»، في حالات تكون فيها الجريمة أحياناً مُثبتَة بالبراهين، ومُؤكّدة باعتراف المجرم اعترافاً كاملاً، هي أحكام تدهش الشعب، وتثير سخرية المجتمع وحيرته (باستثناء حالات نادرة تكون فيها هذه الأحكام في محلها فعلاً، وليست خاطئة) وها أنا الآن، بعد أن قرأت لتوي عن تقرير مصير الفلاحة كورنيلوفا (النفي إلى سجن الأشغال الشاقة لمدة سنتين وثمانية أشهر)، أقول لنفسي فجأة: ليتهم الآن يبرئونها، ليتهم الآن يقولون: «لم تكن هناك جريمة، إنها لم تقتل، ولم تلق بأحد من النافذة». وعلى كل لن أسترسل هنا في عرض أفكار مجردة، أو في التعبير عن مشاعر عاطفية لأطوّر فكرتي، إذ يبدو لي ببساطة أن لدينا هنا حجة مشروعة وقانونية تماماً لتبرئة المتهمة، وهي: الحمل.

يعرف الجميع أن المرأة في أثناء مدة الحمل (ولا سيما الحمل الأول) تتعرض في أحيان كثيرة جداً لمؤثِّرات وانطباعات غريبة تنقاد لها نفسُها على نحو غريب وخيالي. وتتخذ هذه المؤثرات أحياناً – وإنْ في حالات نادرة – أشكالاً شاذة، وغير سوية، تكاد تكون سخيفة. أما من جهة أن هذا قلما يحدث (أي أن هذه الظواهر جدّ استثنائية) فإنه يكفي جداً في حالتنا هذه أن يعلم أولئك الذين يقررون مصير إنسان أن هذه الظواهر تحدث، أو حتى يمكن أن تحدث. لقد أعلن الدكتور نيكيتين، الذي عاين المجرمة (بعد ارتكاب الجريمة) أن كورنيلوفا، بحسب رأيه، قد ارتكبت جريمتها عن وعي، مع أننا يمكن أن نجيز وجود الانفعال والهيجان. ولكن أولاً: ما الذي يمكن أن تعنيه هنا عبارة «عن وعي»؟ إذ نادراً ما يفعل الناس شيئاً بلا وعي، اللهم إلّا في حالات السرنمة*، والهذيان، والبُطاح الارتعاشي**، ولكن أليس من المعروف، على الأقل في الطب، أن الإنسان يمكن أن يفعل شيئاً ما عن وعي تام، ولكن من غير أن يُقدِّر مسؤوليته عن هذا الفعل. تعالوا ننظر إلى المجانين، على سبيل المثال: إن أكثرية تصرفاهم

(*) السير في أثناء النوم. (م).
(**) حمّى قوية ناشئة عن الإسراف في شرب المسكرات تُصاحب بهذيان وهلوسة. (م).

اللامعقولة يقومون بها عن وعي تام، وهم يتذكرونها؛ بل الأكثر من ذلك أنهم يُقدِّمون لك تقريراً عنها، ويدافعون عنها أمامك، ويجادلونك حولها، وأحياناً تكون آراؤهم في أثناء ذلك منطقية إلى حد يجعلك تشعر أنك في مأزق. أنا، طبعاً لست طبيباً، ولكنني ما زلت أذكر على سبيل المثال، أنهم كانوا يتحدثون أمامي وأنا طفل عن إحدى السيدات في موسكو كانت كلما حبلت تملّكها، في أوقات معينة من الحمل، ميل غريب طاغٍ إلى السرقة. وكانت تسرق أشياء ونقوداً من معارفها الذين تزورهم، ومن ضيوفها الذين يزورونها، وتسرق حتى من الدكاكين والمحال التجارية، التي تذهب إليها لشراء شيء ما وكان أهل بيتها يعيدون هذه المسروقات إلى أصحابها؛ علماً بأن هذه السيدة لم تكن فقيرة البتة، وكانت متعلمة ومن بيئة جيدة. وعندما تنقضي بضعة الأيام التي تتملكها فيها هذه الرغبة الجامحة الغريبة، لم يكن يخطر ببالها البتة أن تسرق. وقد قرر الجميع آنئذ بمن فيهم الأطباء، أن هذه الظاهرة مجرد نزوة مؤقتة من نزوات الحمل؛ علماً بأنها كانت تسرق عن وعي، وتدرك تماماً ما تفعله. كانت تسرق وهي بكامل وعيها، ولكنها لم تكن تستطيع مقاومة الرغبة الجارفة التي تتملكها. وينبغي الافتراض أن علم الطب عاجز على الأرجح، حتى الآن عن أن يقول شيئاً ما دقيقاً عن مثل هذه الظواهر، أي عن الجانب الروحي لهذه الظواهر: بحسب أية قوانين بالضبط تحدث في النفس البشرية أمثال هذه الانعطافات، وهذه الانقيادات، وهذه التأثيرات، وهذا الجنون من دون جنون، وما الذي يعنيه الوعي هنا بالذات، وما هو الدور الذي يضطلع به؟ ويكفي هنا أن تبدو إمكانية حدوث التأثيرات والانقيادات الشاذة في أثناء الحمل لدى النساء أمراً لا جدال فيه... وأن هذه التأثيرات الشديدة الشذوذ، أكرر، تحدث نادراً جداً. ولكن يكفي القاضي من أجل راحة ضميره أن يأخذ بالحسبان في مثل هذه الحالات أنّ كل هذه الأمور يمكن أن تحدث. وربما يقول بعضكم إن المتهمة هنا لم تعمد إلى السرقة كتلك السيدة، أو أنها لم تفكر في القيام بعمل غير عادي، بل بالعكس، قامت بكل ما له علاقة بالقضية، أي أنها ببساطة، انتقمت من زوجها الذي تكرهه بأن قتلت ابنته من زوجته السابقة التي يغيظها بتفضيلها عليها. فكّروا كما تشاؤون: ولكن مع أن الأمر هنا مفهوم إلّا أنه ليس بسيطاً. ومع أن الأمر منطقي، ألا توافقون معي على أنها لو لم تكن حبلى لكان من الجائز ألّا يكون لهذا المنطق وجود بالمرة، ولكانت الواقعة قد حدثت على النحو الآتي: بعد أن بقيت هي وابنة زوجها وحدهما، وقد تملكها الحقد عليه بسبب ضربه إياها، كان من المحتمل أن تقول لنفسها في سورة انفعالها: «يخطر لي أن أرمي هذه البنت من النافذة نكاية به»، نعم، يمكن أن تفكر في هذا، ولكنها لن تفعل. يمكن أن تأثم ذهنياً وليس عملياً. أما الآن، وهي حامل فقد فكرت وفعلت. إن المنطق في الحالتين هو نفسه، ولكن الفرق كبير.

ولو أن المحلفين قد برؤوا المتهمة، لكان بوسعهم، على الأقل، أن يستندوا إلى شيء ما: «مع أن هذه الهيجانات المرضيّة نادرة الحدوث، إلا أنها تحدث؛ فماذا نقول إذا كنا في حالتنا هذه إزاء أحد هيجانات الحمل؟» هذه هي الفكرة؛ ففي مثل هذه الحالة تكون الرحمة على الأقل، مفهومة للجميع، ولن تؤدي إلى تأرجح الفكر وتردده. ثم ماذا يمكن أن يحدث إذا كان الحكم بالتبرئة خاطئاً: فالخطأ في الرحمة أفضل من الخطأ في الإعدام، ولا سيما إذا كان التحقق من خطأ الحكم أو صوابه مستحيلاً. لقد كانت المجرمة هي أول القائلين بأنها مذنبة؛ فقد اعترفت بجريمتها بعد ارتكابها مباشرة،، ثم اعترفت بارتكابها بعد ستة أشهر، في المحكمة. وربما ستذهب إلى سيبيريا وهي تعترف أمام ضميرها وفي أعماق نفسها بأنها مذنبة. وربما ستموت وهي تشعر في ساعتها الأخيرة بالندم وتعد نفسها قاتلة؛ ولن يخطر في بالها ولا ببال أحد في العالم بأنها كانت تعاني من هيجان مَرَضيّ بسبب حالة الحمل، وربما كان الهيجان هو السبب في كل ما حدث، ولو لم تكن حاملاً آنذاك لما حدث شيء من هذا... أجل، إن اختيار خطأ الرحمة هو الأفضل، إذا كان لابد من اختيار أحد الخطأين. فالنوم سيكون أهدأ بعد ذلك... ولكن عمَّ أنا أتحدث! فالشخص الكثير الأشغال ليس له أن يهتم بأمر النوم؛ إذ إن لديه مئة قضية من هذا النوع، وهو ما إن يصل منهكاً إلى السرير حتى يغرق في نوم عميق. أما الشخص الذي ليس لديه ما يعمله، والذي لا تأتيه مثل هذه القضية سوى مرة أو مرتين في العام، فهذا هو من سيكون لديه الكثير من الوقت للتفكير. ولا يلبث أمثال هذا الشخص أن يصبحوا أسرى تخيلاتهم، بسبب عدم انشغالهم بأي عمل. وباختصار: إن البطالة أم جميع المفاسد.

ونذكر، بالمناسبة، أن قابلةً كانت موجودة هناك، أي أنهم عندما أصدروا حكمهم على المجرمة حكموا في الوقت نفسه على طفلها الذي لم يولد بعد. أليس هذا صحيحاً، ومثيراً للاستغراب؟ ولنفترض أن هذا ليس صحيحاً؛ ألا توافقون معي على أنه مشابه جداً للحقيقة، وللحقيقة بكامل أبعادها. وبالفعل، فإن هذا الطفل الذي لم يولد بعد، قد حُكم عليه بالنفي إلى سيبيريا مع أمه، التي عليها أن ترضعه. وإذا هو ذهب مع أمه فإنه سيحرم من أبيه؛ وإذا ما حكمت الظروف، على نحو ما، بأن يبقى الطفل في كنف أبيه (ولا أدري هل باستطاعة الأب أن يفعل هذا الآن أم لا)، فإن الطفل سيُحرم من أمه؛ وباختصار فإنه قد حُرم من الأسرة قبل أن يولد، وهذا أولاً، ثم بعد ذلك سيكبر هذا الطفل ويعرف كل شيء عن أمه، وسوف... على كل إن «سوف» هذه تفسح في المجال للكثير من الاحتمالات ومن الأفضل أن ننظر إلى الأمر ببساطة، وما إن ننظر ببساطة حتى تختفي جميع مسارات الأحداث والظروف المتخيلة. وهذا ما ينبغي أن يكون في الحياة؛ بل إنني أعتقد أن جميع الأمور المشابهة، التي تبدو في

الظاهر غير مألوفة البتة، تجري في الواقع دائماً على نحو مألوف تماماً وبصورة عادية رتيبة إلى حد عدم اللياقة. وبالفعل، انظروا إلى الأمر كما هو في الواقع: إن كورنيلوف الآن قد ترمّل ثانية، وقد أصبح الآن حراً، فقد فُسخ عقد زواجه بنفي زوجته إلى سيبيريا، وها هي الزوجة - اللا زوجة ستلد له طفلاً بعد أيام (إذ من المؤكد أنهم سيدعونها تضع مولودها قبل إرسالها إلى المنفى). وخلال مدة النفاس التي ستقضيها في مستشفى السجن أو في المكان الذي سيضعونها فيه أراهن على أن كورنيلوف سيزورها على نحو «نثري» رتيب تماماً، ومن يدري! ربما سيصطحب معه ابنته نفسها التي سقطت من النافذة، وسيلتقيان ويتحادثان عن أبسط الأشياء وأكثرها ضرورة، عن قطعة قماش تافهة، أو عن حذاء وجزمة من اللبد من أجل الطريق إلى المنفى. ومن يدري! ربما سيجتمعان الآن بانسجام ودي تماماً، بعد أن تطلّقا، أما قبلاً فقد كانا يتشاجران، ولن يعيّر أحدهما الآخر الآن ولا حتى بكلمة واحدة، وربما سيشكوان القدر ويعبّر كل منهما عن شفقته على الآخر وعلى نفسه. أما الطفلة التي سقطت من النافذة فإنها، أكرر، ستسرع يوماً «إلى أمها»، حاملة إليها بعض الأرغفة تلبية لطلب أبيها: «هاك يا أمي هذه؛ وقد أرسل لك أبي شاياً وسكراً أيضاً، وغداً سيأتي بنفسه لزيارتك». ولعل اللحظات الأكثر مأساوية ستكون عندما سيُعْولان معاً بصوت واحد عند الوداع في محطة القطار في الدقيقة الأخيرة، بين الجرسين الثاني والثالث؛ وستُعْوِل معهما الطفلة فاغرة فمها حتى الأذنين، وهي تنظر إليهما، وهما ينحنيان، ربما، انحناء شديداً، مُتوادِعَيْن: «اصفحي عني يا عزيزتي كاترينا بروكوفيفنا، ولا تذكريني بسوء»؛ فتردّ هي قائلة: «وأنت اصفح عني يا عزيزي فاسيلي ايفانوفتش (أو كما يدعونه) لقد أذْنبتُ بحقك، وذنبي كبير...»؛ ثم إن الطفل الرضيع سيصرخ أيضاً، وهو من كل بد، سيكون موجوداً هناك؛ فهل ستأخذه هي معها، أم سيبقى مع أبيه. وباختصار: إن الأحداث في أوساط شعبنا لا تتخذ طابعاً شاعرياً البتة، أليس كذلك؟ إنه أكثر الشعوب «نثريةً» في العالم، حتى ليكاد المرء يشعر بالخجل عنه من هذه الناحية. فلو أن مثل هذه الحادثة قد حدثت في أوربا، على سبيل المثال، فإن الأهواء ستضطرم، وحالات الانتقام ستتوالى في أجواء مشحونة بمشاعر الكبرياء. وجرّب أن تصف هذه القضية في قصة، مشهداً إثر مشهد، بدءاً من وجود الزوجة الشابة عند الزوج الأرمل، وحتى الإلقاء من النافذة، ثم اللحظة التي أطلت فيها الزوجة إلى الشارع لترى هل تهشمت الطفلة أم لا، وذهابها على الفور إلى قسم الشرطة؛ ثم لحظة جلوس المتهمة في المحكمة مع القابلة، ومن ثم حتى مشهد هذا الوداع الأخير، والانحناءات المتبادلة و... وتصور، فقد كنت أريد أن أكتب «و، طبعاً، لن تكون النتيجة ذات قيمة»، في حين أن النتيجة ربما ستكون أفضل من جميع قصائدنا ورواياتنا التي تصور أبطالاً «ذوي حياة مزدوجة وبصيرة عليا». أتعلم؟ إنني ببساطة لا افهم

إلامَ ينظر روائيونا: ها هو موضوع ماثل أمامهم، فليصفوا هذه الواقعة الحقيقية مشهداً إثر مشهد! ولكن ماليَ أنسى هذه القاعدة القديمة التي تقول: القضية ليست في الموضوع، بل في العين: إذا كانت لديك عين، ستعثرعلى موضوع، أما إذا لم تكن لديك عين، فأنت أعمى، ولن تستطيع أن تعثر على أي شيء في أي موضوع. أوه، إن العين شيء هام: فما تراه عين ما قصيدةً، تراه عين أخرى مجرد ركام...

والآن أليس من الممكن يا تُرى تخفيف الحكم الصادر عن كورنيلوفا؟ أحقاً لا يمكن هذا بأي شكل من الأشكال؟ بالفعل، من الجائز أن يكون قد وقع خطأ ما هنا... أجل، إن ما يراود الخيال هنا هو أن خطأ ما قد وقع!

بضع ملاحظات عن البساطة والتبسيط

ولننتقل الآن إلى موضوع آخر. أود أن أقول شيئاً ما عن البساطة عموماً. وتحضرني بهذا الصدد حادثة صغيرة وقديمة وقعت لي، فمنذ نحو ثلاث عشرة سنة، في حقبة من أشد حقب حياتنا «بلبلة»[110]، كما يرى بعضهم، ومن أكثرها «استقامة» ووضوحاً، كما يرى آخرون، عرّجت ذات مساء في الشتاء على إحدى المكتبات العامة في شارع ميشانسكايا (كما كان يسمى آنذاك) قرب منزلي. فقد كنت حينئذ أفكر في كتابة نقدية، واحتجت إلى مراجعة إحدى روايات «ثاكِري»* للاقتباس منها. وما إن استمعت إلى طلبي الآنسة (كانت آنذاك آنسة) التي استقبلتني في المكتبة، حتى بدت عليها أمارات الصرامة، وقاطعتني قائلة باحتقار شديد أقسم أنني لا أستحقه:

– نحن لا نحتفظ عندنا بمثل هذا الهراء.

أنا طبعاً، لم أستغرب، وأدركت حقيقة الأمر. فمثيلات هذه الظاهرة كانت آنذاك منتشرة بكثرة، وكانت قد بدأت بالظهور على نحو مفاجئ، وغير متوقع، ومصحوبة بمشاعر حماسية. فقد خرجت الفكرة إلى الشارع، وارتدت مظهراً في منتهى «الشارعية» [السوقية]. وفي ذاك

(*) الكاتب الإنكليزي المعروف وليم ثاكِري (1811- 1863) (Thackeray). (م).

الوقت بالذات تعرّض بوشكين لحملة تشهير عنيفة، ورُفعت «الجزمة» إلى مكانة سامية*. ولكنني مع ذلك حاولت أن أتكلم مع الفتاة، فسألتها وأنا أتظاهر باستكانة تامة:

- أحقاً أنت تنظرين إلى أعمال ثاكِري على أنها هراء؟

- عيب عليكِ أن تسأل هذا السؤال. لقد مضى الوقت السابق الآن، وأصبح الطلب الآن عقلانياً...

وقد غادرت المكتبة بعد هذا الجواب، وتركت الآنسة مسرورة للغاية بالدرس الذي لقنتني إياه. بيد أن بساطة النظرة صعقتني بعنف، وفي ذاك الوقت بالذات أخذت أفكر في موضوع البساطة على وجه العموم، وفي اندفاعنا، نحن الروس، إلى استخلاص نتائج معممة، على وجه الخصوص. إن استعدادنا لقبول الرأي الأبسط والقليل القيمة، والتافه أمر مذهل. سيقولون لي بهذا الصدد إن هذه الحادثة صغيرة وتافهة، وإن هذه الآنسة حمقاء متخلفة، والأهم أنها غير مثقفة، والحادثة بحد ذاتها لا تستحق منك أن تتذكرها، ثم إن هذه الآنسة، على سبيل المثال، لا يصعب عليها أن تتصور أن جميع من عاشوا قبلها وروسيا بأسرها كانوا حمقى، وها هم الأذكياء قد ظهروا الآن فجأة، وهي في عدادهم. أنا أعرف كل هذا، وأعرف أيضاً أن هذه الآنسة، على الأرجح، لا تحسن أن تقول سوى ما قالته؛ أقصد عن «الطلب العقلاني» وعن «ثاكِري»، ثم إنها كانت بهذا تردد أقوال آخرين، وكان هذا واضحاً من تعبير وجهها، ولكن مع ذلك فإن هذه الحادثة بقيت في ذاكرتي منذ ذاك الوقت بصفتها مثالاً للمقارنة، وبصفتها أمثولة، بل حتى بصفتها شعاراً إلى حد ما. تمعنوا في الآراء الحالية، تمعنوا في «الطلب العقلاني» الحالي، وفي الأحكام الحالية، لا فيما يتعلق بثاكِري فحسب، بل فيما يتعلق بالشعب الروسي كله: أية بساطة نجدها أحياناً في كل هذا! وأية نظرة وحيدة الجانب والاتجاه! وأي استعداد للقبول السريع بِقَوْلٍ ضحل وتافه، وأي اندفاع عام وشامل نحو الوصول إلى الطمأنينة بأسرع وقت، وإصدار حكم ما للتخلص من هم الاستمرار في التفكير! وصدقوني: إن هذا سيدوم عندنا وقتاً طويلاً جداً. انظروا: الجميع الآن يؤمنون بصدق وواقعيةِ الحركة الشعبية في هذه السنة** ومع ذلك حتى الإيمان لا يُرضي، بل يُطلب شيء ما أكثر بساطة. وقد سمعت من أحد أعضاء إحدى اللجان أنه تسلّم الكثير من الرسائل التي يتساءل فيها مرسلوها: «لِمَ ينبغي أن تكون المساعدة للسلافيين حتماً؟ ولم نحن نساعد

(*) استخدم دوستويفسكي عبارة «الجزمة أعلى من بوشكين» لتوصيف النفعية التي تتميز بها مجلة «الكلمة الروسية». (ن).

(**) المقصود: حملة التأييد والمساعدة والتبرعات للصرب بحكم كونهم سلافيين، وكان دوستويفسكي قد تحدث عنها سابقاً في يومياته. (م).

السلافيين؟ لأنهم سلافيون بالذات؟ ولو كان الاسكندنافيون في مثل هذا الوضع فهل كنا سنساعدهم مثلما نساعد السلافيين بالضبط؟» وربما بدا للوهلة الأولى أن البساطة لا دخل لها البتة، ولادخل للميل إلى التبسيط، بل بالعكس، إن ما يتجلى من خلال هذه الأسئلة هو القلق؛ ولكن البساطة في هذه الحالة تكمن بالذات في رغبة الوصول إلى Nihil* وإلى tabula rasa**، إلى أي نوع من الطمأنينة. وهل هناك أبسط وأدعى إلى الطمأنينة من الصفر؟ ولاحظوا أيضاً أن هذه الأسئلة تتضمن، وإن على نحو غير مباشر، مفهوم «الطلب العقلاني» و«عيب عليك».

ليس من شك في أن هناك كثرة من الأشخاص الأعلى ثقافة والأسمى شأناً في مجتمعنا لم تعجبهم على الإطلاق هذه الكلمة الشعبية الخافتة والمستكينة، ولكن الثابتة والقوية، لا لأنهم لم يفهموها، بل بالعكس، فقد فهموها أكثر من اللزوم، فهموها إلى درجةٍ جعلتهم يشعرون حتى ببعض الحيرة. ولا شك في أن دلائل رد الفعل القوي ستبدأ الآن بالظهور. وأنا لا أتحدث عن تلك الأصوات البريئة التي كانت تُسمع، حتى قبل ذلك بصورة تذمر لا إرادي وعدم الموافقة، بسبب مبادئ قديمة أثيرة، تتعلق بموضوعات قديمة، كالموضوع الآتي، على سبيل المثال: لا لزوم لأن نسارع كثيراً ونُشغَف بقضية هي، في حقيقتها، تدل على الجلافة والجهل، مثل: مساعدة السلاف بصفتهم سلافاً، ولأنهم «أشقاؤنا» بمعنىً ما إلخ... إلخ... لا، إنني لا أتحدث عن هؤلاء الشيوخ الليبراليين - العقلاء، الذين لا ينفكون يجترّون عبارات قديمة، بل أتحدث عن رد الفعل الحقيقي على الحركة الشعبية، الذي لن يلبث أن يذر قرنه، كما تدل جميع القرائن. ورد الفعل هذا سيصدر على نحو طبيعي ولا إرادي عن أولئك السادة المستعدين لأن يقولوا الآن بعد أن بسّطوا نظرتهم إلى روسيا حتى الحدود القصوى من الوضوح:

تجب المبادرة إلى إلغاء الظاهرة برمتها، بحيث يظل كل شيء وفق النظام المتكلس المألوف كالسابق «تصوروا! إن هؤلاء المُبَسِّطين لا تروق لهم هذه «الظاهرة»، ليس لأنها خيالية، لا، على الإطلاق، أي ليس، على سبيل المثال، بمعنى أن هذه البساطة التي ظلت حتى الآن متكلسة وبليدة على نحو مألوف قد تجرأت فجأة على أن ترفع صوتها وكأنها بالفعل شيء ما واعٍ وحي». ولو كان المعنى على هذا النحو لكان مفهوماً: ولم يكن من شأنه في هذه الحالة سوى أن يستدعي الأسف لا أكثر. ولكن الأمر على عكس ذلك؛ فهذه الظاهرة لم ترق لهم لأنها، بعد أن كانت خيالية، أصبحت فجأة مفهومة للجميع: «فكيف تجرأت على

(*) اللاشيء [العدم] باللاتينية. (ن).
(**) اللوح الأملس [الصفحة البيضاء] باللاتينية. (ن).

أن تصبح فجأة مفهومة للجميع، وكيف تجرأت على أن تكتسب مثل هذا المظهر المبسّط والمعقول؟» هذا الحنق بالذات، كما سبق أن قلت، لاقى التأييد لدى شيوخنا المثقفين، الذين يسعون بكل ما أوتوا من قوة إلى «تبسيط» هذه «الظاهرة» وإنزالها من مقام الشيء المعقول، إلى مقام الشيء العفوي، الفطري، الأوّلي، وهو، حتى وإن كان يتسم بطيبة القلب، يظل شيئاً يدل على الجهل ويمكن أن يسبب الأذى. وباختصار: فإن رد الفعل ينحو بكل قوته وعبر جميع السبل نحو التبسيط قبل أي شيء آخر؛ علماً بأن هذا التبسيط المفرط لوجهات النظر إلى بعض الظواهر يؤدي أحياناً إلى الإضرار بالقضية ذاتها التي يتبنّاها المبسّط؛ أي أن البساطة تلحق الأذى، في بعض الحالات، بأصحابها المبسّطين أنفسهم. إن البساطة لا تتغير فهي «وحيدة الاتجاه» وإلى هذا متعجرفة. والبساطة عدوة التحليل. وهي غالباً جداً ما تؤدي في النهاية إلى الكف عن فهم الشيء، بل حتى إلى عدم رؤيته بالمرة، بمعنى أن الذي يحصل هو العكس، أي أن نظرة المرء تتحول تلقائياً ولا إرادياً من كونها بسيطة إلى كونها خيالية [فانتازية]. وهذا بالتحديد ما يحدث عندنا بسبب انقطاع أحد جزأيْ روسيا عن الآخر انقطاعاً متبادلاً، وطويل الأمد، ومتعاظماً أكثر فأكثر. وقد بدأ هذا الانقطاع بين الجزأين بسبب بساطة نظرة كل منهما إلى الآخر. بدأ منذ مدة بعيدة جداً، أي منذ عهد بطرس الأكبر، كما هو معروف؛ وذلك عندما حصل، للمرة الأولى، تبسيط مفرط لنظرة روسيا العليا إلى روسيا الشعبية، ومنذ ذاك الوقت لم يطرأ على هذه النظرة أي تعديل، سوى الإيغال في التبسيط أكثر فأكثر عبر الأجيال المتعاقبة.

انتحاران

اتفق لي أن تحادثت مؤخراً مع أحد كتّابنا* (وهو فنان كبير) عن العنصر الكوميدي في الحياة، وعن صعوبة تحديد الظاهرة، وتسميتها باسم حقيقي. وكنت قبل ذلك قد لفتُّ نظره إلى أنني أعرف «الويل من العقل»[88] منذ أربعين سنة تقريباً، ولكنني لم أفهم كما يجب شخصية أحد أبرز أبطالها، وهو مولتشالين، سوى في هذه السنة، وقد فهمتها عندما أوضح

(*) المقصود: هو الكاتب الروسي ميخائيل سلطيكوف شيدرين (1826-1889). (ن).

لي هو بالذات، أي هذا الكاتب الذي تحادثت معه، شخصية مولتشالين، بتصويره إياها في إحدى وصفياته[2] الساخرة* (سأتحدث يوماً عن شخصية مولتشالين هذا، فالموضوع جدير بالاهتمام).

قال لي محدثي فجأة، وقد بدا عليه أنه مندهش بعمقٍ ومنذ مدة طويلة من فكرته: - هل تدري أن أي شيء تكتبه، وأي شيء تصوره، وأي شيء تلقي عليه الضوء في عملك الفني لن تستطيع أبداً أن تضاهي به الواقع. إن أي شيء ترسمه سيكون أضعف مما هو عليه في الواقع. أحياناً تظن أنك وصلت في مؤلفك إلى أكثر العناصر كوميدية في ظاهرة ما من ظواهر الحياة، وأنك اقتنصت أكثر جوانبها دمامة - ولكن هيهات! فالواقع يقدم لك على الفور درجة على هذا السلّم لم يسبق لك أن ارتقيت إليها، وتفوق كل ما يمكن لقوة ملاحظتك وخيالك أن ينشئاه.

لقد عرفت هذا منذ عامٍ ستة وأربعين عندما بدأت أكتب، وربما قبل ذلك - وقد أذهلتني هذه الحقيقة أكثر من مرة، وجعلتني أتساءل بحيرة عن جدوى الفن، إذا كان عجزه بادياً على هذا النحو. بالفعل، إذا أنت تتبّعت واقعة ما من وقائع الحياة، وحتى إذا لم تبد للوهلة الأولى فاقعة جداً، وإذا كانت لديك القدرة وقوة الملاحظة فإنك ستجد فيها من العمق ما لا تجده عند شكسبير. ولكن القضية كلها هنا تنحصر في السؤال التالي: من الذي لديه القدرة وقوة الملاحظة؟ إذ ليس إنشاء الأعمال الفنية وكتابتها هما وحدهما ما يتطلب بالضرورة وجود فنان، بل إن مجرد ملاحظة الواقعة بحد ذاتها تتطلب أيضاً وجود فنان من نوع معين. وثمة أشخاص مراقبون تمر أمامهم جميع ظواهر الحياة ببساطة متناهية، وهي في نظرهم مفهومة تماماً، وليس فيها أي شيء يتطلب التفكير فيه، أو حتى يستحق النظر إليه؛ وبالمقابل ثمة مراقبون آخرون تهمهم هذه الظواهر نفسها وتشغل بالهم أحياناً (وهي أحيان ليست بالنادرة) إلى حد أنهم، عندما لا يجدون في أنفسهم القدرة على إجمالها وتبسيطها، وترتيبها في خط مستقيم على نحو يبعث الطمأنينة في نفوسهم، تجدهم يلجؤون إلى نوع آخر من التبسيط يدفعهم، بمنتهى البساطة، إلى إطلاق رصاصة على جبينهم لإخماد نشاط دماغهم المعذب والقضاء بذلك على جميع الأسئلة دفعة واحدة. هذان ضدان يقفا على طرفي نقيض، وبينهما يتموضع المعنى الإنساني الواقعي برمته. ولكن من البديهي أننا لسنا بقادرين البتة على أن نستوفي الظاهرة بكاملها، وأن نبلغ مبتداها ومنتهاها. فالذي تتاح لنا معرفته هو الضروري فقط، الذي يتراءى في حالة جريان ونعرفه حسبما نراه فقط، أما البدايات والنهايات فما زالت بالنسبة للإنسان حتى الآن في حيز التخيل.

(*) هي إحدى الوصفيات الساخرة التي كتبها سلطيكوف شيدرين وأصدرها في مجموعة بعنوان «السادة آل مولتشالين». (ن).

وبالمناسبة، أخبرني أحد مراسليّ المحترمين* في صيف هذا العام بحادثة انتحار غريبة وملتبسة، وكنت دائماً أشعر بالرغبة في أن أتحدث عنها. إن كل شيء في هذا الانتحار، سواء من الخارج أو من الداخل، يبدو لغزاً. وقد جهدت بالطبع، مدفوعاً بخاصية الكائن البشري، لحل هذا اللغز بطريقة ما كي «أقتنع بشيء ما وأطمئن». المنتحرة فتاة في مقتبل العمر، لم تتجاوز الثالثة والعشرين من العمر أو الرابعة والعشرين، وهي ابنة أحد المهاجرين الروس المشهورين جداً[111]، وقد ولدت في المهجر؛ فهي روسية بالدم، ولكنها غير روسية بالمرة تقريباً من حيث التربية. ويبدو أن الصحف قد كتبت عنها في حينها على نحو ضبابي، في حين أن تفاصيل الحادثة مثيرة للاهتمام: «بللت قطعة من القطن بالكلوروفورم، وربطتها على وجهها واستلقت على السرير... وهكذا ماتت. وكانت قد كتبت قبل أن تموت الرسالة الآتية:

"Je m'en vais entreprendre un long voyage. Si cela ne réussit pas qu'on se rassemble pour fêter ma résurrection avec du Cliquot. *Si cela réussit* je pris qu'on ne me laisse enterrer que tout à fait morte.puisqu 'il est très désagréable de se reveiller dans un cercueil sous terre. *Ce n'est pas chic!*".

أي بالروسية:**

«أنا متوجهة في رحلة طويلة. إذا لم ينجح الانتحار، ليت الجميع يجتمعون ليحتفلوا بقيامتي من بين الأموات حاملين كؤوس الكليكو. إذا نجح فإن كل ما أرجوه هو ألا يدفنوني إلّا بعد أن يتأكدوا من موتي، لأنه من المقيت تماماً أن أصحو وأنا في تابوتٍ تحت التراب. لن يكون هذا من الشياكة في شيء»***.

وفي رأيي أن هذه «الشياكة» الشنيعة الفظة تنم عن تحدٍ، وربما عن سخط وحقد، ولكن علامَ؟ أقول ببساطة إن الطبائع الجلفة تهلك ذاتها انتحاراً لسبب مادي، مرئي، خارجي فقط، في حين أن لهجة الرسالة تدل على أنه لم يكن بالإمكان وجود مثل هذا السبب لديها. إذاً ما الذي كان يمكن أن يثير سخطها؟ أكانت ساخطة على بساطة ما يتراءى لها، على خلو الحياة من المضمون؟ هل هي من أولئك القضاة المعروفين جداً، الذين يقاضون الحياة ويرفضونها، ويسخطون على «غباء» ظهور الإنسان على الأرض، وعلى المصادفة السخيفة التي أدت إلى ظهوره، وعلى طغيان السبب البالي الذي لا يمكن قبوله؟ إننا نسمع هنا صوت نفس تستنكر،

(*) المقصود: ك، ب. بوبيدونوستسف. (ن).

(**) النص العربي مترجم من الروسية وليس من الفرنسية. (م).

(***) الجملة الأخيرة التي يستنكرها دوستويفسكي لم ترد في رسالة المنتحرة، وقد نقلها الكاتب حرفياً تقريباً من رسالة بوبيدونوستسف. (ن).

تحديداً، «النظر باتجاه واحد» إلى الظواهر، وهي لا تطيق «وحدة الاتجاه» هذه، التي تلقنتها في بيت أبيها. وأبشع ما في الأمر أنها ماتت، بالطبع، من غير أن يساورها أي شك واضح. ومن المرجح أن نفسها كانت خالية من الشك الواعي، ومما يسمى أسئلة؛ وأغلب الظن أنها كانت، منذ الطفولة، تصدق مباشرة كل ما كانوا يعلّمونها إياه بمجرد أن يقولوه لها؛ أي أنها ماتت من «الظلمة الباردة والضجر» ماتت وهي تعاني معاناةً بهيميةً، غريزية، إذا صح التعبير، لقد شعرت ببساطة أن العيش يخنقها، كما لو أن الهواء الذي تتنفسه لم يعد كافياً، نفسها لم تعد تتحمل، غريزياً، النظر باتجاه واحد، وأصبحت غريزياً، تتطلب شيئاً ما أكثر تعقيداً...

منذ نحو شهر نشرت جميع الصحف في بطرسبورغ بضعة أسطر موجزة مطبوعة بحروف دقيقة، عن حادثة انتحار بطرسبورغي: خياطة شابة فقيرة ألقت بنفسها من نافذة في الطابق الرابع «لأنها لم تستطع بحال من الأحوال أن تجد لنفسها عملاً تتعيّش منه». وتضيف الصحف أنها ألقت بنفسها وسقطت على الأرض وهي تحمل بيدها أيقونة. وهذا الإمساك بأيقونة هو سمة غريبة، ولم يسمع بمثلها من قبل في حوادث الانتحار! إنه انتحار وديع مستكين. هنا لا يوجد، كما يبدو، أي تذمر أو ملامة: ببساطة لم يعد العيش ممكناً، «الرب لم يشأ»، وماتت بعد أن صلّت. إن بعض الأمور، مهما بدت بسيطة في الظاهر، تظل طويلاً تشغل فكرك، ويخيّل إليك على نحو ما كأنك حتى مذنب في حدوثها. إن هذه النفس الوديعة، التي أهلكت ذاتها تعذب ذهنك بلا إرادة منك. وقد ذكرتني حادثة الموت هذه بانتحار ابنة المهاجر، الذي أخبروني به الصيفَ الماضي. ولكن ما أكبر الفرق بين هاتين المخلوقتين، لكأنهما آتيتان من كوكبين مختلفين! وما أكبر الفرق بين الميتَتَيْن! وأيّ واحدة من هاتين النفسين تعذبت في دنياها أكثر، إذا كان من اللائق، أومن المسموح به طرح مثل هذا السؤال الذي لا جدوى منه؟

الحُكْم

هاكم، بالمناسبة، محاكمة عقلية لأحد المنتحرين من الضجر، وهو، طبعاً شخص ماديّ.

«... بالفعل: أي حق لهذه الطبيعة في أن توجدني في هذا العالم، بحكم قوانين ما سرمدية تُنسب إليها؟ لقد خُلقتُ مالكاً وعياً، ووعيتُ هذه الطبيعة: أي حق لها في أن توجدني واعياً

من غير مشيئة مني لذلك؟ واعٍ تعني معانياً، وأنا لا أريد أن أعاني؛ ومن أجل ماذا يمكن أن أوافق على أن أعاني؟ إن الطبيعة تنبئني عبر وعيي أن ثمة انسجاماً ما في «الكليّ». وقد صنع الوعي البشري من هذا النبأ أدياناً. إنها تقول لي - حتى وإن كنت أعرف تماماً أنني لا أستطيع أن أشارك في «انسجام الكليّ» هذا، ولن أشارك فيه أبداً، ولن أفهم على الإطلاق ماذا يعني هذا الانسجام - إن علي، مع ذلك، أن أخضع لهذا النبأ، وأن أستكين، وأن أتقبل المعاناة بحكم انسجام «الكليّ» هذا، وأن أوافق على أن أعيش. ولكن لو كان لي أن أختار عن وعي لكنت رغبت، بالطبع، في أن أكون سعيداً في البرهة التي أكون موجوداً خلالها، أما الكليّ وانسجامه فلا يهمّانني في شيء البتة بعد أن أفنى، وسواء لدي أكان هذا الكليّ مع الانسجام في هذا العالم سيبقى من بعدي، أم سيفنى معي في لحظة فنائي نفسها. ولماذا يجب عليّ أن أهتم ببقائه بعدي، هذا هو السؤال؟ لقد كان من الأحسن لو كنت قد خلقت كجميع الحيوانات، أي لو كنت أعيش، ولكن من غير أن أعي ذاتي عقلياً؛ إن وعيي ليس من الانسجام في شيء، بل هو بالعكس، عدم انسجام. لأنني معه لست سعيداً. انظروا: من السعيد في هذه الدنيا، وأي البشر يوافقون على أن يعيشوا؟ إنهم بالذات أولئك الذين يشبهون الحيوانات، ويقتربون من نمطهم من حيث ضآلة تطور وعيهم. إنهم يوافقون على العيش عن طيب خاطر، ولكن بشرط أن يعيشوا كما الحيوانات، أي أن يأكلوا ويشربواويناموا ويبنوا عشاً وينتجوا أبناء. إن الأكل والشرب والنوم على الطريقة البشرية تعني الإثراء والنهب، أما بناء العش فيعني، على الأغلب، النهب. وأظن أنهم سيعارضونني قائلين: بإمكان المرء أن يدبّر شؤونه ويستقر ويبني عشاً على أسس رشيدة، ووفق مبادئ اجتماعية صحيحة علمياً، وليس عن طريق النهب كما جرت الأمور حتى الآن. فليكن؛ ولكنني سأسأل: من أجل ماذا؟ من أجل ماذا يدبّر شؤونه ويستقر ويكابد كل مشقات الاستقرار والعيش في مجتمع البشرعلى نحو صحيح ورشيد وصالح أخلاقياً؟ لا أحد بالطبع بإمكانه أن يجيبني عن هذا السؤال. كل ما بوسعهم أن يجيبوني به هو: «من أجل أن يتمتع». ولكن لو كنت أنا زهرة أو بقرة لكنت تمتعت أيضاً. غير أني إذا ظللت أوجه لنفسي أسئلة باستمرار، لن أستطيع أن أكون سعيداً، حتى وأنا في أسمى حالات السعادة التي يجلبها لي حبي للقريب، وحب البشرية لي، وفي أكثر هذه الحالات مباشرة، وذلك لأنني أعرف أن كل هذا غداً سيفنى: أنا، وكل هذه السعادة، وكل هذا الحب، والبشرية كلها - ستتحول إلى لا شيء، إلى العماء السابق. ومع وجود هذا الشرط ليس بوسعي، في أي حال من الأحوال، أن أتقبل أية سعادة، ليس لعدم رغبتي في الموافقة على قبولها، وليس لعنادي الذي يمليه عليّ الالتزام بمبدأ ما، بل ببساطة، لأنني لن أستطيع أن أكون سعيداً في ظل شرط التهديد بالتحول إلى صفر. هذا هو شعوري، هذا

شعوري المباشر، وليس بمقدوري التغلب عليه. ولو أن البشرية ستبقى بعد موتي خالدة بدلاً مني، لربما كنت قد وجدت في هذا عزاء لي. ولكن كوكبنا ليس خالداً، وللبشرية أَجَلُها وهو مجرد لحظة كلحظة أجلي أنا. ومهما كانت الحياة التي تعيشها البشرية على الأرض رشيدةً، وسعيدةً، ومُتَّسمة بالبرّ والقدسية فإن كل هذا سيتحول غداً إلى الصفر ذاته أيضاً. ومع أن هذا ضروري لسبب ما، كما يقال، بحكم قوانين ما للطبيعة قاهرة وسرمدية، وجامدة، فإن هذه الفكرة، صدِّقوني، تنطوي على عدم احترام عميق جداً للبشرية، وعلى إهانة عميقة لي؛ ومما يزيد من شدة وطأة هذا الأمر الذي لا يحتمل عدم وجود أي مذنب في كل هذا.

وأخيراً، حتى إذا افترضنا أن هذه الحكاية عن الإنسان الذي استقر في نهاية المطاف على الأرض، ونظم حياته على أسس رشيدة وعلمية هي حكاية ممكنة الوقوع، وصدقناها، وآمنّا بأن سعادة البشر قادمة في نهاية المطاف، فإن فكرة وجود ضرورةٍ تجعل الطبيعة بحاجة، بحكم قوانينها المتكلسة تلك، إلى أن تعذب الإنسان آلاف السنوات، قبل أن توصله إلى هذه السعادة، هذه الفكرة وحدها تثير في النفس سخطاً لا يُطاق. أضيفوا إلى ذلك الآن أن هذه الطبيعة ذاتها، التي أوصلت الإنسان أخيراً إلى السعادة، من الضروري لها، لسبب ما أن تحوّل كل هذا غداً إلى صفر، على الرغم من كل هذه المعاناة التي تحملتها البشرية من أجل وصولها إلى السعادة، والمهم هنا هو الآتي: بما أن الطبيعة لا تخفي أي شيء من هذا عني وعن وعيي كما أخفته عن البقرة، تخطر في البال عفوياً فكرة في غاية الطرافة ولكنها محزنة إلى حد لا يطاق: «وماذا إذا كان الإنسان قد خُلق على هذه الأرض على سبيل تجربة ما وقحة، لمجرد التحقق من أن مثل هذا الكائن: هل يمكنه أم لا يمكنه التكيف والعيش على هذه الأرض؟» وسبب كون هذه الفكرة محزنة يعود قبل كل شيء إلى أنه لا توجد هنا جهة مذنبة، فليس من أحد أجرى هذه التجربة، وليس من أحد نلعنه؛ والأمر ببساطة هو أن كل شيء قد حدث بحكم قوانين الطبيعة الجامدة التي لا أفهمها البتة، ولا يمكن لوعيي أن يوافق عليها بحال من الأحوال Ergo*.

– بما أن أسئلتي عن السعادة لا أتلقى عنها من الطبيعة عبر وعيي سوى جواب واحد: هو أنني لا أستطيع أن أكون سعيداً إلّا ضمن انسجام «الكلي» الذي لا أفهمه، ومن الواضح أنني لن أكون قادراً على فهمه أبداً؛

– وبما أن الطبيعة لا تكتفي بأنها لا تعترف لي بالحق في مساءلتها؛ بل إنها لا تجيبني بالمرة، ليس لأنها لا تريد، بل لأنها لا تستطيع أن تجيب؛

(*) تالياً (باللاتينية). (ن).

- وبما أنني قد اقتنعت بأن الطبيعة لكي تجيب عن أسئلتي عَيَّنت لي (بلا وعي منها) شخصي أنا بالذات، وهي تجيبني بوساطة وعيي أنا (لأن كل هذا أقوله لنفسي)؛

- وبما أنني، أخيراً، أتولى أنا نفسي، بحكم هذا النظام، القيام بدور المدعيّ والمُدّعى عليه، وبدور المتهم والقاضي، وأجد أن هذه الملهاة من جانب الطبيعة أمر بمنتهى الغباء، وأن احتمالي لهذه الملهاة من جانبي أمر مهين؛

- لذا، بصفتي المدعي والمدعى عليه، والقاضي والمتهم، بصفتي هذه التي لا ريب فيها، أحكم على هذه الطبيعة التي أوجدتني بكل صفاقة ووقاحة من أجل المعاناة، أحكم عليها بأن تفنى معي... وبما أنني لا أستطيع أن أُهلك الطبيعة، فإنني أُهلك ذاتي وحدها، لسبب وحيد فقط هو الضجر من احتمال هذا الطغيان الذي لا يتحمل وزره أحد».

N.N

أفضل الناس

أفضل الناس: هذا موضوع جدير بأن يقال فيه بضع كلمات. إنهم أولئك الناس الذين من دونهم لا يعيش ولا يقوم أي مجتمع وأية أمة، مهما اتسع فيهما مجال المساواة في الحقوق. وأفضل الناس، بالطبع نوعان:1- أولئك الذين ينحني الشعب نفسه والأمة نفسها، أمامهم طوعاً وبملء الحرية، إجلالاً لكرم أخلاقهم الحقيقي. 2- أولئك الذين ينحني أمامهم الشعب والأمة بكاملهما أو أفراد كثيرون جداً منهما، ولكن، لِنقُلْ، بشيء من الإكراه؛ وإذا كانوا يعدونهم «أفضل الناس» فإنهم يفعلون ذلك شرطياً إلى حد ما، ولا يعنون ذلك تماماً في واقع الأمر. ولا يجوز التذمر من وجود هذا الصنف «الشَّرْطي» من أفضل الناس، الذين يُعترف بهم على أنهم الأفضل من أجل الأهداف العليا المتوخاة من إقامة النظام وتمتين الإدارة: لأن «أفضل الناس» الذين ينتمون إلى هذا الصنف، إنما يظهرون بحكم القانون التاريخي، وقد وُجدوا في جميع الأمم والدول منذ بداية العالم وحتى الآن، إذ ليس من مجتمع كان بإمكانه أن يستقر ويتماسك في كلٍّ موحد من دون أن يرضى طوعاً بنوع ما من العنف يُمارس عليه.

فكل مجتمع يحتاج، من أجل أن يثبت ويعيش، إلى أحد ما وشيء ما يحترمه حتماً،

والمهم في الأمر أن هذا الاحترام يجب أن يكون من جانب المجتمع كله، لا أن يكون لكل واحد ما يشاؤه بينه وبين نفسه. وبما أن أفضل الناس الذين ينتمون إلى النوع الأول، أي كرام الأخلاق حقاً، الذين ينحني أمامهم الجميع، أو الأغلبية العظمى من الأمة بصدق وإخلاص يكونون جزئياً، في بعض الأحيان، غير بارزين للعيان لأنهم حتى مثاليون* ويصعب أحياناً تحديدهم، ويتسمون بمزايا خصوصية وغريبة، ولا يندر أن يكون مظهرهم الخارجي غير لائق بعض الشيء، لذا يستعاض عنهم بأناس من النوع الثاني الشَّرطي، على أنهم هم الفئات الأفضل، ويحظى هؤلاء بالرعاية الرسمية التي تبدو كأنها تقول لنا «احترموا هؤلاء». وإذا ما صدف أن كان هؤلاء «الشَّرطيون» يتطابقون فعلاً مع أفضل الناس الذين ينتمون إلى الصنف الأول (إذ ليس جميع المنتمين إلى الصنف الأول يتسمون بمظهر غير لائق)، وكانوا كراماً بحق، فإن الهدف يتحقق لا بتمامه فحسب، بل مضاعفاً. وأمثال هؤلاء الناس كانوا يتمثلون عندنا في البدء بالفصيل المسلح التابع للأمير في روسيا القديمة، وبعد ذلك بكبار الأعيان، ورجال الدين (ولكن الكبار منهم فقط)، وحتى ببعض التجار المشهورين الرفيعي الشأن، ولكن عدد هؤلاء الأخيرين كان جد قليل. وتنبغي الإشارة هنا إلى أن أفضل الناس هؤلاء سواء عندنا أو في أي مكان آخر، أعني في أوربا، كانوا يضعون لأنفسهم في النهاية مُدَوَّنة منسقة يحددون فيها قواعد الكرم والشرف، ومع أن هذه المدوّنة، ككُلٍّ، كانت تتسم دائماً، بالطبع، بأنها شرطية إلى حد ما، وتتباين مع المثل العليا الشعبية تبايناً كبيراً في بعض الأحيان، ولكنها هي أيضاً كانت تتسم في بعض بنودها بقدر كاف من السمو. فالإنسان «الأفضل» كان من واجبه، مثلاً، أن يضحي بنفسه في سبيل الوطن إذا كانت هذه التضحية مطلوبة، وكان يموت تلبية لما يمليه عليه واجب الشرف فعلاً ولسان حاله يقول: «... وإلا فإن ضرراً كبيراً سيصيب قومي»، وقد كان هذا، بالطبع، أفضل بما لا يقاس من امتلاك الحق في الخزي، الذي يسمح لممتلكه بأن يتخلى عن الجميع وعن كل شيء في ساعة الخطر، ويفرّ ليختبئ، ولسان حاله يقول: «فليُمحق العالم كله، ولأبق أنا وممتلكاتي سالمين» واستمرت الأمور عندنا تجري على هذا المنوال طويلاً جداً، وتنبغي الإشارة مرة أخرى إلى أن أفضل الناس الشرطيين هؤلاء، غالباً جداً ما كانوا عندنا في روسيا يتطابقون في مثلهم العليا، من نواح كثيرة جداً، مع أفضل الناس اللا شرطيين، أي الشعبيين. ولكن، على الأقل، يمكن القول بجرأة إن التقارب الأخلاقي، الذي كان آنذاك بين كبار الأعيان الروس والشعب الروسي، كان أكبر بما لا يقاس من التقارب، الذي كان موجوداً في ذاك الوقت في أي مكان تقريباً في أوربا، بين الغالبين المستبدين، أي الفرسان، والعبيد المغلوبين، أي الشعب. ولكن فجأة

(*) أي يعيشون وفق مثلهم العليا في معزل عن واقع الحياة اليومية. (م).

حصل عندنا أيضاً تغيير جذري في نظام أفضل الناس. فقد صُنِّفوا جميعاً، بموجب مرسوم صادر عن رئيس الدولة، ضمن أربع عشرة فئة، كل واحدة أعلى من سابقتها، كدرجات السّلّم، وسَمَّوْها «مراتب»[112]؛ وهكذا ظهر لدينا أربع عشرة مرتبة بالضبط من مراتب كرم الأخلاق الإنساني بتسميات ألمانية. بيد أن هذا التغيير قصّر جزئياً في تطوره اللاحق عن بلوغ الهدف الأصلي الذي كان متوخىً منه، لأن «أفضل الناس» السابقين هم الذين شغلوا وملؤوا على الفور جميع المراتب الجديدة الأربع عشرة، وبدلاً من تسميتهم أعياناً أصبحوا يُسَمَّوْن نبلاء؛ كما أن هذا التغيير قد حقق جزئياً أيضاً الهدف المتوخى منه، لأنه أزاح السياج القديم، ووسع المجال إلى حد كبير جداً، مما أتاح الإمكانية لتدفق قوىً جديدة من قاعدة المجتمع، أو بحسب مصطلحاتنا، قوىً ديمقراطية، وخاصة من خريجي المعاهد التعليمية المتوسطة. وأدخل هذا التيار المتدفق الكثير من العناصر المنعِشة والمثمِرَة إلى دائرة أفضل الناس؛ إذ ظهر ضمن هذه الدائرة أناس ذوو كفاءات، ولديهم نظرات جديدة، وذوو ثقافة لم تكن معهودة من قبل، مع أنهم كانوا في الوقت ذاته يحتقرون منبتهم الأصلي، ويتعجلون بلهفة تغيير أنفسهم، والانتماء بأسرع وقت إلى فئة النبلاء الأقحاح عن طريق الترقي في المراتب الوظيفية. وتنبغي الإشارة إلى أنه، باستثناء خريجي المعاهد، لم تستطع النفاذ إلى فئة «أفضل الناس» من أوساط الشعب، ومن فئة التجار على سبيل المثال، سوى قلة جد قليلة، وظلت فئة النبلاء تشغل المكانة الأعلى في الأمة. وكانت هذه الفئة منظمة تنظيماً صارماً جداً؛ وفي الوقت الذي كانت فيه النقود، والممتلكات الخاصة والثروة هي المسيطرة في أوربا بأسرها، وكانوا هناك يعتقدون بصدق أن هذه الأقانيم تمثل كل ما هو كريم ونبيل، وتجسد أفضل ما في البشر وما بين البشر، كنّا هنا في روسيا، وهذا ما زال حياً في ذاكرتنا، نقدّر الجنرال، على سبيل المثال، تقديراً عالياً إلى الحد الذي يجعل أغنى التجار يعد شرفاً عظيماً له إغراء جنرال لتلبية دعوته إلى الغداء. وقد قرأت منذ مدة قصيرة عن حادثة لم أكن لأصدق وقوعها لولا علمي بأنها حقيقية تماماً، فقد أقدمت سيدة بطرسبورغية تنتمي إلى الفئة الاجتماعية العليا على طرد امرأة من فئة التجار، تملك عشرة ملايين، من مقعدها في حفلة موسيقية على مرأى من الجمهور، وشتمتها أمام الملأ، وقد حدث هذا منذ ثلاثين عاماً لا أكثر! وينبغي أن نذكر، بالمناسبة، أن هؤلاء الناس «الأفضل»، الذين عززوا مكانتهم إلى هذا الحد، تبنّوا بعض القواعد الجيدة، كالالتزام تقريباً بواجب حيازة قدر من الثقافة، على سبيل المثال، وهذا ما جعل من فئة أفضل الناس فئة متعلمة بمعظمها في روسيا، وجعلها حافظاً وحاملاً للتنوير الروسي، أياً كانت طبيعته. وليس من داع إلى القول إنها كانت أيضاً الحافظ والحامل الوحيد لقواعد الشرف، ولكن بحسب النمط الأوربي المحض، بحيث أن

حرفية هذه القواعد وشكليتها طغتا تماماً، في نهاية المطاف، على صدقية مضمونها: كان ثمة الكثير من الشرف، ولكن عدد الناس الشرفاء لم يعد، في نهاية الأمر، كبيراً. وقد شهدت هذه الحقبة، وخصوصاً في نهايتها، ابتعاد فئة «الأفضل» كثيراً عن الشعب في مثلها العليا المرتبطة بـ «الإنسان الأفضل»، بحيث أنها أصبحت تضحك علناً من جميع التصورات الشعبية تقريباً عن «الأفضل». ولكن فجأة حدث واحد من أضخم الانقلابات التي شهدتها روسيا على مدى تاريخها كله: إذ ألغي نظام القنانة، وحدث تغيير عميق في كل شيء. ومع أن المراتب الأربع عشرة ظلت كما هي، ولكن واقع «أفضل الناس» بدا كأنه اهتز، وكأن هؤلاء الناس قد فقدوا فجأة جاذبيتهم السابقة التي كانوا يتمتعون بها بين جماهير المجتمع، وبدا وكأن شيئاً ما قد تغير في النظرة إلى «الأفضل». والحقيقة أن هذا التغير كان جزئياً وليس باتجاه الأحسن. أضف إلى ذلك أن شيئاً ما متبلبلاً وملتبساً إلى أبعد الحدود بدأ بالظهور في مجال فهم الأفضل. ولم تعد النظرة السابقة مرضية، ولذا أخذ يلحّ على وعي الكثيرين سؤالٌ في غاية الجدية: «من هم الذين سيُعدّون الآن الأفضل، والمهم: من أين يُتوقّع مجيئهم، وأين مكانهم، ومن الذي سيتولى الإعلان عن أن هؤلاء هم الأفضل، وعلى أية أسس؟ وهل من حاجة إلى أن يتولى أحد هذه المهمة؟ وأخيراً، هل هي معروفة، على الأقل، تلك الأسس الجديدة، ومن سيصدق أن هذه هي بالذات الأسس التي ينبغي أن يُبنى عليها من جديد أمور بمثل هذه الكثرة»؟ والحقيقة أن هذه الأسئلة كانت قد بدأت بالظهور لدى عدد كبير من الناس...

عن الموضوع نفسه

انحصرت القضية كلها في رفع رعاية السلطة عن «أفضل الناس» السابقين، وكأن صفتهم الرسمية قد زالت. وعلى هذا فقد كان ثمة ما يُعزّي، في البداية على الأقل، وهو أن الشكل الفئوي السابق لـ «أفضل الناس»، وإن لم يُدمّر نهائياً، تراجع، على الأقل تراجعاً شديداً، وتباعدت حدوده، وأصبح على كل من يرغب من هؤلاء الناس في أن يحافظ على أهميته السابقة، الانتقالُ، شاء أم أبى، من موقع «أفضل الناس الشرطيين» إلى موقع أفضل الناس

الطبيعيين. وظهر أملٌ رائع بأن يحتل «الطبيعيون» شيئاً فشيئاً كل أماكن «أفضل الناس» السابقين. ولكن الكيفية التي سيتحقق بحسبها هذا الأمر ظلت، بالطبع، غامضة. بيد أن كثيرين من الأشخاص المحترمين جداً، ولكنْ المتحمسين والليبراليين، لم يكونوا يرون في الأمر أي غموض. كان كل شيء في نظرهم محسوماً وسيتحقق بسلاسة، بل كان بعضهم يعتقد أن كل شيء قد بلغ منتهاه، وأن الإنسان «الطبيعي»، إذا لم يكن قد وصل اليوم إلى المكانة الأولى، فإنه سيبلغها حتماً مع أولى خطوط الفجر... هذا في حين أن الناس الأعمق تفكيراً ظلوا يتساءلون حول الموضوع السابق: «ولكن من هم هؤلاء الطبيعيون؟ وهل يعرف أحد كيف يُسَمَّوْنَ الآن؟ ألم نفقد نهائياً يا ترى المثل الأعلى لهؤلاء الناس؟ أين هو الآن «الإنسان الأفضل» المعترف به من قبل الجميع؟ ما هو الشيء ومن هو الشخص الذي على المجتمع كله أن يجله، وبمن ينبغي الاقتداء؟».

ربما لم تكن هذه الأفكار يُعَبّر عنها حرفياً بهذه الكلمات، ولم تكن تظهر بصيغة هذه الأسئلة بالذات، ولكن مما لا شك فيه أن مجتمعنا قد شهد هذا «الاضطراب» بشكل أو بآخر. وكان الناس المُتَّقدون حماسةً واندفاعاً يصيحون بالمتشككين قائلين: «إن الإنسان الجديد» موجود، وقد تم العثور عليه، وهو محدد، وماثل للعيان. وقد قرروا في نهاية المطاف أن هذا الإنسان الجديد و«الأفضل» هو ببساطة، الإنسان المستنير، «رجل» العلم المتخلي عن المعتقدات الخرافية السابقة. ولكن هذا الرأي لم يكن مقبولاً لدى عدد كبير من الناس لاعتبارٍ بسيط جداً هو أن الإنسان المتعلم ليس دائماً إنساناً شريفاً، كما أن العلم غير كاف لضمان اتصاف الإنسان بكرم الأخلاق. وقد حاول البعض، في هذه البرهة التي سادت فيها حالة البلبلة العامة والالتباس، أن يطرح الاقتراح الآتي: أليس الأجدى أن نتوجه إلى الشعب وإلى المبادئ الشعبية؟ ولكن عبارة «المبادئ الشعبية» وحدها كانت تثير لدى كثيرين جداً، ومنذ وقت طويل، مشاعر التقزز والكراهية؛ كما أن الشعب نفسه لم يسارع بعد تحرره إلى إظهار نفسه من الناحية التي يتجلى فيها كرم أخلاقه، ولذا فإن البحث لديه عن حلول لمثل هذه المسائل كان أمراً مشكوكاً بجدواه. بالعكس، كانت تنتشر إشاعات عن عدم التقيد بالنظام، وعن التسيّب، وتفشّي السكر إلى حد مرعب، وفشل الإدارة الذاتية، وعن مستثمري الريف الأغنياء (الكولاك)، والطفيليين المستغلين، الذين حلّوا محل مُلّاك الأراضي السابقين، وأخيراً عن اليهود. وحتى «أذكى» الكتّاب عندنا أعلنوا أن المستثمرين الريفيين الأغنياء، والطفيليين المستغلين هم المسيطرون في أوساط الشعب، أضِفْ إلى ذلك أن الشعب ينظر إليهم على أنهم هم «أناسه الأفضل» الحقيقيون. وظهرت أخيراً وجهة نظر ليبرالية محضة إلى أقصى درجة، مفادها أن شعبنا ليس مؤهلاً الآن لإنشاء المثل الأعلى للإنسان الأفضل،

وهو ليس غير مؤهل فحسب للقيام بهذه المهمة بنفسه، بل إنه غير قادر أيضاً على المساهمة في هذه المأثرة، ومن الضروري تعليمه في البدء القراءة والكتابة، وتثقيفه، وتطويره، وبناء مدارس له إلخ... إلخ... وينبغي الاعتراف بأن عدداً كبيراً جداً من المتشككين وجدوا أنفسهم في مأزق، ولم يعرفوا بماذا يردّون على هذه الآراء.

وفي هذه الأثناء كانت ثمة عاصفة جديدة تتقدم، ومصيبة جديدة تقترب، إنها «كيس الذهب»! [الأصفر الرنان] فبدلاً من أفضل الناس «الشرطيين» السابقين ظهرت شرطية جديدة، اكتسبت فجأة تقريباً أهمية مخيفة عندنا. طبعاً كيس الذهب كان موجوداً قبل ذلك، بل كان موجوداً دائماً بصورة التاجر المليونير السابق؛ ولكن لم يسبق قط أن ارتفع إلى هذه المكانة، واكتسب هذه الأهمية، كشأنه في زمننا الأخير هذا. وعلى الرغم من الدور الذي كان يلعبه «المليون» ورأس المال في كل مكان في أوربا لم تكن مكانةُ التاجر سابقاً في التراتبية الاجتماعية عندنا عاليةً نسبياً. وهو، في الحقيقة، لم يكن يستحق أكثر من ذلك. وأستدرك سلفاً وأقول: إنني أتحدث هنا عن التجارالأغنياء فقط؛ وأغلبية هؤلاء الذين لم تفسدهم الثروة بعد كانوا يعيشون كنماذج التجار الذين صورهم أوستروفسكي[19]، وربما كان كثيرون جداً منهم ليسوا أسوأ من هذه النماذج، علماً بأنني أتحدث هنا نسبياً؛ أما فئة التجار الأدنى، وهي الأكثر عدداً، فقد كانت تتطابق تماماً تقريباً مع الشعب. ولكن التاجر السابق كان كلما ازداد ثراء ازداد سوءاً. لقد كان، من حيث الجوهر، هو رجل الشعب العامي نفسه، ولكن المُفْسَد. وقد انقسم التجار أصحاب الملايين السابقون إلى فئتين: فئة استمرت في إطلاق لحاها، على الرغم من امتلاكها المليون، وعاشت في بيوتها الضخمة الخاصة عيشة قذرة بعض الشيء أخلاقياً وجسدياً، بقطع النظر عن المرايا والأرضيات الخشبية. وكان أفضل ما بقي لديهم من صفات هو حبهم لسماع رنين النواقيس، وأصوات الشمامسة الجهورية. ولكن، بصرف النظر عن هذا الحب، قطعوا كل ما كان يصلهم بالشعب أخلاقياً. ومن الصعب أن يتخيل المرء شبهاً أقل من الشبه الأخلاقي بين الشعب وبعض أصحاب المصانع من ذوي الملايين. ويقولون إن أوفسيانّيكوف[113] في أثناء نقله مؤخراً إلى سيبيريا عبر قازان كان يقذف بقدميه إلى خارج العربة الكوبيكات، التي كان الشعب يلقي إليه بها بسذاجة بريئة: إن هذا يمثل أقصى درجة من درجات القطيعة الأخلاقية مع الشعب، ويعني الفقدان الكامل لأقل قدر من فهم العقلية الشعبية والروح الشعبي. ولم يسبق للشعب أن خضع لوطأة نير ثقيل كالنير الذي عانى منه في المصانع لدى بعض هؤلاء الأسياد! أما الفئة الثانية من التجار أصحاب الملايين، فقد كانت تتميز قبل كل شيء بارتداء بزات الفراك، وبالذقون الحليقة، وبالأثاث الأوربي الفاخر في البيوت، وبتربية بناتهم وتعليمهن باللغتين

الفرنسية والإنكليزية، والعزف على البيانو، ولا يندر أن يتميز هؤلاء بحيازة أوسمة لقاء تبرعات ضخمة، وبالتغطرس الذي لا يطاق إزاء كل من هو أدنى، وباحتقار الجنرال العادي «المدعو إلى الغداء»، وفي الوقت نفسه بالتذلل الذي لا مزيد عليه أمام ذوي المراتب العليا، وخصوصاً إذا ما صدف أحياناً واستطاع التاجر من هؤلاء أن يغري شخصاً ذا مرتبة عليا، عن طريق شتى المساعي الخفية والجهود لتلبية دعوته إلى حفلة راقصة، أو مأدبة غداء، مقامة، بالطبع، خصيصاً من أجله. وقد أصبح بذلُ الجهود من أجل اجتذاب شخصية مهمة إلى مأدبة غداء، برنامج حياةٍ لدى هؤلاء التجار. وغدا هذا الأمر غاية مشتهاة: فالمليونير لم يكن يعيش في هذا العالم إلّا لهذه الغاية تقريباً. ومن البدهي أن هذا التاجر الثري السالف كان يصلي لمليونه كما للرب: فالمليون كان في نظره هو كل شيء؛ المليون انتشله من هاوية التفاهة، وأكسبه كل ما يتمتع به من أهمية. إن هذا «الشخص العامي المُفْسَد» (إذ إنه ما زال من العامة بصرف النظر عن كل بزات الفراك) كان يستحيل أن تتولد في نفسه الجلفة، في أي وقت من الأوقات، أية فكرة أو إحساس يجعلاه يسمو بوعيه، ولو للحظة، على مليونه. ومن البدهي أن أسرة مثل هذا التاجر، على الرغم من اللمعة الخارجية، كانت تنشأ وتنمو من غير أي تحصيل علمي؛ فالمليون لم يكن يساعد على التحصيل العلمي؛ بل بالعكس، كان في مثل هذه الحالة هو مسبِّبَ الجهلِ الرئيسَ: فهل من داع لأن يدرس ابن مثل هذا المليونير في الجامعة، إذا كان بوسعه الحصول على كل شيء من غير أية دراسة؟! لا سيما أن جميع أصحاب الملايين هؤلاء كانوا عندما تصل ثروتهم إلى المليون غالباً جداً ما يحصلون على حقوق فئة النبلاء. ولم تكن الثروة تزرع في نفوس أبناء التجار هؤلاء، منذ سنوات فتوتهم، سوى الفساد الأخلاقي، والمفاهيم المشوهة جداً عن العالم، والوطن، والشرف، والواجب، فيَنْشؤون شهوانيين ووقحين. وكان تشوّهُ وجهة نظرهم إلى العالم فظيعاً، إذ تسيطر فيها قناعةٌ تتخذ شكل البديهيةَ، وتتلخص في الآتي: «بالمال أشتري كل شيء، أشتري أية سمة تشريف، وأية سمعة تكريم، وأي شخص، وبالمال أفتدي نفسي من أي شيء». ومن الصعب أن يتصور المرء جفاف قلوب الفتيان الذين يَنْشؤون في هذه البيوت الغنية. إن أمثال هذا المليونير يعمدون أحياناً، وهم منتشون بإحساس العجرفة، ولكي لا يتخلفوا عن الآخرين، إلى التبرع بمبالغ ضخمة لصالح الوطن في حالة تعرضه للخطر، على سبيل المثال (مع أن هذه الحالة لم تحدث سوى مرة واحدة في العام الثاني عشر)*، ولكن الواحد منهم كان يتبرع بالمال طمعاً بالحصول على وسام أو ميدالية، وكان مستعداً على الدوام، وفي أية لحظة من لحظات وجوده، للانضمام حتى إلى أول يهودي،

(*) عام 1812، عندما غزى نابليون بونابرت روسيا. (م).

من أجل خيانة الجميع وكل شيء، إذا كان هذا يعود عليه بالربح؛ فحب الوطن، والشعور بالمواطنية ليس لهما مكان تقريباً في هذه القلوب.

من البدهي أنني أتحدث هنا عن تُجارنا الروس أصحاب الملايين بصفتهم الفئوية فقط. وثمة استثناءات موجودة دائماً وفي كل مكان. ويمكن أن نشير إلى تجار عندنا امتازوا بثقافتهم الأوربية ومآثرهم الوطنية النبيلة، ولكنهم كانوا قلةً قليلةً جداً بين أصحاب الملايين، حتى ليمكن عدّهم واحداً واحداً. ووجود الاستثناءات لا يفقد الفئة طابعها المميز.

وهكذا تتسع فجأة الأطر السابقة التي كانت تؤطر التاجر في السابق عندنا اتساعاً هائلاً في أيامنا هذه. ويتقارب هذا التاجر مع المضارب الأوربي، الذي لم يكن معروفاً في روسيا من قبل، ومع المقامر في البورصة. ولم يعد التاجر المعاصر بحاجة إلى اجتذاب «شخصية مهمة» لحضور «مأدبة غداء»، أو حفلة راقصة عنده. فهو الآن يسعى لإقامة صلة قرابة أو تآخي مع شخصية ما في البورصة، أو جمعيات المزادات العلنية، أو في مصرف مُنشأ بالاشتراك مع هذه الشخصية. لقد أصبح هو نفسه الآن شخصاً ذا نفوذ، وشخصية هامة. والمهم أنه وجد نفسه فجأة قد أصبح يشغل، بكل تأكيد، واحدة من أسمى المراتب في المجتمع؛ لقد بلغ الآن تلك المرتبة التي كانت قد خصصت في أوربا كلها منذ مدة طويلة، وعلى الصعيدين الرسمي والمعنوي، لأصحاب الملايين؛ وهو طبعاً لا يشك البتة في أنه جدير بهذه المرتبة كل الجدارة. وباختصار، إنه الآن يقتنع أكثر فأكثر اقتناعاً صادقاً ومخلصاً، بأنه هو الإنسان «الأفضل» الآن في العالم، بدلاً من جميع سابقيه. ولكن ما ينذر بوقوع مصيبة ليس أنه هو نفسه مقتنع بهذه الحماقات، بل أن آخرين (وهم كثرٌ جداً الآن) قد بدؤوا، على ما يبدو، يقتنعون بهذا أيضاً. فكيس الذهب أصبح يُعَدّ الآن، بلا شك، لدى أغلبية هائلة من الناس، أفضل من كل شيء آخر. طبعاً سيجادلونني حول هذا التخوّف. ولكن من الواضح أن الانحناء الحالي الفعلي أمام هذا الكيس عندنا لم يعد واقعاً لا جدال فيه فحسب، بل أصبح أيضاً لا مثيل له من حيث أبعاده المفاجئة. وأكرر مرة أخرى: إن قوة كيس الذهب كانت مفهومة من قِبَل الجميع عندنا في السابق أيضاً، ولكن لم يسبق لنا في روسيا في أي يوم من الأيام قبل الآن أن نظرنا إلى هذا الكيس على أنه أسمى ما في هذا العالم. أما في التصنيف الرسمي للناس الروس فإن كيس التاجر لم يكن بمقدوره في السابق أن يتجاوز حتى الموظف، في مضمار التراتبية الاجتماعية، ولكننا نرى الآن أن هذه التراتبية السابقة تبدو مستعدة للتراجع من تلقاء ذاتها، ومن دون أي إكراه خارجي، إلى الصف الثاني، وذلك أمام تقدم «الشرط» الجديد البالغ اللطف والروعة، للإنسان الأفضل، «الذي ظل مدة طويلة محروماً من حقوقه الأصيلة نتيجة خطأ فاحش». إن رجل البورصة الحالي يستأجر الأدباء لخدمته، وترى المحامي يحوم حوله باستمرار: «إنها

مدرسة فتيّة لمراوغة العقل وجفاف القلب، مدرسة لتشويه أية عاطفة معافاة، بالقدر اللازم من التشويه، مدرسة لممارسة اعتداءات من كل صنف ولون تُمارس بلا خوف، وبلا عقاب، مدرسة دائمة ومستمرة في عملها بحسب الرواج والطلب». إن هذه المدرسة الفتية بذلت جهدها لتساير رجل البورصة المعاصر؛ وراحت تنشد له قصائد المديح. أوه، لا تظنوا أنني ألمّح إلى «قضية ستروسبيرغ»[114]. إن المحامين، الذين جعلوا من موكليهم «المتورطين» في هذه القضية مُثُلاً عليا للناس، وتغنّوا بهم في أنشودة وصفوهم فيها بأنهم «أفضل الناس في موسكو كلها»، (بهذا المعنى بالضبط) قد ارتكبوا خطأ ليس إلّا. لقد أظهروا بهذا أنهم أناس بلا أية قناعات جدية، كما أظهروا أنهم لا يملكون القدرة على ضبط أنفسهم، وعلى الإحساس بالحدود التي لا يجوز تجاوزها؛ (وإذا كانوا يلعبون عندنا دور «المواهب الأوربية» فما ذلك إلّا من باب: من قلة الخيل* وهم في الحقيقة تصرفوا كالدبلوماسيين، إذ طلبوا أكبر قدر ممكن لكي يحصلوا على أكبر minimum: «ليسوا مُحقّين فقط بل هم قدّيسون!» وقيل إن الجمهور أطلق مرة صيحات استهجان. إن المحامي، قبل كل شيء، ليس دبلوماسياً، وهذا التشبيه ليس صحيحاً من حيث الجوهر. وكان من الأصح، ومن الأصح جداً، الإشارة إلى الموكِّل وتوجيه السؤال الإنجيلي: «أيها السادة المحلفون: من منكم بلا خطيئة؟»** وأقول إنني لست ضد الحكم: الحكم عادل، وأنا أحترمه، وأرى أنه كان ينبغي إصداره ولو على مصرف واحد فقط. فطابع القضية بالذات يعني أن الإدانة التي يوجهها «الضمير الاجتماعي» لمصرف التسليف الموسكوفي التعس هذا، الذي وَقِع وافتضح أمره، إنما هي إدانة في الوقت نفسه لجميع مصارفنا، وللبورصة بمجملها ولجميع رجالاتها، على الرغم من أن هؤلاء لم «يقعوا» بعد، ولكن هل ثمة فرق؟ من بلا خطيئة؟ من بلا مثل هذه الخطيئة نفسها، هيا أجيبوني بصدق؟ كتب أحدهم أن العقاب كان خفيفاً. أستدرك فأقول: إنني لا أشير هنا إلى لاندو*** فهذا قد اقترف ذنباً غير عادي فعلاً، وأنا لا أرغب في الحديث عن هذا الموضوع بالتفصيل، ولكن، دانيلا شوماخر، الذي حُكم عليه «بسبب الاحتيال»**** جاء عقابه فظيعاً حقاً. فلننظر إلى داخل قلوبنا: هل هم كثيرون بيننا أولئك الذين كانوا سيمتنعون عن فعل الشيء نفسه. لا

(*) عبارة يبتدئ بها المثل المعروف: من قلة الخيل شددنا على الكلاب سروجاً. والترجمة الحرفية للمثل الروسي الوارد في النص الأصلي هي: في حالة غياب السمك... وتتمة المثل التي لم يوردها دوستويفسكي هي: يكون السرطان سمكة. (م).

(**) انظر إنجيل يوحنا 8/ 7 عن السيد المسيح والخاطئة: «من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بأول حجر». (ن).

(***) أحد مديرَيْ المصرف اللذين رشاهما ستروسبيرغ. (ن).

(****) دانيلا شوماخر: رئيس بلدية موسكو سابقاً، وعضو في مجلس المصرف، وقد اتُهم باستغلال منصبه وتسلم كامل وديعته بعد فقدان المصرف جزءاً كبيراً من رأسماله. (ن).

لزوم للاعتراف بهذا علناً، بل يكفي أن نفكر فيه بيننا وبين أنفسنا. وعلى كل فليعش القضاء، لقد أودعناهم السجن! وكأننا نقول لهم: «هاكم (العقاب) على زمننا البورصيّ والفاسد هذا، هاكم (العقاب) على أننا جميعاً أنانيون، وعلى أن لدينا مثل هذه المفاهيم المادية السافلة عن السعادة في الحياة، وعن ملذات هذه الحياة وعلى عاطفة الحفاظ على الذات، التي تتصف لدينا بالجفاف والخيانة!» أجل، إن إدانة ولو مصرف واحد على ذنوبنا الذاتية أمر مفيد...

ولكن يا إلهي، إلى أين أنا شططت؟ أمن المعقول أنني أنا أيضاً أكتب «عن قضية ستروسبيرغ»؟ هذا يكفي ولأسارع إلى الاختصار. لقد كنت أتحدث عن «الإنسان الأفضل»، وأردت أن أبيّن أن المثل الأعلى للإنسان الأفضل الحقيقي، وحتى «الطبيعي»، قد أصبح عندنا مهدداً بالتشوش إلى حد بعيد. فالقديم تحطم واهترأ، والجديد ما زال يحوم في المخيلة، أما في الواقع فقد ظهر على مرأىً منا شيء ما مقزز، وتطوّرَ إلى حد لم يُسمع بمثله في روسيا من قبل. وقد شرعت الجاذبية التي اكتسبتها هذه القوة الجديدة، أعني كيس الذهب، تولِّد الخوف في بعض القلوب، التي تتملكها الوساوس، وذلك، على الأقل، بسبب خوفها على الشعب، على سبيل المثال. فنحن، علية المجتمع، حتى لو افترضنا خضوعنا لإغراء الوثن الجديد، مع ذلك لن نمّحي بدون أن يبقى لنا أي أثر: فليس عن عبث ظل مشعل الثقافة يشع فوق رؤوسنا طوال مئتي سنة. إننا مدججون بسلاح المعرفة، ولذا فنحن نستطيع صد هذا الغول. وها نحن استطعنا في وقت استشراء الفساد القذر في البورصة إلى الحد الأقصى، أن نزج، على الأقل، مصرف التسليف الموسكوفي في السجن! ولكن الشعب، شعبنا الذي يَعُدّ مئة مليون إنسان، هذه «الكتلة المتخلفة، الفاسدة، المجردة من الإحساس»، والتي اخترقها اليهودي، بمَ سيجابه الهجوم الذي يشنه عليه غول المادية متجسداً بصورة الكيس الذهبي؟ هل سيجابهه بعوزه وأسماله، بالإتاوات المفروضة عليه، وشح غلاله، بعيوبه، والسُّكر المتفشي في أوساطه، والجَلْد الذي يعاقَب به؟ كنا نخشى أن يخر الشعب على الفور أمام كيس الذهب الذي تتعاظم قوته، وأنه لن يأتي الجيل القادم إلا ويكون كله قد أصبح عبداً له على نحو أسوأ من السابق. ولن يكون خضوعه عن طريق القسر بالقوة فحسب، بل سيخضع له أخلاقياً وبكامل إرادته. كان ما نخشاه بالضبط هو أن يقول الشعب ذاته قبل الجميع: «هنا... هنا الأمر الرئيس، هنا القوة، هنا الطمأنينة، هنا السعادة! أمام هذا أنحني، وخلف هذا أسير». هذا بالذات ما كان يمكن أن نخشاه أشد الخشية، ولمدة طويلة على الأقل. واستغرق كثيرون في التفكير - وفجأة...

إن ما حدث فجأة هذا الصيف سأتحدث عنه في «يومياتي» القادمة. وأريد أن أتحدث عنه من غير «هزل»، ومن صميم القلب، وعلى نحو أبسط. إن ما حدث هذا الصيف مؤثر ومبهج

إلى حد يكاد لا يصدق. وهو يبدو هكذا لأننا قد نفضنا يدنا من هذا الشعب، واعتبرناه غير مؤهل بالمرة لأن يقول كلمته عن الكيفية التي يجب أن يبدو بها «الإنسان الأفضل» الروسي. لقد اعتقدنا أن كيان هذا الشعب قدأصيب بأكمله بالفساد المادي والروحي، اعتقدنا أن الشعب نسي مبادئه الروحية، ولم يصنها في قلبه؛ وفقد في غمرة عوزه وفساده، مُثُله العليا أو شوَّهها. وفجأة شهدنا أن هذه «الكتلة المتخلفة المتماثلة الأجزاء» (في نظر بعض أذكيائنا طبعاً)، المتمددة بكامل عديدها البالغ مئة مليون على آلاف مؤلفة من الفراسخ، من غير أن يصدر عنها صوت أو نَفَس، وهي في حالة حَبَل أبدي وعجز أبدي، معترف به، عن أن تقول شيئاً أو تفعل شيئاً، وقد اتخذت شكل كائن عفوي أبداً ومطيع أبداً، فجأة شهدنا أن روسيا هذه بأسرها تستيقظ وتنهض، وتقول باستكانة ولكن بثبات كلمتها الرائعة... بل الأكثر من ذلك أن الروس يمسكون بِعِصيِّهم، ويسيرون بالمئات، وفي وداعهم الآلاف من الناس، يسيرون في حملة صليبية جديدة (هكذا بالضبط يسمون هذه الحركة، وكان الإنكليز أول من شبه حركتنا الروسية هذه بالحملة الصليبية) قاصدين صربيا، لنصرة إخوة لهم، لأنهم سمعوا أن هؤلاء يعانون هناك من الظلم والاضطهاد. ثمة أب، جندي مسنّ، ينهض فجأة نهضة المحارب، بدلاً من أن يركن إلى العيش بهدوء، ويمضي سيراً على الأقدام وهو يسأل عن الطريق الممتد آلاف الفراسخ، ليحارب الأتراك دفاعاً عن إخوته، ويصحب معه ابنته التي لم تتجاوز التاسعة من عمرها (وهذه حقيقة)، ويجيب سائليه بقوله: «سأجد في طريقي بين المسيحيين من يصون ابنتي، أما أنا فسأتابع سيري، لأقوم بخدمة القضية الربانية». ويتابع سيره... وهناك آلاف الأمثلة المشابهة! ولو أن أحداً قال قبل ذلك، في الشتاء مثلاً، إن هذا سيحدث عندنا لما صدّقنا قوله، ولما صدقنا حدوث هذه «الحملة الصليبية» التي بدأت فعلاً (ولكن نهايتها ما زالت بعيدة)؛ بل حتى الآن ما زلنا أحياناً نتساءل عفوياً، مع أننا نرى بأم العين ما حدث في الواقع: «كيف أمكن أن يحدث هذا، كيف أمكن أن يتحقق هذا الأمر الذي لم يكن يتوقعه أحد؟» لقد أفصحت الأرض الروسية بصوت مسموع عمّا تجلّه، وعمّا تؤمن به، ودلّت على ما تَعُدُّه «الأفضل»، وعلى من تجلهم بصفتهم «أفضل الناس». وأنا أؤجل الحديث عن صفات هؤلاء الناس بالذات، وعن ماهية المثل العليا التي ارتسمت معالمها إلى «اليوميات» القادمة. إن هذه المثل، و«أفضل الناس» هؤلاء واضحون ومرئيون في الحقيقة من النظرة الأولى فـ «الإنسان الأفضل» في نظر الشعب هو ذاك الذي لم ينحن أمام الإغراء المادي، ويظل يبحث بلا هوادة عن عمل يقوم به لخدمة القضية الربانية، هو الذي يحب الحقيقة، وينهض لنصرتها عند اللزوم تاركاً بيته، وأسرته، ومضحياً بحياته. لقد أردت أن أبين بالذات: لماذا بوسعنا، نحن المتعلمين، أن نأمل الآن بجرأة وثبات بأن صورة «الإنسان الأفضل» لم تُفقد عندنا في

روسيا، بل بالعكس، سطعت بتألق أقوى من أي وقت مضى، ومُقدِّمُ هذه الصورة، وحافظُها، وحاملها هو الآن بالذات الشعب الروسي البسيط، الذي نظرنا إليه بصلف استنارتنا، وأيضاً بسذاجة جهلنا على أنه «غير مؤهل». كنت أرغب في أن أبين بصورة خاصة كيف يمكن لطلبات ومتطلبات «ثقافتنا» نحن المتعلمين، أن تتطابق، حتى في الآونة الراهنة، تطابقاً تاماً مع التصور الشعبي في مسألة «الإنسان الأفضل»، على الرغم من الأشكال الواضحة السذاجة والبساطة، التي يقدم بها الشعب تصوره عن هذا «الإنسان الأفضل». ليس الشكل هو المهم، بل المضمون (مع أن الشكل رائع أيضاً). والمضمون هنا لا جدال فيه. ولهذا تحديداً يمكننا أن نبتهج لامتلاء أنفسنا بأمل جديد: لقد صفا أفقنا أشدّ الصفاء، وها هي شمسنا الجديدة تشرق بسطوع فائق. ولو كان بالمستطاع أن نتفق جميعاً، ونلتقي مع الشعب في فهم واحد لماهية الإنسان الذي ينبغي النظر إليه من الآن فصاعداً على أنه «الأفضل»، لربما كانت قد بدأت منذ هذا الصيف مرحلة جديدة في التاريخ الروسي.

مرة أخرى عن قضية بسيطة ولكن صعبة

منذ شهرين بالضبط كتبت في «يوميات» تشرين الأول (أكتوبر) ملاحظة عن مجرمة تعسة اسمها كاتيرينا بروكوفْيِفا كورنيلوفا، الرابّة التي عمدت في أيار (مايو)، وهي في سورة غضب على زوجها، إلى إلقاء ابنته ذات السنوات الست من النافذة. ومما زاد في اشتهار هذه الحادثة أن الطفلة الصغيرة التي أُلقي بها من نافذة الطابق الرابع لم تُصب بأي أذىً، وهي الآن سليمة معافاة. ولن أذكّر الآن بتفاصيل ما كتبته في مقالة تشرين الأول (أكتوبر)، وربما لم يَنْسها القراء بعد. سأذكّر فقط بالهدف من المقالة: لقد بدا لي على الفور أن هذه القضية شديدة الغرابة، واقتنعت في الحال بأنه لا يجوز النظر إليها ببساطة مفرطة. فالمجرمة التعسة كانت حبلى، وكانت مغتاظة من تعيير زوجها لها، ومصابة بالكآبة. ولكن سبب الجريمة لم يكن يعود إلى رغبتها في أن تنتقم من زوجها الذي كان يعيّرها ويغيظها، بل يعود إلى «هيجان الحمل». وفي رأيي أنها كانت تعاني في ذاك الوقت طوال بضعة أيام أو أسابيع تلك الحالة الخاصة التي لم تُدرس بعد كما يجب، ولكن وجودها لا جدال فيه، أعني حالة بعض النساء الحاملات، اللواتي تحدث في نفوسهن تحولات غريبة، ويخضعن لرغبات وتأثيرات غريبة، ويتعرضن لحالات جنونية بلا جنون، واللواتي يمكن أن يصلن أحياناً إلى القيام بأفعال في منتهى البشاعة. وقد عرضتُ مثالاً ما زلت أذكره منذ الطفولة عن امرأة في موسكو كانت تتملكها في وقت معين من حملها رغبة غريبة، تجعلها تنقاد لنزوة غريبة، تتمثل في هوس السرقة؛ علماً بأن هذه السيدة كانت تملك عربة خاصة، ولم تكن بحاجة البتة إلى الأشياء التي تسرقها، وكانت تسرق عن وعي طبعاً، وتدرك تماماً ماذا تفعل. لقد كانت تحتفظ بكامل وعيها، ولكنها لم تكن تستطيع الصمود أمام تلك الرغبة الغريبة التي تتملكها. هذا ما كتبته منذ شهرين، وأعترف بأنني كتبته سعياً وراء هدف بعيد جداً وميئوس منه: ألا يمكن يا تُرى مساعدة هذه المرأة التعسة بأي شكل وبأية وسيلة، وتخفيف المصير الذي ستلقاه، على الرغم من الحكم المخيف الذي صدر بحقها. ولم أستطع في مقالتي تلك أن أضبط نفسي، وأمتنع عن التصريح بالرأي الآتي:

بما أن محلفينا أصدروا في أحيان كثيرة أحكاماً تقضي بالتبرئة التامة، ومعظم هذه الأحكام تخص النساء، على الرغم من اعتراف المتهمات اعترافاً تاماً بارتكاب الجريمة، وعلى الرغم من الأدلة الواضحة على ارتكابهن هذه الجريمة التي استجلتها المحكمة بكامل أبعادها، فإن من الممكن، كما يبدو لي، تبرئة كورنيلوفا أيضاً. (بعد بضعة أيام من صدور الحكم على كورنيلوفا الحامل التعسة بالأشغال الشاقة، والنفي إلى سيبيريا نفياً مؤبداً، صدر حكم بالبراءة التامة على كيريلوفا* المجرمة القاتلة، الغريبة أشد الغرابة). وبالمناسبة، سأورد هنا ما كنت قد كتبته هناك: «... ولو أن المحلفين برؤوا المتهمة لكان بوسعهم على الأقل، أن يستندوا إلى شيء ما: «مع أن هذه الهيجانات المرضية نادرة الحدوث، إلّا أنها تحدث؛ فماذا نقول إذا كنا في حالتنا هذه، إزاء أحد هيجانات الحمل؟» هذه هي الفكرة. ففي مثل هذه الحالة تكون الرحمة، على الأقل مفهومة للجميع، ولن تؤدي إلى تأرجح الفكر وتردده. ثم ماذا يمكن أن يحدث إذا كان الحكم بالتبرئة خاطئاً: فالخطأ في الرحمة أفضل من الخطأ في الإعدام، ولا سيما إذا كان التحقق من خطأ الحكم وصوابه مستحيلاً. لقد كانت المجرمة هي أول القائلين بأنها مذنبة؛ فقد اعترفت بجريمتها بعد ارتكابها مباشرة، ثم اعترفت بارتكابها بعد مضي ستة أشهر في المحكمة. وربما ستذهب إلى سيبيريا وهي تعترف أمام ضميرها وفي أعماق نفسها بأنها مذنبة. وربما ستموت وهي تشعر في ساعتها الأخيرة بالندم، وتَعُدُّ نفسها قاتلة؛ ولن يخطر ببالها ولا ببال أحد في العالم بأنها كانت تعاني من هيجان مرضي بسبب حالة الحمل، وربما كان هذا الهيجان هو السبب في كل ما حدث، ولو لم تكن حاملاً آنذاك لما حدث شيء من هذا... أجل، إن اختيار خطأ الرحمة هو الأفضل إذا كان لا بد من اختيار أحد الخطأين».

وبعد أن كتبت كل هذا آنذاك، استهوتني فكرتي هذه، فاستسلمت لأحلامي، واسترسلت أقول في مقالتي: إن هذه المجرمة المسكينة ذات العشرين ربيعاً، التي ستضع مولودها بعد أيام في السجن، ربما تكون قد تآلفت ثانية مع زوجها؛ وربما يكون الزوج (الذي أصبح الآن حراً ويملك الحق في الزواج من جديد) قد أخذ يزورها في السجن قبل إرسالها إلى المنفى، وهما يبكيان هناك معاً ويتحسران؛ وربما كانت الطفلة المجني عليها تزور «ماما» هي أيضاً، وقد نسيت كل شيء، وهي الآن تتودد إليها من كل قلبها. وعمدتُ حتى إلى رسم مشهد وداعهما في محطة القطار. وقد انهمرت «أحلامي» هذه كلها من رأس ريشتي آنذاك لا لإحداث انطباع مؤثر ما، ولا لرسم لوحات، بل ببساطة لإحساسي بالحقيقة الحياتية المتمثلة هنا في أن الزوج والزوجة كليهما، مع أنهما يريان – هو يراها وهي ترى نفسها– أنها من غير

(*) آنا كيريلوفا: امرأة في السابعة والعشرين، أطلقت النار، بدافع الغيرة، على صاحب مصنع لإنتاج آليات وعربات السكك الحديدية، كانت تساكنه. (ن).

شك مجرمة، لم يستطيعا في الواقع أن لا يسامح أحدهما الآخر، وأن لا يتصالحا من جديد، ولم يكن هذا بدافع الشعور المسيحي فحسب، بل بدافع الإحساس الغريزي اللاإرادي بأن الجريمة المرتكبة، التي تبدو لناظريهما البسيطين واضحة أشد الوضوح، ولا ريب فيها البتة، ربما كانت في الحقيقة، ليست جريمة بالمرة، بل هي شيء ما حدث على نحو غريب، وفعل تم لسبب غريب، وكأن الأمر لم يجر بإرادتها، بل بتقدير إلهي جزاء ذنوبهما كليهما...

بعد أن أنهيت مقالتي تلك وسلمت عدد المجلة قررت، بتأثير الانطباع الذي خلفه في نفسي ما حلمت به أنا نفسي، أن أبذل كل جهدي لأقابل كورنيلوفا قبل أن تغادر السجن إلى المنفى. وأعترف بأن الفضول كان يدفعني دفعاً لأتحقق مما إذا كنت قد حزرت فعلاً شيئاً ما فيما كتبته عن كورنيلوفا، وفيما حلمت به بعد ذلك؟ وهنا حدث أمر مؤاتٍ جداً أتاح لي فرصة سريعة لزيارة كورنيلوفا والتعرف عليها. وقد دُهشت أنا نفسي مما عرفته: تصوروا أن ثلاثة أرباع أحلامي على الأقل كانت مطابقة للواقع، وكنت في تكهناتي كأني أشهد ما يحدث فعلاً. فالزوج كان يأتي وما زال، وكان الاثنان يبكيان فعلاً وكل منهما يتحسر ويحزن على الآخر ويودعه ويسامحه. وقد قالت لي كورنيلوفا نفسها: «الطفلة كانت ستأتي لو لم تكن تعيش الآن في مدرسة داخلية». إنني آسفُ لعدم تمكني من قول كل ما عرفته عن حياة هذه الأسرة المحطمة، وثمة أمور شديدة الطرافة في هذا المجال، ولكن ربما كانت هكذا في سياقها الخاص بالطبع. نعم، أنا أخطأت في بعض الأمور طبعاً، ولكن ليس في الجوهر: فكورنيلوف، على سبيل المثال، مع أنه فلاح، لكنه يرتدي زياً ألمانياً، وهو أصغر سناً بكثير مما كنت قد افترضت، ويعمل غرّافاً* في مؤسسة إعداد الأوراق الحكومية، ويتقاضى راتباً شهرياً عالياً بالنسبة لفلاح؛ أي أنه أغنى بكثير مما كنت أفترض في أحلامي. أما هي فتعمل خياطة، وقد عملت خياطة حتى هنا في السجن، وهي تتلقى طلبات وتتقاضى لقاء عملها مبالغ لا يستهان بها. وباختصار فإن الحديث هنا لم يكن يدور بالضبط حول «قطعة قماش تافهة، وجزمة من اللبد من أجل الطريق إلى المنفى، وعن الشاي والسكر»، بل كان المستوى أعلى بعض الشيء. وعندما زرتها أول مرة كانت قد وضعت منذ بضعة أيام، ولم يكن المولود صبياً، بل بنت إلخ... إلخ... عدم التطابق طفيف، أمّا في الأمور الأساسية، في الجوهر، فلم يكن هناك أي خطأ.

كانت آنذاك لا تزال في النفاس، وقد وضعوها في غرفة خاصة، وكانت تجلس وحيدة؛ طفلتها المولودة حديثاً، التي عمّدوها بالأمس، كانت تستلقي بجانبها على السرير في الزاوية.

(*) الغرّاف هنا: العامل الذي يغرف عجينة الورق المائعة من البراميل. ومؤسسة إعداد الأوراق الحكومية: المؤسسة المتخصصة بإنتاج الورق الذي تُطبع عليه النقود الورقية والطوابع المالية والبريدية. (ن).

عندما دخلتُ زعقت الطفلة بصوت ضعيف يشوبه صرير خاص خافت كالذي يصدر عن جميع الأطفال المولودين حديثاً. وبالمناسبة، هذا السجن لا يحمل حتى اسم سجن، ولا أدري لماذا، بل يسمى «دار الاحتفاظ التمهيدي بالمجرمين». ويُحتفظ في هذه الدار بعدد كبير جداً من المجرمين، وخصوصاً مرتكبي جرائم من أنواع أخرى مثيرة جداً للفضول، ربما سأتحدث عنها عندما يحين الوقت لذلك. ويجدر بي أن أشير هنا، بالمناسبة، إلى أنني خرجت بانطباع مُعَزٍّ جداً، على الأقل عن هذا القسم النسائي من السجن، حيث شاهدت معاملة إنسانية لا شك فيها من قبل الناظرات تجاه المجرمات. وقد زرت فيما بعد زنزانات أخرى، ومن بينها، على سبيل المثال، الزنزانة التي جمعوا فيها المجرمات ذوات الأطفال الرضّع، وشاهدت بنفسي العناية والاهتمام، والرعاية، التي يوليها إيّاهن هؤلاء الناظرات المحترمات المسؤولات عنهن مباشرة. ومع أن مراقبتي لم تكن طويلة جداً، ولكن هناك سمات، وكلمات، وتصرفات، وحركات معينة توحي على الفور بالكثير. لقد استغرقت زيارتي الأولى لكورنيلوفا عشرين دقيقة: إنها امرأة في مقتبل العمر، صبيحة الطلعة، نظرتها تدل على نباهة، ولكنها بسيطة جداً. في البدء ظلت مدة دقيقتين تقريباً مندهشة بعض الشيء من زيارتي، ولكنها سرعان ما تيقنّت بأنها ترى أمامها نصيراً متعاطفاً معها، كما قدمتُ لها نفسي عندما دخلت، وأخذت تحادثني بصراحة تامة. إنها ليست ممن يتكلمون كثيراً، ولا من سريعي البديهة جداً في الحديث، ولكنها تقول ما تقوله بثبات ووضوح، وبصدق على ما يبدو، وتتحدث دائماً بلطف، ولكن من غير أي تملق أو مداهنة. وقد تحدثت إليّ لا بصفتي نِدّاً، بل كأني أحد ذويها تقريباً. وكانت آنذاك، ربما بتأثير الولادة التي جرت منذ مدة قصيرة جداً، وبتأثير تذكّرها الحكم الذي صدر عليها منذ مدة ليست بالطويلة أيضاً (في آخر أيام حملها)، لا تزال مستثارة بعض الشيء، حتى أنها بكت عندما تذكّرت إفادةً موجهة ضدها قيلت في المحكمة يدعي قائلها أنها نطقت بعبارات معينة يوم ارتكابها الجريمة، في حين أنها في الحقيقة لم تنطق البتة بهذه العبارات. لقد كانت تشعر بحزن شديد بسبب هذا التجني، ولكن ما أدهشني هو أنها كانت تتحدث عن هذا من غير أية ضغينة، ولم تزد على أن هتفت: «نعم، هذه هي قسمتي!» وما إن بدأتُ أنا في اللحظة نفسها بالحديث عن طفلتها المولودة حديثاً حتى ابتسمت على الفور وقالت: «البارحة عمّدوها» سألتها: «وما هو اسمها؟» فأجابت: «كاسمي كاترينا». إن هذه الابتسامة التي ارتسمت على شفاه أمٍّ محكوم عليها بالأشغال الشاقة، عند ذكر طفلتها التي وُلدت في السجن بعد صدور الحكم مباشرة، وحُكم عليها هي أيضاً مع أمها قبل أن تشاهد النور، هذه الابتسامة قد أحدثت في نفسي شعوراً غريباً وثقيل الوطأة. وعندما أخذت أسألها بحذر عن جريمتها تملكني إعجاب شديد على الفور باللهجة التي اتسمت بها أجوبتها. أجابت عن

جميع أسئلتي بصراحة ووضوح، ومن غير مواربة، بحيث أنني لمست مباشرة أنْ لا مكان هنا لأية تحوُّطات خاصة. لقد اعترفت اعترافاً تاماً بأنها ارتكبت كل ما اتُّهمت به. وأدهشني على الفور أيضاً أن حديثها عن زوجها (الذي دفعها سخطها عليه إلى إلقاء الطفلة من النافذة) لم يكن خالياً من أي حقد ومنزهاً عن أي اتهام فحسب، بل كان معاكساً لذلك تماماً. «وكيف إذاً حدث هذا كله؟» لقد روت لي بصراحة كيف حدث. «كنت أرغب في القيام بفعل شرير، ولكن لم يكن هذا بإرادتي أنا، بل بإرادة أخرى غريبة عني» وأذكر أنها أضافت (رداً على سؤالي): مع أنني ذهبت على الفور إلى قسم الشرطة للإبلاغ عما حدث، إلّا أنني «لم أكن البتة أريد الذهاب إلى القسم، وإنما وصلت إلى هناك هكذا، تلقائياً، لا أدري لماذا، واعترفت بكل شيء».

كنت قد علمت عشية زيارتي أن محاميها السيد ل. طلب إحالة الحكم إلى محكمة النقض، وهذا يعني أن ثمة أملاً، وإن كان ضعيفاً، ما زال موجوداً. ولكن بالإضافة إلى ذلك كان في ذهني أمل آخر، لن أتحدث عنه الآن؛ إلّا أنني أخبرتها به آنذاك في نهاية زيارتي. وقد استمعت إليّ من غير أن يكون لديها إيمان قوي بتحقق أحلامي، إلّا أنها آمنت من كل قلبها بتعاطفي معها وشكرتني على ذلك. وعندما سألتها: أيمكنني أن أفيدها بشيء ما الآن، خمّنت مباشرة عمّ أتحدث، وأجابتني أنها ليست بحاجة إلى أي شيء، وأن لديها نقوداً وعملاً. ولم يكن في لهجتها عندما قالت لي ذلك أي أثر للشعور بالاستياء، أي أنها لو كانت لا تملك نقوداً، ربما لم تكن لترفض البتة أن تأخذ مني مساعدة غير كبيرة.

زرتها بعد ذلك مرتين. وقد تعمدت أن أتحدث ذات مرة عن تبرئة القاتلة كيريلوفا تبرئةً تامةً، بعد بضعة أيام فقط من صدور حكم إدانتها – أي إدانة كورنيلوفا –، ولم ألحظ أي أثر للحسد أو التذمر لديها. إنها ميّالة إلى الاعتقاد اعتقاداً مطلقاً بأنها مجرمة غير عادية. وعندما أخذت أتأملها عن كثب تبين لي على نحو عفوي أن ثمة الكثير من التوازن والاستقامة في أساس هذا الطبع الأنثوي المثير للفضول إلى حد ما، ولكن أكثر ما أثار اهتمامي في هذا الطبع هو اتسامه بالمرح. ومع ذلك فإن الذكريات تعذبها على ما يبدو: فهي تشعر بأسف عميق وصادق لأنها كانت تعامل الطفلة بقسوة: «لم تحببها»، وكانت تضربها، لأنها كانت تسمع على الدوام تعيير زوجها لها بأن زوجته المتوفاة أفضل منها؛ وقد خمنتُ بالحدس أنها كانت، على ما يبدو، تغار عليه من زوجته المتوفاة تلك. ومن الواضح أنها كانت تشعر بالانزعاج من فكرة أن زوجها الآن حر، وبإمكانه حتى أن يتزوج؛ وقد قالت لي مرة بارتياح كبير فور وصولي لزيارتها إن زوجها زارها منذ مدة قصيرة، وقال لها بنفسه: «وهل هذا وقت مناسب لأن أفكر بالزواج!» فقلت في نفسي إن هذا يعني أنها هي التي بادرته إلى الحديث عن هذا الموضوع.

وأكرر ثانية أنها كانت تدرك تمام الإدراك أن زوجها، بعد الحكم الذي صدر عليها، لم يعد زوجها، وأن عقد قرانهما قد فُسخ، وخطر لي على الفور أن لقاءاتهما، والأحاديث التي تجري بينهما هي بالفعل شديدة الطرافة، ومثيرة للفضول.

وقد اتفق لي في أثناء هذه الزيارات أن تحدثت عنها مع بعض الناظرات في السجن، ومع السيدة أ. پ. ب، معاونة مديرة السجن. وعجبت من مشاعر الود الظاهرة التي أثارتها كورنيلوفا لديهن جميعاً. وأخبرتني السيدة أ. پ. ب في معرض الحديث، أن ثمة أمراً أثار اهتمامها، فقد لاحظت أن كورنيلوفا، عندما أحضروها إلى السجن (بعد وقوع الجريمة ببرهة قصيرة) كانت كأنها كائن آخر تماماً؛ كائن فظ، جلف، غضوب، ترد على سائلها بأجوبة سريعة غاضبة. ولكن ما إن مضى أسبوعان أو ثلاثة حتى تغيرت فجأة تغيّراً تاماً وبدت كائناً طيباً، بسيطاً، وديعاً «وظلت هكذا حتى الآن»؛ وقد بدت لي هذه المعلومة مناسبة جداً للقضية. ولكن المصيبة في أن القضية قد بُتَّ فيها ووُقّع على الحكم الذي صدر فيها. غير أنني أُبلغت قبل أيام أن حكم المحكمة الذي رُفع إلى محكمة النقض قد نُقض (بسبب مخالفة المادة 693 من أصول المحاكمات الجزائية)* وسيُحوَّل إلى قسم آخر من المحكمة للنظر فيه من جديد بمشاركة محلّفين. وعلى هذا فإن كورنيلوفا الآن، في هذه البرهة، أصبحت مرة أخرى قيد المحاكمة، ولم تعد محكوماً عليها بالأشغال الشاقة، وعادت زوجة شرعية لزوجها، وعاد هو زوجها الشرعي! أي أن الأمل، بالنسبة إليها، أشرق نوره من جديد. وأسأل الرب أن لا تتحطم هذه النفس الشابة، التي تحملت الكثير، تحطماً نهائياً بحكم إدانة جديد. إنه لأمر فادح أن تتحمل النفس البشرية مثل هذه الصدمات: لكأن محكوماً عليه بالإعدام رمياً بالرصاص فكوا وثاقه من العمود، وبثوا في نفسه الأمل، ونزعوا العِصاب عن عينيه، وأرَوْه الشمس من جديد، ثم بعد خمس دقائق عادوا فجأة وربطوه إلى العمود. وبالفعل، أَمِن المعقول أن لا يُوجه أي انتباه إلى حقيقة أن المتهمة كانت حاملاً عند ارتكابها الجريمة؟ إن الجزء الأهم في الاتهام هو، بالطبع، أن المتهمة قد ارتكبت جريمتها عن وعي؛ ولكن لنتساءل من جديد: أي دور يا ترى للوعي في هذه الحالة؟ من الممكن أنها كانت بكامل وعيها، ولكنها لم تستطع أن تقاوم ذاك الهيجان المَرَضي المجنون الشاذ الذي ولّد فيها تلك الرغبة، على الرغم من أن وعيها كان بمنتهى الصفاء. أفيبدو هذا مستحيلاً تمام الاستحالة حقاً؟ لو لم تكن حبلى لربما كانت ستقول لنفسها في لحظة حنقها وانفعالها: «يا لها من بنت مقيتة؛ يخطر لي أن ألقي بها من النافذة، كي لا يعيّرني كل دقيقة بمحاسن أمها» ستفكر في ذلك، ولا تفعله. أما في حالة

(*) استفاد دوستويفسكي من هذه الحادثة في تصويره محاكمة دميتري في روايته «الإخوة كارامازوف». (ن).

الحمل فإنها لم تستطع المقاومة، وفعلت ما فكرت فيه. ألا يمكن أن يكون هذا هو ما حدث فعلاً؟ ولكن ماذا عن اعترافها هي نفسها بأنها أرادت عشية الحادثة أن تلقي بالطفلة من النافذة ولكن وجود زوجها حال بينها وبين ذلك؟ أقول، مع هذا، إن هذه النية الإجرامية التي تكونت لديها بكل منطقية وتصميم، والتي جرى تنفيذها في صباح اليوم التالي وفق منهج مرسوم (تغيير مواضع أصص الأزهار وما شابه ذلك)، لا يجوز بحال من الأحوال أن نصنّفها ضمن خانة الجريمة المدبرة المألوفة: فما جرى هو في الحقيقة شيء غير طبيعي وشاذ. فكروا في الأمر الآتي: بعد أن ألقت بالطفلة وأطلّت من النافذة لترى كيف سقطت (في الدقيقة الأولى فقدت الطفلة وعيها، وكان الناظر من النافذة يمكن أن يعدّها ميتة)، أغلقت القاتلة النافذة، وارتدت ملابسها، وذهبت إلى قسم الشرطة لتبلغ عن نفسها. ولكن ما الذي دعاها إلى الإبلاغ عن نفسها لو كانت قد أضمرت تنفيذ الجريمة بعزم وهدوء، وحساب دقيق متروٍّ. ومن الذي سيشهد بأنها هي التي رمت الطفلة، وأن الطفلة لم تسقط بسبب عدم حيطتها؟ بل كان بوسعها أيضاً أن تؤكد لزوجها عند عودته أن الطفلة سقطت قضاءً وقدراً وأنه لا يد لها في سقوطها (وبذلك تكون قد انتقمت من زوجها وبرأت نفسها)؛ ثم لو كانت قد تيقنت آنذاك، بعد أن أطلت من النافذة، بأن الطفلة لم تتهشم، وأنها بالعكس، حية ويمكن أن تشهد ضدها فيما بعد، فإنها مع ذلك لم تكن لتخشى شيئاً: إذ ما الذي كانت ستعنيه في نظر التحقيق إفادة طفلة في السادسة من عمرها، عن أن أحداً قد رفعها من قدميها، وألقى بها من النافذة؟ إن أي دكتور خبير يمكنه أن يؤكد احتمالَ أن يخيل لها (حتى لو كانت قد سقطت من تلقاء ذاتها) في لحظة اختلال التوازن والسقوط، أن أحداً ما كما لو كان قد أمسك بقدميها من الخلف ودفعها إلى الأسفل. وإذا كان الأمر هكذا، فلأي سبب ذهبت المجرمة على الفور للإبلاغ عن نفسها؟ سيجيبونني طبعاً: «لأنها كانت يائسة، وأرادت أن تنتهي من حياتها بأي شكل كان». وبالفعل لا جدوى من البحث عن تفسير آخر؛ ولكن هذا التفسير وحده كاف لأن يرينا مدى التوتر النفسي والاختلال، اللذين كانا يتملكان هذه الحبلى. ويلفت النظر في هذا الصدد قولها هي ذاتها: «لم أكن أريد الذهاب إلى القسم، ولكن ما شعرت إلّا وقد وصلت إلى هناك». أي أنها كانت تتصرف كما لو كانت في حالة بُحران، «كأن الأمر لم يكن بإرادتي»، على الرغم من أنها كانت بكامل وعيها.

ومن جهة أخرى توضّح شهادة أ. پ. ب أيضاً أموراً كثيرة جداً: «كانت كائناً آخر تماماً، كائناً فظاً، غضوباً، وما إن مضى أسبوعان أو ثلاثة حتى تغيرت فجأة تغيراً تاماً: وبدت كائناً وديعاً، هادئاً لطيفاً»*. ما السبب في ذلك؟ السبب هو أن مرحلة الحمل المَرَضية المعروفة،

(*) الاختلاف الطفيف في صيغة الشهادة مطابق للأصل الروسي. (م).

مرحلة الإرادة المريضة، وحالة «الجنون بلا جنون» قد انتهت، وزال معها الهيجان المَرَضي، وظهر كائن آخر.

وماذا الآن. إنهم سيحكمون عليها من جديد بالأشغال الشاقة، ومن جديد سيحطمونها، ويسحقونها بحكم ثانٍ، بعد أن تحطمت وتحمّلت ما لا يمكن احتماله، وسيلقون بهذه المرأة ذات العشرين ربيعاً، التي لم تبدأ حياتها تقريباً، سيلقون بها وبطفلتها الرضيعة في سجن الأشغال الشاقة، وما هي النتيجة؟ هل ستخرج بالكثير من هذا السجن؟ ألن تقسو نفسها، ألن تفسد، ألن يسكن الحقد قلبها إلى الأبد؟ ومتى أصلح سجن الأشغال الشاقة أحداً؟! والمهم أن هذا كله يجري في وجود شك لم يوضَّح، ولم يدحض البتة، حول الهيجان المَرَضي الذي كان يعتريها في حالتها آنذاك وهي حامل. وأكرر ثانيةً ما قلته منذ شهرين: «الخطأ في الرحمة أفضل من الخطأ في الإعدام». برِّئوا هذه التعسة، عسى إلّا تَهْلَكَ نفس فتية ربما تنتظرها في المستقبل حياةٌ طويلة، وربما ثمة بذور خيّرة كثيرة ستنمو على يديها. أما في سجن الأشغال الشاقة فمن المؤكد أن كل شيء سيهلك، لأن النفس ستفسد، في حين أن الدرس المرعب الذي تلقته سيقيها الآن، وربما طوال الحياة من الإتيان بفعل ذميم. والأهم أن هذا ربما سيكون من شأنه أن يساعد بقوة على تنشيط تلك البذور والبوادر الطيبة التي تنطوي عليها، من دون شك، كما هو واضح للعيان، هذه النفسُ الفتية. وحتى إذا كان قلبها بالفعل قاسياً وشريراً، فإن من شأن الرحمة، على الأرجح، أن تلينه. ولكنني أؤكد لكم أنه أبعد ما يكون عن القسوة والشر، ولست وحدي من يشهد على هذا، أحقاً لا تجوز تبرئتها، أو المجازفة بتبرئتها؟

عِبرة متأخرة

سبّب لي عدد تشرين الأول (أكتوبر) من «يومياتي» من جملة ما سببه، بعض الهموم، ولكنها هموم من نوع خاص طبعاً. فهو يحتوي مقالة قصيرة بعنوان «الحُكْم»، وقد خلفت المقالة في نفسي بعضاً من شك ذي طبيعة خاصة. وهذا «الحكم» هو اعتراف منتحر، أو كلمة أخيرة كتبها منتحر لتبرير فعلته، أو ربما لتقديم موعظة، قبل لحظة إطلاق النار على نفسه. بعض أصدقائي الذين أقدّر رأيهم بأعلى الدرجات، لم يتوانوا حتى عن امتداح المقالة،

ولكنهم أكّدوا أيضاً شكوكي. وكان ما امتدحوه هو أن المقالة قد وضعت اليد بالفعل على ما يمكن أن يكون المعادلة المنطقية التي يتبناها هذا النوع من المنتحرين، والتي تعبر بوضوح عن جوهرهم، ولكنهم شكوا في أن يكون هدف المقالة مفهوماً من قبل جميع القرّاء؟ وتساءلوا: ألن تخلق يا ترى لدى بعض القراء انطباعاً معاكساً تماماً للمقصود منها؟ بل أكثر من ذلك: ألن تغري بعض الأشخاص، وبالذات أولئك الذين كانوا حتى قبل ذلك يوازنون في مخيلتهم بين المسدس والأنشوطة، ألن تغريهم هذه المقالة وتثبّت في نفوسهم نياتهم التعسة؟ وباختصار، كانت الشكوك التي عبروا عنها مطابقة تماماً للشكوك التي تولدت لدي. ينتج من هذا كله أنه كان من الضروري أن يبين الكاتب في نهاية المقالة، على نحو مباشر وبسيط، وبكلماتٍ واضحةٍ، الهدفَ الذي يرمي إليه من كتابتها، بل حتى أن يختتمها بالعبرة الصريحة المستخلصة منها.

وقد وافقت على هذا الاستنتاج؛ بل كنت أنا نفسي أشعر وأنا أكتب المقالة بأن العِبرة ضرورية؛ ولكنني استحييت أن أضيفها. وبدا لي أن من المخجل الافتراض بأن ثمة أحداً من القراء، مهما كان بسيطاً، لن يفطن إلى بطانة المقالة، وهدفها، والعبرة المستخلصة منها. فقد كانِ الهدف واضحاً لي إلى الحد الذي جعلني أفترض لا إرادياً أنه واضح بالقدر نفسه إلى أي قارئ. ولكن تبين أنني كنت مخطئاً.

ثمة ملاحظة مُحِقَّة أدلى بها أحد الكتّاب منذ بضع سنوات هي أن الاعتراف بعدم فهم أشياء ذات طابع معين كان يُعدّ في السابق مُخجلاً، لأنه كان يدل دلالة مباشرة على غباوة المُعترف وجهله، والقصور في تطور عقله وقلبه، وضعف قدراته الذهنية. أما الآن فبالعكس، أصبحت عبارة «أنا لا أفهم شيئاً» غالباً جداً ما تقال بما يشبه الفخر، أو على الأقل، بشموخ. أصبحت هذه العبارة تضع قائلها فوراً على ما يشبه منصة شرف عالية في نظر سامعيه، بل الأكثر إضحاكاً أنها تفعل ذلك في نظر قائلها نفسه، من غير أن يشعر بأي قدر من الخجل من رخص هذه المنصة التي وُضع عليها. إن عبارة «أنا لا أفهم أي شيء من أعمال رفائيل» أو «لقد قرأت عن قصد كل أعمال شكسبير وأعترف بأنني لم أجد فيها أي شيء متميز»، يمكن أن يُنظر إليها الآن على أنها دليل لا على عمق التفكير فحسب، بل أيضاً على نبل من نوع خاص حتى لتكاد تكون مأثرة أخلاقية. وهل شكسبير وحده، أو رفائيل وحده هما من يتعرضان الآن لمثل هذا الحكم وهذا التشكيك؟

إن هذه الملاحظة عن الجهلة الفخورين بجهلهم، التي صغتها هنا بكلمات من عندي، ملاحظة صحيحة بقدرٍ وافٍ. بالفعل، لقد بدأ افتخار الجهلة يأخذ أبعاداً تفوق الحد. أناس ضعيفو التطور وبليدو الذهن لا يخجلون البتة من صفاتهم البائسة هذه، بل بالعكس؛

فقد سارت الأمور على نحوٍ ما بحيث أن هذا بالذات أصبح «يمدهم بالعزيمة». كما أنني لاحظت أيضاً مراتٍ ليست بالنادرة حصولَ انفرادات عظيمة في الأدب وفي الحياة الخاصة، واختفاء تعدُّدِ جوانب المعرفة: فثمة أشخاص يجادلون خصومهم حتى ظهور الزبد على أشداقهم، من دون أن يكونوا قد قرؤوا خلال عقد كامل من السنين أحياناً سطراً واحداً مما كتبه خصومهم، بدعوى: «أنهم ليسوا من أصحاب هذه القناعات، وهم غير مستعدين لقراءة سخافات»؛ في حين أن الحقيقة هي أن «عتادهم بقدر درهم وتنطعهم بقدر دينار». إن هذا الإفراط في وحدة الجانب، والانغلاق، والانفراد، وعدم التسامح لم يظهر إلّا في زمننا، أي في الأعوام العشرين الأخيرة على الأخص. وقد ظهرت لدى كثيرين جداً في هذه الأثناء جرأة مجردة من الحياء: أشخاص ذوو معارف تافهة يضحكون، وحتى مواجهةً، من أشخاص يفوقونهم بعشر مرات معرفةً وفهماً. ولكن الأسوأ هو أن سيطرة «النظر باتجاه واحد» تزداد أكثر فأكثر مع مرور الزمن: فقد غدا من الملاحظ، على سبيل المثال، فقدان حس النسبية، والمجاز، والتمثيل الكنائي. ومن الملاحظ أنهم كفوا (على وجه العموم) عن فهم المزاح، والفكاهة، وهذا بحسب رأي أحد المفكرين الألمان، واحد من أسطع الدلائل على انحطاط العصر عقلياً وأخلاقياً. وبالعكس ظهر بلداء متجهمون، وتقطبت الجباه، واستطالت الوجوه؛ وازداد التصلب أكثر فأكثر، والسير على خط مستقيم، والنظر إلى نقطة واحدة. هل تظنون أنني أتحدث عن الشباب، وعن الليبراليين فقط؟ أؤكد لكم أنني أقصد الشيوخ، وأقصد المحافظين أيضاً. لقد ظهر منذ عشرين عاماً محافظون غريبون، من ذوي الاتجاه الواحد، وشيوخ مغتاظون وكأنهم كانوا يقلدون الشباب (الذين أصبحوا الآن شيباً على كل حال)، ولم يكونوا يفقهون شيئاً في الشؤون الجارية، ولا في الناس الجدد، ولا في الجيل الشاب. ويمكن القول إن النظر في اتجاهٍ واحد لديهم كان، في بعض الأحيان، أكثر تشنجاً وتصلباً وغباء مما هو عليه لدى «الناس الجدد». أوه، نعم، ربما كان مصدر كل هذا لديهم فيض الرغبات الحسنة، والإحساس النبيل، ولكنْ الغاضب، بتلك الرعونات المستحدثة، ولكن مع ذلك تجدهم أحياناً أشد عمىً حتى من أحدث ذوي النظر باتجاه واحد. وعلى كل يبدو لي أنني، أنا نفسي، في سياق إداناتي للنظر في اتجاه واحد، انحرفت عن الموضوع أكثر من اللزوم.

إذاً، ما إن أبصرتْ مقالتي النور حتى انهالت علي الأسئلة في الرسائل وشخصياً: ما الذي تعنيه مقالتُك «الحكم»؟ ما الذي تريد أن تقوله فيها، وهل من المعقول أنك تسوّغ الانتحار؟ وكان بعض الأشخاص، كما بدا لي، مسرورين لسبب ما. منذ أيام أرسل لي أحد الكتّاب،

وهو السيد اينبيه مقالة صغيرة* تحتوي على شتم مؤدب، كان قد نشرها في مجلة «التسلية» الأسبوعية التي تصدر في موسكو. إن مجلة «التسلية» لا تصلني، ولا أظن أن الذي أرسل لي هذا العدد هو الناشر، ولذا أعزو هذا الإرسال لِلُطف كاتب المقالة. وهو يشجب فيها مقالتي ويضحك منها:

«تسلمت إصدار تشرين الأول (اكتوبر) من «يوميات كاتب» وقرأته ورحت أفكر: في هذا الإصدار كثيرمن الأشياء الجيدة، ولكن فيه أيضاً كثير من الأشياء المستغربة. ولنعبر عن حيرتنا بأكثر الصيغ إيجازاً. لِمَ ضُمّن هذا الإصدار «استدلال عقلي» لأحد المنتحرين من الضجر. إنني حقاً لا أفهم، لماذا؟ هذا الاستدلال، إذا جاز لنا أن نطلق هذه التسمية على شخص شبه مجنون، معروف منذ زمن بعيد، ولكن طبعاً بصياغة مختلفة قليلاً، لدى كل من يجب أن يعرفه ويدري به، ولذا فإن ظهوره في زمننا في يوميات كاتب مثل ف. م. دوستويفسكي يمثّل** مغالطة تاريخية مضحكة وبائسة. نحن الآن في عصر المفاهيم الحديدية، عصر الآراء الإيجابية، عصر يرفع راية «العيش مهما كان الثمن!» من البدهي أن ثمة استثناءات في كل شيء، وفي كل مكان، ثمة انتحارات باستدلالات، ولكن لا أحد الآن يولي هذه البطولة المبتذلة أي انتباه: فهي بطولة موغلة في الغباء! كان هناك وقت يرفعون فيه الانتحار، ولا سيما الانتحار باستدلال إلى أسمى درجات «الوعي» - ولكن ليس من المعروف وعي ماذا؟- وأسمى درجات البطولة، وأيضاً ليس من المعروف: في ماذا، بيد أن هذا الوقت الرديء قد مضى، ومضى من دون رجعة، والحمد لله على هذا، فليس ثمة ما يؤسف عليه.

إن كل منتحر يموت بموجب استدلال يماثل الاستدلال المكتوب في يوميات السيد دوستويفسكي لا يستأهل أي أسف؛ إنه أناني جلف، يطمح إلى الشهرة، وهو أكثر أفراد المجتمع البشري ضرراً. إنه لا يستطيع حتى أن يفعل فعلته الحمقاء من دون أن يتحدثوا عنه؛ وهو حتى هنا لا يلتزم بالدور الذي يلعبه، ولا يخلص لطبعه المتكلف، فهو يكتب استدلالاً، مع أنه كان يمكن أن يموت من غير استدلال...

آه، يا فالستافات*** الحياة! أيها الفرسان المتصنعون!...».

(*) المقصود: مقالة «اينبيه» التي نشرها بعنوان «يوميات كاتب ساخر حسن النية» في العدد (51) من مجلة «التسلية» الصادر في 14/ 12/ 1876. (ن).

(**) الفعل الروسي المستعمل هنا له عدة معانٍ، وغالباً ما يستعمل بمعنى «يخدم» أي إن الترجمة الحرفية للعبارة الروسية هي: ولذا فإن ظهوره في زمننا... يخدم مغالطة... وسيستغل دوستويفسكي هذا الأمر في رده على «اينبيه». (م).

(***) فالستافات: جمع لاسم فالستاف، وهو اسم شخصية في مسرحيتي شكسبير: «هنري الرابع»، و«ساخرات وندسور»، وقد استعمل هنا بمعنى المتبجح، العديم الفائدة، واللاأخلاقي. (ن).

عندما قرأت هذا أُصبت بما يشبه الكآبة. يا إلهي! أمن المعقول أن يكون الكثير من قرائي هم من أمثال هذا القارئ؟ وهل من المعقول أن يكون السيد اينبيه الذي يزعم أن المنتحر، الذي كتبت عنه، لا يستأهل أي أسف، قد اعتقد بجدّ أنني قدمته له «ليتأسف» عليه؟ طبعاً لو كان هذا الرأي هو رأي اينبيه وحده لما كان له أهمية تذكر. ولكن القضية في أن السيد اينبيه في حالتنا هذه يمثل، بلا شك، أنموذجاً يشبه جزئياً ذاك الأنموذج العديم الحياء الذي تحدثت عنه آنفاً، العديم الحياء والذي ينظر في اتجاه واحد، أنموذج تلك «المفاهيم الحديدية»، التي تحدث عنها السيد اينبيه نفسه في النبذة التي اقتبستُها من مقالته. صدقوني: إن الاشتباه بوجود مجموعة كاملة من هذا النوع أمر يبعث حتى على الرعب. طبعاً ربما كنت أغالي في تأثري بهذا الأمر، ولكنني أقول بصراحة: بصرف النظر عن قابلية التأثر الشديدة لدي، لم أكن لأرد على تلك المجموعة، ليس من قبيل الاستهانة بها، لا على الإطلاق، (ولِمَ الامتناع عن الحوار مع الناس؟) بل، ببساطة، لضيق المكان في هذا الإصدار من اليوميات؛ وإذا كنت أرد الآن مضحياً بالمكان المتاح، فإنني أرد على شكوكي الذاتية، أرد على نفسي بالذات، إذا جاز القول. إنني أرى أن مقالتي في إصدار تشرين الأول (أكتوبر) تحتاج إلى تعقيب عاجل يتضمن العِبرة المستخلصة منها، وإيضاح الهدف الذي ترمي إليه، بل حتى شرحه شرحاً مفصلاً. وبهذا سأريح ضميري على الأقل؛ هذا كل ما في الأمر.

آراء بدون تعليل

تتناول مقالتي «الحكم» فكرة الوجود الإنساني الأساسية والأكثر سمواً: أي ضرورة وحتمية الاقتناع بخلود الروح البشرية. وبطانة هذا الاعتراف الذي يدلي به شخص يضع نهاية لحياته «بانتحار منطقي»، هي ضرورة الاستنتاج الآني الفوري الآتي: إن وجود الإنسان من دون إيمانه بروحه وبخلودها هو أمر غير طبيعي، وغير معقول، ولا يُطاق. وقد خُيّل لي أنني عبرت بوضوح عن معادلة الانتحار المنطقي، وأنني عثرت عليها. فالإيمان بالخلود ليس له وجود لديه، وهو يوضّح هذا منذ البداية. وتدفعه شيئاً فشيئاً فكرةُ لا غائيّة وجوده، وكرهه لغياب صوت التكلس المحيط به إلى الاقتناع المحتم بالسخافة التامة لوجود البشر على

الأرض. ويصبح من الواضح له وضوحَ الشمس، أنْ لا أحد من البشر يستطيع الموافقة على العيش سوى أولئك الذين يشبهون الحيوانات الدنيا ويقتربون من نمطهم من حيث ضآلة تطور وضعهم، وقوة تطور الحاجات الجسدية البحتة لديهم. إنهم يوافقون على أن يعيشوا كالحيوانات بالضبط، أي لكي «يأكلوا ويشربواويناموا ويبنوا أعشاشاً وينتجوا أبناء». أجل، إن الأكل والنوم والتبرز، والجلوس على الوثير ستظل إلى أمد طويل جداً تشد الإنسان إلى الأرض، ولكن ليس ذاك الذي ينتمي إلى الأنماط الإنسانية العليا؛ علماً بأن هذه الأنماط العليا هي صاحبة السيادة على الأرض، وهي التي كانت تسمو دائماً، وكانت الأمور تنتهي على الدوام إلى أن تسير خلفها الملايين عندما يئين الأوان. ما هي الكلمة الأسمى والفكرة الأسمى؟ إن هذه الكلمة وهذه الفكرة (اللتين لا يمكن للبشرية أن تعيش من غيرهما) غالباً جداً ما ينطق بهما أول مرة أناس فقراء، غير بارزين، ولا يمتازون بأية أهمية، بل غالباً جداً ما يكونون مضطهدين، ويموتون، وهم مضطهدون ومغمورون. ولكن تلك الفكرة وتلك الكلمة، اللتين أطلقوهما، لا تموتان أبداً، ولا تتلاشيان من دون أثر، ولا يمكن أبداً أن تتلاشيا بعد أن انطلقتا، وهذا أمر مذهل في المجتمع البشري. ففي الجيل التالي، أو بعد عقدين أو ثلاثة عقود من السنين تستولي فكرة العبقري على الجميع، وتجتذب الجميع، وتكون النتيجة أن الذي ينتصر ليس ملايين الناس، وليس القوى المادية، التي تبدو في الظاهر مرعبة وراسخة، ولا النقود، ولا السيف، ولا الجبروت، بل الفكرة، التي كانت في البدء غير بارزة، وشخص ما غالباً ما كان يبدو شديد التفاهة. إن السيد اينبيه يكتب أن ظهور مثل هذا الاعتراف في «يومياتي» «يمثّل» [.....]* «مغالطة تاريخية وبائسة»... لأن العصر الآن هو «عصر المفاهيم الحديدية، عصر الآراء الإيجابية»، عصرٌ يرفع رايةَ: «العيش مهما كان الثمن!» (هكذا إذاً، ولهذا إذاً، على الأرجح، تكاثرت إلى هذا الحد في عصرنا حوادث الانتحار في أوساط الفئة المثقفة). وأنا أؤكد للسيد اينبيه المحترم ولأمثاله أن هذا «الحديد» يتحول، عندما يئين الأوان، إلى هباء أمام فكرة أخرى مهما بدت هذه الفكرة تافهة في البدء في نظر سادة «المفاهيم الحديدية». وأنا شخصياً أرى أن واحداً من أفظع الأخطار التي تهدد مستقبلنا، وحتى مستقبلنا القريب جداً يتمثل بالذات، من وجهة نظري، في أن جزءاً كبيراً جداً من الفئة المثقفة الروسية، بحكم أمرٍ... ماذا نقول؟ لِنقل: مقدَّرٍ، خاصٍ وغريبٍ، يترسخ لديه أكثر فأكثر، بسرعة تتزايد تزايداً فائقاً، إنكارٌ كاملٌ لروحه وخلودها. وفضلاً عن أن هذا الإنكار يترسخ عن عقيدة (العقائد

(*) هنا يستغل دوستويفسكي المعنى الرئيس للفعل الذي استعمله «اينبيه» وهو «يخدم» (الذي ترجمته إلى العربية بفعل «يمثل» بحكم السياق)؛ ويكتب دوستويفكي بين قوسين (يخدم من، وماذا؟). وهذا مثال على المآزق التي تصادف المترجم بسبب خصوصية كل من لغتي المصدر والهدف. (م).

عندنا، أياً كان ما نعتقد به، ما زالت جد قليلة)، كما يترسخ بسبب لا مبالاة غريبة متفشية في كل مكان، لا مبالاة بهذه الفكرة الأسمى للوجود البشري، لا مبالاة ساخرة أحياناً ولا يدري سوى الرب من أين أتت، وبحكم أية قوانين استقرت عندنا، وهي لا مبالاة لا بهذه الفكرة فحسب، بل بكل ما هو حيوي، لا مبالاة بحقيقة الحياة، وبكل ما يمد الحياة ويغذيها، بكل ما يمد الحياة بالعافية، ويقضي على التفسخ والنتانة. وتكاد هذه اللامبالاة أن تكون في زماننا خاصية روسية بالمقارنة، على الأقل، مع الأمم الأوربية الأخرى؛ فقد تغلغلت منذ مدة بعيدة في جسد الفئة المثقفة وهدمتها تقريباً. ليس بوسع الإنسان ولا الأمة أن يعيشا من دون تلك الفكرة الأسمى، والفكرة الأسمى على الأرض واحدة فقط، وهي فكرة خلود الروح البشرية، وذلك لأن جميع الأفكار «السامية» الأخرى في الحياة، الأفكار التي يمكن أن يعيش بها الإنسان، إنما تصدر عن هذه الفكرة الأسمى بالذات. وهنا يمكن لآخرين أن يجادلوني (أقصد حول وحدة مصدر كل ما هو سام على الأرض)؛ ولكنني لن أدخل الآن في جدال حول هذه المسألة، بل أكتفي مؤقتاً بطرح فكرتي من دون تعليل، إذ لا يمكن التوضيح دفعة واحدة، ومن الأفضل أن يتوضح الأمر بالتدريج. وسيكون لدينا الوقت لذلك في المستقبل.

المنتحر لدي شخص يعبر بحماسة عن فكرته، أي عن ضرورة الانتحار، وهو ليس شخصاً لا مبالياً، أو حديدياً. إنه بالفعل يعاني ويتعذب، وأظن أنني عبّرت عن هذا بوضوح. وهو يرى بجلاء شديد أن العيش بالنسبة إليه مستحيل من وجهة نظره، وهو يعرف كلَّ المعرفة أنه على حق، وأن من المستحيل دحض فكرته. وتجابهه مجابهةً لا تُصَدّ الأسئلة التي تسبق كل أسئلة أخرى وتسمو عليها:

«لماذا يعيش، بعد أن أدرك أن العيش كما يعيش الحيوان شيء مقزز، وشاذ وغير كاف بالنسبة إلى الإنسان؟ وما الذي يمكن في هذه الحالة أن يبقيه على الأرض؟» إنه غير قادر على تلقي حلول لهذه المسائل، وهو يعرف هذا، لأنه، على الرغم من إدراكه، كما عبر هو نفسه، أن ثمة «انسجاماً في الكليّ» ولكنني، كما يقول: «أنا بالذات لا أفهمه، ولن أكون قادراً على فهمه أبداً، ولن أشارك فيه، فهو إذاً غير ضروري، ويأتي من تلقاء ذاته». هذا الوضوح هو بالذات الذي قضى عليه. فيم تكمن المصيبة هنا، وفيمَ هو أخطأ؟ سبب المصيبة الوحيد هو فقدانه الإيمان بالخلود.

إنه يبحث بحرقة (أي أنه كان يبحث عندما كان حياً، وكان يبحث وهو في حالة معاناة) عن المصالحة؛ كان يريد أن يجدها في «حب الإنسانية». إنه يقول: «إن لم أكن أنا، فربما ستكون الإنسانية محظوظة وتصل يوماً إلى الانسجام. إن هذه الفكرة كان يمكن أن تبقيني

على الأرض». إنها فكرة نبيلة طبعاً، وهي إلى جانب ذلك تدل على معاناة. ولكن قناعته الراسخة بأن حياة البشرية في الحقيقة هي مجرد لحظة كحياته هو نفسه، وبأنه في اليوم التالي للوصول إلى «الانسجام» (إذا آمنّا بأن هذا الحلم ممكن التحقيق) ستتحول البشرية إلى صفر كشأنه هو، وذلك بحكم القوانين المتكلسة التي تتحكم بالطبيعة؛ وسيأتي هذا بعد صنوف المعاناة الشديدة التي ستتحملها لتحقيق هذا الحلم؛ هذه الفكرة تثير سخطه إلى أقصى حد، وبسبب حبه للإنسانية بالذات تثير شعوره بالسخط والإهانة نيابة عن الإنسانية بأسرها، وبموجب قانون انعكاس الأفكار تقتل في نفسه حتى حبه للإنسانية. وقد شهدنا مثل هذا الأمر بالضبط أكثر من مرة، وذلكِ عندما يصل الحال بأسرة ما إلى الاقتراب من الموت جوعاً، وعندما تصبح معاناة الأبناء، في النهاية، لا تحتمل، يبدأ الأب أو الأم يكرهان هؤلاء الأبناء الذين كانا يحبانهم كثيراً من قبل، وذلك لأن معاناتهما أصبحت لا تُحتَمل. أزعم أكثر من ذلك أن وعيكم بعجزكم التام عن تقديم مساعدة للإنسانية التي تعاني، وبعدم قدرتكم حتى على إفادتها بشيء ما، أو التخفيف من معاناتها، مع قناعتكم التامة في الوقت نفسه بوجود هذه المعاناة، يمكن أن يحوّل الحب الذي تكنّونه في قلوبكم للإنسانية إلى كره لها. إن السادة أولي الأفكار الحديدية لن يصدقوا هذا طبعاً، بل لن يفهموه البتة: فحب الإنسانية وسعادتها هما على درجة من الرخص، ومن سهولة التناول ومن البساطة في التقديم والكتابة، تجعلهما أمراً لا يستأهل حتى التفكير فيه. ولكنني عازم على إضحاك هؤلاء حتى الإِغْراب: إنني أعلن (ومرة ثانية من غير برهان مؤقتاً) أن حب الإنسانية ليس معقولاً ولا مفهوماً البتة، بل ليس ممكناً على الإطلاق، إذا لم يقترن بالإيمان بخلود الروح البشرية. أما أولئك الذين يجردون الإنسان من إيمانه، ويريدون أن يُحلّوا محلّ هذا الإيمان، «حبَّ الإنسانية»، بصفته هدف الحياة الأسمى، إنما هم بذلك يقفون ضد أنفسهم بالذات، لأنهم يزرعون في قلب فاقد الإيمان جنين كره الإنسانية بدلاً من حب الإنسانية. فليهزّ حكماء الأفكار الحديدية أكتافهم استغراباً لزعمي هذا. ولكن هذه الفكرة أعقد من أن تستوعبها حكمتهم؛ وأنا أؤمن، من دون شك، بأنها ستصبح يوماً ما بديهية في نظر الإنسانية، مع أنني أطرح هذا أيضاً، مرة أخرى، من دون تعليل مؤقتاً.

وأنا أزعم وأتجرأ حتى على القول إن حب الإنسانية عموماً هو، بصفته فكرة، إحدى أصعب الأفكار التي يعجز العقل الإنساني عن استيعابها. أقصد بصفته فكرة بالذات. ولا يمكن تسويغه إلّا بصفته عاطفة فقط. ولكنها عاطفة ممكنة في حالة واحدة فحسب، هي حالة اقترانها بالإيمان بخلود الروح الإنسانية (ومرة أخرى من دون تعليل). يتضح في المحصلة أن الانتحار في حالة فقدان الاعتقاد بالخلود يصبح ضرورة مطلقة، بل حتى محتمة بالنسبة إلى

كل إنسان سما في تطوره، ولو قليلاً عن البهائم، وبالعكس، فإن الخلود، بما هو وعد بحياة أبدية، يربط الإنسان ربطاً أوثق بالأرض. وهنا يبدو كما لو أن ثمة تناقضاً في هذا الطرح: فإذا كان هناك أكثر من حياة، أي إذا كانت هناك حياة أبدية، علاوة على الحياة الدنيا، لِمَ إذاً نحرص كل هذا الحرص على الحياة الدنيا؟

الأمر بعكس ما يظنون تماماً، وذلك لأن الإنسان لا يدرك كامل أبعاد الغاية المعقولة من وجوده على الأرض، إلّا إذا آمن بأنه خالد. أما إذا فقد هذا الإيمان، فإن صلاته مع الأرض تتقطع، وتزداد وهناً واهتراءً، ثم إن فقدان مغزى الحياة الأسمى (هذا الفقدان الذي ربما لا يحس به فاقده سوى على شكل حنين كئيب لا واعٍ) يفضي، بلا شك، إلى الانتحار. من هنا نستنتج العبرة العكسية لمقالتي التشرينية [الأكتوبرية]: «إذا كان الاعتقاد بالخلود جدَّ ضروري للوجود الإنساني، يكون، على هذا، هو الحالة السوية للإنسانية؛ وبما أن الأمر كذلك، فإن خلود الروح الإنسانية ذاته موجود بلا شك». وباختصار: إن فكرة الخلود هي الحياة نفسها، الحياة الحية، وهي معادَلَتُها النهائية، وهي المصدر الرئيس للحقيقة وللوعي السليم بالنسبة للإنسانية. هذا هو هدف المقالة، وكنت قد افترضت أن أي قارئ لها سيتبينه تلقائياً.

شيء ما عن الشبيبة

لأقل، بالمناسبة، إنهم على الأرجح، سيلفتون نظري إلى أن ثمة أناساً في عصرنا ينتحرون من دون أن يكونوا قد فكروا قط في أية مسائل عليا؛ ومع ذلك فهم ينتحرون لسبب غامض، من دون أية دوافع ظاهرة. وبالفعل، نحن نشهد كثيراً جداً (وهذه الوفرة بحد ذاتها لغز من نوعٍ خاص) من حوادث الانتحار الغريبة والغامضة، التي لا تعود أسبابها البتة إلى الحاجة أو الإهانة، ولا نرى لها أية أسباب ظاهرة؛ إنها ليست نتيجة لعوز مادي، أو لحب مُهان، أو غيرة، أو مرض، أو سوداوية، أو جنون؛ بل هكذا، لسبب لا يدريه إلّا الرب. وتشكل هذه الحالات في عصرنا إغراء كبيراً، وبما أنه لا يمكن البتة أن ننفي عنها صفة الوباء [المتفشي بالعدوى] فإنها تتحول بالنسبة لكثيرين إلى مسألة مقلقة للغاية. وأنا لن آخذ على عاتقي طبعاً

تفسير جميع حالات الانتحار هذه، وبدهي أنني لست قادراً على ذلك*، ولكنني بالمقابل مقتنع تماماً بأن أكثرية هؤلاء المنتحرين، على العموم، على نحو مباشر أو غير مباشر، أنهوا حياتهم من جراء مرض روحي واحد هو خلو أنفسهم من فكرة الوجَود العليا [ومغزاه]. وبهذا المعنى أقول إن اللامبالاة، بصفتها مرضاً روسياً معاصراً، قد افترست نفوسنا كافة. وبالفعل، نرى عندنا الآن من يصلي ويذهب إلى الكنيسة، ولكنه لا يؤمن بخلود روحه؛ لا، ليس لنا أن نقول إنه لا يؤمن، بل إنه ببساطة، لا يفكر في هذه المسألة بتاتاً. وأحياناً لا يكون هذا الشخص «حديدياً» على الإطلاق، وليس بهيمياً، ولا إنساناً من النمط الأدنى. وكما كنت قد أسلفت فإن معنى الحياة الأسمى ومغزاها كله إنما ينبثقان من هذا الإيمان وحده، كما تنبثق منه الرغبة في الحياة والإقبال عليها. ولكنني أعود وأكرر أن هناك كثيرين من المقبلين على الحياة مجردون من أية أفكار ومن أي معنىً سامٍ لها، بل هم يعيشون عيشة الحيوانات، عيشة النمط الأدنى من البشر. ولكن أطرف ما في الأمر أن هناك أشخاصاً كثيرين، بل كثيرين جداً، ربما تراهم في الظاهر شديدي الجلافة والبذاءة، في حين أن طبيعتهم، ربما من دون إدراك منهم، تحن منذ مدة طويلة إلى بلوغ أهداف الحياة ومعانيها السامية. وهؤلاء لا يجدون الطمأنينة بحب الأكل والفطائر المحشوة، وبحب الخيول المطهمة، والفسق، والمناصب العالية، والسلطة الوظيفية، وخضوع المرؤوسين، ووقوف الحُجّاب عند أبواب منازلهم. أمثال هؤلاء يطلقون النار على أنفسهم بلا سبب، كما يبدو في الظاهر، في حين أن السبب الأكيد هو الحنين، ولو في اللا شعور، إلى معنى الحياة الأسمى الذي لم يعثروا عليه في أي مكان. وترى بعض هؤلاء يقوم، قبل أن يطلق النار على نفسه، بفعل خسيس فاضح، أو يقدم على أمر شنيع، أو على تصرف فظيع. ويصعب على المرء، بالطبع، وهو ينظر إلى كثيرين من هؤلاء أن يصدق أنهم وضعوا حداً لحياتهم بسبب «الحنين إلى أهداف الحياة الأسمى»: «لا، إنهم لم يفكروا على الإطلاق في أية أهداف، ولم يتكلموا في أي وقت على أي شيء من هذا القبيل، بل كانوا يرتكبون «القبائح» ليس إلّا»؛ هذا هو الصوت العام! فليكن أنهم لم يكونوا يهتمون، وكانوا يرتكبون القبائح: ولكن هل تعرفون، معرفةً أكيدة، بأية طرق معقدة في حياة المجتمع ينتقل هذا الحنين السامي أحياناً إلى بعض النفوس ويصيبها بالعدوى؟ نعم، إن الأفكار تطير في الهواء، ولكن وفق قوانين لا مفر منها، الأفكار تعيش وتنتشر وفق قوانين يصعب علينا جداً أن نحيط بها؛ والأفكار مُعدِية؛ وهل تعلمون أن فكرة ما، أو همّاً ما، أو حنيناً ما، من النوع الذي لا يتولد إلّا في ذهن متطور وذي ثقافة عالية، يمكن أن ينتقل فجأة بحكم البنية العامة للحياة،

(*) أتلقى رسائل كثيرة جداً يصف لي فيها مرسلوها وقائع انتحار، ويسألونني: ما هو رأيك في وقائع الانتحار هذه وكيف تفسرها؟ (ملاحظة الكاتب).

إلى كائن فج، يكاد لا يحسن القراءة والكتابة، ولم يهتم يوماً بأي شيء فيعدي روحَه فجأة بقوة تأثيره؟ لعلهم سيلفتون انتباهي ثانية إلى أن ثمة أطفالاً، أو فتياناً صغاراً لم يختبروا الحياة بعد يقتلون أنفسهم في عصرنا هذا. وأنا لدي قناعة خفية بأن شبيبتنا تعاني وتكتئب بسبب فقدانها أهداف الحياة العليا. في أُسَرنا لا يأتون تقريباً على ذكر هذه الأهداف، أما فكرة الخلود فإنهم لا يكتفون بعدم التفكير فيها بالمرة، بل لا يندر أن يسخروا منها؛ ويفعلون هذا بحضور الأولاد منذ طفولتهم المبكرة، وربما بقصد تربيتهم على هذا.

منذ أيام قال لي معارضاً واحد من أكثر كتابنا موهبة* «عندنا لا وجود للأسرة بالمرة». وليس لي إلا أن أقول: إن هذا صحيح جزئياً: ففي حالة اللامبالاة العامة بأهداف الحياة العليا عندنا، يمكن، طبعاً أن تتزعزع أركان الأسرة في أوساط شرائح معينة من الأمة. ومن الواضح بجلاء، على الأقل، أن الجيل الشاب عندنا محكوم عليه بأن يفتش بنفسه عن مثل عليا، وعن مغزى الحياة الأسمى. ولكن فصل الشباب على هذا النحو، وتركهم لقواهم الذاتية، أمر فظيع. وهذه مسألة مهمة جداً جداً في البرهة الراهنة، في اللحظة الراهنة من حياتنا. إن شبيبتنا تعيش الآن في وضع لا يتيح لها أن تجد في أي مكان على الإطلاق أية إشارات تدلها على مغزى الحياة الأسمى. أما ما يمكن أن تجده لدى العقلاء عندنا ولدى قادتها عموماً في وقتنا هذا فهو، أكرر، ليس أكثر من نظرة ساخرة، ليس فيها أي شيء إيجابي - أي: بِمَ يجب أن تُؤْمِنُ، وماذا يجب أن تحترم، وتقدس، وإلامَ يجب أن تطمح؟ إن كل هذه الأمور ضرورية جداً للشباب، وهم يتوقون إليها كما كان شأنهم دائماً في جميع الأزمان والأماكن! وإذا كانت الأسرة والمدرسة قد استطاعتا فيما سبق أن تقدما لهم بعض التوجيهات الصحيحة، وكانت لديهما القدرة على ذلك، فإنهما قد أصبحتا الآن (طبعاً مع بعض الاستثناءات) غير مباليتين بهذا الأمر بسبب المهام والأهداف الأخرى الكثيرة التي جعلها طابع العصر أكثر عملية وأهمية. إن شبيبة السادس من كانون الأول (ديسمبر) في ساحة قازان[115] هي، بدون شك، مجرد «قطيع مسوق» يتحكم به محتالون مَكَرة، كما تدل، على الأقل، الحقائق التي أوردتها صحيفة «الوقائع الموسكوفية»؛ ولا أدري إلامَ ستؤول الأمور، وما الذي سينتج عن هذه القضية. ولا شك في أننا هنا إزاء حماقة كيدية ولا أخلاقية، وتقليد فرديٌّ لآخرين، ولكن لم يكن بوسعهم أن يجمعوا هؤلاء الشباب لو لم يقنعوهم بأنهم يجتمعون من أجل أمر سامٍ ورائع، ومن أجل ضرب مدهش من التضحية بالذات في سبيل أهداف عظمى. وحتى إذاً كان هذا هو «بحثاً عن المثل العليا» لدى قلة قليلة جداً منهم، فإن هذه القلة القليلة تسيطر

(*) المقصود: م. ي. سلطيكوف - شيدرين. (ن).

على الآخرين، وتقودهم خلفها، وهذا أمر أصبح واضحاً. ولنتساءل الآن: من المذنب في أن مثلهم الأعلى مشوه هكذا؟ هم طبعاً، مذنبون، ولكن ليسوا وحدهم. لا شك في أن الواقع الحالي المحيط بهم كان يمكن أن ينقذهم من انقطاعهم الشنيع هذا عن كل ما هو ضروري وواقعي، ومن عدم فهمهم الفاحش لأبسط الأشياء. ولكن القضية هي في أنه قد آن الأوان الذي يجب أن يؤدي فيه الانقطاع عن «التربة»، وعن الحقيقة الشعبية في أوساط جيلنا اليافع، إلى إدهاش وإفزاع حتى «آباء» هذا الجيل أنفسهم، الذين انقطعوا عن كل ما هو روسي منذ زمن بعيد، وهم يعيشون بقية عمرهم في طمأنينة هانئة بصفتهم أرفع نُقّاد الأرض الروسية. وها قد آن أوان تلقي الدرس: إنه درس للأسرة، وللمدرسة، وللنقّاد المطمئنين بهناءة إلى ما هم مقتنعون به: فهم أنفسهم الآن ينكرون النتائج التي آل إليها سلوكهم، ويتنصلون منها، ولكن... ولكن هل من الجائز تحميلهم، تحميل هؤلاء الآباء، الوزر كله؟ أليسوا هم أنفسهم ثمرةً ونتاجاً للقوانين والأقدار المصيرية الخاصة التي تهيمن على الشريحة المثقفة كلها في المجتمع الروسي، منذ ما يقارب قرنين كاملين، وصولاً تقريباً إلى زمن الإصلاحات العظمى التي جرت في هذا العهد؟ أجل، من الواضح أن هذا الانقطاع عن «التربة»، وعن أي فعل حقيقي طوال مئتي عام، لم يكن ليمر من دون أثر. إن الإدانة لا تكفي، بل يجب البحث عن أدوية للعلاج. والأدوية، في رأيي، موجودة: إنها في الشعب، في مقدساته، وفي ارتباطنا به. ولكن الحديث عن هذا سيأتي فيما بعد. وأنا عندما قررت أن أكتب هذه «اليوميات» كان من جملة دوافعي الحديث عن هذه الأدوية بقدر ما أستطيع.

عن الانتحار والاستكبار

يجب أن أنتهي من السيد إينبيه. لقد حدث له ما يحدث لكثيرين من «نمطه»: الشيء الواضح لهم، والشيء الذي بوسعهم أن يفهموه بسرعة فائقة، هو شيء غبي. وميلهم إلى احتقار الوضوح أكبر بكثير من ميلهم لامتداحه. ويختلف الأمر لديهم مع الشيء المعقد أو الضبابي: «آه، هذا لا نفهمه، معنى ذلك أنه عميق».

يقول إن «استدلال» المنتحر في مقالتي هو مجرد «هذيان شخص شبه مجنون»، وإنه

«معروف منذ زمن بعيد». وأنا ميال جداً إلى الاعتقاد بأن هذا «الاستدلال» لم يصبح «معروفاً» لديه إلّا بعد أن قرأ مقالتي. أما عن قوله «إنه هذيان شخص شبه مجنون» فإنني أقول إن هذا الهذيان (هل يعرف هذا السيد إينبيه وكل من هم على شاكلته يا ترى)؟ هذا الهذيان - أي الاستنتاج القائل بضرورة الانتحار، هو بالنسبة إلى كثيرين، بل حتى لكثيرين جداً في أوربا- يُعَدّ الكلمة الأخيرة للعلم. وأنا عبّرت بكلمات موجزة عن «كلمة العلم الأخيرة» هذه على نحو واضح ومبسط، لسبب واحد فحسب، هو دحض هذه «الكلمة» لا بالاستدلال العقلي أو المنطق، - لأنها عصية على الدحض منطقياً (وأنا أدعو لا السيد اينبيه وحده، بل أي شخص كان إلى أن يدحض «هذيان المجنون» هذا منطقياً) - بل بالإيمان، بالاستنتاج الذي يقرر ضرورة الإيمان بخلود الروح الإنسانية، وضرورة الاعتقاد بأن هذا الإيمان هو المصدر الوحيد للحياة الحية على الأرض؛ هو مصدر الحياة، والعافية والأفكار المعافاة، والاستنتاجات والقرارات المعافاة...

لأختتم بشيء كوميدي للغاية. في عدد تشرين الأول (أكتوبر) نفسه، تحدثت عن انتحار ابنة شخص مهاجر: «لقد بللت قطعة من القطن بالكلوروفورم، وربطتها على وجهها، واستلقت على السرير... وهكذا ماتت. وكانت قد كتبت قبل أن تموت الرسالة الآتية: «أنا متوجهة في رحلة طويلة. إذا لم ينجح الانتحار ليت الجميع يجتمعون ليحتفلوا بقيامتي من بين الأموات حاملين كؤوس الكليكو. لأنه من المقيت تماماً أن أصحو وأنا في تابوت تحت التراب. لن يكون هذا من الشياكة في شيء!».

غضب السيد «اينبيه» باستكبار على هذه المنتحرة «التافهة»، وقرر أن تصرفها «لا يستأهل إيلاءه أي انتباه»، كما غضب عليّ أيضاً لتساؤلي «الساذج للغاية» عندما سألت: أي واحدة من هاتين المنتحرتين قد تعذبت في دنياها أكثر؟ وهنا انتهى الأمر إلى ما يضحك. فقد أضاف فجأة «أجرؤ على الظن بأن الشخص الذي يرغب في أن يرحبو\ بعودته إلى الحياة وهم يحملون كؤوس الشمبانيا بأيديهم (من البديهي: بأيديهم)، لم يتعذب كثيراً في هذه الحياة؛ فهو يعود مرة أخرى إليها بمثل هذا الاحتفال، من دون أن يغيّر أي شيء في شروطها؛ بل هو لا يفكر في هذه الشروط...».

أية فكرة مضحكة هذه، وأي تصور مضحك! المهم أن ما اجتذب انتباهه هنا هو الشمبانيا: «فمن يشرب الشمبانيا لا يمكن أن يتعذب». ولكن لو كانت تحب الشمبانيا كل هذا الحب لكانت بقيت على قيد الحياة من أجل أن تشربها، ولكنها كتبت عن الشمبانيا قبل الموت. أي قبل موت محقق، وهي تعرف جيداً جداً أن موتها أكيد. أما احتمال صحوتها من جديد فإنها لم تكن تؤمن به جدياً، كما أنه لم يكن احتمالاً ساراً لها على الإطلاق، لأن الصحوة ثانية

تعني لها، طبعاً صحوة من أجل انتحار جديد. وعلى هذا فإن الشمبانيا لا أهمية لها هنا، أي أنها ليست من أجل الشرب على الإطلاق؛ وهل، حقاً يحتاج هذا إلى إيضاح؟ لقد كتبتْ عن الشمبانيا لرغبتها في أن تقول وهي تموت شيئاً غريباً شديد الشناعة والقذارة. وهي لم تختر الشمبانيا إلّا لأنها لم تجد شيئاً آخر أقذر وأشنع من هذه اللوحة، أي لوحة شرب الشمبانيا بمناسبة «قيامها من بين الأموات». وقد كانت بحاجة إلى كتابة هذه العبارة لكي تهين بهذه القذارة كل ما تركته على الأرض، ولكي تلعن الدنيا وحياتها الدنيوية، وتبصق عليها، وتوصل هذه البصقة إلى علم القريبين منها الذين غادرتهم. فما هو سبب هذا الحقد لدى الفتاة ذات السبعة عشر ربيعاً؟ (ملاحظة: كانت في السابعة عشرة لا في العشرين، كما كنت قد ذكرت، خطأً، في مقالتي، وقد صحح لي هذا الخطأ فيما بعد أشخاص يعرفون القصة جيداً)، وعلى من هي حاقدة؟ لم يسئ إليها أحد، ولم تكن بحاجة إلى شيء، وقد ماتت، على ما يبدو، بلا أي سبب، ولكن هذه الرسالة بالذات، واهتمامها بأن تقول في تلك اللحظات مثل هذه العبارة الغريبة القذرة التي تدل على الحقد (وهو أمر واضح)، هذا بالذات هو ما يدفع إلى التفكير في أن حياتها كانت أنقى بما لا يقاس من هذه القذارة، وفي أن هذا الحقد اللامتناهي الذي تنطوي عليه عبارتها الغريبة يدل، بالعكس على الألم والعذاب المتغلغلين في بنية روحها، وعلى اليأس المستولي عليها في آخر لحظات حياتها. ولو أنها انتحرت بسبب شعورها بضجر لا مبالٍ، من دون أن تعرف لماذا، لما كانت كتبت هذه العبارة الغريبة. إن روحاً هذه حالها يتطلب منا موقفاً مفعماً بمزيد من محبة الإنسان. فالمعاناة هنا واضحة، وسبب الانتحار هو، حتماً كآبة الروح، وشدة العذاب النفسي. فما الذي بكّر في إصابتها بكل هذا العذاب وهي ما زالت في السابعة عشرة من عمرها؟

في هذا بالذات تكمن مسألة العصر المرعبة. أنا افترضت أنها انتحرت تحت وطأة شعورها بكآبة الحنين (المبكرة جداً) وافتقادها هدف الحياة، وذلك نتيجة تربيتها التي شوهتها النظريّة في بيت ذويها؛ تربيتها التي انطوت على مفهوم خاطئ لمغزى الحياة الأسمى وأهدافها، وعلى تدمير مقصود لأي إيمان في نفسها بخلودها. فليكن هذا مجرد افتراض شخصي من قِبَلي؛ ولكن من الأكيد أنها لم تنتحر من أجل أن تترك بعدها هذه الرسالة السافلة، كما يبدو، ويا للعجب، أن السيد اينبيه يفترض؟ «فلا أحد يبغض جسده البتة...»* إن قتل الذات أمر خطير، بصرف النظر عن ذكر «الشياكة» وما شابه ذلك، أما الانتحار الوبائي الذي يتفشى أكثر فأكثر في أوساط الفئات المثقفة فهو أمر بالغ الخطورة، وجدير بالمراقبة الدائمة والدراسة. من نحو سنة ونصف أطلعني أحد الإختصاصيين المؤهلين من ذوي المواهب

(*) انظر العهد الجديد: رسالة الرسول بولس إلى أهل أفسس (5/ 29). (ن).

العالية في المجال القضائي عندنا* على رزمة من الرسائل والملاحظات التي كتبها متحرون بأنفسهم قبل الموت، أي قبل خمس دقائق من إقدامهم على الانتحار. وما زلت أذكر سطرين كتبتهما فتاة في الخامسة عشرة من العمر. كما أذكر كتابةً بحروف معوجة مترنحة، كُتبتْ بقلم رصاص في عربة سائرة، وقد أطلق كاتبها النارعلى نفسه قبل أن تصل العربة إلى المكان الذي كانت تقصده. وأعتقد أن هذه الرزمة المثيرة للاهتمام، لو اطلع عليها السيد اينبيه، لأحدثت، ربما انقلاباً ما في نفسه هو أيضاً، ولجعلت القلق يتسرب إلى قلبه المطمئن. وعلى كل حال من الضروري أن نتخذ من هذه الوقائع موقفاً يتسم بالمزيد من محبة الإنسان وخالياً تماماً من الاستكبار. فلربما كنا جميعنا مذنبين في حدوث هذه الوقائع، ولن ينقذنا أي «حديد» فيما بعد من العواقب المفجعة لطمأنينتنا واستكبارنا، عندما يئين الأوان، ويحين وقت هذه العواقب.

هذا يكفي. لقد رَدَدْتُ لا على السيد اينبيه وحده، بل على كثيرين من السادة أمثاله.

نادرة من حياة الأطفال

أرويها كيلا أنساها.

تسكن في أحد أطراف بطرسبورغ، بل في منطقة أبعد من الأطراف، أم وابنتها ذات الإثني عشر ربيعاً. أسرة ليست غنية، ولكن الأم تعمل وترتزق من عملها، أما الابنة فتدرس في مدرسة ببطرسبورغ، وهي في كل مرة تذهب فيها إلى المدرسة أو تعود منها إلى البيت تركب عربة عامة، تنطلق من موقف «غوستينّي دْفور» ** حتى مكان سكنهما وتعود أدراجها عدة مرات في اليوم في مواعيد محددة.

في ذاتِ مساء ليس ببعيد، منذ نحو شهرين، عندما حل الشتاء عندنا بسرعة مفاجئة، وبدأت تتشكل أولى الطرقات الصالحة لسير الزحّافات، واستمرت الأيام المنيرة الهادئة أسبوعاً كاملاً، انخفضت في غضونه الحرارة درجتين أو ثلاث درجات تحت الصفر، نظرت الأم إلى ابنتها وقالت لها:

(*) المقصود هوالمحامي ورجل القانون والمجتمع الروسي الشهير أ. ف. كوني (1844-1927). (ن).
(**) اسم مجمّع تجاري ضخم في مدينة بطرسبورغ. (م).

- ساشا، أرى أنك لا تراجعين دروسك؛ لاحظت هذا على مدى عدة أماسٍ. هل حفظت كل الدروس؟

- أوه، ماما، لا تقلقي، درست كل شيء؛ حتى إنني حضّرت دروس الأسبوع القادم كله.

- حسن إذاً.

في اليوم التالي توجهت ساشا إلى المدرسة وبين الساعة الخامسة والسادسة، وعندما وصلت العربة العامة، التي كان من المفروض أن تعود فيها ساشا، إلى قرب مدخل البيت، قفز منها مراقب التذاكر وسلم الأم رسالة من ابنتها تقول فيها:

«أمي الحبيبة، أنا كنت طوال الأسبوع ابنة سيئة جداً. نلت ثلاثة أصفار، وكنت أخدعك طوال الوقت. أخجل من العودة إليك، ولن أعود بعد الآن. وداعاً يا أمي الحبيبة، سامحيني ابنتك ساشا».

يمكن أن نتصور ماذا جرى للأم. أرادت طبعاً، أن تترك العمل فوراً وتهرع إلى المدينة لتبحث عن ابنتها، مقتفية أية آثار، أياً كانت. ولكن أين؟ وكيف؟ وقد صدف أن كان هناك شخص يعرفهما عن كثب، وقد اهتم اهتماماً حاراً بالأمر وتطوع للذهاب فوراً إلى بطرسبورغ، والاستعلام في المدرسة، ثم البحث بدأب عند جميع المعارف ولو استغرق الأمر الليل بطوله. والمهم أن تفكير الأم في أن ساشا، إذا عادت في هذه الأثناء من تلقاء نفسها، نادمةً على قرارها السابق، ولم تجد أمها في البيت، فإنها، على الأرجح، ستغادر من جديد، التفكير في هذا جعلها تبقى في المنزل وتثق بجدوى الاهتمام الحار الذي أبداه الرجل الطيب. أما إذا لم يتم العثور على ساشا حتى الفجر فسيبلغون الشرطة في الصباح الباكر. وقد قضت الأم التي بقيت في البيت بضع ساعات ثقيلة الوطأة، لن أَصِفَها لأنها مفهومة بالبديهة.

وتكمل الأم الرواية قائلة: «وفجأة إذا بي أسمع حوالي الساعة العاشرة وقعِ خطوات على ثلج الفِناء، خطوات سريعة صغيرة مألوفة ما لَبِثْ أن وصلت إلى الدرج، ثم فُتِح الباب ودخلت ساشا.

- ماما، آه، ماما، كم أنا سعيدة بالعودة إليكِ، آه!

مدّت يديها إلى الأمام وكفّاها مفتوحتان، وضمّت إحداهما إلى الأخرى، وغطّت بهما وجهها وجلست على السرير. كانت متعبة منهوكة القوى. وقد بدأت هنا، طبعاً أولى صيحات الاستغراب، وأولى الأسئلة، وظلت الأم حذرة، ولم تجرؤ في تلك اللحظات على توبيخ ابنتها.

- آه، ماما، عندما كذبت عليك البارحة بشأن الدروس، قررت آنذاك على الفور:

لن أذهب إلى المدرسة بعد الآن، ولن أعود إليك؛ فكيف يمكن أن أكف عن الذهاب إلى المدرسة، وأخدعك كل يوم مدعيةً أنني أذهب؟

- وكيف أردت أن تعيشي وحدك؟ إذا كنت لن تذهبي إلى المدرسة ولن تعودي إليّ، أين كنت ستعيشين؟

- فكرت في أن أبقى في الشارع. نهاراً أسير في الشوارع. الفروة التي ألبسها دافئة، وإذا بردتُ أذهب إلى «البسّاج»* وأتغدّى كل يوم صمّونة** أشتريها، واشرب أي شيء، فالآن يوجد ثلج. صمونة واحدة تكفيني. ولديّ 15 كوبيكاً وسعر الصمونة ثلاثة كوبيكات، أي لخمسة أيام.

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك لا أعرف، لم أفكر ماذا سأفعل بعد ذلك.

- طيب والمبيت، أين كنت ستبيتين؟

- المبيت فكرت فيه، عندما يحل الظلام ويتأخر الوقت فكرت في أن أذهب كل يوم إلى خط القطار، ومن هناك إلى محطة القطارات؛ هناك لا يوجد أحد، ويوجد عدد كبير من عربات القطارات. سأصعد إلى واحدة من هذه العربات، التي يكون من الواضح أنها لن تغادر المحطة، وأبيت فيها حتى الصباح. وقد ذهبت إلى هناك، وسرت إلى مكان بعيد خلف المحطة، ولم يكن هناك أحد، ورأيت في جانب منعزل تماماً عربات واقفة لا تشبه بالمرة العربات التي يسافرون فيها. فكرت في أن أصعد إلى إحداها ولن يراني في أثناء ذلك أحد؛ ولكن ما إن هممت بالصعود حتى سمعت الحارس يصيح فجأة: - إلى أين تصعدين؟ هذه عربات نقل الموتى. وما إن سمعت ذلك حتى قفزت مبتعدة، وإذا بالحارس يقترب مني ويسألني: «ماذا تريدين أن تفعلي هنا؟». هربت منه، وأخذت أركض وأركض، وصرخ هو قائلاً شيئاً ما، وبينما كنت أسير شاهدت فجأة بناية حجرية كبيرة، ما زالت تبنى ولم ينتهوا بعد سوى من جزئها الآجري، أما النوافذ الزجاجية والأبواب فلم يركبوها بعد، وقد سدّوا أماكنها بألواح خشبية؛ والبناء محاط بسياج. قلت في نفسي: إذا استطعت أن أتسلل كيفما كان إلى البناء فلن يراني أحد هناك بسبب الظلام؛ دخلت من الزقاق، وبحثت عن مكان يمكنني التسلل منه، وإن كان مسدوداً بألواح خشبية. واستطعت التسلل، فإذا بي كأنني في حفرة، فالأرض ما زالت ترابية. سرت متلمسة الحائط حتى وصلت إلى زاوية كُدّست فيها ألواح خشبية وآجرّ.

(*) سوق تجارية مسقوفة في بطرسبورغ. (م).

(**) رغيف خبز أبيض صغير. (م).

قلت في نفسي: هنا سأبيت، على هذه الألواح، ولكن ما إن تمددت عليها حتى سمعت صوتاً، وكأن أحداً يتكلم بصوت خافت جداً، فنهضت بجذعي قليلاً وسمعت أصوات أشخاص في أقصى الزاوية يتكلمون بصوت خافت، وكأن هناك عيوناً تنظر إليّ. شعرت بخوف شديد، وركضت إلى المدخل نفسه الذي تسللت منه، واتجهت إلى الشارع من جديد، وسمعتهم ينادونني. استطعت أن أقفز إلى الخارج؛ وكنت قد ظننت سابقاً أن البناية فارغة.

وعندما خرجت من هناك شعرت فجأة بأنني تعبة جداً. أنهكني التعب بشدة. سرت في الشوارع بين الناس السائرين، ولم أكن أعرف كم الساعة. وصلت إلى شارع «نيفسكي» وسرت قرب «غوستينّي دْفور» وانفجرت بالبكاء. كنت أقول لنفسي: «آه لو أن إنساناً طيباً من المارة يشفق على هذه البنت المسكينة التي لا تجد مكاناً تبيت فيه. سأعترف له بهذا، وسيقول لي: تعالي للمبيت عندنا». وبينما أنا أسير وأفكر في هذ رأيت فجأة العربة التي أركب فيها عادة، كانت واقفة، وكنت أظنها قد ذهبت منذ وقت بعيد، وإذا بها توشك أن تنطلق في رحلتها الأخيرة. قلت لنفسي: «آه، فلأذهب إلى أمي!» ركبت فيها، وكم أنا مسرورة يا ماما لأنني عدت إليك! لن أخدعك أبداً بعد الآن، وسأجتهد في دراستي، آه ماما، ماما! وأردفت الأم قائلة: - سألتها: أصحيح يا ساشا أنك فكرت بنفسك في كل هذا: أن لا تذهبي إلى المدرسة، وأن تعيشي في الشارع؟

- أتعرفين يا أمي، أنا تعرفت منذ مدة طويلة على بنت مثلي، ولكنها تدرس في مدرسة أخرى. هل تصدقين أنها لا تذهب إلى المدرسة، وتقول للجميع في البيت إنها تذهب. وقد قالت لي إن الدراسة مملة، والحياة في الشارع مسلية جداً. تقول: «عندما أخرج من البيت أمشي وأمشي طوال الوقت؛ لم أذهب إلى المدرسة منذ أسبوعين، انظر عبر النوافذ إلى داخل المخازن، أذهب إلى «البسّاج»، آكل صمّونة، وهكذا حتى المساء، ثم أعود إلى البيت». وأنا عندما عرفت كل هذا منها قلت لنفسي: «يا ليتني أفعل الشيء نفسه» وأصبحت أشعر بالملل في المدرسة. ولكن لم تكن لدي نية في أن أفعل هذا حتى يوم أمس، والبارحة عندما كذبت عليك، عزمت...».

هذه النادرة - حقيقية وقد اتخذت الأم الآن طبعاً، تدابير معينة. وعندما رووا لي هذه القصة فكرت في أن نشرها في «اليوميات» سيكون مناسباً جداً. وقد سمح لي أصحاب العلاقة بهذا مع الالتزام التام بـ incognito* بالطبع. ومن البديهي أن يعترض البعض على الفور قائلاً: «حادثة مفردة، وسببها، ببساطة، هو أن الفتاة غبية جداً». ولكنني أعرف عن يقين أن

(*) عدم الكشف عن الهوية الحقيقية. (م).

الفتاة ليست غبية البتة. وأعرف أيضاً أنه في هذه النفوس الفتية، التي تجاوزت مرحلة الطفولة الأولى، ولكنها ما زالت بعيدة عن مرحلة النضج، ولم تبلغ بعد أولى درجات مرحلة الرشد، يمكن أن تتولد أحياناً تصورات وأحلام وقرارات خيالية عجيبة. هذه السن (سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة) مثيرة للاهتمام بقدر غير عادي، وهذا ينطبق على الفتيات أكثر من الفتيان. وعلى ذكر الفتيان أقول هل تذكرون ما نشرته الصحف قبل نحو أربع سنوات عن التلاميذ اليافعين الثلاثة الذين هربوا من مدرستهم قاصدين الهرب إلى أمريكا، وقد أمسكوا بهم في منطقة بعيدة عن مدينتهم، واحتجزوا المسدس الذي كان بحوزتهم. وعلى العموم كان يمكن سابقاً أيضاً، منذ جيل أو جيلين، أن تخطر في بال الفتيان المراهقين أحلام وتخيلات، كما يحدث الآن مع فتيان الجيل الحالي، ولكن الجيل الناشئ الحالي يبدو أقوى تصميماً، وأقل تشككاً وتأملاً بكثير. السابقون كانوا إذا فكروا في مشروعٍ ما (فلنقل الهرب إلى البندقية بعد أن قرؤوا عنها في قصص هوفمان وجورج صاند - وكنت أعرف واحداً من هؤلاء)[116] لا ينفّذون هذا المشروع، ويُسّارون بمشاريعهم هذه زملاء لهم بعد أن يجعلوهم يقسمون على الكتمان. أما الحاليون فما إن تخطر لهم فكرةٌ حتى ينفذوها. وعلى العموم فإن السابقين كان يقيّدهم الإحساس بالواجب، وشعورهم بالالتزام تجاه آبائهم وأمهاتهم، والمعتقدات والمبادئ المعروفة. أما الآن فلا شك في أن هذه الروابط والمشاعر أصبحت أضعف من ذي قبل، وتضاءل الرادع الخارجي والوازع الداخلي الكامن في أنفسهم. ولعل هذا هو ما يزيد من وحدة الجانب في عمل الذهن؛ ومن البديهي أن كل هذه الأمور لها أسبابها. والمهم أن هذه الحوادث ليست البتة حوادث مفردة سببها الغباء. وأكرر: إن هذه السن المثيرة جداً للاهتمام بحاجة ماسة إلى إيلائها انتباهاً خاصاً من جانب المربين الغارقين عندنا في دراسة علم التربية، ومن جانب الآباء الغارقين في «الأعمال» وغير الأعمال. وما أسهل وقوع مثل هذه الحوادث، أي هذه الأمور المريعة جداً؛ ولِمَنْ؟ لأفلاذ أكبادنا! يكفي أن نفكر في ذاك المقطع من قصة الأم حيث تقول إن ابنتها «تعبت فجأة، وتابعت سيرها وهي تبكي وتحلم أن تصادف إنساناً طيباً يشفق على هذه البنت المسكينة التي لا تجد مكاناً تبيت فيه، ويدعوها للذهاب معه» لنفكر في أن رغبتها هذه، التي تنم على مدى براءتها الطفولية وغرارتها كان يمكن أن تتحقق بسهولة بالغة، فعندنا يوجد في كل مكان، سواء في الشارع أو في أغنى البيوت كثرة كثيرة من هؤلاء «الأناسيّ* الطيبين»؟ ثم ماذا بعد ذلك، في الصباح؟ إما ثغرة في جليد حوض متجمد، أو الخجل من الإقرار، وبعد الخجل من الإقرار تأتي القدرة على إضمار كل شيء في الذات،

(*) جمع إنسان (وهو جمع نادر الاستعمال في العربية كندرة استعمال الجمع الذي أورده الكاتب بالروسية في النص الأصلي). (م).

والتعايش مع الذكرى، ويلي ذلك التفكير العميق فيما جرى من وجهة نظر أخرى مختلفة، ويستمر هذا التفكير طويلاً مع تنوع كبير جداً في التصورات، وكل هذا يجري شيئاً فشيئاً على نحو تلقائي؛ وفي نهاية المطاف ستظهر، على الأرجح، رغبة في تكرار الحادثة، ومن ثم تأتي كل الأمور الأخرى التي تعقب ذلك. وكل هذا منذ سن الثانية عشرة! وكل هذا سيجري سراً، في الخفاء. وبالفعل سيجري سراً وفي الخفاء بكل معنى الكلمة! ثم تلك البنت الأخرى التي تتفرج على المخازن، وتعرِّج على «البسّاج» بدلاً من الذهاب إلى المدرسة، والتي علّمت بنتنا؟ كنت سابقاً أسمع مثل هذه القصص عن الصبيان الذين يجدون الدراسة مملة، والتشرد مسلياً (ملاحظة: التشرد عادة مرضيّة، وهي جزئياً عادة قومية مميزة لنا تندرج في قائمة الفوارق بيننا وبين أوربا؛ وستتحول هذه العادة فيما بعد إلى وَلَع مرضيّ، لن يكون من النادر البتة أن يتولد في النفس منذ الطفولة، وسأتحدث فيما بعد حتماً عن هذا الولع الذي يعد من سماتنا القومية). إذاً فمن الممكن أن تظهر عندنا فتيات متشردات. ولنفترض أن الأمر لا يتعدّى حتى الآن حدود السذاجة التامة. فلتكن ساذجة كالمخلوق البدائي الذي كان يعيش في الجنة، مع ذلك لن يكون ثمة مناص من «معرفة الخير والشر» ولو بملامسة الحواف فحسب، ولو حتى في المخيلة، وفي عالم الأحلام فقط. فالشارع مدرسة جسورة جداً. والمهم، وأكرر هذا مرة أخرى وأخرى أن هذه السن مثيرة جداً للاهتمام. فهي من جهة ما زالت تحتفظ بكل براءة الطفولة وغرارتها التي تثير الحنان، ومن جهة أخرى تتسم بقدرة فائقة، تصل إلى حدود التوق، على التلقي والتعرف السريع على أفكارٍ وتصوراتٍ يعتقد الكثيرون جداً من الآباء والمربين أن الأطفال في هذه السن لا يستطيعون حتى تصور أي شيء عنها. وهذه الثنائية بالذات، هذان النصفان المترابطان، اللذان لا يشبه أحدهما الآخر البتة، والمجتمعان معاً في نفوس المراهقين، يشكلان ظاهرة بالغة الخطورة والحراجة في حياة هذه المخلوقات اليافعة.

يوميات كاتب عام 1877

فوما دانيلوف، البطل الروسي الشهيد*

أتعرفون أيها السادة، يجب أن نطرح القضية على نحو مباشر: أقول بصراحة إنه ليس لدينا ما نُعَلِّم هذا الشعب إياه. هذه سفسطة، طبعاً، ولكنها تخطر في البال أحياناً. نعم، نحن أكثر ثقافة منه، بالطبع، ولكن ما الذي سنعلّمه إيّاه؟ هنا المصيبة! من البديهي أنني لا أتحدث هنا عن المهن، ولا عن التقنية، ولا عن المعارف الرياضياتية، فهذه أمور يمكن للألمان القادمين إلينا لقاء أجر أن يعلموه إياها، إذا لم نعلّمه إيّاها نحن، فما الذي سنعلّمه إيّاه إذاً؟ نحن روس، ونحن إخوة هذا الشعب، وعلى هذا فإننا ملزمون بتنويره. فما هو الشيء الأخلاقي، الشيء السامي، الذي سنقدمه له، سنشرحه له، وبِمَ سننوّر هذه النفوس «المظلمة»؟ إن تنوير هذا الشعب هو، أيها السادة، حق لنا وواجب علينا، وهو حق بالمعنى المسيحي الأسمى، وكما يقول لنا الإنجيل: فإن من يعرف كلمة الحياةِ الطيبةَ، كلمةَ الحياةِ الحقّة، يجب عليه، بل هو ملزم بأن يقولها لأخيه الجاهل، التائه في الظلمة. فما الذي سنقوله للتائه من أشياء لا يعرفها هو أحسن منا؟

- قبل كل شيء، بالطبع نبلغه أن التعلّم مفيد، ومن الضروري أن نتعَلم، أليس كذلك؟ ولكن الشعب قد قال قبلنا: «العلم نور والجهل ظلام». أنعلّمه، على سبيل المثال، القضاء على المعتقدات البالية وتحطيم الأوثان؟ ولكن أليس لدينا نحن الكثير من المعتقدات البالية، ألم ننصب لأنفسنا عدداً كبيراً من الأوثان، مما يجعل الشعب يقول لنا مباشرة: «أيها الطبيب اشفِ نفسك»** (وهو لديه قدرة فائقة على أن يتبين أوثاننا!) أنعلّمه احترام الذات والكرامة الشخصية؟ ولكن شعبنا جميعه ككل يحترم ذاته أكثر منا بكثير. في الحقيقة نحن شديدو

(*) يستهل دوستويفسكي هذا الفصل بقصة صف الضابط الروسي فوما (توما) دانيلوف، الذي وقع في الأسر، وفضّل الموت على الارتداد عن عقيدته، على الرغم من كل صنوف الترغيب والترهيب التي تعرّض لها، فأصبح مثلاً أعلى في الثبات على الإيمان. (م).

(**) انظر إنجيل لوقا (4/ 23). (ن). (يا طبيب طبّ لنفسك). (م).

الغيرة على ذواتنا، ولكننا لا نحترم أنفسنا البتة، وليس لدينا أي شعور بالكرامة الشخصية على الإطلاق، بل حتى ليس لدينا أساس لهذا. وأتساءل، على سبيل المثال، أنحن من يعلّم الشعب احترام قناعات الآخرين؟! لقد برهن شعبنا منذ عهد بطرس الأكبر على احترامه قناعات الآخرين، أما نحن فإننا، فيما بيننا، لا نسامح بعضنا بعضاً على أي انحراف، مهما صغر شأنه، عن قناعاتنا، ونعدّ الذين لا يتفقون معنا في الرأي ولو قليلاً سفلة، بصريح العبارة، ناسين أن من يميل بسهولة إلى فقدان احترامه للآخرين، إنما هو، قبل كل شيء لا يحترم نفسه. وأتساءل: أنحن من يعلّم الشعب الثقة بنفسه وبقواه الذاتية؟! إن لدى الشعب فوما دانيلوف وأمثاله، وهم يُعدّون بالآلاف، أما نحن فإننا لا نؤمن البتة بالقوى الروسية، ونعدّ عدم الإيمان هذا درجة عليا من درجات الاستنارة العقلية، بل يكاد يكون ضرباً من المروءة. إذاً ما الذي بمقدورنا أن نعلمه في نهاية المطاف؟ إننا نشمئز، إلى حد الحنق تقريباً، من كل ما يحبه شعبنا ويُجلُّه، وما يهفو إليه فؤاده. فأي محبون للشعب نحن؟ سيعترضون قائلين: إن اشمئزازنا من جهله يدل على عِظَم حبنا له، لأننا نتمنى له الأفضل. لا، أيها السادة، ليس الأمر هكذا على الإطلاق: فلو كنّا نحب الشعب حقاً وفي الواقع، لا في المقالات والكتيّبات، لكنّا اقتربنا منه أكثر، واهتممنا بدراسة ما نرغب الآن في اجتثاثه منه على نحو عشوائي تماماً، وبحسب القوالب الأوربية؛ عندئذ ربما كنا ستتعلم نحن أنفسنا أشياء كثيرة ليس بوسعنا الآن أن نتصورها مجرد تصور.

وعلى كل فإن عزاءنا الوحيد، واعتزازنا العظيم الوحيد أمام شعبنا والذي بسببه نحتقر الشعب إلى هذا الحد: هو أنه قومي الروح، ويتمسك بهذه السمة بكل ما لديه من قوة، أما نحن فلدينا قناعات ذات صبغة إنسانية عامة، وقد حصرنا هدفنا ضمن أطر الإنسانية العامة، وبهذا سَمَونا فوق شعبنا سمواً لا حدود له. هنا بالذات يكمن شقاقنا برمته، وتكمن قطيعتنا مع الشعب بكامل أبعادها، وأنا أعلن بصراحة: لنسوِّ هذه القضية، ولنجد نقطة المصالحة، تنتهِ مباشرة خصومتنا مع الشعب؛ علماً بأن هذه النقطة موجودة، ومن السهل جداً العثور عليها. وأكرر جازماً أن أشد خلافاتنا راديكالية ليست في جوهرها سوى سراب.

ولكن ما هي حقيقة نقطة المصالحة هذه؟

حلم المصالحة خارج مجال العلم

سأطرح قبل كل شيء أكثر الموضوعات حساسية وإثارة للجدل، وأبدأ منه: «إن أي شعب عظيم يؤمن، ويجب أن يؤمن، إذا كان يريد البقاء طويلاً، بأن لديه، ولديه وحده، أسباب خلاص العالَم، وبأنه يعيش لكي يسير في طليعة الشعوب، ويضمهم إليه جميعاً في وحدة واحدة، ويقودهم كجوقة منسجمة، نحو الهدف النهائي المقدّر لهم جميعاً».

وأنا أزعم أن هذا ما كان من شأن جميع الأمم العظيمة في العالم. من أقدمها إلى أحدثها، وأن هذا الإيمان وحده هو الذي رفع هذه الأمم، كلاً في حينها، إلى المستوى الذي يمنحها إمكانية امتلاك نفوذ عالمي ضخم تؤثر به في مصاير البشرية. هذا بلا ريب، ما كان من شأن روما القديمة، وهذا ما كان من شأنها فيما بعد خلال عهدها الكاثوليكي. وعندما ورثت فرنسا الفكرة الكاثوليكية عنها، حدث هذا معها أيضاً، وظلت طوال قرنين تقريباً، حتى هزيمتها القريبة العهد وانهيار معنوياتها، تعدّ نفسها، بلا ريب، طليعة العالم، على الأقل معنوياً، وفي بعض الأحيان سياسياً، وتزعم أنها هي التي تقود مسيرته، وتحدد مستقبله. أما ألمانيا فقد كانت دائماً تحلم بهذا، وعمدت إلى مجابهة الفكرة الكاثوليكية العالمية وقوة نفوذها بالبروتستانتية، التي رفعتها رايةً لها، وبحرية المعتقد والبحث اللا محدودة. وأكرر قولي إن الأمر نفسه يحدث لجميع الأمم العظيمة بقدر يقل أو يكثر، عندما تكون في أوج تطورها. سيقولون لي: إن كل هذا غير صحيح، كل هذا خطأ، وسيشيرون، على سبيل المثال، إلى الوعي الذاتي لدى هذه الشعوب نفسها، وإلى وعي علمائها ومفكريها الذين كتبوا عن الأهمية الجمعية بالذات للأمم الأوربية، التي اشتركت معاً في إنشاء الحضارة الأوربية، وإنجاز بنائها؛ وأنا لن أنفي بالطبع، وجود هذا الوعي. لكني سأتجاوز الحديث عن أن هذه الاستنتاجات النهائية التي يصل إليها الوعي تشكل، على العموم، ما يشبه نهاية الحياة الحيّة لهذه الشعوب، وأكتفي بالإشارة إلى أمر واحد فحسب، وهو أن هؤلاء المفكرين وذوي الوعي أنفسهم، مهما كتبوا عن انسجام الأمم العالمي فإنهم يظلون، في الوقت نفسه، يؤمنون، بشعور مباشر وحيٍّ وصادق في أغلب الأحيان، تماماً كما تؤمن جماهير شعوبهم، بأنهم هم (الفرنسيين على سبيل المثال) يشكّلون ضمن جوقة الأمم هذه، التي تؤلف الهارمونية العالمية، والتي أبدعت الحضارة بجهود موحدة، يشكّلون رأس هذه الوحدة بكاملها، وهم الأكثر تقدماً، وهم الذين شاء لهم القدر أن يتولوا القيادة، أما الآخرون، فليس لهم سوى أن يتبعوهم. وإذا هم أقدموا،

لنفترض، على أخذ شيء ما من تلك الشعوب، فلن يأخذوا سوى القليل. وبالمقابل فإن تلك الشعوب، على العكس، ستأخذ منهم كل شيء، كل الأشياء الرئيسة، ولن تستطيع العيش إلّا بروحهم وفكرتهم؛إنها لن تستطيع أن تسلك سوى سبيل واحد، هو أن تشاركهم روحهم في نهاية المطاف، وتندمج فيهم عاجلاً أو آجلاً. وإذا نظرتم إلى فرنسا الحالية، المكتئبة والمحطمة معنوياً، ستجدون أن ثمة فكرة من هذا النوع، تُمثّل طوراً جديداً، وطبيعياً تماماً حسب رأينا، لفكرتها الكاثوليكية العالمية السابقة وتطوراتها، وأن نصف الفرنسيين تقريباً يؤمنون الآن أيضاً بأن الخلاص يكمن في هذه الفكرة، وليس خلاصهم وحدهم، بل خلاص العالم أيضاً، وهذه الفكرة هي الاشتراكية الفرنسية بالذات. هذه الفكرة، أعني اشتراكيتهم، هي بالطبع، باطلة ويائسة، ولكن القضية ليست في نوعية هذه الفكرة، بل في أنها موجودة، وتعيش حياة حقيقية، وأن الذين يعتنقونها لا يستولي عليهم الشعور بالشك والكآبة الذي يستولي على الجزء الضخم الآخر من الفرنسيين. وانظروا، من جهة أخرى، إلى أي إنكليزي تقريباً، من الفئة العليا أو السفلى، سواء كان لورداً أو عاملاً، عالماً أو غير متعلم، تقتنعوا أن كل إنكليزي يحرص على أن يكون، قبل كل شيء، إنكليزياً، وأن يحافظ على شخصيته الإنكليزية في جميع أطوار حياته على المستوى الذاتي، والاجتماعي، والسياسي، والإنساني العام، بل إنه يحرص على أن يكون حبه للإنسانية هو حب الإنكليزي تحديداً، لها. سيقولون لي: وحتى إذا كان الأمر هكذا، وإذا كان الواقع كما أزعم، فإن مثل هذا التغرير بالذات، وهذا الاعتداد بالنفس يحط من شأن تلك الشعوب العظيمة، ويقلل من أهميتها بسبب الأنانية والشوفينية الخرقاء، ولا يمنحها قوة حيوية، بل، بالعكس، يلحق بها الضرر، ويفسد حياتها من بدايتها. وسيقولون إن أمثال هذه الأفكار المجنونة والمتكبرة ليست جديرة بالمحاكاة، بل، بالعكس، ينبغي استئصالها بنور العقل الذي يقضي على المعتقدات البالية. لنفترض أن هذا الرأي، من جهة أولى، صائب جداً، ومع ذلك من الضروري هنا حتماً أن ننظر إلى الأمر من جهة ثانية، عندئذ سنرى أن السلوك الذي نتحدث عنه لا يحط البتة من شأن تلك الشعوب، بل بعكس ذلك تماماً؛ وما العيب في أن يحلم فتىً لم يخبر الحياة بعد، بينه وبين نفسه، بأن يصبح مع الزمن بطلاً؟ صدقوني إن مثل هذه الأحلام التي يغلب عليها طابع الكبرياء والصلف يمكن أن تُنشِّط هذا الفتى وتنفعه أكثر بكثير من تعقّل ذاك الفتى، الذي يؤمن، وهو في السادسة عشرة من عمره، بالقاعدة الحكيمة التي تقول: «إن السعادة أفضل من البطولة». وصدقوني: إن حياة ذاك الفتى بعد معاناته المحن والإخفاقات، ستكون بكليتها أجمل من الحياة الهادئة التي قدّر لزميل الطفولة العاقل أن يعيشها، متنعماً بالجلوس طوال حياته على أرائك مخملية. إن مثل هذا الإيمان بالنفس ليس أمراً لا أخلاقياً وليس تبجحاً مبتذلاً على الإطلاق. وهكذا الأمر

تماماً بالنسبة إلى الشعوب: فلتكن هناك شعوب متعقلة، شريفة، معتدلة، هادئة، بعيدة عن الاندفاعات، شعوب تتاجر وتبني السفن*، وتعيش حياة تمتاز بالثراء والترتيب البالغ الدقة. وهذا شأنها الخاص، إنها على كل حال، لن تقطع شأواً بعيداً، وهي حتماً ستظل في موقع وسط لن يخدم الإنسانية بشيء: لن تكون لديها تلك الطاقة، ولن يكون لديها ذاك الاعتداد العظيم بالنفس، وليس تحتها تلك الحيتان الثلاثة المتحركة التي تقف فوقها كل الشعوب العظيمة. إن الإيمان بأنك تريد وتستطيع أن تقول للعالم الكلمة الأخيرة، وأنك ستجدده، في نهاية المطاف، بفيض قوتك الحيوية، وإيمانك بقيمة مُثُلك العليا، وبقوة حبك وتوقك إلى خدمة الإنسانية، أجل، إن مثل هذا الإيمان هو عربون الحياة الأسمى للأمم، وبه وحده تقدِّم هذه الأمم للإنسانية الفائدة التي قضى القدر أن تقدمها لها، وبه وحده تستطيع أن تورثَ إنسانية المستقبل ذاك الجزءَ من قوتها الحيوية وفكرتها العضوية، الذي شاءت الطبيعة نفسها لهذه الأمم، منذ نشوئها، أن تورثها إياه. وليس من أمة تملك الحق في الحياة الأسمى سوى الأمة القوية بمثل هذا الإيمان. لقد كان الفارس الأسطوري القديم يؤمن بأن كل العقبات والأشباح والغيلان ستنهار أمامه، وسينتصر على كل شيء وعلى الجميع، وينال كل ما يريد، إذا هو حافظ بأمانة على عهده بأن يظل «عادلاً، وعفيفاً، وفقيراً». ستقولون: إنها مجرد أساطير وأناشيد لا يصدقها سوى دون كيشوت، وإن قوانين الحياة الواقعية التي تعيشها الأمم شيء مختلف تماماً، ولكنني، أيها السادة، تعمّدت بهذا أن أوقع بكم وأضبطكم متلبّسين، فأنتم أيضاً «دونكيشوتات» كذاك، ولديكم أيضاً فكرة كتلك تؤمنون بها، وتريدون تجديد البشرية بوساطتها!

وفي حقيقة الأمر، ما الذي تؤمنون به؟ إنكم تؤمنون (وأنا أؤمن معكم) بمبدأ الإنسانية العامة، أي أنه سيأتي يوم تنهار فيه أمام نور العقل والوعي تلك الحواجز الطبيعية، والعقائد البالية، التي ما زالت حتى الآن تحول دون اختلاط الأمم الحر بسبب أنانية المطالب القومية، وعندئذ ستعيش الشعوب بروح واحدة ووئام كالإخوة، متطلعين بتعقل وحب إلى تحقيق انسجام شامل. حقاً، أيها السادة، ما الذي يمكن أن يكون أسمى وأكثر قدسية من إيمانكم هذا؟ والمهم في الأمر أن هذا الإيمان لن تجدوه في أي مكان آخر في العالم، لن تجدوه على سبيل المثال، لدى أي شعب من شعوب أوربا، حيث كل أمة محددة بصرامة تامة؛ وحتى إذا وُجد هذا الإيمان هناك، فإنه لن يكون إلّا على درجة ما من درجات الوعي الذهني فحسب، ولنفترض أن هذا الوعي يتسم بالحماسة والاندفاع إلّا أنه لن يزيد عن كونه وعياً

(*) يقصد الإنكليز والهولنديين. (ن).

مكتبياً لا غير. أما عندكم أيها السادة، أقصد ليس عندكم أنتم فحسب*، بل عندنا جميعاً، نحن الروس، فإن هذا الإيمان هو إيمان عام، حي، ويحتلّ أعلى المراتب؛ الجميع عندنا يؤمنون بهذا عن وعي وببساطة، سواء في أوساط المثقفين، أو في أوساط الشعب البسيط، بحسّه الحي، هذا الشعب الذي يأمره دينه بأن يؤمن بهذا. أجل، أيها السادة؛ وهل كنتم تظنون أنكم وحدكم «الإنسانيون العامون» من بين كل المثقفين الروس كافة، أما الباقون فليسوا سوى سلافويين[13] أو قومويين؟ لا... على الإطلاق: فالسلافويون والقومويون يؤمنون بهذا مثلكم تماماً، بل ربما أكثر منكم!

ولنأخذ السلافويين وحدهم فقط: ما الذي أعلنه هؤلاء بلسان زعمائهم المتقدمين، ومؤسسي مذهبهم وممثليه؟ لقد أعلنوا بصراحة، وباستنتاجات واضحة ودقيقة، أن روسيا ستقول مع السلاف، وهي على رأسهم، للعالم أجمع أعظم كلمة سمعها على مدى تاريخه كله، وأن هذه الكلمة بالذات ستكون الوصية التي تدعو إلى الوحدة الإنسانية العامة لا بروح الأنانية الذاتية، التي يتوحد الناس وتتوحد الأمم على أساسها الآن على نحو مصطنع وغير طبيعي، ضمن أطر حضاراتهم العالمية، منطلقين من الصراع من أجل البقاء، ليُعَيِّنوا، على أساس العلم الموضوعي، الحدودَ الأخلاقية للروح الحرة، وهم في الوقت نفسه يحفرون الحفر بعضهم لبعض، ويفتري بعضهم على بعض، ويقدح بعضهم في بعض كذباً وبهتاناً. لقد كان مَثَل السلافويين الأعلى هو الوحدة بروح الحب الرحب الصادق المنزه عن الكذب والمادية، والقائم على أساس القوة الشخصية السمحة، التي قُدّر على الشعب الروسي أن يقدمها لأوربا سائراً في طليعة الوحدة الحرة التي تجمع السلاف كافة. ستقولون لي إن ما تؤمنون به يختلف تماماً عن هذا، وإن كل هذا ما هو إلّا أفكار مكتبية. ولكن القضية هنا ليست البتة في تحديد ما يؤمن به كل طرف، وإنما في أن الجميع عندنا، بصرف النظر عن كل الخلافات في الآراء، يُجمعون في نهاية الأمر على هذه الفكرة النهائية العامة، أي فكرة الوحدة الإنسانية الشاملة. هذه حقيقة لا تقبل الشك، وهي بحد ذاتها تثير الدهشة، لأن هذا الشعور، الذي بلغ عندنا هذه الدرجة من الحاجة الحية والرئيسة، غير موجود بعد لدى أي شعب من الشعوب. وإذا كان الأمر هكذا، فإن معنى ذلك أن توجد لدينا، أقصد لدينا جميعاً فكرة قومية محددة وثابتة؛ وهي قومية بالذات. وعلى هذا أقول إذا كانت الفكرة القومية الروسية ليست، في نهاية المطاف، سوى الوحدة الإنسانية العامة والشاملة، فإن هذا يعني أن مصلحتنا تكمن في أن ننحّي جميعاً كل الخصومات التي بيننا إلى حين، وأن نصبح بأسرع

(*) يقصد ذوي الميول الغربوية والليبرالية والاشتراكية على الطريقة الأوربية. (م).

ما يمكن روساً وقوميين. إن خلاصنا التام لن يكون إلّا في الكف عن الجدل مسبقاً حول الكيفية التي ستتحقق بها هذه الفكرة، وحول الشكل الذي ستتجسد به: هل هو الشكل الذي تتبنونه أنتم أو الذي نتبناه نحن؛ ومن ثم في خروجنا جميعاً ومعاً من «المكتب» وانتقالنا رأساً إلى «الفعل».

وفي هذا بالذات يكمن لب القضية.

نحن في أوربا لسنا سوى أسقاط[117]

كيف انتقلتم أنتم إلى «الفعل»؟ من المعروف أنكم بدأتم منذ مدة طويلة، بل طويلة جداً، ولكن ما الذي فعلتموه من أجل الإنسانية العامة، أي من أجل انتصار فكرتكم؟ لقد بدأتم من التجوال في أوربا على غير هدىً، وقد استولت عليكم رغبة جامحة في أن تتحولوا إلى أوربيين، حتى ولو بالمظهر فقط. كل ما فعلناه على مدى القرن الثامن عشر بأكمله، هو أننا غيرنا مظهرنا*. عوّدنا أنفسنا تبنّي الأذواق الأوربية، حتى إننا أصبحنا نأكل مختلف الأطعمة الكريهة محاولين ألّا نغضّن وجوهنا: «انظروا أي إنكليزي أنا، إنني لا أستطيع أن آكل أي شيء بدون الفليلفلة الكايينية»**. هل تظنون أنني أتهكم؟ لا، مطلقاً. إنني أفهم تماماً أن البدء على نحو آخر كان مستحيلاً؛ فحتى قبل عهد بطرس الأول، في زمن القياصرة والبطاركة الموسكوفيين، عمد غندور موسكوفي شاب من الفئة المتقدمة إلى ارتداء حلة فرنسية وتعليق سيف أوربي على جانبه***. فقد كان علينا أن نبدأ من احتقار ذوينا وكل ما

(*) يقصد دوستويفسكي هنا المجتمع الروسي الذي اضطر إلى «التحول» على عجل «إلى مجتمع أوربي» في عهد الامبراطور بطرس الأول، ومن ثم في عهد الامبراطورة كاترين (يكاترينا) الثانية. وغالباً ما نصادف في كتابات دوستويفسكي الصحفية بدءاً من العام 1860، عبارات نقد لاذع موجهة إلى الروس الذين يعمدون إلى «الظهور بمظهر» الأوربيين. (ن).

(**) الكايينية: نسبة إلى مدينة كايينا في غويانا الفرنسية التي ينمو فيها نوع من أشد أنواع الفليفلة الحمراء حرافة. (م).

(***) ربما كان دوستويفسكي يقصد هنا أميراً معروفاً من أقرباء القيصر الكسي ميخايلوفتش (1629-1676). (ن).

يخصنا؛ وإذا كنا بقينا قرنين كاملين عند هذه النقطة من غير أن نتحرك إلى الأمام أو إلى الخلف، فإن هذه المدة هي، على الأرجح، المدة التي حددتها لنا الطبيعة. ولكن نحن في الحقيقة تحركنا: فاحتقار ذوينا وما يخصنا كان يزداد أكثر فأكثر، وخصوصاً عندما بدأنا نفهم أوربا على نحو أكثر جدية. ولم تكن تربكنا على الإطلاق وقائع الانفصال الحاد بين مختلف القوميات في أوربا، ونماذج الطباع الشعبية التي كانت تتحدد على نحو صارم. لقد بدأنا تحديداً من «استبعاد جميع المتضادات» استبعاداً مباشراً، وتقبلنا الأنموذج الإنساني العام الأوربي، أي أننا لَحَظْنا منذ البدء السمة العامة التي تربط بينهم جميعاً. وهذه صفة طابعية[1] من صفاتنا. وبعد ذلك ازددنا ذكاء مع مرور الوقت، وتشبثنا مباشرة بالحضارة، وآمنّا على الفور إيماناً أعمىً وصادقاً بأن فيها يكمن ذاك «العام الشامل»، الذي اختاره القدر ليوحد الإنسانية في كل واحد. وحتى الأوربيون كانوا، وهم ينظرون إلينا بصفتنا غرباء قادمين من الخارج، يتعجبون من إيماننا الحماسي هذا، وخصوصاً لأنهم هم أنفسهم طفقوا آنذاك يفقدون هذا الإيمان بأنفسهم شيئاً فشيئاً. لقد استقبلنا ظهور روسو وفولتير بانبهار شديد، وتأثرنا مبتهجين مع الجوّالة كارامزين* بدعوة «الولايات الوطنية» إلى الاجتماع في العام 1789، وإذا كنا قد أصبنا باليأس في أواخر الربع الأول من القرن الحالي مع الأوربيين التقدميين بسبب انكسار أحلامهم، وتحطم مُثُلهم العليا، فإننا مع ذلك لم نفقد إيماننا ذاك، بل أخذنا نواسي الأوربيين أنفسهم. وحتى الروس الذين كانوا يُعَدّون في وطنهم من غلاة «البيض»، كانوا يصبحون «حمراً» على الفور في أوربا؛ وهذه سمة طابعية جداً من سماتنا. وبعد ذلك «نَعِم» بعضنا** «عن جدارة»، في منتصف القرن الحالي، بالاطلاع عن كثب على الاشتراكية الفرنسية، واعتبروها من غير أي تردد الحل النهائي لمسألة الوحدة الإنسانية العامة، أي تحقيق حلمنا الذي ما انفك يستهوينا حتى الآن. وعلى هذا فإننا اعتبرنا أن بلوغ الهدف يتجسد فيما هو قمة الأنانية، قمة اللاإنسانية، وقمة التشوش والاختلال الاقتصادي، وقمة الافتراء على الطبيعة الإنسانية، وقمة تدمير حرية الإنسان بجميع وجوهها، ولم يكن هذا يحرجنا البتة، بل بالعكس، فعندما كنا نرى الحيرة الحزينة لدى بعض المفكرين الأوربيين ذوي التفكير العميق، كنا ننعتهم على الفور وبتبسّط مفرط بالأوغاد والأغبياء. نحن آمنّا إيماناً تاماً وما زلنا نؤمن حتى الآن، بأن العلم العملي قادر على تعيين الحدود الأخلاقية بين شخصيات الأفراد والأمم (وكأن العلم - إذا كان بوسعه أن يفعل هذا-

---

(*) نيكولاي كارامزين (انظر الهامش 41) كان متعاطفاً مع الثورة الفرنسية التي اندلعت في عام (1789) في أثناء تجواله في أوربا، وقد حضر جلسات «الجمعية الوطنية» العاصفة وكتب عنها. (ن).

(**) يقصد بيلينسكي[10] وغيرتسين[9] والبيترشيفسكيين[40]. (ن).

يستطيع الكشف عن هذه الأسرار قبل اكتمال التجربة، أي قبل اكتمال جميع مصائر الإنسان على الأرض). كان ملّاك الأراضي عندنا يبيعون فلاحيهم الأقنان، ويسافرون إلى باريس ليصدروا مجلات اجتماعية، وكان «رودينونا»[118] يموتون على المتاريس. وقد انفصلنا في أثناء ذلك عن أرضنا الروسية إلى الحد الذي جعلنا نفقد كل مفهوم عن مقدار الاختلاف بين هذه النظريات وروح الشعب الروسي، وعلى العموم نحن لم نكتف بنفي أهمية الطبع الروسي الشعبي، بل إننا أنكرنا على الشعب أن يكون له طبع ما. لقد نسينا التفكير فيه أصلاً، وكنا مقتنعين، بطمأنينةٍ استبداديةٍ تامة (من دون أن نطرح أي تساؤل)، بأن شعبنا سيتقبل على الفور كلَّ ما نشير به عليه، أي، في حقيقة الأمر، كل ما نأمره به. وبهذا الصدد كانت تُتَداول عندنا دائماً عدة نكات مضحكة جداً عن الشعب. إذ إن «أناسِيَّنا العامين» وقفوا من شعبهم على الدوام موقف مُلّاك الأراضي حتى بعد الإصلاح الفلّاحي*.

وما الذي حصلنا عليه. نتائج غريبة، وأهمها: أن الجميع في أوربا ينظرون إلينا باستهزاء، وينظرون إلى أفضل الأشخاص الروس في أوربا، والذين لا جدال في ذكائهم، نظرة تسامح استعلائي. ولم يُنْجِ هؤلاء من هذا التسامح الاستعلائي حتى هجرتهم من روسيا، أي هجرتهم التي غدت سياسية، وتبرؤهم الكامل من روسيا. لم يشأ الأوربيون أن يُعدّونا منهم بأي حال من الأحوال، ومهما بلغت التضحيات، وأياً كان الثمن؛ وكأن لسان حالهم يقول: grattez le russe et vous verrez le tartare**. وهذا هو شأنهم حتى الآن. وكلما ازداد احتقارنا لقوميتنا إرضاءً لهم ازداد احتقارهم لنا بالذات. لقد تزلفنا إليهم واعترفنا لهم متملقين بآرائنا وقناعاتنا «الأوربية»، ولكنهم لم يصغوا إلينا استكباراً منهم، وكانوا عادة ما يضيفون باستهزاء لبق، وكأنهم يرغبون في التخلص منا بأسرع وقت، إننا «لم نفهم كل هذا منهم كما ينبغي». وكان ما يدهشهم بالذات هو عجزنا التام، بصفتنا تتراً (les tartares)، عن أن نصبح روساً؛ أما نحن فإننا لم نستطع قط إفهامهم أننا لا نريد أن نكون روساً بل أناسيّ عامين. في الحقيقة هم فهموا شيئاً ما في الآونة الأخيرة. فهموا أننا نريد شيئاً ما، شيئاً مخيفاً وخطراً بالنسبة إليهم؛ فهموا أن عددنا كبير، ثمانون مليوناً، وأننا نعرف ونفهم كل الأفكار الأوربية، وأنهم لا يعرفون أفكارنا الروسية، وأنهم إذا عرفوها لن يفهموها، وأننا نتكلم بجميع اللغات، وهم لا يتكلمون

(*) الإصلاح الزراعي – الفلاحي الذي جرى في العام 1861 في عهد الامبراطور الكسندر الثاني، وتم بموجبه إلغاء حق القنانة الذي كان يتمتع به مُلّاك الأراضي في روسيا. (م).

(**) اكشطوا الروسي تَروا تترياً (بالفرنسية)؛ عبارة ذهبت مثلاً، وقد استخدمها دوستويفسكي في كتاباته أكثر من مرة. (ن). وترجمها الكاتب نفسه مرة في متن النص بعبارة روسية يقابلها في العربية «اكشط الروسي يتبين أنه تتري». انظر فصل «مفارقاتي» في يوميات حزيران (يونيو) 1879. (م).

سوى بلغاتهم، وأصبحوا يفطنون لأشياء كثيرة، ويخمنون أشياء كثيرة. وانتهى بهم الأمر إلى أنهم أصبحوا ينعتوننا مباشرة بالأعداء، وبمدمِّري الحضارة الأوربية مستقبلاً. هكذا فهموا طموحنا الجامح إلى أن نصبح أناسيّ عامين!

ونحن في الواقع لا يجوز لنا، بحال من الأحوال، أن نتخلى عن أوربا؛ فأوربا هي وطننا الثاني، وأنا أول من يعتنق بحرارة هذه الفكرة وكنت أعتنقها دائماً. إن أوربا درب لنا، وتقريباً للجميع أيضاً، كما هي روسيا. وفيها كل ذرية يافث، وفكرتنا تدعو إلى اتحاد جميع أمم هذه الذرية، بل تذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، وصولاً إلى سام وحام[119]. فماذا علينا أن نفعل؟

علينا أولاً وقبل كل شيء أن نصبح روساً. وإذا كانت فكرة «الإنسانية العامة» فكرة روسية قومية، فإن على كل منا أن يصير، قبل كل شيء، روسياً، أي أن تصير شخصيته مطابقة لهويته، وعندئذ يتغير كل شيء من الخطوة الأولى. فأن تصير روسياً يعني أن تكف عن احتقار شعبك. وما إن يرى الأوربي أننا بدأنا نحترم شعبنا وقوميتنا، حتى يبدأ على الفور يحترمنا شخصياً. وبالفعل: كلما ازدادت قوة واستقلالية تطورنا في إطار روحنا القومية، ازدادت قوة استجابة الروح الأوربية لنا، وازداد قربها منا، وعندما نرتبط معها بأواصر القربى هذه، تزداد على الفور درجة فهمها لنا. وحينئذ لن تَزْوَرَّ عنا باستعلاء، بل ستصغي إلينا بانتباه، وحتى مظهرنا سيتغير عندئذ تماماً. فعندما نعود إلى هويتنا سنظهر أخيراً بالهيئة الإنسانية، لا بالهيئة القردية. سنكتسب مظهر الكائن الحر، لا مظهر العبد أو الخادم، أو بوتوغين[54]. إنهم سيَعُدّوننا عندئذ بشراً لا حثالة دولية، ولا أسقاطاً على صعيد الأورُبَّوِيّة* والليبرالية، والاشتراكية. عندئذ سيكون حديثنا معهم أكثر ذكاء من الآن، لأننا سنجد لدى شعبنا، ونستلهم من طبيعته الروحية، كلماتٍ جديدةً ستصبح، حتماً مفهومة، أكثر للأوربيين. ثم إننا نحن أنفسنا سندرك عندئذ أن كثيراً مما كنا نحتقره في شعبنا ليس ظلاماً، بل هو نور، وليس غباء، بل هو ذكاء؛ وعندما ندرك ذلك سننطق حتماً في أوربا كلمةً لم يكونوا قد سمعوها هناك من قبل. سنقتنع حينئذ بأن من يحمل في داخله الكلمة الاجتماعية الحقيقية هو شعبنا بالذات وليس سواه، وبأن ثمة مطالبة حية في فكرة شعبنا وروحه بالوحدة الإنسانية الشاملة، مع اقتران هذه الوحدة بالاحترام الكامل للهويات القومية وصونها، وبالحفاظ على حرية الناس التامة، وتبيان الوجوه المحددة التي تتجلى بها هذه الحرية؛ إنها وحدةُ المحبةِ المضمونةُ

(*) الأورُبَّوِيّة: تيار فكري يدعو إلى إتحاد بلدان أوربا اقتصادياً وسياسياً على أساس الجامعة التاريخية والاجتماعية والروحية التي تربط بين شعوبها. (م).

بالعمل الفعلي، والقدوة الحية، ونِشدان الأخوّة الحقيقية فعلاً، وليست الوحدة المضمونة بالمقصلة وملايين الرؤوس المقطوعة...

وعلى كل حال، أحقاً أنني أردت بالفعل أن أقنع أحداً بشيء ما. هذا كان مجرد مزاح. ولكن الإنسان ضعيف: فعسى أن يقرأ هذا أحد من الناشئة، من الجيل الفتي...

ذكرى قديمة عن البيترشيفسكيين[40]

تجري حالياً، كما يعلم الجميع، محاكمة، المشاركين في المظاهرة التي جرت في ساحة قازان في السادس من كانون الأول(ديسمبر)[115]. وأظن أن قرّائي يطّلعون على مسار المحاكمة من الصحف. وقد أدهشتني ملاحظة نشرتها إحدى الصحف عن البيترشيفسكيين السابقين الذين كانوا يشكلون في أواخر الأربعينيات جمعية إجرامية معروفة، اتفق لي أن شاركت فيها وعوقبت على ذلك بالنفي إلى سيبيريا لمدة عشر سنوات، وقضاء أربع سنوات في سجن الأشغال الشاقة. وقد أوردتْ هذه الملاحظةَ «الجريدةُ البطرسبورغية» في افتتاحيتها الساخنة عن حادثة قازان، واقتبس كاتب الافتتاحية من كتاب السيد سترونين* «السياسة علماً» بضعة أسطر رائعة، أوردها فيما يلي بكاملها. إنها نصيحة للشبيبة الذاهبة «إلى الشعب»:

«بدلاً من أن تذهبوا إلى الشعب، انتهزوا الفرصة، فهو سيأتي إليكم بنفسه. يوجد لديكم خدم، وطباخة، وخادمة غرف، وحوذي، ووصيف، وبواب. فإذا كنتم تودون أن تكونوا ديمقراطيين أجلسوا هؤلاء معكم إلى المائدة، وعند شربكم الشاي؛ أدخلوهم إلى حياتكم العائلية. وبدلاً من أن تقولوا لهم إن الإله غير موجود، وأن هناك مناشير سياسية، كما يبدأ أي ليبرالي غبي بنشر تعاليمه، من الأفضل أن تقولوا لهم إن هناك الجمع والطرح، وهناك مبادئ القراءة والكتابة وكتاب تعلّم حروف الهجاء. وفي أثناء ذلك عليكم أن تكونوا نزيهين، ومهتمين، وجدّيين مع تلاميذكم وألّا تكونوا متبسطين معهم؛ وعلى العموم كونوا قدوة لهم، وفي الطيبة، أو على الأقل في الأخلاق الأفضل».

(*) أ.إي. سترونين (1827–1889) عالم اجتماع روسي. (ن).

ولنتحدث الآن عن البيترشيفسكيين بالذات، هاكم ما قاله كاتب الافتتاحية:

«الفكرة الأخرى التي توحي بها لا إرادياً «حادثة قازان» تُمثِّل في الوعي الاجتماعي جانباً أكثر تعزيةً، وتتلخص في أن أبطال جميع الحوادث المحزنة المشابهة يغدون في كل مرة أصغر شأناً وأقل جاذبية من المرة السابقة، حتى بالنسبة إلى الرؤوس المتحمسة. ففي حقبةٍ ما منذ خمسين عاماً كان مرتكبو الجرائم السياسية في روسيا هم من أبناء الفئة المثقفة العليا في المجتمع (الديسمبريين)[14]، وفي الأربعينيات أصبح أنموذج المجرم السياسي الروسي، أضأل بكثير(البيترشيفسكيين)، وفي أوائل الستينيات ازداد تضاؤلاً وانخفض حتى مستوى ما يسمى البروليتاري المفكر (التشيرنيشيفسكيين)[120]، وفي بداية السبعينيات هوى حتى مستوى التلاميذ المتخلفين الذين لم يكملوا تعليمهم، والعدميين من الصنف الرديء (النيتشايفيّين)[39]. أما في حادثة الدولغوشينيّين[121] فنجد أن الدعاة أصبحوا من الرعاع شبه الأميين؛ وأخيراً نرى أن المتبقّين الذين شاركوا في «حادثة قازان» ليسوا من الرعاع شبه الأميين فحسب، بل من الذين يصطبغون بوضوح بصبغة العنصر اليهودي، ومن عمّال المصانع المنحلّين. إن هذا التضاؤل التدريجي أفضل برهان على أن الدعاية السياسية الإجرامية، بعد كل الاصطلاحات الليبرالية التي جرت في العهد القيصري الحالي، لم يعد بوسعها أن تُعوِّل على استهواء أية عناصر متطورة في المجتمع، ومن باب أولى ألّا يكون بوسعها التأثير في جمهور الشعب، لأن هذا الجمهور قد أظهر للعيان كيفية استقباله أنبياءه المتطفلين...».

إن فكرة الكاتب عن تفاهة الدعوة الثورية عندنا، هي بلا ريب، فكرة صحيحة، مع أن التعبير عنها ليس واضحاً. فقد كان ينبغي تحديد أمور كثيرة على نحو أكثر دقة من أجل إيضاح القضية. ولكنني سأقتصر هنا على إبداء ملاحظة حول البيترشيفسكيين فحسب، إذ لا أظن أن الكاتب كان محقاً في إيراده إياهم مثالاً على تضاؤل المجرم السياسي بالمقارنة مع الديسمبريين. وأضيف أيضاً أن هذه الفكرة عن «التضاؤل» سمعتها منذ مدة بعيدة، فقد تكررت في الصحافة أكثر من مرة*، ولذا فإنني أتوقف عندها الآن، إذ صادفتها في الوقت المناسب. إن التغيير الجذري في أنموذج المجرم السياسي لم يجر، بحسب رأيي، إلّا في غضون العقدين المنصرمين. أما أنموذج «البيترشيفسكيين» فقد كان يتطابق تماماً مع أنموذج «الديسمبريين»، على الأقل من حيث الصفات الجوهرية التي يشير إليها كاتب المقال نفسه. يقول الكاتب إن «الديسمبريين» كانوا من أبناء الفئة المثقفة العليا في المجتمع، فما الفرق إذاً بينهم وبين

(*) كان دوستويفسكي قد فنّد هذه الفكرة فيما يخص «البيترشيفسكيين» في مقالته «إحدى الأكاذيب المعاصرة» في يوميات عام 1873. (ن).

«البيترشيفسكيين»؟ ربما كان عدد الأشخاص «الديسمبريين» الذي يرتبطون بصلات مع الفئة الأعلى والأغنى في المجتمع أكبر فعلاً من عدد أمثالهم من «البيترشيفسكيين»، ولكن عدد «الديسمبريين» الإجمالي كان أكبر بما لا يقاس من البيترشيفسكيين، ثم إن هؤلاء كان بينهم عدد لا يستهان به من الأشخاص الذين تربطهم صلات وقرابة مع أفضل شخصيات المجتمع، وكانوا إلى ذلك، من الأغنياء. زد على ذلك أن المجتمع الأرقى لم يكن يتعاطف البتة مع مقاصد «الديسمبريين»، ولم يشاركهم فيها ولو على نحو غير مباشر، ولذا لم يكن يوليهم من هذه الناحية أية أهمية خاصة. إن أنموذج «الديسمبريين» كان عسكرياً أكثر من أنموذج «البيترشيفسكيين» مع أن عدد العسكريين بين «البيترشيفسكيين» لم يكن بالقليل. وباختصار أقول: إنني لا أدري فيمَ يرى الكاتب الفرق بينهم؛ فهؤلاء وأولئك كانوا بلا جدال، ينتمون كلياً إلى المجتمع المسيطر نفسه، أو لنقل إلى مجتمع «الأسياد»، ولم يكن ثمة أي فرق على الإطلاق بين الفريقين من حيث الاتصاف بهذه السمة، التي كانت تميز أنموذج المجرمين السياسيين آنذاك، أي «الديسمبريين» و«البيترشيفسكيين» على حد سواء. وإذا كان هناك بين «البيترشيفسكيين» بعض مثقفي الطبقة الوسطى (وبقلّة جدّ قليلة)، فإنهم كانوا هناك بصفتهم أشخاصاً متعلمين لا أكثر، وبهذه الصفة بالذات كانوا يوجدون أيضاً بين «الديسمبريين». وعلى العموم فإن الأشخاص الذين ينتمون إلى البرجوازية الصغيرة المدينية وإلى الطبقة الوسطى المثقفة لم يكن من الممكن أن يوجدوا بأعداد كبيرة في صفوف أي من الفريقين المذكورين، وذلك لأن عددهم أصلاً لم يكن كبيراً آنذاك. أما من حيث «درجة الثقافة»، بصفتها سمة يتفوق بها «الديسمبريون» على «البيترشيفسكيين» فإن الكاتب يرتكب بهذا الصدد خطأ فاحشاً: إذ إن مجتمع «الديسمبريين» كان يتألف من أشخاص أقل ثقافة بما لا يقاس من «البيترشيفسكيين»؛ فقد كان هؤلاء في أكثريتهم من الأشخاص المتخرجين حديثاً في أعلى المؤسسات التعليمية: في الجامعات، والمدرسة العليا الألكسندرية*، ومعهد الحقوق، وأعلى المؤسسات التعليمية التخصصية. وكان كثيرون منهم أساتذة ومتخصصين في البحث العلمي. وفيما بعد، بعد العفو عنهم، برز كثيرون منهم وحظوا بشهرة واسعة؛ وإذا أخذنا «البيترشيفسكيين» بمجملهم، أي ليس الذين نُفوا إلى سيبيريا وحدهم، بل أيضاً الذين عوقبوا في روسيا بالنفي إلى بعض القلاع وإلى القفقاس، أو أُبعدوا ليخدموا في مدن نائية، أو الذين أُبقوا في أماكنهم ووضعوا تحت المراقبة، فإننا نجد أن كثيرين جداً منهم نالوا شرفاً عظيماً فيما بعد، بإظهارهم قدرات فائقة في مجال العلم، بصفتهم أساتذة في الجامعات،

(*) «الليسيه» الألكسندرية: نسبة إلى الامبراطور الروسي ألكسندر الأول، أسست في عام 1811 لتعليم أبناء النبلاء في القرية القيصرية (مدينة بوشكين حالياً)، وهي المدرسة التي تخرج فيها بوشكين. (م).

وباحثين في العلوم الطبيعية، وأمناء سر في الجمعيات العلمية، وبصفتهم مؤلفي كتب علمية متميزة ومُصدري صحف، وروائيين، وشعراء مرموقين جداً، وعلى العموم بصفتهم شخصيات مثقفة ومفيدة. وأعود فأكرر أن «البيترشيفسكيين» كانوا من حيث الثقافة يمثلون الأنموذج الأعلى بالمقارنة مع «الديسمبريين».

ومن البدهي أن كثيراً من الأمور يمكن أن يتصورها متابعو «تضاؤل» الأنموذج تصوراً غير صحيح لسبب آخر أيضاً، هو أن «البيترشيفسكيين» كانوا أقل عدداً بما لا يقاس من «الديسمبريين»، ومدة نشاطهم كانت أقصر بكثير، وكانوا في معظمهم أصغر سناً من «الديسمبريين».

ونستنتج في الختام أن أنموذج الثوري الروسي، على وجه العموم، كان يمثل، على مدى قرننا الحالي، إشارة فائقة الوضوح إلى درجة القطيعة بين مجتمعنا المثقف المتقدم والشعب، وإلى نسيان هذا المجتمع حاجات الشعب ومتطلباته الحقيقية، لا بل إنه لا يريد حتى أن يعرفها، وبدلاً من أن يهتم فعلاً بالتخفيف عن الشعب نراه يقترح عليه وسائل أبعد ما يكون عن التوافق مع روحه، ومع التكوين الطبيعي لحياته، وسائل لا يمكن للشعب أن يتقبلها حتى وإن فهمها. إن ثوريينا لا يقولون ما يجب أن يقال ولا يتحدثون عما يجب التحدث عنه، وهذا على مدى القرن كله، أما الآن فقد برزت أسباب كثيرة ومعقدة، سنتحدث عنها حتماً في أحد الإصدارات القادمة من «اليوميات»، أدت إلى ظهور أنموذج للثوري الروسي مختلف تماماً ونهائياً عن الشعب إلى درجة تجعل كلاً منهم لا يفهم الآخر البتة: فالشعب لا يفهم أي شيء على الإطلاق مما يريده أولئك، وأولئك ابتعدوا عن معرفة الشعب إلى حد جعلهم لا يرتابون حتى في حقيقة انقطاعهم عنه (كما كان يرتاب «البيترشيفسكيون» على سبيل المثال)؛ بل بالعكس، فالأمر لا يقتصر على أنهم يذهبون مباشرة إلى الشعب ليخاطبوه بكلمات في منتهى الغرابة، بل هم يعتقدون، بثقة ثابتة إلى حد السذاجة، أن الشعب سيفهمهم حتماً.

إن هذه الحالة الملتبسة لن تنتهي إلّا من تلقاء ذاتها، ولكن ليس قبل أن تكتمل دورة تأوربنا وتُختتم، ونعود جميعاً إلى تُربتنا الوطنية كلياً.

وكان من الطبيعي أن تبدأ مع الإصلاحات التي جرت في العهد الحالي دراسةٌ دؤوبة لحاجات الشعب ومعرفتها على صعيد الواقع الحي، وليس على نحو مغلق وتجريدي كالسابق. وهكذا تظهر فئة جديدة لم يسبق لها مثيل من المثقفين الروس، تَفْهمُ الشعب والتربة الوطنية. إن هذه الفئة الجديدة تنمو وتتقوى ولا تنفك تزداد سعة وصلابة. وهذا أمر لا شك فيه. وأملنا كله معلق على هؤلاء الناس الجدد...

الأدب الساخر الروسي. «الأرض البكر». «الأغاني الأخيرة». ذكريات قديمة.

اشتغلت هذا الشهر بالأدب أيضاً، أعني بالسرد القصصي، «الأدب الجميل»، وقرأت بعض الأعمال بشغف. وأذكر بالمناسبة أنني قرأت مؤخراً رأياً لأحد الأجانب عن الأدب الساخر الروسي*، أي عن أدبنا الساخر المعاصر، الحالي. وقد قيل هذا الرأي في فرنسا، ويلفت النظرَ فيه استنتاجٌ لم أعد أذكر كلماته الأصلية، ولكن معناه يفيد أن الأدب الروسي الساخر كأنه يخشى التصرف الحسن في المجتمع الروسي، فإذا ما صادف مثل هذا التصرف ينتابه القلق، ولا يطمئن إلّا عندما يجد في زاوية ما من بواطن هذا التصرف شخصاً نذلاً. عندئذ يبتهج على الفور ويصيح: «هذا ليس تصرفاً حسناً على الإطلاق، وليس من شيء يدعو إلى البهجة، وها أنتم ترون بأنفسكم أن القائم به نذل كسواه!».

فهل صاحب هذا الرأي محق؟ لا أصدق أنه محق. وكل ما أعرفه أن للأدب الساخر عندنا كتّاباً متألقين ومقروئين على نطاق واسع. فالجمهور يحب هذا الأدب جداً، ولكن هذا الجمهور نفسه، بحسب قناعتي على الأقل، يحب الجمال الإيجابي أكثر بكثير، وتهفو نفسه إليه وتتوق بشدة. ولا ريب في أن الكونت ليف تولستوي أحب الكتّاب إلى الجمهور الروسي بجميع أصنافه.

ومهما كان أدبنا الساخر متألقاً، فإنه يظل في الواقع يعاني من بعض الالتباس؛ وهذا كل ما يمكن أن نقوله عنه؛ إذ يتعذر علينا تماماً في بعض الأحيان أن نكوّن تصوراً كلياً وعاماً عَمَّ يرغب أدبنا الساخر في قوله بالضبط. وهكذا يخيّل لنا أن هذا الأدب لا يملك أية بواطن، ولكن هل هذا ممكن؟ لكأن ما يؤمن به هذا الأدب، وما من أجله يعرّي ويفضح، يغرقان في غياهب المجهول. ويستحيل تماماً أن نعرف ما يراه هذا الأدب حسناً.

وهنا تجد نفسك غارقاً على نحو غريب في تأمل هذه المسألة.

قرأت ما صدر من رواية تورغينف «الأرض البكر»، وأنتظر صدور جزئها الثاني، وأشير بالمناسبة، إلى أنني أكتب منذ ثلاثين سنة، وكنت في أحيان كثيرة، على مدى هذه السنين كلها، ألاحظ باستمرار ظاهرة طريفة، هي أن جميع النقاد عندنا (الراحلين والحاليين)، وباختصار

(*) المقصود مقالة أ. ستينبوك – فيرمور: «من كل مكان». (ن).

جميع الذين أذكرهم (علماً بأنني أتتبع الكتابات الأدبية منذ ما يقارب الأربعين عاماً) ما إن يبدؤوا، الآن أو في الماضي، عرض أي تقرير عن الأدب الروسي في زمنهم بنبرة خطابية بعض الشيء (سابقاً، على سبيل المثال، كانت المجلات تنشر في شهر كانون الثاني (يناير) تقارير سنوية عن العام المنصرم بأكمله)، حتى يسارعوا إلى استعمال عبارة تتكرر دائماً وتحظى لديهم بحب كبير يزيد أو يقل، وهي: «في زمننا الذي تدهور فيه الأدب إلى هذا الدرك» أو «في زمننا الذي أصيب فيه الأدب الروسي بهذا الجمود» أو: «في هذا الزمن الأدبي الرديء»، أو «متجولاً في صحارى الأدب الروسي» إلخ... إلخ... الفكرة نفسها تتكرر بألف صيغة، مع أن هذه السنوات الأربعين قد شهدت، في الواقع، ظهور أعمال بوشكين الأخيرة، وبداية غوغول ونهايته، ووجود ليرمنتوف، وظهور أوستروفسكي، وتورغينف، وغونتشاروف، وما لا يقل عن عشرة قصاصين وروائيين موهوبين جداً، وهذا في مجال الأدب الإبداعي وحده! ويمكننا القول بثقة: لم يشهد أي أدب آخر في أي زمن تقريباً، ظهور مثل هذا العدد الكبير من الكتّاب الموهوبين، ظهوراً متوالياً لا انقطاع فيه، خلال مثل هذه الحقبة القصيرة، كما جرى عندنا. ومع ذلك فقد قرأت مؤخراً، وربما في الشهر الماضي بالذات، مرة ثانية عن جمود الأدب الروسي، وعن «صحارى الأدب الروسي».* وعلى كل فإن هذه مجرد ملاحظة طريفة مني؛ إذ إن المقالة ساذجة للغاية ولا تتمتع بأية أهمية، بل تجعل قارئها يكتفي بابتسامة ساخرة.

وأنا، بالطبع، لن أقولِ شيئاً عن «الأرض البكر»، فالجميع ينتظرون الجزء الثاني. ثم إنه ليس لي أن أقول شيئاً. فالقيمة الفنية لأعمال تورغينف ليست موضع شك. ولكنني سأبدي ملاحظة واحدة: ففي الصفحة 92 من الرواية (انظر صحيفة «بشير أوربا»)، وفي السطور الخمسة عشر أو العشرين من أعلى الصفحة تتركز، بحسب رأيي، فكرة العمل بكاملها، وكأن الكاتب يعبر فيها عن كامل نظرته إلى موضوع عمله. وأرى آسفاً، أن هذه النظرة خاطئة تماماً، وأنا أخالفه فيها بعمق. وأقصد هنا بضع العبارات التي يتحدث فيها الكاتب عن أحد شخوص الرواية، وهو «سولومين»**.

(*) يقصد دوستويفكي مقالة أ.م. سكابيتشيفسكي «أحاديث عن الأدب الروسي (رسائل نقدية)». (ن).

(**) المقصود هنا هو الأسطر التالية عن «سولومين» في الفصل السادس عشر من رواية إيفان تورغينف «الأرض البكر»: «... لم يكن سولومين يؤمن بقرب نشوب الثورة في روسيا؛ ولكنه لم يكن يرغب في فرض رأيه على الآخرين. لذا فلم يكن يعوقهم عن المحاولة، ناظراً إليهم لا عن بعد، بل من جانب. كان يعرف الثوريين البطرسبورغيين جيداً ويتعاطف معهم إلى حد ما، لأنه هو نفسه كان من أبناء الشعب، لكنه كان يدرك الغياب اللاإرادي لهذا الشعب، الذي «لن تستطيع أن تفعل شيئاً» بدونه، والذي ينبغي إعداده طويلاً، ولكن ليس بهذا الأسلوب، وليس على أيدي هؤلاء، ولذا كان يتنحّى جانباً، لا عن مكر ومراوغة، بل عن تفكير حصيف، إذ إنه لم يكن يرغب في أن يعرّض نفسه أو الآخرين للهلاك المجاني. أمّا أن يستمع، فلم لا؟ بل ويتعلم إذا شاءت له الظروف ذلك». (ن).

قرأت «الأغاني الأخيرة» التي نشرها نِكراسوف في كتاب كانون الثاني (يناير) من «المذكرات الوطنية». أغان مشبوبة العاطفة، وكلمات مُضْمَرة، كما هو الحال دائماً لدى نكراسوف. ولكن أية زفرات عذاب هذه تنطلق من صدرِ مريضٍ! شاعرنا مريض جداً، وهو، كما قال لي بنفسه، يرى حالته بوضوح. ولكنني لا أصدق... إن هذا الكيان العضوي متين وشديد الحساسية. هو يعاني معاناة فظيعة (إنه مصاب بقرحة معوية، يصعب تحديدها)*، ولكنني لا أصدق أنه لن يستطيع التحمل حتى الربيع، وفي الربيع يسافر إلى مصح مياه معدنية في الخارج، إلى مناخ آخر، بأسرع ما يمكن، وسيتعافى. أنا موقن بهذا. أحياناً يحدث للمرء أمور غريبة؛ لقاءاتنا في حياتنا كانت نادرة، وحدثت بيننا حالات من سوء التفاهم أحياناً، ولكنْ ثمة حادث لم أستطع نسيانه طوال حياتي. وهو بالذات حادث اللقاء الأول بيننا. وعندما زرته مؤخراً وهو مريض مُنهك، بادرني منذ الكلمة الأولى بالقول: إنه ما زال يذكر تلك الأيام. وكان ما حدث آنذاك (منذ ثلاثين سنة) شيء ما مفعم بروح الشباب وبالطزاجة والطيبة، شيء يبقى إلى الأبد في قلوب الذين شاركوا فيه. كان كل منا آنذاك قد تجاوز العشرين بقليل. وكنت أقيم في بطرسبورغ، وقد استقلت منذ عام واحد من وحدة الهندسة العسكرية، من دون أن أعرف أنا نفسي لِمَ فعلت ذلك، إذ كانت أهدافي آنذاك غير واضحة وغير محددة بالمرة. حدث ذلك في أيار (مايو) العام الخامس والأربعين. وكنت قد بدأت فجأة منذ أوائل الشتاء كتابة «الناس الفقراء» وهي أولى قصصي، ولم أكن قد كتبت قبلها أي شيء. وعندما أنهيتها لم أعرف ماذا أفعل بها، ولمن أعطيها. لم يكن لدي معارف على الإطلاق في الأوساط الأدبية، ما عدا د. ف. غريغوروفتش، ولكنه هو نفسه لم يكن قد كتب شيئاً آنذاك باستثناء مقالة صغيرة بعنوان «عازفو البيانولا البطرسبورغيون»، نشرها في إحدى المجموعات. وأظن أنه كان يستعد آنئذ للسفر إلى قريته لقضاء الصيف هناك، وكان يعيش مؤقتاً عند نكراسوف. مَرَّ بي وقال لي: «أحضر المخطوط»، (ولم يكن هو قد قرأها بعد)**؛ «نكراسوف يريد إصدار مجموعة قبيل العام القادم، وسأريه إياها». أحضرتها، ورأيت نكراسوف مدة دقيقة، وتصافحنا، شعرت بالحرج من فكرة أنني أتيت إليه بمؤلَّفي، ولم ألبث أن غادرت من دون أن أتبادل معه أية كلمة تقريباً: كان أملي في النجاح ضعيفاً، وكنت أخاف «حزب المذكرات الوطنية»*** هذا كما كانوا يقولون آنذاك. كنت أقرأ بيلينسكي بشغف منذ

(*) مات نِكراسوف من سرطان المستقيم. (ن).

(**) يروي دوستويفسكي الحادثة على نحو يختلف بعض الشيء عما ورد في مذكرات غريغوروفتش. (ن).

(***) «المذكرات الوطنية» مجلة شهرية كانت تصدر في بطرسبورغ (1839-1884) وكان بيلينسكي يشرف آنذاك على باب النقد في المجلة. (م).

عدة سنوات، ولكنه كان يبدو لي عنيفاً ومخيفاً، وكان يخطر في بالي أحياناً أنه سيسخر من قصتي «الناس الفقراء!» ولكن أحياناً فقط: فقد كتبتها بعاطفة جياشة، ودموعي تكاد تنهمر، «فهل من المعقول أن كل هذا، كل هذه اللحظات التي عانيتها والريشة في يدي أخط بها كلمات هذه القصة، كل هذا كذب، سراب مشاعر زائفة؟»، ولكنني لم أكن أفكر هكذا سوى دقائق بالطبع، ثم لا تلبث الوساوس أن تعاودني. وقد ذهبت في مساء ذاك اليوم الذي سلمت فيه المخطوطة إلى مكان بعيد لأزور أحد الرفاق السابقين؛ وقضينا الليل بطوله في الحديث عن «النفوس الميتة»، وقرأنا العمل مرة أخرى بعد مرات لم أعد أذكر عددها. وكان هذا يحدث آنذاك في أوساط الشباب؛ يجتمع اثنان أو ثلاثة، ويقول أحدهم: «ما رأيكم أيها السادة، في أن نقرأ غوغول!» ويجلسون ويقرؤون وغالباً ما يستغرق هذا الليل بأكمله. كان كثيرون جداً من الشباب آنذاك مفعمين بمشاعر ما، وكانوا كأنهم يتوقعون أمراً ما. عدت إلى البيت في الساعة الرابعة، وكان الليل في بطرسبورغ آنذاك أبيض منيراً كالنهار، والجو دافئاً ورائعاً. دخلت الشقة، ولم أذهب إلى النوم، بل فتحت النافذة وجلست قربها. وفجأة رن الجرس، فتملكتني دهشة شديدة، وإذا بغريغوروفتش ونكراسوف يندفعان لمعانقتي بحماسة بالغة، وكلاهما يكادان يبكيان. فقد عادا في المساء الفائت إلى البيت باكراً وأخذا مخطوطتي وبدأا يقرأان على سبيل الاختبار: «سيتضح الأمر من الصفحات العشر الأولى». ولكنهما قررا بعد قراءة الصفحات العشر الأولى قراءة عشر صفحات أخرى، ثم لم يتوقفا عن القراءة طوال الليل، وظلا يقرأان بصوت مسموع حتى الصباح، وكلما تعب أحدهما ناب عنه الآخر*. وقد أخبرني غريغوروفتش فيما بعد بيني وبينه: «كان يقرأ عن موت الطالب، وعندما وصل إلى المكان الذي يركض فيه الأب خلف النعش أحسست فجأة أن صوته أخذ يتقطع مرة بعد مرة، وفجأة لم يعد يتمالك نفسه وخبط المخطوطة براحة يده قائلاً: «أوه، يا له من...!» وكان يقصدك أنت، وظللنا على هذا الحال طوال الليل». وعندما أنهينا القراءة (سبع ملازم طباعية!) قررا بصوت واحد المجيء إليّ على الفور: «وحتى إذا كان نائماً سنوقظه، فهذا أهم من النوم!» فيما بعد، عندما تعرّفت طبعَ نكراسوف بعمق، كنت غالباً ما أصاب بالدهشة من تصرفه في تلك اللحظة: فهو ذو طبع انطوائي، ويكاد يكون مُوسوساً، وحذراً، وقلما يميل إلى العِشْرة. هكذا، على الأقل، كان يبدو لي دائماً، ولذا فإن تلك اللحظات من لقائنا الأول

(*) يقول غريغوروفتش في مذكراته إن دوستويفسكي سكت في «يومياته» عن بعض التفاصيل من باب التواضع على أغلب الظن... ويردف قائلاً: «... كنت أقرأ وعند الصفحة الأخيرة، حيث الشيخ ديفوشكين يودع فارينكا، لم أعد أستطيع تمالك نفسي، وبدأت أنشج؛ نظرت خلسة إلى نكراسوف، فرأيت دموعه تسيل على وجنتيه...». (ن).

كانت بالفعل تجلياً لشعور في غاية العمق. بقيا عندي آنذاك نحو نصف ساعة، والرب وحده يعلم كم من الموضوعات تناولنا بالحديث خلال نصف الساعة ذاك، وكان كل منا يفهم قصد الآخر قبل أن يكمل عبارته، ونعجّل في الحديث مطلقين صيحات التعجب؛ تحدثنا عن الشعر، وعن الحقيقة، وعن «الوضع آنذاك»، وعن غوغول، طبعاً، مستشهدين بمقبوسات من «المفتش العام» ومن «النفوس الميتة»، ولكن حديثنا الأهم كان عن بيلينسكي. قال لي نكراسوف بحماسة وهو يهزني ممسكاً كتفيّ بكلتا يديه: «سآخذ له قصتك اليوم، وسترى أية نفس هذه! أما الآن فاذهب ونم، نحن سنغادر، وأنت نم، وائتنا غداً!» وكأنني كنت قادراً على الإغفاء بعد ذهابهما! أية بهجة هذه، وأي نجاح! والأهم أن الإحساس كان غالياً، وما زلت أذكر بوضوح: «عندما يحرز أحدهم نجاحاً يمدحونه، ويستقبلونه، ويهنئونه، أما هذان فقد جاءا إليّ راكضين بعيون دامعة، الساعة الرابعة صباحاً ليوقظاني، لأن هذا أهم من النوم... آه، روعة!» هكذا كنت أفكر فأي نوم بعد هذا!

حمل نكراسوف المخطوط إلى بيلينسكي في اليوم ذاته. وكان يجلّه إجلالاً عظيماً، ولعله أحبه أكثر من حبه لأي شخص آخر طوال حياته. ولم يكن نكراسوف قد كتب حتى ذاك الوقت شيئاً يضاهي بحجمه ما تسنّى له أن يكتبه بعد ذلك بعام واحد. وكانت الظروف قد ساقته إلى بطرسبورغ، بحسب معلوماتي، وهو في السادسة عشرة من عمره. وكان آنذاك وحيداً تماماً. وقد بدأ الكتابة أيضاً مذ كان في السادسة عشرة تقريباً. ولا أعرف سوى القليل عن تعرّفه ببيلينسكي، ولكنني أعرف أن بيلينسكي تكهّن بما لديه منذ بداية تعارفهما، ولعله أثر بقوة في توجهاته الشعرية. وبصرف النظر عن أن نكراسوف كان آنذاك في سني شبابه الأولى، وثمة فارق في السن بينه وبين بيلينسكي، فمن المؤكد أن ثمة لحظات كانت بينهما آنذاك، وثمة كلمات قيلت، هي من النوع الذي يظل أثره مدى الحياة، ويَعقِدُ أواصر لا انفكاك لها. صاح نكراسوف وهو يدخل عليه حاملاً قصة «الناس الفقراء»: «لقد ظهر غوغول جديد!» فردّ عليه بيلينسكي بصرامة: «الغوغولات* عندكم ينبتون كالفطور»، ولكنه أخذ منه المخطوطة. وعندما أتاه نكراسوف ثانية في المساء، استقبله وهو «في حالة اضطراب حقيقي»: «أحضِرْه، أحضره، بأسرع ما يمكن!».

جاؤوا بي إليه (كان هذا في اليوم الثالث)؛ وأذكر أن مظهره، أدهشني جداً للوهلة الأولى، وخاصة أنفه وجبينه. ولا أدري لِمَ كنت أرسم له في مخيلتي صورة مختلفة تماماً، لـ «هذا الناقد الرهيب المخيف». استقبلني برصانة وتحفظ مفرطين، فقلت في نفسي: «وماذا

(*) جمع اصطلاحي للقب «غوغول». (م).

في ذلك، هذا ما يجب أن يكون» ولكن ما هي إلّا دقيقة، كما خيل إلي، حتى تبدل كل شيء، فالرصانة لم تكن تصنعاً للظهور بمظهر الناقد العظيم الذي يستقبل كاتباً مبتدئاً في الثانية والعشرين من عمره. بل كانت تجلياً لاحترامه تلك المشاعر التي أراد أن يفصح لي عنها بأسرع ما يمكن، وتلك الكلماتِ الهامةَ التي كان يتعجل جداً قولها لي. بدأ كلامه بحميّة وكلمات ملتهبة: «هل تعي أنت نفسُك ما هذا الذي كتبتَه!» وكرر لي هذه العبارة عدة مرات بصوت عالٍ كعادته، فقد كان يرفع صوته عندما يتكلم وهو منفعل. «لم يكن بمقدورك أن تكتب هذا سوى بحسّك المباشر كفنان، ولكن هل وعيت أنت نفسك كلَّ أبعاد هذه الحقيقة المرعبة التي لفتَّ نظرنا إليها؟ لا يمكن أن تكون قد أدركت هذا وأنت في العشرين. فمُوظَّفُك التَّعسُ هذا غرق في الخدمة حتى الاهتراء. وأوصل نفسه بنفسه إلى حالة تجعله لا يتجرأ حتى على أن يصف نفسه بالتَّعِس من شدة الإذلال الذي يعانيه، وأصبح ينظر إلى أتفه شكوى على أنها تكاد تكون «تفكيراً معارضاً»، بل إنه لا يجرؤ حتى على أن يعترف لنفسه بالحق في التعاسة، وعندما يعطيه ذاك الإنسان الطيب، رئيسُه الجنرال، تلك الروبلات المئة يشعر بأنه قد تحطم وانسحق من شدة الذهول، وأن «معاليهم»، وليس «معاليه»، بل «معاليهم»، كما يقول في قصتك، أمكن أن يشفق على شخص مثله! ثم ذاك الزر المقطوع، وتلك اللحظة التي يُقبّل فيها يد الجنرال-، لا، نحن هنا لسنا إزاء الشعور بالشفقة على هذا التعس بل إزاء الشعور بالهول، بالهول! أجل إن الشكر الذي يعبر عنه يثير الشعور بالهول! إنها مأساة! أنت وصلت إلى جوهر الأمر، وأشرت مباشرة إلى الأهم الأهم. نحن، كتّابَ المقالات والنقادَ، نتأمل الأمور فحسب، ونجهد في إيضاحها بالكلمات، أما أنت - الفنانَ، فإنك بلمسة واحدة تعرض بالصورة جوهر الأمر، بحيث يمكن تلمسه باليد، ويصبح بإمكان القارئ الذي لم يعتد البتة تأمّلَ الأمور أن يفهم فجأة كل شيء! هذا هو سرّ الفنيّة، هذه هي الحقيقة في الفن. هذه هي خدمة الفنان للحقيقة! الحقيقةُ مكشوفةٌ ومُعلنة لك بصفتك فناناً، وقد قُدّمتْ لك هبةً، فاحرص على ما وُهبته، وابق وفياً، وستصبح كاتباً عظيماً!».

قال لي آنذاك كل هذا. وقال كل هذا عني فيما بعد لكثيرين آخرين لا يزالون أحياء، وبمقدورهم أن يشهدوا بذلك. خرجت من عنده وأنا منتشٍ، وتوقفت عند زاوية البناء الذي يسكن فيه، ونظرت إلى السماء، إلى النهار المنير، وإلى الناس المارّين، وشعرت كلّي، بكل كياني، أن حدثاً جليلاً قد حدث في حياتي، وأن انعطافاً قد غيّرها إلى الأبد، وأن شيئاً جديداً تماماً قد بدأ، ولكنه شيء لم أكن أفترضه آنذاك حتى ولا في أشد أحلامي جموحاً، (علماً بأنني كنت آنذاك من أشد الحالمين غلواً). «أحقاً أنا عظيم إلى هذا الحد» فكرت في سرّي بخجل وأنا أشعر بابتهاج متهيب. أوه، لا تضحكوا، فأنا لم أفكر قط بعد ذلك في أنني عظيم،

ولكن آنذاك: هل كان يمكن تحمّل ما جرى! «أوه، إنني سأكون جديراً بهذا الثناء؛ أي أناس هؤلاء، أي أناس! هنا الناس حقاً! وأنا سأعمل بجدارة، سأسعى لأكون شخصاً رائعاً مثلهم، وسأظل «وفياً»!

أوه كم أنا طائش، ولو يعرف بيلينسكي أية أشياء سيئة ومخجلة في داخلي! إنهم لا ينفكون يقولون إن هؤلاء الأدباء متكبرون ومعتزون بأنفسهم. ولكن، على كل لا يوجد في روسيا أناس بمعنى الكلمة سوى هؤلاء، إنهم وحيدون، ولكنهم وحدهم يمتلكون الحقيقة؛ والحقيقةُ، والخير، والصدق هي التي تنتصر دائماً وتتغلب على الرذيلة والشر، النصر لنا؛ فهيّا بنا إليهم، ولنكن معهم!».

فكرت في كل هذا آنذاك، وما زلت أذكر تلك البرهة بوضوح. ولم أستطع نسيانها في أي وقت من الأوقات بعد ذلك، فقد كانت هي البرهة الأكثر إبهاجاً في حياتي كلها. وكانت ذكراها في سجن الأشغال الشاقة تشدّ من عزيمتي. وما زلت حتى الآن أطرب لذكراها. وها أنا بعد ثلاثين سنة أتذكر كل تلك البرهة مرة أخرى، وأنا جالس قرب سرير نكراسوف المريض، وأشعر أنني أعيشها من جديد. لم أذكّره بالتفاصيل، بل ذكّرته فقط بأننا عشنا يوماً تلك اللحظات، ووجدته ما زال هو أيضاً يذكرها. وكنت أعرف أنه يذكرها. فعندما عدت من السجن قال لي وهو يريني إحدى مقطوعاته الشعرية في ديوانه: «هذه كتبتها عنك آنذاك» وقد عشنا حياتنا كلها منفصلَين، وها هو الآن يتذكر على فراش المعاناة أصدقاءه الراحلين:

لم يكملوا أغانيهم التنبّئية*
سقطوا وهم في زهرة العمر
ضحايا الحقد والخيانة
وصورهم تنظر إلي من الجدران بعتاب

كلمة «عتاب» قاسية هنا. هل بقينا أوفياء يا ترى، هل بقينا؟ فليحكم كل إنسان علينا بما يمليه عليه ضميره. اقرؤوا بأنفسكم أغاني المعاناة هذه، ودعوا شاعرنا المحبوب والمتحمس يعش من جديد! شاعرنا المتحمس للمعاناة!...

(*) الأبيات من مقطوعة نكراسوف: «قريباً سأصبح فريسة البِلى» والأصدقاء الذين لم يكملوا أغانيهم، هم على الأرجح، بيلينسكي ودوبرولوبوف اللذان رحلا باكراً وتشيرنيشيفسكي الذي نُفي إلى سيبيريا. (ن).

في عيد شفيعه*

هل تذكرون كتاب الكونت تولستوي «الطفولة والمراهقة»؟ هناك صبي هو بطل «القصيدة» كلها. وهو ليس صبياً عادياً، ليس كغيره من الصبية، وليس مثل أخيه فولوديا. عمره لا يتجاوز الثانية عشرة، ولكن ثمة أفكاراً ومشاعرَ تجول في ذهنه وقلبه، لا تشبه تلك التي لدى أترابه، وهو يستسلم بشغف لأحلامه ومشاعره، ويعرف أن من الأفضل له صونها في داخله. وتمنعه من إظهارها عفته الخجولة وكبرياؤه الشامخة. وهو يحسد أخاه ويعدّه متفوقاً عليه بما لا يقاس؛ ولا سيما من حيث الحذق وجمال الوجه. ولكن في الوقت نفسه يخامره في السر إحساس مسبق بأن أخاه أدنى منه بكثير من جميع النواحي، بيد أنه يجهد في طرد هذه الفكرة ويَعُدّ هذا التفكير دناءة. ينظر إلى نفسه في المرآة مرات كثيرة جداً، ويقرر أنه شديد الدمامة، ويخطر بباله أن لا أحد يحبه، وأنهم يحتقرونه... وباختصار هو صبي غير عادي إلى حد ما، وينتمي بالذات إلى ذاك النموذج من عائلات فئة النبلاء العليا المتوسطة التي كان الكونت ليف تولستوي هو شاعرها ومؤرخها بامتياز تام، بحسب وصية بوشكين**. وها هم الضيوف يجتمعون في منزل الأسرة الموسكوفي الكبير للاحتفال بعيد شفيعة الأخت، ويصحب الكبار أطفالهم من الصبيان والبنات، وقد بدأت الألعاب والرقصات؛ ولكن بطلنا أخرقُ في حركاته، وأسوأ من الجميع في الرقص، وهو يريد أن يتميز بلَوْذعِيَّته، ولكنه لا يُوفَّق؛ علماً بأن الحفل يضم عدداً كبيراً من الفتيات الجميلات، وهو يعاني من فكرته الأبدية واشتباهه الأبدي بأنه أسوأ من الجميع. ويجعله اليأس مستعداً للإقدام على فعل أي شيء يصعق به الجميع. وها هو في لحظة هياج مفرط مفاجئ، ينتابه شعورُ من يرمي نفسه في هاويةٍ فغرت فاها تحت قدميه، فيعمد في حضرة جميع البنات، وجميع أولئك الصبية الكبار المتكبرين، الذين ينظرون إليه على أنه لا شيء، إلى إخراج لسانه لمُربيّه ولكمِه بكل ما أوتي من قوة! «عرف الجميع الآن من هو، لقد أراهم نفسَه!» هاهم يجرّونه مَخْزِيّاً إلى حجرة المؤونة ويحبسونه هناك. ويشعر الصبي بأنه قد دُمّر إلى الأبد ويشرع يحلم: ها هو يهرب من

(*) عيد الشفيع: هوعيد القديس الذي سُمّي الشخص باسمه تيمناً. (م).

(**) المقصود بـ«وصية بوشكين» هنا هو الزاوية التي نظر منها بوشكين إلى فئة النبلاء في روايته الشعرية «يفغيني أونيغن» وقصته «ابنة الضابط». بينما نجد أن دوستويفسكي قد صور في روايتيه «المراهق» و«الإخوة كارامازوف» الجوانب المعتمة لا النيّرة في فئة النبلاء التي تعرضت للخراب والتفسخ في حقبة الإصلاح الفلاّحي - الزراعي. (ن).

المنزل، ويلتحق بالجيش، ويَقتل في المعركة عدداً كبيراً من الأتراك، ويسقط مثخناً بالجراح. يتصرون، ويصيح الجميع: أين مُنقذنا، ويقبلونه، ويعانقونه. وهاهو في موسكو ثانية يسير في بولفار «تفيرسكوي» بذراع مضمدة، ويستقبله القيصر... وفجأة يفكر في أن الباب سيفتح الآن ويدخل المُربّي حاملاً حزمة قضبان، ويبدّد أحلامه هباءً، وتبدأ أحلام أخرى، ويختلق فجأة سبباً يفسّر لماذا «لا يحبه الجميع هكذا»: إنه على الأرجح، لقيط، وهم يخفون هذا عنه... ويتعاظم الإعصار: ها هو يموت، ويدخلون حجرة المؤونة ويعثرون على جثته: «يا للصبي المسكين!» يأسف عليه الجميع. ويقول الأب للمربي: «إنه صبي طيب، وأنت الذي قتلته» وها هي الدموع تخنق الحالم... وتنتهي كل هذه القصة بمرض الطفل وإصابته بالحمى والهذيان. إنها دراسة نفسانية في منتهى الجدية لنفسية الطفل، مصوغة على نحو مدهش.

لقد تعمدت عن قصد استذكار تلك الدراسة بهذا التفصيل. فقد وصلتني رسالة من مدينة كيشينيوف يصفون لي فيها موت أحد الأطفال، وهو أيضاً صبي في الثانية عشرة من عمره و... ومن المحتمل جداً أن يكون ثمة تشابه ما. وعلى كل سأنقل بعض مقاطع الرسالة من دون أن أغيّر كلمة مما ورد فيها. والموضوع جدير بالاهتمام.

«في الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر)، بعد الغداء، انتشر في المدينة خبر يفيد بوقوع حادثة انتحار، فقد شنق نفسه صبي في الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة من عمره، وهو تلميذ في إحدى المدارس المتوسطة. وظروف القضية كالآتي: عمد مرشد الصف، الذي لم يكن الصبي المنتحر يحفظ درس مادته في ذاك اليوم، إلى معاقبته بإبقائه في المدرسة حتى الساعة الخامسة مساء. تمشى التلميذ هنا وهناك، ووقع بصره على حبل مربوط بملفاف، ففكه، وعلقه على مسمار يعلقون عليه عادة ما يسمى باللوح الذهبي أو اللوح الأحمر. وكان اللوح في ذاك اليوم منزوعاً من المسمار لسبب ما، وشنق الصبي نفسه بهذا الحبل. شاهد الحارس، الذي كان يشطف الأرضيات في الغرف المجاورة، الصبي التعس، فركض إلى الناظر الذي هرع إلى المكان، ونزعا الأنشوطة من عنق المنتحر، ولكنهما لم يستطيعا إعادته إلى الحياة... فأين يكمن سبب الانتحار؟ لم يكن سلوك الصبي يتصف بالعربدة والتصرفات الوحشية، وكان على العموم جيداً في الدراسة، ولكنه نال من مرشد صفه بعض العلامات غير المرضية وعوقب لذلك... يقولون إن ذاك اليوم كان يصادف عيد شفيع والد الصبي، وهو شخص صارم جداً، وعيد شفيع الصبي نفسه، وربما كان الصبي الصغير يحلم وهو مفعم ببهجة طفولية، بالحفاوة التي سيستقبله بها في البيت أمه وأبوه وإخوته وأخواته... وفجأة... ابقَ هنا وحيداً، منعزلاً، جائعاً، في بناء فارغ، وفكِّرْ... في غضب أبيك المخيف الذي ستلقاه، وفي الإذلال والخزي، وربما العقوبة التي سيتعرض لها. وكان الصبي يعرف أن المرء بإمكانه إنهاء

حياته بنفسه (ومَنْ مِنْ أطفال عصرنا لا يعرف هذا). نأسف أشد الأسف على الطفل الذي قضى نحبه، ونأسف من أجل الناظر، هذا الإنسان والمربي الرائع الذي يحبه تلاميذه حب عبادة، ونخاف على المدرسة التي ترى بين جدرانها مثل هذه الظواهر. تُرى ما الذي شعر به رفاق المنتحر والأطفالُ الآخرون الذين يتعلمون هناك، وبينهم أطفال صغار جداً في الصفوف التحضيرية، عندما سمعوا بما جرى؟ أليس مثل هذا العلم مفرطاً في العنف؟ ألا نُفرط في تقدير أهمية: الاثنينات والآحاد*، والألواح الحمر والذهبية، المعلقة على مسامير يشنق عليها التلاميذ أنفسهم؟ أليست عملية التربية عندنا مفرطة في شكليتها وقسوتها الجافة؟».

طبعاً نأسف أشد الأسف على الصغير الذي قضى نحبه في عيد شفيعه، ولكنني لن أستفيض في الحديث عن الأسباب المحتملة لهذا الحادث المفجع، ولا سيما موضوع «الاثنينات، والعلامات، والقسوة المفرطة» إلخ... فكل هذا كان سابقاً، ومرّ من دون حوادث انتحار، والسبب على ما يبدو ليس في هذا. وقد اقتبست ذاك المشهد من «مراهقة» الكونت تولستوي لتشابه الحادثتين، مع وجود فارق ضخم بينهما. لا شك في أن ميشا الذي قضى في عيد شفيعه لم يقتل نفسه من الغيظ أو من الخوف فحسب. فهذان الشعوران - الغيظ والجُبن المَرَضي - بسيطان جداً، ومن المرجح أنهما كانا سيجدان مصرِفاً ذاتياً لهما. على أية حال يمكن فعلاً أن يكون الخوف من العقاب قد فعل فعله هنا، وخصوصاً في حال المعاناة من وسواس مَرَضي، ولكن مع ذلك فإن الشعور هنا كان يمكن أن يكون أعقد بكثير، وأعود فأقول بأن ثمة احتمالاً قوياً بأن ما حدث هنا شيء مشابه لما وصفه الكونت تولستوي، أقصد وجود أسئلة طفلية مكبوتة لم تخرج إلى حيز الوعي بعد، وشعور قوي بظلم غاشم ما، وشعور وسواسي مبكر ومؤلم بالتفاهة الذاتية، وسؤال متضخم على نحو مَرَضي: «لماذا كلهم لا يحبونني هكذا»، ورغبة جامحة في إرغام الآخرين على الإشفاق عليه، وهذا يتطابق مع رغبة جامحة في حب الجميع له، والعديد العديد من التعقيدات والتلاوين الشعورية الأخرى. والقضية هنا في أن هذه التلاوين الدقيقة أو تلك كانت موجودة حتماً فيما مضى، ولكن هناك أيضاً سمات واقع ما جديد يختلف تماماً عن ذاك الذي كانت تعيشه عائلات ملاك الأراضي الموسكوفية، التي تنتمي إلى الفئة العليا المتوسطة، والتي كانت قد استقرت منذ القديم في أوضاع ثابتة تسودها الطمأنينة، وهي العائلات التي صار الكونت تولستوي هو مؤرخها عندنا، ويبدو أن هذا حدث بالضبط في تلك الحقبة التي شهدت فيها بنية مجتمع النبلاء الروسي، المترسخ على الأسس السابقة التي كان يقوم عليها نظام ملكية الأراضي، انعطافاً ما جديداً لم يكن معروفاً من قبل، وهو انعطاف جذري، أو على الأقل تحول ضخم نحو أشكال

(*) أي علامَتَيْ: الاثنين، والواحد، الدالتين على الرسوب، في سلم العلامات الخماسي. (م).

جديدة ومستقبلية، تكاد تكون مجهولة تماماً. إن حادثة الصبي الذي انتحر في عيد شفيعه تتسم بصفة خاصة تنتمي إلى صفات عصرنا بالذات. فصبي الكونت تولستوي كان يمكن أن يحلم، وهو يذرف دموع المعاناة من شدة التأثر المضني الذي يملأ نفسه، كيف سيدخلون الحجرة ويجدونه ميتاً، ويبدؤون يحبونه ويشفقون عليه، ويحمّلون أنفسهم وزر ما حدث. بل كان يمكنه أن يحلم حتى بالانتحار، ولكن مجرد حلم لا أكثر: فالنظام الصارم للعائلة النبيلة المتكونة تاريخياً كان سيجد صداه حتى في نفس الطفل ذي الاثني عشر ربيعاً، وسيحول دون وصول حلمه إلى الفعل الواقعي، أما هنا فإن الصبي حلم وفعل. وأنا إذ أشير إلى هذا الواقع فإنني لا أتحدث عن الجائحة الحالية فقط من الانتحارات. إن المرء ليشعر بأن في هذا الواقع أموراً ليست كما نظنها، وأن جزءاً كبيراً من بنية الحياة الروسية قد ظل من دون أي رصد وأي مؤرخ. ومن الواضح على الأقل أن حياة فئة النبلاء العليا المتوسطة عندنا، التي وصفها روائيونا بسطوع شديد، ليست سوى زاوية مفردة وضئيلة الأهمية جداً في الحياة الروسية. فمن الذي سيكون مؤرخ الزوايا الأخرى الهائلة العدد على ما يبدو؟ وإذا كان العثور على القانون الناظم، أو الخيط الهادي، في هذا الشواش الذي اكتنف حياتنا الاجتماعية منذ وقت طويل، ولكنه استفحل الآن بالذات، لا يزال متعذراً حتى على فنان من الحجم الشكسبيري، فمن سيقوم، على الأقل، بإضاءة ولو جزء من هذا الشواش، حتى من دون أن يحلم بالإمساك بالخيط الهادي؟ المهم أن الجميع كما لو أنهم ما زالوا لا يهتمون البتة بكون هذا كأنه ما زال مبكراً بالنسبة لأعظم الفنانين عندنا. لا جدال في أن عندنا حياة تتفسخ، وتالياً لدينا شريحة أُسَرِيَّة تتفسخ، ولكن هناك، بالضرورة، حياة تتكون من جديد، وعلى أسس جديدة. فمن الذي سيلحظ هذه الأسس، ومن الذي سيشير إليها؟ من الذي بوسعه أن يحدد، ولو بقدر ضئيل، قوانين هذا التفسخ والنشوء الجديد ويعبر عنها؟ أم أن الوقت ما زال مبكراً؟ ثم ماذا بشأن هذا القديم، هذا السابق نفسه، هل أحطنا به كله يا ترى؟

الأنبياء الأدعياء وصانعو البراميل العُرْج المستمرون في صنع القمر في غوروخوفايا*. أحد عظماء الروس المجهولين جداً

لا تزال المسألة الشرقية ماثلة للعيان أمام الجميع كالسابق. ومهما حاولنا نسيانها وإلهاء أنفسنا بكل ما نجده في متناولنا من مثل «أيام المرافع»، أو «الأرض البكر»**، أو حوداث الإفلاس***، أو «الشبان الكبّة»[93]، ومهما أظهرنا من الكلبية[5]، مؤكدين للجميع، ولأنفسنا قبل الجميع، أنه «لم يحدث شيء على الإطلاق، وأن كل هذا مختلق ومزوّر»، ومهما خبأنا رأسنا في الوسادة كالأطفال الصغار، كيلا نرى الشبح المخيف، بينما الشبح ماثل أمامنا لم يبرح مكانه، يقف ويهدد كما في السابق، فإن كل واحد منا، سواء كان كلبياً[5] حاقداً، أو مواطناً مخلصاً، أو شخصاً مستسلماً عن طيب خاطر للهو والعبث، أو مجرد شخص كسول، كل واحد منا يشعر ويذكر أن هناك شيئاً ما، وأن هذا الشيء لم يجد أي حل بعد، ولم توضع له نهاية، وهو، إلى ذلك، شيء تمليه الضرورة ولا يقبل التأجيل، شيء يدعونا إليه بلا هوادة، ويطالب بالتوصل إلى حل نهائي عاجلاً أو آجلاً، شيء يحتم علينا:

ضرورة أن نقوم بفعل ما

ضرورة أن نصل إلى نهاية ما

والقيام بفعل ما، أو الوصول إلى نهاية ما هما الحد الأدنى من المطلوب، أما الأفضل فهو الوصول إلى النهاية الأفضل، علماً بأن الوقت يجري ويجري، والربيع على الأبواب،

(*) يستعمل دوستويفسكي هنا صوراً من «يوميات مجنون» لغوغول. (ن). وغوروخوفايا: اسم شارع. (م).

(**) عنوان رواية تورغينف التي نشرت في عددي كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) من مجلة «بشير أوروبا» وجذبت إليها الأنظار. (ن).

(***) إفلاس بعض البنوك، الذي أعلن آنذاك وأثار ضجة في الأوساط القضائية والشعبية. (ن).

فما الذي سيعطينا إياه الربيع؟ البعض يصيح: الوقت قد فات؛ ولكن الرب وحده هو الذي يعرف؛ وثمة وقت دائماً للأعمال الحميدة. ألا يمكن يا ترى أن ينشأ شيء ما جديد حتى الربيع، ألا يمكن أن يظهر شيء ذو تأثير نهائي، ولو لمدة سنة واحدة؟ فمن المعروف أن لا أحد في أوربا الآن يمكنه أن يبني حسابات حول المسألة الشرقية تتجاوز السنة، خصوصاً أن تركيا نفسها من المستبعد أن تستطيع الصمود سنة كاملة. ولكن القضية ليست فيها. بل فيما سيتبقى بعدها. وهذه الحلول النهائية لمدة سنة ربما ستكون مفيدة لأوربا، أما للآخرين فليس كثيراً. وما الذي سيحدث للآخرين؟ ولا سيما الذين وراء الدانوب؟ أولئك لا أحد يفكر فيهم سوى الشعب الروسي.

أجل، إنه يفكر فيهم، وأنتم كما تشاؤون، ولكن مهما أنكرنا بكل قوانا طوال الشتاء حركتَنا الصيفية*، فإنها في رأيي ظلت مستمرة خلال الشتاء بطوله، كما كانت في الصيف بالضبط، وفي جميع أنحاء روسيا، وعلى نحو ثابت، ولكن بهدوء مقترن بأمل معلق على قرار القيصر. وستستمر هذه الحركة، بالطبع، حتى النهاية، بصرف النظر عن أنبيائنا القادرين على أن يروا (وبالذات خلال هذا الصيف) في شخص روسيا مجرد كائن مخمور كريه، نائم، متمدد من صخور فنلندا الباردة حتى بلاد الكولخيد** الملتهبة، حاملًا بيديه قنينة خمر ضخمة***. وإذا كان أنبياؤنا هؤلاء لا يرون بم تعيش روسيا، فإن هذا، في رأيي، أفضل: لأنهم عندئذ لن يتدخلوا، ولن يشوشوا، وإذا تدخلوا فلن يصلوا إلى غايتهم، وستخيب مساعيهم. وأنا أرى أن القضية هنا هي في أن أورُبّوِيّتَنا، ونظرتنا الأوربية «المتنورة» إلى روسيا هي ذاك القمر نفسه، الذي يصنعه في غوروخوفايا صانع البراميل الأعرج نفسه، القادم إلينا من بلد آخر؛ وكما كان يصنعه في السابق كأسوأ ما يكون، ما زال يصنعه الآن كأسوأ ما يكون، ولا ينفك يبرهن على هذا في كل لحظة؛ وها هو قد برهن على أن عمله سيزداد سوءاً في المستقبل؛ ولكن هذا شأنه: فهو ألماني وإلى هذا أعرج ويحتاج إلى الشفقة.

وما لروسيا ولأمثال هؤلاء الأنبياء؟ إننا الآن لم نعد نهتم بهم، فالزمن السابق مضى وانقضى.

ذكرت الصحف أن أكثر من دفعة من الأطفال الصغار الأيتام الفقراء، الذين دمرت

(*) المقصود: حملة جمع التبرعات والتطوع في أوساط الشعب الروسي لنصرة السلاف في البلقان، الذين يناضلون في سبيل التحرر من النير العثماني. (ن).

(**) جنوب غربي ما وراء القفقاس. (م).

(***) يلمح الكاتب هنا إلى رواية تورغينف «الأرض البكر»، وخصوصاً إلى مقطوعة «الحلم» الشعرية الواردة في الفصل الثلاثين من الجزء الثاني، الذي نشر في شباط (فبراير) 1877. (ن).

الحرب أسرهم، نُقلت إلى موسكو من الأراضي السلافية خلال هذا الشتاء. ويجري توزيع هؤلاء الأيتام على مختلف المعيلين والمؤسسات. وهذا عمل جيد إذا ظل مستمراً، ونظِّم في نهاية المطاف في روسيا بأسرها وعلى أوسع نطاق: إنه عمل خيّر بالطبع، فرعاية هؤلاء الأطفال واجبة، وهم سيكوِّنون جزءاً من سلافييّ المستقبل. وقد سألت نفسي أكثر من مرة: بِمَ كانت تقتات بضع مئات الألوف هذه من الأفواه البلغارية والبوسنية والهرسكية وسواها، الهاربة من مضطهديها، بعد القتل، والتخريب، إلى صربيا، والجبل الأسود، والنمسا، وحيثما اتفق. وعندما تتصور كم من النقود تكلّف إعاشة هؤلاء، وأنت تعرف أن هذه المبالغ لا يملكها الصرب ولا أبناء الجبل الأسود، الذين يكادون هم أنفسهم لا يجدون الآن ما يأكلونه، تدرك بِمَ كان يقتات مئات الآلاف من هؤلاء مع أطفالهم الصغار، وماذا كانوا يلبسون في الشتاء هم وأبناؤهم. يقولون إنهم جَلَبوا إلى موسكو مؤخراً «دفعة أخرى من الصغيرات» تراوح أعمارهن بين ثلاث سنوات وثلاث عشرة سنة، وقد استقبلتهن ممرضات «جمعية شفاعة العذراء». ويتحدثون عن أن ممرضات «شفاعة العذراء» أسْكنّ هؤلاء البنيّات الصربيات الصغيرات مع البنيّات البلغاريات اللواتي كنّ قد وصلن من قبل، وأن المشرفة عليهن أخت تعرف اللغة الصربية، مما أسعد البنيات وأشاع بينهن المرح. والصغيرات، بالطبع ينعمن بالراحة والدفء؛ ولكنني سمعت من أحد اصحابي العائدين من موسكو طرفة ذات دلالة عميقة عن هؤلاء الصغيرات: يقولون إن البنيات الصربيات يجلسن في إحدى الزوايا، والبلغاريات في زاوية أخرى، ولا يردن اللعب معاً، ولا حتى التحادث، وعندما يسألون الصربيات عن سبب امتناعهن عن اللعب مع البلغاريات يقلن: «نحن أعطيناهم السلاح ليحاربوا الأتراك معنا، وهم خبؤوه ولم يحاربوا الأتراك». وهذا، في رأيي، أمر مثير للاهتمام جداً. فإذا كان الأطفال، الذين لا تتجاوز أعمارهم ثماني أو تسع سنوات، يتكلمون بهذه اللغة، فإن معنى ذلك أنهم أخذوا هذا عن آبائهم، وإذا كانت مثل هذه العبارات تنتقل من الآباء إلى الأبناء، فهذا يعني أن ثمة شقاقاً أكيداً ومخيفاً بين سلاف البلقان. أجل، شقاق أزلي بين السلاف! إنهم يذكرونه في أخبارهم المتوارثة، ويحفظونه في أغانيهم، ولولا المركز الضخم الذي يوحدهم - وهو روسيا - لما كان ثمة وفاق سلافي، ومِنْ غير روسيا ليس للسلاف أن يصونوا كيانهم، وسيختفون من على وجه الأرض بالمرة، مهما حلم رجال الانتلجينسيا الصربية، أو مختلف رجالات التشيك المتحضرين على الطريقة الأوربية... لا يزال لديهم الكثير من الحالمين، وهم ما زالوا في طور الأحلام تقريباً... هل تذكرون «أغنية عن معركة زينيتسا الكبرى» في «أغاني السلاف الغربيين» لبوشكين، حيث يصور كيف اجتمع الثائرون، وتوجهوا مع راديفوي لمهاجمة الأتراك:

وعندما شاهد الدلماتيون جيشنا
فتلوا شواربهم الطويلة
واعتمروا قبعاتهم مائلةً
وقالوا: «خذونا معكم»...

وجاء بيغليربيه مع أنصاره البوسنيين
من بانيالوكا لمحاربتنا
وما إن علا صهيل خيولهم
والتمعت سيوفهم المحنية في الشمس
عند زينيتسا الكبرى
حتى ولّى الخونة الدلماتيون الأدبار!

لقد تساءلت، بالمناسبة، هل تذكرون «أغنية عن معركة زينيتسا الكبرى» في «أغاني السلاف الغربيين» إلخ... وسأجيب سلفاً بالنيابة عن الجميع أنه لا أحد يذكر «أغنية عن معركة زينيتسا الكبرى» ولا أحد يذكر حتى «أغاني السلاف الغربيين» نفسها، ما عدا الاختصاصيين، ودارسي الأدب المهتمين، وبعض الشيوخ الطاعنين في السن. ولأكن مخطئاً في ظني هذا خطأً شنيعاً، ولكنني مع ذلك أنا موقن بهذا كل اليقين. وهل تعلمون أيها السادة، أن «أغاني السلاف الغربيين» هي تحفة رائعة من تحف بوشكين، ونحن في غنىً عن الحديث عن الأهمية التنبئية والسياسية التي تحوزها هذه الأشعار، ويكفي أن نشير إلى أن هذه التحفة النفيسة هي إحدى روائع بوشكين التي ظهرت قبل خمسين عاماً. وواقعة ظهور هذه الأغاني عندنا آنذاك تتسم بالأهمية: فهي تعني إحساس الروس المسبق بالسلاف، ونبوءة الروس للسلاف بالأُخُوّة والوحدة القادمتين. ومع ذلك فإنني لم أقرأ قط في أية مقالة نقدية شيئاً عن «قصائد بوشكين» هذه بالذات، وعن أنها تحفة من تحفه. عددناها أشعاراً عادية، في حين إنها من التحف الرائعة، ومن أسمى ما كتبه بوشكين من حيث الأهمية. وفي رأيي أننا حتى الآن لم نبدأ معرفة بوشكين: هذا العبقري الذي سبق الوعي الروسي بشوط طويل جداً. لقد كان روسياً مكتملاً، روسياً حقيقياً، وقد حوّل نفسه بقوة عبقريته الذاتية إلى روسي، بينما نحن لا نزال حتى الآن نتعلم عند صانع البراميل الأعرج. إنه أحد الروس الأوائل الذين شعروا بالإنسان الروسي كلياً في داخلهم، والذين استدعوا حضوره في أنفسهم، وجسدوه بكيانهم، وأظهروا كيف ينبغي أن يتجلى الإنسان الروسي للعيان أمام شعبه، وأمام الأسرة

الروسية، وأمام أوربا، وأمام صانع البراميل الأعرج، وأمام الأشقاء السلاف. لا توجد ولم توجد من قبل نظرةٌ أكثر إنسانية، وسمواً وتبصّراً من تلك النظرة عند أحد منا نحن الروس؛ ولكنني لن أستفيض في الحديث عن هذا الآن، وأكتفي بالقول عن «الأغاني» إن بوشكين قد أخذها، كما يعلم الجميع، من اللغة الفرنسية من كُتيِّب ميريميه[122] «la Gouzla»*وهو كتيّب ألّفه ميريميه، كما اعترف هو نفسه، كيفما اتفق، من دون أن يغادر باريس. هذا الكاتب الفرنسي الراحل، الذي كان يتمتع بموهبة كبيرة، والذي أصبح فيما بعد **sénateur وكان بمنزلة ذوي القربى من نابليون الثالث، قد صوّر في مؤلفه «la Gouzla» أشخاصاً فرنسيين طبعاً، وباريسيين بالذات، على أنهم سلاف. والكتّاب الفرنسيون ليس بوسعهم أن يفعلوا خلاف ذلك: فبالنسبة للفرنسي الحقيقي لا يوجد في العالم أي شيء سوى باريس. وعندما قرأ بوشكين الكتيّب أرسل إلى كاتبه في باريس طلباً، وألّف على أساس هذا الكتيب أغانيه؛ أي أنه خلق من الفرنسيين الذين صورهم ميريميه سلافاً؛ وعلى هذا فإن الشخصيات المصورة في «أغاني السلاف الغربيين» هي الآن، بالطبع شخصيات سلافية حقيقية، وهي ترتبط حتى بصلات قربى مع الروس. وهذه الأغاني غير موجودة في صربيا طبعاً، وهم هناك يغنون أغاني أخرى، ولكن هذا لا يغير في الأمر شيئاً: فأغاني بوشكين هي أغان سلافية عامة، أغانٍ شعبية نابعة من قلب سلافي، بروح سلافية، وبسمتٍ سلافي، ومفعمة بمفاهيم السلاف، وأعرافهم وعبق تاريخهم. وكان بودّي أن أُري أولئك الصرب ذوي الثقافة العالية، الذين كان كثيرون منهم ينظرون في هذا الصيف بارتياب شديد إلى الروس، أغنية بوشكين عن «غيورغي الأسود» على سبيل المثال، أو «أغنية عن معركة زينيتسا الكبرى». إن هاتين التحفتين بين تلك الأغاني ألماستان طاغيتا التوهج في شعر بوشكين (ولا شك في أن هذا هو السبب الذي جعلهما مجهولتين تماماً في مدارسنا لا بالنسبة للتلاميذ فقط بل، كما أرجح بقوة، بالنسبة للمعلمين، الذين سيندهشون عندما سيسمعون الآن للمرة الأولى، أن هاتين الأغنيتين هما التحفتان النفيستان وليس «الأسير القفقاسي» و«الغجر»). وليتنا كنا قد أدرجنا هاتين الأغنيتين، في العام الماضي على الأقل، في مناهج مدارسنا. وعلى كل فإنني أستبعد، انطلاقاً من مسار الأمور، أن يتعرف الصرب قريباً على هذا الشخص المجهول، أكثر من أي شخص غيره من الروس العظماء - هكذا بحسب رأيي، يمكن أن نُعرِّف شاعرنا العظيم بوشكين، الذي لا تعرف الآلاف، وعشرات الآلاف من فئة الانتلجينسيا عندنا حتى الآن، مقدار عظمته، كشاعر وكإنسان روسي، والذي لم نستطع حتى الآن أن نجمع المبلغ

(*) «la Guzla» = «la Gouzla» (الربابة: معجم المنهل). (م).

(**) سيناتور (بالفرنسية). (ن).

اللازم لإقامة تمثال له*؛ وهذه النقطة سوف تسجل في تاريخنا. وعندما سيقرأ الصرب هذه «الأغاني» سيرون، بالطبع، كيف نفكر في حريتهم، وهل نحترم هذه الحرية أم لا، وهل نُسّرُ بها أم لا، وهل نريد أن نخضعهم لسلطتنا ونسلبهم هذه الحرية أم لا. وعلى كل يكفي الحديث عن الشعر. وأرجو ألا يبتسموا استخفافاً بي ويقولوا باستعلاء: «انظروا عن أية سفاسف بدأ يتحدث». لا، هذه ليست سفاسف؛ وما زال من الضروري أن نتحدث عن بوشكين كثيراً وطويلاً بعد.

العمالقة المحليون وابن «العشيرة» المُذَلّ. نادرة عن جلد الظهر المسلوخ. مصالح الحضارة العليا، و«لِتحلّ عليها اللعنة إذا كان يجب شراؤها بمثل هذا الثمن!»

اجتمع مجلس النواب الصربي في الشهر الفائت في بلغراد لبرهة وجيزة (لساعة ونصف، كما كتبت الصحف)، من أجل أن يبتّ بأمر واحد: «هل يعقد سلاماً أم لا؟». ويُقال إن المجلس لم يُبدِ على الإطلاق مزاجاً يتعجل الجنوح إلى السلم، كما كانوا يتوقعون، انطلاقاً من الأوضاع القائمة. ويقولون إن النواب وافقوا على السلام في أعقاب حيلة ما، أو مكيدة ما وزارية، وعلى كل حال، إذا صح، ولو بقدر قليل، أن امتناع المجلس عن الاستمرار في الحرب لم يكن عن جبن، فإن المرء لا بد له من أن يسأل نفسه عفوياً، وهو يتصور وضع الصرب اليائس: «لماذا إذاً أخذوا يصيحون عندنا واصفين الصرب بالجبن؟» لقد وصلتني رسائل من صربيا، وتكلمت مع أشخاص قادمين من هناك، وأذكر بصورة خاصة رسالة من

(*) في عام 1860 عزم طلاب «المدرسة العليا» (الليسيه) السابقون، بمناسبة الاحتفال بذكرى تأسيسها الخمسين، على جمع تبرعات لإقامة تمثال لبوشكين (الذي تخرج منها في عام 1817) ولكن تدشين هذا التمثال لم يجر سوى في السادس من حزيران عام 1880. (ن).

فتىً روسي* بقي هناك. وقد عبّر في رسالته عن إعجابه الشديد بالصرب، وعن سُخطه لأن ثمة أشخاصاً في روسيا ينعتونهم بالجبن والأنانية. ويصل إعجاب هذا المهاجر الروسي بالصرب إلى حد أنه يجد الأعذار لجنود تشيرنيايف ونوفوسيولوف** الصرب، الذين يلحقون الأذى بأنفسهم: إنهم، كما يقول، أشخاص تصل بهم رقة قلوبهم وشدة حبهم لـ «عشيرتهم»، حيث ترك كل منهم زوجته وأولاده، أو أمه وأخواته وخطيبته، وإخوته وحصانه وكلبه، إلى درجة أنهم كانوا ينبذون كل شيء ويشوهون أنفسهم، ويطلقون النار على أصابعهم، كيلا يعودوا صالحين للخدمة، ويرجعوا في أقرب وقت إلى أعشاشهم الأثيرة! تصوروا أنني أفهم رقة القلب هذه، وأفهم كل هذه العملية، وفي هذه الحالة فإن هؤلاء الناس، بالطبع، رقيقو القلب جداً، مع أنهم، في الوقت نفسه أبناءٌ لوطنهم بليدو الذهن إلى حد يجعلهم لا يدركون ما الذي تريده قلوبهم. إن «ابن العشيرة» الصربي يشبه جداً من حيث رقة قلبه، بحسب رأيي، أولئك الأطفال، الذين من المرجح جداً أنكم تذكرونهم منذ الطفولة: الأطفال الذين يتنقلون فجأة من حيز الأسرة، أو من حيز عائلة انهارت وتشتتت فجأة، إلى حيز المدرسة. صبي لم يعش من قبل إلّا في بيت أهله، ولم يعرف أي شيء سوى هذا البيت، وفجأة يجد نفسه وسط مئة زميل؛ وجوه غريبة، وصخب، ولغط؛ كل شيء يختلف تماماً عما كان في البيت؛ يا إلهي، أي عذاب هذا! ربما كان يعاني في بيته من الجوع والبرد، ولكنهم هناك كانوا يحبونه، وحتى لو لم يكونوا يحبونه، فإنه هناك كان في البيت، كان هناك وحيداً في بيته ومع ذاته، أما هنا فإنه لا يسمع كلمة رقيقة واحدة من المشرفين، ولا يلقى من معلميه سوى الصرامة، ثم هذه العلوم الصعبة، وهذه الممرات الطويلة، وزملاؤه المشاكسون، والمسيئون، والساخرون، الذين لا يرحمون: «كأنهم لا قلوب لهم، ولم يكن لهم أب ولا أم». كانوا حتى هذا الوقت يقولون له إن الكذب والظلم من الأشياء الرهيبة والمخزية، وها هم هنا جميعاً يكذبون ويخادعون، ويظلمون، وإلى ذلك يسخرون من استهواله هذه الأمور. وقد أبغضوه لسبب ما، لأنه يبكي على عشه، و«يلوث الصف». وهاهم يضربونه بلا رأفة، كل الصف يضربه طوال الوقت، وحتى بلا غضب، بل هكذا لمجرد التسلية. وأنا ألاحظ بيني وبين نفسي أنني قد صادفت في طفولتي عدداً لا يستهان به من أمثال هؤلاء الأطفال التعسين في مختلف المدارس؛ وما أشنع الجرائم التي ترتكب أحياناً من هذا النوع في مؤسساتنا التربوية، جرائم من جميع الدرجات

(*) رسالة أرسلها الطالب المتطوع أ. ب. خيتروف في 26/ 12/ 1876، وضمنّها دفاعاً حاراً عن الصرب، نافياً عنهم الصفات «المخجلة» التي وسمتهم بها الصحافة الروسية آنذاك، ومبيّناً تعلق الصربي بعشيرته (أي عائلته الكبرى) وحنينه الدائم إلى العودة إليها عند ابتعاده عنها. (ن).

(**) من الجنرالات الروس الذين كانوا يقودون القوات الصربية ويحاربون في صفوفها. (ن).

والتسميات، جرائم بالمعنى الدقيق للكلمة. وإذا غلب الغباء على الصبي وجرّب أن يشتكي يضربونه حتى شفا الموت (بل حتى الموت)؛ تلاميذ المدارس هؤلاء يضربون زميلهم بلا شفقة ومن دون حذر. ويظلون طوال سنوات يلقبونه بالـ«فسّاد» الذي يشي بزملائه، ويمتنعون عن الحديث معه، ويجعلون منه صعلوكاً منبوذاً. أما المشرفون فيبدون في أثناء ذلك منتهى القسوة واللامبالاة الخالية من الرأفة! ولا أذكر أنني صادفت في طفولتي ولو مربياً واحداً، ولا أعتقد أنهم الآن كثر: فهم جميعاً مجرد موظفين يتقاضون راتباً. ومع ذلك فإن من بين هؤلاء الأطفال، الذين يحنّون عند التحاقهم بالمدرسة إلى الأسرة، وإلى عشّ الأهل، من بين هؤلاء بالذات غالباً ما يخرج فيما بعد أشخاص متميزون، ذوو قدرات ومواهب. أما أولئك الذين ما يلبثون، بعد إخراجهم من بيوت أسرهم، أن ينسجموا سريعاً مع أي نظام جديد يوضعون ضمنه، ويألفوا بعد برهة قصيرة كل ما يحيط بهم، والذين لا يحنّون البتة إلى أي شيء، بل تراهم يصبحون على الفور في مقدمة الآخرين، فإنهم غالباً ما يكشفون عن أنهم أشخاص مجردون من الموهبة، أو حتّى أشخاص سيئون، ومحتالون، ودساسون، وهم بعد في الثامنة من العمر. من البديهي أنني أطلق هنا أحكاماً شديدة العمومية، ولكنني مع ذلك أرى أن ذاك الطفل السيئ الذي لا يحن بينه وبين نفسه إلى أسرته عند التحاقه بالمدرسة، يكون أحدْ اثنين: إما أنه كان محروماً من الأسرة بالمرة، أو أن أسرته كانت جد سيئة.

وما إن قرأت في الصيف عن ذاك المجند الصربي الغر، الذي ألحق بنفسه الأذى، حتى شبهته على نحو عفوي بهذا الصبي الذي يعاني العذاب في الأيام الأولى من دخوله المدرسة، إذ لم أستطع أن أفسر على نحو آخر هذه الرغبة البائسة، الرعناء البهيمية، تقريباً في إلقاء السلاح والهرب إلى البيت بأسرع ما يمكن. والفرق الوحيد هنا هو أن هذه الرغبة تكشف عن بلادة ذهن لا تُصدَّق، ولا شبيه لها. لكأن هذا الجندي يتملص من أي تفكير في أنه إذا هرب الجميع كما فعل هو، فإن الأرض لن يبقى لها من يذود عنها، ومن ثم فإن الأتراك سيأتون إليهم يوماً ما وهم في أحضان «عشيرتهم» وسيدمرون هذه «العشيرة» الغالية، الحبيبة، ويذبحون أمه، وخطيبته، وأخته، وحصانهم وكلبهم. وبالفعل، ربما لم تَسْمُ لوعة الحنين إلى عشّ الأهل، في قلوب الكثيرين من الصرب، إلى مستوىً تتحول فيه إلى لوعة قلقٍ على الوطن، وهذا الأمر بحد ذاته يشكل ظاهرة غريبة. ولكن الآن، إذ وضعت الحرب أوزارها، وحل السلام، يمكن أن نلاحظ، في الحقيقة، أن قلوب الفئة العليا من الانتلجينسيا الصربية لم تكن تسمو دائماً إلى درجة المعاناة قلقاً على مصير الوطن؛ بيد أن سبب ذلك يختلف عن سبب بروز هذه الظاهرة في قلوب الفئات الدنيا. وربما يمكن إعادة السبب في هذا الاختلاف إلى وجود الطموح السياسي القوي جداً لدى الفئة العليا، بحيث أن مصالح الوطن «العليا» تكاد لا تفسح في

المجال لقلوب هذه الفئة العليا لأن تنشغل بالمصالح الدنيا، المصالح الشعبية، العادية جداً.
أما فيما يخص الصربي الذي ينتمي إلى الفئة الدنيا فمن الممكن، كما يتهيأ لي، أن نلاحظ أمراً مثيراً للاهتمام إلى حد ما، إذ من غير الجائز أن نفسر سبب إلحاقه الأذى بنفسه، وهربه من ساحة المعركة، برقة قلبه وبلادة تفكيره فحسب، بل يبدو لي أنه عندما كان يهرب من الجيش ليعود إلى بيته كان قادراً على أن يدرك تماماً أنه يُقْدم على فعل ذميم، ومن المحتمل جداً أن يكون هو أول من يمتنع عن امتداح نفسه، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يفترض البتة أن وطنه سيبقى من غير حماية أو وقاية إذا هو هرب: «أوه، سيبقى الأبطال، ستبقى جماعة كيريف[105] وسيبقى تشيرنيايف والروس، وسيبقى رؤساؤه الصرب الصارمون، أمّا هوَ، فما هو؟ إنه ليس سوى هباءة لا يلحظها أحد، إنه تفاهة لا أكثر: وإذا ذهب فلن يفتقده أحد...». في رأيي هذا هو بالذات الشعور الذي كان يساوره آنذاك، وهو أمر مثير جداً للاهتمام، ويرسم صورة الشعب: ففي الأعلى نرى المتبجحين، الأوربيين المتحضرين الذين يحلمون بإلحاق كل السلاف بصربيا وحدها، والذين يحيكون الدسائس حتى ضد روسيا، وباختصار الأوربيين المتحضرين الحقيقيين من أمثال خورفاتوفتش* ومارينوفتش**، أي أولئك الذين لا يختلفون عن مولتكِه[123] وبسمارك[123] وأمثالهما. ومن جهة أخرى نرى إلى جانب هؤلاء العمالقة ابن «العشيرة» المُذَلّ، الذي أذلّته أربعة قرون من العبودية؛ وقد جعله هذا الإذلال يعدّ نفسه عديم القيمة كالهباء. يقول لنفسه: «سيبقى العمالقة، ولن يلحظ غيابي أحد، أنا صغير جداً، وهم سادة شديدو الصرامة...». قرأت في مكان ما أن بعض هؤلاء السادة الصارمين، عندما يرى صربياً من الفئة الدنيا يهم بالهرب من الخدمة العسكرية، يطلق النار من مسدسه على رأسه مباشرة ولسان حاله يقول: «ونحن أيضاً يمكن أن نكون أمراء حديديين»***. إنهم كما يبدو، يستخفّون بشعبهم الذي ينتمي إلى الفئة الدنيا، وينظرون إليه ببعض الاستعلاء.

إن هؤلاء السلاف الأعلين «ذوي المستقبل المجيد» هم، على كل حال، أناس شديدو الطرافة عموماً، من الناحية السياسية، والمدنية، والتاريخية ومن سائر النواحي الأخرى. والآن بعدِ سفر تشيرنيايف من هناك، وبعد إبعاد المتطوعين، أخذنا نسمع من جانبهم، أي من أوساطهم العسكرية، أصواتاً تعبر عن فكرة عسكرية لم نكن نسمع عنها شيئاً من قبل،

(*) غيورغي خورفاتوفتش (1835-1895) قائد عسكري صربي، شارك في حرب 1877-1878 برتبة ميجور جنرال، وشغل في عامي 1886-1887 منصب وزير الحربية في صربيا. (ن).

(**) مارينوفتش: رجل دولة صربي بارز، تولى وزارة الخارجية من أواخر عام 1873 حتى أواخر عام 1874 وأشيع في الصحافة أنه كان يحيك الدسائس ضد روسيا. (ن).

(***) تشبهاً ببسمارك. (انظر الهامش 123). (م).

في الصيف. فَهُم الآن يزعمون أن الصربي غير قادر البتة على أن يخدم في جيش نظامي، ويحارب في ميدان مكشوف، وأن الحرب الصربية الشعبية هي «حرب صغرى»، أي حرب أنصار، حرب تخوضها عصابات من الفدائيين في الغابات، والمضايق الجبلية، خلف الصخور والجلاميد. ولم لا! من المحتمل جداً أن يكون هذا صحيحاً، ولكن وبما أن السلام قد حل بينهم، فقد أصبح من المتعذر التحقق من ذلك الآن. وهم، على الأقل سيظلون متمسكين بقناعتهم العسكرية هذه، وحتى هذا سيكون عزاء في المصيبة. ولكن هل سيطول هذا السلام يا ترى؟ وأقول في كلمة الوداع الختامية عن هذه الحرب الصربية، التي شاركنا فيها نحن الروس جميعاً بلا استثناء تقريباً، بسويداء قلوبنا، إنه يبدو لي أن الصرب يفارقوننا ويفارقون مساعدتنا لهم بريبة أكبر من الريبة التي استقبلونا بها في بداية الحرب. ويمكن أن نستنتج في الختام أيضاً أن عدم الثقة هذا تجاهنا سيرافقهم طوال الوقت، متعاظماً مع الزمن ماداموا يَنْمون ويتطورون عقلياً. أي إن هذا الوقت سيطول جداً، ولذا فإن علينا في المقام الأول ألا نلقي بالاً لعدم ثقتهم بنا، وأن نقوم بمهامنا وفق معرفتنا. وبصدد المسألة الشرقية لا بد لنا من أن نضع نصب أعيننا باستمرار حقيقة واحدة، وهي أن المهمة السلافية الرئيسة لا تقتصر على التحرر من مضطهدينا، بل تتعدى ذلك إلى إنجاز هذا التحرر ولو بمساعدة الروس (يستحيل خلاف ذلك - وليتهم يستطيعون الاستغناء عن الروس!)، على أن نبقى، على الأقل، مدينين للروس بأقل قدر ممكن.

وقد روى لي صاحبي العائد من موسكو عن لسان بعضهم، أن بين بعض الأطفال الذين جلبوهم إلى موسكو، ثمة بنتاً صغيرة في الثامنة أو التاسعة من عمرها، غالباً ما يغمى عليها، وقد أحاطوها بعناية خاصة. وسبب هذا الإغماء هو ذكرى تعاودها باستمرار: فقد شاهدت بأم عينها في الصيف الحالي كيف سلخ الشراكسة جلد أبيها عن جسده بكامله. وهذه الذكرى تلح عليها دائماً ومن المرجح أنها ستلازمها طوال حياتها، وربما ستخف وطأتها مع الزمن، ولكن لا أدري هل يمكن أن يكون لمثل هذه الذكرى وطأة مخففة.

يا لهذه الحضارة! ويا لأوربا التي ستتأثر مصالحها كثيراً إذا هي منعت الأتراك جدياً من سلخ جلود الآباء على مرأى من أبنائهم! وهذه المصالح - التجارة، والملاحة البحرية، والأسواق والمصانع - هيَ، بالطبع، مصالح الحضارة الأوربية العليا، وماذا يمكن أن يكون أعلى منها في نظر الأوربيين؟ إنها مصالح لا يُسمح بمسّها لا بالإصبع فحسب، بل حتى بالفكر؛ ألا «فلتحل اللعنة على مصالح الحضارة الأوربية هذه!» إن هذه الدعوة لم أطلقها أنا، بل أطلقتها صحيفة «الوقائع الموسكوفية»، وأنا أتشرف بأن أضم صوتي إلى صوتها: أجل، أجل فلتحل اللعنة على مصالح الحضارة هذه، بل وعلى هذه الحضارة ذاتها، إذا كان من

الضروري للحفاظ عليها سلخ جلد البشر. ولكن هذه هي الحقيقة: فمن أجل الحفاظ عليها من الضروري سلخ جلد البشر.

عن سلخ الجلود على وجه العموم، وانحرافات مختلفة على وجه الخصوص. كره الثُّقات عند خنوع الفكر.

«جلود الناس؟ أي ناس؟ جزء ضئيل فقط من الناس في بقعة ما، حيث الرعية* التركية، التي لم يكن لأحد أن يسمع عنها أي شيء، لو لم يرفع الروس أصواتهم؛ وبالمقابل ثمة الجزء الأعظم المتبقي من الكيان ينعم بالحياة والصحة، ويعيش في رغد، ويمارس التجارة والصناعة!».

كانوا قد رووا لي صباحاً قصة تلك الطفلة البلغارية التي تصاب بالإغماء، وصدف لي في الساعة الرابعة من ذاك النهار بالذات أن سرت في شارع نيفسكي، حيث كانت الأمهات والمربيات ينزّهن الأطفال، وفجأة خطرت لي فكرة لا إرادية وراحت تثقل على نفسي، قلت في سري: الحضارة! من يجرؤ على أن يتحدث ضد الحضارة؟ لا، إن الحضارة تعني شيئاً ما: على الأقل لن يشاهد أطفالنا هؤلاء الذين يتنزهون بسلام هنا في شارع نيفسكي كيف تُسلخ جلود آبائهم، كما لن يشاهد هؤلاء الأمهات كيف يقذفون أطفالهن في الهواء ويتلقفونهم برؤوس الحراب، كما حدث في بلغاريا. على الأقل سيظل هذا المكتسب عندنا من إنجازات الحضارة! وحتى إذا كان هذا لا وجود له إلّا في أوربا، أي في بقعة واحدة من الكرة الأرضية، وهي بقعة صغيرة بالقياس إلى سطح الكوكب (فكرة مرعبة!)، مع ذلك فإنه موجود في الواقع، حتى وإن كان في بقعة واحدة، ولكنه موجود، ولنفترض أن وجوده يكلف ثمناً غالياً، وهو سلخ جلود إخوة أشقاء لنا في مكان ما هناك في الأطراف، ولكن بالمقابل هو موجود عندنا على الأقل. ومن المستغرب أن هذا الأمر لم يكن له وجود ثابت حتى في الماضي

(*) كانوا يستعملون كلمة «رعية» في روسيا للدلالة على السكان السلاف في شبه جزيرة البلقان. (ن). وتلفظ الكلمة بالروسية كما بالعربية مع بعض التحريف. (م).

القريب في أي مكان، حتى في أوربا، وإذا كان الآن موجوداً عندنا في أوربا فإن هذه هي المرة الأولى التي يوجد فيها منذ وجود الكوكب. نعم، لقد نلنا هذا المكسب، وربما لن نعود إلى الخلف أبداً، وهذه الفكرة البالغة الأهمية التي تخطر في الذهن لا إرادياً ليست البتة بالفكرة الصغيرة، التي لا تستأهل أن نلقي إليها بالاً، وخصوصاً إذا أخذنا في الحسبان أن العالم ما زال، كالسابق، لغزاً، بقطع النظر عن الحضارة وإنجازاتها. والرب وحده يعلم ما يخبئه هذا العالم في أحشائه، وما الذي يمكن أن يحدث فيما بعد حتى في المستقبل القريب. وها أنا ما إن هممت بأن أهتف في سري متحمساً: «عاشت الحضارة!» حتى وجدت نفسي فجأة أشك في كل شيء: «هل حقاً نلنا هذه المكسب، حتى بالنسبة لأطفال شارع نيفسكي هؤلاء؟ أليس هذا مجرد سراب، مجرد صرف نظر؟».

أتعرفون أيها السادة، لقد قرّ رأيي على أن هذا سراب، أو بتعبير ألطف يكاد يكون سراباً، وإذا كانوا هنا، في شارع نيفسكي، لا يسلخون جلود الآباء على مرأى من أبنائهم، فإن هذا مجرد مصادفة، أو فلنقل «بحكم ظروف لا تتعلق بإرادة الجمهور»، وهناك بالطبع سبب آخر وهو وجود شرطة المدينة. ولكن لأسارع وأقول مستدركاً: إنني لا أورد هنا أي تمثيل كنائي، ولا ألمّح إلى آلام تعاني منها البروليتاريا في عصرنا، ولا إلى أب ما يقول لابنه ذي السبع سنوات «إليك وصيتي: إذا سرقتَ خمسة روبلات سألعنك، وإذا سرقت مئة ألف سأباركك». لا، لا، إنني أعني ما أقول حرفياً، إنني أعني حرفياً سلخ الجلود، ذاك الذي يحدث في الصيف في بلغاريا، والذي يحب الأتراك المتصرون أن يمارسوه كما يتبيّن. وها أنا أجزم هنا أن هذا السلخ، إذا كان غير موجود في شارع نيفسكي، فما ذلك إلّا «بحكم المصادفة، وبحكم ظروف لا تتعلق بنا»، والسبب الرئيس هو أن هذا ما زال ممنوعاً، وربما الأمر لم يكن ليتوقف علينا، على الرغم من كل تحضّرنا.

وإذا أردنا قول كل شيء، فإنني أرى أنهم، ببساطة، يخافون من عُرفٍ ما، من قاعدة ما، لها منزلة العقيدة، وتكاد تكون من العقائد الخرافية؛ ولكن إذا قدَّم أحد ما من الأشخاص «المُؤَهَّلين» «برهاناً» ولو مجتزءاً، على أن سلخ ظهر بعض الأشخاص يكون أحياناً مفيداً للمصلحة العامة، وحتى إذا كان هذا الفعل، بحد ذاته، شنيعاً، فإن «الغاية تبرر الوسيلة»؛ وإذا ما بدأ أحدهم يتحدث عن هذا الأمر بهذا المعنى، وكان حديثه مصوغاً بأسلوبِ ذوي الاختصاص المؤهلين، وكانت الظروف التي يتحدث فيها مُؤَهَّلة لقبول هذا الرأي، فسيظهر على الفور منفذون، صدِّقوني، وحتى من بين أكثر الأشخاص مرحاً. أوه فلتكن هذه إحدى مفارقاتي المضحكة جداً! وأنا أول من يُوقِّع تحت هذا التعريف بكلتا يديّ، ولكنني مع ذلك أؤكد لكم أن هذا ما سيحدث بالضبط. نعم، إن الحضارة موجودة، وقوانينها موجودة،

وحتى الإيمان بهذه القوانين موجود، ولكن ما إن تظهر دُرجة [موضة] جديدة، حتى يتغير حال أناس كثيرين. طبعاً، ليس جميع الناس، ولكن لن يبقى سوى حفنة قليلة إلى الحد الذي يجعلنا، أنا وأنت أيها القارئ، نُصاب بالدهشة، بل إننا نحن أنفسنا لا ندري أين سنكون: وسْط المسلوخين أم وسط السالخين؟ سيصيحون في وجهي طبعاً: إن كل هذا هُراء، وإن مثل هذه الدُرجة لا يمكن أن تظهر، وإن الحضارة قد تجاوزت على الأقل، هذا الأمر. أيها السادة، ما هذه السهولة التي تصدقون بها أمثال هذه الأقوال! هل تضحكون؟ تعالوا ننظر إلى فرنسا (كيلا ننظر إلى أماكن أقرب)، ألم تترسخ هناك في العام 93 دُرجة سلخ الجلد هذه*، متخذة شكل أقدس المبادئ الحضارية، علماً بأن هذا حدث بعد روسو وفولتير! ستقولون إن كل هذا كان مختلفاً تماماً، وقد حدث منذ زمن بعيد جداً، ولكن لاحظوا أنني لا ألجأ إلى التاريخ إلّا لكي أتجنب الحديث عن الحاضر. وصدقوني: إن حدوث انحراف تام في عقول الناس وقلوبهم ممكن دائماً، أما عندنا، وفي زمننا بالذات، فإن هذا الانحراف ليس ممكناً فحسب بل هو حتمي، حسبما يدل واقع الحال. انظروا، هل هم كثيرون أولئك الذين يتفقون في الرأي على: ما هو الجيد وما هو السيئ؟ وهذا ليس فيما يخص «حقائق» ما، بل في أول مسألة نصادفها. وبأية سرعة تجري عندنا التحوّلات و«الالتفاتات»** المفاجئة؟ وماذا يعني ظهور «الشبان الكبة»[93] في موسكو؟ ويبدو لي أن هذا كله ليس سوى ذاك الجزء من شريحة النبلاء الروس، الذي لم يتحمل الإصلاح الفلّاحي. وحتى إذا لم يكن هؤلاء من ملّاك الأراضي، فهم أبناء ملّاك أراضٍ؛ وبعد الإصلاح الفلّاحي نقروا بأصابعهم ربطات عنقهم وشرعوا يصفرون. ولم يكن الإصلاح الفلّاحي وحده هو السبب، فهم، ببساطة، لم يتحملوا «الأفكار الجديدة»: قالوا لأنفسهم: «إذا كان كل ما علّمونا إياه مجرد خرافات، فلماذا يجب علينا أن نتبع خطاهم؟ بما أنه لا يوجد شيء، فإن من الممكن فعل أي شيء، هذه هي الفكرة!» لاحظوا أن هذه الفكرة منتشرة على نطاق يفوق التصور، وأن تسعة أعشار الذين يعتنقون الأفكار الجديدة يتبنون هذه الفكرة؛ وبتعبير آخر: إن تسعة أعشار التقدميين عندنا غير قادرين على فهم الأفكار الجديدة إلّا على هذا النحو. إن داروين، على سبيل المثال، سرعان ما يتحول عندنا إلى نشّال صغير، وهذا هو معنى ظهور الشاب الكبة أيضاً[124]. أوه طبعاً لقد تكدس لدى البشرية عبر القرون عدد كبير جداً من قواعد «الإنسانية» المعيشة التي اشتهر بعضها بأنه ثابت لا يتزعزع. ولكنني أريد أن أقول فقط إن ما يحدث دائماً هو أن كل هذه القواعد، والمبادئ، والديانات،

(*) يشير دوستويفسكي هنا إلى إرهاب اليعاقبة (الجاكوبيين). (ن).

(**) يستعمل دوستويفسكي هنا كلمة فرنسية مروّسة بصيغة الجمع وهي (volte –face) بمعنى التغيير المفاجئ في الرأي أوالمسلك. (ن+ م).

والحضارات، على الرغم من كثرتها، لا تنقذ من أبناء البشرية سوى حفنة تكاد لا تُلحظ؛ علماً بأن هذه الحفنة هي التي تحرز النصر، ولكن ليس في اللحظة الراهنة، بل في نهاية المطاف، أما في اللحظة الراهنة، في مجرى التاريخ الحالي، فإن الناس يبقون على ما هم عليه، وكأنهم سيبقون هكذا إلى الأبد؛ أي أنهم بأغلبيتهم الساحقة لا يمتلكون أي مفهوم ثابت ولو بقدر ضئيل عن الإحساس بالواجب، والشعور بالشرف، وما إن تظهر دُرجة جديدة حتى تراهم جميعاً يتراكضون عُراةً، وهم مسرورن. إن القواعد موجودة، ولكن الناس ليسوا مُهيّئين على الإطلاق لتبني هذه القواعد. سيقولون لي: لا لزوم للتهيّؤ أصلاً، بل كل ما يلزم هو إيجاد هذه القواعد! فهل الأمر هكذا؟ وهل ستصمد هذه القواعد طويلاً أياً كانت، إذا كان لدى الناس رغبة شديدة في الركض عُراة؟

الأمر في رأيي كالآتي: يمكن للمرء أن يفهم الأمور ويشعر بها، وعلى نحو صحيح وحتى دفعة واحدة، ولكنه لا يستطيع أن يصبح إنساناً دفعة واحدة، بل لا بد له من بذل الجهود الكفيلة بتحويله إلى إنسان. وهنا يمثُل أمامنا الانضباط. وهذا الانضباط الذي يجب على المرء أن يلزم نفسه به بلا هوادة، هو بالذات ما يرفضه بعض مفكرينا المعاصرين الذين يزعمون أن «الاستبداد كان طاغياً إلى حد الإفراط، ونحن بحاجة إلى الحرية»، ولكن هذه الحرية تقود أغلبية كبيرة إلى الخنوع أمام فكر الغرباء، لأن المرء يهيم حباً بكل ما يقدم له محضّراً جاهزاً. وأكثر من ذلك أن المفكرين يعلنون قوانين عامة، أي قواعد من شأنها أن تجعل الجميع فجأة سعداء بمجرد تجسيدها، وبلا أية جهود لصنع الذات. ولكن حتى لو كان هذا المثل الأعلى ممكناً، فإن القواعد أياً كانت، وحتى أكثرها وضوحاً، لا يمكن تحقيقها من قبل أناس لم يكتمل إعدادهم الذاتي. ولا يمكن لمواطننا أن يظهر نفسه إلّا في سياق الالتزام الدؤوب بهذا الانضباط وفي غمرة العمل المستمر على صنع الذات. ومن هذا العمل النبيل على صنع الذات يجب أن نبدأ كي نستصلح فيما بعد «أرضنا البكر»* وإلا فإن استصلاحها لن يكون له معنى.

أهكذا؟ ولكن المهم هو أننا لا نعرف: ما هو الجيد، وماهو السيئ. لقد فقدنا الحس تماماً من هذه الجهة. لقد حطمنا كل الثقات السابقين واعتمدنا ثقات جدداً، ولكن أولئك الذين يفوقون الآخرين منّا ذكاء، ولو بقدر ضئيل لا يؤمنون بهؤلاء الثقات الجدد، أما الأشخاص الأقوى عزيمة فإنهم يتحولون من مواطنين إلى «شبان كبة»[93]. ولا يكتفون بذلك، صدقوني،

(*) «الأرض البكر» عنوان رواية للكاتب المعروف إيفان تورغينف؛ وكان دوستويفسكي قد تحدث عن هذه الرواية في مقالته «الأدب الساخر الروسي» في يوميات كانون الثاني (يناير) 1877. (ن).

بل يبدؤون بسلخ جلد الظهر، ثم إنهم يعلنون أن هذا مفيد للمصلحة العامة، وعلى هذا فهو مقدس. فكيف، وبأي معنى يمكن أن تبدأ العمل على صنع ذاتك، إذا كنت لا تعرف ما هو الجيد، وما هو السيئ؟

مترنيخات ودونكيشوتات

لكي لا يكون الحديث مجرّداً دعونا نتناول الموضوع المعني. نحن فعلاً لا نسلخ الجلود، بل أكثر من ذلك، نحن لا نحب هذا الفعل (الرب وحده يعرف: إن من يحب هذا غالباً ما يختبئ، من يحب هذا قليل من يعرفه، وهو يخجل إلى حين، «يخاف المعتقدات الخرافية»)، ولكن إذا كنا لا نحب أن نفعل هذا عندنا ولا نفعله على الإطلاق، يجب علينا أن نبغضه لدى الآخرين أيضاً، ولا يكفي أن نبغضه، بل يجب أن نحول دون أن يسلخ أحد جلد أحد آخر أياً كان؛ يجب أن نتولى هذا مهما كلف الأمر. فهل هذا هو ما يحدث في الواقع؟ إن أكثر الغاضبين غضباً بيننا لا يغضبون البتة كما يجب أن يغضبوا. وأنا لا أتحدث هنا عن السلاف وحدهم. وإذا كنا نتعاطف مع المتألمين إلى حد كبير، فإن تصرفنا يجب أن يكون معادلاً لمقدار تعاطفنا، لا لمقدار عشرة الروبلات التي نتبرع بها. سيقولون لي: ولكن من غير الجائز أن نقدم كل شيء، وأنا موافق على هذا، مع أنني لا أدري لماذا؟ لماذا ليس كل شيء؟ لا شك في أن القضية هنا هي في أنك لا تفهم شيئاً البتة حتى في طبيعتك الذاتية. وهنا تبرز فجأة مسألة ذات سطوة كبيرة تتعلق بـ «مصالح الحضارة»!

تُطرح المسألة على نحو مباشر، وواضح، وعلمي، وصريح إلى حد الوقاحة. «مصالح الحضارة» هي الإنتاج، هي الثروة، هي الطمأنينة اللازمة لرأس المال. إن المطلوب هو إنتاج ضخم ومستمر، وتصاعدي، بتكلفة مخفضة، للزيادة الهائلة في عدد البروليتاريا. وإذ نقدم للبروليتاريا أجرها نقدم لها المواد الاستهلاكية بأسعار مخفضة. وكلما ازداد الهدوء في أوربا ازدادت الأسعار انخفاضاً. ولذا فإن من الضروري أن تعم الطمأنينة في أوربا. إن صخب الحرب يطرد الإنتاج، ورأس المال جبان وهو يخشى الحرب ويختبئ عند اندلاعها. ولتضييق حدود حق الترك في سلخ جلود رعاياهم، لا بد من القيام بحرب، وما إن تندلع الحرب حتى

تتقدم روسيا إلى الأمام، مما يمكن أن يعقّد الحرب إلى الحد الذي يجعلها تشمل العالم كله. وعندئذ قل وداعاً للإنتاج، وستخرج البروليتاريا إلى الشارع. والبروليتاريا خطرة في الشارع. وتفصح الخطابات الموجهة إلى المجالس النيابية إفصاحاً مباشراً وصريحاً، وعلى مسامع العالم كله، عن أن البروليتاريا خطرة، وأنها مصدر قلق، وهي توجه انتباهها نحو الاشتراكية. «لا، من الأفضل أن ندعهم يسلخون الجلود هناك في أصقاع نائية. إن حصانة حقوق الأتراك يجب أن تكون مصونة وثابتة. وينبغي إخماد المسألة الشرقية وإفساح المجال لسلخ الجلد. ثم ما قيمة هذه الجلود؟ وهل يساوي جلدان أو ثلاثة منها طمأنينة أوربا كلها، ولتكن عشرين أو حتى ثلاثين ألف جلد - أليست الأمور سواء؟ وإذا نحن أردنا، يمكننا أن نمتنع عن السماع بالمرة، ويستأهل الأمر أن نصم آذاننا...».

هذا هو رأي أوربا (وربما قرارها)؛ وهذه هي مصالح الحضارة؛ ومرة أخرى نقول: فلتحل عليها اللعنة! ومن باب أولى أن تحل عليها اللعنة إذا أخذنا بالحسبان أن انحراف العقول (وفي المقام الأول عقول الروس) واقع لا محالة. وهنا يبرز سؤال مباشر: ما هو الأفضل: أن يخرج عشرات وعشرات من ملايين العاملين إلى الشوارع، أم أن تعاني بضعة ملايين من الرعية على يد الأتراك؟ إنهم يقدّمون لنا أعداداً ويخوفوننا بالأرقام. وإلى ذلك فإن هناك سياسيين ومعلمين حكماء يزعمون أن ثمة قاعدة، أو نظرية، أو بديهية، تقول: إن أخلاق إنسان واحد، أو مواطن واحد، أو فرد واحد: شيء، وأخلاق الدولة: شيء آخر. وعلى هذا فإن ما يمكن أن نَعُدَّه بالنسبة إلى فرد واحد، أو شخص واحد، نذالةً، يمكن أن يتخذ بالنسبة إلى الدولة ككل صفة الحكمة العظمى[125]!

إن هذه النظرية قديمة ومنتشرة على نطاق واسع؛ وهي تستحق أن تحل عليها اللعنة كذلك! المهم ألا يخوفونا بالأرقام. فليكن الوضع في أوربا كما يشاؤون أن يكون، ولكن عندنا يجب أن يكون مختلفاً. وخيرٌ لنا أن نؤمن بأن السعادة لا يجوز شراؤها بفعل الشر، من أن نشعر بأننا سعداء ونحن نعرف أننا تغاضينا عن وقوع شر. لم تكن روسيا قادرة في أي وقت من الأوقات على أن تنتج مترنيخات[103] وبيكونسفيلدات[125] حقيقيين من أبنائها ولنفسها، بل بالعكس، فهي طوال حياتها الأوربية لم تكن تعيش من أجل ذاتها بل من أجل الآخرين، وتحديداً من أجل «المصالح الإنسانية العامة». صحيح أنها ربما سعت في بعض الأحيان خلال الأعوام المئتين هذه إلى أن تقلد أوربا، وأن يكون لديها مترنيخات، ولكن كان يتكشف دائماً وعلى نحو مفاجئ في نهاية المطاف أن مترنيخ الروسي ما هو إلا دون كيشوت، مما كان يدهش أوربا إلى أبعد حد. وكانوا يسخرون، طبعاً، من دون كيشوت؛ ولكن يبدو الآن أن الوقت قد حان، ولم يعد دون كيشوت يثير السخرية، بل أخذ يثير الخوف. والسبب في

ذلك أنه قد أدرك، بدون شك، حقيقة وضعه في أوربا، ولن يذهب بعد الآن ليقاتل طواحين الهواء. ولكنه بالمقابل ظل مخلصاً لفروسيته، وهذا بالذات هو ما يخيفهم أكثر من أي شيء آخر. وبالفعل، تراهم في أوربا يصرخون قائلين: «إن الروس يستولون، إن الروس يمكرون»، وغايتهم الوحيدة من ذلك هي إخافة جماهيرهم عند اللزوم، أما الذين يصرخون فإنهم هم أنفسهم لا يصدقون البتة ما يقولونه، ولم يصدقوه قط. بل بالعكس، فالذي يحرجهم الآن ويخيفهم من جانب روسيا هو، على الأرجح تميزها بالصدق، وترفعها عن النفعية، وتحليها بالشرف وأَنَفُها من الاستيلاء والارتشاء. إنهم يحسون إحساساً مسبقاً بأنه يستحيل شراء روسيا، أو استدراجها بأي مكسب سياسي، إلى التورط في قضية مغرضة، أو عنفية؛ إلّا إذا لجؤوا إلى الخداع، ولكن دون كيشوت، مع أنه فارس عظيم، نراه أحياناً شديد الدهاء، بحيث أنه يستعصي على الخديعة. ها هي إنكلترا وفرنسا والنمسا: هل هناك ولو أمة واحدة من أمثال هذه الأمم لا يمكن التحالف معها في فرصة ملائمة من أجل مكسب سياسي، للوصول بالعنف إلى هدف نفعي مغرض: المهم هنا ألّا تفوت الدولةُ المبيعة الفرصة التي تتيح لها أن تبيع نفسها فيها بأعلى سعر ممكن. أما روسيا فإنها الدولة الوحيدة التي لا يمكن إغراؤها، مهما كان الثمن، للانضمام إلى اتحاد ليس على حق. وبما أن روسيا، في الوقت نفسه، قوية جداً، وكيانها ينمو بوضوح، وعودُها يشتد ويصلب ليس يوماً بعد يوم بل ساعة بعد ساعة، وهم في أوربا يدركون هذا جيداً جداً، ويرونه بمنتهى الوضوح (على الرغم من أنهم أحياناً يصيحون: إن العملاق قد تضعضع)، فكيف لهم ألّا يخافوا؟

وأقول بالمناسبة إن هذه النظرة إلى نزاهة سياسة روسيا الخارجية، وإلى حرص روسيا السرمدي على خدمة المصالح الإنسانية العامة، حتى لو أدى ذلك إلى الإضرار بمصالحها، هي نظرة يبررها التاريخ، ومن الضروري جداً توجيه الانتباه إلى هذا الأمر، الذي تكمن فيه خصوصيتنا بالمقارنة مع سائر أوربا، علماً بأن هذه النظرة إلى طبيعة روسيا ضئيلة الانتشار، ولا أظن أن عدد الذين سيصدقونها عندنا كبير. ومن البديهي أن علينا هنا إخراج أخطاء السياسة الروسية من الحساب، لأننا نتحدث الآن عن روح سياستنا وطبيعتها الأخلاقية فحسب، لا عن نجاحاتها في الماضي، والماضي البعيد. ففي العهود القديمة كانت هناك بالفعل «طواحين هواء»، ولكن دعوني أكرر إن ذاك الزمن، كما يبدو لي، قد ولّى إلى غير رجعة.

ولنتساءل بجدّ: أي رفاه هذا الذي نحصل عليه بالباطل وسلخ الجلد؟ إن ما هو حق بالنسبة إلى الإنسان كفرد، يجب أن يكون حقاً أيضاً بالنسبة إلى الأمة ككل. أجل، يمكن طبعاً أن نخسر مؤقتاً، ويمكن أن نفتقر إلى حين، ويمكن أن نفقد أسواقنا، وأن يقل إنتاجنا، وأن يتفاقم الغلاء عندنا؛ ولكن دعونا بالمقابل نحافظ على كيان أمتنا معافىً أخلاقياً، وبهذا

ستربح أمتنا بلا شك، حتى مادياً. ولنلاحظ أن أوربا قد وصلت، بلا ريب، إلى حالة أصبح فيها الربح الآني، ربح اللحظة الحاضرة، هو بالنسبة إليها، أغلى من كل ماعداه، بصرف النظر عما يكلفه هذا الربح، وذلك لأنهم يعيشون هناك يوماً فيوماً، يعيشون لحظتهم الحاضرة فحسب، ولا يعرفون ما الذي سيجري لهم غداً. أما نحن في روسيا، فإننا ما زلنا نؤمن بشيء ما ثابت يتكون عندنا، وتالياً فإننا نفتش عن مرابح دائمة وجوهرية. ولذا فإننا، وبصفتنا كياناً سياسياً أيضاً، آمنّا دائماً بأخلاقية سرمدية، لا بأخلاقية ظرفية مشروطة لا تدوم إلّا بضعة أيام. كونوا على ثقة بأن دون كيشوت يعرف أيضا ما يعود عليه بالربح، ويجيد الحساب؛ فهو يعرف أن ربحه يكمن في صون كرامته، ووعيه هذه الكرامة، إذا ظل فارساً كما كان؛ وهو، علاوة على ذلك، موقن بأنه على هذا الطريق لن يفقد إخلاصه وصدقه في سعيه نحو الخير والحق، وبأن هذا الوعي يمده بالقوة ليتابع سيره في هذا المضمار. وهو أخيراً، واثق بأن هذه السياسة هي، فوق هذا كله، أفضل مدرسة للأمة. ينبغي ألا يجرؤ الشاب الكبّة[93] على أن يقول لي في وجهي: «وأنتم أيضاً كل ما لديكم مشروط، وأنتم أيضاً كل ما لديكم مبني على الربح». يجب أن يحب الفتى المتحمس أيضاً أمته، لا أن يذهب للبحث عن الحقيقة والمثل العليا في مكان آخر، وخارج نطاق المجتمع؛ ثم ينتهي به الأمر إلى أن يحب أمّته عندما يكون قد انقضى زمن مدرستنا المُرْهِقَة، بل الشديدة الإرهاق. إن الحقيقة كالشمس، لا يمكن إخفاؤها: ورسالة روسيا ستصبح في النهاية واضحة لأكثر العقول اعوجاجاً، سواء عندنا، أو في أوربا. ونتساءل: لماذا يكون وقوع هذا الانحراف العقلي عندنا الآن أكثر احتمالاً من وقوعه في أي مكان آخر؟ إن السبب في هذا يعود إلى أن مثقفينا جميعهم لم يفعلوا طوال قرن ونصف تقريباً أكثر من الانفصال عن روسيا، وانتهى بهم الأمر إلى أنهم لم يعودوا يعرفونها على الإطلاق، ولم يعودوا يتعاملون معها سوى عبر الدواوين. لقد بدأ بعد إصلاحات العهد الحالي عصر جديد؛ وقد انطلقت القضية ولم يعد بإمكانها أن تتوقف.

أما أوربا فقد قَرَأَتْ البيان الذي أصدره الامبراطور الروسي في الخريف*، وما زالت تذكره؛ وهي تذكره ليس من أجل اللحظة الراهنة فحسب، بل من أجل اللحظات الجارية القادمة، ولمدة طويلة. سنشهر السيف، إذا دعت الضرورة، من أجل المظلومين والتعساء، حتى وإن كان هذا يضر بمصلحتنا الخاصة الآنية. ولكن في الوقت نفسه سيترسخ لدينا أكثر فأكثر إيماننا بأن رسالة روسيا الحقيقية، وقوتها، وحقيقتها تكمن في هذا بالذات، وبأن

(*) المقصود: إحدى الخطوات الدبلوماسية التي قامت بها الحكومة الروسية باسم الإمبراطور من أجل إحلال هدنة في الحرب الصربية - التركية (عام 1876)، تمهيداً لتوقيع اتفاقية سلام. (ن).

التضحية بالنفس في سبيل المظلومين والمنبوذين من قبل الجميع في أوربا بذريعة خدمة مصالح الحضارة، إنما هي الخدمة الحقيقية لمصالح الحضارة الفعلية الحقة.

أجل، إن تلك الحقيقة نفسها، الحقيقة المسيحيةَ ذاتها، المعترف بها لدى كل مؤمن، يجب أن يُعترف بها أيضا في الكيانات السياسية. ويجب أن تبقى هذه الحقيقة مصونة ولو في بعض الأماكن، ويجب أن تكون ثمة ولو أمة واحدة تشع بنور الحقيقة، وإلّا فإن كل شيء سيتغشّى بالظلمة، وتعتريه البلبلة، ويغرق في الكلبية[5]. وفي هذا الحالة سيتعذر الحفاظ على أخلاق مواطنين منفردين، فكيف إذاً سيعيش كيان شعب بأكمله؟ لا بد من وجود أشخاص ثقات، لا بد من وجود شمس تضيء. الشمس بزغت في الشرق، ومن الشرق يبدأ نهار جديد للبشرية. وعندما تشرق الشمس بكامل سناها سيدركون عندئذ ما هي «مصالح الحضارة» الحقيقية، وإلّا سترتفع راية كُتِب عليها:

«Après nous le deluge» (ومن بعدنا الطوفان)! أيُعقل أن توصِل هذه «الحضارة» المجيدة الإنسان الأوربي إلى رفع مثل هذا الشعار، وأن تقضي بهذا عليه؟ الأمور تسير بهذا الاتجاه.

إحدى أهم المسائل المعاصرة

لعل قرائي قد لاحظوا أنني طوال مدة إصداري «يوميات كاتب»، التي تجاوزت السنة بقليل، أحاول أن أقلل بقدر الإمكان من الحديث عن الظواهر الجارية على صعيد الأدب الروسي. وإذا كنت أسمح لنفسي في بعض الأحيان بأن أقول كلمة حول هذا الموضوع، فإنني لا أقولها إلا في معرض المديح والإعجاب، ولكن كم من مجافاة الحقيقة يكمن في امتناعي الطوعي هذا! أنا كاتب، وأكتب «يوميات كاتب»، وربما كنت أهتم أكثر من أي شخص آخر بما ظهر من الأدب طوال هذا العام؛ فكيف أكتم انطباعاتي التي ربما كانت هي الأقوى؟ أقول لنفسي: «أنت نفسك أديب روائي، وعلى هذا فإن أي حكم تصدره عن الأدب الروائي، باستثناء المديح المطلق، سيُعَدّ متحيزاً؛ اللهم إلّا إذا تحدثت عن ظواهر مر عليها زمن طويل». هذا هو التصور الذي كان يثنيني عن التعليق.

ومع ذلك فإنني سأجازف هذه المرة، وأخالف هذا التصور، ولكنني لن أتحدث عن أي شيء يقع ضمن دائرة الفن الروائي أو النقدي البحت، إلّا في حالة الضرورة، وإذا «وُجدتْ مناسبة». وها هي المناسبة قد وُجدت الآن. فمنذ شهر وقع تحت يدي عمل جديّ وطابعي جداً في أدبنا الحالي إلى درجة أنني قرأتهِ وأنا مندهش، لأنني منذ زمن بعيد لم أعد آمل بأن أصادف شيئاً مماثلاً بهذا الحجم في الأدب الروائي. لقد قرأت لكاتبٍ فنانٍ من أرفع مرتبة، وروائي في المقام الأول، ثلاث أو أربع صفحات ينعكس فيها الموضوع «الآنيّ الملحّ» بحق في حياتنا، وكان أهم ما في المسائل السياسية والاجتماعية الجارية في واقعنا الروسي الحالي قد اجتمع كله في نقطة واحدة. والمهم في الأمر هو أن المسألة تُطرح مصطبغةً بأدق التلاوين التي تميز اللحظة الحاضرة في واقعنا، وبالشكل الذي تُطرح به عندنا في البرهة الراهنة بالضبط، تُطرح وتُترك من دون حل... إنني أتحدث هنا عن بضع صفحات من رواية «آنّا كارينينا» للكونت ليف تولستوي نشرتها مجلة «البشير الروسي» في عددها الصادر في كانون الثاني (يناير).

لن أتحدث هنا عن هذه الرواية ككل سوى بنصف كلمة، وسيتخذ حديثي هذا شكل مقدمة ضرورية. لقد بدأت بقراءتها، كما بدأنا جميعاً، منذ مدة طويلة. وقد أعجبتني جداً في البداية، ولكن فيما بعد، ومع أن التفاصيل ظلت تعجبني إلى الحد الذي جعلني لا أستطيع الانقطاع عن متابعتها، فإن إعجابي بالرواية ككل قل عن ذي قبل. كان يبدو لي طوال الوقت أنني قرأت هذا في مكان ما من قبل، وبالذات في «الطفولة والمراهقة» للكونت تولستوي نفسه، وفي «الحرب والسلام» له أيضاً، بل إنه هناك كان أكثر طزاجة. هنا وهناك قصة عائلة روسية من فئة الأسياد، ولكن الأحداث تختلف طبعاً. الأشخاص، كفرونسكي على سبيل المثال (أحد أبطال الرواية)، الذين لا يستطيعون التحادث فيما بينهم سوى عن الخيول، بل إنهم غير قادرين على أن يجدوا ما يتحدثون عنه سوى الخيول، أشخاص يثيرون الاهتمام طبعاً، من أجل معرفة أنموذجهم، ولكنهم متشابهون تشابهاً رتيباً جداً، ومحصورون ضمن نمط فئوي واحد. لقد كان يبدو، على سبيل المثال، أن حب هذا «الحصان الذي يرتدي زياً رسمياً»، كما سماه أحد أصحابي*، لا يمكن تصويره إلّا على نحو تهكمي. ولكن عندما بدأ المؤلف يدخلني إلى عالم بطله الداخلي على نحو جدي لا تهكمي، بدا لي الأمر مملاً. ولكن فجأة انهارت كل آرائي المسبقة. فقد ظهر مشهد احتضار البطلة (التي تعافت فيما بعد)، وأدركتُ الجزء الجوهري كله من أهداف الكاتب؛ إذ ظهرت حقيقة حياتية عظيمة وأزلية في مركز هذه الحياة الضحلة والوقحة، وأضاءت كل شيء دفعة واحدة. وفجأة أصبح هؤلاء الناس الضحلون، والتافهون،

(*) ربما كان هذا «الصاحب» هو الكاتب الساخر سلطيكوف شيدرين مشيراً إلى شخصية «فرونسكي». (ن).

والكاذبون أناساً حقيقيين، وصادقين، وجديرين باسم «الإنسان»؛ وما ذلك إلاّ بقوة القانون الطبيعي، قانون الموت البشري. زالت القشرة عنهم بأكملها، وظهرت حقيقتهم وحدها. وأصبح الأخيرون أوّلين، أما الأوّلون (فرونسكي) فصاروا فجأة هم الأخيرين* وفقدوا كل هالتهم، وذلّوا؛ ولكن عندما ذلّوا أصبحوا أفضل وأكثر كرامة وأصالة بكثير مما كانوا عليه عندما كانوا هم الأوّلين والأعلين. لقد نطق الكره والكذب بكلمات الصفح والحب. وبدلاً من مفاهيم المجتمع الراقي البليدة، ظهر حب الإنسان المحض. كل منهم صفح عن الآخر وبرّأه. واختفت فجأة الروح الفئوية والشعور بالاستثنائية ولم يعد لهما معنى، وغدا هؤلاء الأشخاص الورقيون أشبه بأناس حقيقيين! لم يكن هناك مذنبون: الجميع اتهموا أنفسهم بلا تحفظ، وبهذا برؤوا أنفسهم على الفور. وشعر القارئ أن ثمة حقيقة حياتية هي الأكثر واقعية، والأكثر حتمية، وهي التي يجب أن نؤمن بها، وما حياتنا كلها، وهمومنا كلها، سواء التافهة والمخزية منها، أو تلك التي غالباً ما نَعُدّها الأسمى والأرفع، ما هي كلها، في الأغلب الأعم، سوى عبث خيالي في منتهى الضحالة، ما يلبث أن يسقط ويختفي في حضرة الحقيقة الحياتية، وحتى من غير أن يدافع عن نفسه. وكان المهم هنا هو الإشارة إلى أن هذه الحقيقة موجودة فعلاً، وإن كانت نادراً ما تتجلى بكامل سنائها الذي ينير كل ما حوله، بل إنها في بعض الحالات لا تظهر البتة طوال الحياة. وقد رصد الشاعر** لحظة تجلي هذه الحقيقة وصوّرها لنا بكل واقعيتها المخيفة. لقد برهن الشاعر على أن هذه الحقيقة موجودة في الواقع الحي، وليست مجرد مثل أعلى، أو فكرة في ذهن من يؤمن بها فحسب؛ إنها حقيقة حتمية، وضرورية، وماثلة للعيان. ويبدو أن هذا بالذات ما قصد الشاعر أن يبرهن عليه عندما بدأ كتابة قصيدته***. إن القارئ الروسي بحاجة ماسة إلى تذكيره بهذه الحقيقة الأزلية فكثيرون عندنا صاروا ينسونها. وحسناً فعل المؤلف بهذا التذكير، فضلاً عن أنه فعل ذلك بحذق فنان ذي موهبة غير عادية.

(*) انظر: إنجيل لوقا 13/ 30 «فإذا آخِرون يصيرون أوّلين، وأولون يصيرون آخرين». وإنجيل متى 19/ 30 «وكثير من الأوّلين يصيرون آخِرين، ومن الآخرين يصيرون أوّلين» والكاتب هنا يشير إلى «التحول» الأخلاقي الذي يحدث في نَفْس كل من كارينين وفرونسكي، اللذين يتقابلان عند سرير آنا المحتضِرة. (ن).

(**) يستعمل دوستويفسكي كلمة «شاعر» هنا بمعنى الكاتب المبدع. وكانت صفة الشاعر آنذاك يمكن أن تطلق على مبدع الأعمال الأدبية الفنية بصرف النظر عن جنسها. (م).

(***) يقصد دوستويفسكي بكلمة «قصيدة» هنا رواية «آنا كارينينا»، بصفتها عملًا إبداعياً. ونذكر، بالمناسبة، أن غوغول كان قد سمى روايته «النفوس الميتة» قصيدةً (بوئيما Poém). وكان استعمال الكلمة بهذا المعنى آنذاك مألوفاً. (م).

بعد ذلك عادت الرواية إلى التطويل، ثم فجأة دُهشت بعض الشيء عندما صادفت في الجزء السادس مشهداً يعكس مسألة «آنيّة ملحة» بحق، والمهم في الأمر أن المشهد قد ظهر من غير تعمد، وبلا تحيز، بل انبثق من صلب الرواية الفني. ومع ذلك، أكرر، إن هذا قد فاجأني وأدهشني، بعض الشيء: إذ لم أكن أتوقع التطرق إلى مثل هذه المسألة «الآنيّة الملحة». ولا أدري لِمَ لم يخطر لي أن المؤلف سيُقدم على إيصال أبطاله في مسيرة تطورهم إلى هذه «الحدود القصيّة». والحقيقة أن مغزى الواقع كله يكمن في هذه الحدود القصيّة، وفي هذه المحطة الأخيرة التي ينتهي إليها الاستنتاج العقلي، ولولا ذلك لكانت الرواية قد اتخذت طابعاً لا محدداً وبعيداً عن التجاوب مع الاهتمامات الروسية الجارية والجوهرية على حد سواء، أي لاقتصرت على تصوير زاوية ما من زوايا الحياة، مع تجاهل متعمد للأمر الأكثر أهمية، والأكثر إقلاقاً في هذه الحياة. وعلى كل يبدو لي أنني أندفع بإصرار نحو النقد، وهذا ليس من شأني. كل ما أردته هو الإشارة إلى أحد المشاهد، الذي يهمنا فيه بالدرجة الأولى الصورة التي يظهر بها شخصان من الجانب، الذي يرينا، كأوضح ما تكون الرؤية، طبعيهما المميزين في البرهة الراهنة، وبهذا يضع الكاتب أمامنا ذاك النموذج من الناس، الذين ينتمي إليهم هذان الشخصان، ويصوره من زاوية الرؤية الأكثر إثارة للاهتمام، من حيث المغزى الاجتماعي المعاصر.

كلاهما من فئة النبلاء، وكلاهما نبيل بالنَّسب، وملّاك أراضٍ بالوراثة، وكلاهما يصوره الكاتب بعد الإصلاح الفلّاحي. وكلاهما كان من «مالكي الأقنان»؛ والسؤال الآن: ما الذي بقي من هؤلاء النبلاء، من حيث سماتهم الفئوية بعد الإصلاح الفلّاحي؟ وبما أن أنموذج مَلّاكِيْ الأراضي هذين عام جداً وواسع الانتشار، فقد استطاع الكاتب أن يجيب عن هذا السؤال ولو جزئياً. أحدهما، وهو ستيفا أُبلونسكي، أناني، وأبيقوري* مرهف الذوق، وهو مقيم في موسكو وعضو في النادي الإنكليزي. وعادة ما ينظر الآخرون إلى هذا الصنف من الناس على أنه شخص يبحث عن اللذة ويتسم باللطف والبراءة. وهو أناني ظريف، حاضر النكتة، لا يزعج أحداً، وأكثر ما يهمه في الحياة إمتاع نفسه. وغالباً ما يكون هؤلاء الأشخاص من ذوي الأُسر الكبيرة، وتراهم لطفاء مع زوجاتهم وأولادهم، ولكنهم قلما يفكرون فيهم. وهم يحبون جداً النساء الماجنات، على أن يكُنَّ بالطبع من الصنف «المعتبر». وهم قليلو الثقافة، ولكنهم يحبون الأشياء الأنيقة، والفنون، ويحبون الحديث عن كل شيء. وما إن جرى الإصلاح الفلاحي حتى أدرك هذا النبيل حقيقة الأمر: فَحَسَبَ وفكّر، ووجد أن ثمة

(*) نسبة إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور (341 – 270) ق.م.، ولكن الكلمة هنا تستعمل بمعناها المجازي الشائع: أي الشخص الذي يضع متعته الذاتية وتلذذه بالحياة فوق كل شيء. (م).

شيئاً سيبقى عنده في جميع الحالات، ولذا فلا داعي للتغيير، و«Après moi le deluge» (ومن بعدي الطوفان). ولم يكلّف نفسه التفكير في مصير زوجته وأولاده، وقد نجا من مصير «الشاب الكبة»[93] بفضل البقية الباقية من ممتلكاته وعلاقاته، ولكن لو أن ما يملكه قد تبدد، وتعذّر عليه تسلّم مرتّب من غير مقابل، لربما كان قد أصبح «شابّاً» من أولئك، واستخدم، بالطبع، كل قدراته الذهنية، التي لا يندر أن تكون متوهجة جداً، لكي يكون «شاباً» يتمتع بألْيقِ مظهرٍ ممكن، وبمكانة رفيعة في المجتمع الراقي. قديماً، بالطبع، كان يلجأ أحياناً إلى تقديم أشخاص للتجنيد من أجل قضاء دين خسره في القمار، أو دفع نقود لعشيقته؛ ولكن مثل هذه الذكريات لم تكن لتشعره بالخجل البتة، بل إنه نسيها تماماً. ومع أنه أرستقراطي فإن نبالته كانت بالنسبة إليه لا قيمة لها، وعندما ألغيت العلاقات القِنانيّة، لم يعد لهذه النبالة وجود في نظره: لم يبق من الناس بالنسبة إليه: سوى الشخص ذي الحظوة لدى أصحاب النفوذ، ثم الموظف ذي المنصب المرموق، ثم الشخص الغني. وصار أصحاب الخطوط الحديدية والمصرفيون قوةً، وقد سارع على الفور لعقد صداقة معهم. وكان الحديث قد بدأ بتوبيخ «ليفين» له، وهو قريبه وملّاك أراضٍ أيضاً (ولكن من أنموذج معاكس تماماً، ويعيش في الضيعة التي يملكها)، لأنه يزور أصحاب السكك الحديدية، ويحضر مآدبهم، وحفلاتهم في الأعياد. وهؤلاء، بحسب قناعة «ليفين»، أناس مراؤون وضارّون. ولكن «أبلونسكي» يدحض آراء «ليفين» بسخرية لاذعة. وعلى العموم كانت قد نشأت بين هذين الشخصين، منذ أن ربطت بينهما صلة قربى، علاقات تنطوي على المكايدة اللاذعة؛ علماً بأن الوغد الذي يدحض آراء الإنسان النبيل في عصرنا هذا، يكون هو الأقوى دائماً، لأنه يتسم بمظهر الوقار المستمد من التفكير السليم، أما الإنسان الشهم النبيل فإنه، بمشابهته الإنسان المثالي، يبدو بمظهر المهرج المضحك. كان الحديث يدور في أثناء رحلة صيد، في ليلة صيفية. وكان الصيادون قد أووا إلى مستودع للحصيد، للمبيت هناك على أكداس حشيش يابس. وقد طفق أبلونسكي يبرهن على أن احتقار أصحاب الخطوط الحديدية، ودسائِسِهم وإثرائِهم السريع، والتماسِهم الامتيازات بإلحاح وصفقات إعادة البيع التي يعقدونها، هو احتقار لا معنى له، وأن هؤلاء أناس كغيرهم من الناس، يعملون بقواهم الجسدية والذهنية كما يعمل الجميع، وبالنتيجة يبنون الطرقات. فيقول «ليفين»*:

– ولكن كل كسب لا يتناسب مع الجهد المبذول كسب غير شريف.

فيسأل أبلونسكي: – ومن يحدد هذا التناسب؟ فأنت لم تعيّن الحد الفاصل بين العمل

(*) انظر الفصل الحادي عشر من الجزء السادس من رواية «آنا كارينينا». (م).

الشريف والعمل غير الشريف. وإذا كنتُ أتقاضى مرتباً أعلى من مرتب رئيس قسمي الذي يتقن العمل خيراً مني يكون هذا غير شريف؟

- لا أدري.

- إذاً سأقول لك: إنك عندما تكسب لقاء عملك في المزرعة، لنفترض، خمسة آلاف روبل زائدة، وهذا الفلاح، مهما بذل من جهد، لن يكسب أكثر من خمسين روبلاً، فإن هذا سيكون غير شريف، وهو يماثل حالي تماماً عندما أتقاضى مرتباً أعلى من مرتب رئيس قسمي...

فردّ «ليفين»: - لا، اسمح لي، أنت تقول إن من الظلم أن أكسب خمسة آلاف روبل، في حين لا يكسب الفلاح سوى خمسين روبلاً: هذا صحيح. إنه ظلم، وأنا أشعر به، ولكن...

فقال ستيفان أركاديفتش، وكأنه يتعمد مشاكسة ليفين:

- نعم أنت تشعر به، ولكنك لا تعطي الفلاح أرضك.

ردّ ليفين: - لا أعطي أرضي لأن أحداً لا يطالبني بذلك، وحتى إن أردت فليس لي أن أعطيها... ليس من أحد أعطيه.

- أعط هذا الفلاح، إنه لن يرفض.

- نعم، ولكن كيف أعطيه إياها؟ هل أذهب معه وأبرم عقد بيع؟

- لا أعرف، ولكن إذا كنت مقتنعاً بأنك لا تملك الحق...

- لست مقتنعاً البتة، بل بالعكس، فأنا أشعر أنني لا أملك الحق في أن أعطي أحداً أملاكي، وأن علي واجبات تجاه أرضي وتجاه أسرتي.

- لا، اسمح لي؛ إذا كنت ترى أن عدم المساواة هذا غير عادل فلماذا تتصرف على هذا الأساس؟

- هذا ما أفعله، ولكن سلبياً، بمعنى أنني لن أسعى لزيادة الفرق القائم بين وضعي ووضعه.

- لا، اعذرني، إن في هذا مفارقة...

هكذا يا صديقي، واحد من اثنين: إما أن نقرّ بأن نظام المجتمع الحالي عادل، وعندئذ علينا أن ندافع عن حقوقنا، وإما أن نعترف بأننا نتمتع بامتيازات غير عادلة، كما أفعل أنا، ونستغل هذه الامتيازات بكل سرور.

-لا، لو كان هذا غير عادل، لما استطعتَ أن تتمتع بهذه الخيرات وأنت مسرور، أنا على الأقل، لا أستطيع ذلك، فالمهم عندي هو أن أشعر بأنني غير مذنب.

«موضوع الساعة»

هذا هو الحديث. وأظن أنكم توافقونني على أن هذا هو «موضوع الساعة» الملحّ، بل هو أكثر الأمور إلحاحاً في «موضوع الساعة» عندنا. وما أكثر السمات الروسية البحتة الشديدة الطابعية[1] التي ينطوي عليها! أولاً: إن كل هذه الأفكار لم تكن منذ أربعين سنة سوى في بداية ظهورها في أوربا نفسها، وهل كانوا كثراً آنذاك أولئك الذين كانوا يعرفون سان - سيمون وفورييه*، وهما الشارحان «المثاليان» الأولان لهذه الأفكار؟ أمّا عندنا فلم يكن في روسيا بأسرها آنذاك من يعرف شيئاً عن هذه الحركة الجديدة الناشئة في أوربا الغربية سوى خمسين شخصاً**. وفجأة نرى أن هذه «المسائل» يناقشها الآن ملّاكو أراضٍ في رحلة صيد، وهم يبيتون في مستودع حصيد، ويتحدثون بأسلوب طابعي جداً، ويدل على معرفة عميقة، ما يجعل الجانب السلبي، على الأقل، من المسألة، في حكم المحلول نهائياً والموقّع عليه من قبلهم. صحيح أن هؤلاء الأشخاص ملّاكو أراضٍ ينتمون إلى الشريحة العليا في المجتمع، ويتحدثون في النادي الإنكليزي، ويطالعون الصحف، ويتابعون الأحداث سواء في الصحافة أو من مصادر أخرى؛ ولكن مع ذلك فإن مجرد الاعتراف بأن مثل هذا الهراء الشديد المثالية هو الموضوع الضروري الأكثر أهمية من أجل الحديث بين أشخاص ليسوا من أساتذة المؤسسات التعليمية العليا، ولا من الاختصاصيين، بل مجرد أشخاص من المجتمع الراقي من آل أبلونسكي وآل ليفين، أقول إن مجرد الاعتراف بهذه الحقيقة يشكل إحدى الخصائص الشديدة الطابعية، التي تسم الحالة الذهنية الروسية في الآونة الراهنة. أما السمة الطابعية الثانية في هذا الحديث، التي أشار إليها المؤلف - الفنان فتتجلى في أن

(*) هنري كلود سان - سيمون (1760-1825) وشارل فورييه (1772-1837): اشتراكيان طوباويان فرنسيان. (ن).

(**) المقصود: حلقة م. ف. بيترشيفسكي (انظر الهامش 40) التي كان دوستويفسكي أحد أعضائها آنذاك. (ن).

الذي يقرّر بصدد عدالة هذه الأفكار الجديدة شخصٌ غير مستعد لدفع أي قرش من أجلهم، أي من أجل سعادة البروليتاري، والفقير، بل بالعكس، فهو أحياناً ينتف ريشهم نتفاً. وها هو يقرر، بطمأنينة الواثق، ومرح المتلاعب بالألفاظ، إفلاس تاريخ البشرية برمته، فيعلن أن البنية الاجتماعية الحالية هي قمة العبث اللامعقول. يقول: «أنا موافق تماماً على هذا». ولاحظوا أن أمثال ستيفان هذا هم دائماً أول الموافقين على كل هذا. إنه يدين النظام المسيحي بأكمله، والفرد والأسرة دفعة واحدة، فهذا عنده من أبسط ما يكون. لاحظوا أيضاً أنه لا وجود عندنا للعلم، ولكن هؤلاء السادة الذين يدركون بلا أي شعور بالخجل أنه لاوجود للعلم لديهم، وأنهم لم يشرعوا يتحدثون عن هذا سوى بالأمس فقط، مرددين أقوال غيرهم، يتصدون في الوقت نفسه لحل مسائل بهذا الحجم من دون أي تردد. ثم تبرز السمة الطابعية الثالثة، إذ يقول هذا السيد بصراحة: «... واحد من اثنين: إما أن نقرّ بأن نظام المجتمع الحالي عادل، وعندئذ علينا أن نحمي حقوقنا، وإما أن نعترف بأننا نتمتع بامتيازات غير عادلة، كما أفعل أنا، ونستغل هذه الامتيازات بكل سرور». وهذا يعني جوهرياً أنه إذ يوقّع الحكم الصادر على روسيا كلها ويدينها، كما يدين أسرته ومستقبل أولاده، يعلن بصراحة أن هذا كله لا يمت إليه بصلة: «أنا أدرك أنني نذل، ولكنني سأظل نذلاً بكل سرور «Après moi le deluge»* وهو يشعر بهذه الطمأنينة لأنه ما زال يملك ثروة، ولكنه في حالة فقدانه هذه الثروة لا يبقى لديه أي مانع في أن يصبح «شاباً كبة»[93]، ولن يجد أمامه أسهل من هذا الطريق. وهكذا فإن هذا المواطن، ورب الأسرة، هذا الشخص الروسي يمثل أكثر السمات الروسية المحض طابعيةً! ستقولون: إنه على كلٍ ليس سوى استثناء. وأي استثناء يمكن أن يكون هذا؟ تذكروا كم من الكلبيّة[5] قد رأينا في هذه السنوات العشرين الأخيرة! وأية خفة في الانعطافات والتقلبات، وأي غياب لمختلف القناعات الجذرية، وأية سرعة في الانسجام مع أفكار أول من نصادفه، من أجل أن نبيعه، طبعاً، في اليوم التالي بقرشين لا أكثر. ليس ثمة أي رصيد أخلاقي سوى «Après moi le deluge» (ومن بعدي الطوفان).

وأكثر ما يثير الاهتمام هنا هو أنه يوجد، إلى جانب هذا النموذج المسيطر والمنتشر بأعداد ضخمة جداً، نموذج آخر من النبلاء وملّاك الأراضي الروس، معاكس له في كل شيء. إنه ليفين؛ وأمثال ليفين في روسيا كثيرون جداً، ويكاد عددهم يضاهي عدد أمثال أبلونسكي. وأنا لا أتحدث هنا عن وجهه، ولا عن قوامه كما صوره الفنان في روايته، بل عن إحدى سمات ماهيته، وهي السمة الأكثر جوهرية، وأؤكد أن سعة انتشار هذه السمة تبعث على الدهشة، أقصد وسط كلبيتنا[5] وموقفنا غير الحاسم من القضية الحقيقية. وهي سمة ما تنفك منذ بعض

(*) ومن بعدي الطوفان. (م).

الوقت تعبر عن نفسها في كل لحظة. والناس الذين يتسمون بها يسعون بتشنج يكاد يكون مَرَضياً إلى الحصول على أجوبة عن أسئلتهم، وأنفسهم مفعمة بآمال راسخة، وإيمان حارّ، مع أنهم لا يزالون عاجزين عن حل أية مسألة تقريباً. وتتجلى هذه السمة تجلياً تاماً في رد ليڤين على ستيفا: «لا، لو كان هذا غير عادل، لما استطعتَ أن تتمتع بهذه الخيرات وأنت مسرور، أنا، على الأقل، لا أستطيع ذلك، فالمهم عندي هو أن أشعر بأنني غير مذنب».

وهو بالفعل لا يطمئن ما لم يقرر: هل هو مذنب أم غير مذنب؟ وهل تعرفون إلى أين يصل به عدم اطمئنانه؟ إنه يصل به إلى «الحد الأقصى»، وإذا اقتضت الضرورة، إذا اقتضت الضرورة فعلاً، وإذا برهن لنفسه على أن هذا ضروري، فإنه، بعكس ستيفا، الذي يقول: «سأستمر في العيش بكل سرور حتى لو كنت وغداً» سيتحول إلى «ڤلاس»، أي إلى «ڤلاس» نكراسوف*، الذي وزع أراضيه، وهو في غمار نوبة من التأثر والحنان العظيم والخوف.

وذهب يجمع الهبات

لبناء معبد للرب

وإذا هو انطلق ليجمع تبرعات ولكن ليس من أجل بناء معبد، فإنه سيفعل شيئاً ما له الأهمية نفسها، وسيفعله بالحماسة نفسها. لاحظوا، وأكرر مرة ثانية، وأسارع لأكرر، هذا السمةَ: أعني هذه الكثرة الهائلة المعاصرة من الناس الجدد، هذا الجذر الجديد من الناس الروس الذين هم بحاجة إلى الحقيقة، الحقيقة وحدها من دون كذب مشروط، والذين سيقدمون كل ما لديهم على الإطلاق من أجل بلوغ هذه الحقيقة. وقد ظهر هؤلاء الناس أيضاً في السنوات العشرين الأخيرة، وما انفكوا يظهرون أكثر فأكثر، مع أن هذا الإحساس المسبق بظهورهم كان ممكناً من قبل، ودائماً، وحتى قبل عهد بطرس الأول. وهذه هي روسيا القادمة، روسيا المستقبل، روسيا الناس الشرفاء، الذين هم بحاجة إلى الحقيقة، ولا شيء سواها. ولكنهم، مع ذلك، يتصفون بقدر كبير من عدم التسامح. فهم، بسبب قلة الخبرة، يرفضون كل الشروط، بل حتى كل التوضيحات. غير أنني أريد أن أصرح بكل قوة أنهم يندفعون في أثناء ذلك وراء شعور صادق. ثم إن هذه السمة الطابعية جداً تتجلى في أن هؤلاء لا يزالون بعيدين كل البعد عن الانسجام والتوافق، ولا يزالون حتى الآن ينتمون إلى مختلف الفئات والقناعات: فمنهم ارستقراطيون، وبروليتاريون، ومنهم متدينون وملحدون، ومنهم أغنياء وفقراء، ومنهم علماء وجهّال ومنهم شيوخ وفتيات صغيرات، ومنهم سلافويون وغربويون[13]. فالفروق في القناعات لا حدود لها، ولكن الطموح إلى النزاهة والحقيقة ثابت لا يتزعزع، وكل واحد منهم

(*) انظر فصل «ڤلاس» في يوميات عام 1973. (م).

على استعداد لأن يضحي بحياته وبكل امتيازاته، أي أن يتحول إلى «ڤلاس»، في سبيل كلمة الحق. ربما سيصيحون: ما هذا سوى خيال جامح، فعندنا لا يوجد هذا القدر من النزاهة، أو من البحث عن النزاهة. وأنا أعلن، على وجه التحديد، أن هذا موجود، إلى جانب الفساد المخيف، وأنني أرى هؤلاء الناس القادمين الذين سيصنعون مستقبل روسيا، وأشعر مسبقاً بوجودهم، وأنه لم يعد من الجائز ألّا نراهم، وأن الفنان الذي قارن بين ستيفا الكلبي[5] الذي فات زمانه، وليڤين، الرجل الجديد الذي يتبناه الفنان، إنما كان بهذا يقارن بين هذا المجتمع الروسي الفاسد الميئوس منه، والكبير العدد جداً، والذي حكم على نفسه بالهلاك، ومجتمع الحقيقة الجديدة، الذي ليس بوسع قلبه أن يتحمل وِقْرَ قناعته بأنه مذنب، وهو مستعد لأن يقدم كل ما لديه من أجل أن يطهر قلبه من ذنبه. ويلفت النظر هنا إلى أن مجتمعنا ينقسم بالفعل إلى هذين الصنفين فقط تقريباً، وهما من السعة بحيث يستوعبان الحياة الروسية، هذا إذا أهملنا طبعاً جمهرة الكسالى، وعديمي الموهبة، واللامبالين. ولكن السمة الأكثر طابعيةً، والأكثر روسيةً في «موضوع الساعة» التي يشير إليها المؤلف تتجلى في أن إنسانه الجديد، أقصد بطله ليڤين، ليس بقادر على حل المسألة التي تربكه؛ بل يمكن القول إنه قد حلها تقريباً، ولكن بقلبه وفي غير صالحه، مشتبهاً بأنه مذنب، إلّا أن شيئاً ما حازماً، ومباشراً، وواقعياً ينبثق من طبيعته كلها، ويمنعه حتى الآن من إصدار حكمه الأخير. أما ستيفا فبالعكس، لا فرق لديه بين كونه مذنباً أو غير مذنب، ولذا فهو يتخذ قراره بلا أي تردد، بل إن هذا يُعَدُّ في صالحه: «فبما أن كل شيء سخيف، ولا وجود لأي شخص مقدس إذاً من الممكن فعل أي شيء وبالنسبة إلي، ما زال لديّ وقت كاف، فيوم الحساب لن يأتي الآن». ومن المثير للاهتمام أيضاً أن أضعف جانب بالذات في المسألة هو الذي أربك «ليڤين» وأوقعه في مأزق، وهذا سلوك روسي محض، وقد كان المؤلف أميناً تماماً في رصده إياه: فالقضية كلها تكمن في أن جميع هذه المسائل والأفكار عندنا في روسيا لا تتعدى كونها نظرية فقط، وقد أتتنا من بنية مجتمعية غريبة عنا ومن نظام غريب. أتتنا من أوربا، حيث أصبح لها منذ مدة طويلة جانبها التاريخي والعملي. فما العمل؟ إن كلا نَبيلَيْنا أوربيان، وليس من السهل عليهما أن يتحررا من المرجعية الأوربية، وهنا ينبغي إعطاء أوربا ضريبتها. وها هو «ليڤين» ذو القلب الروسي يخلط بين حل المسألة الروسي المحض، وهو الحل الوحيد الممكن، والطرح الأوربي للمسألة. إنه يخلط بين الحل المسيحي، و«الحق» التاريخي. وابتغاء توضيح المسألة دعونا نتصور اللوحة الآتية:

يقف « ليڤين» ويفكر، بعد الحديث الليلي الذي جرى بينه وبين ستيفا في أثناء رحلة الصيد، ونفسه الشريفة ترغب بحرقة في حل المسألة التي أربكته، والتي كانت تربكه في السابق أيضاً. يقول في نفسه وقد توصل إلى شبه حل:

- نعم، نعم، إذا نظرنا إلى الأمر كما هو في الحقيقة، لا بد من أن نتساءل، كما قال فيسلوفسكي منذ برهة قصيرة، «لماذا نأكل ونشرب، ونصطاد، ونظل بلا عمل، بينما المسكين طوال الوقت يعمل ويعمل؟ نعم إن ستيفا على حق، يجب علي أن أوزع أرضي على الفقراء وأنصرف إلى العمل من أجلهم».

ويقول «فقير» يقف إلى جانب «ليفين»:

- نعم، يجب عليك بالفِعل، بل أنت ملزم بأن تعطينا، نحن الفقراء، أرضك، وتعمل من أجلنا.

إن «ليفين» هنا على حق تماماً، أما «الفقير» فليس على حق البتة، بالطبع، إذ يحل المسألة بالمعنى الأسمى، إذا جاز التعبير. ولكن هنا بالتحديد يكمن الفرق في طرح المسألة؛ إذ لا يجوز الخلط بين الحل الأخلاقي والحل التاريخي، وإلّا فإن التبلبل الذي لا مخرج منه، والذي ما زال مستمراً حتى الآن، سيظل قائماً، وخصوصاً في العقول النظرية الروسية، سواء في عقول الأوغاد من أمثال ستيفا، أو في عقول أنقياء السريرة من أمثال «ليفين». أما في أوربا فقد طرحت الحياةُ والممارسةُ العملية هذه المسألة على نحو واقعي ضمن مسارها الجاري، على الرغم من أن طريقة الطرح هذه هي طريقة عبثية من حيث مآل المسألة المثالي. فهناك لا يجري خلط - بقدر الإمكان على الأقل - بين النظريتين اللامتجانستين الأخلاقية والتاريخية. لنوضح هذه الفكرة أكثر ولو بكلمتين.

موضوع الساعة في أوربا

كان في أوربا نظام إقطاعي وكان فيها فرسان. ولكن في عام ألف وبضع سنين قويت البرجوازية، وخاضت في نهاية المطاف معارك في كل مكان، وهزمت الفرسان، وطردتهم وحلت محلهم. وتجسّدَ في الواقع المثل القائل: «Ôte-toi de là que je m'y mette» (انصرف، أنا سأحل محلك)*. ولكن البرجوازية التي حلت محل أسيادها السابقين،

(*) الترجمة عن الروسية. (م).

وأصبحت هي المالكة، تجاوزت الشعب، البروليتاريا، تماماً، ولم تعترف به أخاً لها، بل حوّلته إلى قوة عاملة، يكدح للحصول على كسرة خبز، وتعيش هي في رفاهية. إن صاحبنا ستيفا الروسي يقرر بينه وبين نفسه أنه ليس على حق، ولكن يريد عن وعي أن يبقى وغداً، لأنه هكذا يعيش في سعة ورغد، أما ستيفا الأجنبي فإنه لا يوافق ستيفا الروسي، ويعدّ نفسه محقاً تماماً، وعلى هذا فهو، بالطبع، أكثر منطقية على طريقته الخاصة، لأنه يرى أنه لا وجود هنا لأي حق على الإطلاق، والموجود الوحيد هو التاريخ، هو المسار التاريخي للأشياء. وقد حل محل الفارس لأنه انتصر عليه عنوة؛ وهو يدرك تماماً أن البروليتاري، الذي كان، في أثناء صراعه هو مع الفارس، ما يزال تافهاً وضعيفاً، من المحتمل جداً أن يقوى الآن، بل يزداد قوة يوماً بعد يوم. وهو يشعر مسبقاً بكل وضوح أن البروليتاري عندما سيشتد ساعده تماماً سيقتلعه من مكانه، كما اقتلع هو الفارس من قبل، وسيقول له العبارة ذاتها بالضبط: «انصرف أنا سأحل محلك» فأين الحق هنا، لا يوجد هنا سوى التاريخ. وهو مستعد للقبول بحل وسط، وللتراضي مع العدو على نحو ما؛ بل جرّب أن يفعل هذا، ولكن بما أنه يستشعر بوضوح، بل يعرف عن تجربة، أن العدو بعيد كل البعد عن الميل إلى الصلح، ولا يريد الاقتسام، بل يريد كل شيء؛ وأنه إذا تخلى عن شيء ما فإنه سيضعف نفسه ليس إلّا، لذا فقد قرر أن لا يتخلى عن أي شيء، وأن يستعد للمعركة. وربما كان وضعه ميئوساً منه، ولكنه، بحكم ما تقضي به الطبيعة البشرية من شد العزيمة قبل المعركة، لا ييْئس، بل بالعكس، يزيد من قوته أكثر فأكثر، استعداداً للمعركة، ويستعمل كل ما لديه من وسائل بكل ما لديه من قوة، ما دام يمتلك القوة، ويعمل على إضعاف العدو. وهذا ما يفعله حتى الآن.

هذه هي النقطة التي بلغتها القضية الآن في أوربا. في الحقيقة، كانت هذه القضية في السابق، ومن وقت ليس ببعيد، تطرح هناك طرحاً أخلاقياً. فقد كان هناك أتباع مذهب فورييه وكابيه* وكانت هناك مساءلات ومجادلات، ومناظرات حول أمور مختلفة جد دقيقة. ولكن زعماء البروليتاريا الآن نحّوا كل هذا إلى حين؛ فهم يريدون خوض عراك مباشر، وينظمون جيشاً لذلك، ويجمعونه في رابطات، وينشؤون صناديق مالية، وهم واثقون بالنصر: «وبعد النصر سينتظم كل شيء من تلقاء نفسه عملياً، علماً بأنه من الممكن جداً أن يتحقق هذا بعد جريان أنهار من الدماء». والبرجوازي يدرك أن زعماء البروليتاريا يغرون أتباعهم بالسلب والنهب، وفي هذه الحالة لا داعي أصلاً لطرح الجانب الأخلاقي. ولكن يمكن أن نصادف، حتى بين الزعماء الحاليين، قادة يدعون إلى الاعتراف بحق الفقراء الأخلاقي.

(*) إيتيان كابيه (1788-1856) شيوعي طوباوي فرنسي. (ن).

ويجيز كبار الزعماء وجود هؤلاء القادة بينهم من أجل التجمّل فقط، أي لتجميل القضية، وإلباسها ثوب العدالة السامية. ويوجد بين هؤلاء القادة «الأخلاقيين» عدد كبير من مدبري الدسائس، ولكن يوجد بينهم أيضاً كثير من المؤمنين المتحمسين للقضية. وهم يعلنون بصراحة أنهم لا يريدون شيئاً لأنفسهم، بل يعملون في سبيل الإنسانية، ويريدون التوصل إلى تنظيم للأشياء على نحو جديد في سبيل سعادة الإنسانية. ولكن هاهو البرجوازي ينتظرهم واقفاً على تربة صلبة إلى حدٍ كافٍ، ويقرّعهم بصراحة، لأنهم يريدون إجباره على أن يصبح أخاً للبروليتاري، وأن يتقاسم معه ممتلكاته بالهراوة والدم. وبصرف النظر عن أن هذا يشابه الحقيقة إلى حد بعيد، فإن القادة يردون عليهم بأنهم يرون أن البرجوازيين غير قادرين البتة على أن يصبحوا أخوة للشعب، ولذا فهم يجابهونهم بالقوة ليس غير، وينفون كلياً دخولهم في نطاق الأخوّة: «فالأُخوّة ستنشأ فيما بعد بين البروليتاريين، أما أنتم - أنتم المئة مليون - فمحكوم عليكم بالإبادة ليس غير، أنتم مقضي عليكم، في سبيل سعادة الإنسانية». ويقول قادة آخرون بصراحة إنهم ليسوا بحاجة إلى أخوّة من أي نوع كان، وإن المسيحية تخيلات فارغة، وإن مستقبل البشرية سيقوم على أسس علمية[126]. وكل هذا لن يستطيع، بالطبع، أن يزعزع معتقدات البرجوازي أو يقنعه. فهو يعارض ويدرك أن هذا المجتمع القائم على أسس علمية مجرد خيال، وأن هؤلاء يتصورون الإنسان على خلاف ما فطرته عليه الطبيعة، وأن من الصعب، بل من المستحيل، على الإنسان أن يتخلى عن حق الملكية غير المشروط، وعن الأسرة، وعن الحرية، وأنهم يطالبون إنسانهم القادم بتضحيات كثيرة جداً بالنسبة إليه كفرد، وأن بناء الإنسان على هذا النحو لن يكون ممكناً إلا عن طريق العنف الشديد، وبالتجسس عليه على نحو صارم ومراقبته مراقبة دائمة من قبل سلطة استبدادية إلى أقصى حد. وهم في النهاية، يطلبون بتحدٍ تبيان تلك القوة، التي بوسعها الربط بين أناس المستقبل في مجتمع بالرضا لا بالقهر. فيرد عليهم القادة بأن تلك القوة هي المنفعة والضرورة التي يعيها الإنسان نفسه. ولكي ينقذ الإنسان ذاته من الخراب والموت يوافق طوعاً على أن يقوم بكل التنازلات المطلوبة منه. فيعارضهم أولئك بأن المنفعة وغريزة حفظ الذات وحدهما ليس بوسعهما أبداً أن يخلقا وحدة تامة منسجمة، وبأن المنفعة، أياً كانت، لا تعوض الفرد عن حرية إرادته وحقوقه، وبأن هذه القوى والبواعث ضعيفة جداً، وتالياً فإن كل هذا سيبقى كالسابق، مجرد تخمينات. ولو أنهم كانوا يتصرفون بدافع الجانب الأخلاقي وحده، لما كانت البروليتاريا ستصغي إليهم، وإذا كانت الآن تسير خلفهم، وتنظم نفسها لخوض المعركة، فإنها لا تفعل ذلك إلّا لأنها مَغْوِيّة بالسلب والنهب الموعودين، ومُثارة بتصور الخراب والقتال القادمين. وعلى هذا

فإن جانب المسألة الأخلاقي يجب أن يُستبعد نهائياً، لأنه لا يصمد أمام أضأل نقد، والأمر الواجب هو، ببساطة التأهب لخوض المعركة.

هكذا تُطرح القضية في أوربا. وكلا الجانبين هناك بعيد كل البعد عن الصواب، وكلاهما سيتعرضان للهلاك بسبب خطاياهما*. وأكرر هنا أن أفدح ما في الأمر بالنسبة لنا نحن الروس، هو أنه حتى أمثال «ليڤين» ما زالوا عندنا يفكرون في كيفية حل هذه المسائل، في حين أن الحل الوحيد الممكن، وهو الحل الروسي بالذات الذي يصلح لا للروس وحدهم، بل للبشرية جمعاء، يكمن في الطرح الأخلاقي، أي الطرح المسيحي للمسألة. وهذا الطرح غير معقول في أوربا الآن، ولكن عاجلاً أو آجلاً، وبعد جريان أنهار من الدماء، وسقوط مئة مليون من الضحايا، ينبغي عليهم أن يعترفوا به لأنه المخرج الوحيد.

حل المسألة الروسي

إذا شعرتم بأنه يشق عليكم «أن تأكلوا وتشربوا ولا تعملوا شيئاً وتخرجوا إلى الصيد»** وإذا كنتم تشعرون فعلاً بهذا، وكنتم تشفقون فعلاً على «الفقراء» الكثيرين جداً، إذاً أعطوهم ممتلكاتكم، إذا أردتم، وضحّوا في سبيل المنفعة العامة، واذهبوا إلى العمل من أجل الجميع، «فيكونَ لكم كنز في السماوات، حيث لا يكنزون ولا يعتدون»*** اذهبوا وافعلوا كما فعل «ڤلاس» الذي:

قوةُ روحِه العظيمةُ كلُّها
تجندت في سبيل الرب

وإذا كنتم لا تريدون جمع تبرعات من أجل بناء معبد للرب، اهتموا بتنوير نفس هذا الفقير، أضيئوا عقله، علّموه؛ وحتى إذا ما وزع الجميع، مثلكم، ممتلكاتهم على «الفقراء»

(*) يرتقي هذا الاستنتاج إلى النص التوراتي الوارد في سفر العدد 16/ 26: «... حيدوا عن مساكن القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لكي لا تهلكوا بسبب جميع خطاياهم». (ن).

(**) مقبوس غير دقيق من رواية «آنا كارينينا» (الجزء السادس، الفصل الحادي عشر). (ن).

(***) قارن بما ورد في إنجيل مرقس 10/ 21-24. (ن).

فإن كلَّ ما سيوزع على الجميع، كلَّ ثروات أغنياء العالم لن تكون أكثر من قطرة في بحر. ولذا فإن من الضروري الاهتمام أكثر بالتنوير، وبالعلم، وبتقوية المحبة. عندئذ ستنمو الثروة فعلاً، وستكون ثروة حقيقية، لأن الثراء ليس في الملابس الذهبية، بل في بهجة الترابط العام بين الناس، والأمل الثابت لدى كل فرد بمساعدة الجميع له ولأولاده، في وقت الشدة. ولا تقل إنك لست سوى فرد واحد ضعيف، وإنك إذا وزعت وحدك ما تملكه، ثم ذهبت لتخدم، فلن تحقق بهذا شيئاً، ولن تصلح شيئاً. بالعكس، فحتى إذا لم يكن هناك سوى بضعة أشخاص مثلك، فإن القضية ستتقدم. وليس من الضروري، من حيث الجوهر- توزيع الممتلكات حتماً، لأن كل حتمية هنا، في قضية المحبة، تشبه تنفيذ واجب رسمي تنفيذاً شكلياً، حرفياً. وقناعة المرء بأنه نفذ حرفية النص لا يؤدي إلّا إلى الخيلاء والتباهي بالإنجاز الشكلي ومن ثم إلى التكاسل؛ في حين أن المطلوب هو أن تفعل ما يأمرك به قلبك: فإذا أمرك بأن توزع ما تملكه، وزِّعه، وإذا أمرك بأن تذهب لتعمل من أجل الجميع، اذهبْ، ولكن لا تفعل هذا كما يفعل بعض الحالمين، الذين يذهبون مباشرة لجر عربة نقل يدوية، قائلين لأنفسهم: «أنا لست من السادة الملّاكين، وأريد أن أعمل كالفلاح» فعربة النقل هذه هي أيضاً مظهر شكلي.

بالعكس، إن كنت تشعر أنك ستكون نافعاً للجميع إذا عملت في مضمار العلم، فاذهب إلى الجامعة، وابق لنفسك من المال ما يكفيك لهذا الغرض. فالإلزاميُّ ليس توزيع الثروة ولا ارتداء جلباب الفلّاح، لأن كل هذا ما هو إلا شكليات وتمسك بالحرفية الجامدة. الإلزامي والمهم هو تصميمك على أن تفعل كل شيء في سبيل المحبة التي تدفع إلى العمل، وهو قيامك بكل ما يمكنك فعله، وما تراه أنت بصدق ممكناً بالنسبة إليك. أما حرصك على «تبسيط ذاتك» فليس سوى تغيير في مظهرك الخارجي، ينطوي على عدم احترام للشعب، وعلى حط من شأنك شخصياً*. فأنت «أَعْقَدُ» من أن تصبح بسيطاً؛ ثم إن ثقافتك لا تسمح لك بأن تصبح «فلاحاً عامياً». ومن الأفضل أن ترفع الفلاح العامي إلى مستوى «تعقّدك»؛ ولكن على أن تكون صادقاً وسليم الطوية. وسيكون هذا أفضل من أي «تبسيط للذات». والأهم في هذا الصدد ألّا تخوّف نفسك، ولا تقل: «يد واحدة لا تصفّق» وما شابه ذلك... فمن يَصْبُ إلى الحقيقة بصدق يكتسب قوة هائلة. ولا تقلّد بعض المتشدقين الذين لا ينفكون يتكلمون كي يسمعهم الآخرون، ويرددون قائلين: «إنهم لا يدعون المرء يفعل أي شيء، يقيدون الأيدي، ويشيعون اليأس وخيبة الأمل في النفس!»، إلخ... إلخ... هؤلاء ليسوا سوى متشدقين، وأبطال قصائد غثة، وكسالى متصنعين. فمن يرغب في منفعة الناس يمكنه

(*) يلمح الكاتب هنا إلى تصوير تورغينف سلوك الثوريين- الشعبيين في رواية «الأرض البكر» (الفصول 27-32). (ن).

أن يقوم بالكثير الكثير من أعمال الخير حتى وهو مقيد اليدين. والإنسان الذي يريد حقاً أن يعمل بإخلاص، ليس عليه سوى أن يسلك هذه الطريق، وسيجد أمامه من الأعمال ما يجعله ينصرف عن الشكوى، وعن الادعاء بأنهم لا يدعونه يعمل، وسيجد حتماً ما يفعله ويفلح في فعله. وكل الأشخاص النشطين حقاً يعرفون هذا. إن مجرد دراسة روسيا سيستغرق عندنا وقتاً طويلاً، لأنه يندر جداً أن تجد بيننا من يعرف وطننا روسيا. والشكاوى من خيبة الأمل غبية للغاية: فالفرح بالبناء الذي يُشيَّد يجب أن يروي كل نفس ويطفئ كل غُلّة، حتى لو كان الواحد منكم لم يقدّم حتى الآن سوى حبة رمل لإشادة البناء. وليس من مكافأة سوى المحبة، إذا كنتم تستحقونها. هَبْ أنك لست في حاجة إلى مكافأة، ولكن مع ذلك أنت تعمل في سبيل المحبة، ولذا لا يجوز لك أن لا تطمع في الحصول عليها، وليس لأحد أن يقول لك إنه كان عليك أن تفعل كل هذا لا في سبيل المحبة، بل من أجل المنفعة الشخصية، وإلّا فإنهم كانوا سيجبرونك بالقوة على فعله. لا... نحن في روسيا يجب أن نغرس قناعات أخرى، ولا سيما فيما يخص مفاهيم الحرية والمساواة، والأخوّة. إنهم في العالم، بصورته الحالية، يرون أن الحرية هي الانفلات من كل قيد؛ في حين أن الحرية الحقيقية لا تتحقق إلّا في التغلب على نفسك وإرادتك، بحيث تستطيع في النهاية أن تصل إلى الحالة الأخلاقية التي تمكنك دائماً، وفي كل لحظة، من أن تكون سيد نفسك فعلاً. أما انفلات الرغبات فلا يقود إلّا إلى عبوديتك. ولذا فإن العالم الحالي كله تقريباً يرى الحرية في الكفاية المالية، وفي القوانين التي تضمن الكفاية المالية: «إذا وُجد المال أستطيع أن أفعل كل ما أريد؛ وجود المال يعني أنني لن أتعرض للهلاك، ولن أذهب لأطلب المساعدة؛ والاستغناء عن طلب المساعدة من أحد هو الحرية الأسمى».

غير أن هذا في الحقيقة ليس الحرية، بل العبودية، إنه العبودية للمال. أما الحرية الأسمى فهي، بالعكس، ليست في جمع المال والتزود الذاتي به، بل في «توزيع ما تملكه على الجميع، والعكوف على خدمة الجميع». وإذا كان الإنسان قادراً على ذلك، قادراً على أن يتغلب على نفسه إلى هذه الدرجة، أفيكون بعد هذا غير حر؟ إن هذا هو أسمى تجليات الإرادة. ثم لنتساءل: ما هي المساواة في عالمنا المثقف الحالي؟ إنها مراقبة بعضنا بعضاً والغيرة تملأ القلوب، إنها الغطرسة والحسد: «إنه ذكي، إنه شكسبير وهو يختال مغتراً بموهبته؛ فلنحط من قيمته، ولندمره». في حين أن المساواة الحقيقية تقول: «أي شأن لي في أنك تفوقني موهبةً وذكاء وجمالاً؟»، بالعكس، إن هذا يسرني لأنني أحبك. ولكن مع أنني أقل شأناً منك، فإنني أحترم ذاتي كإنسان، وأنت تعرف هذا، وأنت نفسك تحترمني، ويسعدني احترامك لي. وإذا أنت بفضل القدرات التي تحوزها، تنفعني وتنفع الجميع أكثر بمئة مرة مما أحقق أنا لك، فإنني

أباركك، وأُعجب بك، وأشكرك، ولا أعد البتة إعجابي بك أمراً مخجلاً لي. بالعكس، فأنا سعيد بشكري لك، وإذا كنت أعمل من أجلك ومن أجل الجميع بحسب قدراتي المتواضعة، فإنني لا أفعل هذا البتة لكي أتخالص معك ونصبح متكافئين، بل لأنني أحبكم جميعاً».

إذا تكلم الناس كلهم هكذا فإنهم، بالطبع سيصبحون إخوة، ولن يكون سبب هذا هو المنفعة الاقتصادية فحسب، بل سيكون السبب هو تمام الحياة البهيجة، هو تمام الحب.

سيقولون إن هذا مجرد خيال، وإن هذا «الحل الروسي للمسألة» هو «الملكوت السماوي»، وهو غير ممكن سوى في «ملكوت السماوات». أجل، إن أمثال ستيفا سيستشيطون غضباً إذا أقبل ملكوت السماوات. ولكن ينبغي أن نضع في الحسبان أن هذا الخيال الذي يمثل «الحل الروسي للمسألة» أقل خيالية بما لا يقاس، وأكثر احتمالاً بما لا يقاس، من الحل الأوربي. وأمثال هؤلاء الناس، أقصد أمثال «ڤلاس»، قد شاهدناهم ونشاهدهم في أحيان كثيرة إلى حد ما. أما هناك فلم نشاهد بعد «إنسان المستقبل» في أي مكان؛ وهو نفسه وَعَدَ ألّا يأتي إلّا عبر أنهار من الدماء. ستقولون إن أفراداً معدودين أو عشرات الأفراد لن يحققوا شيئاً، والمطلوب هو التوصل إلى أنظمة ومبادئ عامة معروفة. ولكن حتى إذا كان هناك مثل هذه الأنظمة والمبادئ، التي يمكن أن يُبنى المجتمع وفقها بلا أي خطأ، وحتى إذا كان بالمستطاع التوصل إليها قبل الممارسة أي apriori [على نحو قَبْليّ]، بالاستناد إلى أحلام القلب والأرقام «العلمية» المأخوذة من البنية الاجتماعية السابقة، فلن يكون لأية قواعد أن تصمد وتتحقق إلّا بوجود أناس مستعدين ومُعدّين خصيصاً لتحقيقها، وإلّا فإنها، بالعكس، ستصبح عبئاً ثقيل الوطأة. وأنا أثق ثقةً لا حدود لها بأناسنا القادمين، والذين بدؤوا بالظهور، أولئك الذين تحدثت عنهم آنفاً، وقلت إنهم لم ينسجموا بعد في كلٍ متآلف، ولا يزالون منقسمين بشدة إلى شراذم ومعسكرات من حيث قناعاتهم، ولكن، بالمقابل، كلهم يبحثون عن الحقيقة قبل أي شيء آخر، وإذا هم عرفوا أين هي، فإنهم سيضحون بكل شيء، وحتى بأرواحهم، في سبيل الوصول إليها. صدقوني: إذا هم سلكوا السبيل الصحيح، واهتدوا إليه في نهاية المطاف، فإنهم سيجتذبون الجميع وراءهم، لا بالعنف، بل بملء الحرية. هذا ما يمكن أن يفعله الأفراد المعدودون في بداية الأمر. وهذا هو المحراث الذي يمكن استصلاح «أرضنا البكر» به*. قبل أن تعظوا الناس وتعلموهم: «كيف ينبغي أن يكونوا»، أروهم المَثَل متجسداً فيكم: نفذوا أنتم أنفسكم ما تأمرونهم به تروهم يسيرون جميعاً خلفكم. ما هو الطوباوي في هذا، وما هو المستحيل فيه؟ إنني لا أفهم! الحقيقة هي أننا فاسدون جداً ومتخاذلون جداً، ولذا

(*) تعليقاً على سبل الإصلاح التي يصورها تورغينف في روايته «الأرض البكر». (م).

فإننا لا نصدق، ونضحك. ولكن القضية لم تعد تقريباً فينا، بل في الأجيال القادمة. الشعب قلبه طاهر، إلّا أنه بحاجة إلى الثقافة، ولكن ثمة أناساً من بيئة طاهرة يبرزون من وسطنا أيضاً، وهذا أهم ما في الأمر! وهذا ما يجب أن نؤمن به قبل كل شيء، وما يجب أن نكون قادرين على إبصاره. والنصيحة الوحيدة التي يجب توجيهها لذوي القلوب الطاهرة هي أن يتحلوا بضبط النفس والسيطرة عليها قبل أي خطوة. طبقوا ما تأمرون به على أنفسكم قبل أن تجبروا الآخرين على تطبيقه - في هذا بالذات يكمن سر الخطوة الأولى.

شباط (فبراير)

1 - المسألة اليهودية

لا، لا تظنوا أنني أُقدم فعلاً على إثارة «المسألة اليهودية»، فأنا كتبت هذا العنوان من قبيل المزاح، إذ ليس بمقدوري إثارة مسألة بهذه الضخامة، كمسألة وضع اليهود في روسيا، ووضع روسيا، التي تضم في عداد أبنائها ثلاثة ملايين يهودي. فأبعاد هذه المسألة تفوق استطاعتي. ولكن مع ذلك لديّ رأي في هذا الأمر، وتبيّن الآن أن بعض اليهود صاروا فجأة يهتمون برأيي هذا. وقد أصبحت أتلقّى، منذ بعض الوقت، رسائل من هؤلاء، يلومونني فيها بجدية ومرارة على «مهاجمتي» لهم، وعلى أنني «أكره الجيد»* وأكرهه لا بسبب عيوبه، ولا «بصفته مستغِلاً»، بل بالذات لأنه يمثل عشيرة** معينة، أي من قبيل القول الشائع «يهوذا باع المسيح». يكتب هذا يهود «متعلمون»، أي من أولئك الذين (كما لاحظت، ولكنني أتحفظ سلفاً ولا أعمم ملاحظتي هذه) يحاولون دائماً أن يُشعرونا بأنهم كفّوا منذ وقت طويل، بحكم ثقافتهم، عن مشاطرة أمتهم «خرافاتها»، وعن تأدية الطقوس الدينيةَ، كما يفعل سائر اليهود السطحيين، ويَعُدّون هذا أدنى من مستوى ثقافتهم، بل إنهم يزعمون أنهم لا يؤمنون بالرب. وأشير بالمناسبة وبين قوسين، إلى أن جميع هؤلاء السادة المنتمين إلى «علية اليهود»، والذين يدافعون هذا الدفاع عن أمتهم يوغلون في الإثم بنسيانهم ربهم يهوه، المعروف منذ أربعين قرناً، وارتدادهم عنه. وليس هذا إثماً من وجهة نظر الشعور القومي فحسب، بل هو إثم أيضاً لأسباب أخرى ذات أبعاد أكبر بكثير. إنه لأمر غريب حقاً: فاليهودي من غير رب شيء غير معقول؛ وليس بالإمكان تصور اليهودي من غير رب. ولكن هذا الموضوع من الموضوعات الواسعة، ولذا سندعه الآن جانباً. إن أكثر ما يدهشني هو الآتي: كيف؟، ومن أين وقعت أنا في عداد الكارهين لليهود كشعب، وكأمة؟، إن هؤلاء السادة أنفسهم، يسمحون لي جزئياً بأن

(*) يستعمل دوستويفسكي هنا لقب «جيد» (على وزن لفظ «عيد») الذي يطلقه الروس على اليهودي بصفته مسبّة للدلالة على الحقارة. (م).

(**) يستعمل دوستويفسكي هنا وفيما بعد كلمة «عشيرة» أو «قبيلة» للدلالة على «الإثنية العبرية». (م).

أدين اليهودي بصفته مستغِلاً، وبسبب بعض العيوب، على أن يظل هذا مجرد كلام: أما في الواقع، فإن من الصعب أن تجد من هو أكثر تحسساً وتدقيقاً، وأسرع إلى النرفزة والشعور بالإهانة من اليهودي المتعلم بصفته يهودياً. وأتساءل مرة أخرى: متى وكيف صرحت بكرهي لليهود كشعب؟ وبما أنني لم أعهد هذا الكره في قلبي قط، ويعرف هذا اليهود الذين يعرفونني، وكانت لهم صلات معي، فإنني منذ البداية، وقبل أن أقول أية كلمة، أنفي هذه التهمة عن نفسي نفياً تاماً ونهائياً، لكي لا آتي بعد ذلك على ذكر هذا الأمر على وجه الخصوص. أيتهمونني يا ترى بـ «الكراهية» لأنني أسمي اليهودي أحياناً «جيداً»؟ ولكن أولاً: أنا لم أكن أظن أن هذا أمر مهين إلى هذا الحد، وثانياً: أنا لم أستعمل كلمة «جيد» حسبما أذكر إلّا للتعبير عن فكرة معروفة: «جيد، الجيدَويّة، المملكة الجيديّة»* وما إلى ذلك. وكان هذا يعبر عن مفهوم معروف، وعن اتجاه العصر ومواصفاته. ويمكن الجدل حول هذه الفكرة، وعدم الموافقة عليها، ولكن لا يجوز أن تسبب هذه الكلمة الشعور بالإهانة. سأقتبس نبذة من رسالة وردتني من يهودي مثقف جداً، وهي رسالة طويلة ورائعة من نواح عديدة، وقد أثارت لدي الكثير من الاهتمام. وهي تتضمن أحد أكثر الاتهامات التي تُوّجه إلي طابعيةً[1] بخصوص كرهي لليهود كشعب. ومن البديهي أن يبقى اسم السيد N. N.، الذي كتب إليّ هذه الرسالة، في طي الكتمان الصارم للغاية.

«... ولكنني أنوي أن أتناول موضوعاً لا أستطيع البتة تفسيره لنفسي، وهو كرهك للـ «جيد»، الذي يتجلى في كل إصدار من «يومياتك» تقريباً.

وأود أن أعرف لماذا تقف ضد «الجيد» لا ضد المستغِل عموماً، وأنا لست أقلَّ منك مقتاً لخرافات أمتي - فما عانيته بسببها ليس بالقليل -، ولكنني لن أوافق أبداً على أنه تعيش في دم هذه الأمة نزعةٌ إلى الاستغلال بلا ضمير.

أيُعقل أن تكون أنت غير قادر على الارتقاء إلى القانون الأساس الذي يحكم أية حياة اجتماعية، حيث جميع مواطني الدولة الواحدة بلا استثناء، يجب أن يتمتعوا بجميع الحقوق والمنافع المرتبطة بوجود هذه الدولة، إذا كانوا يؤدون جميع الالتزامات المترتبة عليهم والضرورية من أجل وجود الدولة، كما يجب وجود معيار واحد عام للجميع، من أجل

(*) «الجيدوية» نسبة إلى «جيد»: كلمة مصوغة صرفياً بصيغة يقصد بها في اللغة الروسية الذم والتحقير، وذلك للتعبيرعن أسوأ الصفات التي يشتهر بها اليهود بصفتهم عَبَدة للمال، لا يتورعون عن ارتكاب أي فعل ذميم في سبيل الكسب والسيطرة؛ أما تعبير «المملكة الجيدية» فكان يستعمل للتعبير عن روح العصر الذي تفشى فيه الفساد في روسيا. وهذه الكلمات كانت شائعة آنذاك في الأوساط الشعبية الروسية. (م).

معاقبة الذين يخالفون القانون، ومعاقبة أفراد المجتمع الضارين؟... لماذا يجب أن يكون جميع اليهود منتقَصي الحقوق، ولماذا يجب أن توضع من أجلهم قوانين عقابية خاصة. وبِمَ يفضُل الاستغلالُ الذي يمارسه الأجانبُ (علماً بأن اليهود، على كل حال، من ذوي التابعية الروسية) الألمانُ، والإنكليز، واليونان، الموجودون بكثرة في روسيا، الاستغلالَ الجيدي؟ وبم يفضلُ مستثمرو الريف الأغنياء (الكولاك)، ومستغلو عمل الآخرين، وبائعو الخمور الوكلاء، ومصاصو الدماء الروس الأرثوذكس، الذين تكاثروا جداً في روسيا بأسرها، أمثالهم من الجيديّن، الذين يعملون، على كل حال، ضمن نطاق محدود؟ بم يفضل فلانٌ فلاناً...؟».

(هنا يقارن كاتب الرسالة الموقر بعض المستثمرين الريفيين الروس المعروفين بنظرائهم من اليهود، بمعنى أن أولئك ليسوا أقل استغلالاً من هؤلاء. ولكن علامَ يبرهن هذا؟ فنحن لا نفاخر بمستثمرينا الريفيين، ولا نقدمهم بصفتهم قدوة، بل بالعكس، نحن نوافق كل الموافقة على أن هؤلاء وأولئك سيئون).

ويمكنني أن أوجه إليك الآلاف من أمثال هذه الأسئلة:

إنك عندما تتحدث عن «الجيد» تشمل بهذا المفهوم مجمل الملايين الثلاثة من السكان اليهود في روسيا، الذين يعانون الفقر المدقع، ويناضل مليونان وتسعمئة ألف منهم على الأقل، نضالاً مستميتاً في سبيل عيشة بائسة، وهم أطهر أخلاقاً لا من الأقوام الأخرى فحسب، بل أيضاً من الشعب الروسي الذي أنت تؤلهه. كما أنك تشمل بهذه التسمية ذاك العدد المرموق من اليهود الذين حصلوا على تعليمٍ عالٍ، والمتميزين في جميع ميادين حياة الدولة، ولنأخذ ولو...

(هنا يذكر مرة أخرى أسماء بعض الأشخاص، التي أرى أنه لا يحق لي نشرها، باستثناء اسم غولدشتاين، وذلك لأن بعض هؤلاء ربما لا يروق لهم أن يقرؤوا أنهم يتحدرون من أصول يهودية).

«...وغولدشتاين (الذي مات ميتة الأبطال في صربيا في سبيل الفكرة السلافية)، هؤلاء الذين يعملون من أجل مصلحة المجتمع والبشرية؟ إن كرهك للـ«جيد» يمتد حتى إلى دزرائيلي[125]... الذي لا يعرف، على الأرجح، أن أسلافه كانوا في زمن ما من اليهود الإسبان، والذي لا يقود بالطبع، السياسة الإنكليزية المحافظة من وجهة نظر «الجيد».

لا... أنت، للأسف، لا تعرف الشعب اليهودي، ولا حياته، ولا روحه، ولا تعرف في النهاية، تاريخه الذي يمتد أربعين قرناً. ومما يدعو للأسف، لأنك على كل حال إنسان مخلص وشريف جداً، أنت تلحق ضرراً، من دون وعي منك، بجمهور غفير من الشعب الفقير؛ أما «الجيديّون» الأقوياء، فإنهم إذ يستقبلون في صالوناتهم أقوياء هذا العالم، لا يخافون، بالطبع،

الصحافة، ولا حتى غضب المستغَلّين العاجز. ولكن يكفي الكلام حول هذا الموضوع. فمن المستبعد أن أقنعك بوجهة نظري، وكم أتمنى أن تقنعني أنت».

هذه هي النبذة المقتطفة. وقبل أن أرد بشيء ما (إذ إنني لا أريد أن أحمل عبء هذا الاتهام الثقيل الوطأة) ألفت الانتباه إلى عنف الهجوم وفرط الحساسية. فطوال العام الذي أصدرت فيه «اليوميات» لم يكن لدي على الإطلاق مقالة ضد «الجيد» ذات أبعاد يمكن أن تستدعي هجوماً بمثل هذه القوة. وثانياً لا يمكن ألّا نلاحظ أن المرسل الموقر، إذ تطرق في أسطره القليلة هذه إلى ذكر الشعب الروسي لم يطق الاصطبار، ولم يتمالك نفسه، واتخذ من الشعب الروسي المسكين موقفاً مفرطاً بعض الشيء في الاستعلاء. في الحقيقة لم يبق في روسيا أي مكان لم يُبْصَقْ عليه (بحسب تعبير شيدرين) ومن قِبل الروس أنفسهم، «فلا عَتَبَ» إذاً على اليهودي إذا فعل هذا. وعلى كلٍّ فإن هذه الضراوة تشهد بجلاء على الكيفية التي ينظر بها اليهود أنفسهم إلى الروس. لقد كتب هذا شخص متعلم وموهوب فعلاً (ولكنني لا أعتقد أنه منزه عن الإيمان بالخرافات)، فما الذي نتوقعه إذاً من اليهود غير المتعلمين، وهم كثر جداً، وأية مشاعر يضمرون إزاء الروس؟ وأنا لا أقول هذا من قبيل الاتهام: فكل هذا طبيعي؛ وكل ما أريده هو الإشارة إلى أن دوافع الانفصال بيننا وبين اليهود ربما لا يتحمل مسؤوليتها الشعب الروسي وحده بل إن هذه الدوافع قد تراكمت، بالطبع، من قبل الجانبين، وليس من المعروف بعد أي الجانبين قد ساهم أكثر في هذا. بعد هذه الإشارة سأقول بضع كلمات في تبرئة نفسي، ولأبيّن، بوجه عام، كيف أنظر إلى هذه القضية. ومع أن هذه المسألة، كما قلت آنفاً، ليست في حدود مقدرتي، إلّا أنني أستطيع، على أية حال، أن أعبر عن رأيي ما فيها.

PRO и COTRA* - 2

هَبْ أن من الصعب جداً معرفة تاريخ الأربعين قرناً لمثل هذا الشعب الذي هو الشعب اليهودي، ولكنني للوهلة لأولى، أعرف شيئاً واحداً هو أنه لا يوجد، على الأرجح، في العالم كله شعب آخر جأر بكل هذه الشكوى من قَدَرِه، واشتكى في كل دقيقة، وعند كل خطوة،

(*) مع وضد (باللاتينية) ما عدا حرف العطف «و» الذي كتب بالروسية И. (م).

ومع كل كلمة من إذلاله، ومعاناته، وآلامه الاستشهادية؛ حتى إنك لتظن أنهم ليسوا هم الذين يسودون في أوربا، وليسوا هم الذين يديرون البورصات هناك، وهذا وحده يكفي كي يجعلهم يتحكمون في سياسة الدول، وشؤونها الداخلية، وأخلاقياتها. وليكن غولدشتاين النبيل قد قضى في سبيل الفكرة السلافية، ولكن مع ذلك لو لم تكن الفكرة اليهودية قوية إلى هذا الحد في العالم، لربما كانت المسألة «السلافية» نفسها (التي ثارت في العام الماضي) قد حُلّت منذ مدة طويلة في صالح السلاف، لا في صالح الترك. أنا مستعد لأن أصدق أن اللورد بيكونسفيلد* نفسه ربما قد نسي أنه تحدر في زمن ما من جيديّين إسبان (بيد أنه على الأرجح لم ينس) ولكن لا يجوز الشك، حسب رأيي، في أنه «أدار السياسة الإنكليزية المحافظة» خلال العام الأخير من وجهة نظر «الجيد» جزئياً. و«جزئياً» هذه لا يجوز عدم افتراضها.

فليكن كل هذا من جانبي كلاماً بلا حجة، مجرد أسلوب يتسم بالخفة، وكلمات لا وزن لها. لأسلّم بهذا. ولكن مع ذلك لا أستطيع أن أصدق بحق صرخات اليهود عن أنهم مظلومون، ومعذبون، ومذلون إلى هذا الحد. فأنا أرى أن المشاق التي يتحملها الفلاح الروسي، بل الإنسان الروسي البسيط عموماً، تكاد تفوق ما يتحمله اليهودي. ويكتب مراسلي في رسالة أخرى:

«من الضروري منحهم (يقصد اليهود) قبل كل شيء جميع الحقوق المدنية (تصور: إنهم محرومون حتى الآن من الحق الأساسي الأكثر أولوية، وهو الاختيار الحر لمكان الإقامة، وهذا أمر ينجم عنه الكثير من المضايقات الرهيبة لجمهور اليهود ككل)، وذلك أسوة بسائر الشعوب الغريبة في روسيا، وبعد ذلك فقط يمكن مطالبتهم بتنفيذ واجباتهم تجاه الدولة وتجاه السكان الأصليين».

ولكن تصور أنت أيضاً أيها السيد المراسل، وقد كتبت لي أنت نفسك في صفحة أخرى من الرسالة ذاتها: «أن حبك لجمهور الشعب الروسي الكادح وإشفاقك عليه يفوقان كثيراً حبك لنظيره اليهودي وإشفاقك عليه» (وهذا قول مفرط في شدة وطأته على اليهودي)، تصور أنه عندما كان اليهودي «يعاني من قضية الاختيار الحر لمكان الإقامة»، كان ثلاثة وعشرون مليوناً من «الجمهور الكادح الروسي» يعانون من كونهم أقناناً، وهذا أشد وطأة، بالطبع، من «اختيار مكان الإقامة». فهل كان اليهود يشفقون عليهم آنذاك؟ لا أظن. وسيجيبونك عن هذا باستفاضة في أطراف روسيا الغربية وفي الجنوب. لا، إنهم كانوا آنذاك يصرخون مطالبين بالحقوق، التي كان الشعب الروسي نفسه لا يملكها؛ كانوا يصرخون ويشتكون من

(*) هو بنيامين درزائيلي (انظر الهامش 125). (م).

أنهم مظلومون ومعذبون، ويدّعون أنهم عندما سيُمنحون حقوقاً أكثر «عندئذ طالِبونا بتنفيذ واجباتنا تجاه الدولة والسكان الأصليين». ولكن ها قد جاء المحرّر، وحرر الشعب الأصلي*، فما الذي جرى، ومن كان أول من انقض عليه كالمنقضّ على فريسة، ومن الذي استغل عيوبه أكثر من أي شيء آخر، ومن الذي طوّقه من جميع الجوانب بمهنته الذهبية الأزلية، ومن الذي سارع على الفور إلى الحلول، حيثما استطاع، وحيث لم يفت بعدُ الأوان، محلَّ ملّاك الأراضي الذين ألغيت سلطتهم، مع فارق أن هؤلاء، وإن كانوا يستغلون الناس بشدة، إلّا أنهم كانوا يحرصون على عدم إيصال فلاحيهم إلى حد الإملاق، وذلك على الأرجح، من أجل أنفسهم، كيلا يستنزفوا القوة العاملة، أما اليهودي فإنه لا يكترث لاستنزاف القوة الروسية، فهو يحصل على بغيته ويغادر. أعرف أن اليهود عندما سيقرؤون هذا سيصرخون على الفور قائلين: إن هذا غير صحيح، إنه افتراء، وإنني أكذب، وإنني لا أصدّق كل هذه السخافات إلّا لأنني «لا أعرف التاريخ الذي يمتد أربعين قرناً «لهؤلاء الملائكة الأطهار» الذين هم أطهر أخلاقاً بما لا يقاس «ليس من الأقوام الأخرى فحسب بل» أيضاً من الشعب الروسي الذي أؤلهه». (بحسب قول المراسل؛ انظر ما ورد آنفاً). فليكن، فليكن أنهم أطهر أخلاقاً من جميع شعوب العالم، ومن الشعب الروسي طبعاً، ولكنني قد قرأت للتو في عدد آذار (مارس) من مجلة «بشير أوربا» نبأ يفيد: «أن اليهود في أميركا، في الولايات الجنوبية، قد انقضّوا بجمهورهم كله على جمهور الزنوج المحررين المتعدّد الملايين، وتملكوهم على طريقتهم الخاصة»، «بمهنتهم الذهبية» الأزلية المعروفة، مستغلين عدم خبرة هذه العشيرة المستغلَّة ونواقصها. تصوروا أنني عندما قرأت هذا تذكرت على الفور أنه منذ خمس سنوات خطر في بالي هذا الأمر بالذات، وتحديداً أن الزنوج، مع أنهم تحرروا الآن من ربقة مسترقّيهم، ولكنهم لن ينجوا، لأن اليهود الكثيرين جداً في العالم سينقضّون في الحال على هذه الفريسة الضعيفة الطازجة. فكرتُ في هذا آنذاك، وأؤكد لكم أن ثمة سؤالاً قد خطر في بالي بعد ذلك عدة مرات خلال هذه المدة: «ما الأمر يا تُرى، لماذا لا نسمع أي شيء عن اليهود، ولا تكتب الصحف عن هذا شيئاً، إن هؤلاء الزنوج كنز بالنسبة لليهود، فهل من المعقول أن يفرّطوا فيه؟» وها قد حصل أخيراً ما توقعته، وكتبوا عنه في الصحف، وقرأت ما كتبوه. وكنت قد قرأت منذ عشرة أيام في العدد (371) من جريدة «الأزمنة الحديثة» خبراً من كوفنو** ذا دلالة طابعية جداً مفاده: «أن اليهود هناك قد انقضوا بضراوة على السكان الليتوانيين الأصليين،

(*) المقصود إلغاء حق القنانة في روسيا في عام 1861. (م).

(**) الاسم الرسمي لمدينة كاوناس في ليتوانيا قبل عام 1917. أصبحت عاصمة البلاد من عام 1920 إلى عام 1940، ثم انتقلت العاصمة بعد ذلك إلى مدينة فيلنوس. (م).

بحيث أنهم كادوا يقضون عليهم جميعاً بالفودكا، ولم ينقذ السكيرين المساكين سوى الكهنة الكاثوليك الذين هددوهم بعذاب جهنم، وأقاموا في أوساطهم جمعيات الامتناع عن تعاطي المسكرات». ومع أن مراسل الجريدة المتنور يبدي في الحقيقة، خجله الشديد عن أهل بلده الذين ما زالوا حتى الآن يؤمنون بالكهنة وبعذاب جهنم، إلا أنه يذكر أن رجال الاقتصاد المحليين المتنورين قد هبّوا في أثر الكهنة، وشرعوا يقيمون بنوكاً ريفية تهدف إلى إنقاذ الشعب من المرابي اليهودي بالذات، ويقيمون أسواقاً ريفية لتمكين «الجمهور الكادح الفقير» من الحصول على ما يحتاج إليه من أشياء ضرورية بأسعارها الحقيقية، وليس بالأسعار التي يحددها اليهودي. نعم، لقد قرأت هذا كله، وأعرف أنهم سيصيحون في وجهي على الفور بأن هذا كله لا يبرهن على أي شيء، وأن سببه هو أن اليهود أنفسهم مضطهدون وفقراء، وأن هذا كله ليس سوى «صراع من أجل البقاء»*، وأن الغبي وحده هو الذي ليس بإمكانه أن يدرك ذلك، وأنه لو لم يكن اليهود أنفسهم فقراء، ولو كانوا بالعكس، أغنياء لأظهروا على الفور وجههم الإنساني للغاية على نحو كان سيدهش العالم كله. ولكن من المعروف، طبعاً، أن جميع أولئك الزنوج والليتوانيين أكثر فقراً من اليهود الذين يعصرونهم عصراً، ومع ذلك فإنهم (اقرؤوا الخبر) يأنفون من تلك التجارة التي يتهافت عليها اليهود؛ وثانياً ليس من الصعب على المرء أن يكون إنسانياً وأخلاقياً عندما تكون عيشته هو رغيدة وبهيجة، ولكن ما إن يصل الأمر إلى «الصراع من أجل البقاء» حتى يصيح بك: إياك أن تقترب مني. واعتقد أن هذه السمة ليست ملائكية تماماً. وثالثاً: أنا، طبعاً، لا أقدم هذين الخبرين اللذين نشرتهما صحيفتا «بشير أوربا» و«الأزمنة الحديثة» على أنهما يتضمنان حقائق أساسية وقاطعة. وإذا ما بدأتَ بكتابة تاريخ هذه العشيرة العالمية يمكنك أن تجد على الفور مئة ألف حقيقة كهذه أو أكبر منها، لذا فإن زيادة حقيقة أو حقيقتين أخريين لن تضيفا إلى الأمر شيئاً ذا بال، ولكن ما الطريف هنا؟ الطريف أنه إذا ما احتجت - في أثناء الجدال حول هذا الموضوع، أو في أثناء تفكيرك ذاتياً فيه - إلى معلومات عن اليهودي وأفعاله، فلا تذهب إلى المكتبات العامة، ولا تنقب في الكتب القديمة، أو في دفاتر ملاحظاتك القديمة، ولا تتعب نفسك، ولا تفتش، ولا تستنفر قواك، بل ما عليك سوى أن تمد يدك، من دون أن تغادر مكانك، ومن دون حتى أن تنهض عن كرسيك، إلى أقرب صحيفة ملقاة بجانبك، وتبحث في محتويات الصفحة الثانية أو الثالثة، وحتماً ستجد هناك شيئاً ما عن اليهود، وسيكون هذا الشيء حتماً هو الذي يهمك، وسيكون حتما الشيء الأكثر طابعية[1]، وسيكون حتماً هو الشيء نفسه الذي يتكرر دائماً، أي

(*) مصطلح انتشر على نطاق واسع بعد صدور كتاب داروين «أصل الأنواع...» (عام 1859)، وكان دوستويفسكي يرفض هذه الفرضية ويستنكر تطبيقها على الصعيد الاجتماعي بصفته مسيحياً. (ن).

تلك المآثر المعهودة نفسها! ألا توافقونني على أن هذا الأمر يعني شيئاً ما، ويدل على شيء ما، ويكشف لكم عن شيء ما، حتى وإن كنتم على جهل مطبق بتاريخ هذه العشيرة الذي يمتد أربعين قرناً؟ سيردون عليّ، طبعاً بأن الجميع مسكونون بالكراهية، ولذا فهم جميعاً يكذبون. من المحتمل جداً، بالطبع، أن يكون الجميع بلا استثناء يكذبون، ولكن في هذه الحالة يبرز على الفور سؤال آخر: إذا كان الجميع بلا استثناء يكذبون، ومسكونين بمثل هذه الكراهية، فلا بد من أن تكون هذه الكراهية قد أتت من مصدر ما، ولا بد من أن تعني هذه الكراهية العامة شيئاً ما؛ وكما هتف بيلينسكي[10] ذات مرة: «إن كلمة الجميع هذه لا بد من أن تعني شيئاً ما!».

«الاختيار الحر لمكان الإقامة!» وهل الإنسان الروسي «الأصلي» حر تماماً في اختيار مكان إقامته؟ أوليست مستمرة حتى الآن تلك التضييقات البغيضة المتبقية من عهد القنانة، والتي تحد من الحرية التامة للإنسان الروسي البسيط أيضاً في اختيار مكان الإقامة، وهي تضييقات استرعت انتباه الحكومة إليها منذ مدة طويلة؟ أما فيما يخص اليهود، فمن الواضح للجميع أن حقوقهم في اختيار مكان الإقامة قد اتسع نطاقها جداً جداً في السنوات العشرين الأخيرة. وهم، على الأقل، أخذوا يظهرون في أماكن في روسيا لم يكن يراهم فيها أحد من قبل. ولكن اليهود ما زالوا يَشْكون من الكراهية والتضييقات. ولنفترض أنني لستُ متضلعاً من معرفة ظروف المعيشة اليهودية، ولكن ثمة أمراً واحداً أعرفه معرفة أكيدة، ومستعد لأن أجادل الجميع بشأنه، وهو أن العامة عندنا لا تضمر أية كراهية دينية مسبقة وقَبْليّة غبية لليهود من قبيل «يهوذا باع المسيح». وإذا سمعتَ هذا القول من أطفال أو سكارى فإن شعبنا كله، وأكرر هذا، ينظر إلى اليهودي بدون أية كراهية مسبقة. لقد شاهدت هذا طوال خمسين سنة، بل حدث لي أن عشت مع الشعب، في وسط العامة، في مهاجع واحدة، ونمت على المضاجع الخشبية نفسها*، وكان هناك بضعة أشخاص يهود، ولم يكن أحد يحتقرهم، أو يستثنيهم، أو يطردهم. وعندما كانوا يُصلّون (واليهود يصرخون في أثناء الصلاة ويرتدون أثواباً خاصة) لم يكن أحد يجد أن هذا غريب، ولم يكن أحد يضايقهم أو يضحك منهم، كما كان يُنتظر بالذات من شعب فظ، بحسب مفاهيمهم، كالشعب الروسي، بل بالعكس، كانوا يقولون وهو ينظرون إليهم «دينهم هكذا، هكذا يُصلّون»، ويمرون من جانبهم بهدوء، بل باستحسان تقريباً. وفي المقابل كان هؤلاء اليهود يتحاشون الروس في أمور كثيرة، ويعرضون عن الأكل معهم، وينظرون إليهم باستعلاء تقريباً (وهذا أين؟ في السجن!) وكانوا، على العموم يبدون نفورهم واشمئزازهم من الروس، من الشعب «الأصلي». ونشهد الوضع نفسه في ثكنات الجنود، وفي كل مكان من روسيا بأسرها، تفقدوا واسألوا: هل يهينون اليهودي في الثكنات بصفته يهودياً،

(*) يشير دوستويفسكي هنا إلى مدة وجوده في سجن الأشغال الشاقة في سيبيريا. (ن).

بصفته «جِيداً»، بسبب ديانته وعاداته؟ لا يهينونه في أي مكان؛ وهكذا هو الحال في أوساط الشعب بأجمعه، بل بالعكس؛ أؤكد لكم أن الإنسان الروسي البسيط، سواء في الثكنات أو في أي مكان آخر، يرى ويدرك جيّداً جداً (واليهود أنفسهم لا يخفون ذلك) أن اليهودي يعرض عن الأكل معه، ويشمئز منه، ويتحاشاه، وينعزل عنه قدر المستطاع؛ وبالمقابل فإن الروسي البسيط، بدلاً من أن يستاء من ذلك، يقول بهدوء ووضوح: «دينه هكذا، وهو الذي يُلزِمه بألّا يأكل معنا وبأن يتحاشانا» (أي ليس لأنه حاقد)، وإذ يدرك الروسي هذا السبب السامي يَعْذِر اليهودي من أعماق نفسه. وفي هذا الصدد كانت تراودني بين حين وآخر فكرة خيالية: ماذا لو كان الروس، لا اليهود، هم الذين يبلغ عددهم في روسيا ثلاثة ملايين نسمة، وكان عدد اليهود ثمانين مليوناً؛ إلامَ يا تُرى كان الروس سيتحولون لدى اليهود، وكيف كان هؤلاء سيستهينون بهم؟ هل كانوا سيتيحون لهم أن يساووهم في الحقوق؟ هل كانوا سيتيحون لهم أن يُصَلّوا بين ظهرانيهم بحريّة؟ ألم يكونوا ليحولوهم إلى عبيد أرّقاء؟ والأسوء من ذلك: ألم يكونوا ليسلخوا جلودهم سلخاً؟ ألم يكونوا ليهلوكوهم تماماً، ليبيدوهم إبادة نهائية، كما كانوا يفعلون مع الشعوب الأخرى في الأزمنة الغابرة في تاريخهم القديم؟ أجل، إنني أؤكد لكم أن الشعب الروسي لا يكنّ كرهاً مسبقاً لليهودي، ولكن ربما هو لا يستلطفه، وخاصة في بعض الأماكن، بل حتى من الجائز أن يكون هذا الشعور قوياً جداً. ولا يمكن أن يكون الأمر خلافاً لذلك؛ إن هذا الشعور موجود، ولكن ليس بسبب أن الشخص يهودي، ليس بسبب الشعور بكراهية ما تجاه عشيرة ما، أو طائفة ما، بل لأسباب أخرى لا يتحمل تبعتها الشعب الأصلي، بل اليهودي نفسه.

Status In Statu* - 3
أربعون قرناً من الوجود

يتهم اليهود السكان الأصليين بأنهم يكنّون لهم مشاعر الكراهية، وهي كراهية مبنية على معتقدات خرافية. ولكن بما أن الحديث قد عرّج على المعتقدات الخرافية، فإنني أسألكم

(*) دولة داخل الدولة (باللاتينية). (ن).

رأيكم: هل المعتقدات الخرافية التي يحملها اليهودي تجاه الروسي أقل من تلك التي يحملها الروسي تجاه اليهودي؟ أليست أكثر؟ لقد ضربت لكم أمثلة عن مواقف الروس البسطاء من اليهود؛ وأمام ناظريّ الآن رسائل جاءتني من يهود ليسوا من البسطاء، بل من المتعلمين؛ وكم من الكراهية في هذه الرسائل تجاه «السكان الأصليين»! والمهم أنهم يكتبون من دون أن يلاحظوا هم أنفسهم هذا الأمر. انظروا: إن هذا الشعب الذي عاش أربعين قرناً على الأرض، أي خلال تاريخ البشرية كله تقريباً، في وحدة متراصة متينة، وفقد غير مرة أراضيه، واستقلاله السياسي، وشرائعه، وحتى دينه تقريباً، وعاد في كل مرة فاتحد ثانية، وانبعث من جديد بفكرته السابقة نفسها، ولو بمظهر آخر، وأحدث لنفسه شرائع وديناً تقريباً - أجل، هذا الشعب بكل قدرته على البقاء حياً، وبكل قوته ونشاطه غير العاديين، هذا الشعب الذي لا شبيه له في العالم لم يكن ليستطيع الوجود إلّا في دولة داخل الدولة*. وقد حافظ على هذا الوضع دائماً وفي كل مكان، وفي أشد أوقات الاضطهاد والتشتت الفظيعة خلال آلاف السنين. وأنا بحديثي عن «دولة داخل الدولة» لا أريد البتة أن أوجه أي اتهام. ولكنني أتساءل فيم يقوم وضع «دولة داخل الدولة» هذا، وفيم تقوم فكرته الأزلية - الثابتة، وما هو جوهر هذه الفكرة؟

إن عرض هذه القضية يستغرق وقتاً طويلاً، ويستحيل تحقيقه في مقالة قصيرة؛ ومن أسباب هذه الاستحالة أيضاً أنه لم تحن بعد «جميع الأوقات والأزمنة»** لذلك، بصرف النظر عن القرون الأربعين المنصرمة، ما زالت الكلمة النهائية للبشرية عن هذه العشيرة العظيمة من شوؤن المستقبل. ولكن من الممكن تصوير بعض ملامح هذا الوضع - «دولة داخل الدولة» - من دون الغوص في جوهر الموضوع وأعماقه، على الأقل من الخارج. وهذه الملامح هي الاغتراب والانعزال على صعيد العقيدة الدينية، وعدم قابلية الاندماج، والإيمان بأنه لا يوجد في العالم سوى كيان شعبي واحد، هو الكيان اليهودي، أما الكيانات الأخرى، فعلى الرغم من أنها موجودة، إلّا أن من الواجب إعتبارها غير موجودة. «اخرج من بين الشعوب، وكوّن خصوصيتك، اعلم أنك منذ الآن أنت الوحيد لدى الإله، أبِد الآخرين، أو حوّلهم إلى عبيد، أو استغلّهم. آمن بالنصر على العالم بأسره، آمن بأن كل شيء سيخضع لك. أعرِض عن الجميع بصرامة، ولا تخالط أحداً في حياتك المعيشية. وحتى عندما تُحرم من أرضك ومن كيانك السياسي، وحتى عندما تتشتت على وجه الأرض بكاملها، وبين جميع الشعوب، مع ذلك آمن بكل ما وُعدت به، وآمن نهائياً بأن كل شيء سيتحقق؛ وريثما يتحقق عِش، وأعرِض، واتّحد،

(*) يكتب دوستويفسكي هذه العبارة باللاتينية في كل مكان ترد فيه في النص. (م).

(**) مقبوس غير دقيق من جواب السيد المسيح عن سؤال الحواريين. انظر أعمال الرسل 1/ 7 «... ليس لكم أن تعرفوا الأوقات والأزمنة التي حددها الآب بسلطانه...». (ن).

واستغلْ وانتظر، انتظر...» هذا هو جوهر فكرة «دولة داخل الدولة»؛ وثمة أيضاً بالطبع، شرائع داخلية، وربما هناك شرائع سرية تصون هذه الفكرة.

تقولون، أيها السادة اليهود المتعلمون والمُناظرون، إن كل هذا الآن هراء، وإنه «إذا كانت هناك دولة داخل الدولة (أي أن هذا كان يوماً ما ولكن لم يبق منه الآن سوى أضعف الأثر) فإن السبب الوحيد الذي أدى إلى نشوء هذا الوضع هو الاضطهاد؛ إنه وضع ولّدته الاضطهادات الدينية منذ القرون الوسطى وقبلها، ولم ينشأ سوى بدافع حفظ الذات، وإذا كان ما يزال مستمراً، ولا سيما في روسيا، فإن سبب ذلك هو أن اليهودي لم يتساو بعد في الحقوق مع السكان الأصليين». ولكن ما يبدو لي هو أن اليهودي، حتى وإن تساوى في الحقوق، فإنه لم يكن ليتخلى بأي حال من الأحوال عن وضعه كـ «دولة داخل الدولة». بل أكثر من ذلك: إن عزو السبب في نشوء وضع «دولة داخل الدولة» إلى الاضطهاد ودافع حفظ الذات وحدهما تفسير غير كاف. فالإصرار على حفظ الذات لم يكن ليكفي ويستمر طوال أربعين قرناً، والتشبث بحفظ الذات كل هذه المدة كان من شأنه أن يبعث على السأم. إن أقوى الحضارات في العالم لم يبلغ عمرها حتى نصف الأربعين قرناً، وقد فقدت قوتها السياسية ومظهرها القومي. إذاً فليس حفظ الذات وحده هو السبب الرئيس، بل ثمة فكرة ما محرِّكة، جاذبة، ثمة شيء ما عالمي وعميق، ربما ليس بوسع البشرية بعد أن تقول كلمتها الأخيرة فيه، كما ذكرت آنفاً. ولكن مما لا شك فيه أن الطابع الديني هنا هو الغالب، ومن الواضح تماماً أن ربهم القدير المسمى باسم يهوه السابق الأول ما يزال، بمثله الأعلى، ووعده، يقود شعبه نحو هدف ثابت. وأكرر أنه من المستحيل أن نتصور اليهودي، حتى مجرد تصور، بدون إله، بل أكثر من ذلك: إنني لا أؤمن حتى بوجود يهود مثقفين ملحدين: فهم كلهم ذوو جوهر واحد. والرب وحده يعلم ماذا ينتظر العالم من اليهود المثقفين! لقد قرأت وسمعت منذ أن كنت طفلاً أسطورة عن اليهود تقول: إنهم ينتظرون بدأب حتى الآن مجيء «المسيّا»* ينتظرونه كلهم، بدءاً من أبسط «جيد»، وحتى أرفعهم مقاماً وأكثرهم علماً: الفيلسوف والحاخام القَبالي**، ويؤمن الجميع بأن «المسيّا» سيجمعهم ثانية في أورشليم، وسيطرح جميع الشعوب بسيفه عند أقدامهم، ولذا فإن اليهود، أو على الأقل أغلبيتهم العظمى، يفضلون مهنة واحدة فقط هي التجارة بالذهب، وكثيرون منهم يُصنّعونه، وهذا كله من أجل ألّا يمتلكوا وطناً جديداً عند ظهور «المسيّا» ولا

(*) المسيّا أو الماشيَّح (Messiah): المخلّص الذي ينتظره اليهود ليقيم على الأرض «ملكوت العدل العاقل». (م).

(**) نسبة إلى القبالة (أو القَبالية) وهي تعاليم دينية - صوفية سرية انتشرت في القرون الوسطى بين أحبار اليهود وبعض المسيحيين. (م).

يكونوا مرتبطين بأرض غريبة بحكم ملكيتهم لها، وأن يكون كل ما يملكونه ذهباً ومجوهرات كي يسهل عليهم نقل ما في حوزتهم عندما...

ينبلج ويتلألأ شعاع الفجر:

سنحمل الصنوج والدفوف والمزامير

والفضة، والخيرات، والمقدسات

إلى البيت القديم، إلى فلسطين.

أكرر أنني كنت أسمع كل هذا على أنه أسطورة، ولكنني متيقن من أن جوهر الأمر يتخذ حتماً، ولا سيما في أوساط الجمهور اليهودي ككل، شكل مَيْل غريزي يتعذر كبحه، ولكن الحفاظ على جوهر الأمر هذا يتطلب بالضرورة، طبعاً الحفاظ على وضع «دولة داخل الدولة» بأشد أشكاله صرامة. وهو مُحافظ عليه. وعلى هذا فإن سبب وجوده لم يكن، وليس هو الآن، الاضطهاد وحده فحسب، بل ثمة فكرة أخرى...

وإذا كان يوجد في الحقيقة نظام خاص داخلي صارم لدى اليهود، يربطهم في كيان ما موحد ذي خصوصية، يصبح من المممكن تقريباً التفكير في مسألة مساواتهم التامة في جميع الحقوق مع السكان الأصليين. ومن البديهي أن كل ما تتطلبه القيم الإنسانية والعدالة، وكل ما تفرضه المبادئ الإنسانية والشريعة المسيحية يجب أن يُؤمَّن لليهود. ولكن إذا كانوا سيطالبون بمساواتهم التامة في جميع الحقوق مع السكان الأصليين، وهم متمترسون خلف نظامهم، وخصوصيتهم، وانعزالهم الديني والعشائري، ومتسلحين بقواعدهم ومبادئهم التي تتعارض تماماً مع تلك الفكرة التي بفضل اتباعها، حتى الآن على الأقل، تطور العالم الأوربي بأسره، أفلن ينالوا، في هذه الحالة شيئاً ما أكبر، شيئاً ما أزيَد، شيئاً أعلى مما لدى السكان الأصليين أنفسهم؟ وهنا سيشيرون، طبعاً، إلى الأجانب الآخرين مدّعين: أن هؤلاء متساوون، أو تقريباً متساوون في الحقوق، بينما حقوق اليهود أقل من حقوق جميع الأجانب، وهذا لأنهم يخافون منا، نحن اليهود، كما لو أننا أكثر ضرراً من جميع الأجانب، ولكن بأي شيء يضرهم اليهودي؟ وإذا كانت هناك صفات سيئة في الشعب اليهودي فإن السبب الوحيد في ذلك هو أن الشعب الروسي نفسه هو الذي يستدعيها بجهله، وانعدام الثقافة لديه، وعدم قدرته على الاعتماد على النفس، وضعف تطوره الاقتصادي. فالشعب الروسي هو الذي يتطلب السمسار، والمدير، والقيّم الاقتصادي على شؤونه العملية، والدائن، وهو الذي يدعوه ويستسلم له. انظروا إلى أوربا، إنها على العكس من ذلك: هناك شعوب ذات عزيمة قوية تجعلها تعتمد على نفسها، وقد تطورت تطوراً قومياً شديداً، واعتادت العمل منذ زمن بعيد، وغدت قادرة على إتقانه،

ومن هنا فهم لا يخشون منح اليهودي جميع الحقوق! وهل سمع أحد في فرنسا شيئاً ما عن الضرر من وضع اليهود المحليين: «دولة داخل الدولة؟».

تفكير يبدو محكماً، ولكن تتراءى لنا قبل كل شيء، ملاحظة ضمن قوسين، وهي بالتحديد «إن اليهود لا يرغد عيشهم إلّا وسط شعب ما زال جاهلاً، او غير حر، أو متخلفاً اقتصادياً، هناك بالذات، إذاً، يبتسم الحظ لهم». وبدلاً من أن يرفعوا بتأثيرهم مستوى التعليم هناك ويعززوا المعرفة وينشئوا قدرة اقتصادية لدى السكان الأصليين، نراهم، بالعكس، يعملون، أينما حلوا، على زيادة امتهان الشعب وإفساده، ونرى البشرية تزداد استكانة، ويزداد مستوى التعليم انحطاطاً، ويستفحل الفقر المستحكِم غير الإنساني على نحو فظيع، ويتفشى معه الشعور باليأس. اسألوا السكان الأصليين في أطراف بلادنا: ما الذي يسيّر اليهودي وما الذي كان يسيّره طوال هذه القرون؟ وسيجيبكم الجميع بصوت واحد: عدم الرأفة؛ «إن ما كان يسيّرهم طوال هذه القرون هو عدم الرأفة بنا، والتوق إلى الارتواء من عرقنا ودمنا». وبالفعل، فإن مجمل نشاط اليهود في أطراف بلادنا كان موجهاً نحو وضع السكان الأصليين قدر المستطاع في حالة تبعيةٍ لهم لا فكاك منها، مستفيدين في أثناء ذلك من القوانين المحلية. نعم، هنا كانوا دائماً يجدون الإمكانية للاستفادة من الحقوق والقوانين في صالحهم. وكانوا دائماً قادرين على عقد صداقات مع أولئك الذين يتحكمون بشؤون الشعب، ولذا فليس لهم هم بالذات أن يتذمروا من قلة حقوقهم بالقياس إلى السكان الأصليين، هنا على الأقل. لقد حصلوا عندنا على ما يكفي من هذه الحقوق للتحكم بالسكان الأصليين. ويشهد تاريخ أطراف الأراضي الروسية بما جرى للشعب الروسي خلال عشرات ومئات السنين في الأماكن التي حل فيها اليهود. وماذا بعد؟ دلّوني على أية عشيرة أخرى من الأقوام الغريبة في روسيا يمكن مساواتها، من حيث تأثيرها الفظيع، مع اليهود؟ لن تجدوا. فاليهودي، بهذا المعنى، يحتفظ بكامل خصوصيته الفريدة قياساً إلى جميع الأقوام الأجنبية في روسيا، والسبب في ذلك يعود بالطبع، إلى وضعه كـ«دولة داخل الدولة». هذا الوضع الذي تتنفس روحُه عدم الرأفة تحديداً بكل ما هو غير يهودي، وعدم احترام أي شعب أو أي قوم، وأي كائن إنساني ليس يهودياً. ثم ما هذا التبرير الذي يقول إن الشعوب في أوربا الغربية لم تسمح لأحد بالتغلب عليها، وعلى هذا فإن الشعب الروسي هو المذنب فيما حدث له؟ وهل لأن الشعب الروسي في أطراف روسيا كان أضعف من الشعوب الأوربية (وذلك فقط بسبب ظروفه السياسية القاسية طوال قرون) – هل لهذا يجب سحقه نهائياً بالاستغلال، وليس مساعدته؟

أما إذا كانوا يشيرون إلى أوربا، إلى فرنسا على سبيل المثال، فإن من المستبعد أن يكون وضع «دولة داخل الدولة» هناك غير ضار. إن التقهقر الذي عانت منه ولا تزال تعاني منه

المسيحية وفكرتها هناك لم يتسبب به اليهود، بل الأوربيون أنفسهم، ومع ذلك فمن غير الجائز ألّا نشير إلى النصر الكبير الذي أحرزته اليهودية في أوربا أيضاً، وذلك بإزاحتها كثيراً من الأفكار السابقة وإحلال أفكارها محلها. ومن المعروف، بالطبع، أن الإنسان كان دائماً وفي جميع الأزمنة يؤلّه المادية، وكان ميالاً إلى أن يرى ويفهم الحرية على أنها مجرد تأمين ذاته بالأموال التي يكدسها بكل ما يملك من قوة، ويخزنها بجميع الوسائل. ولكن هذه التطلعات لم ترتق في وقت من الأوقات، بمثل هذا السُّفور والمغزى الوعظي، إلى درجة المبدأ الأسمى، كما ارتقت في قرننا التاسع عشر هذا. «كل إنسان من أجل نفسه، ومن أجل نفسه فقط، وكل اختلاط بين الناس هو من أجل الذات فقط» - هذا هو المبدأ الأخلاقي لدى أغلبية الناس الحاليين* وهم ليسوا أناساً سيئين، بل بالعكس أناس كادحون لا يقتلون ولا يسرقون. فعدم الرأفة بالجماهير الدنيا، وتدهور روح الأخوّة، واستثمار الأغنياء للفقراء، كل هذا بالطبع، كان موجوداً في السابق ودائماً، ولكنه لم يرتق إلى درجة الحقيقة الأسمى والعلم، بل كان يُدان من قِبَل المسيحية، أما الآن فهو، بالعكس، يرتقي إلى درجة الفضيلة. وعلى هذا فليس عبثاً أن اليهود يسيطرون هناك في كل مكان على البورصات، وليس عبثاً أنهم يتصرفون برؤوس الأموال، وليس عبثاً أنهم المتحكمون في القروض، وليس عبثاً، أكرر، أنهم المتحكمون في السياسة الدولية بأسرها. وما الذي سيأتي بعد ذلك، إنه بالطبع، معروف لدى اليهود أنفسهم: مملكتهم تقترب، مملكتهم الكاملة! يدنو الآن الانتصار الكامل للأفكار التي ستذبل في ظلها مشاعر حب الإنسان، والتوق إلى الحقيقة، والمشاعر المسيحية، ومشاعر العزة القومية، وحتى العزة الشعبية، لدى الشعوب الأوربية. تدنو بالعكس، الروح المادية، التوق الشهواني الأعمى إلى تأمين الذات مادياً، التوق الشخصي إلى تكديس المال بكل الوسائل. إن هذا كله يُنظر إليه على أنه الهدف الأسمى، والسلوك المتعقل، وعلى أنه الحرية، بدلاً من فكرة الخلاص المسيحية، الخلاص الذي لا يتحقق سوى بوسيلة وحيدة هي اتحاد الناس اتحاداً أخلاقياً وأخوياً وثيقاً. سيضحكون ويقولون: إن سبب ما يجري هناك لا يعود البتة إلى وجود اليهود. طبعاً إن ما يجري ليس بسبب اليهود وحدهم؛ ولكن إذا كان اليهود قد انتصروا نهائياً وازدهروا في أوربا، في الوقت ذاته الذي انتصرت فيه هناك هذه القيم الجديدة إلى حد جعلها ترتقي إلى مستوى المبدأ الأخلاقي، يغدو من غير الجائز ألّا نستنتج أن اليهود أيضاً قد استخدموا نفوذهم لهذا الغرض. إن معارضينا يشيرون إلى أن اليهود،

(*) هذه هي الفكرة الأساسية للبرجوازية التي حلت محل النظام العالمي السابق في نهاية القرن الماضي [الثامن عشر(م)] وغدت هي الفكرة الرئيسة في القرن الحالي بمجمله في العالم الأوربي بأسره. (الكاتب).

على العكس فقراء، وهم فقراء في كل مكان، ولا سيما في روسيا، وأن عِلية اليهود فقط هم الأغنياء، رجال المصارف وملوك البورصات، في حين أن ما يقارب تسعة أعشار اليهود الباقين معدمون بالمعنى الحرفي للكلمة، ويكابدون الأمرّين للحصول على لقمة العيش، يعرضون القيام بالسمسرة، ويبحثون عن طريقة تمكنهم من الحصول على كوبيك واحد من أجل الخبز. أجل، إن هذا على ما يبدو صحيح، ولكن علامَ يدل؟ ألا يدل بالتحديد على أنه يوجد في عمل اليهود ذاته (أو على الأقل أغلبيتهم العظمى) وفي استثمارهم ذاته، يوجد شيء ما غير مستقيم، وغير سويّ، شيء ما غير طبيعي، ويحمل عقابه في ذاته؟ فاليهودي يعرض السمسرة ويتاجر بعمل الآخرين. إن رأس المال هو عمل متراكم؛ واليهودي يحب الإتجار بعمل الآخرين ولكن على كل حال هذا لا يغير في الأمر شيئاً حتى الآن؛ وبالمقابل فإن عِلْيَةَ اليهود تشدد وتعزز أكثر فأكثر سيطرتها على البشرية وتسعى لإضفاء صورتها وجوهرها هي على العالم كله. ولا يني اليهود يصرخون قائلين: إن بينهم، هم أيضاً، أناساً جَيّدين. يا إلهي! وهل القضية في هذا؟ إننا الآن لا نتحدث البتة عن الناس الجيدين والسيئين. أفلا يوجد بين أولئك أناس جيدون؟ وهل كان الباريسي الراحل جيمس روتشيلد إنساناً سيئاً؟* إننا نتحدث هنا عن الظاهرة ككل وعن فكرتها، نتحدث عن الجيديّة [اليهودية. م] وعن الفكرة الجِيديّة، التي شملت العالم كله بدلاً من المسيحية «التي لم يحالفها التوفيق»...

4 - ولكن لِتَحْيَ الأخوّة

ولكن ما الذي أقوله ولِمَ أقوله؟ أم أنني أنا أيضاً عدو لليهود؟ أحقاً أنني، كما تكتب لي فتاة يهودية لا يوجد أدنى شك في أنها نبيلة ومثقفة (كما هو واضح من رسالتها، ومن العواطف الحارة الصادقة التي تتضمنها هذه الرسالة)، أنني بحسب قولها، عدو لهذه العشيرة «التعسة»، التي «أنتهز أية فرصة مناسبة لأهاجمها بقسوة بالغة» كما تدعي. «من الواضح للعيان

(*) المقصود هو المصرفي اليهودي الفرنسي البارون جيمس روتشيلد (1792–1868) ويُستشف من عبارة دوستويفسكي تأثره بالوصف الذي أورده غيرتسين (انظر الهامش 9) لروتشيلد في كتابه «أحداث الماضي وتأملات». (ن).

احتقاركم للعشيرة الجيدِيّة التي «لا تفكر في أي شيء سوى ذاتها إلخ... إلخ...». لا... إنني ضد هذا «الوضوح البادي للعيان»، كما أنني أدحض الواقعة نفسها. فأنا بالعكس، أتحدث وأكتب تحديداً عن أن كل «ما تتطلبه القيم الإنسانية والعدالة، وكل ما تفرضه المبادئ الإنسانية والشريعة المسيحية يجب أن يُؤمَّن لليهود». كنت قد كتبت هذه الكلمات آنفاً. ولكنني أضيف إليها الآن أنني، بصرف النظر عن كل التصورات التي أوردتها، أؤيد بإصرار التوسيع الكامل لحقوق اليهود في التشريعات الرسمية، وإذا أمكن، مساواتهم التامة في الحقوق مع السكان الأصليين (ملاحظة: مع أنهم ربما يحوزون الآن، في بعض الحالات، حقوقاً أكثر، أو من الأفضل القول، يحوزون إمكانات أكبر مما لدى السكان الأصليين للانتفاع بهذه الحقوق). وتخطر لي على الفور، بالطبع، فكرة خيالية، كهذه على سبيل المثال: ماذا إذا تزعزعت على نحو ما، لسبب ما، أركان مشاعتنا الفلاحية التي تحمي فلاحنا الفقير من شرور عديدة، وماذا إذا دهم اليهودي، على الفور، بكل قوةِ جماعتهِ هذا الفلاح المتحرر الذي لا خبرة لديه وليس قادراً على ضبط النفس أمام المغريات، والذي كانت المشاعة تحميه حتى تلك اللحظة، ماذا سيحدث عندئذ؟ عندئذ ستحل نهايته فوراً: فكل ممتلكاته وكل قوَّته ستنتقل في اليوم التالي إلى حوزة اليهودي، وسيحل عهد لا يمكن مقارنته بعهد القنانة، ولا حتى بعهد النير التتري.

ولكن بصرف النظر عن كل «الأفكار الخيالية»، وعن كل ما كتبته آنفاً، إنني أؤيد المساواة التامة والنهائية في الحقوق، لأن هذا هو قانون المسيح، هذا هو المبدأ المسيحي؛ ولكن إذا كان الأمر هكذا، لِمَ إذاً حبّرتُ كل هذا الصفحات، وما الذي أردتُ التعبير عنه، إذا كنت أناقض نفسي هكذا؟ إن ما أردت التعبير عنه تحديداً هو أنني لا أناقض نفسي، وأنه لا توجد من الجانب الروسي، الجانب الأصلي عوائق، وأنا لا أرى عوائق، تحول دون توسيع حقوق اليهود، وأؤكد بالمقابل أن هذه العوائق موجودة لدى الجانب اليهودي بقدر أكبر بما لا يقاس مما لدى الروس، وإذا كان ما نتمناه من أعماق القلب لم يتحقق حتى الآن، فإن ذنب الروسي في هذا أقل بما لا يقاس من ذنب اليهودي نفسه. إن الصورة التي قدّمتها عن اليهودي العامّي البسيط الذي يُعرِض عن الاختلاط بالروس والأكل معهم، بينما هم لا يغضبون عليه ولا يثأرون منه بل بالعكس، يتفهمونه رأساً ويعذرونه قائلين: «إنه يفعل هذا لأن دينه هكذا»، إن هذه الصورة مماثلة لصورة اليهودي المثقف أيضاً التي نرى فيها، في أحيان جد كثيرة، التحامل المفرط المتعجرف ذاته تجاه الروسي. إنهم يصيحون معلنين حبهم للشعب الروسي؛ حتى إن أحدهم كتب إلي أنه حزين بالذات لأن الشعب الروسي ليس لديه دين، وهو لا يفقه شيئاً في المسيحية. إنه لقول مفرط في الشدة من يهودي، وينتج عنه السؤال الآتي: وهل يفقه هذا اليهودي نفسه، الحائز على تعليم عالٍ شيئاً ما في المسيحية؟ إن صفَتَيْ الغرور والعجرفة من

أثقل صفات الطبع اليهودي وطأةً علينا، نحن الروس. من يا ترى أقل قدرة على فهم الآخر: الروسي أم اليهودي؟ أقسم أنني أقرب إلى تبرئة الروسي: إذ، على الأقل، ليس لدى الروسي (ليس لديه قطعاً!) كره ديني لليهودي. أما فيما يخص بقية التصورات المسبقة المتحاملة فأين، ولدى من، هي أكثر؟ اليهود يصرخون أنهم ظلوا قروناً عديدة مظلومين ومضطهدين وهم الآن أيضاً ما زالوا مظلومين ومضطهدين، وأن هذا، على الأقل، يجب على الروسي أن يأخذه بالحسبان عند إصدارِ حكمه على الطبع اليهودي. حسن، إننا نأخذ هذا بالحسبان، وبإمكاننا البرهنة على ذلك: لقد ارتفع الصوت أكثر من مرة في أوساط الشريحة المثقفة من الشعب الروسي لنصرةِ اليهود، فهل أخذ اليهود، وهل يأخذون بالحسبان، وهم يشتكون ويتهمون الروس، ما تعرض له الشعب الروسي نفسه من ظلم واضطهاد طوال قرون عديدة؟ وهل بالإمكان حقاً الزعم بأن الشعب الروسي قد عانى من المصائب والشرور «خلال تاريخه»، أقل مما عاناه اليهود في أي مكان؟ وهل بالإمكان حقاً الزعم أن الذي اتحد مع مضطهدي هذا الشعب في أحيان كثيرة جداً، وأخذ منهم حق السيطرة عليه لقاء إعطائهم بدلاً مالياً، وأصبح هو الجهة التي تضطهد الشعب الروسي، هل بالإمكان الزعم أنه ليس اليهودي؟ من المعروف أن هذا كله قد حدث فعلاً، على أرض الواقع، وأن هذا تاريخٌ، حقيقة تاريخية، ولكننا لم نسمع في أي مكان أن الشعب اليهودي قد ندم على ذلك، بل هو يعمد إلى إدانة الشعب الروسي لقلة حبه له.

ولكن «آمين!، آمين!» فلتتحقق الوحدة الروحية التامة بين الأقوام، وبلا أي فرق في الحقوق! ومن أجل ذلك أبادر، قبل كل شيء، إلى مناشدة مُناظريّ ومُراسليّ اليهود أن يكونوا، بالمقابل، أكثر تسامحاً وإنصافاً تجاهنا، نحن الروس. وإذا كانت عجرفة اليهود و«اشمئزازهم الكئيب» الدائم من الشعب الروسي ليسا أكثر من تحامل مسبق، ومن «عُجْرة تاريخية»، ولا تمتد جذورهما إلى أغوار ما أعمق بكثير تكمن فيها أسرار شريعتهم ونظامهم، فليتبددا بأسرع وقت، ولنلتقِ بروح واحدة وأخوّة كاملة، من أجل تبادل العون، وفي سبيل قضية عظيمة هي قضية أرضنا ودولتنا ووطننا! ولْتَلْطُف الاتهامات المتبادلة، ولْتَخْتَفِ تلك الحُميّا التي تَسِمُ دائماً هذه الاتهامات، وتحول دون فهم الأمور على نحو واضح. إن الشعب الروسي يمكن ضمانته بهذا الصدد: فهو سيتقبّل اليهودي بروح أخوية تماماً، بغضّ النظر عن اختلاف العقيدة الدينية، وسيحترم كل الاحترام الحقيقة التاريخية لهذا الاختلاف؛ ولكن من أجل تحقيق الأخوّة، الأخوّة التامة، يجب السعي إلى التآخي من قبل الجانبين. فليُظهِر اليهودي من جهته للروسي ولو بعضاً من المشاعر الأخوية لكي ينشّط هذه النزعة لديه. أعرف أن بالإمكان الآن فرز عدد لا يستهان به من الأشخاص من أوساط الشعب اليهودي يستقصون

ويتوقون إلى تنحية القضايا الملتبسة، وهؤلاء أناس محبون للبشر، وأنا لست ممن يصمت عن هذا ويخفي الحقيقة. ولكي لا يصاب هؤلاء الأشخاص النافعون المحبون للإنسان بالكآبة المقنطة وانهيار العزيمة، ومن أجل إضعاف التحامل لديهم وتسهيل شروعهم بالعمل أتمنى توسيع حقوق اليهود توسيعاً تاماً، أو على الأقل بقدر المستطاع، وتحديداً بقدر ما يثبت الشعب اليهودي قدرته على تقبل هذه الحقوق، والاستفادة منها من دون إلحاق الضرر بالسكان الأصليين، بل حتى يمكن التنازل سلفاً من جانب الشعب الروسي، وقيامه مسبقاً بخطوات أكثر... والمسألة تنحصر في الآتي: هل سيتسنى لهؤلاء الأشخاص اليهود الجيّدين الجدد أن يفعلوا الكثير، وإلى أي حد هم أنفسهم قادرون على تبني هذه القضية الجديدة الرائعة: قضية التآلف الأخوي الحقيقي مع أناس مختلفين عنهم بالدين والدم؟

نيسان (أبريل) - حزيران (يونيو)

إخلاء سبيل المتهمة كورنيلوفا

أُعيدت من جديد محاكمة المتهمة كورنيلوفا في الثاني والعشرين من نيسان هذا العام في محكمة الدائرة المحلية، بعد تعيين هيئة قضائية جديدة، ومحلفين جدد. فقد نقضت المحكمة العليا الحكم القضائي السابق الذي صدر في العام الماضي، لعدم كفاية معطيات الخبرة الطبية. ولعل أغلبية قرائي يتذكرون جيداً هذه القضية. أقصد قضية الرابّة* الشابة (لم تكن قد بلغت سن الرشد آنذاك)، التي أقدمت، وهي حامل، وقد استبد بها الغضب على زوجها الذي كان يغيظها بامتداح زوجته السابقة، على أن تلقي- عقب مشادة عنيفة بينهما- بابنته من زوجته الأولى من نافذة الطابق الرابع (على ارتفاع خمسة سواجن** ونصف). وقد حدث آنذاك ما يشبه الأعجوبة: إذ إن الطفلة لم تتهشم ولم تصب بكسور أو بأي أذىً آخر، وسرعان ما استعادت وعيها، وهي الآن سليمة معافاة. وقد اتسمت كل تصرفات المرأة الشابة، التي رافقت فعلتَها الوحشية هذه، بالغموض والخلو من أي معنى. بحيث يبرز تلقائياً سؤال عفوي: هل كانت تتصرف عن وعي سليم يا ترى؟ ألم تكن على سبيل المثال، تحت تأثير حالة «هيجان الحمل»؟ فهي عندما استيقظت في الصباح، بعد أن كان زوجها قد ذهب إلى العمل، تركت الطفلة تنال كفايتها من النوم؛ وعندما استيقظت الطفلة ألبستها ثيابها وحذاءها وسقتها قهوة، وبعد ذلك فتحت النافذة، وألقت بالطفلة إلى الشارع؛ ثم أغلقت النافذة، حتى من غير أن تطل منها لترى ماذا حدث للطفلة***، وارتدت ملابسها وذهبت إلى قسم الشرطة، وأبلغتهم هناك ما حدث، وأجابت عن أسئلتهم بطريقة فظة وغريبة. وعندما

(*) (الخالة) زوجة الأب. (م).

(**) سواجن: جمع ساجن، وهو مقياس طول روسي قديم يساوي (2,134) م. (م).

(***) ورد سابقاً في «اليوميات» أن «كورنيلوفا» ألقت نظرة على الطفلة وهي تسقط. وقد تبين للكاتب فيما بعد أن هذا لم يحدث، وأن سبب الخطأ يعود إلى غلط مطبعي وقع في الصحيفة التي روت الحادثة، فاستدرك هذا الخطأ في إصدار سابق لم يدخل ضمن هذه المختارات من «اليوميات». (م).

أنبؤوها بعد بضع ساعات أن الطفلة بقيت حية لم يبد عليها السرور ولا الكدر، وقالت من دون اكتراث وببرود تام، وكأنها مستغرقة في تفكير عميق: «بسبعة أرواح»؛ ثم ظلت شهراً ونصفاً تقريباً، في كلا السجنين اللذين وضعت فيهما، متجهمةً فظة، عازفةً عن الكلام. وفجأة زال هذا كله دفعة واحدة: فطوال الأشهر الأربعة المتبقية للولادة، وطوال الوقت التالي لم تكفّ رئيسة قسم النساء في السجن عن إغداق الثناء عليها، سواء خلال المحاكمة الأولى أو بعد المحاكمة: فقد ظهر لديها طبع متزن هادئ، ودود، صافٍ. وعلى كل فقد وصفتُ أنا هذا كله سابقاً؛ وأقول باختصار إن الحكم السابق قد نُقض، وأُعيدت المحاكمة من جديد في الثاني والعشرين من نيسان، وانتهت إلى تبرئة كورنيلوفا.

وكنت أنا حاضراً في قاعة المحاكمة، وتكونت لدي انطباعات كثيرة. وأنا آسف لأنني لا أمتلك البتة إمكانية الإفصاح عن هذه الانطباعات، ومرغم، بالمعنى الحرفي للكلمة، على أن أكتفي بقول كلمات قليلة فقط. والسبب الوحيد الذي يدفعني إلى أن أتحدث عن هذه القضية هو أنني كتبت عنها كثيراً من قبل، ولذا لا أجد من النافل إبلاغ القراء ما آلت إليه في النهاية. لقد استغرقت المحاكمة ضعف المدة التي استغرقتها سابقتها. وكان قوام هيئة المحلفين متميزاً حقاً، واستُدعيتْ شاهدة جديدة في القضية، هي رئيسة قسم النساء في السجن. وكانت إفادتها عن طبع كورنيلوفا ذات وزن كبير وفي صالح المتهمة. كما كانت إفادة زوج المتهمة ممتازة جداً؛ فقد تحدث بمنتهى النزاهة، ولم يُخفِ أي شيء، لا المشادات، ولا الإهانات من جانبه هو، وبرّأ زوجته، وتكلم بإخلاص واستقامة، وصراحة. إنه ليس سوى فلاح، وإن كان يرتدي ملابس ألمانية، ويقرأ الكتب ويتقاضى ثلاثين روبلاً راتباً شهرياً. كما جاء انتقاء الخبراء ممتازاً أيضاً فقد دُعي لهذا الغرض ستة أشخاص، كلهم من الأطباء الثقات المشهورين، وقدّم خمسة منهم إفاداتهم، وصرح ثلاثة منهم من غير تردد، أن الحالة المَرَضيّة التي تلم بالمرأة الحامل يمكن جداً أن تؤثر في ارتكاب الجريمة في مثل هذه الحالة التي نحن بصددها. ولم يعارض هذا الرأي سوى الدكتور فلورينسكي، ولكنه لحسن الحظ ليس طبيباً نفسياً، ولذا لم يولَ رأيه أي أهمية. وكان آخر من قدم إفادته طبيبنا النفسي المعروف ديوكوف. وقد تحدث ساعة تقريباً مجيباً عن أسئلة المدعي العام ورئيس المحكمة. ومن الصعب أن يتصور المرء تفهماً أكثر دقة للنفس البشرية وحالاتها المرضيّة. كما أثار الدهشة غنى وتنوّع الملاحظات المثيرة للغاية، التي تجمعت لديه خلال سنوات عديدة. وأنا من جهتي أصغيت إلى بعض إفادات هذا الخبير بانبهار حقيقي. وكان رأيه منحازاً بالكامل لصالح المتهمة: فقد أكد في مطالعته وأثبت بالبراهين أن المتهمة كانت، بحسب رأيه، تعاني، في أثناء ارتكاب الجريمة المرعبة، حالةً نفسية مَرَضيّة لا شك فيها.

وانتهت القضية بتخلي المدعي العام، على الرغم من مرافعته المخيفة، عن الاتهام بـ «سبق الإصرار»، أي عن أخطر بند في لائحة الاتهام. أما المدافع عن المتهمة، المحامي المكلف لوستينغ، فقد صد ببراعة فائقة عدة اتهامات، وجرّد أحد أخطر الاتهامات - وهو الكره المزعوم الذي ظلت امرأة الأب تكنّه لابنة زوجها مدة طويلة - من أية أهمية، مقدِّماً إثباتاً حسياً بأنه ليس أكثر من نميمةِ دهاليز. وبعد ذلك ألقى رئيس المحكمة كلمة طويلة، غادر بعدها المحلفون القاعة للتشاور، وبعد أقل من ربع ساعة قدموا حكم التبرئة الذي قوبل بما يشبه التهليل في أوساط الجمهور الغفير المحتشد في القاعة. وقد صلَّبَ كثيرون وهنّأ آخرون بعضهم بعضاً متصافحين بحرارة. واصطحب الزوج زوجته المبرّأة إلى بيته في الليلة نفسها، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، ودخلت الزوجة السعيدة بيتها الذي عادت إليه بعد سنة تقريباً من غيابها عنه، وقد انطبع في نفسها درسٌ عظيمٌ لن تنساه مدى الحياة، وأثرُ يد الرب الواضحُ في كل هذه القضية، على الأقل بدءاً من نجاة الطفلة بما يماثل المعجزة.

عن رسائل الشتم المُغْفَلة

لم أسافر إلى الخارج، وأنا الآن موجود في مقاطعة كورسك. وما إن علم الطبيب الذي يعالجني أن هناك إمكانيةً لقضائي الصيف في القرية، ولا سيما في منطقةٍ كمقاطعة كورسك، حتى وصف لي شرب مياه «يِسّنتوكي»*، وأضاف أن هذا سيكون أنفع لي بما لا يقاس من «إيمس» التي اعتدت ماءها. وأرى من واجبي التصريح بأنني تسلّمت عدداً كبيراً جداً من رسائل قرائي التي عبروا فيها عن بالغ تعاطفهم معي بعد إعلاني عن المرض الذي ألم بي. وأقول بالمناسبة إنني كنت قد تسلّمت طوال مدة إصدار «يومياتي»، وما زلت أتسلم، كثيراً من الرسائل الموقعة والمُغْفَلة المفعمة بالكثير من الثناء والاستحسان والتأييد لي في عملي؛ ولأقل بصراحة إنني لم أتوقع قط مثل هذا التعاطف الشامل ولم أعُدَّ نفسي قط جديراً بذلك. سأصون هذه الرسائل كما تُصان النفائس. ولا أظن أن تصريحي بهذا في الصحافة يُعدّ تودداً

(*) «يِسّنتوكي» مدينة في إقليم ستافروبولسكي، وهي منتجع للتداوي بالأطيان يشتهر بمياهه المعدنية لمعالجة الأمراض الهضمية. (م).

معسولاً؟ وهل تقديري لهذا الاهتمام العام وحرصي عليه أمر سيئ؟ سيقولون لي إنك الآن تمدح ذاتك وتتباهى. فليقولوا هذا، فأنا أعرف بيني وبين نفسي أن هذا ليس تباهياً، وأنني لا أقصد به سوى الإعلان عن شكري وعن مشاعري الصادقة؛ وأنا قد تجاوزت السن التي لا تتيح لي أن أدرك إلى أي حد أغيظ بتصريحي هذا بعض السادة. ولكن هؤلاء السادة، كما يبدو لي، قلة قليلة جداً. فمن بين عدة مئات من الرسائل التي وصلتني خلال العام والنصف الفائتين، أي منذ بدأت إصدار «اليوميات» ثمة مئة رسالة على الأقل (أو أكثر من مئة على الأرجح) كانت غُفْلاً. ولكنّ رسالتين فقط من هذه المئة الغفل كانتا عدائيتين تماماً. ثمة أشخاص لا يتفقون معي في الرأي ويُبدون اعتراضاتهم بصراحة، ولكن دائماً بجدية وصدق، وبدون أية شؤون شخصية، سواء كانت رسائلهم موقعة أو مغفلة، وأنا آسف فعلاً، لأن كثرة الرسائل لا تسمح لي بحال من الأحوال أن أرد عليها جميعاً. إلّا أن تينكم الرسالتين تعدّان استثناء، وقد كتبتا لا من أجل تبيان الاعتراض، بل من أجل السب والشتم. وأعتقد أن هذين السيدين اللذين كتبا الرسالتين المذكورتين هما اللذان سيغيظهما تصريحي بالشكر.

والرسالة الأخيرة منهما تطرقت بالذات إلى إعلاني عن الوعكة التي ألمت بي. وقد عبر لي فيها مراسلي المجهول عن غضبه الشديد: إذ كيف تجرأت على أن أعلن في الصحافة عن مثل هذا الشأن الشخصي الخاص، وهو إصابتي بوعكة صحية، وضمّن الرجل رسالته معارضةً يقلّد فيها تصريحي بطريقة فظة بعيدة كل البعد عن اللياقة. ولكن لنؤجل الحديث عن هدف الرسالة الرئيس وهو الشتم، لأتحدث عن مسألة أثارت اهتمامي لا إرادياً: فإذا دعتني الضرورة، على سبيل المثال، بسبب انحراف صحتي، إلى السفر من أجل العلاج، واضطرني ذلك إلى إرجاء إصدار عدد أيار (مايو)، ومن المعروف أنني أعلن في كل عدد من اليوميات عن موعد إصدار العدد القادم، فهل يجوز لي أن أعلن مباشرة ومن دون أي تعليل أو تفسير عن أن العدد القادم من «اليوميات» سيصدر مع «يوميات» شهر حزيران (يونيو)؟ لقد بدا لي أن هذا التصرف غير لائق إلى حد ما. فما الذي يمنع من الإفصاح عن السبب الذي اضطرني إلى الإرجاء؟ وهل تراني عمدت في إعلاني إلى الإسهاب في الحديث عن مرضي؟ وعلى أي حال فإن هذا كله ليس أكثر من سفاسف بالطبع، ولو أن الأمر صدر عن شخص مصدوم بجدٍّ في حسه باللياقة الأدبية والاجتماعية لنتج عن ذلك أنموذج طريف، وربما محترم نوعاً ما، لسيدٍ يمكن أن يكون موجوداً خارج نطاق الأدب، ولكن من شدة حبه له حباً منزهاً عن الغرض، تراه يحترق بنارٍ جليلةٍ، هي نار الحرص على أصول اللياقة الأدبية، وحتى إذا كان يصل في حرصه هذا إلى درجة التزمّت، فإنه مع ذلك يستمده من مصدر محترم وطريف، مما يجعلني غير قادر، من باب التهذيب وحده، على الإحجام عن إبداء نوع من الاحترام تجاه

هذا المراسل المجهول. ولكن الشتائم أفسدت كل شيء: فمن الواضح أنها كانت هي الهدف المبتغى. ولا شك في أن القضية لا تستأهل ذكر كل هذه الأمور هنا؛ ولكن منذ مدة طويلة تراودني رغبة في أن أقول بضع كلمات عن الرسائل المغفلة، أو بتعبير أدق، رسائل الشتم المغفلة، وأنا سعيد بأنني وجدت الآن الفرصة المناسبة لذلك.

لقد بدا لي منذ مدة طويلة أنه في زمننا المتقلقل جداً، والانتقالي، والمليء بالتقلبات، والذي لا يرضي إلا قلة قليلة جداً من الناس (وهذا ما يجب أن يكون)، لا بد من ظهور كثرة هائلة من الناس المُهْمَلين، إذا جاز القول، والمنسيين، والمحرومين من الاهتمام، والمغتاظين الذين يقولون في سرهم: «لماذا هم في كل مكان، وليس أنا، لماذا لا يوجهون اهتمامهم إلي أيضاً». وترى بعض هؤلاء السادة الذين يعانون هذه الحالة من الغيظ الشخصي، والإحباط لعدم تحقيق مَثَلِهم الأعلى، إذا جاز القول، مستعدين أحياناً لأخذ علبة ثقاب والذهاب لإشعال حرائق؛ نعم، إلى هذا الحد يمكن أن يصل إيلام هذا الشعور المضني، وأنا أدرك هذا تماماً، ولكي نُدين هذا الأمر من الأولى بنا أن نتسلح بالمشاعر الإنسانية، لا بالغضب. ولكن إشعال الحرائق تطرُّف مفرط، ولا يقدم عليه سوى ذوي الطبائع الجبارة، البايرونية. ولحسن الحظ ثمة مخارج ليست بهذه الفظاعة للطبائع التي ليست بهذا الجبروت، ومن هذه المخارج: الإيذاء الدنيء لا أكثر، كالافتراء مثلاً، أو الاتهام الباطل، أو النميمة، أو توجيه رسالة شتم غُفل. وباختصار أقول إنني بِتُّ منذ مدة طويلة، وما زلت حتى الآن، أظن أن زمننا، مع أنه زمن إصلاحات وأحداث عظيمة، وهذا واقع لا جدال فيه، لا بد من أن يكون حتماً زمن تكاثر الرسائل المغفلة الشاتمة. أما فيما يخص الأدب، فإن الشك ينتفي تماماً: إذ إن رسائل الشتم المغفلة تشكل جزءاً لا يتجزأ من الأدب الروسي المعاصر، وتصاحبه في جميع اتجاهاته، بحيث لم يبق ناشر ولا كاتب لم تصله رسائل من هذا النوع؛ وقد استعلمت عن هذا الموضوع في بعض دور النشر، وعلمت في إحداها - وهي بالذات من الدور التي انطلقت فجأة، وأحدثت بسرعة انطباعاً غير متوقع، وأرضت الجمهور إلى حد لم يكن مؤسسو الدار أنفسهم يتوقعونه - علمت من أحد المشاركين المقربين فيها أنهم يتلقون عدداً كبيراً جداً من أمثال هذه الرسائل، بحيث أنهم لم يعودوا يقرؤونها بالمرة، بل يكتفون بفضّها فقط. وقد أراد أن يروي لي تفاصيل بعض منها، ولكنه ما إن بدأ بالحديث حتى أغرب في ضحك لم يستطع كبته. وهذا ما ينبغي أن يكون؛ إذ إن مراسلينا المجهولين العديمي الخبرة لم يخطر لهم ببال حتى الآن، على ما يبدو، أن رسائلهم كلما كان الشتم فيها أقذع، كانت أكثر سذاجة وأقل أذىً. وهذه إشارة جيدة: إنها تعني أن مراسلينا المجهولين، مع أنهم متحمسون، لكنهم إلى ذلك لا يضبطون أنفسهم، ولا يدركون أن الرسالة الغفل اللاذعة كلما كانت لهجتها أكثر تهذيباً ولياقة

كانت أكثر لؤماً وأشد تأثيراً. وهذا يعني أن هذه الجزويتية المنافقة لم تتطور عندنا بعد، وأن هذه الظاهرة لم تبلغ طورها الثاني \الأعلى، أي أنها ما زالت في بدايتها، وعلى هذا فإننا هنا إزاء ثمرةِ حماسةٍ جامحة بَدْئية فحسب، لا إزاء ثمرة عاطفةٍ حقودةٍ مُتَروِّية ومربّاة تربية صارمة. هذا ليس ثأراً «إسبانياً»* إذا جاز القول، يكون صاحبه مستعداً، من أجل بلوغ غايته، لتقديم تضحيات عظيمة، وقد تعلم كيف يضبط نفسه ويملك زمامها. إن الشتّام الذي يغفل توقيع رسائله عندنا ما زال بعيداً عن كونه ذاك المجهول الغامض الذي صوّره ليرمنتوف في دراماه الشعرية «حفلة تنكرية»، وهو شخص ضخم تلقى من ضابط صغير لطمة على وجهه ذات يوم، فذهب إلى الصحراء، وبقي هناك ثلاثين عاماً يفكر في الثأر لنفسه. لا، ما زالت طبيعتنا السلافية هي التي تفعل فعلها حتى الآن، وكل همها المسارعة قدر الإمكان إلى توجيه أكبر قدر من الشتائم، وإنهاء الأمر عند هذا الحد، (بل ربما يصل الأمر إلى الصلح على الفور). ولكن ألا توافقون معي على أن كل هذا سارٌّ بمعنىً ما؛ وذلك لأن كل هذا، إذا جاز القول، يافع، فتي، غضّ، حتى لكأنه ربيع الحياة؛ ولكن يجب أن نعترف بأن الطقس في هذا الربيع سيئ جداً. وأرى من واجبي أن أضيف هنا ملاحظة أخرى: إن جيلنا الشاب، أي الفتي جداً، جيل المراهقين، لا يكتب رسائل شتم مغفلة. وأنا أتسلم رسائل كثيرة من أبناء هذا الجيل، وكلها موقّعة، ما عدا فقط تلك التي تعبر عن عواطف مُغالية في الود. أما الشبان الذين لا يتفقون معي في الرأي فإنهم يوقعون رسائلهم دائماً. (من السهل جداً على المرء أن يعرف بوضوح بالغ أن كاتب رسالة الشتم الغُفل ليس من الجيل الشاب، وليس مراهقاً يافعاً، وذلك بدلالة الكثير من العلامات والسمات الأسلوبية). وهكذا فإن شبيبتنا تدرك، كما يبدو جلياً، أن بالإمكان كتابة رسالة شديدة اللهجة جداً، ولكن توقيع مثل هذه الرسالة يضفي على تعابيرها قيمة عالية، كما أن طابع رسالة كهذه يتغير كلياً نحو الأحسن بفضل التوقيع، الذي يسبغ عليها روح الاستقامة، والرجولة، والاستعداد للدفاع عن قناعات مَنْ كتبها، ولتحمله المسؤولية عنها. ثم إن حدة التعابير نفسها تظهر تحمس الكاتب لقناعاته لا رغبته في الإهانة. وهكذا يتضح أن الشتّام الذي لا يوقع رسالته يكون جل همه إفراغ كل ما لديه من شتائم بذيئة، راغباً، قبل كل شيء، في الاستمتاع بأُفعولته هذه بالذات، وليس له من هدف سوى ذلك. وعلى هذا فهو يعرف أنه يقوم بفعل مؤذ، وهو يلحق الضرر بنفسه أيضاً، أي يضر بقوةِ رسالتَه، ولكن هذا من مستلزمات الشتم. وينبغي أن نشير إلى هذه السمة، أي إلى هذه المستلزمات، لأنها ما زالت هي المهيمنة في مجتمعنا المثقف. ولا يضحكنّ أحد مني لأنني أؤمن أن هذه السمة هي المهيمنة عندنا. وأنا موقن بأنني لا أبالغ، وبأننا نقف الآن، بمعظم جمهورنا، على هذه الدرجة

(*) إلماعاً إلى المسرحية الشعرية «حفلة تنكرية» (1835-1836) للشاعر الروسي ميخائيل ليرمونتوف. (م).

بالذات من التطور. وبالإضافة إلى هذا تصوروا أن من الممكن ألّا يكتب أحدنا طوال حياته أية رسالة سب مغفلة ويظل، في الوقت نفسه، يحمل في داخله، طوال حياته نفسيّة الشتّام المجهول. وهذا بحد ذاته تصور هام أيضاً. وماذا يعني ألّا أتسلم خلال عام ونصف سوى رسالتَيْ شتم فقط؟ إن هذا يبرهن على براءتي وكوني غير لافت للنظر، كما يدل على ضيق مجال نشاطي، ويثبت، علاوة على ذلك، أنني لا أتعامل سوى مع أشخاص يتسمون بالنزاهة. في حين أن ثمة شخصياتٍ أخرى من الذين يلفتون الأنظار أكثر مني (وعلى هذا فهم بسبب ذلك وحده مذنبون أكثر مني)، وبالإضافة إلى ذلك هم مرغمون، بحكم نوع إصداراتهم وطبيعتها، على أن يعملوا ضمن دائرة واسعة جداً، يتسلم الواحد منهم خلال عام ونصف ربما مئتي رسالة لا رسالتين فقط. وباختصار أقول إنني موقن بأن جرعة الروح الإنسانية التي أشربتنا إياها الحضارة الأوربية كانت جد ضئيلة، وبأن عدد الراغبين عندنا في أن يكيلوا ما لديهم من الشتائم بسرعة وعلى نحو مباشر في كل حالة لا تعجبهم ولو بقدر ضئيل، هو عدد غير قليل إلى حد ربما يجعل من المرعب ذكره؛ أما عدد الراغبين في أن يكيلوا الشتائم من غير أن يتعرضوا للعقاب، أي من غير ذكر أسمائهم، أن يكيلوا شتائمهم من خلف الباب حرصاً على سلامتهم، فهو أكبر من عدد أولئك؛ والرسالة الغُفل بالذات تتيح لهم هذه الإمكانية: فالرسالة لا تُعاقَب بالضرب، ولا تحمّر من الخجل.

قديماً لم يكن للشرف الأوربي وجود عندنا، وكان أعياننا يتسابّون، بل حتى يتشاجرون علناً، ولم تكن اللطمة تُعَدُّ انتهاكاً فاحشاً ونهائياً للشرف؛ ولكن بالمقابل كان لديهم مفهومهم الخاص للشرف. ومع أن الشرف عندهم لم يكن بالشكل الأوربي، غير أنه لم يكن يقل أهمية من حيث القدسية والجدية. ففي سبيل صونه كان الواحد منهم يستهين أحياناً بكل شيء: بثروته، وبمكانته في البلاط، وحتى بِرِضا القيصر عنه. ولكن مع تغييرنا زي اللباس، واستعمالنا المِغْوَل* الأوربي بدأ يبرز عندنا شكل جديد للشرف هو الشكل الأوربي، وظللنا قرنين كاملين من غير أن نعتمد هذا الشكل جدياً، وهكذا فقد نسينا القديم وازدريناه، واعتمدنا الجديد بارتياب وتشكك. لقد اعتمدناه ميكانيكياً، إذا جاز التعبير، وأخذنا ننسى روحياً ماذا يعني الشرف، وفقدنا احتياجنا القلبي إليه، ومن المرعب حقاً الاعتراف بهذا، مع بعض الاستثناءات التي ربما تكون قليلة جداً.

وعلى مدى هذين القرنين من المرحلة الأوربية، والمِغْوَلية**، إذا جاز التعبير، في

(*) الكلمة الروسية المستعملة هنا تسمية لسيف ذي نصل طويل ضيق مستقيم، ثلاثي الأضلاع، أو رباعيها، أو سداسيها. (م).
(**) نسبة إلى المِغْوَل. (م).

تاريخنا بقي الشرف والضمير موجودَيْن بمعظمهما أو حتى بكُلّيتهما، مهما بدا ما سأقوله غريباً، لدى شعبنا الذي لم تمسسه تقريباً تلك المرحلة المِغْوَليّة في تاريخنا. فليكن الشعب قذراً، وجاهلاً، وهمجياً، وليضحكوا من افتراضي من دون أي تسامح، ولكن لِيعلموا أنني ظللت طوال حياتي مقتنعاً بأن شعبنا أنقى قلباً بما لا يقاس من فئات مجتمعنا العليا، وأن عقله بعيد عن تلك الازدواجية التي تجعل صاحبها يحتضن، إلى جانب أنقى وأنبل الأفكار، في الوقت نفسه، وفي اللحظة نفسها، أخسَّ نقائضها، كما هو حال أغلب مثقفينا، الذين ترى واحدهم يظل محتفظاً بهاتين الفكرتين من دون أن يعرف بأيهما يؤمن، وأيهما يفضل في التطبيق العملي؛ بل إنه يسمي هذه الحالة العقلية والنفسية غنىً في التطور، ويعُدُّها من نِعم التنوير الأوربي، حتى ولو كان هذا الغنى يجعله يعاني أشد المعاناة من الضجر والاشمئزاز، وتراه في الوقت نفسه يضحك بملء شدقيه من شعبنا البسيط الذي لم تمسّه بعد الحضارة الأجنبية، يضحك منه لسذاجته واستقامته في الإيمان بمعتقداته... ولكن هذا موضوع واسع؛ وسأكتفي هنا بالقول: إن أكثر أفراد الشعب جلافة يخجل من بعض الأفكار والدوافع التي يحملها بعض الشخصيات من «الفئة العليا» في مجتمعنا، وأنا على يقين بأنهُ سيَزْوَرُّ باشمئزاز عن أكثرية الأفعال التي يقدم عليها مثقفونا. إنني على يقين بأنه لا يفهم، وسيبقى طويلاً لا يفهم أن الشخص عندما يكون منفرداً، وموجوداً خلف أبواب مغلقة حيث لا أحد يرى ماذا يفعل، يمكن له أن يقوم بينه وبين نفسه بأفعال خسيسة، ويعدّها مباحةً تماماً وجائزة أخلاقياً، وذلك لسبب واحد فقط هو عدم وجود شهود، ولا أحد يرى ماذا يفعل، علماً بأن هذه الخصلة غالباً جداً ما تتجسد في ممارسات الفئة المثقفة عندنا، وحتى من دون أي حرج وجداني، بل بالعكس، غالباً جداً ما يقترن ذلك لديها بأعلى درجات الارتياح العقلي والانسجام مع أسمى خصائص النفس المتنورة. أما الشعب فإنه يفهم الأمر على النحو الآتي: إن كل ما هو خسيس في العلن خسيس في السر أيضاً. بينما ننظر نحن إلى الشعب على أنه بذيء، وخسيس، وشتّام جهول، ولا يجد متعة سوى في السب والشتم. ولنتذكر بهذه المناسبة، ولا سيما بعد أن تغير الوضع وأصبح في عداد الماضي، أن الأكثرية الساحقة من العسكريين كانوا فيما سبق، عندما كنت في سن اليفاعة، يعتقدون أن الجندي الروسي، بصفته واحداً من أبناء الشعب، شغوف جداً بالتلفظ بكلمات بذيئة وبالسب والكلام الفاحش. ولذا فقد كان بعض القادة من الذين يرغبون في اكتساب شعبية، يسمحون لأنفسهم، في أثناء التدريبات على سبيل المثال، بكيل شتائم مصوغة بأسلوب فيه من التفنن والتزويق الفاحش ما يجعل الجنود يتضرجون بالحمرة خجلاً، بالمعنى الحرفي للكلمة؛ ويحرصون فيما بعد، عند عودتهم إلى ثكناتهم،

على نسيان ما تلفّظ بهم رؤساؤهم، وكانوا جميعاً يصرخون بصوت واحد في وجه من يذكّر بتلك الشتائم. وقد كنت أنا بذاتي شاهداً على ذلك أكثر من مرة. أما القادة فقد كانوا يشعرون بالسرور في قرارة أنفسهم، إذ كانوا يتوهمون أنهم استطاعوا أن يتقمصوا روحية الجندي الروسي! وماذا أقول! حتى غوغول نفسه في كتابه «مراسلات مع الأصدقاء» ينصح أحد أصحابه بأن يستعمل حتماً كلمات قارصة عند تقريع الفلاح القن على رؤوس الأشهاد، بل إنه أورد وصفاً لهذه الكلمات: فهي بالذات تلك التي تكون أكثر حدة، والتي تنطوي على أكبر قدر من البذاءة المعنوية، لا الخارجية، إذا صح التعبير، فالشتيمة يجب أن تكون مصوغة برهافة بالغة. هذا في حين أن الشعب الروسي، مع أنه يسب، ويا للأسف، بكلمات قارصة، ولكن ليس كله البتة، أجل، ليس كله البتة، بل جزء قليل جداً منه فقط (هل سيصدقون هذا؟) والأهم (وهذا أمر لا جدال فيه) أنه يسب، على الأرجح، آلياً، من دون أن يفكر في صياغة الشتيمة صياغةً مرهفة معنوياً، يسب، على الأرجح، بحكم العادة، لا عن قصد مبيّت، وهذا الأخير بالذات، أي السب عن قصد مبيت، لا يصدف إلّا في حالات شديدة الندرة، كما في أوساط الأفّاقين، والسكّيرين وسائر الأسقاط الذين يحتقرهم الشعب. ومع أن الشعب يسب بحكم العادة، فإنه يعرف أن هذه العادة سيئة، ويدينها. وعلى هذا فإن إقلاع الشعب عن عادة الشتم هو ببساطة، حسب رأيي، قضية فكاك ميكانيكي من أسر العادة، وليس قضية جهد أخلاقي. وعلى العموم فإن هذه الفكرة عن شعبنا بصفته محباً للشتائم الرَّذِلة قد ترسخت في أوساط فئتنا المثقفة، حسبما أرى، وتجذرت على الأخص عندما وقعت القطيعة الأخلاقية النهائية بين هذه الفئة والشعب، وانتهت، كما هو معروف، إلى أن فئتنا المثقفة لم تعد تفهم الشعب البتة. وقد ظهر عندئذ بالذات كثير من الأفكار الخاطئة عن شعبنا. دعهم لا يصدقوني ولا يصدقوا شهادتي على أن شعبنا ليس البتة بذاك الشتّام الذي ما انفكوا حتى الآن يتصورونه ويصفونه، دعهم لا يصدقوا، أما أنا فإنني موقن بأن شهادتي لها ما يبررها. وتلك الآمال التي أعقدها على الشعب أعقدها أيضاً على جيلنا الشاب. إن شعبنا وجيل مثقفينا الشاب سيلتقيان فجأة في نواحٍ كثيرة، وسيفْهم أحدهما الآخر على نحو أقرب بكثير، وأنجع بكثير مما كان يجري في زمننا وفي جيلنا. شبيبتنا تتسم بالجدية، وليس علينا سوى أن نرجو من الرب أن يتحلى من يوجهها بمزيد من الذكاء. وأذكر بمناسبة الحديث عن الشبيبة أن فتىً في مقتبل العمر أرسل لي مؤخراً رسالة تتضمن اعتراضاً عنيفاً على موضوع أمتنع عن ذكره، ووقع رسالته العنيفة (ولكن المنزهة تماماً عن قلة الأدب) بالاسم الكامل* بل كتب عنوانه أيضاً.

(*) بالفرنسية في الأصل en toutes lettres. (ن).

ودعوته لزيارتي كي نتفاهم. فلبى الدعوة، وأدهشتني بشدة حميّته وجديّة موقفه من القضية. وقد اتفق معي في بعض الأمور، وغادرني وهو مستغرق في التفكير والتأمل. وأشير أيضاً إلى أن الجيل الفتي عندنا كما يبدو لي، أقدرُ بكثير على الجدال من جيل الشيوخ، أقصد من حيث طريقة الجدال بالذات: فهم يصغون إليك بانتباه، ويدعونك تتكلم: وهذا يدل على أن إيضاح القضية أثمن لديهم من الاعتزاز بالنفس. وقد عبّر لي الشاب عند المغادرة عن أسفه لعنف رسالته، وفعل ذلك بأنفة غير مصطنعة. جوهر القضية هو أن شبابنا ليس لديهم قادة! مع أنهم بحاجة ماسة إلى قيادة، وكم من مرة اندفعوا باستبشار شديد خلف أشخاص لا يستحقون ذلك، ولكنهم يتحلون بقدر ضئيل من الإخلاص! وما هي الخصال التي ينبغي أن يتسم بها هؤلاء القادة، أو هذا القائد المنتظر، أياً كان؟ وهل سيرسل لنا قدرنا الروسي أمثال هؤلاء الناس - هذا هو السؤال!

خطةُ قصةٍ فاضحة من الحياة المعاصرة

أنا، في الحقيقة، لم أنهِ حديثي بعد عن الشتّام الذي يخفي اسمه. فمثل هذا الشخص يمكن أن يمثّل أنموذجاً أدبياً يتسم بجدية فائقة في رواية أو قصة ما. والمهم في الأمر أن من الممكن ومن الضروري هنا أن ننظر إلى الظاهرة من وجهة نظر مغايرة، من وجهة نظر عامة، إنسانية، وأن نلائمها مع الطبع الروسي بوجه عام، ومع العلاقة السببية المعاصرة الجارية التي تؤدي إلى ظهور مثل هذا الأنموذج عندنا بوجه خاص. وبالفعل ما إن نبدأ نعالج مثل هذا الطبع حتى ندرك على الفور أنه يستحيل خلو المجتمع عندنا الآن من أمثال هذه الشخصية، أو، بتعبير أصح، إن أمثال هذه الشخصية هم الذين ينبغي أن نتوقع ظهورهم قبل غيرهم في زمننا هذا؛ وإذا كان عددهم ما زال قليلاً نسبياً فما ذلك إلا بفضل رأفة الرب بنا. وكل هؤلاء هم، في الحقيقة، من الناس الذين تربّوا في السنوات القريبة الماضية في عائلاتنا المزعزعة الأركان، في كنف آباء شكاكين مستائين، لم ينقلوا إلى أبنائهم سوى عدم الاكتراث بكل ما هو ضروري حيوياً، وربما نقلوا إليهم في أقصى الحالات قلقاً غير محدد المعالم حول شيء ما قادم، ذي طابع خيالي للغاية، ولكنه شيء يميل إلى الإيمان به حتى هؤلاء الذين يوصفون

بأنهم واقعيون ناجزون، وكارهون لحاضرنا كرهاً صادراً عن تفكير بارد. ومن البديهي أن يكونوا قد نقلوا إليهم، علاوة على ذلك، ضحكهم الارتيابي العاجز، الذي نادراً ما يصدر عن وعي، ولكنه دائماً يدل على رضاً تام. وهل هم قليلون أولئك الأطفال الذين نشؤوا خلال العشرين أو الخمس والعشرين سنة الماضية في كنف هؤلاء الحُسّاد السفلة، الذين بذّروا آخر ما تبقى لديهم من أموال الفِدية*، ولم يتركوا لأبنائهم سوى العوز ووصيّة الدناءة؟ هل هي قليلة هذه العائلات؟ ولنفترض أن شاباً من أبناء هذه الأسر تولى وظيفة ما. شخص لا أهمية له، ولا يتسم «باللوذعية»، وليس لديه أية علاقات هامة. كل ما لديه هو عقله الفطري، وهذا موجود لدى أي إنسان، ولكن بما أن هذا العقل قد تربّى، في المقام الأول، على السخرية الهازئة التي لا هدف لها، والتي ينظرون إليها عندنا منذ خمس وعشرين سنة على أنها ملازمة لليبرالية، فإن بطلنا لن يتوانى، طبعاً، عن أن ينظر إلى عقله على أنه معادل للعبقرية. آه، يا إلهي، وكيف للاعتزاز بالنفس الذي لا حدود له ألّا يظهر عندما يكون الشخص قد نشأ بلا أي ضابط أخلاقي ذاتي. تراه في البداية لا ينفك يهزأ ويتبجح بشدة، ولكن بما أن لديه عقلاً مع كل ذلك (أُفضِّل أن آخذ كنموذج شخصاً أذكى بقليل من الأشخاص الوسط، وليس أغبى منهم، علماً بأنه في هاتين الحالتين فقط يمكن ظهور مثل هذا النموذج) فهو سرعان ما سيدرك أن السخرية الهازئة تصرف سلبي، ولن تؤدي إلى أي شيء إيجابي. وإذا كان أبوه قد اكتفى بها، فما ذلك إلّا لأنه مأفون هرم، على الرغم من كونه ليبرالياً، أمّا هو، ابنه، فإنه عبقري، وليس تعسُّر إظهاره هذه العبقرية سوى أمر مؤقت. وهو، طبعاً، مستعد نفسياً، للقيام بأي تصرف سافل حقاً، «إذ ما الذي يمنع من استخدام السفالة في الممارسة العملية»؟ ثم مَنْ بوسعه حقاً إلخ... إلخ... وباختصار فإنه قد نشأ وتربّى على هذه المسائل الجاهزة. ولكنه سرعان ما سيدرك أن استخدام السفالة نفسه في الممارسة العملية يتطلب في أيامنا هذه انتظار حلول فرصة طويلة الأمد؛ ثم إن بين الاستعداد الأخلاقي لاستخدام السفالة وممارستها فعلاً مسافة طويلة حتى بالنسبة إليه، وتمهيداً لاجتياز هذه المسافة لا بد له من تحقيق التوازن، إذا جاز القول، على صعيد الممارسة العملية. ولكن إذا كان الشخص المعني على جانب من الغباء، فإنه سيتدبر أمره بمثل لمح البصر: «لتسقط الطموحات العليا ولأسارع إلى إيجاد مكان لي لدى فلان أو في كنف فلان، ولأخدمه خدمة العبد للسيد بكل طاعة وقناعة، وفي النهاية: الحصول على منصب». بيد أن الاعتزاز بالنفس، واليقين بأنه عبقري يظلان يعوقانه مدة طويلة: إنه لا يستطيع، حتى في أفكاره، أن يربط مصيره المجيد المفترض بمصير فلان أو فلان. «لا، نحن

(*) أموال الفدية: المبالغ المالية التي قضى قانون إلغاء القنانة عام (1861) بأن يدفعها الأقنان لملاّك الأراضي لقاء تحريرهم من نير القنانة. (م).

لا نزال حتى الآن في المعارضة، وإذا كانوا هم يريدونني فليأتوا إلي ويحنوا رؤوسهم». وفيما هو ينتظر مغتاظاً أن يأتي أحد ليحني رأسه أمامه، ويستمر في الانتظار والاغتياظ، إذا بشخص ما يخطو من جانبه ويرتقي إلى مرتبة أعلى، وشخص آخر يجد لنفسه مكاناً مناسباً، وشخص ثالث يصبح رئيساً له، وكان هو قد أطلق يوماً ما على هذا الثالث لقباً ساخراً عندما كانا طالبين في «المدرسة العليا» وهجاه بقصيدة تهكمية نشرها في المجلة المدرسية التي كان يصدرها مكتوبة بخط اليد، وكان آنذاك يُشتَهر بأنه عبقري. «لا، هذا ظلم! لا، لم لست أنا، بل هو؟ وفي كل مكان، في كل مكان لا يوجد شواغر! لا- يقول لنفسه - ليس هنا مستقبلي، وما هي قيمة أن أتوظف؛ لا يتوظف سوى الأخرق البليد. أنا مجالي هو الأدب». وها هو يبدأ بإرسال مؤلفاته إلى هيئات التحرير باسم مستعار في البدء، ثم موقعةً باسمه الكامل بعد ذلك. وهم لا يردون عليه، بالطبع؛ فينفد صبره، ويواظب على التردد عليهم شخصياً. وإذا وجد فرصة ملائمة عند إعادة المخطوط إليه يسمح لنفسه بإطلاق بعض العبارات التهكمية اللاذعة التي تنطوي على سخرية مريرة، أو، كما يقال، يصب ما في قلبه من غضب؛ ولكن كل هذا لا يجدي فتيلاً. فيقول لنفسه وهو يتهانف بأسىً: «لا، يبدو أن كل الأماكن هنا أيضاً مشغولة». والمهم أنه يظل على الدوام يرزح تحت عبء هَمٍّ مُضنٍ، هو أن يعثر دائماً وفي كل مكان على أكبر عدد ممكن من الأشخاص الأسوء منه. إنه لن يستطيع أبداً أن يفهم كيف يمكن للمرء أن يبتهج لأن ثمة من هو أحسن منه! عندئذ بالذات تخطر له للمرة الأولى فكرة إرسال رسالة حاقدة غير مُوقّعة إلى إحدى هيئات التحرير التي أهين فيها أكثر مما في سواها. يكتب الرسالة ويرسلها، ويكرر هذا مرة أخرى، ويعجبه ما يفعله. ولكنه لا يلمس أية عواقب لفعلته. فكل ما حوله ظل كما كان في السابق: سكون أصم، أبكم، أعمى. يقرر أخيراً بينه وبين نفسه: «لا، ليس هذا هو المستقبل الذي أطمح إليه». ثم نراه يقرر في نهاية المطاف أن «يستقر في مكان ما»، فيختار الشخص المناسب، إنه بالتحديد رئيسه: المدير. فهنا يمكن أن تساعده المصادفة والعلاقات على نحو ما. إن بوبريشين* عند غوغول قد بدأ يتميز بِبَرْي الرّيش، واستُدعي لهذه الغاية إلى شقة «مَعاليه»، حيث التقى ابنة المدير، وبَرى لها ريشتين. ولكن زمن بوبريشين وأمثاله بات في عداد الماضي، ولم يعودوا يبرون الريش، كما أن بطلنا لا يستطيع أن يخالف طبعه: فليس الرّيش هو ما يداعب خياله، بل أكثر الأحلام جرأة وطموحاً. وباختصار نراه يوقن بعد برهة جد قصيرة بأنه فتن ابنة المدير وأنها متيّمة به. يقول في نفسه: «هذا هو المستقبل؛ وما نفع النساء إذا كان الشخص الذكي لا يستطيع أن يصنع من خلالهن مستقبله: وهنا في حقيقة الأمر، تكمن قضية المرأة برمتها، إذا ما ناقشناها نقاشاً واقعياً. والمهم أن هذا ليس

(*) بوبريشين: بطل قصة غوغول «مذكرات مجنون». (م).

بالأمر المخجل: فهل هم قلائل أولئك الذين شقوا طريقهم في الحياة من خلال النساء؟»
ولكن... ولكن في هذه البرهة بالذات يظهر أمامه بالمصادفة ضابط، كما حدث لبوبريشين! وقد تصرف بوبريشين وفق ما أملاه عليه طبعه: فَقَد عقله وهو يحلم بأنه ملك اسبانيا. وهذا طبيعي جداً! فما الذي يمكن أن يبقى لبوبريشين المُهان، المحروم من العلاقات، والمنصب، والجسارة، والمبادرة أياً كانت، وفي ذاك الزمن البطرسبورغي، سوى أن يلقي بنفسه في خضم الأحلام اليائسة، ويصدقها؟ ولكن بوبريشينا نحن، بوبريشين المعاصر لنا، لا يمكن بحال من الأحوال أن يصدق أنه مثل بوبريشين السابق ذاك، الذي يتكرر الآن بعد مضي ثلاثين سنة؛ فبوبريشين اليوم تعربد في داخله الرعود والبروق، وتطفح نفسه بالاحتقار والاستهزاء اللاذع، وها هو يلقي بنفسه أيضاً في أحضان الأحلام، ولكن أحلامه من نوع آخر. إنه يتذكر أن ثمة إمكانية لوجود رسائل غُفل في عالمنا هذا، وهو قد استعملها مرة، وهكذا يجازف بتوجيه رسالة، ولكن لا إلى هيئة تحرير مجلة، بل إلى جهة أكثر تحديداً: فهو يشعر أنه يرتقي إلى طور عملي جديد. وها هو يغلق على نفسه باب غرفته متوارياً عن أنظار صاحبة البيت، وتراه يرتعش خوفاً من أن يبصره أحد، ثم يشرع يكتب ويكتب مغيّراً خطه، ويملأ أربع صفحات بالافتراءات والشتائم، ويعيد قراءة ما كتبه بتلذذ، ويجلس طوال الليل منتظراً الفجر، ثم يغلف الرسالة، ويكتب العنوان موجهاً إياها إلى: الخطيب الضابط. لقد غيّر خطه، ولذا فهو لا يشعر بالخوف، وها هو يَعُدّ الساعات... الآن يجب أن تكون الرسالة قد وصلت، وهي موجهة إلى الخطيب، وتتحدث عن سلوك خطيبته، وطبعاً سيفسخ هذا الخطبة، وسيخاف، فهذه ليست رسالة، بل «تحفة»! وصاحبنا الشاب يعرف حق المعرفة أنه وغد خسيس؛ ولكن هذا لا يبعث في نفسه سوى البهجة: «فالآن زُمن ازدواجية الفكر، ورحابة التفكير، ولا يمكن العيش الآن بفكر ذي اتجاه واحد».

لم تفعل الرسالة فعلها، بالطبع، وأقيم العرس؛ ولكن البداية تحققت وخُيّل إلى بطلنا أنه وجد الطريق إلى بناء مستقبله، وتملّكه سحرُ سرابٍ من نوع خاص، كما جرى لبوبريشين. وها هو يندفع بحمية ليمارس نوعاً جديداً من النشاط، هو كتابة الرسائل الغُفل. ويشرع يتسقط أخبار رئيسه الجنرال، ويفكّر، ويُفيض كل ما تجمع في نفسه خلال سنوات خدمته الطويلة من امتعاض، ومن غضب لكبريائه الجريح، ومن مرارة وحسد. إنه ينقد كل تصرفات الجنرال ويتهكم عليه بقسوة لا مزيد عليها في عدة رسائل. ويُعجب في البدء بهذا أيما إعجاب! فهو يصور في رسائله العديدة هذه تصرفات الجنرال، ويصور زوجته، وعشيقته، وغباء إدارته كلها؛ يصور كل شيء على الإطلاق. ثم يبدأ بالتوجه شيئاً فشيئاً نحو شؤون الدولة، فيدبج رسالة إلى الوزير يقترح عليه فيها تغيير روسيا، هكذا من دون مجاملات. يقول لنفسه: «لا،

لا يمكن للوزير إلّا يدهش، فالعبقرية ستدهشه وأظن أن الرسالة ستصل إلى... أقصد إلى الشخص الذي... وباختصار: اجتراء جسورٌ، mon enfant* وعندما يأخذون في البحث عن كاتب الرسالة، أعلن عن نفسي فجأة، أعني هكذا، بلا استحياء». وباختصار: تراه منتشياً بما يؤلّفه، ويتخيل في كل لحظة كيف ستفضّ رسائله، وما هي الانطباعات التي سترتسم على وجوه أولئك الأشخاص... وحالته النفسية هذه تسمح له بأن يعبث أحياناً: فيكتب من باب المزاح، إلى بعض الأشخاص المضحكين جداً، ولا يهمل حتى أشخاصاً من أمثال يغور يغوريتش، رئيس شعبته العجوز، الذي يكاد يفقد عقله فعلاً، عندما يؤكد له صاحبنا في رسالة غُفْل أن زوجته قد أقامت علاقة حب مع رئيس مركز شرطة الحي (والمهم أن هذا الخبر يمكن أن يكون شبه حقيقي). ويمضي بعض الوقت هكذا... ثم... ثم فجأة تلمع في ذهنه فكرة غريبة وهي إنه فعلاً بوبريشين، هو بوبريشين نفسه، بوبريشين السابق بالذات، ولكنه أكثر سفالة بمليون مرة، وجميع هذه الأهاجي الافترائية المكتوبة بالسر، وكل هذه القوة الغُفل التي يتمتع بها، ما هي في جوهرها سوى سراب لا أكثر، بل هي أشد أشكال السراب خسة ونذالة وخزياً، وأسوأ حتى من الحُلم بعرش اسبانيا. وقد حدث عندئذ أمر جدّي، وليس من النوع المخزي: «أي خزي هذا، الخزي هراء، ولا يخشى الخزيَ الآن سوى الصيادلة»** إنه أمر مخيف حقاً، مخيف بدون شك. فمع أن لديه عقلاً، إلّا أنه لم يستطع أن يتماسك، وفي غمرة انتشائه بالعثور على طريقه الجديد نحو المستقبل، وتحديداً بعد رسالته إلى الوزير، زلّ لسانه وأفشى سر رسائله... ولِمَنْ؟ للألمانية صاحبة البيت الذي يستأجر غرفة فيه، ولكنه، طبعاً، لم يقل لها كل شيء، وحتى لو قاله فإنها لم تكن لتفهم القصة كلها، لم يقل، طبعاً، إلّا القليل مما فاض به قلبه الطافح. ولكن لشدّ ما كانت دهشته كبيرة عندما لمَّح له بعد شهر من ذلك موظف هادئ مستكين، يعمل في دائرة أخرى ويسكن عند صاحبة البيت نفسها في غرفة قصيّة، وهو شخص صموت حقود، لمّح له فجأة وهو يمر به في الدهليز، وقد استبد به الغضب من أمر ما، إلى أنه - أي هو... هذا الموظف الهادئ المستكين - «شخص على خُلُق، ولا يكتب رسائل مُغفلة كما يفعل بعض السادة». كيف هذا! في البدء لم يخف كثيراً، بل إنه أيقن بعد أن امتحن الموظف - واضطر من أجل ذلك إلى أن يذل نفسه لمصالحته - بأنه لا يعرف شيئاً تقريباً. ولكن... ماذا إذا كان يعرف؟ ولا سيما أن إشاعة كانت قد بدأت تنتشر منذ مدة في المديرية عن أن شخصاً ما يرسل إلى الرؤساء بالبريد العام رسائل شتم وسب، وأن هذا الشخص هو

(*) يا بنيّ (بالفرنسية). (ن). (الترجمة عن الروسية). (م).

(**) تكرار محرف للحكمة التي يقولها بوبريشين بطل قصة غوغول «مذكرات مجنون»: «يا للشيطان! أي رسالة هذه! الرسالة هراء، الرسائل يكتبها الصيادلة...». (ن).

حتماً من موظفي المديرية نفسها. ويبدأ صاحبنا التعس بالتفكير، حتى إنه لم يعد يذوق طعم النوم. وباختصار يمكننا أن نتصور بوضوح آلامه النفسية، ووساوسه، وعثراته. وفي النهاية يقتنع تماماً تقريباً بأن الجميع يعرفون كل شيء، وأنهم لا يكلمونه في الأمر إلى حينٍ فقط. أما بشأن صرفه من الخدمة فأمر مبتوت فيه، ولكنهم لن يكتفوا بهذا، طبعاً... وباختصار، يكاد الرجل يفقد عقله، وها هو يجلس ذات مرة في المديرية وقد امتلأ قلبه بغضب لا حدود له على كل شيء وعلى الجميع، ويفكر: «أوه، يا للأشرار الملاعين، كيف يمكنهم التظاهر هكذا! طبعاً هم يعرفون أنه أنا، كلهم على الإطلاق يعرفون، وهم يتحادثون عن هذا همساً عندما أمر بجانبهم، ويعرفون أيضاً الورقة التي أُعدّت بشأني، والموجودة في غرفة المكتب... و... كلهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون! كلهم يخفون الحقيقة عني. إنهم يريدون أن يستمتعوا بالنظر إلي و«هم» يجرونني... لا...لا هذا لن يكون! لن يكون!» وها هو بعد ساعة يحمل مصادفة ورقة ما إلى غرفة مكتب معاليه. يدخل، ويضع الورقة على الطاولة باحترام؛ الجنرال مشغول ولا يلقي إليه بالاً؛ يستدير ويحاول أن يخرج من دون صوت، يمسك بمقبض الباب و... فجأة يرتمي على قدميّ معاليه كمن يقع في هاوية، في ثانية واحدة وبدون أن يعي أنه يلقي بنفسه: «في كل الأحوال هالك، ومن الأفضل أن أعترف بنفسي!» «أرجو فقط بهدوء يا صاحب المعالي، فقط أرجوكم بهدوء يا صاحب المعالي! أرجو ألّا يسمعنا أحد، وأنا سأخبركم بكل شيء، سأخبركم بكل شيء!» إنه يتوسل كالمجنون إلى معاليه المُنشده، ماداً يديه نحوه بحماقة. وها هو يعترف بغباءٍ بكل شيء، متحدثاً بصوت متقطع وكلام مفكك، وقد سرت رجفة في بدنه كله، مثيراً بذلك مزيداً من انشداه معاليه الذي لم يكن يشتبه البتة بأي شيء من هذا القبيل. إن بطلنا قد تصرف هنا بما يتطابق مع طبعه تطابقاً تاماً: وإلّا فلماذا ألقى بنفسه على قدميّ الجنرال؟ طبعاً بسبب المرض، طبعاً بسبب الوساوس، ولكن السبب الأهم هو الآتي: فمع أنه جَبُن، وأُهين، وحمّل نفسه الذنب كله، لكنه ظل يحلم كالسابق، كأي أحمق مفعم بنشوة الغرور، في أن معاليه، بعد أن يصغي إليه ويُعجب، على الرغم من كل شيء، بعبقريته، ربما سيفتح يديه، اللتين طالما وقّعتا الكثير من الأوراق في صالح الوطن، ويضمه إلى صدره وكأنه يقول: «أحقاً أن الظروف أوصلتك إلى هذا الحد أيها الشاب التعس، ولكن الموهوب! أوه، إنني أنا... أنا المذنب في كل هذا، أنا الذي سهوت عنك وأغفلتك! إنني أحمّل نفسي كامل المسؤولية. آه، يا إلهي، ما أسوأ الوضع الذي يُرغَم شبّاننا الموهوبون على الوصول إليه بسبب أنظمتنا العتيقة وعقائدنا البالية! تعال، تعال، إلى صدري، وشاركني في منصبي... ومعاً...معاً سنقلب المديرية قلباً!» ولكن هذا لم يحدث؛ وفيما بعد، بعد زمن طويل، عندما كان يتذكر، وهو يشعر بالخزي والهوان، الرفسة التي تلقاها من بوز جزمة

الجنرال في وجهه مباشرة، يتهم بصدق تقريباً القَدَر والناس: «مرة واحدةً في حياتي فتحت ذراعيّ على سعتهما لعناق الناس، فما الذي كوفئت به؟»... ويمكنني أن أتخيل خاتمته على نحو جد طبيعي وعصري، كأن يُسْتأجَر على سبيل المثال، بعد طرده من الخدمة، لعقد قران مُزيّف لقاء مئة روبل، ثم بعد التكليل يذهب هو في سبيله، وتذهب هي إلى صاحبها مالك دكان الخردوات. «شيء ظريف ونبيل»، كما يقول رئيس مركز شرطة الحي عند شيدرين في موقف مماثل*.

وباختصار، يبدو لي أن أنموذج الشتّام المجهول موضوع ليس سيئاً البتة لكتابة قصة؛ وهو موضوع جدي، ولكنه يحتاج إلى غوغول. وعلى كل فأنا مسرور، على الأقل لأنني عثرت مصادفة على الفكرة. وربما سأجرب فعلاً إدخالها في رواية.

زُرّاع الأمس - دبلوماسيّو الغد

ولكن إلى أين أنا ابتعدت عن الموضوع؟ لقد بدأت الحديث من أنني الآن موجود في القرية وسعيد بذلك. فمنذ وقت طويل لم أعش في قرية روسية. بيد أنني سأرجع الحديث عن القرية إلى وقت آخر، وأكتفي هنا بالإشارة إلى أن سبب سعادتي هو وجودي في القرية وليس خارج البلاد، ولن أرى مواطنينا الروس وهم يتسكعون هناك. وبالفعل، في زمننا هذا الشعبي جداً والتوحيدي جداً، والعابق بحب الوطن، في زمننا الذي تبحث فيه عن الروس في كل زاوية في وطنك، وتنتظر الروس، وترغب في رؤية الروس، وتطالب بوجودهم... كما يشق عليك أن ترى كيف يتحول الجوهر الروسي القح، الخام، وربما المتفوق، في البلدان الأجنبية التي ما انفك مثقفونا ينزحون إليها سنوياً خلال السنوات العشرين الماضية، ويعيشون هناك في جاليات، يتحول إلى تفاهة أممية بائسة، مسلوبة الشخصية، بلا طابع، ولا روح شعبية، ولا وطن. وأنا لا أتحدث هنا عن الآباء، فالآباء يستحيل إصلاحهم، لندعهم وشأنهم، بل أتحدث عن أبنائهم التعساء الذين يفسدونهم في المَهاجر؛ أما الآباء فإنهم يغدون في النهاية مضحكين

(*) إلماعاً إلى مشهد في الفصل الثالث مِن القصة الساخرة «رعائية معاصرة» (1877) للكاتب الروسي الشهير سلطيكوف - شيدرين (1826-1889). (ن).

حتى في نظر أوربيّينا الروس الراسخين في التأورب. يصف السيد بورينين*، الذي ذهب إلى الحرب بصفة مراسل، يصف في إحدى رسائله لقاء طريفاً بأحد أوربيّينا من جيل الأربعينيات، «يضفي عليه شيب شعره الأجعد مسحة من المهابة»، وهو يقيم بصفة دائمة في الخارج، ولكنه جاء خصيصاً إلى المنطقة التي تجري فيها الحرب ليتفرج على «مشهد القتال، طبعاً من أبعد مسافة مناسبة»، وكان يتهكم في عربة القطار على كل ما ظلّ هؤلاء السادة يتهكمون عليه طوال أربعين عاماً، أي على الروح الروسية، وعلى السلافويين إلخ... إلخ... وهو يدّعي أنه يعيش في الخارج لأن عندنا في روسيا «ما زال الإنسان المستقيم والجادّ لا يجد ما يفعله» (ملاحظة: أورِدُ المقتبسات من الذاكرة) ويقول في واحدة من أنجح فكاهاته التهكمية إن «أمراً صدر إلى القيّمين على السكك الحديدية يقضي بنقل طيف خوميكوف** في عربة خاصة بمناسبة دخول قواتنا المسلحة إلى بلغاريا وتجديد السلافوية»[13]. لقد كان من الممكن أن يقال لهذا السيد الذي وخط الشيب شعره الجعد إنه هو نفسه شديد الشبه أيضاً بطيف شخص ما حكّاء، وربما محترم جداً من غربويّي الأربعينيات الليبراليين، ولو أن هذا الشخص عاش حتى ابيضاض شعره الجعد، وكرر الآن بعد كل هذه السنوات الأقوال نفسها التي كان يرددها في أربعينياته، لكان سيبدو بالطبع، حتى ولو كان هو غرانوفسكي نفسه، سيبدو حتماً مماثلاً تماماً للمهرج الذي يظهر بصورته هذا السيد الذي يتحدث عن الأمر القاضي بنقل طيف خومياكوف بالقطار إلى ميدان الحرب، ويقرر أن الإنسان المستقيم ما زال حتى الآن لا يجد في روسيا ما يفعله.

كانت أكثرية المهاجرين من روسيا (وأنا أحافظ على هذه الكلمة) منذ عشرين سنة هي من فئة ملّاك الأراضي، ومنذ ذاك الوقت ظلت الهجرة مستمرة سنوياً. وكان بينهم، بالطبع، كثير من غير ملّاك الأراضي، من جميع الأصناف، ولكنهم كانوا في غالبيتهم العظمى، إن لم يكونوا جميعاً، من كارهي روسيا بقدر يقل أو يكثر. كان بعضهم يكرهها معنوياً لاعتقاده «بأن أمثاله من الناس المستقيمين والأذكياء ليس لهم في روسيا ما يفعلونه»، بينما كان آخرون يكرهونها كرهاً طبيعياً، مادياً، إذا جاز التعبير: بسبب مناخها، وحقولها، وغاباتها، وأنظمتها وفلاّحيها المحرَّرين، والتاريخ الروسي، وباختصار: يكرهونها بسبب كل شيء فيها. وأشير هنا إلى أن مثل هذه الكراهية يمكن أن تكون مُتراخية للغاية، وهادئة جداً، ولا مبالية إلى حد الخمول. وهنا بالذات أحس هؤلاء الكارهون بأموال الفدية بين أيديهم، وفضلاً عن ذلك دهمت الكثيرين منهم قناعة مباغتة بأن تحرير الفلاحين قضى على كل شيء: على القرية،

(*) بورينين، فكتوربيتروفتش (1841-1926) كاتب مقالات وأديب ومسرحي روسي. (ن).

(**) خوميكوف الكسي ستيبانوفتش (1804-1860) فيلسوف لاهوتي وكاتب وشاعر روسي، أحد مؤسسي السلافوية. (ن). انظر الهامش (131). (م).

وعلى ملكية الأرض، وعلى فئة النبلاء، وعلى روسيا. وفي الحقيقة أدى تحرير الفلاحين إلى جعل العمل في الريف يفتقر إلى التنظيم الكافي، وإلى التزويد بالمستلزمات الكافية، ثم إن الملكية الخاصة للأرض جَبُنت وارتبكت بالطبع إلى حد لا يمكن أن يتجاوزه أي انقلاب تاريخي آخر. وهكذا طفق مُلّاك الأراضي يبيعون ويبيعون، وسارع قسم منهم (وهو قسم ليس بالصغير البتة) إلى مغادرة البلاد. ولكن مهما قدّم هؤلاء من مبررات فإنهم لن يستطيعوا أن يخفوا عن مواطنيهم، وعن أبنائهم، أن السبب الرئيس لهجرتهم يعود إلى جاذبية «تَبَطُّلهم» الأناني. وغرقت ملكيةُ الأرضِ الخاصة منذ ذاك الوقت في فوضى تامة؛ فالأرض ما تنفك تباع وتشرى، وتُبدِّل مالكيها في كل دقيقة، وتبدّل حتى شكلها، إذ إنها تفقد غاباتها. فإلامَ ستتحول يا ترى، ولمن ستبقى نهائياً، وممن ستتألف في النهاية الفئة الروسية الجديدة المالكة للأرض، وأي شكل ستتخذه هذه الفئة في نهاية المطاف؟ من الصعب التنبؤ بكل هذا؛ في حين أن هذا بالذات إذا شئتم، هو الذي يتضمن المسألة الأهم في مستقبل روسيا، ولعل هذا هو قانون الطبيعة لا في روسيا فحسب، بل في العالم بأسره: فالذين يملكون الأرض في بلد ما هم أصحاب هذا البلد من جميع النواحي. هكذا كان الأمر في كل زمان ومكان. إلا أنهم سيقولون: علاوة على ذلك عندنا المشاعة، أي أنها هي صاحبة الأرض. ولكن... هل حُلَّت عندنا مسألة المشاعة حلاً نهائياً؟ أَوَ لم تدخل المسألة أيضاً منذ خمس عشرة سنة في طور جديد كسائر المسائل الأخرى؟ ولكن لنؤجل الحديث عن هذا إلى ما بعد، ولأختم فكرتي مؤقتاً بما يأتي من دون تعليل: إذا كانت ملكية الأرض في بلد ما تتسم بالجديّة فإن كل شيء في هذا البلد سيكون جديّاً من جميع النواحي، على العموم وفي الجزئيات. يهتمون عندنا الآن بالتعليم، على سبيل المثال، وبالمدارس الشعبية، أما أنا فأؤمن حصرياً بأن المدارس لن تؤدي وظيفتها على نحو جدي وثابت، إلّا إذا نظمت ملكية الأرض وزراعتها عندنا على نحو جدي وثابت، وأن الزراعة الجيدة لا تتوقف على المدرسة، بل العكس هو الصحيح، أي أن المدرسة الجيدة لن تقوم إلّا إذا كان العمل في الأرض منظماً تنظيماً جيداً (أي إذا كانت ملكية الأرض صحيحة وصائبة)، وليس قبل ذلك البتة. وينطبق هذا المثال بالتوازي على سائر الأمور الأخرى: الأنظمة، والقوانين، والأخلاق، وحتى عقل الأمة ذاته. ولا ينتظم في نهاية المطاف أي أداء سليم وصحيح لأي جهاز من أجهزة الأمة إلّا عندما تترسخ في البلاد مقومات متينة للعمل في الأرض. والشيء نفسه يمكن أن نقوله عن طابع ملكية الأرض: فسواء كان هذا الطابع ارستقراطياً أو ديمقراطياً، فإن طابع الأمة بمجمله سيكون مطابقاً له.

ولكن ملّاك الأراضي الروس السابقين ما زالوا حتى الآن يتجولون في جميع مدن أوربا، ومنتجعات المياه المعدنية، رافعين الأسعار في المطاعم، وجارّين وراءهم بحكم كونهم

أغنياء، مربيّات وحاضنات أطفالهم، الذين ألبسوهم ثياباً من الدانتيلا، وأطقمة إنكليزية تكشف عن سيقانهم أمام أنظار الأوربيين. وأوربا تنظر وتتعجب: «ما أكثر الأغنياء عندهم، والمهم أنهم متعلمون، وشديدو التوق إلى التنوير الأوربي. ومن الواضح أن الاستبداد هو سبب امتناع السلطات عندهم قبل الآن عن منحهم جوازات سفر إلى الخارج[127]. وفجأة تبيّن كم عندهم من ملّاك الأراضي، والرأسماليين، وذوي الإيرادات الريعية*، الذين لا يمارسون أي عمل. إن عددهم يفوق حتى عدد نظرائهم في فرنسا التي فيها الكثيرون من ذوي الإيرادات الريعية!» وإذا قلتم لأوربا، وشرحتم لها أن ما تراه ليس سوى ظاهرة روسية محض، وأنه لا وجود هنا لظاهرة «العيش من الإيرادات الريعية»، بل بالعكس، هذا التهامٌ للأرصدة الأساسية، وإشعال للشمعة من كلا طرفيها، فإن أوربا لن تصدقكم طبعاً، إذ إن هذه الظاهرة مستحيلةُ الحدوث فيها، ولا يمكنها فهمها البتة. والمهم في الأمر أن هؤلاء المترفين الذين يتسكعون في منتجعات المياه المعدنية الألمانية، وعلى ضفاف البحيرات السويسرية، هؤلاء اللوكولات** الذين يبددون أموالهم في مطاعم باريس، يعرفون، ويستشعرون مسبقاً مع بعض الألم في النفس، أنهم سيلتهمون في نهاية المطاف كل أرصدتهم، وأن أطفالهم، هؤلاء الملائكة الصغار المرتدين أطقمة إنكليزية، ربما سيجدون أنفسهم مضطرين إلى التسول في أوربا (وهم بالفعل سيتسولون!) أو إلى التحول إلى عمال فرنسيين وألمان (وهم بالفعل سيتحولون إلى عمال فرنسيين وألمان!) ولكنهم يقولون في أنفسهم: après nous le deluge (ومن بعدنا الطوفان). ومَن المذنب في هذا؟ المذنب هو أنظمتنا الروسية نفسها، وروسيانا الخرقاء التي ما زال «الإنسان المستقيم لا يجد فيها حتى الآن ما يفعله» هكذا يفكرون، أما أكثرهم ليبرالية، أي أولئك الذين يمكن أن نصِفَهم بأنهم الفئة الأسمى والأنقى بين غربويّي الأربعينيات، فإنهم يضيفون في سرّهم: «وأي ضير في أن يبقى الأبناء من غير ثروة، فهم مقابل ذلك سيرثون الفكرة، سيرثون الخميرة النبيلة التي تكسبهم طريقة التفكير الحقة المقدسة. فالمُتَربّون بعيداً عن روسيا لن يعرفوا القساوسة وكلمة «الوطن» الغبية. وسيدركون أن الوطن مجرد عقيدة بالية، بل هو العقيدة البالية الأكثر وبالة في العالم. وسيبرز من بينهم مفكرون ذوو عقول نبيلة تتسم بصبغة إنسانية عامة. ونحن الروس وحدنا من سينتج بواكير هذه العقول الجديدة. ونحن، بتبديدنا أموال الفدية في الخارج نرسي حجر

(*) الأشخاص الذين يعيشون من فوائد رؤوس أموالهم المودعة في البنوك، ومن عائدات الأسهم التي يملكونها وما شابه ذلك. (ن).

(**) لوكولات: جمع اصطلاحي للقب القائد الروماني لوكول (أو لوكولُس) (نحو 106-57 ق.م.)، الذي اشتهر بالبذخ وإقامة الولائم الفخمة حتى أصبح مضرب المثل في هذا. ومن هنا أتت عبارة «وليمة لوكولية». (ن).

الأساس لظهور المواطنية الأممية القادمة التي سيؤدي ظهورها، عاجلاً أو آجلاً، إلى تجديد أوربا، وسيكون لنا وحدنا شرف ذلك، لأننا نحن الذين بدأنا قبل الجميع». ولا يقول هذا، على العموم، سوى «الذين وخط الشيب شعرهم الجعد»، أي أشخاص لا يزالون قلة قليلة، وهل التقدميون الآن كثيرون؟ أما الأشخاص الذين يتسمون بطبيعة أكثر عمليةً، وحتى من «ذوي الشعر الأشيب» الذين ليسوا على قدر كبير من النبل، فإنهم ما زالوا يُعَوِّلون، في نهاية المطاف، على «العلاقات»: «نحن هنا نبدد ثرواتنا، هذا صحيح، ولكننا مع ذلك نجني بعض المكاسب، فثمة عمليات تعارف وإقامة علاقات مع آخرين سيكون لها فائدة فيما بعد في «الوطن». وفضلاً عن ذلك، فنحن، وإن كنا نربي أبناءنا بروح الليبرالية، إنما ننشئهم «جنتلمانات»، وهذا هو المهم في الأمر كله. إنهم سيعيشون في أوساط الفئات الاستثنائية والعليا، ومن المعروف أن الليبرالية في أوساطنا الراقية كانت تعني دائماً الجنتلمانية وتُلازِمُها، لأن الليبرالية الجنتلمانية مفيدة للنزعة المحافظة السامية، إذا صح التعبير، وهذا من الأمور التي كانت دائماً موضع تمييز عندنا. نعم، نحن نربي أبناءنا في الخارج، وبهذا بالذات نحن نهيئهم ليكونوا في المستقبل دبلوماسيين. ألا ما أروع كل هذه المناصب في السفارات والقنصليات هنا، وما أكثر هذه الوظائف الجذابة التي لا تُعدّ ولا تحصى، كما أن مخصصاتها المالية مبهرة! وهذا كافٍ بالنسبة لأبنائنا: طمأنينة وراحة، وكسب وثبات، ثم إن الخدمة الرسمية هنا مرموقة دائماً؛ وهي خدمة نظيفة، أنيقة، جنتلمانية؛ أما العمل فهو أسهل من سهل: ليس عليك سوى أن تتعرف إلى الروس الذين يعيشون في الخارج، على أن تنتقي منهم أكثرهم استقامة، أما سيئو السلوك الذين يرجون القنصل أن يحميهم، فيجب أن تعاملهم باستعلاء، وبأسلوب آمر صارم، وترفض حتى الاستماع إليهم، وكأنك تقول لهم: «إننا لا نصدقكم، فأنتم تُخلّون بالنظام، متصورين أنكم ما زلتم في وطنكم الحبيب، في حين أنكم هنا في مكان نظيف، وتصرفاتكم تسبب لنا إزعاجات، ونحن لسنا مستعدين لأن نقلق السلطات الأجنبية بسبب أشخاص من أمثالكم: انظروا فقط إلى أنفسكم في المرآة لتعرفوا إلى أي حد وصلتم!» هذا هو كل ما تتطلبه الخدمة هنا! أي، باختصار، سيستطيع أبناؤنا أيضاً أن يشقوا طريقهم في الحياة على أن تتوافر العلاقات المناسبة؛ وهذا أول ما يجب على الأب الحنون أن يراعيه، وكل ما تبقى يأتي عند الطلب».

وهكذا فإن جميع أولئك الذين يقيمون في الخارج، ولا يتسمون بالقدر الكافي من النبالة، يُعَوِّلون بقدر يزيد أو يقل على العلاقات. ولكن ما هي هذه العلاقات في الحقيقة؟ إنها، حتى وإن كانت ترتدي أهمية ما، ليست سوى نسيج ما يلبث أن يبلى؛ ولا شيء يمنع البتة من أن يتزود هؤلاء، إلى جانب العلاقات، ولو بقدر ضئيل من معرفة روسيا، ومعرفة عقلهم ذاته،

ولو من قبيل الاحتياط. والآن بالذات، في عصر الإصلاحات والبدايات الجديدة، يرغب الجميع عندنا في أن يعيشوا حسبما تمليه عليهم عقولهم، كما لو أن الأمر للنكاية؛ الجميع يرغبون في هذا، ومع أن الفكرة بحد ذاتها تنم عن استنارة بلا شك، ولكن المصيبة في أننا لم نعان قط من قلة الذكاء الذاتي كما نعاني الآن، علماً بأن ثمة رغبة عامة في امتلاكه. لِمَ الأمر هكذا؟ لن أتنطح للإجابة، ومن الصعب أصلاً أن نجيب، ولكنني أعرف حق المعرفة أحد الأسباب التي ستجعل من ملائكتنا الصغار، بلا جدال، حمقى؛ ومع أن هذا السبب قديم ولكنني سأذكره. وعلى كل فإن الفكرة هي نفسها التي كنت عبرت عنها العام الفائت. السبب هو اللغة الروسية، أي النقص في معرفة اللغة الروسية الأم بسبب التربية في الخارج على أيدي الحاضنات والمربيات الأجنبيات. هذا الأمر كان موجوداً عندنا على الدوام، وكان في السابق أيضاً، أعني هذا النقص، ولكنه لم يكن يوماً بمثل هذه الضخامة التي بلغها في أيامنا، وذلك بسبب تزايد أعداد الملائكة الصغار الذين ينشؤون في الخارج. ولنفترض أنهم يُعِدّون أنفسهم ليصبحوا دبلوماسيين، ولغة الدبلوماسية، كما هو معروف، هي الفرنسية. أما اللغة الروسية فيكفي أن يعرفوها من الناحية النحوية فقط. ولكن هل الأمر هكذا فعلاً؟ إن هذه المسألة، مع أنها قديمة حتى درجة الابتذال، ما زالت حتى الآن بغير حل، مما استدعى استئناف الحديث عنها مؤخراً حتى في الصحافة، ولو على نحو غير مباشر، وذلك بمناسبة صدور مؤلفات للسيد تورغينف باللغة الفرنسية. وقد ظهر رأي يذهب حتى إلى القول: «الأمر بالنسبة للسيد تورغينف سيان: إذ لا فرق إن هو كتب أعماله باللغة الفرنسية، أو باللغة الروسية! وما هو المحظور هنا؟» ليس من شيء محظور طبعاً، ولا سيما بالنسبة لكاتب كبير ومتضلع من اللغة الروسية مثل تورغينف؛ فإذا كانت لديه مخيلة لمثل هذا فما الذي يمنعه من الكتابة بالفرنسية، وخصوصاً إذا كانت معرفته اللغة الفرنسية تعادل معرفته اللغة الروسية تقريباً. ولذا لن أقول أية كلمة بشأن تورغينف، ولكن... ولكن أنا، كما أرى، أكرر بكل تأكيد، ما كنت قد قلته سابقاً... ومن المؤكد أنني كنت قد قلت في العام الماضي الشيء نفسه حول هذا الموضوع بالذات، وفي مثل هذه الأشهر التي عشتها في الخارج، وذلك عندما كنت أبيّن لأم روسية تعيش هناك الضررَ الذي تلحقه اللغة الفرنسية بملائكتها الصغار. بيد أن الأم تُعِدّ ملائكتها الصغار الآن ليصبحوا دبلوماسيين، وبصدد هذه الدبلوماسية بالذات سأجازف وأقول كلمة أخرى لها، على الرغم من أن التكرار أمر غير مستحب.

ولكن، أوّاه، إنها في هذه المرة تقاطعني حتى قبل أن أبدأ، فهي قد استعدّت منذ العام الماضي، وها هي تستخف بي وتقول لي باستعلاء: «ولكن من المعروف أن لغة الدبلوماسية هي الفرنسية».

وأرد عليها قائلاً: «نعم، يا سيدتي، إن اعتراضك قوي، وأنا أوافقك بلا جدال... ولكن أولاً: إن ما قلتُه عن معرفة اللغة الروسية، ينبغي تطبيقه على اللغة الفرنسية كذلك، أليس هذا صحيحاً؟ فَلِكيْ يعبر المرء باللغة الفرنسية عن غنى كيانه يجب عليه أن يحيط باللغة الفرنسية كأغنى ما تكون الإحاطة. ولكن عليك أن تعرفي أن ثمة سراً في الطبيعة، أو قانوناً من قوانينها يتلخص فحواه في أن المرء لا يمكنه أن يحيط إحاطة تامة بكل لغة من اللغات سوى بتلك التي يولد معها، أي اللغة التي يتكلم بهَا الشعب الذي ينتمي إليه. أرى أنك تغضنين وجهك وكأنني قد أهنتك، وتنظرين إليّ باستهزاء، وتنفضين يدك، وتؤكدين أنك سمعت هذا في العام الماضي، وأنني أكرر أقوالي. حسن، إنني أتراجع أمامك. ثم إن هذا الموضوع ليس نسوياً. إنني سأتراجع بكل بساطة، وأوافقك على أن الروسي بوسعه أن يحيط باللغة الفرنسية إحاطة تامة، ولكن بشرط صارم هو أن يولد في فرنسا، وينشأ فيها، ويتحول إلى فرنسي منذ الساعة الأولى في حياته. أوه، ها أنت تبتهجين، وترتسم الابتسامة على محياك، ولكن عليك يا سيدتي، أن تلاحظي أن تحقيق هذا لن يكون متاحاً تماماً حتى لك فيما يخص ملاكك الصغير، بصرف النظر عن جميع الظروف الملائمة، وأقصد: الوجود في المهجر، وأموال الفدية، والحاضنة الباريسية إلخ... إلخ... كما أن عليك أن تأخذي بالحسبان المواهب الطبيعية، إذا جاز التعبير، إذ لا يمكن أن نقارن السيد تورغينف بملاكك الصغير، على سبيل المثال، من حيث توافر هذه المواهب. قولي لي: هل يولد كثيرون من أمثال تورغينف... آخ، لا، لا، ما هذا الذي أقوله! مرة أخرى أخطأت، خبّصت: من المحتمل أن يتفتق ملاكك الصغير عن تورغينف، أو حتى عن ثلاثة تورغينفات دفعة واحدة، فلندع هذا جانباً، ولكن...» وهنا تقاطعينني فجأة بقولك: «ولكن الدبلوماسيين كلهم أصلاً أذكياء، فلماذا نشغل أنفسنا إلى هذا الحد بمسألة الذكاء؟ صدقني، المهم هنا هو العلاقات فقط Mon mari*...». وهنا أنا الذي أبادر بسرعة إلى مقاطعتك: «أنت محقة تماماً، يا سيدتي، المهم وجود العلاقات، ولْنُنَحِّ زوجك جانباً إلى أبعد ما يمكن، إذ إنني أريد أن أضيف أنه لا ضير في أن تقترن العلاقات ولو بقليل من الذكاء، وذلك أولاً: لأن الدبلوماسيين ليسوا أذكياء لأنهم دبلوماسيين، بل لأنهم كانوا أذكياء قبل أن يصبحوا دبلوماسيين، وصدقيني: إن هناك كثيراً جداً من الدبلوماسيين الذين يمتازون بغباء رائع...». وتقاطعينني أنت بلهجة من فرغ صبره: «أوه، لا، هنا اسمح لي أن أقول لك إن الدبلوماسيين جميعهم أذكياء دائماً وجميعهم في مراتب متفوقة، وعملهم هو أنبل الأعمال»، وأهتف أنا: «يا سيدتي، يا سيدتي، أنت تقولين: العلاقات ومعرفة اللغات، ولكن العلاقات لا تمنح سوى المنصب، ثم بعد ذلك... تصوري معي أن ملاكك الصغير سينشأ، وسيلهو مع

(*) زوجي... (بالفرنسية). (ن).

«مغناجات الموضة»، برفقة الفيكونتات الأجانب، والكونتات الروس، ثم بعد ذلك... ها هو يعرف جميع اللغات، ولهذا السبب وحده لا يعرف أياً منها. وبما أنه لا يمتلك لغته الخاصة، فهو بالطبع سيتلقف نتفاً من أفكار وعواطف جميع الأمم، وسيتخبط ذهنه منذ الصبا في مستنقع عكر ما ليغدو في المستقبل شخصية دولية باهتة محدودة الذكاء، لديه أفكار ضحلة منقوصة، وقدرته على محاكمة الأمور بليدة ووحيدة الاتجاه. إنه دبلوماسي، ولكن تاريخ الأمم يَمْثُل في وعيه على نحو يدعو إلى الضحك. إنه لا يرى، بل لا يخمن مجرد تخمين، بم وكيف تعيش الأمم والشعوب، وما هي القوانين التي تتحكم في كياناتها، وهل تنتظم هذه القوانين في كل موحد، وهل ثمة وجود لقانون دولي عام. إنه مستعد لأن يستنتج أسباب كل أحداث العالم من مجرد أن الملكة الفلانية، على سبيل المثال، أغضبت عشيقة الملك الفلاني، مما أشعل نار الحرب بين المملكتين. واسمحي لي أن أحاكم الأمر من وجهة نظرك أنت. لنفترض أن المهم هو العلاقات... ولكن تكوين العلاقات يحتاج إلى طبع ملائم، يحتاج لِنَقُلْ: إلى دماثة في الطبع، إلى اللين، والطيبة، وفي الوقت نفسه إلى الثبات والإصرار... على الدبلوماسي أن يكون آسراً، إذا جاز التعبير، أن يأسر وينتصر، أليس صحيحاً؟ ولا أدري هل ستصدقينني أم لا إذا قلت لك بصراحة وبمنتهى الدقة إن ملاكك الصغير يتعذر عليه حتى أن يُسوّي طبعه بدون معرفة لغته الأم وتمكُّنِه منها، لا سيما إذا كانت الطبيعة قد حَبَتْهُ موهبةً رحبة وغنية: إذ تبدأ تتولد لديه الخواطر والأفكار والمشاعر في أوانها، وتأخذ تضغط عليه من الداخل باحثةً عن تعبير عنها ومطالبةً به، ولكن لن يتسنى لها ذلك بدون أشكالٍ للتعبير مكتسبةٍ منذ الطفولة وجاهزة وغنية، أي بدون لغة، وبدون تطوير هذه اللغة والإحاطة بدقائقها وامتلاك تلويناتها؛ وإلّا فإن ابنك سيظل دائماً غير راضٍ عن نفسه: فنُتَف الأفكار ستكف عن كونها مُرضية له، والمادة المتراكمة في ذهنه وقلبه ستطالب بالتعبير عنها تعبيراً وافياً متقناً... وسيظل الفتى مشغول البال مشتت الفكر، مستغرقاً في تأملات لا موضوع لها، ثم يصبح دائم التذمر وغير محتمل، وبعد ذلك تتدهور صحته، وربما أصيب بتلبك معدي... هل تصدقين هذا...؟».

ولكنني أرى، أرى أنك تستغرقين في الضحك، فأنا مرة أخرى شططت في الحديث، موافق (ولكن يا إلهي ما أصحَّ ما أقوله!) ومع ذلك اسمحي لي أن أكمل حديثي، واسمحي لي بتذكيرك أنني قد تراجعت أمامك منذ قليل، ووافقتك ظاهرياً على أن الدبلوماسيين، على كل حال، أشخاص أذكياء، ولكنك أوصلتني الآن يا سيدتي إلى حالة تضطرني إلى أن لا أخفي عنك حتى أعمق البواطن المكنونة التي ولّدت نظرتي إلى هذا الموضوع. فقد خطرت لي، يا سيدتي، عدة مرات في حياتي كما لو عن عمد، فكرة مؤداها أن الدبلوماسية، أقصد الدبلوماسية

بعموميتها الشاملة، أي دبلوماسية جميع الشعوب خلال القرن التاسع عشر بأكمله، نادراً، بل نادراً جداً ما شهدت أشخاصاً أذكياء. بالعكس، إن ما يذهل هو شح الفكر لدى هذه الشريحة في تاريخ أوربا خلال القرن الحالي... دعيني أوضّح أن ما أقصده هو أن جميع هؤلاء أذكياء بقدر يزيد أو يقل؛ هذا أمر لا مراء فيه، وجميعهم لوذعيون، ولكن أي ذكاء هذا! هل استطاع ولو واحد منهم أن ينفذ بذكائه إلى جوهر الأشياء، وهل أدرك أو حَدَسَ مسبقاً بالقوانين الخفية التي تقود أوربا إلى وضع ما، وضع مجهول، غريب، مخيف، ولكنه الآن أصبح واضحاً، ويتحقق في الواقع المرئي تقريباً، ولكن أمام أبصار أولئك الذين لديهم ولو قدر طفيف من القدرة على أن يشعروا مسبقاً بما سيأتي، لا، بوسعنا القول بكل تأكيد إنه لم يكن هناك أي دبلوماسي، ولم يكن هناك أي عقل ذكي في هذه الفئة، المحترمة جداً والمحبوبة، قادراً على ذلك! (إنني، وأنا أقول هذا، أستثني طبعاً روسيا وكل ما هو وطني، وذلك لأننا نشكل، من حيث الجوهر، «حالة خاصة» في هذه القضية). بالعكس، فقد ظهرت في غضون هذا القرن عقول دبلوماسية، لِنَقُل، شديدة الدهاء، وماهرة في تدبير الدسائس، وتدعي فهم الأشياء على نحو جد واقعي، في حين أن أياً منها لم يكن يرى، في الحقيقة، أبعد من أنفه ومن المصالح الآنية (بل حتى السطحية جداً والمغلوطة)! كيف يمكن أن نُوصِّل الخيوط المقطّعة، وأن نرقع الخَرْق، وأن «نزيل الرغوة، ونطلي بالذهب، لتظهر الأشياء كأنها جديدة»: هذه هي مهمتنا، هذا هو عملنا! ولكل هذا أسبابه؛ والسبب الرئيس في رأيي هو انفصال المبادئ بعضها عن بعض، والانفصال عن الشعب، وانفراد العقول الدبلوماسية وتقوقعها في دائرة ضيقة ضمن الشريحة الاجتماعية العليا منفصلة عن البشرية. خذوا على سبيل المثال، الكونت كافور[128]. ألم يكن من ألمع الأذكياء، ومن أبرع الدبلوماسيين؟ وأنا آخذه كمثال لأن عبقريته مسلم بها، وأيضاً لأنه قد ارتحل عن دنيانا. فما الذي فعله هذا الشخص؟ لننظر: أوه، لقد ظفر بمبتغاه، ووحّد إيطاليا، وما هي الحصيلة: لقد ظلت إيطاليا 2500 سنة تحمل في ذاتها فكرة عالمية هي فكرة توحيد العالم؛ وهي ليست فكرة ما مجردة، ولم تأت نتيجة تأملات ذهنية مكتبية، بل هي فكرة واقعية، عضوية، وهي ثمرة حياة الأمة، ثمرة الحياة العالمية، إنها فكرة توحيد العالم كله: في البدء التوحيد الروحاني القديم، وبعد ذلك التوحيد البابوي. وكانت الشعوب التي نشأت وتعاقبت في إيطاليا خلال هذين الألفين والخمسمئة سنة تدرك أنها تحمل فكرة عالمية، أما الذين لم يكونوا يدركون ذلك، فقد كانوا يشعرون به ويحدسونه. وكان العلم والفن يتّشحان بهذا المغزى العالمي ويتشربانه. ولنفترض أن الفكرة العالمية هذه اهترأت من تلقاء ذاتها في نهاية المطاف، تبدّدت كلها، انتهت بأكملها (مع أن هذا مستبعد؟) فما الذي حل محلها في النهاية، وبم يمكننا أن نهنئ الآن إيطاليا، وما هو الأفضل الذي حصلت عليه بفضل دبلوماسية

الكونت كافور؟ لقد برزت إلى الوجود مملكة متحدة صغيرة من الدرجة الثانية، فاقدة أي طموح عالمي، ومستعيضة عنه ببداية برجوازية مهترئة إلى أقصى حد (هي النسخة المكررة الثلاثين لمثل هذه البداية منذ الثورة الفرنسية الأولى)، مملكة راضية كل الرضا بوحدتها الخالية من أي معنى، فهي وحدة ميكانيكية وليست روحية (أي أنها ليست الوحدة العالمية السابقة)، أضف إلى ذلك أنها غارقة في الديون، ثم زِد على ذلك أنها، وهنا بيت القصيد، راضية كل الرضا بثانوية درجتها. هذه هي الحصيلة! هذا ما أنجزه الكونت كافور! وباختصار نقول إن الدبلوماسي المعاصر هو تحديداً «وحش عظيم لشؤون صغيرة»*. وكان الأمير مترنيخ[103] يُعدّ من أعمق دبلوماسيي العالم تفكيراً، وأكثرهم دقة وحذقاً، ولا جدال في أن نفوذه كان يشمل أوربا بأسرها. ومع ذلك لنتسائل: فيمَ كانت تقوم فكرته، وكيف فهم عصره في القرن الذي كان قد بدأ لتوه، وكيف استشعر المستقبل الآتي؟ مما يدعو للأسف أنه قرر أن يتعامل مع جميع الأفكار الأساسية في عصره بأسلوب بوليسي، وكان واثقاً تماماً بالنجاح! ولننظر الآن إلى الأمير بسمارك؛ إنه شخص لا جدال في عبقريته، ولكن...

تقاطعني الأم بصرامة قائلة: **finission monsieur! ويبدو عليها مظهر الشخص المتكبر الذي أهينت كرامته بعمق، فأُصابُ أنا، طبعاً، على الفور بالهلع الشديد. لا شك في أنني لم أُفهَم، ولا شك في أنه لا يزال من غير الجائز أن نتحدث مع الأمهات حول هذه الأمور، وأنا قد ارتكبت خطأً شنيعاً. ولكن مع منْ يمكن أن نتحدث الآن عن الدبلوماسية، أليس هذا سؤالاً يُسأل؟ إنه حقاً من أكثر الموضوعات إثارة للاهتمام، وخصوصاً في أيامنا هذه بالذات! ولكن...

(*) مقبوس من أمثولة «تربية الأسد» لكاتب الأمثولات الروسي الشهير إيفان كريلوف (1769-1844). (ن).
(**) كفى، أيها السيد (بالفرنسية). (ن).

حديث بيني وبين أحد معارفي الموسكوفيين.
ملاحظة بصدد كتاب جديد.

بعد أن سلمت «يومياتي» المتأخرة، عن شهري أيار (مايو) وحزيران (يونيو)، في بطرسبورغ، عدت إلى مقاطعة كورسك عبر موسكو، حيث تحادثت حول بعض الأمور مع أحد معارفي الموسكوفيين القدماء، وهو شخص لا أراه إلّا نادراً، ولكنني أقدر آراءه تقديراً عميقاً. لن أعرض هنا حديثي معه بكامله، مع أنني اطلعت في أثناء هذا الحديث على أمور مثيرة جداً للاهتمام، مما يجري في أيامنا، ولم يكن لدي أي علم بها. وقد ذكرت عندما كنت أودعه أنني أريد أن أغتنم الفرصة، وأعرج في طريقي لبعض الوقت، على القرية التي قضيت في ربوعها سنيّ طفولتي الأولى وصباي، وقد كانت يوماً ما من ممتلكات والديّ، ثم انتقلت ملكيتها منذ مدة طويلة إلى إحدى قريباتنا، وهي تبعد نحو مئة وخمسين فرسخاً* عن موسكو، ولم أكن قد زرتها منذ أربعين عاماً، مع أنني نويت عدة مرات الذهاب إلى هناك، ولكنني كنت في كل مرة أنشغل بشؤون أخرى، علماً بأن هذا المكان الصغير الذي لا يمتاز بشيء، قد خلف لدي أعمق وأقوى الانطباعات، التي ظلت حية في نفسي طوال حياتي، وهو مليء بأغلى ذكرياتي.

- ها أنت تقول إن لديك مثل هذه الذكريات، ومثل هذه الأماكن؛ وكلنا كان لدينا مثلها أيضاً. فيا ترى هل سيكون لدى شبيبة اليوم، لدى أطفال ويافعي هذه الأيام ما سيكون غالياً في ذكرياتهم؟ هل سيكون هذا؟ والأهم ما هو بالتحديد؟ من أي نوع؟

إن وجود ذكريات مقدسة لدى أطفال اليوم، أمر لا ريب فيه طبعاً، وإلّا لكانت الحياة الحية قد توقفت. ولا يمكن للإنسان أن يعيش بدون المقدس والثمين الآتي إلى الحياة من ذكريات الطفولة. إن بعض الناس، كما يبدو، لا يفكرون في هذا، ومع ذلك فهم يحتفظون

(*) الفرسخ الروسي يساوي (1.06) كم. (م).

بهذه الذكريات في اللاوعي. وقد تكون هذه الذكريات ثقيلة الوطأة، ومرّة المذاق، ولكن من المعروف أن المعاناة الماضية يمكن أن تتحول فيما بعد إلى مشاعر تقدسها الروح؛ والإنسان، على العموم، مفطور على حب معاناته الماضية؛ وإضافة إلى ذلك فإن الإنسان ميّال بالضرورة إلى تمييز نقاط معينة في ماضيه، يسترشد بها فيما بعد من أجل تحديد توجهاته المقبلة، واستنتاج ما يشبه أحكاماً كليةً لتنظيم حيَاته، ووعظ ذاته. وذكريات الطفولة هي دائماً تقريباً أقوى الذكريات وأكثرها تأثيراً. ولذا فليس من شك في أن هذه الذكريات والانطباعات، التي ربما تكون هي الأقوى والأقدس، سيحملها أطفال اليوم إلى حياة المستقبل. ولكن ما الذي ستتضمنه بالضبط هذه الذكريات؟ وما الذي سيحملونه تحديداً معهم إلى الحياة المقبلة؟ وكيف بالضبط ستتشكل لديهم هذه الذخيرة الغالية؟ إن كل هذه الأسئلة جدية، طبعاً، وجديرة بالاهتمام. وإذا نحن استطعنا أن نخمّن ولو أجوبة تقريبية عن هذه الأسئلة أمكننا أن نزيل الكثير من الشكوك، التي تقلقنا في العصر الحالي، ولربما سيؤمن الكثيرون مبتهجين بالشبيبة الروسية؛ والمهم أنه سيكون بإمكاننا أن نستشعر، ولو بقدر ما، مستقبلنا؛ أي مستقبلنا الروسي الغامض إلى حد بعيد. ولكن المصيبة في أن حياتنا الروسية لم تشهد في أي عصر من العصور حقبةً أشد بخلاً من حقبتنا هذه في تقديم معطيات تتيح إمكانية الاستشعار المسبق والتنبؤ بمستقبلنا الذي اتسم دائماً بالغموض. كما أن العائلة الروسية لم تكن في يوم من الأيام على مثل هذه الدرجة من التخلخل والتفكك، وعدم الانتظام في أصناف، وعدم اتخاذ شكل محدد، كما هي اليوم. فأين يمكنكم أن تعثروا اليوم على «طفولات ومراهَقات» يمكن أن تُصَوّر في مُؤلَّف يتسم بالقدر نفسه من الاتساق والوضوح اللذين صوّر بهما الكونت ليف تولستوي، على سبيل المثال، عصره وعائلته، أو اللذين نلمسهما في رواية «الحرب والسلام» للكاتب نفسه. إن جميع هذه «القصائد»* ليست الآن أكثر من لوحات تاريخية تصور ماضياً بعيداً. أوه، إنني لا أرغب البتة في أن أقول إن هذه اللوحات كانت في غاية الروعة، ولا أرغب على الإطلاق في تكرارها في زمننا، ولست عن هذا أتحدث بالمرة؛ بل أتحدث عن طابعها فقط، عن تمامية هذا الطابع، ودقته، وكونه محدداً، وهذه الصفات هي التي جعلت من الممكن ظهور مثل هذا التصوير الجلي والواضح للعصر، أعني التصوير الذي نراه في «قصيدتي» الكونت تولستوي. هذا لا وجود له الآن؛ لا وجود للتحديد ولا للوضوح. فالعائلة الروسية المعاصرة تغدو أكثر فأكثر عائلة عرضية وعبارة عائلة عرضية** هي التعريف الدقيق

(*) يقصد الكاتب بكلمة «القصائد»: الأعمال الأدبية الإبداعية عموماً، وهو يتحدث هنا تحديداً عن عملي ليف تولستوي: «الطفولة، المراهقة، الشباب» و«الحرب والسلام». (م).

(**) أي: أسرة «تصادفية» أو أسرة «بالمصادفة». (م).

للأسرة الروسية المعاصرة؛ إذ إنها فقدت فجأة كيانها القديم، بل إنها فقدته على حين غرة، أما الجديد... وهل هي قادرة على أن تنشئ لها كياناً جديداً يكون هو الكيان المرجو الذي يرضى عنه القلب الروسي؟ بعض الناس الجدّيين جداً يقولون بصراحة إن العائلة الروسية «لا وجود لها البتة» الآن. وبالطبع، لا يُقصد بكل هذا الكلام سوى العائلة المثقفة، أي الشرائح العليا، وليس الشعب. ولكن أليست العائلة الشعبية أيضاً موضع سؤال الآن؟

وقال مُحاوري: الأمر الذي لا جدال فيه أن ثمة أسئلة جديدة ستظهر في أوساط الشعب خلال مدة قصيرة جداً، بل إنها ظهرت الآن، وهي كومة من الأسئلة أكثريتها الساحقة جديدة، لم يكن لها وجود من قبل، ولم يسمع بها الشعب حتى الساعة، وكل هذا أمر طبيعي. فمن الذي سيجيب الشعب عن هذه الأسئلة؟ من المُهيأ عندنا للإجابة عنها، ومن سيكون أول المتصدين لها، من الذي يترصد ويستعد؟ هذه هي المسألة، مسألتنا نحن، وهي ذات الأهمية الأولى.

أجل، إنها ذات الأهمية الأولى طبعاً. فحدوث انعطاف شديد في الحياة كإصلاح التاسع عشر من شباط، وكالإصلاحات التي تلته، وأهمها تعلم القراءة والكتابة (حتى وإن تحقق هذا بأضأل قدر)، كل هذا سيولّد، بلا جدال، وقد ولّد فعلاً، أسئلة معينة، وهو، كما أظن، سيصوغها ويوحّدها، ويسبغ عليها صفة الثبات؛ فمن بالفعل، سيجيب عن هذه الأسئلة، من أقرب من الجميع إلى الشعب؟ رجال الدين؟ ولكن رجال الدين عندنا لا يجيبون منذ وقت طويل عن أسئلة الشعب، ما عدا بعض الكهنة الذين ما زالوا يحترقون بنار الغيرة على المسيح، وهم في الغالب غير بارزين، ولا أحد يعرفهم، وذلك تحديداً لأنهم لا يسعون وراء أي مكسب شخصي، بل يعيشون من أجل الرعية. وما عدا هؤلاء، وهم، ويا للأسف قليلون جداً كما يبدو، ثمة آخرون إذا ما طولبوا بشدة بإعطاء أجوبة، يجيبون عن الأسئلة ولكن، على الأرجح، بالوشاية بأولئك. وهناك آخرون قد أبعدوا الرعية عنهم بسبب مطالبتهم إياها بأتاوى تفوق التصور، إلى حد أن أحداً لم يعد يأتي إليهم ليسألهم. ويمكن إضافة الكثير حول هذا الموضوع، ولكننا سنفعل هذا فيما بعد. ثم هناك فئة من أقرب الفئات إلى الشعب وهي فئة المعلمين الريفيين. ولكن لأي شيء معلمونا الريفيون يَصْلُحون، ولأي شيء هم مستعدون؟ وما الذي قدمته حتى الآن هذه الجماعة الجديدة التي تشكلت للتو، ولكنها ستكون ذات أهمية كبيرة في المستقبل؟ وعمَّ بوسعها أن تجيب؟ من الأفضل ألّا نجيب عن هذا السؤال الآن. وعلى هذا لا يبقى سوى أجوبة عرضية في هذه المدينة أو تلك، وفي المحطات والطرقات والشوارع والأسواق، ومن السابلة والجوالين، وأخيراً من ملّاكي الأراضي السابقين (ومن البدهي أنني لا أذكر هنا أولي الأمر المسؤولين). أوه، الأجوبة ستكون كثيرة طبعاً، ولعلها

ستكون أكثر من الأسئلة؛ أجوبة خيّرة وشريرة، غبية وفائقة الذكاء، ولكنها ستتسم، كما يبدو، بطابع رئيس هو أن كلّاً منها سينتج ثلاثة أسئلة جديدة، وسيجري كل هذا *crescendo، وسيؤدي في الحصيلة إلى الفوضى، وتظل الفوضى حالة لا بأس بها: إذ إن الحلول غير الناضجة أسوأ من الفوضى.

- المُهمّ أنه لا داعي للحديث عن ذلك. سيتحملون.

طبعاً سيتحملون، وسيتحملون بدوننا، وسواء كان ثمة مجيبون عن الأسئلة أو لم يكن؛ فروسيا جبارة، وقد تحملت أكثر من هذا، ولا تسمح لها رسالتها وغايتها بأن تتنكّب عن طريقها التاريخية عبثاً، كما أن أبعادها الضخمة لا تسمح بهذا. إن مِن يؤمن بروسيا يعرف أنها ستتحمل كل شيء على الإطلاق، وحتى الأسئلة، وستظل، في جوهرها، كسابق عهدها، روسيانا المقدسة. ستظل كما كانت حتى الآن، مهما تغيرت هيئتها؛ وتغير الهيئة لا يدعو إلى الخوف، ولا لزوم البتة لإعاقة ظهور الأسئلة أو تأجيله: فمن يؤمن بروسيا يخجل من فعلِ هذا. إن رسالتها من السمو، وإن استشعارها الداخلي لهذه الرسالة من الوضوح (ولا سيما الآن، في عصرنا، وفي يومنا هذا بالذات) بحيث إن الذي يؤمن بهذه الرسالة يجب أن يسمو فوق كل الشكوك والتخوفات. فـ «هٰهنا صبر القديسين وإيمانهم»** كما يقول الكتاب المقدس.

في ذاك الصباح كنت قد شاهدت لتوّي، وللمرة الأولى، إعلاناً في الصحف عن صدور الجزء الثامن والأخير من رواية «آنا كارينينا» في إصدار مستقل، وهو الجزء الذي رفضت نشره هيئة تحرير «البشير الروسي»، التي نشرت الرواية بكاملها، منذ جزئها الأول. وقد أصبح معلوماً للجميع أيضاً أن هذا الجزء الأخير قد رُفض بسبب التضارب الفكري بين محتواه وبين اتجاه المجلة وقناعات محرريها، ولا سيما فيما يخص نظرة الكاتب إلى المسألة الشرقية والحرب التي جرت في العام الماضي. وقد قررت على الفور شراء الكتاب، وقبل أن أودع مُحاوري سألته عنه، إذ كنت أعرف أنه مُطّلع على مضمونه منذ مدة طويلة، فأجابني ضاحكاً:

- إنه في منتهى البراءة التي يمكن تصوُّرُها. ولا أفهم البتة لِمَ رفضت مجلة «البشير الروسي» نشره؛ ثم إن الكاتب منحهم الحق في أن يعبروا عن أية تحفظات أو ملاحظات يرتؤونها إذا كانوا يخالفونه في الرأي. ولذلك كان بوسعهم أن يكتبوا ملاحظة في الهامش يقولون فيها مباشرة إن الكاتب...

(*) تصاعدياً (مصطلح موسيقي بالإيطالية). (ن).

(**) عبارة مقتبسة من «رؤيا القديس يوحنا» (13/ 10). (ن).

ولكنني لن أذكر هنا مضمون هذه الملاحظة التي اقترحها محاوري، خصوصاً لأنه قالها وهو ما زال يضحك، إلّا أنه أضاف في النهاية بلهجة جدّية:

- إن كاتب «آنا كارينينا»، بصرف النظر عن موهبته الفنية الضخمة، هو أحد تلك الأدمغة الروسية التي لا ترى بوضوح سوى ما يقف أمام ناظريها مباشرة، ولذا فإن هؤلاء يركزون كل انتباههم على النقطة التي يرونها. إنهم، كما يبدو، غير قادرين على أن يُديروا أعناقهم إلى اليمين أو إلى اليسار لكي يتبينوا ما يقف في الجانب: إذ عليهم من أجل ذلك أن يستديروا بجذعهم كله، بكامل جسمهم، وعندئذ سيقولون، على الأرجح، كلاماً مناقضاً تماماً، وذلك لأنهم دائماً، على العموم، صادقون كل الصدق مع أنفسهم. ولكن هذه الاستدارة يمكن ألّا تحدث على الإطلاق، كما يمكن أن تحدث بعد شهر، وعندئذ سيصيح الكاتب المحترم بالحمية نفسها، داعياً إلى ضرورة إرسال المتطوعين، وإعداد الضمادات، ويقول ما نقوله نحن...

اشتريت الكتاب، ثم قرأته فيما بعد، ووجدت أنه «ليس بريئاً» إلى تلك الدرجة. وبما أنني قررت نهائياً، بالرغم من نفوري الشديد من تناول الكتّاب المعاصرين وأعمالهم بالنقد، أن أتحدث عنه في «اليوميات» (وربما حتى في هذا الإصدار)، فقد وجدت من المناسب أن أورد هنا حديثي عنه مع محاوري الذي أستميحه عذراً عن هذا التمادي...

التوق إلى الشائعات وإلى «ما يُخفون». كلمة «يُخفون» يمكن أن يكون لها مستقبل، ولذا ينبغي اتخاذ التدابير مسبقاً. مرة أخرى عن الأسرة العرضية

إن «أماكن طفولتي» هذه التي عزمت على زيارتها تبعد عن موسكو مئة وخمسين فرسخاً، منها مئة وأربعون بالسكة الحديدية؛ ولكن قطع هذه المئة والخمسين استنفد عشر ساعات تقريباً، وذلك بسبب كثرة التوقفات، وانتقال الركاب من قطار إلى قطار. وثمة محطة ينبغي

الانتظار فيها ثلاث ساعات ليتم الانتقال. ويقترن كل هذا بجميع منغصات السفر على السكة الحديدية الروسية، وبما يبديه المراقبون والمسؤولون تجاهك وتجاه احتياجاتك من إهمال شديد يصل إلى حد العجرفة تقريباً. ويعرف الجميع منذ وقت طويل العبارة التي تحدد سمة السكة الحديدية الروسية: «ليست السكة من أجل الجمهور، بل الجمهور من أجل السكة». وليس لدى أي عامل في مصلحة السكة الحديدية، بدءاً بالمراقب وانتهاء بالمدير، أي شك في هذه البديهية. وإذا أخذت تؤكد أمام أحد منهم أن السكة قد أنشئت من أجل الجمهور، سينظر إليك باستغراب ساخر. والمهم أنه لن يصغي إليك.

وأقول بالمناسبة إنني قطعت في هذا الصيف نحو أربعة آلاف فرسخ* على الأقل، والذي كان يدهشني بصورة خاصة هذه المرة، في كل مكان مررت به، هو الشعب؛ فقد كان الشعبَ يتحدث في كل مكان عن الحرب. ولا شيء كان يمكن أن يضاهي اهتمام الشعب البسيطِ وتوقَه الشديد إلى سماع أخبار الحرب واستيضاحه عنها؛ بل إنني رأيت في عربات القطار بعض العامة يطالعون الجرائد، وأغلبهم كان يقرأ بصوت عالٍ. وإذا اتفق لك أن تجلس بجوارهم يمكن أن ترى شخصاً ما من فئة البرجوازيين الصغار يرمقك بحذر بادئ ذي بدء، ثم ما يلبث أن يسألك على الفور وبأدب جم، وخاصة إذا رأى معك أو بجانبك جريدة: حضرتك من أين؟ وإذا أجبته بأنك من موسكو أو من بطرسبورغ (وتثير اهتمامه أكثر إذا كنت من الجنوب، من أوديسا على سبيل المثال) فإنه سيسألك حتماً: «ما أخبار الحرب؟»، وإذا بعثت في نفسه ولو قليلاً من الثقة بجوابك، وأشعرته بأنك مستعد للإجابة عن أسئلته سيزايله على الفور مظهر الفضول، ويحل محله مظهر المُسارّة، ولكن من دون أن يتخلى عن حذره، وسيقترب منك ويسأل بصوت خافت: «أليس هناك أشياء خاصة؟» أي أخبار أكثر خصوصية من التي تنشرها الصحف؛ أي الأخبار التي يخفونها؟ وأُضيفُ إلى هذا أن لا أحد من أفراد الشعب غير راضٍ عن الحكومة بسبب إعلانها الحرب، حتى من بين أشد الشامتين شماتةً؛ والشامتون موجودون، ولكن شماتتهم من نوع خاص. تتمشّى مثلاً، على رصيف المحطة في أثناء توقف القطار، فتسمع فجأة من يقول: «سقط سبعة عشر ألفاً من جنودنا، الآن أتت برقية بهذا الخصوص». تنظر فترى فتىً يتكلم بلهجة خطابية، ووجهه يعبر عن نشوة ما تنذر بالشؤم؛ ولكن هذا لا يعني البتة أنه مسرور بمقتل سبعة عشر ألفاً من جنودنا، بل ثمة شيء آخر، ثمة ما يشبه حال شخص نُكب فجأة بحريق؛ احترق كل شيء لديه: احترقت داره، ونقوده، وماشيته، فأخذ يصيح: «انظروا إليّ أيها المسيحيون المستقيمون، ضاع كل شيء لدي، بقيت وحيداً،

(*) أي (4240) كم. (م).

بهذه الأسمال!» في مثل هذه اللحظات يكتسي وجه هذا الشخص أيضاً بما يشبه التعبير عن لذة انتشاء ذاتي بالشماتة. ولكنْ ثمة أمر آخر فيما يخص «السبعة عشر ألفاً»: يدّعون «أن هناك برقية بهذا الخصوص، ولكنهم يؤخرونها، يتكتمون عليها، ولم يفرجوا عنها بعد... لقد رأيناها وقرأناها بأنفسنا...» وهنا المغزى. لم أستطع الصبر. اقتربت فجأة من الجماعة وقلت إن كل هذا هراء، وإشاعات سخيفة، لا يمكنهم أن يقتلوا سبعة عشر ألفاً من جنودنا، إن كل شيء على ما يرام. ومع أن الفتى (الذي يبدو أنه من فئة البرجوازية الصغيرة أو لعلّه من الفلاحين) ارتبك بعض الشيء، ولكنه ظل متماسكاً وكأنه يقول: «نحن أناس جهلة، وما نقوله ليس كلامنا، هكذا سمعنا». تفرق الجمع بسرعة، وفي اللحظة نفسها رن جرس القطار. وما يثير اهتمامي بهذه الحادثة الآن أنها وقعت في التاسع عشر من تموز (يوليو) في الساعة الخامسة عصراً. وكانت قد حدثت عشية ذلك، أي في الثامن عشر من تموز (يوليو)، موقعة بليفْنا[129]. فأية برقية كان يمكن أن تُرسل آنذاك، أياً كانت الجهة الموجهّة إليها! فما بالك بوصولها إلى قطار من قطارات السكة الحديدية؟ طبعاً، الأمر محض مصادفة. ولا أظن، على كل حال، أن الفتى هو الذي اختلق هذه الشائعات الكاذبة وأذاعها، بل الأرجح أنه سمعها، فعلاً، من شخص ما. وينبغي الاعتقاد أن ملفقي الشائعات الكاذبة، ومن ثم، طبعاً، الشريرة، التي تتحدث عن الإخفاقات والمصائب، قد تكاثروا في روسيا خلال هذا الصيف تكاثراً مفرطاً، وأنهم، طبعاً، يفعلون هذا لغرض مبيّت، لا بدافع ميلهم إلى الكذب فحسب.

ونظراً للمزاج الوطني الحماسي الذي يمتلكه شعبنا في موقفه من هذه الحرب، ونظراً لدرجة الوعي التي أظهرها شعبنا منذ العام الفائت لمغزى هذه الحرب ومهامها، ونظراً لإيمان الشعب إيماناً حاراً بقيصره، وتبجيله له، فإن كل هذا التعويق في وصول الأخبار من ميدان الحرب، وكل هذا التكتم عليها ليسا غير مفيدين فحسب، بل هما بالتأكيد ضارّان. لا يستطيع أحد، طبعاً، أن يطالب بإعلان الخطط الاستراتيجية، وأعداد القوات قبل العملية، والأسرار العسكرية وما شابه ذلك...

ولا أحد يرغب في هذا أصلاً، ولكن يمكن على الأقل أن نعرف نحن قبل الجرائد في فيينا ما تعرفه هذه الجرائد قبلنا*.

اضطررنا إلى الانتظار في إحدى المحطات ثلاث ساعات للانتقال إلى قطار آخر، وكان مزاجي في أثناء ذلك سيئاً جداً وأشعر بالانزعاج من كل شيء. وخطر لي فجأة بسبب الفراغ

(*) لقد تم الآن إصلاح أهم ما في الأمر: إذ لا يكاد يمر يوم يبقى فيه الجمهور من غير إبلاغ عاجل من القائد الأعلى في الجبهة. (الكاتب).

والملل أن أنظر في أسباب الكدر والانزعاج اللذين تملكاني، وأرى هل ثمة سبب عرضي وقريب إلى جانب الأسباب العامة؟ لم يطل بحثي، وما لبثت أن ضحكتُ فجأة عندما عثرت على هذا السبب. إنه ذاك اللقاء الذي حدث منذ برهة قصيرة في عربة القطار قبل محطتين من هذه. فقد دخل العربة فجأة سيد محترم يتسم بكل صفات الجنتلمان، ويشبه جداً الجنتلمانات الروس الذين ما ينفكون يجولون في البلاد الأجنبية. دخل العربة مصطحباً ابنه الصغير، وهو صبي لا يمكن أن يكون قد تجاوز الثامنة بحال من الأحوال، بل ربما أقل. كان الصبي يرتدي ثياباً تبهج الناظر: بذلة طفلية تتماشى مع أحدث أزياء الموضة الأوربية، وسترة بديعة، وقميصاً من الباتستة، وينتعل حذاء أنيقاً. كان من الواضح أن أباه يعتني به. وما إن جلسا حتى قال الصبي لأبيه فجأة: «بابا، أعطني سيكارة؟» فما كان من الأب إلا أن دس يده في جيبه وأخرج علبة سكائر صَدَفيّة، وتناول منها سيكارتين: واحدة له، وواحدة للصبي، وشرع الاثنان يدخنان في وضعية عادية تماماً تدل دلالة واضحة على أنهما يدخنان معاً منذ مدة طويلة. استغرق الجنتلمان في التفكير في أمر ما، فيما أخذ الصبي يدخن سيكارته بأنفاس عميقة، وهو يتطلع من نافذة العربة، وأنهى السيكارة بسرعة كبيرة، ولم يمض ربع ساعة حتى توجه إلى أبيه فجأة وطلب منه سيكارة أخرى، ومرة ثانية عاد الاثنان إلى التدخين. وقد دخن الصبي خلال المدة التي قضياها معي في العربة، واجتزنا فيها محطتين، ما لا يقل عن أربع سكائر. لم أشاهد من قبل في حياتي شيئاً كهذا، وقد أصبت بدهشة شديدة. إن رئتي هذا الصبي الضعيفتين الرقيقتين اللتين لم يكتمل نموهما بعد قد عُوِّدتا هذه الفظاعة؛ فكيف أمكن لهذه العادة أن تظهر في مثل هذا الوقت المبكر على نحو مخالف للطبيعة؟ من البدهي أن يكون السبب هو الأب: فالأطفال شديدو التأثر بما يرونه أمامهم؛ ولكن هل من المعقول أن يسمح أب لطفله بتعاطي مثل هذا السم؟ السل الرئوي، نزلة المسالك التنفسية، التكهف في الرئتين: هذا هو ما ينتظر الصبي التعس من كل بد، فنسبة الاحتمال هنا تبلغ تسعة من عشرة، وهذا الأمر واضح للجميع، ويعرفه الجميع، والأب بالذات هو من ينمّي في طفله هذه العادة السابقة لأوانها على نحو مخالف للطبيعة! فما الذي يريد هذا الجنتلمان أن يبرهن عليه بسلوكه هذا؛ إنني لا أستطيع حتى أن أتصور: هل هو ازدراء العقائد البالية وإهمالها، أم الترويج لفكرة جديدة هي أن حظر كل ما كان محظوراً في السابق هراء، والعكس هو الصحيح، فكل شيء مباح؟ لا أستطيع أن أفهم.

وقد بقيت هذه الحادثة بالنسبة لي من دون تفسير، وتكاد تكون أعجوبة. فأنا لم أصادف في حياتي من قبل مثل هذا الأب، وأظن أنني لن أصادف. لقد أصبحنا نرى في هذا الزمن آباء عجيبين! كففت فوراً عن الضحك، فأنا لم أضحك إلّا لأنني اهتديت بسرعة إلى سبب

انزعاجي وسوء مزاجي. وهنا تذكرت، من دون صلة مباشرة بهذه الحادثة، حواري بالأمس مع محادثي حول أن أطفال اليوم سيحملون معهم إلى حياة المستقبل كل ما كان غالياً ومقدساً في طفولتهم، ثم تذكرت فكرتي حول عَرَضيّة الأسرة المعاصرة... وعدت لأغرق من جديد في تصورات جد مزعجة.

سيسألون: ما هي هذه العرضية، وما الذي أقصده بهذه الكلمة؟ وأجيب إن عرضية الأسرة الروسية المعاصرة تتجلى في فقدان الآباء المعاصرين أية فكرة عامة تجاه عائلاتهم، فكرة عامة بالنسبة لكل الآباء تربط بينهم جميعاً، فكرة يؤمنون بها هم أنفسهم، ويعلمون أبناءهم الإيمان بها كذلك، وينقلون إليهم هذا الإيمان بالحياة. لاحظوا أيضاً أن هذه الفكرة، وهذا الإيمان يمكن أن يكونا خاطئين، وأن خيرة الأبناء يمكن أن يتخلوا عن هذه الفكرة من تلقاء أنفسهم فيما بعد، أو أن يصححوها على الأقل، من أجل أبنائهم هم، ولكن مع ذلك فإن وجود هذه الفكرة العامة التي تربط بين أفراد المجتمع والعائلة، يشكل بحد ذاته بداية نظام، أي بداية نظام أخلاقي، وهو يخضع، طبعاً، للتغير، والتقدم، والتصحيح، لنفترض ذلك، ولكنه يظل مع ذلك نظاماً، أما في عصرنا فإن مثل هذا النظام لا وجود له، وذلك لعدم وجود أي شيء جامع ورابط يؤمن به جميع الآباء، وبدلاً من ذلك يوجد الآن إمّا: أولاً - نفي عام شامل لكل ما هو سابق (نفي فقط من دون تقديم أي بديل إيجابي)، أو ثانياً - محاولات اقتراح بديل إيجابي ولكنه ليس عاماً ورابطاً، بل هو متعدد بمقدار تعدد المقترحين؛ إنها محاولات مقسمة إلى آحاد، ويقوم بها أشخاص بلا خبرة، وبلا ممارسة وحتى مخترعوها لا يؤمنون بها إيماناً تاماً. وربما كانت هذه المحاولات رائعة أحياناً في بدايتها، ولكنها تبقى غير ناضجة، وغير مكتملة، وأحياناً تكون في منتهى البشاعة، كالإباحة الشاملة لكل ما كان محظوراً في السابق على أساس المبدأ القائل بأن كل قديم سخيف، وربما وصل الأمر هنا حتى إلى القيام بأغبى التصرفات الغريبة، مثل إباحة التدخين لأطفال في السابعة من العمر، أو ثالثاً وأخيراً اتخاذ موقف متكاسل من القضية، كما يفعل الآباء الخاملون والكسولون الأنانيون: «إيه، فليكن ما يكون، لِمَ علينا أن نهتم، سينشأ الأولاد كما الجميع، وستستوي أمورهم على نحو ما، إنهم يسببون لنا الكثير من الضجر ليس غير، وليتهم لم يوجدوا بالمرة!» وهكذا تكون النتيجة: عدم وجود نظام، وتفتّت العائلة الروسية وعَرَضيتها، ولا أمل تقريباً في رأيهم إلّا بالاعتماد على الرب وحده: «عساه أن يرسل لنا فكرة عامة فنعود إلى الوحدة من جديد!».

إن مثل هذا النظام سيولِّد، بالطبع، الكآبة، والكآبة ستُولّد المزيد من الكسل، وسيكون هذا الكسل عند ذوي الطبع الحار كسلاً مفعماً بمشاعر الحقد والاستهتار الوقح. ولكن يوجد في أيامنا أيضاً كثير من الآباء الذين لا يعرفون الكسل البتة، بل، هم، على العكس، مجتهدون

جداً. وأكثرية هؤلاء الآباء من الذين يؤمنون بأفكار معينة. وترى أحد هؤلاء قد ملأ مسامعه بأشياء، لِنَقُل إنها بعيدة كل البعد عن الغباء، وقرأ كتابين أو ثلاثة من الكتب التي تتضمن أفكاراً ذكية، ثم تراه يختزل التربية كلها، وجميع التزاماته تجاه أسرته بقطعة «بفتيك»: «بفتيك بِدَمِّه، وطبعاً على طريقة ليبيخ» وهلم جراً... وثمة أب آخر شريف جداً كشخص بذاته، وكان في زمنه يتميز بالألمعية، طَرَد حتى الآن ثلاثة مربيات لأطفاله: «لا يمكن احتمال هؤلاء الخبيثات، لقد حظّرت عليهن هذا بصرامة،، أمس دخلت فجأة إلى غرفة الأولاد وإذا بي أسمع، ما ذا تظن؟ تصور المربية تعلّم ليزَتْشكا*، وهي تضعها في سريرها وترسم شارة الصليب، أن تصلي للعذراء وتدعو: ارحم، ربي، أبي وأمي... مع أنني حظّرت عليها هذا بصرامة! إنني عازم على استخدام مربية إنكليزية، فهل ستكون الأمور معها أفضل؟» وثالث تراه يبحث بنفسه عن عشيقة لابنه الذي لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره: «وإلّا، كما تعرف، ستتملكه تلك العادات الصبيانية الفظيعة، أو سيذهب إلى الشارع هكذا أو هكذا فيصاب بمرض خبيث... لا، من الأحسن أن أؤمن له هذا البند سلفاً...» ورابع يوصل ابنه، الذي ما زال في السابعة عشرة من عمره، حتى أكثر «الأفكار» تقدمية، فيختزل الابن هذه الأفكار التقدمية (التي لا يندر أن تكون جيدة جداً) يختزلها على نحو طبيعي جداً (إذ ما الذي يمكن أن ينتج عن مثل هذه المعارف قبل معرفة الحياة واكتساب الخبرة؟) بالاستنتاج الآتي: «بما أنه لا يوجد أي شيء مقدس، إذاً يجوز للمرء أن يرتكب أية دنيّة». لنفترض، في هذه الحالة، أن الآباء أشخاص من ذوي الطبع الحار، فهل هم كُثُر أولئك الذين يمكن أن نبرر لهم حرارة طبعهم بوجود شيء ما جديّ لديهم: فكرة ما أو معاناة؟ هل هم كثر أمثال هؤلاء عندنا؟ إن معظم هؤلاء الآباء من الإمَّعين الليبراليين الذين يرددون أقوال غيرهم، ولذا ترى الطفل يحمل معه إلى الحياة الاجتماعية، فوق ذلك كله، ذكريات كوميدية عن أبيه، وصورة كوميدية له.

هذا هو شأن «المجتهدين» وهم ليسوا كثيرين. أما الكسالى فهم أكثر عدداً بما لا يقاس؛ إذ إن كل حالة انتقالية في المجتمع ومصحوبةٍ بتفسخه تُولِّد فيه الكسل واللامبالاة، لأن الذين لا يستطيعون، في مثل هذه العهود، أن يروا بوضوح الطريقَ التي أمامهم فلا يحيدون عنها، جدّ قليلين، في حين أن الأكثرية تشتبه عليهم الأمور، ويضيعون طرف الخيط، وفي النهاية ينفضون أيديهم قائلين: «إيه، أنتم وشأنكم! أية واجبات هذه إذا كنا نحن أنفسنا لا نحسن أن نقول أي شيء ذي معنى! حسب الواحد منا أن يعيش هو نفسه كيفما اتفق، ثم فوق هذا يجري الحديث عن واجبات!» وإذا ما كان هؤلاء الكسالى أغنياء فإنهم في هذه الحالة، يقومون بكل

---

* إحدى صيغ التصغير لاسم: يليزافيتا (إليزابيث) (ليزا). (م).

شيء كما يجب: يُلبسون أبناءهم جيداً ويطعمونهم جيداً، ويستأجرون لهم مربيات، وبعد ذلك معلِّمين. وغالباً ما ينتسب الأولاد في النهاية إلى الجامعة، ولكن... الأب لم يكن له وجود هنا، والعائلة لم يكن لها وجود، والولد ينخرط في معترك الحياة وحيداً كالمقطوع من شجرة، إنه لم يعش الحياة بقلبه، وقلبه لا تربطه أية صلة بماضيه، وبعائلته، وبطفولته. وثمة أمر آخر هو أن هذا لا ينطبق إلّا على الميسورين الذين يعيشون في رخاء، فهل هم كثر هؤلاء الميسورون؟ إن الأكثرية، بل الأكثرية الساحقة هي من الأسر الفقيرة، ولذا، في حالة كون الآباء كسالى تجاه أسرهم، يبقى مصير الأبناء في معظم الأحيان رهن المصادفة! إن الحاجة وهموم الآباء تنعكسان في قلوب الأبناء منذ الطفولة صُوراً وذكريات قاتمة تنغّص الحياة أحياناً إلى حد لا يطاق. فالأبناء يظلون يتذكرون حتى آخر سنيّ الشيخوخة تخاذل آبائهم، والمشادات والشجارات العائلية، والاتهامات و«التمنينات» المريرة، وحتى اللعنات التي كانت تُوَجَّه إليهم، وإلى الأفواه الزائدة؛ والأسوأ من ذلك كله أنهم يتذكرون أحياناً نذالة الآباء وتصرفاتهم الدنيئة من أجل منصب أو مال، ويتذكرون دسائسهم الخسيسة وتذللهم الشائن. ويظل المرء بعد ذلك مدة طويلة، وربما طوال حياته، ميالاً إلى اتهام هؤلاء الناس السابقين اتهاماً أعمى، من دون أن يحمل من طفولته أي شيء يمكن أن يخفف من قذارة ذكرياته، ويجعله ينظر على نحو صحيح وواقعي، ومن ثم على نحو تبريري، إلى أولئك الناس الذين مضوا، والذين قضى بقربهم السنوات الأولى من حياته في أجواء كئيبة؛ وأنا أتحدث هنا عن خيرة الأبناء، وأفضلهم في حين أن أكثرية الأبناء لا يكتفون بالاحتفاظ بقذارة ذكرياتهم وحدها وحملها معهم إلى سني النضج، بل يحملون القذارة نفسها، ويتزودون بها حتى عن عمد، ويملؤون بها جيوبهم وهم يسيرون في دروب الحياة لكي يستعملوها فيما بعد في تصريف شؤونهم، ولكن من دون أن يعانوا من تقريع الضمير كما كان آباؤهم يعانون، بل يستعملونها بنفوس مطمئنة ولسان حالهم يقول: «الجميع يخوضون في وحل القذارة، ولا يهذي بالمثل العليا سوى الخياليين، ثم إن العيش مع بعض القذارة أفضل»...

«إذاً ما الذي أنت تريده؟ وأية ذكريات كان يجب أن يحملوها من طفولتهم ليطهروا أُسَرَهم من القذارة، وينظروا إلى آبائهم نظرة تبريرية كما تقول؟» وأجيب: «ماذا يمكنني أن أقول بمفردي إذا كان المجتمع بأسره لا يملك جواباً عن هذا؟» ليس ثمة شيء عام يجمع بين الآباء في عصرنا هذا. ليس ثمة ما يربط بينهم، ليس هناك فكرة عظيمة (لقد فُقدت هذه الفكرة)، ولا يوجد في قلوبهم إيمان عظيم بمثل هذا الفكرة. وليس من شيء سوى مثل هذا الإيمان العظيم بقادر على أن يُولّد الرائع في ذكريات الأبناء، ويولده بقوة مدهشة، بالرغم من أشد ظروف طفولتهم بشاعة، وبالرغم من الفقر، بل حتى بالرغم من أقذر القذارات الأخلاقية

التي كانت تحيط بمهودهم! أوه، هناك حالات استطاع فيها حتى أحطّ الآباء، ولكن من أولئك الذين ظلوا محتفظين في أنفسهم حتى ولو بمجرد صورة بعيدة لتلك الفكرة العظيمة السابقة والإيمان العظيم بها، استطاعوا أن يزرعوا في نفوس أبنائهم البائسين السريعة التأثر، والتواقة إلى المعرفة، بذرة تلك الفكرة العظيمة والعاطفة العظيمة، مما جعل هؤلاء الأبناء يصفحون عنهم فيما بعد من صميم القلب بسبب هذا العمل الخيّر وحده، وبغضّ النظر عن كل ما تبقّى. إن الإنسان لا يجوز له أن يخرج من الطفولة إلى الحياة من دون أن تكون نفسه قد احتضنت بذور الإيجابي والرائع، ولا يجوز إطلاق الجيل الجديد في درب الحياة من دون أن نزرع فيه بذور الإيجابي والرائع. انظروا: ألا يؤمن الآباء المعاصرون من ذوي الطباع الحارة والمجتهدين بهذا المبدأ؟ أوه، إنهم يؤمنون كل الإيمان بأنه لا يمكن تنشئة الجيل وإطلاقه في درب الحياة من دون فكرة أخلاقية ومُواطِنيّة رابطة عامة! ولكنهم هم أنفسهم فقدوا جميعاً الكُلّيَ، وأضاعوا العام وانقسموا إلى أجزاء؛ ولم يتوحدوا إلّا في السلبي، وحتى هذا فعلوه كيفما اتفق، وتجزؤوا في الإيجابي، وهم من حيث الجوهر، لا يصدقون حتى أنفسهم في شيء مما يقولون، وذلك لأنهم يتكلمون نقلاً عن غيرهم، وقد التحقوا بحياة سواهم، وتبنوا فكراً غريباً، وفقدوا كل صلة تربطهم بحياتهم الروسية الأم.

وأكرر القول: إن ذوي الطبع الحار هؤلاء قلائل، في حين أن الكسالى أكثر منهم بما لا يُحصى. وبالمناسبة هل تذكرون محاكمة آل جونكوفسكي؟ لقد جرت في محكمة كالوجسك المحلية منذ مدة قصيرة، وبالتحديد في العاشر من حزيران (يونيو) هذا العام. ومن المرجح جداً أن يكون عدد الذين لفتت هذه المحاكمة انتباههم قليلاً وسط ضجيج الأحداث الجارية. لقد قرأت عنها في صحيفة «الأزمنة الحديثة»، ولا أدري هل أعيد نشر وقائع المحاكمة في مكان آخر أم لا. وموضوع القضية يدور حول زوجين من مُلّاك الأراضي في مدينة بيريميشلياني* هما الرائد ألكسندر أفاناسييف جونكوفسكي (50) سنة وزوجته يكاتيرينا بيتروفا جونكوفسكايا (40) سنة، المتهمان بمعاملة أطفالهما نيكولاي وألكسندر وأولغا معاملة قاسية. ومن المناسب أن أذكر هنا أعمار هؤلاء الأطفال: نيكولاي - ثلاث عشرة سنة، وأولغا- اثنتا عشرة سنة، وألكسندر - إحدى عشرة سنة. وأضيف أيضاً مستبقاً الأحداث أن المحكمة برأت المتهمين.

وتبرز في هذه القضية بوضوح، حسب رأيي، جوانب نموذجية عديدة من واقعنا، وأكثر ما يدهشنا فيها هي أنها اعتيادية ومألوفة إلى أقصى حد. إنك لتشعر بأن لدينا الكثير الكثير

(*) مدينة في مقاطعة لفوف الأكرانية. (م).

من أمثال هذه العائلة الروسية، طبعاً ليس على هذه الشاكلة بالضبط، وطبعاً لا تتكرر فيها دائماً المصادفات نفسها مثل حك الأعقاب (الذي سأتحدث عنه بعد قليل)، ولكن جوهر القضية هو هو، والسمة الأساسية للعديد من العائلات هي نفسها. إن هذا النموذج هو بالذات نموذج «الأُسر الكسولة» التي تحدثت عنها للتو. وإذا لم يكن هذا النموذج هو النموذج التام والصحيح جداً (وخصوصاً إذا نحن حاكمنا الأمر على أساس بعض التفاصيل الاستثنائية جداً والطابعية جداً) فإنه يبقى على كل حال شكلاً مفرداً متميزاً من أشكال هذا النموذج. ولندع القراء يحكموا بأنفسهم. لقد قُدِّم المتهمان للمحاكمة بقرار من مجلس القضاء الموسكوفي. ولنتذكر التهمة الموجهة إليهما. وأنا سأنقل هنا ما نشرته صحيفة «الأزمنة الحديثة»، حيث القضية معروضة بصيغة مختصرة.

قضية الأبوين جونكوفسكي وأبنائهما

إن المتَّهمَيْن جونكوفسكي الميسوري الحال، واللذين يستخدمان عدداً كافياً من الخدم، كانا يعاملان أبناءهما نيكولاي وألكسندر وأولغا بطريقة مختلفة تماماً عن طريقة معاملة الأبناء الآخرين.

فهما لم يكونا يقفان منهم موقف الأبوين، ولم يكونا يدللانهم، بل تركاهم من دون عناية وضمن ظروف معيشية سيئة، من حيث المسكن والملبس والمنامة والطعام. وكانا يجبرانهم على القيام بأعمال من نوع حك الأعقاب وما شابه ذلك، مما كان يثير في نفوسهم شعوراً دائماً بالاستياء والحنق، وهذا ما جعلهم يتصرفون مع أختهم الميتة على النحو الذي سنبيّنه فيما بعد. ولم يكن لكل هذا إلّا أن يترك أثره السيئ في صحة الأولاد، ويتضح من مجريات القضية أن أولغا، على سبيل المثال، تعاني من مرض الصرع. أضف إلى ذلك أن المتهمين لم يكونا يساعدان بالإشراف والرعاية على تطوير أبنائهما أخلاقياً، بل كانا يلجأان إلى تدابير لا يمكن اعتبارها من التدابير اللطيفة التي يتخذها الآباء لإصلاح أبنائهم الصغار. فقد كان المتهمان يحبسان أطفالهما في المرحاض لفترة طويلة، ويبقيانهم في البيت في غرفة باردة ومن دون طعام تقريباً. أو يرسلانهم لتناول الطعام والمبيت في غرفة الخدم، فيضعانهم بهذا وسط أناس

قليلي القدرة على تيسير إصلاحهم، وأخيراً كانوا غالباً ما يضربانهم بما تقع عليه أيديهما. وحتى بقبضات الأيدي، ويضربانهم بالقضبان، وبأغصان الشجر، وبكرباج الخيل، بقسوة تجعل المرء يخشى حتى مجرد النظر، وتجعل ظهر الطفل (حسب إفادة الصبي ألكسندر) يؤلمه خمسة أيام بعد كل عقاب، ولم يكن سبب هذا الضرب هو دائماً إقدام الأطفال على بعض التصرفات العابثة الضئيلة الأهمية، بل كان يقع أحياناً هكذا، بلا سبب، لمجرد الرغبة في الضرب. وقد بينت الخادمة سيرغيفا التي تعمل غسالة عند الأبوين جونكوفسكي في سياق شهادتها أن المتهمين لم يكونا يحبان أبناءهما نيكولاي وألكسندر وأولغا، الذين كانوا ينامون منفصلين عن بقية الأولاد، تحت، في إحدى الغرف، على الأرض، على قطعة لباد، ويتدثرون بأي غطاء يجدونه (كانت هناك بطانية ممزقة)، وكانوا يأكلون من طعام الخدم، ولذا فقد كانوا دائماً جائعين. كانا يلبسانهم ثياباً رديئة: قمصاناً مختلفة صيفاً، وفروات قصيرة شتاءً. كانت السيدة جونكوفسكايا بالنسبة لأبنائها أسوأ من الخالة امرأة الأب: كانت تضربهم، وخاصة ألكسندر، بأي شيء يقع تحت يدها، وأحياناً تلكمهم بقبضتيها مباشرة. وعندما كانت تضرب نيكولاي كان المشهد يغدو مرعباً. ومع أن الأطفال كانوا ميالين إلى العبث واللعب، إلّا أن هذا كان ضمن حدود طبيعتهم كأطفال. وكانوا يتعرضون لأقسى أنواع العقاب في أوقات المساء بالذات، وذلك عندما يُرغمون على حك عقبي أمهم طوال ساعة أو أكثر حتى تغفو الأم. وكان الخدم هم الذين يقومون بهذا سابقاً، بمن فيهم سيرغييفا نفسها، ولكنها رفضت في النهاية القيام بذلك لأن يدها كانت تَنْمَل! وتبين من إفادة أوساتشكوفا أن ألكسندر وأولغا كانا يضطجعان على الأرض ويتوسدان مخدّات قذرة، «وعلى العموم كانت القذارة تحيط بهما؛ وحتى حظيرة الخنازير كانت أنظف من المكان الذي هما فيه». وقد أفاد النبيل لوبيموف الذي ظل يقيم عند آل جونكوفسكي بصفة مدرس حتى آب 1875: أن ظروف معيشة نيكولاي وأولغا وألكسندر كانت سيئة، وكانوا يضطرون أحياناً إلى السير حفاة. وقد أفادت الآنسة شيشوفا (خرّيجة معهد نيكولايفسكي) التي عملت مربية للأطفال في بيت جونكوفسكي حتى آب 1874، في شهادتها التي تُليت في المحكمة بسبب غياب الشاهدة إن السيدة جونكوفسكايا امرأة أنانية، وهي كزوجها لم تكن تحنو البتة على ابنيها ألكسندر ونيكولاي. وتعزو شيشوفا انعدام النظام عموماً في منزل المتهمين، واتخاذهما موقف اللا مبالي حيال أبنائهما إلى اتسامهما بنوع من الإهمال وعدم الاكتراث بكل ما يحيط بهما، بل حتى بذاتيهما. أمورهما كانت دائماً مشوشة، وكانا يعيشان في ارتباك دائم ولا يحسنان تدبير شؤون معيشتهما. وكانت الزوجة الحريصة على الابتعاد عن أي شيء مقلق توكل إلى زوجها عقاب الأولاد، وكان هو يقوم بهذه المهمة؛ ومع أن الشاهدة لم تكن تشهد شخصياً عمليات

العقاب فإنها تؤكد «أن المعاقبة لم تكن تتضمن أية قسوة»، وتضيف أستاذة التربية شيشوفا: «كان يصدف أن تقوم ربة المنزل، أو حتى أنا، بمعاقبة الأولاد بسبب «شيطنتهم» بحبسهم في غرفة المرحاض، ولكن هذه الغرفة لم تكن أبرد من غرف المنزل الأخرى، وكانت تُدفّأ» لقد كانت شيشوفا نفسها تعاقب الأطفال بجلدهم بسوط جلدي، «ولكنه كان سوطاً صغيراً». ولم يصدف قط أن شهدتْ حرمان الأطفال من الطعام عدة أيام.

وبعد ذلك قدم الطفلان نيكولاي وألكسندر للمحقق إفادتهما المتحفظة التي تَبيّن منها مع ذلك أنهما كانا يتعرضان للضرب بالقضبان، وبسوط جلدي كانوا يسوطون به الحصان، وبِعيدان طويلة كان يضربهما بها المدرّس لوبيموف أيضاً. وذات مرة ظل ألكسندر خمسة أيام يشكو من آلام ظهره بعد أن ضربته أمه لأنه جلب لأخته أولغا حبة بطاطا من المطبخ لتناول طعام الفطور.

وكان جونكوفسكي يتذرع لتبرير تصرفاته بفساد أبنائه فساداً تاماً، ولإثبات ذلك روى الحادثة الآتية: عندما ماتت ابنته الكبرى يكاترينا قام الصبيان نيكولاي وألكسندر بقطع أغصان من أشجار الحديقة، وأخذا يضربان بها أختهما الميتة على وجهها وهي مسجاة على الطاولة، وراحا يرددان: الآن سنشفي غليلنا بالهزء منك لأنك كنت تشكيننا.

ولم يقر المتهمان في المحكمة بذنبهما. وأكد الأب المتهم أنه ينفق على تربية أولاده أكثر مما تسمح به إمكاناته المالية، ولكن النحس حال بينه وبين بلوغ غايته، وهاهم أبناؤه ينحدرون من سيئ إلى أسوأ. فابنه الأكبر (نيكولاي) كان صبياً جيداً قبل دخوله المدرسة، ولكنه عندما انتسب إلى المدرسة تعلم فيها السرقة، وكان قبل التحاقه بالمدرسة يعرف الصلوات، ولكنه نسيها فيما بعد لأنه ادّعى أنه كاثوليكي، مما جعله لا يدرس البتة التعاليم اللاهوتية، في حين أن شهادة قيد نفوسه التي قُدّمت تُثْبتُ أنه ينتمي إلى المذهب الأرثوذكسي.

وقد صرحت الزوجة جونكوفسكايا في كلمتها الأخيرة بأنها استخدمت عدة مربيات لأبنائها، ولكنها لسوء الحظ أخطأت في جميع اختياراتها، كما أخطأت في اختيار المدرّس، إلّا أن الأب يتولّى في الوقت الحاضر تعليمهم، وهي تأمل بأن الأولاد ستَصْلُح أحوالُهم تماماً.

هكذا جرت المحاكمة. وكما قلت آنفاً برّأت المحكمة المُتَهَمَيْن. وكيف لا؟ إن اللافت هنا ليس تبرئة المتهمين، بل تقديمهما للمحكمة ومحاكمتهما. مَنْ، وأية محكمة بوسعها أن تدينهما، وبِمَ؟ أوه، طبعاً ثمة محكمة بوسعها أن تدينهما وتُبيّن بوضوح بِمَ، ولكنها ليست محكمة جزائية تضم هيئة محلفين وتُحاكم بمقتضى قانون مكتوب، إذ لا يوجد في القوانين

المكتوبة أية مادة تصف اتخاذ الآباء من أبنائهم موقفاً كسولاً تعوزه الخبرة والحنان بأنه جريمة. لو كانت التهمة هي التعذيب القاسي، التعذيب الفظيع اللا إنساني لاختلف الأمر. وما زلت أذكر كيف عمد المحامي في قضية كرونيبيرغ* المتهم بمعاملة طفلته على نحو لا إنساني إلى فتح المجموعة القانونية وقراءة المادة المتعلقة بالمعاملة القاسية وصنوف التعذيب القاسي إلخ... كي يثبت أن موكله لا ينطبق عليه أي بند من بنود هذه المادة التي تحدد بوضوح ودقة كل ما يجب أن يُعدّ تعذيباً قاسياً ولا إنسانياً. وأذكر أن تعاريف صنوف التعذيب القاسي كانت قاسية إلى الحد الذي يجعلها تتشابه تماماً مع صنوف التعذيب التي كانت فُرق الباش بزق** تطبقها في معاقبة البلغار، وإذا استثنينا الخوزقة وسلخ الظهر فإننا لا نستثني تكسير الأضلاع والأيدي والأرجل وما إلى ذلك؛ وعلى هذا فإن الجلد بالسوط، وهو إلى ذلك سوط صغير بحسب شهادة الآنسة شيشوفا، لا يمكن على الإطلاق أن تشمله مادة المجموعة القانونية، ولا يمكن أن يشكل بند اتهام. قالوا: «كانوا يضربانهم بالقضيب»، ولكن من الذي لا يضرب أولاده بالقضيب؟ إن تسعة من كل عشرة في روسيا يمارسون الضرب. وهذا لا يجوز البتة أن يخضع للقانون الجزائي. قالوا: «كانا يضربانهم بلا أي سبب وجيه، بل بسبب البطاطا»؛ ويرد السيد جونكوفسكي على هذا بقوله: «لا، ليس بسبب البطاطا، بل اجتمعت هنا كل هذه العوامل معاً: بسبب الفساد، وبسبب أنهم قساة متوحشون، وقد ضربوا أختهم الميتة يكاترينا على وجهها». قالوا: «كانا يحبسانهم في المرحاض» والرد: «لكن المرحاض مدفّأ، وماذا تريدون أكثر من ذلك، الزنزانة، هي الزنزانة دائماً» قالوا: «كنتما تطعمانهم من طعام الخدم وترسلانهم للمبيت في مكان يشبه حظيرة الخنازير، حيث كانوا يفترشون قطعة لباد ويلتحفون بطانية ممزقة واحدة»، والرد: «أية عقوبة هذه! والبطانية ممزقة أو غير ممزقة! أنا أصلاً أنفق على تعليمهم أكثر مما تسمح به إمكانياتي المادية، وآمل أن لا يكون للقانون حق في أن يعدّ ما في جيبي من مال». قالوا «إنك لم تكن تدلل أطفالك!» والرد: «هنا اسمحوا لي، هل لكم أن تطلعوني على المادة القانونية التي تأمرني بأن أدلل أولادي وإلّا تعرضت لعقوبة جزائية؛ وأي أولادٍ هُمْ؟ إنهم عفاريت، وقساة القلوب، ولصوص خبثاء، ومتوحشون...» وقالوا أخيراً: «إنك لم تختر لأطفالك نظام تربية ملائماً»؛ والرد «ولكن أيُّ نظامِ تربيةٍ يفرضه القانون الجنائي تحت طائلة العقوبة الجنائية؟! ثمَ إن القانون لا شأن له البتة بهذا الأمر...».

أريد أن اقول باختصار: إنه لم تكن ثمة أية إمكانية لجرِّ قضية آل جونكوفسكي إلى

(*) انظر «يوميات» شهر شباط (فبراير) 1876. (ن).

(**) فرق الخيالة غير النظامية في الجيش العثماني في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ وكانت مشهورة بقسوتها وارتكابها الفظائع. (ن).

المحكمة الجزائية. وهذا ما حدث: فالمحكمة برأت الأبوين، ولم يؤد اتهامهما إلى شيء، في حين أن القارئ يشعر أن هذه القضية يمكن أن تؤدي، وربما قد أدت فعلاً، إلى مأساة كاملة. أوه، هنا يوجد دور لمحكمة أخرى، فما هي هذه المحكمة؟

ما هي؟ لنأخذ، على سبيل المثال، الآنسة شيشوفا، أستاذة مادة التربية؛ إنها عندما تقدم شهادتها، إنما تفصح فيها عن الحكم الذي تصدره. لنلاحظ أن هذه السيدة مع أنها كانت هي نفسها تجلد الأطفال بالسوط («إلّا أنه كان سوطاً صغيراً») لكنها، كما يبدو، امرأة شديدة الذكاء، إذ يتعذر تحديد طبع الزوجين جونكوفسكي بأدق وأذكى مما فعلت هي. فهي تقول: إن السيدة جونكوفسكايا امرأة أنانية، وإن منزلهما تعمه الفوضى... بسبب إهمال المتَهمين وعدم اكتراثهما بكل ما يحيط بهما، بل حتى بذاتيهما. أمورهما كانت دائماً مشوشة، وكانا يعيشان في ارتباك دائم، ولا يحسنان تدبير شؤون معيشتهما، ويتعذبان؛ في حين أن ما كانا يبحثان عنه أكثر من أي شيء آخر هو الهدوء. وكانت الزوجة تحرص باستمرار على الابتعاد عن أي شيء يقلقها، إلى درجة أنها أوكلت عقاب الأولاد إلى زوجها...؛ وباختصار فإن الرأي الذي تكوّن لدى السيدة شيشوفا عندما غادرت منزل أسرة جونكوفسكي هوأن هذين الزوجين شخصان أنانيان قلباهما خاليان من الرحمة، والأهم أنهما أنانيان كسولان. كل هذا من الكسل، وقلباهما بالذات كسولان. الكسل، طبعاً، هو سبب الفوضى الدائمة في المنزل، وسبب الفوضى في تدبير الشؤون المعيشية، في حين أنهما لا يبحثان عن شيء بقدر ما يبحثان عن الهدوء: «إيه، فليأخذكم الشيطان المهم فقط أن نعيش!» ما سبب كسلهما هذا، ما سبب كل هذه اللا مبالاة؟ الرب وحده يعلم! هل يشق عليهما العيش وسط الفوضى الحالية التي تعم الحياة المعاصرة، ويصعب فهم أي شيء في خضمها؟ أم إن الحياة المعاصرة قلّما تجاوبت مع طموحاتهما ورغباتهما الروحية. ولم تجب إلّاعن القليل من أسئلتهما؟ أم أن عدم فهمهما لما يجري حولهما أدى أخيراً إلى تفكك مفاهيمهما أيضاً، ولم تعد هذه المفاهيم بعد ذلك إلى التماسك، وهكذا أصيبا بخيبة الأمل؟ لا أدري، لا أدري؛ ولكن يبدو أن هذين الشخصين متعلمان، وربما كانا في يوم ما، ولعلهما ما زالا إلى الآن، يحبان الرائع والسامي*؛ أما حك الأعقاب فإنه لا يمكن أن يتناقض مع أي شيء من هذا. فحك الأعقاب هو بالذات نوع من أنواع خيبة الأمل الكسولة اللامبالية، نوع من التنعّم الكسول، وتوق إلى الخلو بالنفس وإلى الهدوء، والدفء العاطفي. إنها مسألة أعصاب؛ إنها ليست قضية كسل بقدر ما هي قضية توق إلى الهدوء، والخلو بالنفس، أي على الأرجح، توق إلى النأي بالنفس عن

(*) الرائع والسامي: مفهومان سادا في علم الجمال في القرنين السابع عشر والثامن عشر. (ن).

جميع الواجبات والالتزامات. أجل توجد هنا بالطبع أنانية، والأنانيون نَزْويون وجبناء إزاء الواجب: يلازمهم على الدوام تقزز جبان من الارتباط بأي واجب. لاحظوا أن الرغبة الطاغية والدائمة في التحرر من أي واجب تولّد وتنمّي لدى الأناني، دائماً تقريباً، الاعتقاد بأن كل من يتعامل معه يصبح مديناً له بشيء ما، ويغدو ملتزماً أمامه بأداء واجب ما، وبتقديم ضريبة ما أو إتاوة له. ومهما كان هذا الحلم سخيفاً وخالياً من المعنى، إلا أنه في النهاية يتأصل ويتحول إلى استياء حانق على العالم كله، وإلى شعور بالمرارة لا يندر أن يغدو شعوراً حاقداً على الجميع وعلى كل شيء. ويتلقى قلب الأناني في النهاية عدم قيام الاخرين بهذه الواجبات المتخيلة المترتبة عليهم تجاهه على أنه إساءة مهينة له؛ ولذا فإنكم أحياناً لا تستطيعون على مدى حياتكم كلها، أن تتصوروا السبب الذي يجعل شخصاً أنانياً ما يغضب ويحقد عليكم باستمرار. وينشأ هذه الشعور بالحقد أحياناً حتى تجاه الأبناء بالذات، لا بل ربما ينشأ تجاه الأبناء أكثر مما ينشأ تجاه الآخرين، فالأبناء بالذات هم الضحايا المهيئون لتستهدفهم هذه الأنانية النزوية، فهم أقرب من الجميع وفي متناول اليد، والأهم من هذا كله غياب أية رقابة: «إنهم أبنائي أنا!» ولا تستغربوا حقيقةَ أنّ هذا الشعور بالكراهية الذي يثيره على الدوام التذكير بالواجب المهمل تجاه الأبناء، ويثيره وجود هؤلاء الأشخاص الصغار الجدد أمام ناظريّ الأبوين باستمرار؛ وهم يطالبونهما بكل شيء، ويرفضون بوقاحة (أواه، ليس بوقاحة بل على طريقتهم الطفولية!) يرفضون أن يفهموا أن الأبوين بحاجة ماسة إلى الاستمتاع بالهدوء وهم لا يقيمون أي وزن لِهذا الهدوء، أقول لا تستغربوا حقيقة أن هذا الشعور بالكراهية حتى حيال الأبناء بالذات، يمكن أن يتحول في النهاية إلى شعور بضرورة الانتقام، ومن شأن غياب القصاص أن يشجع هذا الشعور ويحرضه إلى أن يحوله إلى وحشية ضارية. نعم، إن الكسل يولّد دائماً الوحشية، ويفضي في النهاية إليها. وهذه الوحشية لا تتأتى من القسوة، بل من الكسل بالذات. فهذه القلوب ليست قاسية، بل هي بالتحديد قلوب كسولة. إن هذه السيدة التي تحب الهدوء كل هذا الحب، تحبه حتى حك العقبين، نراها تغضب وتحقد في نهاية المطاف لأنها هي وحدها، وحدها فقط، لا يتسنى لها البتة أن تنعم بالهدوء، وذلك لأن كل ما حولها تعمُّه الفوضى ويتطلب حضورَها الدائم وعنايتها المستمرة، وها هي تقفز في النهاية من السرير، وتمسك بالقضيب، وتنهال ضرباً على طِفلها، تضربه بنهم، بشراهة، بتشفٍّ، على نحو «يجعل المرء يخشى من مجرد النظر» كما تقول الخادمة في إفادتها، وكل هذا علامَ؟ وبسبب ماذا؟ بسبب أن الصبي جلب لأخته الصغيرة الجائعة (المصابة بالصرع) بعض حبات البطاطا من المطبخ، أي أن الأم تضرب ابنها بسبب عاطفته الخيّرة، تضربه لأنه لم يفسُد، ولم يقسُ بعد قلبه الطفل؛ وكأنها تقول له: «أياً كان الأمر فإنني حظّرتُ هذا، وأنت خالفت

وجلبت... ولذا أنهاك عن الخير الذي تفعله وآمرك بالسوء الذي أفعله». أجل... إن هذا هستيريا. الأطفال ينامون في مكان قذر «حظيرة الخنازير أنظف منه»، وليس فيه سوى بطانية مشققة لثلاثة أطفال: «فليكن! هذا ما يستحقونه - تقول أمهم لنفسها- فهم لا يدعونني أنعم بالهدوء!»؟ وهي تفكر هكذا لا لأن قلبها قاس، لا، إذ ربما يكون لديها قلب شديد الطيبة واللطف فطرياً، ولكنهم لا يدعونها بحال من الأحوال تنعم بالهدوء، وهي لا تستطيع طوال حياتها أن تظفر به، وكلما تقدم بها العمر أصبح الوضع أسوأ؛ ثم هنا هؤلاء الأولاد (لأي شيء هم هنا؟ ولماذا وُجدوا!) يكبرون، يعبثون، ويتطلبون في كل يوم مزيداً ومزيداً من الجهد والعناية! أجل، إذا كانت هذه الحالة هي هستيريا فإنها قد تجمعت على مدى سنوات طويلة. ويقف في المحكمة بجانب هذه الأم المريضة (التي أوصلوها إلى حالة المرض) الأب السيد جونكوفسكي، وهو أيضاً ربما كان إنساناً جيداً جداً، ويبدو أنه متعلم، وليس كلبياً مستهتراً البتة، بل بالعكس، إنه واعٍ لواجبه الأبوي، واعٍ له إلى درجة الغم في القلب. وها هو يشكو أبناءه الصغار في المحكمة والدموع تكاد تنفر من عينيه، ويبسط ذراعيه قائلاً: «لقد فعلت من أجلهم كل شيء، كل شيء، استخدمت معلمين ومربيات، وأنفقت عليهم أكثر مما تسمح به إمكانياتي المادية، ولكنهم متوحشون، وقد صاروا يسرقون. وضربوا أختهم الميتة على وجهها!» إنه، باختصار، يعُدّ نفسه محقاً تماماً. والأبناء يقفون هنا أيضاً، بالقرب من الأب. ومن اللافت أنهم أدلوا بإفادات «متحفظة، حذرة»، أي أنهم لم يشتكوا، بل كانوا يدافعون قليلاً عن أنفسهم، ولا أظن أن السبب الوحيد لهذا هو خوفهم من أبويهم اللّذَين لا بد لهم من أن يعودوا إليهما في النهاية. بالعكس، إن المرء يفترض أن واقع محاكمة أبيهم بسبب معاملته القاسية لهم يجب أن يشجعهم. ولكنهم مرتبكين ومحرجين لأنهم يقاضون أباهم، ويقفون بالقرب منه ويشهدون ضده؛ في حين أن أباهم كان يتهمهم، ويفضح مساوئهم وكل تصرفاتهم الشائنة، ويشكوهم إلى المحكمة والجمهور والمجتمع، غافلاً عن التفكير في المستقبل، أو في تلك المشاعر التي سيخلفها هذا اليوم في قلوب أبنائه، وساهياً عما سيحملونه معهم في هذا اليوم إلى مستقبلهم؛ ولكنه يؤمن بأنه على حق. أما السيدة جونكوفسكايا فتؤمن حتى بالمستقبل، وتؤمن به كل الإيمان! فهي تعلن للمحكمة أن سبب كل شيء هو المعلمون السيئون، والمربيات السيئات، وأن أملها فيهم قد خاب، ولكن الآن، إذ سيتولى زوجها بنفسه تعليم الأولاد وتربيتهم فإنهم أحوالهم ستصلح تماماً».

(هكذا إذاً!) ولكننا نقول: فليكن الرب معهم.

ودعونا نقل، بالمناسبة، شيئاً ما عن هذه التصرفات العابثة التي يقوم بها أطفال أسرة جونكوفسكي.

إن ضربهم أختهم الميتة على وجهها بالقضيب، لأنها كانت في وقت ما تشكوهم لأبيهم، هو طبعاً تصرف مثير للسخط والاشمئزاز، ولكن لنحاول أن نكون أكثر إنصافاً، وأقسم لكم أننا عندئذ سنرى أن هذا الفعل أيضاً ليس أكثر من عبث أطفال؛ إنه بالتحديد، «خَيالة» طفلية. ونحن هنا إزاء شيء ما ناتج عن مخيلة الأطفال، وليس عن قلب فاسد. فمخيلة الأطفال تتسم، حتى من حيث طبيعتها، وخصوصاً في سن معينة، بفرط التأثر والحساسية وبالميل إلى التخيلات الغريبة؛ ولا سيما في تلك الأُسر التي، حتى وإن كانت تعيش في أماكن ضيقة وكل فرد فيها يرى الآخرين أمامه، يُفصل الأطفال فيها في كومة منفردة بسبب انشغال الآباء الدائم واهتمامهم بشؤونهم، ولا يسمع الأبناء في أثناء ذلك سوى عبارات: «هيا ادرس، امسك كتابك، لا تعبث!» فيجلسون في زوايا محددة وكتبهم بين أيديهم ولا يجرؤون حتى على أن يهزوا أرجلهم. وعندما كان الأطفال في أسرة جونكوفسكي يهجعون في حظيرة الخنازير تلك، أو يجلسون لمراجعة دروسهم المملة، أو يقبعون في المرحاض المقفل كان بوسعهم أن يعوّدوا أنفسهم على الاستسلام لأحلام غريبة: بعضها خيّرة ومفعمة بمشاعر الود، وبعضها حاقدة، وبعضها مجرد أحلام طفولية تشبه الحكايات الخرافية الملأى بالتخيلات الغريبة: «ها أنا كبير، واذهب إلى الحرب، ثم أعود إلى هنا، فيسألني الأستاذ: أين كنت؟ وكيف تجرأت على أن تترك غرفة الصف وتسافر؟ فأخرج أنا من جيبي وسام جاورجيوس وأعلقه بعروة سترتي، فيخاف الأستاذ ويركع على ركبتيه!» وعندما ماتت الأخت ربما خطر لأحد الثلاثة خاطر وهو ينحدر نحو الإغفاء متدثراً بطرف البطانية الممزقة طلباً للدفء: «أتعرف يا نيكولا، إن الرب قصد أن يعاقبها لأنها شريرة وكانت تشكونا. وهي الآن تنظر من الأعلى وتريد أن تشكونا ولكنها لم تعد تستطيع. تعال غداً نضربها بالقضيب وهي تنظر إلينا من الأعلى، فترى وتغتاظ لأنها لم تعد تستطيع أن تشكونا!» وأقسم لكم إن الأطفال ربما بعد بضعة أيام ندموا بقلوبهم لأنهم ارتكبوا هذه الحماقة البشعة. إن قلوب الأطفال رقيقة، وأنا أعرف بهذا الصدد حادثة صغيرة: ماتت أم مخلفة وراءها سبعة أطفال، وبينهم طفلة في السابعة أو الثامنة من العمر. وما إن نظرت هذه الطفلة إلى أمها الميتة حتى انفجرت ببكاء عنيف، ثم اشتد نحيبها إلى درجة جعلت الناس يحملونها إلى غرفة الأطفال وهي في شبه هستيريا، ولم يعرفوا كيف يواسونها. وفجأة اقتربت منها طفيلية* حمقاء كانت تقف هناك بالمصادفة وقالت لها مواسية: «لا تبكي، لِمَ أنت تبكين هكذا... إنها لم تكن تحبك، ألا تذكرين كيف كانت تعاقبك وتجعلك تقفين في الزاوية، ألا تذكرين!» كانت الحمقاء تظن أنها تفعل حسناً، وأن الطفلة

(*) الطفيلي في روسيا القيصرية شخص مُفْتَقِر ينتمي بالأصل إلى طبقة النبلاء أو التجار أو المثقفين ويعيش في كنف أسرة ميسورة من دون أية التزامات سوى تسلية أفراد الأسرة وتملقهم. (م).

ستهدأ وتكف عن البكاء. وقد بلغت غايتها فعلاً، فقد كفّت الطفلة فجأة عن البكاء، وأكثر من ذلك أنها بدت في اليوم التالي وفي أثناء الدفن بمظهر بارد وصارم ومستاء، وكأنها تقول: «نعم، إنها لم تكن تحبني». أعجبتها فكرة أنها كانت مظلومة ومضطهدة وغير محبوبة. وأقسم إن هذا حدث مع طفلة لم تتجاوز الثامنة من عمرها. ولكن هذه «الخيالة» الطفلية لم تدم طويلاً: فبعد بضعة أيام عادت الطفلة تحن إلى أمها حنيناً مضنياً أدّى إلى مرضها، ولم تستطع هذه الابنة طوال حياتها فيما بعد أن تتذكر أمها إلا بقلب مفعم بمشاعر الإجلال.

لا شك في أن من الواجب أن نعاقب الطفلين في أسرة جونكوفسكي على الجنحة التي ارتكباها بحق أختهما الميتة، وأن نعاقبهما بصرامة، ولكن هذه الجنحة طفولية، وغبية، وتخيلية، وهي بالتحديد طفولية، ولا تعني على الإطلاق فساد القلب. أما التصرف العابث الذي قام به الصبي نيكولاي في المدرسة، بإدعائه أنه كاثوليكي كيلا يدرس مادة الديانة، فهو لا يعدو أن يكون عبثاً طفلياً محضاً، إنه أفعولة غريبة يقوم بها تلميذ أمام زملائه في الصف وكأنه يقول لهم: «ها أنتم تدرسون الديانة، أما أنا فقد تخلصت منها، خدعتهم جميعاً، ومن حسن حظي أن كنيتي تشبه الكنى البولونية». إننا حيال «شقاوة تلميذية» لا أكثر، شقاوة غبية وقبيحة، ويجب أن يُعاقَب عليها بصرامة شديدة، ولكنها يجب ألّا تدعونا إلى اليأس من الصبي، ويجب إلّا تجعلنا نعتقد أنه أوغل في الفساد إلى درجة أنه أصبح محتالاً. بيد أن جونكوفسكي الأب يؤمن بهذا على ما يبدو، وإلّا لما اشتكى في المحكمة على هذا النحو الحزين.

يحدث في المحاكم عندنا أن المتهمين عندما تبرؤهم المحكمة (ولا سيما إذا كان من الواضح أنهم مذنبون، ولم يُخلَ سبيلهم إلّا لرأفة القاضي بهم) فإن رئيس المحكمة يلقي على المتهم، أحياناً، وهو يمنحه الحرية موعظةً تبين له كيف يجب عليه أن يتلقى هذه التبرئة، وما الذي يجب أن يحمله من كل هذا إلى الحياة، وكيف عليه أن يتحاشى تكرار المصيبة في المستقبل. ويبدو رئيس المحكمة في هذه الحالة وكأنه يتحدث باسم المجتمع كله، باسم الدولة، وكلماته في أثناء ذلك هامة، وموعظته سامية. وربما لم يتلقّ الزوجان جونكوفسكي عند إعلان تبرئتهما أية إرشادات خاصة من هذا النوع، لا أدري ولكن يمكنني أن أتصور ببساطة بيني وبين نفسي ما الذي كان يمكن أن يقوله لهما رئيس المحكمة وهو يخلي سبيلهما. وهاكم ما كان يمكن أن يقوله لهما كما يخيل إليّ.

الكلمة المتخيلة لرئيس المحكمة:

«أيها المتهمان، لقد بُرِّئتما، ولكن عليكما أن تتذكرا أن ثمة محكمة أخرى بالإضافة إلى هذه المحكمة: إنها محكمة ضميركما الذاتية، فتصرفا على النحو الذي يجعل هذه المحكمة

تبرئكما أيضاً ولو فيما بعد. لقد أعلنتما أنكما تنويان الآن أن تتوليا بنفسيكما تربية أبنائكما وتعليمهم، ولو كنتما توليتما هذه المهمة من قبل لما جرت، على الأرجح، محاكمتكما هذا اليوم بحضور أولادكما. ولكنني أخشى ألّا تجدا في نفسيكما القوة الكافية لتنفيذ نياتكما الطيبة؟ إذ لا يكفي مجرد العزم على هذا، بل يجب سؤال الذات: هل لدينا من الحميّة والصبر ما يكفي لأداء هذه المهمة؟ لا أريد، ولا أجرؤ على أن أقول عنكما إنكما أبوان لا قلب لديكما وتكرهان أبناءكما. فكُره الأبناء أمر غير طبيعي تقريباً من حيث الجوهر، ولذا فهو غير ممكن. أما كره الأبناء، وهم ما زالوا صغاراً كأبنائكما، فأمر يجافي التفكير السليم، بل حتى أمر مضحك. ولكن الكسل واللامبالاة والتكاسل عن اعتياد تنفيذ أبسط الواجبات الطبيعية، وأسمى الالتزامات المواطنية، كتربية المرء لأطفاله يمكن فعلاً أن تُوَلِّد حتى عدم حب هؤلاء الأطفال، بل كرههم تقريباً، والشعور بما يشبه وجود ثأر ما شخصي لكما عندهم؛ وكلما كبروا أكثر وكبرت معهم متطلباتهم الطبيعية المتنامية، اشتد هذا الشعور لديكما تبعاً لتعاظم وعيكما بأن عليكما أن تفعلا الكثير، وأن تبذلا جهوداً كبيرة من أجلهم، أي أن عليكما أن تضحيا من أجلهم بالكثير من أوقات التمتع بالخلو بالنفس والهدوء. واعلما أيضاً أن الشقاوات المتزايدة التي يقوم بها الأطفال المُهمَلين، وتسارع اكتسابهم عادات سيئة، وفساد عقولهم وقلوبهم الظاهري يمكن أن يُولّد مشاعر الاشمئزاز السافر حتى في قلوب آبائهم. ونحن جميعاً قد شاهدنا وسمعنا هنا، من خلال شكاواكما الحارة الدامعة من نقائص أبنائكما، أساكما العميقَ الصادقَ، أسى الأب التعس الذي أهانه أبناؤه. ولكن فكّرا قليلاً واحكما بنفسيكما ما الذي كان يحول دون صيرورتهم أحسن؟ لقد اتضح في المحكمة على سبيل المثال، أنكما كنتما تعاقبانهم على كسلهم وشقاواتهم بحبسهم، لعدة ساعات أحياناً، في المرحاض. طبعاً الزنزانة هي الزنزانة، ومرحاضكم مدفّأ، وعلى ذلك فإن مذيب لم يكن قاسياً؛ ولكن هل الأمر هكذا حقاً؟ فالطفل عندما يجلس هناك، ويشعر بالمدلة، وبالوضع الشائن الذي هو فيه، يمكن أن يقسو قلبه، وأن تخطر في ذهنه أحلام خيالية بمنتهى الغرابة والشذوذ والاستهتار بالقيم المتعارف عليها؛ يمكن أن يفقد الحب، حبَّه للعشر العائلي، وحتى لكما أنتما والديه، إذ يمكن أن يبدو له أنكما لا تقدِّران على الإطلاق مشاعره نحوكما، ولا كرامته الإنسانية، علماً بأن الطفل تتخذ لديه الكرامة الإنسانية شكلاً محدداً حتى وهو صغير جداً، وهذا يجب أن تأخذاه بالحسبان. ويبدو أنكما لم تفكرا البتة في أن هذه الأفكار، والأهم هذه الانطباعات القوية، مع أنها طفلية، سيحملها الطفل معه فيما بعد إلى الحياة العامة، وربما احتفظ بها في قلبه حتى آخر يوم في حياته. وإني لأسألكما: هل فعلتما أنتما بالذات ولو أي شيء مسبقاً لِتُجَنِّبا الطفل هذه الضرورة المهينة التي تقضي بوضعه في مثل هذا المكان الذي يشعره

بالخزي والمذلة؟ فهو سيثير هذا السؤال فيما بعد عندما سيواجه الحياة، وسيطرحه حتماً على نفسه. أنت تزعم أنك قد فعلت كل شيء من أجل أولادك، ويبدو كما لو كنت مقتنعاً بهذا، ولكن أنا لا أصدق أنك قد فعلت كل شيء. وعندما كنت تقول هذا وأنت متكدر جداً كنتُ أنا واثقاً بأن لديك في أعماق نفسك شكاً بالغاً في هذا الأمر. إنك تؤكد أنك استخدمت معلمين، وأنفقت مبالغ تفوق إمكانياتك. ولا شك في أن المعلم ضروري للأطفال؛ وأنت، بدعوتك معلماً من أجلهم، قد تصرفت تصرف الأب الحريص الغيور طبعاً. ولكن استخدام معلم لتدريس الأطفال العلوم لا يعني طبعاً تسليمهم إليه للتخلص من همهم، كما يقال، وتركهم وشأنهم كيلا يعودوا يزعجونك بعد ذلك. وهذا بالذات ما فعلته أنت، على ما يبدو، وحسبت أنك بدفعك النقود قد فعلت كل شيء، بل حتى أكثر من كل شيء، «فوق إمكانياتك». ولكنني أؤكد لك أن ما فعلته هو أقل ما يمكنك فعله من أجلهم. إن ما فعلته هو مجرد دفع فدية مالية تتحلل بها من القيام بواجبك ومن التزاماتك الأبوية، واعتقدت أنك بهذا قد أنجزت كل شيء. لقد نسيت أن نفوسهم الطفلة الصغيرة تتطلب تواصلاً مستمراً وثابتاً مع نَفْسَيْ أبويهم، تتطلب أن تكون أنت بالنسبة إليهم دائماً كالجبل الشاهق روحياً، وأن تكون موضع حبهم واحترامهم العميق المنزّه عن الرياء، وأن تكون قدوة رائعة لهم. العلم هو العلم، ولكن الأب يجب أن يكون دائماً في نظر أبنائه مثالاً خيّراً واضحاً يجسد كل استنتاج أخلاقي يمكن لعقولهم وقلوبهم أن تستخلصه من العلم. إن حدبك المخلص عليهم الذي يظل على الدوام ماثلاً أمامهم، وحبك لهم، يدفئان كما الشعاع الدافئ كل ما هو مزروع في نفوسهم فتأتي الثمار، بالطبع، وافرة وطيبة. ولكن يبدو أنك أنت نفسك لم تزرع شيئاً، وسلّمت أبناءك لزارع غريب عن أسرتك، وطالبت بالمحصول؛ وبما أنك لم تألف هذا الأمر فقد طالبت بالمحصول باكراً جداً، وعندما لم تحصل عليه حقدت وقسوت... على هؤلاء الصغار، على أطفالك أنت، وأيضاً باكراً، باكراً جداً!

وكل هذا لأن تربية الأبناء هي جهد وواجب، وهما بالنسبة لبعض الآباء جهد وواجب لذيذان، بغض النظر عن الهموم المرهقة، وعن قلة الموارد، وحتى عن الفقر؛ بينما هما بالنسبة لآباء آخرين، وحتى لآباء ميسورين كثيرين جداً: الجهد الأكثر إرهاقاً، والواجب الأشد وطأة. ولهذا نراهم يحرصون على افتداء أنفسهم من هذا الواجب بالمال إذا كان لديهم مال. أما إذا كان المال لا يساعد، أو إنه غير موجود أصلاً، كما هو حال الكثيرين، فإنهم يلجؤون إلى الصرامة والقسوة، وإلى التعذيب والضرب بالقضيب. وسأقول لكم ماذا يعني القضيب هنا. إنه في نطاق الأسرة يفصح عن كسل الوالدين، وهو نتيجة حتمية لهذا الكسل. فكل ما يمكن تحقيقه بالجهد والحب، وبالعمل من دون كلل على تربية الأولاد والعمل معهم،

وكل ما كان يمكن بلوغه بالتوعية والشرح والإرشاد والصبر والتربية وتقديم القدوة، كل هذا يفترض الآباءُ الضعفاء والكسالى الفاقدو الصبر أن أنجع وسيلة لتحقيقه هو القضيب: (لن أشرح بل سآمر، ولن أرشد بل سأرغم). وما هي النتيجة؟ الطفل الماكر الكتوم سيرضخ حتماً ويخدعك، وقضيبك لن يصلحه بل سيفسده؛ والطفل الضعيف الجبان ذو القلب الرقيق ستكبُتُه وتسحق إرادته؛ أما الطفل الطيب، السليم الطوية، ذو القلب الصريح والمنفتح فإنك ستعذبه في البداية، ثم ستجعله قاسياً وتفقد قلبه. إن من الصعب، وغالباً ما يكون من الصعب جداً، أن تنقطع الصلة بين قلب الطفل والذين يحبهم، ولكن إذا انقطعت تتولد لدى الطفل في وقت باكر إلى حد غير طبيعي مشاعر استهتار فظيع بالأعراف السائدة، ويغدو قلبه قاسياً، وتتشوه فيه عاطفة العدالة. ولكن هذا كله لا يحدث، طبعاً، إلّا إذا كانت القسوة تتأتى عن أنانية الوالدين، وإذا كان صاحب الحقل لم يزرعه بنفسه، ويطلب منه في الوقت ذاته محصولاً طيباً؛ ففي مثل هذه الحالة يأتي الظلم والقسوة من جهة الآباء ويزدادان من دون أي رادع، وهذا في الأغلب ما يحدث. ويغدو الشعار في نهاية المطاف هو «أنهاكَ عن الخير الذي تفعله، وآمرك بالسوء الذي أفعله»، وتراهم يعاقبون الطفل حتى على فعل الخير، على البطاطا التي جلبها لأخته من المطبخ: فكيف للقلب ألاّ يقسو، وكيف للمفاهيم ألا تتشوه؟ وحتى إذا لم تكن قاسياً، بل حتى إذا كنت تحبهم، فإنك مع ذلك كنت تعاقبهم بإهمالك لهم، وبإذلالهم: فقد كانوا ينامون في غرفة قذرة على قطعة لباد، ويأكلون لا من الطعام الذي يوضع على مائدتكما، بل مع الخدم. وكنت تظن، طبعاً، أنهم سيحسون بذنبهم في النهاية ويستقيمون؛ أما إذا افترضنا العكس فإن معنى ذلك أنك كنت تفعل هذا بسبب كرهك لهم والانتقام منهم والإساءة إليهم؟ ولكن المحكمة لم تشأ أن تصل إلى هذا الاستنتاج، وعَزَتْ تصرفاتك إلى خطأ المربّي في حساباته. ولكن ها أنت الآن عازم على تربيتهم وتعليمهم بنفسك: إنها مهمة صعبة، مع أنها تبدو لزوجتك سهلة. إن أطفالك الآن غير موجودين في القاعة، فقد أمرت بإخراجهم، ولذا أستطيع أن أتناول في حديثي أهم الجوانب في القضية الصعبة التي تواجهك؛ وأهم جانب فيها هو أن على الطرفين أن يغفرا الكثير. عليهم أن يغفروا لك تلك الانطباعات الأليمة المرهقة التي ارتسمت في قلوبهم الطفلة، ويغفروا لك قساوتهم، ونقائصهم. وعليك أن تغفر لهم أنانيتك وإهمالك لهم، وفساد عواطفك تجاههم، وقسوتك، وأخيراً مثولك في المحكمة للمقاضاة عنهم. وأنا أتكلم هكذا لأنك عندما ستخرج من قاعة المحكمة لن تتهم نفسك بكل هذا، بل ستتهمهم هم حتماً، أنا على يقين بهذا! ولذا ينبغي أن تسأل نفسك عندما تبدأ ممارسة مهمتك الصعبة، وهي تربية أبنائك: هل بإمكانك أن تتهم نفسك بالذات، وليس أولادك، بكل هذه الجنح والجرائم التي ارتكبتها! فإذا كان بوسعك أن تفعل ذلك، فإنك

ستنجح في مهمتك! وهذا يعني أن الرب قد جلا بصرك، ونوّر ضميرك. أما إذا كنت غير قادر على ذلك فخيرٌ لك ألّا تُقْدم على تنفيذ نيّتك.

والجانب الثاني الشاق في مهمتك هو أن تتغلب على الانطباعات والذكريات السابقة الكثيرة جداً، التي استقرت في قلوبهم، وأن تمحوها وتغيرها. ولكن هذا يتطلب منك أن تجعلهم ينسون الكثير الكثير، وأن تخلق في قلوبهم كثيراً من الانطباعات الجديدة، بحيث إنني أتساءل بحيرة: بأية وسيلة يمكنك أن تحقق هذا؟ أوه، إنك إذا تعلمت أن تحبهم فستحقق كل شيء طبعاً. ولكن حتى الحب هو أيضاً جهد، وحتى الحب يجب أن تتعلمه، هل تصدق هذا؟ وهل تؤمن يا ترى، هل أنت على يقين، في نهاية المطاف بأن بعض الشؤون اليومية الضحلة جداً، والبدائية جداً، والمبتذلة جداً لن توقفك ولن تنتصر عليك وأنت تنفذ مشروعك الرائع؟ إنها شؤون ربما أنت لا تفكر فيها الآن، ولكنها يمكن أن تغدو العقبة الأهم أمام مبادراتك الخيّرة. إن كل أب حريصٍ وعاقلٍ يعرف، مثلاً، كم من المهم أن يمنع نفسه من التقصير والسفاهة والخلاعة أمام أطفاله على صعيد العلاقات الأسرية اليومية، وأن يمتنع عن ممارسة العادات السيئة والبشعة، والأهم أن يمتنع عن عدم الانتباه إلى آرائهم الطفولية فيه وإهمالها، وعن الاستهانة بالانطباع الكريه والبشع والكوميدي الذي يمكن أن يتولد لديهم في أحيان كثيرة جداً عند رؤية طيش الآباء في نطاق الحياة الأسرية المعيشية. وهل تؤمن يا ترى بأن الأب الحريص يجب عليه أحياناً أن يعيد تربية نفسه تماماً من أجل أبنائه؟ أوه، إذا كان الآباء أخياراً، وإذا كان حبهم لأولادهم مفعماً بالاهتمام الجدي والحرارة، فإن أولادهم سيغفرون لهم الكثير، وسينسون فيما بعد الكثير من الأمور الكوميدية والبشعة، وليس هذا فحسب، بل هم لن يدينوهم إدانة قطعية بسبب بعض الأفاعيل السيئة للغاية؛ بل بالعكس فإن قلوبهم ستجد حتماً ظروفاً مخفِّفة. أما في الأسر التي يسود فيها التنافر والقسوة فيمكن أن يحدث أمر آخر تماماً. لقد تبيّن في المحكمة أن لدى زوجتك عادة مَرَضيّة هي جعل أحد ما يحك لها قدميها قبل النوم. وقد شهدت الخادمة بأن هذا الواجب كان بالنسبة لها عذاباً، و«أن يديها كانتا تَنْمَلان». فتصورهذا الصبي، ابنَك، وقد أجبروه على أن يحكّ بدلاً من الخادمة؟ أوه، لو أن أمه كانت تحبه بصدق ومن القلب، وكان هو واثقاً بذلك، لكان الآن، ولظل على الدوام فيما بعد، يتذكر هذا المرض الذي لازم إنساناً غالياً عنده وهو يبتسم ابتسامة صادرة عن طيبة قلب، مع أنه ربما كان يغتاظ وينزعج عندما كانوا يجبرونه على حك القدمين. وها أنا أتصور كيف كان ينظر، وبِمَ كان يشعر، وماذا كان يخطر في باله عندما كان يجلس ساعة أو أكثر وهو يقوم بهذه المهمة المضحكة لشخص لا يحبه، ولن يلبث أن ينهض بعد قليل ويبدأ بضربه بلا أي سبب أو ذريعة. لا شك في أن الطلب إليه أن يقوم بهذه المهمة كان لا بد من

أن يبدو له آنذاك مهيناً، وينطوي على الاستخفاف به واحتقاره. وكان لا بد من أن يدرك، أو الأفضل أن نقول: من أن يشعر بأن أمه ليست بحاجة إليه كابن، وأنها تحتقره كابن، وتنساه وترسله لينام على قطعة من اللباد، وإذا ما تذكرته فإنما تتذكره من أجل أن تضربه، وعلى هذا فإنها تحتاج إليه لا بصفته ابناً لها، بل بصفته «حكّاكة» ما فحسب! وها أنت بعد كل هذا تشكو من أنهم قد فسدوا، وأنهم متوحشون لا قلوب لهم، و«أنهم تعلموا السرقة»! نَشِّط مخيلتك قليلاً، وتخيل ابنك في المستقبل، لنفترض عندما يبلغ الثلاثين، وتصور مدى الشعور بالتقزز والحقد والاحتقار الذي سيتذكر به هذه المشاهد من طفولته... ليس من شك في أنه سيظل يتذكرها حتى آخر يوم من حياته. إنه لن يغفر، وسيظل يكره ذكرياته وطفولته، ويلعن عش أهله السابق، ومن كان معه في هذا العش! إن عليك أن تجتث حتماً هذه الذكريات، وأن تغيّرها من كل بد، وتكبتها بانطباعات جديدة مغايرة، قوية ومقدسة؛ وما أضخم الجهد الذي يتطلبه ذلك! مجرد التفكير في ذلك مخيف! أجل، إن المهمة التي تتولاها أصعب بكثير مما يبدو لزوجتك!

لا تغضبا ولا تستاءا من كلماتي. فأنا بقولي هذا إنما أؤدي واجباً حتمياً. وأنا أتكلم باسم المجتمع والدولة والوطن. أنتما أبوان وهم أبناؤكما، وأنتما روسيا الحاضر، وهم روسيا المستقبل: فما الذي سيحدث لروسيا إذا عمد الآباء الروس إلى التملص من واجبهم المدني، وراحوا يبحثون عن التوحّد، أو من الأحسن القول: يبحثون عن الانفصال، بدافع الكسل والكلبية[5]، عن مجتمعهم وشعبهم، وعن أبسط واجباتهم تجاههما. وأفظع ما في الأمر أن هذه الظاهرة منتشرة على نطاق واسع. فأنتما لستما وحدكما هكذا، وهناك آخرون يرتكبون الخطأ نفسه ولكن ربما بأشكال وصيغ أخرى. بيد أن أكثر ما يلفت النظر هو أنكما لستما الأسوأ على هذا الصعيد؛ لا بل إنكما أفضل من كثيرين من الآباء المعاصرين، إذ إن قلبيكما، على الرغم من كل شيء، لم يمت فيهما الشعور بالواجب، بغض النظر عن أنكما لم تؤدياه. فأنتما لا تنفيان الواجب نفياً مطلقاً. ولستما أنانيين باردين، بل بالعكس، أنتما حانقان، ولكن على مَنْ؟ على نفسيكما، أم على أولادكما، لن أُقدِم على التحديد، بيد أن ما تبيّن هو أنكما مؤهلان لأن تتأثرا قلبياً بسبب فشلكما، وتتكدرا بعمق! إذاً فليساعدكما الرب على استدراك فشلكما. ابحثا عن الحب، وادخرا المحبة في قلبيكما. إن الحب قادر على كل شيء ويستطيع خلقنا من جديد. ونحن لا نقدر على امتلاك قلوب أبنائنا، إلا بالمحبة، وليس بحقنا الطبيعي وحده كآباء. ثم إن الطبيعة نفسها، إذ تقدم لنا المساعدة للقيام بواجباتنا تكون مساعدتها أعظم ما تكون عند قيامنا بواجباتنا تجاه أبنائنا بالذات، وذلك لأنها جعلت عدم حب الأبناء أمراً مستحيلاً. وكيف لنا ألا نحبهم؟ فإذا نحن كففنا عن حب أبنائنا فمن الذي يمكننا أن نحبه بعد

ذلك، وما الذي سيحدث لنا شخصياً عندئذ؟ وتذكّرا أيضاً أن مخلِّصنا قد وعدنا بـ «اختصار الأوقات والأزمنة»*من أجل الأطفال فقط، ومن أجل رؤوسهم الذهبية. وكُرمى لهم ستُختصر آلام ولادة المجتمع الإنساني من جديد ليأتي في أكمل صورة. فليتحقق هذا الكمال، ولتنتهِ، في نهاية المطاف، معاناة حضارتنا وحيرتها!

والآن اذهبا فقد بُرِّئتما...

الانفراد مرة أخرى.
الجزء الثامن من «آنا كارينينا»

/

اعتاد كثيرون جداً من المثقفين الروس أن يقولوا في هذه الأيام «أي شعب؟ أنا نفسي الشعب». وفي الجزء الثامن من رواية «آنا كارينينا» نرى «ليڤين»، وهو البطل المحبب لدى المؤلف يقول في نفسه إنه هو نفسه الشعب. وكنت أنا قد سميت ليڤين هذا في معرض حديثي عن «آنا كارينينا» من قبل بـ«ليڤين النقي السريرة». ومع أنني ما زلت أؤمن بنقاء سريرته كالسابق لكنني لا أصدق أنه الشعب؛ بل بالعكس، فأنا أرى أنه هو أيضاً يتلهف بشغف إلى الانفراد. وقد اقتنعت بهذا عندما قرأت هذا الجزء الثامن بالذات من «آنا كارينينا»، التي كنت قد بدأت الحديث عنها في مستهل هذا الفصل من يومياتي عن شهري تموز وآب (يوليو وأغسطس). إن ليڤين، كواقعة، ليس شخصاً موجوداً بالفعل، طبعاً، بل هو مجرد شخصية ابتدعها خيال مؤلف الرواية. ومع ذلك فإن هذا الروائي ذو موهبة عظيمة وذكاء بالغ، وإنسان يحظى باحترام عميق في أوساط المثقفين الروس. وهو يصور بهذه الشخصية المثالية أي المتخيَّلة، بعضاً من نظرته هو إلى واقعنا الروسي المعاصر، وهذا واضح لكل من قرأ عمله المتميز؛ وعلى هذا فإننا عندما نحكم على ليڤين غير الموجود إنما نحكم أيضاً على النظرة الواقعية لواحد من أهم الأشخاص الروس المعاصرين إلى الواقع الروسي الحالي. وهذا بحد ذاته موضوع جدي للمحاكمة العقلية حتى في وقتنا هذا الشديد الصخب، والحافل بالوقائع الحقيقية الضخمة

(*) إشارة إلى الآية الواردة في «أعمال الرسل» 1/ 7. (ن).

المزلزِلة، التي تتوالى بسرعة. وهذه النظرة لكاتب روسي له كل هذه الأهمية إلى قضية تحظى باهتمام كبير لدى الروس جميعاً، كقضية الحراك القومي في أوساط الروس بأسرهم خلال العامين الأخيرين على صعيد المسألة الشرقية، قد تم التعبير عنها تعبيراً دقيقاً ونهائياً في هذا الجزء الثامن، وهو الجزء الأخير من روايته، التي رفضت هيئة تحرير «البشير الروسي» نشره بسبب الاختلاف بين قناعات المؤلف وقناعاتها الذاتية، مما أدى إلى نشره في كتيب مستقل منذ فترة قصيرة جداً. ويتمثل جوهر هذه النظرة بحسب فهمي لها في الأمور الرئيسة الآتية:

أولاً- إن شعبنا لا يشارك البتة فيما يسمى الحركة القومية، بل هو حتى لا يفهمها بالمرة.

ثانياً - إن هذا كله مصطنع عن قصد، فقد اصطنعه في البدء أشخاص معينون، ثم دعمه رجال الصحافة فيما بعد بهدفِ جَنْيِ مكاسب معينة، ولجعل الجمهور أكثر إقبالاً على مطالعة إصداراتهم.

ثالثاً- إن جميع المتطوعين كانوا إما ضائعين وسكارى، أو هم ببساطة أغبياء.

رابعاً- إن كل هذا الذي يُسمى نهوض الروح القومية الروسية دفاعاً عن السلاف، لم يكن مصطنعاً من قبل أشخاص معينين فحسب، ومدعوماً من قبل صحفيين مأجورين فقط، بل هو مصطنع على الرغم، إذا جاز التعبير، من الأسس نفسها...

خامساً وأخيراً - إن كل هذه الهمجية وهذا التعذيب غير المسبوق اللذين يتعرض لهما السلاف، لا يمكن أن يثيرا لدينا نحن الروس شعوراً عفوياً بالشفقة، وإن «مثل هذا الشعور العفوي فيما يتصل باضطهاد السلاف غير موجود ولا يمكن أن يوجد». وقد صيغت هذه الفكرة الأخيرة بتعبير قطعي ونهائي.

وعلى هذا فإن «ليفين النقي السريرة» قد جمح إلى الانفراد وافترق عن الأكثرية العظمى من الناس الروس. ونظرته، على العموم، ليست جديدة البتة وليست أصيلة. وكانت ستُعجب الكثيرين أيما إعجاب، وتوافق ذوق الكثيرين من الذين كانوا يفكرون على نحو مماثل تقريباً في الشتاء الماضي عندنا في بطرسبورغ*، وهم أناس ليسوا البتة من الفئات الأخيرة من حيث الوضع الاجتماعي، ولذا فإنني آسَفُ لأن الكتيّب صدر متأخراً بعض الشيء. ولكن ما هو السبب الذي أدّى بليفين إلى مثل هذا الانفراد المتجهم، وهذا الانفصال الكالح؟ لا أستطيع أن أحدد. إن ليفين في الحقيقة ذو طبع حار، وهو شخص «قلق»، ويحلل كل شيء، وإذا أردنا الحكم عليه بصرامة قلنا إنه لا يصدق نفسه في أي شيء. ولكنه مع ذلك إنسان «نقي

(*) يمكن التخمين أن دوستويفسكي ينتقد هنا ما ورد في بعض المقالات التي نشرتها في شتاء عام 1877 صحيفة «بشير أوربا» البطرسبورغية ذات الاتجاه الليبرالي - الغربوي. (ن).

السريرة»، أنا أصر على هذا؛ مع أنه من الصعب أن نتصور تلك الطرق السرية والمضحكة أحياناً التي يمكن أن تنفذ عبرها في بعض الحالات عاطفةٌ غير طبيعية بالمرة، ومصطنعة جداً وبشعة جداً، إلى بعض القلوب النقية والصادقة للغاية. وهنا أشير أيضاً إلى أنه على الرغم من اعتقاد الكثيرين، وحتى أنا نفسي أرى بوضوح (كما ذكرت آنفاً) أن المؤلف عمد في حالات كثيرة إلى التعبير بشخص ليڤين عن قناعاته وآرائه الذاتية داسّاً إياها بين شفتي ليڤين بطريقة تكاد تكون قسرية، مضحياً على نحو سافر أحياناً بالفنية، إلّا إنني لا أخلط البتة بين شخص ليڤين، كما صوره المؤلف، وشخص المؤلف نفسه. إنني أقول هذا وأنا أشعر بحيرة مُرّة: فمع أن الكثير جداً من الذي عبّر عنه الكاتب بشخص ليڤين إنما يخص، كما أرى ليڤين وحده بالذات، بصفته أنموذجاً مصوراً فنياً، لكن مع ذلك ليس هذا ما كنت أنتظره من مثل هذا المؤلف!

اعترافات سلافوي[13]

أجل، ليس هذا. وهنا أجد نفسي مرغماً على أن أعبّر عن بعض مشاعري، مع أنني قد عزمت، عندما بدأت بإصدار «يومياتي» منذ العام الماضي، على أن لا أضمنها نقداً أدبياً. ولكن المشاعر ليست نقداً، مع أنني أعبر عنها بصدد عمل أدبي. وفي الحقيقة أنا أكتب «يومياتي»، أي أدوّن انطباعاتي بصدد كل ما يدهشني أكثر من غيره في الأحداث الجارية، ولكن ها أنا لسبب ما أفرض على نفسي عمداً واجباً مختلقاً بأن أكتم حتماً بعض الانطباعات التي ربما تكون أقوى من أية انطباعات أخرى، لا لشيء إلّا لأنها مرتبطة بالأدب الروسي. ولا شك في أن ثمة فكرة صائبة في أساس هذا القرار، ولكن التنفيذ الحرفي لهذا القرار ليس صائباً، وأنا أرى هذا لأن الأمر على الأقل فيه كلمة «الحرفي». ثم إن العمل الأدبي الذي قابلته بالصمت حتى الآن، هو بالنسبة إليّ ليس عملاً أدبياً فحسب، بل واقعة كاملة ذات معنى مختلف. ربما أنا أعبر بسذاجة زائدة، ولكنني مصمم على قول ما يأتي: إن واقعة الانطباع هذه عن الرواية، عن قصة متخيلة، عن عمل أدبي، قد تطابقت في نفسي هذا الربيع مع واقعة ضخمة هي الإعلان عن الحرب الدائرة الآن، وكلا الواقعتين، كلا الانطباعين وَجَدا في ذهني

رابطاً واقعياً يربط أحدهما بالآخر، ونقطة تماس متبادل أذهلني، وبدلاً من أن تضحكوا مني، الأحسن أن تستمعوا إليّ:

لديّ الكثير من القناعات السلافوية المحض، مع أنني ربما لست سلافوياً تماماً. والسلافويون ما يزالون حتى الآن يُفهمون بأشكال مختلفة. فالسلافوية لا تعني في مفهوم بعض الناس حتى في أيامنا هذه، سوى ما كانت تعنيه في الماضي، في مفهوم بيلينسكي على سبيل المثال، أي: الكفاس[7] والفجل. وبيلينسكي بالفعل، لم يتجاوز هذا الحد في فهم السلافوية. وثمة آخرون (وهم كثر جداً، ويكادون يشكلون الأكثرية حتى في أوساط السلافويين) يفهمون السلافوية على أنها التطلع نحو تحرير جميع السلاف وتوحيدهم تحت مبدأ روسيا الأعلى، وهو مبدأ ربما ليس سياسياً خالصاً. وأخيراً ثمة جماعة ترى أن السلافوية تعني وتتضمن، بالإضافة إلى توحد السلاف تحت مبدأ روسيا، الاتحاد الروحي لجميع المؤمنين بأن «روسيانا» العظيمة، التي تقف في مقدمة السلاف المتحدين، ستقول للعالم أجمع ولكل البشرية الأوربية وحضارتِها كلمتَها الجديدة المعافاة التي لم يسمعها العالم من قبل. وستُقال هذه الكلمة لخير الإنسانية جمعاء، ومن أجل تآلفها حقاً في اتحاد أخوي جديد يشمل العالم بأسره، وتكمن مبادئه في عبقرية السلاف، ولا سيما في روح الشعب الروسي العظيم، الذي عانى طويلاً جداً، وحُكم عليه بالصمت قروناً عديدة، ولكنه كان دائماً يكتنز في داخله قوىً عظيمة كي يقوم في المستقبل بإيضاح وإزالة الالتباسات الكثيرة المؤلمة والأكثر شؤماً في حضارة أوربا الغربية. وأنا أنتمي إلى هذه الفئة من المقتنعين والمؤمنين.

وأقول ثانية ليس من شيء هنا يستدعي التهكم والضحك: فهذه الكلمات قديمة، وهذا الإيمان موغل في القدم، وحقيقةُ أن هذا الإيمان لم يمت، وأن هذه الكلمات لم تخمد، بل هما بالعكس لا ينفكان يزدادان قوة، ويوسّعان دائرة انتشارهما، ويكسبان أنصاراً جدداً، ويقنعان شخصيات جديدة، هذه الحقيقة وحدها كان من شأنها أن تجعل خصوم هذه العقيدة والساخرين منها ينظرون إليها في نهاية المطاف، بجدية أكبر ولو بقليل، ويخرجون من طوق العداوة الفارغة المتحجرة التي يكنونها لها. ولنكتف الآن بهذا القدر من الحديث حول هذه المسألة. فالقضية هي أنها نشبتْ في ربيع هذا العام حربنا العظمى* من أجل اجتراح مأثرة عظمى سنصل بها إلى غايتها عاجلاً أو آجلاً، بصرف النظر عن جميع الإخفاقات المؤقتة التي تبعدنا عن حل القضية، وحتى إذا لم نوفق في إيصالها إلى غايتها النهائية المرجوة خلال الحرب الحالية بالذات. إن مدى عظمة هذه المأثرة، ومدى بعد الهدف من هذه الحرب عن

(*) المقصود هو الحرب بين روسيا والامبراطورية العثمانية، وقد بدأت رسمياً يوم صدور البيان القيصري في الثاني عشر من نيسان عام 1877. (ن).

التصديق من جانب أوربا سيوجبان على أوربا، بالطبع، أن تسخط على مكرنا، ولا تصدق ما كنا أبلغناها إياه عند بدء الحرب، ولذا سيكون عليها أن تستخدم جميع الوسائل وتبذل كل الجهود من أجل أن تُلحق بنا الأذى، وستتحد مع عدونا في حلف سياسي ولو على نحو غير سافر وغير رسمي؛ أي إنها ستعادينا وتحاربنا ولو سِرّاً، في انتظار نشوب حرب سافرة. وكل هذا، طبعاً، بسبب نياتنا وأهدافنا المعلنة! «العُقاب الشرقي العظيم قد حلّق فوق العالم، خافقاً بجناحيه على قمم المسيحية»[130]، إنه لا يريد الإخضاع، ولا الاستيلاء، ولا توسيع الحدود، بل يريد تحرير المضطهدين والمسحوقين، وإنهاضهم ومنحهم حياة جديدة لخيرهم وخير الإنسانية. ونحن كيفما حسَبْنا، وأياً كانت نظرة الارتياب التي يُنْظَر بها إلى هذه القضية، فإن الهدف في جوهره هو هذا، هذا بالذات، وهذا هو الأمر الذي لا تريد أوربا أن تصدقه! وصَدِّقوني: إنها لا تخشى زيادة قوة روسيا المحتملة، بقدر ما تخشى أن تكون روسيا قادرة على أن تأخذ على عاتقها القيام بهذه المهام وبلوغ هذه الغايات. لاحظوا هذا بانتباه خاص. إن تولّي أمر ما ليس من أجل مكسب ذاتي مباشر، يبدو لأوربا شيئاً غير مألوف بالمرة، وخارجاً عن أطر الأعراف الدولية، مما يجعل من البديهي أن تنظر أوربا إلى تصرف روسيا لا على أنه فقط مجرد همجيةٍ «أمة متخلفة ومتوحشة وغير متنورة»، مؤهلة للسفالة والحماقة إلى حد الإقدام في عصرنا على القيام بتصرفات تشبه الحملات الصليبية التي جرت سابقاً في عصور الظلام، بل على أنه أيضاً واقعة لا أخلاقية خطرة على أوربا وتهدد حضارتها العظيمة بحسب زعمها. انظروا: من الذي يحبنا في أوربا الآن بصورة خاصة؟ حتى أصدقاؤنا الألِدَّة الرسميون*، إذا جاز التعبير، يعلنون بصراحة أنهم مسرورون لإخفاقاتنا، هزيمة الروس أحب إليهم من انتصاراتهم الذاتية، فهزيمتنا تفرحهم، وتبعث الراحة في نفوسهم؛ أما في حالات نجاحنا فإن هؤلاء الأصدقاء قد اتفقوا فيما بينهم منذ مدة طويلة على أن يبذلوا كل ما بوسعهم من أجل أن يجنوا لأنفسهم مكاسب من نجاحات روسيا أكثر مما ستجنيه روسيا لنفسها منها.

ولكن لنتحدث عن هذا فيما بعد. المهم أنني كنت قد بدأت بالحديث عن الانطباع الذي كان يجب أن يشعر به كل من يؤمن بمستقبل روسيا العظيم، وأهميتها الإنسانية العامة في هذا الربيع، بعد إعلان هذه الحرب. إن هذه الحرب التي لم يُسمع بمثلها من قبل، تهدف إلى الدفاع عن الضعفاء والمضطهدين، وإلى منح الحياة والحرية، لا إلى سلبهما؛ وهدف الحرب هذا الذي لم يُسمع بمثله في العالم منذ مدة طويلة، قد تجلّى فجأة لجميع المؤمنين عندنا

(*) يشير دوستويفسكي هنا متهكماً إلى امبراطورية النمسا - المجر والامبراطورية الجرمانية اللتين عقد معهما الامبراطور الروسي الكسندر الثاني في عام 1873 حلفاً أُطلق عليه اسم: «حلف الأباطرة الثلاثة». (ن).

بصفته حقيقة تؤكد إيمانهم على نحو مَهيب ينطوي على مغزى خاص. ولم يكن هذا حلماً ولا رجماً بالغيب، بل كان واقعاً قد بدأ يتحقق.

«وإذا كان قد بدأ يتحقق فإنه سيصل إلى النهاية، إلى تلك الكلمة الجديدة العظيمة التي ستقولها روسيا، وعلى رأس اتحاد السلاف، لأوربا؛ وحتى هذه الكلمة نفسها قد بدأت تُقال، مع أن أوربا ما زالت بعيدة عن فهمها وستظل طويلاً غير مصدقة لها». هذا ما كان يدور في خَلَد «المؤمنين». أجل لقد كان الانطباع مهيباً وذا مغزىً خاص. ومن البديهي أن إيمان المؤمنين كان لا بُدَّ له من أن يقوى ويتصلب أكثر فأكثر. ولكن بدأت تظهر آنئذ قضية بالغة الأهمية طرحت أمامهم أيضاً أسئلة مقلقة: «روسيا وأوربا! إن روسيا تُشهر السيف وتجابه الترك، ولكن من يدري، ألا يمكن أن تصطدم بأوربا، أو ليس الوقت مبكراً؟ الاصطدام بأوربا ليس كالاصطدام بالترك، ويجب أن يجري لا بالسيف وحده». هكذا كان المؤمنون يفهمون دائماً القضية، ولكن هل نحن مستعدون لاصطدام آخر. الحقيقة أن الكلمة قد بدأت تقال، ولكن هل كل هذا مفهوم؟ ولا أقصد في أوربا فقط، بل عندنا أيضاً! نحن، المؤمنين، نتنبأ، على سبيل المثال، أن روسيا وحدها هي التي تحوي بداخلها مبادئ حل المسألة الأوربية المصيرية العامة، أي مسألة الفئة الاجتماعية الدنيا، من دون معارك، ومن دون دماء ومن دون كراهية وضغينة، ولكنها ستقول هذه الكلمة عندما ستكون أوربا قد غرقت بدمائها، وذلك لأنه قبل هذا لا أحد في أوربا سيسمع كلمتنا، وحتى إذا سمعها فإنه لا يفهمها على الإطلاق. أجل، نحن، المؤمنين، نؤمن بهذا، ولكن ما هو الآن الرد الذي نتلقاه هنا من جماعتنا الروس أنفسهم؟ إنهم يردون علينا بأن كل هذا ما هو إلّا تكهنات هيجانية، وانفعالات تشنجية، وأحلام مسعورة، ونوبات عنيفة، ويطلبون منا براهين، وإشارات ثابتة، ووقائع قد حدثت فعلاً. فإلامَ يمكن أن نشير، مؤقتاً، من أجل أن نثبت لهم تنبؤاتنا؟ أنشير إلى تحرير الفلاحين: هذه الواقعة التي لم تُفهم عندنا إلا قليلاً حتى الآن بصفتها إشارة إلى درجة تجلي القوة الروحية الروسية؟ أم نشير إلى فطريةِ وطبيعيةِ أُخوّتنا التي ما تنفك تتضح في زمننا أكثر فأكثر، مُزيحة عنها كل ما كان يكبتها طوال قرون، وعلى الرغم من كل الشوائب والقذارات، التي تلحق بها الآن فتلوثها وتشوه معالمها حتى لتكاد تطمسها؟ ولكن لنفترض أننا قد أشرنا إلى كل هذا، سنراهم مع ذلك يردون علينا ثانية بأن كل هذه الحقائق هي في الواقع انفعالاتنا التشنجية وحلمنا المسعور، وليست حقائق، وهي تفسَّر بأشكال جد متباينة وملتبسة، ولا تصلح لأن تكون برهاناً على أي شيء. هذا ما سيردون علينا به جميعهم تقريباً، في حين أننا نحن الذين لا نفهم أنفسنا، وقليلاً ما نؤمن بها، نجد أنفسنا نصطدم بأوربا! وإنها لشيء مخيف ومقدس أوربا هذه! أوه، لو تعلمون، أيها السادة، كم هي غالية علينا، نحن السلافويين

الحالمين، هذه الأوربا، وأنتم تظنون أننا نكرهها، إنها أوربا «بلد العجائب المقدسة»[131]. وهل تعلمون كم هي غالية علينا هذه «العجائب»، وكم نحب ونجلّ الشعوب العظيمة التي تسكن هناك. أجل، إن حبنا وإجلالنا لها أكثر من أخويّ، كما نحب ونجلّ كل عظيم ورائع أنجزوه. وهل تعرفون كم تؤلمنا وتقلقنا مصائر هذه البلاد العزيزة التي تربطنا بها صلة قربى، حتى إن عيوننا لتدمع وقلوبنا تنقبض؟ وكم تخيفنا هذه الغيوم المكفهرة التي لا تنفك تتلبد في سمائها أكثر فأكثر؟ إنكم، أيها السادة، يا أوربيّينا وغربويّينا، لم تحبوا أوربا بقدر ما أحببناها، نحن الحالمين السلافويين، الذين تعدوننا أعداء حقيقيين لها! لا، إن هذه البلاد عزيزة علينا - إنها النصر السلمي القادم للروح المسيحية العظيمة، التي بقيت مصونة في الشرق، وأخشى ما نخشاه في غمرة التخوف من الصدام معها في الحرب الحالية هو ألّا تفهمنا أوربا، وأن تقابلنا كالسابق، وكدأبها دائماً بالصلف، والاحتقار والسيف لأننا ما زلنا في نظرها همجاً متوحشين، غير جديرين بأن نتكلم في حضرتها. أجل لقد سألنا أنفسنا: ما الذي علينا قوله أو إظهاره لها لكي تفهمنا؟ يبدو أنه لم يبق لدينا سوى القليل القليل مما يمكن أن يكون مفهوماً لديها، وأن تحترمنا من أجله؟ إنها ستظل مدة طويلة، مدة أطول من اللزوم، من دون أن تفهم فكرتنا الأساسية، فكرتنا الرئيسة و«كلمتنا الجديدة» التي بدأت تتكون. فهي بحاجة إلى حقائق مفهومة الآن، حقائق مفهومة بحسب نظرتها الآنية. إنها ستسألنا: «أين حضارتكم؟ وهل تتبدّى بنية قواكم الاقتصادية من خلال هذه الفوضى التي نراها جميعاً عندكم. أين علمكم أنتم، أين فنكم أنتم، اين أدبكم أنتم؟».

«آنا كارينينا» كواقعة ذات أهمية خاصة

وقد صادف أن قابلت ذات مساء في الشارع آنذاك، أي في ربيع هذا العام، أحد أحب كتّابنا إليَّ*. ونحن نادراً جداً ما نتقابل، مرةً كل عدة أشهر، ودائماً بالمصادفة، وفي الشارع. إنه من أبرز الكتّاب الخمسة أو الستة من روائيينا الذين يطلقون عليهم عادة لسبب ما لقب «الثريا». وقد عمد النقد، على الأقل، على إثر الجمهور، إلى فصلهم عن سائر الروائيين

(*) المقصود: الكاتب الروسي إيفان غونتشاروف (1812-1891). (ن).

الآخرين في مجموعة خاصة، وما زال هذا الوضع مستمراً منذ مدة طويلة إلى حد ما، وما تزال مجموعة الخمسة هي نفسها، و«الثريا» لا تتوسع. وأنا أحب أن أتقابل مع هذا الروائي المحبب والمفضل لديّ، وأحب أن أبرهن له في أثناء ذلك على أنني لا أصدق ولا أريد أن أصدق بحال من الأحوال أنه قد أصبح قديماً، كما يقول، وأنه لن يكتب شيئاً بعد الآن. وأنا أحمل دائماً من حديثي القصير معه كلمة ما دقيقة وتدل على بعد نظر. وفي هذه المرة كان ثمة ما نتحدث عنه، فالحرب كانت قد بدأت. ولكنه بادر على الفور إلى الحديث مباشرة عن «آنا كارينينا»، وكنت أنا قد انتهيت لتوي من قراءة الجزء السابع الذي تُختتم به الرواية في صحيفة «البشير الروسي». إن محدّثي لا يدل مظهره على أنه شخص اندفاعي. ولكنه في هذه المرة أدهشني بحزمه وإصراره الحار على رأيه في «آنا كارينينا».

- إنها شيء لم يُسمع بمثله، إنها شيء رائد. مَنْ مِنْ كتّابنا يمكن أن يتوازى معه؟ ومَنْ في أوربا يمكن أن يقدم ولو شيئاً مشابهاً له؟ وهل كان لديهم في آدابهم جميعاً وخلال السنوات الأخيرة، وما قبل ذلك بكثير، أي عمل يمكن أن يقف بجانب هذا العمل؟

إن أكثر ما أدهشني في هذا الحُكْم الذي أشاطره إياه هو أن هذه الإشارة الموجهة إلى أوربا جاءت متناسبة تماماً مع التساؤلات والقضايا المُحيِّرة التي كانت تدور آنذاك في أذهان الكثيرين جداً على نحو عفوي. لقد اكتسب هذا الكتاب في نظري مباشرة حجم الواقعة، التي بإمكانها أن ترد على أوربا باسمنا؛ تلك الواقعة المطلوبة التي يمكننا أن نشير إليها أمام أنظار أوربا. طبعاً سيزعقون متضاحكين، ويدّعون أن هذه ليست أكثر من عمل أدبي، إنها مجرد رواية، ومن المضحك أن نبالغ إلى هذا الحد ونذهب إلى أوربا حاملين رواية. أعرف أنهم سيزعقون ويضحكون، ولكن لا تقلقوا، فأنا لا أبالغ، بل أنظر إلى الأمور بتيقظ: أنا نفسي أعرف أن ما أتحدث عنه الآن ليس أكثر من مجرد رواية، وأنه مجرد قطرة مما هو ضروري، ولكن المهم بالنسبة لي في هذا الصدد أن هذه القطرة قد أصبحت موجودة الآن، وماثلة للعيان، ولها كيان فعلي، حقيقي، وعلى هذا فإنها ما دامت قد وجدت، وبما أن العبقرية الروسية قد استطاعت إنتاج هذا الواقعة فهذا يعني أن هذه العبقرية ليس مقدراً عليها العجز، وأن بمقدورها أن تبدع، وأن تقدم نتاجها الخاص، وأن تبدأ بقول كلمتها الخاصة، وتكمل القول إلى منتهاه عندما يثين الأوان، ويحين الموعد. ثم إن هذه ليست البتة قطرة فحسب. وأنا هنا أيضاً لا أبالغ: فأنا أعرف حق المعرفة أنكم لن تجدوا لدى أي من أفراد هذه «الثريا» ولا لدى «الثريا» بمجملها ما يسمى، على وجه التدقيق، القوة العبقرية المبدعة؛ إذ لم يكن في أدبنا كله عباقرة لا مراء في عبقريتهم، جاؤوا بـ «كلمة جديدة» لا مراء في جدتها سوى ثلاثة فقط هم: لومونوسوف، وبوشكين، وغوغول جزئياً. أما كل هذه الثريا (وضمنها كاتب «آنا

كارينينا») فإنها خرجت رأساً من إبداع بوشكين، وهو أحد أعظم الناس الروس، ولكننا لم نزل حتى الآن بعيدين عن فهمه وتفسيره بكامل أبعاده. إن بوشكين يجسد فكرتين رئيستين، وكلتاهما تنطويان على الصورة المسبقة لكامل الرسالة المقبلة التي تحملها روسيا، ولكامل الهدف المقبل الذي تصبو إليه، وتالياً لمصيرنا المقبل كله. وأولى هاتين الفكرتين: عالميةُ روسيا الشاملة، وقدرتُها على الترجيع[4]، والقرابةُ الواقعية التي لا مراء فيها، والبالغةُ العمق، بين عبقريتها وعبقريات جميع شعوب العالم في جميع العصور. وقد عبر بوشكين عن هذه الفكرة لا بشكل إشارة أو تعاليم أو نظرية فحسب، ولا بشكل حلم أو نبوءة، بل بتجسيدها في الواقع، وهي متضمَّنة إلى الأبد في إبداعاته العبقرية التي تبرهن عليها. إنه إنسان العالم القديم، وهو ألماني كما هو إنكليزي، يدرك عبقريته بعمق ويعي حنينه إلى تحقيق طموحه («مأدبة في زمن الطاعون»)* وهو أيضاً شاعر الشرق. لقد أخبر جميع هذه الشعوب وأراهم أن العبقرية الروسية تعرفهم، وقد فهمتهم، والتصقت بهم، كما لو كانت تنتمي إليهم بالدم؛ وهي قادرة على أن تتقمصهم تقمصاً كاملاً، وليس سوى الروح الروسي قد مُنح العالمية الشاملة، وحُمِّلَ رسالة القيام في المستقبل باستيعاب جميع الفوارق الكثيرة بين القوميات وتوحيدها، وإزالة جميع التناقضات التي بينها. أما فكرة بوشكين الثانية فتتجسد في انعطافه نحو الشعب والاعتماد على قوته وحدها، والإيمان بأننا لن نمتلك عبقريتنا الروسية بكليتها، ونعي رسالتها، إلّا من خلال الشعب وحده دون سواه؛ وفي هذه المرة أيضاً لم يكتف بوشكين بالإشارة إلى هذا فحسب، بل كان أول من حققه في الواقع. ولم يبدأ عندنا الانعطاف الواعي الحقيقي نحو الشعب إلا منه، وكان يستحيل تصور حدوث هذا الانعطاف قبل بوشكين، منذ عهد الإصلاح الذي قام به بطرس الأكبر. وثريّانا الحالية بكاملها لم تعمل إلّا وفق إشارات بوشكين، ولم تقل أي جديد بعده. فكل بوادرها كانت موجودة لديه، وكان قد أشار إليها. أضف إلى ذلك أنها لم تعالج سوى جزء صغير جداً مما كان قد أشار إليه. ولكن بالمقابل نجد أن ما فعلوه هو أنهم عالجوا ما تناولوه بقدر عظيم من الزخم والعمق والوضوح كان سيجعل بوشكين يعترف بهم طبعاً. إن رواية «آنا كارينينا» ليست، بالطبع، شيئاً جديداً من حيث فكرتها، وليست شيئاً لم يسمع بمثله عندنا حتى الآن. وبدلاً من أن نلفت نظر أوربا إليها كان بوسعنا طبعاً أن نلفت نظرها إلى المصدر الأصلي مباشرة، أي إلى بوشكين نفسه بصفته البرهان الساطع الثابت، الذي لا مراء فيه، على أن العبقرية الروسية مستقلة وقائمة بذاتها، وعلى أن لها الحق في امتلاك أهميةٍ عالمية عظمى، وإنسانيةٍ شاملةٍ من شأنها أن توحد الجميع في المستقبل.

(*) مسرحية قصيرة غير مكتملة لبوشكين تُصنَّف ضمن ما سُميّ في تاريخ الأدب الروسي «المآسي الصغيرة». (م).

(ولكن يا للأسف، مهما لفتنا أنظارهم فإنهم سيظلون طويلاً لا يقرؤوننا في أوربا، وحتى إذا قرؤونا فإنهم سيظلون طويلاً لا يفهموننا ولا يقدّروننا وهم أصلاً ما زالوا عاجزين تماماً عن تقديرنا، لا بسبب ضآلة قدراتهم، بل لأننا في نظرهم عالم آخر تماماً، وكأننا قد هبطنا من القمر، ولذا فإن من الصعب عليهم أن يسلّموا حتى بوجودنا نفسه. إنني أعرف كل هذا، وأنا عندما أتحدث عن «لفت نظر أوربا» إنما أقصد الإشارة إلى قناعتنا الذاتية بحقنا في استقلاليتنا بحضرة أوربا) ومع ذلك فإن «آنا كارينينا» إبداع يتسم بالكمال بصفتها عملاً فنياً برز للوجود في الوقت المناسب تماماً، وهو عمل لا يضاهيه أي عمل مشابه في الآداب الأوربية في العصر الراهن. وثانياً هي من حيث فكرتها شيء يخصنا بالذات، شيء من لحمنا ودمنا؛ إنها بالضبط الشيء الذي يجسد خصوصيتنا إزاء العالم الأوربي، ويجسد «كلمتنا» القومية «الجديدة» أو، على الأقل، بدايتها، وهي بالذات كلمة لا يسمعها المرء في أوربا، في حين أنها جد ضرورية لها، على الرغم من كل كبريائها. وأنا لا أستطيع هنا أن أسترسل في النقد الأدبي، وسأكتفي بقول كلمة مختصرة. إن رواية «آنا كارينينا» تنطوي على نظرة إلى اقتراف الإنسان الذنب وارتكابه الجُرم. وتتناول الرواية أناساً في ظروف غير طبيعية. الشر موجود قبلهم، والناس الذين استولت عليهم دوامة الكذب يرتكبون الجريمة ويهلكون بحتمية لا تُرَدّ. وهذه الفكرة، كما هو واضح، تدور حول أحب الموضوعات لأوربا وأقدمها. ولكن كيف تُحلّ مثل هذه المسألة في أوربا؟ إنها، حيثما وُجدت، تحل بطريقتين؛ الأولى: القانون موجود، مكتوب، مصوغ، وقد جرى وضعه في غضون آلاف السنين. والشر والخير محددان، ومقدّران بدقة، ومقاساتهما ودرجاتهما قد حددها حكماء البشرية تاريخياً بالعمل الدؤوب في دراسة نفس الإنسان، وبالمعالجة العلمية العليا لدرجة القوة التوحيدية لدى البشرية في كنف العيش المشترك. وهذا القانون الموضوع ينبغي التقيد به تقيداً أعمى. ومن لا يتقيد به، ويخرقه، يدفع ثمن ذلك حريته، وممتلكاته، وحياته؛ ويدفعها حرفياً وبلا شفقة. إن حضارتهم نفسها تقول: «أعرف أن هذا سلوك أعمى وخال من الرحمة ومستحيل، لأنه لا يجوز وضع معادلة نهائية للبشرية وهي في منتصف طريقها، ولكن لأنه لا يوجد مخرج آخر يجب التقيد بما هو مكتوب تقيداً حرفياً وبلا شفقة؛ وإلّا فإن الوضع سيكون أسوأ. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل الشذوذ والسخف اللذين يشوبان بنية ما نسميه حضارتنا الأوربية العظيمة، فإن المرجوّ هو أن تظل قوى الروح الإنسانية معافاة وسليمة، وألّا يهتز إيمان المجتمع بأنه يسير نحو الكمال، وألّا يجرؤ على الاعتقاد بأن المَثَلَين الأعليين: «الرائع والسامي» قد غشّاهما الظلام، وبأن مفهوم الخير والشر يخضع للتشويه والتحريف، وبأن طبيعة الأشياء لا تنفك تتراجع لتحل محلها الاصطلاحية الشرطية، وبأن البساطة والعفوية تختنقان تحت وطأة الكذب الذي لا ينفك

يتراكم باستمرار!» أما الطريقة الثانية في الحل فهي معاكسة: «بما أن المجتمع مبني على نحو غير طبيعي فليس من الجائز أن نسائل الأفراد عن العواقب. وعلى هذا فإن المجرم لا يتحمل مسؤوليةً، والجريمةُ، حتى الآن، غير موجودة. ولكي نقضي على الجرائم، وعلى اقتراف الإنسان ذنوباً، ينبغي أن نقضي على شذوذ المجتمع وبنيته. وبما أن علاج النظام القائم طويل وميئوس منه، كما أن الأدوية غير موجودة كما تبيّن، إذاً يجب هدم المجتمع بأكمله، وكنس النظام القديم كنساً، والبدء من ثمّ ببناء كل شيء من جديد على أسس أخرى، غير معروفة بعد، ولكنها مع ذلك لا يمكن أن تكون أسوأ من النظام الحالي، بل بالعكس، ستنطوي على الكثير من فرص النجاح. والأمل الأكبر معلق على العلمَ». وهكذا فإن الطريقة الثانية في الحل هي أن ينتظروا بناءَ قرية النمل القادمَ، وأن يعمدوا حتى ذاك الوقت إلى إغراق العالم بالدم. ولا يتصور العالَمُ الأوربي الغربي أية حلول أخرى للمسألة المتعلقة بارتكاب الناس الذنوب، واقترافهم الجرائم.

أما نظرة الكاتب الروسي إلى قضية ارتكاب الناس الذنب واقترافهم الجريمة فإننا نرى من خلالها بوضوح أنه لن ينقذ البشرية من الوضع غير الطبيعي التي هي فيه، وتالياً من ارتكاب الذنب والجريمة، أية قرية نمل، ولا أي انتصار «للفئة الرابعة»، ولا أي قضاء على الفقر، ولا أي تنظيم للعمل. وقد جرى التعبير عن هذا من خلال معالجة نفسانية هائلة للنفس البشرية تتسم بعمق وقوة فائقين، وبواقعية في التصوير الفني لم نشهد مثيلاً لها عندنا من قبل. ومن المفهوم والواضح إلى درجة العيان أن الشر يكمن في البشرية على عمق يزيد عمَّا يفترضه المطبِّبون - الاشتراكيون، وأننا لا نستطيع تجنب الشر في المجتمع أياً كانت بنية هذا المجتمع، وأن النفس البشرية ستظل هي نفسها، وأن الشذوذ والإثم ينبعان منها بالذات، وأخيراً أن قوانين الروح البشرية ما زالت مجهولة، وما زالت مُستَغلَقة على العلم، وغير محدَّدة ومحفوفة بالأسرار إلى درجة تنفي حتى الآن إمكانية وجود مطببّين نهائيين، أو حتى وجود قضاة نهائيين؛ بل يوجد «ذاك» الذي يقول: «لي النقمة وأنا أجازي»*. فهو وحده الذي يعرف سرَّ هذا العالم كلِّه، ويعلم مصير الإنسان النهائيَّ. أما الإنسان فإنه عاجز حتى الآن عن تولي أي شيء ما دام يفخر بأنه غير آثم؛ لم يئن بعد الأوان ولم يحن الموعد**. إن القاضي البشري يجب أن يعرف أنه

(*) مقبوس من رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية (12/ 19)، وانظر كذلك رسالته إلى العبرانيين (10/ 30)، وسفر التثنية (32/ 35). وهي العبارة التي جعلها ليف تولستوي استهلالاً لروايته «آنا كارينينا». (م).

(**) اقتباس غير دقيق للعبارة التي وردت في ردّ السيد المسيح على الرسل: «... ليس لكم أن تعرفوا المواعيد والأوقات التي حددها الرب بسلطته» (أعمال الرسل1/ 7). (ن).

ليس بالقاضي النهائي الحاسم، أنه هو نفسه آثم، وأن وجود الميزان والمعيار في يده سيكون سخافة لا معنى لها إذا لم يبادر وهو يمسك بالمعيار والميزان إلى الانحناء أمام قانون السر الذي ما زال عصياً على الكشف، وإذا لم يهرع إلى المخرج الوحيد: إلى **الرحمة والمحبة**.

ولكي لا يهلك الإنسان تحت وطأة اليأس لعجزه عن فهم السبل والمصائر التي تنتظره، ولاعتقاده بحتمية الشر المُقدَّرة والمحوطة بالأسرار، فقد نُبِّه إلى المخرج. وقد اشار إليه الكاتب بعبقرية في المشهد العبقري الذي يصوره في الجزء قبل الأخير من الرواية* وهو مشهد مرض البطلة الذي تشرف فيه على الموت، عندما يتحول المجرمون والأعداء فجأة إلى كائنات سامية، إلى أشقاء يغفر كل منهم للآخر كل شيء، كائنات طهّرت نفسها من الكذب، والذنب، والإجرام بغفرانها المتبادل الشامل، وبهذا برّأت ذواتها مباشرة بعد أن وعت تماماً أنها قد امتلكت الحق في فعل هذا. ولكن فيما بعد، في نهاية الرواية، في اللوحة القاتمة المرعبة التي تصور سقوط الروح البشرية، ومتابعة هذا السقوط خطوةً خطوة، وفي تصوير تلك الحالة التي لا تُقاوم، حيث الشر يستحوذ على كيان الإنسان، فيقيد كل حركة من حركاته، ويشلّ كل قوى المقاومة لديه، وكل فكرة وكل رغبة في مكافحة الظلام الهابط على روحه، والذي تستقبله نفسه، بوعي وحب وبشهوة جامحة إلى الانتقام، بدلاً من النور؛ في هذه اللوحة تكمن موعظة بليغة تجعل القاضي البشري الذي يمسك بالمعيار والميزان** يصيح، طبعاً، وقد استولى عليه الذعر وانتابته الحيرة: «لا، الانتقام ليس دائماً لي، ولست أنا دائماً من يجازي»، وهو لن يحكم، بلا شفقة، على المجرم الساقط سقوطاً مريعاً بأنه مذنب لتجاهله نورَ المخرج المشار إليه سرمدياً، ولرفضه إياه عن وعي. إنه، على الأقل، لن يلجأ إلى الحَرْفِيَّة في حكمه...

وإذا كانت عندنا أعمال أدبية بمثل هذه القوة في الفكرة والتنفيذ، فَلِمَ لا يمكن أن يوجد عندنا فيما بعد عِلمنا الخاص، وحلولنا الاقتصادية والاجتماعية، ولماذا تنكر علينا أوربا استقلاليتنا وامتلاكنا كلمتنا الخاصة؟ هذا هو السؤال الذي يتولد من تلقاء ذاته. ولا يجوز هنا طرح تلك الفكرة المضحكة التي تفترض أن الطبيعة لم تمنحنا سوى القدرات الأدبية؛ وأن كل ما تبقى هو مسائل متروكة للتاريخ، وللظروف وشروط الزمن. هكذا يمكن أن يفكر، على الأقل، أوربيونا، بانتظار ذاك الوقت الذي سيفكر فيه هكذا أوربيو أوربا...

(*) يخطئ دوستويفسكي في تحديد مكان المشهد، فهو لا يرد في الجزء قبل الأخير من الرواية، بل في الجزء الرابع منها. (ن).

(**) انظر رؤيا القديس يوحنا (6/ 5). (ن).

لا ينقذ الكذبَ إلّا الكذبُ

ذات مرة بينما كان الفارس الواسع الشهرة دون كيشوت، ذو المظهر الحزين وأكثر فرسان العالم شهامة وبساطة نفس، أحد أكبر الناس قلباً، بينما كان يتجول مع حامل سلاحه الأمين سانشو بحثاً عن المغامرات، اعترته حيرة مفاجئة جعلته يغرق في تفكير طويل. ويتلخص الأمر في أن الفرسان القدماء العظام، بدءاً من أماديس* الغالي، الذين خُلِّدت سيرهم في كتب لا يُشك في صحتها يُسمونها روايات الفروسية (وهي التي لم يضن دون كيشوت بشيء من أجل اقتنائها، حتى إنه باع بضعة فدانات من أفضل بقعة في الضيعة الصغيرة التي يملكها لهذا الغرض)، كانوا غالباً ما يصادفون فجأة وعلى حين غرة في أثناء جولاتهم المجيدة، التي تعود بالنفع على العالم كله، جيوشاً جرارة تضم حتى مئة ألف محارب، ترسلهم قوة شريرة وسحرة شريرون يحسدون هؤلاء الفرسان ويعرقلون مساعيهم بجميع الوسائل ليمنعوهم من بلوغ أهدافهم العظيمة، ومن التواصل في نهاية المطاف مع حبيباتهم الرائعات. وكان ما يجري عادة عندما يواجه الفارس مثل هذا الجيش المهول الشرير هو أنه يشهر سيفه، ويهتف باسم حبيبته مستمداً منه دعماً روحياً، ثم يقتحم بمفرده الصفوف متوسطاً جيش الأعداء، ويبيدهم على بكرة أبيهم. الأمر واضح كما يبدو، ولكن دون كيشوت استغرق فجأة في التفكير، ففيم كان يفكر؟ لقد خيل إليه فجأة أنه يستحيل على فارس واحد، مهما كان قوياً، وحتى إذا ظل يلوّح بسيفه الظافر يوماً كاملاً بنهاره وليله بلا أي كلل أو توقف، أن يجندل مئة ألف من الأعداء في موقعة واحدة. فقتل الشخص يتطلب وقتاً، أياً كانت الظروف، وقتل مئة ألف شخص يتطلب وقتاً طويلاً جداً، وكيفما لوحت بسيفك لن تستطيع أن تقوم بذلك وحدك، في موقعة واحدة، خلال بضع ساعات في حين أن هذه الكتب الصادقة تروي أن الأمر كان يتم في موقعة واحدة تحديداً. فكيف كان بالإمكان حدوث مثل هذا الأمر؟

(*) أماديس: أحد أبطال روايات الفروسية الذين يحظون بأكبر قدر من الاحترام لدى دون كيشوت. (ن).

قال دون كيشوت أخيراً: - لقد حللت هذا اللغز يا صديقي سانشو*؛ فبما أن جميع هؤلاء العمالقة، وجميع هؤلاء السحرة الشريرين كانوا يجسدونِ قوة شيطانية، فإن جيوشهم كانت هي أيضاً تحمل طابعاً سحرياً وشيطانياً. وأنا أظن أن هذه الجيوش لم تكن تتألف من أناس مثلنا تماماً على سبيل المثال. فهؤلاء الناس كانوا مجرد وهم من صنع السحرة، وأجسادهم لم تكن، على الأرجح، تشبه أجسادنا، بل كانت أشبه بأجساد الرخويات والديدان والعناكب، على سبيل المثال. ولذا فإن سيفَ الفارس الصلب والقاطع في يد الفارس القوية كان عندما يقع على هذه الأجساد يخترقها بمثل لمح البصر وبدون أية مقاومة تقريباً، كما لو كان يخترق الهواء. وإذا كان الأمر هكذا فإن الفارس كان قادراً فعلاً على أن يخترق بتلويحة واحدة ثلاثة أو أربعة أجساد، بل حتى عشرة أجساد، إذا كان هؤلاء يقفون متلاصقين؛ ومن المفهوم أن الأمور بعد ذلك كانت تتسارع للغاية، وكان الفارس قادراً فعلاً على أن يبيد خلال بضع ساعات جيوشاً كاملة من هؤلاء المحتالين الشريرين وسواهم من الغيلان...

هنا يشير الكاتب العظيم والخبير بالقلب الإنساني إلى واحد من أعمق جوانب الروح الإنسانية وأكثرها غموضاً وسرية. أوه، ما أعظم هذا الكتاب؛ إنه ليس كتلك الكتب التي تُؤلَّف الآن؛ وأمثال هذا الكتاب لا تتلقاها البشرية سوى مرة واحدة كل بضع مئات من السنين. ويجد القارئ في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب واحداً من أعمق جوانب الطبيعة البشرية. لنأخذ، على سبيل المثال، حقيقة أن هذا السانشو، الذي يجسد التفكير السليم، والرأي السديد، والدهاء، والوسط الذهبي**، هو الذي اتفق له أن، أصبح صديقاً ومرافقاً لأكثر الناس جنوناً في العالم؛ هو بالذات وليس أي شخص آخر! وهو لا ينفك يخدعه طوال الوقت، ويتحايل عليه كما لو كان طفلاً، وفي الوقت نفسه يؤمن إيماناً تاماً بعظمة عقله، ويفتتن إلى درجة الحنان بشهامة قلبه، ويؤمن كل الإيمان بكل الرؤى الخيالية التي يحلم بها الفارس العظيم، ولا يشك، ولو مرة واحدة طوال الوقت، في أن هذا الفارس سيستولي، من أجله على جزيرة ما في نهاية المطاف! لشدَّ ما تمنيت أن يطّلع فتياننا بعمق على هذه الأعمال العظيمة في الأدب العالمي. إنني لا أدري ما الذي يدرسونه في حصص الأدب، ولكن الاطلاع على هذا الكتاب الأعظم والأكثر إثارة للأسى من جميع الكتب التي أبدعتها عبقرية الإنسان، من شأنه بلا شك أن يسمو بروح الناشئ بفضل فكرته العظيمة، وأن يولّد في قلبه أسئلة عظمى، ويساعد على تحويل ذهنه عن عبادة وثن الوسطية السرمدي والغبي، وعن

(*) هذه الفقرة ليست مقتبسة من رواية دون كيشوت. (ن).

(**) كلمة «الوسط» هنا تعني: الاعتدال، الموقع الوسط بين الإفراط والتفريط، وعبارة «الوسط الذهبي» قول مأثور عن الشاعر اللاتيني هوراسيوس (65 - 8 ق.م). (م).

الاعتداد بالذات المولِّد للرضا عن كل ما نفعله، وعن التعقل المبتذل. ولن ينسى الإنسان أن يستصحب هذا الكتاب الأكثر إثارة للأسى وهو ذاهب إلى محكمة الرب الأخيرة يوم الدينونة. وهناك سيشير إلى سر الإنسان والإنسانية المصيري الأعمق الذي تضمنه الكتاب؛ سيشير إلى الجمال الأعظم الذي يتحلى به الإنسان، وطهارته العظمى، وعفّته، وبساطة نفسه، وسلامة طويته المنزهة عن الحقد، ورجولته، وأخيراً عقله الجبار، إن كل هذا لا يندر (بل حتى، ويا للأسف، كثيراً ما يتفق) أن يتحول إلى لا شيء، ويمر بلا أية فائدة للبشرية، بل يتحول إلى أضحوكة بين البشر لسبب واحد فقط هو أن كل هذه المواهب النبيلة والثرة التي غالباً ما توهب للإنسان، تنقصها موهبة واحدة أخيرة هي: «العبقرية» التي من شأنها أن تتحكم بكل غنى هذه المواهب، وبكل قدراتها، ثم توجِّه كل هذه القدرات إلى الطريق الصحيح والسوي في العمل لصالح البشرية، لا إلى طريق خيالي وجنوني! بيد أن العبقرية، ويا للأسف، لا تظهر بين الأقوام والشعوب سوى في أحيان جد قليلة ونادرة، بحيث إن مشهد سخرية القدر اللئيمة التي غالباً جداً ما تحكم على نشاط أشخاص من أنبل الناس، وأشد أصدقاء الإنسانية حماسة واندفاعاً، بأن يكون مثار استهجان وهزء ورشق بالحجارة، لسبب واحد فقط هو أن هؤلاء لم يستطيعوا، في اللحظة المصيرية، أن ينفذوا ببصيرتهم إلى المعنى الحقيقي للأشياء، وأن يجدوا «الكلمة الجديدة» الخاصة بهم، إن مشهد الهلاك العبثي هذا، هلاك قوىً تتسم بقدر كبير من العظمة والنبل، يمكن أن يوصل فعلاً بعض أصدقاء الإنسانية إلى اليأس، وأن يدفعهم لا إلى الضحك، بل إلى البكاء بحرقة، وأن يجعل الشك يستولي على قلوبهم، التي كانت حتى تلك اللحظة مؤمنة ونقية، ويملؤها بمشاعر الحقد الأبدي...

إن ما أردته، على أية حال، هو الإشارة إلى تلك السمة الشديدة الطرافة التي أشار إليها سيرفانتس، إلى جانب مئة من الملاحظات العميقة الأخرى، التي أبداها وكشف فيها عن سمات القلب الإنساني. فالشخص الذي يفوق جميع الناس استسلاماً للتخيلات، والذي يؤمن حتى الخَبال بحلم لا يمكن تصوُّر ما يفوقه خيالية، تعتريه فجأة مشاعر الشك والحيرة التي تكاد تزعزع إيمانه كله. والطريف أن نعرف ما الذي يُمكن لهذه المشاعر أن تزعزعه: إنه ليس سخافة خبله الأساسي، وليس سخافة وجود فرسان جوالين من أجل خير الإنسانية، وليس سخافة تلك الأعاجيب السحرية التي تتحدث عنها «أكثر الكتب صدقاً»، لا بالعكس، إنه أمر جانبي كلياً، وثانوي وخاص تماماً. فالإنسان المستسلم للتخيلات حنَّ فجأة إلى الواقعية! إن ما يحيره ليس واقعة ظهور جيوش سحرية: أوه، لا، فهذا أمر لا يرقى إليه شك، إذ كيف بوسع هؤلاء الفرسان العظام الرائعين أن يُظهروا كل بسالتهم لو لم يتعرضوا لكل هذه المحن، ولو لم يكن ثمة عمالقة حسودون وسحرة شريرون؟ لقد كان المثل الأعلى الذي

يجسده الفارس الجوّال من العظمة والروعة والفائدة بحيث إنه خلب لب دون كيشوت النبيل إلى درجة جعلت التخلي عنه مستحيلاً تماماً. فالتخلي عنه يعني خيانة المثل الأعلى، وخيانة الواجب، وخيانة حبه لدولتسينا وللبشرية. (وعندما تخلّى، عندما شفي من خباله وتعقَّل، بعد عودته من جولته الثانية التي هزمه فيها الحلاق كاراسكو الذكي، والسليم التفكير، والنكّار* والساخر، سرعان ما أسلم الروح بهدوء وبابتسامة حزينة، مواسياً سانشو الذي انخرط في البكاء، ومفعماً بالحب للعالم كله بكل ما للحب من قوة عظيمة كامنة في قلبه المقدس، ومدركاً في الوقت نفسه أنه لم يَعُدْ له ما يفعله في هذا العالم). لا، ليس ذاك ما كان يحيره، بل هو تصور ذو طابع حسابي وفي منتهى الواقعية، فكيفما لوّح الفارس بسيفه، ومهما بلغ من القوة فإنه لا يستطيع أن ينتصر على جيش يعد مئة ألف، وأن يقتل الجميع، ولا يبقي على أحد، وذلك في غضون بضع ساعات، بل حتى في نهار بطوله. ومع ذلك فإن هذا مكتوب في الكتب الصادقة، أي إن المكتوب فيها كذب. وبما أنها تكذب في هذا فهي تكذب في كل شيء. فكيف إذاً ننقذ الحقيقة؟ وهنا نراه يبتدع من أجل إنقاذ الحقيقة حلماً آخر، ولكن هذا الحلم يفوق الحلم الأول بمرتين أو ثلاث مرات من حيث خياليته، وفجاجته وسخافته؛ إنه يتصور مئات الألوف من أناس موهومين، لهم أجساد رخوية، بإمكان سيف الفارس البتّار أن يخترقها بسهولة وسرعةٍ تفوقان بعشرة أضعاف سهولة وسرعة اختراقه الأجساد البشرية العادية. وهكذا تكون الحاجة إلى الواقعية قد لُبيّت، وتكون الحقيقة قد أُنقذت، وأصبح بالإمكان تصديق الحلم الأول الرئيس بلا أية شكوك، وكل هذا لم يكن ليتاح لولا الحل الثاني الأسخف بكثير من الأول، والذي كان السبب الوحيد للجوء إليه هو الحاجة إلى إنقاذ واقعية الحلم الأول.

اسألوا أنفسكم: ألم يتفق لكم، ربما مئة مرة، أن عشتم مثل هذه اللحظات في حياتكم؟ كأن تحبوا حلماً من أحلامكم، أو فكرة، أو استنتاجاً، أو قناعة، أو أي واقعة خارجية أدهشتكم، أو أخيراً، امرأة سحرتكم، ووجدتم أنفسكم تندفعون نحو «موضوع» حبكم بكل ما تمتلكه نفوسكم من قوة. ولكن مهما أعماكم الحب، ومهما أغواكم القلب، فإنه، إذا كان في «موضوع» حبكم هذا كذب ما، أو توهم ما، أو أي شيء آخر أقدمتم أنتم بأنفسكم على تضخيمه وتحريفه بسبب شغفكم الشديد واندفاعكم في بداية وَلَهِكم - لا لشيء إلّا لكي تجعلوا منه وثناً لكم تنحنون أمامه - فإنه من البديهي أن تشعروا بهذا سراً بينكم وبين أنفسكم، وأن يرهقكم الشك، ويُنكّد عقولكم، ويجول في نفوسكم، ويمنعكم

(*) النكّار: الذي من عادته الإنكار، أو الذي هو ميّال إليه. يقال «عقل نكّار» و«مفكّر نكّار» وهو من ينكر حقائق شائعة تعترف بها الأكثرية وينفيها. (م).

من العيش بطمأنينة مع حلمكم الأثير. ثم ماذا؟ ألا تذكرون، ألا تعترفون ولو بينكم وبين أنفسكم: بِمَ واسيتم أنفسكم فجأة عندئذ؟ ألم تختلقوا آنذاك حلماً جديداً، كذبة جديدة، ربما كانت شديدة الفجاجة، ولكنكم أسرعتم بشوق إلى تصديقها، لا لشيء، إلّا لأنها تبدد شككم الأول؟

تلميح خفيف إلى المثقف الروسي المُقْبل. المصير الأكيد الذي ينتظر المرأة الروسية المقبلة.

ثمة الآن تساؤلات غريبة، وهموم مستغرَبة. ومن المؤكد أن هناك أناساً من الروس يخشون حتى النجاحات الروسية والانتصارات الروسية. وليس سبب خشيتهم هو أنهم يتمنون الشر للروس، بل بالعكس، فهم يحزنون بصدق عند كل إخفاق روسي، وهم روس جيدون، ولكنهم يخشون نجاحات الروس وانتصاراتهم: «لأنه بعد النصر في الحرب تظهر الثقة بالنفس، وامتداح الذات، والشوفينية، والجمود» كما يدعون. بيد أن خطأ هؤلاء الناس الطيبين هو أنهم كانوا دائماً لا يرون التقدم الروسي إلّا في ازدراء الذات. نعم، ربما كان الاعتداد بالنفس هو ما نحتاج إليه أكثر من أي شيء آخر! إننا بحاجة إلى احترام الذات، في نهاية المطاف، وليس إلى ازدراء الذات. ولا تقلقوا: لن يكون هناك جمود. وستنير لنا الحرب الكثير من الأمور الجديدة، وتجعلنا نغير الكثير من الأمور القديمة، وهذا ليس بإمكانكم التوصل إليه أبداً عن طريق ازدراء الذات، والتنكيد، اللذين تحوّلا في الآونة الأخيرة إلى تسلية بسيطة لا أكثر. وسيتبيّن بالمقابل أن الكثير مما كان حتى الأذكياء - الفضّاحون عندنا سابقاً يعدونه مجرد تفاهات وسفاسف مضحكة، بل حتى أمراً شديد الرداءة، هو في الحقيقة الأمر الذي يشكل الجوهر الرئيس في كل قضايانا. ولسنا نحن البتة من يستسلمون للشوفينية والإنتشاء الذاتي! أين ومتى حدث هذا في المجتمع الروسي! إن الذين يزعمون هذا لا يعرفون التاريخ الروسي. لقد تحدثوا كثيراً بعد أحداث سيفاستوبل عن انتشائنا الذاتي، فقد

ادّعوا أن الثقة بالنفس هي التي أهلكتنا آنذاك. ولكن مجتمع المثقفين عندنا لم يكن قط أقل ثقة بالنفس، بل حتى لم يكن أكثر تفسخاً، مما كان عليه في الحقبة التي سبقت مباشرة أحداث سيفاستوبل.

وأشير بالمناسبة إلى أن من بين الذين كتبوا عن انتشائنا الذاتي، وعيّرونا به، بعد أحداث سيفاستوبل، عدداً من الكتّاب الشباب الجدد، الذين لفتوا أنظار المجتمع بقوة آنذاك، وأثاروا في أوساطه تعاطفاً حاراً مع فضحهم لبعض الظواهر فيه. ولكن سرعان ما انضم آنذاك إلى هؤلاء الفضّاحين الراغبين في فعل الخير حقاً أشخاص شديدو الوقاحة والقذارة، وحدث هرج ومرج، وظهر كثير من الناس الذين لم يكونوا يفهمون على الإطلاق فيمَ يكمن جوهر القضية، ومع ذلك كانوا يتوهمون أنهم منقذو روسيا، والأدهى من ذلك أن بعض هؤلاء كان من أعداء روسيا السافرين، مما أدى في النهاية إلى أن يُلحِقوا هم أنفسهم الأذى بالقضية التي انحازوا إليها، والتي كان قد تولاها في البدء أشخاص موهوبون. ولكن أولئك أحرزوا أيضاً في البدء نجاحاً، وذلك لأن الناس الروس ذوي السرائر النقية، والذين كانوا يتوقون فعلاً آنذاك إلى التجديد الشامل وقول كلمة جديدة، لم يدركوا أن أولئك أوغاد، وأنهم عديمو الموهبة والعقيدة، بل هم مأجورون. بالعكس، كانوا يظنونهم يدافعون عن روسيا، وعن مصالحها، ويعملون على تجديدها، ويقفون إلى جانب الشعب والمجتمع. وانتهى الأمر إلى أن أغلبية كبيرة من الناس الروس أصيبت أخيراً بخيبة أمل، وأشاحت بوجهها عنهم، ثم أتى بعد ذلك رجالات البورصة والخطوط الحديدية...* ويبدو الآن أن هذا الخطأ لن يتكرر، إذ ليس من شك في مجيء أناس جدد، لديهم أفكار جديدة وقوة جديدة.

وهؤلاء الناس الجدد لن يخشوا احترام الذات، كما أنهم لن يخشوا عدم الجري وراء الماضي، ولن يخشوا «الأذكياء» أيضاً: سيكونون متواضعين، ولكنهم سيعرفون الكثير من الأمور على أساس الخبرة والممارسة، وهي أمور لم يحلم بها «الحكماء» عندنا**. فهم سيتعلمون بالخبرة والممارسة احترام الإنسان الروسي. وهذه المعرفة سيجلبونها على الأرجح معهم، وفيها بالذات ستكمن نقطة استنادهم الرئيسة. إنهم لن يعزوا جميع مصائبنا وجميع أوجه عدم حذقِنا ومقدرتِنا إلى خصائص الإنسان الروسي والطبيعة

(*) تلميح إلى الشركة الرئيسة للخطوط الحديدية الروسية التي كانت أغلبية مؤسسيها (في كانون الثاني (يناير) 1857) من الأجانب. (ن).

(**) عبارة مستوحاة من حوار هاملت وهوراشيو في مسرحية «هاملت» لشكسبير (الفصل الأول- المشهد الخامس) وكثيراً ما كان دوستويفسكي يستعمل كلمة «الحكماء» و«حكماؤنا» في كتاباته بقصد التهكم. (ن).

الروسية حصراً، كما يفعل «أذكياؤنا»، الذين أصبح هذا الأسلوب عندهم هو الأسلوب الرسمي، لأنه مريح، ولا يتطلب ذكاءً. كما أنهم سيكونون أول من يثبت بشخصه ذاته أن الروح الروسي والإنسان الروسي بريئان تماماً من هذه المئة ألف تهمة التي تلصق بهما، وأن الإنسان الروسي قادر على أن يؤدي مهمته بطريقة ليست أسوأ من طريقة أداء الآخرين في كل مكان تتاح له إمكانية الوصول إليه مباشرة. نعم، سيفهم هؤلاء الناس الجدد في النهاية، على الرغم من كل تواضعهم، أن «أذكياءنا»، وحتى أنقاهم سريرة وأكثرهم رغبة في تقديم فائدة حقيقية، غالباً ما كانوا يتبنون رأيين متناقضين في أثناء بحثهم عن جذور الشر. وسيلتحق بهؤلاء الناس الجدد، الذين سيظهرون بلا شك بعد الحرب، كثير من القوى الحية الآتية من أوساط الشعب والشبيبة الروسية. إن هؤلاء الناس قد أخذوا يظهرون قبل الحرب ولكن لم يكن بوسعنا آنذاك ملاحظتهم، وبينما كنا جميعاً هنا نتوقع ألّا نرى سوى مشهد الكلبية[5] والتفسخ، كانوا هم هناك يعرضون مشهد تفانٍ واعٍ، وعاطفة صادقة، وإيمان كامل بذاك الذي انطلقوا ليضحوا في سبيله بحياتهم، بحيث إننا أصبنا بالدهشة: من أين جاء كل هذا؟ لقد كان بعض المراسلين الصحفيين الأجانب يلومون بعض الضباط الروس على أنهم معتزون بأنفسهم، ووصوليون، ويتوقون للحصول على شارات التميز، ناسين الهدف الرئيس: وهو حب الوطن، وحب القضية التي انتدبوا أنفسهم لخدمتها. ولكن حتى إذا كان عندنا أمثال هؤلاء الضباط فإنه لم يكن ليُسيء إلى هؤلاء المراسلين أن يطلعوا أيضاً على وجود تلك الشبيبة أو أولئك الضباط الذين لم يكونوا حتى من البارزين برتبهم، وكانوا يخدمون الوطن والقضية العادلة بتواضع، ويضحون بأنفسهم مع جنودهم ببسالة وتفانٍ تام، ولم يكن هذا البتة من أجل الحصول على مكافآت، أو من أجل الزهو أو الترقي، بل لأن ثمة نفوساً عظاماً ومسيحيين عظماء، وأناساً روساً عظاماً غير بارزين، عددهم كبير جداً حتى ليكاد يشمل جنود جيشنا بأسرهم. ولاحظوا أيضاً أنني عندما أتكلم على إنساننا الجديد القادم لا أقصد البتة الإشارة إلى محاربينا فقط، والانتظار إلى حين عودتهم. فثمة آخرون سيظهرون بأعداد لا تحصى، وهم أولئك الذين كانوا في السابق يتوقون جميعاً، وبشدة، إلى الإيمان بالإنسان الروسي؛ ولكنهم لم يكونوا يستطيعون إظهار ما لديهم والسير ضدّ موجة الإنكار والتشاؤم الشاملين والمسيطرين على السطح. ولكنهم الآن، وهم يرون إلى أي حد يتبدى إيمان الإنسان الروسي بقواه هناك، سيتنشطون لا إرادياً، وسيؤمنون بوجود قوى روسية حقيقية هنا أيضاً: فَمِنْ أين أتى أولئك؟ أليس من هنا؟ وعندما يتنشطون سيتلاحمون وينخرطون بتواضع، ولكن بثبات، في خضم العمل الحقيقي، من دون أن يخشوا أية كلمات طنانة رنانة أياً كان قائلها. وكل هذه الكلمات هي

كلمات قديمة قديمة! وشيوخنا الأذكياء ما زالوا واثقين حتى الآن بأنهم الأكثر جدة وشباباً، وأنهم يقولون أجدَّ الكلمات!

بيد أن مهمة التجديد الرئيس، الذي من شأنه أن يضطلع بدور المنقذ الأكبر للمجتمع الروسي، ستقع، بلا جدال، على عاتق المرأة الروسية. فبعد الحرب الحالية التي سَمَتْ إبانها المرأة الروسية إلى هذه المكانة العالية، وتألقت بكل هذا السناء، وتجلّت بكل هذه القدسية لم يعد ثمة مجال للشك في ارتقائها إلى تلك المرتبة السامية التي ستكون من نصيبها حتماً في وسطنا. ستسقط في النهاية الخرافات التي دامت قروناً، وستُظهر روسيا «الهمجية» أية مكانة تُخَصِّصها لـ «أم» و«أخت» الجندي الروسي، تلك التي تتفانى وتتحمل كل المشاق والمحن في سبيل الإنسان الروسي. فكيف لنا أن نستمر في حرمان هذه المرأة، التي أظهرت بكل هذه الوضوح بسالتها وتفانيها، المساواة التامة في الحقوق مع الرجل في التعلم، ونوع العمل والوظيفة، وذلك في الوقت الذي أصبحنا نعلق عليها فيه، بعد المأثرة التي اجترحتها، كلَّ آمالنا في تجديد مجتمعنا روحياً، والسموّ به أخلاقياً! إن هذا سيكون تصرفاً مخجلاً ومجافياً للتفكير السليم، ولا سيما أن الأمر لن يكون متوقفاً علينا كلياً الآن، وذلك لأن المرأة الروسية نفسها أصبحت تتبوأ المكانة اللائقة بها، ولأنها نفسها تجاوزت تلك الدرجات التي كانت حتى الآن تُعدّ حدودها الأخيرة. لقد أرتنا بالبرهان إلى أي مرتبة سامية بإمكانها أن ترتقي، وماذا بمقدورها أن تنجز. وأنا هنا أتحدث عن المرأة الروسية، لا عن أولئك السيدات المرهفات الحس اللواتي قدمن السكاكر للأتراك. إن معاملة الأتراك بطيبة ليس بالأمر السيئ طبعاً، ولكن مع ذلك يظل هذا السلوك مختلفاً عما كانت تفعله أولئك النسوة هناك، ولذلك فإن هؤلاء لسن سوى سيدات روسيات قديمات، أما أولئك فإنهن النساء الروسيات الجديدات كما أنني لا أتحدث فقط عن أولئك النسوة اللواتي يعكفن هناك على القيام بما أمر به الرب وعلى خدمة الإنسانية؛ فأولئك أثبتن لنا بظهورهن وحده أن في الأرض الروسية نساء كثيرات ذوات قلوب كبيرة ومستعدات لممارسة العمل الاجتماعي ولنكران الذات، وذلك لأننا إذا تساءلنا مرة أخرى مِن أين أولئك النسوة أَتَيْن؟ أليس من هنا بالذات؟ وعلى كل فإنني أود أن اتحدث حديثاً موسعاً وخاصاً عن المرأة الروسية وعن مصيرها القريب، الذي لا مراء فيه، في مجتمعنا، ولذا فإنني سأعود إلى هذا الموضوع في «يومياتي» التالية المخصصة لتشرين الأول (أكتوبر).

انتحار ﻏارتونغ
وسؤالنا الدائم: من المذنب؟

تحدثت جميع الجرائد الروسية مؤخراً (وما زالت تتحدث حتى الآن) عن انتحار الجنرال ﻏارتونغ* في موسكو خلال جلسة المحكمة المنطقية، بعد ربع ساعة من استماعه إلى الحكم التجريمي الذي أصدره المحلّفون بحقه. ولذا فإنني أظن أن جميع قرّاء «اليوميات» اطلعوا بقدر يزيد أو يقل على هذه الحادثة الطارئة والمأساوية، ولا داعي لشرحها بالتفصيل؛ ويتلخص محتواها العام في أن شخصاً ذا رتبة عالية ومن الوسط الراقي صاحب شخصاً اسمه زانفتليبين كان في السابق خياطاً، ثم أصبح فيما بعد مرابياً وحاسِمَ سندات؛ وقد تعهد له بأن يصبح منفِّذاً لوصيته بعد وفاته، لا لأنه كان مضطراً إلى الاستدانة منه فحسب، بل فعل ذلك بِرضا تام منه، كما يبدو، وبحكم الصحبة بينهما. ثم حدثت بعد موت زانفتليبين بعض الأمور الفاضحة: إذ اختفى على نحو ما دفتر السندات؛ ونقل ﻏارتونغ الكمبيالات والأوراق والوثائق إلى شقته بطريقة مخالفة تماماً للنظام المحدد في القانون. ثم تبين أن ﻏارتونغ تواطأ مع فريق من الورثة ضد فريق آخر (وربما من دون أن يعي هو نفسه حقيقة ما يفعل). وبعد ذلك اقتحم عليه الشقة أحد الورثة، وعرف منفذ الوصية المسكين أنه وقع، في حقيقة الأمر، وسط جماعة لم يكن يتوقع أن تكون له علاقة مع أمثالها. ثم بدأت الاتهامات مباشرة بسرقة الكمبيالات ودفتر السندات وبنسخ الكمبيالات، واختفاء وثائق ممتلكات ينوف ثمنها على مئة ألف أومئتي ألف روبل... ثم بدأت المحاكمة. وكان المدعي العام مسروراً بانعقاد المحكمة وبأن الجنرال يجلس إلى جانب إنسان بسيط من الشعب، ويتيح بهذا لربة العدالة الروسية أن تعلن انتصار المساواة أمام القانون بين الأقوياء والأعلين من جهة، والصغار والتافهين من جهة أخرى.

وتجري المحاكمة حسب نظام سويٍّ تماماً (مهما قالوا في هذا الصدد)، وفي نهاية المطاف يُصدر المحلفون اتهامهم الحتمي تقريباً، والذي يشمل ﻏارتونغ أيضاً، وملخصه: «مذنب، وقد اختلس». ويختلي القضاة لصياغة الحكم، ولكن ﻏارتونغ لم يشأ انتظاره، ويقولون إنه دخل غرفة أخرى، وجلس إلى الطاولة، وأمسك رأسه المسكين بكلتا يديه، ثم فجأة دوّى صوت طلق ناري: فقد قتل نفسه بطلقة في قلبه من مسدس محشوّ سلفاً، كان قد

(*) الجنرال ليونيد ﻏارتونغ (1834–1877) هو زوج ابنة الشاعر الكسندر بوشكين الكبرى ماريا (1832–1919). (ن).

جلبه معه. وقد وجدوا معه أيضاً قصاصة أعدها سلفاً وكتب فيها أنه «يقسم بالرب القادر على كل شيء إنه لم يختلس أي شيء في هذه القضية، وأنه يصفح عن أعدائه». وهكذا مات وهو يعي أنه غيرمذنب ويعي جنتلمانيته.

وقد أقلق هذا الموت بالذات الجميع في موسكو، وجميع الصحف في روسيا بأسرها. ويقولون إن القضاة والمدعي العام خرجوا من غرفتهم ممتقعي الوجوه، وإن المحلفين أيضاً أصيبوا بالارتباك. وطفقت الصحف ترفع الصوت حول «القرار الظالم بصورة واضحة»، كما أشار بعضها إلى أنه لا يجوز بعد الآن لوم محاكمنا على الأحكام المخففة والمتغاضية التي تصدرها: «وهاكم المثال: لقد سقط إنسان بريء». وأشار آخرون عن حق إلى أنه من المستحيل تقريباً ألّا نصدق مثل هذه الكلمات المهيبة التي كانت آخر ما عبرّ به هذه الإنسان عن نفسه في هذه الدنيا، وعلى هذا يمكننا القول من غير شك تقريباً: إن خطأً قضائياً مفجعاً قد وقع. وقد تحدثت الصحف وكتبت الكثير الكثير. ويجب الاعتراف بأن بعض الأصداء التي نشرت في الصحف كانت غريبة: فقد سُمعت فيها نبرة زائفة ما، وربما كانت حماسية وصادرة عن نية مخلصة، ولكنها مع ذلك زائفة. إننا نأسف على غارتونغ، ولكننا نقول: إن ما حدث هو مأساة الحياة الروسية (وهي مأساة بالغة العمق)، وهو قدر الحياة الروسية أكثر مما هو خطأ من جهة ما. أو من الأحسن أن نقول: إن الكل هنا مذنب: بدءاً بأخلاق وأعراف مجتمعنا المثقف، ومروراً بالطباع التي تطورت واستقرت في هذا المجتمع، وانتهاء بالأخلاق والأعراف الناشئة في محاكمنا الفتية المستعارة التي لم تترَوَّس بما فيه الكفاية. ولكن إذا كان الجميع بكليتهم مذنبون، فإن معنى ذلك أن لا أحد بمفرده مذنب. وقد أعجبني تعليق صحيفة «الأزمنة الحديثة» أكثر من سائر التعليقات الصحفية الأخرى.

وكنت قد تحدثت عشية صدور الصحيفة مع أحد المتفقهين في القانون عندنا والخبيرين بالحياة الروسية*. وتبيّن أن آراءنا متطابقة حول هذه القضية، وقد أشار محدّثي إشارة صائبة تماماً إلى «مأساوية» هذه القضية وإلى أسباب هذه المأساوية. وفي اليوم التالي قرأت في أسخورة[2] «المجهول»** أشياء كثيرة جداً تشبه إلى حد بعيد ما كنا قد تحدثنا عنه في العشية. ولذا فإنني إذا قلت الآن بضع كلمات حول الموضوع فهي لن تتعدى جزئيات خاصة، وأقولها «بالمناسبة».

(*) ربما كان المقصود هنا هو رجل القانون الروسي الشهير أ. ف. كوني، الذي كتب الكثير من الذكريات والمقالات الهامة عن الكتّاب الروس ومنهم دوستويفسكي. (ن).

(**) «المجهول»: هو الاسم المستعار الذي كان الكاتب المعروف أ.س. سوفورين. يوقّع به أساخيره المنشورة في صحيفة «الأزمنة الحديثة». (ن).

الجنتلمان الروسي.
الجنتلمان لا يجوز له ألّا يبقى جنتلماناً حتى النهاية

القضية في أن الطباع القديمة لم تنقرض بعد، ويبدو أن وقتاً طويلاً سينقضي قبل أن تنقرض، لأن لكل شيء أوانه، والطبيعة هي هي في كل مكان.، وأنا أتحدث عن طباع مجتمعنا المثقف. وهنا أشير بإصرار وتصميم إلى أن تغيير الاتجاه فجأة والدوران مع الريح من الصفات السيئة؛ وأبغضُ ما في طباع مثقفينا هو هذه الخاصية بالذات: خاصية الخفة والفراغ من المحتوى. إن هذه الصفة تشبه على نحو ما تزلف الخادم الخنوع، أو هي كخادم يرتدي حلة سيده. إن إحدى خصائص ادعائنا الجنتلمانية على سبيل المثال، إذا ما تهيأت لنا لسبب ما فرصة التّماس مع الأغنياء والوجهاء، ولا سيما إذا ما نَفَذنا إلى أوساطهم، هي الاتسام بالمهابة، وبروز الحاجة إلى إحاطة الذات بمظاهر الأبّهة. ولاحظوا أنني الآن لا أنطق بأية كلمة عن غارتونغ شخصياً، فأنا لا أعرف سيرته على الإطلاق؛ وكل ما أريده هو أن أبين بعض الملامح التي يتسم بها، بصورة عامة، طبع المثقف عندنا الذي يعرفه الجميع، والذي يمكن أن يحدث له، في ظروف معينة، ما حدث للجنرال غارتونغ بالضبط. لنتصور، على سبيل المثال، شخصاً تافهاً، ذا رتبة منخفضة، جيوبه خاوية، يتيسر له فجأة أن ينفذ إلى المجتمع الراقي، أو يحتك به لسبب من الأسباب، وإذا بهذا الفقير الذي لم يكن يملك شيئاً سوى القدرة على التسرب إلى المجتمع الراقي أصبح فجأة يملك عربة وشقة «يمكن» العيش فيها، ولديه خدم وملابس فاخرة وقفازات. وربما هو يريد أن يترقى وظيفياً ويصبح شخصية مرموقة، ولكن في أغلب الأحيان نراه يريد ببساطة أن يقلد؛ يقول لنفسه: الجميع يعيشون هكذا، فما بالي أنا...؟ وينتابه هنا نوع ما من الشعور بالخجل الذي لا يستطيع التغلب عليه بحال من الأحوال، وباختصار: نجد أن الشرف والاستقامة يُفهمان على نحو غريب، ولا نلمس أي أثر للكرامة الشخصية. وفي موازاة عدم فهم أمر أوليّ جداً كالإحساس بالكرامة الشخصية لا يمكننا أن نضع، كما يبدو لي، سوى عدم فهم مثقفي قرننا الأوربي بأسرهم تقريباً للحرية وقوامها الحقيقي، ولكن لنؤجل الحديث عن هذا إلى ما بعد. أما سمة مثقفنا الروسي الثانية، والتي تكاد تكون كسابقتها مأساوية، فهي لين عريكته، واستعداده للموافقة. نعم، هناك عدد كبير من الكولاك ورجال البورصة من الأوغاد الكريهين، ولكنهم صلبون وصامدون؛ هناك أيضاً أشخاص صلبون وجيدون ولكنهم قليلون جداً، أما أكثرية الروس المستقيمين

فتغلب عليهم سمة التنازل السريع، والرغبة في التساهل والموافقة. وليس السبب في هذا طيبة النفس وبساطتها البتة، كما أنه أبعد ما يكون عن الجبن؛ وربما هو نوع من اللباقة، أو شيء آخر لا أدري ما هو. فكم من مرة عرض لك، في أثناء حديثك مع شخص متعنت، على سبيل المثال، اشتد إصراره عليك ومطالبتك بالتجاوب معه، أن وافقته وتنازلت عن رأيك، أو حتى عن صوتك في جلسة ما، مع أنك ربما لم تكن في قرارة نفسك تريد فعل هذا على الإطلاق. كما تستهوي الإنسان الروسي بشدة كلمة: الجميع: «أنا كالجميع»، «أنا موافق على الرأي العام»، «فلنَسِرْ جميعاً، أورا*!» ولكن يوجد هنا أمر غريب أيضاً: فالإنسان الروسي يحب جداً أن يغري ذاته ويغويها ويستميلها ويقنعها. فهو لا يرغب في أن يفعل كذا وكذا، كأن يكون على سبيل المثال، منفذاً لوصية زانفتليبين، ولكنه يقنع نفسه: «و ماذا في الأمر، فلأكن...».

وتضم هذه الفئة من المثقفين الروس نماذِج تتمتع من جانب ما، بجاذبية مفرطة، ولكنها مع ذلك تتصف بالذات بهذه الخواص التعسة التي تميز الجنتلمانية الروسية، والتي ألمحت إليها للتو. وبعض هؤلاء أبرياء تقريباً، إنهم تقريباً «شيلِّرات**». ويضفي عليهم عدم معرفتهم بـ «القضايا» طابعاً مؤثراًيكاد يثيرالشفقة تقريباً، ولكن الإحساس بالشرف لديهم قوي: فالواحد منهم سيطلق النار على نفسه، كما فعل غارتونغ، إذا ارتأى أنه فقد شرفه. وربما كان عدد هؤلاء ليس بالقليل. ولكن من المستبعد أن يعرف هؤلاء الناس، في أي وقت من الأوقات، مثلاً، المبلغ الذي هم مدينون به. وليسوا كلهم من المنغمسين في حياة اللهو، بل إن بعضهم، بالعكس، أزواج وآباء رائعون، ولكن مبذِّر المال يمكن أن يكون من الغارقين في اللهو والقصف، كما يمكن أن يكون من الآباء الرائعين. وكثيرون جداً منهم يدخلون غمار الحياة وهم يمتلكون بقايا قليلة من أملاك الأسلاف السابقين، التي سرعان ما تتبدد في أيام الفتوة الأولى. وبعد ذلك يأتي الزواج ثم الوظيفة، والمركز الرسمي الجيد الذي يظل متوسطاً، ولكنه مع ذلك يعود بمردود ما ويسمح بإرساء أساس في الحياة يتسم بالرسوخ والرصانة، بعكس التشرد الأرستقراطي الذي كان سائداً في حياتهم السابقة. بيد أن الديون لا تنقطع، وهو يفيها بالطبع لأنه جنتلمان، ولكنه يفيها بديون جديدة. ويمكن الجزم بأن الكثيرين من هؤلاء، عندما يفكرون أحياناً على انفراد، بينهم وبين أنفسهم، يمكنهم أن يقولوا بجرأة وبنبل عظيم: «نحن لم نختلس شيئاً، وليس بنيّتنا أن نختلس شيئاً»، في حين أن ثمة أمراً صغيراً يمكن أن يحدث: فأحدهم مستعد في ظرف معين (عند الحاجة الماسة) أن

(*) «أورا» صيحة حماسية يطلقها الروس في مناسبات مختلفة، منها: الهجوم في معركة، أو للتعبير عن الابتهاج بالنصر، أو عند تحقق أمنية ما، أو للاحتفاء بظاهرة سارة إلخ... (م).

(**) إشارة إلى الشاعر والمسرحي الألماني الشهير فرِدْريش فون شلّر (1759 - 1805). (م).

يستدين حتى من مربية أولاده عشرة الروبلات التي استطاعت أن توفرها من دخلها الخاص. وماذا في هذا من فضلك؟ ولم لا؟ ثم إن المربية العجوز غالباً جداً ما تكون شخصاً مقرباً تربطه بأصحاب البيت علاقات حميمة قديمة، وتكاد تكون واحداً من أفراد الأسرة، والجميع يلاطفونها ويسلمونها أهم المفاتيح في المنزل لتحتفظ لهم بها. وقد وعدها الجنرال الطيب منذ وقت طويل بمكان في دار المسنين، عندما يتقدم بها العمر، ولكن مشاغله الكثيرة لا تتيح له أن يهتم بهذا الأمر، وكان يجب أن يقول كلمة بشأنها هناك منذ مدة طويلة. وهي تخاف أن تذّكره، وإذا ما ذكّرته مرة واحدة في السنة بدار المسنين، تظل خائفة من أن يكون هذا مصدر إزعاج لسيدها الجنرال، هذا الإنسان العصبي والقلق دائماً. تقول لنفسها أحياناً وهي تؤوي عظامها الهرمة في الفراش: «إنه إنسان طيب، سيتذكر بنفسه»؛ أما بالنسبة للروبلات العشرة فكانت تستحي من تذكيره بها. لقد كان لدى العجوز ضمير. وها هو الجنرال يموت فجأة، ولم تحصل العجوز على المكان الموعود، ولا على روبلاتها العشرة. إن كل هذا، بالطبع، ليس أكثر من تفاهات وسفاسف مبتذلة، ولكن لو ذكّروا الجنرال فجأة في العالم الآخر بأن المربية لم تستعِد روبلاتها العشرة، لتضرج بالحمرة من شدة الخجل: «أية عشرة روبلات؟ أيُعقل هذا؟ آه، نعم، هذا صحيح، منذ أربع سنوات! *Mais comment, comment، كيف أمكن أن يحدث هذا!» ولعَذّبه هذا الدين أكثر حتى من دين آخر يبلغ عشرة آلاف روبل تركه على الأرض! ويا للخجل الفظيع الذي سيعتريه: «أوه، صدقوني، لم أكن أريد هذا، صدقوني، إنني لم أفكر حتى في هذا، نسيت أن أفكر فيه!» ولكن لن يسمع الجنرالَ المسكينَ هناك سوى الملائكة (فهو على الأرجح سيذهب هناك إلى الجنة)، أما المربية فإنها، مع ذلك، ستبقى بدون العشرة روبلات على الأرض، وستشعر أحياناً بالحسرة لفقدانها: «ولكن ما راح راح، وحرام أن أذكر هذا الآن، فالسيد كان الأغلى والأكثر استقامة وإنصافاً من الجميع». ثم هناك أمر آخر: لو أن هذا الإنسان الرائع عاد على نحو ما إلى الدنيا وتجسد في شخصية الجنرال السابقة، هل كان سيعيد الروبلات العشرة إلى المربية أم لا؟

ولكنهم لا يعمدون دائماً إلى الاقتراض. فها هو الصديق إيفان بيتروفتش، الذي يتحلى بأسمى خصال النبل يرجوه أن يعطيه كمبيالات بقيمة ستة آلاف؛ يقول له: سأسلمها للمصرف الذي أتعامل معه من أجل حسمها، أما أنت، يا أغلى الأصدقاء، فسأسلمك ستة آلاف كاملة. أي لزوم للتفكير هنا؟ هاك الكمبيالات. ويلتقي الصديقان مرات كثيرة في النادي بعد ذلك، وقد نسي كلاهما، بالطبع، أمر الكمبيالات لأنهما ينتميان إلى صفوة الصفوة في فئة الأشخاص

(*) ولكن كيف، كيف؟ (بالفرنسية).

المستقيمين في مجتمعنا؛ وفجأة بعد ستة أشهر يجد الجنرال نفسه مديناً بالآلاف الستة كاملة «تفضَّل اِدفع يا صاحب الرفعة». وهنا، في مثل هذه الحالة يهرعون إلى أشخاص من أمثال زانفتليبين ويحررون لهم وثائق بمبالغ مضاعفة: مئة مقابل مئة.

وصدقوني مرة أخرى إذا قلت: إنني لا أقصد بأية عبارة أقولها وأنا أصورهذه الحالة أن أسيء إلى سمعة الجنرال الراحل غارتونغ: فأنا لم أكن أعرفه البتة ولم أسمع عنه أي شيء شخصياً. وكل ما طمحت إليه أن أصوِّر، على نحو تقريبي جداً، طبع أحد أفراد هذا المجتمع، على أن يكون من النوع الذي إذا وقع في ورطة الجنرال على غرار غارتونغ مع زانفتليبين، يمكن أن يحدث له ما حدث لغارتونغ بالضبط، بما في ذلك الانتحار. ولذا يبدو لي أنه ليس في قضية غارتونغ ما يمكن أن يخُجِّلوا المحكمة به، ولا شيء يمكن أن تخجل المحكمة منه. إننا هنا إزاء حكم القدر، إزاء مأساة: فقد ظل الجنرال غارتونغ يَعُدُّ نفسه حتى اللحظة الأخيرة بريئاً، وترك رسالة...

وهنا يقول آخرون: - نعم، هناك هذه الرسالة بالذات، ويستحيل أن يكذب الإنسان في مثل تلك اللحظة، ولا سيما أنه، كما تبين، إنسان مؤمن. وهذا يعني أنه لم يختلس شيئاً، ما دام يعلن بمثل هذه العبارة الصريحة أنه لم يختلس. كما لا يمكن أن يكون قد عقد أي صفقة من أي نوع حتى مع ضميره: فمهما كان ذهن الإنسان متقلقلاً وغائماً بسبب كل هذه البلبلة فإنه ما دام يقول «أنا لم أختلس»، لا يمكن ألّا يعرف «هل حقاً قد اختلس أم لم يختلس؟» لأن هذا ببساطة من فعل يد الإنسان نفسه. والسؤال هنا ببساطة: هل وضع شيئاً في جيبه أم لا؟ وكيف يمكن ألّا يعرف إذا كان قد وضع؟

كل هذا صحيح تماماً، ولكن هاكم ما يمكن أن يحدث، بل حتى ما يُرَجَّح حدوثه، في هذه الحالة. فهو قد كتب ما كتبه عن نفسه فحسب: «أنا لم أختلس شيئاً، ولم أفكر في الاختلاس»؛ ولكن الآخرين يمكن أن يكونوا قد اختلسوا.

سيعترضون قائلين: - هذا مستحيل تماماً؛ فإذا كان قد سمح للآخرين بالاختلاس وسكت عن ذلك مع علمه به بصفته وصياً، فإن معنى هذا أنه اختلس معهم! ولا يمكن للجنرال غارتونغ ألّا يدرك أنه لا يوجد فرق بين الحالتين.

وأردّ قائلاً: أولاً - إن الحجة القائلة: «إذا كان قد سمح للآخرين بالاختلاس مع علمه بذلك يكون قد اختلس معهم» هي حجة قابلة للجدل والتفنيد؛ وثانياً - لا شك في وجود فرق هنا؛ وثالثاً- لم يكن بإمكان الجنرال غارتونغ إلّا أن يكتب بذاك المعنى الحرفي الذي نتحدث عنه، أي: «إنني شخصياً لم آخذ، ولم أكن أريد أن آخذ شيئاً على الإطلاق؛ ومن فعل ذلك هم الآخرون، وضد إرادتي. وليس لي من ذنب سوى الضعف، وأما الغش فلا، وذلك لأنني

شخصياً لم أُرِد أن آخذ شيئاً من أحد، بل إنني كنت أقاوم، والآخرون هم الذين فعلوا...». لقد كان بإمكانه أن يكتب بهذا المعنى بالذات كلماته المصيرية، ولكن في الوقت نفسه كان ما يتسم به من شرف ونبل عظيمين يمنعه من الموافقة مهما كان الثمن، على القول: «بما أنني تغاضيت عن السرقة، فكأنني أنا نفسي قد سرقت». لقد كان ذاهباً إلى لقاء ربه، وكان يعرف أنه لم يكن يريد السرقة ولا التغاضي عنها، بل هي حدثت هكذا... بحكم الظروف. ويجب أن تلاحظوا أيضاً أنه لم يكن بإمكانه على الإطلاق أن يتوسع في شرح كلماته في هذه الرسالة القصيرة: أي أن يبيّن أن ذنبه ينحصر في التساهل، وليس في الاختلاس إلخ... لم يكن بوسعه، هو الجنتلمان، أن يشي بالآخرين، وخصوصاً في مثل هذه اللحظة المهيبة التي «غفر فيها لأعدائه».

وأخيراً، وهذا هو الأكثر ترجيحاً، ربما لم يكن باستطاعته أن يعترف بينه وبين نفسه حتى بتساهله، وضعفه، وتغاضيه بسبب طيبة قلبه. وربما يكون ڠارتونغ قد وجد نفسه أمام شبكة من الظروف لم يستطع، حتى اللحظة الأخيرة من حياته، أن يفهمها، وغادر إلى العالم الآخر وهو على هذه الحالة.

قيل: «إن دفتر السندات قد سرق»، وهاهم ذوو الرأي الذين يوليهم كامل ثقته يقنعونه، منذ البدء، بأن هذا الأمر مجرد تفاهة، وأن الدفتر قد فُقد على نحو ما، إذ ليس من أحد بحاجة إليه؛ وهاهم يحسبون له بالأرقام، ويستنتجون بواسطة الرياضيات أن وجود دفتر السندات هذا سيعود بالضرر، وليس بالنفع، حتى على الورثة أنفسهم (علماً بأن هذه الحجة بالذات قدمها الدفاع في المحكمة فيما بعد، ويبدو أنها حجة حقّة)؛ وربما كانت سائر الأمور الباقية قد قُدِّمت وفُسّرت لڠارتونغ على هذا النحو؛ فهو لم يكن خبيراً بمثل هذه الأمور، وكان بالمستطاع إقناعه بأي شيء. كانوا يقولون له: «صدِّقنا، نحن أيضاً نبلاء ونحن مثلك لا نريد أن نسرق أي شيء من الورثة، ولكن الأمور عند زانفتليبين ظلت في وضع دقيقٍ وحساس، بحيث إن الورثة إذا عرفوا الآن بأمر دفتر السندات والشؤون الأخرى يغدو من المحتمل أن يتهمونا مباشرة بالاحتيال، ولذا يجب أن نخفي هذا عنهم». ولم ينكشف هذا «الخلل والاضطراب في شؤون زانفتليبين» دفعة واحدة، بالطبع، بل بالتدريج، ولذا فإن ڠارتونغ كان يتعرّف الحقيقة، أو من الأحسن أن نقول إنه كان يُضيّع الحقيقة، ويتورط في الكذب بالتدريج، يوماً بعد يوم، وفجأة يأتيه أحد الورثة، ويندفع نحوه مباشرة بطريقة تجعلك تخاله يصرخ ولو لم يكن يصرخ: إن الجنرال ڠارتونغ لص؛ فقد دخل بأبهة الظافر، راسماً على وجهه ابتسامة المنتصر الذي يضمر الشر، وكان واثقاً تمام الثقة بأنه الآن يملك الحق في أن يعيث في شقة الجنرال فساداً وفي هذه اللحظة بالذات أدرك الجنرال بوضوح تام وَخامةَ الورطة التي وقع فيها. ثم أصيب بعد ذلك

بارتباك شديد، وأخذ يساوم ويعرض حلولاً وسطاً، ويقترح عقد صفقات، وكان هذا، بالطبع، يزيد من تورطه أكثر فأكثر؛ فيما كان الطرف المتّهِم يتشبث بضراوة بالوقائع الجديدة التي تفضح الخصم، والمتمثّلة في عرضه الحلول الوسط وعقد الصفقات. وكل هذا كان يضاف إلى ملف القضية. وباختصار نقول: إن ڠارتونغ قد مات وهو متيقن من براءته التامة، ولكن أيضاً لم يكن هناك أي خطأ قضائي بالمعنى الدقيق للكلمة. كان هناك قدر محتوم، وحدثت مأساة: قوة عمياء اختارت لسبب ما، ڠارتونغ وحده لتعاقبه على عيوب منتشرة في مجتمعه على نطاق واسع. ربما كان هناك عشرة آلاف شخص من أمثاله، ولكن لم يهلك منهم سوى ڠارتونغ. إن هذا الإنسان البريء، والمتسم بدرجة رفيعة من الشرف من شأنه، بالطبع، عندما يؤول إلى هذه النهاية المأساوية، أن يثير في النفوس قدراً من التعاطف يفوق ما يثيره أي من أمثاله العشرة آلاف جميعاً؛ كما أن خبر محاكمته من شأنه أن يَذيع على أوسع نطاق في روسيا لإنذار «الفاسدين»؛ ولكن من المستبعد أن يكون القدر، الربة العمياء، كان يُعوّل على هذا بالذات، عندما بطش به.

الكذب ضروري من أجل الحقيقة. كذب على كذب يفضي إلى الحقيقة. هل هذا حقيقي؟

وأياً كان الأمر فإني أرغب في أن أطلعكم على انطباع سابق انبعث في داخلي بهذا الصدد، مع أنه ربما يكون ساذجاً جداً؛ وهو يتعلق على العموم بالمحاكم عندنا. إن المحكمة العلنية التي تعتمد نظام «المُحلَّفين» تُعَد، بحسب العرف السائد في العالم كله، إنجازاً يقترب من الكمال: «إنها، كما يقال، نصر للعقل وأسمى نتاج له». وأنا أؤمن بهذا مع الجميع، لأنهم سيقولون لكم، على سبيل المثال: «طيب، هاتوا ما هو أحسن منها»، وأنتم طبعاً لن تستطيعوا. وعلى هذا فمن الضروري الموافقة لسبب واحد على الأقل، هو أنه يتعذر الإتيان بأفضل منها. ولنتصور الآن أن السيد المدعي العام يصعد إلى الخشبة... أقصد إلى المنصة. ولنفترض أنه

إنسان ممتاز وذكي، وذو ضمير حي، ومثقف، وذو قناعات مسيحية، وأحد الروس القلائل الذين يعرفون روسيا ويعرفون الإنسان الروسي بقدر معرفته لهما. وها هو هذا الإنسان ذو الضمير الحي جداً يبادر مباشرة إلى القول: «إنه حتى مسرور لحصول هذه الجريمة لسبب واحد فقط هو أن هذا الشرير، هذا المتهم الذي يحاكم الآن سينال عقابه في النهاية، وليتكم أيها السادة المحلفون، تعرفون أي محتال هو!» إنه لن يستعمل، بالطبع، كلمة «محتال» ولكن لا فرق: فهو، في النهاية سيقدمه بأكثر الأساليب تهذيباً، ودماثة، وإنسانية، بصورة تجعله يبدو حتى أسوأ من محتال، بل أسوأ حتى من أي محتال. وسيُبلغ المحكمة بقلب مفجوع، وأسلوب في غاية اللباقة والأدب أن أمه أيضاً كانت مثله، وأنه في النهاية، لم يستطع أن يمتنع عن السرقة لأن تفسخه الأخلاقي المفرط في الدناءة كان لا ينفك يشده أكثر فأكثر إلى أعماق الهاوية. وقد فعل كل ما فعله عن وعي، وعن سابق قصد وتصميم. تذكروا كيف خدمه الحريق الذي شبّ في الشارع المجاور لحظة ارتكابه الجريمة، وذلك لأن النار أفزعت الجميع، واجتذبت إليها انتباه البوابين وسكان الحي كافة. «أوه! أنا بالطبع لا أفكر البتة في اتهامه مباشرة بتدبير الحريق، ولكن ألا توافقون معي، أيها السادة المحلفون، على أن هذا التطابق الغريب في وقت وقوع الحادثتين يقودنا حتماً نحو فكرة معينة، ولكنني سأصمت، سأصمت... إلّا أنكم ستُبعِدون هذا اللص، القاتل (لأنه لو كان قد صادف أحداً في الشقة لقتله حتماً)، ستُبعدون مُشْعِل الحرائق هذا، نعم إنه مُشعل حرائق متمرس، وهذا أمر مثبت، ستبعدونه، بالطبع إلى مكان ناءٍ لكي تمنحوا الناس الأخيار إمكانية الراحة النفسية، وتمنحوا ربات البيوت إمكانية مغادرة منازلهن لشراء حاجياتهن وهن مطمئنات، ولكي يكف مالكو الأبنية عن الخوف على عقاراتهم، مع أنهم كانوا قد أمّنوا عليها لدى شركات التأمين. والمهم أنني عبثاً أذكرلكم كل ذلك: إذ يكفي أن تنظروا إليه! هاهو جالس هناك، لا يجرؤ على النظر إلى الناس الشرفاء في أعينهم، ويكفي أن تلقوا عليه نظرة واحدة بسيطة لتقتنعوا بأنه لص، وقاتل، ومشعل حرائق. وأنا أعلن أمام الملأ أنني لست آسفاً إلّا على أمر واحد هو أنه لم يتبين له أن يرتكب عشر جرائم سرقة كجريمة سرقة البياضات تلك، وأن يقترف عشر جرائم قتل كجريمة ذبح ربة البيت تلك، وأن يشعل الحرائق في عشرة أبنية كذاك المبنى، لأن ضخامة الجريمة في مثل هذه الحالة ستَرُجّ مجتمعنا الناعس مدنياً، وتجبره على اللجوء، في نهاية المطاف، إلى الدفاع عن النفس، والخروج من حالة الخدر المدني الإجرامي...».

أجل نحن نعرف أن السيد المدعي العام سيتكلم بأسلوب أنبل بكثير. فكلماتنا كاريكاتورية، ولا تصلح إلّا لجريدة فكاهية تصدر أيام الآحاد وتحتوي على أهازيج شعبية ساخرة ورسوم كاريكاتورية، على سبيل المثال. ولنفترض أن هذه القضية ستكون من تلك

القضايا التي تثير مسائل اجتماعية ومدنية عميقة، والأهم أن تتضمن عناصر نفسانية، ومن المعروف أن المدعين العامين، وحتى في أوربا بأسرها، ذلقو اللسان جداً عندما يتحدثون في المسائل النفسانية؛ فما الذي سيحدث؟ سيحدث الشيء نفسه في النهاية، أي التعبير عن الأسف لأنه ارتُكِبتْ جريمة واحدة بدلاً من عشر جرائم، أو ثلاثين، أو خمسين جريمة، إذ لو حدث هذا لارتعشت قلوبكم، ولنهضتم كرجل واحد وهلم جراً وهلم جراً...

وهنا سيعارضونني قائلين: وماذا في هذا؟ لنفترض أن كثيراً جداً من المدعين العامين لا يجيدون الخطابة بالمرة، ولكن أولاً المدعي العام موظف، وعليه أن يتصرف بمقتضى طبيعة وظيفته، وثانياً: المدعون العامون يضخمون التهمة دائماً، وهذا ليس بالأمر المستنكر البتة، بل هو بالعكس، مفيد. لأن هذا ما يجب أن يكون. ثم بالمقابل هناك المحامي، الذي يُسمح له بأن يدحض تماماً ما يزعمه المدعي العام. أضف إلى ذلك أن المحامي يُسمح له في أوربا كلها أن يبرهن، ولكن طبعاً بمنتهى التهذيب، على أن المدعي العام غبي، وسخيف ودنيء، «وإذا كان ثمة من أشعل حريقاً في أحد الأبنية في اليوم الثالث من الشهر على الخط الثالث في جزيرة فاسيليفسكي*، فهوهذا الشخص نفسه، لأنه كان في هذا الوقت بالذات موجوداً في الجزيرة المذكورة لحضور الاحتفال بعيد شفيع الجنرال ميخايلوف، الإنسان البالغ الروعة والنبل، وليس ثمة شك في أنه هو الذي أشعل النار في المبنى، ويكفي لإثبات ذلك أن نورد سبباً واحداً (علم النفس ثانية)، إذ لو لم يكن هو الذي افتعل الحريق هناك بسبب العداوة التي بينه وبين مالك البناء، التاجر، إيفان بوروداتي، لما كان ليخطر في باله البتة إلصاق مثل هذه التهمة الغبية الدنيئة التي لا مثيل لشناعتها بالمتهم والادعاء بأنه هو الذي افتعل الحريق لتحويل أنظار الشارع كله في أثناء قيامه بهذه الجريمة المزعومة غير المعقولة. إن افتعاله هذا الحريق شخصياً هو الذي أوحى إليه بهذه الفكرة». وأخيراً خذوا بالحسبان أن المحامي يُسمح له بالإيماء وذرف الدموع، والصريف بالأسنان، وشد شعر الرأس، والخبط بالكراسي (من دون التلويح بها)، وأخيراً السقوط مغشياً عليه، إذا كان نزيهاً جداً، وليس بوسعه احتمال الظلم، وهذا، كما يبدو، غير متاح للمدعي العام مهما كان نزيهاً، لأنه سيكون من المستغرب أن يقع فجأة على الأرض موظف بالزي الرسمي مستلقياً على ظهره. هذا غير وارد بالمرة.

ومرة أخرى أكرر: إن كل ما أقوله كاريكاتور، مجرد كاريكاتور، إذ لا يحدث أي شيء من هذا القبيل، بل تجري كل الأمور بطريقة نبيلة، أنا موافق على هذا (مع أنهم خبطوا الأرض

(*) أكبر جزر بطرسبورغ في دلتا نهر نيفا. (م).

بالكراسي ووقعوا مغشياً عليهم)، ولكنني أسعى للوصول إلى جوهر القضية فَهم يصلون بأنبل التعابير إلى الشيء نفسه الذي يصلون إليه بأبذئها.

سيقولون لي: كيف، ماذا تقول، إن هذا هو المطلوب، المبالغة بالذات من كلا الطرفين هي المطلوب! إن المحلف يكون أحياناً ليس مثقفاً بالقدر الكافي، ويكون إلى جانب ذلك، شخصاً مشغولاً، كأن تكون لديه دكان أو أعمال ما، ويكون أحياناً مشتت الذهن، وأحياناً ليس مؤهلاً للتعمق في التفكير. ولذلك بالذات يجب أن نعمّق تفكيره، ونريه جميع أطوار القضية ووجوهها، حتى المستحيلة منها، لكي يكون واثقاً تماماً بأن الاتهام قد استنفد كل ما يمكن أن يخطر بالبال، ولم يبق شيء للتفكير فيه بهذا الصدد، كما أن الدفاع قد أورد كل ما يمكن وما لا يمكن افتراضه من أجل تبييض صفحة المتهم، وجعلها تبدو أنصع من الثلج في عنان السماء؛ ولذلك فإنهم عندما يجلسون في غرفة خاصة لاستنتاج الحصيلة يكونون على علم آلياً، إذا صح التعبير، بالذي سيطفو على السطح: هل هو إيجابي أم سلبي؛ وهكذا يمكنهم أن يكونوا، ضميرياً على الأقل مطمئنين تماماً.ومن الواضح، في النتيجة، أن كل هذا ضروري تماماً من أجل الحقيقة، أي الهجوم الضاري، والدفاع الضاري، بل حتى إن الهجوم الضاري الذي تقوم به جهة الاتهام، إذا أخذناه بمعناه الدقيق، يكون أكثر فائدة للمتهَم منه للمتهِم. وهذا يؤكد من جديد استحالة الإتيان بأحسن من هذا النظام القضائي.

ولنقل باختصار: إن المحكمة المعاصرة ليست نصراً للعقل أو أسمى نتاج له فحسب، بل هي أيضاً تكوين شديد التعقيد والغموض. وليس لنا إلّا أن نوافق على هذا. إن المحاكمة فيها علنية، ويأتي الجمهور بالمئات لحضورها، فهل من المعقول أن نفترض أنهم يأتون لتزجية الفراغ وللفرجة فقط؟ طبعاً لا؛ وأياً كان الدافع إلى اجتماعهم هنا، لا بد من أن يكون الانطباع الذي يحملونه عندما يغادرون انطباعاً سامياً، قوياً، إرشادياً، شافياً. ولكن هاهم يجلسون ويرون أن الأساس الذي يقوم عليه ما يجري هنا هو كذب من نوع خاص: لا، إنه ليس في المحاكمة طبعاً، ولا في مغزى الحكم، بل هو ببساطة، على سبيل المثال، في بعض العادات التي أخذناها من أوربا بسهولة مفرحة، وتأصلت في سلوك ممثلي الدفاع والاتهام عندنا. وها أنا أعود إلى البيت، وأستغرق في التفكير: إن المدعي العام إيفان خريستوفوريتش الذي أعرفه شخصياً، إنسان ذكي جداً، وطيب جداً، ومع ذلك فقد كان يكذب، ويعرف أنه يكذب. فالقضية التي تقتضي توبيخاً أو السجن لمدة شهرين، كان يضخمها إلى حد النفي إلى أماكن نائية جداً لمدة عشرين سنة. ولنفترض أن هذا كان ضرورياً من أجل إيضاح القضية ولكنّه مع ذلك كان يكذب، وهو يكذب عن وعي، مع أن القضية تمس مصير إنسان. فكيف يمكن أن تنسجم هذه الأمور فيما بينها، وخصوصاً إذا كان المدعي العام شخصاً موهوباً، من المعروف أنه:

il en reste toujours quelque chose*، وخاصة إذا كان ممثل الدفاع ضعيفاً ولا يحسن سوى الخبط بالكراسي. ولنفترض حتى أن الإحساس بالاعتزاز بالنفس قد تملك نفس إيفان خريستوفوريتش، وهذه سمة إنسانية محض، ولكن هل تسوّغ له أن يتصرف هكذا في قضية بمثل هذه الأهمية؟ وأين توارى الإنسان فيه؟ ونقصد الإنسان الأسمى، الإنسان الإنساني المتحضر؟

ولنفترض، لنفترض في نهاية المطاف، أن هذا كله سيؤدي إلى ظهور الحقيقة، سيفضي إلى ظهورها آلياً، إذا جاز التعبير، وحتى بطريقة في غاية المكر؛ ولكن ألا يعني هذا أن الجمهور الذي اجتمع في المحكمة لم يجتمع إلّا من أجل الفرجة المشهدية، من أجل أن يتأمل الطريقة الآلية الشديدة المكر، ويستمع بانبهار، على سبيل المثال، كيف يعمد المحامي الموهوب إلى الكذب على نحو متميز مخالفاً ضميره ويكاد يصفق له ولسان حاله يقول: «انظروا، ما أبرع هذا الشخص في الكذب!» ومن هنا يولد في نفوس هذا الجمهور الميل نحو الكلبية[5] والزيف والنفاق، ويأخذ هذا الميل يترسخ ويتأصل لديه على نحو غير ملحوظ. ويتولد لديه التوق لا إلى الحقيقة، بل إلى الموهبة التي من شأنها أن تطربه وتمتعه. وتتبلد لديه العاطفة الإنسانية، التي لا يفلح الإغماء والسقوط على الأرض في إنعاشها من جديد. وتصوروا مرة أخرى ما هي النتيجة إذا كان الكذّاب يحوز فعلاً موهبة كبيرة؟

أعرف أن كل هذا ليس سوى نقيق عبثي من جانبي. ولكن استمعوا؛ من المعروف أن مؤسسة محكمة المحلفين العلنية ليست روسية، بل هي منسوخة عن محاكم أجنبية. أَمِنَ المعقول أنه لا يجوز لنا أن نأمل بأن تحقق القومية الروسية والروح الروسية يوماً ما إزالة النواشز والقضاء على الزيف... والعادات السيئة، فتسير القضية بحذافيرها على طريق الصدق والحقيقة؟ صحيح أن هذا الآن مستحيل: فالدفاع والاتهام كلاهما يتألقان الآن عن طريق هذه العادات السيئة، لأن أحدهما يسعى للحصول على المال والآخر يسعى لتحسين وضعه الوظيفي. ولكن سيأتي زمن يمكن فيه للمدعي العام حتى أن يدافع عن المتهم بدلاً من أن يتهمه؛ وإذا ما أراد المحامون أن يعارضوا ويقولوا إنه حتى ذاك الجزء الصغير من التهمة الذي أبقاه المدعي العام ولم يبرئ المتهم منه، لا ينطبق على حالة المتهم، فإن المحلفين لن يصدقوهم. وأنا أعتقد أن هذا الأسلوب في الوصول إلى الحقيقة أسرع بكثير وأسلم بكثير من الأسلوب الآلي السابق، أي أسلوب التضخيم، الذي يتجسد في تطرف الاتهام، وشراسة

(*) دائماً يبقى هناك شيء ما (بالفرنسية). (ن). وردت هذه العبارة قبلًا في فصل «حول قضية كرونيبيرغ» مسبوقة بكلمة Mais وترجمت إلى الروسية بعبارة: «ولكن أثراً ما سيبقى حتماً». (م).

الدفاع. سيردّون عليّ،، طبعاً، بأن هذا مستحيل تماماً، وبما أن الأمور تجري كما في أوربا، فإنها يجب أن تبقى على حالها، وأنه «كلما تعاظم الطابع الآلي تحسّن الوضع أكثر».

لعل هذه الآلية، هذا الأسلوب الآلي في إظهار الحقيقة سيتغير عندنا... لتحل محله الحقيقة نفسها، ويختفي هذا التضخيم المصطنع من كلا الطرفين، ويظهر كل شيء بمظهره الصادق الحقيقي، لا بمظهر اللعبة في البحث عن الحقيقة. وعندئذ لن يكون ما يجري على منصة المحكمة مشهديةً ولعبةً للفرجة، بل سيكون درساً، وعبرة، وإرشاداً؛ علما بأنه في مثل هذه الحالة ستنخفض كثيراً قيمة أتعاب المحامين. وعلى كل فإن جميع هذه التخيلات الطوباوية لن تغدو ممكنة، إلّا عندما تنبت لنا أجنحة ونصبح كلنا ملائكة. ولكن آنذاك لن تكون هناك محاكم...

وفاة نكراسوف.
عمّا قيل عند قبره

مات نكراسوف[16]. رأيته آخر مرة قبل شهر من وفاته. كان آنذاك يبدو أشبه بالجثة، حتى ليستغرب المرء كيف يمكن لهذه الجثة أن تتكلم وتحرك شفتيها. ولكنه لم يكن يتكلم فحسب، بل كان محتفظاً بكل وضوح ذهنه. ويبدو أنه لم يكن قد أيقن بعد بإمكانية دنو الأجل. وقد أصيب قبل أسبوع من الوفاة بفالج في الشق الأيمن من جسمه، ثم علمت في صباح الثامن والعشرين أن نكراسوف قد مات في اليوم السابق، في السابع والعشرين، الساعة الثامنة مساءً. ذهبت إليه في اليوم نفسه. صعقني بشكل خاص وجهه الذي أجهدته المعاناة إلى حد مخيف وشوهت ملامحه. وفيما كنت أغادر سمعت كيف كان القندلفت يتلو عند رأس المتوفى بنطق واضح وصوت ممدود: «ما من إنسان لا يأثم»*.عندما عدت إلى البيت لم أستطع استئناف العمل؛ تناولت أجزاء ديوان نكراسوف الثلاثة وعكفت على القراءة بدءاً بالصفحة الأولى. سهرت طوال الليل حتى السادسة صباحاً، وكنت كأني أعيش من جديد جميع السنوات الثلاثين الماضية. لقد نُشرت القصائد الأربع التي يستهل بها الجزء الأول في «المجموعة البطرسبورغية» التي نشرت فيها أولى قصصي**. وكنت كلما تقدمت في القراءة (كنت أقرأ كل الأشعار بالتسلسل) مرت في مخيلتي أحداث حياتي واحداً إثر آخر. وقد عرفت واستحضرت في ذاكرتي تلك الأشعار التي قرأتها أول مرة في سيبيريا، عندما كنت قد قضيت سنوات سجني الأربع في منفى الأشغال الشاقة، وحصلت في النهاية على حق الإمساك بكتاب. وتذكرت الانطباع الذي تكوّن لديّ آنذاك. وباختصار قرأت في تلك الليلة ما يقارب ثلثي ما كتبه نكراسوف. وأخذت أدرك، للمرة الأولى حرفياً، المكانة الكبيرة

(*) انظر: «كتاب الملوك الثالث» (الأول) 8/ 46، وكذلك «أخبار الأيام الثاني» 6/ 36. (ن).

(**) المقصود رواية «الناس الفقراء». (ن).

التي كان نكراسوف، بصفته شاعراً يشغلها، في حياتي طوال هذه السنوات الثلاثين؛ بصفته شاعراً طبعاً؛ أما شخصياً فقد كنا نادراً ما نلتقي، ولأوقات قصيرة، ولم يتسم لقاؤنا بعاطفة حارة صادقة كل الصدق إلّا مرة واحدة، وذلك عندما التقينا في بداية تعارفنا في عام خمسة وأربعين، أي في حقبة «الناس الفقراء». ولكنني تحدثت عن ذاك اللقاء سابقاً. وقد تخلل ذاك اللقاء بيننا يومئذ بضعُ لحظات ارتسم في أثنائها هذا الإنسان الغامض أمامي مرة وإلى الأبد من أكثر جوانب روحه جوهرية وخفاء. وكان هذا الجانب، كما أحسست مباشرة آنذاك، يتمثل بالذات في قلبٍ جرحته صروف الدهر منذ فجر حياته. وكان جرحه هذا الذي لم يندمل طوال حياته هو مبتدى ومنبع كل شاعريته المشبوبة العاطفة والمفعمة بالمعاناة على مدى عمره كله. لقد حدثني آنذاك وعيناه مغرورقتان بالدموع عن طفولته، وعن حياته المشوهة التي أضنته في بيت أبويه، وعن أمه، وقد خلقت لدي الطريقة التي تحدث بها عن والدته، وشدةُ التأثر الذي انتابه وهو يتذكرها إحساساً مسبقاً آنذاك بأنه: إذا كان سيظهر أي شيء مقدس في حياته، أعني أي شيء من شأنه أن ينقذه ويكون له منارة ونجماً هادياً، حتى في أحلك لحظات مصيره وأكثرها شؤماً، فإن هذا الشيء لن يكون سوى ذاك الانطباع الطفولي المبكر المبلّل بدموع طفولته ونحيبه الطفلي وهو يعانق خلسة، في مكان ما، بعيداً عن أنظار الآخرين (كما روى لي هو نفسه) أمه المعذّبة، هذا الكائن الذي يكن له حباً لا حدود له. وأعتقد أنه لم يرتبط في حياته بعد ذلك بأية علاقة لها مثل ذاك التأثير وتلك السلطة على إرادته وعلى ميول نفسه المبهمة الجامحة التي لازمته طوال حياته. وكانت هذه الأهواء المبهمة تتبدى منذ ذاك الوقت. وأذكر أننا افترقنا بعد ذلك بوقت قصير إلى حد ما. ولم يستمر تقاربنا أكثر من بضعة أشهر، وقد ساعد على ذلك سوء التفاهم، والظروف الخارجية، والناس الطيبون. وبعد سنوات عديدة، وكنت قد عدت من سيبيريا، كنا عندما نتقابل، وهذا لم يكن يحدث كثيراً، نتبادل أحياناً، على الرغم حتى من اختلاف قناعاتنا الذي بدأ آنذاك، أحاديث غريبة، وكأن شيئاً ما في الحقيقة قد استمر في حياتنا منذ أن التقينا في سن الشباب، في السنة الخامسة والأربعين، ولم يشأ، أو لم يستطع، أن ينقطع على الرغم من أننا كنا لا نلتقي طوال سنوات. وقد أعطاني ذات مرة، في العام الثالث والستين على ما أذكر، ديوان أشعاره، وأشار إلى قصيدة فيه بعنوان «التعساء»، وقال لي بنبرة موحية: «كنت أفكر فيك عندما كتبت هذه» (أي كان يفكر في حياتي وأنا في سيبيريا). «هذه كُتبت عنك أنت». وفي المدة الأخيرة عدنا نتقابل أحياناً من جديد، وذلك عندما كنت أنشر في مجلته روايتي «المراهق»...

احتشد في جنازة نكراسوف عدة آلاف من المعجبين به. وكان بينهم عدد من الشبيبة الطُّلابية. وقد انطلق موكب التشييع في الساعة التاسعة صباحاً، ولم يعد المشيعون من

المقبرة إلا قبيل الغسق؛ وأُلْقيتْ عند القبر خطب كثيرة، ولكن عدد الأدباء الذين تكلموا كان قليلاً. وكان يتخلل ذلك إلقاء مقطوعات شعرية رائعة. شققت طريقي في الزحمة للوصول إلى القبر الذي كان ما يزال مفتوحاً ومغموراً بالأزهار وأكاليل الورد، وقلت بدوري بضع كلمات بصوتي الضعيف وأنا متأثر أشد التأثر. وقد بدأتُ كلماتي بالحديث عن القلب الجريح بالذات، وعن أن هذا الجرح الذي ظل فاغراً طوال الحياة هو منبع كل شاعريته، وكلِّ حبه المشبوب حتى الوجع لكل من يعاني من العنف، ومن قسوة الإرادة الجامحة التي تظلم المرأة الروسية، وتظلم الطفل في أسرتنا الروسية، وتجورعلى إنساننا البسيط الذي غالباً ما يعاني من بؤس قسمته. وقد أفصحتُ أيضاً عن قناعتي بأن نكراسوف قد اختتم بشعره طائفة الشعراء الذين أتوا بـ «كلمة جديدة» خاصة بهم. وفي الحقيقة (وأقول هذا مستبعداً أية مسألة عن قوة شاعريته الفنية وأبعادها) كان نكراسوف شاعراً أصيلاً للغاية، وقد أتى فعلاً بـ «كلمة جديدة». لنأخذ على سبيل المثال الشاعر تيوتشيف[21] الذي كان أرحب منه وأكثر فنية، ولكنه لن يشغل أبداً في أدبنا مثل تلك المكانة البارزة والراسخة في الذاكرة التي ستظل بلا جدال، من نصيب نكراسوف. وهو بهذا المعنى (أي من حيث كونه من طائفة الشعراء الذين أتوا بـ «كلمة جديدة» يجب أن يلي مباشرة بوشكين وليرمنتوف. وعندما عبرت عن هذه الفكرة بصوت مسموع حصلت حادثة صغيرة: إذ ارتفع صوت من وسط الجمهور يقول إن نكراسوف كان أعلى من بوشكين وليرمنتوف، وإن هذين كانا مجرد «بايرونيِّين»*. وعلَت بضعة أصوات على الأثر تردد «أجل، أعلى!» وأنا، على كلٍّ، لم أكن أفكر بالتعبير عن المراتب وعن مقارنة القامات بين الشعراء الثلاثة. ولكن إليكم ما حدث بعد ذلك: قال السيد سكابيتشيفسكي في رسالته التي نشرتها صحيفة «أخبار البورصة»، والموجهة إلى الشبيبة بصدد أهمية نكراسوف إنه عندما خطر لأحدهم «أي أنا» عند قبر نكراسوف «أن يقارن اسمه باسمَي بوشكين وليرمنتوف، صحتم جميعاً وبصوت واحد «يقصد الشبيبة الطلابية كلها»: «هو كان أعلى، أعلى منهما». ولكنني أجرؤ على أن أؤكد للسيد سكابيتشيفسكي أنهم لم ينقلوا إليه ما حدث بالضبط، وأنا أذكر تماماً (وآمل أنني لا أخطئ) أن شخصاً واحداً صاح بمفرده في البدء (أعلى، أعلى منهما) وأضاف على الفور: إن بوشكين وليرمنتوف كانا «بايرونيِّين»، وصدور هذه الإضافة عن شخص واحد، وتعبيرها عن رأي واحد أكثر منطقية وأكثر طبيعية من صدورها عن الجميع في اللحظة نفسها، أي عن حشد يضم ألف شخص، وتالياً فإن هذه الحقيقة ترجِّح، بالطبع، روايتي للواقعة كما حدثت فعلاً؛ وعلى إثر ذلك، وبعد

(*) نسبة إلى الشاعر الإنكليزي الشهير «بايرون» (1788-1824). (م).

أن ارتفع الصوت الأول، ارتفعت بضعة أصوات أيضاً، بضعة أصوات لا أكثر، أما الجوقة التي تضم ألف شخص فأنا لم أسمعها؛ وأكرر هذا وآمل أنني لا أخطئ.

وأنا أصر كل هذا الإصرار على ذكر ذلك لأنني كنت سأتأثر لو رأيت أن كل شبيبتنا ترتكب مثل هذا الخطأ. فالعرفان بفضل الراحلين العظماء يجب أن يكون خصلة ملازمة للقلوب الفتية. ولا شك في أن الصرخة التهكمية عن «البايرونيين» والهتافات: «أعلى، أعلى» لم تصدر البتة عن رغبة في خوض جدال أدبي عند قبر الراحل الغالي، الذي لم يكن قد أغلق بعد، فالموقف لم يكنِ مناسباً، وكل ما في الأمر أنه حدث اندفاع حماسي للتعبير بأشد قوة ممكنة عن جميع ما تراكم في القلب من مشاعر التأثر والعرفان والانبهار، للشاعر العظيم الذي أثار عواطفنا أيما إثارة، والذي ما زال، حتى وهو في لحده، قريباً منا كل القرب (أما ذان العظيمان السابقان القديمان فقد أصبحا جد بعيدَيْن!) إن هذا المشهد بمجمله أشعل لدي الرغبة، وأنا ما زلت بعد هناك، في أن أوضح فكرتي بجلاء أكبر في العدد القادم من «اليوميات»، وأن أعبر بمزيد من التفصيل عن الكيفية التي أنظر بها إلى مثل هذه الظاهرة المتميزة والاستثنائية التي كان يمثلها نكراسوف في حياتنا وفي شعرنا، وأبيّن فيم يكمن، في رأيي، جوهر هذه الظاهرة ومغزاها.

بوشكين وليرمنتوف ونكراسوف

أولاً لا يجوز استعمال كلمة «بايروني» في معرض الشتم. فالبايرونية، وإن كانت ظاهرة بُرهيّة، لكنها كانت ظاهرة عظيمة ومقدسة وضرورية في حياة الإنسانية الأوربية، وتكاد تكون كذلك في حياة الإنسانية بأسرها. فقد ظهرت البايرونية في برهة كان الناس فيها يعانون من الشعور بوحشة ممضّة، وبخيبة الآمال، ويشرفون على اليأس. وبعد الابتهاج الحماسي الشديد الذي أحدثه الإيمان الجديد بالمُثُل العليا الجديدة، الذي أُعلن في فرنسا في نهاية القرن السابق، آلت أوضاع الأمة المتقدمة آنذاك على صعيد الإنسانية الأوربية إلى نهاية بعيدة الشبه عما كان الناس يتوقعونه، ومجافية لما آمنوا به من قبل. مما خلق جواً من الأسى، ربما لم يعرف تاريخ أوربا الغربية مثيلاً له من قبل. ولم تكن أسباب سقوط «الأوثان» المعبودة

التي كانت قد نُصبت من جديد لبرهة قصيرة تتعلق بالظروف الخارجية (السياسية) فحسب، بل كانت تتعلق أيضاً بتهافت هذه الأوثان الداخلي، وهو أمر رأته بوضوح كل القلوب البصيرة والعقول السبّاقة. وإذ لم تكن معالم المخرج الجديد قد ارتسمت بعد، ولم يكن الصِّمام الجديد قد فُتح، وإذ كان الكل يعاني من الشعور بالاختناق تحت الأفق السابق الذي هبط فوق الإنسانية وضاق إلى حد مرعب، وكانت «الأوثان» القديمة تسقط متحطمة، في هذه البرهة بالذات ظهرت عبقريةٌ عظيمة وجبّارة، ظهر شاعر يتوقد حماسة. ضجّت في كلماته مشاعر الوحشة التي كانت الإنسانية تعيشها آنذاك، والكرب المتأتي من خيبة أملها برسالتها وبمثلها العليا التي انخدعت بها، كانت هذه ربة شعر جديدة لم يسمع بها من قبل، ربة الثأر والأسى، وربة اللعنة واليأس. وبدا كما لو أن روح البايرونية قد سرى فجأة في جسد الإنسانية كلها، فتجاوبت معه الإنسانية بأسرها. لقد كان هذا يشبه الصمام المفتوح بالذات، على الأقل وسط الأنين والتأوهات العامة المخنوقة التي كانت بمعظمها لا واعية؛ أجل! لقد كانت هذه صرخة جبارة اتحدت فيها وانسجمت كل صرخات الإنسانية وتأوهاتها. فكيف كان يمكن ألّا تلقى هذه الصرخة صدىً لها عندنا، ولا سيما لدى ذي عقل عظيم وعبقري وقائد كبوشكين؟ لم يكن بوسع أي عقل قوي، وأي قلب رحب عندنا آنذاك أن يتجاوز البايرونية. ولم يكن ذلك من باب التعاطف من بعيد مع أوربا ومع المجتمع الأوربي فحسب، بل أيضاً لأن كثيراً جداً من المسائل الجديدة غير المحلولة والمضنية كانت قد برزت عندنا في روسيا آنذاك، كما برز أيضاً كثير جداً من خيبات الأمل القديمة. بيد أن عظمة بوشكين، بصفته عبقرياً قائداً، كانت تكمن بالضبط في أنه سرعان ما وجد طريقاً ثابتاً، على الرغم من أنه كان محاطاً بأناس يكادون لا يفهمونه، وجد المخرج العظيم والمرتجى لنا، نحن الروس، ودلّنا عليه. وكان هذا المخرج هو: الشعبية، هو الانحناء أمام حقيقة الشعب الروسي. «كان بوشكين ظاهرة عظيمة، استثنائية» بوشكين «لم يكن إنساناً روسياً فحسب، بل كان الإنسان الروسي الأول». إن الروسي الذي لا يفهم بوشكين لا يملك الحق في أن يسمى روسياً. لقد فهم بوشكين الشعب الروسي، وأدرك رسالته بعمق وسعة لا يضاهيه فيهما أحد على مر العصور. وأنا هنا لا أتحدث عن أنه أثبت بعبقريته الإنسانية الشاملة، وبمقدوره على التجاوب مع جميع جوانب المجتمع الأوربي الروحية الشديدة التنوع، وبقدرته على أن يتقمص تقريباً عبقريات الشعوب والأمم الأخرى، أثبت أن الروح الروسية كليةُ الإنسانية وشاملة الاستيعاب، وكأنه بهذا قد بشَّرَ بالرسالة القادمة لعبقرية روسيا على صعيد الإنسانية ككل، بصفتها القوة الموحِّدة للجميع، والموفِّقة بين الجميع، والقوة الباعثة من جديد، ولن أتحدث أيضاً عن أن بوشكين هو الأول عندنا الذي هتف وهو يعاني لوعة الحنين متطلعاً ببصيرة نبوية إلى المستقبل:

أتراني سأشهد الشعب محرراً
والعبودية قد سقطت بأمر من القيصر!*

بل سأكتفي بالحديث عن حب بوشكين للشعب الروسي. لقد كان حباً يشمل كل شيء، حباً لم يسبق لأحد قبله أن عبّر عن مثله. «لا تحببني أنا، بل أحبب ما يخصني» هذا ما يقوله لكم الشعب دائماً عندما يريد أن يوقن بصدق حبكم له.

إن حب الشعب بمعنى الإشفاق عليه لأنه يرزح تحت عبء الحاجة والفقر والمعاناة أمر يقدر عليه أي واحد من «السادة»، ولا سيما إذا كان من فئة الإنسانيين والمتنورين أوربياً. ولكن الشعب ليس بحاجة إلى أن يحبوه بسبب معاناته وحدها، بل أن يحبوه هو نفسه. ما معنى أن يحبوه هو نفسه؟ إنه يقول لك: «أحبَّ، ما أحبه أنا، وأجِلّ ما أُجلُّه أنا»؛ هكذا سيجيبكم الشعب، وإلّا فإنه لن يعترف بكم على أنكم منه، مهما بلغت درجة حزنكم من أجله. كما أنه يَتبيَّن الزيف دوماً أياً كانت الكلمات البائسة التي تغرونه بها. لقد أحب بوشكين الشعب كما كان الشعب يطلب بالضبط، ولم يكن يخمن تخميناً كيف ينبغي أن يحب الشعب، كما لم يكن يُعِدّ نفسه لذلك، ولم يكن يتعلم ذلك؛ بل تبيّن فجأة أنه هو الشعب. لقد انحنى أمام الحقيقة الشعبية، وأقر أن الحقيقة الشعبية هي حقيقته الذاتية. وبصرف النظر عن جميع عيوب الشعب، وعن عاداته الذميمة الكثيرة، استطاع بوشكين أن يميز جوهر روحه العظيم، في الوقت الذي لم يكن فيه أحد تقريباً ينظر إلى الشعب هكذا، واحتضن هذا الجوهر الشعبي بروحه متخذاً منه مثله الأعلى. وكان هذا في الوقت الذي كان فيه أكثر محبي الشعب الروسي إنسانيّةً، وأكثرهم تطوراً على الطريقة الأوربية، يعبرون بصراحة عن أسفهم لأن شعبنا على هذه الدرجة من الانحطاط، ولأنه لا يستطيع بحال من الأحوال أن يرتفع إلى مستوى جمهور الشارع الباريسي؛ وفي الحقيقة كان هؤلاء المحبون يحتقرون الشعب على الدوام، والمهم في الأمر أنهم كانوا يؤمنون بأنه عبد؛ ويرون في عبوديته عذراً له في سقوطه، ولكن لم يكن بوسعهم أن يحبوا عبداً؛ فالعبد، أياً كان الأمر يبعث على الشعور بالتقزز. وكان بوشكين أول من أعلن أن الإنسان الروسي ليس عبداً، وأنه لم يكن كذلك قط، بصرف النظر عن العبودية التي دامت قروناً. لقد كانت هناك عبودية، ولكن لم يكن ثمة عبيد (على العموم، طبعاً، في الإجمال، وليس في الاستثناءات المفردة) هذه كانت مقولة بوشكين. لقد كان بوشكين يستدل حتى بمظهر الفلاح الروسي وبمشيته على أنه ليس عبداً، ولا يمكن أن يكون عبداً(مع أنه موجود في حالة عبودية)، وهذه السمة في بوشكين تشهد على حبه العميق المباشر للشعب.

(*) مقبوس غير دقيق من قصيدة بوشكين «القرية». (ن). ويشير دوستويفسكي هنا إلى إلغاء نظام القنانة في إطار «الإصلاح الفلاحي» الذي أجرته الحكومة القيصرية 1861. (م).

وكان يُقرُّ أن شعبنا (ومرة أخرى أقول: في الإجمال، بغض النظر عن الاستثناءات الدائمة التي لا يمكن تفاديها) يحوز شعوراً سامياً بالكرامة الذاتية؛ وقد تنبأ بعزة النفس الهادئة التي سيتلقى بها شعبنا تحريره من القنانة، وهو أمر لم يفهمه، على سبيل المثال، أبرز الأوربيين الروس المثقفين، الذين جاؤوا بعد بوشكين بكثير، وكانوا يتوقعون شيئاً مختلفاً تماماً من شعبنا. أجل كانوا يحبون الشعب بصدق وحرارة، ولكن على طريقتهم الخاصة، أي على الطريقة الأوربية. كانوا يصرخون محتجين على حالة الشعب الوحشية وعلى أوضاعه الوحشية وهو يرزح تحت نير القنانة ولكنهم كانوا يؤمنون، من صميم القلب، بأن شعبنا وحش فعلاً. وفجأة وجد هذا الشعب نفسه حرّاً، وتلقى ذلك بعزة نفس رجولية، ومن دون أي نزوع إلى إهانة مالكيه السابقين: «أنت في حالك وأنا في حالي، وإذا كنت تريد تعالَ إليّ، وكل جميل منك سأقابله دائماً بالتقدير» أجل، لقد غدا فلاحنا عندما تحرر كائناً مستغرباً يثير الحيرة لدى الكثيرين، بل إن كثيرين قرروا أن السبب في هذا يعود إلى تخلفه وبلادته، وهو من بقايا عبوديته السابقة. هكذا هو الأمر في أيامنا فكيف كان في زمن بوشكين؟ ألم أسمع أنا نفسي في شبابي من أشخاص تقدميين و«مختصّين» أن شخصية سافيليتش في قصة بوشكين «ابنة الضابط»، وهو عبد لدى ملّاك الأراضي من آل غرينيف، إذ يرتمي على قدمي بوغاتشوف ويتوسل إليه أن يرأف بالسيد الصغير، و«من أجل العِبرة وبث الرعب في النفوس من الأحسن شنقه هو، الشيخ»، أن هذه الشخصية لا تمثّل شخصية العبد فقط، بل تمثل أيضاً تمجيداً للعبودية الروسية!

كان بوشكين يحب الشعب لا بسبب معاناته فحسب. فالمعاناة تستدعي الشفقة، والشفقة غالباً ما تقترن بالاحتقار. لقد كان بوشكين يحب كل ما يحبه الشعب، ويُجِلّ كل ما يجلّه. كان يحب الطبيعة الروسية حتى الهيام، حتى الذوبان حناناً، ويحب القرية الروسية. هو لم يكن واحداً من الأسياد الرحماء والإنسانيين الذين يشفقون على الفلاح بسبب حظه المنكود، بل كان إنساناً يتقمص بقلبه حالة الإنسان البسيط وجوهره، حتى ليكاد يتقمص شخصه. إن الانتقاص من قيمة بوشكين بصفته شاعراً مخلصاً للشعب في تاريخه القديم، في عصوره الغابرة، أكثر مما هو مخلص له في حقيقة الأمر إنما هو حكم خاطئ وخالٍ من المعنى. إذ نجد في تلك الموضوعات التاريخية القديمة تعبيراً عما يحبه الشعب، وعمّا يقدره دائماً وأبداً، سواء الآن أو في المستقبل، وليس في عصر تاريخي غابر فحسب. فالسبب الرئيس الذي يجعل شعبنا يحب تاريخه هو أن يرى فيه ثبات تلك القدسية، التي حافظ وما زال يحافظ على إيمانه بها حتى الآن على الرغم من جميع الآلام والمحن التي عاناها. إن جميع الشخصيات التاريخية التي صورها بوشكين، بدءاً من شخصية مدون الحوليات المهيب الجليل في مسرحية «بوريس غودونوف» وحتى شخصيات مرافقي «بوغاتشوف» هي شخصيات تمثل

الشعب بصفتها تمثل جوهره بالذات. إن إبداعات بوشكين مسكونة بالروح الروسية، والعِرْق الروسي ينبض في كل ثناياها. ففي تلك الأغاني العظيمة الفريدة المنقطعة النظير، التي تُسمّى أغاني السلاف الغربيين، مع أنها، في الحقيقة كما هو واضح، نتاج الروح الروسية العظيمة، قد تجسدت كل أبعاد النظرة الروسية إلى الأشقاء السلاف، وانبثت فيها كل حرارة القلب الروسي، وبرز فيها مجمل نظرة الشعب إلى العالم التي ما زالت محفوظة حتى الآن في أغانيه، وملاحمه الشعبية الغنائية، وحكاياته المأثورة، وقصصه التاريخية، وعُبّر فيها عن كل ما يحبه الشعب ويجلّه، وعن المثل العليا لدى أبطاله وقياصرته وحُماته الشعبيين، وأولئك الذين يحزنون لأحزانه، وعن صور الرجولة، والاستكانة والتضحية. أما دعابات بوشكين البديعة من أمثال: ثرثرة فلّاحين مخمورين، أو قصة الدب الذي قتلوا دبّتهُ، فهي تعبير بأسلوب خاص عن مشاعر الحب والود والتأثر التي تسم نظرة بوشكين إلى الشعب. ولو امتد العمر ببوشكين لكان قد ترك لنا من الروائع الفنية، التي تعبر عن الفهم الشعبي، ما لعله كان سيختصر بتأثيره الأوقات والأزمنة اللازمة لانتقال كل فئة من مثقفينا - المتعالية حتى الآن على الشعب بكبرياء أوربيتها- إلى مواقع إدراك الحقيقة الشعبية، والقوة الشعبية والرسالة الشعبية. وهذا الانحناء بالذات أمام حقيقة الشعب هو ما أشاهده جزئياً لدى نكراسوف في أقوى أعماله (وللأسف ربما أكون الوحيد الذي يشاهد هذا بين محبيه). ولشدّ ما هو عزيز وغالٍ عندي أنه «كان يحزن لأحزان الشعب» وأنه تحدث كثيراً وبلوعة شديدة عن الحزن الشعبي، ولكن ما هو أعز عندي وأغلى أنه كان في أشد لحظات حياته ألماً وبهجة، وبغضّ النظر عن المؤثرات المضادة، وحتى عن قناعاته الشخصية، كان ينحني بكل كيانه أمام الحقيقة الشعبية، وقد عبر عن هذا في أفضل أعماله. وبهذا المعنى بالذات عددته الشاعر الذي أتى بعد بوشكين وليرمنتوف حاملاً معه كلمته الجديدة جزئياً، كما فعل سابقاه (وذلك لأن «كلمة» بوشكين ما زالت بالنسبة إلينا حتى الآن جديدة، وليست جديدة فحسب، بل هي ما زالت غير مستوعبة، وغير مُفسّرة، وتُعَدّ من سقط المتاع القديم).

وقبل أن أنتقل للحديث عن نكراسوف سأقول كلمتين عن ليرمنتوف لأسوغ نظرتي إليه بصفته، هو أيضاً، يؤمن بالحقيقة الشعبية. ليرمنتوف كان بايرونياً بالطبع، ولكنه، بحكم قوة شاعريته الأصيلة العظيمة كان بايرونياً متميزاً: ساخراً، ونزوياً، ومتذمراً، ومسكوناً على الدوام بعدم الإيمان حتى بإلهامه الذاتي وببايرونيته الشخصية الخاصة. ولكنه لو كان كفَّ عن الانشغال بشخصية المثقف الروسي المريضة، الذي تعذّبه أوربيّته، لكان قد انتهى على الأرجح إلى إيجاد المخرج في الانحناء أمام الحقيقة الشعبية، شأنه في ذلك شأن بوشكين، وتدل على هذا إشارات دقيقة واضحة. ولكن الموت هنا أيضاً وقف عائقاً دون ذلك.

وبالفعل، فإن ليرمنتوف متجهم ونزوي في جميع أشعاره؛ إنه يريد أن يقول الحقيقة، ولكنه غالباً ما يكذب، وهو نفسه يعرف هذا ويتعذب لأنه يكذب، ولكن ما إن يلامس الشعب حتى يصبح متهللاً وصافياً. إنه يحب الجندي الروسي والقوقازي، ويُجلُّ الشعب. وها هو يكتب ذات مرة أنشودة خالدة يروي فيها كيف قتل التاجرُ الشابُ كالاشنيكوف النبيلَ العاملَ في قوات القيصر الخاصة كيريبييفتش دفاعاً عن شرفه المنتهك؛ وكيف أجاب القيصر إيفان عندما استدعاه، وسأله عن الأمر، وهو ينظر إليه بعينيه المخيفتين، بأنه قتل الخادمَ لدى القيصر كيريبييفتش «بملء إرادته وليس على كره منه». وهل تذكرون أيها السادة «العبد شيبانوف»؟ شيبانوف كان عبداً للأمير الروسي كوربسكي الذي هاجر من روسيا

في القرن السادس عشر، وكان يرسل من بلد الهجرة، حيث كان يعيش بأمان رسائل للقيصر إيفان*، ذاك القيصر نفسه، يعبر له فيها عن معارضته التي تكاد تصل إلى حد السباب. وذات مرة أمر عبده شيبانوف أن يحمل رسالة إلى موسكو ويسلمها للقيصر شخصياً. ونفذ العبد الأمر؛ اعترض طريق القيصر الخارج من الكاتدرائية في ساحة الكرملين محاطاً بأعوانه وسلمه رسالة سيده الأمير كوربسكي. فرفع القيصر صولجانه ذا الطرف الحاد وغرزه بكل قوته في قدم شيبانوف واتكأ عليه وأخذ يقرأ الرسالة. وظل شيبانوف واقفاً بقدمه المطعونة من دون أن يحرك ساكناً. وعندما كتب القيصر رداً على رسالة كوربسكي قال له فيما قاله: «اخجل من عبدك شيبانوف». وكان معنى ذلك أنه هو نفسه قد خجل من العبد شيبانوف. ولعل شخصية «العبد» الروسي هذه قد أحدثت أثراً صاعقاً في نفس ليرمنتوف. فبطله كالاشنيكوف يتكلم مع القيصر من دون أن يلوم نفسه أو يؤنبها لقتله كيريبييفتش، مع أنه يعرف أن الإعدام المحتم بانتظاره؛ ويقول للقيصر «الحقيقة الصريحة كلها». يعترف له بأنه قتل خادمه الأثير «بملء إرادته، وليس على كره منه». وأكرر لو امتد العمر بليرمنتوف لكان لدينا شاعر عظيم يعترف أيضاً بالحقيقة الشعبية. ولربما أصبح هو «المُعبِّر» الحقيقي عن «الحزن الشعبي». ولكن هذا اللقب كان من نصيب نكراسوف.

إنني مرة أخرى، لا أساوي بين نكراسوف وبوشكين، ولا أقيس بالذراع لأحدد مَن الأعلى من الآخر ومن الأدنى؛ لأن المقارنة لا تجوز هنا، بل لا يجوز التفكير بها أصلاً. فبوشكين ما زال حتى الآن، من حيث اتساع عبقريته الروسية وعمقها، كالشمس التي تنير عالمنا الفكري الروسي كله. إنه بشير المستقبل العظيم الذي لم نفهمه بعد. أما نكراسوف فإنه مجرد نقطة صغيرة بالقياس إليه؛ إنه كوكب صغير، ولكنه منبثق من هذه الشمس العظيمة.

(*) المقصود: المراسلات بين الأمير الروسي المهاجر إلى ليتوانيا أندريه كورسكي (1528–1583) والقيصر الروسي إيفان الرهيب (1530–1584) التي بدأت عام 1564. (ن).

وبصرف النظر عن جميع القياسات: مَن الأعلى ومَن الأدنى، لقد كُتِبَ لنكراسوف الخلود، وهو جدير به كل الجدارة، وقد سبق لي أن بيّنتُ السبب، وهو انحناؤه أمام الحقيقة الشعبية، ولم يكن في هذا يقلّد أحداً، بل لم يكن يفعل هذا عن وعي تام، إنما عن حاجة داخلية مدفوعة بقوة لا تُردّ. ومما يزيد من تميز نكراسوف في هذا الصدد أنه كان طوال حياته واقعاً تحت تأثير أشخاص، حتى وإن كانوا يحبون الشعب ويقاسمونه أحزانه، وربما بإخلاص شديد، ولكنهم لم يكونوا يعترفون البتة بأن الحقيقة هي في الشعب، بل كانوا دائماً يضعون ثقافتهم الأوربية في مرتبة أعلى بما لا يقاس من الحقيقة المتضمَّنة في الروح الشعبية. وغالباً ما كان هؤلاء الناس يتمنون لشعبنا، بكل ما يكنونه له من حب، ولكن من دون أن ينفذوا إلى أعماق النفس الروسية، ومن دون أن يعرفوا ما تنتظره وما تطلبه، يتمنون له ما يمكن أن يوقعه في مصيبة. أليسوا هم من أنكروا تماماً تقريباً ما اتسمت به الحركة الشعبية الروسية خلال العامين الأخيرين من نهوض في الروح الشعبية ارتقى بها إلى مرتبة عالية ربما لم تعهدها من قبل، مُظهرةً كل هذا الزخم وهذه القوة*، مما يدل على توحدها السليم والقوي والثابت والحي حتى الآن، في تلك الفكرة العظيمة نفسها، وكأنها تتكهن هي ذاتها برسالتها المستقبلية. وهم لا يكتفون بإنكار حقيقة الحركة الشعبية، بل يكادون يعدون هذه الحركة عودة إلى الماضي وظاهرة تدل على غياب كامل للوعي، وعلى تخلف الشعب الروسي تخلفاً تأصل على مدى قرون. أما نكراسوف فقد كان، بصرف النظر عن ذكائه الحاد جداً والمتميز، محروماً من التعليم الجاد، أو فلنقل إن القسط الذي ناله من التعليم لم يكن كبيراً وهو لم يخرج طوال حياته من دائرة تأثيرات معروفة** بل لم تكن لديه القوة الكافية للخروج منها. ولكن كانت لديه قوة ذاتية أصيلة كامنة في أعماق نفسه لم تفارقه قط، وهي حبه الحقيقي والشديد والمباشر - وهذا هو الأهم - للشعب. لقد كان يتألم بكل كيانه لآلامه، ولم يكن يرى فيه مجرد كيان أذلّته العبودية، وغدا شبيهاً بوحوش البرية، بل استطاع أن يدرك، بقوة حبه، ومن غير وعي منه تقريباً، جمال الشعب وقوته، وذكاءه ووداعته وهو في غمرة معاناته؛ كما إنه كان يؤمن جزئياً برسالة الشعب المستقبلية. نعم، كان نكراسوف يمكن أن يخطئ في أمور عديدة وهو يتصرف عن وعي. وقد أمكنه أن يهتف في المقطوعة الشعرية المرتجلة التي

(*) إلماعاً إلى الحماسة التي أظهرها الشعب الروسي عند إعلان حرب البلقان في الثاني عشر من نيسان عام 1877. (ن).

(**) يشير دوستويفسكي هنا في المقام الأول إلى تأثير بيلينسكي (انظر الهامش 10) ومن بعده تأثير تشيرنيشيفسكي (انظر الهامش 120) ودوبرولوبوف (انظر الهامش 24) وسالطيكوف شيدرين (انظر الهامش 43). (ن).

نُشرت مؤخراً للمرة الأولى معبراً عن لوم مشوب بالقلق وهو يتأمل الشعب الذي تحرر من حالة القنانة:

..........ولكن هل الشعب سعيد؟

إن حس قلبه الشديد الرهافة أشعره بالأسى الذي يعانيه الشعب، ولكن لو سألوه «ما الذي تتمناه للشعب، وكيف يتحقق ذلك؟» لربما كان سيرد بجواب بعيد جداً عن جادة الصواب بل ربما كان جواباً يفضي إلى الوبال. ولا يجوز، بالطبع، لومه على ذلك: فالفكر السياسي عندنا ما زال ضيقاً جداً، وأكرر أن نكراسوف ظل طوال حياته واقعاً تحت تأثير آخرين، ولكنه بقلبه، وبموهبته الشعرية العظيمة، كان ينحاز انحيازاً جامحاً في بعض قصائده العظيمة إلى جوهر الشعب بالذات. وبهذا المعنى كان نكراسوف شاعراً شعبياً. إن أي شخص آت من وسط الشعب سيفهم الكثير مما يقوله نكراسوف، على أن يكون قد نال قسطاً من التعليم، مهما كان هذا القسط ضئيلاً. ولكن سؤالنا هو: هل يفهم الشعب الروسي بأسره نكراسوف الآن؟ إنه، بلا شك، سؤال لا معنى له. فما الذي سيفهمه «الشعب البسيط» من روائعه: «فارس لساعةٍ» و«هدوء» و«النساء الروسيات»؟ وحتى في قصيدته العظيمة «ڤلاس»، التي ربما تكون مفهومة للشعب، (ولكنها لا تلهمه أي شيء، لأن كل هذا شعر، والشعر قد خرج منذ مدة طويلة من الحياة المباشرة) سيميز الشعب، على الأرجح، إشارتين أو ثلاث إشارات زائفة. وما الذي سيستوعبه الشعب من إحدى أقوى قصائده التي يستثير فيها الهمم، وهي قصيدة «على الفولغا»؟ هنا روح بايرون الحقيقية ونبرته. أجل، ما زال نكراسوف حتى الآن شاعر الانتلجينسيا الروسية، الذي كان يتحدث بحب وحميّة عن الشعب وآلامه إلى هذه الانتلجينسيا نفسها. ولا أقول: «في المستقبل»، لأن الشعب في المستقبل سيميز نكراسوف، وسيدرك آنذاك أنه كان عندنا في وقت ما سيدٌ روسيٌ طيب كان يبكي بدموع سخية حزناً على الشعب المنكوب؛ وفي أقسى ساعات حياته لم يكن بوسعه أن يفكر بما هو أفضل من اللجوء إلى الشعب لكي يطهِّر قلبَه المعذب في غمرة حبه الجارف له، مبتعداً عن ثروته وعن المغريات الأثيمة في حياة الأسياد التي يعيشها، وذلك لأن حبه للشعب كان هو مخرجه من حزنه الشخصي على نفسه بالذات.

وقبل أن أشرح كيف أفهم أنا هذا «الحزن الشخصي» لدى شاعرنا الغالي الراحل على نفسه لا يمكنني ألّا ألفِتَ الانتباه إلى قضية طابعية ومثيرة للاهتمام انعكست على جميع صحفنا تقريباً في هذه الأيام بعد وفاة نكراسوف، وفي جميع المقالات تقريباً التي تحدثت عنه.

الشاعر والمواطن.
الأحاديث العامة عن نكراسوف إنساناً

ما إن كانت الصحف جميعها تبدأ بالحديث عن نكراسوف بمناسبة وفاته، ومراسم دفنه، وما إن كانت تبدأ بتحديد أهميته حتى تضيف على الفور، جميعها بلا استثناء، بعض التصورات عن «عملانية» ما لدى نكراسوف، وعن نقائص ما في سلوكه، بل حتى عن عيوب ما لديه، وعن ازدواجية في الصورة التي خلفها لنا عن نفسه. بعض هذه الصحف لمحّت مجرد تلميح طفيف إلى هذا الموضوع فيما لا يتجاوز السطرين، ولكن المهم أنها لمّحت، وكأنها محكومة بضرورة لا يمكن تفاديها. أما الصحف الأخرى التي تحدثت عن نكراسوف باستفاضة أكبر، فقد أتت بما هو أشد غرابة. وبالفعل، فإنها إذ أحجمت عن تدبيج اتهامات مفصّلة، وكأنها تتفادى ذلك انطلاقاً من مشاعر الإجلال العميق والصادق التي تكنها للفقيد، انبرت، مع ذلك لتبرئته، مماجعل الأمر أكثر التباساً. وكان ثمة سؤال يفرض نفسه عفوياً: «مِمَّ أنتم تبرئونه؟ فإذا كنتم تعرفون شيئاً فلا داعي لإخفائه، ونحن نريد أن نعرف: هل هو بحاجة إلى تبرئتكم له؟» هذا هو السؤال الذي برز بقوة. هم لم يشاؤوا أن يصوغوا اتهامات، ولكنهم سارعوا إلى تقديم تبريرات وتحفظات، وكأنهم يرغبون في الاستعجال لاستباق أحد ما، وأكرر أن المهم هنا هو أنهم يتصرفون وكأنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال أن يتفادوا ذلك، مع أنهم ربما كانوا يرغبون في تفاديه. وهذه الحالة، على العموم، شديدة الطرافة، ولكن إذا أنعمتم فيها النظر فإنكم، أياً كنتم، ستنتهون، من دون شك، بعد قليل من التفكر العميق إلى استنتاج مفاده أن هذه الحالة طبيعية تماماً، لأننا ما إن نبدأ الحديث عن نكراسوف الشاعر حتى نجد بالفعل أننا لا نستطيع البتة تجاوز الحديث عن نكراسوف الإنسان، لأن الشاعر والمواطن مترابطان في شخص نكراسوف أشد الترابط، ولا يمكن تفسير أحدهما بمعزل عن الآخر، ولكن إذا أخذناهما معاً نجد أن كلاً منهما يفسر الآخر، بحيث إننا ما إن نبدأ بالحديث عنه بصفته شاعراً حتى ننتقل عفوياً إلى الحديث عنه بصفته مواطناً، وسنشعر في أثناء ذلك كأننا مرغمون على هذا الأمر، ويجب علينا القيام به، وليس بوسعنا تفاديه.

إذاً ما الذي يمكننا أن نقوله، وما الذي نراه بالتحديد؟ إنهم ينطقون بكلمة «عملانية» نكراسوف، أي قدرته على تدبير شؤونه، و... فقط، ثم يسارعون إلى تقديم مبررات: فهو بحسب أقوالهم، «كان يعاني، وقد ضيق الوسط الخناق عليه منذ الطفولة»، وقد قاسى الكثير

من المصائب منذ فتوته وهو في بطرسبورغ، حيث عاش منبوذاً محروماً من المأوى، ومن ثم أصبح «عملانياً» (أي أنه بحسب زعمهم، لم يكن قادراً على ألّا يصبح كذلك). وثمة آخرون يذهبون إلى أبعد من ذلك، ويلمّحون إلى أن نكراسوف لم يكن بوسعه، على الأرجح، لولا هذه «العملانية» أن يقوم بأعمال ذات فائدة واضحة ومنفعة عامة. فهو على سبيل المثال، قد نجح في إصدار مجلة، وفي أمور مشابهة... ولكن ما معنى هذا؟ هل يعني أن الغايات الجيدة تسوِّغ الوسائل السيئة؟ وهل يقال هذا ونحن نتحدث عن نكراسوف بالذات، هذا الإنسان الذي هز القلوب وأطرب النفوس بأشعاره، وأذكى الحنين إلى الخير والجمال. طبعاً كل هذا يقال من أجل التماس العذر له، ولكن يبدو لي أن نكراسوف ليس بحاجة إلى مثل هذه الأعذار؛ فالأعذار في مثل هذا المقام تنطوي دائماً على ما يشبه الإهانة، وتؤدي إلى تعتيم صورة المعذور والاستخفاف بقيمته إلى حد الابتذال. وبالفعل، ما إن أبدأ بالتماس العذر لشخص ما على «ازدواجيته وعملانيته» حتى أبدو وكأنني أصر على أن هذه الازدواجية يمكن أن تكون طبيعية في حالات معينة، بل يمكن أن تكون شبه ضرورية. وإذا كان الأمر هكذا فلا بد أن نتقبل شخصية الإنسان الذي يقوم اليوم بالتمرغ على أعتاب الحرم الذي يتعبد فيه وهو يبدي الندم والتوبة ويصيح بلوعة: «أنا سقطت، أنا سقطت»*، ويعبر عن ذلك في أشعار رائعة خالدة يكتبها في تلك الليلة، وما إن ينجلي الليل بصبح اليوم التالي وتجف الدموع، حتى يعاود من جديد ممارسة «عملانيته»، زاعماً أنها، بقطع النظر عن أي شيء آخر، ضرورية ولا غنى عنها، فما الذي ستعنيه في هذه الحالة كل هذه الزفرات والصيحات، التي تجسدت في أشعاره؟ لن تكون عندئذ أكثر من «فن من أجل الفن» وفي أكثر معاني هذه المقولة ابتذالاً، إذ إنه هو الذي يمتدح هذه الأشعار، وهو الذي يتأملها باستمتاع، وهو راضٍ عنها تماماً وها هو يعمد إلى نشرها معوّلاً على أنها: ستضفي ألقاً على المجلة، وتهيّج القلوب الفتية. والآن، إذا نحن عمدنا إلى تبرير كل هذا من دون أن نشرح ونفسر، فإننا نعرض أنفسنا لخطر الوقوع في خطأ فاحش، ونخلق حالة ارتباك وحيرة؛ وإذا سألَنا سائل: من تدفنون؟ سنجد أنفسنا، نحن المشيعين، مرغمين على أن نجيب: إننا ندفن «أبرز ممثل في الوجود للفن من أجل الفن». ولكن هل كان الأمر هكذا فعلاً؟ لا، في الحقيقة لم يكن الأمر هكذا، بل كنا في الحقيقة ندفن «المعبّر عن أحزان الشعب» والمعذَّب الأبدي الذي يعبّر دائماً وأبداً ومن دون كلل عن معاناته الذاتية، ولم يستطع قط أن يُطَمْئِن نفسه، وكان يرفض باشمئزاز ومع جلد للذات التصالح الرخيص مع النفس.

(*) الصورة هنا مأخوذة من أشعار نكراسوف؛ ويورد ها دوستويفسكي ليعارض بها بعض الآراء التي قيلت عند قبر نكراسوف في أثناء التشييع، والتي وردت في صحف تلك الأيام. (ن).

يجب إيضاح القضية، وإيضاحها بصدق وبلا محاباة، وما سيتضح ينبغي اعتماده كما هو، بصرف النظر عن أي شخص، وأية تصورات لاحقة. يجب أن نوضح بالتحديد جوهر القضية كله بقدر المستطاع، لكي نحدد من هذه الإيضاحات بأكبر قدر من الدقة شخصية الفقيد وطباعه؛ فهذا ما تطالبنا به قلوبنا، لكي لا يبقى لدينا عنه أي التباس في الفهم يؤدي من غير قصد إلى تلطيخ ذكراه، ولا يندر أن يلقي ظلاً غير لائق على صورته السامية.

أنا شخصياً لم أكن أعرف إلّا القليل عن حياة الراحل «العملية»، ولذا فإنني لا أستطيع أن أتناول هذا الجزء الضعيف الاحتمال من القضية، ولكن حتى لو كنت أستطيع لما رغبت في هذا، وذلك لأنني إذا فعلت فسأغوص مباشرة في ما أسميه «نميمة». إذ إنني واثق كل الثقة (وكنت من قبل واثقاً أيضاً) بأن نصف ما يقال عن الراحل، على الأقل، أو ثلاثة أرباعه، كذب محض. كذب وهراء ونميمة. فشخص ذو عزيمة قوية وشخصية متميزة مثل نكراسوف لا يمكن ألّا يكون له أعداء. ثم إن الوقائع التي حصلت فعلاً، والأحداث التي جرت في الحقيقة لا يمكن، أحياناً، أن تنجو من المبالغات. ولكن حتى إذا اعتمدنا هذه المقولة فإننا سنرى أن شيئاً ما يبقى كما هو، فما هو هذا الشيء؟ إنه شيء ما متجهم وكئيب، ومؤلم بلا شك، وإلّا فما الذي تعنيه هذه الزفرات والصرخات التي يطلقها، وهذه الدموع التي يذرفها، وهذا الإقرار «بأنه سقط»، وهذا الاعتراف الحار أمام طيف والدته؟ أهو جلد للذات؟ أهو إعدام ذاتي؟ مرة أخرى لن أُقدم على الخوض في الجانب الضعيف الاحتمال من القضية، ولكنني أظن أن هذا النصف التجهم والمؤلم من حياة شاعرنا كان قد تنبأ به هو نفسه على نحو ما في فجر حياته، في إحدى مقطوعاته الشعرية التي سوّدها، على ما يبدو، قبل تعرفه ببيلينسكي (ثم صقلها فيما بعد فاتخذت هذه الصيغة التي ظهرت بها في الصحافة)، وهاكم المقطوعة:

كانت أنوار المساء تُضاء
والريح تعول والمطر ينهمر
عندما دخلتُ العاصمة
قادماً من مقاطعة بولتافا
بيدي كنت أمسك عصا طويلة
علّقت عليها جِراباً فارغاً
وعلى كتفي فروة ضأنٍ صغيرة
وفي جيبي خمسة عشر قرشاً
لا مال، ولا جاه، ولا عشيرة
ضئيل الجِرم، مضحك المظهر

ولكن بعد مضي أربعين عاماً
أصبح في جيبي مليون *

مليون - هذا هو عفريت نكراسوف! ماذا إذاً؟ هل كان مغرماً بالذهب، والترف، والملذات، ومن أجل الحصول عليها انغمس في «العملانية»؟ لا، الأرجح أن هذا العفريت كان ذا طابع آخر. لقد كان شيطاناً متجهماً ومُذِلاً إلى أقصى حد. كان هذا عفريت الكبرياء والتوق إلى الاكتفاء الذاتي، والحاجة إلى إحاطة الذات بسور متين يفصلها عن الناس، والنظر باستقلالية وطمأنينة إلى حقدهم وتهديداتهم. وأظن أن هذا العفريث قد تعلق بقلب نكراسوف منذ الطفولة، منذ أن وجد نفسه وهو في الخامسة عشرة من العمر، في شوارع بطرسبورغ شبه هارب من أبيه. كانت نفس الصبي الوجلة والأبية مقهورة ومجروحة، فهي تأبى أن تبحث عن حُماة لها.وتأنف من الدخول في وفاق مع هذا الجمع من الغرباء. وليس ذلك لأن عدم الإيمان بالناس قد تسلل إلى قلب الفتى في ذاك الوقت المبكر، بل على الأرجح أن السبب هو الشعور المبكر جداً، ومن ثم الخاطئ بالارتياب بهم. ولعله كان يقول لنفسه: فليكن أنهم ليسوا أشراراً، وليسوا مخيفين إلى هذا الحد كما يقولون عنهم، ولكنهم كلهم مع ذلك حثالة ضعيفة وجبانة، ولذا فإنهم يقتلون، من دون حقد، حالما يصل الأمر إلى المساس بمصلحتهم. وربما عندئذ بالضبط بدأت أحلام نكراسوف، وربما عندئذ، وهو في الشارع، انتظمت هذه المقطوعة في ذهنه: «أصبح في جيبي مليون».

كان هذا توقاً إلى الاكتفاء الذاتي الانفصالي المتجهم العبوس كي لا يكون متعلقاً بأحد. وأظن أنني لا أخطئ في هذا؛ فأنا أستحضر في ذاكرتي بعضاً مما خلفه في نفسي تعّرفي الأول به. وهذا، على الأقل، ما ظل يخيّل إلي طوال حياتي فيما بعد. بيد أن هذا العفريت كان عفريتاً سافلاً. فهل كان بوسع نفس نكراسوف أن تتوق إلى مثل هذا الاكتفاء الذاتي؛ هذه النفس التي كانت تتجاوب بقوة مع كل ما هو مقدس، ولم تفقد قط إيمانها به. وهل بمثل هذا الاكتفاء الذاتي تحمي النفوس الموهوبة جداً ذواتها؟ إن أمثال هؤلاء الناس يسلكون دروبهم بأقدام حافية وأيادٍ فارغة، فيما قلوبهم صافية نيّرة. واكتفاؤهم الذاتي لا يُنال بوساطة الذهب. فالذهب فظاظة، وعنف واستبداد! الذهب يمكن أن يبدو وسيلة للاستكفاء في أعين تلك الجموع الضعيفة الجبانة، التي كان نكراسوف يحتقرها. أَوَ يمكن لصور العنف، وبعد ذلك

(*) الأبيات مأخوذة من قصيدة بعنوان «السرّ (تجربة أنشودة معاصرة)». وقد اقتبس دوستويفسكي المقاطع الثلاثة الأولى من الجزء الثاني منها، الذي يتحدث فيه عن موت شخص غني جمع ثروته المليونية بطرق غير مشروعة. والأبيات التي يوردها دوستويفسكي هي بداية اعترافٍ يدلي به الغني وهو يحتضر، ولكنها تبدو في هذا المقبوس وكأنها اعتراف يدلي به الشاعر نفسه. (ن).

التوق إلى الملذات الجسدية والتهتك أن تألف العيش في مثل هذا القلب، في قلب إنسان كان يمكن أن يدعو إلى شيء آخر: «دع كل شيء، لا تأخذ إلّا عصاك، واتبعني»*.

خذني إلى معسكر الذين يستشهدون
في سبيل قضية الحب العظمى**

ولكن الغلبة كانت للعفريت وبقي الإنسان في مكانه، ولم يذهب إلى أي مكان آخر.

وبالمقابل دفع لقاء ذلك ابتلاءه بالمعاناة طوال حياته. إننا في الواقع لا نعرف شيئاً سوى أشعاره، ولكن ماذا نعرف عن صراعه الداخلي مع عفريته، الصراع المضني من دون شك، والذي استمر طوال حياته؟ إنني لا أتحدث هنا عن أفعال نكراسوف الخيّرة: فهو لم ينشر عنها شيئاً، ولكنها كانت موجودة من دون شك، وقد شرع الناس يشهدون بإنسانية ورقة هذه النفس «العملية». وقد نشر السيد سوفورين شيئاً من ذلك، وأنا واثق بأن كثيراً من الشهادات الطيبة الأخرى ستظهر في المستقبل، ولا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك. سيقولون لي: «ها أنت أيضاً تبرر، وبطريقة أرخص منا» لا، أنا لا أبرر، أنا أشرح فقط، وقد توصلت إلى أنني أستطيع الآن أن أطرح سؤالاً نهائياً يحسم كل شيء.

شاهد لمصلحة نكراسوف

عَجِبَ هاملت في زمانه من دموع الممثل الذي بكى، وهو يؤدي دوره، على امرأة اسمها هيكوبة. وتساءل هاملت: «وبم تهمه هيكوبة؟»*** وها هو السؤال يُطرح على نحو مباشر: هل كان نكراسوف ممثلاً كذاك، أي هل كان قادراً على أن يبكي بصدق على نفسه، وعلى ذاك المُقدّس الروحي الذي حرم نفسه بنفسه منه، وقادراً من ثم على أن يعبّر عن أساه (أساه الحقيقي) في أشعار خالدة الجمال، ثم ما يلبث أن يسلو في اليوم التالي... متعزياً بجمال أشعاره؛ بجمال أشعاره فحسب؛ بل الأكثر من ذلك: أن ينظر إلى جمال الأشعار هذا على أنه

(*) عبارة مركبة من نصوص إنجيلية مختلفة (انظر متّى 16/ 24 ومرقص 6/ 7-9). (ن).

(**) من قصيدة «فارس لساعة».

(***) انظر مناجاة هاملت في خاتمة المشهد الثاني من الفصل الثاني: «... وذلك كله من أجل لا شيء! من أجل هيكوبة! وما لهيكوبة عنده، أو له عند هيكوبة، فيبكي هكذا من أجلها...». (ن).

شيء «عملاني» من شأنه أن يكسبه ربحاً، ومالاً ومجداً، وأن يعمد إلى استعمال هذا الشيء لهذا الغرض؟ أم بالعكس، أي إن أسى الشاعر لم يكن يزول بعد قوله الشعر، ولم تكن أشعاره تجعله يسلو عن أساه؛ فجمالها، والقوة المتجسدة فيها كانا يضايقانه ويعذبانه، وإذا كان يسقط مرة بعد مرة، بحكم كونه عاجزاً عن التغلب على عفريته الأبدي، وعلى أهوائه التي ظلت طوال حياته تنتصر عليه فهل كان يستسلم بهدوء لسقوطه؟ أوَ لم يكن يستأنف إطلاق زفراته وصرخاته بزخم أقوى في ساعات ندمه المقدس الخفية، أوَ لم تكن هذه الزفرات والصرخات تتكرر وتزداد شدة في قلبه كل مرة، إلى أن استطاع هو نفسه أن يرى بوضوح في نهاية المطاف كم يكلفه عفريته هذا، وأي ثمن غالٍ قد دفعه لقاء تلك المنافع التي جناها منه؟ وباختصار: إذا كان بوسعه أن يتصالح على الفور مع عفريته، بل كان بوسعه حتى أن ينبري شخصياً لتبرير «عملانيته» في أحاديثه مع الناس، فهل كان هذا التصالح وهذه الطمأنينة دائمين أم بالعكس، كانا يختفيان من القلب في لحظة، مُخلِّفين في مكانهما شعوراً أشد حرقة بالألم والخجل وتبكيت الضمير؟ عندئذ - هذا إذا كان بالإمكان حل هذه المسألة- ماذا يتبقى لنا؟ لا يتبقى لنا عندئذ سوى أن ندينه لأنه، إذ عجز عن التغلب على المغريات التي تغويه، لم يضع حداً لحياته كما فعل ذاك المُبتلى الكهفي القديم، الذي عجز أيضاً عن التغلب على شيطان هواه الذي كان يعذبه، فطمر نفسه في الأرض حتى الحزام ومات[132] فهو، إذ لم يستطع طرد شيطانه من نفسه، استطاع، طبعاً، أن ينتصر عليه. وفي هذه الحالة فإننا، نحن أنفسنا، أي كل واحد منا، كان سيجد نفسه في وضع مُهين وكوميدي لو تجرأ على أن يتولى القيام بدور القاضي الذي ينطق بمثل هذه الأحكام. ومع ذلك فإن الشاعر الذي قال:

يمكنك ألّا تكون شاعراً
ولكنك ملزم بأن تكون مواطناً*

إنما اعترف هو نفسه بأنه يخضع لحكم الناس بصفتهم «مواطنين»، ونحن كأشخاص نخجل بالطبع، أن نحاكمه. إذ إننا نعرف أنفسنا، وكل منا يعرف حقيقة نفسه. نحن عن أنفسنا فقط لا نتحدث بصوت مسموع، ونخبئ سفالاتنا، التي نتهادن معها تماماً في داخلنا. أما الشاعر فربما كان يبكي ندماً على بعض أفعاله، التي إذا قمنا نحن بمثلها لا يتغضن لنا جبين. وما نعرفه نحن عن سقطاته، وعن عفريته، إنما نعرفه من أشعاره بالذات. ولولا تلك الأشعار التي لم يكن يخشى الجهر بها في حالات ندمه الصادق، لكان كل ما قيل عنه بصفته إنساناً، وكل ما قيل عن «عملانيته» وما شابه ذلك قد مات من تلقاء ذاته، وامّحى من ذاكرة الناس،

(*) مقبوس من قصيدة نكراسوف «الشاعر والمواطن» (1856). (ن).

وانحط مباشرة إلى مستوى النميمة، وبذا لن يكون الراحل بحاجة إلى أي تبرير على الإطلاق. وأشير بالمناسبة إلى أنه لو كان شخصاً «عملياً» وماهراً إلى هذا الحد في تدبير شؤونه، لوجد أنه ليس من «العملانية» في شيء واقعياً، جهره بزفراتِ وتأوهاتِ الندم، وبناء على ذلك نقول: لعله لم يكن «عملياً» بالقدر الذي يزعمه بعضهم. ومع ذلك، أكرر، إنه يجب أن يَمثُل أمام محكمة المواطنين، مادام هو نفسه قد اعترف بهذه المحكمة. وإذا كان جواب السؤال الذي طرحناه آنفاً وهو: هل الشاعر يسلو ويكتفي بأشعاره التي كان يجسد بها دموعه، وهل كان يتصالح مع ذاته إلى الحد الذي يبعث في نفسه قدراً من الطمأنينة كافيا للسماح له بأن يعود إلى الانغماس في «عملانيته» من جديد بدون أن يساوره أي قلق؟ أم بالعكس: أي أن تصالحه مع ذاته ليس سوى لحظة عابرة، وربما كانت تلك اللحظة تجعله يحتقر نفسه بسبب العار الذي تلحقه به، وبعد ذلك كان عذابه يزداد شدة ومرارة، ويظل هذا ديدنه طوال حياته؟ وأكرر: إذا كان جواب سؤالنا هذا يتطابق مع الافتراض الثاني فسيكون بوسعنا، بالطبع، أن نتصالح مع «المواطن» نكراسوف، لأن معاناته الذاتية من شأنها أن تطهر ذكراه تماماً في أذهاننا، ومن البدهي أن يبرز هنا اعتراض: إذا كنتَ غير قادر على الإجابة عن هذا السؤال (ومن يقدر على الإجابة عنه) فإن طرحه لم يكن له لزوم أصلاً. ولكن القضية في أن الإجابة عنه ممكنة؛ إذ إن ثمة شاهداً بإمكانه الإجابة عنه وهذا الشاهد هو الشعب.

أي: حبه للشعب! فأولاً: من أجل ماذا يُشغف إنسان «عملي» بحب الشعب هذا الشغف؟ إن كل واحد مشغول بقضيته: واحد مشغول بعملانيته، والآخر مشغول بحزنه على الشعب. حسن، لنفترض، إنها نزوة، فهو قد لعب بعض الوقت، ثم توقف. ولكن نكراسوف لم يتوقف قط طوال حياته. سيقولون إن الشعب بالنسبة إليه هو مجرد «هيكوبة»: إنه موضوع لذرف الدموع التي يجسدها شعراً يعود عليه بدخل؛ وأنا لن أتحدث عن صعوبة اصطناع مثل هذا الصدق في الحب، الذي نحس به في شعر نكراسوف، (وهذا موضوع يمكن أن يثير جدلاً لا نهاية له)، بل سأقول فقط إن من الواضح لِمَ كان نكراسوف يحب الشعب كل هذا الحب، ولِمَ كان ينجذب نحوه بكل هذه القوة في ساعات حياته العصيبة، ولماذا كان يسير نحوه، وماذا كان يجد لديه. السبب، كما ذكرت آنفاً هو أن حب الشعب كان بالنسبة إلى نكراسوف أشبه بمخرج من حزنه الشخصي على نفسه بالذات. خذوا بهذا الرأي واعتمدوه، وسيتضح لكم نكراسوف كله، بصفته شاعراً وبصفته مواطناً. لقد كان يجد في خدمته للشعب بقلبه وموهبته تطهيراً كاملاً لذاته أمام ذاته. كان يحتاج احتياجاً داخلياً حقيقياً للشعب، وليس من أجل الشعر وحده. فقد كان يجد في حبه للشعب تبرئة لذاته. وكانت عواطفه تجاه الشعب تسمو بروحه. والأهم من ذلك هو أنه لم يكن يجد من يحب وما يحب وسط الناس الذين يحيطون به، ولا

وسط الأشياء التي يجلّونها أو يقدّسونها، بل بالعكس، كان ينفصل عن هؤلاء الناس، ويذهب إلى المهانين، الصابرين، البسطاء، المذلّين، عندما يدهمه الشعور بالاشمئزاز من تلك الحياة التي كان أحياناً يستسلم لها بتخاذل ومجون. وكان يذهب ويتمرغ على أعتاب معبد ضيعته الريفي الفقير وينال الشفاء. ولم يكن ليختار لنفسه هذا المخرج لو لم يكن يؤمن به. لقد كان يجد في حبه للشعب شيئاً ما راسخاً لا يتزعزع، يجد فيه مخرجاً ثابتاً ومقدساً من كل ما كان يعذبه...وبما أن الأمر كان هكذا، فإنه لم يكن يجد أكثر ما هو قدسية وثباتاً ويقينية للانحناء أمامه. ولم يكن بإمكانه أن يفترض أن أشعاره عن الشعب كافية لحصوله على تبرئة ذاتية كاملة. وعلى هذا فإنه هو أيضاً كان ينحني أمام الحقيقة الشعبية. وبما أنه لم يكن يجد في حياته أي شيء أجدر من الشعب بالحب، فإن معنى ذلك أنه كان يعترف بالحقيقة الشعبية، بأن الحقيقة في الشعب، وبأنها موجودة وباقية في الشعب وحده. وإذا هو لم يكن يعترف بهذا عن وعي تام، ولم يكن يُقِرُّ به في معتقداته، فإنه كان يعترف به بقلبه اعترافاً طاغياً لا يقاوم. ومن ثم فقد كان يرى في رجلِ الشعب العامي الفاسد هذا، الذي تسبب له صورته المُهانة والمُهينة الكثير من الألم، شيئاً ما حقيقياً ومقدساً، ليس بوسعه ألّا يجلّه، وألا يتجاوب معه بكل قلبه. وبهذا المعنى صنّفته وأنا أتحدث آنفاً عن مكانته الأدبية ضمن طائفة أولئك الذين كانوا يعترفون بالحقيقة الشعبية.

ويدل التفتيش المستمر دائماً وأبداً عن هذه الحقيقة، والتوق الأبدي إليها، والسعي الدائم للوصول إليها، دلالةً واضحةً، وأكرر هذا، على أن ما جذبه إلى الشعب كان حاجة داخلية، حاجة أسمى من كل شيء؛ ومن هنا فإن هذه الحاجة لا يمكن ألّا تدل على حنينه الداخلي المستمر دائماً وأبداً، حنينه الذي لم يتوقف قط، ولم تنقع غُلَّتَه أية حجج ماكرة يوحي بها الإغراء، ولا أية مفارقات، ولا أيّة مسوغات عملية. ولمّا كانت الحال هكذا فإننا نستنتج أنه كان يعاني طوال حياته... فكيف لنا، بعد كل هذا، أن ننصّب أنفسنا قضاة لمحاكمته؟ وحتى إذا فعلنا فإننا لن نكون مُتَّهِمين. إن نكراسوف أنموذج روسي تاريخي، وأحد أبرز الأمثلة التي تبين أبعاد التناقضات، وحالات الازدواجية التي يمكن أن يصل إليها الإنسان الروسي على الصعيد الأخلاقي والصعيد العقائدي في زمننا الانتقالي المحزن هذا. بيد أن هذا الإنسان قد بقي ساكناً في قلوبنا، إذ غالباً ما كانت موجات الحب التي تتدفق من قلب هذا الشاعر مفعمة بالصدق والنقاء وسلامة الطوية! أما اندفاعه باتجاه الشعب فكان سامياً إلى درجة ترتقي به كشاعر إلى أعلى المراتب. وإذا ما نظرنا إليه بصفته إنساناً ومواطناً، فسنجد مرة أخرى أنه بحبه للشعب ومعاناته من أجله قد برّأ نفسه وكفّر عن الكثير، إذا كان ثمة بالفعل ما يجب التكفير عنه...

يوميات كاتب عام 1880

كلمة توضيحية
حول الخطاب المنشور فيما يلي عن بوشكين

خطابي عن بوشكين وأهميتِهِ، المنشورُ فيما يلي، والذي يشكل أساس مضمون هذا الإصدار من «يوميات كاتب» (وهو الإصدار الوحيد في سنة 1880)*، كنت قد ألقيته في الثامن من حزيران هذه السنة، في الاجتماع الاحتفالي الذي عقدته جمعية محبّي الأدب الروسي. وقد أحدث هذا الخطاب انطباعاً قوياً في نفوس الجمهور الغفير الذي حضر الاجتماع. وصرح ايفان سيرغييفتش أكساكوف[133]، الذي قال عن نفسه من على منبر هذا الاجتماع إن الجميع يعدونه عميداً للسلافويين، بأن خطابي «يشكل حدثاً». وأنا لا أذكر هذا الآن من باب التباهي، بل لأصرح بالآتي: إذا كان خطابي يشكل حدثاً، فهذا من وجهة نظر واحدة ووحيدة سأبينها فيما يلي. ومن أجل هذا أكتب هذه المقدمة. لقد قصدت في خطابي ذلك أن أبيّن على وجه التحديد البنود الأربعة التالية حول موضوع أهمية بوشكين بالنسبة إلى روسيا:

لقد كان بوشكين هو أول من اكتشف بذكائه الخارق، وتفكيره العبقري العميق، وقلبه الروسي القح الظاهرة الرئيسة والسقيمة في مجتمع مثقفينا المنقطع تاريخياً عن تربة الوطن والمتعالي على الشعب؛ وهو أول من أشار إليها.

وقد أبرز لنا بجلاء، وجسّد أمامنا الأنموذج السلبي لإنساننا القلق واللامتصالح، والذي لا يؤمن بتربة الوطن وبقواها الذاتية، وينفي في نهاية المطاف روسيا وينفي ذاته أيضاً (أي مجتمعه، وفئته المثقفة التي نشأت فوق تربة الوطن)، ولا يرغب في العمل مع الآخرين، ويعاني معاناة صادقة. وقد أنتج كلٌّ من أليكو وأونيغن فيما بعد كثيراً من أشباههما في أدبنا الإبداعي، فظهر بعدهما عدد من أمثال بيتشورين[65] وتشيتشيكوف** ورودين[118]

(*) آمل أن أستأنف إصدار «يوميات كاتب» في السنة القادمة (1881) إذا سمحت لي حالتي الصحية. (ملاحظة الكاتب).

(**) تشيتشيكوف: بطل رواية غوغول «النفوس الميتة». (م).

ولافريتسكي* وبولكونسكي (في رواية ليف تولستوي «الحرب والسلام») وكثرة من الشخصيات الأخرى، التي أثبتت بظهورها صدق الفكرة التي كان بوشكين أول من عبّر عنها. فكل الشرف والمجد له، ولعقله الجبار ولعبقريته التي أشارت إلى أخطر آفة في المجتمع الذي نشأ عندنا بعد الإصلاح العظيم الذي قام به بطرس الأكبر. إننا مدينون لتشخيصه البارع الذي حدد مرضنا وتبيّنه، وكان هو بالذات أول من واسانا: فقد بث في نفوسنا أملاً كبيراً بأن هذا المرض ليس قاتلاً، وأن المجتمع الروسي يمكنه أن يُشفى منه، وأنْ يتجدد وينبعث حيّاً إذا هو انحاز إلى الحقيقة الشعبية؛

إنه الأول (وأقصد «الأول» بالذات، وليس من أحد قبله) الذي قدم لنا نماذج فنية للجمال الروسي الصادر مباشرة عن الروح الروسية، والمستقر في الحقيقة الشعبية، في تربتنا، وهناك بالذات بحث بوشكين عن هذه النماذج ووجدها. ويشهد على هذا أنموذج تاتيانا، المرأة الروسية الخالصة، التي صانت نفسها عن الكذب الغريب عن طبيعتها، كما تشهد عليه النماذج التاريخية من أمثال الراهب والآخرين في مسرحية «بوريس غودونوف»، والنماذج المأخوذة من الحياة اليومية، كما في قصة «ابنة الضابط»، والعديد من الشخصيات الأخرى التي نلمحها في أشعاره، وأقاصيصه، ونصوص ملاحظاته، وحتى في «تاريخ تمرد بوغاتشوف». والأمر المهم الذي يجب أن نؤكده بصورة خاصة، هو أن جميع نماذجه التي تجسد الجمال الإيجابي في الإنسان الروسي وروحه مأخوذة بكليتها من الروح الشعبية. وهنا يجب أن نفصح عن الحقيقة بكاملها: إن بوشكين لم يجد هذا الجمال في حضارتنا الحالية، ولا في ما يسمى بالتعليم «الأوربي» (وبالمناسبة نقول: إنه لم يوجد عندنا قط) ولا في مسوخ الأفكار والأشكال الأوربية التي تبنيناها ظاهرياً، بل وجده في الروح الشعبية حصراً، وفيها فقط وجد هذا الجمال. وبناءً على هذا، أكرر، شخّص المرض، وأعطانا الأمل الكبير: «آمنوا بالروح الشعبية ومنها وحدها انتظروا الخلاص تجدوه». وإذا نحن تعمقنا في فهم بوشكين لا بد من أن نصل حتماً إلى هذا الاستنتاج.

3) أما الموضوع الثالث الذي أردت أن أشير إليه بصدد أهمية بوشكين فيتصل بسمة خاصة شديدة الطابعية[1] تميز عبقريته الفنية، لا نصادفها عند أحد سواه على الإطلاق، ألا وهي ملكة الترجيع العالمي[4] والتقمص التام لعبقريات الأمم الأخرى، وهو تقمص يكاد يبلغ حد الكمال. وقد قلت في خطابي إن أوربا كان فيها عبقريات فنية عالمية عظمى من أمثال: شكسبير وسرفانتس وشيلّر، ولكننا لا نرى عند أي منهم هذه الملكة، ولا نراها عند أحد غير

(*) لافريتسكي: بطل رواية تورغينف «عش النبلاء». (م).

بوشكين. وجوهر الأمر هنا لا ينحصر في ملكة «الترجيع» وحده بل يتجلى بالذات في التمامية المذهلة التي يتسم بها التقمص ومن المفهوم أنه لم يكن لي أن أغفل التنويه بهذه الملكة في معرض تقويم بوشكين بصفتها أكثر الخصائص تمييزاً لعبقريته، وهي الخاصية التي تسمه هو وحده دون سواه من الفنانين العالميين كافة، وهي التي تميزه منهم جميعاً. وأنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة العباقرة الأوربيين من أمثال شكسبير وشيلّر؛ ومثل هذا الاستنتاج السخيف لا يمكن أن يستخلصه من كلماتي سوى الأغبياء. فالشمولية العالمية التي تتسم بها النماذج العالمية لإنسان العرق الآري، التي أبدعها شكسبير، وكون هذه النماذج مفهومة للجميع، واتسامها بعمق لا حدود له، وبأنها ستظل خالدة أبد الدهر أمور لا أشك فيها البتة. ولو أن شكسبير قد أبدع عطيل مورسكياً فينسيانياً بالفعل، وليس إنكليزياً، لما كان قد أضفى عليه سوى هالة الصفات القومية المحلية، أما مغزى هذا النموذج وأهميته العالمية فما كانا ليتغيرا، وكانا سيظلان كما هما، وذلك لأن شكسبير كان سيعبر في الشخصية الإيطالية عمّا أراد أن يقوله بالقدر نفسه من القوة. وأكرر أنني لم أكن أريد المساس بالأهمية العالمية لشكسبير وشيلر وأمثالهما عندما أشرت إلى قدرة بوشكين العبقرية الخارقة على تقمص عبقريات الأمم الأخرى، بل كل ما رغبت فيه هو أن أتبين في هذه القدرة وفي تماميتها إشارة عظيمة ونبوية بالنسبة لنا وذلك

4) لأن هذه القدرة هي قدرة روسية كلّياً، هي قدرة قومية وبوشكين يشاطر شعبنا بأسره هذه القدرة، وبحكم كونه فناناً بلغ درجة الكمال، فقد غدا تعبيره عن هذه القدرة هو الأكمل، على الأقل في مجال نشاطه، في إبداعه الفني. أما شعبنا بالذات فإنه يمتلك في سريرته ميلاً إلى «التعاطف»* العالمي، وإلى التصالح الشامل، وقد أظهر هذا الميلَ غير مرة خلال المئتي سنة الماضيتين منذ إصلاحات بطرس الأكبر. ولم أستطع، وأنا أشير إلى هذه القدرة لدى شعبنا، ألّا أعبر في الوقت نفسه، من خلال هذه الحقيقة، عن المواساة العظيمة بالنسبة لنا في مستقبلنا، وعن الأمل العظيم، وربما هو الأعظم لدينا، الذي ينير لنا الطريق أمامنا. والأمر المهم الذي أشرت إليه هو أن تطلعنا نحو أوربا، حتى مع كل ما يعتوره من انجرافات وتطرفاتٍ، لم يكن مشروعاً ومعقولاً فحسب، بل، كان، في أساسه شعبياً أيضاً إذ كان متفقاً تماماً مع ما تصبو إليه الروح الشعبية، وله في نهاية المطاف، بلا جدال، غاية سامية. لم يكن بوسعي بالطبع، أن أطوّر فكرتي بكامل أبعادها في خطابي الموجز، بل الشديد الإيجاز، ولكن، على الأقل، يبدو لي أنّ ما عبرت عنه كان واضحاً. ولا داعي، لا داعي لاستنكار ما قلته

(*) الكلمة الروسية التي اصطلحنا على ترجمتها بكلمة «الترجيع» (المستعارة من ترجمة د. سامي الدروبي) هي، في هذا السياق أقرب بمعناها إلى كلمة «التعاطف» وهو أحد معانيها بالروسية. (م).

عن أن «أرضنا الفقيرة ربما ستقول في نهاية المطاف كلمة جديدة للعالم». ومن المضحك أيضاً التأكيد: أنه قبل أن نقول كلمة جديدة للعالم «يجب علينا نحن أن نتطور اقتصادياً وعلمياً ومدنياً، وعندئذ فقط يمكننا أن نحلم بقول «كلمات جديدة» لكيانات بلغت الكمال (بحسب زعم القائل) كالشعوب الأوربية». وأنا قد شدّدت بالذات في خطابي على أنني لا أحاول أن أساوي بين الشعب الروسي والشعوب الغربية في مجال مجدها الاقتصادي أو العلمي؛ بل أقول ببساطة إن الروح الروسية، وعبقرية الشعب الروسي ربما كانتا هما الأكثر قدرة من بين جميع الشعوب على أن تستوعبا فكرة الوحدة الإنسانية الشاملة، والمحبة الأخوية، والنظرة المتبصرة التي تسامح المُعادي، وتميز المخالف وتعذره، وتزيل التناقضات. وهذه ليست سمة اقتصادية، ولا سمة أخرى من هذا القبيل، بل هي سمة أخلاقية، وهل بوسع أحد أن ينفي وجودها لدى الشعب الروسي، أو يماري فيه؟ هل بوسع أحد أن يقول إن الشعب الروسي ليس سوى كتلة راكدة، مقدّر عليها أن تكون في خدمة النجاح والنماء الاقتصادي للشريحة الأوربية المثقفة عندنا، التي تسمو فوق شعبنا، أما الكتلة نفسها فإنها لا تنطوي إلا على ركود ميت، وليس لنا أن ننتظر منها أي شيء، ولا يمكن أن نعلق عليها أي أمل؟ وثمة كثيرون، ويا للأسف، يزعمون هذا، ولكنني خاطرت بإعلان رأي مخالف. وأكرر أنني، طبعاً، لم أستطع أن أبرهن على «أُخْيولتي هذه»، كما عبرت أنا نفسي، بإثباتات تفصيلية تشمل جميع جوانب القضية؛ إلا أنني في الوقت نفسه لم أستطع أن أغفل الإشارة إليها. ولكن الزعم أن أرضنا الفقيرة المختلة لا تستطيع أن تمتلك مثل هذه الطموحات السامية قبل أن تغدو مماثلة للغرب اقتصادياً ومدنياً، هو مجرد سخافة لا أكثر. فالكنوز الأخلاقية الأساسية التي تمتلكها الروح لا تتعلق، من حيث جوهرها الأساسي على الأقل، بالقوة الاقتصادية. وأرضنا الفقيرة المختلة تَمْثُل كلها، باستثناء شريحتها العليا، كإنسان واحد؛ وسكانها الذين يعدّون ثمانين مليوناً يُمثِّلون بمجملهم وحدة روحية، لا يوجد مثلها، طبعاً، في أي مكان في أوربا، ولا يمكن أن يوجد، وبناء على هذا وحده لا يجوز القول إن أرضنا تعاني من الاختلال، بل لا يجوز القول إنها فقيرة، بالمعنى الدقيق للكلمة. بالعكس، ففي أوربا هذه التي كُدّست فيها ثروات طائلة، نجد أن كل الأساسات المدنية لدى جميع الأمم هناك قد حُفرت الأرض تحتها، وربما سنراها غداً تنهار إلى الأبد من غير أن تترك أي أثر، ويحل محلها شيء ما جديد لم يُسمع بمثله من قبل، ولم يسبق له نظير. وعندئذ جميع الثروات التي كدَّستها أوربا لن تنقذها من الانهيار، إذ «في لحظة واحدة ستختفي الثروة أيضاً»* وهذا في الوقت الذي نراهم يشيرون فيه

(*) عبارة مقتبسة بتصرف من رؤيا القديس يوحنا حيث الحديث عن مصير بابل - روما: «في ساعة واحدة تبدد كل الغنى» (الرؤيا 18/ 17). (ن).

إلى هذا الكيان المدني المقوّض الأساسات والموبوء قائلين لشعبنا: ليكن هذا مثلك الأعلى الذي يجب أن تتخذ منه مطمحاً لك، وعندما تبلغ مستوى هذا المثل الأعلى يغدو بوسعك أن تتجرأ على أن تتمتم بكلمة ما منك تقولها لأوربا. أما نحن فنزعم أنه يمكننا احتواء وحمل قوة روحية داخلية قادرة على حب الجميع وتوحيدهم حتى في حالة فقرنا الاقتصادي الحالي؛ بل حتى في حالة فقر أشد مما نحن فيه الآن. أجل، يمكننا أن نحتوي هذه القوة ونحتفظ بها في داخلنا حتى في حالة الفقر التي عشناها بعد غزو باتوخان*، أو بعد مذبحة «زمن الفتنة»[134]، عندما لم ينقذ روسيا سوى الروح الشعبية التي توحد الجميع. وأخيراً إذا كان من الضروري حقاً، من أجل امتلاكنا الحق في حب الإنسانية، ومن أجل حيازتنا روحاً توحّد الجميع، ومن أجل تمتعنا بالقدرة على عدم كراهية الشعوب الأخرى لأنها لا تشبهنا، ومن أجل امتلاكنا الرغبة في عدم التحصن من الجميع ضمن حدود قوميتنا كي تحصل وحدها على كل شيء، بينما لا ترى في القوميات الأخرى سوى ليمونة يمكن عصرها (علماً بأن ثمة شعوب في أوربا لديها مثل هذه الروح!)، وأكرر إذا كان من الضروري حقاً لبلوغ كل هذا أن نكون قبل ذلك قد أصبحنا شعباً غنياً، وجَرَرْنا إلى بلادنا البنية المدنية الأوربية فهل حقاً يجب علينا هنا أيضاً أن ننسخ بخضوع أعمى هذه البنية الأوربية (التي ستنهار في أوربا غداً)؟ هل حقاً لن يتيحوا للكيان الروسي الحي ولن يسمحوا له بأن يتطور وفق طبيعته القومية، وبقوته العضوية من غير أن يتخلى حتماً عن شخصيته، ومن غير أن يقلد أوربا تقليد التابع للسيد؟ فأين نذهب في هذه الحالة بالكيان الروسي الحي؟ وهل يدرك هؤلاء السادة ما هو الكيان الحي؟ ومع ذلك تراهم يتفيهقون في الكلام على العلوم الطبيعية! لقد حدث منذ سنتين أن قال أحدهم في مناسبة ما لمحدثه الغربوي[13] المتشدد: «الشعب لن يسمح بهذا»، فرد عليه الغربوي بهدوء ووقار: «إذاً نقضي على الشعب». ولم يكن هذا الشخص من النكرات، بل هو أحد ممثلي الفئة المثقفة عندنا، والحادثة حقيقية.

لقد أشرت في هذه البنود الأربعة إلى أهمية بوشكين بالنسبة إلينا. وأكرر قولي إن خطابي قد أحدث انطباعاً؛ ولكن الفضل في هذا لا يعود إلى مزايا الخطاب بحد ذاته (وأنا أشدد على هذا) ولا إلى الموهبة في أسلوب عرضه (أتفق في هذا مع جميع خصومي ولا أتبجح)، بل يعود إلى اتسامه بالصدق، وأجرؤ على القول إنه يعود إلى أن الحقائق التي أوردتها فيه عصية على الدحض نوعاً ما، على الرغم من كل الإيجاز الذي يتسم

(*) باتوخان (1208-1255) خان مغولي، حفيد جنكيز خان، قاد الحملة المغولية العامة على أوربا الشرقية والوسطى، غزا روسيا في سنوات 1237-1243، وبطش بسكانها بقسوة وخرب مدنها، وأسس فيها مملكة الأورطة الذهبية. (ن).

به، ومن عدم اكتماله. ولكن بِمَ أصبح هذا الخطاب «حدثاً» كما عبّر إيفان سيرغييفتش أكساكوف؟ أصبح هكذا، على وجه التحديد، لأن السلافويين، أو الذين يُسمَّون الحزب الروسي (يا إلهي، يوجد عندنا «حزب روسي»!) قاموا بخطوة كبرى وربما نهائية، للتصالح مع الغربويين، إذ إنهم ذهبوا إلى أن تطلُّع الغربويين نحو أوربا مشروعٌ تماماً، بل ذهبوا حتى إلى أن أشدَّ افتتانات الغربويين واستنتاجاتهم تطرفاً مشروعةٌ تماماً أيضاً، وسوّغوا هذه الشرعية بتطلعنا الشعبي الروسي المحض الذي يطابقون بينه وبين الروح الشعبية ذاتها. كما أنهم برروا هذه الافتتانات بالضرورة التاريخية، والقدَر التاريخي المحتوم؛ وعلى هذا فإنه سيتبيّن في نهاية المطاف، وفي الحصيلة النهائية، إذا ما أجري يوماً ما تحديد لهذه الحصيلة، أن الغربويين قد خدموا الأرض الروسية وتطلعاتها الروحية بالقدر نفسه الذي خدمهما به جميع أولئك الروس الأقحاح، الذين أحبوا بصدق أرض وطنهم، وصانوها بغيرة، ربما تكون مفرطة، وما زالوا يصونونها حتى الآن من جميع افتتانات «الأجانب الروس». وقد أُعلن أخيراً أن جميع الالتباسات بين الحزبين، وجميع المماحكات الشرسة التي جرت بينهما حتى الآن، إنما كانت مجرد سوء تفاهم كبير. ولعل هذا بالذات هو ما يمكن أن يشكل «حدثاً»، وذلك لأن ممثّلي السلافوية أعلنوا على الفور، ولحظة انتهائي من إلقاء خطابي، موافقتهم التامة على جميع الاستنتاجات التي تضمنها الخطاب. وها أنا أعلن الآن - وكنت قد أعلنت هذا في الخطاب نفسه - أن شرف القيام بهذه الخطوة الجديدة (هذا إذا كانت الرغبة الصادقة كل الصدق في التصالح تُشرِّف صاحبها)، وأن الفضل في قول هذه الكلمة الجديدة، إذا شئتم، لا يعودان لي وحدي على الإطلاق، بل يعودان للمذهب السلافوي ككل، ولمجمل روح «حزبنا» واتجاهه، وأن هذا الأمر كان على الدوام واضحاً للذين كانوا ينعمون النظر في السلافوية بلا تحيز، وأن الفكرة التي أعربت عنها، إذا لم يكن السلافيون أعربوا عنها، فقد أشاروا إليها أكثر من مرة، وكل ما فعلته أنا هو أنني استطعت أن أغتنم الفرصة في اللحظة المناسبة. والنتيجة الآن هي: إذا تقبّل الغربويون استنتاجنا، ووافقوا عليه، فإن جميع وجوه سوء التفاهم الذي بين الحزبين ستزول طبعاً بكل تأكيد، لأنه، كما قال إيفان سيرغييفتش أكساكوف: «لن يبقى للغربويين والسلافويين ما يتجادلون فيه، فقد توضح منذ الآن كل شيء». من وجهة النظر هذه يمكن لخطابي، بالطبع، أن يغدو «حدثاً». ولكن، أوّاه، كلمة «حدث» قد نُطقت بدافع افتتان صادق من طرف واحد؛ فهل سيتقبلها الطرف الآخر، ولن تبقى مجرد مفهوم مثالي، هذه قضية أخرى تماماً. إلى جانب السلافويين الذين عانقوني وشدّوا على يدي جاء إليّ أشخاص غربويون أيضاً فور نزولي عن المنبر، وقبل أن أغادر المنصة، وشدّوا على يدي، ولم يكن هؤلاء من النكرات بل من

أبرز ممثلي الغربوية*، الذين يضطلعون بالدور الأول فيها، وخاصة الآن. وقد شدوا على يدي بحرارة وحماسة صادقة كالسلافويين، ووصفوا خطابي بأنه عبقري، وشددوا على هذه الكلمة، وكرروا وصف الخطاب بأنه عبقري عدة مرات. ولكنني أخشى، وبصدق أخشى أن تكون هذه الكلمة قد قيلت «على عجل» وفي غمرة الحماسة المبكرة! أوه، أنا لا أخشى أن يتنكروا لرأيهم في أن خطابي عبقري، فأنا أعرف أنه ليس عبقرياً، ولم أغترّ على الإطلاق بإغداق المديح علي، وأسامحهم من أعماق قلبي على خيبة أملهم في عبقريتي. ولكن ما يمكن أن يحدث، وما يمكن أن يقوله الغربويون بعد أن يفكروا قليلاً (:nota** bene إنني لا أكتب عن أولئك الذين شدوا على يدي، بل أتحدث الآن عن الغربويين عموماً، وأشدد على هذا) ما يمكن، ربما، أن يقولوه (أتسمعون: إنني أقول «ربما» لا أكثر):

«ها أنتم قد وافقتم في النهاية، وبعد مجادلات ومماحكات طويلة، على أنّ تَطَلُّعَنا نحو أوربا كان مشروعاً وطبيعياً، واعترفتم بأننا كنا أيضاً على حق، ونكّستم راياتكم؛ وها نحن نتقبل اعترافاتكم بترحاب، ونسارع إلى التصريح لكم بأن هذا ليس بسيئ من جانبكم: إنه يشير على الأقل إلى أنكم تتمتعون بقدر من الذكاء، ونحن، بالمناسبة، لم ننكر عليكم هذا في يوم من الأيام، باستثناء بعض الأشخاص الشديدي البلادة من جماعتنا، وهؤلاء لا نريد ولا نستطيع أن نكون مسؤولين عنهم، ولكنْ نريد أن تعرفوا أن ثمة التباساً جديداً يظهر ثانية، ويجب توضيحه بأسرعِ ما يمكن. فمقولتكم، استنتاجكم أننا في افتتاناتنا كنا نتطابق مع الروح الشعبية، وكانت هذه الروح توجهنا سراً، مقولتكم هذه تظل في نظرنا موضع شك مفرط، ولذلك فإن الاتفاق بيننا يغدو ثانية غير ممكن. اعلموا أن ما يوجهّنا هو أوربا وعلومها وإصلاح بطرس، وليس روح شعبنا البتة، وذلك لأن هذه الروح لم تصادفنا ولم نحس بها في طريقنا، بالعكس فنحن خلّفناها وراءنا وسارعنا إلى الهروب منها. ونحن سرنا منذ البدء في طريق مستقلة من غير أن ننجرّ البتة وراء غريزة الشعب الروسي المزعومة التي يدّعون أنها تجذبه نحو التعاطف العالمي الشامل وتوحيد الإنسانية جمعاء؛ أي باختصار نحو كل ما أَفَضْتُم في الحديث عنه قبل قليل. وبما أن الوقت قد حان للتكلم بصراحة تامة، فها نحن نقول لكم إننا ما زلنا كالسابق لا نرى في الشعب الروسي سوى كتلة راكدة، ليس لديها ما نتعلمه منها؛ بل بالعكس، فهي كتلة تكبح تطور روسيا نحو الأفضل التقدمي، وينبغي إعادة خلقها كلياً، إعادة تكوينها؛ وإذا كان من المتعذر تحقيق هذا عضوياً، فليكن على الأقل ميكانيكياً، أي ببساطة إجبارها إجباراً حاسماً ونهائياً على

(*) إشارة إلى إيفان تورغينيف وبافل آنينكوف. (ن).

(**) ملاحظة هامة (باللاتينية).

أن تطيعنا إلى أبد الآبدين. وابتغاء بلوغ هذه الغاية لا بد لنا من تبني واستيعاب بنية مدنية تتطابق تماماً مع ما هو موجود في الأراضي الأوربية، وهي البنية التي انطلق الحديث عنها الآن بالذات. أما شعبنا فإنه شعب فقير عاميّ لا يعرف سوى الفلاحة، كما كان شأنه دائماً، ولا يستطيع أن يمتلك شخصية أو فكرة؛ وتاريخه كله عبث لا معنى له، وأنتم ما زلتم حتى الآن تستنبطون منه استنتاجات لا يعرف سوى الشيطان ما هي، ونحن وحدنا من كان ينظر إليه نظرة واعية متيقظة، إن شعباً كشعبنا يجب إلّا يكون له تاريخ؛ أما هذا الذي يبدو كأنه تاريخ له فيجب عليه أن ينساه متقززاً منه، وأن ينساه بكليته. وليس لأحد أن يمتلك تاريخاً سوى فئتنا المثقفة، التي يجب على الشعب أن يخدمها بعمله وبقواه فحسب.

على رسلكم، لا تقلقوا ولا تصرخوا، فنحن لا نريد أن نكبل شعبنا بقيد العبودية عندما نتحدث عن جعله مطيعاً، لا، طبعاً! من فضلكم لا تستنجوا هذا من حديثنا: فنحن إنسانيون، نحن أوربيون، وأنتم تعرفون هذا حق المعرفة، إننا بالعكس ننوي أن نعلّم شعبنا شيئاً فشيئاً، بانتظام، ثم نتوج بناءنا بالارتقاء بالشعب إلى مستوانا وبتحويل طابعه القومي إلى طابع آخر سيأتي تلقائياً بعد التعليم. ونحن سنؤسس هذا التعليم ونبدؤه كما بدأنا، أي انطلاقاً من نفي الشعب لكل ماضيه ومن التزامه بصب لعناته عليه. وما إن نعلّم أي فرد من الشعب القراءة والكتابة حتى نجعله على الفور يشم رائحة أوربا، ونبدأ في الحال بإغرائه بمفاتنها، حتى ولو بالذوق المرهف في طريقة المعيشة وآداب السلوك، والملبس، والمشرب، والرقص، وباختصار نجعله يخجل من خُفِّه الليفي*، وكْفاسِهِ[7]، ويخجل من أغانيه القديمة، مع أن بعض هذه الأغاني رائع وموسيقي، ولكننا مع ذلك سنجعله يغني مونولوجات فودفيلية مقفاة، مهما أغضبكم هذا. وباختصار نحن سنستخدم الكثير الكثير من شتى الوسائل أياً كانت، من أجل بلوغ غايتنا النبيلة، وسنؤثر قبل كل شيء على الأوتار الضعيفة في الطبع، كما حدث معنا شخصياً، ومن ثم سيكون الشعب شعبنا نحن. سيخجل هذا الشعب من ماضيه، ويصب عليه لعناته. وكل من سيلعن ماضيه سيكون من جماعتنا: هذه هي معادلتنا، ونحن سنطبقها كلياً عندما سنعكف على رفع الشعب إلى مستوانا. أما إذا تبين لنا أن الشعب غير قابل للتعلم فإننا «سنستبعده»؛ إذ سيتضح عندئذ بجلاء أن شعبنا ليس سوى كتلة همجية غير جديرة بالاهتمام، ولا تستحق سوى إجبارها على الطاعة، إذ ماذا بوسعنا أن نفعل سوى ذلك: فالحقيقة لا وجود لها سوى لدى الإنتلجينسيا وأوربا، ومع أن لديكم شعباً يعد ثمانين مليوناً (وأنتم، كما يبدو، تتباهون بهذا) فإن كل هذه الملايين يجب عليها، قبل كل شيء، أن تقوم

(*) الخف الليفي: نعل مصنوع من ألياف لحاء الشجر أو من الحبال كان ينتعله الفلاح الروسي قديماً. (م).

على خدمة هذه الحقيقة الأوربية، إذ لا توجد، ولا يمكن أن توجد حقيقة غيرها. وأنتم لن تخيفونا بعدد ملايينكم هذا. هكذا كان رأينا دائماً، وها نحنِ الآن فقط نعرب عنه عارياً تماماً، وسنظل متمسكين به؛ ثم إننا، إذا قبلنا استنتاجكم، لا نستطيع أن نتحدث وإياكم عن أشياء غريبة مثل *Le pravoslavié، على سبيل المثال، واتصافها بأهمية خاصة كما تدّعون. ونأمل أنكم لن تطالبونا بهذا على الأقل، ولا سيما في هذا الوقت الذي تتمثل فيه كلمةُ أوربا الأخيرة والاستنتاجُ العام لِلعلم الأوربي في الإلحاد المستنير والإنساني، ونحن لا نستطيع ألّا نسير خلف أوربا.

ولذا فإننا موافقون مع بعض التحفظات، على قبول ذاك النصف من خطابكم، الذي امتدحتمونا فيه، فليكن الأمر هكذا، سنقوم بهذه المجاملة لكم، أما فيما يخص النصف الثاني الذي يتعلق بكم، وبكل تلك «المبادئ» التي تتبنونها، فإننا نعتذر إليكم، إذ لا نستطيع قبوله...». هذه هي النتيجة المحزنة التي يمكن أن ننتهي إليها. وأكرر: إنني لا أجرؤ، بالطبع، على أن أورد هذا الاستنتاج لا على لسان أولئك الغربويين الذين شدوا على يدي فحسب، بل على لسان كثيرين وكثيرين جداً من الغربويين المستنيرين أكثر من غيرهم، والذين يُعَدّون من الشخصيات الروسية الفعالة ومن الروس الأقحاح، بصرف النظر عن نظرياتهم، ومن المواطنين الروس المحترمين الأجلّاء. ولكن بالمقابل نجد أن جمهور الغربويين، جمهوركم، المنقطع عن الشعب والمنشق عنه، أي فئتكم الوسطى، شارعكم، الذي يجتر فكرة «الغربوية» وكل صعاليك «المذهب» (وهم بعدد رمال البحر)، سيتقوّلون علينا حتماً أشياء من هذا القبيل، بل ربما يكونون قد تقوّلوها.

(**Nota bene بشأن العقيدة، على سبيل المثال، جرى التصريح في أحد الإصدارات، وبكل ما يتسم به هذا الإصدار من لوذعية، عن أن هدف السلافويين هو تحويل أوربا بأسرها إلى الأرثوذكسية) ولكننا سننبذ الأفكار السوداء، ونعلق أملنا على المتقدمين من ممثلي أوربيتنا. وإذا هم تقبلوا ولو نصف استنتاجاتنا ونصف آمالنا التي نعلقها عليهم فإن المجد والشرف لهم حتى على هذا، ونحن سنستقبلهم بابتهاج نابع من القلب. وحتى إذا هُمْ تقبّلوا النصف فقط، أي إذا اعترفوا ولو باستقلالية الروح الروسية، وشخصيتها، وبشرعية وجودها، وبميلها إلى حب الإنسان، وتطلعها إلى توحيد الإنسانية، فلن يكون هناك حينئذ أي شيء تقريباً نتجادل فيه، على الأقل من الأشياء الرئيسة. وعندئذ كان يمكن فعلاً أن يغدو خطابي أساساً لحدث جديد. وأكرر للمرة الأخيرة أنّ ما كان يمكن أن يُسمى

(*) كلمة «برافوسلافِيْ» الروسية تعني «الأرثوذكسية» orthodoxie أي «مذهب الكنيسة الشرقية القويم». (م).
(**) ملاحظة هامة. (م).

حدثاً ليس خطابي نفسه (فهو غير جدير بهذه التسمية) بل هو الاحتفال البوشكيني العظيم الذي غدا حدثاً حقق توحُّد جميع الروس المتعلمين والمخلصين، من أجل بلوغ هدف مقبل بالغ الروعة.

بوشكين
(دراسة وصفية)[2]
الخطاب الذي ألقي في الثامن من حزيران (يونيو) في الجلسة التي عقدتها جمعية محبي الأدب الروسي.

«بوشكين ظاهرة خارقة، ولعله الظاهرة الوحيدة التي تجلّت فيها الروح الروسية»، هذا ما قاله غوغول*. وأضيف أنا من عندي: وهو ظاهرة نبوية أيضاً. نعم، إن ظهوره قد تضمّن لنا نحن الروس جميعاً شيئاً نبوياً لا جدال فيه. فمجيء بوشكين توافق تماماً مع بداية وعينا لذاتنا على نحو صحيح، وكان هذا الوعي قد ولد لتوّه وبدأ بالظهور في مجتمعنا بعد مرور قرن كامل على الإصلاح الذي قام به بطرس**، وساعد ظهوره كثيراً على إنارة طريقنا المظلمة بضوء هادٍ من جديد. بهذا المعنى بالذات كان بوشكين نبوءة وإرشاداً. إنني أقسم مسيرة شاعرنا العظيم الإبداعية إلى ثلاث مراحل. وأنا لا أتحدث الآن بصفتي ناقداً أدبياً: إذ لا أريد من تناولي نشاط بوشكين الإبداعي سوى أن أشرح فكرتي عن أهمية بوشكين النبوية عندنا، وأن أبين ما أقصده بكلمة النبوة. ولكنني أشير هنا بكلمة عابرة إلى أن مراحل مسيرة بوشكين الإبداعية، كما يبدو لي، لا تنفصل إحداها عن الأخرى بحدود ثابتة. فالبدء بكتابة «أونيغن»، على سبيل المثال، ينتمي في رأيي، إلى المرحلة الأولى من إنتاج الشاعر،

(*) يقتبس دوستويفسكي هنا مستهل مقالة غوغول: «بضع كلمات عن بوشكين» التي نشرها في عام 1835 في مجموعة «أربسكات» الجزء الأول. (ن).

(**) المقصود: الامبراطور الروسي بطرس الأول (الأكبر) (1672/ 1725). (م).

أما الانتهاء منها فينتمي إلى المرحلة الثانية*، عندما كان بوشكين قد اهتدى إلى مُثُله العليا في أرض الوطن، وتبنّى هذه المُثُل وعشقها بكل ما تمتلكه روحه المُحبّة المتبصّرة من قوة. ومن الأقوال المتعارف عليها أن بوشكين كان في مرحلة إبداعه الأولى يقلد الشعراء الأوربيين من أمثال بارني، وأندريه شينييه وسواهما ولا سيما بايرون. نعم، لا شك في أن شعراء أوربا قد أثروا تأثيراً عظيماً في تفتح عبقريته، وقد استمر هذا التأثير على مدى حياته كلها. ومع ذلك لم تكن قصائد بوشكين الأولى مجرد تقليد، فقد تجلّت فيها الاستقلالية الفائقة التي تتسم بها عبقريته. ونحن لن نلمس أبداً في أي تقليد أصالةً في المعاناة، وعمقاً في الوعي الذاتي، كاللذين أبداهما بوشكين في قصيدة «الغجر»** على سبيل المثال، وهي قصيدة أنسبُها كلياً إلى المرحلة الأولى من نشاطه الإبداعي. وهذا فضلاً عن الزخم الإبداعي والاندفاع العاصف اللذين ما كانا ليظهرا بهذا القدر لو كان الشاعر يقلّد فحسب. إن نموذج «أليكو»، بطل قصيدة «الغجر» يعكس فكرة روسية تماماً، قوية وعميقة، تجسدت فيما بعد باكتمال بالغ الانسجام في شخصية «أونيغن»، الذي هو «أليكو» نفسه تقريباً، ولكنه لا يبدو هنا بصورة خيالية، بل بمظهر واقعي ومفهوم على نحو ملموس. كان بوشكين قد وجد في «أليكو» الجوّاب الشقيَّ في أراضي الوطن، ذاك المُعانِي الروسي التاريخي الذي ظهر عندنا، بحكم الضرورة التاريخية القصوى، في المجتمع المنفصل عن الشعب. وقد صوّر بوشكين هذه الشخصية بعبقرية. إنه، بالطبع، لم يجد هذا النموذج عند بايرون وانتهى الأمر. فهو أنموذج حقيقي، وقد رسمه الشاعر بدقة بالغة، إنه نموذج دائم، وقد حل عندنا، في أرضنا الروسية، ليبقى إلى أمد طويل. إن هؤلاء الجوّابين الروس، الذين لا مقر لهم، ما زالوا حتى الآن يتابعون تجوالهم، ويبدو أنهم لن يختفوا إلا بعد وقت طويل. وإذا كانوا في زمننا هذا لا يذهبون إلى مخيمات الغجر ليبحثوا هناك، في حياة الغجر البريّة ذات الصبغة الخاصة، عن مُثُلهم العليا العالمية، وعن الطمأنينة في احضان الطبيعة، بعيداً عن حياة مجتمع مثقفينا الروس المشوشة السخيفة، فإنهم مع ذلك يندفعون بقوة نحو الاشتراكية التي لم تكن موجودة في زمن «أليكو» ويذهبون مع هذه العقيدة الجديدة إلى حقل آخر ليعملوا فيه بحماسة، مؤمنين، كما آمن «أليكو» بأنهم سيبلغون بنشاطهم الخيالي هذا أهدافهم، وسيحققون السعادة لا لأنفسهم فحسب بل للعالم أجمع. وذلك لأن الجوّاب الروسي لا غنى له عن تحقيق السعادة العالمية الشاملة بالذات لكي يصل إلى الطمأنينة، وهو لن يرضى بأقل من ذلك، ما دام الأمر، طبعاً، على صعيد النظرية. إنه في الحالتين ذاك الإنسان الروسي نفسه، ولكنه ظهر في زمنين مختلفين. وأعود فأكرر

(*) كتب بوشكين رواية «يفغيني أونيغن» الشعرية بين تاريخي 9/ 5/ 1823 و5/ 10/ 1831. (م).

(**) بدأ بوشكين كتابة قصيدة «الغجر» في نهاية عام 1823 وفرغ منها في تشرين الأول من عام 1924. (م).

إن هذا الإنسان قد ظهر في مجتمعنا المثقف المنقطع عن الشعب، وعن القوة الشعبية في بداية القرن الثاني الذي أعقب إصلاحات بطرس الكبرى. أجل، ثمة أكثرية كبيرة من المثقفين الروس كانوا في زمن بوشكين، كما في زمننا الآن، يعملون بهدوء موظفين في الخزينة أو في الخطوط الحديدية، أو في البنوك، أو ببساطة يكسبون المال بمختلف الوسائل، بل إن بعضهم يُعنى بالعلوم ويلقي محاضرات، وكل ذلك كان ولا يزال يجري بانتظام وهدوء وتوانٍ. إنهم يقبضون رواتب، ويلعبون بالورق، وليست لديهم أية تطلعات إلى الهروب إلى مخيمات الغجر، أو إلى أية أماكن أخرى أكثر تناسباً مع زماننا. وأبعدُ ما يمكن أن يمضوا إليه لا يتجاوز حدود الليبرالية المتسمة «بمسحة اشتراكية أوربية» وقد أُضفِيَ عليها شيء من الطبع الروسي الطيب. بيد أن المسألة كلها لا تتعدى أن تكون مسألة وقت لا أكثر. فأي فرق بين أن يكون أحدهم لم يبدأ يشعر بالقلق بعد، وأن يكون آخر قد وصل إلى الباب المقفل وخبطه بجبهته بعنف. إن كلّاً منهما ينتظره، في حينه، المصير نفسه إذا لم يسلك طريق الخلاص المتمثل في التواصل بتواضع مع الشعب. ولنفترض أن هذا المصير لا ينتظر الجميع: فإنه ليكفي أن تلقاه «النخبة» فقط، يكفي أن يلقاه عُشرُ الذين انتابهم القلق حتى تفقد الأغلبية الكبيرة المتبقية الطمأنينة والهدوء بسبب أولئك. إن «أليكو» لا يعرف بعد، بالطبع، كيف يعبر تعبيراً صحيحاً عن حنينه الغامض. فكل ذلك ما زال يتخذ لديه شكلاً مجرداً، وكل ما يشعر به هو حنين إلى الطبيعة، وشكوى من المجتمع الراقي، وتطلعات عالمية، وحسرة على الحقيقة التي أضاعها أحد ما في مكان ما ولا يستطيع هو أن يجدها بأية طريقة من الطرائق. يوجد هنا شيء من جان جاك روسو[135]. إنه هو نفسه لا يعرف، طبعاً فيم تقوم هذه الحقيقة، وأين وفيمَ يمكن أن تتجلى، ومتى بالتحديد قد ضاعت، ولكنه يعاني بصدق. إن الإنسان الخيالي والنافد الصبر لا ينتظر أن يأتيه الخلاص حتى الآن، إلّا من ظواهر خارجية بصورة رئيسة؛ والأمر لا بد أن يكون هكذا: فهو يزعم «أن الحقيقة موجودة في مكان ما غير ذاته، وربما هيَ في مكان موجود في أراضٍ أخرى، في الأراضي الأوربية مثلاً، حيث يوجد نظام تاريخي ثابت، وحياة مدنية واجتماعية مستقرة». إنه لن يدرك أبداً ان الحقيقة موجودة قبل كل شيء في داخله هو، وأنّى له أن يدرك هذا: فهو في أرضه بالذات ليس هو نفسه، إنه فقد عادة العمل منذ قرن كامل، وليس لديه ثقافة. لقد نشأ كما تنشأ طالبة ضمن جدران معهد داخلي مغلق، وكان ينفّذ التزامات غريبة لا يدرك كنهها بما يتناسب مع انتمائه إلى هذه أو تلك من المراتب الأربع عشرة التي قُسّم إليها المجتمع الروسي المتعلم[112]. إنه ما زال حتى الآن عشبة مقتلعة من تربتها تحملها الريح حيث تشاء. وهو يشعر بهذا ويعاني منه. وغالباً ما تكون معاناته جدّ مؤلمة. وماذا في أن يبيح هذا الشخص الذي ربما كان ينتمي إلى أسرة نبيلة عريقة، ومن المرجح جداً أن يكون

مالكاً لأقنان، ماذا في أن يبيح لنفسه، من مُنطلق حرية التصرف التي يمنحه إياها انتماؤه إلى فئة النبلاء، تحقيقَ فكرة خيالية صغيرة أَغْوَتْهُ بالافتتان بأناس يعيشون «من دون قانون»، فيذهب للعيش إلى حين في مخيم للغجر، حيث يقود دباً صغيراً يتفرّج عليه الناس؟ إنه لأمر مفهوم أن امرأة، «امرأة بَرّية»، حسب تعبير أحد الشعراء*، هي من يستطيع، على الأرجح، أن يمنحه الأمل في إنهاء حنينه الممض، ولذلك نراه يندفع نحو زيمفيرا** بإيمان طائش ولكنه طاغٍ، قائلاً لنفسه: «هنا مخرجي، هنا يمكن أن تكون سعادتي، هنا في أحضان الطبيعة، بعيداً عن ذاك المجتمع، هنا بين هؤلاء الناس الذين ليس لديهم مدنيّة ولا قوانين!» وماذا يتبيّن: إنه عند أول اصطدام بظروف هذه الطبيعة المتوحشة لا يستطيع التحمل، ويلطخ يديه بالدم. إن هذا الحالم الشقي لم يصلح لا أقول للانسجام العالمي، بل حتى للعيش مع الغجر؛ فقد طردوه من دون أن يثأروا منه ومن دون أن يحقدوا عليه، بل بشموخ وسماحة نفس:

اتركنا أيها المتكبر
نحن من أهل البراري وليس لدينا قوانين
إننا لا نُعذِّب ولا نُعدِم***

كل هذا متخيَّل طبعاً، ولكن «الإنسان المتكبر» واقعي ومرسوم بدقة، وأول من تبيّنه وصوّره عندنا هو بوشكين، وعلينا أن نتذكر هذا. وبالضبط، بالضبط، ما إن يُترك الأمر لهذا المتكبر حتى نجده لا يتوانى عن أن يمزق خصمه بحقد ويعدمه لأنه أساء إليه، أو ربما سيكون من السهل عليه، أن يتذكر انتماءه إلى إحدى المراتب الوظيفية الأربع عشرة، أن ينادي هو نفسه (وهذا ما كان يحدث أيضاً) إلى تطبيق قانون التعذيب والإعدام ذاك ويستدعيه لسبب واحد فقط هو الثأر للإساءة التي لحقت بشخصه. لا، إن هذه القصيدة العبقرية ليست تقليداً! إنها توحي لنا بالحل الروسي لتلك المسألة، «المسألة الرجيمة»، وهو الحل الذي يتطابق مع الإيمان الشعبي والحقيقة الشعبية: «استكن أيها الإنسان المتكبر، وحطِّم تكبرك قبل كل شيء. استكن أيها الإنسان المتبطّل، واعمل على أرض وطنك قبل كل شيء».

هذا هو الحل بحسب الحقيقة الشعبية وبحسب البصيرة الشعبية. «الحقيقة ليست في خارجك، بل في داخلك أنت؛ جد نفسك في نفسك، اَخضِع نفسك لنفسك، اِمتلك نَفسك، وعندئذ ستبصر الحقيقة. هذه الحقيقة ليست في الأشياء، وليست خارج ذاتك، وليست في

(*) المرجح أن دوستويفسكي يشير إلى عبارة وردت في المقالة التي كتبها الشاعر يا. ب. بولونسكي بعنوان «بصدد قصة الكونت ل. ن. تولستوي: القوزاق» (رسالة إلى رئيس تحرير «الوقت»).

(**) اسم الفتاة الغجرية التي يشغف بها «أليكو» في قصيدة بوشكين «الغجر». (م).

(***) كلمات الغجري الشيخ (والد زيمفيرا) التي يوجهها إلى أليكو بعد أن يقتل هذا زيمفيرا وعشيقها. (م).

مكان ما وراء البحار، بل هي، قبل كل شيء، في عملك على نفسك. فإذا انتصرت على نفسك، وذللتها لإرادتك تغدو حراً إلى حدٍّ لم تتخيله قط، وتبدأ القيام بعمل عظيم، وتجعل الآخرين أحراراً، وترى السعادة، لأن حياتك ستصبح ملأى، وستفهم أخيراً شعبك وحقيقته المقدسة. إن الانسجام العالمي لن يكون لدى الغجر، ولا في أي مكان إذا كنت أنت أول من لا يستحقه، لأنك حاقد ومتكبر، ولأنك تطالب بالحياة بلا مقابل، وحتى من دون أن يخطر لك أنّ عليك أن تدفع لقاء ذلك». إن هذا الحل للمسألة توحي به قصيدة بوشكين إيحاءً قوياً. وقد عبّرت عنه رواية «يفغيني أونيغن» تعبيراً أوضح. وهي قصيدة ليست خيالية كتلك بل واقعية على نحو ملموس، وقد تجسدت فيها الحياة الروسية الحقيقية تجسّداً يتسم بقوة إبداعيةٍ واكتمالٍ لم يُعهدا قبل بوشكين، وربما بعده أيضاً.

ها هو أونيغن يأتي من بطرسبورغ، وحتماً من بطرسبورغ، بالذات، فهذا ضروري بلا شك في القصيدة، ولم يكن لبوشكين أن يغفل مثل هذا المَعْلَم الواقعي المهم في سيرة بطله. وأكرر ثانية أن هذا هو أليكو نفسه، وخاصة عندما يهتف فيما بعد وقد انتابته الكآبة:

لماذا لا أستلقي مشلولاً
كذاك المُخَلَّف في تولا*

ولكنه الآن، في مستهل القصيدة، ما زال فتىً شبه عابث من فتيان المجتمع الراقي المتأنقين؛ وما زال العمر الذي عاشه أقصر بكثير من أن يجعله يصاب بخيبة أمل تامة في الحياة. ومع ذلك فقد بدأ يزوره ويقلقه:

الشيطان النبيل، شيطان الضجرِ الخفيّ**

وهو في هذا المكان النائي في الريف، في قلب وطنه لا يحس، طبعاً أنه في مسكنه في بيته، إنه لا يدري ما عساه يفعل هنا، وهو يشعر كما لو أنه ضيف عند نفسه في منزله. وفيما بعد، عندما سيطوّف مكتئباً في أرض وطنه وفي الأراضي الأجنبية سوف يشعر - وهو الرجل الذكي من دون شك، والصادق من دون شك - أنه وهو عند الغرباء غريب عن نفسه أكثر من ذي قبل. إنه في الحقيقة يحب أرض وطنه، ولكنه لا يثق بها. وقد سمع، طبعاً، بالمثل العليا التي في وطنه، ولكنه لا يصدقها. إنه لا يؤمن سوى بالاستحالة التامة للقيام بأي عمل في وطنه، وينظر إلى أولئك الذين يؤمنون بإمكانية ذلك - وقد كان عددهم آنذاك، ولا يزال،

(*) مقبوس من الفصل الملحق برواية «يفغيني أونيغن» بعنوان: «مقتطفات من رحلة أونيغن». وتولا مدينة روسية. (ن).

(**) مقبوس من مقطوعة نكراسوف الشعرية: «يسرُّك أن ترى...». (ن).

قليلاً - باستهزاء حزين. وهو قد قتل «لينسكي» لا لشيء إلا لأنه كان يشعر بالكآبة، ومن يدري، ربما لأنه كان يعاني من كآبة الحنين إلى المثل الأعلى العالمي. وهذا شطط برأينا، وهو محتمل. أما تاتيانا* فإنها تختلف عنه: فهي أنموذج صلب، يقف بثبات على تربته. إنها أعمق من أونيغن،، أذكى منه طبعاً. إنها تحدس سلفاً بغريزتها النبيلة وحدها، أين هي الحقيقة، وفيمَ تكمن، وقد تبيّن هذا في نهاية القصيدة. وربما كان من الأحسن لو أن بوشكين سمّى قصيدته باسم تاتيانا لا باسم أونيغن، لأنها هي بطلتها الرئيسة بلا مراء. إنها أنموذج إيجابي لا سلبي، أنموذج الجمال الإيجابي الذي يمجد المرأة الروسية، وإليها أوكل الشاعر التعبير عن فكرة القصيدة في المشهد المشهور الذي يصور اللقاء الأخير بين تاتيانا وأونيغن. ويمكن حتى القول إن أنموذج المرأة الروسية الإيجابي الذي يحوز كل هذا الجمال لم يتكرر تقريباً في أدبنا، اللّهُمَّ إلّا في شخصية ليزا التي صوّرها تورغينف في روايته «عش النبلاء». إن طريقة النظر من الأعلى جعلت أونيغن لا يتعرّف على الإطلاق حقيقة تاتيانا في تلك الصورة المتواضعة لفتاة طاهرة بريئة، عندما قابلها أول مرة في ذاك الريف النائي** فتهيّبته أشدّ التهيب عند أول لقاء. إنه لم يستطع أن يميز في الفتاة المسكينة ما تحوزه من تمام وكمال، ولعله عدّها بالفعل «جنيناً روحيّاً»؛ أَهِيَ، تاتيانا، جنين! وهذا بعد أن كتبت رسالتها إليه! إذا كان في القصيدة «جنين روحي» حقاً، فإنه، بالطبع، هو نفسه، هو أونيغن، بلا جدال. أجل، إنه لم يكن قادراً البتة على أن يعرف حقيقتها: وهل هو يعرف النفس الإنسانية؟ إنه شخص يعيش بمفاهيم مجردة، شخص حالمٌ قلقٌ طوال حياته. وهو لم يتعرَّفها حتى فيما بعد في بطرسبورغ، وهي في شخصية سيدةٍ من المجتمع الراقي، مع أنه يدّعي في رسالته إليها أنه «أدرك بروحه كل ما تتسم به من كمال». ولكن قوله هذا كان مجرد كلمات فقد مرّت في حياته مروراً عابراً من دون أن يتعرّفها ويقدِّرها حق قدرها؛ وفي هذا تكمن مأساة حبهما. أوه لو كان قد وصل إلى تلك القرية آنذاك عند أول لقاء بينها، تشايلد هارولد قادماً من إنكلترا، أو وصل اللورد بايرون نفسه بطريقة ما، ولاحظ تلك الفتنة المتواضعة المتهيبة التي تتحلى بها تاتيانا فنبّه أونيغن عليها، لأصيب هذا على الفور بالدهشة والذهول، وذلك لأن من سمات ذوي «المعاناة العالمية» هؤلاء الخنوع الروحي الشديد في بعض الأحيان! ولكن هذا لم يحدث. وقد عمد هذا الباحث عن الانسجام العالمي، بعد أن ألقى عليها موعظته، وتصرّف، على العموم، تصرّفاً شريفاً جداً، عمد إلى المغادرة، حاملاً معه كآبة حنينه العالمي، وملطخاً يديه

(*) بطلة رواية «يفغيني أونيغن». (م).

(**) عبارة مستعارة من مقالة بيلينسكي التاسعة عن بوشكين. (ن). والمقصود أنها ما زالت جنيناً غير مكتمل التكوين من الناحية الروحية والشعورية. (م).

بالدم الذي أراقه بِحنق أحمق، وراح يطوّف في أرض وطنه من دون أن تلفت نظره، ويهتف لاعناً وهو يفيض صحة وقوة:

ها أنا شاب والحياة فيّ قوية
فماذا أنتظر بعد، كآبة، كآبة!

وقد أدركت تاتيانا هذا، ووصف الشاعرُ في أبيات خالدة بطلة روايته الشعرية وهي تزور منزل ذاك الشخص الذي كان ما يزال شديد الغرابة والغموض في نظرها. سأتجاوز هنا الحديث عما تتسم به هذه الأبيات من فنيّة، وعمق، وجمال لا يُدْرك شأوه، وأنظر إلى تاتيانا وهي في مكتب أونيغن تعاين كتبه، وأشياءه، وأدواته وتحاول أن تخمِّن من خلالها حقيقة نفسه، وتحل لغزه، وها هي، «ذاك الجنين الروحي» تتوقف أخيراً مستغرقة في التفكير وهي تبتسم ابتسامة غريبة، وقد أحست بأنها حلّت اللغز، وتتمتم شفتاها هامستين:

أليس هو مجرد مقلّد يا ترى؟

أجل، كان ينبغي أن تهمس بهذه الكلمات فقد حلت الغز. وفيما بعد، عندما التقيا من جديد في بطرسبورغ بعد مدة طويلة، كانت قد عرفته معرفة تامة. وبالمناسبة، من الذي قال إن حياة المجتمع الراقي المقرّب من البلاط قد مسّت روحها وأفسدتها، وإن وضعَها كسيدة من سيدات المجتمع الراقي، والمفاهيمَ السائدة في هذا المجتمع قد تسبّبا جزئياً في جعلها تردّ على أونيغن بالرفض؟ لا، لم يكن الأمر هكذا. لا، إن هذه هي تانيا* نفسها، هي نفسها تانيا القروية السابقة! إنها لم تفسد، بل بالعكس، فترف الحياة البطرسبورغية قد أثقل روحها وأرهقها، وهي تعاني وتتألم؛ إنها تكره وضعها كسيدة في المجتمع الراقي، ومن يحكم عليها بخلاف ذلك لا يفهم البتة ما أراد بوشكين قولَه. وها هي تقول لأونيغن بنبرة حاسمة:

لكنني وُهبت لآخر
وسأبقى، الدهر، له وفية

لقد نطقت بهذه الكلمات بصفتها امرأة روسية بالذات، وفي هذا تمجيدها. إنها تعبر عن حقيقة القصيدة. وأنا هنا لن أقول أية كلمة عن معتقداتها الدينية، وعن نظرتها إلى سر الزواج المقدس؛ لا، لن أمس هذا الموضوع. وماذا بعد؟ هل سبب رفضها أن تَتْبَعه، على الرغم من أنها هي نفسها قالت له: «إنني أحبك»، يعود إلى أنها «كامرأة روسية» (وليست امرأة جنوبية أو فرنسية مثلاً) غير قادرة على القيام بخطوة جريئة، وعاجزة عن كسر قيودها، وليس بوسعها التضحية بجاذبية مظاهر الإجلال والثراء والمقام في المجتمع الراقي وشروط الفضيلة؟ لا،

(*) تانيا: تصغير اسم «تاتيانا». (م).

إن المرأة الروسية جريئة. المرأة الروسية تُقدم بجرأة على اتّباع ما تؤمن به، وقد برهنت على هذا *. ولكنها «وُهبتْ لآخر، وستبقى، الدهر، له وفيّة». فلمن ستبقى وفية، ولأي شيء؟ لأية التزامات؟ أستبقى وفيّة لهذا الجنرال العجوز الذي لا تستطيع أن تحبه؟ لأنها تحب أونيغن، لهذا الذي لم تتزوجه إلّا لأن أمها توسلت إليها باكية متضرعة، ولأن نفسها المهانة الجريحة لم يكن فيها حينذاك سوى اليأس، وليس ثمة أي أمل، أو بارقة رجاء؟ نعم، ستبقى وفية لهذا الجنرال، زوجها، هذا الإنسان الشريف الذي يحبها ويحترمها ويفخر بها. فليكن أن أمها «قد توسلت إليها»، ولكنها هي التي وافقت لا غيرها؛ وهي التي أقسمت أن تكون زوجة مخلصة له. وليكن أنها تزوجته وهي في حالة يأس، ولكنه الآن زوجها، وخيانتها له ستجلّله بالخزي والعار وتقتله قتلاً. وهل يستطيع الإنسان أن يبني سعادته على شقاء غيره؟ إن السعادة ليست في ملذات الحب وحدها، بل في انسجام الروح الأسمى. وأنّى للروح أن تطمئن إذا كان يتتصب خلفها تصرف غير شريف، وخالٍ من الشفقة والإنسانية؟ أكان عليها أن تهرب لمجرد أن الأمر يرتبط بسعادتها؟ وأية سعادة يمكن أن تتحقق إذا كانت قائمة على شقاء أحد ما؟ اسمحوا لي: تصوروا أنكم أنتم أنفسكم تشيدون صرح المصير الإنساني من أجل غاية أخيرة هي أن تسعدوا الناس، وتهبوا لهم السلام والطمأنينة في نهاية المطاف؛ وتصوروا أيضاً أن هذا الهدف يقتضي بالضرورة وحتماً تعذيب كائن بشري، إنسان واحد لا أكثر، وليكن حتى إنساناً ليس بذي قيمة كبيرة، بل ليكن كائناً يمكن أن يعده بعضهم مضحكاً، إنه ليس عبقرياً مثل شكسبير، بل هو مجرد شيخ شريف، وهو زوج امرأة شابة يؤمن بحبها له إيماناً أعمى، على الرغم من أنه لا يعرف قلبها البتة، وهو يحترمها، ويفخر بها، وسعيد بها ومطمئن. والمطلوب هو وصم هذا الإنسان بالعار، وتلطيخ شرفه، وتعذيبه، ثم تشييد صرحكم على دموع هذا الشيخ الذي انتُهك شرفه! فهل تقبلون أن تشيدوا مثل هذا الصرح بهذا الشرط؟ هذا هو السؤال. وهل بمقدوركم أن تسمحوا لأنفسكم بالاعتقاد ولو دقيقة واحدة، أن الناس الذين شيدتم من أجلهم هذا الصرح سيوافقون على تقبّل مثل هذه السعادة منكم إذا كانت قائمة على معاناة إنسان، حتى وإن كان تافهاً، قد عُذِّب ظلماً وبلا شفقة؟ وهل هم إذا قبلوا هذه السعادة سيظلون سعداء إلى الأبد؟ قولوا لي: هل كان بوسع تاتيانا أن تتخذ قراراً مُغايراً، وهي التي تمتلك هذه النفس السامية، وهذا القلب الذي عانى أشد المعاناة؟ لا؛ إن النفس الروسية النقية تتخذ قرارها هكذا: «فلأُحرم وحدي من السعادة، وليكن شقائي أشد بما لا يقاس من شقاء هذا الشيخ، ولتظل تضحيتي مجهولة إلى الأبد ولا يدري بها أحد، ولا حتى هذا الشيخ نفسه، ولا يقدرونها حق قدرها، ولكنني لن أقبل أن أكون سعيدة مقابل تدمير غيري!» هنا مأساة،

(*) يشير دوستويفسكي هنا إلى مأثرة الديسمبريات. (انظر الهامش 14). (م).

وهي تحدث فعلاً، ولا يجوز تجاوز الحد، فقد فات الأوان، وها هي تاتيانا تصدّ أونيغن. سيقولون: ولكن أونيغن نفسه شقيّ أيضاً، فهي قد أنقذت واحداً، ودمّرت آخر! اسمحوا لي، هذه مسألة أخرى، ولعلها أهم مسألة في القصيدة. وأشير بالمناسبة إلى أن السؤال الآتي: لِمَ رفضت تاتيانا الذهاب مع أونيغن؟ له عندنا، أو في أدبنا على الأقل قصة فريدة من نوعها وذات دلالة طابعية جداً، ولذا سمحت لنفسي بالاستفاضة في الحديث عنه. والأكثر دلالة طابعية هنا هو أن الحل الأخلاقي لهذه المسألة ظل مدة طويلة عندنا موضع شك. وهاكم رأيي في هذا الأمر: إن تاتيانا، حتى لو أصبحت حرة، حتى لو مات زوجها العجوز وباتت أرملة، لم تكن لتذهب مع أونيغن. يجب فهم جوهر هذا الطبع بكامل أبعاده! فهي ترى بوضوح من هو: إنه مُترحِّل أبدي شاهد فجأة امرأة كان قد استهان بها من قبل تعيش الآن في وسط جديد باذخ يتعذر بلوغه، وفي هذا «الوسط» بالذات لب القضية كما أظن. فتلك الفتاة الصغيرة التي كان شعوره نحوها أقرب إلى الازدراء تحظى الآن بتبجيل المجتمع الراقي؛ هذا المجتمع الذي له في نفس أونيغن مهابة وسطوة، بصرف النظر عن كل تطلعاته العالمية. ولهذا السبب بالذات نراه يندفع نحوها اندفاعاً أعمى هاتفاً: ها هو مثلي الأعلى، ها هو خلاصي، ها هو المخرج من كآبتي. لقد سهوت عنه، وقد «كانت السعادة جد ممكنة وجد قريبة!»*. وكما اندفع «أليكو» نحو زيمفيرا في السابق، يندفع هو نحو تاتيانا، باحثاً في أخيولته العجيبة الجديدة عن حل لجميع مشكلاته. ولكن ألا تبصر تاتيانا فيه هذا؟ ألم تكن قد عرفت حقيقته منذ مدة طويلة؟ إنها لتعرف حق المعرفة أنه لا يحب في الواقع سوى أخيولته الجديدة، وليس إياها هي، هي التي ما زالت تاتيانا الوديعة كما كانت في الماضي! إنها تعرف أنه ينظر إليها على أنها شخص آخر، وليست كما هي في الواقع، بل إنه لا يحبها هي، وربما هو لا يحب أحداً أصلاً، بل إنه غير قادر حتى على أن يحب أحداً، بصرف النظر عن أنه يعاني كل هذه المعاناة المضنية! إنه يحب أخيولته، وهو نفسه ليس سوى أخيولة. ولو أنها تبعته لكان سيحس في اليوم التالي بخيبة أمل، وينظر بسخرية إلى حالة الشغف الذي استولى عليه. إنه لا يقف على أية تربة، بل هو عشبة متقلبة تتلاعب بها الرياح. أما هي فتختلف عنه تماماً: إنها، حتى في حالة اليأس والمعاناة المتأتية عن إدراكها أن حياتها قد تهدمت، تظل تمتلك شيئاً ثابتاً لا يتزعزع تستند روحها إليه، وهو ذكريات طفولتها، وذكريات موطنها الأول، تلك البقعة الريفية النائية، حيث بدأت حياتها الوادعة النقية؛ إنه ذاك «الصليب وفيء الأغصان فوق قبر حاضنتها المسكينة». أوه، إن هذه الذكريات، وهذه الصور الباقية من الماضي هي أغلى ما لديها الآن، وكل ما بقي لها، وهي التي تنقذ روحها من اليأس المطبق. وهذا ليس بقليل، لا بل إنه لكثير، فهو يشكل

(*) من رواية «يفغيني أونيغن» الفصل الثامن، المقطع 47. (ن).

أساساً متكاملاً، إنه شيء ما راسخ وعصي على الانهيار. هنا يتحقق التمّاس مع الوطن، ومع الشعب ومقدساته. فماذا لدى أونيغن، ومن هو ذاته؟ إنها لا يمكن أن تتبعه من باب التعاطف، ولمجرد أن تواسيه، ومن أجل أن تهبه، ولو إلى حين، من قبيل شفقة المحب اللا محدودة، شبحَ السعادة، وهي تعرف حق المعرفة أنه لن يلبث أن ينظر غداً إلى هذه السعادة باستهزاء. لا. ثمة نفوس عميقة وقوية لا يمكن أن تقدِّم عن وعي مقدساتها لما يشينها، حتى ولو كان الدافع إلى هذا هو الشعورَ بتعاطفٍ لا حدود له. لا. لقد كان من المحال أن تتبع تاتيانا أونيغن.

وهكذا ظهر بوشكين في رواية «أونيغن»، في هذه القصيدة الخالدة التي لا تُضاهى، كاتباً شعبياً عظيماً لم نعرف مثيلاً له قط. لقد أبصر مباشرة بنظرة في غاية النفاذ والدقة أعمق أعماق جوهرنا، ونفذ إلى دخيلة مجتمعنا الراقي الذي يقف فوق الشعب. وقد صوّر لنا بوشكين أنموذج الجوّاب الروسي الذي كان قبل زماننا، والموجود في زمننا. وهو أول من اكتشف بحسه العبقري هذا المُترحِّل، وأدرك مصيره التاريخي وأهميته الكبيرة في مصيرنا القادم، ووضع بجانبه أنموذج الجمال الإيجابي الذي لا مراء فيه، مُجسَّداً في شخصية المرأة الروسية. كما كان بوشكين هو أول كاتب روسي، طبعاً، يعرض أمامنا في أعمال تلك المرحلة من حياته الإبداعية سلسلة كاملة من النماذج الروسية الرائعة حقاً، التي وجدها في أوساط الشعب الروسي. والجمال الأبرز في هذه النماذج يتمثل في حقيقيتها؛ إنها حقيقة ملموسة لا تقبل الجدل. ولذا فإن هذه النماذج لا يمكن إنكارها. إنها تنتصب أمامنا كأنها منحوتة نحتاً. وأُذكِّر مرة أخرى: إنني لا أتحدث هنا بصفتي ناقداً أدبياً، ولذا فإنني لن أعمد إلى شرح فكرتي بمناقشة أدبية تفصيلية مسهبة لهذه الآثار العبقرية التي أبدعها شاعرنا. إن نموذج الراهب مدوِّن الحوليات الروسي على سبيل المثال، يمكن أن يكتب المرءُ عنه كتاباً كاملاً، لتبيان كل الأهمية، وكل الدلالة اللتين تتسم بهما، بالنسبة لنا، هذه الشخصية الروسية المهيبة، التي اكتشفها بوشكين على الأرض الروسية، فأبرزها ونحتها لِتَمْثل أمامنا الآن، وتبقى إلى الأبد، بكل جمالها الروحي الوادع والجليل الذي لا جدال فيه، شاهداً على روح الحياة الشعبية القوي الذي يمكنه أن يفرز من كيانه شخصيات كهذه لا يُمارى في حقيقيتها. إن هذا الأنموذج حقيقي، موجود، ولا يجوز المِراء فيه والادعاء بأنه مختلق، وأنه مجرد خيال أو تصور لشخصية مثالية ابتدعها الشاعر. إنكم تتأملونه بأنفسكم وتوافقون قائلين: نعم، إن هذا موجود، فإذاً إن روح الشعب التي خلقته موجودة، فإذاً إن القوة الحياتية لهذه الروح موجودة، وهي قوة عظيمة لا حدود لرحابتها. وإننا نلمس في جميع أعمال بوشكين إيماناً بالطبع الروسي، وبقوّته الروحية، وما دام ثمة إيمان إذاً ثمة أمل أيضاً، وأمل عظيم بالإنسان الروسي.

آملاً مجداً وخيراً

أنظر إلى الأمام بلا وجل*

هكذا قال الشاعر نفسه في مناسبة أخرى، بيد أن هذه الكلمات يمكن أن تنطبق مباشرة على مجمل نشاطه الإبداعي القومي. ولم يحدث قط لا قبله ولا بعده أن ارتبط كاتب روسي روحاً ودماً بشعبه كما ارتبط هو. صحيح أن عندنا كتّاباً كثيرين يعرفون شعبنا جيداً، ويكتبون عنه بكثير من الموهبة والإحكام والمحبة، ولكن عند مقارنتهم ببوشكين نجد أنهم - باستثناء واحد أو اثنين على الأكثر حتى الآن من أواخر أخلافه - ليسوا سوى «سادة» يكتبون عن الشعب. ويحدث أحياناً أن يلوح فجأة حتى لدى أقواهم موهبة، بمن فيهم الإثنان اللذان استثنيتهما آنفاً، شيء متعالٍ، شيء من بيئة معيشية أخرى، من عالم آخر، شيء ينطوي على رغبة الكاتب في رفع الشعب إلى مستواه وإسعاده بهذا الرفع. أما بوشكين فإن لديه شيئاً ما يربطه بالشعب بصلة قربى حقيقية، ويكاد يصل به إلى نوع من التأثر البريء الشديد البساطة. خذوا الحكاية التي تتحدث عن الدب وكيف قتل فلاح «أميرته الدبة» أو تذكروا المقطوعة الشعرية:

نسيبنًا إيفان! كيف سنشرب الأنخاب

تدركوا ماذا أريد أن أقول.

لكأن شاعرنا العظيم قد خلّف لنا كل هذه الكنوز الفنية، والإشراقات الإبداعية لتكون نوعاً من الإشارات الهادية للفنانين القادمين الذين سيخلفونه، لأولئك الذين سيعملون مستقبلاً في هذا الحقل. ويمكننا القول جازمين: لولا بوشكين لما وُجدت هذه المواهب التي أعقبته، أو على الأقل، لما تسنّى لهذه المواهب، بقطع النظر عن عظمتها، أن تتجلّى بمثل هذه القوة، وبمثل هذا الوضوح، اللذين عبرت بهما عن نفسها فيما بعد، في أيامنا هذه. ولكن الأمر ليس في الإبداع الفني وحده: فلولا بوشكين لربما لم يكن ليستقر في نفوسنا بمثل هذا الرسوخ الذي لا يتزعزع (والذي تجلى فيما بعد، ولكن حتى الآن ليس لدى الجميع، بل لدى عدد قليل جداً فقط) إيماننا باستقلالية شخصيتنا الروسية، وأملنا الذي أصبح الآن واعياً، في قوى شعبنا، ومن ثمة إيماننا برسالتنا المستقلة المقبلة ضمن أسرة الشعوب الأوربية. وتتضح مأثرة بوشكين هذه اتضاحاً خاصاً إذا نحن أنعمنا النظر فيما أسميه المرحلة الثالثة من نشاطه الفني:

أكرر مرة أخرى وأخرى أن هذه المراحل ليس لها حدود ثابتة. فبعض أعمال شاعرنا،

(*) مطلع «رباعيات» بوشكين (1826). (ن).

حتى في هذه المرحلة الثالثة، كان يمكن أن تظهر في فجر نشاطه الشعري، إذ إن بوشكين كان دائماً، كائناً عضوياً مكتملاً، كلّاً واحداً إذا جاز التعبير، يحمل في ذاته كل بوادر تطوره معاً. وكان يحملها في داخله ولا يتلقاها من الخارج. وكان دور العالم الخارجي يقتصر على إثارة ما هو كامن في أعماق نفسه. بيد أن هذا الكائن العضوي كان يتطور؛ ومن الممكن بالفعل تمييز مراحل هذا التطور، وتعيين الطابع الخاص لكل منها، وتدرّج ولادة كل مرحلة من سابقتها. وعلى هذا يمكن أن نُرجع إلى هذه المرحلة مجموعة أعماله التي تألقت فيها بصورة رئيسة أفكارٌ عالمية، وانعكست فيها صورٌ شعرية من عالم شعوب أخرى، وتجسدت فيها عبقرية هذه الشعوب. وقد ظهر بعض هذه الأعمال بعد رحيل بوشكين. ويمثّل شاعرنا في هذه المرحلة بالذات من نشاطه الإبداعي شيئاً ما يكاد يكون معجزاً، لم يُسمع بمثله ولم يُر نظير له من قبل في أي مكان أو لدى أي أحد. نعم، لقد ظهرت بالفعل في الآداب الأوربية عبقريات فنية ذات مقامات سامقة، أمثال شكسبير، وسرفانتس، وشيلّر، ولكن دلوني ولو على واحد من هؤلاء العباقرة العظام امتلك القدرة على الترجيع[4] العالمي، كالقدرة التي امتلكها بوشكين، وهذه القدرة بالذات، التي هي القدرة الرئيسة لدى أمتنا، هي بعينها ما يشارك فيه بوشكين شعبنا، وهذا ما يأتي على رأس السمات التي تجعل منه شاعراً شعبياً. إن أعظم الشعراء الأوربيين لم يقدروا قط على أن يتقمصوا عبقرية شعب آخر حتى ولو كان مجاوراً لشعبهم، وعلى أن يعبّروا عن روح هذا الشعب، وعن كل ما تكنّه هذه الروح في أعماقها، وكل ما تحن إليه لأداء رسالتها، بمثل هذه القوة التي حقق بها بوشكين كل هذا؛ بل بالعكس، فعندما كان الشعراء الأوربيون يتوجهون نحو الشعوب الأخرى كانوا، في أغلب الأحيان، يجعلون هذه الشعوب تتقمص سمات شعوبهم هم، وكانوا يفهمون هذه الشعوب على طريقتهم؛ وحتى لدى شكسبير، على سبيل المثال، نجد أن جميع الإيطاليين تقريباً إنكليز. إن بوشكين هو الشاعر الوحيد بين جميع الشعراء العالميين الذي يمتلك خاصية تقمص شخصيات من قوميات أخرى تقمصاً تاماً. انظروا إلى مشاهد من «فاوست»*، وإلى «الفارس البخيل»، وإلى أنشودة «عاش في هذا العالم فارس فقير». أعيدوا قراءة «دون جوان»** تروا أنكم لو لم تقرؤوا توقيع بوشكين لما كان بوسعكم البتة أن تعرفوا أن الذي كتبها ليس إسبانياً. وأية صور خيالية عميقة في قصيدة «مأدبة في زمن الطاعون»***! إن القارئ يلمس في هذه

(*) المقصود: «مشهد من فاوست» الذي كتبه بوشكين عام (1825). (ن).

(**) المقصود: مسرحية «الضيف الحجري» وهي إحدى «المآسي الصغيرة» الأربع التي كتبها بوشكين في الخريف البولديني الشهير عام (1830). (ن).

(***) المقصود: المسرحية غير المكتملة «مأدبة في زمن الطاعون» وهي إحدى «المآسي الصغيرة» الأربع. (ن).

الصور الخيالية عبقرية إنكلترا؛ فهذه الأغنية الرائعة التي يتحدث فيها بطل القصيدة عن الطاعون، وأغنية ماري التي تقول فيها:

في المدرسة الصاخبة
كانت تعلو أصوات أطفالنا

إنهما أغنيتان إنكليزيتان تعبّران عن حنين العبقرية البريطانية ونحيبها، وإحساسها الأليم المسبق بمستقبلها. وتذكروا تلك الأبيات الغريبة:

ذات مرة وأنا أجتاز وادياً موحشاً*

إنها لتكاد تكون نقلاً حرفياً للصفحات الثلاث الأولى من كتاب صوفي غريب** كُتب نثراً، وهو لرجل دين طائفي إنكليزي قديم؛ ولكن هل هو مجرد نقل؟ إنك لتحس في موسيقا هذا الشعر الشجية الحماسية روح البروتستانتية الشمالية بالذات، وروح هرطوقي إنكليزي، وصوفي مغالٍ إلى أبعد الحدود، بكل ما يتصف به من تطلعات مأفونة سوداوية قاهرة، واستغراق جامح في أحلام صوفية غيبية. ويخيل إليك وأنت تقرأ هذه الأبيات الشعرية الغريبة أنك تحس روح عصر «الإصلاح»، وتدرك سبب تلك النار المتحفزة للصراع، نار البروتستانتية الوليدة، وتفهم أخيراً التاريخ نفسه، تفهمه لا بالفكر وحده، بل كأنك أنت نفسك كنت هناك، ومررت بمعسكر أتباع هذه الطائفة المسلحين، وأنشدت معهم أناشيدهم، وبكيت معهم في لحظات وجدهم الصوفي، وشاطرتهم إيمانهم بما يؤمنون به. ونذكر بالمناسبة أنه إلى جانب هذه الصوفية الدينية نجد مقاطع شعرية دينية مستوحاة من القرآن، أو ما يسمى «محاكاة القرآن»: أفَلَيْسَ هذا مسلماً يتكلم؟ أفليسَ هذا بالذات روح القرآن بالذات وسيفه؟ أفليست هذه عظمة الإيمان البريئة، وقوته الدموية الرهيبة؟ وها هو العالم القديم في «ليال مصرية»، ها هم أولئك الآلهة الأرضيون الذين نصّبوا أنفسهم آلهة فوق شعبهم، واحتقروا عبقرية الشعب وطموحاته، ولم يعودوا يؤمنون به، وأصبحوا مجرد آلهة منعزلين، وأفقدتهم العزلة صوابهم، وانتابهم ضجر الاحتضار ووحشته، يواسون أنفسهم بارتكاب أفعال وحشية عجيبة، وبالاستسلام لشبق كشبق الحشرات، كشبق أنثى العنكبوت التي تفترس ذَكَرها. أجل، إنني أقول جازماً: لم يوجد شاعر يضاهي بوشكين في القدرة على الترجيع العالمي، ولا يقتصر الأمر على الترجيع فحسب، بل يشمل أيضاً عمقَه المدهش، وتقمُّص روح الشاعر

(*) المقصود مقطوعة بوشكين الشعرية «السَّيّاح» (1835). (ن).

(**) المقصود: كتاب «طريق الحاجّ» للشاعر والواعظ البيوريتاني الإنكليزي Bunyan جون بينيان (1628-1688) وقد ظهرت أول ترجمة روسية نثرية للكتاب في عام 1782 ويصف دوستويفسكي بينيان بـ«الهرطوقي» و«الطائفي» بصفته تابعاً متعصباً لتعاليم الكنيسة البيوريتانية (التطهُّرِيّة). (ن).

روح الشعوب الأخرى تقمصاً يكاد يكون تاماً، ولذا فهو معجز، إذ إن هذه الظاهرة لم يُر لها نظير ولم يُسمع بمثلها، فهي ظاهرة، بحسب رأينا، نبوية... وذلك... ذلك لأنه في هذا بالذات تحقق التجلي الأعظم لقوته القومية الروسية، تحقق تجلي روح الشعب في شعره، روح الشعب كما ستظهر في تطورها المقبل، روح الشعب كما ستكون في مستقبلنا الكامن في حاضرنا، وقد عبّر عنها الشاعر برؤيا نبوية. وهل تكمن قوة روح الشعب الروسي سوى في تطلعها إلى بلوغها، في نهاية المطاف، العالميةَ الشاملةَ والعموميةَ الإنسانية؟ إن بوشكين الذي أصبح شاعراً شعبياً تماماً، ما إن لمس قوة الشعب حتى أحس مسبقاً بالرسالة العظيمة التي على هذه القوة أن تؤديها في المستقبل، وبهذا يكون قد تكهّن بالآتي، وبهذا كان نبياً.

وبالفعل، ما هو إصلاح بطرس بالنسبة إلينا، لا من وجهة النظر إلى المستقبل فحسب، بل حتى من وجهة النظر إلى ما قد حدث فعلاً وغدا ظاهراً للعيان؟ ما الذي عناه لنا هذا الإصلاح؟ إنه لم يقتصر، بالطبع، على تَزَيّينا بزيّ الأوربيين، واكتسابنا عاداتهم، واختراعاتهم وعلومهم. فلنتعمق في الكشف عن كيفية حدوث الأمر، ولننعم النظر فيه. أجل، من الجائز جداً أن يكون بطرس قد باشر بإجراء إصلاحاته بادئ ذي بدء بهذا المعنى بالذات، أي بهدف تحقيق منفعة قريبة مباشرة، ولكنه في سياق تطويره اللاحق لفكرته فيما بعد، انقاد من دون شك إلى ما فرضه عليه حسٌّ كامن في أعماقه دفعه إلى التطلع نحو أهداف مستقبلية هي، بلا شك، أكبر بكثير من المنفعة القريبة المباشرة. وهذا بالضبط هو شأن الشعب الروسي الذي قَبِلَ الإصلاح لا من أجل أهداف نفعية فحسب، فهو بلا شك كان قد أحس مسبقاً وعلى الفور تقريباً ببلوغ هدف مقبل ما أسمى بما لا يقاس من المنفعة القريبة المباشرة، وأكرر القول إنه قد أحس بهذا الهدف إحساساً لا واعياً طبعاً، ولكن مع ذلك كان إحساسه به مباشراً وحياتياً تماماً. لقد كنا جميعاً آنذاك نطمح إلى إعادة الوحدة الحياتية، إلى توحيد الإنسانية ككل! ونحن استقبلنا في أنفسنا عبقريات الأمم الأخرى لا بمشاعر العداء (كما يُظنّ أن هذا ما كان يجب أن يحدث) بل بمشاعر الصداقة والمحبة التامة، وتقبلناها كلها معاً من دون أن نجعل بينها فروقاً تفضيلية تبعاً للقوميات، واستطعنا منذ أول خطوة تقريباً أن نميز بالغريزة التناقضات ونزيلها، وأن نَعْذِر، ونحقق المصالحة بين الاختلافات. وبهذا كنا منذئذ نعبر عن استعدادنا وميلنا، الذي كان قد اتضح لنا نحن لتوه وأعلن لنا عن نفسه، إلى إعادة التوحد الإنساني العام الشامل مع جميع أقوام الجنس الآري العظيم. نعم، إن رسالة الإنسان الروسي هي، بلا جدال، رسالة أوربية عامة وعالمية عامة؛ فمعنى أن تصير روسياً حقيقياً، روسياً بكل معنى الكلمة لا يصح إلّا إذا صرت (وشددّوا على هذا في نهاية المطاف) أخاً لجميع البشر، وإنساناً كلياً إذا شئتم. أوه، إن كل هذه الاتجاهات السلافوية والغربوية[13] عندنا ما هي إلا سوء تفاهم فادح، ولكن لم يكن

منه بد من الوجهة التاريخية. إن أوربا ومصير الجنس الآري العظيم كله عزيزان عند الإنسان الروس الحقيقي، كما هي عزيزة روسيا نفسها، وكما هو عزيز مصير أرض وطنه، لأن مصيرنا نحن إنما هو العالمية الشاملة، التي لا تُحاز بالسيف، بل بقوة الإخاء، وسعينا الأخوي إلى لمّ شمل البشر. وإذا تقصيتم تاريخنا بعد إصلاح بطرس ستجدون آثار هذه الفكرة وهذه الأحلام التي تراودني أنا، إذا شئتم، وتلاحظون إشارات تدل عليها في طابع اختلاطنا بالأمم الأوربية، وحتى في سياسة دولتنا؛ إذ ما الذي كانت تفعله روسيا طوال هذين القرنين على صعيد السياسة سوى القيام بخدمة أوربا، وربما أكثر بكثير من قيامها بخدمة نفسها؟ لا أظن أن سبب هذا هو عدم كفاءة سياسيينا. أوه، إن شعوب أوربا لا تعرف كم هي عزيزة عندنا! وأنا على يقين بأننا فيما بعد، أي ليس نحن بالطبع، بل الروس القادمون، روس المستقبل، سيدركون جميعاً بلا استثناء أن كون الإنسان روسياً حقيقياً، إنما يعني: أن يسعى لتحقيق المصالحة بين التناقضات الأوربية، على أن تكون مصالحةً نهائيَةً، وأن يدل الحنينَ الأوربيَّ إلى المَخْرَج، الذي هو في الروح الروسية التي تتوق إلى الكلية الإنسانية والوحدة العامة، وأن يستوعب في نفسه، بحب أخوي، جميع أشقائنا، وأخيراً أن ينطق ربما بالكلمة الفاصلة في تحقيق الانسجام العظيم الشامل، والوفاق الأخوي النهائي بين جميع الأمم وفق قانون المسيح الانجيلي! إني لأعلم حق العلم أن كلماتي يمكن أن تبدو موغلة في الحماسة والمبالغة والخيال. فليكن، وأنا لست نادماً على أنني قلتها. فقد كان ينبغي أن تقال، ولا سيما الآن، في ساعة احتفالنا هذا، في هذه الساعة التي نكرم فيها عبقرينا العظيم الذي جسد هذه الفكرة بالذات بقوةِ إبداعهِ الفني. ثم إن هذه الفكرة قد جرى التعبير عنها أكثر من مرة، وأنا هنا لا أقول أي جديد. والمهم أن كل هذا سيبدو اعتداداً بالنفس. سيقولون: «أهذا قدرنا نحن؟ أهذا قَدَرُ أرضنا البائسة، أرضنا الجلفة بالذات؟ أنكون نحن من قُدِّر لهم من بين سائر البشر أن ينطقوا بكلمة جديدة؟ وماذا في الأمر؟ وهل أنا أتكلم على المجد الاقتصادي، أو على مجد السيف أو العِلْم؟ إنني أتكلم عن إخاء البشر، وعن أن القلب الروسي ربما يكون هو المهيأ أكثر مما لدى أي شعب آخر لتحقيق الوحدة العالمية الشاملة، الوحدة الأخوية بين البشر كافة، وإنني أرى علامات هذا في تاريخنا، ولدى نوابغنا، وفي عبقرية بوشكين الفنية. فلتكن أرضنا بائسة، ولكن هذه الأرض البائسة «طاف فيها» المسيح «بهيئة عبد، مباركاً إياها*». فلماذا لا نستوعب نحن في أنفسنا كلمته الأخيرة؟ ألم يولد هو نفسه في مِذْود؟ وأعود فأكرر: إننا على الأقل نستطيع أن نشير إلى بوشكين، إلى ما تتسم به عبقريته من عالمية شاملة، وإنسانية عامة. فهو قد استطاع أن

(*) ينقل دوستويفسكي هنا بتصرف كلمات من مقطوعة تيوتشيف (انظر الهامش 21) الشعرية: «هذه القرى الفقيرة». (ن).

يستوعب في ذاته العبقريات الأجنبية كما لو كانت أهلية. لقد أظهر في الفن، أو على الأقل، في إبداعه الفني، على نحوٍ لا مراء فيه صبوة الروح الروسية إلى العالمية الشاملة، وفي هذا وحده آية كبرى. وإذا كانت فكرتنا خيالاً، فإننا، على الأقل، نجد لدى بوشكين ما نؤسس عليه هذا الخيال. ولعل بوشكين، لو امتد به العمر، كان سيكشف عن صور خالدة وعظيمة للروح الروسية، يفهمها إخوتنا الأوربيون، فيجذبهم أكثر نحونا ويجعلهم أقرب إلينا مما هم الآن، ولربما كان سيجد الوقت الكافي ليشرح لهم كل حقيقة تطلعاتنا، مما يجعلهم يفهموننا أكثر من الآن، ويصيبون في تخمين نيّاتنا، ويكفون عن النظر إلينا بهذا القدر من الارتياب والتعالي، كما ينظرون إلينا الآن. ولو امتد العمر ببوشكين لربما كانت حالات سوء التفاهم والجدال التي تنشأ بيننا نحن أقل مما نراه الآن. بيد أن الرب قضى بغير ذلك. لقد مات بوشكين وهو في كامل تفتح قواه، ولا شك في انه حمل معه إلى القبر سراً ما عظيماً. وها نحن الآن بعد رحيله، نعمل على اكتناه هذا السر.

الهوامش

1) **الطابعية**: صفةُ مؤنثٍ مفردٍ وجمعٍ لغير العاقل، وكذلك هي مصدرٌ صناعي مقترح من كلمة «طابع». ونَصِفُ بها سمةً تخص ظاهرة معينة، وتميزها جوهرياً من الظاهرات الأخرى. والطابعي: صفةُ مذكرٍ مقترحة منسوبة إلى كلمة «طابع» نَصِفُ بها «الجزء» الذي تتجلى فيه بوضوح خواص معينة تدل على جوهر «الكل»، وتميزه من «الكليّات» الأخرى. وللكلمة الروسية في المعجم عدة كلمات مقابلة في اللغات الأخرى، (في الإنكليزية مثلاً: characteristic - peculiar - distinctive - typical مميِّز، خاص بـ واسم، أنموذجي إلخ...). ولكن لكل من هذه المترادفات كلمة مقابلة باللغة الروسية تستخدم في سياقات مناسبة. (المترجم = م فيما يلي).

2) **الوصفية التصويرية** (Ócherk): إن المصطلح الروسي «أوتْشِرْك» له عدة معان تبعاً للسياق. ويقابله بالإنكليزية Essay, sketch, study بمعانيها المختلفة. ويفسر المعجم الأدبي الروسي مصطلح «أوتشرك» بأنه صنف من الأدب السردي يتميز من القصة والأقصوصة بما هما كذلك، ويميل إلى التوسع في العنصر الوصفي التصويري، ويمكن أن يصنَّف في خانة الأدب وفي خانة الصحافة، تبعاً لطبيعته في الحالة المعنية. كما يتخذ أحياناً شكل ومضمون الدراسة الوصفية (وخصوصاً عندما يرد المصطلح بصيغة الجمع). والمقصود من المصطلح هنا: نص أدبي يتضمن وصفاً لوقائع وأحداث شهدها الكاتب بنفسه، وهو أشبه ما يكون بتحقيق أو ريبورتاج صحفي أدبي، يتضمن معالجة عامة لموضوع ما ويتسم أحياناً بطابع حكائي؛ أما «الأسخورة» (felieton) فمصطلح مقترح لتسمية الزاوية الصحفية التي تتضمن خاطرة ناقدة، تتناول موضوعاً ملحاً بأسلوب أدبي ساخر، وتتخذ أحياناً شكل الأقصوصة القصيرة (و«المقامة» بالعربية). (م).

3) **نظائم**: جمع «نظيمة» وهي مصطلح مقترح لترجمة كلمة «zaconomeirnost» الروسية بدلاً من الكلمات المختلفة التي تستعمل عادة في ترجمتها مثل: قانون وقنونة، وسنّة

وناموس إلخ... و«النظيمة» فلسفياً هي علاقة جوهرية موضوعية بين الظواهر، تتكرر بانتظام معين؛ وهي على الصعيد الاجتماعي: علاقة موضوعية تربط بين ظواهر الحياة الاجتماعية أو مراحل العملية (السيرورة) التاريخية، وتكون هنا ملازمة للنشاط الإنساني الذي يجسدها في الواقع. ويسهِّل استخدام مشتقات المصطلح المقترح ترجمةَ مشتقات المصطلح الروسي، فالنسبة إلى «نظيمة» «نظيمي» (قياساً على «طبيعي» نسبة إلى «طبيعة» و«بديهي» نسبة إلى «بديهة» إلخ...)، علماً بأن الكلمة الروسية منحوتة من كلمتين هما «قانون وانتظام أو إيقاع وتواتر منتظم». ويقترب معنى «النظيمي» ضمن سياقات معينة من معنى «الطبيعي» المتَّفِق مع طبيعة الأمور كما يقترب معنى «النظيمة» ضمن سياقات أخرى من معنى كلمة «السنّة» كما في قولنا «سنّة الحياة» أو هذه «سنّة الطبيعة». (م).

4) «الترجيع»: ترجمة للكلمة الروسية «Otzivchivost» كان قد اعتمدها د. سامي الدروبي في ترجمته (عن الفرنسية) للخطاب الذي ألقاه دوستويفسكي في حفل تكريم الشاعر الروسي العظيم الكسندر بوشكين ونَشَرَه في «يوميات كاتب» (آب «أغسطس» 1880). وقد أعدتُ ترجمة الخطاب عن الروسية، واحتفظت بمصطلح الدكتور الدروبي نظراً لأنه أصبح مألوفاً لدى القارئ العربي الذي قرأ أعمال دوستويفسكي الإبداعية بترجمة د. الدروبي. والكلمة الروسية تعني فيما تعنيه: الاستجابة، والتلبية، وسرعة التأثر، والتفاعل لتضمينها معنى القدرة على الاستجابة والتجاوب؛ والمقصود منها في نص دوستويفسكي، كما يوحي السياق، القدرة الفائقة على النفاذ عقلياً ونفسياً وعاطفياً إلى جوهر الكائن الحي الآخر، والتفاعل معه، واستيعابه، ثم تقمصه والتماهي معه، والظهور بمظهر المعبِّر عن جوهره. (م).

5) **الكلبية**: (cynism من اليونانية «kinismos») مذهب الفيلسوف اليوناني أنتيستينس Antisthens (نحو 450-360 ق.م)، الذي كان يجمع تلاميذه في مكان يسمى «الكلب السريع» على ربوة في أثينا، فأُطلق عليهم اسم الكلبيين (باللاتينية cynici من اليونانية kynikoi) وقد طبق تعاليمه ديوجينس السينوبي الكلبي (Diogenes) (نحو 400-325 ق.م)، الذي كان يحتقر العلم والثروة والجاه ويدعو إلى مجانبة الأهواء. والكلبيون جميعاً يدعون إلى احتقار القوانين الوضعية، والتقاليد والأعراف، والقيم السائدة في المجتمع، لاعتقادهم أن المثل الأعلى للإنسان هو أن يجعل سلوكه موافقاً للطبيعة لا للقوانين والأعراف المفروضة عليه من الخارج.

وقد أصبحت صفة «الكلبي» تطلق فيما بعد على الشخص الذي يستخف بالمواضعات الاجتماعية، وقواعد الأخلاق ويسخر منها بمجون، ويستهتر بها بوقاحة، ويخالفها بلا حياء، ويعبِّر عن آرائه بفجاجة؛ وبهذا المعنى بالذات يُستعمل مصطلح «الكلبية» في اليوميات. (م).

6) **التطور الحلّاقي**: كلمة «الحلّاقي» في الروسية مفردة ألمانية مُرَوَّسَة، ويقصد الكاتب بهذه العبارة: التطور الشكلي المجلوب، الذي ينحصر ضمن مجالات هامشية ضئيلة الأهمية، لا تمس جوهر الواقع الروسي، وهي غريبة عنه. (م).

7) **الكفاس**: شراب شعبي روسي غير كحولي، يصنع من نقيع حبوب الجودار والملت، أو بعض الثمار، أو العسل. (م).

8) **مفيستوفيليس (ميفيستوفل)**: الروح الشريرة في الفلكلور الأوربي، والشيطان في «فاوست» للشاعر الألماني العظيم «غوته»، وتعني هنا «الشخص المغوي الموسوِس». (الناشر = ن فيما يلي).

9) **الكسندر غيرتسين** (1812-1870): ثوري روسي، كاتب وفيلسوف. أنهى جامعة موسكو (1833). ترأس حلقة ثورية، واعتُقل، وقضى ست سنوات في المنفى. بدأ ينشر أعماله منذ عام 1836. عاش في المهجر منذ عام 1847، وأسس في عام 1853 «المطبعة الروسية الحرة» في لندن، وأخذ يصدر جريدة «الناقوس» الثورية. مات في باريس.ودفن في نيس، له أعمال أدبية وفلسفية. (م).

10) **فيسّاريون بيلينسكي** (1811-1848): كاتب وناقد أدبي ومفكر ديمقراطي - ثوري روسي. كانت له الريادة في معالجة أطروحات علم الجمال والنقد الأدبي من وجهة نظر الفلسفة المادية في روسيا. أرسى في دراسته لأدب بوشكين وليرمنتوف وغوغول وسواهم مبادئ ما سمي آنذاك «المدرسة الطبيعية» أي «الواقعية» في الأدب. كان له تأثير كبير في كل من أتى بعده من النقاد والمفكرين الديمقراطيين الثوريين، والكتاب الواقعيين في روسيا. (م).

11) المقصود بـ **«الأممية»**: هنا «رفاقية العمل الدولية، الأممية الأولى» التي أسسها ماركس وأنجلز عام 1864. ويخطئ دوستويفسكي في عَزْوِه «النداء» إلى الأممية الأولى، إذ إنه صدر في الواقع عن «اتحاد الديمقراطية الاشتراكية»، الذي أسسه الثوري الفوضوي الروسي ميخائيل باكونين عام 1869. (ن).

12) - **جورج ساند** (صاند) (1804-1856): الاسم المستعار للكاتبة الفرنسية «أورور دو برين». (ن).

- **كابيت** (ايتيان كابيه) (1788-1856): شيوعي طوباوي فرنسي. (ن).

- **بيير ليرو** (1797-1871): فيلسوف فرنسي، أحد مؤسسي الاشتراكية- الطوباوية المسيحية. (ن).

- **شارل فورييه** (1772-1837): اشتراكي- طوباوي فرنسي. (ن).

- **لودفيغ فويرباخ** (1804-1872): فيلسوف مادي ألماني. (ن).

- **دافيد شتراوس** (1808-1874): مؤرخ وفيلسوف لاهوتي، وكاتب اجتماعي ألماني. مؤلف كتاب «حياة يسوع» (1835-1836) الذي نفى فيه صحة الأناجيل وذهب إلى أن المسيح شخصية تاريخية وقد حظي الكتاب بشعبية في روسيا بالرغم من منعه. (ن).

13) برز في روسيا في أواسط القرن التاسع عشر اتجاهان رئيسان متنازعان على صعيد الفكر الفلسفي والاجتماعي الروسي هما:

السلافويّة (السلافينوفيلية - سلافينوفيلستفو Slavophilism)

الغربويّة (زابدنيتشيستفو westernism)

ويدّعي ممثلو الاتجاه الأول أن لروسيا طريقَ تطورٍ خاصةً متفردةً تختلف عن طريق تطور أوربا الغربية، وتنبثق مبادئ هذا التطور من أصالة الحياة الروسية التي تتميز بالبطريركية (الأبوية)، والجمعويّة، والنزعة المحافظة، والأرثوذوكسية. وكان أشهر مناصري هذا الاتجاه من الأدباء المعروفين فيودور دوستويفسكي. أما الاتجاه الثاني فكان ممثلوه يرون أن طريق التطور التي سلكتها أوربا الغربية ملائمة لتطور روسيا، وكانوا ينتقدون نظرية الشعبوية الرسمية، ونظام القنانة والحكم القيصري المطلق. وقد اختلفوا مع الديمقراطيين الثوريين (بيلينسكي وغيرتسين وأوغاريوف في نهاية الأربعينيات؛ ثم تشيرنيشيفسكي ودوبرولوبوف وبيساريف وسواهم في الستينيات)، والتقوا بعد الإصلاح الفلاحي الزراعي الذي جرى في عام 1861 مع السلافويين في معسكر الليبرالية. وكان من أشهر مناصري هذا الاتجاه من الأدباء المعروفين إيفان تورغينف. (م).

14) **الديسمبريون** (الديكابريون): ثوريون روس من فئة النبلاء، نظّموا في الرابع عشر من كانون الأول (ديسمبر أو ديكابر «بالروسية») عام 1825 عصياناً مسلحاً موجهاً ضد النظام القيصري ونظام القنانة. كان معظمهم من الضباط الذين شاركوا في الحرب الوطنية ضد نابليون في عام 1812، وتأثروا بأفكار المنوِّرين الأوربيون. وقد أرادوا تنفيذ انقلاب عسكري بقوى الجيش ومن دون مشاركة الشعب. وكان بعضهم يطمح إلى إلغاء حق القنانة، وإقامة نظام جمهوري موحد، بينما كان بعضهم الآخر يتطلع إلى إقامة حكم ملكي دستوري ذي بنية فيدرالية. وقد قُمع العصيان وسيق 579 شخصاً إلى المحاكمة فشُنق بعضهم، ونُفي 121 شخصاً إلى سجون الأشغال الشاقة في سيبيريا. وقررت زوجات المنفيين وخطيباتهم اللحاق بهم طوعاً والعيش بقربهم في سيبيريا بكل ما في الحياة هناك من قسوة وشظف، وعلى الرغم من حرمانهن، بسبب ذلك من حقوقهن المدنية، ومن المزايا التي تتمتع بها فئة النبلاء. وقد أحدثت مأثرة «الديسمبريات» الرائعة هذه أثراً كبيراً في المجتمع الروسي. (م).

15) الكلمة الروسية المستعملة هنا «نيشّاسني» (miserable) - unfortunate - unhappy - unlucky - يمكن أن تعني، بحسب السياق، عندما نصف بها شخصاً ما: التَّعس - الشقيّ (بالمعنى الأصلي للكلمة) - السيئ الحظ - المشؤوم - المنحوس - العاثر الحظ - المنكود إلخ... وأرى أن الكلمة الروسية في سياق النص المترجم تشتمل على معنى كلمتي: التعس والسيئ الحظ. (م).

16) يعتمد دوستويفسكي هنا على قصيدة الشاعر الروسي نيكولاي نِكراسوف (1821-1877\1878): «ڤلاس» (1854) للتعبير عن أفكاره الأثيرة حول الطبع الروسي والمثل العليا القومية الروسية. (ن).

ومعنى ڤلاس في اللغة الروسية القديمة «الشَّعرة» وقد تأثر نكراسوف بأفكار بيلينسكي[15] الديمقراطية الثورية، وصوّر في معظم قصائده حياة الشعب: معيشة الطبقة الدنيا من سكان المدن، والحياة اليومية للفلاحين، وقسمة المرأة في المجتمع الروسي، منطلقاً في كل ذلك من مواقع ديمقراطية - ثورية. ومن أشهر قصائده «الباعة الجوالون» (1861) و«النساء الروسيات» (1871-1872)، و«من في روسيا عيشه رغد؟» (1866-1876)، حيث يرسم لوحة واقعية لحياة الفلاحين في روسيا ويعبّر عن أحلامهم بالسعادة. وقد ارتبط شعره ذو الروح المواطنية الديمقراطية بالغنائية الفلكلورية، وكان له تأثير كبير في تطور الأدب الروسي. (م).

17) **الإنسان العام**: مفهوم يعني الإنسان عموماً بصفته ظاهرة مجردة، لا ككائن تاريخي ينتمي إلى أمة محددة بعينها، وكلمة «gentilhomme» تعني الشخص المتحدر من فئة النبلاء بحسب التصنيف الفئوي، الذي كان سائداً في روسيا القيصرية. والكاتب يغمز هنا على الديمقراطيين الثوريين الروس، الذين كانوا، بحسب رأيه، يؤمنون بمفاهيم مجردة، ويدافعون عنها، من غير أن يأبهوا للواقع الحي الحقيقي؛ فالشعب عندهم مجرد مقولة فكرية، وليس مجموعة من البشر الأحياء الموجودين الآن على الأرض الروسية بكل مثالبهم ومناقبهم. (ن+ م).

18) ... لكأنه ليس أنت، بل شخص ما آخر، ذاك الذي تحدث بدلاً منك فيما بعد حديثا متصنعاً «على الفولغا» (1860). (ن).

وجارّو المراكب: هم العمال الذين كانوا يجرّون المراكب النهرية بالحبال من الضفة، وينشدون في أثناء ذلك أغاني ذات طابع حماسي خاص لشحذ الهمم واستنهاض القوى. (م).

19) **الكسندر نيكولايفتش اوستروفسكي** (1823-1886): مؤلف مسرحي روسي، مزج في مسرحياته بين التصوير الدقيق للواقع المعيشي، والتحليل التفصيلي للطباع البشرية، وصوّر

في أغلب مسرحياته نماذج مأخوذة من أوساط فئة التجار، وكان لأعماله تأثير كبير في صيرورة المسرح الروسي الواقعي. (م).

20) يستعمل دوستويفسكي عبارة «أفراخ عش بطرس» المأخوذة من قصيدة بوشكين «بولتافا» للإشارة إلى فئة النبلاء المثقفين، التي تشكلت في روسيا بعد التغييرات الإصلاحية التي أجراها الامبراطور بطرس الأكبر. (ن).

21) **«هذه الطبيعة الشحيحة»**: بيت من قصيدة الشاعر فيودورتيوتشيف: «هذه القرى الفقيرة...» (1855) التي كان دوستويفسكي يحبها كثيراً ويستشهد ببعض أبياتها. (ن).
وتيوتشيف (1803-1873) شاعر وديبلوماسي روسي، أشعاره محملة بنفحات روحية فلسفية تعبّر عن إحساس تراجيدي بتناقضات الوجود، وتصور تَصادياً رمزياً بين الظواهر الطبيعية والحياة الإنسانية. وتتسم قصائده الغنائية في الحب بتصوير دقيق لأعمق خلجات النفس البشرية. (م).

22) **أرخيب كوئيندجي** (1841-1910): رسام روسي ينتمي إلى «رفاقية الرسامين الجوّالين» (أصحاب المعارض المتنقلة)، وهي اتحاد تأسس عام 1870، وضمَّ نخبة من الفنانين التشكيليين الواقعيين، ذوي الميول الديمقراطية، الذين تخلوا عن الجماليات المثالية الأكاديمية، وتبنوا منهج الواقعية النقدية؛ اشتهر برسم المناظر الطبيعية في لوحات ذات طابع بانورامي، وإنارة واقعية. (ن).

23) **فلاديمير ماكوفسكي** (1864-1920): رسام روسي من «رفاقية الرسامين الجوالين»، اشتهر بلوحاته التي تصور الحياة المعيشية في المدينة وبموضوعاته الاجتماعية الناقدة. (ن).

24) **«مملكة الظلام»** عنوان مقالة مشهورة للناقد والمفكر الروسي الديمقراطي - الثوري البارز «نيكولاي دوبرولوبوف» (1836-1861) نشرها في تموز - أيلول 1859 في مجلة «المعاصر» بمناسبة صدور مؤلفات الكاتب المسرحي الكسندر اوستروفسكي، وفضح فيها طبائع المستبدين في حياتهم المنزلية والعامة. وهم، في معظمهم، من فئة التجار التي برع أوستروفسكي في تصوير مفردات حياتها، وقد فضح الناقد في مقالته المذكورة، على نحو غير مباشر، مفاسد النظام القيصري والمجتمع القني بأكمله. (ن+م).

25) **فاسيلي بيروف** (1833/34-1882): رسام روسي أحد منظمي «رفاقية الرسامين الجوالين»، اشتهر بلوحاته الواقعية التي تعرّي روسيا القنية، وتتعاطف بحرارة مع الشعب المضطهد، كما اشتهر ببورتريهاته النفسية. (ن).

26) سيكون أكثر فائدة بكثير... من جميع الأغاني عن القميص... (لاأقصد هنا هود، بل كتابنا

نحن) - المقصود: مقالة ن. ك. ميخايلوفسكي «ملاحظات أدبية وصحفية»، التي يتطرق فيها إلى الحديث عن قصيدة للشاعر ت. هود: «أغنية عن القميص» التي يصور فيها الوضع الصعب الذي تعاني منه النساء الخياطات منتقداً استغلال عمل المرأة. (ن). وتوماس هود (1799-1845) شاعر إنكليزي صوّر في قصائده الظروف الشاقة لحياة الكادحين. وكان النقاد الديمقراطيون الثوريون الروس يشيدون بأعماله. أما نيكولاي ميخايلوفسكي (1842-1904) فهو عالم اجتماع وناقد أدبي من «الشعبيين» تبنى في التسعينيات أفكار الاشتراكية - الفلاحية، وناهض الماركسية. (م).

27) «قرأت قصيدتَيْ نِكراسوف الأخيرتين» - المقصود: قصيدتا «الأميرة تروبيتسكايا» و«الأميرة م.ن. فولكونسكايا»، اللتان نشرتا تحت عنوان واحد هو «النساء الروسيات». (ن).

28) **إيليا ريبين** (1844-1930): رسام روسي واقعي مشهور يُعدُّ من أبرز ممثلي «رفاقية الرسامين الجوالين»، أبدع لوحات مؤثرة تصور آلام الشعب وقواه الكامنة وجماله الروحي، ورسم لوحات تصوّر أحداثاً تاريخية مشهورة. (ن).

29) **ف.أ. برونّيكوف** (1827-1902): بروفيسور الفن التشكيلي التاريخي، وهو مبدع اللوحة المذكورة في النص «نشيد الفيثاغورثيين للشمس المشرقة» (1869)، التي تسم إبداع الفنان المذكور. (ن).

30) **نيكولاي غي** (1831-1894): رسام روسي من مؤسسي «رفاقية الرسامين الجوالين». له بورتريهات نفسية، ولوحات تاريخية، وتكوينات انطباعية درامية ذات موضوعات دينية - أخلاقية. (ن).

31) **تيتيان** (تيتسيان) (1489/ 1490-1576): رسّام إيطالي يُعدُّ أحد أعظم فناني عصر النهضة، وقد استوحى موضوع لوحته المذكورة هنا «دينار قيصر» أو «المسيح وقطعة النقد» من الانجيل (انظر انجيل متّى 22/ 15-21). (ن).

32) **الكسندر پيپين** (1833-1904): مؤرخ أدبي، عمل طويلاً في تحرير مجلتي «المعاصر» و«المذكرات الوطنية». له مؤلفات في الأدب الروسي القديم والحديث، وفي التاريخ، والفكر الاجتماعي، والإثنوغرافيا، والفولكلور، ويشير دوستويفسكي هنا إلى الجزء السادس «السلافوية» من مؤلفه «توصيف الآراء الأدبية من العشرينيات حتى الخمسينيات. دراسات تاريخية». (ن).

33) المقصود تمثال بطل نضال الشعب الروسي ضد التدخل البولندي «إيفان سوسانين» (؟ -1613)، وهو فلاح من منطقة كوستروما ضلّل فصيلة من الجنود البولنديين في أعماق غابة كثيفة لا طرق فيها في شتاء عام 1613، فقتلوه. (ن).

34) **فلاديمير سباسوفتش** (1829-1906): محام وكاتب روسي مشهور، وبروفيسور في جامعة بطرسبورغ؛ كان قد استند في إحدى مرافعاته الدفاعية على مقولة مفادها أن اتسام المرء في شبابه بـ «روح عملية» يكاد يكون ظاهرة مستهجنة لأنه يحد من اندفاعه في طريق المغامرة واقتحام المجهول.(ن). (ملاحظة: سيأتي ذكره فيما بعد بصفته محامي الدفاع في «محاكمة كرونيبيرغ»). (م).

35) **سيرغي بوتكين** (1832-1889): طبيب روسي مختص بالأمراض الداخلية؛ وهو مؤسس الاتجاه الفيزيولوجي في علم الطب السريري الروسي. (ن).

36) **«العالَم الروسي»**: جريدة ذات اتجاه محافظ، كانت تصدر في بطرسبورغ في السنوات 1871-1880، وقد دخل دوستويفسكي في سجالات مع محرريها أكثر من مرة في «يوميات كاتب» لعام (1873). (ن).

37) **يوستوس ليبيخ** (1803-1873): كيميائي ألماني مشهور، وأوتو ادوارد ليبولد بسمارك (1815-1898) رجل دولة وسياسي في بروسيا وألمانيا شغل منصب المستشار الامبراطوري منذ تأسيس الامبراطورية الألمانية في عام 1871 وحتى عام 1890. قدم مساعدة جوهرية لقمع كومونة باريس. عمل على تقوية ألمانيا وتوحيدها تحت الرعاية البروسية وجعل منها قوة أوربية ودولة استعمارية. (ن).

38) المقصود: **«أعمدة هرقل»** أو «عمودا هرقل» وهي التسمية القديمة لمضيق جبل طارق، الذي يفصل بين قارتي أوربا وأفريقيا، ويصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي؛ وتقول الأسطورة إن البطل اليوناني هرقل (هيراكليس) أقام هذين العمودين (وهما صخرتان متقابلتان على ضفتي المضيق) تذكاراً لرحلته التي قام بها للاستيلاء على قطعان العملاق «جيريون» الذي كان يسكن في أقصى الغرب عند حدود العالم، حيث تنتهي الأرض. والتعبير المجازي «الوصول إلى عمودي هرقل» يعني «الوصول إلى الحد الأقصى». (ن+م).

39) **قضية نيتشايف**: جريمة قتل الطالب المستمع في الأكاديمية الزراعية البطرسية أي.إي. إيفانوف، التي ارتُكبت في 21 تشرين الثاني عام 1869 على يدي منظم جمعية «القِصاص الشعبي» السرية س.غ. نيتشايف (1847-1882) بمشاركة كل من: ب.غ.أوسبينسكي، وأ.ك. كوزنيتسوف، وإي.غ. بريجوف، ون.ن. نيكولايف. وقد تحدث عن انعكاس هذه الحادثة في رواية «الشياطين» لدوستويفسكي الناقد الروسي ف.غ. أفسيينكو. (ن). وتجدر الإشارة هنا إلى أن عنوان الرواية المذكورة أعلاه قد ترجم إلى اللغة العربية بكلمات مختلفة

أشهرها «الشياطين»، كما لدى د. سامي الدروبي و«الأبالسة»، و«الممسوسون» و«الجن» و«المهووسون» وربما صادف القارئ لدى مترجم بعينه في عمل بعينه عن دوستويفسكي ترجمة للعنوان نفسه بكلمات مختلفة. (م).

40) **البيتْرَشيفسكيون**: أعضاء جمعية ثورية في بطرسبورغ بادر إلى تشكيلها وتزعّمها ميخائيل بيتْرَشيفسكي (1821-1866) وهو ثوري روسي من الإشتراكيين الطوباويين. كان يدعو إلى دمقرطة النظام السياسي في روسيا وتحرير الفلاحين. حُكم عليه في عام 1849 بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، وسُجن في مصانع ما وراء بايكال حتى عام 1856، ثم نُقل للإقامة في مدينة ايركوتسك في سيبيريا. وكانت جمعية البيترشيفسكيين (أواخر عام 1844 - أوائل عام 1849) تضم مجموعة من الشباب المثقفين المنتمين إلى الفئات المتوسطة، الذين كانوا يهتمون بالشؤون الثقافية، وبالتثقيف الذاتي النظري، وبادر بعضهم إلى الإعداد لتنظيم جمعية ثورية سرية والدعوة إلى انتفاضة فلاحية. وقد جرى اعتقالهم في 23 نيسان عام 1849، وحُقّق مع 123 عضواً منهم، وأدانت المحكمة العسكرية 22 عضواً حُكم على 21 منهم بالإعدام - (ومن بينهم دوستويفسكي)- ثم استُبدل به النفي إلى سجون الأشغال الشاقة في سيبيريا لمدد مختلفة، وعُفي عنهم في عام 1856. (ن+م).

41) **نيكولاي كارامزين** (1766-1826): كاتب وروائي ومؤرخ روسي. مؤسس مذهب «العاطفانية» (السينتيمينتالية) في الأدب الروسي. عمله الرئيسي هو «تاريخ الدولة الروسية» في اثني عشر مجلداً. (م).

42) **فاسيلي كيلسييف** (1835-1872): كاتب روسي قضى شطراً من حياته في المهجر، وأصدر كتاباً بعنوان «قصص عن المهاجرين» (1869). (ن).

43) تلميح سجالي إلى أقصوصة الأديب الروسي الساخر سالطيكوف شيدرين «كورونات العاق». (ن). (كورونات: اسم بطل الأقصوصة)، وميخائيل سالطيكوف شيدرين (1826-1889) كاتب روسي ساخر، ديمقراطي تنويري. تأثر بأفكار بيلينسكي والاشتراكيّين الطوباويِّيْن الفرنسيَّيْن: شارل فورييه وسان سيمون. كتاباته موجهة ضد النظام القيصري - القنيّ. صوّر التفسخ الروحي والمادي لفئة النبلاء الروس وانتقد انتقاداً لاذعاً النظام السياسي والأعراف الأخلاقية في أوربا البرجوازية. (م).

44) تعبير «انعدام التفكير» أو «غياب التفكير» بالروسية كلمة واحدة مركبة من أداة نفي وكلمة تفكير وهي من ابتكارات دوستويفسكي، وتعبير «انعدام المعنى» أو «بلا معنى» كلمة مركبة أصلاً وتشكل مع الأولى جناساً ناقصاً. (م).

45) المقصود أسخورة أ. إي. سوفوروف «وصفيات ولوحات أسبوعية» وكان الكاتب المذكور يوقع كتاباته بلقب «المجهول». (ن).

46) كوييتِزم (من الكلمة اليونانية quietus = هادئ، مُطمئِن) تعاليم دينية تتصل بالخضوع والاستسلام السلبي لمشيئة الرب حتى مطالبة المرء بأن يكون لا مبالياً بقضية «خلاصه». وقد ظهر هذا المذهب في القرن السابع عشر ضمن الكاثوليكية وأدانته المراجع الكنسية، ومعنى الكلمة المجازي: التأمل السلبي، وعدم القيام بأي عمل. (ن).

47) ألقيبيادس (نحو451-404 ق.م): سياسي وقائد عسكري أثيني. تميز بوسامة بالغة، ومواهب متعددة، وكان بارعاً في اكتساب حب المحيطين به. هجر وطنه وتعاون مع الاسبرطيين، ثم التجأ إلى الفرس، فقتلوه بطلب من الاسبرطيين. (ن).

48) لوكريتسيا: حسناء فاضلة، زوجة الروماني كولاتينوس، لوّث شرفها ابن القيصر الروماني سيكستوس تركوينيوس، فقتلت نفسها بخنجر وقد روى قصتها المؤرخ اللاتيني الشهير تيطُس ليفيوس (59ق.م - 17 م) وجسدتها أعمال أدبية ولوحات فنية كثيرة. (ن).

49) بيرونية: نسبة إلى الشاعر الفرنسي الكسيس بيرون (1589-1773) اشتهر بمقطوعاته الشعرية القصيرة الساخرة وردوده السريعة اللاذعة. (ن).

50) بافل أبولفونوفتش روفنسكي (1813-1916): إثنوغرافي وباحث مختص بالشؤون السلافية، ورحالة، وكاتب مقالات. وقد أدار شؤون الإصلاحية خلال السنوات (1875-1877). (ن).

51) كُتبت كلمة «ملاحظة» في الأصل مُرَوّسة من اللاتينية «نوتابينه» وعلق الناشر على ذلك بالهامش الآتي: (نوتا بينا، نوتا بينِه «من اللاتينيه nota- bene لاحظ جيداً» الحرفان N.B اللذان يكتبان على هامش الكتاب أو المخطوطة للفت الانتباه إلى المكان المعني في النص). (م).

52) ألكسندر كولتسوف (1809-1842): شاعر روسي وصف في أشعاره الحياة في الريف، ومجّد مباهج العمل والتواصل مع الطبيعة؛ وكثير من مقطوعاته قريبة من الأغاني الشعبية الروسية. (م).

53) إشارة تهكمية إلى طريقة التعليم العياني التي كان يروّج لها في سبعينيات القرن التاسع عشر بعضُ العاملين في مضمار التعليم الشعبي، مستندين إلى خبرة المربّين الألمان. (ما الذي يغطي جسم البطة وسنجاب الأرض والعقعق والقطة...إلخ... ولماذا)؟ (ن).

54) بوتوغين: بطل رواية الأديب الروسي إيفان تورغينف «دخان» 1867 وهو، كما يقول

الكاتب نفسه، يمثل «الغربوي الكامل»(13). وكان موقف دوستويفسكي من هذه الرواية وبطلها سلبياً جداً. ويصادفنا اسم «بوتوغين» كثيراً على صفحات «يوميات كاتب» كرمز لعدم فهم روسيا. (ن).

55) الحديث يدور حول رد فعل دوستويفسكي على النزاع الذي أصدر ضجة في عام 1873 بين كاتب الأساخير في صحيفة «الوقائع السانت بطرسبورغية» أ.س. سوفورين ومدير الخط الحديدي «أوريول - فيتيبسك» ڤ.ف. غولوبيف. (ن).

56) **غوراتسيو ووليم إيدّي**: أخوان في أسرة صاحب مزرعة أميركي، وقد ذاع صيتهما على نطاق واسع بصفتهما وسيطين في استحضار الأرواح. وقد نشر عالم الحيوان والكاتب الروسي نيكولاي فاغنر في أواخر عام 1875 مقالة مستفيضة عن جلسات استحضار الأرواح التي تقام في بيت آل إيدّي. ويستعمل دوستويفسكي هنا عنوان رواية الكاتبة الأمريكية غ. بيتشر - ستو «كوخ العم توم» مُحوَّراً بقصد التهكم. (ن).

57) يشير دوستويفسكي هنا إلى ما نشرته صحف بطرسبورغ، من باب التهكم عن أن روح الكاتب الروسي نيكولاي غوغول أمْلَت على أحد مستحضري الأرواح المسكوفيين الجزء الثاني من رواية «النفوس الميتة»، نقلاً عن المخطوطة التي كان غوغول قد أحرقها قبيل وفاته. (ن).

58) **«من يشبه هذا الوحش؟ سبحانه إنه ينزل لنا النار من السماء!»**: عبارة مركبة من آيتين مختلفتين في الإصحاح الثالث عشر من رؤيا القديس يوحنا، مع بعض التحريف (انظر 4 و 13/ 13). (ن).

59) **دميتري مندلييف** (1834-1907): عالم كيميائي ومربٍّ روسي، وشخصية اجتماعية بارزة. اكتشف القانون الدوري للعناصر الكيميائية ووضع أول جدول لها (1869). له أكثر من (500) عمل مطبوع. (ن).

60) **وليم كروكس** (1832-1919): كيميائي إنكليزي معروف، كان بادئ ذي بدء، يقف موقف المتشكك من عمليات استحضار الأرواح، ثم اقتنع فيما بعد بوجود «قوة نفسية» تتيح إمكانية القيام بـ «أعاجيب» استحضارية. أما هنري ستيل أولكوت (1832-1907) فهو عالم أميركي مختص بالاقتصاد الزراعي، ورجل قانون، وكاتب صحفي، ويُعدّ من نشطاء استحضار الأرواح. (ن).

61) **إيفان فيليوفتش**: تركيب مكوّن من الجمع بين جزأين مأخوذين من اسميّ الزعيمين الرئيسين لطائفة الخليستيين، وهما إيفان سوسلوف ودانيلا فيليبوفتش. (ن).

والخليستيون (المؤمنون بالمسيح، أناس الرب) طائفة نشأت في النصف الثاني من القرن السابع عشر في المقاطعات الوسطى في روسيا، وأنكرت سلطة الكنيسة في سبيل الاعتراف بسلطة الروح القدس. وقد اتسم أتباعها بالزهد الشديد، والتنسك، وإقامة الأذكار التي يصل المشاركون فيها إلى حالة من الوجد القريب من «الفناء»، لشعور المؤمن بحلول الروح القدس في جسده. (م).

62) هو قصر تويليري في باريس الذي تعرض للحرق ثم للتفجيرفي (24) أيار 1871 إبان المعارك بين ثوار كومونة باريس وقوات فرساي. (ن).

63) إلماعاً إلى قصيدة ياكوف بولونسكي «الأرواح القديمة والجديدة» (26/ 12/ 1875)، وبولونسكي (1819-1898) شاعر روسي وعضو مراسل في أكاديمية العلوم البطرسبورغية. (ن).

64) **باتريس دو ماكماهون** (1808-1893): مارشال فرنسي. قاد جيش حكومة فرساي، التي قمعت كومونة باريس (1871). رئيس جمهورية فرنسا في الأعوام (1873-1879). (ن).

65) **بيتشورين**: بطل قصة «بطل زماننا» (بطل من هذا الزمان) التي كتبها الشاعر الروسي الشهير ميخائيل ليرمنتوف (1814-1841) وصوّر فيها نموذجاً أدبياً رائعاً للأشخاص الذين سُمّوا في تاريخ الأدب «الزائدين عن اللزوم» (الفائضون عن الحاجة). (م).

66) **قسطنطين أكساسوف** (1817-1860): كاتب ولغوي ومؤرخ وشاعر روسي؛ أحد إيديولوجيي السلافوية. كان يؤيد إلغاء نظام القنانة مع الحفاظ على الحكم القيصري المطلق. ويشير دوستويفسكي هنا إلى مقالة أكساسوف: «عن الإنسان المعاصر»، التي نُشرت في عام 1876، بعد وفاة كاتبها، في مجموعة «المساعدة الأخوية» التي أصدرها الفرع البطرسبورغي للهيئة السلافية. (ن).

67) المقصود: **سيرغي رادونيجسكي** (نحو 1315-1392): مؤسس ورئيس دير «الثالوث - سيرغي». وهو أحد قديسي الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وشخصية كنسية واجتماعية بارزة، ومناصر لتعزيز سلطة الإمارة الروسية العظمى. (ن).

68) **فيودوسي بيتشيرسكي** (ت 1074): مؤسس ورئيس دير «كييفو- بيتشيرسكي» وهو أحد قديسي الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. (ن).

69) **تيخون زادونسكي** (1724-1783): أسقف فورونيج ويليتس، وهو أحد قديسي الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. (ن).

70) **«أوبلوف»**: رواية تحمل اسم بطلها للكاتب الروسي إيفان غونتشاروف (1812-1891)،

وقد اشتُقَّ من اسم البطل المصدرُ الصناعي «الأوبلوموفية» (أوبلوموفْشِنا) كناية عن الخمول والتراخي والكسل. (م).

71) «القراءات الشهرية»: نصوص كنسية تروي حياة القديسين بحسب ترتيب الاحتفاءات بذكراهم، وتحتوي على ترنيمات وصلوات وتعاليم لكل يوم من أيام الشهر، وعلى مدار السنة؛ ظهرت في القرن الثاني عشر، واشتهرت منها القراءات التي وضعها دميتري روستوفسكي في أواخر القرن السابع عشر. (ن).

72) الخبير هو: الأستاذ المساعد في الأكاديمية الطبية الجراحية وطبيب التوليد والأمراض النسوية ف. م. فلورينسكي (1833-1899). (ن)؛ والمقارع الصفصافية: ترجمة اصطلاحية لكلمة روسية تعني: عصياً متخذة من أغصان الصفصاف مرنة وطويلة كانت تستخدم لجلد المجرمين والجنود المذنبين في روسيا قبل ثورة اكتوبر. (م).

73) المقصود: شخصية الأديب أويفيه في رواية «... بينديِّنيس...» (1850) للروائي الإنكليزي المعروف وليم ثاكِري (1811-1863). (ن).

74) ألفونس دو لامارتين (1790-1869): شاعر رومنتيكي وسياسي ليبرالي فرنسي. ترأس الحكومة المؤقتة في فرنسا من شباط (فبراير) لغاية كانون الأول (ديسمبر) 1848. اتخذ موقفاً سلبياً من الأفكار الاشتراكية وكان يدعو إلى إزالة التناقضات الاجتماعية بالوسائل السلمية. (ن).

75) اقتباس غير دقيق لكلمات السيد المسيح عن الكتبة والفرّيسين الذين يتمسكون بحرفية القواعد الدينية و«يحزمون أحمالاً ثقيلة شاقة الحَمْل ويلقونها على مناكب الناس ولا يريدون أن يحركوها بأحد أصابعهم (للإعانة على حملها)». (متّى 23/ 4). (ن).

76) السيّد غامّا: هو الاسم المستعار للصحفي غ. ك. غرادونسكي، الذي كانت تجري مساجلات صحفية متكررة بينه وبين دوستويفسكي. (ن).

77) دون كارلوس الأصغر (1848-1909): المطالِب بالعرش الإسباني باسم «كارل السابع»، وهو منظم الحرب الكارلوسيّة؛ علماً بأن الحربين الكارلوسيتين جرتا بين فرعين من آل بوربون الإسبان. أما السير وليم واتكين (1819-1901) فهو نائب في البرلمان الإنكليزي. (ن).

78) ليف كوبرنيك: محام وكاتب مقالات صحفية، رافع في العديد من المحاكمات السياسية، بما في ذلك قضية «نيتشايف». ويقصد دوستويفسكي هنا ما نشرته الصحف عن أن كوبرنيك كان يحث الحوذيين على الإسراع في العدو وإلّا أطلق النار عليهم من مسدسه. (ن).

79) شامبور (هنري شارل 1820-1883): دون بوردو؛ وهو كونت، ممثل لفرع آل بوربون في

فرنسا. نظر إليه «الشرعيون» بعد ثورة تموز عام 1830، على أنه المرشَّح الشرعي لتسلم عرش فرنسا باسم (هنري الخامس)، ولكنه رفض في عام 1873 ترؤس مؤامرة الملكيين. (ن). والمقصود بالشرعيين هنا أنصار آل بوربون الذين كانوا يعملون على إعادة الملكية إلى فرنسا بعد أن أسقطتها ثورة تموز عام 1830. (م).

80) **المقصود لويس بونابرت (1808-1873)**: عاش حتى ثورة 1848 في المنفى ورُشِّح بعد عودته إلى فرنسا لتولي رئاسة الجمهورية، وسُمّي في الثاني من كانون الأول عام 1852 «الامبراطور نابليون الثالث»، وخُلع بعد هزيمته أمام ألمانيا وقيام ثورة إيلول (سبتمبر) عام 1870. (ن).

81) **هاينريش هايني (1797-1856)**: من أعظم الشعراء الغنائيين الألمان، ولد في دوسلدورف وعاش في باريس بعد عام (1831)؛ ودوستويفسكي يكرر هنا غلط هايني الذي يخلط مشهدين مختلفين من رواية «سيرفانتس» أحدهما بالآخر، وهما مشهد انتصار الفارس الحَدَث شمشون كارّاسكو، المتنكر بزي «فارس القمر الأبيض» على دون كيشوت وإلقائه أرضاً، (الجزء الثاني، الفصل 64)، والمشهد الذي يتساعد فيه الكاهن مع الحلاق نيكولاس على ربط يديّ دون كيشوت وهو نائم، ووضعه في قفص، (الجزء الأول، الفصل 46). (ن).

82) **فرانسوا أوراس باستيان سيباستياني (1772-1815)**: دبلوماسي وجنرال في جيش نابلوين الأول. شارك في غزو روسيا عام 1812. تولى وزارة الخارجية الفرنسية (1830-1832) مارشال منذ عام (1840). (ن).

83) ربما كان الأصح أن نقول «دَوْلي» نسبة إلى «دولة» ولكن تفادياً للالتباس والخلط بين «دَوْلي» و«دُوَلي» (نسبة إلى دُوَل)، اعتمدت صيغة النسبة «دَوْلَوي» (قياساً على أُسروي «نسبة إلى أسرة» و«نهضوي» نسبة إلى «نهضة» و«فتنوي» نسبة إلى «فتنة» إلخ...) للدلالة على ما هو خاص بالدولة؛ أما كلمة دُوَلي فتدل على ما هو قائم بين دولتين أوأكثر. (م).

84) إن ما يجمع بين الطوائف الدينية التي يعدها الكاتب هنا هو، في تصوره، طقس «الذِّكر» الذي يوصل القائمين به إلى حالة الوجد والفناء والاتحاد مع الذات الإلهية عن طريق العَدو، والقفز والدوران، والارتعاش والتشنج، والاهتزاز، إلخ...و«الألفية»، بحسب عقيدة طائفة «المجيئيين» وسواهم، هي ألفية ملكوت الرب على الأرض، الذي سيقوم عند المجيء الثاني للسيد المسيح، قبل نهاية العالم. (ن).

85) **يكاترينا تتارينوفا (1783-1856)**: مؤسِّسة اتحاد طائفي قريب من طائفتي الخليستيين[61] (وهم المؤمنون بالمسيح - أناس الرب) والخصائيين. (انظر انجيل متّى 19/ 12). (ن).

86) **الهيكليون** (فرسان الهيكل): رهبانية كاثوليكية عسكرية تأسست في القدس عام (1118) ثم انتقلت إلى الغرب. وقد حلها ملك فرنسا فيليب الرابع عام (1307) واستولى على ممتلكاتها الواسعة من الأراضي. واعتقل أعضاءها، ثم أمر بحرقهم عام (1310) بتهمة الزندقة. (ن).

87) **فاسيلي أفسيينكو** (1842-1913): كاتب قصصي وروائي وناقد. شارك في المساجلات التي دارت في الصحف حول دور فئة «النبلاء» في الحياة الاجتماعية في روسيا بعد «الإصلاح الفلاحي- الزراعي» منطلقاً من أنها الفئة القائدة والمنقذة، ومنتقداً آراء دوستويفسكي عن دور «الشعب» في إنقاذ الأمة. (ن).

88) **«الويل من العقل»**: ملهاة شعرية أدبية رائدة في الأدب الروسي (1822-1824) تتضمن نقداً لاذعاً للنظام الاجتماعي السياسي في روسيا، وقد أصبحت أسماء كثيرة من شخصياتها أعلام جنس، وتحولت بعض أبياتها إلى أقوال مأثورة. كتبها الأديب والدبلوماسي الروسي الكسندر غريبوييدوف (1795-1829)، الذي عُيّن في عام (1828) سفيراً لبلاده في «فارس» حيث اغتاله المتعصبون الفرس المتآمرون مع الإنكليز. (ن).

89) **«يوفينالات الصُّدْارات الخاميّة القساة»**: شطر مقتبس من قصيدة «فيزيولوجيا الشاعر الجديد»، «أسخورة منظومة» للشاعر الروسي نيكولاي شيربينا (1821-1869)، وكان يضمّن أشعاره موضوعات مستمدة من العصور القديمة. له مجموعة «أشعار إغريقية» (1850). (ن). و«يوفينالات» جمع اصطلاحي لاسم الشاعر اللاتيني الهجّاء «يوفينال» نحو (60-127 م)، وفي بعض المصادر نحو (65-140 م) وقد هجا مختلف فئات الشعب من القاعدة إلى القمة هجاء مقذعاً قاسياً. (م).

90) **هوراس**: بطل مأساة الكاتب المسرحي الفرنسي بيير كورناي «هوراس» (1640)؛ وأبولون (أبولو) بيلفيدير: النسخة الرومانية المحفوظة في الفاتيكان والمأخوذة عن تمثال أبولون الإغريقي. وأبولون هو ابن زيوس، وهو الرب الشافي، والمتنبئ وراعي الفنون. (ن).

91) **حملة القرم**: حرب القرم في الأعوام 1853-1856. وقد نشبت الحرب في البداية بين روسيا وتركيا العثمانية للسيطرة على الشرق الأدنى. ومنذ شباط 1854 تحالفت تركيا مع إنكلترا وفرنسا. وانتهت الحرب بهزيمة روسيا عسكرياً في عام 1855، وعُقد صلح باريس في عام 1856. (ن).

92) إشارة إلى نظرية **«موسكو هي روما الثالثة»**، التي نشأت منذ أواسط القرن الخامس عشر، بعد سقوط القسطنطينية في عام 1453؛ وذهبت إلى أن روسيا التي طفقت تتقدم بسرعة في

جميع المجالات، وتضطلع بدور بارز في الشؤون الدولية، هي الوريثة الدينية والسياسية لـ «روما الثانية» (أي بيزنطة)، وهي حامية الأرثوذكسية، وقائدة العالم الأرثوذكسي. وقد طوّر الكاتب والراهب الروسي فيلوفي (في العقد الأول من القرن السادس عشر) هذه الفكرة التي انعكست فيما بعد في آراء السلافويين[13]. (ن).

93) **«الشبان الكبّة»**: لقب كانت تطلقه على نفسها جماعة من المحتالين المسكوفيين الفتيان، المتحدرين من فئة النبلاء، وقد ارتكب هؤلاء عدداً كبيراً من الجرائم الجنائية، وجرت محاكمتهم في شباط (فبراير) - آذار(مارس) من عام 1877، وترتبط التسمية برواية «نادي الشباب الكبّة» (1865) للكاتب الفرنسي ب.آ. بونسون دي تيرّايل (1829-1871). (ن).

94) تداعٍ مرتبط بذكريات دوستويفسكي عن أحداث اليوم الذي سيق فيه البيترشيفسيكيون[40] إلى ساحة الإعدام (في 22 كانون الأول (ديسمبر) 1849)، ثم أُعلن في اللحظة الأخيرة عن إلغاء الحكم والاستعاضة عنه بالنفي إلى سجن الأشغال الشاقة في سيبيريا، كما كان القيصر قد قرر سلفاً. (ن).

95) **إيفان بيتسكوي** (1704-1795): المشرف الرئيس على الإصلاح التربوي في روسيا في القرن الثامن عشر. وقد أُسّست بمبادرة منه «دور التربية» في موسكو (1764)، وبطرسبورغ (1770) بحسب الخطة التي وضعها، وصدّقتها الامبراطورة كاترين (يكاترينا) الثانية. (ن).

96) يتهكم دوستويفسكي على إصدار المحلفين قراراً ببراءة الفتاة بوغومولوفا ذات الستة عشر بيعاً، التي اتُّهمت بقتل الجنين الذي كانت حبلى به. والمتهمة ابنة أحد خدم البلاط ويورد دوستويفسكي هنا متهكماً الإفادة التي أدلت بها الفتاة في المحكمة لتبرير ما حدث. (ن).

97) **أولغا شابوفا**: ربطت مصيرها عن وعي وإصرار بمصير رجل مريض ومحكوم عليه بالنفي، وتزوجته عن حب، وتبعته إلى منفاه السيبيري. وكان أ. ب. شابوف، أستاذ التاريخ الروسي في جامعة قازان، قد أُبعد عن التدريس في عام 1861، واعتقل لمشاركته في القدّاس الجنائزي، الذي أقيم لراحة نفس الأقنان، الذين قتلوا في أثناء الاضطرابات في قرية بيزدنا بمقاطعة قازان؛ ثم نفي إلى سيبيريا في عام 1864، وعاش هناك حتى آخر أيامه (مات في 17/ 2/ 1876)، وظلت زوجته أولغا، التي قاست الأمرّين في حياتها السيبيرية مخلصة له في حبها حتى وفاتها (في 13/ 3/ 1874). (ن).

98) **أدولف تيير** (1797-1877):رجل دولة ومؤرخ فرنسي، ساعد في إعادة الملكية عام (1830)، أصبح رئيساً للجمهورية الفرنسية (1871-1873)، حاول تجريد عمال باريس من أسلحتهم، مما أثار تمرداً ثورياً أدى إلى تشكيل «كومونة باريس» فترأس تيير

قوات فرساي وقمع الكومونة بوحشية. تآلفت ضده جماعة الأحزاب الملكية مما دفعه إلى الاستقالة. له مؤلفات في التاريخ. أما «كومونة باريس» (من 18/ 3 حتى 28/ 5 عام 1871) فهي أول ثورة بروليتارية، وأول حكومة تشكلها الطبقة العاملة التي ثارت في باريس بعد هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية - البروسية (1870-1871) وبسبب السياسة المعادية للشعب التي انتهجتها الجمهورية الثالثة. (م).

(99) **الكفاسيون**: أي شاربو الكفاس[7]، الزيبونيون: لابسو «الزيبون»، وهو رداء روسي طويل مصنوع من جوخ غليظ، لا ياقة له، ويكون أحياناً بلا كمّين، كان يرتديه الفلاحون الروس قديماً. والمقصود: التمسك بالتقاليد القديمة، وعدم مواكبة العصر. (م).

(100) **إيفان غاغارين** (1814-1882): دبلوماسي روسي، تلميذ الفيلسوف الألماني فريدريك شيلينغ (1775-1854)، اعتنق الكاثوليكية في عام (1842)، وانتسب إلى الرهبانية اليسوعية في عام (1843)، وكان يؤيد إتباع الكنيسة الأرثوذكسية للفاتيكان. (ن).

(101) **بيمونت**: الإقليم الرئيس في مملكة سردينيا، وكان هو محور اتحاد إيطاليا، وقد لقِّبت صربيا بـ «بييمونت البلقان» منذ الستينيات بسبب سعيها في مجال السياسة الخارجية لبلوغ أهداف توحيدية، طامحةً إلى دور النواة التي ينبغي أن تستقطب الدول المسيحية السلافية وتوّحدها بعد تحررها من النير التركي. وكان تشبيه صربيا بـ «بييمونت» أمراً مألوفاً في الصحافة عام (1876). (ن).

(102) **الهيئة السلافية**: تأسست الهيئة الخيرية السلافية الموسكوفية في عام (1858) لتقديم المساعدة للمدارس والمكتبات العامة والكنائس في الأراضي السلافية، وكذلك للسلاف الذين يدرسون في روسيا؛ وقد أنشئت فيما بعد فروع للهيئة في مدن أخرى، (أنشئ فرع بطرسبورغ عام 1868)، ولم تكن الهيئة تقصر نشاطها على الأغراض الخيرية فحسب، بل كانت تطمح إلى الاضطلاع بدور سياسي فعال في العالم السلافي. وتجلى ذلك في دعم النضال الوطني التحرري الذي كانت تخوضه شعوب شبه جزيرة البلقان، بيد أن نقد السياسة الخارجية الرسمية، والتوجه نحو العمل بمعزل عن الحكومة القيصرية إبّان «الأزمة الشرقية» في السبعينيات أديّا إلى إغلاق الهيئة السلافية الموسكوفية، والحد من نشاط الهيئات السلافية الأخرى. (ن).

(103) **كليمينس مترنيخ** (1773-1859): وزير خارجية النمسا، ورئيس حكومتها الفعلي في الأعوام (1809-1821)، تولى منصب المستشار في الأعوام (1821-1848). كان يقف ضد توحيد ألمانيا، ويسعى إلى الحؤول دون توطيد مواقع روسيا في أوربا.

ويُستعمل اسم مترنيخ هنا كرمز لسياسة الغدر التي انتهجتها النمسا بإشرافه. وقد ظل نهج مترنيخ متّبعاً في النمسا حتى بعد استقالته في آذار (مارس) 1848. (ن).

(104) انحصر الخلاف حول «الأماكن المقدسة»، الذي كان هو السبب المباشر لاندلاع حرب القرم، في تحديد الجهة التي يجب أن تحوز مفاتيح كنيسة المهد في بيت لحم. وقد ظلت المراجع الدينية الروسية العليا تتخذ موقف اللا مبالي من النزاع حول الأماكن المقدسة إلى أن تحولت المسألة إلى نزاع دولي بإيحاء من نيكولاي الأول ونابليون الثالث. اللذين كان كل منهما يبحث عن ذريعة لتحقيق أهدافه السياسية الخاصة في الشرق الأدنى. (ن).

(105) نيكولاي كيرييف (1814-1876): ضابط في فرقة خيالة الحرس الامبراطوري، وأحد أنشط أعضاء الهيئة السلافية في بطرسبورغ. كلّفته الهيئة في أواسط نيسان (أبريل) عام 1876 السفرَ إلى الخارج لتقويم آفاق الانتفاضة في بلغاريا، واحتمالات اندلاعها. وعند وصوله إلى صربيا في بداية حزيران (يونيو) عكف على تشكيل فرق من المتطوعين البلغار تحت إمرته. وقد شاركت فرقته التي انضمت إليها قطعات صربية في المعارك، التي دارت رحاها في بداية الحرب مع الأتراك. وفي السادس من تموز (يوليو) سقط كيرييف في ساحة المعركة وهو يقاتل قتال الأبطال. (ن).

(106) يستعمل دوستويفسكي في هذا المقطع القصة الواردة في «أعمال الرسل» في العهد الجديد حول موعظة الرسول بولس في محفل «أريو باغس» (أريوس باغُس Areios Pagos) وهو المجلس الأعلى للسلطة القضائية والسياسية في أثينا القديمة. وقد وردت هذه القصة في الفصل السابع عشر من «أعمال الرسل»، الذي يختتم بالعبارات الآتية: «فلما سمعوا بقيامة الأموات استهزأ بعضٌ منهم، وقال غيرهم سنسمع منك عن هذا مرة أخرى. وهكذا خرج بولس من بينهم. ولزمه أناس وآمنوا ومنهم ديونسيوس الأريوباغي وامرأة اسمها دامَريس وآخرون معهما». (ن). وقد ورد اسم المرأة في نص دوستويفسكي (فامار) بينما هو في العهد الجديد باللغة الروسية (دامار). (م).

(107) هذه العبارة التهكمية التي يوردها «المفارقاتي» تعبر عن الاعتقاد الذي كان سائداً في أوساط الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين، وأخذه عنهم «البترَشيفسكيون»[40] في روسيا. وقد ورد في ختام الكراس السياسي الاجتماعي النقدي اللاذع الذي أصدره سان سيمون وأوغست تييري في عام (1814) العبارات الآتية «... إن خيال الشعراء وضع العصر الذهبي في مهد الجنس البشري، وسط جهل وجلافة الأزمنة البدائية؛ بيد أن الأصح هو جعل هذا الزمن ينتمي إلى العصر الحديدي. إن العصر الذهبي للجنس البشري ليس وراءنا، بل أمامنا». (ن).

(108) **توماس مالتوس** (1766-1834): اقتصادي إنكليزي مؤسس النظرية المالتوسية التي تزعم أن التوافق بين عدد السكان، وكمية وسائل العيش في العالم لا يمكن ضبطه إلا بوساطة انتشار الأوبئة، والمجاعات، والحروب، والعمل المضني، وما شابه ذلك. (ن).

(109) المقصود «**مذكرات إيفان دميترييفتش ياكوشكين**»، وهو أحد الديسمبريين[14] الذين كانوا ينوون تحرير الأقنان الذين يملكونهم من دون تقاضي فدية منهم، وكان ينوي منحهم البيوت التي يسكنونها، والماشية، والخيول، والممتلكات التابعة للقرى؛ والاحتفاظ بالأراضي المتبقية ضمن ممتلكاته ليستثمر نصفها بأيدي عمال أحرار لقاء أجر، ويؤجر النصف الآخر لفلاحيه السابقين. ولم يكن ياكوشكين يعلم أولاد الفلاحين الإنشاد الكنسي الجماعي، بل كان يعلمهم القراءة والكتابة، لإرسالهم فيما بعد إلى موسكو لتعليمهم مختلف المهن؛ ولكن دوستويفسكي عرض محتويات هذه الفقرة من المذكرات بتصرف يخلق انطباعاً لدى القارئ يبدو ياكوشكين من خلاله واحداً من النبلاء المنقطعين عن «التربة». [أي عن أصالة روسيا وحقيقتها]. (ن).

(110) غالباً ما كان دوستويفسكي يُسمي حقبة «الإصلاح الفلاحي - الزراعي» (1861-1870) حقبة «البلبلة» بسبب الاضطرابات والتمردات الفلاحية التي تلت «الإصلاح» وإلغاء نظام القنانة في روسيا عام 1861. (ن).

(111) المقصود: **يليزافيتا**، ابنة الكاتب والمفكر الكسندر غيرتسين[9]، وقد كان عمرها عندما انتحرت سبع عشرة سنة؛ ويختلف النص الأصلي لرسالتها عن النص الذي يورده دوستويفسكي، ويبدو أنه نقله من رسالة بوبيدونوستسف ومصادر وسيطة أخرى. (ن).

(112) المقصود: «**قائمة المراتب**» التي صدّقها بطرس الأول بقرار امبراطوري أصدره في 14 كانون الثاني (يناير) عام 1722. وقد صنَّفت جميع الوظائف المدنية والعسكرية والبلاطية في الدولة، بحسب هذه القائمة، ضمن تراتبية صارمة تتألف من أربع عشرة مرتبة، بدءاً من «مستشار دولة» وانتهاء بـ «كاتب ديوان». (ن).

(113) المقصود: س.ت. **أوفسيانيكوف**، وهو تاجر من أصحاب الملايين، كان يتاجر بالدقيق، وقد ثبتت عليه تهمة الإحراق المتعمد لمطحنة كان قد استأجرها من مليونير آخر، وكان من شأن إحراقها أن يعود عليه بأرباح فاحشة. (ن).

(114) «**قضية ستروسبيرغ**»: المقصود هو المحاكمة القضائية التي جرت في تشرين الأول (اكتوبر) عام 1876 في موسكو بصدد إفلاس مصرف التسليف التجاري الموسكوفي. وكانت الشخصية الرئيسة بين المتهمين في هذه القضية الألماني ب. غ. ستروسبيرغ؛

متعهد مشروع الخط الحديدي بريست – غاريفو في روسيا. وقد استدان هذا الشخص من المصرف عن طريق الرشوة سبعة ملايين روبل بضمانة وثائق لا تساوي شيئاً، وعجز عن التسديد، فأدّى هذا إلى إفلاس المصرف. (ن).

115) اندلعت في السادس من كانون الأول (ديسمبر) عام 1876، في ساحة قازان في بطرسبورغ، مظاهرة ثورية قامت بها منظمة «الأرض والإرادة» التي أنشئت في العام نفسه، وادّعت صحيفة «الوقائع الموسكوفية» أن هذه المظاهرة من تدبير قوىً خارجية تهدف إلى إخافة روسيا من الثورة قبل انعقاد «مؤتمر القسطنطينية». (ن).

116) ربما كان دوستويفسكي يتحدث هنا عن نفسه. فهو في صباه قد شغف بقصص «ساند»[12] وهوفمان، التي تجري أحداثها في البندقية. وأرنست هوفمان (1776–1822) شاعر وموسيقي ورسام ألماني رومنتيكي، امتاز بتهكمه الفلسفي، وتخيلاته العجيبة المنطوية على نقد الواقع. (ن).

117) يستعمل دوستويفسكي هنا كلمة نادرة الاستعمال في اللغة الروسية وهي (stryutskiye) ويعدّد معجم دال (فلاديمير دال 1801–1872 لغوي ومعجمي روسي شهير) الذي صدرت طبعته الأولى في أربعة مجلدات في الأعوام 1863–1866 ثلاث صفات لإيضاح معنى هذه الكلمة، وهي: أدنياء، أخسّاء، حقراء. (ن+م).

118) رودين: اسم بطل الرواية التي كتبها إيفان تورغينف في عام (1855) وعنونها باسم بطلها، ثم أضاف إليها مشهد مصرع البطل على المتاريس في الطبعة التي صدرت في عام (1860) ويشير دوستويفسكي هنا، على الأرجح، إلى ميخائيل باكونين (1814–1876)، وهو ثوري روسي ومنظّر مذهب «الفوضوية» وقد هاجر من روسيا منذ عام 1840، وشارك مشاركة فعّالة في انتفاضة دريزدن في عام 1848. وباكونين هو الشخصية الأصلية الرئيسة التي استوحى منها تورغينف شخصية رودين. (ن).

119) يذكر دوستويفسكي هنا شخصيات من الكتاب المقدس للتعبير عن فكرة الأخوّة العالمية الشاملة. فقد ورد في التوراة أن النبي نوح الذي نجا من الطوفان كان له ثلاثة أبناء. وقد أصبح الابن الأكبر «سام» هو الجد الأعلى للساميين، أما ذرية الابن الثاني «حام» فقد استوطنت إفريقيا، ونشأ من ذرية الابن الأصغر «يافث» العرق الهندو- أوربي الذي تنتمي إليه الشعوب الأوربية. (ن).

120) **نيكولاي تشيرنيشيفسكي** (1828–1889): كاتب وناقد أدبي ومفكر ديمقراطي ثوري روسي عمل على تطوير إرث ف. بيلينسكي[10] الفكري، وتزعم الحركة الثورية في روسيا

في حقبة الستينيات. اعتقل في عام 1862 وأُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة في سيبيريا، وأفرج عنه في العام 1883. له دراسات وإبداعات عديدة في مجال الفلسفة، والأدب، وعلم الاجتماع وعلم الجمال، وعلم الأخلاق، والتربية، تبنى أفكار الاشتراكية الطوباوية ودعا إلى الثورة الفلاحية في روسيا. وكان لأعماله الفكرية والأدبية أثر كبير في تطوير الحركة الثورية في روسيا. (م).

121) **الكسندر دولغوشين** (1848–1885) ثوري شعبوي روسي، شكّل حلقة «الدولغوشينيّن» الذين كانوا يطبعون ويوزعون مناشير سرية، وينشرون دعوتهم في أوساط الفلاحين والعمال، وقد اعتقلوا وحوكموا في عامي 1873–1874 وحُكم على دولغوشين وأربعة من أنصاره بالأشغال الشاقة، وعلى الآخرين بالنفي. مات في السجن. (ن).

122) **بروسبير ميريميه** (1803–1870): كاتب ومسرحي ومترجم فرنسي. له أعمال قصصية ومسرحية عديدة، وكذلك أعمال تأريخية، ودراسات في تاريخ الفن؛ وترجمات من الأدب الروسي والآداب السلافية الأخرى. وقد ترجم بعض أعمال بوشكين وغوغول وتورغينف. (ن).

123) **هلموت فون مولتكِه** (1800–1891): قائد ألماني. رئيس الأركان العامة، اضطلع بدور بارز في توحيد ألمانيا وفي الحرب ضد فرنسا (1870–1871). **أوتو فون بسمارك** (1800–1898): سياسي ألماني، تولى منصب المستشار بعد الانتصار على فرنسا في عام (1870)، عمل على تحقيق الوحدة الألمانية من الأعلى مع مولتكه وكان يلقّب بالمستشار الحديدي، أو الأمير الحديدي، وذلك لأنه أعلن منذ عام 1862 أن عقيدته السياسية الداخلية والخارجية تنص على توحيد ألمانيا بالقوة العسكرية وبـ «الحديد والدم». ولم تكن سياسة «الحديد والدم» مقبولة لدى دوستويفسكي الملتزم بالمبادئ الإنسانية. (ن).

124) يطور دوستويفسكي هنا الفكرة التي عبّر عنها في «يوميات أيار (مايو) عام 1876» حيث يقول إن نظرية داروين في الغرب فرضية عبقرية، أما عندنا فقد أصبحت بديهية منذ مدة طويلة وفكرة أن الجريمة غالباً ما تكون مجرد مرض لها في الغرب مغزىً عميق <...> أما عندنا فلا فإن هذه الفكرة لاتنطوي على أي مغزى <...> فأي شيء، أو أية فعلة شنعاء يقوم بها أحد «الشبان الكبة»[93] تراهم يكادون يصفونها بأنها مرض... (ن).

125) يشير دوستويفسكي في هذا التوصيف للمبادئ السياسية التي ينادي بها رجال الدولة المعاصرون في أوربا الغربية، وإلى النهج الذي يتبعه رئيس الوزراء البريطاني اللورد

بيكونسفيلد، وهو بنيامين دزرائيلي (1804-1881)، الذي تولى رئاسة مجلس الوزراء في بريطانيا عام 1868 وفي الأعوام 1874-1880، وكان رئيساً لحزب المحافظين، وقد انتهجت حكومته سياسة التوسع الاستعماري. (ن).

126) يشير دوستويفسكي هنا، على الأرجح، إلى أتباع أفكار الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت (1798-1857)، مؤسس المذهب الوضعي؛ وإلى آراء الفيلسوف الألماني لودفيغ فورباخ (1804-1872) في كتابه «جوهر المسيحية» (1841)؛ وربما كان يشير أيضاً إلى أطروحات المفكر الإنكليزي روبرت أوين (1771-1858) المعارضة للدين. (ن).

127) إشارة إلى التباين في القوانين التي كانت تنظم منح جوازات السفر إلى الخارج في عهدي القيصرين الروسيين نيكولاي الأول (1796-1855)، الذي تولى الحكم منذ عام 1825، وابنه الكسندر الثاني (1818-1881)، الذي تولى الحكم منذ عام 1855؛ إذ حدّد الأول في عام 1851 مدة إقامة الشخص من فئة النبلاء في الخارج بسنتين فقط، وإلّا ترتّبت عليه غرامات مالية وألغى الثاني هذه التضييقات في آب 1856. (ن).

128) **كميلّو بنسو كافور** (1810-1861): زعيم الجناح الليبرالي المعتدل في الحركة الإيطالية العاملة على توحيد إيطاليا؛ وقد تولى بعد إنجاز الوحدة رئاسة الحكومة الإيطالية (1861). وكان كافور يتمتع بسمعة لا تشوبها شائبة في أوساط الليبراليين الروس، بينما كان الثوريون الديمقراطيون، وفي مقدمتهم تشيرنيشفسكي[120] ودوبرولوف[24]، يعدونه شخصية ليبرالية عادية، وكان دوستويفسكي يوافقهم على هذا التقويم، ويتهكم على من يعده «عبقرياً». (ن).

129) **بليفنا** (حالياً بليفين): مدينة في شمالي بلغاريا وقعت حولها معارك ضارية بين الروس والعثمانيين في عام (1877)، وبلغت خسائر الجيش الروسي إبان المحاولة الفاشلة لاقتحام المدينة المحاصرة في 18 تموز (يوليو) عام 1877، أكثر من سبعة آلاف عسكري بين قتيل وجريح. وقد استسلمت القوات التركية في 28 تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه. (ن).

130) اقتباس غير دقيق من «تنبؤات» يوحنا ليختينبيرغِر، التي تتضمن توقعات تعتمد على التنجيم، وقد صدرت هذه التنبؤات مطبوعة أول مرة عام 1488 في ستراسبورغ، ثم أعيد إصدارها مرات عديدة فيما بعد بلغات أوربية مختلفة. (ن).

131) **«بلد العجائب المقدسة»**: عبارة مقتبسة من قصيدة «الحلم» لألكسي ستيبانوفتش خوميكوف (خومياكوف) (1835). وخوميكوف (1804-1860) فيلسوف لاهوتي

وكاتب وشاعر روسي، من مؤسسي مذهب السلافوية، كان يطالب بإلغاء نظام القنانة، وإلغاء عقوبة الإعدام، وبتطبيق حرية الكلمة والنشر إلخ... انطلاقا من مواقف ليبرالية. (ن).

(132) المقصود: «**المعتكف يوحنا الصبور**»: الذي صارع طويلاً شيطان الإغواء الجسدي، ثم حفر حفرة وطمر نفسه فيها حتى الكتفين، ومع ذلك ظل الشيطان يغويه ويعذبه إلى أن استجاب الرب لصلواته، وخلصه من عذاباته. ولم يمت الناسك في الحفرة، كما يقول دوستويفسكي، بل استطاع بمشيئة الرب، أن يتغلب على أهوائه التي يوسوس له بها الشيطان، وينجو، وذلك كما ورد في مخطوطات «سِيرَ قديسي» الدير الكييفي- الكهفي (كييفو - بيتشيرسكايا لافرا). (ن).

(133) **اكساكوف (إيفان سيرغييفتش)** (1823-1886): كاتب مقالات ورجل مجتمع روسي. أحد إيديولوجيي السلافوية ورئيس تحرير عدة صحف روسية. دعا في الأربعينيات والخمسينيات إلى إلغاء نظام القنانة، ونظم في عامي 1877-1878 حملة تعمل على تحرير السلاف من النير التركي. (م).

(134) **(زمن الفتنة)**: مصطلح يشير إلى حقبة الاضطرابات والأحداث الغامضة التي جرت في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر في روسيا. وقد نظر بعض المؤرخين إلى أزمة الدولة في روسيا آنذاك على أنها حرب أهلية. وحدثت في تلك الحقبة انتفاضات وتمردات شعبية، واستولى على السلطة خلال فترات معينة أشخاص أدعياء (ديميتري الكذّاب الأول وديميتري الكذّاب الثاني)، وحدثت فيها تدخلات بولندية وسويدية، وتدهور الوضع الاقتصادي في البلاد. وقد أدخل الكتّاب الروس هذا المصطلح حيز الاستعمال في القرن السابع عشر. (ملاحظة: يترجم بعضهم هذا المصطلح إلى العربية بعبارة: زمن الغموض). (م).

(135) **جان جاك روسو** (1712-1778): كاتب وفيلسوف اجتماعي فرنسي. نادى بطيبة الإنسان وبالعودة إلى الطبيعة، وأشار في كتاباته إلى التناقضات التي تعتور التقدم في الحضارة البرجوازية. ورأى في الملكية الخاصة سبباً في اختلال المساواة في المجتمع. له «العقد الاجتماعي» و«إميل» و«الاعترافات» وأعمال فكرية وإبداعية، أثر في الفكر الاجتماعي والأدب الرومنتيكي في العديد من بلدان العالم. (م).

يتضمَن هذا الكتاب خلاصة خبرة غنية، اكتسبها مبدع فذّ خلال مسيرته الحياتية بكل ما فيها من محن قاسية وصدامات عنيفة، وزلّات مخزية، ومواقف نبيلة، وإنجازات إبداعية مبهرة.

استمرّ دوستويفسكي من عام 1876 حتى عام 1881 (مع انقطاع دام عامين انشغل خلالهما بكتابة رواية "الاخوة كارامازوف") بإصدار "يوميات كاتب" في مطبوعة مستقلة، تصدر مرة في الشهر، كقاعدة عامة، في أعداد مفردة، يتراوح حجم كل منها بين ملزمة ونصف وملزمتين (وتتألف الملزمة من ست عشرة صفحة). وقد بيّن الكاتب في الاعلان الذي نشره مسبقاً في صحف بطرسبورغ، أن المطبوعة: "ستكون يوميات بالمعنى الحرفي للكلمة، ستكون تقريراً عن الانطباعات التي تكوّنت لديّ فعلاً في كل شهر، تقريراً عمّا شاهدته وسمعته، وقرأته".

وكان الكاتب يرصد جميع الجوانب الدقيقة في تطوّر "الحياة الحية"، ويتابع بانتباه شديد انعكاس تجلياتها في الصحافة الروسية والأجنبية. ويذكر شاهدو عيان: أن الكاتب كان يستعرض الجرائد والمجلات يومياً "حتى آخر عمود منها"، ويحرص على أن يلتقط من خلال التنوّع الكبير في الوقائع الهامّة والثانوية، وحدتها الداخلية وأسسها الاجتماعية - النفسية، وجوهرها الروحي- الأخلاقي، ومغزاها الفلسفي - التاريخي.

ومن الطريف أن بعض المثقفين الروس المعاصرين لدوستويفسكي، كانوا يرون: أن تجلّي عبقريته في "يومياته" يفوق تجلّيها في "أعماله الإبداعية".

وتأتي الترجمة الراقية الرصينة المتأنية؛ لتضفي على العمل إبداعاً على إبداع. يقول المترجم في مقدّمته:

...وعادت إلى ذاكرتي في تلك اللحظة إجابة أحد الشعراء الروس المعاصرين المشهورين، عندما سأله كاتب سوري، في ندوة أدبية عُقدت في دمشق، عن الأديب الروسي المعاصر الذي يقرأ له الآن، فقال: إنه دوستويفسكي. ورداً على استغراب السائل وتأكيده أنه يقصد بسؤاله الكتّاب المعاصرين بالذات، أجابه الشاعر بثقة: وهل هناك من هو أكثر معاصرةً لنا من دوستويفسكي؟

ISBN 9789933924218

